الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

المجلد الأول

دار
إحياء التراث العربي
بيروت - لبنان

Marfat.com

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

المتوفى – ٦٧١هـ

الجزء الأول

عطیہ

برائے دار العلوم محمدیہ سیالکوٹ

از

برادرم محمد امین صاحب وزیر آبادی ضلع گوجرانوالہ

محرم ۱۴۰۳ ہجری

قصر مقام

العین

ابوظبی

أعادت طبعه بالأوفست
دار إحياء التراث العربي
بيروت

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة الطبعة الثانية

لعلّنا فى غير حاجة إلى تعريف القرّاء بهـذا التفسير العظيم ، بعـد أن عرفوه فى طبعتـه الأولى؛ فأقبلوا عليه إقبالا منقطع النظير . إذ لم يكد يخرج منه جزء حتى تهافت عليه الجمهور، ممن عرفوا فضلَ القرطبي وعلمَه وأدبَه ، ودقّته فى تأويل كتاب الله تعالى ، وعَرْض أقوال الأئمة من جهابذة المحققين، وأُولى البصر بكتاب الله من أعلام المجتهدين .

ولقد رأى القرّاء حين طلع عليهم تفسير القرطبي مبلغ ما بذله مؤلّفه فيـه من جهد كبير ، وعناية فائقة ؛ يدلّان على عُمقه فى البحث ، ومقدرته على فهم كتاب الله ، و إلمامه بأصول علوم الشريعـة وفروعها ، من لغـة وأدب و بلاغة . يتجلّى كل أولئك فى استنباطه الأحكام الشرعية من نصوص الآيات الكريمة ، حتى ليكاد يستغنى به القارئ عن دراسة كتب الفقه ، ثم فى استشهاده بكثير من النصوص الأدبية من لغة العرب شعرها ونثرها ؛ مما يشهد له بطول الباع وسَعة الأفق .

و إن أُخذ عليـه شيء فليس إلا هَنَاتٍ يسيرةً ، لا تنقص من مقـداره ، ولا تغضّ من قيمته؛ فقد ينبو الحسام ، وقد يكبو الجواد .

فمن ذلك أنه خالف أحيانا ما اشترطه على نفسه فى مقدّمة كتابه إذ يقول : « ... وأضرب عن كثير من قصص المفسرين ، وأخبار المؤرّخين ؛ إلا ما لا بُدّ منـه ، ولا غنى عنه للتبيين ... » .

Marfat.com

فليس ممـا لا بُدّ منه أو لا غنى عنه ماينقله عن كعب الأحبار : « أن إبليس تغلغل إلى الحوت الذى على ظهره الأرض كلها، فألقى فى قلبه فقال : هل تدرى ما على ظهرك يا لوثيا[(١)] من الأمم والشجر والدواب والناس والجبال ! لو نفضتّهم ألقيتّهم عن ظهرك أجمع . قال : فهمّ لوثيا بفعل ذلك؛ فبعث الله دابة فدخلت فى منخره، فعجّ إلى الله منها فخرجت[(٢)] ... » .

وليس ممـا لا بُدّ منه : « أن الحية كانت خادم آدم عليه السـلام فى الجنة فخانته بأن مكّنت عدوّ الله من نفسها وأظهرت العـداوة له هناك ؛ فلمـا أُهبطوا تأكّدت العـداوة وجعل رزقها التراب[(٣)] » .

وليس ممـا لا بُدّ منه ما يرويه عن ابن عباس قال : «سألت اليهودُ النبيّ صلى الله عليه وسـلم عن الرعد ما هو ؟ قال : مَلَك من الملائكة معه مخاريق من نار يسـوق بها السحاب حيث شاء الله[(٤)] » .

وليس مما لا بُدّ منه ما ذكره عن كلب أصحاب الكهف والاختلاف فى لونه وفى اسمه[(٥)] . ولا ما يرويه عن الزُّهرى فى قوله تعـالى « جاعلِ الملائكةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ » : أن جبريل عليه السلام قال له : يا محمد لو رأيت إسرافيل إن له لاثنى عشر ألف جناح ، منها جناح بالمشرق ، وجناح بالمغرب ، وإنّ العرش لعلى كاهله، وإنه فى الأحايين ليتضاءل لعظمة الله حتى يعود مثل الوَصْع[(٦)] ... » .

ولا ما ذكره فى قوله تعـالى : « وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ » : أن فوق السماء السابعة ثمانيـة أوعال[(٧)] بين أظلافهنّ وركبهنّ مثل ما بين سماء إلى سمـاء ، وفوق ظهورهنّ العرش[(٨)] » .

---

(١) اسم الحوت .　　(٢) راجع جـ ١ ص ٢٥٧ .　　(٣) جـ ١ ص ٣١٣ .

(٤) جـ ١ ص ٢٢٧　　(٥) راجع جـ ١٠ ص ٣٧٠ .　　(٦) جـ ١٤ ص ٣٢٠ والوصع : عصفور صغير .

(٧) الأوعال : جمع وعل ، وهو التيس الجبلى　　(٨) جـ ١٨ ص ٢٦٧

Marfat.com

إلى غير ذلك من الأمثلة التى ترِد فى مناسبات مختلفة، جارَى فيها من سبقه من المفسرين الذين ينقلون عن الإسرائيليّات ولا يتحرّوْن الدقة فى المعلومات الكونية، خصوصا فى الكلام على خلق السموات والأرض، وتأويل الآيات التى تتعرض للظواهر الطبيعية، أو تشير إلى المسائل العلمية .

وللمؤلف فى ذلك كثير من العذر؛ لأنه — رحمه الله — تابع فيه ثقافة عصره، وما تجرى به ألسنة العلماء فى ذلك الزمان .

وقد رأت الدار — بعد أن تحقّقت حاجة الناس إلى هذا الكتاب، ورغبة الكثير من العلماء فى الأقطار الإسلامية فى ذيوعه — أن تقرر إعادة طبعه تعميما للفائدة .

هذا، وسيرى القارئ أننا حرصنا على أن تكون هذه الطبعة موافقة لسابقتها فى أجزائها وصفحاتها وأرقامها؛ إلا فى تفاوت يسير، يستطيع القارئ أن يدركه فى الصفحة التالية أو السابقة.

كما أننا نبهنا فى هذه الطبعة إلى أمر لم يكن فى سابقتها؛ فعندما يذكر المؤلف عبارة : « على ما يأتى بيانه » نوضّح ذلك فى الهامش، مبيّنين موضعة من الكتاب؛ حتى يسهل على القارئ متابعة الدراسة، وربط الكلام بعضه ببعض، دون جهد أو عناء .

ولا يفوتنى أن أُنوه بفضل حضرات الزملاء الذين اشتركوا معى فى تصحيح هذا الكتاب فى طبعته الأولى بعد جزئه الرابع، وهم السادة : الشيخ إبراهيم اطفيش، والشيخ بشندى خلف الله، والشيخ محمد محمد حسنين .

والله المسئول أن ينفع بهذا التفسير الجليل، وأن يجزى مؤلّفه خير الجزاء، وأن يمين القائمين بنشر التراث الإسلامى من أمثال هذا الكتاب العظيم . وأن يوفّق « الدار » فى تأدية رسالتها حتى تنهض بهذا العبء الكبير، وتقدّم للعالم أجمع خير تراث تركه الأقدمون .

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمد، وعلى آله وصحابته أجمعين ؟

مصححه

أحمد عبد العليم البردونى

١٦ من المحرّم سنة ١٣٧٢ (٦ من أكتوبر سنة ١٩٥٢)

Marfat.com

ترجمة

أبى عبد الله القرطبى

مؤلف هذا التفسير[1]

أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر بن فَرْح (بإسكان الراء وبالحاء المهملة)، الأنصارىّ الخزرجىّ الأندلسىّ القرطبى المفسّر، كان من عباد الله الصالحين، والعلماء العارفين، الورعين الزاهدين فى الدنيا، المشغولين بما يعنيهم من أمور الآخرة. أوقاتُه معمورة ما بين تَوجُّه وعبادة وتصنيف.

مؤلّفاته — جمع فى تفسير القرآن كتابا كبيرا فى اثنى عشر مجلدا، سمّاه كتاب " الجامع لأحكام القرآن، والمبيّن لما تضمّن من السنة وآى الفرقان" وهو من أجل التفاسير وأعظمها نفعا، أسقط منه القصص والتواريخ، وأثبت عوضها أحكام القرآن، واستنباط الأدلّة، وذكر القراءات والإعراب، والناسخ والمنسوخ (وهو هذا التفسير). وله كتاب "الأسنى، فى شرح أسماء الله الحسنى". وكتاب " التّذكار، فى أفضل الأذكار". وضعه على طريقة التبيان للنووىّ، لكن هذا أتمّ منه وأكثر علما. وكتاب "التذكرة، بأمور الآخرة". وكتاب "شرح التقصى". وكتاب " قمع الحرص بالزهد والقناعة، وردّ ذلّ السؤال بالكتب والشفاعة". قال ابن فرحون: لم أقف على تأليف أحسن منه فى بابه. وله " أرجوزة جمع فيها أسماء النبىّ صلى الله عليه وسلم". وله تواليف وتعاليق مفيدة غير هذا. وكان مطّرحا للتكلّف، يمشى بثوب واحد وعلى رأسه طاقية. قال صاحب نفح الطِّيب: إنه من الراحلين من الأندلس.

---

(١) عن الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب (مذهب مالك) لابن فرحون، ونفح الطيب للمقرىّ.

Marfat.com

شـــيوخه — سمع من الشيخ أبى العباس أحمـد بن عمـر القرطبى بعض شرحه "المُفهِم، لمــا أشكل من تلخيص كتاب مُسْلِم" .

وحدّث عن الحافظ أبى علىّ الحسن بن محمد بن محمد البكرى، وحدّث أيضا عن الحافظ أبى الحسن علىّ بن محمد بن على بن حفص اليَحْصِبىّ وغيرهما .

وكان مستقرّا بمنية ٱبن خَصيب، وتُوُفِّىَ ودُفن بها فى ليـلة الاثنين التاسع من شوّال سنة ٦٧١، رحمه الله ورضى عنه .

Marfat.com

فهـرس الجـزء الأول

صفحة

ترجمة أبي عبد الله القرطبي ... ... (و)

خطبة الكتاب، وفيها الكلام على علو شأن المفسرين ١

ذكر سبيل القرطبي في التفسير ٣

باب ذكر جمل من فضائل القرآن والترغيب فيه، وفضل طالبه وقارئه ومستمعه والعامل به... ... ... ٤

باب كيفية التلاوة لكتاب الله تعالى وما يكره منها وما يحرم، وآختلاف الناس في ذلك، وفيه الكلام على تأثير القرآن في رسول الله صلى الله عليه وسلم ١٠

باب تحذير أهل القرآن والعلم من الرياء وغيره، وما ورد في ذلك من الآثار والوعيد ١٧

باب ما ينبغي لصاحب القرآن أن يأخذ نفسه به ولا يغفل عنه علما وعملا، والمراتب التي ينبغي لحامل القرآن أن يبلغها ٢٠

باب ما جاء في إعراب القرآن وتعليمه والحث عليه، وثواب من قرأ القرآن معربا ٢٣

باب ما جاء في فضل تفسير القرآن وأهله ٢٦

باب ما جاء في حامل القرآن، ومن هو، وفيمن عاداه ٢٦

باب ما يلزم قارئ القرآن وحامله من تعظيم القرآن وحرمته، وما يستحب أن يفعله عند ختمه ٢٧

باب ما جاء من الوعيد في تفسير القرآن بالرأى، والجرأة على ذلك، ومراتب المفسرين، وفيه شيء من وجوه التفسير ٣١

باب تبيين الكتاب بالسُّنة، وما جاء في ذلك ٣٧

باب كيفية التعلم والفقه لكتاب الله تعالى وسُنّة نبيّه صلى الله عليه وسلم، وما جاء أنه سُهّل على من تقدّم العمل به دون حفظه ٣٩

Marfat.com

صفحة

باب معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : « إن هـذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منـه » ٤١
فصل فى قول كثير من العلمـاء أن القراءات السبع ليست هى الاحرف السـبعة ... ٤٦
فصل فى ذكر معنى حديث عمر وهشام بن حكيم فى أن القرآن نزل على سبعة أحرف ... ٤٧
باب ذكر جمع القرآن، وسبب كتب عثمان المصاحف و إحراقه ما سـواها ، وذكر من حفظ القرآن من الصحابة رضى الله عنهم فى زمن النبي صلى الله عليه وسـلم ٤٩
فصل فى الردّ على الحلولية والحشوية القائلين بقدم الحروف والأصوات ٥٥
فصل فى طعن الرافضة فى القرآن ٥٦
باب ما جاء فى ترتيب سور القرآن وآياته وشكله ، ونقطه وتحزيبه وتعشيره، وعدد حروفه وأجزائه وكلماته وآيه ٥٩
باب ذكر معنى السورة والآية والحرف... ... ... ٦٥
باب هل ورد فى القرآن كلمات خارجة عن لغات العرب أو لا ٦٨
باب ذكر نكت فى إعجاز القرآن وشرائط المعجزة وحقيقتها ٦٩
فصـل فى أن المعجزات على ضربين ٧٢
باب فى التنبيه على أحاديث وضعت فى فضل سور القرآن وغيره ٧٨
باب فيما جاء من الحجة فى الردّ على من طعن فى القرآن ، وخالف مصحف عثمان بالزيادة والنقصان ٨٠
القول فى الاستعاذة، وفيها اثنتا عشرة مسألة ٨٦
الكلام على البسملة ، وفيها سبع وعشرون مسألة ٩١

تفســـير ســـورة الفـاتحة

وفيها أربعة أبواب :

الباب الأوّل — فى فضائلها وأسمائها ومعانيها، وفيه سبع مسائل ١٠٨
الباب الثانى — فى نزولها وأحكامها، وفيه عشرون مسألة ١١٤

Marfat.com

صفحة

الباب الثالث — فى التأمين ، وفيه ثمان مسائل ١٢٧

الباب الرابع — فيما تضمنته الفاتحة من المعانى والقراءات والإعراب وفضل الحامدين ، وفيه ست وثلاثون مسألة ١٣١

ســـورة البقـــرة

الكلام فى نزولها وفضلها ، وما جاء فيها ١٥٢

تفسير قوله تعالى : « الم . ذلك الكتاب ... » وبيان الأقوال الواردة فى أوائل السور المفتتحة بالحروف ١٥٤

الكلام على هداية القرآن، وفيه ست مسائل ١٥٩

تفسير قوله تعالى : « الذين يؤمنون بالغيب ... » الآية . وفيه ست وعشرون مسألة : الكلام على الإيمان بالغيب ، وعن الصلاة و إقامتها وشرائطها ١٦٢

بحث فى الرزق و إنفاقه ١٧٧

تفسير قوله تعالى : « إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم ... » الآية بيان حال الكافرين ومآلهم ، ومعنى الكفر ١٨٣

تفسير قوله تعالى : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم » الآية . وفيه عشر مسائل: بيان الختم على القلوب وعلى السمع وعلى البصر ١٨٥

ذكر أقوال العلماء فى إمساك النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل المنافقين مع علمه بنفاقهم... ... ... ١٩٨

ذكر ما قيل فى خلق السموات والأرض ، وما ورد فى ذلك من الآيات ، والاختلاف فيها... ... ... ٢٥٤

بحث فى تنصيب الخليفة ، والكلام على الإمامة العظمى ٢٦٤

بحث فى تسبيح الملائكة ٢٧٦

بحث فى كيفية خلق آدم عليه السلام واشتقاق اسمه ٢٧٩

ذكر اختلاف العلماء فى معنى الأسماء التى علمها آدم... ... ... ٢٨٢

Marfat.com

صفحة

بحث فى أيما أفضل : الملائكة أم بنو آدم ؟ ٢٨٩

بحث فى السجود، ومعنى سجود الملائكة ٢٩٢

بحث فى إبليس لعنه الله ٢٩٤

الكلام على الجنة وسكنى آدم وحواء فيها، وفيه ثلاث عشرة مسألة ٢٩٨

ذكر الخلاف فى الشجرة، وكيف أكلا منها ٣٠٥

مطلب فى الأنبياء ، وهل وقع منهم صلوات الله عليهم صغائر من الذنوب يؤاخذون بها، ويعاتبون عليها أم لا ؟ ٣٠٨

بحث فى الأمر بقتل الحيات، والكلام فى تشكيل الجن بها ، وإسلام الجن والتبليغ إليهم، وفيه بعض أحوالهم وشىء من أخبارهم... ... ... ٣١٥

بحث فى الكلمات التى تلقاها آدم ٣٢٣

بحث فى أخذ الأجرة على تعلم القرآن والعلم ، واختلاف العلماء فى هذا، وفى أخذ الأجرة على الصلاة ٣٣٥

بحث فى الزكاة ٣٤٣

بحث فى معنى قوله : « واركعوا مع الراكعين » وجملة من أحكام الصلاة... ... ... ٣٤٤

بحث فى اختلاف العلماء فى كيفية إنجاء بنى إسرائيل... ... ... ٣٨٩

بحث فى يوم عاشوراء ، وهل هو اليوم التاسع من المحرم أو العاشر؟ ٣٩١

الكلام على الأربعين يوما، وما وقع فيها من بنى إسرائيل ٣٩٥

بحث فى معنى الشكر ٣٩٧

الكلام على المنّ والسَّلْوَى ٤٠٦

بحث فى الاستسقاء ٤١٧

طلب اليهود استبدال المنّ والسلوى بالبقل ، وذكر الأصناف التى طلبوها ، ونزولهم مصر... ... ... ٤٢٢

بحث فى أكل البصل والثوم، واختلاف العلماء فيه... ... ... ٤٢٦

Marfat.com

صفحة

الكلام على المِلل، وفيه ثمـان مسائل ٤٣٢

القــول فى سبب رفع الطُّور ٤٣٦

اعتداء اليهود فى السبت ومسخ الله إياهم ٤٣٩

ذكر آختلاف العلماء فى الممسوخ هل ينسل أم لا؟ ٤٤٠

القول فى أمر الله اليهود بذبح البقرة ، والبحث فى شأنها ، وما ورد فى ذلك ٤٤٤

بحث فى معنى قوله : « وإذ قتلتم نفسا » وسبب القتل ٤٥٥

بحث فى القسامة وأحكامها ٤٥٧

موجب القسامة ٤٥٩

بحث فى شرع من قبلنا هل هو شرع لنا أم لا؟... ... ... ٤٦٢

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين، وصلّى الله على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليما .

قال الشيخ الفقيه الإمامُ العالمُ العاملُ العلامةُ المحدّثُ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر بن فَرْح الأنصارى الخزرجى الأندلسىّ ثم القرطبى، رضى الله عنه :

الحمد لله المبتدئ بحمد نفسه قبل أن يَحْمَده حامد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الربُّ الصّمَد الواحد، الحىّ القيوم الذى لا يموت؛ ذو الجلال والإكرام، والمواهبِ العظام؛ والمتكلمُ بالقرآن، والخالقُ الإنسان، والمنعمُ عليه بالإيمان، والمرسلُ رسولَه بالبيان، محمدًا صلّى الله عليه وسلم ما آختلف الْمَلَوَان(1)، وتعاقب الجديدان؛ أرسله بكتابه المبين، الفارقِ بين الشك واليقين؛ الذى أعجزت الفصحاءَ معارضتُه، وأعيت الألبّاءَ مناقضتُه، وأخرست البلغاءَ مشاكلتُه؛ فلا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظَهيرا. جعل أمثاله عِبَراً لمن تدبّرها، وأوامره هُدًى لمن آستبصرها؛ وشرح فيه واجباتِ الأحكام، وفرّق فيه بين الحلال والحرام، وكرر فيه المواعظ والقصص للأفهام، وضرب فيه الأمثال، وقصّ فيه غيب الأخبار؛ فقال تعالى: «مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِنْ شَىْءٍ(2)». خاطب به أولياءه ففهموا، وبيّن لهم فيه مراده فعلموا. فقَرَأَةُ القرآنِ حَمَلَةُ سِرّ الله المكنون، وحَفَظَةُ علمه المخزون، وخلفاءُ أنبيائه وأمناؤه، وهم أهله وخاصّته وخيرته وأصفياؤه؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن لله أهلين منّا(3)" قالوا: يارسول الله، مَن هم؟ قال: "هم أهلُ القرآن أهلُ الله وخاصّته" أخرجه آبن ماجه فى سننه، وأبو بكر البَزّار فى مُسنده. فما أَحَقَّ مَن عَلِم كتاب الله أن يزدجر بنواهيه، ويتذكّر

---

(1) الملوان: الليل والنهار. (2) آية ٣٨ سورة الأنعام. (3) فى سنن آبن ماجه: "من الناس".

Marfat.com

ما شُرح له فيه، ويخشى الله ويتقيه، ويراقبه ويستحييه . فإنه قد حُمِّل أعباء الرسل، وصار شهيدا في القيامة على من خالف من أهل الملل؛قال الله تعالى: « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ » (١) . ألا وإن الحجة على من علمه فأغفله، أوكد منها على من قصر عنه وجهله . ومن أوتى علم القرآن فلم ينتفع، وزجرته نواهيه فلم يرتدع ؛ وآرتكب من المآثم قبيحا، ومن الجرائم فضوحا ؛ كان القرآن حجة عليه، وخصما لديه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " القرآن حجة لك أو عليك " خرّجه مسلم . فالواجب على من خصّه الله بحفظ كتابه أن يتلوه حق تلاوته، ويتدبر حقائق عبارته ؛ ويتفهم عجائبه، ويتبين غرائبه ؛ قال الله تعالى : « كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ » (٢) . وقال الله تعالى : « أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا » (٣) . جعلنا الله ممن يرعاه حق رعايته، ويتدبره حق تدبره، ويقوم بقسطه، ويوفى بشرطه، ولا يلتمس الهدى فى غيره؛ وهدانا لأعلامه الظاهرة، وأحكامه القاطعة الباهرة، وجمع لنا به خير الدنيا والآخرة . فإنه أهل التقوى وأهل المغفرة . ثم جعل إلى رسوله صلى الله عليه وسلم بيان ما كان منه مجملا، وتفسير ما كان منه مُشكلا، وتحقيق ما كان منه محتملا ؛ ليكون له مع تبليغ الرسالة ظهور الاختصاص به، ومنزلة التفويض إليه ؛ قال الله تعالى : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ » (٤) . ثم جعل إلى العلماء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم آستنباط ما نبّه على معانيه، وأشار إلى أصوله ليتوصلوا بالاجتهاد فيه إلى علم المراد؛فيمتازوا بذلك عن غيرهم،ويختصوا بثواب اجتهادهم ؛ قال الله تعالى : « يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ » (٥) . فصار الكتاب أصلا والسنة له بيانا،واستنباط العلماء له إيضاحا وتبيانا . فالحمد لله الذى جعل صدورنا أوعيةَ كتابه، وآذاننا مواردَ سنن نبيه ؛ وهممنا مصروفةً إلى تعلمهما والبحث عن معانيهما وغرائبهما ؛ طالبين بذلك رضا رب العالمين، ومتدرّجين به إلى علم الملة والدِّين .

(وبعد) فلما كان كتاب الله هو الكفيل بجميع علوم الشرع، الذى آستقل بالسنة والفرض، ونزل به أمين السماء إلى أمين الأرض، رأيتُ أن أشتغل به مدى عمرى، وأستفرغ

(١) آية ١٤٣ سورة البقرة . (٢) آية ٢٩ سورة ص . (٣) آية ٢٤ سورة القتال .
(٤) آية ٤٤ سورة النحل . (٥) آية ١١ سورة المجادلة .

Marfat.com

فيه مُنَّتى[1] ، بأن أكتب فيه تعليقا وجيزا ، يتضمن نُكتًا من التفسير واللغات ، والإعراب والقراءات ، والرد على أهل الزيغ والضلالات ، وأحاديثَ كثيرةً شاهدةً لما نذكره من الأحكام ونزول الآيات ، جامعًا بين معانيهما ، ومُبيِّنًا ما أشكل منهما ، بأقاويل السلف ، ومَن تبعهم من الخَلَف . وعملته تذكرةً لنفسى ، وذخيرةً ليوم رَمْسى ، وعملاً صالحا بعد موتى . قال الله تعالى : « يُنَبَّأُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ »[2] . وقال تعالى : « عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ »[3] . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث صدقةٍ جاريةٍ أو علمٍ ينتفع به أو ولدٍ صالحٍ يدعو له" .

وشرطى فى هذا الكتاب : إضافة الأقوال الى قائليها ، والأحاديث الى مصنّفيها ؛ فإنه يقال : من بركة العلم أن يضاف القول الى قائله . وكثيرا ما يجىء الحديث فى كتب الفقه والتفسير مُبهَمًا ، لا يعرف مَن أخرجه إلا من اطّلع على كتب الحديث ، فيبقى مَن لا خبرة له بذلك حائرا ، لا يعرف الصحيح من السقيم ، ومعرفة ذلك علم جسيم ، فلا يقبل منه الاحتجاج به ، ولا الاستدلال حتى يضيفه الى مَن خرّجه من الأئمة الأعلام ، والثقات المشاهير من علماء الإسلام . ونحن نُشير الى جُمَل من ذلك فى هذا الكتاب ، والله الموفق للصواب . وأضرب عن كثير من قَصص المفسرين ، وأخبار المؤرخين ، إلا ما لا بُدّ منه ولا غِنًى عنه للتبيين ؛ واعتضت من ذلك تبيين آى الأحكام ، بمسائلَ تُسفِر عن معناها ، وتُرشد الطالب الى مقتضاها ؛ فضمّنت كل آية تتضمن حُكما أو حكمين فما زاد ، مسائلَ نبيّن فيها ما تحتوى عليه من أسباب النزول والتفسير الغريب والحكم ؛ فإن لم تتضمن حُكما ذكرت ما فيها من التفسير والتأويل ، هكذا الى آخر الكتاب .

وسميته بـ(الجامع لأحكام القرآن ، والمبيِّن لما تضمّنه من السُّنّة وآى الفرقان) ، جعله الله خالصا لوجهه ، وأن ينفعنى به ووالدىَّ ومن أراده بمنّه ؛ إنه سميع الدعاء ، قريب مجيب ؛ آمين .

---

(١) المنة (بالضم) : القوة . (٢) آية ١٣ سورة القيامة . (٣) آية ٥ سورة الانفطار .

Marfat.com

باب ذكر جُمَل من فضائل القرآن، والترغيب فيه، وفضل طالبه وقارئه ومستمعه والعـامل به

اعلم أن هذا الباب واسع كبير، ألّف فيه العلماء كتباً كثيرة، نذكر من ذلك نُكتًا تدلّ على فضله، وما أعدّ الله لأهله، إذا أخلصوا الطلب لوجهه، وعملوا به . فأوّل ذلك أن يستشعر المؤمن من فضل القرآن أنه كلام رب العالمين، غير مخلوق، كلامُ مَن ليس كمثله شيء، وصفةُ من ليس له شبيه ولا ندّ، فهو من نور ذاته جلّ وعزّ؛ وأن القراءة أصوات القُرّاء ونغماتهم، وهي أكسابهم التي يؤمرون بها في حالٍ إيجاباً في بعض العبادات، وندْباً في كثير من الأوقات؛ ويُزْجرون عنها إذا أُجْنِبُوا.[1] ويثابون عليها ويعاقبون على تركها . وهذا مما أجمع عليه المسلمون أهل الحق، ونطقت به الآثار، ودلّ عليها المستفيض من الأخبار؛ ولا يتعلق الثواب والعقاب إلا بما هو من أكساب العباد، على ما يأتي بيانه . ولولا أنه — سبحانه — جعل في قلوب عباده من القوة على حمله ما جعله؛ ليتدبروه وليعتبروا به، وليتذكّروا ما فيه من طاعته وعبادته، وأداء حقوقه وفرائضه، لضعفت ولاندكّت بثقله، أو لتضعضعت له وأنَّى تطيقه؛ وهو يقول — تعالى جدّه — وقوله الحق : « لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا القُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ»[2] . فأين قوة القلوب من قوة الجبال ! ولكنّ الله تعالى رزق عباده من القوة على حمله ما شاء أن يرزقهم؛ فضلاً منه ورحمة .

وأما ما جاء من الآثار في هـذا الباب — فأوّل ذلك ما خرّجه الترمذيّ عن أبي سعيد قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم : " يقول الربّ تبارك وتعـالى مَن شَغله القرآنُ وذِكْري عن مسألتي أعطيته أفضلَ ما أعطى السائلين — قال : — وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه " . قال : هـذا حديث حسن غريب . وروى أبو محمـد الدارميّ السَّـمَرْقَنْديّ في مسنده عن عبد الله قال : السبع الطُّوَل مثل التوراة ، والمِئون مثل الإنجيل ، والمثاني مثل الزَّبور ، وسائر القرآن بعدُ فضـلٌ . وأسند عن الحارث

(١) في نسخة : ويؤجرون عنها إذا أجنبوا . (٢) آية ٢١ سورة الحشر .

عن عليّ رضي الله عنه وخرّجه الترمذي قال : سمعت[1] رسـول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ستكون فِتَنٌ كقطع الليل المظلم . قلت يارســول الله وما المخرج منها ؟ قال : كتابُ الله تبارك وتعالى فيه نَبأ من قبلكم وخبرُ ما بعدكم وحُكم ما بينكم هو الفَصْل ليس بالهَزْل مَن تركه مِن جبّار قصمه الله ومَن ٱبتغى الهُدَى فى غيره أضلّه الله هو حبل الله المتين ونوره المبين والذِّكر الحكيم وهو الصراط المستقيم وهو الذى لا تَزِيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا تتشعّب معه الآراء ولا يشبع منه العلماء ولا يَملّه الأتقياء ولا يَخلَق على كثرة الرّد ولا تنقضى عجائبه وهو الذى لم تنته الجنّ إذ سمعته أن قالوا إنا سمعنا قرآنًا عجبًا مَن علِم عِلمه سَبَق ومن قال به صدق ومَن حكم به عدل ومَن عمل به أُجر ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم خذها إليك يا أعور[2] " .

« الحارث » رماه الشعبيّ بالكذب وليس بشيء ، ولم يَبِنْ من الحارث كذب ، وإنما نُقم عليه إفراطه فى حب عليّ وتفضيله له على غيره . ومن ها هنا — والله أعلم — كذّبه الشعبيّ ؛ لأن الشعبيّ يذهب إلى تفضيل أبى بكر ، وإلى أنه أوّل من أسـلم . قال أبو عمر بن عبد البر : وأظنّ الشعبيّ عوقب لقوله فى الحارث الهَمْدانىّ : حدّثنى الحارث وكان أحد الكذّابين .

وأسند أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار بن محمد الأنبارى النحويّ اللغويّ فى كتاب « الرّد على من خالف مصحف عثمان » عن عبـد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : " إن هــذا القرآن مأدُبة الله فتعلموا من مأدبته ما ٱستطعتم إن هذا القرآن حبل الله وهو النور المبين والشفاء النافع عصمةٌ مَن تمســك به ونجاةٌ مَن ٱتبعه لا يعوجّ فيقوّم ولا يزيغ فيستعتب ولا تنقضى عجائبه ولا يخلَق عن كثرة الرّد فٱتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات أما إنى لا أقول الٓمٓ حَرْفٌ ولا ألِفَينّ أحدكم واضعا إحدى رجليه يدع أن يقرأ سورة البقرة فإن الشيطان يفرّ من البيت الذى تقرأ فيــه سورة البقرة وإن أصْفَر البيوت من الخير البيتُ الصّفِر من كتاب الله " . وقال أبو عبيد فى غريبه عن عبدالله قال : إن هذا القرآن مأدبة

(١) ورد هــذا الحديث فى صحيح الترمذى (ج ٢ ص ١٤٩ طبـع بولاق) مع اختــلاف فى بعض كلمـاته وزيادة ونقص . (٢) قوله : يا أعور . لقب الحارث بن عبد الله المذكور فى سند هذا الحديث .

Marfat.com

الله فمن دخل فيه فهو آمن . قال : وتأويل الحديث أنه مَثَلٌ ، شَبَّه القرآن بصنيع صنعه الله عزّ وجل للناس ، لهم فيه خير ومنافع ، ثم دعاهم إليـه . يقال : مأدُبة ومأدَبة ؛ فمن قال : مأدُبة ، أراد الصنيع يصنعه الإنسان فيدعو إليـه الناس . ومن قال : مأدَبة ، فإنه يذهب به إلى الأدب ، يجعله مَفْعَلة من الأدب ، ويحتج بحديثه الآخر : " إن هـذا القرآن مأدَبة الله عزّ وجلّ فتعلّموا من مأدبتـه " . وكان الأحمر يجعلهما لغتين بمعنًى واحد ، ولم أسمع أحدا يقول هذا غيره . [قال :] والتفسير الأول أعجب إلىّ .

وروى البخارىّ عن عثمان بن عفّان عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه " . وروى مسلم عن أبى موسى قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم : " مَثَلُ المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الأُتْرُجّة ريحُها طيّب وطعمها طيّب ومَثَلُ المؤمن الذى لا يقرأ القرآن مثل التمرة لا ريح لها وطعمها حلو ومَثَلُ المنافق الذى يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مُرّ ومَثَلُ المنافق الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحَنْظَلة لا ريح لها وطعمها مُر " . وفى رواية : " مثـل الفاجر " بدل " المنافق " . وقال البخارىّ : " مثـل المؤمن الذى يقرأ القرآن كمثل الأُتْرُجّة طعمها طيّب وريحها طيّب ومَثَل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل التمرة ... " وذكر الحديث .

وذكر أبو بكر الأنبارى : وقد أخبرنا أحمد بن يحيى الحلوانىّ حدّثنا يحيى بن عبد الحميد حدّثنا هشيم ، ح[1] . وأنبأنا إدريس حدّثنا خلف حدّثنا هشيم عن العوّام بن حَوْشب : أن أبا عبد الرحمن

(١) جرت العادة بالاقتصار على الرمز فى حدّثنـا وأخبرنا ، واستمر الاصطلاح عليه من قديم الأعصار الى زماننا ، واشتهر ذلك بحيث لا يخفى ؛ فيكتبون من حدّثنا «ثنا» وهى الثاء والنون والألف ، وربما حذفوا الثاء . ويكتبون من أخبرنا «أنا» ولا تحسن زيادة الباء قبل «نا» ؛ واذا كان للحديث إسنادان أو أكثر كتبوا عند الانتقال من إسناد الى إسناد «ح» وهى حاء مهملة ؛ والمختار أنها مأخوذة من التحوّل ، لتحوّله من إسناد الى إسناد ، وأنه يقول القارئ اذا انتهى اليها : «ح» ويستمر فى قراءة ما بعدها . وقيل : إنها من حال بين الشيئين اذا حجز ، لكونها حالت بين الاسنادين وأنه لا يلفظ عند الانتهاء إليها بشىء ، بل وليست من الرواية . وقيل : إنها رمز الى قوله : «الحديث» . وأن أهل المغرب كلهم يقولون اذا وصـلوا إليها : الحديث . ثم هـذه الحاء توجد فى كتب المتأخرين كثيرا ، وهى كثيرة فى صحيح مسلم ، قليلة فى صحيح البخارى . (عن مقدمة النووى على صحيح مسلم) .

Marfat.com

السُّلَمى كان إذا ختم عليه الخاتِمُ القرآنَ أجلسه بين يديه ووضع يده على رأسه وقال له : يا هـذا ، اتق الله ! فما أعرف أحدا خيرا منك إن عَمِلتَ بالذى عَلِمت . وروى الدارمى عن وهب الذمارِى قال : من آتاه الله القرآن فقام به آناء الليل وآناء النهار، وعمل بما فيه ومات على الطاعة ، بعثه الله يوم القيامة مع السَّفَرة والأحكام . قال سعيد[(1)]: السَّفَرة الملائكة ، والأحكامُ[(2)] الأنبياء .

وروى مسلم عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الماهر بالقرآن مع السَّفَرة الكرام البَرَرَة والذى يقرأ القرآن و يَتَتَعْتَع فيه وهو عليه شاقٌّ له أجران". التتعتع : التردّد فى الكلام عِيًّا وصعوبة ؛ و إنما كان له أجران من حيث التلاوة ومن حيث المشقة ؛ ودرجات الماهر فوق ذلك كله، لأنه قد كان القرآن متعتعا عليه ، ثم ترقّى عن ذلك إلى أن شبّه بالملائكة . والله أعلم . وروى الترمذى عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : "من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول الٓمٓ حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف " . قال : حديث حسن صحيح غريب من هـذا الوجه ، وقد رُوِىَ موقوفًا . وروى مسلم عن عُقبة بن عامر قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن فى الصُّفّة ؛ فقال : " أيكم يُحِبّ أن يغدو كل يوم إلى بُطْحانَ أو إلى العَقِيق فيأتىَ منه بناقتين كَوْماوَيْن[(3)] فى غير إثم ولا قطع رَحِم " فقلنا : يا رسول الله ، كلنا نحب ذلك ؛ قال : "أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيعلَمُ[(4)] أو يقرأ آيتين من كتاب الله عز وجل خيرٌ له من ناقتين وثلاثٌ خيرٌ له من ثلاثٍ وأربعٌ خيرٌ له من أربع ومن أعدادهن من الإبل".

وعن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَن نَفّس عن مسلم كُرْبَة من كُرَب الدنيا نَفّس الله عنه كُرْبة من كُرَب يوم القيامة ومَن يَسّر على مُعْسر يَسّر الله عليه

---

(١) سعيد هذا، هو سعيد بن عبد العزيز بن أبى يحيى التنوخى ، أحد رجال سند هذا الحديث . وفى الأصول : «سعد» وهو تحريف . (٢) هكذا فى نسخ الأصل وسنن الدارمى . ولعل الغرض وذوو الأحكام، أو هو جمع حكيم كشريف وأشراف أو حكم كبطل وأبطال . (٣) «كوماوين» تثنية كوماء؛ أى مشرفة السنام عاليته .

(٤) قوله : فيعلم . ضبط بنصب الفعل ورفعه و بتشديد اللام من التعليم، و بتخفيفها من العلم .

Marfat.com

فى الدنيا والآخرة ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة والله فى عَوْن العبد ما كان العبد فى عَوْن أخيه ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علْمًا سَهّل الله له طريقًا إلى الجنة وما آجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله و يتدارسونه بينهـم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفّتهم الملائكة وذَكَرهم الله فيمن عنده ومن أبطأ به عمله لم يُسرع به نَسَبه ".

وروى أبو داود والنّسائى والدارمىّ والترمذى عن عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والمُسِرّ بالقرآن كالمُسِرّ بالصدقة". قال الترمذىّ : حديث حسن غريب. وروى الترمذىّ عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلّم قال : " يجىء القــرآن[(1)] يوم القيامة فيقول يارَبّ حُلّه فيلبس تاج الكرامة ثم يقول يارب زده فيلبس حلة الكرامة ثم يقـول يارب آرض عنه فيرضى عنـه فيقال له آقرأ وآرق و يزاد بكل آية حسنة " . قال : حديث صحيح . وروى أبو داود عن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صـلى الله عليه وسلم : " يقال لصاحب القرآن آقرأ وآرتق ورتّل كما كنت ترتّل فى الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها ". وأخرجه آبن ماجه فى سننه عن أبى سعيد الخُدْرىّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يقال لصاحب القرآن إذا دخل الجنـة آقرأ وآصعد فيقرأ و يصعد بكل آية درجة حتى يقرأ آخر شىء معه " .

وأسـند أبو بكر الأنبارى عن أبى أمامة الحمصى قال رسول الله صـلى الله عليـه وسلم : "من أعطى ثلث القرآن فقد أعطى ثلث النبوة ومن أعطى ثلثى القرآن فقد أعطى ثلثى النبوة ومن قرأ القرآن كله فقد أعطى النبوة كلها غير أنه لا يوحى إليه و يقال له يوم القيامة آقرأ وآرق فيقرأ آية و يصـعد درجة حتى ينجز ما معه من القـرآن ثم يقال له آقبض فيقبض ثم يقال له أتدرى ما فى يديك فإذا فى يده اليمنى الخلد وفى اليسرى النعيم " .

حدّثنا إدريس بن خلف حدّثنا إسماعيل بن عياش عن تمام عن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " من أخذ ثلث القرآن وعمل به فقد أخذ أمر ثلث النبوة ومن أخذ

(١) الذى فى نسخ الأصل : « يجىء صاحب القرآن » . والتصويب عن سنن الترمذى .

نصف القرآن وعمــل به فقد أخذ أمر نصف النبوّة ومن أخذ القرآن كلّه فقــد أخذ النبوّة كلها". قال : وحدّثنا محمد بن يحيى المَرْوَزِيّ أنبأنا محمد وهو آبن سعدان حدّثنا الحسين بن محمد عن حفص عن كثير بن زاذان عن عاصم بن ضَمْرة عن عليّ رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من قرأ القرآن وتلاه وحفظه أدخله الله الجنة وشفّعه فى عشرة من أهل بيته كلٌّ قد وَجَبت له النــار". وقالت أم الدَّرْدَاء : دخلت على عائشة رضى الله عنها فقلت لهــا : ما فَضْلُ مَن قرأ القرآن على مَن لم يقرأه ممن دخل الجنة ؟ فقالت عائشة رضى الله عنها : إن عدد آى القرآن على عدد دَرَج الجنــة ، فليس أحد دخل الجنة أفضلَ ممن قرأ القرآن . ذكره أبو محمد مكيّ . وقال آبن عباس : من قرأ القرآن وآتبع ما فيه هــداه الله من الضلالة ، ووقاه يوم القيامة سوء الحساب ؛ وذلك بأن الله تبارك وتعالى يقول : « فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ »(١) . قال آبن عباس : فضمِن الله لمن آتبع القرآن ألا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة . ذكره مكيّ أيضا . وقال الليث : يقال ما الرحمة إلى أحد بأسرع منها إلى مستمع القرآن ؛ لقول الله جل ذكره : « وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْآنُ فَٱسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ »(٢) . و « لَعَلّ » من الله واجبة .

وفى مُسْنَد أبى داود الطَّيَالسيّ — وهو أوّل مُسْنَد أُلِّفَ فى الإسلام(٣) — عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من قام بعشر آيات لم يُكتَب من الغافلين ومن قام بمائة آية كُتب من القانتــين ومن قام بألف آية كُتب من المقنْطِرين" . والآثار فى معنى هذا الباب كثيرة ، وفيما ذكرنا كفاية ، والله الموفق للهداية .

---

(١) آية ١٢٣ سورة طه . (٢) آية ٢٠٤ سورة الأعراف .

(٣) قوله : « وهو أوّل مسند ... » الخ . قال صاحب كشف الظنون : « والذى حمل قائل هــذا القول تقــدم عصره على أعصار من صنف المسانيــد ، وظن أنه هو الذى صنفه وليس كذلك ، فانه ليس من تصنيف أبى داود ، وإنمــا بعض الحفاظ الخراسانيين جمع فيه ما رواه يوسف بن حبيب خاصــة عن أبى داود . ولأبى داود من الأحاديث التى لم تدخل هــذا المسند قدره أو أكثر ؛ كما ذكره البقاعى فى حاشية الألفية » . وقد توفى الطيالسي سنة ٢٠٤ هـ .

Marfat.com

باب كيفية التلاوة لكتاب الله تعالى، ومايكره منها ومايحرم، واختلاف النـاس فى ذلك

روى البُخَارِىّ عن قتادة قال: سألت أنَسًا عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: كان يَمُدّ مَدًّا [إذا] قرأ بسم الله الرحمن الرحيم ، يمدّ بسم الله، ويمدّ بالرحمن، ويمدّ بالرحيم .

وروى الترمذىّ عن أم سلمة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقَطِّع قراءته يقول: « الحمدُ للهِ رَبِّ العالَمِين » ثم يقف « الرَّحْمَنِ الرَّحِيم » ثم يقف ، وكان يقرؤها « مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ » . قال : حديث غريب . وأخرجه أبو داود بنحوه .

ورُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "أحسن النـاس صَوْتًا مَن إذا قرأ رأيته يخشى الله تعالى". وروى عن زياد النُّمَيْرِىّ أنه جاء مع القرّاء إلى أنس بن مالك فقيل له: آقرأ. فرفع صوته وطرّب، وكان رفيع الصوت، فكشف أنسٌ عن وجهه، وكان على وجهه خرقة سوداء فقال : يا هذا، ما هكذا كانوا يفعلون ! وكان إذا رأى شيئا ينكره كشف الخرقة عن وجهه . وروى عن قيس بن عُبَاد أنه قال : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرهون رفع الصـوت عنـد الذكر . وممن روى عنه كراهة رفع الصوت عنـد قراءة القرآن سعيد بن المُسَيِّب وسعيد بن جُبير والقاسم بن محمد والحسن وآبن سِيرِين والنَّخَعِىّ وغيرهم ، وكرهه مالك بن أنس وأحمد بن حنبل ؛ كلهم كره رفع الصوت بالقرآن والتطريب فيه. روى عن سعيد بن المسيب أنه سمع عمر بن عبد العزيز يؤمّ النـاس فطرّب فى قراءته؛ فأرسل إليه سـعيد يقول : أصلحك الله ! إن الأئمـة لا تقرأ هكذا . فترك عمر التطريب بعـدُ .

وروى عن القاسم بن محمد : أن رجلا قرأ فى مسجد النبىّ صلى الله عليه وسلم فطرّب؛ فأنكر ذلك القاسم وقال يقول الله عز وجل : « وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ . لَا يَأْتِيهِ البَـاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ » الآية .

وروى عن مالك أنه سئل عن النَّبْر فى قراءة القرآن فى الصلاة ؛ فأنكر ذلك وكرهه كراهة شـديدة ، وأنكر رفع الصوت به . وروى آبن القاسم عنه أنه سـئل عن الألحان فى الصلاة

---

(١) رأى هنا بمعنى علم ، وفى بعض النسخ : « رُئِيته » بالبناء للمجهول ؛ ومعناه الظن . (٢) آية ٤١ ، ٤٢ سورة فصلت .

فقال : لا يعجبنى ، وقال : إنما هو غناء يتغنّون به ليأخذوا عليه الدراهم . وأجازت طائفة رفع الصوت بالقرآن والتّطريب به؛ وذلك لأنه إذا حَسّن الصوتَ به كان أوقع فى النفوس وأسمع فى القلوب ، وآحتجّوا بقوله عليه السلام : "زَيِّنُوا القرآن بأصواتكم" رواه البَرَاء بن عازب . أخرجه أبو داود والنَّسائى . وبقوله عليه السلام : "ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن" أخرجه مسلم . وبقول أبى موسى للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم : لو أعلم أنك تستمع لقراءتى لحبّرته لك تحبيرا . وبما رواه عبد الله بن مُغَفَّل قال : قرأ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عامَ الفَتْح فى مسيرله سورة «الفتح» على راحلته فرجّع فى قراءته . وممن ذهب إلى هذا أبو حنيفة وأصحابه والشافعيّ وآبن المبارك والنَّضْر بن شُمَيْل ، وهو آختيار أبى جعفر الطبريّ وأبى الحسن بن بَطّال والقاضى أبى بكر بن العربى وغيرهم .

قلت : القول الأوّل أصح لما ذكرناه ويأتى . وأما ما آحتجّوا به من الحديث الأوّل فليس على ظاهره ، وإنما هو من باب المقلوب ؛ أى زَيِّنُوا أصواتكم بالقرآن . قال الخطّابيّ : وكذا فسره غير واحد من أئمة الحديث : زَيِّنُوا أصواتكم بالقرآن ؛ وقالوا هو من باب المقلوب؛ كما قالوا : عَرَضْتُ الحَوْضَ على الناقة ، وإنما هو عرضت الناقة على الحوض . قال : ورواه مَعْمَر عن منصور عن طلحة ؛ فقدّم الأصوات على القرآن، وهو الصحيح .

قال الخطابيّ : ورواه طلحة عن عبد الرحمن بن عَوْسَجة عن البَرَاء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "زينوا القرآن بأصواتكم". أى الْهَجُوا بقراءته واشغلوا به أصواتكم واتخذوه شعارا وزينة؛ وقيل : معناه الحض على قراءة القرآن والدُّءوب عليه . وقد روى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : "زيّنوا أصواتكم بالقرآن". وروى عن عمر أنه قال : "حَسِّنُوا أصواتكم بالقرآن" .

قلت : وإلى هذا المعنى يرجع قولُه عليه السلام : "ليس منّا مَن لم يتغنّ بالقرآن" أى ليس منا من لم يحسّن صوته بالقرآن؛ كذلك تأوّله عبد الله بن أبى مليكة . قال عبد الجبار ابن الورد : سمعت آبن أبى مليكة يقول : قال عبد الله بن أبى يزيد : مرّ بنا أبو لُبَابة فآتبعناه

Marfat.com

حتى دخل بيته، فإذا رجل رَثّ الهيئة، فسمعته يقول : سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : "ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن" . قال فقلت لابن أبي مليكة : يا أبا محمد، أرأيت إذا لم يكن حَسَنَ الصوت ؟ قال : يحسّنه ما استطاع . ذكره أبو داود، وإليه يرجع أيضا قول أبي موسى للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم : إنّي لو علمت أنك تستمع لقراءتي لحبّرت صوتي القرآن، وزيّنته ورتّلته . وهذا يدل [على] أنه كان يَهُذّ[1] في قراءته مع حُسْن الصوت الذي جُبل عليه . والتحبير : التزيين والتحسين؛ فلو علم أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كان يسمعه لمدّ في قراءته ورتّلها؛ كما كان يقرأ على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم؛ فيكون ذلك زيادة في حسن صوته بالقراءة . ومعاذ الله أن يتأول على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يقول : إن القرآن يُزيَّن بالأصوات أو بغيرها؛ فمن تأوّل هـذا فقد واقع أمرا عظيما أن يُحْوِج القرآن إلى من يزيّنه، وهو النور والضياء والزين الأعلى لمن ألبس بهجته واستنار بضيائه . وقد قيـل : إن الأمر بالتزيين اكتساب القراءات وتزيينها بأصواتنا وتقدير ذلك، أي زينـوا القراءة بأصواتكم؛ فيكون القرآن بمعنى القراءة، كما قال تعـالى : « وَقُرْآنَ الْفَجْرِ[2] » أي قراءة الفجر، وقوله : « فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ[3] » أي قراءته . وكما جاء في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال : إن في البحر شياطين مسجونة أوثقها سليمان عليه السلام، ويوشك أن تخرج فتقرأ على الناس قرآنا؛ أي قراءة . وقال الشاعر[4] في عثمان رضي الله عنه :

ضَحَّوْا بأَشْمَطَ[5] عُنوانُ السجودِ به • يقطّع الليـلَ تسبيحًا وقـرآنا

أي قراءة . فيكون معناه على هذا التأويل صحيحا إلا أن يخرج القراءة التي هي التلاوة عن حدّها — على ما نبيّنه — فيمتنع . وقد قيل : إن معنى يتغنّى به، يستغني به من الاستغناء الذي هو ضدّ الافتقار، لا من الغناء؛ يقال : تغنّيت وتغانيت بمعنى استغنيت . وفي الصحاح : تغنى

---

(١) الهذ والهذذ : سرعة القطع وسرعة القراءة . (٢) آية ٧٨ سورة الإسراء .

(٣) آية ١٨ سورة القيامة . (٤) هو حسان بن ثابت رضي الله عنه .

(٥) الشمط بالتحريك : بياض شعر الرأس يخالطه سواده . وقيل : الشمط في الرجل شيب اللحية .

Marfat.com

الرجل بمعنى آستغنى ، وأغناه الله . وتغانوا أى آستغنى بعضهم عن بعض . قال المغيرة بن حَبْناء التّميمى :

كلانا غَنِىٌّ عن أخيه حياتَه * ونحن إذا متْنا أشدُّ تغانيا

وإلى هذا التأويل ذهب سفيان بن عُيَيْنة ووَكيع بن الجَرّاح، ورواه سفيان عن سعد بن أبى وَقّاص . وقد رُوى عن سفيان أيضا وجه آخر، ذكره إسحاق بن رَاهْوَيْه، أى يستغنى به عما سواه من الأحاديث . وإلى هذا التأويل ذهب البخارى محمد بن إسماعيل لإتباعه الترجمة بقوله تعالى : «أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ»[1] . والمراد الآستغناء بالقرآن عن علم أخبار الأمم؛ قاله أهل التأويل . وقيل : إن معنى يتغنّى به، يتحزّن به؛ أى يظهر على قارئه الحزن الذى هو ضدّ السرور عند قراءته وتلاوته، وليس من الغنية؛ لأنه لو كان من الغنية لقال : يتغانى به ، ولم يقل يتغنّى به . ذهب إلى هذا جماعة من العلماء : منهم الإمام أبو محمد آبن حِبّان البُسْتِى، وآحتجوا بما رواه مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير عن أبيه قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى ولصدره أَزِيز كأزِيز المِرْجَل من البكاء . الأزيز (بزايين) : صوت الرعد وغَلَيان القِدْر . قالوا : ففى هذا الخبر بيان واضح على أن المراد بالحديث التحزّن، وعَضَدُوا هذا أيضا بما رواه الأئمة عن عبد الله قال قال النبى صلّى الله عليه وسلّم : "آقرأ علىّ" فقرأت عليه سورة « النساء » حتى إذا بلغت « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا »[2] فنظرت إليه فإذا عيناه تدمعان . فهذه أربع تأويلات ، ليس فيها ما يدل على القراءة بالألحان والترجيع فيها . وقال أبو سعيد بن الأعرابى فى قوله صلى الله عليه وسلم : "ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن" قال : كانت العرب تُولَع بالغناء والنشيد فى أكثر أقوالها، فلما نزل القرآن أحبوا أن يكون القرآن هِجِّيراهم[3] مكان الغناء؛ فقال : "ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن" .

التأويل الخامس — ما تأوله مَن آستدلّ به على الترجيع والتطريب؛ فذكر عمر بن شَبّة قال : ذكرت لأبى عاصم النبيل تأويل آبن عُيَيْنة فى قوله : " يتغنّ " يستغنى؛ فقال :

(١) آية ٥١ سورة العنكبوت . (٢) آية ٤١ سورة النساء . (٣) هجيراهم : دأبهم وعادتهم .

Marfat.com

لم يصنع آبن عُيَيْنَة شيئا . وسُئل الشافعي عن تأويل آبن عُيينة فقال : نحن أعلم بهذا ، لو أراد النبي صلى الله عليه وسلم الآستغناء لقال : من لم يستغن ، ولكن لما قال " يتغنّ " علمنا أنه أراد التغنّي . قال الطبري : المعروف عندنا في كلام العرب أن التغنّي إنما هو الغناء الذي هو حسن الصوت بالترجيع . وقال الشاعر :

تَغنّ بالشِّعر مهما كنتَ قائلَه * إن الغنــاء بهذا الشعر مِضمارُ

قال : وأما آدّعاء الزاعم أن تغنّيت بمعنى آستغنيت فليس في كلام العرب وأشعارها ، ولا نعلم أحدا من أهل العلم قاله ؛ وأما احتجاجه بقول الأعشى :

وكنتُ آمرأً زَمَنًا بالعِـراق * عفيفَ المُنـاخ طَويلَ التَّغنْ

وزعم أنه أراد الآستغناء فإنه غلط منه ، وإنما عنى الأعشى في هـذا الموضع الإقامة ، من قول العرب : غنيَ فلان بمكان كذا أي أقام ؛ ومنه قوله تعالى : « كأن لَمْ يَغْنَوْا فيها »(١) وأما آستشهاده بقوله :

* ونحن إذا متْنا أشدُّ تغانيًا *

فإنه إغفال منه ؛ وذلك أن التغاني تفاعل من نفسين إذا آستغنى كل واحد منهما عن صاحبه ؛ كما يقال : تضارب الرجلان ، إذا ضرب كل واحد منهما صاحبه . ومن قال هذا في فعل الآثنين لم يجز أن يقول مثله في الواحد ؛ فغير جائز أن يقال : تغانى زيد وتضارب عمرو ؛ وكذلك غير جائز أن يقال : تغنّى بمعنى آستغنى .

قلت : ما آدّعاه الطبري من أنه لم يَرِد في كلام العرب تغنى بمعنى آستغنى ، فقد ذكره الجوهري كما ذكرنا ، وذكره الهَرَوي أيضا . وأما قوله : إن صيغة فاعل إنما تكون من آثنين فقد جاءت من واحد في مواضع كثيرة ؛ منها قول آبن عمر : وأنا يومئذ قد ناهزت الآحتلام . وتقول العرب : طارقتُ النعلَ وعاقبت اللصّ وداويْتُ العَليل ، وهو كثير ؛ فيكون تغانى منها . وإذا آحتمل قوله عليه الصلاة والسلام : " يتغنّ " الغناء والآستغناء فليس حمله على أحدهما بأولى من الآخر ، بل حمله على الآستغناء أوْلَى لو لم يكن لنا تأويل غيره ، لأنه مروي عن

(١) آية ٩٢ سورة الأعراف .

Marfat.com

صحابي كبير كما ذكر سفيان . وقد قال ابن وهب في حق سفيان : ما رأيت أعلم بتأويل الأحاديث من سفيان بن عُيَيْنة ، ومعلوم أنه رأى الشافعي وعاصره .

وتأويل سادس — وهو ما جاء من الزيادة في صحيح مسلم عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ما أذِن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنّى بالقرآن يجهر به "[1] . قال الطبري : ولو كان كما قال ابن عُيَيْنة لم يكن لذكر حسن الصوت والجهر به معنًى . قلنا قوله : «يجهر به» لا يخلو أن يكون من قول النبي صلى الله عليه وسلم ، أو من قول أبي هريرة أو غيره ، فإن كان الأوّل وفيه بُعْدٌ ، فهو دليل على عدم التطريب والترجيع ، لأنه لم يقل : يطرب به ، وإنما قال : يجهر به ، أي يسمع نفسه ومن يليه ؛ بدليل قوله عليه السلام للذي سمعه وقد رفع صوته بالتهليل : " أيها الناس ارْبعوا[2] على أنفسكم فإنكم لستم تدعون أصمّ ولا غائبا ... " الحديث ، وسيأتي . وكذلك إن كان من صحابي أو غيره فلا حجة فيه على ما راموه ؛ وقد اختار هذا التأويل بعض علمائنا فقال : وهذا أشبه ، لأن العرب تسمّي كل من رفع صوته ووالى به غانيا ، وفعله ذلك غِناء وإن لم يلحنه بتلحين الغناء . قال : وعلى هذا فسره الصحابي ، وهو أعلم بالمقال وأقعد بالحال .

وقد احتج أبو الحسن بن بطال لمذهب الشافعي فقال : وقد رفع الإشكال في هذه المسألة ما رواه ابن أبي شيبة قال حدّثنا زيد بن الحُبَاب قال حدّثنا موسى بن عليّ بن رباح عن أبيه عن عقبة بن عامر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تعلّموا القرآن وغَنّوا به واكتبوه فوالذي نفسي بيده لهو أشد تَفَصِّيًا[3] من المخاض من العُقُل " . قال علماؤنا : وهذا الحديث وإن صح سنده فيردّه ما يعلم على القطع والبتات من أن قراءة القرآن بلغتنا متواترة عن كافة المشايخ ، جِيلًا فجيلا إلى العصر الكريم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس فيها تلحين

---

(١) قوله : ما أذن ... الخ . قال المناوي : يعني ما رضي الله من المسموعات شيئا هو أرضى عنده ولا أحبّ إليه من قول نبيّ يتغنى بالقرآن ، أي يجهر به ويحسن صوته بالقراءة بخشوع وترقيق وتحزن ، وأراد بالقرآن ما يقرأ من الكتب المنزلة

(٢) قوله : « اربعوا » أي كفّوا وارفقوا .

(٣) التفصي : التفلّت والخروج .

ولا تطريب، مع كثرة المتعمقين فى مخارج الحروف وفى المدّ والإدغام والإظهار وغير ذلك من كيفيـة القراءات . ثم إن فى الترجيع والتطريب همز ما ليس بمهموز ومدّ ما ليس بممدود ؛ فترجع الألف الواحدة ألفات والواو الواحدة واوات والشبهة الواحدة شبهات[1]، فيؤدّى ذلك إلى زيادة فى القرآن وذلك ممنوع ، وإن وافق ذلك موضع نبر وهمز صيّروها نبرات وهمزات ، والنبرة حيثما وقعت من الحروف فإنما هى همزة واحدة لا غير؛ إما ممدودة و إمّا مقصورة . فإن قيل : فقد روى عبد الله بن مُغَفَّل قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسيره له سورة « الفتح » على راحلته فرجّع فى قراءته ، وذكره البخارىّ وقال فى صـفة الترجيع : آءآءآء ، ثلاث مرات .

قلنا : ذلك محمول على إشباع المدّ فى موضعه ، ويحتمل أن يكون حكاية صوته عند هزّ الراحلة ، كما يعترى رافع صوته إذا كان راكبا من آنضغاط صوته وتقطيعه لأجل هزّ المركوب ؛ و إذا آحتمل هذا فلا حجة فيه. وقد خرّج أبو محمد عبد الغنىّ بن سعيد الحافظ من حديث قتادة عن عبد الرحمن بن أبى بكرعن أبيه قال : كانت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم المدّ ليس فيها ترجيع. وروى آبن جُرَيج عن عطاء عن آبن عباس قال : كان لرسول الله صل الله عليه وسلم مؤذن يُطرّب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الأذان سهل سمح فإذا كان أذانك سمحا سهلا و إلا فلا تؤذّن" . أخرجه الدّارَقُطْنىّ فى سُنَنه . فإذا كان النبىّ صلى الله عليه وسلم قد منع ذلك فى الأذان فأحْرى ألّا يجوّزه فى القرآن الذى حفظه الرحمن ، فقال وقوله الحق : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ »[2] . وقال تعالى : « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ »[3] .

قلت : وهذا الخلاف إنما هو ما لم يفهم معنى القرآن بترديد الأصوات وكثرة الترجيعات ، فإن زاد الأمر على ذلك حتى لا يفهم معناه فذلك حرام باتفاق ؛ كما يفعل القرّاء بالدّيار المصرية الذين يقرءون أمام الملوك والجنائز ، ويأخذون على ذلك الأجور والجوائز ؛ ضلّ سعْيهم ، وخاب

(١) سبق كر المؤلف فى باب (ذكر معنى السورة والآية) الخ : أن الشبهات هى الحروف ؛ ولم أر هذا التعبير لغيره .
(٢) آية ٩ سورة الحجر . (٣) آية ٤٢ سورة فصلت .

عمالهم ، فيستحلّون بذلك تغيير كتاب الله ، ويهوّنون على أنفسهم الاجتراء على الله بأن يزيدوا في تنزيله ما ليس فيه ؛ جهلا بدينهم ، ومُرُوقًا عن سُنّة نبيّهم ، ورَفْضًا لسِيَر الصالحين فيه من سَلَفهم ، ونزوعًا إلى ما يُزيّن لهم الشيطان من أعمالهم ؛ وهم يَحْسَبُون أنهم يُحْسِنون صُنْعًا ؛ فهم في غَيّهم يترددون ، وبكتاب الله يتلاعبون ، فإنّا لله وإنا إليه راجعون ! لكن قد أخبر الصادق أن ذلك يكون ، فكان كما أخبر صلّى الله عليه وسلّم .

ذكر الإمام الحافظ أبو الحسين رَزِين وأبو عبد الله الترمذيّ الحكيم في «نوادر الأصول» من حديث حُذَيفة أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : "اقرءوا القرآن بلُحُون العرب وأصواتها وإياكم ولُحُون أهل العشق ولحون أهل الكتابين وسيجيء بعدي قوم يرجّعون بالقرآن ترجيع الغناء والنَّوْح لا يجاوز حناجرهم مفتونة قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم". اللحون : جمع لَحْن ، وهو التطريب وترجيع الصوت وتحسينه بالقراءة والشعر والغناء .

قال علماؤنا : ويشبه أن يكون هذا الذي يفعله قرّاء زماننا بين يدي الوعاظ وفي المجالس من اللحون الأعجمية التي يقرءون بها ، ما نهى عنه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم . والترجيع في القراءة : ترديد الحروف كقراءة النصارى . والترتيل في القراءة هو التأنّي فيها والتمهّل وتبيين الحروف والحركات تشبيهًا بالثّغر المرتّل ، وهو المشبَّه بنَوْر الأقحوان ، وهو المطلوب في قراءة القرآن ؛ قال الله تعالى : «وَرَتِّلِ القرآن ترتيلا»(١) . وسُئلت أمّ سَلَمة عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلاته ؛ فقالت : مالكم وصلاته ! [كان يصلّي ثم ينام قدر ما صَلّى ، ثم يصلّي قدر ما نام ، ثم ينام قدر ما صلّى حتى يُصبح ،](٢) ثم نعتت قراءته ، فإذا هي تنعت قراءة مفسرة حَرْفًا حرفا . أخرجه النسائي وأبو داود والترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب .

باب تحذير أهل القرآن والعلم من الرياء وغيره

قال الله تعالى : « وَٱعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا »(٣) . وقال تعالى : « فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا »(٤) . روى مسلم عن أبي هريرة

(١) آية ٤ سورة المزمل . (٢) الزيادة عن سنن الترمذي وأبي داود .
(٣) آية ٣٦ سورة النساء . (٤) آية ١١٠ سورة الكهف .

Marfat.com

قال : سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : " إنّ أوّل الناس يُقْضَى عليه يوم القيامة رجلٌ آستُشْهِد فأُتِىَ به فعرّفه نِعَمَه فعرفها قال فما عملت فيها قال قاتلتُ فيك حتى آستشهدت قال كذبتَ ولكنّك قاتلتَ لأن يقال جرىء فقد قيل ثم أُمِر به فسُحِب على وجهه حتى أُلقِى فى النار ورجلٌ تعلّم العلم وعلّمه وقرأ القرآن فأُتِىَ به فعرّفه نِعمه فعرفها قال فما عملتَ فيها قال تعلّمت العلم وعلّمتُه وقرأتُ فيك القرآن قال كذبتَ ولكنّك تعلمتَ العلم ليقال عالم وقرأتَ القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل ثم أُمِر به فسُحِب على وجهه حتى أُلْقِىَ فى النار ورجلٌ وَسّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كلّه فأُتِىَ به فعرّفه نِعَمه فعرفها قال فما عملتَ فيها قال ما تركتُ من سبيل تُحِبّ أن يُنفق فيها إلا أنفقتُ فيها لك قال كذبتَ ولكنّك فعلتَ ليقال هو جواد فقد قيل ثم أُمِر به فسُحِب على وجهه ثم أُلقِى فى النار ".وقال الترمذى فى هذا الحديث: ثم ضرب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على رُكْبَتِى فقال : " يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أوّل خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة " . أبو هريرة آسمه عبد الله، وقيل: عبد الرحمن. وقال : كُنِّيتُ أبا هريرة لأنى حملت هِرّة فى كُمّى ، فرآنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " ما هذه "؟ قلت : هِرّة ، فقال : " يا أبا هريرة " . قال ابن عبد البر : وهذا الحديث فيمن لم يُرِد بعمله وعلمه وجهَ الله تعالى . وروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من طلب العلم لغير الله أو أراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار " .

وخرّج آبن المبارك فى رقائقه عن العباس بن عبد المطلب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يظهر هذا الدّين حتى يجاوز البحار وحتى تخاض البحار بالخيل فى سبيل الله تبارك وتعالى ثم يأتى أقوام يقرءون القرآن فإذا قرءوه قالوا مَن أقرأ منا مَن أعلم منا " ثم التفت إلى أصحابه فقال : " هل ترون فى أولئكم من خير " قالوا : لا . قال : " أولئك منكم وأولئك من هذه الأمة وأولئك هم وقود النار " . وروى أبو داود والترمذىّ عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من تعلّم علما مما يبتغى به وجه الله لا يتعلّمه إلا ليصيب به عَرَضًا من الدنيا لم يجد عَرْفَ الجنة يوم القيامة " . يعنى ريحها . قال الترمذىّ : حديث

Marfat.com

حسن . وروى عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "تعوذوا بالله من جُبّ الحَزَن" قالوا : يارسول الله وما جب الحَزَن ؟ قال : "وادٍ في جهنم تتعوذ منه جهنم في كل يوم مائة مرة" قيل : يارسول الله ومن يدخله ؟ قال : "القرّاء المراءون بأعمالهم" قال : هذا حديث غريب . وفي كتاب أسد بن موسى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إن في جهنم لواديًا إن جهنم لتتعوذ من شرّ ذلك الوادي كل يوم سبع مرّات و إن في ذلك الوادي لَجُبًّا إن جهنم وذلك الوادي ليتعوذان بالله مِن شرّ ذلك الجُبّ و إن في الجُبّ لحيّةً و إن جهنم والوادي والجبّ ليتعوذون بالله من شر تلك الحية سبع مرات أعدها الله للأشقياء من حَمَلة القرآن الذين يعصون الله". فيجب على حامل القرآن وطالب العلم أن يتقي الله في نفسه ويُخْلِص العمل لله ؛ فإن كان تقدّم له شيء مما يكره فليبادر التوبة والإنابة ، وليبتدئ الإخلاص في الطلب وعمله . فالذي يلزم حامل القرآن من التحفظ أكثر مما يلزم غيره ، كما أن له من الأجر ماليس لغيره . روى الترمذي عن أبي الدّرْداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أنزل الله في بعض الكتب — أو أَوْحى — إلى بعض الأنبياء قُلْ للذين يتفقّهون لغير الدِّين ويتعلمون لغير العمل و يطلبون الدنيا بعمل الآخرة يلبسون للناس مُسُوكَ[1] الكِبَاش وقلوبهم كقلوب الذئاب ألسنتهم أحْلَى من العسل وقلوبهم أمَرّ من الصبر إياي يخادعون و بي يستهزئون لأُتيحَنّ لهم فتنةً تذَر الحليم فيهم حَيْرَان" .

وخرّج الطبري في كتاب آداب النفوس : حدّثنا أبو كُرَيب محمد بن العلاء حدّثنا المُحَاربيّ عن عمرو بن عامر البَجَليّ عن ابن صَدَقة عن رجل من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم أو مَن حدّثه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تخادع الله فإنه من يخادع الله يخدعه الله ونَفْسَه يخدع لو يَشْعُر" . قالوا : يارسول الله ، وكيف يخادع الله ؟ قال : "تعمل بما أمرك الله به وتطلب به غيره واتقوا الرياء فإنه الشرك و إن المُرَائي يُدعَى يوم القيامة على رءوس الأشهاد بأربعة أسماء ينسب إليها يا كافر يا خاسر يا غادر يا فاجر ضَلّ عَمَلُك و بَطَل

(١) المسوك (جمع مسك ، بفتح ثم سكون) : الجلد .

Marfat.com

أجرك فلا خلاق لك اليوم فالتمس أجرك ممن كنت تعمل له يامخادع ". وروى عَلْقَمة عن عبد الله بن مسعود قال : كيف أنتم ! إذا لَبِستكم فتنةٌ يَرْبُو فيها الصغير، ويَهْرَم الكبير، وتُتَّخذ سُنّة مُبْتَدَعة يجرى عليها النـاس فإذا غُيِّر منها شيء قيل : قد غُيِّرت السُّنة . قيل : متى ذلك يا أبا عبـد الرحمن ؟ قال : إذا كثُر قرّاؤكم، وقلّ فقهاؤكم، وكَثُر أمراؤكم، وقلّ أمناؤكم، وٱلْتُمِست الدنيا بعمل الآخرة، وتُفُقِّه لغير الدِّين. وقال سفيان بن عُيَيْنَة : بلغنا عن ٱبن عباس أنه قال : لو أن حمـلة القرآن أخذوه بحقه وما ينبغى لأحبهـم الله، ولكن طلبوا به الدنيـا فأبغضهم الله، وهانوا على النـاس . ورُوى عن أبى جعفر محمد بن علىّ فى قول الله تعالى : «فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ»(١) قال : قوم وصفوا الحق والعدل بألسنتهم، وخالفوه إلى غيره . وسيأتى لهذا البـاب مزيد بيان فى أثناء الكتاب إن شاء الله تعالى .

باب ما ينبغى لصاحب القرآن أن يأخذ نفسه به ولا يغفل عنه

فأول ذلك أن يُخلص فى طلبه لله جلّ وعزّ كما ذكرنا، وأن يأخذ نفســه بقراءة القرآن فى ليله ونهاره، فى الصلاة أو فى غير الصلاة لئلا ينساه . روى مسلم عن ٱبن عمر أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : " إنما مَثَلُ صاحبِ القرآن كَمَثَل صاحب الإبل المعقّلة إن عاهد عليها أمسكها وإن أطلقها ذهبت وإذا قام صاحب القرآن فقرأه بالليل والنهـار ذَكَره وإذا لم يقم به نَسِيَه ". وينبغى له أن يكون لله حامدا، ولنعمه شاكرا، وله ذاكرا، وعليه متوكلا، وبه مستعينا، وإليه راغبا، وبه معتصما، وللموت ذاكرا، وله مستعدّا . وينبغى له أن يكون خائفا من ذنبه، راجياً عَفْوَ ربه، ويكون الخوف فى صحته أغلب عليه، إذ لا يَعلم بما يُختَم له، ويكون الرجاء عند حضور أجله أقوى فى نفسه، لحسنِ الظن بالله، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا يموتن أحدكم إلا وهو يُحسن بالله الظن" . أى أنه يرحمه ويغفر له . وينبغى له أن يكون عالما بأهل زمانه، متحفّظا من سلطانه، ساعياً فى خلاص نفسه، ونجاة مُهْجَته، مقدّما بين يديه مايقدر عليه من عَرَض دنياه، مجاهدا لنفسه فى ذلك ما ٱستطاع . وينبغى له أن يكون أهمّ أموره عنده الوَرَع فى دينه، وٱستعمال تقوى الله ومراقبته فيما أمره به ونهاه عنه .

(١) آية ٩٤ سورة الشعراء .

Marfat.com

وقال ٱبن مسعود : ينبغي لقارئ القرآن أن يُعرف بليله إذا الناس نائمون، و بنهاره إذا الناس مستيقظون ، وببكائه إذا الناس يضحكون، و بصمته إذا النــاس يخوضــون، و بخضوعه إذا الناس يختالون، و بحزنه إذا الناس يفرحون . وقال عبد الله بن عمرو : لا ينبغي لحامل القرآن أن يخوض مع من يخوض، ولا يجهل مع من يجهل، ولكن يعفو و يصفح لحق القرآن؛ لأن في جوفه كلام الله تعــالى . و ينبغي له أن يأخذ نفسه بالتّصاون عن طُرق الشّبهات ، و يقل الضحك والكلام في مجالس القرآن وغيرها بما لا فائدة فيه، و يأخذ نفسه بالحلم والوقار . و ينبغي له أن يتواضع للفقراء، ويتجنّب التّكبّر والإعجاب، و يتجافى عن الدنيا وأبنائها إن خاف على نفسه الفتنة، و يترك الجدال والمراء، و يأخذ نفسه بالرفق والأدب . و ينبغي له أن يكون ممن يؤمَن شرّه، و يُرْجَى خيره ويُسلم من ضرّه، وألا يسمع ممن نَمّ عنــده؛ و يصاحب مَن يعاونه على الخير ويدلّه على الصدق ومكارم الأخلاق، ويَزِينه ولا يَشِينه، و ينبغي له أن يتعلم أحكام القرآن ، فيفهم عن الله مراده وما فرض عليه، فينتفع بما يقرأ و يعمل بما يتلو؛ فمــا أقبح لحامل القرآن أن يتــلو فرائضه وأحكامه عن ظهر قلب وهو لا يفهم ما يتــلو، فكيف يعمل بمــا لا يفهم معناه؟ وما أقبح أن يُسأل عن فقه ما يتلوه ولا يدريه؛ فمــا مَثَل من هذه حالته إلّا كَمَثل الحمــار يحمل أسفارا . و ينبغي له أن يعرف المكيّ من المَدَنِيّ ليفرق بذلك بين ما خاطب الله به عبــاده في أوّل الإســلام ، وما ندبهم إليه في آخر الإســلام ، وما ٱفترض الله في أوّل الإسلام، وما زاد عليه من الفرائض في آخره . فالمدنيّ هو الناسخ للمكيّ في أكثر القرآن، ولا يمكن أن ينسخ المكيُّ المَــدَنِيَّ؛ لأن المنسوخ هو المتقدّم في النزول قبل النــاسخ له . ومن كماله أن يعرف الإعراب والغريب، فذلك مما يسهّل عليه معرفة ما يقرأ ، ويزيل عنه الشــك فيما يتلو . وقــد قال أبو جعفر الطبريّ سمعت الجَرْميّ يقول : أنا منذ ثلاثين ســنة أُفتِي الناس في الفقه من كتاب سيبويه . قال محمد بن يزيد : وذلك أن أبا عمر الجَرْميّ كان صاحب حديث، فلما علم كتاب سيبويه تفقه في الحديث، إذ كان كتاب سيبويه يتعلم منه النظر والتفسير . ثم ينظر في السنن المأثورة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم،

Marfat.com

فيها يصـل الطالب إلى مراد الله عزّ وجل فى كتابه وهى تفتح له أحكام القرآن فتحاً ؛ وقد قال الضحاك فى قوله تعـالى : « وَلَٰكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ »(١) . قال : حق على كل من تعلّم القرآن أن يكون فقيها .

وذكر ابن أبى الحوارى قال : أتينا فُضيل بن عِياض سـنة خمس وثمانين ومائة ونحن جماعة ، فوقفنا على الباب فلم يأذن لنا بالدخول ؛ فقـال بعض القوم : إن كان خارجاً لشئ فسيخرج لتلاوة القرآن ، فأمرنا قارئا فقرأ فاطّلع علينا من كُوّة ؛ فقلنا : السـلام عليك ورحمة الله ؛ فقـال : وعليكم السلام ؛ فقلنا : كيف أنت يا أبا علىّ ، وكيف حالك ؟ فقال : أنا من الله فى عافية ومنكم فى أذًى ، و إن ما أنتم فيـه حَدَثٌ فى الإسـلام ، فإنا لله و إنا إليه راجعون ! ما هكذا كنا نطلب العـلم ، ولكنا كنا نأتى المَشْيخة فلا نرى أنفسنا أهـلا للجلوس معهم ، فنجلس دونهم ونسترق السمع ، فإذا مرّ الحديث سألناهم إعادته وقيدناه ، وأنتم تطلبون العـلم بالجهل ، وقد ضيعتم كتاب الله ، ولو طلبتم كتاب الله لوجدتم فيه شفاء لمـا تريدون ؛ قال : قلنا قد تعلمنا القرآن ؛ قال : إن فى تعلّمكم القرآن شغلا لأعماركم وأعمار أولادكم ؛ قلنا : كيف يا أبا علىّ ؟ قال : لن تعلموا القرآن حتى تعرفوا إعرابه ، ومُحكمه من مُتشابهه ، وناسخه من منسوخه ؛ إذا عرفتم ذلك استغنيتم عن كلام فُضَيْل وابن عُيينة ، ، ثم قال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم «يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ . قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ»(٢) .

قلت : فإذا حصلت هذه المراتب لقارئ القرآن كان ماهرًا بالقرآن ، وعالمًا بالفُرقان ؛ وهو قريب على مَن قرّبه عليه ، ولا ينتفع بشىء مما ذكرنا حتى يُخلص النية فيه لله جل ذكره عند طلبه أو بعد طلبه كما تقدّم . فقد يبتدئ الطالب للعلم يريد به المباهاة والشرف فى الدنيا ، فلا يزال به فهم العلم حتى يتبيّن أنه على خطأ فى اعتقاده فيتوب من ذلك ويخلص النية لله تعالى فينتفع بذلك ويحسن حاله . قال الحسن : كنا نطلب العلم للدنيا فجرّنا إلى الآخرة . وقاله سفيان الثّورى . وقال حبيب بن أبى ثابت : طلبنا هذا الأمر وليس لنا فيه نية ثم جاءت النية بعد .

(١) آية ٧٩ سورة آل عمران . (٢) آيتا ٥٧ ، ٥٨ سورة يونس .

Marfat.com

باب ما جاء فى إعراب القرآن وتعليمه والحثّ عليه . وثواب من قرأ القرآن مُعْرِباً

قال أبو بكر بن الأنبارى : جاء عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه وتابعيهم رضوان الله عليهم — من تفضيل إعراب القرآن ، والحَضّ على تعليمه ، وذمّ اللحن وكراهيته — ما وجب به على قرّاء القرآن أن يأخذوا أنفسهم بالاجتهاد فى تعلمه .

من ذلك ما حدّثنا يحيى بن سليمان الضّبيّ قال حدّثنا محمد — يعنى ابن سعيد — قال حدّثنا أبو معاوية عن عبد الله بن سعيد المَقْبُرِىّ عن أبيه عن جدّه عن أبى هريرة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه" . حدّثنى أبى قال حدّثنا إبراهيم ابن الهَيْثَم قال حدّثنا آدم — يعنى ابن أبى إياس — قال حدّثنا أبو الطيب المَرْوَزِىّ قال حدّثنا عبد العزيز بن أبى روّاد عن نافع عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من قرأ القرآن فلم يُعْرِبه وُكِّل به مَلَك يكتب له كما أنزل بكل حرف عشر حسنات فإن أعرب بعضه وُكّل به مَلَكان يكتبان له بكل حرف عشرين حسنة فإن أعربه وُكّل به أربعة أملاك يكتبون له بكل حرف سبعين حسنة" . وروى جُوَيْبِر عن الضحاك قال قال عبد الله ابن مسعود : جوّدوا القرآن وزيّنوه بأحسن الأصوات، وأعربوه فإنه عربىّ، والله يحب أن يُعْرَب به . وعن مجاهد عن ابن عمر قال : أعربوا القرآن . وعن محمد بن عبد الرحمن ابن زيد قال قال أبو بكر وعمر رضى الله عنهما : لَبَعْضُ إعراب القرآن أحبّ إلينا من حفظ حروفه . وعن الشعبىّ قال قال عمر رحمه الله : من قرأ القرآن فأعربه كان له عند الله أجر شهيد . وقال مكحول: بلغنى أن من قرأ بإعراب كان له من الأجر ضعفان ممن قرأ بغير إعراب . وروى ابن جُرَيْج عن عطاء عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أحبّوا العرب لثلاث لأنى عربىّ والقرآن عربىّ وكلام أهل الجنة عربى". وروى سفيان عن أبى حمزة قال : قيل للحسن فى قوم يتعلمون العربية قال : أَحْسَنُوا، يتعلّمون لغة نبيّهم صلى الله عليه وسلم . وقيل للحسن : إن لنا إماماً يَلحن، قال : أخّروه .

Marfat.com

وعن ابن أبى مليكة قال : قدم أعرابى فى زمان عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : من يُقرئنى مما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم؟ قال : فأقرأه رجل «براءة» ؛ فقال: «إن الله برىء من المشركين ورسوله» . بالجر، فقال الأعرابى : أوَقد برئ الله من رسوله ؟ فإن يكن الله برئ من رسوله فأنا أبرأ منـه ؛ فبلغ عمر مقالة الأعرابى فدعاه فقـال : يا أعرابى أتبرأ من رسول الله صلى الله عليـه وسلم ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، إنى قدمت المدينة ولا علم لى بالقرآن ، فسألت من يُقرئنى، فأقرأنى هذا سورة «براءة» ، فقال : «إن الله برىء من المشركين ورسوله» ، فقلت : أوَ قد برئ الله من رسوله ، إن يكن الله برئ من رسوله فأنا أبرأ منه ؛ فقال عمر : ليس هكذا يا أعرابى ؛ قال : فكيف هى يا أمير المؤمنين؟ قال : «إن الله برىء من المشركين ورسولُه» فقال الأعرابى : وأنا والله أبرأ مما برئ الله ورسوله منه ؛ فأمر عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ألّا يُقرئ الناس إلا عالم باللغة ، وأمر أبا الاسود (١) فوضع النحو .

وعن علىّ بن الجَعْد قال سمعت شُعبة يقول : مَثَـلُ صاحب الحديث الذى لا يعرف العربية مَثَلُ الحمار عليه مِخلاة لا عَلَف فيها . وقال حماد بن سَلَمة : من طلب الحديث ولم يتعلم النحو — أو قال العربية — فهو كمثل الحمار تُعلَّق عليه مِخلاة ليس فيها شعير . قال ابن عطية : إعراب القرآن أصل فى الشريعة ؛ لأن بذلك تقوم معانيه التى هى الشرع .

قال ابن الأنبارى : وجاء عن أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم وتابعيهم رضوان الله عليهم ، من الاحتجاج على غريب القرآن ومُشْكله باللغة والشعر ما بيّن صحة مذهب النحويين فى ذلك ، وأوضح فساد مذهب من أنكر ذلك عليهم . من ذلك ما حدّثنا عُبيد بن عبد الواحد بن شريك البزاز قال حدّثنا ابن أبى مريم قال : أنبأنا ابن فَرّوخ قال أخبرنى أسامة قال أخبرنى عكرمة أن ابن عباس قال : إذا سألتمونى عن غريب القرآن فالتمسوه فى الشعر، فإن الشعر ديوان العرب . وحدّثنا إدريس بن عبد الكريم قال حدّثنا خلف قال حدّثنا حماد بن زيد عن علىّ بن زيد بن جُدعان قال سمعت سعيد بن جُبير و يوسف بن مِهْران يقولان : سمعنا ابن عباس يُسأل عن الشىء بالقرآن ؛ فيقول فيه هكذا وهكذا ، أما سمعتم الشاعر يقول كذا وكذا . وعن عكرمة

(١) يجوز أن يكون أمر أبى الأسود بوضع النحو تكرر من عمر ومن على .

عن ابن عباس ، وسأله رجل عن قول الله جلّ وعزّ : « وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ » (١) قال : لا تلبس ثيابك على غَدْر ؛ وتمثّل بقول غَيْلان الثقفيّ :

فإنى بحمد الله لا ثوبَ غادرٍ * لبستُ ولا من سَوْءةٍ أتقنع (٢)

وسأل رجل عكرمة عن الزَّنيم قال : هو ولد الزِّنَى ؛ وتمثّل ببيت شعر :

زَنِيم ليس يُعرف من أبوه * بَغِيّ الأمِّ ذو حسَبٍ لئيم

وعنه أيضا الزنيم : الدعىّ الفاحش اللئيم ، ثم قال :

زَنِيم تداعاه الرجال زيادةً * كما زِيد فى عَرْض الأدِيم الأكارِعُ (٣)

وعنه فى قوله تعالى : « ذَوَاتَا أَفْنَانٍ » (٤) قال : ذواتا ظِلّ وأغصان ؛ ألم تسمع إلى قول الشاعر :

ما هاج شوقك من هَدِيل حمامةٍ * تدعو على فَنَنِ الغصون حماما

تدعو أبا فرخين صادف طائرا * ذا مِخْلبين من الصقور قطاما

وعن عكرمة عن ابن عباس فى قوله تعالى : « فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ » (٥) قال : الأرض ؛ قاله ابن عباس . وقال أُمَيّة (٦) بن أبى الصَّلْت : « عندهم لحم بحر ولحم ساهرة » . قال ابن الأنبارىّ : والرواة يروون هذا البيت :

وفيها لحم ساهرةٍ وبحرٍ * وما فاهُوا به لهُم مُقيم

وقال نافع بن الأزرق لابن عباس : أخبرنى عن قول الله جلّ وعزّ : « لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ » ما السِّنَة ؟ قال : النُّعاس ؛ قال زُهير بن أبى سُلْمَى :

لا سِنَةٌ فى طَوالِ الليل تأخذه * ولا ينام ولا فى أمره فَنَدُ (٧)

---

(١) آية ٤ سورة المدّثر . (٢) أورد المؤلف فى تفسير سورة المدّثر جـ ١٩ ص ٦٢ هذا البيت برواية أخرى هكذا :

فانى بحمد الله لا ثوب فاجر * لبست ولا من غدرة أتقنع

(٣) كذا فى اللسان والكامل للبرد . وفى الأصول : « أكارعه » . (٤) آية ٤٨ سورة الرحمن .

(٥) آية ١٤ سورة النازعات . (٦) كذا فى الأصول ؛ ولعل ابن عباس يريد ما تضمنه البيت الذى قاله أمية والذى ذكره ابن الأنبارى فيما يلى ؛ وسيأتى للصنف فى تفسير سورة النازعات جـ ١٩ ص ١٩٧ هذا البيت .

(٧) الفند (بالتحريك) : ضعف الرأى من الكبر ، وقد يستعمل فى غير الكبر .

Marfat.com

باب ما جاء فى فضل تفسير القرآن وأهله

قال علماؤنا رحمة الله عليهم : وأما ما جاء فى فضل التفسير عن الصحابة والتابعين ، فمن ذلك : أن عليّ بن أبى طالب رضى الله عنه ذكر جابر بن عبد الله ووصفه بالعلم ؛ فقال له رجل : جُعلت فداءك ! تصف جابرًا بالعلم وأنت أنت ! فقال : إنه كان يعرف تفسير قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ »(١) . وقال مجاهد : أحبّ الخلق إلى الله تعالى أعلمهم بما أنزل . وقال الحسن : والله ما أنزل الله آية إلا أحبّ أن يعلم فيما أنزلت وما يعنى بها . وقال الشعبيّ : رَحَل مسروق إلى البصرة فى تفسير آية ، فقيل له : إن الذى يفسّرها رحل إلى الشأم ؛ فتجهّز ورَحَل إلى الشأم حتى علم تفسيرها . وقال عكرمة فى قوله عز وجل : « وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ »(٢) طَلبتُ آسم هذا الرجل [الذى خرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله(٣)] أربع عشرة سنة حتى وجدته . وقال آبن عبد البر : هو ضمرة بن حبيب، وسيأتى . وقال آبن عباس : مكثت سنتين أريد أن أسأل عمر عن المرأتين اللّتيْن تظاهرتا على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، ما يمنعنى إلا مهابته ، فسألته فقال : هى حفصة وعائشة . وقال إياس بن معاوية : مَثَلُ الذين يقرءون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره ، كَمَثَل قوم جاءهم كتاب من ملكهم ليلا وليس عندهم مصباح ، فتداخلتهم رَوْعة ولا يدرون ما فى الكتاب ؛ ومَثَل الذى يعرف التفسير كَمَثل رجل جاءهم بمصباح فقرءوا ما فى الكتاب .

باب ما جاء فى حامل القرآن ومن هو ، وفيمن عاداه

قال أبو عمر : روى من وجوه فيها لين عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من تعظيم جلال الله إكرام ثلاثة : الإمام المُقْسط وذى الشيبة المسلم وحامل القرآن غير الغالى فيه ولا الجافى عنه " . وقال أبو عمر : وحملة القرآن هم العالمون بأحكامه ، وحلاله وحرامه ، والعاملون بما فيه . وروى أنس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " القرآن أفضل من كل شىء فمن وَقّر القرآن فقد وقّر الله ومن آستخف بالقرآن آستخف بحق الله تعالى حملة القرآن هم المحفوفون برحمة الله المعظمون كلام الله الملبسون نور الله فمن والاهم فقد والى الله ومن عاداهم فقد آستخفّ بحق الله تعالى " .

(١) آية ٨٥ سورة القصص . (٢) آية ١٠٠ سورة النساء . (٣) الزيادة من تفسير قطب الدين الشيرازى .

باب ما يلزم قارئ القرآن وحامله من تعظيم القرآن وحرمته

قال الترمذي الحكيم أبو عبدالله في نوادر الأصول : «فمن حُرمة القرآن ألا يمسّه إلا طاهرا . ومن حرمته أن يقرأه وهو على طهارة . ومن حرمتــه أن يستاك و يتخلل فيطيب فاه ، إذ هو طريقه . — قال يزيد بن أبي مالك : إن أفواهكم طُرُقٌ من طرق القرآن ، فطهّروها ونظّفوها ما آستطعتم . — ومن حرمته أن يتلبّس كما يتلبس للدخول على الأمير لأنه مناج . ومن حرمته أن يستقبل القبلة لقراءته . — وكان أبو العالية إذا قرأ آعتم ولبس وآرتدى وآستقبل القبلة . — ومن حرمته أن يتمضمض كلما تنخع . روى شعبة عن أبي حمزة عن آبن عباس : أنه كان يكون بين يديه تَوْر إذا تنخع مضمض ، ثم أخذ في الذكر ، وكان كلما تنخع مضمض . ومن حرمته إذا تثاءب أن يمسك عن القراءة لأنه إذا قرأ فهو مخاطب ربه ومناج ، والتثاؤب من الشيطان . — قال مجاهد : إذا تثاءبت وأنت تقرأ القرآن فأمسك عن القرآن تعظيما حتى يذهب تثاؤبك . وقاله عكرمة . يريد أن في ذلك الفعل إجلالا للقرآن . — ومن حرمته أن يستعيذ بالله عند آبتدائه للقراءة من الشيطان الرجيم ، و يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم إن كان آبتدأ قراءته من أول السورة أو من حيث بلغ . ومن حرمتــه إذا أخذ في القــراءة لم يقطعها ساعة فساعة بكلام الآدميين من غير ضرورة . ومن حرمته أن يخلو بقراءته حتى لا يقطع عليه أحد بكلام فيخلطه بجوابه ؛ لأنه إذا فعل ذلك زال عنــه سلطان الآستعاذة الذي آستعاذ في البدء . ومن حرمته أن يقرأه على تُؤَدة وترسيل وترتيل . ومن حرمته أن يستعمل فيه ذهنه وفهمه حتى يعقل ما يخاطب به . ومن حرمته أن يقف على آية الوعد فيرغب إلى الله تعالى و يسأله من فضله ، وأن يقف على آية الوعيد فيستجير بالله منه . ومن حرمته أن يقف على أمثاله فيمتثلها . ومن حرمته أن يلتمس غرائبه[4] . ومن حرمتــه أن يؤدّي لكل حرف حقه من الأداء حتى يبرز الكلام باللفظ تماما ، فإن له بكل حرف عشر حسنات . ومن حرمته إذا انتهت قراءته أن يصدّق ربه ، و يشهد بالبلاغ

(١) يقال : تلبس بالثوب بمعنى لبسه . (٢) تنخع : كتنخم وزنا ومعنى . (٣) التور : إناء يشرب فيه .

(٤) في نوادر الأصول : « إعرابه » . وكلاهما مروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد روى أبو هريرة عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه " رواه الحاكم والبيهق .

Marfat.com

لرسوله صلى الله عليه وسلم، ويشهد على ذلك أنه حق، فيقول: صدقتَ ربَّنا و بلّغتْ رسلُك، ونحن على ذلك من الشاهدين ؛ اللهم آجعلنـا من شهداء الحق ، القائمين بالقسط ؛ ثم يدعو بدعوات. ومن حرمته إذا قرأه ألا يلتقط الآى من كل سورة فيقرأها؛ فإنه روى لنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنه مر ببلال وهو يقرأ من كل سورة شيئا؛ فأمره أن يقرأ السورة كلها أو كما قال عليه السلام. ومن حرمته إذا وضع المصحف ألا يتركه منشورا، وألا يضع فوقه شيئا من الكتب حتى يكون أبدًا عاليًا لسائر الكتب، علمًا كان أو غيره. ومن حرمته أن يضعه فى حجره إذا قرأه أو على شيء بين يديه ولا يضعه بالأرض. ومن حرمته ألا يمحوه من اللوح بالبصاق ولكن يغسله بالمـاء. ومن حرمته إذا غسله بالمـاء أن يتوقّى النجاساتِ من المواضع، والمواقع التى تُوطأ، فإن لتلك الغسالة حرمة، وكان مَن قبلنا من السلف منهم من يستشفى بغسالته. ومن حرمته ألا يتخذ الصحيفة إذا بليت ودرست وقاية للكتب؛ فإن ذلك جفاء عظيم، ولكن يمحوها بالمـاء. ومن حرمتـه ألا يخلى يوما من أيامه من النظر فى المصحف مرّة؛ وكان أبو موسى يقول: إنى لأستحيى ألا أنظر كل يوم فى عهد ربى مرّة. ومن حرمته أن يعطى عينيه حظهما منه. فإن العين تؤدّى إلى النفس، وبين النفس والصّدر حجاب، والقرآن فى الصدر؛ فإذا قرأه عن ظهر قلب فإنما يسمع أذنه فتؤدّى إلى النفس، فإذا نظر فى الخط كانت العين والأذن قد آشتركا فى الأداء، وذلك أوفر للأداء، وكان قد أخذت العين حظها كالأذن. روى زيد آبن أسلم عن عطاء بن يَسار عن أبى سعيد الخُدْرى قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "أعطوا أعينكم حظّها من العبادة" قالوا: يا رسول الله وما حظها من العبادة؟ قال: "النظر فى المصحف والتفكر فيـه والاعتبار عند عجائبه". وروى مكحول عن عُبادة بن الصامت قال قال رسول الله صلّى الله عليـه وسلّم: "أفضل عبـادة أمتى قراءة القرآن نظرًا". ومن حرمته ألا يتأوّله عندما يعرض له شيء من أمر الدنيا. — حدّثنا عمرو بن زياد الحنظلى قال حدّثنا هشيم بن بشـير عن المغيرة عن إبراهيم قال: كان يكره أن يتأول شيء من القرآن عنـد ما يعرض له شيء من أمر الدنيا، — والتأويل مثل قولك للرجل إذا جاءك: جئتَ على قَدَرٍ

يا موسى ؛ ومثل قوله تعالى : « كُلُوا وَٱشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ »(١) هذا عند حضور الطعام وأشباه هذا. ومن حرمته ألا يقال : سورة كذا ، كقولك : سورة النحل وسورة البقرة وسورة النساء ، ولكن يقال : السورة التي يُذكر فيها كذا . —

قلت : هذا يعارضه قوله صلى الله عليه وسلم : "الآيتان من آخر سورة البقرة مَن قرأ بهما فى ليلة كفتاه" خرّجه البخارى ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود. — ومن حرمته ألا يُتْلَى منكوسًا كفعل معلمى الصبيان ، يلتمس أحدهم بذلك أن يُرِىَ الحذق من نفسه والمهارة ، فإن تلك مخالفة. ومن حرمته ألا يُقَعِّر فى قراءته كفعل هؤلاء الهمزيين المبتدعين المتنطعين فى إبراز الكلام من تلك الأفواه المنتنة تكلُّفا ، فإن ذلك محدَث ألقاه إليهم الشيطان فقبلوه عنه. ومن حرمته ألا يقرأه بألحان الغناء كلحون أهل الفسق ، ولا بترجيع النصارى ولا نوح الرهبانية ، فإن ذلك كله زيغ وقد تقدّم. ومن حرمته أن يُجَلّل تخطيطه إذا خطه. وعن أبى حُكيمة أنه كان يكتب المصاحف بالكوفة ، فمرّ علىّ رضى الله عنه فنظر إلى كتابته فقال له : أجِلّ قلمك ، فأخذت القلم فقططته من طرفه قَطًّا ، ثم كتبت وعلىّ رضى الله عنه قائم ينظر إلى كتابتى ، فقال : هكذا ، نَوِّرْه كما نوّره الله عزّ وجلّ . ومن حرمته ألا يجهر بعض على بعض فى القراءة فيفسد عليه حتى يبغّض إليه ما يسمع ويكون كهيئة المغالبة . ومن حرمته ألّا يُمارِى ولا يجادل فيه فى القراءات ، ولا يقول لصاحبه : ليس هكذا هو ، ولعله أن تكون تلك القراءة صحيحة جائزة من القرآن ، فيكون قد جحد كتاب الله. ومن حرمته ألّا يقرأ فى الأسواق ولا فى مواطن اللغط واللّغو ومجمع السفهاء ، ألا ترى أن الله تعالى ذكر عباد الرحمن وأثنى عليهم بأنهم إذا مَرُّوا باللّغو مرّوا كراما ، هذا لمروره بنفسه ، فكيف إذا مرّ بالقرآن الكريم تلاوة بين ظهرانى أهل اللغو ومجمع السفهاء . ومن حرمته ألّا يتوسد المصحف ولا يعتمد عليه ، ولا يرمى به إلى صاحبه إذا أراد أن يناوله . ومن حرمته ألا يصغر المصحف ، روى الأعمش عن إبراهيم عن علىّ رضى الله عنه قال : لا يصغّر المصحف .

قلت : وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه رأى مصحفا صغيرا فى يد رجل فقال : من كتبه ؟ قال : أنا ، فضربه بالدِّرّة ، وقال : عظّموا القرآن . وروى عن رسول

(١) آية ٢٤ سورة الحاقة .

Marfat.com

الله صلى الله عليه وسلم أنه نهى أن يقال : مُسَيْجِد أو مُصَيْحِف . — ومن حرمته ألا يخلط فيه ما ليس منه . ومن حرمته ألا يحلى بالذهب ولا يكتب بالذهب فتخلط به زينـة الدنيا ؛ و روى مغيرة عن إبراهيم : أنه كان يكره أن يحلّى المصحف أو يكتب بالذهب أو يعلم عنـد رءوس الآى أو يصغّر . وعن أبي الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا زخرفتم مساجدكم وحلّيتم مصاحفكم فالدبار عليكم" (١). وقال ابن عباس وقد رأى مصحفا زُيّن بفضة : تُغرون به السارق و زينته فى جوفه . ومن حرمته ألا يكتب على الأرض ولا على حائط كما يفعل به فى المساجد المحدثة . حدّثنا محمد بن على الشقيقى عن أبيه عن عبد الله بن المبارك عن سفيان عن محمد بن الزبير قال : سمعت عمر بن عبد العزيز يحدّث قال : مرّ رسـول الله صلى الله عليه وسلم بكتاب فى أرض، فقال لشاب من هُذَيل : " ما هذا " قال : من كتاب الله كتبه يهودىّ ؛ فقال : " لعن الله من فعل هـذا لا تضعوا كتاب الله إلا موضـعه " . قال محمد بن الزبير : رأى عمر بن عبد العزيز ابنا له يكتب القرآن على حائط فضربه . ومن حرمته أنه إذا اغتسل بكتابته مستشفيًا من سَقَم ألا يصبّه على كُنَاسة ، ولا فى موضع نجاسة، ولا على موضع يُوطأ ، ولكن ناحية من الأرض فى بُقعة لا يطؤه الناس ، أو يحفر حفيرة فى موضع طاهر حتى ينصب من جسده فى تلك الحفيرة ثم يكبسها ، أو فى نهر كبير يختلط بمائه فيجرى . ومن حرمته أن يفتتحه كلما ختمه حتى لا يكون كهيئة المهجور؛ ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسـلم إذا ختم يقرأ من أول القرآن قدر خمس آيات ؛ لئـلا يكون فى هيئة المهجور . وروى ابن عباس قال جاء رجل فقال: يا رسول الله، أىّ العمل أفضل؟ قال : "عليك بالحالّ المرتحل" قال : وما الحالّ المرتحل؟ قال : "صاحب القرآن يضرب من أوله حتى يبلغ آخره ثم يضرب فى أوله كلما حلّ ارتحل " . —

قلت : و يستحب له إذا ختم القرآن أن يجمع أهله . ذكر أبو بكر الأنبارى أنبأنا إدريس حدّثنا خلف حدّثنا وكيع عن مِسْعَر عن قتادة : أن أنس بن مالك كان إذا ختم القرآن جمع

(١) الدبار : الهلاك . وفى نوادر الأصول : « فالدمار » بالميم بدل الباء الموحدة .

Marfat.com

أهله ودعا . وأخبرنا إدريس حدّثنا خلف حدّثنا جرير عن منصور عن الحكم قال : كان مجاهد وعَبْدة بن أبى لُبَابة وقوم يعرضون المصاحف ، فإذا أرادوا أن يختموا وجّهوا إلينا : أحضرونا ، فإن الرحمة تنزل عند ختم القرآن . وأخبرنا إدريس حدّثنا خلف حدّثنا هشيم عن العوّام عن إبراهيم التّيمىّ قال : من ختم القرآن أوّل النهار صلّت عليه الملائكة حتى يُمسى ، ومن ختم أوّل الليل صلّت عليه الملائكة حتى يُصبح ؛ قال : فكانوا يستحبّون أن يختموا أوّلَ الليل وأوّلَ النهار . — ومن حرمته ألا يكتب التعاويذ منه ثم يدخل به فى الخلاء ، إلا أن يكون فى غلاف من أَدَم أو فضــة أو غيره ، فيكون كأنه فى صــدرك . ومن حرمته إذا كتبه وشربه سمّى الله على كل نَفَس وعَظّم النية فيــه فإن الله يؤتيه على قدر نيّتــه . روى لَيْث عن مجاهــد قال : لا بأس أن تكتب القرآن ثم تسقيه المريض . وعن أبى جعفر قال : من وجد فى قلبه قساوةً فليكتب « يس » فى جام بزعفران ثم يشربه .

قلت : ومن حرمته ألّا يقال : سورة صغيرة . وكَرِه أبو العالية أن يقال : سورة صغيرة أو كبيرة ؛ وقال لمن سمعه قالها : أنت أصــغر منها ؛ وأما القرآن فكله عظيم ؛ ذكره مكىّ رحمه الله .

قلت : وقــد روى أبو داود ما يعارض هــذا من حديث عمرو بن شعيب عن أبيــه عن جدّه أنه قال : مامِن المفصّل سورة صغيرة ولا كبيرة إلا قد سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يؤمّ بها الناس فى الصلاة .

باب ما جاء من الوعيد فى تفسير القرآن بالرأى ، والجرأة على ذلك ، ومراتب المفسرين

روى عن عائشــة رضى الله عنها قالت : ما كان رسول الله صلى الله عليه وســلم يفسّر من كتاب الله إلا آيًا بعــدد ، علّمه إياهنّ جبريل . قال ٱبن عطية : ومعنى هــذا الحديث فى مُغيّبات القرآن ، وتفسير مجمله ونحو هذا ، ممــا لا سبيل إليه إلا بتوفيق من الله تعالى ؛ ومن جملة مغيّباته مالم يُعْلِم الله به ، كوقت قيام الساعة ونحوها مما يستقرى من ألفاظه ، كعدد

Marfat.com

النَّفَخات فى الصُّور ، وكِتْبة خلق السموات والأرض . روى الترمذى عن آبن عباس عن النبى صلّى الله عليه وسلّم قال : "آتقوا الحديث علىّ إلا ماعلمتم فمن كذب علىّ متعمّدًا فليتبوّأ مقعده من النار ومن قال فى القرآن برأيه فليتبوّأ مقعده من النار" . وروى أيضا عن جُنْدب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من قال فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ". قال : هذا حديث غريب . وأخرجه أبو داود، وتُكُلِّم فى أحد رواته[(١)] . وزاد رَزِين : ومن قال برأيه فأخطأ فقد كفر . قال أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار بن محمد الأنبارى النحوى اللغوى فى كتاب الرّد : فُسِّر حديث آبن عباس تفسيرين : أحدهما — من قال فى مشكل القرآن بما لا يعرف من مذهب الأوائل من الصحابة والتابعين فهو متعرّض لسخط الله . والجواب الآخر — وهو أثبت القولين وأصحهما معنًى — : من قال فى القرآن قولًا يعلم أن الحق غيره فليتبوّأ مقعده من النار . ومعنى يتبوّأ : ينزل ويحل؛ قال الشاعر :

وبُوِّئَتْ فى صَمِيم مَعْشرِها * فتَمّ فى قَوْمِها مُبَوَّؤُها[(٢)]

وقال فى حديث جُنْدب : فحمل بعض أهل العلم هذا الحديث على أن الرأى معنىّ به الهوى؛ من قال فى القرآن قولا يوافق هواه ، لم يأخذه عن أئمة السلف فأصاب فقد أخطأ ، لحكمه على القرآن بما لا يعرف أصله ، ولا يقف على مذاهب أهل الأثر والنقل فيه . وقال آبن عطية : « ومعنى هذا أن يسأل الرجل عن معنًى فى كتاب الله عز وجل فيتسوّر[(٣)] عليه برأيه دون نظر فيما قال العلماء، وآقتضته قوانين العلم كالنحو والأصول ؛ وليس يدخل فى هذا الحديث أن يفسر اللغويون لغته والنحويون نحوه والفقهاء معانيه ، ويقول كل واحد بآجتهاده المبنى على قوانين علم ونظر؛ فإن القائل على هذه الصفة ليس قائلا بمجرد رأيه » .

---

(١) قوله : أحد رواته . هو سهيل بن أبى حزم وآسمه مهران ، ويقال : عبد الله .

(٢) جاء فى لسان العرب مادة بوأ تفسيرا لهذا البيت : « أى نزلت من الكرم فى صميم النسب » .

(٣) قوله : فيتسوّر عليه . تسوّر الحائط . هجم مثل اللص . ويعنى به هنا التهجم والإقدام بغير بصيرة ولا تدبر .

Marfat.com

قلت : هذا صحيح وهو الذى آختاره غير واحد من العلماء ، فإن من قال فيه بما سنح فى وَهْمه وخطر على باله من غير آستدلال عليه بالأصول فهو مخطئ ، و إن من آستنبط معناه بحمله على الأصول المحكمة المتفق على معناها فهو ممدوح .

وقال بعض العلماء : إن التفسير موقوف على السماع ؛ لقوله تعالى : « فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ » (١) . وهذا فاسد ؛ لأن النهى عن تفسير القرآن لا يخلو : إما أن يكون المراد به الآقتصار على النقل والمسموع وترك الآستنباط ، أو المراد به أمرا آخر . و باطل أن يكون المراد به ألا يتكلم أحد فى القرآن إلا بما سمعه ؛ فإن الصحابة رضى الله عنهم قد قرءوا القرآن وآختلفوا فى تفسيره على وجوه ، وليس كل ما قالوه سمعوه من النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم دعا لآبن عباس وقال : "اللّهُمّ فقّهه فى الدّين وعلّمه التأويل" . فإن كان التأويل مسموعا كالتنزيل فما فائدة تخصيصه بذلك ! وهذا بيّن لا إشكال فيه ، وسيأتى لهذا مزيد بيان فى سورة « النساء » إن شاء الله تعالى . و إنما النهى يحمل على أحد وجهين :

أحدهما — أن يكون له فى الشيء رأى ، و إليه ميل من طبعه وهواه ؛ فيتأوّل القرآن على وَفْق رأيه وهواه ، ليحتجّ على تصحيح غرضه ، ولو لم يكن له ذلك الرأى والهوى لكان لا يلوح له من القرآن ذلك المعنى . وهذا النوع يكون تارة مع العلم كالذى يحتج ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته ، وهو يعلم أن ليس المراد بالآية ذلك ، ولكن مقصوده أن يلبّس على خصمه ؛ وتارة يكون مع الجهل ، وذلك إذا كانت الآية محتملة فيميل فهمه إلى الوجه الذى يوافق غرضه ، و يرجح ذلك الجانب برأيه وهواه ، فيكون قد فسّر برأيه ؛ أى رأيه حمله على ذلك التفسير ، ولولا رأيه لما كان يترجح عنده ذلك الوجه . وتارة يكون له غرض صحيح فيطلب له دليلا من القرآن و يستدل عليه بما يعلم أنه ما أريد به ، كمن يدعو إلى مجاهدة القلب القاسى فيقول قال الله تعالى : « اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى » (٢) ويشير إلى قلبه ، و يومئ إلى أنه المراد بفرعون ؛ وهذا الجنس قد يستعمله بعض الوعاظ فى المقاصد الصحيحة تحسينا للكلام وترغيبا للمستمع ، وهو ممنوع لأنه قياس فى اللغة ، وذلك غير جائز . وقد تستعمله

(١) آية ٥٩ سورة النساء . (٢) آية ٢٤ سورة طه .

الباطنيــة فى المقاصد الفاســدة لتغرير الناس ودعوتهم إلى مذاهبهم الباطلة ، فينزّلون القرآن على وَفْق رأيهـم ومذهبهم على أمورٍ يعلمون قطعاً أنهـا غير مرادة . فهذه الفنون أحد وجهى المنع من التفسير بالرأى .

الوجه الثانى — أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية، من غير آستظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن وما فيه من الألفاظ المبهمة والمبدّلة[1] ، وما فيه من الاختصار والحذف والإضمار والتقديم والتأخير؛ فمن لم يحكم ظاهر التفسير وبادر إلى آستنباط المعانى بمجرد فهم العربية كثر غلطه، ودخل فى زُمْرة من فسر القرآن بالرأى؛ والنقلُ والسماع لا بُدّ له منـه فى ظاهر التفسير أوّلا ليتّقى به مواضع الغلط ، ثم بعد ذلك يتسع الفهم والآستنباط . والغرائب التى لا تفهم إلا بالسماع كثيرة ، ولا مطمع فى الوصـول إلى الباطن قبـل إحكام الظاهر؛ ألا ترى أن قوله تعـالى : « وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا[2] » معناه آية مبصرة فظلموا أنفسهم بقتلها ؛ فالناظر إلى ظاهر العربية يظن أن المراد به أن الناقة كانت مبصرة ، ولا يدرى بماذا ظلموا، وأنهم ظلموا غيرهم وأنفسهم ، فهذا من الحذف والإضمار ؛ وأمثال هذا فى القرآن كثير ، وما عدا هذين الوجهين فلا يتطرّق النهى إليه . والله أعلم .

قال آبن عطية : « وكان جِلّةٌ من السلف الصالح كسعيد بن المسيّب وعامر الشعبىّ وغيرهمـا يعظّمون تفسير القرآن ويتوقّفون عنـه توزعا وآحتياطا لأنفسهم مـع إدراكهم وتقدّمهم » . قال أبو بكر الأنبارىّ : وقد كان الأئمـة من السلف المـاضى يتورّعون عن تفسير المُشْكِل من القرآن، فبعضٌ يقدّر أن الذى يفسره لا يوافق مراد الله عز وجل فيُحْجِم عن القول . وبعضٌ يُشْفق من أن يجعل فى التفسير إماما يبنى على مذهبه ويقتفى طريقه . فلعلّ متأخرا أن يفسر حرفاً برأيه ويخطئ فيــه ويقول : إمامى فى تفسير القـرآن بالرأى فلان الإمام من السلف . وعن آبن أبى مليكة قال : سـئل أبو بكر الصـديق رضى الله عنـه عن تفسير حرف من القرآن فقال : أىّ سماء تُظلّنى ، وأىّ أرض تُقلّنى ! وأين أذهب ! وكيف أصنع ! إذا قلت فى حرف من كتاب الله بغير ما أراد تبارك وتعالى .

(١) هكذا فى كل النسخ التى بأيدينا . (٢) آية ٥٩ سورة الإسراء .

قال ٱبن عطية « وكان جِلّةٌ من السلف كثير عددهم يفسّرون القرآن وهم أبقوا[1] على المسلمين فى ذلك رضى الله عنهم ؛ فأما صدر المفسرين والمؤيد فيهم فعلىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، ويتلوه عبد الله بن عباس وهو تجرّد للأمر وكمّله ، وتبعه العلماء عليه كمجاهد وسعيد بن جبير وغيرهما ، والمحفوظ عنه فى ذلك أكثر من المحفوظ عن علىّ » . وقال ٱبن عباس : ما أخذت من تفسير القرآن فعن علىّ بن أبى طالب . وكان علىّ رضى الله عنه يثنى على تفسير ٱبن عباس ويحضّ على الأخذ عنه ، وكان ٱبن عباس يقول : نِعْم تَرْجُمان القرآن عبد الله بن عباس . وقال عنه علىّ رضى الله عنه : ٱبن عباس كأنما ينظر إلى الغيب من سِتْر رقيق . ويتلوه عبد الله ٱبن مسعود وأُبَىّ بن كعب وزيد بن ثابت وعبد الله بن عمرو بن العاص . وكل ما أخذ عن الصحابة فحَسَن مقدم لشهودهم التنزيل ونزوله بلغتهم . وعن عامر بن واثلة قال : شهدت علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه يخطب فسمعته يقول فى خطبته : سلونى ، فوالله لا تسألونى عن شىء يكون إلى يوم القيامة إلّا حدّثتكم به ، سلونى عن كتاب الله ، فوالله ما من آية إلا أنا أعلم أبليل نزلتْ أم بنهار ، أم فى سهل نزلتْ أم فى جبل ؛ فقام إليه ٱبن الكوّاء[2] فقال : يا أمير المؤمنين ، ما الذاريات ذَرْوًا ؟ وذكر الحديث . وعن المِنْهال بن عمرو قال قال عبد الله ٱبن مسعود : لو أعلم أحدا أعلم بكتاب الله منى تبلُغه المَطِىُّ لأتيته ؛ فقال له رجل : أما لقيت علىّ بن أبى طالب ؟ فقال : بلى ، قد لقيته . وعن مسروق قال : وجدت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم مِثْل الإخاذ يُرْوِى الواحد والإخاذ يُرْوِى الاثنين ، والإخاذ لو ورد عليه الناس أجمعون لأصْدرهم ، وإن عبد الله بن مسعود من تلك الآخاذ[3] . ذكر هذه المناقب أبو بكر الأنبارىّ فى كتاب الردّ ، وقال : الإخاذ عند العرب : الموضع الذى يحبس الماء كالغدير . قال أبو بكر : حدّثنا أحمد بن الهيثم بن خالد حدّثنا أحمد بن عبد الله بن يونس حدّثنا سلام عن

---

(١) من قولهم : أبقيت على فلان إذا أشفقت عليه ورحمته .

(٢) اسمه عبد الله بن أبى أو فى اليشكرى كما فى تاريخ الطبرى فى عدة مواضع .

(٣) قوله : من تلك الآخاذ . يعنى أن فيهم الصغير والكبير ، والعالم والأعلم .

Marfat.com

زيد العَمّى[١] عن أبى الصدّيق الناجى عن أبى سعيد الخُدْرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : "أرحم أمتى بها أبو بكر وأقواهم فى دين الله عمر وأصدقهم حياء عثمان وأقضاهم علىّ وأفرضهم زيد وأقرؤهم لكتاب الله عزّ وجلّ أُبَىّ بن كعب وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ ابن جَبَل وأمين هـذه الأمة أبو عبيدة بن الجرّاح وأبو هريرة وِعاءٌ من العلم وسَلْمانُ بَحْرٌ من علم لا يُدْرَك وما أظلّت الخضراء ولا أقلّت الغبراء — أو قال البطحاء — من ذى لهجة أصدق من أبى ذَرّ" .

قال ابن عطية : «ومن المبرِّزين فى التابعين الحسن البصرى ومجاهد وسعيد بن جُبير وعلقمة . قرأ مجاهد على ابن عباس قراءة تَفَهّم ووقوف عند كل آية ؛ ويتلوهم عكرمة والضحاك وإن كان لم يلق ابن عباس ، وإنمـا أخذ عن ابن جبير؛ وأما السُّدّى فكان عامر الشَّعْبى يطعن عليه وعلى أبى صالح؛ لأنه كان يراهما مقصّرين فى النظر» .

قلت : وقال يحيى بن مَعين : الكلبىّ ليس بشىء . وعن يحيى بن سعيد القَطّان عن سفيان قال قال الكلبى قال أبو صالح : كل ما حدّثتـك كذب . وقال حبيب بن أبى ثابت : كنا نسميه الدَّرَوْغ زَنْ[٢] — يعنى أبا صالح مولى أم هانئ — والدروغ زن : هو الكذاب بلغة الفُرْس . ثم حمل تفسير كتاب الله تعـالى عدول كل خلف ، كما قال صلّى الله عليه وسلّم : "يحمل هذا العـلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين" . خرّجه أبو عمر وغيره . قال الخطيب أبو بكر أحمد بن علىّ البغدادى : وهـذه شهادة من رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم أعلام الدِّين وأئمـة المسلمين لحفظهم الشريعة من التحريف، والانتحال للبـاطل ، وردّ تأويل الأبله الجاهل؛ وأنه يجب الرجوع إليهم ، والمعوّل فى أمر الدِّين عليهم ، رضى الله عنهم .

---

(١) جاء فى حاشية بهامش الأصل : أنه سمى زيدا العمى لأنه كان ينادى من رآه ياعم . وجاء فى تهذيب التهذيب عند الكلام على اسم زيد المذكور : أنه زيد بن الحوارى أبو الحوارى العمى ، وهو مولى زياد بن أبيه . ولقب بذلك لأنه كان إذا سئل عن الشىء يقول : حتى أسأل عمى .

(٢) اسمه باذام ، وقيل : باذان ، بمعجمة بين ألفين . يروى عن على وابن عباس ومولاته أم هانئ ؛ كما فى تهذيب التهذيب .

قال ابن عطية : « وألّف الناس فيه كعبد الرزاق والمفضّل وعليّ بن أبي طلحة والبخاري وغيرهم . ثم إن محمد بن جرير — رحمه الله — جمع على الناس أشتات التفسير ، وقرّب البعيد منها وشفى في الإسناد . ومن المبرّزين من المتأخرين أبو إسحاق الزجاج وأبو عليّ الفارسيّ ؛ وأما أبو بكر النقاش وأبو جعفر النحاس فكثيرا ما استدرك الناس عليهما . وعلى سَنَنهما مكيّ بن أبي طالب رضي الله عنه . وأبو العباس المهدويّ متقن التأليف ، وكلهم مجتهد مأجور رحمهم الله ، ونضّر وجوههم » .

باب تبيين الكتاب بالسنة ، وما جاء في ذلك

قال الله تعالى : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ »(١) . وقال تعالى : « فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »(٢) . وقال تعالى : « وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ »(٣) وفرض طاعته في غير آية من كتابه وقرنها بطاعته عز وجل ، وقال تعالى : « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا »(٤) . ذكر ابن عبد البر في كتاب العلم له عن عبد الرحمن بن يزيد : أنه رأى مُحْرِمًا عليه ثيابه فنهى المحرم ؛ فقال : إيتني بآية من كتاب الله تنزع ثيابي ؛ قال : فقرأ عليه « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » . وعن هشام بن حُجَير قال : كان طاوس يصلي ركعتين بعد العصر ، فقال ابن عباس : اتركهما ؛ فقال : إنما نهى عنهما أن تُتخذا سنة ؛ فقال ابن عباس : قد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاة بعد العصر ، فلا أدري أتُعَذَّب عليهما أم تُؤجر ، لأن الله تعالى قال : « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ »(٥) . وروى أبو داود عن المِقدام بن معد يكرب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ألا وإني قد أوتيت الكتاب ومثله معه ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرّموه

(١) آية ٤٤ سورة النحل . (٢) آية ٦٣ سورة النور . (٣) آية ٥٢ سورة الشورى .
(٤) آية ٧ سورة الحشر . (٥) آية ٣٦ سورة الأحزاب .

Marfat.com

ألا لا يحل لكم الحمار الأهلى ولا كل ذى ناب من السباع ولا لقطة معاهد إلا أن يستغنى عنها صاحبها ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه فإن لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قراه " .

قال الخطابى : قوله "أوتيت الكتاب ومثله معه" يحتمل وجهين من التأويل : أحدهما — أن معناه أنه أوتى من الوحى الباطن غير المتلو ، مثل ما أعطى من الظاهر المتلو . والثانى — أنه أوتى الكتاب وَحْيًا يُتْلَى ، وأوتى من البيان مثله ، أى أذن له أن يبين ما فى الكتاب فيعم ويخص ويزيد عليه ويشرع ما فى الكتاب ؛ فيكون فى وجوب العمل به ولزوم قبوله كالظاهر المتلو من القرآن . وقوله : " يوشك رجل شبعان " الحديث . يحذر بهذا القول من مخالفة السنن التى سنّها مما ليس له فى القرآن ذكر على ما ذهبت إليه الخوارج والروافض ، فإنهم تعلقوا بظاهر القرآن وتركوا السنن التى قد ضمنت بيان الكتاب ؛ قال : فتحيّروا وضلّوا ؛ قال والأريكة : السرير ، ويقال : إنه لا يسمى أريكة حتى يكون فى حَجَلة(1) ، قال : وإنما أراد بالأريكة أصحاب الترفه والدعة الذين لزموا البيوت لم يطلبوا العلم من مظانّه . وقوله : " إلا أن يستغنى عنها صاحبها " معناه أن يتركها صاحبها لمن أخذها آستغناء عنها ؛ كقوله : « فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ »(2) معناه تركهم الله آستغناء عنهم . وقوله : " فله أن يعقبهم بمثل قراه " هذا فى حال المضطر الذى لا يجد طعاما ويخاف التلف على نفسه ، فله أن يأخذ من مالهم بقدر قراه عوض ما حرموه من قراه . و"يعقبهم" يروى مشدّدا ومخففا من المعاقبة ، ومنه قوله تعالى : « وإن عاقبتم »(3) أى فكانت الغلبة لكم فغنمتم منهم ، وكذلك لهذا أن يغنم من أموالهم بقدر قراه . قال : وفى الحديث دلالة على أنه لا حاجة بالحديث إلى أن يعرض على الكتاب ، فإنه مهما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان حجة بنفسه ؛ قال : فأما ما رواه بعضهم أنه قال : « إذا جاءكم الحديث فاعرضوه على كتاب الله فإن وافقه فخذوه وإن لم يوافقه فردّوه » فإنه حديث باطل لا أصل له .

ثم البيان منه صلى الله عليه وسلم على ضربين : بيانٌ لمجملٍ فى الكتاب ، كبيانه للصلوات الخمس فى مواقيتها وسجودها وركوعها وسائر أحكامها ، وكبيانه لمقدار الزكاة ووقتها وما الذى

(1) الحجلة : مثل القبة . (2) آية ٦ سورة التغابن . (3) آية ١٢٦ سورة النحل .

تؤخذ منه من الأموال، وبيانه لمناسك الحج؛ قال صلى الله عليه وسلم إذ حج بالناس : " خذوا عني مناسككم " . وقال : "صلّوا كما رأيتموني أصلّي" . أخرجه البخاري . وروى ابن المبارك عن عمران بن حُصين أنه قال لرجل: إنك رجل أحمق، أتجد الظُّهْر في كتاب الله أربعا لا يُجهر فيها بالقراءة! ثم عدّد عليه الصلاة والزكاة ونحو هذا، ثم قال: أتجد هذا في كتاب الله مفسرا! إن كتاب الله تعالى أبهم هذا ، وإن السُّنة تفسّر هذا .

وروى الأوزاعيّ عن حسان بن عطيــة قال : كان الوحي ينزل على رســول الله صلى الله عليه وسلم ويحضره جبريل بالسنة التي تفسر ذلك . وروى سعيد بن منصور : حدّثنا عيسى ابن يونس عن الأوزاعيّ عن مكحول قال : القرآن أحوج إلى السُّنة من السنة إلى القرآن . وبه عن الأوزاعيّ قال قال يحيى بن أبي كثير : السنة قاضية على الكتاب ، وليس الكتاب بقاضٍ على السنة . قال الفضل بن زياد : سمعت أبا عبد الله — يعني أحمــد بن حنبل — وسئل عن هذا الحديث الذي روى أن السُّنة قاضية على الكتاب فقال : ما أجْسُر على هذا أن أقوله، ولكني أقول : إن السنة تفسّر الكتاب وتبينه .

وبيان آخر وهو زيادة على حكم الكتاب كتحريم نكاح المرأة على عمتها وخالتها ، وتحريم الحُمُر الأهلية وكل ذي ناب من السباع ، والقضاء باليمين مع الشاهد وغير ذلك، على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

باب كيفية التعلّم والفقه لكتاب الله تعالى، وسنة نبيّه صلى الله عليه وسلم، وما جاء أنه سُهّل على من تقدّم العمل به دون حفظه

ذكر أبو عمرو الدّاني في كتاب البيان له بإسناده عن عثمان وابن مسعود وأُبَيّ : أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم كان يُقرئهم العشر فلا يجاوزونها إلى عشر أخرى حتى يتعلموا ما فيهـا من العمل ، فيعلمنا القرآن والعمل جميعا . وذكر عبــد الرزاق عن معمر عن عطاء ابن السائب عن أبي عبد الرحمن السلميّ قال: كنا إذا تعلمنا عشر آيات من القرآن لم نتعلّم العشر التي بعدها حتى نعرف حلالها وحرامها وأمرها ونهيها . وفي موطإ مالك: أنه بلغه أن عبد الله

Marfat.com

آبن عمر مكث على سورة البقرة ثمانى سنين يتعلّمها . وذكر أبو بكر أحمد بن علىّ بن ثابت الحافظ فى كتابه المسمّى [١] « أسمـاء من روى عن مالك » : عن مرداس بن محمد أبى بلال الأشعرى قال : حدّثنا مالك عن نافع عن آبن عمر قال : تعلّم عمر البقرة فى آثنتى عشرة سنة ، فلما ختمها نحر جزورا . وذكر أبو بكر الأنبـارىّ : حدّثنى محمـد بن شهريار حدّثنا حسين بن الأسود حدّثنا عبيـد الله بن موسى عن زياد بن أبى مسلم أبى عمـرو عن زياد بن مخراق قال قال عبد الله بن مسعود : إنا صَعُب علينا حفظ ألفاظ القرآن، وسَهُل علينا العمل به، وإن من بعدنا يسهل عليهم حفظ القرآن، و يصعب عليهم العمل به .

حدّثنا إبراهيم بن موسى حدّثنا يوسف بن موسى حدّثنا الفضل بن دُكين حدّثنا إسماعيل آبن إبراهيم بن المهاجر عن أبيه عن مجاهد عن آبن عمر قال : كان الفاضل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صدر هذه الأمة لا يحفظ من القرآن إلا السورة أو نحوها، ورُزقوا العمل بالقرآن، وإن آخر هذه الأمة يقرءون القرآن منهم الصبي والأعمى ولا يُرزقون العمل به . حدّثنى حسن بن عبد الوهاب أبو محمـد بن أبى العنبر حدّثنا أبو بكر بن حمـاد المقرئ قال : سمعت خلف بن هشام البزار يقول : ما أظن القرآن إلا عارية فى أيدينا، وذلك إنا روّينا أن عمر بن الخطاب حفظ البقرة فى بضع عشرة سنة، فلما حفظها نحر جزورا شكرا لله ، وإن الغلام فى دهرنا هـذا يجلس بين يدىّ فيقرأ ثلث القرآن لا يُسقط منه حرفا ، فما أحسب القرآن إلا عارية فى أيدينا . وقال أهل العلم بالحديث : لا ينبغى لطالب الحديث أن يقتصر على سماع الحديث وكَتْبه ، دون معرفته وفهمه ، فيكون قد أتعب نفسـه من غير أن يظفر بطائل ، وليكن تحفّظه للحديث على التدريج قليلا قليلا مع الليالى والأيام . وممن ورد عنه ذلك من حفاظ الحديث شعبة وآبن عُلَيّة ومَعْمر، قال معمر : سمعت الزُّهرىّ يقول : من طلب العلم جُمْلَةً فاته جملة ، و إنما يدرك العلم حديثا وحديثين ، والله أعلم . وقال معاذ بن جبل : آعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله بعلمه حتى تعملوا . وقال آبن عبد البر : وروى عن النبيّ صلى الله عليـه وسلم

(١) فى الأصول : « المسمى فى ذكر أسماء ... الخ » .

مثل قول معاذ من رواية عبّاد بن عبد الصمد، وفيه زيادة : أن العلماء همّتهم الدراية ، وأن السفهاء همّتهم الرواية . وروى موقوفا وهو أولى من رواية من رواه مرفوعا؛ وعباد بن عبد الصمد ليس ممن يُحتج به . ولقد أحسن القائل فى نظمه فى فضل العلم وشرف الكتاب العزيز والسُّنّة الغرّاء :

إن العلوم وإن جلّت محاسنها * فتاجُها ما به الإيمان قد وَجَبَا
هو الكتاب العزيز ٱلله يحفظه * وبعد ذلك علمٌ فرّج الكُرَبَا
فذاك فاعلم حديث المصطفى فبه * نور النبوّة سنّ الشرع والأدبا
وبعد هذا علوم لا ٱنتهاء لها * فٱختر لنفسك يا من آثر الطلبا
والعلم كنز تجده فى معادنه * يأيها الطالب ٱبحث وٱنظر الكتبا
وٱتل بفهمٍ كتاب الله فيه أتت * كلّ العلوم تدبّره تر العجبا
وٱقرأ هُديت حديث المصطفى وسَلَنْ * مولاك ما تشتهى يقضى لك الأربا
من ذاق طعماً لعلم الدين سُرّ به * إذا تزيّد منه قال واطربا

باب معنى قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إن هذا القرآن أُنزِل على سبعة أحرف فٱقرءوا ما تَيَسّر منه "

روى مسلم عن أُبَىّ بن كعب : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان عند أَضاة بنى غفار [1] ، فأتاه جبريل عليه السلام فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمّتُك القرآن على حَرْف؛ فقال : "أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتى لا تُطيق ذلك" . ثم أتاه الثانية فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرفين ؛ فقال : " أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتى لا تطيق ذلك" . ثم جاءه الثالثة فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف؛ فقال: "أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتى لا تطيق ذلك" . ثم جاءه الرابعة فقال : إن الله يأمرك

(١) الأضاة (كحصاة) : غدير صغير . وقيل : هو مسيل الماء إلى الغدير وهو موضع قريب من مكة فوق سرف . وغفار : قبيلة من كنانة .

Marfat.com

أن تقرأ أمتك القرآن على سبعة أحرف فأيّما حرف قرءوا عليه فقد أصابوا . وروى الترمذيّ عنه قال : لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل فقال : " ياجبريل إني بُعثت إلى أمة أُمّية منهم العجوز والشيخ الكبير والغلام والجارية والرجل الذي لا يقرأ كتابا قطُّ فقال لي يا محمد إن القرآن أنزل على سبعة أحرف " . قال هذا : حديث صحيح . وثبت في الأمهات : البخاري ومسلم والموطإ وأبي داود والنسائي وغيرها من المصنّفات والمسندات قصة عمر مع هشام بن حكيم ، وسيأتي بكماله في آخر الباب مبينا إن شاء الله تعالى .

وقد آختلف العلماء في المراد بالأحرف السبعة على خمسة وثلاثين قولا ذكرها أبو حاتم محمد بن حِبّان البُسْتيّ ، نذكر منها في هذا الكتاب خمسة أقوال :

الأول ـــ وهو الذي عليه أكثر أهل العلم كسفيان بن عُيَيْنة وعبد الله بن وهب والطبري والطحاوي وغيرهم : أن المراد سبعة أوجه من المعاني المتقاربة بألفاظ مختلفة، نحو أقْبِل وتعال وهَلُمّ . قال الطحاويّ : وأبين ما ذكر في ذلك حديث أبي بكرة قال : جاء جبريل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال آقرأ على حرف؛ فقال ميكائيل : آستزده؛ فقال : آقرأ على حرفين ؛ فقال ميكائيل : آستزده ، حتى بلغ إلى سبعة أحرف؛ فقال : آقرأ فكُلٌّ شافٍ كافٍ إلا أن تخلط آية رحمة بآية عذاب ، أو آية عذاب بآية رحمة ؛ على نحو هَلُمَّ وتعالَ وأقبِل وآذهب وأسرع وعَجِّل . وروى ورقاء عن آبن أبي نجيح عن مجاهد عن آبن عباس عن أُبَيّ بن كعب أنه كان يقرأ « لِلَّذِينَ آمَنُوا آنْظُرُونا »(١) : للذين آمنوا أمهلونا، للذين آمنوا أخّرونا، للذين آمنوا آرقبونا . وبهذا الإسناد عن أُبَيّ أنه كان يقرأ « كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ »(٢) : مَرّوا فيه، سَعَوْا فيه . وفي البخاريّ ومسلم قال الزهري : إنما هذه الأحرف في الأمر الواحد ليس يختلف في حلال ولا حرام .

قال الطحاوي : إنما كانت السّعة للناس في الحروف لعجزهم عن أخذ القرآن على غير لغاتهم ، لأنهم كانوا أُمّيين لا يكتب إلا القليل منهم ؛ فلما كان يشق على كل ذي لغة أن يتحول إلى غيرها من اللغات ، ولو رام ذلك لم يتهيأ له إلا بمشقة عظيمة ، فوُسِّع لهم

(١) آية ١٣ سورة الحديد . (٢) آية ٢٠ سورة البقرة .

Marfat.com

فى آختلاف الألفاظ إذ كان المعنى متفقا، فكانوا كذلك حتى كثر منهم من يكتب وعادت لغاتهم إلى لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقدروا بذلك على تحفظ ألفاظه، فلم يسعهم حينئذ أن يقرءوا بخلافها . قال آبن عبد البر : فبان بهذا أن تلك السبعة الأحرف إنما كان فى وقت خاص لضرورة دعت إلى ذلك، ثم آرتفعت تلك الضرورة فآرتفع حكم هذه السبعة الأحرف، وعاد ما يقرأ به القرآن على حرف واحد .

روى أبو داود عن أُبَىّ قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا أُبَىّ إنى أقرئت القرآن فقيل لى على حرف أو حرفين فقال المَلَك الذى معى قل على حرفين فقيل لى على حرفين أو ثلاثة فقال المَلَك الذى معى قل على ثلاثة حتى بلغ سبعة أحرف ثم قال ليس منها إلا شافٍ كافٍ إن قلت سميعا عليما عزيزا حكيما ما لم تخلط آية عذاب برحمة أو آية رحمة بعذاب " . وأسند ثابت بن قاسم نحو هذا الحديث عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وذكر من كلام آبن مسعود نحوه . قال القاضى آبن الطيّب[1] : وإذا ثبتت هذه الرواية — يريد حديث أُبَىّ — حمل على أن هذا كان مطلقا ثم نُسخ، فلا يجوز للناس أن يبدّلوا آسما لله تعالى فى موضع بغيره مما يوافق معناه أو يخالف .

القول الثانى — قال قوم : هى سبع لغات فى القرآن على لغات العرب كلها؛ يَمَنها ونِزارها، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يجهل شيئا منها، وكان قد أوتى جوامع الكَلِم؛ وليس معناه أن يكون فى الحرف الواحد سبعة أوجه ، ولكن هذه اللغات السبع متفرقة فى القرآن، فبعضه بلغة قريش ، وبعضه بلغة هُذيل ، وبعضه بلغة هوازن، وبعضه بلغة اليمن . قال الخطابى : على أن فى القرآن ما قد قرئ بسبعة أوجه ، وهو قوله : « وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ »[2] . وقوله : « أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ »[3] وذكر وجوها، كأنه يذهب إلى أن بعضه أنزل على سبعة أحرف لا كله. وإلى هذا القول — بأن القرآن أنزل على سبعة أحرف، على سبع لغات — ذهب أبو عبيد القاسم بن سلّام وآختاره آبن عطية. قال أبو عبيد : وبعض الأحياء

(١) هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاضى أبو بكر الباقلانى .
(٢) آية ٦٠ سورة المائدة . (٣) آية ١٢ سورة يوسف .

Marfat.com

أسعد بها وأكثر حظا فيها من بعض، وذكر حديث ٱبن شهاب عن أنس أن عثمان قال لهم حين أمرهم أن يكتبوا المصاحف : ما ٱختلفتم أنتم وزيد فٱكتبوه بلغة قريش، فإنه نزل بلغتهم . ذكره البخارى وذكر حديث ٱبن عباس قال : نزل القرآن بلغة الكَعْبَيْن ؛ كعب قريش وكعب خُزاعة . قيل : وكيف ذلك ؟ قال : لأن الدار واحدة . قال أبو عبيد : يعنى أن خزاعة جيران قريش فأخذوا بلغتهم .

قال القاضى ٱبن الطيب رضى الله عنه : معنى قول عثمان فإنه نزل بلسان قريش، يريد معظمه وأكثره ، ولم تقم دلالة قاطعة على أن القرآن بأسره منزل بلغة قريش فقط ، إذ فيه كلمات وحروف هى خلاف لغة قريش ، وقد قال الله تعالى : « إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا »[1] ولم يقل قرشيًّا ؛ وهذا يدل على أنه منزل بجميع لسان العرب ، وليس لأحد أن يقول : إنه أراد قريشا من العرب دون غيرها، كما أنه ليس له أن يقول : أراد لغة عَدْنان دون قَحْطان، أو ربيعة دون مُضَر ؛ لأن ٱسم العرب يتناول جميع هذه القبائل تناولا واحدا .

وقال ٱبن عبد البر : قول من قال إن القرآن نزل بلغة قريش معناه عندى فى الأغلب والله أعلم ؛ لأن غير لغة قريش موجودة فى صحيح القراءات من تحقيق الهمزات ونحوها ، وقريش لا تهمز . وقال ٱبن عطية : معنى قول النبى صلى الله عليه وسلم " أنزل القرآن على سبعة أحرف " أى فيه عبارة سبع قبائل بلغة جملتها نزل القرآن ، فيعبَّر عن المعنى فيه مرّة بعبارة قريش ، ومرة بعبارة هُذيل، ومرة بغير ذلك بحسب الأفصح والأوجز فى اللفظ ، ألا ترى أن « فطر » معناه عند غير قريش : ٱبتدأ [خلق الشيء وعَمَله[2]] فجاءت فى القرآن فلم تتجه لٱبن عباس، حتى ٱختصم إليه أعرابيان فى بئر ، فقال أحدهما : أنا فَطَرْتها، قال ٱبن عباس : ففهمت حينئذ موضع قوله تعالى «فَاطِرِ السَّموات والأرض» . وقال أيضا: ما كنت أدرى معنى قوله تعالى « رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا و بَيْنَ قَوْمِنا بالْحَقِّ[3] » حتى سمعت بنت ذى يزن تقول لزوجها : تعالَ أُفاتِحْكَ، أى أحاكمك . وكذلك قال عمر بن الخطاب وكان لا يفهم معنى قوله تعالى « أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ[4] » أى على تنقص لهم . وكذلك ٱتفق لقطبة بن مالك إذ

(١) آية ٣ سورة الزخرف . (٢) زيادة عن ابن عطية . (٣) آية ٨٩ سورة الأعراف .
(٤) آية ٤٧ سورة النحل .

Marfat.com

سمع النبيّ صلى الله عليـه وسلم يقرأ فى الصـلاة : « والنَّخْلَ باسِقاتٍ »(١) ذكره مسلم فى باب (القراءة فى صلاة الفجر) إلى غير ذلك من الأمثلة .

القول الثالث : أن هذه اللغات السبع إنمـا تكون فى مُضَر، قاله قوم، وآحتجوا بقول عثمان : نزل القرآن بلغـة مُضَر، وقالوا : جائز أن يكون منها لقريش ، ومنها لكِنانة ، ومنها لأسد، ومنها لهُذَيل، ومنها لتَيْم، ومنها لضَبَّة، ومنها لقَيْس؛ قالوا: هذه قبائل مُضَر تستوعب سبع لغات على هذه المراتب؛ وقد كان آبن مسعود يحب أن يكون الذين يكتبون المصاحف من مضر . وأنكر آخرون أن تكون كلها من مضر، وقالوا : فى مضر شواذ لا يجوز أن يقرأ القرآن بها ، مثل كَشْكَشة قَيْس وتَمْتَمة تميم؛ فأما كشكشة قيس فإنهم يجعلون كاف المؤنث شينا ، فيقولون فى « جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا »(٢) : جعل رَبُّشِ تحتَشِ سريًّا ؛ وأما تمتمة تميم فيقولون فى الناس : النات، وفى أكياس : أكيات . قالوا : وهذه لغات يرغب عن القرآن بها، ولا يحفظ عن السلف فيها شيء .

وقال آخرون : أما إبدال الهمزة عينا وإبدال حروف الحَلْق بعضها من بعض فمشهور عن الفصحاء ، وقد قرأ به الجِلَّة ، وآحتجوا بقـراءة آبن مسعود : لَيَسْجُنُنَّه عتى حين ؛ ذكرها أبو داود؛ وبقول ذى الرُّمَّة :

فعيناكِ عيناها وجيدُكِ جيدُها * ولَوْنُـكِ إلا عَنَّهـا غيرُ طـائِلِ

يريد إلا أنها .

القول الرابع : ما حكاه صاحب الدلائل عن بعض العلمـاء ، وحكى نحوه القاضى ابن الطيب قال : تدبرت وجوه الآختلاف فى القـراءة فوجدتها سبعاً : منهـا ما تتغيّر حركته ، ولا يزول معنـاه ولا صورته، مثـل : « هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ » وأطْهَرَ، « ويَضِيقُ صَـدْرِى » ويضيقَ . ومنها ما لا تتغيّر صورته ويتغيّر معناه بالإعراب، مثل: « رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا » وباعَدَ . ومنهـا ما تبقى صورته ويتغيّر معناه باختلاف الحروف ، مثـل قوله : « نُنْشِزُهَا » وننشرها . ومنها ما تتغيّر صورته ويبقى معناه : « كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ » وكالصوف المنفوش .

(١) آية ١٠ سورة ق . (٢) آية ٢٤ سورة مريم .

Marfat.com

ومنها ما تتغير صورته ومعناه ، مثـل : « وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ » وطلع منضود . ومنهـا بالتقديم والتاخير كقوله : « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ » وجاءت [سكرة] الحق بالموت . ومنها بالزيادة والنقصان ، مثل قوله : تسع وتسعون نعجة أنثى ، وقوله : وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين ، وقوله : فإن الله من بعد إكراههن لهنّ غفور رحيم .

القول الخامس : أن المراد بالأحرف السبعة معانى كتاب الله تعـالى ، وهى أمْرٌ ونَهْىٌ ووعد ووعيد وقَصَصٌ ومجادلة وأمثال . قال ابن عطية . وهذا ضعيف لأن هـذا لا يسمى أحرفا ، وأيضا فالإجماع على أن التوسعة لم تقع فى تحليل حلال ولا فى تغيير شىء من المعانى . وذكر القاضى ابن الطيب فى هذا المعنى حديثا عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : ولكن ليست هذه هى التى أجاز لهم القراءة بها ، وإنما الحرف فى هذه بمعنى الجهة والطريقة؛ ومنه قوله تعالى : « وَمِنَ النَّـاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ » (١) فكذلك معنى هـذا الحديث على سبع طرائق من تحليل وتحريم وغير ذلك . وقد قيل : إن المراد بقوله عليه السلام " أنزل القرآن على سبعة أحرف " القراءات السبع التى قرأ بها القراء السبعة؛ لأنها كلها صحت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا ليس بشىء لظهور بطلانه على ما يأتى .

(فصـــل) قال كثير من علمائنا كالدَّاوُدِى وابن أبى صُفْرة وغيرهما : هذه القراءات السبع التى تنسب لهؤلاء القراء السـبعة ، ليست هى الأحرف السـبعة التى اتسعت الصحابة فى القراءة بها ، وإنما هى راجعة إلى حرف واحد من تلك السبعة ، وهو الذى جمع عليه عثمان المصحف ، ذكره ابن النحاس وغيره . وهذه القراءات المشهورة هى اختيارات أولئك الأئمة القراء ، وذلك أن كل واحد منهـم اختار فيما رَوى وعلِم وجهـه من القراءات ما هو الأحسن عنده والأولى ، فالتزمه طريقة ورواه وأقرأ به واشتهر عنه ، وعُرف به ونُسب إليه ، فقيل : حرف نافع ، وحرف ابن كثير؛ ولم يمنع واحد منهم اختيار الآخر ولا أنكره بل سوّغه وجوّزه ، وكل واحد من هؤلاء السبعة روى عنه اختياران أو أكثر ، وكلٌّ صحيح . وقد أجمع المسلمون فى هذه الأعصار على الاعتماد على ما صح عن هؤلاء الأئمة مما رووه ورأوه من القراءات وكتبوا

(١) آية ١١ سورة الحج .

Marfat.com

فى ذلك مصنفات، فٱستمر الإجماع على الصواب، وحصل ماوعد الله به من حفظ الكتاب، وعلى هذا الأئمة المتقدمون والفضلاء المحققون كالقاضى أبى بكر بن الطيب والطبرى وغيرهما .
قال ٱبن عطية : ومضت الأعصار والأمصار على قراءة السبعة وبها يصلّى لأنها ثبتت بالإجماع؛ وأما شاذّ القراءات فلا يصلّى به لأنه لم يجمع الناس عليه، أما أن المروىّ منه عن الصحابة رضى الله عنهم وعن علماء التابعين فلا يعتقد فيه إلا أنهم رووه، وأما مايؤثر عن أبى السمّال[1] ومن قارنه فإنه لا يوثق به . قال غيره : أما شاذ القراءة عن المصاحف المتواترة فليست بقرآن، ولا يُعمل بها على أنها منه، وأحسنُ محاملها أن تكون بيانَ تأويل مذهب من نُسبت إليه كقراءة ٱبن مسعود : فصيام ثلاثة أيام متتابعات . فأما لو صرّح الراوى بسماعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم فاختلف العلماء فى العمل بذلك على قولين : النفى والإثبات؛ وجه النفى أن الراوى لم يروه فى معرض الخبر بل فى معرض القرآن، ولم يثبت فلا يثبت . والوجه الثانى أنه وإن لم يثبت كونه قرآنا فقد ثبت كونه سنة، وذلك يوجب العمل كسائر أخبار الآحاد .

فصل فى ذكر معنى حديث عمر وهشام . قال ٱبن عطية : أباح الله تعالى لنبيّه عليه السلام هذه الحروف السبعة، وعارضه بها جبريل عليه السلام فى عرضاته على الوجه الذى فيه الإعجاز وجودة الرصف، ولم تقع الإباحة فى قوله عليه السلام : " فٱقرءوا ما تيسّر منه " بأن يكون كل واحد من الصحابة إذا أراد أن يبدّل اللفظة من بعض هذه اللغات جعلها من تلقاء نفسه، ولو كان هذا لذهب إعجاز القرآن، وكان معرّضا أن يبدّل هذا وهذا حتى يكون غير الذى نزل من عند الله، وإنما وقعت الإباحة فى الحروف السبعة للنبىّ صلى الله عليه وسلم ليوسّع بها على أمته، فأقرأ مرّة لأُبَىّ بما عارضه به جبريل، ومرّة لٱبن مسعود بما عارضه به أيضا؛ وعلى هذا تجىء قراءة عمر بن الخطاب لسورة « الفرقان »، وقراءة

(١) أبو السمال (بفتح السين وتشديد الميم وباللام) : هو قعنب بن أبى قعنب العدوى البصرى، له اختيار فى القراءات شاذ عن العامة . وقد ذكر فى الطبعة الأولى فى هذا الموضع وفى ص ٣٦٨ محرّفا، والتصويب عن طبقات القراء .

Marfat.com

هشام بن حَكيم لهـا ، وإلا فكيف يستقيم أن يقول النبيّ صلّى الله عليـه وسلّم فى كل قراءة منهما وقد آختلفا : " هكذا أقرأني جبريل " هل ذلك إلا أنه أقرأه مَرّة بهذه ومَرّة بهذه ، وعلى هذا يحمل قول أنس حين قرأ : « إنّ ناشِئة اللّيلِ هى أشدّ وَطْأً وأصْوَب قِيلًا » فقيل له : إنمـا نقرأ « وأقوَمُ قِيلا » . فقال أنس : وأصْوَب قِيلًا، وأقوم قِيلًا وأهيأ، واحد؛ فإنمـا معنى هذا أنها مروية عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وإلا فلو كان هذا لأحد من الناس أن يضعه لبطل معنى قوله تعالى : « إنّا نَحْنُ نَزّلنـا الذّكْرَ وإنّا لَهُ لَحَافِظُونَ »[1] . روى البخاريّ ومسلم وغيرهما عن عمر بن الخطاب قال : سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة « الفُرْقان » على غير ما أقرؤها، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرأنيها ، فكدت أن أَعْجَل عليه، ثم أمهلته حتى آنصرف ثم لَبّبْته[2] بردائه ، فجئت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله، إنى سمعت هذا يقرأ سورة «الفرقان» على غير ما أقرأتنيها ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أرْسِلْه[3] آقرأ " فقرأ القراءة التى سمعته يقرأ ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " هكذا أنزلت " ثم قال لى : " آقرأ " فقرأت فقال : " هكذا أنزلت إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ماتيسر منه " .

قلت : وفى معنى حديث عمر هـذا ، مارواه مسـلم عن أُبَىّ بن كعب قال : كنت فى المسجد فدخل رجل يصلّى، فقرأ قراءة أنكرْتُها عليه، ثم دخل آخر فقرأ قراءة سِوَى قراءة صاحبه ، فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعا على رسول الله صلى الله عليه وسـلم فقلت : إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه، ودخل آخر فقرأ سِوَى قراءة صاحبه؛ فأمرهما النبيّ صلى الله عليه وسلم فقرأا، فحسّن النبيّ صلى الله عليـه وسلم شأنهما؛ فسُقِط فى نفسى من التكذيب ولا إذ كنت فى الجاهلية ، فلما رأى النبيّ صلى الله عليـه وسلم ماقد غشينى ، ضرب فى صـدرى ففضت عَرَقًا، وكأنما أنظر إلى الله تعالى فَرَقًا، فقال لى : "ياأُبَىّ أُرْسِلَ إلىّ أن آقرأ القرآن على حرف فرددت إليه أن هوّن على أمّتى فردّ إلىّ الثانيةَ آقرأه على حرفين فرددت إليه أن هوّن على أمّتى

(١) آية ٩ سورة الحجر . (٢) قوله : لببته بردائه . أى جمعت ثيابه عند صـدره ونحره ثم جررته .
(٣) أرسل الشيء : أطلقه .

فردّ إلىّ الثالثة اقرأه على سبعة أحرف فلك بكل ردّة رددتكها مسألة تسألنيها فقلت اللهمّ اغفر لأمتى اللهم اغفر لأمتى وأخرت الثالثة ليوم يرغبُ إلىّ فيه الخلق كلهم حتى إبراهيم عليه السلام " .

قول أُبَىّ رضى الله عنه : « فسقط فى نفسى » معناه اعترتنى حَيْرة ودهشة؛ أى أصابته نزغة من الشيطان ليشوّش عليه حاله ، ويكدّر عليه وقته؛ فإنه عظّم عليه من اختلاف القراءات ما ليس عظيما فى نفسه ؛ وإلا فأىّ شىء يلزم من المحال والتكذيب من اختلاف القراءات ، ولم يلزم ذلك والحمد لله فى النّسخ الذى هو أعظم ، فكيف بالقراءة !

ولمّا رأى النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ما أصابه من ذلك الخاطر نبّهه بأن ضربه فى صدره ، فأعقب ذلك بأن انشرح صدره وتنوّر باطنه ، حتى آل به الكشف والشرح إلى حالة المعاينة ؛ ولما ظهر له قُبح ذلك الخاطر خاف من الله تعالى وفاض بالعرق استحياء من الله تعالى ، فكان هذا الخاطر من قبيل ما قال فيه النبىّ صلى الله عليه وسلم — حين سألوه : إنا نجد فى أنفسنا ما يتعاظَمُ أحدُنا أن يتكلّم به — قال : " وقد وجدتموه " ؟ قالوا : نعم ، قال : " ذلك صريح الإيمان " . أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة . وسيأتى الكلام عليه فى سورة « الأعراف » إن شاء الله تعالى .

باب ذكر جمع القرآن، وسبب كتب عثمان المصاحف وإحراقه ما سواها، وذكر من حفظ القرآن من الصحابة رضى الله عنهم فى زمن النبىّ صلى الله عليه وسلم

كان القرآن فى مدّة النبىّ صلّى الله عليه وسلّم متفرقًا فى صدور الرجال، وقد كتب الناس منه فى صُحُف وفى جَريد وفى لِخاف وظُرَر وفى خَزَف وغير ذلك — قال الأصمعى : اللِّخاف : حجارة بيض رِقاق، واحدتها لَخْفة . والظُّرَر : حجر له حدّ كحد السكين، والجمع ظِرار؛ مثل رُطَب ورِطاب ، ورُبَع ورِباع ، وظِرّان أيضا مثل صُرَد وصِردان — فلما استحرّ[1] القتلُ

(١) قوله : استحر ، أى اشتد وكثر .

Marfat.com

بالقراء يوم اليمامة فى زمن الصديق رضى الله عنه ، وقُتل منهم فى ذلك اليوم فيا قيل سبعمائة، أشار عمر بن الخطاب على أبى بكر الصديق رضى الله عنهما بجمع القرآن مخافة أن يموت أشياخ القرّاء ، كأبىّ وابن مسعود وزيد؛ فندبا زيد بن ثابت إلى ذلك، فجمعه غير مرتب السُّور، بعد تعب شديد، رضى الله عنه . روى البخارىّ عن زيد بن ثابت قال : أرسل إلىّ أبو بكر مقتلَ أهلِ اليمامة وعنده عمر ، فقال أبو بكر : إن عمر أتانى فقال إن القتــل قد استحرّ يوم اليمامة بالناس ، وإنى أخشى أن يستحرّ القتل بالقراء فى المواطن ، فيذهبَ كثير من القرآن إلّا أن تجمعوه ، وإنى لأرى أن تجمع القرآن ، قال أبو بكر : فقلت لعمر كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : هو والله خير؛ فلم يزل يراجعنى حتى شرح الله لذلك صدرى ، ورأيتُ الذى رأى عمر . قال زيد : وعنده عمر جالس لا يتكلم ، فقال لى أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل ولا نتّهمك ، كنتَ تكتب الوحى لرسول الله صــلى الله عليه وسلم ، فتتبع القرآن فاجمعه، فوالله لو كلّفنى نقلَ جبل من الجبال ما كان أثقل علىّ مما أمرنى به من جمع القرآن ؛ قلت : كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال أبو بكر : هو والله خير ؛ فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صــدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر ؛ فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف(١) والعُسُب(٢) وصــدور الرجال، حتى وجدت من ســورة « التوبة » آيتين مع خُزيمــة الأنصارى لم أجدهما مع غيره « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ » إلى آخرها . فكانت الصحف التى جمع فيهــا القرآن عند أبى بكر حتى توفّاه الله ثم عند عمر حتى توفّاه الله ثم عند حفصة بنت عمر . وقال الليث حدثنى عبد الرحمن ابن غالب عن ابن شهاب وقال : مع أبى خزيمــة الأنصارى . وقال أبو ثابت حدثنا إبراهيم وقال : مع خزيمة أو أبى خزيمــة « فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُــلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْــهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ » .

---

(١) الأكتاف : جمع كتف وهو عظم عريض يكون فى أصل كتف الحيوان كانوا يكتبون فيه لقلة القراطيس عندهم .

(٢) العسب : جمع عسيب وهو جريد النخل إذا نزع منه خوصه .

Marfat.com

وقال الترمذى فى حديثه عنه : فوجدت آخر سورة براءة مع خزيمة بن ثابت « لقد جاءكم رسول مِن أنفسِكم عَزيز عليـه ما عَنِتم حَرِيص عليكم بِالمؤمِنِين رءوف رحِيم . فإن تَوَلَّوْا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليهِ توكلت وهو رب العرش العظِيم » . قال : حديث حسن صحيح .

وفى البخارى عن زيد بن ثابت قال : لمـا نسخنا الصُّحف فى المصاحف فَقَـدْتُ آيةً من سورة «الأحزاب» كنت أسمع رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها ، لم أجدها مع أحد إلا مع خزيمة الأنصارى(١) ــ الذى جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادته بشهادة رجلين ــ « رِجَالٌ صَـدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ » . وقال الترمذى عنه : فقدتُ آية من سورة « الأحزاب » كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها « مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ » فآلتمستها فوجدتها عند خزيمة بن ثابت أو أبى خزيمة ، فألحقتها فى سورتها .

قلت : فسقطت الآية الأولى من آخر « براءة » فى الجمـع الأول ، على ما قاله البخارى والترمذى ؛ وفى الجمع الثانى فقـدت آية من سورة « الأحزاب » . وحكى الطبرى : أن آية « براءة » سقطت فى الجمع الأخير ، والأول أصح والله أعلم . فإن قيل : فمـا وجه جمع عثمان الناس على مصحفه ، وقد سبقه أبو بكر إلى ذلك وفرغ منه ؛ قيل له : إن عثمان رضى الله عنه لم يَقْصِد بما صنع جَمْعَ الناس على تأليف المصحف ، ألا ترى كيف أرسل إلى حفصة : أن أرسلى إلينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردّها إليك ؛ على ما يأتى . وإنمـا فعل ذلك عثمان لأن الناس آختلفوا فى القراءات بسبب تفرق الصحابة فى البلدان وآشتد الأمر فى ذلك وعظم آختلافهم وتشبثهم ؛ ووقع بين أهـل الشام والعراق ما ذكره حذيفة رضى الله عنه . وذلك أنهم آجتمعوا فى غَزْوة أرْمِينِيَة فقرأت كل طائفة بما رُوِى لهـا ؛ فاختلفوا وتنازعوا وأظهر بعضهم إكفار بعض والبراءة منـه وتلاعنوا ؛ فأشفق حذيفة مما رأى منهم ؛ فلما قدم حُذيفة المدينة ــ فيما ذكر البخارىّ والترمذىّ ــ دخل إلى عثمان قبل أن يدخل إلى بيته ، فقال : أدرك هذه الأمة قبل أن تَهْلِك ! قال : فيماذا ؟ قال : فى كتاب الله ، إنى حضرت

(١) خزيمة ذو الشهادتين غير أبى خزيمة بالكنية (القسطلانى) .

Marfat.com

هذه الغزوة، وجَمَعَتْ ناسا من العراق والشام والحجاز؛ فوصف له ما تقدّم وقال: إنى أخشى عليهم أن يختلفوا فى كتابهم كما آختلف اليهود والنصارى .

قلت : وهذا أدل دليل على بطلان من قال : إن المراد بالأحرف السبعة قراءات القراء السبعة ،لأن الحق لا يختلف فيه ، وقد روى سُوَيد بن غَفَلَة عن علىّ بن أبى طالب أن عثمان قال : ما ترون فى المصاحف ؟ فإن النــاس قد آختلفوا فى القراءة حتى إن الرجل ليقول : قراءتى خير من قراءتك ، وقراءتى أفضل من قراءتك . وهــذا شبيه بالكفر؛ قلنا : ما الرأى عندك يا أمير المؤمنين؟ قال : الرأى عندى أن يجتمع الناس على قراءة ، فإنكم إذا اختلفتم اليوم كان مَنْ بعدكم أشد آختلافا ؛ قلنا : الرأى رأيك يا أمير المؤمنين؛ فأرسل عثمان إلى حفصة : أن أرسلى إلينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردّها إليك؛ فأرسلت بها إليه فأمر زيد ابن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاصى وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها فى المصاحف . وقال عثمان للرهط القرشـيين : إذا آختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شىء من القرآن فاكتبوه بلســان قريش ، فإنما نزل بلسانهم ؛ ففعلوا . حتى إذا نسخوا الصحف فى المصاحف ردّ عثمان الصحف إلى حفصة ، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما ســوى ذلك من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يحرق . وكان هذا من عثمان رضى الله عنه بعد أن جمع المهاجرين والأنصار وجِلّة أهل الإسلام وشاورهم فى ذلك؛ فاتفقوا على جمعه بما صح وثبت فى القراءات المشهورة عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم واطّراح ما سواها ، وآستصوبوا رأيه وكان رأيا ســديدا موفَّقا؛ رحمة الله عليــه وعليهم أجمعين . وقال الطبرى فيما روى : أن عثمان قَرَن بزيد أبَانَ بن سعيد بن العاصى وحده ؛ وهذا ضعيف . وما ذكره البخارى والترمذىّ وغيرهما أصح . وقال الطبرى أيضا : إن الصحف التى كانت عند حفصة جُعلت إمامًا فى هذا الجمع الأخير؛ وهذا صحيح .

وقال آبن شهاب : وأخبرنى عبيد الله بن عبد الله أن عبد الله بن مسعود كره لزيد بن ثابت نسخ المصاحف ، وقال : يا معشر المسلمين ، أُعْزَلُ عن نسخ المصاحف ويتولاّه رجل ،

Marfat.com

والله لقد أسلمت و إنه لفى صُلب رجل كافر ! . يريد زيد بن ثابت . ولذلك قال عبد الله آبن مسعود: ياأهل العراق، آكتموا المصاحف التى عندكم وغُلّوها، فإن الله عزّ وجلّ يقول : « وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » فآلقوا الله بالمصاحف ، خرّجه الترمذى . وسيأتى الكلام فى هذا فى سورة « آل عمران »(١) إن شاء الله تعالى .

قال أبو بكر الأنبارىّ : ولم يكن الآختيار لزيد من جهة أبى بكر وعمر وعثمان على عبد الله آبن مسعود فى جمع القرآن، وعبد الله أفضل من زيد، وأقدم فى الإسلام ، وأكثر سوابق، وأعظم فضائل، إلا لأن زيدا كان أحفظ للقرآن من عبد الله، إذ وَعاه كلّه ورسول الله صلّى الله عليه وسلم حىّ، والذى حفظ منه عبد الله فى حياة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم نيّف وسبعون سورة، ثم تعلّم الباقى بعد وفاة الرسول صلّى الله عليه وسلّم؛ فالذى ختم القرآن وحفظه ورسول الله صلى الله عليه وسلم حىّ أَوْلى بجمع المصحف وأحق بالإيثار و الآختيار . ولا ينبغى أن يظنّ جاهل أن فى هذا طعنًا على عبد الله بن مسعود؛ لأن زيدا إذا كان أحفظ للقرآن منه فليس ذلك موجبا لتقدمته عليه، لأن أبا بكر وعمر رضى الله عنهما كان زيد أحفظ منهما للقرآن، وليس هو خيرًا منهما ولا مساويًا لهما فى الفضائل والمناقب . قال أبو بكر : وما بدا من عبد الله بن مسعود من نكير ذلك فشىء نَتَجه الغضب ، ولا يُعمل به ولا يؤخذ به ، ولا يُشك فى أنه رضى الله عنه قد عرف بعد زوال الغضب عنه حسن آختيار عثمان ومن معه من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلم، و بقى على موافقتهم وترك الخلاف لهم . فالشائع الذائع المتعالَم عند أهل الرواية والنقل : أن عبد الله بن مسعود تعلم بقيّة القرآن بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد قال بعض الأئمة : مات عبد الله بن مسعود قبل أن يختم القرآن . قال يزيد بن هارون : المعوِّذتان بمنزلة البقرة وآل عمران ، من زعم أنهما ليستا من القرآن فهو كافر بالله العظيم؛ فقيل له : فقول عبد الله بن مسعود فيهما ؟ فقال : لا خلاف بين المسلمين فى أن عبد الله بن مسعود مات وهو لا يحفظ القرآن كله .

قلت : هذا فيه نظر ، وسيأتى . وروى إسماعيل بن إسحاق وغيره قال حماد ـ أظنه عن أنس بن مالك ، قال : كانوا يختلفون فى الآية فيقولون أقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) فى آية ١٦١ راجع جـ ٤ ص ٢٥٦

Marfat.com

فلان بن فلان ؛ فعسى أن يكون من المدينة على ثلاث ليال فيُرسَـل إليه فيُجاء به ، فيقال : كيف أقرأك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم آية كذا وكذا؟ فيكتبون كما قال . قال آبن شهاب : وآختلفوا يومئذ فى التـابوت ، فقال زيد : التـابوه . وقال آبن الزبير وسعيد بن العاصى : التـابوت ؛ فُرفع آختلافهم إلى عثمان فقال : آكتبوه بالتـاء ؛ فإنه نزل بلسان قريش . أخرجه البخارى والترمذى . قال آبن عطية : قرأه زيد بالهاء والقرشيون بالتاء، فأثبتوه بالتاء؛ وكتبت المصاحف على ما هو عليـه غابر الدهر، ونسخ منها عثمان نسخاً . قال غيره : قيـل سبعة . وقيل أربعة وهو الأكثر، ووجّه بها إلى الآفاق، فوجّه للعراق والشام ومصر بأمّهات، فآتخذها قرّاء الأمصار معتمد آختياراتهم، ولم يخالف أحد منهم مصحفه على النحو الذى بلغه، وما وجد بين هؤلاء القرّاء السبعة من الآختلاف فى حروف يزيدها بعضهم وينقصها بعضهم فذلك لأن كلا منهم آعتمد على ما بلغه فى مصحفه ورواه، إذ قد كان عثمان كتب تلك المواضع فى بعض النسخ ولم يكتبها فى بعض إشعارا بأن كل ذلك صحيح، وأن القراءة بكل منها جائزة . قال آبن عطية : ثم إن عثمان أمر بما سواها من المصاحف أن تُحرَق أو تُخرَق ، تروى بالحاء غير منقوطة وتروى بالخاء على معنى ثم تدفن، ورواية الحاء غير منقوطة أحسن .

وذكر أبو بكر الأنبارى فى كتاب الردّ عن سُوَيد بن غَفَلة قال : سمعت علىّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه يقول : يا معشر الناس، اتقوا الله! وإيّاكم والغُلُوّ فى عثمان، وقولكم : حرّاق المصاحف؛ فوالله ما حرقها إلا عن ملأ منا أصحاب محمد صلّى الله عليه وسلّم. وعن عُمير بن سعيد قال قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : لو كنت الوالى وقت عثمان لفعلت فى المصاحف مثل الذى فعل عثمان . قال أبو الحسن بن بطّال: وفى أمر عثمان بتحريق الصحف والمصاحف حين جمع القرآن جواز تحريق الكتب التى فيها أسماء الله تعالى ، وأن ذلك إكرام لها وصيانة عن الوطء بالأقدام، وطرحها فى ضياع من الأرض . روى معمر عن ابن طاوس عن أبيه : أنه كان يحرق الصحف إذا آجتمعت عنده الرسائل فيها بسم الله الرحمن الرحيم. وحرق عروة ابن الزبير كتب فقـه كانت عنـده يوم الحرّة، وكره إبراهيم أن تحرق الصحف إذا كان فيها

قرآن کے بوسیدہ اوراق کو جلانا یا دفن کرنا

Marfat.com

ذكر الله تعالى؛ وقول من حرقها أولى بالصواب ، وقد فعله عثمان . وقد قال القاضي أبو بكر لسان الأمة : جائز للإمام تحريق الصحف التي فيها القرآن، إذا أدّاه الاجتهاد إلى ذلك .

فصل — قال علماؤنا رحمة الله عليهم : وفي فعل عثمان رضي الله عنه ردٌّ على الحُلُولية[1] والحَشْوِيّة القائلين بقدم الحروف والأصوات، وأن القراءة والتلاوة قديمة، وأن الإيمان قديم، والروح قديم؛ وقد أجمعت الأمة وكل أمة من النصارى واليهود والبراهمة بل كلّ ملحد وموحد أن القديم لا يُفْعَل ولا تتعلق به قدرة قادر بوجه ولا بسبب، ولا يجوز العدم على القديم وأن القديم لا يصير مُحْدَثا ، والمحدَث لا يصير قديما، وأن القديم ما لا أوّل لوجوده ، وأن المحدَث هو ما كان بعد أن لم يكن؛ وهذه الطائفة خرقت إجماع العقلاء من أهل الملل وغيرهم؛ فقالوا : يجوز أن يصير المحدث قديما ، وأن العبد إذا قرأ كلام الله تعالى فعل كلاما لله قديما ، وكذلك إذا نحت حروفا من الآجُرّ والخشب، أو صاغ أحرفا من الذهب والفضة، أو نسج ثوبا فنقش عليه آية من كتاب الله فقد فعل هؤلاء كلام الله قديما، وصار كلامه منسوجا قديما ومنحوتا قديما ومصوغا قديما؛ فيقال لهم : ما تقولون في كلام الله تعالى، أيجوز أن يذاب ويمحى ويحرق؟ فإن قالوا : نعم، فارقوا الدّين، وإن قالوا : لا، قيل لهم : فما قولكم في حروف مصوّرة آية من كتاب الله تعالى من شمع، أو ذهب أو فضة أو خشب أو كاغد فوقعت في النار فذابت واحترقت ، فهل تقولون : إن كلام الله احترق ؟ فإن قالوا : نعم ، تركوا قولهم ؛ وإن قالوا : لا ، قيل لهم أليس قلتم : إن هذه الكتابة كلام الله وقد احترقت ! وقلتم : إن هذه الأحرف كلامه وقد ذابت؛ فإن قالوا : احترقت الحروف وكلامه تعالى باق، رجعوا إلى الحق والصواب ودانوا بالجواب؛ وهو الذي قاله النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، منبّهاً على ما يقول أهل الحق : ولو كان القرآن في إهاب ثم وقع في النار ما احترق. وقال الله عزّ وجلّ : "أنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء تقرؤه نائما ويقظان" الحديث، أخرجه مسلم . فثبت بهذا

(١) الحلولية : فرقة من المتصوّفة تقول : إن الله حالٌّ في كل شيء وفي كل جزء منه متحد به حتى جوّزوا أن يطلق على كل شيء أنه الله . والحشوية : طائفة من المبتدعة تمسكوا بالظواهر وذهبوا إلى التجسيم وغيره .

Marfat.com

أن كلامه سبحانه ليس بحرف ولا يشبه الحروف . والكلام فى هذه المسألة يطول ، وتتميمها فى كتب الأصول ، وقد بيناها فى (الكتاب الأسنى ، فى شرح أسماء الله الحسنى) .

فصل — وقد طعن الرافضـة — قبحهم الله تعـالى — فى القـرآن ، وقالوا : إن الواحد يكفى فى نقل الآية والحـرف كما فعلتم ، فإنكم أثبتم بقول رجل واحد وهو خزيمة بن ثابت وحده آخر سورة «براءة» وقوله : «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ» . فالجواب أن خزيمة رضى الله عنه لـمـا جاء بهما تذكّرهما كثير من الصحابة ، وقد كان زيد يعرفهما ، ولذلك قال : فقدت آيتين من آخر سورة «التوبة» . ولو لم يعرفهما لم يدر هل فَقَدَ شيئا أولا ، فالآية إنمـا ثبتت بالإجماع لا بخزيمة وحده . جواب ثان — إنمـا ثبتت بشهادة خزيمة وحده لقيام الدليل على صحتها فى صفة النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ، فهى قرينـة تغنى عن طلب شاهد آخر بخلاف آية « الأحزاب » فإن تلك ثبتت بشهادة زيد وأبى خزيمة لسماعهما إياها من النبىّ صلّى الله عليه وسلّم . قال معناه المهلب ، وذكر أن خزيمة غير أبى خزيمة ، وأن أبا خزيمة الذى وجدت معه آية التوبة معروف من الأنصار ، وقد عرفه أنس وقال : نحن ورثناه ، والتى فى الأحزاب وجدت مع خزيمة بن ثابت فلا تعارض ، والقصة غير القصة لا إشكال فيها ولا التباس . وقال ابن عبد البر : « أبو خزيمة لا يوقف على صحة اسمه وهو مشهور بكنيته ، وهو أبو خزيمة بن أوس بن زيد بن أصرم بن ثعلبة بن غُنْم بن مالك بن النجار ، شهد بدرا وما بعدها من المشاهد ، وتوفّى فى خلافة عثمان بن عفان ، وهو أخو مسعود بن أوس . قال ابن شهاب عن عبيد بن السباق عن زيد بن ثابت : وجدت آخر التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى وهو هذا ، وليس بينه وبين الحارث بن خزيمة أبى خزيمة نسب إلا اجتماعهما فى الأنصـار ، أحدهما أوسىّ والآخر خَزْرَجِىّ » . وفى مسلم والبخارى عن أنس بن مالك قال : جمع القرآنَ على عهد النبىّ صلى الله عليه وسلّم أربعةٌ كلهم من الأنصار : أُبَىّ بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد . قلت لأنس : مَن أبو زيد؟ قال : أحد عمومتى . وفى البخارىّ أيضا عن أنس قال : مات النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ولم يجمع القرآن غير أربعة : أبوالدرداء ، ومعاذ بن جبل ،

Marfat.com

وزيد، وأبو زيد؛ [قال][1] : ونحن ورثناه. وفى أخرى قال : مات أبو زيد ولم يترك عَقِباً ، وكان بَدْرِيًّا، وآسم أبى زيد سـعد بن عُبيد . قال آبن الطَّيب رضى الله عنه : لا تدل هذه الآثارعلى أن القرآن لم يحفظه فى حياة النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ولم يجمعه غير أربعة من الأنصار كما قال أنس بن مالك ، فقـد ثبت بالطرق المتواترة أنه جمع القرآن عثمان وعلىّ وتميم الدارىّ وعُبادة بن الصامت وعبد الله بن عمرو بن العاص . فقول أنس : لم يجمع القرآن غير أربعة ، يحتمل أنه لم يجمع القرآن وأخذه تلقيناً من فى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم غير تلك الجماعة ؛ فإن أكثرهم أخذ بعضَه عنه و بعضه عن غيره، وقد تظاهرت الروايات بأن الأئمة الأربعة جمعوا القرآن على عهد النبى صلى الله عليه وسلم لأجل سبقهم إلى الإسلام، و إعظام الرسول صلى الله عليه وسلم لهم .

قلت : لم يذكر القاضى، عبدَ الله بن مسعود وسالمـا مولى أبى حُذيفة رضى الله عنهما فيما رأيت ، وهما ممن جمع القرآن. روى جرير عن عبــد الله بن يزيد الصهبانى عن كُميل قال قال عمر بن الخطاب : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر ومن شاء الله ، فمررنا بعبد الله بن مسعود وهو يصلى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من هذا الذى يقرأ القرآن " . فقيل له : هذا عبد الله بن أُم عَبْد؛ فقال : " إن عَبْد الله يقرأ القرآن غَضًّا كما أنزل " الحديث . قال بعض العلماء : معنى قوله : " غضًّا كما أنزل " أى إنه كان يقرأ الحرف الأوّل الذى أنزل عليه القرآن دون الحروف السبعة التى رُخّص لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى قراءته عليها بعد معارضة جبريل عليه السلام القرآن إياه فى كل رمضان . وقد روى وكيع و جماعة معه عن الأعمش عن أبى ظبيان قال قال لى عبد الله بن عباس : أىّ القراءتين تقرأ ؟ قلت : القراءة الأولى قراءة آبنِ أمّ عَبْـدٍ ؛ فقال لى : بل هى الآخرة، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعرض القرآن على جبريل فى كل عام مرّة، فلما كان العام الذى قبض فيه رسول الله صلى الله عليـه وسلم عرضه عليه مرتين، فحضر ذلك عبد الله فعلم ما نُسخ من

(١) زيادة عن البخارى . وقوله : ونحن ورثناه . أى أبا زيد .

ذلك وما بُدّل . وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "خذوا القرآن من أربعة من آبن أمّ عبد — فبدأ به — ومعاذ بن جبل وأُبَىّ بن كعب وسالم مَوْلى أبى حُذيفة " .

قلت : هذه الأخبار تدل على أن عبد الله جمع القرآن فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم خلاف ما تقدّم ، والله أعلم . وقد ذكر أبو بكر الأنبارى فى كتاب الرّد : حدّثنا محمّد بن شهريار حدّثنا حسين بن الأسود حدّثنا يحيى بن آدم عن أبى بكر عن أبى إسحاق قال قال عبد الله بن مسعود : قرأت مِن فِى رسول الله صلى الله عليه وسلم آثنتين وسبعين سورة — أو ثلاثا وسبعين سورة — وقرأت عليه من البقرة إلى قوله تعالى : « إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ »(١) . قال أبو إسحاق : وتعلّم عبد الله بقيّة القرآن من مُجَمِّع بن جارية الأنصارى .

قلت : فإن صح هذا ، صح الإجماع الذى ذكره يزيد بن هارون ، فلذلك لم يذكره القاضى أبو بكر بن الطيب مع من جمع القرآن وحفظه فى حياة النبي صلّى الله عليه وسلّم ، والله أعلم .

قال أبو بكر الأنبارى : حدثنى إبراهيم بن موسى الخُوزى(٢) حدّثنا يوسف بن موسى حدّثنا مالك بن اسماعيل حدّثنا زهير عن أبى إسحاق قال : سألت الأسود ما كان عبد الله يصنع بسورة الأعراف ؟ فقال : ما كان يعلمها حتى قدم الكوفة ؛ قال : وقد قال بعض أهل العلم : مات عبد الله بن مسعود رحمة الله عليه قبل أن يتعلم المعوّذتين ؛ فلهذه العلة لم توجدا فى مصحفه ، وقيل غير هذا على ما يأتى بيانه آخر الكتاب عند ذكر « المعوّذتين » إن شاء الله تعالى .

قال أبو بكر : والحديث الذى حدّثناه إبراهيم بن موسى حدّثنا يوسف بن موسى حدّثنا عمر بن هارون الخراسانى عن ربيعة بن عثمان عن محمد بن كعب القُرَظِىّ قال : كان ممن ختم القرآن ورسول الله صلى الله عليه وسلم حىّ عثمان بن عفان وعلىّ بن أبى طالب وعبد الله بن مسعود ، حديث ليس بصحيح عند أهل العلم ، إنما هو مقصور على محمد بن كعب ؛ فهو مقطوع لا يؤخذ به ولا يعوّل عليه .

(١) آية ٢٢٢ من السورة المذكورة . (٢) كذا فى الأصول . والذى فى التهذيب وغيره : آبن يزيد .

Marfat.com

قلت : قوله عليه السلام "خذوا القرآن من أربعة من آبن أُمّ عَبْدٍ" يدل على صحته ، ومما يبين لك ذلك أن أصحاب القراءات من أهل الحجاز والشأم والعراق كلٌّ منهم عَزَا قراءته التى آختارها إلى رجل من الصحابة قرأها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يستثن من جملة القرآن شيئا ؛ فأسند عاصم قراءته إلى علىّ وآبن مسعود ، وأسند آبن كَثير قراءته إلى أُبَىّ ، وكذلك أبو عمرو بن العلاء أسند قراءته إلى أُبَىّ ، وأما عبد الله بن عامر فإنه أسند قراءته إلى عثمان ؛ وهؤلاء كلهم يقولون : قرأنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأسانيد هذه القرّاءات متصلة ورجالها ثقات . قاله الخَطّابى .

باب ما جاء فى ترتيب سُوَر القرآن وآياته، وشكله ونقطه، وتحزيبه وتعشيره، وعدد حروفه وأجزائه وكلماته وآيه

قال آبن الطّيب : إن قال قائل قد آختلف السلف فى ترتيب سور القرآن ، فمنهم من كتب فى مصحفه السور على تاريخ نزولها ، وقدّم المكىّ على المدنىّ ، ومنهم من جعل فى أول مصحفه الحمد ، ومنهم من جعل فى أوله : «اقْرَأْ بِآسْمِ رَبِّكَ» ، وهذا أول مصحف علىّ رضى الله عنه . وأما مصحف آبن مسعود فإن أوله : «مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ» ثم البقرة ثم النساء ، على ترتيب مختلف . ومصحف أُبَىّ كان أوله : الحمد لله ، ثم النساء ثم آل عمران ثم الأنعام ثم الأعراف ثم المائدة ؛ ثم كذلك على آختلاف شديد . قال القاضى أبو بكر بن الطيب : فالجواب أنه يحتمل أن يكون ترتيب السور على ما هى عليه اليوم فى المصحف كان على وجه الآجتهاد من الصحابة . وذكر ذلك مكىّ رحمه الله فى تفسير سورة « براءة » وذكر أن ترتيب الآيات فى السوَر ووضع البسملة فى الأوائل هو من النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ، ولمّا لم يأمر بذلك فى أول سورة « براءة » تُركت بلا بسملة ؛ هذا أصح ما قيل فى ذلك ، وسيأتى[1] .

وذكر آبن وهب فى جامعه قال : سمعت سليمان بن بلال يقول سمعت ربيعة يُسأل : لم قُدّمت البقرة وآل عمران ، وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة وإنما نزلتا بالمدينة ؟ فقال

(١) راجع جـ ٨ ص ٦١

ربيعة : قد قُدّمتا وأُلّف القرآن على علم ممن ألّفه ، وقد آجتمعوا على العلم بذلك ، فهذا مما نَنتهي إليه ، ولا نسأل عنه . وقد ذكر سُنَيد قال حدّثنا معتمر عن سلام بن مسكين عن قتادة قال قال آبن مسعود : من كان منكم متأسّيا فليتأسّ بأصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فإنهم كانوا أبرهذه الأمة قلوبا ، وأعمقها علما ، وأقلها تكلُّفًا ، وأقومها هَدْيًا ، وأحسنها حالا ؛ آختارهم الله لصحبة نبيّه صلّى الله عليه وسلّم وإقامة دينه ، فآعرفوا لهم فضلهم ، وآتبعوهم فى آثارهم ، فإنهم كانوا على الهُدَى المستقيم . وقال قوم من أهل العلم : إن تأليف سُوَر القرآن على ما هو عليه فى مصحفنا كان عن توقيف من النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، وأما ما روى من آختلاف مصحف أُبَيّ وعليّ وعبد الله فإنما كان قبل العرض الأخير، وأن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم رتّب لهم تأليف السور بعد أن لم يكن فعل ذلك . روى يونس عن آبن وهب قال سمعت مالكا يقول : إنما أُلِّف القرآن على ما كانوا يسمعونه من رسول الله صلى الله عليه وسلّم . وذكر أبو بكر الأنبارى فى كتاب الرّد : أن الله تعالى أنزل القرآن جملة إلى سماء الدنيا ، ثم فُرِّق على النبيّ صلى الله عليه وسلم فى عشرين سنة ، وكانت السورة تنزل فى أمر يحدث ، والآية جوابا لمستخبر يسأل ، ويوقف جبريلُ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم على موضع السورة والآية ؛ فآتساق السور كآتساق الآيات والحروف ، فكلّه عن محمد خاتم النبيين عليه السلام ، عن ربّ العالمين ؛ فمن أخر سورة مقدّمة أوقدّم أخرى مؤخرة فهو كمن أفسد نظم الآيات ، وغيّر الحروف والكلمات ، ولا حجة على أهل الحق فى تقديم البقرة على الأنعام، والأنعام نزلت قبل البقرة لأن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أُخذ عنه هذا الترتيب ، وهو كان يقول : " ضعوا هذه السورة موضع كذا وكذا من القرآن". وكان جبريل عليه السلام يقف على مكان الآيات .

حدّثنا حسن بن الحباب حدّثنا أبو هشام حدّثنا أبو بكر بن عيّاش عن أبى إسحاق عن البراء قال : آخر ما نزل من القرآن : « يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ »(١) . قال أبو بكر بن عياش : وأخطأ أبو إسحاق ، لأن محمد بن السائب حدّثنا عن أبى السائب عن آبن عباس قال : آخر ما نزل من القرآن : « وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ

(١) آخر سورة « النساء » .

لَا يُظْلَمُونَ » . فقال جبريل للنبيّ عليهما الســلام : يا محمد ضعها فى رأس ثمانين ومائتين من البقـــرة .

قال أبو الحسن بن بطّال : ومن قال بهــذا القول لا يقول إن تلاوة القرآن فى الصلاة والدرس يجب أن تكون مرتبة على حسب الترتيب الموقَّف عليه فى المصحف ، بل إنما يجب تأليف سوره فى الرسم والخط خاصة ، ولا يُعلم أن أحدا منهم قال : إن ترتيب ذلك واجب فى الصلاة وفى قراءة القرآن ودرسه ،وأنه لا يحل لأحد أن يتلقن الكهف قبل البقرة ولا الحج قبل الكهف ؛ ألا ترى قول عائشة رضى الله عنها للذى سألها : لا يضرك أيّةً قرأت قبلُ ؛ وقد كان النبيّ صلّى الله عليه وسلم يقرأ فى الصلاة السورة فى ركعة ، ثم يقـرأ فى ركعة أخرى بغير السورة التى تليها . وأما ما روى عن آبن مسعود وآبن عمر أنهما كرها أن يقرأ القرآن منكوسا ، وقالا : ذلك منكوس القلب ؛ فإنما عَنيا بذلك من يقرأ السورة منكوسة ، و يبتدئ من آخرها إلى أوّلها لأن ذلك حرام محظور ؛ ومن الناس من يتعاطى هــذا فى القرآن والشعر ليذلل لسانه بذلك و يقدر على الحفظ ، وهذا حظّره الله تعـالى ومنعه فى القرآن ، لأنه إفساد لسوره ومخالفة لمـا قصد بها .

ومما يدل على أنه لا يجب إثباته فى المصاحف على تاريخ نزوله ما صح وثبت أن الآيات كانت تنزل بالمدينة فتوضع فى السورة المكية ، ألا ترى قول عائشة رضى الله عنها : وما نزلت ســورة البقرة والنساء إلا وأنا عنــده — تعنى بالمدينـة — وقد قدّمتا فى المصحف على ما نزل قبلهما من القرآن بمكة ، ولو ألّفوه على تاريخ النزول لوجب أن ينتقض ترتيب آيات الســـوَر .

قال أبو بكر الإنبارى : حدّثنا إسماعيل بن إسحاق القاضى حدّثنا حجاج بن مِنهال حدّثنا همام عن قتادة قال : نزل بالمدينة من القرآن البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمـائدة ، والأنفال ، وبراءة ، والرعد ، والنحل ، والحج ، والنور ، والأحزاب ، ومحمد ، والفتح ، والحجرات ، والرحمن ، والحديد ، والمجادلة ، والحشر ، والممتحنة ، والصف ، والجمعة ، والمنافقون ، والتغابن ، والطلاق ،

Marfat.com

و يأيها النبيّ لم تُحرّم إلى رأس العشر، و إذا زلزلت، و إذا جاء نصر الله . هؤلاء السُّوَر نزلن بالمدينة، وسائر القرآن نزل بمكة .

قال أبو بكر : فمن عمل على ترك الأثر والإعراض عن الإجماع ونظم السُّـوَر على منازلها بمكة والمدينة، لم يدر أين تقع الفاتحة، لاختلاف الناس فى موضع نزولها، ويضطر إلى تأخير الآية التى فى رأس خمس وثلاثين ومائتين من البقرة إلى رأس الأربعين ، ومن أفسـد نظم القرآن فقد كفر به ، وردّ على محمد صلّى الله عليه وسـلّم ما حكاه عن ربه تعـالى . وقد قيل إن علة تقديم المدنىّ على المكىّ هو أن الله تعالى خاطب العرب بلغتها، وما تعرف من أفانين خطابها ومحاورتها ؛ فلما كان فنٌّ من كلامهم مبنيا على تقديم المؤخر وتأخير المقدّم خوطبوا بهذا المعنى فى كتاب الله تعالى الذى لو فقـدوه من القرآن لقالوا : ما باله عَرِى من هـذا الباب الموجود فى كلامنا المستحْلَى من نظامنا . قال عَبِيد بن الأبرص :

أن بُدِّلَتْ منهـــمُ وحوشًا * وغيّرتْ حالَهـا الخطـوبُ
عينـاكَ دَمْعُهـما سَرُوبُ * كأنّ شَأْنَيْهما شَـعيب

أراد عيناك دمعهما سَروب لأن تبدّلت من أهلها وحوشًا، فقـدّم المؤخر وأخر المقدّم ؛ ومعنى سَروب : منصبّ على وجه الأرض . ومنه السارب، للذاهب على وجهه فى الأرض؛ قال الشـاعر[1] :

* أنّى سَرَبتِ وكنتِ غيرَ سَرُوبِ *

وقوله : شأنيهما، الشأن واحد الشئون، وهى مَوَاصِـلُ قبائل الرأس وملتقاه منها يجيء الدمع . شعيب : متفرّق .

---

(١) هو قيس بن الخطيم . وتمام البيت :

* وتقرب الأحلام غير قريب *

وفى اللسان مادة « سرب » : « قال ابن برىّ : رواه ابن دريد « سَربتَ » بباء موحدة لقوله : وكنت غير سروبِ . ومن رواه « سَريتِ » بالياء باثنتين فمعناه : كيف سَريتِ ليلا، وأنت لا تسرين نهارا » .

Marfat.com

(فصل) — وأما شَكْل المصحف ونَقْطه فرُوِى أن عبد الملك بن مَرْوان أمر به وعمله ، فتجرّد لذلك الحجاج بواسط وجدّ فيه وزاد تحزيبه ، وأمر وهو والى العراق الحسن ويحيى بن يعمر بذلك ، وألّف إثر ذلك بواسط كتابا فى القراءات جمع فيه ما روى من آختلاف الناس فيما وافق الخط ، ومشى الناس على ذلك زمانا طويلا ، إلى أن ألف آبن مجاهد كتابه فى القراءات .

وأسند الزَّبيدى فى كتاب الطبقات إلى المبرد أن أوّل من نقط المصحف أبو الأسود الدؤلى ؛ وذكر أيضا أن آبن سيرين كان له مصحف نقطه له يحيى بن يعمر .

(فصل) — وأما وضع الأعشار فقال آبن عطية : مرّ بى فى بعض التواريخ أن المأمون العباسى أمر بذلك ، وقيل : إن الحجاج فعل ذلك . وذكر أبو عمرو الدانى فى كتاب البيان له عن عبد الله بن مسعود أنه كَرِه التّعشير فى المصحف ، وأنه كان يَحُكّه . وعن مجاهد أنه كره التعشير والطِّيب فى المصحف . وقال أشهب : سمعت مالكا وسُئل عن العُشُور التى تكون فى الصحف بالحمرة وغيرها من الألوان ، فكره ذلك وقال : تعشير المصحف بالحبر لا بأس به ؛ وسُئل عن المصاحف يكتب فيها خواتم السُّوَر فى كل سورة ما فيها من آية ، قال : إنى أكره ذلك فى أمهات المصاحف أن يُكتب فيها شىء أو يشكل ، فأما ما يتعلم به الغلمان من المصاحف فلا أرى بذلك بأسا . قال أشهب : ثم أخرج إلينا مصحفا لجَدّه ، كتبه إذ كتب عثمان المصاحف ، فرأينا خواتمه من حبر على عمل السلسلة فى طول السطر ، ورأيته معجوم الآى بالحبر . وقال قتادة : بدءوا فنقطوا ثم خمّسوا ثم عشّروا . وقال يحيى بن أبى كثير : كان القرآن مجرّدا فى المصاحف ، فأوّل ما أحدثوا فيه النّقط على الباء والتاء والثاء ، وقالوا : لا بأس به ، هو نور له ، ثم أحدثوا نقطا عند منتهى الآى ، ثم أحدثوا الفواتح والخواتم . وعن أبى حمزة قال : رأى إبراهيم النَّخَعِىّ فى مصحفى فاتحة سورة كذا وكذا ، فقال لى : آمحه فإن عبد الله بن مسعود قال : لا تخلطوا فى كتاب الله ما ليس فيه . وعن أبى بكر السراج قال قلت لأبى رزين : أأكتب فى مصحفى سورة كذا وكذا ؟ قال : إنى أخاف أن ينشأ قوم لا يعرفونه فيظنونه من القرآن .

Marfat.com

قال الدانى رضى الله عنه : وهـذه الأخبار كلها تؤذن بأن التعشـير والتخميس وفواتح السور ورءوس الآى من عمل الصحابة رضى الله عنهم، قادهم إلى عمله الاجتهاد ؛ وأرى أن من كره ذلك منهم ومن غيرهم إنما كره أن يعمل بالألوان كالحمـرة والصفرة وغيرهما ؛ على أن المسلمين فى سائر الآفاق قد أطبقوا على جواز ذلك وآستعماله فى الأمهات وغيرها ، والحـرج والخطأ مرتفعان عنهم فيما أطبقوا عليه إن شاء الله .

(فصل) — وأما عدد حروفه وأجزائه فروى سلام أبو محمد الحمانى أن الحجاج بن يوسف جمع القرّاء والحفاظ والكُتّاب، فقال : أخبرونى عن القرآن كله كم من حرف هو ؟ . قال : وكنت فيهم، فحسبنا فأجمعنا على أن القرآن ثلثمائة ألف حرف وأربعون ألف حرف وسبعمائة حرف وأربعون حرفا . قال: فأخبرونى إلى أىّ حرف ينتهى نصف القرآن؟ فإذا هو فى الكهف « وَلْيَتَلَطَّفْ » فى الفاء . قال : فأخبرونى بأثلاثه ؛ فإذا الثلث الأوّل رأس مائة من براءة، والثلث الثانى رأس مائة أو إحدى ومائة من طسم الشعراء، والثلث الثالث ما بقى من القرآن . قال: فأخبرونى بأسباعه على الحروف؛ فإذا أوّل سبع فى النساء «فَمِنْهُم مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَنْ صَدَّ» فى الدال ، والسبع الثانى فى الأعراف « أُولَئِكَ حَبِطَتْ » فى التـاء ، والسبع الثالث فى الرعد « أُكُلُهَا دَائِمٌ » فى الألف من آخر أكلها، والسبع الرابع فى الحج « وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً » فى الألف، والسبع الخامس فى الأحزاب « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَـةٍ » فى الهـاء ، والسبع السادس فى الفتح « الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ » فى الواو ، والسبع السابع ما بقى من القرآن .

قال سلام أبو محمد : عملناه فى أربعة أشهر ، وكان الحجاج يقرأ فى كل ليلة ربعا ، فأوّل ربعه خاتمة الأنعام . والربع الثانى فى الكهف « وَلْيَتَلَطَّفْ » ، والربع الثالث خاتمة الزُّمَر ، والربع الرابع ما بقى من القرآن . وفى هذه الجملة خلاف مذكور فى كتاب البيان لأبى عمرو الدّانى، من أراد الوقوف عليه وجده هناك .

(فصل) — وأما عدد آى القرآن فى المدنىّ الأوّل، فقال حمد بن عيسى : جميع عدد آى القرآن فى المدنى الأوّل سـتة آلاف آية . قال أبو عمرو : وهو العـدد الذى رواه أهل الكوفة عن أهل المدينة، ولم يسمّوا فى ذلك أحدا بعينه يسندونه إليه .

Marfat.com

وأما المدنى الأخير فهو فى قول إسماعيل بن جعفر : ستة آلاف آية ومائتا آية وأربع عشرة آية . وقال الفضل : عدد آى القرآن فى قول المكيين ستة آلاف آية ومائتا آية وتسع عشرة آية . قال محمد بن عيسى : وجميع عدد آى القرآن فى قول الكوفيين ستة آلاف آية ومائتا آية وثلاثون وست آيات ، وهو العدد الذى رواه سليم[1] والكسائى عن حمزة ، وأسنده الكسائى إلى علىّ رضى الله عنه . قال محمد : وجميع عدد آى القرآن فى عدد البصريين ستة آلاف ومائتان وأربع آيات ، وهو العدد الذى مضى عليه سلفهم حتى الآن . وأما عدد أهل الشام فقال يحيى بن الحارث الذِّمَارى : ستة آلاف ومائتان وست وعشرون . فى رواية ستة آلاف ومائتان وخمس وعشرون ؛ نقص آية . قال ٱبن ذَكْوان : فظننت أن يحيى لم يعدّ «بسم الله الرحمن الرحيم» . قال أبو عمرو : فهذه الأعداد التى يتداولها الناس تأليفا ، ويعدّون بها فى سائر الآفاق قديما وحديثا .

وأما كلماته فقال الفضل بن شاذان : جميع كلمات القرآن — فى قول عطاء بن يسار — سبعة وسبعون ألفا وأربعمائة وتسع وثلاثون كلمة ؛ وحروفه ثلثمائة ألف وثلاثة وعشرون ألفا وخمسة عشر حرفا .

قلت : هذا يخالف ما تقدّم عن الحمانى قبل هذا . وقال عبد الله بن كثير عن مجاهد قال : هذا ما أحصينا من القرآن ، وهو ثلثمائة ألف حرف وأحد وعشرون ألف حرف ومائة وثمانون حرفا ، وهذا يخالف ما ذكره قبل هذا عن الحمانى من عدّ حروفه .

باب ذكر معنى السورة والآية والكلمة والحرف

معنى السورة فى كلام العرب الإبانة لها من سورة أخرى وٱنفصالها عنها ، وسُمِّيت بذلك لأنه يرتفع فيها من منزلة إلى منزلة . قال النابغة :

ألم تر أنّ الله أعطاكَ سُورةً * ترى كلّ مَلْك دونها يتَذبذَبُ

أى منزلة شرف ٱرتفعت إليها عن منزل الملوك . وقيل : سُمّيت بذلك لشرفها وٱرتفاعها كما يقال لما ٱرتفع من الأرض سور . وقيل : سميت بذلك لأن قارئها يشرف على ما لم يكن

(١) فى الأصول : «مسلم» والراوى عن حمزة هو سليم بن عيسى الكوفى وهو أخص أصحاب حمزة به . (طبقات القراء) .

Marfat.com

عنده كسُور البناء ؛ كله بغير همز . وقيل . سُميت بذلك ؛ لأنها قطعت من القرآن على حِدَة ، من قول العرب للبقِيّة : سُؤر ، وجاء فى أسآر الناس أى بقاياهم ؛ فعلى هـذا يكون الأصل سؤرة بالهمزة ثم خُفّفت فأبدلت واوا لآنضمام ما قبلها . وقيل : سميت بذلك لتمامها وكمالها من قول العرب للناقة التامة : سورة ، وجمع سُورة سُوَر بفتح الواو . وقال الشاعر (١) :

* سُودُ المحاجرِ لا يَقرأْنَ بالسُّوَر *

ويجوز أن يجمع على سُورات وسُوَرات .

وأما الآية فهى العلامة ، بمعنى أنها علامة لآنقطاع الكلام الذى قبلها من الذى بعدها وآنفصاله ، أى هى بائنـة من أختها ومنفردة . وتقول العرب : بينى وبين فلان آية ؛ أى علامة ، ومن ذلك قوله تعالى : « إنَّ آيَةَ مُلْكِه » (٢) . وقال النابغة :

توهّمتُ آياتٍ لها فعرفتُها * لستة أعوام وذا العامُ سابعُ

وقيل : سُميت آية لأنها جماعة حروف من القرآن وطائفة منه ؛ كما يقال : خرج القوم بآياتهم أى بجماعتهم . قال بُرْج بن مُسْهِر الطائى :

خَرجنا من النَّقْبَيْن لا حَىَّ مثلُنا * بآياتنا نُزجى اللِّقاحَ المَطافلا

وقيل : سُميت آية لأنها عجب يعجز البشر عن التكلم بمثلها . وآختلف النحويون فى أصل آية ؛ فقال سيبويه : أَيَيَة على فَعَلَة مثل أكمة وشجرة ، فلما تحرّكت الياء وآنفتح ما قبلها آنقلبت ألفا فصارت آية بهمزة بعـدها مدّة . وقال الكسائى : أصلها آيِيَة على وزن فاعلة مثـل آمنة فقلبت الياء ألفا لتحرّكها وآنفتاح ما قبلها، ثم حذفت لآلتباسها بالجمع . وقال الفرّاء : أصلها أيّية بتشديد الياء الأولى فقلبت ألفا كراهة للتشديد فصارت آية وجمعها آى وآيات وآياء (٣) ، وأنشد أبو زيد :

لم يُبق هذا الدهر من آيائه * غيرَ أثافيـه وأرْمِـدائه

---

(١) هو الراعى . وصدر البيت : * هنّ الحرائر لا ربات أخمرة *

(٢) آية ٢٤٨ سورة « البقرة » . (٣) قال فى اللسان مادة (أيا) : أياء جمع الجمع نادر .

Marfat.com

وأما الكلمة فهى الصورة القائمة بجميع ما يختلط بهـا من الشُّبهات[(١)] أى الحروف، وأطول الكلم فى كتاب الله عزّ وجلّ ما بلغ عشرة أحرف، نحـو قوله تعـالى: «لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ»[(٢)]. و «أَنُلْزِمُكُمُوهَا»[(٣)] وشبههما؛ فأما قوله: «فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ»[(٤)] فهو عشرة أحرف فى الرسم[(٥)] وأحد عشر فى اللفظ. وأقصرهن ما كان على حرفين نحو ما ولا ولك وله، وما أشـبه ذلك. ومن حروف المعانى ما هو على كلمة واحدة، مثل همزة الاستفهام وواو العطف، إلا أنه لا ينطق به مفردا. وقد تكون الكلمة وحدها آية تامة نحو قوله تعالى: «وَالْفَجْرِ». «وَالضُّحَى». «وَالْعَصْرِ». وكذلك «الٓمٓ». و«الٓمٓصٓ». و«طه». و«يٓس». و«حٰمٓ» فى قول الكوفيين، وذلك فى فواتح السور، فأما فى حشوهن فلا. قال أبو عمرو الدّانى: ولا أعلم كلمة هى وحدها آية إلا قوله فى الرّحمن: «مُدْهَامَّتَانِ»[(٦)] لا غير. وقد أتت كلمتان متصلتان وهما آيتان، وذلك فى قوله: «حٰمٓ عٓسٓقٓ» على قول الكوفيين لا غير. وقد تكون الكلمة فى غير هـذا: الآيةَ التامة، والكلام القـائم بنفسه، وإن كان أكثر أو أقل، قال الله عزّ وجلّ: «وَتَمَّتْ[(٧)] كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا» قيل: إنما يعنى بالكلمة ها هنا قوله تبارك وتعالى: «وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ»[(٨)] إلى آخر الآيتين، وقال عزّ وجلّ «وَأَلْزَمَهُمْ[(٩)] كَلِمَـةَ التَّقْوَى». قال مجاهد: لا إله إلا الله. وقال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: "كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم". وقد تسمّى العرب القصيدة بأسرها، والقصة كلها؛ كلمـة فيقولون: قال قُسٌّ فى كلمته كذا، أى فى خطبته؛ وقال زُهير فى كلمته كذا، أى فى قصيدته؛ وقال فلان فى كلمته يعنى فى رسالته؛ فتسمى جمـلة الكلام كلمة إذ كانت الكلمة منهـا، على عادتهم فى تسميتهم الشىء باسم ما هو منه وما قارب به وجاوره، وكان بسبب منه، مجازا واتساعا.

وأما الحرف فهو الشُّبهة القائمة وحدها من الكلمة، وقد يسمى الحرف كلمة والكلمة حرفا على ما بيناه من الاتساع والمجاز. قال أبو عمرو الدانى: فإن قيـل فكيف يسمى ما جاء من

(١) لم نر هذا التعبير لغير المؤلف، وقد سبق التعبير به فى ص ١٦ من هذا الجزء. (٢) سورة النور آية ٥٥
(٣) سورة هود آية ٢٨ (٤) سورة الحجر آية ٢٢ (٥) كأنه اعتبر هاء الضمير كلمة أخرى فى الرسم فقط.
(٦) سورة الرحمن آية ٦٤ (٧) سورة الأعراف آية ١٣٧ (٨) سورة القصص آية ٥ (٩) سورة الفتح آية ٢٦

Marfat.com

حروف الهجاء فى الفواتح على حرف واحد نحو «ص» و «ق» و «ن» حرفا أو كلمة ؟ قات: كلمة لا حرفا ، وذلك من جهة أن الحرف لا يسكت عليــه ، ولا ينفرد وحده فى الصـورة ولا ينفصل مما يختلط به ؛ وهـذه الحروف مسكوت عليها منفردة منفصـلة كانفراد الكلم وآنفصالها، فلذلك سُمِّيت كلمات لا حروفا . قال أبو عمرو : وقد يكون الحرف فى غيرهذا: المذهبَ والوجهَ، قال الله عزّ وجلّ : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ » أى على وجه ومذهب ، ومن ذلك قول النبيّ صلى الله عليـه وسلم : "أنزل القرآن على سـبعة أحرف" أى سبعة أوجه من اللغات، والله أعلم .

باب هل ورد فى القرآن كلمات خارجة عن لغات العرب أو لا

لا خلاف بين الأئمة أنه ليس فى القرآن كلام مركب على أساليب غير العرب، وأن فيه أسماء أعلاماً لمن لسانه غير لسان العرب؛ كإسرائيل وجبريل وعمران ونوح ولوط .

وآختلفوا هل وقع فيــه ألفاظ غير أعلام مفردة من غير كلام العرب؛ فذهب القـاضى أبو بكر بن الطيب والطبرىّ وغيرهما إلى أن ذلك لا يوجد فيه ، وأن القرآن عربىّ صريح ، وما وجد فيــه من الألفاظ التى تنسب إلى سائر اللغات إنمـا آتفق فيها أن تواردت اللغات عليها فتكلمت بهـا العرب والفرس والحبشة وغيرهم، وذهب بعضهم إلى وجودها فيه ، وأن تلك الألفاظ لقلتهـا لا تُخرج القرآن عن كونه عربيًّـا مبيناً، ولا رسولَ الله عن كونه متكلما بلسان قومه . فالمشكاة : الكُوّة . ونشأ : قام من الليل؛ ومنه «إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ» و«يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ» أى ضعفين . و « فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ » أى الأسد، كله بلسان الحبشة . والغَسَّاق: البارد المُنْتن بلسان الترك . والقسطاس : الميزان، بلغة الروم . والسِّجيل : الحجارة والطين بلسان الفرس . والطُّور الجبل . واليَمّ: البحر بالسريانية . والتَّنُّور: وجه الأرض بالعجمية .

قال آبن عطية: «فحقيقة العبارة عن هذه الألفاظ أنها فى الأصل أعجمية لكن آستعملتها العرب وعرّبتها فهى عربية بهـذا الوجه . وقد كان للعرب العاربة التى نزل القرآن بلسانهـا بعض مخالطة لسائر الألسنة بتجارات، وبرحلتى قريش، وكسفر مُسافر بن أبى عمرو إلى الشام،

Marfat.com

وكسفر عمر بن الخطاب وكسفر عمرو بن العاصي وعمارة بن الوليد إلى أرض الحبشة . وكسفر الأعشى إلى الحِيرَة ، وصحبته لنصاراها مع كونه حجة في اللغة ؛ فعَلِقت العرب بهذا كله ألفاظا أعجمية غيَّرت بعضها بالنقص من حروفها ، وجرت إلى تخفيف ثقل العُجْمة ، واستعملتها في أشعارها ومحاوراتها ، حتى جرت مجرى العربيّ الصحيح ، ووقع بها البيان ؛ وعلى هذا الحدّ نزل بها القرآن . فإن جهلها عربيٌّ مّا فكجهله الصريح بما في لغة غيره ، كما لم يَعرف ابن عباس معنى « فاطر » إلى غير ذلك . قال ابن عطية : « وما ذهب إليه الطبري رحمه الله من أن اللغتين اتفقتا في لفظة لفظةٍ فذلك بعيد ؛ بل إحداهما أصل والأخرى فرع في الأكثر؛(١) لأنا لا ندفع أيضا جواز الاتفاق قليلا شاذا » .

قال غيره : والأوّل أصح . وقوله : هي أصل في كلام غيرهم دَخِيلة في كلامهم ، ليس بأولى من العكس ، فإن العرب لا يخلو أن تكون تخاطبت بها أو لا ، فإن كان الأوّل فهي من كلامهم ، إذ لا معنى للغتهم وكلامهم إلا ما كان كذلك عندهم ، ولا يبعد أن يكون غيرهم قد وافقهم على بعض كلماتهم ، وقد قال ذلك الإمام الكبير أبو عبيدة .

فإن قيل : ليست هذه الكلمات على أوزان كلام العرب فلا تكون منه . قلنا : ومن سلّم لكم أنكم حصرتم أوزانهم حتى تخرجوا هذه منها ؛ فقد بحث القاضي عن أصول أوزان كلام العرب وردّ هذه الأسماء إليها على الطريقة النحوية ، وأما إن لم تكن العرب تخاطبت بها ولا عرفتها استحال أن يخاطبهم الله بما لا يعرفون ، وحينئذ لا يكون القرآن عربيا مبينا ، ولا يكون الرسول مخاطبا لقومه بلسانهم ، والله أعلم .

باب ذكر نكت في إعجاز القرآن ، وشرائط المعجزة وحقيقتها

المعجزة واحدة معجزات الأنبياء الدالة على صدقهم صلوات الله عليهم ، وسُمِّيت معجزة لأنّ البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها ، وشرائطها خمسة ، فإن اختل منها شرط لا تكون معجزة .

(١) في الأصول : « والأخرى فرع ، لا أنا ندفع ... الخ » . والزيادة والتصويب عن ابن عطية .

Marfat.com

فالشرط الأوّل من شروطها أن تكون مما لا يقدر عليها إلا الله سبحانه . و إنمـا وجب حصول هـذا الشرط للعجزة لأنه لو أتى آت فى زمان يصح فيه مجىء الرسل وآدّعى الرسالة وجعل معجزته أن يتحرك و يسكن و يقوم و يقعد لم يكن هذا الذى آدّعاه معجزة له ، ولا دالا على صدقه لقدرة الخلق على مثله ، و إنمـا يجب أن تكون المعجزات كفَلْق البحر، وآنشقاق القمر، وما شاكلها مما لا يقدر عليها البشر .

والشرط الثـانى هو أن تخرق العادة . وإنمـا وجب آشـتراط ذلك لأنه لو قال المدّعى للرسالة : آيتى مجىء الليل بعد النهار وطلوع الشمس من مشرقها؛ لم يكن فيما آدّعاه معجزة، لأن هذه الأفعال و إن كان لا يقدر عليها إلا الله، لم تفعل من أجله ، وقد كانت قبل دعواه على ما هى عليه فى حين دعواه، ودعواه فى دلالتها على نبوّته كدعوى غيره؛ فبان أنه لا وجه له يدل على صدقه ، والذى يستشهد به الرسول عليه السلام له وجه يدل على صدقه، وذلك أن يقول : الدليل على صدقى أن يخرق الله تعـالى العادة من أجل دعواى عليه الرسالة ، فيقلب هذه العصا ثعبانا ، و يشق الحجر و يخرج من وسطه ناقة ، أو ينبع المـاء من بين أصابعى كما ينبعه من العين ، أو ما سوى ذلك من الآيات الخارقة للعادات، التى ينفرد بها جبار الأرض والسموات ؛ فتقوم له هـذه العلامات مقـام قول الرب سبحانه ، لو أسمعنا كلامه العزيز وقال : صدق ، أنا بعثته . ومثال هذه المسألة — ولله ولرسوله المثل الأعلى — ما لو كانت جمـاعة بحضرة ملك من ملوك الأرض ، وقال أحد رجاله وهو بمرأى منـه والملك يسمعه : الملك يأمركم أيها الجماعة بكذا وكذا ، ودليل ذلك أن الملك يصدّقنى بفعل من أفعاله ، وهو أن يخرج خاتمه من يده قاصدا بذلك تصديق؛ فإذا سمع الملك كلامه لهم ودعواه فيهم ، ثم عمل ما آستشهد به على صدقه ، قام ذلك مقـام قوله لو قال : صـدق فيما آدّعاه علىّ . فكذلك إذا عمل الله عملا لا يقدر عليه إلا هو، وخرق به العادة على يد الرسول ، قام ذلك الفعل مقام كلامه تعالى لو أسمعناه وقال : صدق عبدى فى دعوى الرسالة ، وأنا أرسلته إليكم فاسمعوا له وأطيعوا .

Marfat.com

والشرط الثالث هو أن يستشهد بها مدّعى الرسالة على الله عزّ وجلّ ؛ فيقول : آيتى أن يقلب الله سبحانه هذا المـاء زيتا أو يحرّك الأرض عنـد قولى لهـا : تزلزلى ؛ فإذا فعل الله سبحانه ذلك حصل المتحدَّى به .

الشرط الرابع هو أن تقع على وَفْق دعوى المتحدِّى بها المستشهد بكونها معجزة له ، وإنما وجب آشتراط هذا الشرط لأنه لو قال المدّعى للرسالة: آية نبوّتى ودليل حجتى أن تنطق يدى أو هـذه الدابة فنطقت يده أو الدابة بأن قالت : كذب وليس هو نبىّ ، فإن هـذا الكلام الذى خلقه الله تعـالى دال على كذب ذلك المدّعى للرسالة ، لأن ما فعله الله لم يقع على وَفْق دعواه. وكذلك ما يروى أن مُسَـيْلِمة الكذاب لعنه الله تفـل فى بئر ليكثر ماؤها فغارت البئر وذهب ما كان فيها من المـاء ، فما فعل الله سبحانه من هـذا ، كان من الآيات المكذبة لمن ظهرت على يديه ، لأنها وقعت على خلاف ما أراده المتنبئ الكذاب .

والشرط الخامس من شروط المعجزة ألا يأتى أحد بمثـل ما أتى به المتحدّى على وجه المعارضة ، فإن تم الأمر المتحدّى به المستشهد به على النبوّة على هذا الشرط مع الشروط المتقدّمة ، فهى معجزة دالة على نبوّة من ظهرت على يده ، فإن أقام الله تعـالى من يعارضه حتى يأتى بمثل ما أتى به ويعمل مثل ماعمل بطل كونه نبيًّا ، وخرج عن كونه معجزا ولم يدل على صدقه ، ولهـذا قال المولى سبحانه : « فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ » وقال : « أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُـوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ » . كأنه يقول : إن آدّعيتم أن هذا القرآن من نظم محمد صلى الله عليه وسلم وعمله فآعملوا عشر سُوَر من جنس نظمه ، فإذا عجزتم بأسركم عن ذلك فاعلموا أنه ليس من نظمه ولا من عمله .

لا يقال : إن المعجزات المقيّدة بالشروط الخمسة لا تظهر إلا على أيدى الصادقين ، وهذا المسيخ الدّجال فيما رويتم عن نبيّكم صلّى الله عليه وسـلّم يظهر على يديه من الآيات العظام ، والأمور الجسام ، ماهو معروف مشهور ، فإنا نقول : ذلك يدّعى الرسالة ، وهذا يدّعى الربوبيّة وبينهما من الفرقان مابين البصراء والعميان ، وقد قام الدليل العقلى على أن بعثة بعض الخلق

Marfat.com

إلى بعض غير ممتنعة ولا مستحيلة، فلم يبعد أن يقيم الله تعالى الأدلة على صدق مخلوق أتى عنه بالشرع والملّة .

ودلت الأدلة العقلية أيضا على أن المسيخ الدّجال فيه التصوير والتغيير من حال الى حال، وثبت أن هذه الصفات لاتليق إلا بالمحدَثات، تعالى ربّ البريّات عن أنه يشبه شيئا أو يشبهه شيء، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

فصل — إذا ثبت هـذا فآعلم أن المعجزات على ضربين : الأول — ما آشتهر نقله وآنقرض عصره بموت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم . والثانى — ما تواترت الأخبار بصحته وحصوله، وآستفاضت بثبوته ووجوده، ووقع لسامعها العلم بذلك ضرورة؛ ومن شرطه أن يكون الناقلون له خَلْقا كثيرا و جَمًّا غفيرا ، وأن يكونوا عالمين بما نقلوه علما ضروريا ، وأن يستوى فى النقل أولهم وآخرهم ووسطهم فى كثرة العدد ، حتى يستحيل عليهم التواطؤ على الكذب؛ وهذه صفة نقل القرآن، ونقل وجود النبيّ عليه الصلاة والسلام، لأن الأمة رضى الله عنها لم تزل تنقل القرآن خَلَفًا عن سَلَف والسّلَفُ عن سلفه إلى أن يتصل ذلك بالنبيّ عليه السلام المعلوم وجوده بالضرورة، وصدقه بالأدلة ا[illegible]رات؛ والرسول أخذه عن جبريل عليه السلام عن ربه عزّ وجلّ، فنقل القرآن فى الأصل رسولان معصومان من الزيادة والنقصان، ونقله إلينا بعدهم أهل التواتر الذين لا يجوز عليهم الكذب فيما ينقلونه ويسمعونه، لكثرة العدد، ولذلك وقع لنا العلم الضرورى بصدقهم فيما نقلوه من وجود محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن ظهور القرآن على يديه وتحدّيه به . ونظير ذلك من علم الدنيا علم الإنسان بما نقل اليه من وجود البلدان ، كالبصرة والشام والعراق وخُراسان والمدينة ومكة ، وأشباه ذلك من الأخبار الكثيرة الظاهرة المتواترة ؛ فالقرآن معجزة نبينا صلّى الله عليه وسلّم الباقية بعده إلى يوم القيامة ، ومُعجزة كلّ نبيّ آنقرضت بآنقراضه ، أو دخلها التبديل والتغيير ، كالتوراة والإنجيل .

Marfat.com

ووجوه إعجاز القرآن الكريم عشرة :

منها : النظم البديع المخالف لكل نظم معهود فى لسان العرب وفى غيرها ؛ لأن نظمه ليس من نظم الشعر فى شىء، وكذلك قال رب العزة الذى تولّى نظمه : « وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ » . وفى صحيح مسلم أن أُنيسا أخا أبى ذَرّ قال لأبى ذَرّ : لقيت رجلا بمكة على دينك يزعم أن الله أرسله ؛ قلت : فما يقول الناس ؟ قال يقولون : شاعر، كاهن، ساحر؛ وكان أُنيس أحد الشعراء، قال أُنيس : لقد سمعت قول الكهنة، فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على أقْرَاء[(١)] الشعر فلم يلتئم على لسان أحد بعدى أنه شعر، والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون. وكذلك أقرّ عُتبة بن ربيعة أنه ليس بسحر ولا شعر لمّا قرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حم » فُصّلت ، على ما يأتى بيانه هنالك[(٢)] ؛ فإذا اعترف عُتبة على موضعه من اللسان وموضعه من الفصاحة والبلاغة، بأنه ما سمع مثل القرآن قطّ كان فى هذا القول مُقرًّا بإعجاز القرآن له ولضُربائه من المتحققين بالفصاحة والقدرة على التكلم بجميع أجناس القول وأنواعه.

ومنها : الأسلوب المخالف لجميع أساليب العرب .

ومنها : الجزالة التى لا تصح من مخلوق بحال، وتأمّل ذلك فى سورة «قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ»[(٣)] إلى آخرها، وقوله سبحانه : « وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »[(٤)] إلى آخر السورة، وكذلك قوله سبحانه : «وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ»[(٥)] إلى آخر السورة. قال ابن الحصار : فمن علم أن الله سبحانه وتعالى هو الحق، علم أن مثل هذه الجزالة لا تصح فى خطاب غيره؛ ولا يصح من أعظم ملوك الدنيا أن يقول : « لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ »[(٦)] ، ولا أن يقول : « وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ »[(٧)] .

قال ابن الحصار : وهذه الثلاثة من النَّظم، والأسلوب، والجزالة، لازمة كل سورة، بل هى لازمة كل آية؛ وبمجموع هذه الثلاثة يتميّز مسموع كل آية وكل سورة عن سائر كلام البشر، وبها وقع التحدّى والتعجيز، ومع هذا فكل سورة تنفرد بهذه الثلاثة، من غير أن

(١) أقراء الشعر : أنواعه وطرقه وبحوره وأنحاؤه . (٢) راجع جـ ١٥ ص ٣٣٧ .
(٣) راجع جـ ١٧ ص ١ (٤) راجع جـ ١٥ ص ٢٧٧ (٥) راجع جـ ٩ ص ٣٧٦
(٦) راجع جـ ١٥ ص ٣٠٠ (٧) راجع جـ ٩ ص ٢٩٦

Marfat.com

ينضاف إليها أمر آخر من الوجوه العشرة ؛ فهذه سورة « الكوثر » ثلاث آيات قصار، وهي أقصر سورة فى القرآن ، وقد تضمنت الإخبار عن مُغَيَّبَيْن : أحدهما — الإخبار عن الكوثر وعظمه وسعته وكثرة أوانيه ، وذلك يدل على أن المصدّقين به أكثر من أتباع سائر الرسل . والثانى — الإخبار عن الوليد بن المغيرة، وقد كان عند نزول الآية ذا مال وولد ، على ما يقتضيه قوله الحق : « ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا . وَبَنِينَ شُهُودًا . وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا »(١) ثم أهلك الله — سبحانه — ماله وولده، وانقطع نسله .

ومنها : التصرف فى لسان العرب على وجه لا يستقل به عربى؛ حتى يقع منهم الاتفاق من جميعهم على إصابته فى وضع كل كلمة وحرف موضعه .

ومنها : الإخبار عن الأمور التى تقدّمت فى أول الدنيا إلى وقت نزوله من أمّى ما كان يتلو من قبله من كتاب، ولا يخطّه بيمينه؛ فأخبر بما كان من قصص الأنبياء مع أممها، والقرون الخالية فى دهرها؛ وذكر ما سأله أهل الكتاب عنه، وتحدوه به من قصة أهل الكهف، وشأن موسى والخضر عليهما السلام ، وحال ذى القرنين ؛ فجاءهم — وهو أمّى من أمة أميّة ، ليس لها بذلك علم — بما عرفوا من الكتب السالفة صحته؛ فتحققوا صدقه .

قال القاضى ابن الطيب : — ونحن نعلم ضرورة — أن هذا مما لا سبيل إليه إلا عن تعلّم؛ وإذا كان معروفا أنه لم يكن ملابسا لأهل الآثار، وحملة الأخبار، ولا مترددا إلى المتعلم منهم، ولا كان ممن يقرأ فيجوز أن يقع إليه كتاب فيأخذ منه ؛ عُلِم أنه لا يصل إلى علم ذلك إلا بتأييد من جهة الوحى .

ومنها : الوفاء بالوعد، المدرك بالحس فى العيان، فى كل ما وعد الله سبحانه؛ وينقسم : إلى أخباره المطلقة، كوعده بنصر رسوله عليه السلام، وإخراج الذين أخرجوه من وطنه. وإلى وعد مقيد بشرط ، كقوله : « وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ »(٢) « وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ »(٣) « وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا »(٤) و « إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ »(٥) ، وشبه ذلك

ومنها : الإخبار عن المغيّبات فى المستقبل التى لا يطلع عليها إلا بالوحى؛ فمن ذلك :

(١) راجع جـ ١٩ ص ٧٠ . (٢) راجع جـ ١٨ ص ١٦١ . (٣) راجع جـ ١٨ ص ١٣٩
(٤) راجع جـ ١٨ ص ١٥٧ . (٥) راجع جـ ٨ ص ٤٤ .

Marfat.com

ما وعد الله نبيه عليه السلام أنه سيظهر دينه على الأديان بقوله تعالى : « هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ (١) » الآية . ففعل ذلك . وكان أبو بكر رضى الله عنه إذا أغزى جيوشه عرّفهم ما وعدهم الله فى إظهار دينه ، ليثقوا بالنصر ، وليستيقنوا بالنُّجح ، وكان عمر يفعل ذلك ؛ فلم يزل الفتح يتوالى شرقا وغربا ، برا وبحرا ، قال الله تعالى : « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ (٢) » وقال : « لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٣) » . وقال « وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ (٤) » وقال : « الٓمٓ . غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٥) » . فهذه كلها أخبار عن الغيوب التى لا يقف عليها إلا ربُّ العالمين ، أو من أوقفه عليها رب العالمين ، فدل على أن الله تعالى قد أوقف عليها رسوله لتكون دلالة على صدقه .

ومنها : ما تضمنه القرآن من العلم الذى هو قوام جميع الأنام ، فى الحلال والحرام ، وفى سائر الأحكام .

ومنها : الحِكَم البالغة التى لم تجر العادة بأن تصدر فى كثرتها وشرفها من آدمىّ .

ومنها : التناسب فى جميع ما تضمّنه ظاهرا وباطنا من غير اختلاف ، قال الله تعالى : « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٦) » .

قلت : فهذه عشرة أوجه ذكرها علماؤنا رحمة الله عليهم ، ووجه حادى عشر قاله النَّظّام وبعض القَدَرية : أن وجه الإعجاز هو المنع من معارضته ، والصَّرْفَةُ عند التحدّى بمثله . وأن المنع والصَّرْفة هو المعجزة دون ذات القرآن ، وذلك أن الله تعالى صرف هممهم عن معارضته مع تحدّيهم بأن يأتوا بسورة من مثله . وهذا فاسد ، لأن إجماع الأمة قبل حدوث المخالف أن القرآن هو المعجز ؛ فلو قلنا إن المنع والصَّرْفة هو المعجز لخرج القرآن عن أن يكون معجزا ، وذلك خلاف الإجماع ، وإذا كان كذلك عُلِم أن نفس القرآن هو المُعْجِز ، لأن فصاحته وبلاغته أمر خارق للعادة ، إذ لم يوجد قطّ كلامٌ على هذا الوجه ، فلما لم يكن ذلك الكلام مألوفا معتادا منهم ، دلّ على أن المنع والصّرفة لم يكن معجزا . واختلف من قال بهذه الصَّرْفة

(١) راجع جـ ٨ ص ١٢١ . (٢) راجع جـ ١٢ ص ٢٩٧ . (٣) راجع جـ ١٦ ص ٢٨٩ .
(٤) راجع جـ ٧ ص ٣٦٩ . (٥) راجع جـ ١٤ ص ١ . (٦) راجع جـ ٥ ص ٢٩٠

Marfat.com

على قولين : أحدهما — أنهم صُرفوا عن القدرة عليه ؛ ولو تعرّضوا له لعجزوا عنه . الثانى — أنهم صرفوا عن التعرّض له مع كونه فى مقدورهم ؛ ولو تعرّضوا له لجاز أن يقدروا عليه .

قال ابن عطية : « وجه التحدّى فى القرآن إنما هو بنظمه وصحة معانيه، وتوالى فصاحة ألفاظه . ووجه إعجازه : أن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علمًا ، وأحاط بالكلام كله علما ، فعلم بإحاطته أىّ لفظة تصلح أن تلى الأولى، وتبيّن المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أوّل القرآن إلى آخره . والبشر معهم الجهل والنسيان والذهول، ومعلومٌ ضرورةً أن بَشَرًا لم يكن محيطا قطّ ؛ فبهذا جاء نظم القرآن فى الغاية القصوى من الفصاحة . وبهذا النظر يبطل قول من قال : إن العرب كان فى قدرتها أن تأتى بمثل القرآن فى الغاية القصوى من الفصاحة ، فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم صُرفوا عن ذلك، وعجزوا عنه . والصحيح أن الإتيان بمثل القرآن لم يكن قطّ فى قدرة أحد من المخلوقين، و يظهر لك قصور البشر فى أن الفصيح منهم يضع خطبة أو قصيدة يستفرغ فيها جهده، ثم لا يزال ينقحها حولا كاملا، ثم تعطى لآخر بعده فيأخذها بقريحة جامّة فيبدّل فيها وينقّح، ثم لا تزال بعد ذلك فيها مواضع للنظر والبدل، وكتاب الله تعالى لو نُزِعت منه لفظة، ثم أدير لسان العرب أن يوجد أحسن منها لم يوجد » .

ومن فصاحة القرآن أن الله تعالى جلّ ذكره، ذكر فى آية واحدة أمرين ، ونهيين ، وخبرين، و بشارتين وهو قوله تعالى : « وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ (١) » الآية . وكذلك فاتحة سورة المائدة : أمر بالوفاء ونهى عن النكث، وحلل تحليلا عاما، ثم استثنى استثناء بعد استثناء ، ثم أخبر عن حكمته وقدرته ، وذلك مما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه ، وأنبأ سبحانه عن الموت ، وحسرة الفوت، والدار الآخرة وثوابها وعقابها، وفوز الفائزين، وتردّى المجرمين ، والتحذير من الاغترار بالدنيا ، ووصفها بالقلة بالإضافة إلى دار البقاء بقوله تعالى : « كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (٢) » الآية . وأنبأ أيضا عن قصص الأوّلين والآخرين ومآل المترفين ، وعواقب المهلكين ، فى شطر آية وذلك فى قوله تعالى : « فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ

(١) آية ٧ سورة القصص . (٢) آية ١٨٥ سورة آل عمران .

Marfat.com

مَنْ أَغْرَقْنَا »(١) . وأنبأ جلّ وعزّ عن أمر السفينة و إجرائها و إهلاك الكفرة ، وآستقرار السفينة وآستوائها ، وتوجيه أوامر التسخير إلى الأرض والسماء بقوله عزّ وجلّ : « وَقَالَ آرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا » إلى قوله : « وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » إلى غير ذلك .

فلما عجزت قريش عن الإتيان بمثله وقالت : إنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم تقوّله ؛ أنزل الله تعالى : « أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ . فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ »(٢) . ثم أنزل تعجيزا أبلغ من ذلك فقال : « أَمْ يَقُولُونَ آفْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ »(٣) . فلما عجزوا حطّهم عن هذا المقدار ، إلى مثل سورة من السُّوَر القصار ، فقال جلّ ذكره : « وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ »(٤) . فأُفحموا عن الجواب ، وتقطّعت بهم الأسباب . وعدلوا إلى الحروب والعناد ، وآثروا سَبْيَ الحريم والأولاد ، ولو قدروا على المعارضة لكان أهْوَنَ كثيرا ، وأبلغَ في الحجة وأشدّ تأثيرا . هذا مع كونهم أرباب البلاغة واللَّحَن(٥) ، وعنهم تؤخذ الفصاحة واللسن(٦) .

فبلاغة القرآن في أعلى طبقات الإحسان ، وأرفع درجات الإيجاز والبيان ؛ بل تجاوزت حدّ الإحسان والإجادة إلى حيّز الإرباء والزيادة . هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ما أُوتي من جوامع الكلم ، وآختص به من غرائب الحكم ؛ إذا تأمّلتَ قولَه صلّى الله عليه وسلّم في صفة الجنان ، و إن كان في نهاية الإحسان ، وجدته منحطًّا عن رتبة القرآن ؛ وذلك في قوله عليه السلام : "فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعتْ ولا خَطَر على قلب بَشَر" فأين ذلك من قوله عزّ وجلّ « وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ » . وقوله : « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ » . هـذا أعدل وزنا ، وأحسن تركيبا ، وأعذب لفظا ، وأقل حروفا ؛ على أنه لا يعتبر إلا في مقدار سورة أو أطول آية ، لأن الكلام كلما طال آتسع فيـه مجال المتصرف ، وضاق المقال على القاصر المتكلف ؛ و بهذا قامت الحجة على العرب ، إذ كانوا أرباب الفصاحة ، ومظنـة المعارضة ؛ كما قامت الحجة في معجزة عيسى عليه السلام على الأطباء ، ومعجزة موسى

(١) آية ٤٠ سورة العنكبوت . (٢) آية ٣٣ ، ٣٤ سورة الطور . (٣) آية ١٣ سورة هود .
(٤) آية ٢٣ سورة البقرة . (٥) اللحن (بالتحريك) : الفطنة واللغة . (٦) اللسن (بالتحريك) : الفصاحة .

Marfat.com

عليه السلام على السحرة ؛ فإن الله سبحانه إنما جعل معجزات الأنبياء عليهم السلام بالوجه الشهير أبرع ما يكون فى زمان النبيّ الذى أراد إظهاره ، فكان السحر فى زمان موسى عليه السلام قد انتهى إلى غايته ، وكذلك الطّب فى زمن عيسى عليه السلام ، والفصاحة فى زمن محمد صلّى الله عليه وسلّم .

باب التنبيه على أحاديث وضعت فى فضل سُوَر القرآن وغيره

لا ٱلتفات لما وضعه الواضعون ، وٱختلقه المختلقون ، من الأحاديث الكاذبة ، والأخبار الباطلة ، فى فضل سُوَر القرآن ، وغير ذلك من فضائل الأعمال ، قد ٱرتكبها جماعة كثيرة ، ٱختلفت أغراضهم ومقاصدهم فى ٱرتكابها ؛ فمن قوم من الزنادقة مثل : المغيرة بن سعيد الكوفى ، ومحمد بن سعيد الشامى المصلوب فى الزندقة ، وغيرهما ، وضعوا أحاديث وحدّثوا بها لِيُوقعوا بذلك الشك فى قلوب الناس ؛ فما رواه محمد بن سعيد عن أنس بن مالك فى قوله صلى الله عليه وسلم : "أنا خاتم الأنبياء لا نبيّ بعدى إلا ما شاء الله"، فزاد هذا الاستثناء لما كان يدعو إليه من الإلحاد والزندقة .

قلت : وقد ذكره ٱبن عبد البر فى كتاب (التمهيد) ولم يتكلم عليه ؛ بل تأول الاستثناء على الرؤيا ، فالله أعلم .

ومنهم قوم وضعوا الحديث لِهَوًى يدعون الناس إليه ؛ قال شيخ من شيوخ الخوارج بعد أن تاب : إن هذه الأحاديث دين ، فٱنظروا ممن تأخذون دينكم ، فإنا كنا إذا هَوِينا أمرًا صَيّرناه حديثا .

ومنهم جماعة وضعوا الحديث حِسْبَةً كما زعموا ، يدعون الناس إلى فضائل الأعمال ، كما رُوِى عن أبى عِصمة نوح بن أبى مريم المَرْوَزِىّ ، ومحمد بن عكاشة الكِرْمانى ، وأحمد بن عبد الله الجُوَيبارِى ، وغيرهم . قيل لأبى عصمة : من أين لك عن عِكرمة عن ٱبن عباس فى فضل سُوَر القرآن سورة سورة ؟ فقال : إنى رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن وٱشتغلوا بفقه أبى حنيفة ومَغَازى محمد بن إسحاق ؛ فوضعت هذا الحديث حسبة . قال أبو عمرو عثمان بن

الصـلاح فى كتاب (علوم الحديث) له : وهكذا الحديث الطويل الذى يروى عن أُبَيّ بن كعب عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فى فضل القرآن سورة سورة، وقد بحث باحث عن مخرجه حتى آنتهى إلى من آعترف بأنه وجماعة وضعوه، وإنّ أثر الوضع عليه لبيّن . وقد أخطأ الواحدىّ المفسّر ومن ذكره من المفسرين فى إيداعه تفاسيرهم .

ومنهم قوم من السؤّال والمُكْدِين يقفون فى الأسواق والمساجد، فيضعون على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث بأسانيد صحاح قد حفظوها، فيذكرون الموضوعات بتلك الأسانيد؛ قال جعفر بن محمد الطيالسى : صلّى أحمد بن حنبل ويحيى بن مَعين، فى مسجد الرُّصَافة، فقام بين أيديهما قاصٌّ فقال : حدّثنا أحمد بن حنبل ويحيى بن مَعين قالا أنبأنا عبد الرزاق قال أنبأنا مَعْمر عن قَتادة عن أنس قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : من قال لا إله إلا الله يُخلق من كل كلمةٍ منها طائر منقاره من ذهب وريشه مرجان . وأخذ فى قصةٍ نحوٍ من عشرين ورقة؛ فجعل أحمد ينظر إلى يحيى ويحيى ينظر إلى أحمد؛ فقال : أنت حدّثته بهذا ؟ فقال : والله ما سمعت به إلا هذه الساعة؛ قال : فسكتا جميعا حتى فرغ من قصصه، فقال له يحيى : من حدّثك بهذا الحديث؟ فقال : أحمد بن حنبل ويحيى بن معين؛ فقال أنا آبن معين، وهذا أحمد بن حنبل، ما سمعنا بهذا قط فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن كان ولا بدّ من الكذب فعلى غيرنا، فقال له : أنت يحيى بن معين ؟ قال : نعم؛ قال : لم أزل أسمع أن يحيى بن معين أحمق، وماعلمته إلا هذه الساعة؛ فقال له يحيى : وكيف علمت أنى أحمق ؟ قال : كأنه ليس فى الدنيا يحيى بن مَعين وأحمد بن حنبل غيركما، كتبت عن سبعة عشر أحمد بن حنبل غير هذا . قال : فوضع أحمد كُمّه على وجهه وقال : دعه يقوم؛ فقام كالمستهزئ بهما . فهؤلاء الطوائف كَذَبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن يجرى مجراهم . يُذكر أن الرشيد كان يعجبه الحَمَام واللّهو به؛ فأُهدى إليه حمام وعنده أبو البَخْتَرِيّ[1]

(١) أبو البخترى : هو وهب بن وهب بن وهب بن كثير . آنتقل من المدينة إلى بغداد فى خلافة هارون الرشيد فولاه القضاء بعسكر المهدى (المحلة المعروفة بالرصافة بالجانب الشرق من بغداد) ثم عزله وولاه القضاء بمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم بعد بكار الزبيرى وجعل إليه ولاية حربها مع القضاء ثم عزله فقدم بغداد وأقام بها إلى أن توفى سنة مائتين .

Marfat.com

القاضى فقال : روى أبو هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا سَبَق إلا فى خُفّ أو حافر أو جَناح" فزاد : أو جناح، وهى لفظة وضعها للرشيد ، فأعطاه جائزة سَنِيّة ؛ فلما خرج قال الرشيد : والله لقد علمت أنه كذاب، وأمر بالحمام أن يذبح؛ فقيل له : وما ذنب الحمام؟ قال : من أجله كُذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فترك العلماء حديثه لذلك، ولغيره من موضوعاته ، فلا يكتب العلماء حديثه بحال .

قلت : فلو آقتصر النـاس على ما ثبت فى الصحاح والمسانيد وغيرهما من المصنفات التى تداولها العلماء، ورواها الأئمة الفقهاء، لكان لهم فى ذلك غُنْية، وخرجوا عن تحذيره صلى الله عليه وسلم حيث قال : "آتّقوا الحديث عنّى إلا ما علمتم فمن كذب علىّ متعمّدا فليتبوّأ مقعده من النار" الحديث . فتخويفه صلى الله عليه وسلم أمته بالنار على الكذب، دليل على أنه كان يعلم أنه سيُكذب عليه . فحذارِ مما وضعه أعداء الدين ، وزنادقة المسلمين ، فى باب الترغيب والترهيب وغير ذلك ؛ وأعظمهم ضررا أقوام من المنسوبين إلى الزهد ، وضعوا الحديث حِسبة فيما زعموا، فتقبل الناس موضوعاتهم، ثقة منهم بهم، وركنوا إليهم، فضلّوا وأضلّوا .

باب ما جاء من الحجة فى الرّد على من طعن فى القرآن وخالف مصحف عثمان بالزيادة والنقصان

لا خلاف بين الأمة ولا بين الأئمة أهل السُّـنّة، أن القرآن آسم لكلام الله تعـالى الذى جاء به محمد صلّى الله عليـه وسلّم معجزةً له — على نحو ما تقدم — وأنه محفوظ فى الصدور، مقـروءٌ بالألسنة، مكتوبٌ فى المصاحف ؛ معلومةٌ على الأضطرار سُـوَرُه وآياته، مُبرّأةٌ من الزيادة والنقصان حروفه وكلماته ؛ فلا يحتاج فى تعريفه بحدّ ، ولا فى حصره بعدّ، فمن آدّعى زيادة عليه أو نقصانا منه، فقد أبطل الإجماع، وبَهَت الناس، وردّ ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من القرآن المنزل عليـه، وردّ قوله تعالى : « قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا »(1)، وأبطل آية رسوله

(1) راجع ج ١٠ ص ٣٢٦

عليه السلام، لأنه إذ ذاك يصير القرآن مقدورا عليه، حين شِيب بالباطل، ولمّا قدر عليه لم يكن حجة ولا آية، وخرج عن أن يكون معجزا .

فالقائل بأن القرآن فيه زيادة ونقصان رادٌّ لكتاب الله ولمَا جاء به الرسول، وكان كمن قال : الصلوات المفروضات خمسون صلاة، وتزوُّجُ تسع من النساء حلال، وفرض الله أياما مع شهر رمضان، إلى غير ذلك مما لم يثبت فى الدين، فإذا ردّ هذا بالإجماع، كان الإجماع على القرآن أثبت وآكد وألزم وأوجب .

قال الإمام أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار بن محمد الأنبارى : ولم يزل أهل الفضل والعقل يعرفون من شرف القرآن وعلو منزلته، ما يوجبه الحق والإنصاف والديانة، وينفون عنه قول المبطلين، وتمويه الملحدين وتحريف الزائغين، حتى نبع فى زماننا هذا زائغ زاغ عن الملة، وهجم على الأمة بما يحاول به إبطال الشريعة التى لا يزال الله يؤيدها، ويثبت أُسّها، وينمى فرعها، ويحرسها من معايب أُولِى الحَنَف والجَوْر، ومكايد أهل العداوة والكفر .

فزعم أن المصحف الذى جمعه عثمان رضى الله عنه — باتفاق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على تصويبه فيما فعل — لا يشتمل على جميع القرآن، إذ كان قد سقط منه خمسمائة حرف، قد قرأت ببعضها وسأقرأ ببقيتها، فمنها : « والعصر ونوائب الدهر » فقد سقط من القرآن على جماعة المسلمين « ونوائب الدهر » . ومنها : « حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وٱزّينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها» . فٱدعى هذا الإنسان أنه سقط على أهل الإسلام من القرآن : « وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها » ، وذكر مما يدعى حروفا كثيرة .

وٱدّعى أن عثمان والصحابة رضى الله عنهم زادوا فى القرآن ما ليس فيه ، فقرأ فى صلاة الفرض والناس يسمعون : « الله الواحد الصمد » فأسقط من القرآن « قل هو » وغيّر لفظ

Marfat.com

« أحد » وآدّعى أن هذا هو الصواب والذى عليه الناس هو الباطل والمحال، وقرأ فى صلاة الفرض : « قل للذين كفروا لا أعبد ما تعبدون » وطعن فى قراءة المسلمين .

وآدّعى أن المصحف الذى فى أيدينا آشتمل على تصحيف حروف مفسدة مغيّرة، منها : « إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ »(١)؛ فآدّعى أن الحكمة والعزة لايشاكلان المغفرة، وأن الصواب : « وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم » . وترامى به الغيّ فى هذا وأشكاله حتى آدّعى أن المسلمين يصحّفون : « وَكَانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهاً » والصواب الذى لم يغيّر عنده : « وكان عبدًا لله وجيها »، وحتى قرأ فى صلاة مفترضة على ما أخبرنا جماعة سمعوه وشهدوه : « لا تحرّك به لسانك إن علينا جمعــه وقراءته فإذا قرأناه فاتّبع قراءته ثم إن علينا نبأ به» . وحكى لنا آخرون عن آخرين أنهم سمعوه يقرأ : «ولقد نصركم الله ببدر بسيف عليّ وأنتم أذلة» . وروى هؤلاء أيضا لنا عنه قال : «هذا صراط عليّ مستقيم» . وأخبرونا أنه أدخل فى آية من القرآن ما لا يضاهى فصاحة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يدخل فى لسان قومه الذين قال الله عزّ وجلّ فيهــم : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُــولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ » فقرأ : « أليس قلت للنــاس » فى موضع : « أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ » وهذا لا يعرف فى نحو المعربين ، ولا يحمل على مذاهب النحويين؛ لأن العرب لم تقل : ليس قمت، فأما : لست قمت، بالتــاء فشاذّ قبيح خبيث ردىء ؛ لأن ليس لا تجحد الفعل المــاضى ، ولم يوجد مثل هذا إلا فى قولهم : أليس قد خلق الله مثلهم؛ وهو لغة شاذة لا يحمل كتاب الله عليها .

وآدّعى أن عثمان رضى الله عنه لمــا أسند جمع القرآن إلى زيد بن ثابت لم يُصب؛ لأن عبد الله بن مسعود وأُبَيّ بن كعب كانا أولى بذلك من زيد لقول النبيّ صلّى الله عليه وسلّم : " أقرأ أمّتى أُبَيّ بن كعب " ولقوله عليه السلام : " مَن سَرّه أن يقرأ القرآن غضًا كما أنزل فليقرأه بقراءة آبن أمّ عَبْد " . وقال هــذا القائل : لى أن أخالف مصحف عثمان كما خالفه أبو عمرو بن العلاء، فقرأ : « إنّ هذَيْن »(٢)، « فأصدق وأكون »، « وبشر عبادىَ الذين » بفتح الياء ، « فما أتانىَ الله » بفتح الياء. والذى فى المصحف : « إِنَّ هَــذَانِ »(٢) بالألف ،

(١) آية ١١٨ سورة المــائدة . (٢) بتشديد النون، قراءة نافع .

Marfat.com

« فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ » بغير واو ، « فَبَشِّرْ عِبَادِ » ، « فَمَا آتَانِ اللَّهُ » بغير ياءين في الموضعين . وكما خالف ٱبن كَثير ونافع وحمزة والكسائى مصحف عثمان فقرءوا : « كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ » بإثبات نونين، يفتح الثانية بعضهم ويسكنها بعضهم، وفي المصحف نون واحدة[(1)]؛ وكما خالف حمزة المصحف فقرأ : « أَتُمِدُّونِ بِمَالٍ » بنون واحدة ووقف على الياء ، وفي المصحف نونان ولا ياء بعدهما؛ وكما خالف حمزة أيضا المصحف فقرأ : «ألا إنّ ثمودَا كفروا ربّهم » بغير تنوين، وإثبات الألف يوجب التنوين؛ وكل هـذا الذى شنّع به على القرّاء ما يلزمهم به خلافٌ للمصحف .

قلت : قد أشرنا إلى العدّ فيما تقدّم ممـا ٱختلفت فيه المصاحف، وسيأتى بيان هـذه المواضع في مواضعها من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

قال أبو بكر : وذكر هذا الإنسان أن أُبَيّ بن كعب هو الذى قرأ « كأن لم تغن بالأمس وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها » وذلك باطل؛ لأن عبد الله بن كَثير قرأ على مجاهد، ومجاهد قرأ على ٱبن عباس، وٱبن عبـاس قرأ القرآن على أُبَيّ بن كعب «حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ» ، في رواية وقرأ أُبَيّ القرآن على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم؛ وهذا الإسناد متّصل بالرسول عليه السلام نقله أهل العـدالة والصّيانة، وإذا صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمْرٌ لم يؤخذ بحديث يخالفه . وقال يحيى بن المبارك اليزيدى : قرأت القرآن على أبي عمرو بن العـلاء ، وقرأ أبو عمرو على مجاهد ، وقرأ مجاهـد على ٱبن عباس ، وقرأ ٱبن عباس على أُبَيّ بن كعب، وقرأ أُبَيّ على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وليس فيها «وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها » فمن جحد أن هذه الزيادة أنزلها الله تعالى على نبيّه عليه السلام فليس بكافر ولا آثم .

حدّثنى أبِى نبّأنا نصر بن داود الصاغانى نبأنا أبو عبيد قال : ما يُروَى من الحروف التى تخالف المصحف الذى عليـه الإجماع من الحروف التى يعرف أسانيدَها الخاصةُ دون العامة فيما نقلوا فيه عن أُبَيّ : « وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها »؛ وعن ٱبن عباس « ليس

(1) يلاحظ أن الذى في المصحف نونان .

Marfat.com

عليكم جُناح أن تبتغوا فضلا من ربكم فى مواسم الحج » . ومما يحكون عن عمر بن الخطاب أنه قرأ : « غير المغضوب عليهم وغير الضالين» مع نظائر لهذه الحروف كثيرة، لم ينقلها أهل العلم على أن الصلاة بها تحلّ ، ولا على أنها معارَض بها مصحف عثمان ؛ لأنها حروف لو جحدها جاحد أنها من القرآن لم يكن كافرا ؛ والقرآن الذى جمعه عثمان بموافقة الصحابة له لو أنكر بعضه منكر كان كافرا ، حكمه حكم المرتد يُستتاب ؛ فإن تاب و إلا ضُربت عنقه . وقال أبو عبيد : لم يزل صَنيع عثمان رضى الله عنه فى جمعه القرآن يُعتدّ له بأنه من مناقبه العظام ؛ وقد طعن عليه فيه بعض أهل الزَّيغ فآنكشف عواره، ووضحت فضائحه . قال أبو عبيد : وقد حدّثت عن يزيد بن زُرَيع عن عمران بن جرير عن أبى مِجْلَز قال : طعن قوم على عثمان رحمه الله — بحُمْقهم — جَمْعَ القرآن، ثم قرءوا بما نُسخ . قال أبو عبيد : يذهب أبو مجلز إلى أن عثمان أسقط الذى أسقط بعلم كما أثبت الذى أثبت بعلم . قال أبو بكر : وفى قوله تعالى « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » دلالة على كفر هذا الإنسان ؛ لأن الله عزّ وجلّ قد حفظ القرآن من التغيير والتبديل، والزيادة والنقصان ؛ فإذا قرأ قارئ : « تَبَّتْ يَدَا أبى لهب وقد تَبَّ ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى نارا ذات لهب ومُرَيَّته حمالة الحطب فى جيدها حبل من ليف » فقد كَذَب على الله جلّ وعلا وقوّله مالم يقل، وبدّل كتابه وحرّفه، وحاول ما قد حفظه منه ومنع من آختلاطه به ؛ وفى هذا الذى أتاه توطئة الطريق لأهل الإلحاد، ليُدخلوا فى القرآن مايحلّون به عُرا الإسلام، ويَنسُبونه إلى قوم كهؤلاء القوم الذين أحالوا هذا بالأباطيل عليهم . وفيه إبطال الإجماع الذى به يحرس الإسلام، وبثباته تقام الصلوات، وتُؤدّى الزكوات وتتحرّى المتعبّدات . وفى قول الله تعالى : « الٓر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ » دلالة على بدعة هذا الإنسان وخروجه إلى الكفر، لأن معنى « أحكمت آياته » : منع الخلق من القدرة على أن يزيدوا فيها، أو ينقصوا منها أو يعارضوها بمثلها، وقد وجدنا هذا الإنسان زاد فيها : وكفى الله المؤمنين القتال بعلىّ وكان الله قويا عزيزا . فقال فى القرآن هُجْرا ، وذكر عليا فى مكان لو سمعه يذكره فيه لأمضى عليه الحدّ ، وحكم عليه بالقتل . وأسقط من كلام الله

« قل هو » وغيّر « أحد » فقرأ : الله الواحد الصمد . و إسقاط ما أسقطه نَفْىٌ له وكُفر . ومَن كفر بحرف من القرآن فقد كفر به كله وأبطل معنى الآية ؛ لأن أهل التفسير قالوا : نزلت الآية جوابا لأهل الشرك لمّا قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : صِفْ لنا رَبّك ، أمن ذهب أم من نحاس أم من صُفْر ؟ فقال الله جلّ وعزّ ردّا عليهم : «قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ» ففى «هو» دلالة على موضع الردّ ومكان الجواب ؛ فاذا سقط بطل معنى الآية ، ووضح الافتراء على الله عزّ وجلّ ، والتكذيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم . و يقال لهذا الإنسان ومَن ينتحل نصرته : أخبرونا عن القرآن الذى نقرؤه ولا نعرف نحن ولا مَنْ كان قبلنا من أسلافنا سواه ؛ هل هو مشتمل على جميع القرآن من أوله إلى آخره ، صحيح الألفاظ والمعانى عارٍ عن الفساد والخلل ؟ أم هو واقع على بعض القرآن والبعض الآخر غائب عنا كما غاب عن أسلافنا والمتقدّمين من أهل ملّتنا ؟ فإن أجابوا بأن القرآن الذى معنا مشتمل على جميع القرآن لا يسقط منه شىء ، صحيح اللفظ والمعانى ، سليمها من كل زلل وخلل ؛ فقد قضوا على أنفسهم بالكفر حين زادوا فيه « فليس له اليوم هاهنا حميم وليس له شراب إلا من غِسْلين من عين تجرى من تحت الجحيم » فأىّ زيادة فى القرآن أوضح من هذه ، وكيف تخلط بالقرآن وقد حرسه الله منها ومنع كل مُفْترٍ ومُبْطل من أن يلحق به مثلها ، و إذا تُؤُمِّلتْ وبُحث عن معناها وُجدت فاسدة غير صحيحة ، لا تشاكل كلام البارئ تعالى ولا تخلط به ، ولا توافق معناه ، وذلك أن بعدها « لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ » فكيف يؤكل الشراب ، والذى أتى به قبلها : فليس له اليوم هاهنا حميم وليس له شراب إلا من غسلين من عين تجرى من تحت الجحيم لا يأكله إلا الخاطئون . فهذا متناقض يفسد بعضه بعضا ، لأن الشراب لا يؤكل ، ولا تقول العرب : أكلت الماء ؛ لكنهم يقولون : شربته وذقته وطعمته ؛ ومعناه فيما أنزل الله تبارك وتعالى على الصحة فى القرآن الذى مَن خالف حَرْفًا منه كفر . « وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ » لا يأكل الغسلين إلا الخاطئون أو لا يأكل الطعام إلا الخاطئون . والغسلين : ما يخرج من أجوافهم من الشحم وما يتعلق به من الصَّديد وغيره ؛ فهذا طعام يؤكل عند البَلِيّة والنِّقمة ، والشراب محال أن

Marfat.com

يؤكل. فإن آدّعى هذا الإنسان أن هذا الباطل الذى زاده من قوله «من عين تجرى من تحت الجحيم» ليس بعدها «لا يأكله إلا الخاطئون» ونفى هذه الآية من القرآن لتصح له زيادته، فقد كفر لما جحد آية من القرآن. وحسبك بهذا كله ردّا لقوله، وخزيا لمقاله. وما يؤثر عن الصحابة والتابعين أنهم قرءوا بكذا وكذا إنما ذلك على جهة البيان والتفسير، لا أن ذلك قرآن يتلى، وكذلك ما نُسخ لفظه وحكمه أو لفظه دون حكمه ليس بقرآن؛ على ما يأتى بيانه عند قوله تعالى: «ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ»[1] إن شاء الله تعالى.

القول فى الآستعاذة

وفيها آثنتا عشرة مسألة:

الأولى — أمر الله تعالى بالآستعاذة عند أوّل كل قراءة فقال تعالى: «فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْآنَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ ٱلرَّجِيمِ» أى إذا أردت أن تقرأ؛ فأوقع الماضى موقع المستقبل كما قال الشاعر:

وإنى لآتيكم لذكرى الذى مضى * من الودّ وآستئناف ما كان فى غدِ

أراد ما يكون فى غد؛ وقيل: فى الكلام تقديم وتأخير، وأن كل فعلين تقاربا فى المعنى جاز تقديم أيهما شئت؛ كما قال تعالى: «ثُمَّ دَنَى فَتَدَلَّى» المعنى فتدلى ثم دنا؛ ومثله: «ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنْشَقَّ ٱلْقَمَرُ» وهو كثير.

الثانيــة — هــذا الأمر على النّدب فى قول الجمهور فى كل قراءة فى غير الصلاة. وآختلفوا فيه فى الصلاة. حكى النّقاش عن عطاء: أن الآستعاذة واجبة. وكان آبن سيرين والنّخعى وقوم يتعوّذون فى الصلاة كل ركعة، ويمتثلون أمر الله فى الآستعاذة على العموم؛ وأبو حنيفة والشافعىّ يتعوّذان فى الركعة الأولى من الصلاة ويريان قراءة الصلاة كلها كقراءة واحدة؛ ومالك لا يرى التعوّذ فى الصلاة المفروضة ويراه فى قيام رمضان.

الثالثــة — أجمع العلماء على أن التعوّذ ليس من القرآن ولا آية منه، وهو قول القارئ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. وهذا اللفظ هو الذى عليه الجمهور من العلماء فى التعوّذ لأنه

(١) راجع جـ ٢ ص ٦١

Marfat.com

لفظ كتاب الله تعالى . وروى عن ابن مسعود أنه قال : قلت أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ؛ فقال لى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم : " يا ابن أُمّ عَبْد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم هكذا أقرأني جبريل عن اللوح المحفوظ عن القلم " .

الرابعة — روى أبو داود وابن ماجه فى سُننهما عن جُبَير بن مُطْعِم أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلّى صلاة فقال عمرو[1] : لا أدرى أى صلاة هى؟ فقال : " الله أكبر كبيرا الله أكبر كبيرا — ثلاثا — الحمد لله كثيرا الحمد لله كثيرا — ثلاثا — وسبحان الله بكرة وأصيلا — ثلاثا — أعوذ بالله من الشيطان من نَفْخه ونَفْثه وهَمْزه " . قال عمرو : هَمْزُه المُوْتَةُ، ونَفْثُه الشِّعر، ونَفْخُه الكِبْرُ . وقال ابن ماجه : المُوْتَة يعنى الجنون . والنَّفْث : نفخ الرجل من فيه من غير أن يخرج ريقه . والكِبر : التِّيهُ . وروى أبو داود عن أبى سعيد الخُدْرى قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا قام من الليل كبّر ثم يقول : " سبحانك اللّهُمّ وبحمدك تبارك اسمك وتعالى جدّك ولا إله غيرك — ثم يقول : — لا إله إلا الله — ثلاثا ثم يقول : — الله أكبر كبيرا — ثلاثا — أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من هَمْزه ونَفْخه ونَفْثه " ؛ ثم يقرأ . وروى سليمان بن سالم عن ابن القاسم[2] رحمه الله أن الاستعاذة : أعوذ بالله العظيم من الشيطان الرجيم إن الله هو السميع العليم بسم الله الرحمن الرحيم . قال ابن عطية : « وأما المقرئون فأكثروا فى هذا من تبديل الصفة فى اسم الله تعالى وفى الجهة الأخرى ، كقول بعضهم : أعوذ بالله المجيد ، من الشيطان المريد ؛ ونحو هذا مما لا أقول فيه : نِعمت البِدْعة ، ولا أقول : إنه لا يجوز » .

الخامسة — قال المَهْدَوِىّ : أجمع القرّاء على إظهار الاستعاذة فى أول قراءة سورة «الحمد» إلا حمزة فإنه أسرّها . وروى السُّدِّىّ[3] عن أهل المدينة أنهم كانوا يفتتحون القراءة بالبسملة . وذكر أبو اللّيث السَّمَرْقَنْدِىّ عن بعض المفسرين أن التعوّذ فرض ، فإذا نسيه

(١) لعله عمرو بن مرة المذكور فى سند هذا الحديث (انظر سنن ابن ماجه جـ ١ ص ١٣٩ وسنن أبى داود جـ ١ ص ٧٧ طبع مصر) . (٢) فى بعض النسخ : « أبى القاسم » . (٣) فى بعض النسخ : « المسيبى » .

Marfat.com

القارئ وذَكَره فى بعض الحزب قطع وتعوّذ، ثم آبتـدأ من أوله . وبعضهم يقول : يستعيذ ثم يرجع إلى موضعه الذى وقف فيه ؛ وبالأوّل قال أسانيد الحجاز والعراق، وبالثانى قال أسانيد الشام ومصر .

السادســة — حكى الزّهراوىّ قال: نزلت الآية فى الصلاة ونُدبنا إلى الآستعاذة فى غير الصـلاة وليس بفرض . قال غيره : كانت فرضًا على النبىّ صلى الله عليه وسـلم وحده ، ثم تأسّـينا به .

السابعــة — رُوى عن أبى هريرة أن الآسـتعاذة بعد القراءة ، وقاله داود . قال أبو بكر بن العربىّ : «آنتهى العِىّ بقوم إلى أن قالوا : إذا فرغ القارئ من قراءة القرآن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم » . وقد روى أبو سعيد الخُدْرِىّ أن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم كان يتعوّذ فى صلاته قبل القراءة، وهذا نص . فإن قيل : فما الفائدة فى الآستعاذة من الشيطان الرجيم وقت القراءة ؟ قلنا : فائدتهـا آمتثال الأمر ، وليس للشرعيات فائدة إلا القيام بحق الوفاء لها فى آمتثالها أمرًا أو آجتنابها نهيًا ،وقد قيل : فائدتها آمتثال الأمر بالآستعاذة من وسوسة الشيطان عند القراءة، كما قال تعالى : « وما أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِى أُمْنِيَّتِهِ »[(١)] . قال آبن العربى: «ومن أغرب ما وجدناه قول مالك فى المجموعة فى تفسير هذه الآية : « فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»[(٢)] قال : ذلك بعد قراءة أمّ القرآن لمن قرأ فى الصلاة، وهذا قول لم يرد به أثر، ولا يَعضُده نظر ، فإن كان هذا كما قال بعض الناس : إن الآستعاذة بعد القراءة، كان تخصيص ذلك بقراءة أمّ القرآن فى الصلاة دعوى عريضة، ولا تشبه أصل مالك ولا فهمه ، فالله أعلم بسرّ هذه الرواية » .

الثامنــة — فى فضل التعوّذ . روى مسلم عن سليمان بن صُرَد قال : آستَبّ رجلان عند النبىّ صلّى الله عليه وسـلّم فجعل أحدُهما يغضب ويحمر وجهه وتنتفخ أوداجه ، فنظر إليه النبىّ صلّى الله عليه وسلّم فقال : " إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب ذا عنه أعوذ بالله من الشيطان الرجيم " . فقام إلى الرجل رجل ممن سمع النبىّ صلّى الله عليــه وسلم فقال : هل تدرى ما قال

(١) آية ٥٢ سورة الحج . (٢) آية ٩٨ سورة النحل .

Marfat.com

رسول الله صلّى الله عليه وسلّم آنفا ؟ قال : " إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب ذا عنه أعوذ بالله من الشـيطان الرجيم " . فقال له الرجل : أمجنونا تراني ! أخرجه البخاري أيضا . وروى مسلم أيضا عن عثمان بن أبي العاص الثقفي أنه أتى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقال : يا رسول الله، إن الشيطان قد حال بيني و بين صلاتي وقراءتي يلبّسها عليّ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ذاك شيطان يقال له خَنْزَب (١) فإذا أحسستَه فتعوّذ بالله منـه وآتفل عن يسارك ثلاثا " قال : ففعلت فأذهبه الله عني . وروى أبو داود عن آبن عمر قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا سافر فأقبل عليـه الليل قال : " يا أرضُ ربي وربّك الله أعوذ بالله من شرّك ومن شرّ ما خلق فيك ومن شر مايَدِبّ عليك ومن أسد وأسْود ومن الحية والعقرب ومن ساكني البلد ووالد وما ولد " . وروت خَوْلة بنت حَكيم قالت : سمعت رسول الله صلّى الله عليـه وسلم يقول : " مَن نزل منزلا ثم قال أعوذ بكلمـات الله التامات من شرّ ما خلق لم يضرّه شيء حتى يرتحل " . أخرجه المُوَطّأ ومسلم والترمذيّ وقال : حديث حسن غريب صحيح . وما يُتعوّذ منه كثير ثابت في الأخبار، والله المستعان .

التاســعة — معنى الآستعاذة في كلام العرب : الآستجارة والتحيّز إلى الشيء، على معنى الآمتناع به من المكروه؛ يقال : عُذت بفلان وآستعذت به؛ أي لجأت إليه . وهو عياذي؛ أي ملجئي . وأعذت غيري به وعوّذته بمعنًى . ويقال : عَوْذٌ بالله منك؛ أي أعوذ بالله منك؛ قال الراجز :

قالت وفيها حَيْدَةٌ وذُعْر ٭ عَــوْذٌ بربّي منكمُ وحُجْرُ

والعرب تقول عند الأمر [تنكره] (٢) : حُجْرًا له (بالضم) أي دفعًا ، وهو آسـتعاذة من الأمر . والعوذة والمعاذة والتعويذ كله بمعنًى . وأصل أعوذ : أعْوُذ نقلت الضمة إلى العين لآستثقالها على الواو فسكنت .

---

(١) قوله : يقـال له خنزب . في نهاية آبن الأثير : «قال أبو عمرو : وهو لقب له ، والخنزب (بالفتح) : قطعة لحم منتنة ويروى بالكسر والضم» .

(٢) الزيادة عن لسان العرب مادّة (حجر) .

Marfat.com

العـاشرة — الشيطان واحد الشياطين، على التكسير والنون أصلية، لأنه من شَطَن إذا بَعُدَ عن الخير . وشطنت داره أى بعدت؛ قال الشاعر [١] :

نأتْ بسعادَ عنك نَوًى شَـطُونُ * فبانتْ والفـؤادُ بهـا رهـينُ

و بئر شَطُون أى بعيدة القعر . والشَّطَن : الحبل ؛ سُمّىَ به لبعد طرفيه وآمتداده . ووصف أعرابى فرسا [لايُحْفَى] [٢] فقال : كأنه شيطان فى أشْطان . وسُمّىَ الشـيطان شيطانا لبعده عن الحق وتمرّده، وذلك أن كل عاتٍ متمرّدٍ من الجنّ والإنس والدواب شيطان؛ قال جرير :

أيامَ يدعونَنى الشيطانَ من غَزَلٍ * وهُنّ يَهْـوَيْننى إذ كنتُ شيطانَا

وقيل : إن شـيطانا مأخوذ من شاط يَشيط إذا هلك [٣] ، فالنون زائدة . وشاط إذا آحترق. وشيَّطت اللحم إذا دخنته ولم تنضجه. وآشتاط الرجل إذا آحتدّ غضبا. وناقة مِشياط التى يطير فيها السِّمَن . وآشتاط إذا هلك؛ قال الأعشى :

قد نَخضِب العَيْر من مكنون فائله [٤] * وقـد يَشِيط على أرماحنا البَـطَلُ

أى يهلك . و يرد على هذه الفرقة أن سيبويه حكى أن العرب تقول : تَشَيْطن فلان إذا فعل أفعال الشياطين ، فهذا بيّن أنه تفيعل من شطن ، ولو كان من شاط لقالوا : تشيَّط ، ويردّ عليهم أيضا بيت أُمَيّة بن أبى الصَّلْت :

أيُّمـا شاطنٍ عَصَـاه عَكَاه [٥] * ورماه فى السجن والأغلال

فهذا شاطن من شطن لا شك فيه .

الحادية عشرة — الرجيم أى المبعـد من الخير المهان . وأصـل الرجم : الرمى بالحجارة ، وقد رجمته أرجمه، فهو رجيم ومرجوم . والرجم : القتل واللعن والطرد والشتم، وقـد قيل هذا كله فى قوله تعالى : « لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ » . وقول أبى إبراهيم : « لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ » [٦] . وسيأتى إن شاء الله تعالى .

---

(١) هو النابغة الذبيانى؛ كما فى لسان العرب مادّة (شطن) (٢) الزيادة عن لسان العرب مادّة (شطن) .
(٣) فى الأصول : «إذا بطل» والتصويب عن اللسان . (٤) الفائل : عرق فى الفخذين يكون فى خربة الورك ينحدر فى الرجلين . (٥) عكاه فى الحديد والوثاق اذا شدّه . (٦) راجع جـ ١١ ص ١١١ وجـ ١٣ ص ١٢١

الثانية عشرة — روى الأعمش عن أبى وائل عن عبـد الله قال قال علىّ بن أبى طالب عليه السلام : رأيت النبىّ صلّى الله عليه وسلّم عند الصّفا وهو مقبل على شخص فى صورة الفيل وهو يلعنه ، قلت : ومن هذا الذى تلعنه يا رسول الله؟ قال : "هذا الشيطان الرجيم" فقلت : يا عدوّ الله ، والله لأقتلنّك ولأريحنّ الأمّة منك ؛ قال : ما هذا جزائى منك ؛ قلت : وما جزاؤك منى يا عدوّ الله ؟ قال : والله ما أبغضَك أحدٌ قطّ إلا شَرِكتُ أباه فى رَحِم أمه .

البســـملة

وفيها سبع وعشرون مسئلة :

الأولى — قال العلماء : «بسم الله الرحمن الرحيم» قَسَم من ربّنا أنزله عند رأس كل سورة ، يقسم لعباده إن هـذا الذى وضعت لكم يا عبادى فى هذه السورة حق ، وإنى أفى لكم بجميع ما ضمنت فى هذه السورة من وعدى ولطفى وبرّى . و « بسم الله الرحمن الرحيم » ممـا أنزله الله تعالى فى كتابنا وعلى هذه الأمة خصوصا بعـد سليمان عليه السلام . وقال بعض العلماء : إن « بسم الله الرحمن الرحيم » تضمّنت جميع الشرع ، لأنها تدل على الذات وعلى الصفات ؛ وهـذا صحيح .

الثانيـــة — قال سعيد بن أبى سكينة : بلغنى أن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه نظر إلى رجل يكتب « بسم الله الرحمن الرحيم » فقـال له : جوّدها فإن رجلا جوّدها فغفر له . قال سعيد : وبلغنى أن رجلا نظر إلى قرطاس فيــه « بسم الله الرحمن الرحيم » فقبّله ووضعه على عينيه فغفر له . ومن هــذا المعنى قصة بِشْر الحافِى ، فإنه لمـا رفع الرقعة التى فيها آسم الله وطيبها طُيِّب آسمه (١) ، ذكره القشيرى . وروى النسائى عن أبى المليح عن ردف رســول الله

(١) نص القصـــة كما فى وفيات الأعيان والرسالة القشـــيرية : « ... وسبب توبتــه أنه أصاب فى الطريق ورقة مكتوبا فيها آسم الله عز وجل وقد وطئتها الأقدام ، فأخذها وآشترى بدراهم كانت معه غالية فطيّب بها الورقة وجعلها فى شق حائط ، فرأى فى النوم كأن قائلا يقول له : يا بشر ، طيبت آسمى لأطيبنك فى الدنيا والآخرة . فلما آنتبه من نومه تاب .

Marfat.com

صلى الله عليـه وسلم قال : إن رسول الله صلى الله عليـه وسلم قال : " إذا عثرت بك الدابة فلا تقل تَعِس الشيطان فإنه يتعاظم حتى يصير مثل البيت و يقول بقوّته صنعته ولكن قل بسم الله الرحمن الرحيم فإنه يتصاغر حتى يصير مثل الذباب " . وقال عليّ بن الحسين فى تفسير قوله تعـالى : « وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا »(١) قال معناه : إذا قلت « بسم الله الرحمن الرحيم » . وروى وكيع عن الأعمش عن أبى وائل عن عبـد الله ابن مسعود قال : من أراد أن ينجيه الله من الزبانية التسعة عشر فليقرأ « بسم الله الرحمن الرحيم » ليجعل الله تعـالى له بكل حرف منها جُنّة من كل واحد . فالبسملة تسعة عشر حرفا على عدد ملائكة أهل النـار الذين قال الله فيهم : « عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ » وهم يقولون فى كل أفعالهم : « بسم الله الرحمن الرحيم » فمن هنالك هى قوّتهـم ، و ببسم الله آستضلعوا . قال آبن عطية : ونظير هذا قولهم فى ليلة القدر : إنها ليلة سبع وعشرين ، مراعاة للفظة « هى » من كلمات سورة « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ » . ونظيره أيضا قولهم فى عدد الملائكة الذين آبتدروا قول القائل : ربّنا ولك الحمد حمدًا كثيرًا طيّبًا مباركا فيه ، فإنها بضعة وثلاثون حرفا ؛ فلذلك قال النبى صلّى الله عليه وسلّم : " لقد رأيت بضعا وثلاثين مَلَكا يبتدرونها أيّهم يكتبها أوّل " . قال آبن عطية : وهذا من مُلَح التفسير وليس من متين العلم .

الثالثــة — روى الشعبى والأعمش أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان يكتب « بآسمك اللّهمّ » حتى أُمِر أن يكتب « بسم الله » فكتبها ؛ فلما نزلت : « قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ » كتب « بسم الله الرحمن » فلمـا نزلت : « إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ » كتبها . وفى مصنف أبى داود قال الشعبى وأبو مالك وقتادة وثابت بن عمارة : إن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لم يكتب بسم الله الرحمن الرحيم حتى نزلت سورة « النمل » .

الرابعــة — رُوى عن جعفر الصادق رضى الله عنه أنه قال : البسملة تيجان السُّوَر . قلت : وهذا يدل على أنها ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها. وقد آختلف العلماء فى هذا المعنى على ثلاثة أقوال :

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٧١

(الأول) ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها ؛ وهو قول مالك .

(الثانى) أنها آية من كل سورة ؛ وهو قول عبد الله بن المبارك .

(الثالث) قال الشافعى : هى آية فى الفاتحة ؛ وتردّد قوله فى سائر السُّور ؛ فمرّة قال : هى آية من كل سورة ، ومرّة قال : ليست بآية إلا فى الفاتحة وحدها . ولا خلاف بينهم فى أنها آية من القرآن فى سورة النمل .

وآحتج الشافعى بما رواه الدَّارَقُطْنِيّ من حديث أبى بكر الحنفى عن عبد الحميد بن جعفر[1] عن نوح بن أبى بلال عن سعيد بن أبى سعيد المَقْبُرِىّ عن أبى هريرة عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: "إذا قرأتم الحمد لله رب العالمين فآقرءوا بسم الله الرحمن الرحيم إنها أم القرآن وأمّ الكتاب والسبع المثانى و بسم الله الرحمن الرحيم أحد آياتها". رفع هذا الحديث عبدالحميد آبن جعفر، وعبد الحميد هذا وثّقه أحمد بن حنبل ويحيى بن سعيد ويحيى بن معين ؛ وأبوحاتم يقول فيه : محلّه الصدق ؛ وكان سفيان الثورىّ يضعّفه ويحمل عليه . ونوح بن أبى بلال ثقة مشهور .

وحجة آبن المبارك وأحد قولى الشافعى ما رواه مسلم عن أنس قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه متبسما ؛ فقلنا : ما أضحكك يا رسول الله؟ قال : "نزلت علىّ آنفًا سورة" فقرأ « بسم الله الرحمن الرحيم : إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ . فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ . إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ » . وذكر الحديث ، وسيأتى بكماله فى سورة الكوثر إن شاء الله تعالى[2] .

الخامسة — الصحيح من هذه الأقوال قول مالك ؛ لأن القرآن لا يثبت بأخبار الآحاد وإنما طريقه التواتر القطعى الذى لا يختلف فيه . قال آبن العربى : « ويكفيك أنها

---

(١) ورد سند هذا الحديث مضطربا فى الأصول والتصويب عن سنن الدارقطنى وتهذيب التهذيب . وعبدالحميد بن جعفر هذا ، يكنى أبا الفضل ، ويقال : أبو حفص ، وليس من كنيته أبو بكر . ويروى عنه أبو بكر الحنفى . راجع تهذيب التهذيب .

(٢) راجع جـ ٢٠ ص ٢١٦ .

Marfat.com

ليست من القرآن آختــلاف الناس فيهــا ، والقرآن لا يختلف فيه » . والأخبــار الصحاح التي لا مطعن فيها دالة على أن البسملة ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها إلا في النمل وحدها . روى مسلم عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " قال الله عزّ وجلّ قسمت الصلاة بيني و بين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل فإذا قال العبد «الحمد لله رب العالمين» قال الله تعالى حَمِدني عبدي و إذا قال العبد « الرحمن الرحيم » قال الله تعالى أثنى عليّ عبدي و إذا قال العبد « مالك يوم الدين » قال مجّدني عبدي — وقال مرة فوّض إلي عبدي — فإذا قال «إيّاك نعبد و إيّاك نستعين» قال هذا بيني و بين عبدي ولعبدي ما سأل فإذا قال «آهدنا آلصراط آلمستقيم صراط آلذين أنعمت عليهم غير آلمغضوب عليهم ولا آلضالين » قال هذا لعبدي ولعبدي ما سأل " . فقوله سبحانه : "قسمت الصلاة" يريد الفاتحة، وسماها صلاة لأن الصلاة لا تصح إلا بها؛ فجعل الثلاث الآيات الأوّل لنفسه ، وآختص بها تبارك آسمه ، ولم يختلف المسلمون فيها ثم الآية الرابعة جعلها بينه و بين عبده؛ لأنها تضمنت تذلّل العبد وطلب الآستعانة منــه ، وذلك يتضمن تعظيم الله تعــالى ، ثم ثلاث آيات تتمة سبع آيات . وممــا يدل على أنها ثلاث قوله :"هؤلاء لعبدي" أخرجه مالك؛ ولم يقل : هاتان؛ فهذا يدل على أن « أنعمت عليهم » آية . قال آبن بكير قال مالك : « أنعمت عليهم » آية ، ثم الآية السابعة إلى آخرها . فثبت بهــذه القسمة التي قسمها الله تعالى و بقوله عليــه السلام لأُبَيّ : " كيف تقرأ إذا آفتتحت الصــلاة " قال : فقرأت « الحمــد لله رب آلعالمين » حتى أتيت على آخرها — أنّ البسملة ليست بآية منها ، وكذا عدّ أهل المدينة وأهل الشام وأهل البصرة؛ وأكثر القرّاء عدّوا «أنعمت عليهم» آية، وكذا روى قتادة عن أبي نَضْرة عن أبي هريرة قال: الآية السادســة « أنعمت عليهم » . وأمّا أهل الكوفة من القرّاء والفقهاء فإنهــم عدّوا فيها « بسم الله الرحمن الرحيم » ولم يعدّوا « أنعمت عليهم » .

فإن قيل: فإنها ثبتت في المصحف وهي مكتوبة بخطه ونقلت نقله ، كما نقلت في النمل، وذلك متواتر عنهم . قلنا : ما ذكرتموه صحيح؛ ولكن لكونها قرآنا، أولكونها فاصلة بين السور

Marfat.com

– كما روى عن الصحابة : كنا لا نعرف آنقضاء السورة حتى تنزل « بسم الله الرحمن الرحيم » أخرجه أبو داود — أو تبركًا بها، كما قد آتفقت الأمة على كتبها في أوائل الكتب والرسائل ؟ كل ذلك محتمل . وقد قال الجُرَيرى (١) : سئل الحسن عن « بسم الله الرحمن الرحيم » قال : في صدور الرسائل . وقال الحسن أيضا : لم تنزل « بسم الله الرحمن الرحيم » في شيء من القرآن إلا في «طسٓ» «إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ» . والفيصل أن القرآن لا يثبت بالنظر والآستدلال ، وإنما يثبت بالنقل المتواتر القطعي الاضطراري . ثم قد آضطرب قول الشافعي فيها في أوّل كل سورة فدل على أنها ليست بآية من كل سورة ؛ والحمد لله .

فإن قيل : فقد روى جماعة قرآنيتها ، وقد تولّى الدّارَقُطْنِيّ جمع ذلك في جزء صححه . قلنا : لسنا ننكر الرواية بذلك وقد أشرنا إليها ، ولنا أخبار ثابتة في مقابلتها ، رواها الأئمة الثقات والفقهاء الأثبات . روت عائشة في صحيح مسلم قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الصلاة بالتكبير، والقراءة بالحمد لله رب العالمين، الحديث . وسيأتي بكماله . وروى مسلم أيضا عن أنس بن مالك قال : صلّيت خلف النبيّ صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر ، فكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين؛ لا يذكرون «بسم الله الرحمن الرحيم» لا في أوّل قراءة ولا في آخرها .

ثم إن مذهبنا يترجّح في ذلك بوجه عظيم، وهو المعقول؛ وذلك أن مسجد النبيّ صلّى الله عليه وسلم بالمدينة آنقضت عليه العصور ، ومرّت عليه الأزمنة والدهور، من لَدُن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى زمان مالك ، ولم يقرأ أحد فيه قطّ « بسم الله الرحمن الرحيم » آتباعا للسُّنّة ؛ وهذا يردّ أحاديثكم .

بَيْدَ أن أصحابنا آستحبّوا قراءتها في النفل ؛ وعليه تحمل الآثار الواردة في قراءتها أو على السَّعة في ذلك . قال مالك : ولا بأس أن يقرأ بها في النافلة ومن يَعرِض القرآن عرضًا .

(١) الجريرى (بضم الجيم وفتح الراء الأولى وكسر الثانية وسكون ياء بينهما ، نسبة الى جرير بن عباد بن ضبيعة) ؛ وهو سعيد بن إياس الجريرى أبو مسعود البصرى .

Marfat.com

وجملة مذهب مالك وأصحابه : أنها ليست عندهم آية من فاتحة الكتاب ولا غيرها ، ولا يقرأ بها المصلّى فى المكتوبة ولا فى غيرها سرًّا ولا جهرا ؛ ويجوز أن يقرأها فى النوافل . هـذا هو المشهور من مذهبه عنـد أصحابه . وعنـه رواية أخرى أنها تقرأ أول السورة فى النوافل ، ولا تقرأ أول أم القرآن . وروى عنـه ٱبن نافع ٱبتـداء القراءة بها فى الصلاة الفرض والنفل ولا تترك بحال . ومن أهـل المدينة من يقول : إنه لابدّ فيها من « بسم الله الرحمن الرحيم » منهم ٱبن عمر ، وٱبن شهاب ؛ وبه قال الشافعى وأحمـد وإسحاق وأبو ثور وأبو عبيد . وهـذا يدل على أن المسألة مسئلة ٱجتهادية لا قطعية ، كما ظنـه بعض الجهال من المتفقهة الذى يلزم على قوله تكفير المسلمين ؛ وليس كما ظن لوجود الٱختلاف المذكور؛ والحمد لله .

وقد ذهب جمع من العلماء إلى الإسرار بها مع الفاتحة؛ منهم : أبو حنيفة والثّورى؛ وروى ذلك عن عمر وعلىّ وٱبن مسعود وعمّار وٱبن الزبير؛ وهو قول الحكم وحماد؛ وبه قال أحمد ٱبن حنبل وأبو عبيـد ؛ ورُوِىَ عن الأوزاعىّ مثـل ذلك ؛ حكاه أبو عمر بن عبـد البرّ فى (الٱستذكار) . وٱحتجوا من الأثر فى ذلك بما رواه منصور بن زاذان عن أنس بن مالك قال : صلّى بنـا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يسمعنا قراءة « بسم الله الرحمن الرحيم » . وما رواه عمار بن رُزَيق (1) عن الأعمش عن شعبة عن ثابت عن أنس قال : صلّيت خلف النبىّ صلى الله عليه وسلم وخلف أبى بكر وعمر ، فلم أسمع أحدا منهم يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم .

قلت : هذا قول حسن ، وعليه تتفق الآثار عن أنس ولا تتضاد ويخرج به من الخلاف فى قراءة البسملة . وقـد رُوِى عن سعيد بن جبير قال : كان المشركون يحضرون بالمسجد ؛ فإذا قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بسم الله الرحمن الرحيم » قالوا : هذا محمد يذكر رحمان اليمامة — يعنون مُسَيْلِمة — فأمر أن يخافت ببسم الله الرحمن الرحيم ، ونزل : «وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا» . قال الترمذى الحكيم أبو عبد الله : فبقى ذلك إلى يومنا هـذا على

(1) كذا فى تهذيب التهذيب . وفى الأصول : « عمار عن رزيق » وهو خطأ .

ذلك الرسم وإن زالت العلة، كما بقي الرَّمَل في الطواف وإن زالت العلة، وبقيت المخافتة في صلاة النهار وإن زالت العلة .

السادسة — ٱتفقت الأمة على جواز كَتْبها في أوّل كل كتاب من كتب العلم والرسائل؛ فإن كان الكتاب ديوان شعر فروَى مُجالد عن الشَّعْبي قال : أجمعوا ألا يكتبوا أمام الشعر «بسم الله الرحمن الرحيم» . وقال الزهري : مضت السُّنّة ألا يكتبوا في الشعر «بسم الله الرحمن الرحيم» . وذهب إلى رسم التسمية في أوّل كتب الشعر سعيد بن جُبير، وتابعه على ذلك أكثر المتأخرين . قال أبو بكر الخطيب : وهو الذي نختاره ونستحبه .

السابعة — قال الماوردي ويقال لمن قال بسم الله : مُبَسْمِل، وهي لغة مُوَلّدة، وقد جاءت في الشعر، قال عمر بن أبي ربيعة :

لقد بَسْملتْ ليلَى غداةَ لقيتُها * فيا حَبّذا ذاك الحبيبُ المبسمِلُ

قلت : المشهور عن أهل اللغة بسمل . قال يعقوب بن السِّكيت والمُطَرِّز والثعالبي وغيرهم من أهل اللغة : بسمل الرجل، إذا قال : بسم الله . يقال : قد أكثرت من البسملة؛ أي من قول بسم الله . ومثله حَوْقَل الرجل، إذا قال : لا حَوْلَ ولا قوة إلا بالله . وهَلَّلَ، إذا قال : لا إله إلا الله . وسَبْحَل، إذا قال : سبحان الله . وحَمْدَل، إذا قال : الحمد لله . وحَيْصَل، إذا قال : حيّ على الصلاة . وجَعْفَل، إذا قال : جُعلت فِداك . وطَبْقَل، إذ قال : أطال الله بقاءك . ودَمْعَز، إذا قال : أدام الله عِزّك . وحَيْفَل، إذا قال : حيّ على الفلاح . ولم يذكر المُطَرِّز : الحَيْصَلة، إذا قال : حيّ على الصلاة . وجعفل، إذا قال : جُعلت فِداك . وطبقل، إذا قال : أطال الله بقاءك . ودمعز، إذا قال : أدام الله عزك .

الثامنة — ندب الشرع إلى ذكر البسملة في أوّل كل فعل؛ كالأكل والشرب والنحر والجماع والطهارة وركوب البحر، إلى غير ذلك من الأفعال؛ قال الله تعالى : «فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ اللهِ عَلَيْهِ» . «وَقَالَ ٱرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ ٱللهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا» . وقال رسول الله صلى الله

Marfat.com

عليه وسلم : " أغلق بابك وآذكر آسم الله وأطفئ مصباحك وآذكر آسم الله وخمّر إناءك وآذكر آسم الله وأوْكِ سقاءك وآذكر آسم الله " . وقال : " لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتى أهله قال بسم الله اللهمّ جنّبنا الشيطان وجنّب الشيطان ما رزقتنا فإنه إن يقدّر بينهما ولد فى ذلك لم يضره شيطان أبدا " . وقال لعمر بن أبى سلمة : "ياغلام سَمِّ الله وكُلْ بيمينك وكلْ مما يَليكَ" وقال : " إنّ الشيطان ليستحل الطعام ألا يذكر آسم الله عليه " وقال : " من لم يذبح فليذبح بآسم الله " . وشكا إليه عثمان بن أبى العاص وجعًا يجده فى جسده منذ أسلم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ضع يدك على الذى تألم من جسدك وقل بسم الله ثلاثا وقل سبع مرات أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر" . هذا كله ثابت فى الصحيح . وروى آبن ماجه والترمذىّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " سَتْرُ ما بين الجن وعورات بنى آدم إذا دخل الكَنِيف أن يقول بسم الله " . وروى الدّارَقُطْنِىّ عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مس طهوره سَمَّى الله تعالى، ثم يُفرغ المـاء على يديه .

التاســـعة — قال علماؤنا : وفيها ردّ على القَـدَرِيَّة وغيرهم ممن يقول : إن أفعالهم مقدورة لهم . وموضع الآحتجاج عليهم من ذلك أن الله سبحانه أمرنا عند الآبتداء بكل فعل أن نفتتح بذلك، كما ذكرنا .

فمعنى « بسم الله » ، أى بالله . ومعنى « بالله » ، أى بخلقه وتقديره يوصل إلى ما يوصل إليه . وسيأتى لهـذا مزيد بيان إن شاء الله تعالى . وقال بعضهم : معنى قوله « بسم الله » يعنى بدأت بعون الله وتوفيقه وبركته ؛ وهـذا تعليم من الله تعالى عباده، ليذكروا آسمه عند آفتتاح القراءة وغيرها، حتى يكون الآفتتاح ببركة الله جلّ وعزّ .

العاشـــرة — ذهب أبو عبيدة مَعْمَر بن المُثَنَّى إلى أن « آسم » صلة زائدة، وآستشهد بقول لَبِيد :

إلى الحَـوْل ثم آسم السـلام عليكما ＊ ومَن يبْك حَوْلًا كاملًا فقد آعتذر

(١) التخمير : التغطية . والوكاء : الخيط الذى تشدّ به الصرة والكيس وغيرهما . أى شدّوا رءوس الأسقية بالوكاء لئلا يدخلها حيوان أو يسقط فيها شىء .

فذكر « آسم » زيادة، وإنما أراد : ثم السلام عليكما .

وقد آستدل علماؤنا بقول لَبيد هـذا على أن الآسم هو المسمَّى . وسيأتى الكلام فيه فى هذا الباب وغيره، إن شاء الله تعالى .

الحادية عشرة — آختلِف فى معنى زيادة « آسم » ؛ فقال قُطْرُب : زِيدت لإجلال ذكره تعالى وتعظيمه . وقال الأخفش : زيدت ليخرج بذكرها من حكم القَسَم إلى قصد التبرك؛ لأن أصل الكلام : بالله .

الثانية عشرة — آختلفوا أيضا فى معنى دخول الباء عليه، هل دخلت على معنى الأمر؟ والتقدير : آبدأ بسم الله . أو على معنى الخبر ؟ والتقدير : آبتدأت بسم الله؛ قولان : الأوّل للفرّاء ، والثانى للزجاج . فـ « باسم » فى موضع نصب على التأويلين . وقيل : المعنى آبتدائى بسم الله؛ فـ « بسم الله » فى موضع رفع خبر الآبتداء . وقيل : الخبر محذوف؛ أى آبتدائى مستقر أو ثابت بسم الله؛ فإذا أظهرته كان « بسم الله » فى موضع نصب بثابت أو مستقر، وكان بمنزلة قولك : زيد فى الدار . وفى التنزيل « فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَـذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّى » فـ « عنده » فى موضع نصب؛ رُوى هـذا عن نحاة أهل البصرة . وقيل : التقدير آبتدائى بسم الله موجود أو ثابت، فـ « باسم » فى موضع نصب بالمصدر الذى هو آبتدائى .

الثالثة عشرة — « بسم الله » ، تكتب بغير ألف آستغناء عنها بباء الإلصاق فى اللفظ والخط لكثرة الآستعمال؛ بخلاف قوله : « آقْرَأْ بِآسْمِ رَبِّكَ » فإنها لم تحذف لقلة الآستعمال . وآختلفوا فى حذفها مع الرحمن والقاهر؛ فقال الكسائى وسعيد الأخفش : تُحذف الألف . وقال يحيى بن وَثّاب : لا تُحذف إلا مع « بسم الله » فقط، لأن الآستعمال إنما كَثُر فيه .

الرابعة عشرة — وآختلِف فى تخصيص باء الجر بالكسر على ثلاثة معان ؛ فقيل : ليناسب لفظها عملها . وقيل : لمّا كانت الباء لا تدخل إلا على الأسماء خُصّت بالخفض

Marfat.com

الذى لا يكون إلا فى الأسماء . الثـالث : ليفرق بينها وبين ما قد يكون من الحروف آسماً ، نحو الكاف فى قول الشاعر[١] :

ورُحْنا بِكَا بْنِ المـاءِ يُجْنَبُ وسْـطَنا *

أى بمثل آبن المـاء أو ما كان مثله .

الخامسة عشرة — آسمٌ ، وزنه افْعٌ ، والذاهب منه الواو ؛ لأنه من سَمَوْت ، وجمعه أسماء ، وتصغيره سُمَىّ . وآختلف فى تقدير أصله ، فقيل : فِعْل ، وقيل : فُعْل . قال الجوهرى : وأسماء يكون جمعا لهذا الوزن ، وهو مثل جِذع وأجذاع ، وقُفل وأقفال ؛ وهـذا لا تدرك صيغته إلا بالسماع . وفيـه أربع لغات : اِسم بالكسر ، وأُسم بالضم . قال أحمد بن يحيى : مَن ضمّ الألف أخذه من سَمَوْت أسمو ، ومن كسر أخذه من سميت أسمى . ويقـال : سِمٌ وسُمٌ ، ويُنْشَد :

والله أسمـاك سُمًـا مباركـا * آثـرك الله بـــه إيثارَكـا

وقال آخر :

وعامُنـا أعجَبَنـا مقـــدّمه * يُدْعَى أبا السَّمْح وقِرْضَابٌ سُمُهْ

* مُبْتَرِكًا[٢] لكل عظم يَلْحُمُهْ *

قرضب الرجل : إذا أكل شيئا يابسا ، فهو قرضاب . « سُمه » بالضم والكسر جميعا .

ومنه قول الآخر :

* باسم الذى فى كل سورة سِمُه *

وسكنت السين من « بآسم » آعتلالا[٣] على غير قيـاس ، وألفه ألف وصل ، وربمـا جعلها الشاعر ألف قطع للضرورة ، كقول الأحْوَص :

وما أنا بالمخْسُوس فى جِذْم مالكٍ * ولا مَن تَسَمَّى ثم يلتزم الإسمـا[٤]

---

(١) هو آمرؤ القيس . وتمام البيت وشرحه يأتى فى ص ٢١١ من هذا الجزء . (٢) رجل مبترك : معتمد على الشىء ، مُلِحّ . ويلحمه : ينزع عنه اللحم . (٣) كان الأصل آسم نقلت حركة الهمزة إلى السين ثم حذفت الهمزة ولما وصلت الباء به سكنت السين تخفيفا . (٤) المخسوس : المرذول . وجذم كل شىء : أصله . ومالك : جدّ أعلى للشاعر .

Marfat.com

السادسة عشرة — تقول العرب فى النسب إلى الآسم : سُمِوِىّ، و إن شـئت آسْمِىّ ، تركته على حاله ، وجمعه أسماء، وجمع الأسماء أسامٍ . وحكى الفرّاء : أعيذك بأسماوات الله .

السابعة عشرة — آختلفوا فى آشتقاق الآسم على وجهين ؛ فقال البصريون : هو مشتق من السُّمُوّ وهو العلوّ والرفعة، فقيل : آسم لأن صاحبه بمنزلة المرتفع به . وقيل : لأن الآسم يسمو بالمسمّى فيرفعه عن غيره . وقيل : إنمـا سُمِّىَ الآسم آسمـا لأنه علا بقوّته على قسمى الكلام : الحرف والفعـل؛ والآسم أقوى منهما بالإجماع لأنه الأصـل؛ فلِعُلُوّه عليهما سمى آسما؛ فهذه ثلاثة أقوال .

وقال الكوفيون : إنه مشتق من السِّمَة وهى العلامة؛ لأن الآسم علامة لمن وضع له ؛ فأصل آسم على هذا «وسم» . والأوّل أصح؛ لأنه يقال فى التصغير سمى وفى الجمع أسماء؛ والجمع والتصغير يردّان الأشـياء إلى أصولها ؛ فلا يقال : وسيم ولا أوسام . ويدل على صحته أيضا فائدة الخلاف وهى :

الثامنة عشرة — فإن من قال الآسم مشتق من العُلُوّ يقول : لم يزل الله سبحانه موصوفا قبل وجود الخلق و بعد وجودهم وعند فنائهم، ولا تأثير لهم فى أسمائه ولا صفاته؛ وهذا قول أهل السُّنة . ومن قال الآسم مشتق من السمة يقول : كان الله فى الأزل بلا آسم ولا صفة، فلمـا خلق الخلق جعلوا له أسمـاء وصفاتٍ، فإذا أفناهم بقى بلا آسم ولا صفة؛ وهـذا قول المعتزلة وهوخلاف ما أجمعت عليه الأمة، وهو أعظم فى الخطإ من قولهم: إنّ كلامه مخلوق، تعالى الله عن ذلك ! وعلى هذا الخلاف وقع الكلام فى الآسم والمُسَمَّى وهى :

التاسعة عشرة — فذهب أهل الحق — فيما نقل القاضى أبو بكر بن الطّيب — إلى أن الآسم هو المسمى ، وآرتضاه آبن فُورك؛ وهـو قول أبى عبيدة وسيبو يه . فإذا قال قائل : الله عالم؛ فقوله دالّ على الذات الموصوفة بكونه عالمـا ، فالآسم كونه عالمـا وهو المسمى بعينه . وكذلك إذا قال : الله خالق؛ فالخالق هو الرب، وهو بعينه الآسم . فالآسم عندهم هو المسمّى بعينه من غير تفصيل .

Marfat.com

قال ٱبن الحصار : مَن ينفى الصفات من المبتدعة يزعم أن لا مدلول للتسميات إلا الذات ، ولذلك يقولون : الاسم غير المسمَّى ، ومَن يثبت الصفات يثبت للتسميات مدلولات هى أوصاف الذات وهى غير العبارات وهى الأسماء عندهم . وسيأتى لهذه مزيد بيان فى « البقرة » و « الأعراف » إن شاء الله تعالى .

الموفية عشرين — قوله : « الله » هذا الاسم أكبر أسمائه سبحانه وأجمعها ، حتى قال بعض العلماء : إنه ٱسم الله الأعظم ولم يتسمّ به غيره ؛ ولذلك لم يُثَنّ ولم يجمع ؛ وهو أحد تأويلى قوله تعالى : « هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا » أى من تسمّى باسمه الذى هو « الله » . فالله ٱسم للوجود الحق الجامع لصفات الإلٰهيّة ، المنعوت بنعوت الربوبية ، المنفرد بالوجود الحقيق ، لا إلٰه إلا هو سبحانه . وقيل : معناه الذى يستحق أن يُعبد . وقيل : معناه واجب الوجود الذى لم يزل ولا يزال ؛ والمعنى واحد .

الحادية والعشرون — وٱختلفوا فى هذا الاسم هل هو مشتق أو موضوع للذات عَلَم؟ . فذهب إلى الأوّل كثير من أهل العلم . وٱختلفوا فى ٱشتقاقه وأصله ؛ فروى سيبويه عن الخليل أن أصله إلاه ، مثل فِعَال ؛ فأدخلت الألف واللام بدلا من الهمزة . قال سيبويه : مثل الناس أصله أناس . وقيل : أصل الكلمة «لاه» وعليه دخلت الألف واللام للتعظيم ، وهذا اختيار سيبويه . وأنشد :

لاهِ ٱبنُ عمِّكَ لا أفضلتَ فى حَسَبٍ * عنّى ولا أنت ديّانى فتخزونى

كذا الرواية : فتخزونى ، بالخاء المعجمة ومعناه : تسوسنى .

وقال الكسائى والفرّاء : معنى « بسم الله » بسم الإلٰه ؛ فحذفوا الهمزة وأدغموا اللام الأولى فى الثانية فصارتا لامًا مشدّدة ؛ كما قال عزّ وجلّ : «لٰكِنَّا هُوَ ٱللهُ رَبِّى» ومعناه : لكن أنا ، كذلك قرأها الحسن . ثم قيل : هو مشتق من « وَلَه » إذا تحيّر ؛ والوله : ذهاب العقل . يقال : رجل وَالِهٌ وٱمرأة والهة ووَالِهٌ ، وماء موله[1] : أرسل فى الصحارى . فالله سبحانه تحير

(١) قوله : ماء موله . هو بضم الميم وتخفيف اللام ، وتشدد وتفتح الواو .

الألباب وتذهب فى حقائق صفاته والفكر فى معرفته . فعلى هـذا أصل « إلاه » « ولاه » وأن الهمزة مبدلة من واو كما أبدلت فى إشاح ووشاح ، و إسادة ووسادة ؛ ورُوى عن الخليل . ورُوى عن الضحاك أنه قال : إنما سُمّىَ « الله » إلهاً ، لأن الخلق يتألّهون إليه فى حوائجهم ، ويتضرّعون إليه عند شدائدهم . وذُكر عن الخليل بن أحمد أنه قال : لأن الخلق يأْلَهُون إليه (بنصب اللام) ويأْلِهُون أيضا (بكسرها) وهما لغتان . وقيل : إنه مشتق من الآرتفاع ؛ فكانت العرب تقول لكل شىء مرتفع : لاهًا ، فكانوا يقولون إذا طلعت الشمس : لاهت . وقيـل : هو مشتق من أله الرجل إذا تعبّد . وتألّه إذا تنسّك ؛ ومن ذلك قوله تعالى : « وَيَذَرَكَ وَإِلَاهَتَكَ » على هذه القراءة ؛ فإن آبن عباس وغيره قالوا : وعبادتك .

قالوا : فآسم الله مشتق من هـذا ، فالله سبحانه معناه المقصود بالعبادة ، ومنـه قول الموحدين : لا إله إلا الله ، معناه لا معبود غير الله . و « إلا » فى الكلمة بمعنى غير ، لا بمعنى الآستثناء . وزعم بعضهم أن الأصل فيه « الهاء » التى هى الكناية عن الغائب ، وذلك أنهم أثبتوه موجودا فى فطر عقولهم فأشاروا إليه بحرف الكناية ثم زيدت فيه لام المِلك إذ قد علموا أنه خالق الأشياء ومالِكُها فصار « لَهُ » ثم زيدت فيه الألف واللام تعظيما وتفخيما .

القول الثانى : ذهب إليـه جماعة من العلماء أيضا منهم الشافعىّ وأبو المعالى والخطابى والغزالى والمفضَّـل وغيرهم ، ورُوِىَ عن الخليل وسيبويه : أن الألف واللام لازمة له لا يجوز حذفهما منه . قال الخطابى : والدليل على أن الألف واللام من بِنْية هـذا الاسم ، ولم يدخلا للتعريف : دخول حرف النداء عليه ؛ كقولك : يا الله ، وحروف النداء لا تجتمع مع الألف واللام للتعريف ؛ ألا ترى أنك لا تقول : يا آلرحمن ولا يا آلرحيم ، كما تقـول : يا الله ، فدل على أنهما من بِنْية الاسم . والله أعلم .

الثانية والعشرون — وآختلفوا أيضا فى آشتقاق آسمه الرحمن ؛ فقال بعضهم : لا آشتقاق له لأنه من الأسماء المختصة به سبحانه ، ولأنه لو كان مشتقًّا من الرحمة لاتّصل بذكر المرحوم ، فجاز أن يقال : الله رحمٰن بعباده ، كما يقال : رحيم بعباده . وأيضا لو كان مشتقا من الرحمة

Marfat.com

لم تنكره العرب حين سمعوه، إذ كانوا لا ينكرون رحمة ربهم ، وقد قال الله عزّ وجلّ : «وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا لِلرَّحْمٰنِ قَالُوا وَمَا ٱلرَّحْمٰنُ» الآية . ولما كتب عليّ رضى الله عنه فى صلح الحُدَيْبِيَة بأمر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم : « بسم الله الرحمن الرحيم » قال سُهيل بن عمرو : أما «بسم الله الرحمن الرحيم» فما ندرى ما «بسم الله الرحمن الرحيم» ! ولكن ٱكتب ما نعرف : باسمك اللّهُمّ ؛ الحديث . قال ٱبن العربى : إنما جهلوا الصفة دون الموصوف ، وٱستدل على ذلك بقولهم : وما الرحمن؟ ولم يقولوا : ومَن الرحمن ؟ قال ٱبن الحصّار : وكأنه رحمه الله لم يقرأ الاية الأخرى : « وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمٰنِ » . وذهب الجمهور من الناس إلى أن « الرحمن » مشتق من الرحمة مبنى على المبالغة ؛ ومعناه ذو الرحمة الذى لا نظير له فيها ، فلذلك لا يُثَنّى ولا يجمع كما يُثَنّى « الرحيم » ويُجمع .

قال ٱبن الحصار : ومما يدل على الاشتقاق ما خرّجه الترمذى وصحّحه عن عبد الرحمن ٱبن عوف أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " قال الله عزّ وجل أنا الرحمن خلقت الرَّحم وشققت لها ٱسمًا من ٱسمى فمن وَصَلها وَصَلته ومَن قَطَعها قطعته" . وهذا نص فى الاشتقاق، فلا معنى للمخالفة والشقاق، وإنكار العرب له لجهلهم بالله و بما وجب له .

الثالثة والعشرون — زعم المبرد فيما ذكر ٱبن الأنبارى فى كتاب « الزاهر » له : أن « الرحمن » ٱسم عبرانيّ فجاء معه بـ « الرحيم » . وأنشد :[1]

لن تدركوا المجدَ أو تَشروا عباءكُم ∗ بالخَزِّ أو تجعلوا اليَنْبوتَ ضَمْرانا
أو تتركون إلى القَسَّين هِجْرَتكم[2] ∗ ومَسْحكم صُلْبهم رَحمانَ قُربانا

قال أبو إسحاق الزجاج فى معانى القرآن : وقال أحمد بن يحيى : « الرحيم » عربى و « الرحمان » عبرانيّ ، فلهذا جمع بينهما . وهذا القول مرغوب عنه .

وقال أبوالعباس : النعت قد يقع للمدح ، كما تقول : قال جرير الشاعر . وروى مُطَرِّف عن قتادة فى قول الله عزّ وجلّ : « بسم الله الرحمن الرحيم » قال : مدح نفسه . قال أبو إسحاق :

(١) قاله جرير . والينبوت : ضرب من الشجر . (٢) انظر شرح القاموس واللسان مادة « رحم » .

وهذا قولٌ حَسَن . وقال قُطْرُب : يجوز أن يكون جمع بينهما للتوكيد . قال أبو إسحاق : وهذا قولٌ حَسَن ، وفى التوكيد أعظم الفائدة ، وهو كثير فى كلام العرب ، ويستغنى عن الاستشهاد ؛ والفائدة فى ذلك ما قاله محمد بن يزيد : إنه تفضّلٌ بعد تفضّل ، وإنعامٌ بعد إنعام ، وتقويةٌ لمطامع الراغبين ، ووعدٌ لا يخيب آمله .

الرابعة والعشرون — واختلفوا هل هما بمعنًى واحد أو بمعنيين ؟ فقيل : هما بمعنًى واحد ؛ كندمان ونديم . قاله أبو عبيدة . وقيل : ليس بناء فَعلان كفَعيل ، فإن فعلان لا يقع إلا على مبالغة الفعل ؛ نحو قولك : رجل غضبان ، للمتلئ غضباً . وفعيل قد يكون بمعنى الفاعل والمفعول . قال عَمَلَّس[1] :

فأما إذا عَضّت بك الحربُ عضّةً * فإنك معطوفٌ عليك رَحيمُ

فـ«الرحمن» خاصُّ الاسم عام الفعل . و «الرحيم» عام الاسم خاصُّ الفعل . هذا قول الجمهور .

قال أبو علىّ الفارسىّ : «الرحمن» اسم عامّ فى جميع أنواع الرحمة ، يختص به الله . «والرحيم» إنما هو فى جهة المؤمنين ؛ كما قال تعالى : « وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً » . وقال العرزمىّ[2] : «الرحمن» بجميع خلقه فى الأمطار ونِعَم الحواس والنِّعم العامة ، و«الرحيم» بالمؤمنين فى الهداية لهم ، واللطف بهم . وقال ابن المبارك : «الرحمن» إذا سُئل أعطى ، و«الرحيم» إذا لم يُسأل غَضِب . وروى ابن ماجه فى سُنَنه والترمذىّ فى جامعه عن أبى صالح عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "مَن لم يسأل الله يغضب عليه" لفظ الترمذىّ . وقال ابن ماجه : "مَن لم يَدْعُ اللهَ سبحانه غضِب عليه" . وقال : سألت أبا زرعة عن أبى صالح هذا ، فقال : هو الذى يقال له : الفارسىّ وهو خُوزِىّ[3] ولا أعرف اسمه . وقد أخذ بعض الشعراء هذا المعنى فقال :

---

(١) هو عملس بن عقيل ؛ كما فى هامش بعض نسخ الأصل ولسان العرب مادة رحم . (٢) هو عبد الملك ابن أبى سليمان العرزمى ؛ كما فى الخلاصة . (٣) نسبة إلى خوزستان بلاد بين فارس والبصرة .

Marfat.com

الله يَغْضب إن تركتَ ســؤاله ﴿ وبُنَيّ آدم حين يُسأل يغضب

وقال آبن عباس : هما آسمان رقيقان ، أحدهما أرقّ من الآخر ، أى أكثر رحمة .

قال الخطابيّ : وهذا مشكل ؛ لأن الرقة لا مدخل لهــا فى شىء من صفات الله تعالى .

وقال الحسين بن الفضل البَجَلى : هذا وَهَم من الراوى ، لأن الرقة ليست من صفات الله تعالى فى شىء ، و إنما هما آسمان رفيقان أحدهما أرفق من الآخر ، والرفق من صفات الله عزّ وجلّ ؛ قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إن الله رفيق يُحب الرفق و يُعطى على الرفق ما لا يُعطى على العُنْف " .

الخامسة والعشرون ــ أكثر العلماء على أن « الرحمن » مختص بالله عزّ وجلّ ، لا يجوز أن يُسَمَّى به غيره ، ألا تراه قال : « قُـلِ آدْعُوا اللّهَ أَوِ آدْعُوا الرَّحْمَنَ (١) » فعادل الآسم الذى لا يَشركه فيه غيره . وقال : « وَآسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَـةً يُعْبَدُونَ (٢) » فأخبر أن « الرحمن » هو المستحق للعبادة جلّ وعزّ . وقد تجاسر مُسَيْلِمة الكذاب ــ لعنه الله ــ فتسمى برحمان اليمامة ، ولم يتسمّ به حتى قَرَع مسامعَه نَعْتُ الكذاب فألزمه الله تعـالى نَعْت الكذاب لذلك ، و إن كان كلّ كافرٍ كاذبا ، فقد صار هذا الوصف لمُسَيْلِمة عَلمـاً يُعرف به ، ألزمه الله إياه . وقد قيل فى آسمه الرحمن : إنه آسم الله الأعظم ؛ ذكره آبن العربيّ .

السادسة والعشرون ــ «الرحيم» صفة مطلقة للخلوقين ، ولمـا فى «الرحمن» من العموم قدم فى كلامنا على «الرحيم» مع موافقة التنزيل ؛ قاله المهدوى . وقيل : إن معنى «الرحيم» أى بالرحيم وصلتم إلى الله و إلى الرحمن ، فـ«الرحيم» نعت محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد نعته تعالى بذلك فقال : « رَءُوفٌ رَحِيمٌ » فكأن المعنى أن يقول : بسم الله الرحمن و بالرحيم ؛ أى و بمحمد صلى الله عليه وسـلم وصلتم إلىّ ، أى باتباعه و بمـا جاء به وصلتم إلى ثوابى وكرامتى والنظر إلى وجهى ؛ والله أعلم .

(١) آية ١١٠ سورة الإسراء جـ ١٠ ص ٣٤٢ (٢) آية ٤٥ سورة الزخرف جـ ١٦ ص ٩٥

Marfat.com

السابعة والعشرون — رُوى عن علىّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه أنه قال فى قوله «بسم الله» : إنه شفاء من كل داء، وعَوْنٌ على كل دواء . وأما «الرحمن» ، فهو عَوْنٌ لكلّ مَن آمن به، وهو آسم لم يُسَمّ به غيره . وأما «الرحيم» ، فهو لمن تاب وآمن وعمل صالحا .

وقد فسّره بعضهم على الحروف؛ فرُوى عن عثمان بن عفّان أنه سأل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن تفسير « بسم الله الرحمن الرحيم » فقال : "أما الباء فبلاء الله وروحه ونضرته وبهاؤه وأما السين فسناء الله وأما الميم فملك الله وأما الله فلا إله غيره وأما الرحمن فالعاطف على البرّ والفاجر من خلقه وأما الرحيم فالرفيق بالمؤمنين خاصّة" . ورُوى عن كعب الأحبار أنه قال : الباء بهاؤه والسين سناؤه فلا شىء أعلى منه والميم ملكه وهو على كل شىء قدير فلا شىء يعازّه . وقد قيل : إن كل حرف هو آفتتاح آسم من أسمائه؛ فالباء مفتاح آسمه بصير ، والسين مفتاح آسمه سميع ، والميم مفتاح آسمه مليك ، والألف مفتاح آسمه الله ، واللام مفتاح آسمه لطيف ، والهاء مفتاح آسمه هادى ، والراء مفتاح آسمه رازق ، والحاء مفتاح آسمه حليم ، والنون مفتاح آسمه نور ؛ ومعنى هذا كله دعاء الله تعالى عند آفتتاح كل شىء .

الثامنة والعشرون — وآختلف فى وصل «الرحيم» بـ«الحمد لله» ؛ فرُوِىَ عن أمّ سَلمة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : «الرحيمْ . الحمد» يسكّن الميم ويقف عليها، ويبتدئ بألف مقطوعة . وقرأ به قوم من الكوفيين . وقرأ جمهور الناس : «الرحيمِ الحمد» ، تُعرب «الرحيم» بالخفض وبوصل الألف من «الحمد» . وحكى الكسائى عن بعض العرب أنها تقرأ «الرحيمَ الحمد» ، بفتح الميم وصلة الألف؛ كأنه سكنت الميم وقطعت الألف ثم ألقيت حركتها على الميم وحذفت . قال آبن عطية : ولم تُرْوَ هذه قراءة عن أحد فيما علمت . وهذا نظر يحيى بن زياد فى قوله تعالى : « الم آلله » .

Marfat.com

تفسير سورة الفاتحة

" بحول الله وكرمه "

وفيها أربعة أبواب :

الباب الأوّل — فى فضائلها وأسمائها، وفيه سبع مسائل

الأولى — روى الترمذىّ عن أُبَىّ بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما أنزل الله فى التوراة ولا فى الإنجيل مثل أم القرآن وهى السبع المثانى وهى مقسومةٌ[1] بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل" . أخرج مالك عن العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب : أن أبا سعيد مولى [عبد الله بن] عامر بن كريز أخبره أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم نادى أُبَىّ بن كعب وهو يصلّى؛ فذكر الحديث . قال ٱبن عبد البر : أبو سعيد لا يوقف له على ٱسم وهو معدود فى أهل المدينة، روايته عن أبى هريرة وحديثه هذا مرسل؛ وقد روى هذا الحديث عن أبى سعيد بن المُعَلَّى رجلٌ من الصحابة لا يوقف على ٱسمه أيضا ؛ رواه عنه حفص بن عاصم، وعبيد بن حُنين .

قلت : كذا قال فى التمهيد: «لا يوقف له على ٱسم» . وذكر فى كتاب الصحابة الٱختلاف فى ٱسمه . والحديث خرّجه البخارى عن أبى سعيد بن المُعَلَّى قال : كنت أصلى فى المسجد فدعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أجبه، فقلت : يارسول الله إنى كنت أصلى؛ فقال : "ألم يقل الله « ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ »[2] " — ثم قال : — "إنى لأعلمنّك سورة هى أعظم السُّوَر فى القرآن قبل أن تخرج من المسجد " ثم أخذ بيدى، فلما أراد أن يخرج قلت له : ألم تقل لأعلمنّك سورة هى أعظم سورة فى القرآن ؟ قال : "الحمد لله ربّ العالمين هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيتُه". قال ٱبن عبد البر وغيره : أبو سعيد بن المعلى

(١) أى وقال الله هى مقسومة . (٢) راجع جـ ٧ ص ٣٨٩

من جِلّة الأنصار، وسادات الأنصار، تفرّد به البخارى، وآسمه رافع، ويقال: الحارث بن نُفيع بن المعلى، ويقال: أَوْس بن المعلى، ويقال: أبو سعيد بن أوس بن المعلى؛ تُوُفِّىَ سنة أربع وسبعين وهو آبن أربع وستين [سنة](١)، وهو أول من صلّى إلى القِبْلة حين حُوّلت، وسيأتى(٢). وقد أسند حديثَ أُبَىٍّ يزيدُ بن زُرَيع قال: حدّثنا روح بن القاسم عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أُبَىّ وهو يصلى؛ فذكر الحديث بمعناه.

وذكر آبن الأنبارى فى كتاب الرّد له: حدّثنى أبى حدّثنى أبو عبيد الله الورّاق حدّثنا أبو داود حدّثنا شَيْبان عن منصور عن مجاهد قال: إنّ إبليس — لعنه الله — رَنّ أربع رنات: حين لُعن، وحين أهبط من الجنة، وحين بُعث محمد صلى الله عليه وسلم، وحين أنزلت فاتحة الكتاب، وأنزلت بالمدينة.

الثانيــة — آختلف العلماء فى تفضيل بعض السُّوَر والآى على بعض، وتفضيل بعض أسماء الله تعالى الحسنى على بعض؛ فقال قوم: لا فضل لبعض على بعض؛ لأن الكل كلام الله، وكذلك أسماؤه لا مفاضلة بينها. ذهب إلى هذا الشيخ أبو الحسن الأشعرى، والقاضى أبو بكر بن الطيب، وأبو حاتم محمد بن حِبان البُسْتىّ، وجماعة من الفقهاء. ورُوِى معناه عن مالك. قال يحيى بن يحيى: تفضيل بعض القرآن على بعض خطأ؛ وكذلك كره مالك أن تعاد سورة أو تردّد دون غيرها. وقال عن مالك فى قول الله تعالى: «نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا» قال: محكمة مكان منسوخة. وروى آبن كنانة مثل ذلك كله عن مالك. وآحتج هؤلاء بأن قالوا: إن الأفضل يُشعر بنقص المفضول؛ والذاتيّة فى الكل واحدة، وهى كلام الله، وكلام الله تعالى لا نقص فيه. قال البُسْتىّ: ومعنى هذه اللفظة "ما فى التوراة ولا فى الإنجيل مثل أم القرآن": أن الله تعالى لا يُعطى لقارئ التوراة والإنجيل من الثواب مثل

(١) قال آبن حجر فى الإصابة: «وهو خطأ، فإنه يستلزم أن تكون قصته مع النبى صلى الله عليه وسلم وهو صغير، وسياق الحديث يأبى ذلك». (٢) راجع جـ ٢ ص ١٤٩

ما يُعطى لقـارئ أم القرآن، إذ الله بفضله فضّل هذه الأمة على غيرها من الأمم، وأعطاها من الفضل على قراءة كلامه أكثر مما أعطى غيرها من الفضل على قراءة كلامه، وهو فضل منه لهذه الأمة . قال ومعنى قوله : " أعظم سـورة " أراد به فى الأجر، لا أن بعض القرآن أفضـل من بعض . وقال قوم بالتفضيل، وأن ما تضمنه قوله تعالى: «وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ» وآية الكرسى، وآخر سورة الحشر، وسورة الإخلاص من الدّلالات على وحدانيّته وصفاته ليس موجودا مثلًا فى «تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ» وما كان مثلها .

والتفضيل إنما هو بالمعانى العجيبة وكثرتها، لا من حيث الصفة؛ وهذا هو الحق . وممن قال بالتفضيل إسحاق بن رَاهْوَيْه (١) وغيره من العلماء والمتكلمين، وهو آختيار القاضى أبى بكر بن العـربى وآبن الحصار؛ لحديث أبى سـعيد بن المُعَلَّى وحديث أُبَىّ بن كعب أنه قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " يا أُبَىّ أىّ آية معك فى كتاب الله أعظم " قال فقلت : «اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ» . قال : فضرب فى صدرى وقال : "لِيَهْنِكَ العِلْمُ يا أبا المنذر" أخرجه البخارى ومسلم .

قال آبن الحصار : عجبى ممن يذكر الاختلاف مع هذه النصوص .

وقال آبن العربى : قوله : " ما أنزل الله فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى القرآن مثلها " وسكت عن سائر الكتب، كالصحف المنزّلة والزبور وغيرها؛ لأن هـذه المذكورة أفضلها، وإذا كان الشىء أفضلَ الأفضل، صار أفضلَ الكل؛ كقولك : زيد أفضل العلمـاء، فهو أفضل النـاس .

وفى الفاتحة من الصفات ما ليس لغيرها؛ حتى قيل : إن جميع القرآن فيها . وهى خمس وعشرون كلمة تضمنت جميع علوم القرآن . ومن شرفها أن الله سبحانه قسمها بينه وبين عبده، ولا تصح القُرْبة إلا بها، ولا يلحق عمـل بثوابها، وبهـذا المعنى صارت أم القرآن العظيم،

(١) ضبطه آبن خلكان فقال : « بفتح الراء وبعد الألف هاء ساكنة ثم واو مفتوحة وبعـدها ياء مثناة من تحتها ساكنة وبعدها هاء ساكنة، ويقال فيه أيضا : راهويه، بضم الهاء وسكون الواو وفتح الياء » .

كما صارت «قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ» تعدل ثلث القرآن ، إذ القرآن توحيد وأحكام ووعظ ، و «قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ» فيها التوحيد كله ، وبهذا المعنى وقع البيان فى قوله عليه السلام لأبيّ . " أيّ آية فى القرآن أعظم " قال : «اللهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ» . وإنما كانت أعظمَ آية لأنها توحيد كلها كما صار قوله : " أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله وحده لا شريك له " أفضلَ الذكر؛ لأنها كلمات حَوَت جميع العلوم فى التوحيد ، والفاتحةُ تضمنت التوحيد والعبادة والوعظ والتذكير ، ولا يستبعد ذلك فى قدرة الله تعالى .

الثالثة — روى عليّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فاتحة الكتاب ، وآية الكرسى ، وشَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ ، وقُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ ، هذه الآيات معلّقات بالعرش ليس بينهن و بين الله حجاب " . أسنده أبو عمرو الدانى فى كتاب البيان له .

الرابعة — فى أسمائها ، وهى آثنا عشر آسما :

(الأول) الصلاة[1] ، قال الله تعالى[2] : " قسمت الصلاة بينى و بين عبدى نصفين " الحديث . وقد تقدّم .

(الثانى) [سورة] الحمد ، لأن فيها ذكر الحمد ؛ كما يقال : سورة الأعراف ، والأنفال ، والتوبة ، ونحوها .

(الثالث) فاتحة الكتاب ، من غير خلاف بين العلماء ؛ وسُمِّيت بذلك لأنه تُفتتح قراءة القرآن بها لفظا ، وتُفتتح بها الكتابة فى المصحف خطًّا ، وتُفتتح بها الصلوات .

(الرابع) أم الكتاب ، وفى هذا الآسم خلاف ، جوّزه الجمهور ، وكرهه أنس والحسن وآبن سيرين . قال الحسن : أم الكتاب الحلال والحرام ، قال الله تعالى : «آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ» . وقال أنس وآبن سيرين : أم الكتاب آسم اللّوح المحفوظ . قال الله تعالى : «وَإِنَّهُ فِى أُمِّ الْكِتَابِ» .

---

(١) فى تفسير الآلوسى وغيره : سورة الصلاة .	(٢) أى فى الحديث القدسى .

Marfat.com

(الخامس) أم القرآن، وآختلف فيه أيضا، بجوّزه الجمهور، وكرهه أنس وآبن سيرين ؛ والأحاديث الثابتــة تردّ هذين القولين . روى الترمذيّ عن أبى هريرة قال قال رســول الله صلى الله عليــه وسلم : "الحمد لله أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثانى" قال : هذا حديث حسن صحيح . وفى البخارى قال : وسُمِّيت أم الكتاب لأنه يُبتــدأ بكتابتها فى المصاحف، ويُبدأ بقراءتها فى الصلاة . وقال يحيى بن يَعْمر : أُمّ القُرَى : مكة ، وأُمّ خُراسان : مَرْوُ ، وأم القرآن : سورة الحمد . وقيل : سُمِّيت أم القرآن لأنهــا أوّله ومتضمّنة لجميع علومه، وبه سُمِّيت مكة أم القُرَى لأنها أوّل الأرض ومنها دُحيت، ومنه سُمِّيت الأم أُمًّا لأنها أصل النّسل، والأرض أمّا، فى قول أُميّة بن أبى الصَّلْت :

فالأرض مَعْقلُنا وكانت أمّنا * فيهــا مقــابرنا وفيهــا نولد

ويقال لراية الحــرب : أمّ، لتقدمها وآتباع الجيش لهــا . وأصل أم أُمّهة، ولذلك تجمع على أمهات، قال الله تعالى : «وَأُمَّهَاتُكُمْ» . ويقال أمّات بغير هاء . قال :

* فَرَجْتَ الظَّلَامَ بِأُمَّاتِكَا *

وقيل : إن أمّهات فى الناس، وأُمّات فى البهائم، حكاه آبن فارس فى المجمل .

(السادس) المثانى ، سميت بذلك لأنهــا تُثَنَّى فى كل ركعة . وقيل : سميت بذلك لأنها آستثنيت لهذه الأمة فلم تنزل على أحد قبلها ذُخْرًا لها .

(السابع) القرآن العظيم ، سميت بذلك لتضمنها جميع علوم القرآن ، وذلك أنهــا تشتمل على الثناء على الله عزّ وجلّ بأوصاف كماله وجلاله ، وعلى الأمر بالعبادات والإخلاص فيها ، والآعتراف بالعجز عن القيام بشىء منها إلا بإعانته تعالى، وعلى الآبتهال إليــه فى الهداية إلى الصراط المستقيم، وكفاية أحوال الناكثين، وعلى بيانه عاقبة الجاحدين .

(الثامن) الشفاء، روى الدارميّ عن أبى سعيد الخُدْرِى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فاتحة الكتاب شفاء من كل سم"(١) .

(١) الذى فى مسند الدارمى عن عبد الملك بن عمير : قال قال رسول الله "فى فاتحة الكتاب شفاء من كل داء".

Marfat.com

(التاسع) الرُّقْيَة ، ثبت ذلك من حديث أبي سعيد الخُدْرِيّ وفيه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للرجل الذي رَقَى سَيّد الحيّ : "ما أدراك أنها رُقْية" فقال : يا رسول الله شيء أُلْقِيَ في رُوعِي ؛ الحديث . خرّجه الأئمة ، وسيأتي بتمامه .

(العاشر) الأساس ، شكا رجل إلى الشعبيّ وجع الخاصرة ؛ فقال : عليك بأساس القرآن فاتحة الكتاب ، سمعت ابن عباس يقول : لكل شيء أساس ، وأساس الدنيا مكة ، لأنها منها دُحِيَت ؛ وأساس السموات عَرِيبا (١) ، وهي السماء السابعة ؛ وأساس الأرض عجيبا ، وهي الأرض السابعة السفلى ؛ وأساس الجنان جنة عدن ، وهي سُرّة الجنان عليها أُسِّست الجنة ؛ وأساس النار جهنم ، وهي الدركة السابعة السفلى عليها أسست الدركات ، وأساس الخلق آدم ، وأساس الأنبياء نوح ، وأساس بني إسرائيل يعقوب ؛ وأساس الكتب القرآن ؛ وأساس القرآن الفاتحة ؛ وأساس الفاتحة بسم الله الرحمن الرحيم ؛ فإذا اعتللت أو اشتكيت فعليك بالفاتحة تُشْفَى (٢) .

(الحادي عشر) الوافية ، قاله سفيان بن عُيَيْنة ، لأنها لا تتنصف ولا تحتمل الاختزال ، ولو قرأ من سائر السور نصفها في ركعة ، ونصفها الآخر في ركعة لأجزأ ؛ ولو نصفت الفاتحة في ركعتين لم يجز .

(الثاني عشر) الكافية ، قال يحيى بن أبي كثير : لأنها تكفي عن سواها ولا يكفي سواها عنها . يدل عليه ما روى محمد بن خلّاد الاسكندراني قال قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " أم القرآن عِوَض من غيرها وليس غيرها منها عِوَضًا " .

الخامسة — قال المهلب : إن موضع الرقية منها إنما هو «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» . وقيل : السورة كلها رقية ، لقوله عليه السلام للرجل لما أخبره : " وما أدراك أنها رقية " ولم يقل : أن فيها رقية ؛ فدل هذا على أن السورة بأجمعها رقية ؛ لأنها فاتحة الكتاب ومبدؤه ، ومتضمنة لجميع علومه ، كما تقدم والله أعلم .

(١) وفي بعض الأصول : غريبا (بالغين المعجمة) . (٢) كذا في نسخ الأصل . ولو كان جوابا للأمر لكان « تشف » مجزوما .

Marfat.com

السادســـة — ليس فى تسميتها بالمثـانى وأم الكتاب ما يمنع من تسمية غيرها بذلك، قال الله عزّ وجلّ : «كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ» فأطلق على كتابه : مثانى؛ لأن الأخبار تثنى فيه. وقد سميت السبع الطُّوَل أيضا مثانى؛ لأن الفرائض والقصص تثنى فيها . قال آبن عباس : أوتى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعًا من المثانى ؛ قال : السبع الطُّوَل . ذكره النسائى ، وهى من «البقرة» إلى «الأعراف» ست، وآختلفوا فى السابعة، فقيل : يونس، وقيل : الأنفال والتوبة؛ وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير . وقال أعشى همدان :

فلجُوا المسجدَ وآدعـوا ربَّكم * وآدرسوا هذى المثانى والطُّوَل

وسيأتى لهذا مزيد بيان فى سورة «الحجر»(1) إن شاء الله تعالى .

السابعـــة — المثانى جمع مثنى ، وهى التى جاءت بعد الأولى ، والطُّوَل جمع أَطْوَل . وقـد سُمِّيت الأنفال من المثانى لأنها تتلو الطُّوَل فى القدر . وقيل : هى التى تزيد آياتها على المفصّل وتنقص عن المئين . والمئون : هى السُّوَر التى تزيد كل واحدة منها على مائة آية .

الباب الثانى — فى نزولها وأحكامها ، وفيه عشرون مسألة

الأولى — أجمعت الأمة على أن فاتحة الكتاب سبع آيات؛ إلا ما روى عن حسين الجُعْفى : أنها ست؛ وهذا شاذ . وإلا ما روى عن عمرو بن عبيد أنه جعل «إياك نعبد» آية، وهى على عدّه ثمانى آيات؛ وهذا شاذ . وقوله تعالى : «وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي» وقوله : "قسمت الصلاة" الحديث، يردّ هذين القولين .

وأجمعت الأمة أيضا على أنها من القرآن . فإن قيل : لو كانت قرآنا لأثبتها عبد الله بن مسعود فى مصحفه ، فلما لم يثبتها دل على أنها ليست من القرآن ، كالمعوّذتين عنده .

فالجواب ما ذكره أبو بكر الأنبـارى قال : حدّثنا الحسن بن الحُبَاب حدّثنا سليمان آبن الأشعث حدّثنا آبن أبى قُدامة حدّثنا جَرير عن الأعمش قال : أظنه عن إبراهيم قال :

(1) راجع جـ ١٥ ص ٢٤٩

قيل لعبد الله بن مسعود : لِمَ لم تكتب فاتحة الكتاب فى مصحفك ؟ قال : لو كتبتها لكتبتها مع كل سورة . قال أبو بكر : يعنى أن كل ركعة سبيلها أن تفتتح بأم القرآن قبل السورة المتلوة بعدها، فقال: آختصرت بإسقاطها، ووثقت بحفظ المسلمين لها، ولم أثبتها فى موضع فيلزمنى أن أكتبها مع كل سورة ، إذ كانت تتقدمها فى الصلاة .

الثانيــة — آختلفوا أهى مَكيّة أم مَدَنيّــة ؟ . فقال آبن عباس وقتادة وأبو العالية الرياحى — وآسمه رُفيع — وغيرهم : هى مكية . وقال أبو هريرة ومجاهد وعطاء بن يسار والزهرى وغيرهم : هى مدنيــة . ويقال : نزل نصفها بمكة ، ونصفها بالمدينــة . حكاه أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السَّمَرْقَنْدِىّ فى تفسيره . والأوّل أصح لقوله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ » والحِجْرُ مكية بإجماع . ولا خلاف أن فرض الصلاة كان بمكة . وما حُفظ أنه كان فى الإسلام قطّ صلاة بغير « الحمد لله رب العالمين » ؛ يدل على هذا قوله عليه السلام : " لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب " . وهذا خبر عن الحُكْم ، لا عن الابتداء ، والله أعلم .

وقد ذكر القاضى آبن الطيب آختلاف الناس فى أوّل ما نزل من القرآن؛ فقيل: المدّثر، وقيل : آقرأ، وقيل: الفاتحة . وذكر البَيْهَقِى فى دلائل النبوّة عن أبى ميسرة عمرو بن شَرَحْبِيل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لخديجة: "إنى إذا خلوت وحدى سمعت نداء وقد والله خشيت أن يكون هذا أمرا " قالت : معاذ الله ! ما كان الله ليفعل بك ، فوالله إنك لتؤدّى الأمانة، وتَصِل الرحم ، وتَصْدُقُ الحديث . فلما دخل أبو بكر — وليس رسول الله صلى الله عليه وسلم ثَمّ — ذكرت خديجة حديثه له ، قالت : ياعَتِيق ، اذهب مع محمد إلى وَرَقة بن نَوْفل . فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ أبو بكر بيده ، فقال : آنطلق بنا إلى وَرَقة ، فقال : "ومن أخبرك". قال: خديجة، فآنطلقا إليه فقصا عليه؛ فقال: "إذا خلوتُ وحدى سمعتُ نداء خلفى يا محمد يا محمد فأنطلق هاربا فى الأرض " فقال : لا تفعل، إذا أتاك فآثْبُت حتى تسمع ما يقول ثم آئتنى فأخبرنى. فلما خلا ناداه: يا محمد، قل «بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين —

Marfat.com

حتى بلغ — ولا الضالين» ، قل : لا إله إلا الله. فأتى ورقة فذكر ذلك له ، فقال له ورقة : أبشر ثم أبشر ، فأنا أشهد أنك الذى بَشّر به عيسى بن مريم ، وأنك على مثل ناموس موسى ، وأنك نبىّ مرسل . وأنك سوف تؤمر بالجهاد بعد يومك هذا ، و إن يدركنى ذلك لأجاهدن معك . فلما تُوُفّىَ ورقة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لقد رأيت القَسّ فى الجنة عليه ثياب الحرير لأنه آمن بى وصدّقنى" يعنى ورقة . قال البَيْهَقِىّ رضى الله عنه : هذا منقطع . يعنى هـذا الحديث ، فإن كان محفوظا فيحتمل أن يكون خبرا عن نزولهـا بعد ما نزل عليـه «ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ» و «يَأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ» .

الثالثـــة — قال ٱبن عطية : ظنّ بعض العلماء أن جبريل عليه السلام لم ينزل بسورة الحمد، لمـا رواه مسلم عن ٱبن عباس قال : بينما جبريل قاعد عند النبىّ صلّى الله عليه وسلّم سمع نقيضا(١) من فوقه ، فرفع رأسه فقال : هذا باب من السماء فُتح اليوم لم يُفتح قط إلا اليوم ، فنزل منه مَلَك ، فقال : هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قطّ إلا اليوم ، فسلّم وقال : أبشر بنورين أوتيتهما لم يُؤْتَهما نبىّ قبلك : فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ بحرف منهما إلا أُعطيتَه . قال ٱبن عطية : وليس كما ظنّ ، فإن هـذا الحديث يدل على أن جبريل عليه السلام تقدّم المَلَك إلى النبىّ صلّى الله عليه وسلّم مُعْلِماً به و بما ينزل معه ، وعلى هذا يكون جبريل شارك فى نزولها ، والله أعلم .

قلت : الظاهر من الحديث يدل على أن جبريل عليه السلام لم يعلم النبىّ صلى الله عليه وسلم بشىء من ذلك . وقد بينا أن نزولها كان بمكة ، نزل بهـا جبريل عليه السلام ، لقوله تعالى : «نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ» وهذا يقتضى جميع القرآن ، فيكون جبريل عليه السلام نزل بتلاوتها بمكة ، ونزل المَلَك بثوابها بالمدينة . والله أعلم . وقد قيل : إنها مكية مدنية ، نزل بها جبريل مرتين ؛ حكاه الثعلبى . وما ذكرناه أولى . فإنه جمع بين القرآن والسُّنة ، ولله الحمد والمنّـــة .

(١) النقيض : الصوت .

Marfat.com

الرابعــة — قد تقدّم أن البسملة ليست بآية منها على القــول الصحيح ، و إذا ثبت ذلك فحكم المصلّى إذا كبّر أن يصله بالفـاتحة ولا يسـكت ، ولا يذكر توجيهاً ولا تسبيحاً ؛ لحديث عائشة وأنس المتقدّمَيْن وغيرهما ، وقد جاءت أحاديث بالتوجيه والتسبيح والسكوت ، قال بها جماعة من العلماء ؛ فروى عن عمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود رضى الله عنهما أنهما كانا يقولان إذا ٱفتتحا الصلاة : سبحانك اللّهُمّ و بحمدك ، تبارك ٱسمك ، وتعالى جَدّك ، ولا إله غيرك . و به قال سـفيان وأحمد و إسحاق وأصحاب الرأى . وكان الشافعىّ يقول بالذى رُوى عن علىّ عن النبىّ صلى الله عليه وسـلم أنه كان إذا ٱفتتح الصلاة كبّر ثم قال : " وَجّهت وجهِى " الحديث ، ذكره مسلم ، وسيأتى بتمامه فى آخر سورة الأنعام ، وهناك يأتى القول فى هذه المسألة مستوفىً إن شاء الله (١) .

قال ٱبن المنذر : ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا كبّر فى الصلاة سكت هُنَيْهَةً قبل أن يقرأ يقول : " اللّهُمّ باعد بينى وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب اللّهُمّ نَقِّنى من خطاياى كما يُنَقَّى الثوب الأبيض من الدَّنَس اللهمّ ٱغسلنى من خطاياى بالمـاء والثّلج والبَرَد " وٱستعمل ذلك أبو هريرة . وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن : للإمام سكتتان فٱغتنموا فيهما القراءة . وكان الأوزاعىّ وسـعيد بن عبد العزيز وأحمد بن حنبل يميلون إلى حديث النبىّ صلى الله عليه وسلم فى هذا الباب .

الخامســة — وٱختلف العلمـاء فى وجوب قراءة الفـاتحة فى الصـلاة ؛ فقال مالك وأصحابه : هى متعيّنة للإمام والمنفرد فى كل ركعة . قال ٱبن خُوَيْزِ مَنْدَاد البصرى المـالكى : لم يختلف قول مالك أنه من نَسِيَها فى صـلاة ركعة من صـلاة ركعتين أن صلاته تبطل ولا تجزيه . وٱختلف قولُه فيمن تركها ناسياً فى ركعة من صلاة رباعية أو ثلاثية ؛ فقال مرة : يعيد الصلاة ، وقال مرة أخرى : يسـجد سجدتى السهو ؛ وهى رواية ٱبن عبد الحكم وغيره عن مالك . قال ٱبن خُويز منداد وقد قيل : إنه يعيد تلك الركعة و يسجد للسهو بعد السلام . قال ٱبن عبـد البرّ : الصحيح من القول إلغـاء تلك الركعة و يأتى بركعـة بدلاً منهـا ، كمن

(١) راجع جـ ٧ ص ١٥٣ .

أسـقط سجدةً سهوًا . وهو آختيار آبن القـاسم . وقال الحسن البصرى وأكثر أهل البصرة والمغيرة بن عبـد الرحمن المخزومى المـدنى : إذا قرأ بأم القرآن مرة واحدة فى الصـلاة أجزأه ولم تكن عليه إعادة ؛ لأنها صـلاة قد قرأ فيها بأم القرآن ؛ وهى تامة لقوله عليـه السلام : " لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن " وهذا قد قرأ بها .

قلت : ويحتمل لا صـلاة لمن لم يقرأ بها فى كل ركعـة ، وهو الصحيح على ما يأتى . ويحتمل لا صلاة لمن لم يقرأ بها فى أكثر عدد الركعات ، وهذا هو سبب الخلاف والله أعلم.

وقال أبو حنيفة والثورى والأوزاعىّ : إن تركها عامدا فى صَـلاته كلها وقرأ غيرها أجزأه؛ على آختلاف عن الأوزاعىّ فى ذلك . وقال أبو يوسف ومحمد بن الحسن : أقله ثلاث آيات أو آية طويلة كآية الدَّين . وعن محمد بن الحسن أيضا قال : أسوّغ الآجتهاد فى مقدار آية ومقدار كلمة مفهومة ؛ نحو : « الحمد لله » . ولا أسوّغه فى حرف لا يكون كلاما .

وقال الطبرىّ : يقرأ المصـلّى بأم القرآن فى كل ركعة ، فإن لم يقرأ بها لم يجزه إلا مثلها من القرآن عدد آيها وحروفها . قال آبن عبد البرّ : وهذا لا معنى له ؛ لأن التعيين لها والنص عليها قد خصها بهذا الحكم دون غيرها ؛ ومحال أن يجىء بالبدل منها من وجبت عليه فتركها وهو قادر عليها ، وإنما عليه أن يجىء بها ويعود إليها ، كسائر المفروضات المتعيّنات فى العبادات.

السادســة — وأما المأموم فإن أدرك الإمام راكعاً فالإمام يحمل عنه القراءة؛ لإجماعهم على أنه إذا أدركه راكعاً أنه يكبّر ويركع ولا يقرأ شيئا ، وإن أدركه قائما فإنه يقرأ ، وهى المسألة :

السابعــة — ولا ينبغى لأحد أن يدع القراءة خلف إمامه فى صـلاة السِّر؛ فإن فعل فقد أساء؛ ولا شىء عليه عند مالك وأصحابه . وأما إذا جهر الإمام وهى المسألة :

الثامنــة — فلا قراءة بفاتحة الكتاب ولا غيرها فى المشهور من مذهب مالك؛ لقول الله تعالى : « وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا » ، وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مالى أنازع القرآن " ، وقوله فى الإمام : " إذا قرأ فأنصتوا " ، وقوله : " من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة " .

Marfat.com

وقال الشافعي فيما حكى عنه البُوَيْطيّ وأحمد بن حنبل : لا تجزئ أحداً صلاةٌ حتى يقرأ بفاتحة الكتاب في كل ركعة، إماماً كان أو مأموما ، جَهَر إمامُه أو أسرّ . وكان الشافعيّ بالعراق يقول في المأموم : يقرأ إذا أسَرّ ولا يقرأ إذا جَهَر ؛ كمشهور مذهب مالك . وقال بمصر : فيما يجهر فيه الإمام بالقراءة قولان : أحدهما أن يقرأ ، والآخر يجزئه ألا يقرأ و يكتفي بقراءة الإمام . حكاه ابن المنذر . وقال ابن وهب وأشهب وابن عبد الحكم وابن حبيب والكوفيون : لا يقرأ المأموم شيئا، جَهَر إمامه أو أسرّ ؛ لقوله عليه السلام : "فقراءة الإمام له قراءة" وهذا عامّ، ولقول جابر : مَن صلّى ركعة لم يقرأ فيها بأم القرآن فلم يُصَلّ إلا وراء الإمام .

التاسعة — الصحيح من هذه الأقوال قول الشافعي وأحمد ومالك في القول الآخر ، وأن الفاتحة متعيّنة في كل ركعة لكل أحد على العموم ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : "لا صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب"، وقوله : "مَن صلى صلاةً لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خِداج" ثلاثا . وقال أبو هريرة : أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أنادي أنه : "لا صلاة إلا بقراءة فاتحة الكتاب فما زاد" أخرجه أبو داود . كما لا ينوب سجود ركعة ولا ركوعها عن ركعة أخرى ، فكذلك لا تنوب قراءة ركعة عن غيرها ؛ و به قال عبد الله بن عَوْن وأيوب السّختياني وأبو ثَور وغيره من أصحاب الشافعيّ وداود بن عليّ، وروى مثله عن الأوزاعيّ؛ و به قال مكحول .

وروى عن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عباس وأبي هريرة وأُبَيّ بن كعب وأبي أيوب الأنصاري وعبد الله بن عمرو بن العاص وعُبادة بن الصّامت وأبي سعيد الخُدْري وعثمان ابن أبي العاص وخَوّات بن جُبير أنهم قالوا : لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب . وهو قول ابن عمر والمشهور من مذهب الأوزاعي؛ فهؤلاء الصحابة بهم القُدوة، وفيهم الأُسْوة ، كلهم يوجبون الفاتحة في كل ركعة .

وقد أخرج الإمام أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني في سُنَنه مايرفع الخلاف و يزيل كل احتمال فقال : حدّثنا أبو كُرَيب حدّثنا محمد بن فضيل، ح، وحدّثنا سُوَيد بن سعيد

Marfat.com

حدّثنا عليّ بن مُسْهِر جميعاً عن أبي سفيان السّعدى عن أبى نضرة عن أبى سعيد الخُدْرِيّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا صلاة لمن لم يقرأ فى كل ركعة بالحمد لله وسورة فى فريضة أو غيرها" . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة أنه عليه السلام قال للذى علمه الصلاة : "وآفعل ذلك فى صلاتك كلها" وسيأتى. ومن الحجة فى ذلك أيضا مارواه أبو داود عن نافع بن محمود بن الربيع الأنصارى قال : أبطأ عُبادة بن الصامت عن صلاة الصبح ؛ فأقام أبو نعيم المؤذن الصلاة فصلّى أبو نعيم بالناس ، وأقبل عُبادة بن الصامت وأنا معه حتى صففنا خلف أبى نعيم ، وأبو نعيم يجهر بالقراءة ؛ فجعل عُبادة يقرأ بأم القرآن ؛ فلما آنصرف قلت لعبادة : سمعتك تقرأ بأمّ القرآن وأبو نعيم يجهر ؟ قال : أجل ! صلّى بنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بعض الصلوات التى يُجهر فيها بالقراءة فآلتبستْ عليه ؛ فلما آنصرف أقبل علينا بوجهه فقال : "هل تقرءون إذا جهرتُ بالقراءة" ؟ فقال بعضنا : إنا نصنع ذلك ؛ قال : "فلا . وأنا أقول مالى يُنازعنى القرآن فلا تقرءوا بشىء من القرآن إذا جَهرتُ إلا بأمّ القرآن" . وهذا نص صريح فى المأموم . وأخرجه أبو عيسى الترمذى من حديث محمد بن إسحاق بمعناه ؛ وقال : حديث حسن . والعمل على هذا الحديث فى القراءة خلف الإمام عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم والتابعين؛ وهو قول مالك بن أنس وآبن المبارك والشافعى وأحمد وإسحاق ، يرون القراءة خلف الإمام . وأخرجه أيضا الدَّارَقُطْنِيّ وقال : هذا إسناد حسن، ورجاله كلهم ثقات؛ وذكر أن محمود بن الربيع كان يسكن إيلياء[1]، وأن أبا نعيم أوّل من أذّن فى بيت المَقْدِس . وقال أبو محمد عبد الحق : ونافع بن محمود لم يذكره البخاريّ فى تاريخه ولا آبن أبى حاتم ؛ ولا أخرج له البخارى ومسلم شيئا . وقال فيه أبو عمر : مجهول . وذكر الدار قطنيّ عن يزيد بن شريك قال : سألت عمر عن القراءة خلف الإمام، فأمرنى أن أقرأ، قلت : وإن كنت أنت ؟ قال : وإن كنت أنا ؛ قلت : وإن جهرت ؟ قال : وإن جهرتُ . قال الدار قطنيّ : هذا إسناد صحيح . ورُوى عن جابر بن عبد الله

(١) إيلياء : اسم مدينة بيت المقدس .

قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الإمام ضامن فما صنع فآصنعوا" . قال أبو حاتم : هذا يصح لمن قال بالقراءة خلف الإمام ؛ وبهذا أفتى أبو هريرة الفارسيَّ أن يقرأ بها فى نفسه حين قال له : إنى أحيانا أكون وراء الإمام، ثم آستدل بقوله تعالى[1] : "قسمت الصلاة بينى و بين عبدى نصفين فنصفها لى ونصفها لعبدى ولعبدى ما سأل" . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "آقرءوا يقول العبد الحمد لله رب العالمين" الحديث .

العاشرة — أمّا ما آستدل به الأولون بقوله عليه السلام : "و إذا قرأ فأنصتوا" أخرجه مسلم من حديث أبى موسى الأشعرىّ ؛ وقال : وفى حديث جرير عن سليمان عن قتادة من الزيادة "و إذا قرأ فأنصتوا" قال الدارقطنىّ : هذه اللفظة لم يتابع سليمان التيمى فيها عن قتادة ؛ وخالفه الحفاظ من أصحاب قتادة فلم يذكروها؛ منهم شعبة وهشام وسعيد بن أبى عَرُوبة وهمام وأبو عوانة ومعمر وعَدِىّ بن أبى عمارة . قال الدّارَقُطْنِىّ : فإجماعهم يدل على وَهْمه. وقد روى عن عبد الله بن عامر عن قتادة متابعة التيمى ؛ ولكن ليس هو بالقوىّ ، تركه القطّان . وأخرج أيضا هذه الزيادة أبو داود من حديث أبى هريرة وقال : هذه الزيادة "إذا قرأ فأنصتوا" ليست بمحفوظة . وذكر أبو محمد عبد الحق : أن مسلما صَحّح حديث أبى هريرة وقال : هو عندى صحيح .

قلت : ومما يدل على صحتها عنده إدخالها فى كتابه من حديث أبى موسى و إن كانت مما لم يجمعوا عليها . وقد صححها الإمام أحمد بن حنبل وآبن المنذر . وأما قوله تعالى: «وَ إِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا» فإنه نزل بمكة، وتحريم الكلام فى الصلاة نزل بالمدينة — كما قال زيد بن أرقم — فلا حجة فيها ؛ فإن المقصود كان المشركين، على ما قال سعيد بن المسيّب . وقد روى الدّارَقُطْنِىّ عن أبى هريرة أنها نزلت فى رفع الصوت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصلاة . وقال : عبد الله بن عامر ضعيف . وأما قوله عليه السلام : "مالى أنازع القرآن" فأخرجه مالك عن آبن شهاب عن آبن أُكَيمة اللّيثى ، وآسمه فيما قال مالك : عمرو ،

(١) أى فى الحديث القدسى .

وغيره يقول عامر، وقيل يزيد، وقيل عمارة، وقيل عباد، يكنى أبا الوليد تُوُفِّيَ سنة إحدى ومائة وهو آبن تسع وسبعين سنة ؛ لم يَرْوِ عنه الزهرى إلا هذا الحديث الواحد ، وهو ثقة ، وروى عنه محمد بن عمرو وغيره . والمعنى فى حديثه : لا تجهروا إذا جهرت فإن ذلك تنازع وتجاذب وتخالج ، آقرءوا فى أنفسكم . يُبَيِّنه حديثُ عبادةَ وفُتْيَا الفــاروق وأبى هريرة الراوى للحديثين. فلو فهم المنع جملةً من قوله : "مالى أنازع القرآن" لمـا أفتى بخلافه ، وقول الزهرى فى حديث آبن أُكَيمة : فآنتهى الناس عن القراءة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما جَهَر فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقراءة ، حين سمعوا ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يريد بالحمد على ما بينا ؛ وبالله توفيقنا .

وأما قوله صلى الله عليه وسلم : "من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة" فحديث ضعيف أسنده الحسن بن عمارة وهو متروك ، وأبو حنيفة (١) وهو ضعيف ؛ كلاهما عن موسى بن أبى عائشة عن عبد الله بن شدّاد عن جابر . أخرجه الدارقطنىّ وقال : رواه سفيان الثورى وشعبة وإسرائيل آبن يونس وشريك وأبو خالد الدالانى وأبو الأحوص وسفيان بن عُيينة وجَرير بن عبد الحميد وغيرهم ، عن موسى بن أبى عائشة عن عبد الله بن شدّاد مرسلًا عن النبىّ صلى الله عليه وسلم وهو الصواب . وأما قول جابر : من صلى ركعة لم يقرأ فيهـا بأمّ القرآن فـلم يصل إلا وراء الإمام ؛ فرواه مالك عن وهب بن كَيسان عن جابر قوله . قال آبن عبد البر : ورواه يحيى ابن سلام صاحب التفسير عن مالك عن أبى نعيم وهب بن كيسان عن جابر عن النبىّ صلى الله عليـه وسلم . وصـوابه موقوف على جابر كما فى المُوَطّأ . وفيـه من الفقه إبطالُ الركعة التى لا يُقرأ فيها بأم القرآن ؛ وهو يشهد لصحة ما ذهب إليـه آبن القاسم ورواه عن مالك فى إلغاء الركعة والبناء على غيرها ولا يعتـدّ المصلى بركعة لا يقرأ فيها بفاتحة الكتاب . وفيه أيضا أن الإمام قراءته لمن خلفه قراءة ؛ وهذا مذهب جابر وقد خالفه فيه غيره .

---

(١) قــد ترجمه آبن حجر فى التهذيب وابن خلكان فى الوفيات ولم يذكرا عنه ضعفا فى الحديث ولكن آبن سـعد فى الطبقات قد وصفه بذلك .

Marfat.com

الحادية عشرة — قال ٱبن العربى : لما قال صلى الله عليه وسلم : " لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب " وٱختلف الناس فى هذا الأصل هل يُحمل هذا النفى على التمام والكمال ، أو على الإجزاء ؟ ٱختلفت الفَتْوَى بحسب ٱختلاف حال الناظر ، ولما كان الأشهر فى هذا الأصل والأقوى أن النفى على العموم ، كان الأقوى من رواية مالك أن من لم يقرأ الفاتحة فى صلاته بطلت . ثم نظرنا فى تكرارها فى كل ركعة ؛ فمن تأوّل قول النبىّ صلى الله عليه وسلم : " ٱفعل ذلك فى صلاتك كلها " لزمه أن يعيد القراءة كما يعيد الركوع والسجود . والله أعلم .

الثانية عشرة — ما ذكرناه فى هذا الباب من الأحاديث والمعانى فى تعيين الفاتحة يرد على الكوفيين قولهم فى أن الفاتحة لا تتعيّن ، وأنها وغيرها من آى القرآن سواء . وقد عيّنها النبىّ صلى الله عليه وسلم بقوله كما ذكرناه ؛ وهو المبيّن عن الله تعالى مراده فى قوله : « وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ » . وقد روى أبو داود عن أبى سعيد الخُدْرِىّ قال : أُمِرْنا أن نقرأ بفاتحة الكتاب وما تيسّر . فدلّ هذا الحديث على أن قوله عليه السلام للأعرابى : " ٱقرأ ما تيسّر معك من القرآن " ما زاد على الفاتحة ، وهو تفسير قوله تعالى : « فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ » . وقد روى مسلم عن عُبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن — زاد فى رواية — فصاعدا " . وقوله عليه السلام : " هى خِداج — ثلاثا — غير تمام " أى غير مجزئة بالأدلة المذكورة . والخِداج : النقص والفساد . قال الأخفش : خدجت الناقة ، إذا ألقت ولدها لغير تمام ، وأخدجت إذا قذفت به قبل وقت الولادة وإن كان تام الخلق .

والنظر يوجب فى النقصان ألا تجوز معه الصلاة ؛ لأنها صلاة لم تتم ؛ ومن خرج من صلاته وهى لم تتم فعليه إعادتها كما أُمر ، على حسب حكمها . ومن ٱدعى أنها تجوز مع إقراره بنقصها فعليه الدليل ، ولا سبيل إليه من وجه يُلزم ، والله أعلم .

الثالثة عشرة — روى عن مالك أن القراءة لا تجب فى شىء من الصلاة ؛ وكذلك كان الشافعىّ يقول بالعراق فيمن نسيها ، ثم رجع عن هذا بمصر فقال : لا تجزئ صلاة من يحسن

Marfat.com

فاتحة الكتاب إلا بها، ولا يجزئه أن ينقص حرفا منها ؛ فإن لم يقرأها أو نقص منها حرفا أعاد صـلاته وإن قرأ بغيرها . وهذا هو الصحيح فى المسألة . وأما ما روى عن عمـر رحمه الله أنه صلّى المغرب فلم يقرأ فيها ، فذُكر ذلك له فقال : كيف كان الركوع والسجود ؟ قالوا : حسن ، قال : لا بأس إذًا، فحديث منكر اللفظ منقطع الإسناد، لأنه يرويه إبراهيم بن الحارث التيمى عن عمر ، ومَرّة يرويه إبراهيم عن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن عمر، وكلاهما منقطع لا حجة فيه ؛ وقد ذكره مالك فى الموطأ، وهو عند بعض الرواة وليس عند يحيى وطائفة معه، لأنه رماه مالك من كتابه بأَخَرَةٍ (١) ، وقال ليس عليه العمل لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "كل صلاة لا يُقرأ فيها بأم القرآن فهى خِداج" وقد روى عن عمر أنه أعاد تلك الصلاة ؛ وهو الصحيح عنـه . روى يحيى بن يحيى النيسابورى قال : حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن إبراهيم النخعيّ عن همام بن الحارث أن عمر نسى القراءة فى المغرب فأعاد بهم الصلاة. قال ابن عبد البر : وهذا حديث متصل شهده همّـام من عمر؛ روى ذلك من وجوه . وروى أشهب عن مالك قال : سـئل مالك عن الذى نسى القراءة ، أيعجبك ما قال عمر؟ فقال : أنا أنكر أن يكون عمـر فعله — وأنكر الحديث — وقال : يرى الناس عمر يصنع هـذا فى المغرب ولا يسبحون به ! أرى أن يعيد الصلاة من فعل هذا .

الرابعة عشرة — أجمع العلماء على أن لا صلاة إلا بقراءة ، على ما تقدم من أصولهم فى ذلك . وأجمعوا على أن لا توقيت فى ذلك بعد فاتحة الكتاب ؛ إلا أنهم يستحبون ألا يقرأ مع فاتحة الكتاب إلا سورة واحدة لأنه الأكثر ممـا جاء عن النبيّ صلى الله عليـه وسلم . قال مالك : وسـنة القراءة أن يقرأ فى الركعتين الأولَيَيْن بأم القرآن وسورة، وفى الأخريين بفاتحة الكتاب . وقال الأوزاعيّ : يقرأ بأم القرآن فإن لم يقرأ بأم القرآن وقرأ بغيرها أجزاه، وقال : وإن نسى أن يقرأ فى ثلاث ركعات أعاد . وقال الثَّورِيّ : يقرأ فى الركعتين الأوليين بفاتحة الكتاب وسورة ، ويسبّح فى الأخريين إن شاء ، وإن شاء قرأ ، وإن لم يقرأ ولم يسبح جازت

(١) أى بتأخر وبعد عن الخير

Marfat.com

صلاته ، وهو قول أبي حنيفة وسائر الكوفيين . قال آبن المنذر : وقد رَوينا عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : آقرأ في الأُولَيَيْن وسبح في الأخريين ، وبه قال النَّخَعيّ . قال سفيان : فإن لم يقرأ في ثلاث ركعات أعاد الصلاة لأنه لا تجزئه قراءة ركعة . قال : وكذلك إن نسي أن يقرأ في ركعة من صلاة الفجر . وقال أبو ثَور : لا تجزئ صلاة إلا بقراءة فاتحة الكتاب في كل ركعة ، كقول الشافعي المصري ، وعليه جماعة أصحاب الشافعي . وكذلك قال آبن خُوَيْزِ مَنْدَاد المالكي ؛ قال : قراءة الفاتحة واجبة عندنا في كل ركعة ، وهذا هو الصحيح في المسألة . روى مسلم عن أبي قتادة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلّي بنا فيقرأ في الظهر والعصر في الركعتين الأوليين بفاتحة الكتاب وسورتين ، ويسمعنا الآية أحيانا ، وكان يطوّل في الركعة الأولى من الظهر ويقصر الثانية ، وكذلك في الصبح . وفي رواية : ويقرأ في الركعتين الأخريين بفاتحة الكتاب ؛ وهذا نص صريح وحديث صحيح لما ذهب إليه مالك ، ونصٌّ في تعيُّن الفاتحة في كل ركعة ؛ خلافا لمن أبى ذلك ، والحُجّة في السُّنة لا فيما خالفها .

الخامسة عشرة — ذهب الجمهور إلى أن ما زاد على الفاتحة من القراءة ليس بواجب ؛ لما رواه مسلم عن أبي هريرة قال : في كل صلاة قراءة ؛ فما أسمعنا النبيّ صلى الله عليه وسلم أسمعناكم ، وما أخفى منّا أخفينا منكم ؛ فمن قرأ بأمّ القرآن فقد أجزأت عنه ، ومن زاد فهو أفضل . وفي البخاري : وإن زدت فهو خير . وقد أبى كثير من أهل العلم ترك السورة لضرورة أو لغير ضرورة ؛ منهم عمران بن حصين وأبو سعيد الخُدْري وخَوّات بن جبير ومجاهد وأبو وائل وآبن عمر وآبن عباس وغيرهم ؛ قالوا : لا صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب وشيء معها من القرآن ؛ فمنهم من حدّ آيتين ، ومنهم من حَدّ آية ، ومنهم من لم يَحُدّ ، وقال : شيء من القرآن معها ؛ وكل هذا موجب لتعلّم ما تيسّر من القرآن على كل حال مع فاتحة الكتاب ؛ لحديث عُبادة وأبي سعيد الخدري وغيرهما . وفي المُدَوّنة : وكيع عن الأعمش عن خَيْثمة قال : حدّثني من سمع عمر بن الخطاب يقول : لا تجزئ صلاة من لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب وشيء معها . وآختلف المذهب في قراءة السورة على ثلاثة أقوال : سنة ، فضيلة ، واجبة .

Marfat.com

السادسة عشرة — من تعذّر ذلك عليه بعد بلوغ مجهوده فلم يقدر على تعلم الفاتحة أو شيء من القرآن ولا عَلِق معه بشيء ، لزمه أن يذكر الله فى موضع القراءة بما أمكنه من تكبير أو تهليل أو تحميد أو تسبيح أو تمجيد أو لا حول ولا قوة إلا بالله ، إذا صلّى وحده أو مع إمام فيما أَسَرّ فيه الإمام ؛ فقد روى أبو داود وغيره عن عبد الله بن أبى أوْفَى قال : جاء رجل إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : إنى لا أستطيع أن آخذ من القرآن شيئا ، فعلمنى ما يجزئنى منه ؛ قال : "قل سبحان الله والحمد لله ولا إلٰه إلا الله والله أكبر ولا حَوْل ولا قوة إلا بالله" ؛ قال : يا رسول الله ، هذا لله ، فمالى ؟ قال : "قل اللّٰهُمّ ٱرحمنى وعافنى وٱهدنى وٱرزقنى" .

السابعة عشرة — فإن عجز عن إصابة شيء من هذا اللفظ فلا يدع الصلاة مع الإمام جهدَه ؛ فالإمام يحمل ذلك عنه إن شاء الله ؛ وعليه أبدًا أن يجهد نفسه فى تعلم فاتحة الكتاب فما زاد ، إلى أن يحول الموت دون ذلك وهو بحال الاجتهاد فيعذره الله .

الثامنة عشرة — من لم يواته لسانُه إلى التكلم بالعربية من الأعجمين وغيرهم تُرجم له الدعاء العربى بلسانه الذى يفقه لإقامة صلاته ؛ فإن ذلك يجزئه إن شاء الله تعالى .

التاسعة عشرة — لا تجزئ صلاة من قرأ بالفارسية وهو يحسن العربية فى قول الجمهور . وقال أبو حنيفة : تجزئه القراءة بالفارسية وإن أحسن العربية ؛ لأن المقصود إصابة المعنى . قال ٱبن المنذر : لا يجزئه ذلك ؛ لأنه خلاف ما أمر الله به ، وخلاف ما علم النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وخلاف جماعات المسلمين . ولا نعلم أحدا وافقه على ما قال .

الموفية عشرين — من ٱفتتح الصلاة كما أمر وهو غير عالم بالقراءة ، فطرأ عليه العلم بها فى أثناء الصلاة ، ويتصوّر ذلك بأن يكون سمع من قرأها فعَلِقت بحفظه من مجرّد السماع فلا يستأنف الصلاة ؛ لأنه أدّى ما مضى على حسب ما أُمر به ؛ فلا وجه لإبطاله . قاله فى كتاب ٱبن سحنون .

Marfat.com

البـاب الثالث ـ فى التأمين، وفيه ثمـان مسائل

الأولى — ويسنّ لقارئ القرآن أن يقول بعـد الفراغ من الفاتحة بعد سكتة على نون « ولا الضالين » : آمين؛ ليتميّز ما هو قرآن ممـا ليس بقرآن .

الثانيـــة — ثبت فى الأمّهات من حديث أبى هريرة أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إذا أمّن الإمام فأمّنوا فإنه مَن وافق تأمينه تأمين الملائكة غُفر له ماتقدّم من ذنبه". قال علماؤنا رحمة الله عليهم : فترتبت المغفرة للذنب على مقدّمات أربع تضمّنها هذا الحديث؛ الأولى : تأمين الإمام، الثانية : تأمين مَن خلفه، الثالثة : تأمين الملائكة، الرابعة : موافقة التأمين؛ قيـل فى الإجابة، وقيل فى الزمن، وقيل فى الصفة من إخلاص الدعاء، لقوله عليه السلام : "ٱدعوا الله وأنتم مُوقِنون بالإجابة وٱعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافل لاهٍ" .

الثالثـــة — روى أبو داود عن أبى مُصَبِّح المَقْرَائىّ قال : كنا نجلس إلى أبى زُهير النميرىّ وكان من الصحابة، فيحدّث أحسن الحديث، فإذا دعا الرجل منا بدعاء قال : ٱختمه بآمين، فإن آمين مثل الطابع على الصحيفة. قال أبو زهير : ألا أخبركم عن ذلك، خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة، فأتينا على رجل قد ألحّ فى المسئلة، فوقف النبىّ صلى الله عليه وسلم يسمع منـه، فقال النبىّ صلى الله عليه وسـلم : " أوجب إن ختم " فقال له رجل من القوم : بأىّ شىء يختم ؟ قال : " بآمين فإنه إن ختم بآمين فقـد أوجب " فٱنصرف الرجل الذى سأل النبىّ صلى الله عليه وسـلم ، فأتى الرجل فقال له : ٱختم يا فلان وأبشر . قال ٱبن عبد البر : أبو زهير النميرى ٱسمه يحيى بن نفير روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : " لا تقتلوا الجراد فإنه جند الله الأعظم ". وقال وهب بن مُنَبّه : آمين أربعة أحرف يخلق الله من كل حرف مَلَكًا يقول : اللّهُـمّ ٱغفر لكل من قال آمين . وفى الخبر " لَقّننى جبريل آمين عنـد

Marfat.com

فراغي من فاتحة الكتاب وقال إنه كالخاتم على الكتاب" وفى حديث آخر : " آمين خاتم رب العالمين ". قال الهَرَوِىّ قال أبو بكر : معناه أنه طابع الله على عباده ؛ لأنه يدفع [به عنهم](١) الآفات والبـلايا ؛ فكان كخاتَم الكتاب الذى يصونه ، ويمنع من إفساده و إظهار ما فيـه . وفى حديث آخر : " آمين درجة فى الجنة". قال أبو بكر : معناه أنه حرف يكتسب به قائله درجة فى الجنة .

الرابعـــة — معنى آمين عند أكثر أهل العلم : اللهُمّ آستجب لنا؛ وُضِع موضع الدعاء. وقال قوم : هو آسم من أسماء الله؛ رُوى عن جعفر بن محمد ومجاهد وهلال بن يِسَاف ورواه آبن عباس عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ولم يصح؛ قاله آبن العربى . وقيل معنى آمين : كذلك فليكن ؛ قاله الجوهرى . وروى الكلبى عن أبى صالح عن آبن عباس قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ما معنى آمين ؟ قال : "رَبِّ آفعل" . وقال مُقاتل : هو قوّة للدعاء، وآستنزال للبركة . وقال الترمذى : معناه لا تخيِّب رجاءنا .

الخامســـة — وفى آمين لغتان : المدّ على وزن فاعيل كياسين . والقصر على وزن يمين. قال الشاعر فى المدّ :

يا ربّ لا تسلُبَنّى حبّهـا أبدًا * ويرحمُ الله عبـــدا قال آمينا

وقال آخـــر :

آمين آمين لا أرضى بواحدة * حـــتى أبلّغهـا ألفينِ آمينـا

وقال آخر فى القصر :

تبـاعد منّى فُطْحُلٌ إذ سألتُه * أمينَ فزاد الله ما بيننا بُعـدَا

وتشديد الميم خطأ ؛ قاله الجوهرى . وقد روى عن الحسن وجعفر الصادق التشديد ؛ وهو قول الحسين بن الفضل؛ من أمّ إذا قصد، أى نحن قاصدون نحوك؛ ومنه قوله : « وَلَآ آمِّينَ

(١) الزيادة عن اللسان مادة (أمن) .

Marfat.com

البَيْتَ الْحَرَامَ » . حكاه أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم القُشَيْرِى . قال الجوهرى : وهو مبنىٌّ على الفتح مثل أين وكيف؛ لاجتماع الساكنين . وتقول منه : أمَّن فلان تأمينا .

السادسة — اختلف العلماء هل يقولها الإمام وهل يجهر بها ؛ فذهب الشافعى ومالك فى رواية المدنيّين إلى ذلك . وقال الكوفيون وبعض المدنيين : لا يجهر بها . وهو قول الطبرى؛ وبه قال ابن حبيب من علمائنا . وقال ابن بكير : هو مخيَّر . وروى ابن القاسم عن مالك أن الإمام لا يقول آمين وإنما يقول ذلك مَن خلفه؛ وهو قول ابن القاسم والمصريين من أصحاب مالك . وحجتهم حديث أبى موسى الأشعرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خَطَبنا فبيّن لنا سنّتنا وعلّمنا صلاتنا فقال : " إذا صلّيتم فأقيموا صفوفكم ثم لْيَؤمّكم أحدكم فإذا كبّر فكبّروا وإذا قال غير المغضوب عليهم ولا الضالين فقولوا آمين يجبكم الله " وذكر الحديث، أخرجه مسلم . ومثله حديث سُمَىٍّ عن أبى هريرة؛ وأخرجه مالك . والصحيح الأوّل لحديث وائل بن حُجْر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأ « ولا الضالين » قال : « آمين » يرفع بها صوته ؛ أخرجه أبو داود والدّارَقُطْنِىّ ، وزاد « قال أبو بكر : هذه سُنّة تفرّد بها أهل الكوفة ، هذا صحيح والذى بعده » . وترجم البخارى « باب جَهْر الإمام بالتأمين » .

وقال عطاء : « آمين » دعاء ، أمّن ابنُ الزبير ومَن وراءه حتى إن للمسجد لَلَجَّة(١) . قال الترمذى : وبه يقول غير واحد من أهل العلم من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم ومَن بعدهم ، يرون أن يرفع الرجل صوته بالتأمين لا يخفيها . وبه يقول الشافعى وأحمد وإسحاق . وفى المُوَطّأ والصحيحين قال ابن شهاب : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « آمين » . وفى سنن ابن ماجه عن أبى هريرة قال : ترك الناس آمين ؛ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قال : « غيرِ المغضوبِ عليهم ولا الضالين » قال : « آمين » حتى يسمعها أهل الصف الأوّل فيرتجّ بها المسجد . وأما حديث أبى موسى وسُمَىّ فمعناهما التعريف بالموضع الذى يقال فيه آمين؛ وهو إذا قال الإمام : « ولا الضالين » ليكون قولهما معًا، ولا يتقدّموه بقول : آمين؛

(١) اللجة : الصوت .

Marfat.com

لمـا ذكرناه، والله أعلم . ولقوله عليـه السلام : " إذا أمن الإمام فأمنوا " . وقال ابن نافع فى كتاب ابن الحارث : لا يقولهـا المأموم إلا أن يسمع الإمامَ يقول : « ولا الضالين » . وإذا كان ببُعْد لا يسمعه فلا يقل . وقال ابن عبدوس : يتحرى قدر القراءة ويقول : آمين.

السابعــة – قال أصحاب أبى حنيفة : الإخفاء بآمين أولى من الجهر بها لأنه دعاء ، وقد قال الله تعالى : « ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً » . قالوا : والدليل عليه ما رُوى فى تأويل قوله تعالى : « قَـدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا » . قال : كان موسى يدعو وهارون يؤمّن ؛ فسماهما الله داعِيَيْن .

الجـواب : أن إخفاء الدعاء إنمـا كان أفضـل لمـا يدخله من الرياء . وأما ما يتعلق بصلاة الجماعة فشهودها إشهار شـعارٍ ظاهر ، وإظهارُ حق يُندب العباد إلى إظهاره ؛ وقد ندب الإمام إلى إشهار قراءة الفاتحـة المشتملة على الدعاء والتأمين فى آخرها ؛ فإذا كان الدعاء مما يسنّ الجهر فيه فالتأمين على الدعاء تابع له وجارٍ مجراه ؛ وهذا بيّن .

الثامنـــة – كلمة آمين لم تكن قبلنا إلا لموسى وهارون عليهما السـلام . ذكر الترمذى الحكيم فى (نوادر الأصول) : حدّثنا عبد الوارث بن عبد الصمد قال حدّثنا أبى قال حدّثنا رَزِين مؤذن مسجد هشام بن حسان قال حدّثنا أنس بن مالك قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله أعطى أمتى ثلاثا لم تُعط أحدا قبلهم السلام وهو تحية أهل الجنة وصفوف الملائكة وآمين إلا ما كان من موسى وهارون " قال أبو عبد الله : معناه أن موسى دعا على فرعون ، وأمّن هارون ، فقال الله تبارك اسمه عنـدما ذكر دعاء موسى فى تنزيله : « قد أجيبتْ دَعْوَتُكُمَا » ولم يذكر مقالة هارون ؛ وقال موسى : ربنَـا ، فكان من هارون التأمين، فسماه داعيا فى تنزيله ، إذ صيّر ذلك منه دَعوة . وقد قيـل : إن آمين خاص لهذه الأمة ؛ لمـا روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما حسدتكم اليهود على شىء ما حسدتكم على السلام والتأمين " أخرجه ابن ماجه من حديث حماد بن سلمة عن سُهيل بن أبى صالح عن أبيه عن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ... ؛ الحديث . وأخرج أيضا من

حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدتكم على آمين فأكثروا من قول آمين". قال علماؤنا[(١)] رحمة الله عليهم: إنما حسدنا أهل الكتاب لأن أولها حمدٌ لله وثناءٌ عليه ثم خضوع له واستكانة، ثم دعاء لنا بالهداية إلى الصراط المستقيم، ثم الدعاء عليهم مع قولنا آمين.

الباب الرابع – فيما تضمّنته الفاتحة من المعانى والقراءات والإعراب وفضل الحامدين، وفيه ستّ وثلاثون مسئلة

الأولى – قوله سبحانه وتعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ روى أبو محمد عبد الغنى بن سعيد الحافظ من حديث أبى هريرة وأبى سعيد الخُدْرِى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا قال العبد الحمد لله قال صدق عبدى الحمد لى". وروى مسلم عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشّربة فيحمده عليها". وقال الحسن: ما مِن نعمة إلا والحمد لله أفضل منها. وروى ابن ماجه عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما أنعم الله على عبد نعمةً فقال الحمد لله إلا كان الذى أعطاه أفضل مما أَخذ". وفى (نوادر الأصول) عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لو أن الدنيا كلها بحذافيرها بيد رجل من أمتى ثم قال الحمد لله لكانت الحمد لله أفضلَ من ذلك". قال أبو عبد الله: معناه عندنا أنه قد أُعطى الدنيا، ثم أُعطى على أثرها هذه الكلمة حتى نطق بها، فكانت هذه الكلمة أفضل من الدنيا كلها، لأن الدنيا فانية والكلمة باقية، هى من الباقيات الصالحات؛ قال [الله تعالى: «وَالْبَاقِيَاتُ الصالِحَاتُ[(٢)]] خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا». وقيل فى بعض الروايات: لكان ما أَعطى أكثر مما أَخذ. فصيرّ الكلمة إعطاءً من العبد، والدنيا أخذًا من الله؛ فهذا

---

(١) هذا حمل منهم للحديث على الفاتحة مع آمين فى آخرها.

(٢) زيادة عن نوادر الأصول.

Marfat.com

فى التدبير[1] . كذلك يجرى فى الكلام أن هذه الكلمة من العبد، والدنيا من الله؛ وكلاهما من الله فى الأصل ، الدنيا منه والكلمة منه ؛ أعطاه الدنيا فأغناه ، وأعطاه الكلمة فشرفه بها فى الآخرة . وروى آبن ماجه عن آبن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدّثهم : "أن عبدا من عباد الله قال يارَب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك فَعَضَلَتْ بالمَلَكين فلم يدريا كيف يكتبانها فصعدا إلى السماء وقالا يارَبّنا إن عبدك قد قال مقالة لاندرى كيف نكتبها قال الله عزّ وجلّ وهو أعلم بما قال عبده ماذا قال عبدى قالا يارَبّ إنه قد قال يارَبّ لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك فقال الله لهما آكتباها كما قال عبدى حتى يلقانى فأجزيه بها " .

قال أهل اللغة : أعضل الأمر : آشتد وآستغلق ؛ والمعضّلات (بتشديد الضاد) : الشدائد. وعضَّلت المرأة والشاة : إذا نَشِب ولدها فلم يسهل مخرجه ؛ بتشديد الضاد أيضا ؛ فعلى هذا يكون : أَعْضَلت الملكين أو عَضَّلَت الملكين بغير باء . والله أعلم . ورُوى عن مسلم عن أبى مالك الأشعرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الطُّهور شَطْرُ الإيمان والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماء والأرض" وذكر الحديث .

الثانيـــة — آختلف العلماء أيُّما أفضل ؛ قول العبد : الحمد لله رب العالمين ، أو قول لا إله إلا الله ؟ فقالت طائفة : قوله الحمد لله رب العالمين أفضل ؛ لأن فى ضمنه التوحيد الذى هو لا إله إلا الله ؛ ففى قوله توحيد وحمد ؛ وفى قوله لا إله إلا الله توحيد فقط . وقالت طائفة : لا إله إلا الله أفضل ؛ لأنها تدفع الكفر والإشراك ، وعليها يقاتل الخلق ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله" . وآختار هذا القول آبن عطية قال : والحاكم بذلك قول النبىّ صلى الله عليه وسلم : " أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبل لا إله إلا الله وحده لا شريك له " .

---

(١) فى بعض نسخ الأصل : « فى التذكير » .

الثالثة — أجمع المسلمون على أن الله محمود على سائر نعمه، وأن مما أنعم الله به الإيمان، فدلّ على أن الإيمان فعله وخلقه؛ والدليل على ذلك قوله : « رَبِّ الْعالَمِينَ » . والعالَمون جملة المخلوقات، ومن جملتها الإيمان، لا كما قال القَدَرِيَّةُ : إنه خَلْقٌ لهم؛ على ما يأتى بيانه .

الرابعة — الحمد فى كلام العرب معناه الثناء الكامل؛ والألف واللام لآستغراق الجنس من المحامد؛ فهو سبحانه يستحق الحمد بأجمعه إذ له الأسماء الحسنى والصفات العلا، وقد جُمع لفظ الحمد جمع القلة فى قول الشاعر :

وأبلج محمودِ الثّناءِ خَصَصْتُه * بأفْضَلِ أقوالى وأفْضَلِ أحْمُدى

فالحمد نقيض الذم، تقول : حمدت الرجل أحْمَدُه حَمْدًا فهو حميد ومحمود؛ والتحميد أبلغ من الحمد . والحمد أعمّ من الشكر، والمحمَّد : الذى كثرت خصاله المحمودة . قال الشاعر :

* إلى الماجد القَرْمِ الجَوَادِ المُحَمَّدِ *

وبذلك سُمّى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال الشاعر[(1)] :

فَشَـقّ له مِن آسمه لِيُجِلَّه * فذو العَرْش محمودٌ وهذا مُحَمَّـدُ

والمَحْمَدة : خلاف المذمّة . وأَحْمَد الرجلُ : صار أمره إلى الحمد . وأحمدته : وجدته محمودا؛ تقول : أتيت موضع كذا فأحمدته؛ أى صادفته محمودا موافقًا، وذلك إذا رضيت سكناه أو مرعاه . ورجل حُمَدَة — مثل هُمَزَة — يكثر حمد الأشياء ويقول فيها أكثر مما فيها . وحَمَدة النار — بالتحريك — : صوت التهابها .

الخامسة — ذهب أبو جعفر الطبرى وأبو العباس المبرد إلى أن الحمد والشكر بمعنى واحد سواء، وليس بمرضى . وحكاه أبو عبد الرحمن السلمىّ فى كتاب «الحقائق» له عن جعفر الصادق وآبن عطاء . قال آبن عطاء : معناه الشكر لله؛ إذ كان منه الآمتنان على تعليمنا إياه حتى حمدناه . وآستدل الطبرى على أنهما بمعنًى بصحة قولك : الحمد لله شكرا . قال آبن عطية : وهو فى الحقيقة دليل على خلاف ما ذهب إليه؛ لأن قولك شكرا، إنما خصصت به الحمد؛ لأنه على نعمة من النعم . وقال بعض العلماء : إن الشكر أعمّ من الحمد؛ لأنه باللسان وبالجوارح

(1) هو حسان بن ثابت رضى الله عنه .

Marfat.com

والقلب؛ والحمد إنما يكون باللسان خاصّة . وقيل : الحمد أعمّ ، لأن فيه معنى الشكر ومعنى المدح ، وهو أعمّ من الشكر؛ لأن الحمد يوضع موضع الشكر ولا يوضع الشكر موضع الحمد .

ورُوى عن ابن عباس أنه قال : الحمد لله كلمةُ كل شاكر ، وإن آدم عليه السلام قال حين عَطَس : الحمد لله . وقال الله لنوح عليه السلام : « فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ »[(١)] وقال إبراهيم عليه السلام : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ »[(٢)] . وقال في قصة داود وسليمان : « وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ »[(٣)] . وقال لنبيّه صلى الله عليه وسلم : « وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا »[(٤)] . وقال أهل الجنة : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ »[(٥)] . « وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ »[(٦)] . فهو كلمة كلّ شاكر .

قلت : الصحيح أن الحمدْ ثناء على الممدوح بصفاته من غير سبق إحسان ، والشكر ثناء على المشكور بما أولى من الإحسان[(٧)] . وعلى هذا الحدّ قال علماؤنا : الحمد أعمّ من الشكر؛ لأن الحمد يقع على الثناء وعلى التحميد وعلى الشكر؛ والجزاء مخصوص إنما يكون مكافأة لمن أولاك معروفا؛ فصار الحمد أعمّ في الآية لأنه يزيد على الشكر. ويُذكر الحمد بمعنى الرضا؛ يقال : بلوته فحمدته، أي رضيته . ومنه قوله تعالى : « مَقَامًا مَحْمُودًا »[(٨)] . وقال عليه السلام : "أحمد إليكم غسل الإحليل" أي أرضاه لكم . ويذكر عن جعفر الصادق في قوله « الحمد لله » : من حمده بصفاته كما وصف نفسه فقد حمد؛ لأن الحمد حاء وميم ودال؛ فالحاء من الوحدانية ، والميم من الملك ، والدال من الدّيمومية؛ فمن عرفه بالوحدانية والديمومية والملك فقد عرفه ، وهذا هو حقيقة الحمد لله . وقال شقيق بن إبراهيم في تفسير « الحمد لله » قال : هو على ثلاثة أوجه : أولها إذا أعطاك الله شيئا تعرف من أعطاك . والثاني أن ترضى بما أعطاك . والثالث ما دامت قوته في جسدك ألا تعصيه ؛ فهذه شرائط الحمد .

---

(١) آية ٢٨ سورة المؤمنون . (٢) آية ٣٩ سورة إبراهيم . (٣) آية ١٥ سورة النمل .
(٤) آية ١١١ سورة الإسراء . (٥) آية ٣٤ سورة فاطر . (٦) آية ١٠ سورة يونس .
(٧) عقب ذلك ابن عطية في تفسيره بقوله : فالحامد من الناس قسمان : الشاكر والمثنى بالصفات . وبه يتضح كلام المؤلف . (٨) آية ٧٩ سورة الاسراء .

Marfat.com

السادسة — أثنى الله سبحانه بالحمد على نفسه، وافتتح كتابه بحمده، ولم يأذن في ذلك لغيره؛ بل نهاهم عن ذلك في كتابه وعلى لسان نبيه عليه السلام، فقال: «فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى»(١). وقال عليه السلام: "احثوا في وجوه المدّاحين التراب" رواه المقداد. وسيأتي القول فيه في «النساء»(٢) إن شاء الله تعالى.

فمعنى «الحمد لله رب العالمين»: أي سبق الحمد مني لنفسي قبل أن يحمدني أحد من العالمين، وحمدي نفسي لنفسي في الأزل لم يكن بعلة، وحمدي الخلق مشوب بالعلل. قال علماؤنا: فيستقبح من المخلوق الذي لم يعط الكمال أن يحمد نفسه ليستجلب لها المنافع ويدفع عنها المضار. وقيل: لما علم سبحانه عجز عباده عن حمده، حمد نفسه بنفسه لنفسه في الأزل؛ فاستفراغ طوق عباده هو محل العجز عن حمده. ألا ترى سيد المرسلين كيف أظهر العجز بقوله: "لا أحصي ثناء عليك". وأنشدوا:

إذا نحنُ أثنينا عليك بصالحٍ * فأنتَ كما نُثني وفوقَ الذي نُثني

وقيل: حمد نفسه في الأزل لما علم من كثرة نعمه على عباده وعجزهم عن القيام بواجب حمده فحَمِد نفسه عنهم؛ لتكون النعمة أهنأ لديهم، حيث أسقط عنهم به ثقل المِنّة.

السابعة — وأجمع القرّاء السبعة وجمهور الناس على رفع الدال من «الحمد لله». ورُوي عن سفيان بن عُيينة ورُؤْبة بن العَجّاج: «الحمدَ لله» بنصب الدال؛ وهذا على إضمار فعل. ويقال: «الحمدُ لله» بالرفع مبتدأ وخبر، وسبيل الخبر أن يفيد؛ فما الفائدة في هذا؟ فالجواب أن سيبويه قال: إذا قال الرجل الحمدُ لله بالرفع ففيه من المعنى مثل ما في قولك: حمدت الله حمدا؛ إلا أن الذي يرفع الحمد يخبر أن الحمد منه ومن جميع الخلق لله؛ والذي ينصب الحمد يخبر أن الحمد منه وحده لله. وقال غير سيبويه. إنما يتكلم بهذا تعرّضا لعفو الله ومغفرته وتعظيما له وتمجيدا؛ فهو خلاف معنى الخبر وفيه معنى السؤال. وفي الحديث: "من شغل بذكري عن مسئلتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين". وقيل: إن مدحه عزّ وجلّ لنفسه وثناءه عليها ليعلّم ذلك عباده؛ فالمعنى على هذا: قولوا الحمد لله. قال الطبري: «الحمد لله»

---

(١) آية ٣٢ سورة النجم.　(٢) راجع جـ ٥ ص ٢٤٦

Marfat.com

ثناء أثنى به على نفسه، وفى ضمنه أمرَ عباده أن يثنوا عليه؛ فكأنه قال: قولوا الحمد لله؛ وعلى هذا يجيء قولوا إياك. وهذا من حذف العرب ما يدل ظاهر الكلام عليه؛ كما قال الشاعر:

وأعلَمُ أنني سأكونُ رَمْسًا * إذا سار النَّواعِجُ[1] لا يسير

فقال السائلون لمن حفرتم * فقال القائلون لهم وزير

المعنى: المحفور له وزير، فحذف لدلالة ظاهر الكلام عليه، وهذا كثير. وروى عن ابن أبى عَبْلَة: «الحمدُ لُله» بضم الدال واللام على إتباع الثانى الأوّل؛ وليتجانس اللفظ، وطلبُ التجانس فى اللفظ كثير فى كلامهم؛ نحو: أَجُوءُك، وهو منحدُرٌ من الجبل، بضم الدال والجيم. قال:

* ... اضرب الساقينُ أُمُّك هابل *

بضم النون لأجل ضم الهمزة. وفى قراءةٍ لأهل مكة «مُرُدفين» بضم الراء إتباعا للميم، وعلى ذلك «مُقُتلين» بضم القاف. وقالوا: لإِمِّك، فكسروا الهمزة اتباعا للّام؛ وأنشد للنعمان بن بشير:

ويلِ امِّها فى هَـواءِ الجَوّ طالبـةً * ولا كهذا الذى فى الأرض مطْلوبُ[2]

الأصل: ويلٌ لأمها؛ فحذفت اللام الأولى واستثقل ضم الهمزة بعد الكسرة فنقلها للام ثم أتبع اللامَ الميمَ. وروى عن الحسن بن أبى الحسن وزيد بن عليّ: «الحمدِ لِله» بكسر الدال على إتباع الأوّل الثانى.

الثامنـــة — قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ أى مالكهم، وكل من ملك شيئا فهو ربّه؛ فالربُّ: المالك. وفى الصحاح: والرب اسم من أسماء الله تعالى، ولا يقال فى غيره إلا بالإضافة؛ وقد قالوه فى الجاهلية للملِك، قال الحارث بن حِلِّزة:

وهُوَ الربّ والشَّهيدُ على يو * م الحِيَارَيْنِ[3] والبَلاءُ بلاءُ

---

(١) النواعج من الإبل: السراع. (٢) وصف عقابا تتبع ذئبا لتصيده. وهذا البيت نسبه سيبويه فى كتابه مرة للنعمان (جـ ٢ ص ٢٧٢) وأخرى لامرئ القيس (جـ ١ ص ٣٥٣). ونسبه البغدادى فى خزانة الأدب فى الشاهد ٢٦٦ لامرئ القيس أيضا. وقد ورد فى ديوانه: * لا كالذى فى هواء الجو ... * وعلى هذا لا شاهد فيه. (٣) الحياران: موضع غزا أهله المنذر بن ماء السماء.

Marfat.com

والرب : السيد؛ ومنه قوله تعالى : «ٱذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ»(١) . وفى الحديث : "أنْ تلد الأَمَةُ ربّتها" أى سيدتها؛ وقد بيّناه فى كتاب (التذكرة) . والربّ : المصلح والمدبّر والجابر والقائم . قال الهَرَوِيّ وغيره : يقال لمن قام بإصلاح شيء وإتمامه : قد رَبّه يَرُبّه فهو رَبّ له ورابّ؛ ومنه سمى الربّانيون لقيامهم بالكتب . وفى الحديث : " هل لك من نعمة تَرُبّها عليه " أى تقوم بها وتصلحها . والربّ : المعبود؛ ومنه قول الشاعر :

أَرَبٌّ يبول الثُّعْلُبَانُ برأسه ... لَقَدْ ذلّ مَنْ بالت عليه الثعالبُ

ويقال على التكثير(٢) : ربّاه وربّبه وربّته؛ حكاه النحاس . وفى الصحاح : وربّ فلانٌ ولدَه يرُبّه ربًّا، وربّبه وترَبّبه بمعنًى؛ أى ربّاه . والمربوب : المربّى .

التاسعة — قال بعض العلماء : إن هذا الاسم هو اسم الله الأعظم؛ لكثرة دعوة الداعين به، وتأمل ذلك فى القرآن، كما فى آخر «آل عمران»(٣) وسورة «إبراهيم»(٤) وغيرهما، ولما يشعر به هذا الوصف من الصلة بين الربّ والمَرْبوب، مع ما يتضمّنه من العطف والرحمة والافتقار فى كل حال .

واختلف فى اشتقاقه؛ فقيل : إنه مشتق من التربية؛ فالله سبحانه وتعالى مدبّر لخلقه ومربّيهم، ومنه قوله تعالى : «وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ»(٥) . فسمى بنت الزوجة ربيبة لتربية الزوج لها .

فعلى أنه مدبر لخلقه ومربيهم يكون صفة فعل؛ وعلى أن الربّ بمعنى المالك والسيد يكون صفة ذات .

العاشرة — متى أدخلت الألف واللام على «ربّ» اختص الله تعالى به؛ لأنها للعهد، وإن حذفنا منه صار مشتركا بين الله وبين عباده . فيقال : الله ربّ العباد، وزيد ربّ الدار؛ فالله سبحانه ربّ الأرباب؛ يملك المالك والمملوك، وهو خالق ذلك ورازقه، وكل ربّ سواه غير خالق ولا رازق، وكل مملوك فمُملَّك بعد أن لم يكن، ومنتزع ذلك من يده، وإنما

(١) آية ٤٢ سورة يوسف .	(٢) فى النحاس : «على التكبير» .	(٣) راجع جـ ٤ ص ٣١٣ .
(٤) راجع جـ ٩ ص ٣٦٨	(٥) آية ٢٣ سورة النساء .

Marfat.com

يملك شيئا دون شيء ؛ وصفة الله تعالى مخالفة لهــذه المعانى ، فهذا الفرق بين صــفة الخالق والمخلوقين .

الحادية عشرة — قوله تعــالى :﴿ الْعَالَمِينَ ﴾ آختلف أهل التأويل فى «العالمين» آختلافا كثيرا ؛ فقال قتادة : العالَمون جمع عالَم، وهو كل موجود سوى الله تعالى ، ولا واحد له من لفظه مثل رهط وقوم . وقيل : أهل كل زمان عالم؛ قاله الحسين بن الفضل؛ لقوله تعالى : «أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ»[1] أى من الناس . وقال العَجّاج :

* فَخِنْدِفٌ هامةُ هذا العالَمِ[2] *

وقال جرير بن الخَطَفَى :

تَنَصَّفُه البريّةُ وهْوَ سامٍ * ويُضحِى العالَمون له عِيالا

وقال آبن عباس : العالَمون الجنّ والإنس ؛ دليله قوله تعالى : «لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا»[3] ولم يكن نذيرا للبهائم . وقال الفرّاء وأبو عبيدة : العــالَم عبارة عمن يعقل ؛ وهم أربعة أمم : الإنس والجنّ والملائكة والشياطين . ولا يقال للبهائم : عالَم؛ لأن هذا الجمع إنما هو جَمْع مَن يعقل خاصّة .

قال الأعشى :

* ما إنْ سمعتُ بمثلهم فى العالَمِينا *

وقال زيد بن أسلم : هم المرتزقون ؛ ونحوه قول أبى عمرو بن العلاء : هم الروحانيون . وهو معنى قول آبن عباس أيضــا : كل ذى رُوح دبّ على وجه الأرض . وقال وَهْب بن مُنَبِّه : إن لله عزّ وجلّ ثمانية عشر ألف عالَم؛ الدنيا عالَم منها . وقال أبو سعيد الخُدْرِى : إن لله أربعين ألف عالَم ؛ الدنيــا مِن شرقها إلى غربها عالَمٌ واحد . وقال مُقاتل : العالَمون ثمانون ألف عالَم، أربعون ألف عالَم فى البر، وأربعون ألف عالم فى البحر . وروى الربيــع آبن أنس عن أبى العالية قال : الجنّ عالَم ، والإنس عالَم ، وســوى ذلك للأرض أربع زوايا فى كل زاوية ألف وخمسمائة عالَم، خلقهم لعبادته .

---

(١) سورة الشعراء آية ١٦٥ (٢) خندف آسم قبيلة من العرب ، وذكر العلامة الشنقيطى أن العجاج كان ينشد : العالم؛ بالهمز والإسكان . (٣) سورة الفرقان آية ١

Marfat.com

قلت: والقول الأول أصح هذه الأقوال؛ لأنه شامل لكل مخلوق وموجود؛ دليله قوله تعالى: «قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ. قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا»(١). ثم هو مأخوذ من العَلَم والعَلَامة؛ لأنه يدل على مُوجده. كذا قال الزجاج قال: العالَم كل ما خلقه الله في الدنيا والآخرة. وقال الخليل: العَلَم والعَلَامة والمَعْلَم: ما دَلّ على الشيء؛ فالعالَم دالٌّ على أن له خالقا ومدبرا، وهذا واضح. وقد ذُكر أن رجلا قال بين يدي الجُنَيد: الحمد لله؛ فقال له: أتمها كما قال الله، قل: رَبِّ العالمين؛ فقال الرجل: ومَن العالَمين حتى تذكر مع الحق؟ قال: قل يا أخي؟ فإن المحدَث إذا قُرن مع القديم لا يبقى له أثر.

الثانية عشرة — يجوز الرفع والنصب في «ربّ» فالنصب على المدح، والرفع على القطع؛ أي هو رب العالمين.

الثالثة عشرة — قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾﴾ وصف نفسه تعالى بعد «رَبّ العالمين»، بأنه «الرحمن الرحيم»؛ لأنه لما كان في اتصافه بـ«رب العالمين» ترهيبٌ قَرَنه بـ«الرحمن الرحيم»، لما تضمن من الترغيب؛ ليجمع في صفاته بين الرهبة منه، والرغبة إليه؛ فيكون أعون على طاعته وأمنع؛ كما قال: «نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ»(٢). وقال: «غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ»(٣). وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنّته أحد ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قَنَطَ من جنّته أحد". وقد تقدّم ما في هذين الاسمين من المعاني، فلا معنى لإعادته.

الرابعة عشرة — قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾ قرأ محمد بن السَّمَيْقَع بنصب مالك؛ وفيه أربع لغات: مالِك ومَلِك ومَلْك — مخففة من مَلِك — ومَلِيك؛ قال الشاعر(٤):

وأيامٍ لنا غُرٍّ طِوالٍ * عصينا المَلْك فيها أن نَدينا

---

(١) آية ٢٣ سورة الشعراء. (٢) آية ٤٩ — ٥٠ سورة الحجر. (٣) آية ٣ سورة غافر.
(٤) هو عمرو بن كلثوم.

Marfat.com

وقال آخـــر(١) :

فاقنعْ بمـا قَسَم المليكُ فإنّمـا ۞ قَسَم الخــلائقَ بيننا علاّمُها

الخلائق : الطبائع التى جُبِل الإنسان عليها . وروى عن نافع إشباع الكسرة فى «مَلِك» فيقرأ «مَلِكى» على لغة من يشبع الحركات، وهى لغة للعرب ذكرها المهدوى وغيره .

الخامسة عشرة — آختلف العلماء أيّما أبلغ : ملك أو مالك ؟ والقراءتان مَرْوِيّتان عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر. ذكرهما الترمذى؛ فقيل: «مَلِك» أعمّ وأبلغ من «مالك» إذ كل مَلِك مالك، وليس كل مالك مَلِكا؛ ولأن أمر الملِك نافذ على المـالك فى مِلْكه، حتى لا يتصرف إلا عن تدبير الملك؛ قاله أبو عبيدة والمبرد . وقيل: «مالك» أبلغ؛ لأنه يكون مالكا للنـاس وغيرهم؛ فالمـالك أبلغ تصرُّفًا وأعظم؛ إذ إليه إجراء قوانين الشرع، ثم عنده زيادة التملّك .

وقال أبو علىّ: حكى أبو بكر بن السراج عن بعض مَن آختار القراءة بـ«ـملك» أن الله سبحانه قد وصف نفسه بأنه مالك كلّ شىء بقوله : «رَبِّ الْعَالَمِينَ» فلا فائدة فى قراءة من قرأ «مالك» لأنها تكرار . قال أبو علىّ : ولا حجة فى هذا؛ لأن فى التنزيل أشياء على هذه الصورة، تقدّم العام ثم ذكر الخاص كقوله : « هُوَ اللّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ » فالخالق يعمّ . وذكر المصوِّر لمـا فيه من التنبيه على الصنعة ووجود الحكمة؛ وكما قال تعـالى : « وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ » بعد قوله : « الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ » . والغيب يعمّ الآخرة وغيرها؛ ولكن ذكرها لعظمها، والتنبيه على وجوب آعتقادها، والردّ على الكفرة الجاحدين لها؛ وكما قال : «الرحمن الرحيم» فذكر «الرحمن» الذى هو عام وذكر «الرحيم» بعده، لتخصيص المؤمنين به فى قوله : «وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا » . وقال أبو حاتم: إن «مالكا» أبلغ فى مدح الخالق من «مَلِك»، و«ملك» أبلغ فى مدح المخلوقين من مالك؛ والفرق بينهما أن المـالك من المخلوقين قد يكون غير ملك وإذا كان الله تعالى مالكا كان ملكا، وآختار هـذا القول القاضى أبو بكر بن العربى وذكر ثلاثة

(١) هو لبيد بن ربيعة العامرى .

أوجه ؛ الأول : أنك تضيفه إلى الخاص والعام؛ فتقول : مالك الدار والأرض والثوب ، كما تقول : مالك الملوك . الثانى : أنه يطلق على مالك القليل والكثير؛ وإذا تأملت هذين القولين وجدتهما واحدا . والثالث : أنك تقول : مالك المُلْك؛ ولا تقول : ملك المُلْك . قال ابن الحصار : إنما كان ذلك لأن المراد من «مالك» الدلالة على المِلك ـ بكسر الميم ـ وهو لا يتضمن «المُلْك» ـ بضم الميم ـ و «مليك» يتضمن الأمرين جميعا فهو أولى بالمبالغة . ويتضمن أيضا الكمال، ولذلك آستحق الملك على من دونه؛ ألا ترى إلى قوله تعالى : «إِنَّ اللَّهَ ٱصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ»[1] ، ولهذا قال عليه السلام : "الإمامة فى قريش" وقريش أفضل قبائل العرب، والعرب أفضل من العَجَم وأشرف . ويتضمّن الاقتدار والاختيار، وذلك أمر ضرورى فى المَلِك، إن لم يكن قادرا مختارا نافذا حكمه وأمره، قهره عدوّه وغلبه غيره وآزدرته رعيته ؛ ويتضمن البطش والأمر والنهى والوعد والوعيد ؛ ألا ترى إلى قول سليمان عليه السلام : «مَالِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ . لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا»[2] إلى غير ذلك من الأمور العجيبة والمعانى الشريفة التى لا توجد فى المالك .

قلت : وقد آحتج بعضهم على أن مالكا أبلغ لأن فيه زيادة حرف؛ فلقارئه عشر حسنات زيادة عمن قرأ ملك . قلت : هذا نظر إلى الصيغة لا إلى المعنى ، وقد ثبتت القراءة بملك ، وفيه من المعنى ما ليس فى مالك ، على ما بينا والله أعلم .

السادسة عشرة — لا يجوز أن يتسمّى أحد بهذا الآسم ولا يدعى به إلا الله تعالى ؛ روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوى السماء بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض" وعنه أيضا عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "إن أَخْنَع آسم عند الله رجل تسمّى ملك الأملاك — زاد مسلم — لا مالك إلا الله عزّ وجلّ" قال سفيان[3] : «مثل : شاهانْ شاهْ . وقال

---

(١) سورة البقرة آية ٢٤٧ (٢) سورة النمل آية ٢٠ ، ٢١

(٣) سفيان هذا ، أحد رواة سند هذا الحديث .

Marfat.com

أحمد بن حنبل : سألت أبا عمرو الشيبانيّ عن أخنع ؛ فقال : أوْضع » . وعنـه قال قال رسـول الله صلى الله عليـه وسلم : " أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه رجل [كان] يسمى ملك الأملاك لا ملك إلا الله سبحانه" . قال آبن الحصار : وكذلك «ملك يوم الدين» و «مالك الملك» لا ينبغى أن يُختلف فى أن هذا محرّم على جميع المخلوقين كتحريم ملك الأملاك سواء ، وأما الوصف بمـالك وملك وهى :

السابعة عشرة — فيجوز أن يوصف بهما من آتصف بمفهومهما ؛ قال الله العظيم : «إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا»(١) . وقال صلى الله عليه وسلم : " ناس من أمتى عُرِضُوا علىّ غُزاةً فى سبيل الله يركبون ثَبَجَ(٢) هذا البحر ملوكا على الأسِرّة أو مثل الملوك على الأسرة".

الثامنـــة عشرة — إن قال قائل : كيف قال « مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ» ويوم الدين لم يوجد بعدُ ، فكيف وصف نفسه بملك ما لم يوجده ؟ قيل له : اعلم أن مالكا آسم فاعل من ملك يملك ، وآسم الفاعل فى كلام العرب قد يضاف إلى ما بعده وهو بمعنى الفعل المستقبل ويكون ذلك عندهم كلاما سديدا معقولا صحيحا ؛ كقولك : هذا ضارب زيد غدا ؛ أى سيضرب زيدا . وكذلك : هذا حاجّ بيت الله فى العـام المقبل ، تأويله سيحج فى العـام المقبل ؛ أفلا ترى أن الفعل قد يُنسب إليـه وهو لم يفعله بعدُ ، وإنمـا أريد به الآستقبال ؛ فكذلك قوله عزّ وجلّ : «مالك يوم الدين» على تأويل الآستقبال ، أى سيملك يوم الدِّين أو فى يوم الدين إذا حضر .

ووجه ثان : أن يكون تأويل المـالك راجعا إلى القدرة ؛ أى إنه قادر فى يوم الدين ، أو على يوم الدين وإحداثه ؛ لأن المـالك للشىء هو المتصرف فى الشىء والقادر عليه ؛ والله عزّ وجلّ مالك الأشياء كلها ومصرفها على إرادته ، لا يمتنع عليه منها شىء .

والوجه الأوّل أَمَسُّ بالعربية وأنفذ فى طريقها ؛ قاله أبو القاسم الزجاجى .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٤٧ (٢) ثبج البحر : وسطه ومعظمه .

Marfat.com

ووجه ثالث : فيقال لِمَ خصص يوم الدِّين وهو مالك يوم الدين وغيره ؟ قيل له : لأن فى الدنيا كانوا منازعين فى الملك ، مثل فرعون ونمروذ وغيرهما ، وفى ذلك اليوم لا ينازعه أحد فى ملكه ، وكلهم خضعوا له ، كما قال تعالى : « لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ »(1) فأجاب جميع الخلق : « لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ » فلذلك قال : مالك يوم الدين ؛ أى فى ذلك اليوم لا يكون مالك ولا قاض ولا مُجازٍ غيره ؛ سبحانه لا إله إلا هو .

التاسعة عشرة — إنْ وُصِف الله سبحانه بأنه مَلِكٌ كان ذلك من صفات ذاته ، وإن وُصِف بأنه مالك كان ذلك من صفات فعله .

الموفية العشرين — اليوم : عبارة عن وقت طلوع الفجر إلى وقت غروب الشمس ، فآستعير فيما بين مبتدأ القيامة إلى وقت آستقرار أهل الدارين فيهما . وقد يطلق اليوم على الساعة منه ؛ قال الله تعالى : « ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ »(2) . وجَمْعُ يومٍ أيام ؛ وأصله أَيْوَام فأدغم ؛ وربما عبّروا عن الشدة باليوم ، يقال : يوم أيْوَم ، كما يقال : ليلةٌ لَيْلاء . قال الراجز(3) :

* نِعْمَ أخو الهيجاء فى اليوم اليمى *

وهو(4) مقلوب منه ، أخّر الواو وقدّم الميم ثم قلبت الواو ياء حيث صارت طَرَفا ؛ كما قالوا : أدْلٍ فى جمع دَلْو .

الحادية والعشرون — الدِّين : الجزاء على الأعمال والحساب بها ؛ كذلك قال آبن عباس وآبن مسعود وآبن جريج وقتادة وغيرهم ، وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ و يدل عليه قوله تعالى : « يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ »(5) أى حسابهم . وقال : « ٱلْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ » و « ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ »(6) وقال : « أَئِنَّا لَمَدِينُونَ »(7) أى مجزيّون محاسبون . وقال لَبيد :

---

(1) سورة غافر آية ١٦ . (2) سورة المائدة آية ٣ . (3) هو أبو الأخزر الحمانى كما فى اللسان مادة « يوم » . (4) قوله : « وهو » أى اليمى . (5) سورة النور آية ٢٥ . (6) سورة الجاثية آية ٢٨ . (7) سورة الصافات آية ٥٣

Marfat.com

حصَادُك يومًا ما زرعتَ وإنما * يُدَانُ الفتى يومًا كما هو دائن

آخـــر :

إذا ما رمــونا رميناهـــمُ * ودِنّاهُم مثــل ما يُقرضــونا

آخـــر :

وٱعلم يقينـاً أن مُلْكك زائلٌ (١) * وٱعلم بأنّ كما تَدين تُدانُ

وحكى أهل اللغة : دِنْته بفعله دَيْنًا (بفتح الدال) ودِينا (بكسرها) جزيته؛ ومنه الدَّيّان في صفة الرب تعالى أى المجازى ؛ وفى الحديث : " الكيِّس من دان نفسه " أى حاسب . وقيل : القضاء . روى عن ٱبن عباس أيضا ؛ ومنه قول طَرَفة :

لَعَمْرُكَ ما كانت حَمُولةُ (٢) مَعْبَـدٍ * على جُدِّها (٣) حَرْبًا لدينِكَ من مُضَرْ

والمعانى هذه الثلاثة متقاربة . والدِّين أيضا : الطاعة ؛ ومنه قول عمرو بن كلثوم :

وأيامٍ لنـا غُــرٍّ طِــوالٍ * عَصينا المَــلْكَ فيها أن نَدِينا

فعلى هذا هو لفظ مشترك وهى :

الثانيــة والعشرون — قال ثعلب : دان الرجل إذا أطاع، ودان إذا عصى، ودان إذا عزّ، ودان إذا ذلّ، ودان إذا قهر؛ فهو من الأضداد . ويطلق الدِّين على العادة والشأن، كما قال :

* كدِينك من أمّ الحُوَيْرث قبلها *

وقال المُثقِّب [يذكر ناقته] :

تقول إذا دَرَأتُ لها وَضِينِي (٤) * أهــذا دينُــه أبدًا ودِينى

(١) فى اللسان مادة (دين) : « قال خويلد بن نوفل الكلابى للحارث بن أبى شمر الغسانى وكان قد اغتصبه ابنته :

يا حارِ أيقن أن ملكك زائل * ... ... » الخ

(٢) الحمولة : الإبل التى يحمل عليها . (٣) الجُدّ (بالضم) : البئر الجيدة الموضع من الكلإ . والخطاب لعمرو بن هند وقد أغار على إبل معبد أخى طرفة . (٤) درأت وضين البعير : إذا بسطته على الأرض ثم أبركته عليه لتشدّه به . والوضين : بطان منسوج بعضه على بعض يشدّ به الرحل على البعير .

Marfat.com

والدِّين : سيرة الملك . قال زُهير :

لئن حللتَ بجـوّ فى بنى أسـد * فى دِين عمرو وحالت بيننا فَدَكُ (١)

أراد فى موضع طاعة عمرو . والدِّين : الدّاء ؛ عن اللحيانى . وأنشد :

* يادِينَ قلبِك من سَلْمَى وقد دِينَا *

الثالثة والعشرون — قوله تعـالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ رجع من الغيبة إلى الخطاب على التلوين ؛ لأنّ من أول الســورة إلى هاهنا خبرًا عن الله تعـالى وثناءً عليـه ، كقوله : «وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا» (٢) . ثم قال : «إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً» . وعكسه : «حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ (٣) فى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ» على ما يأتى . و﴿ نَعْبُدُ ﴾ معناه نطيع ؛ والعبادة الطاعة والتذلل . وطريق مُعبَّـد إذا كان مذللا للسالكين؛ قاله الهَرَوِىّ . ونُطقُ المكلّف به إقرارٌ بالربوبية وتحقيقٌ لعبادة الله تعالى؛ إذ سائر الناس يعبدون سواه من أصنام وغير ذلك . ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أى نطلب العَوْن والتأييد والتوفيق .

قال السُّلَمِىّ فى حقائقه : سمعت محمد بن عبد الله بن شاذان يقول : سمعت أبا حفص الفرغانى يقول : من أقرّ بـ « إياك نعبد و إياك نستعين » فقـد برئ من الجَبْر والقَدَر .

الرابعة والعشرون — إن قيل : لم قدّم المفعول على الفعل ؟ قيل له : قدّم ٱهتماما ، وشأن العرب تقديم الأهم . يذكر أن أعرابيا سبّ آخر فأعرض المسبوبُ عنه ؛ فقال له الساب : إياك أعْنى : فقال له الآخر : وعنك أُعرض ؛ فقدّما الأهم . وأيضا لئلا يتقدّم ذكر العبد والعبادة على المعبود؛ فلا يجوز نعبدك ونستعينك ، ولا نعبد إياك ونستعين إياك ؛ فيقدّم الفعل على كناية المفعول ، و إنما يتبع لفظ القرآن . وقال العَجّاج :

إيّاك أدْعـو فتقبّـل مَلَقِى * وٱغفر خطاياى وكثّر ورِقى

(١) جو (بالجيم) كما فى الأصول والديوان . قال البكرى فى معجمه : «انه موضع فى ديار بنى أسد» واستشهد ببيت زهير هذا . وفى القاموس وشرحه فى مادة الخو ــ بالخاء المعجمة ــ : «و يوم خو لبنى أسد ، قال زهير ــ وذكر البيت ــ قال أبو محمد الأسود ومن رواه بالجيم فقد أخطأه وكان هذا اليوم لهم على بنى يربوع .. » . وفدك : موضع بخيبر . (٢) راجع جـ ١٩ ص ١٤٥ . (٣) راجع جـ ٨ ص ٣٢٤ .

Marfat.com

و يروى : وتَمَّر . وأمّا قول الشاعر[١] :

* إليكَ حتى بَلَغَتْ إيّاكا *

فشاذٌّ لا يقاس عليه . والورِق بكسر الرّاء من الدراهم ، و بفتحها المال . وكرر الآسم لئلا يتوهم إياك نعبد ونستعين غيرك .

الخامسة والعشرون — الجمهور من القرّاء والعلماء على شدّ الياء من «إياك» فى الموضعين . وقرأ عمرو بن فائد : «إِيَاك» بكسر الهمزة وتخفيف الياء، وذلك أنه كره تضعيف الياء لثقلها وكون الكسرة قبلها . وهذه قراءة مرغوب عنها، فإن المعنى يصير : شمسَك نعبد أو ضوءك ؛ وإِيَاةُ الشمس (بكسر الهمزة) : ضوءها، وقد تُفتح . وقال[٢] :

سَقَتْهُ إِيَاةُ الشّمس إلا لِثاتِه * أُسِفَّ فلم تَكْدِم عليه بإثمد

فإن أسقطت الهاء مددت . و يقال : الإياة للشمس كالهالة للقمر ، وهى الدّارة حولها . وقرأ الفضل الرّقاشىّ : «أَياك» (بفتح الهمزة) وهى لغة مشهورة . وقرأ أبو السَّوّار الغَنَوى : «هياك» فى الموضعين، وهى لغة؛ قال :

فهِيّاكَ والأمرَ الذى إن توسّعتْ * موارده ضاقت عليك مصادره

السادسة والعشرون — وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)

عطف جملة على جملة . وقرأ يحيى بن وثّاب والأعمش : «نِستعين» بكسر النون، وهى لغة تميم وأسد وقيس وربيعة، ليدل على أنه من آستعان، فكُسرت النون كما تُكسر ألف الوصل . وأصل «نستعين» نستعوِن، قلبت حركة الواو إلى العين فصارت ياء، والمصدر

---

(١) هو حميد الأرقط . والمعنى : سارت هذه الناقة إليك حتى بلغتك .

(٢) قائله طرفة بن العبد . والهاء فى «سقته» و «لثاته» يعود على الثغر ، وكذا المضمر الذى فى «أسف» . ومعنى سقته : حسنته و بيضته وأشربته حسنا . و «أسف» : ذرّ عليه . و «فلم تكدم عليه» : أى لم تعضض عظما فيؤثر فى ثغرها . (عن شرح المعلقات) .

ٱستعانة ، والأصـل ٱستعوان ؛ قلبت حركة الواو إلى العين فانقلبت ألفـا ولا يلتقى ساكنان فحذفت الألف الثانية لأنها زائدة ، وقيل الأولى لأن الثانية للمعنى ، ولزمت الهاء عِوَضًا .

السابعة والعشرون — قوله تعـالى : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ ﴾

اهدنا دعاء ورغبة من المربوب إلى الرب؛ والمعنى : دلنا على الصراط المستقيم وأرشدنا إليه ، وأرنا طريق هدايتك الموصلة إلى أنسك وقُرْبك . قال بعض العلماء : فجعل الله جلّ وعزّ عظم الدعاء وجملته موضوعا فى هـذه السورة، نصفها فيه مجمع الثناء ، ونصفها فيه مجمع الحاجات ، وجعل هذا الدعاء الذى فى هذه السورة أفضل من الذى يدعو به [الداعى] لأن هذا الكلام قد تكلم به رب العالمين، فأنت تدعو بدعاء هو كلامه الذى تكلم به؛ وفى الحديث: "ليس شىء أكرم على الله من الدعاء" . وقيل المعنى : أرشدنا باستعمال السُّنن فى أداء فرائضك؛ وقيل : الأصل فيه الإمالة؛ ومنه قوله تعالى : «إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ»(١) أى مِلْنا؛ وخرج عليه السلام فى مرضه يتهادى بين ٱثنين، أى يتمايل . ومنه الهدية؛ لأنها تمال من مِلك إلى مِلك . ومنه الهَدْىُ للحيوان الذى يساق إلى الحَرَم؛ فالمعنى مِل بقلوبنا إلى الحق . وقال الفُضيل بن عِيَاض: «الصراط المستقيم» طريق الحج، وهذا خاص والعموم أولى . قال محمد بن الحنفية فى قوله عزّ وجل « ٱهدِنا الصراط المستقيم » : هو دين الله الذى لا يقبل من العبـاد غيره . وقال عاصم الأَحْوَل عن أبى العالية : « الصراط المستقيم » رسول الله صلى الله عليه وسـلم وصاحباه من بعده . قال عاصم فقلت للحسن : إن أبا العاليـة يقول : « الصراط المستقيم » رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحباه، قال : صدق ونصح .

الثامنة والعشرون — أصل الصراط فى كلام العرب الطريق ؛ قال عامر بن الطُّفيل :

شحنَّا أرْضَهم بالخَيْل حتى　＊　تركناهم أذلّ من الصّراط

وقال جَرير :

أمير المؤمنين على صِراط　＊　إذا ٱعْوَجّ المواردُ مُستقيم

وقال آخـــر :

＊ فَصَــدّ عنْ نَهْج الصِّراطِ الواضِح ＊

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٩٦

وحكى النقاش : الصراط الطريق بلغــة الروم ؛ قال ٱبن عطية : وهــذا ضعيف جدا .
وقُرئ : السراط (بالسين) من الٱستراط بمعنى الٱبتلاع؛ كأن الطريق يسترط من يسلكه .
وقرئ بين الزاى والصاد . وقرئ بزاى خالصة والسين الأصل . وحكى سَلَمَة عن الفرّاء قال :
الزراط بإخلاص الزاى لغة لعُذْرة وكَلْب وبنى القَيْن، قال : وهؤلاء يقولون [فى أصدق] :
أزدق . وقد قالوا : الأَزْد والأَسْد، ولسق به ولصق به . و « الصِّرَاطَ » نصب على المفعول
الثانى؛ لأن الفعل من الهداية يتعدّى إلى المفعول الثانى بحرف جر؛ قال الله تعالى : «فَٱهْدُوهُمْ[1]
إِلَىٰ صِرَاطِ ٱلْجَحِيمِ » . و بغير حرف كما فى هــذه الآية . « المستقيم » صفة لـ « لصراط » .
وهو الذى لا ٱعوجاج فيه ولا ٱنحراف؛ ومنه قوله تعــالى : « وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا[2]
فَٱتَّبِعُوهُ» وأصله مُستقوِم، نقلت الحركة إلى القاف وٱنقلبت الواو ياء لٱنكسار ما قبلها .

التاسعة والعشرون — صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ .

صراط بدل من الأوّل بدل الشىء من الشىء؛[3] كقولك : جاءنى زيد أبوك . ومعناه :
أدِم هدايتنا ، فإن الإنسان قد يُهدَى إلى الطريق ثم يُقطع به . وقيــل : هو صراط آخر،
ومعناه العلم بالله جلّ وعزّ والفهم عنه؛ قاله جعفر بن محمد . ولغة القرآن « الَّذِين » فى الرفع
والنصب والجر، وهُذَيل تقول : اللَّذُون[4] فى الرفع ، ومن العرب من يقول : اللذو ، ومنهم
من يقول : الذى،[5] وسيأتى .

وفى «عليهم» عشر لغات، قرئ بعامتها : «عليهُمْ» بضم الهاء وإسكان الميم . «وعليهِم»
بكسر الهــاء وإسكان الميم . و « عليهِمِى » بكسر الهــاء والميم وإلحــاق ياء بعد الكسرة .
و « عليهِمُو » بكسر الهاء وضم الميم وزيادة واو بعد الضمة . و « عليهُمُو » بضم الهــاء والميم
كلتيهما وإدخال واو بعد الميم . و «عليهُمُ» بضم الهاء والميم من غير زيادة واو . وهذه الأوجه
الستة مأثورة عن الأئمة من القرّاء . وأوجه أربعة منقولة عن العرب غير محكية عن القرّاء :

(١) راجع جـ ١٥ ص ٧٣ (٢) راجع جـ ٧ ص ١٣٧ (٣) أى قوله تعالى : « ٱهدنا » وما بعده . (٤) قال أبو حيان فى البحر : وٱستعماله بحذف النون جائز ، كذا فى اللسان .
(٥) أى إفرادا أو جمعا فى الرفع والنصب والجر؛ كما يؤخذ من لسان العرب .

Marfat.com

« عليهمى » بضم الهاء وكسر الميم و إدخال ياء بعد الميم؛ حكاها الحسن البصرى[(١)] عن العرب . و « عليهُمِ » بضم الهاء وكسر الميم من غير زيادة ياء . و «عليهِمُ» بكسر الهاء وضم الميم من غير إلحاق واو . و «عليهِمِ» بكسر الهاء والميم ولا ياء بعد الميم . وكلها صواب؛ قاله ٱبن الأنبارى .

الموفية الثلاثين ــ قرأ عمر بن الخطاب وٱبن الزبير رضى الله عنهما « صراط مَن أنعمت عليهم » . وٱختلف الناس فى المُنْعَم عليهم؛ فقال الجمهور من المفسرين : إنه أراد صراط النّبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين . وٱنتزعوا ذلك من قوله تعالى : « وَمَنْ يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ ٱلنَّبِيِّينَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَاءِ وَٱلصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا[(٢)] » . فالآية تقتضى أن هؤلاء على صراط مستقيم، وهو المطلوب فى آية الحمد؛ وجميع ما قيل إلى هذا يرجع، فلا معنى لتعديد الأقوال والله المستعان .

الحادية والثلاثون ــ فى هذه الآية ردّ على القَدَرية والمعتزلة والإمامية، لأنهم يعتقدون أن إرادة الإنسان كافية فى صدور أفعاله منه، طاعةً كانت أو معصيةً؛ لأن الإنسان عندهم خالق لأفعاله، فهو غير محتاج فى صدورها عنه إلى ربه؛ وقد أكذبهم الله تعالى فى هذه الآية إذ سألوه الهداية إلى الصراط المستقيم؛ فلو كان الأمر إليهم والاختيار بيدهم دون ربهم لما سألوه الهداية، ولا كرروا السؤال فى كل صلاة؛ وكذلك تضرعهم إليه فى دفع المكروه، وهو ما يناقض الهداية حيث قالوا : « صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّالِّينَ » . فكما سألوه أن يهديهم سألوه ألّا يُضلّهم، وكذلك يدعون فيقولون : « رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا[(٣)] » الآية .

الثانيـــة والثلاثون ــ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّالِّينَ ﴿٧﴾

ٱختلف فى «المغضوب عليهم» و «الضالين» من هم؟ فالجمهور أن المغضوب عليهم اليهود، والضالين النصارى؛ وجاء ذلك مفسرا عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم فى حديث عَدِىّ بن حاتم وقصة إسلامه، أخرجه أبو داود الطيالسى فى مسنده، والترمذى فى جامعه . وشهد لهذا التفسير

(١) فى بعض نسخ الأصل : « الأخفش البصرى » وهو أبو الحسن سعيد بن مسعدة .
(٢) راجع جـ ٥ ص ٢٧١ .　　(٣) راجع جـ ٤ ص ١٩

Marfat.com

أيضا قوله سبحانه فى اليهود : « وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ » وقال : « وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِم »[1] وقال فى النصارى : « قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ »[2] . وقيل : «المغضوب عليهم» المشركون . و «الضالين» المنافقون . وقيل : «المغضوب عليهم» هو مَن أسقط فرض هذه السورة فى الصلاة ؛ و «الضالين» عن بركة قراءتها . حكاه السُّلَمِيّ فى حقائقه والماوردى فى تفسيره ؛ وليس بشىء . قال الماوردى : وهذا وجه مردود ؛ لأن ما تعارضت فيه الأخبار وتقابلت فيه الآثار وانتشر فيه الخلاف ، لم يجز أن يطلق عليه هذا الحكم . وقيل : «المغضوب عليهم» بأتباع البدع ؛ و «الضالين» عن سنن الهدى .

قلت : وهذا حسن ؛ وتفسير النبيّ صلى الله عليه وسلم أولى وأعلى وأحسن . و «عليهم» فى موضع رفع ؛ لأن المعنى غضب عليهم . والغضب فى اللغة الشدّة . ورجل غضوب أى شديد الخُلُق . والغَضُوب : الحية الخبيثة لشدّتها . والغَضْبَة : الدَّرَقة من جلد البعير يُطوى بعضها على بعض ؛ سُمِّيت بذلك لشدّتها . ومعنى الغضب فى صفة الله تعالى إرادة العقوبة ، فهو صفة ذات ، وإرادة الله تعالى من صفات ذاته ؛ أو نفس العقوبة ، ومنه الحديث : "إن الصدقة لتطفئ غضب الرب" فهو صفة فعل .

الثالثة والثلاثون — ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ الضلال فى كلام العرب هو الذهاب عن سَنَن القصد وطريق الحق ؛ ومنه : ضل اللبن فى الماء أى غاب . ومنه : «أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ» أى غبنا بالموت وصرنا ترابا ؛ قال :

ألم تسألْ فتخبِرَك الدِّيارُ * عن الحىِّ المُضَلَّل أينَ ساروا

والضُّلَضِلَة : حجر أملس يردّده الماء فى الوادى . وكذلك الغضبة : صخرة فى الجبل مخالفةٌ لونَه ، قال :

* أو غَضْبَةٍ فى هَضْبَةٍ ما أمْنَعا *

الرابعة والثلاثون — قرأ عمر بن الخطاب وأُبَيّ بن كعب « غير المغضوب عليهم وغير الضالين » وروى عنهما فى الراء النصب والخفض فى الحرفين ؛ فالخفض على البدل من «الذين»

(١) راجع جـ ١٦ ص ٢٦٥ (٢) راجع جـ ٦ ص ٢٥٢

Marfat.com

أو من الهاء والميم فى «عليهم» ؛ أو صفة للذين والذين معرفة ولا توصف المعارف بالنكرات ولا النكرات بالمعارف، إلا أنّ الذين ليس بمقصود قصدهم فهو عام؛ فالكلام بمنزلة قولك : إنى لأمُرّ بمثلك فأكرمه؛ أو لأن «غير» تعرّفت لكونها بين شيئين لا وسط بينهما، كما تقول: الحىّ غير الميت، والساكن غير المتحرك، والقائم غير القاعد، قولان . الأوّل للفارسىّ، والثانى الزمخشرىّ . والنصب فى الراء على وجهين : على الحال من الذين، أو من الهاء والميم فى عليهم، كأنك قلت : أنعمت عليهم لا مغضوبا عليهم . أو على الاستثناء، كأنك قلت : إلا المغضوب عليهم . ويجوز النصب بأعنى؛ وحُكى عن الخليل .

الخامسة والثلاثون — «لا» فى قوله «ولا الضالين» اختلف فيها، فقيل هى زائدة ؛ قاله الطبرىّ . ومنه قوله تعالى : « مَامَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ »(١) . وقيل : هى تأكيد دخلت لئلا يتوهم أن الضالين معطوف على الذين، حكاه مكىّ والمهدوىّ . وقال الكوفيون : «لا» بمعنى غير، وهى قراءة عمر وأُبَىّ؛ وقد تقدّم .

السادسة والثلاثون — الأصل فى «الضالين» : الضاللين حذفت حركة اللام الأولى ثم أدغمت اللام فى اللام فاجتمع ساكنان مدّة الألف واللام المدغمة . وقرأ أيوب السختيانىّ : «ولا الضألين» بهمزة غير ممدودة؛ كأنه فرّ من التقاء الساكنين وهى لغة . حكى أبو زيد قال: سمعت عمرو بن عُبيد يقرأ : « فَيَوْمَئِذٍ لَايُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَأْنٌّ »(٢) . فظننته قد لحن حتى سمعت من العرب : دأبّة وشأبّة . قال أبو الفتح : وعلى هذه اللغة قول كُثَيِّر :

* إذا ما العَوَالى بالعبيط احمأرّت *(٣)

نجز تفسير سورة الحمد ؛ ولله الحمد والمنّة .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١٧٠ (٢) راجع جـ ١٧ ص ١٧٤ (٣) كذا ورد هذا الشطر فى جميع نسخ الأصل وتفسير ابن عطية وأبى حيان والبيت كما فى ديوانه واللسان مادة (جنن) :

وأنت ابنَ لَيْلَى خير قومك مشهدا * اذا ما احمأرّت بالعبيط العواملُ

وهو من قصيدة يمدح بها عبد العزيز بن مروان . وعوالى الرماح : أسنّتها؛ وأحدتها عالية . والعبيط : الدم الطرى . واحمرّ الشىء، واحمأرّ بمعنى .

Marfat.com

تفسير سورة البقرة

" بحول الله وكرمه ، لاربّ سواه "

وأوّل مبدوء به الكلامُ فى نزولها وفضلها وما جاء فيها ؛ وهكذا كلّ سورة إن وجدنا لها ذلك ؛ فنقول :

ســورة البقرة مَدَنيّــة ، نزلت فى مُدَد شتّى . وقيل : هى أوّل ســورة نزلت بالمدينة، إلا قوله تعالى : « وَٱتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللهِ » (1) فإنه آخر آية نزلت من السماء ، ونزلت يوم النَّحْر فى حِجّة الوَدَاع بِمِنًى ؛ وآيات الربا أيضا من أواخر ما نزل من القرآن .

وهــذه السورة فضلها عظيم وثوابها جسيم . ويقال لهــا : فسطاط القرآن ؛ قاله خالد ٱبن مَعْدَان . وذلك لعظمها وبهائها، وكثرة أحكامها ومواعظها . وتعلّمها عمر رضى الله عنه بفقهها وما تحتوى عليه فى ٱثنتى عشرة سنة ، وٱبنُه عبدُ الله فى ثمــانى سنين كما تقدّم .

قال ٱبن العربى : سمعت بعض أشياخى يقول : فيها ألفُ أمْر وألف نَهْى وألف حُكْم وألف خبر . وبَعَثَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بَعْثًا وهم ذوو عدد وقدّم عليهم أحدثَهم سِــنًّا لحفظه سورة البقرة، وقال له : "ٱذهب فأنت أميرهم" أخرجه الترمذى عن أبى هريرة وصححه . وروى مسلم عن أبى أمامة الباهلىّ قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "ٱقرءوا سورة البقرة فإنّ أخذها بركة وتركها حسرة ولا يستطيعها البَطَلة" ، قال معاوية (2) : بلغنى أن البطلة : السحرة . وروى أيضا عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليــه وسلم قال : "لا تجعلوا بيوتكم مقابر إنّ الشيطان ينفر من البيت الذى تُقرأ فيــه سورة البقرة" . وروى الدارمىّ عن عبد الله قال : ما من بيت يُقرأ فيــه سورة البقرة إلا خرج منه الشيطان وله ضراط . وقال : إن لكل شىء سَناما و إن سَنام القرآن سورةُ البقرة، وإن لكل شىء لُبابا و إن لُباب القرآن المفصّل . قال أبو محمد الدارمىّ : اللُّباب : الخالص . وفى صحيح البُسْتِىّ

(1) راجع جـ ٣ ص ٣٧٥ (2) معاوية هذا ، هو أحد رواة سند هذا الحديث .

Marfat.com

عن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن لكل شيء سَناما وإن سَنام القرآن سورة البقرة ومن قرأها في بيته ليلًا لم يدخل الشيطان بيته ثلاثَ ليال ومن قرأها نهارا لم يدخل الشيطان بيتــه ثلاثة أيام" . قال أبو حاتم البُسْتِيّ : قوله صــلى الله عليه وســلم : "لم يدخل الشيطان بيته ثلاثة أيام" أراد: مردة الشياطين . وروى الدّارِميّ في مسنده عن الشَّعْبِيّ قال قال عبدالله : مَن قرأ عشر آيات مِن ســورة البقرة في ليلة لم يدخل ذلك البيت شيطان تلك الليلة حتى يُصبح ؛ أربعا من أوّلها وآية الكرسي وآيتين بعدها وثلاثا خواتيمها ، أوّلهـا : « لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ » . وعن الشعبي عنــه : لم يَقربه ولا أهلَه يومئذ شــيطان ولا شيء يكرهه ، ولا يُقْرَأُن على مجنون إلا أفاق . وقال المغيرة بن سبيع — وكان من أصحاب عبد الله — : لم ينس القرآن . وقال إسحاق بن عيسى : لم ينس ما قــد حَفظ . قال أبو محمد الدارمي : منهم من يقول : المغيرة بن سميع .

وفي كتاب الاستيعاب لابن عبد البر : وكان لَبِيد بن ربيعة [بن عامر](١) بن مالك بن جعفر ابن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة من شعراء الجاهلية ، أدرك الإسلام فحَسُن إسلامه وترك قولَ الشعر في الإسلام ، وسأله عمر في خلافته عن شعره واستنشده ؛ فقرأ سورة البقرة ؛ فقال : إنما سألتك عن شعرك ؛ فقال : ما كنتُ لأقول بيتًا من الشعر بعد إذ علّمني الله البقرة وآل عمران ؛ فأعجب عمر قولُه ؛ وكان عطاؤه ألفين فزاده خمسمائة . وقد قال كثير من أهل الأخبار : إن لبيدا لم يقل شعرا منذ أسلم . وقال بعضهم : لم يقل في الإسلام إلا قوله :

الحمـــد لله إذ لم يأتني أجـــلِي * حتى اكتسيْتُ من الإسلام سِرْبالا

قال ابن عبد البر : وقد قيل إن هذا البيت لقَرَدَة بن نُفَاثَة السّلولي ، وهو أصح عندي . وقال غيره : بل البيت الذي قاله في الإسلام :

ما عاتب المرءَ الكريمَ كنفسه * والمرءُ يصلحه القَرِينُ الصالح

وسيأتي ما ورد في آية الكرسي وخواتيم البقرة(٢) ، و يأتي في أوّل سورة آل عمران(٣) زيادة بيان لفضل هذه السورة ، إن شاء الله تعالى .

(١) الزيادة عن كتاب الاستيعاب (جـ ١ ص ٢٣٥) طبع الهند .	(٢) راجع جـ ٣ ص ٢٦٨ ، ٤٣١
(٣) راجع جـ ٤ ص ٢

Marfat.com

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

" رب يسـر وأعن "

قوله تعالى : الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٢﴾

آختلف أهل التأويل فى الحروف التى فى أوائل السور؛ فقال عامر الشَّعْبِيّ وسفيان الثَّوْرِيّ وجماعةٌ من المحدّثين : هى سِرّ الله فى القرآن ، ولله فى كل كتاب من كُتُبه سِرٌّ . فهى من المتشابه الذى آنفرد الله تعالى بعلمه ، ولا يجب أن يُتكلّم فيها[1] ، ولكن نؤمن بها ونقرأ كما جاءت . وروى هذا القول عن أبى بكر الصديق وعن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنهما . وذكر أبو الليث السَّمَرْقَنْدِيّ عن عمر وعثمان وآبن مسعود أنهم قالوا : الحروف المقطّعة من المكتوم الذى لا يُفَسَّر . وقال أبو حاتم : لم نجد الحروف المقطّعة فى القرآن إلا فى أوائل السُّوَر ، ولا ندرى ما أراد الله جلّ وعزّ بها .

قلت : ومن هـذا المعنى ما ذكره أبو بكر الأنبارى : حدّثنا الحسن بن الحُبَاب حدّثنا أبو بكر بن أبى طالب حدّثنا أبو المنـذر الواسطى عن مالك بن مِغْوَل عن سعيد بن مسروق عن الربيع بن خُثَيم[2] قال : إن الله تعالى أنزل هذا القرآن فآستأثر منه بعلم ما شاء ، وأطلعكم على ماشاء ، فأما ما آستأثر به لنفسه فلستم بنائليه فلا تسألوا عنه ، وأما الذى أطلعكم عليه فهو الذى تسألون عنه وتخبرون به[3] ، وما بكل القرآن تعلمون ، ولا بكل ما تعلمون تعملون . قال أبو بكر : فهذا يوضّح أن حروفا من القـرآن سُترت معانيها عن جميع العالَم ، آختبارا من الله عزّ وجلّ وآمتحانا ؛ فمن آمن بها أثيب وسعد ، ومَن كفر وشكّ أثِم وبَعُد . حدّثنا أبو يوسف بن يعقوب القاضى حدّثنا محمد بن أبى بكر حدّثنا عبد الرحمن بن مهدى عن سفيان عن الأعمش عن عمارة عن حُرَيث بن ظُهَير عن عبـد الله قال : ما آمن مؤمن أفضل من إيمانٍ بغيب ؛ ثم قرأ : « ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ » .

---

(١) فى نسخة من الأصل : « ولا يجوز أن نتكلم فيها ... وتمرّ كما » الخ . وفى نسخة : « وتقرّ كما جاءت » .

(٢) قال صاحب تهذيب التهذيب : « فى التقريب الربيع بن خثيم » بضم المعجمة وفتح المثلثة . ولكن فى الخلاصة بفتح المعجمة والمثلثة بينهما تحتانية ساكنة .

(٣) فى نسخة من الأصل : « تجزون به » .

قلت : هــذا القول فى المتشابه ومحكمه ، وهو الصحيح على ما يأتى بيانه فى (آل عمران) إن شاء الله تعــالى (١) . وقال جمع من العلماء كبير : بل يجب أن نتكلم فيهــا ، ونلتمس الفوائد التى تحتها ، والمعانى التى تتخرج عليهــا ؛ وٱختلفوا فى ذلك على أقوال عديدة ؛ فروى عن ٱبن عباس وعلى أيضا : أن الحروف المقطعة فى القرآن ٱسم الله الأعظم ، إلا أنا لا نعرف تأليفه منها . وقال قُطْرُب والفرّاء وغيرهما : هى إشارة إلى حروف الهجاء أعلم الله بها العــرب حين تحــدّاهم بالقرآن أنه مؤتلف من حروف هى التى منها بناء كلامهم ؛ ليكون عجزهم عنــه أبلغ فى الحجــة عليهم إذ لم يخرج عن كلامهم . قال قُطْرُب : كانوا ينفرون عند ٱستماع القرآن ، فلما سمعوا : « الٓمٓ » و « الٓمٓصٓ » ٱستنكروا هذا اللفظ ، فلما أَنْصَتوا له صلّى الله عليه وسلّم أقبل عليهم بالقرآن المؤتلف ليثبته فى أسماعهم وآذانهم ويقيم الحجة عليهم . وقال قوم : روى أن المشركين لمــا أعرضوا عن سماع القرآن بمكة وقالوا : « لَا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا ٱلْقُرْآنِ وَٱلْغَوْا فِيهِ » (٢) نزلت ليستغربوها فيفتحون لهــا أسماعهم فيسمعون القرآن بعدها فتجب عليهم الحجة . وقال جماعة : هى حروف دالة على أسماء أخذت منها وحذفت بقيّتها ؛ كقول ٱبن عباس وغيره : الألف من الله ، واللام من جبريل ، والميم من محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : الألف مفتاح ٱسمه الله ، واللام مفتاح ٱسمــه لطيف ، والميم مفتاح ٱسمه مجيــد . وروى أبو الضُّحَى عن ٱبن عباس فى قوله : « الٓمٓ » قال : أنا الله أعلم ، « الٓر » أنا الله أرى ، « الٓمٓصٓ » أنا الله أَفْصِل . فالألف تؤدّى عن معنى أنا ، واللام تؤدّى عن ٱسم الله ، والميم تؤدّى عن معنى أعلم . وٱختار هذا القول الزجاج وقال : أذهب إلى أن كل حرف منها يؤدّى عن معنًى ؛ وقد تكلمت العرب بالحروف المقطعة نظمًا لهــا ووضعًا بدل الكلمات التى الحروف منها ، كقوله :

* فقلت لهــا قِفِى فقالت قاف *

أراد : قالت وقفت . وقال زهير :

بالخــير خيراتٍ وإن شــرًّا فَا * ولا أريــد الشر إلا أنْ تَا

أراد : وإن شرًّا فشرٌّ . وأراد : إلا أن تشاء .

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٩		(٢) راجع جـ ١٥ ص ٣٥٦

Marfat.com

وقال آخر :

نادوهــم ألَا ٱلجُــو ألَا تَا * قالــوا جميعا كلهـــم ألَا فَا

أراد : ألا تركبون ، قالوا : ألا فآركبوا . وفي الحـديث : "مَن أعان على قتـل مسلم بشـطر كلمة" قال شقيق : هو أن يقول في آقتـل : أقْ ؛ كما قال عليه السـلام "كفى بالسيف شا" معناه : شافيًا .

وقال زيد بن أسلم : هي أسماء للسُّوَر . وقال الكلبي : هي أقسام أقسم الله تعـالى بها لشرفها وفضلها ، وهي من أسمائه ؛ عن آبن عباس أيضا . وردّ بعض العلماء هذا القول فقال: لا يصح أن يكون قَسَمًا لأن القسم معقود على حروف مثل : إنّ وقـد ولقد وما ؛ ولم يوجد هاهنا حرف من هذه الحروف، فلا يجوز أن يكون يمينا . والجواب أن يقال : موضع القَسَم قوله تعـالى : « لا رَيْبَ فِيهِ » فلو أن إنسانا حلف فقال : والله هذا الكتاب لَا رَيْبَ فيه ؛ لكان الكلام سديداً ، وتكون « لا » جواب القَسَم . فثبت أن قول الكلبي وما رُوي عن آبن عباس سديد صحيح .

فإن قيل : ما الحكمة في القَسَم من الله تعـالى، وكان القوم في ذلك الزمان على صنفين : مصدّق، ومكذّب؛ فالمصدق يصدق بغير قَسَم، والمكذب لا يصدق مع القَسَم؟ . قيل له : القرآن نزل بلغـة العرب ؛ والعرب إذا أراد بعضهم أن يؤكد كلامه أقسم على كلامه ؛ والله تعـالى أراد أن يؤكد عليهم الحجة فأقسم أن القرآن من عنـده . وقال بعضهم : « الٓمٓ » أي أنزلت عليك هـذا الكتاب من اللوح المحفوظ . وقال قتادة في قوله : « الٓمٓ » قال آسم من أسماء القرآن . وروى عن محمد بن عليّ الترمذي أنه قال : إن الله تعالى أوْدع جميع ما في تلك السورة من الأحكام والقصص في الحروف التي ذكرها في أوّل السورة،ولا يعرف ذلك إلا نبيّ أو وليّ ، ثم بيّن ذلك في جميع السورة ليفقّه الناس . وقيل غير هذا من الأقوال؛ فالله أعلم .

والوقف على هـذه الحروف على السكون لنقصانها إلا إذا أخبرت عنها أو عطفتها فإنك تعربها . وآختلف : هل لها محل من الإعراب؟ فقيل :لا ؛ لأنها ليست أسماء متمكنة، ولا أفعالا مضارعة ؛ وإنما هي بمنزلة حروف التهجّي فهي مَحْكِيّة. هذا مذهب الخليل وسيبويه .

Marfat.com

ومن قال : إنها أسماء السُّوَر فموضعها عنده الرفع على أنها عنده خبر ٱبتداء مضمر؛ أى هـذه « الٓمٓ »؛ كما تقول: هذه سورة البقرة. أو تكون رفعًا على الابتداء والخبر ذلك؛ كما تقول : زيد ذلك الرجل . وقال ٱبن كَيْسان النحوى : « الٓمٓ » فى موضع نصب؛ كما تقول : ٱقرأ « الٓمٓ » أو عليك « الٓمٓ ». وقيل: فى موضع خفض بالقسم؛ لقول ٱبن عباس : إنها أقسام أقسم الله بها .

قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ﴾ قيل: المعنى هذا الكتاب. و«ذلك» قد تستعمل فى الإشارة إلى حاضر، وإن كان موضوعا للإشارة إلى غائب؛ كما قال تعالى فى الإخبار عن نفسـه جلّ وعزّ : « ذَٰلِكَ عَالِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ »(١)؛ ومنه قول خُفَاف بن نُدْبة :

أقول له والرّمحُ يأطِرُ(٢) مَتْنَه　*　تأمّل خُفافا إننى أنا ذلكا

أى أنا هذا. فـ«ذلك» إشارة إلى القرآن، موضوع موضع هذا، تلخيصه: الٓمٓ هذا الكتاب لا ريب فيه. وهذا قول أبى عبيدة وعكرمة وغيرهما؛ ومنه قوله تعالى : « وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ »(٣) « تِلْكَ آيَاتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ »(٤) أى هذه؛ لكنها لمـا ٱنقضت صارت كأنها بَعُدَت فقيـل تلك . وفى البخارى « وقال معمر ذلك الكتاب هذا القرآن » . ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ بيان ودلالة؛ كقوله : « ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ »(٥) هذا حكم الله .

قلت : وقد جاء «هذا» بمعنى «ذلك»؛ ومنه قوله عليه السلام فى حديث أُمّ حَرَام : " يركبون ثَبَجَ(٦) هذا البحر " أى ذلك البحر؛ والله أعلم . وقيل : هو على بابه إشارة إلى غائب .

وٱختلف فى ذلك الغائب على أقوال عشرة؛ فقيل : «ذلك الكتاب» أى الكتاب الذى كتبتُ على الخلائق بالسعادة وٱلشقاوة والأجل والرزق لا رَيْب فيه؛ أى لا مبدِّل له . وقيل: ذلك الكتاب؛ أى الذى كتبتُ على نفسى فى الأزل " أن رحمتى سبقت غضبى ". وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : " لمـا قضى الله الخلق كتب فى كتابه على نفسه فهو موضوع عنده أنّ رحمتى تغلب غضبى " فى رواية : "سبقت". وقيل:

(١) سورة السجدة آية ٦　(٢) يأطر : يثنى .　(٣) سورة الأنعام آية ٨٣ .
(٤) سورة البقرة آية ٢٥٢　(٥) سورة الممتحنة آية ١٠　(٦) ثبج البحر : وسطه ومعظمه .

Marfat.com

إن الله تعالى قد كان وعد نبيّه عليه السلام أن ينزل عليه كتابا لا يمحوه المـاء، فأشار إلى ذلك الوعد كما فى صحيح مسلم من حديث عياض بن حِمَار المجاشعى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب وقال إنمـا بعثتك لأبتليك وأبتلى بك وأنزلت عليـك كتابا لا يغسله المـاء تقرؤه نائمـا و يقظانَ " الحديث . وقيل : الإشارة إلى ما قـد نزل من القرآن بمكة . وقيل : إن الله تبارك وتعالى لمـا أنزل على نبيّه صلى الله عليه وسلم بمكة : « إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا »[1] لم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم مستنيرًا لإنجاز هـذا الوعد من ربّه عزّ وجلّ ؛ فلما أنزل عليه بالمدينة : « الٓمٓ . ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ » كان فيه معنى هـذا القرآن الذى أنزلته عليك بالمدينة، ذلك الكتاب الذى وعدتك أن أوحيه إليك بمكة. وقيل: إن «ذلك» إشارة إلى ما فى التوراة والإنجيل . و « الٓمٓ » اسم للقـرآن، والتقدير هـذا القرآن ذلك الكتاب المفسر فى التـوراة والإنجيل، يعنى أن التوراة والإنجيل يشهدان بصحته و يستغرق ما فيهما و يزيد عليهما ما ليس فيهما . وقيل : إن «ذلك الكتاب» إشارة إلى التوراة والإنجيل كليهما، والمعنى : الٓمٓ ذانك الكتابان أو مثل ذَيْنِك الكتابين ؛ أى هذا القرآن جامع لمـا فى ذَيْنِك الكتابين ؛ فعبّر بـ«ذلك» عن الاثنين بشاهد من القرآن، قال الله تبارك وتعالى : « إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ » أى عَوان بين تَيْنِك : الفارض والبكر، وسيأتى[2]. وقيل: إن «ذلك» إشارة إلى اللّوح المحفوظ. وقال الكسائى: «ذلك» إشارة إلى القرآن الذى فى السماء لم ينزل بعدُ . وقيل : إن الله تعالى قد كان وعد أهل الكتاب أن ينزل على محمد صلى الله عليه وسلم كتابا، فالإشارة إلى ذلك الوعد . قال المبرّد : المعنى هذا القرآن ذلك الكتاب الذى كنتم تستفتحون به على الذين كفروا. وقيل : إلى حروف المعجم فى قول من قال : « الم » الحروف التى تحدّيتكم بالنظم منها .

والكتاب مصـدر من كَتَبَ يَكْتُبُ إذا جمع، ومنه قيـل : كَتيبة، لاجتماعها. وتكتّبت الخيل صارت كتائب ، وكَتَبْتُ البغلة : إذا جمعتَ بين شُفْرَىْ رَحِمِها بحلْقة أو سَيْر، قال :

لا تأمَنَنّ فَزارِيًّا خَلَوْتَ به ... على قَلُوصك واكْتُبْها بأسيار

(١) سورة المزمل آية ٥ (٢) آية ٦٨ راجع ص ٤٤٨ من هذا الجزء .

Marfat.com

والكُتْبة (بضم الكاف) : الخُرْزَة، والجمع كُتَبٌ . والكَتْبُ : الخَرْز . قال ذو الرُّمة :

وَفْراءَ غَرْفِيّةٍ أَثْأَى خَوارِزُها * مُشَلْشِلٌ ضيّعته بينها الكُتَبُ [(١)]

والكتاب : هو خط الكاتب حروف المعجم مجموعة أومتفرقة؛وسُمّى كتابا وإن كان مكتوبا؛ كما قال الشاعر :

تُؤمِّلُ رجْعــةً منّى وفيهــا * كتابٌ مثلَ ما لصِق الغِرَاء

والكتاب : الفَرْض والحُكم والقدَر؛ قال الجَعْدِىّ :

يا ٱبنةَ عمّى كتاب الله أخرجنى * عنكم وهل أمنعنّ الله ما فعلا

قوله تعالى : ﴿لَا رَيْبَ﴾ نفى عام؛ ولذلك نُصب الريب به . وفى الرَّيْب ثلاثة معان :

أحدها — الشك؛ قال عبد الله بن الزِّبَعْرَى :

ليس فى الحق يا أُمَيْمةُ ريْبٌ * إنمــا الرَّيبُ مايقول الجهول

وثانيها — التُّهَمَة؛ قال جميل :

بُثَينةُ قالت يا جَميلُ أَرَبْتَنِي * فقلت كلانا يا بثين مُريب

وثالثها — الحاجة؛ قال [(٢)] :

قضينا من تِهَامةَ كلَّ ريْب * وخَيْــبَرَ ثم أَجْمَعْنَا الســيوفا

فكتاب الله تعالى لا شك فيــه ولا ٱرتياب؛والمعنى: أنه فى ذاته حق وأنه منزل من عند الله، وصفة من صفاته ، غير مخلوق ولا مُحْدَث، وإن وقع ريب للكفار . وقيل : هو خبر ومعناه النهى؛ أى لا ترتابوا، وتم الكلام كأنه قال ذلك الكتاب حقا. وتقول: رابنِى هذا الأمرُ إذا أدخل عليــك شكًّا وخوفًا . وأراب : صار ذا رِيبة؛ فهو مُرِيب . ورابنى أمره . ورَيْبُ الدهر : صروفه .

قوله تعالى : ﴿فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ فيه ست مسائل :

---

(١) قوله : «وفراء» أى واسعة . و«غرفية» : مدبوغة بالغرف، وهو نبت تدبغ به الجلود . والثَّأْى والثَّأَى (بسكون الهمزة وفتحها) : خرم خرز الأديم . والمشلشل : الذى يكاد يتصل قطره وسيلانه لتتابعه .

(٢) هو كعب بن مالك الأنصارى؛ كما فى اللسان مادة (ريب) .

Marfat.com

الأولى – قوله تعالى : ﴿فِيهِ﴾ الهاء فى «فيه» فى موضع خفض بنى، وفيه خمسة أوجه؛ أجودها : فيهِ هُـدى . و يليه فيهُ هُدى (بضم الهاء بغير واو)[١] وهى قراءة الزُّهْرِى وسلّام أبى المنذر. و يليه فيهِى هُدى (بإثبات الياء) وهى قراءة آبن كثير. و يجوز فيهُو هُدى (بالواو). و يجوز فيه هدى (مدغما) وآرتفع «هدى» على الابتداء والخبر «فيه». والهُدَى فى كلام العرب معناه الرشد والبيان؛ أى فيه كشف لأهل المعرفة ورشدٌ وزيادةُ بيان وهُدًى .

الثانيـــة – الهُدَى هُديان : هُـدَى دلالة ، وهو الذى تقدر عليه الرسل وأتباعهم ؛ قال الله تعالى : « وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ »[٢]. وقال : « وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ »[٣] فأثبت لهم الهدى الذى معناه الدلالة والدعوة والتنبيه؛ وتفرّد هو سبحانه بالهدى الذى معناه التأييد والتوفيـق ، فقال لنبيّه صلّى الله عليه وسلّم : « إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ »[٤] فالهدى على هـذا يجىء بمعنى خلق الإيمان فى القلب؛ ومنه قوله تعالى : «أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ» وقوله : « وَيَهْدِى مَنْ يَشَاءُ » . والهُدَى : الاهتداء، ومعناه راجع إلى معنى الإرشاد كيفما تصرفت . قال أبو المعالى : وقد ترد الهـداية والمراد بهـا إرشاد المؤمنـين إلى مسالك الجنان والطرق المفضية إليها ؛ من ذلك قوله تعالى فى صفة المجاهدين : «فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ . سَيَهْدِيهِمْ»[٥] ومنه قوله تعالى : فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ »[٦] معناه فآسلكوهم إليها .

الثالثـــة – الهدى لفظ مؤنّث . .قال الفرّاء : بعض بنى أسـد تؤنّث الهدى فتقول : هذه هُدًى حسـنة . وقال اللّحيانى : هو مذكّر، ولم يعرب لأنه مقصور والألف لا تتحرّك ، و يتعدّى بحرف و بغير حرف وقد مضى فى «الفاتحة»[٧]، تقول: هديْتُه الطريق و إلى الطريق، والدارَ و إلى الدار؛ أى عرّفته. الأولى لغة أهل الحجاز، والثانية حكاها الأخفش. وفى التنزيل: « اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ »[٧] و «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَانَا لِهَذَا »[٨] . وقيل: إن الهُدَى آسم من أسماء النهار ؛ لأن الناس يهتدون فيه لمعايشهم و جميع مآربهم؛ ومنه قول آبن مُقْبِل :

(١) أى بعد الهاء من «فيه» . (٢) راجع جـ ٩ ص ٢٨٥ (٣) راجع جـ ١٦ ص ٦٠
(٤) راجع جـ ١٣ ص ٢٩٩ (٥) راجع جـ١٦ ص ٢٣٠ (٦) راجع جـ ١٥ ص ٧٣
(٧) راجع ص ١٤٦ من هذا الجزء. (٨) راجع جـ ٧ ص ٢٠٨

Marfat.com

[حتى ٱستبَنْتُ الهُدَى والبِيـدُ هاجِمَةٌ * يَخشعْنَ فى الآل غُلْفًا أو يُصـلِّينا] (١)

الرابعـــة ــ قوله تعالى : ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ خصّ الله تعالى المتقين بهدايته و إن كان هدى للخلق أجمعين تشريفًا لهم ؛ لأنهـم آمنوا وصدّقوا بما فيـه . وروى عن أبى رَوْق أنه قال : «هُدًى للمتقين» أى كرامة لهم؛ يعنى إنما أضاف إليهم إجلالا لهم وكرامةً لهم و بيانًا لفضلهم . وأصل «للمتقين» : للموتقيين بياءين مخففتين، حذفت الكسرة من الياء الأولى لثقلها ثم حذفت الياء لٱلتقاء الساكنين وأبدلت الواو تاء على أصلهم فى ٱجتماع الواو والتاء وأدغمت التـاء فى التاء فصار للمتقين .

الخامســـة ــ التقوى يقال أصلها فى اللغـة قلّة الكلام؛ حكاه ٱبن فارس . قلت : ومنه الحديث: "التَّقِيُّ مُلْجَم والمتَّقِي فوق المؤمن والطائع" وهو الذى يتقى بصالح عمله وخالص دعائه عذاب الله تعالى، مأخوذ من ٱتقاء المكروه بما تجعله حاجزا بينك و بينه؛ كما قال النابغة :

سقط النَّصِيفُ (٢) ولم ترد إسقاطه * فتناولتـــه وٱتقّتـــنا باليـــد

وقال آخر :

فألقت قناعًا دونه الشمس وٱتّقت * بأحسن موصـــولين كَفٍّ ومِعصِم

وخرّج أبو محمد عبد الغنى الحافظ من حديث سعيد بن زَرْبِى أبى عبيدة عن عاصم بن بَهْدَلَة عن زِرّ بن حُبيش عن ٱبن مسـعود قال قال يوما لٱبن أخيـه : يٱبن أخى ترى النـاس ما أكثرهم ؟ قال : نعـم ؛ قال : لا خير فيهـم إلا تائب أو تقى . ثم قال : يٱبن أخى ترى النـاس ما أكثرهم ؟ قلت : بلى ؛ قال : لا خير فيهـم إلا عالم أو متعـلم . وقال أبو يزيد البِسْطامى : المتّقِى من إذا قال قال لله، ومن إذا عمل عمل لله . وقال أبو سليمان الدّارانى : المتقون الذين نزع الله عن قلوبهم حبّ الشهوات . وقيـل : المتقى الذى ٱتقى الشرك و برئ من النفاق . قال ٱبن عطية : وهذا فاسد؛ لأنه قد يكون كذلك وهو فاسق . وسأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه أُبَيًّا عن التقوى؛ فقال : هل أخذت طريقا ذا شوك ؟ قال : نعم ؛

(١) هذا البيت ساقط فى جميع الأصول؛ والزيادة من اللسان مادة (هدى) والبحر المحيط فى هذا الموضوع .
(٢) النصيف : ثوب تتجلل به المرأة فوق ثيابها كلها؛ سمى نصيفا لأنه نصف بين الناس و بينها فحجز أبصارهم عنها .

Marfat.com

قال : فما عملت فيه ؟ قال : تشمّرت وحذرت ؛ قال : فذاك التقوى . وأخذ هـذا المعنى ابن المُعتز فنظمه :

خَلّ الذنوب صــغيرها * وكـبيرها ذاك التـقى
واصـــنع كماش فوق أر * ض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرنّ صــغيرة * إن الجبـال من الحصى

السادســة — التقوى فيها جماع الخير كله، وهى وصية الله فى الأوّلين والآخرين، وهى خير ما يستفيده الإنسان؛ كما قال أبو الدرداء وقد قيل له : إن أصحابك يقولون الشّعر وأنت ما حُفظ عنك شىء ؛ فقال :

يريد المــرء أن يُؤْتَى مُنَاه * ويأبى الله إلا ما أرادا
يقول المــرء فائدتى ومالى * وتقوى الله أفضل ما آستفادا

وروى آبن ماجه فى ســننه عن أبى أُمامة عن النبىّ صلّى الله عليه وســلّم أنه كان يقول : " ما آستفاد المؤمن بعد تقوى الله خيرا له من زوجة صالحة إن أمرها أطاعته وإن نظر إليها سَرّته وإن أقسم عليها أبرّته وإن غاب عنها نصحته فى نفسها وماله " .

والأصــل فى التقوى : وَقْوَى على وزن فَعْلى فقلبت الواو تاء من وَقَيْته أقيه أى منعته ؛ ورجلٌ تقىّ أى خائف ، أصله وقى ؛ وكذلك تقاة كانت فى الأصل وقاة ؛ كما قالوا : تُجاه وتُراث، والأصل وُجاه ووُراث .

قوله تعـالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ ﴾

فيها ست وعشرون مسئلة :

الأولى — قوله : ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ فى موضع خفض نعت «للمتقين»، ويجوز الرفع على القطع أى هم الذين، ويجوز النصب على المدح . ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ يصدقون . والإيمان فى اللغة : التصديق ؛ وفى التنزيل : « وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا »[1] أى بمصــدق ؛ ويتعدّى بالباء واللام ؛ كما قال : « وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ »[2] « فَمَا آمَنَ لِمُوسَى »[3] . وروى حجاج بن حجاج

(١) سورة يوسف آية ١٧ (٢) سورة آل عمران آية ٧٣ (٣) سورة يونس آية ٨٣

Marfat.com

الأحول — ويلقب بزق العَسَل — قال سمعت قتادة يقول : يابن آدم ، إن كنت لا تريد أن تأتى الخير إلا عن نشـاط فإن نفسك مائلة إلى السّأمة والفَتْرَة والملّة ؛ ولكنّ المؤمن هو المتحامل[1] ، والمؤمن هو المُتقوِّى ، والمؤمن هو المتشدّد ، وإن المؤمنين هم العجّاجون[2] إلى الله الليل والنهـار ؛ والله ما يزال المؤمن يقول : ربّنا ربّنا فى السرّ والعلانيـة حتى آستجاب لهم فى السر والعلانية .

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ بِالْغَيْبِ ﴾ الغيب فى كلام العرب : كل ما غاب عنك ، وهو من ذوات الياء ؛ يقال منــه : غابت الشمس تَغيب ؛ والغيبة معروفة . وأغابت المرأة فهى مُغيبة إذا غاب عنها زوجها ؛ ووقعنا فى غَيبة وغَيابة ، أى هبطة من الأرض ؛ والغيابة : الأَجَمة ، وهى جماع الشجر يغاب فيها ؛ ويسمى المطمئن من الأرض : الغيب ، لأنه غاب عن البصر .

الثالثـــة — وآختلف المفسرون فى تأويل الغيب هنا ؛ فقالت فرقة : الغيب فى هذه الآية : الله سبحانه . وضعّفه آبن العربى . وقال آخرون : القضاء والقدر . وقال آخرون : القرآن وما فيــه من الغيوب . وقال آخرون : الغيب كل ما أخبر به الرســول عليه السلام مما لا تهتدى إليه العقول من أشراط الساعة وعذاب القبر والحشر والنشر والصراط والميزان والجنة والنار . قال آبن عطية : وهذه الأقوال لا تتعارض بل يقع الغيب على جميعها .

قلت : وهذا هو الإيمان الشرعى المشار إليه فى حديث جبريل عليه الســلام حين قال للنبيّ صــلّى الله عليه وســلّم : فأخبرنى عن الإيمان . قال : " أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقَدَر خيره وشره " . قال : صدقت . وذكر الحديث . وقال عبد الله بن مسعود : ما آمن مؤمن أفضل من إيمان بغيب ، ثم قرأ : «الذين يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ» .

قلت : وفى التنزيل : « وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ »[3] وقال : « الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ »[4] . فهو سبحانه غائب عن الأبصار ، غير مَرْئى فى هذه الدار ، غير غائب بالنظر والآسـتدلال ؛

(١) تحامل فى الأمر وبه : تكلفه على مشقة وإعياء .	(٢) العج : رفع الصوت بالتلبية .
(٣) سورة الأعراف آية ٧ .	(٤) سورة الأنبياء آية ٤٩ .

Marfat.com

فهم يؤمنون أن لهم رَبًّا قادرا يجازى على الأعمال ، فهم يخشونه فى سرائرهم وخلواتهم التى يغيبون فيها عن الناس ، لعلمهم بآطلاعه عليهم ، وعلى هـذا تتفق الآى ولا تتعارض ؛ والحمد لله .
وقيل : «بالغيب» أى بضمائرهم وقلوبهم بخلاف المنافقين ؛ وهذا قول حسن . وقال الشاعر :

وبالغيب آمنّا وقـد كان قومُنا * يصلّون للأوثان قبل محمّد

الرابعـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ معطوف جملة على جملة . وإقامة الصلاة أداؤها بأركانها وسننها وهيئاتها فى أوقاتها ؛ على ما يأتى بيانه . يقال : قام الشيء أى دام وثبت ؛ وليس من القيام على الرِّجْل ؛ وإنمـا هو من قولك : قام الحق أى ظهـر وثبت ؛ قال الشاعر :

* وقامت الحرب بنـا على ساق *

وقال آخر :

وإذا يقال أتيتمُ لم يبرحـوا * حتى تُقيم الخيلُ سُوقَ طِعانِ

وقيل : « يقيمون » يديمون ، وأقامه أى أدامه ؛ وإلى هذا المعنى أشار عمر بقوله : من حفظها وحافظ عليها حفظ دينه ، ومن ضَيّعها فهو لمـا سواها أضيع .

الخامســـة — إقامة الصلاة معروفة ؛ وهى سنة عند الجمهور ، وأنه لا إعادة على تاركها . وعند الأوزاعى وعطاء ومجاهـد وآبن أبى ليلى هى واجبة وعلى من تركها الإعادة ؛ وبه قال أهل الظـاهر ، وروى عن مالك ، وآختـاره آبن العربى قال : لأن فى حديث الأعرابى " وأقم " فأمره بالإقامة كما أمره بالتكبير والآستقبال والوضوء .

قال : فأما أنتم الآن وقد وقفتم على الحـديث فقد تعيّن عليكم أن تقولوا بإحدى روايتى مالك الموافقة للحديث وهى أن الإقامة فرض . قال آبن عبد البر قوله صلى الله عليه وسلم : " وتحريمها التكبير " دليل على أنه لم يَدخل فى الصـلاة من لم يُحْرِم ، فمـا كان قبل الإحرام فحكمه ألا تعاد منه الصلاة إلا أن يجمعوا على شيء فيسلم للاجمـاع كالطهارة والقبلة والوقت ونحو ذلك . وقال بعض علمائنا : مَن تركها عمدا أعاد الصلاة ، وليس ذلك لوجوبهـا إذ لو كان ذلك لآستوى سهوها وعمدها ، وإنما ذلك للاستخفاف بالسنن ، والله أعلم .

Marfat.com

السادســـة ـــ وآختلف العلمـاء فيمن سمع الإقامة هل يُسرع أوْ لا؟ فذهب الأكثر إلى أنه لا يسرع و إن خاف فوت الركعة لقوله عليه السلام: " إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تَسعَون وأتوها تمشون وعليكم السكينة فما أدركتم فصَلُّوا وما فاتكم فأتِمّوا". رواه أبو هريرة أخرجه مسلم . وعنه أيضا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا ثُوِّب بالصلاة فلا يَسْعَ إليها أحدكم ولكن ليَمْشِ وعليه السَّكينة والوقار صَـلِّ ما أدركت وآقض ما سبقك " . وهذا نص . ومن جهة المعنى أنه إذا أسرع آنبهر[1] فشوّش عليه دخوله فى الصلاة وقراءتهـا وخشوعها . وذهب جماعة من السلف منهم آبن عمر وآبن مسعود على آختلاف عنه أنه إذا خاف فواتها أسرع . وقال إسحاق : يسرع إذا خاف فوات الركعة ؛ وروى عن مالك نحوه، وقال : لا بأس لمن كان على فرس أن يحرّك الفرس ؛ وتأوّله بعضهم على الفرق بين المـاشى والراكب ؛ لأن الراكب لا يكاد أن ينبهر كما ينبهر المـاشى .

قلت : وآستعمال سنة رسول الله صلى الله عليه وسـلم فى كل حال أولى ، فيمشى كما جاء الحديث وعليه السكينة والوقار ؛ لأنه فى صلاة ومحال أن يكون خبره صلى الله عليه وسـلم على خلاف ما أخبر؛ فكما أن الداخل فى الصلاة يلزم الوقار والسكون كذلك المـاشى، حتى يحصل له التشبه به فيحصل له ثوابه . ومما يدل على صحة هذا ما ذكرناه من السنة، وما خرّجه الدّارمى فى مسنده قال : حدّثنا محمد بن يوسف قال حدّثنا سفيان عن محمـد بن عجلان عن المقبرى عن كعب بن عُجْرَةَ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا توضأت فعمدت إلى المسجد فلا تُشَبِّكَنّ بين أصابعك فإنك فى صلاة " . فمنع صلى الله عليه وسلم فى هـذا الحديث وهو صحيح مما هو أقل من الإسراع وجعـله كالمصلّى ؛ وهذه السنن تبيّن معنى قوله تعـالى : «فَآسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ»[2] وأنه ليس المراد به الاشتداد على الأقدام، وإنما عنى العمل والفعل؛ هكذا فسره مالك . وهو الصواب فى ذلك والله أعلم .

---

(١) البهر (بالضم) : تتابع النفس من الإعياء .		(٢) سورة الجمعة آية ٩

السابعـــة — وآختلف العلماء فى تأويل قوله عليه السلام: "وما فاتكم فأتمّوا" وقوله: " وآقض ما سبقك " هل هما بمعنًى واحد أو لا ؟ فقيل : همـا بمعنًى واحد وأن القضاء قد يطلق و يراد به التمـام ، قال الله تعـالى : « فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّـلَاةُ »(١) وقال : « فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ »(٢) . وقيل : معناهما مختلف وهو الصحيح ؛ و يترتب على هذا الخلاف خلاف فيما يدركه الداخل هل هو أوّل صلاته أو آخرها؟ فذهب إلى الأوّل جماعة من أصحاب مالك — منهم آبن القاسم — ولكنه يقضى ما فاته بالحمـد وسورة ، فيكون بانيـا فى الأفعال قاضيا فى الأقوال . قال آبن عبد البر : وهو المشهور من المذهب . وقال آبن خُوَيْزِمَنْدَاد : وهو الذى عليه أصحابنا ، وهو قول الأوزاعى والشافعى ومحمد بن الحسن وأحمد بن حنبل والطبرى وداود آبن على . وروى أشهب وهو الذى ذكره آبن عبد الحكم عن مالك ، ورواه عيسى عن آبن القاسم عن مالك ، أن ما أدرك فهو آخر صلاته ، وأنه يكون قاضيا فى الأفعال والأقوال ؛ وهو قول الكوفيين . قال القاضى أبو محمد عبد الوهاب : وهو مشهور مذهب مالك . قال آبن عبد البر : من جعل ما أدرك أوّلَ صلاته فأظنهم راعوا الإحرام؛ لأنه لا يكون إلا فى أوّل الصلاة ، والتشهد والتسليم لا يكون إلا فى آخرها ؛ فمن هاهنا قالوا : إن ما أدرك فهو أوّل صلاته ، مع ما ورد فى ذلك من السنة من قوله : " فأتموا " والتمـام هو الآخر .

وآحتج الآخرون بقوله : "فآقضوا" والذى يقضيه هو الفائت ، إلا أن رواية من روى « فأتموا » أكثر، وليس يستقيم على قول من قال: إن ما أدرك أوّل صلاته و يطرد، إلا ما قاله عبـد العزيز بن أبى سَلَمة المـاجِشُون والمزنى و إسحاق وداود من أنه يقرأ مع الإمام بالحمد وسورة إن أدرك ذلك معه ؛ و إذا قام للقضاء قرأ بالحمد وحدها ؛ فهؤلاء آطرد على أصلهم قولهم وفعلهم ؛ رضى الله عنهم .

الثامنـــة — الإقامة تمنع من آبتداء صلاة نافلة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة " خرّجه مسلم وغيره ؛ فأما إذا شرع فى نافلة

---

(١) سورة الجمعة آية ١٠ . (٢) سورة البقرة آية ٢٠٠

Marfat.com

فلا يقطعها ؛ لقوله تعـالى : « وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ »[1] وخاصة إذا صـلى ركعة منها . وقيل : يقطعها لعموم الحديث فى ذلك . والله أعلم .

التاســعة — وآختلف العلماء فيمن دخل المسجد ولم يكن ركع ركعتى الفجر ثم أقيمت الصلاة ؛ فقال مالك : يدخل مع الإمام ولا يركعهما ؛ و إن كان لم يدخل المسجد فإن لم يخف فوات ركعة فليركع خارج المسجد ، ولا يركعهما فى شىء من أفنية المسجد — التى تصلّى فيها الجمعة — اللاصقة بالمسجد ؛ و إن خاف أن تفوته الركعة الأولى فليدخل وليصل معه ؛ ثم يصليهما إذا طلعت الشمس إن أحب ؛ ولأَنْ يصـلّيهما إذا طلعت الشمس أحبّ إلىّ وأفضل من تركهما وقال أبو حنيفة وأصحابه : إن خشى أن تفوته الركعتان ولا يدرك الإمام قبل رفعه من الركوع فى الثانية دخل معه ، و إن رجا أن يدرك ركعة صلى ركعتى الفجر خارج المسجد، ثم يدخل مع الإمام. وكذلك قال الأوزاعى؛ إلا أنه يجوّز ركوعهما فى المسجد .الم يخف فوت الركعة الأخيرة . وقال الثورى : إن خشى فوت ركعـة دخل معهم ولم يصلهما و إلا صلاهما و إن كان قد دخل المسجد . وقال الحسن بن حىّ و يقال آبن حيّان : إذا أخذ المقيم فى الإقامة فلا تطوع إلا ركعتى الفجر . وقال الشافعى : من دخل المسجد وقد أقيمت الصـلاة دخل مع الإمام ولم يركعهما لا خارج المسجد ولا فى المسجد . وكذلك قال الطبرى و به قال أحمـد بن حنبل وحكى عن مالك ؛ وهو الصحيح فى ذلك ؛ لقوله عليـه السلام : " إذا أقيمت الصلاة فلا صـلاة إلا المكتوبة " . وركعتا الفجر إمّا سـنة ، و إمّا فضيلة ، و إمّا رَغيبة ؛ والحجة عند التنازع حجة السُّنة . ومن حجة قول مالك المشهور وأبى حنيفة ما روى عن آبن عمر أنه جاء والإمام يصلى صلاة الصبح فصلاهما فى حُجرة حفصة ، ثم إنه صلى مع الإمام . ومن حجـة الثّورى والأوزاعى ما روى عن عبـد الله بن مسعود أنه دخل المسجد وقـد أقيمت الصلاة فصلى إلى أُسْطُوانة[2] فى المسجد ركعتى الفجر ، ثم دخل الصلاة بمحضر من حذيفة وأبى موسى رضى الله عنهما . قالوا : و إذا جاز أن يشتغل بالنافلة عن

---

(١) سورة محمد آية ٣٣ (٢) الأسطوانة : العامود .

Marfat.com

المكتوبة خارج المسجد جاز له ذلك فى المسجد ، روى مسلم عن عبد الله بن مالك آبن بُحَينة(١) قال : أقيمت صلاة الصبح فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا يصلى والمؤذن يقيم ، فقال : "أتصلى الصبح أربعا" ! وهذا إنكار منه صلى الله عليه وسلم على الرجل لصلاته ركعتى الفجر فى المسجد والإمام يصلى ، و يمكن أن يستدل به أيضا على أن ركعتى الفجر إن وقعت فى تلك الحال صَحّت ؛ لأنه عليه السلام لم يقطع عليه صلاته مع تمكنه من ذلك ، والله أعلم .

العـاشرة ـ الصلاة أصلها فى اللغة الدعاء، مأخوذة من صَلّى يصلّى إذا دعا؛ ومنه قوله عليه السلام : " إذا دُعى أحدكم إلى طعام فليُجب فإن كان مفطرا فليطعم و إن كان صائمـا فليُصَلّ " أى فليدْعُ . وقال بعض العلماء : إن المراد الصلاة المعروفة ، فيصلى ركعتين وينصرف ؛ والأوّل أشهر وعليـه من العلماء الأ كثر . ولمـا وَلَدت أسماءُ عبـدَ الله بن الزبير أرسلته إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ قالت أسمـاء : ثم مسحه وصلّى عليـه ، أى دعا له . وقال تعالى : « وَصَلِّ عَلَيْهِمْ »(٢) أى آدع لهم .

وقال الأعشى :

تقول بِنْتِى وقـــد قَرُبْتُ مرتحـــلًا * يا ربِّ جنِّب أبى الأَوْصاب والوجَعَا
عليـــكِ مثلَ الذى صلّيتِ فاغْتَمِضِى * نومًا فإنّ لجَنْبِ المـــرء مُضطجَعَا

وقال الأعشى أيضا :

وقابلها الرِّيحُ فى دَنِّهـا * وصلَّى على دَنِّها وارْتَسَمْ

آرتسم الرجل : كبّر ودعا؛ قاله فى الصحاح. وقال قوم: هى مأخوذة من الصَّلا وهو عِرْق فى وسط الظهر و يفترق عند العَجْب فيكتنفه ؛ ومنه أُخذ المُصَلِّى فى سبق الخيل؛ لأنه يأتى فى الحَلْبة ورأسه عند صَلَوَى السابق ؛ فآشتقت الصلاة منه، إمّا لأنها جاءت ثانية للإيمـان فشبهت بالمُصَلِّى من الخيل، و إما لأن الراكع تثنى صَلَوَاه. والصَّلا: مَغْرِز الذَّنَب من الفرس،

(١) « بحينة » : أمه ، وهى بنت الحارث بن عبد المطلب . وأبوه مالك بن القشب بن فضلة الأزدى .

(٢) سورة التوبة آية ١٠٣

والاثنان صلوان . والمُصَلِّي : تالي السابق؛ لأن رأسه عند صَلاه . وقال عليّ رضى الله عنه : سَبَقَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وصَلَّى أبو بكر وثَلَّث عمر . وقيل : هى مأخوذة من اللزوم؛ ومنه صَلِيَ بالنار إذا لزمها؛ ومنه « تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً »[1] . قال الحارث بن عُبَاد :

لم أكن من جُنَاتِها علم اللّـ ✽ ـهُ وإنّي بحرّها اليومَ صالِ

أى ملازم لحرّها؛ وكأنّ المعنى على هذا ملازمة العبادة على الحدّ الذى أمر الله تعالى به . وقيل : هى مأخوذة من صَلَيت العود بالنار إذا قوّمته وليّنته بالصِّلاء . والصِّلاء : صِلاء النار بكسر الصاد ممدود؛ فإن فتحت الصاد قَصَرْت، فقلت صَلا النار، فكأنّ المصلى يقوّم نفسه بالمعاناة فيها ويلين ويخشع؛ قال الخارزنجي[2] :

فلا تعْجل بأمرك واستدمْهُ ✽ فما صَلَّى عصاكَ[3] كمستديمِ

والصلاة : الدعاء . والصلاة : الرحمة؛ ومنه : " اللّهمّ صلّ على محمد " الحديث . والصلاة : العبادة؛ ومنه قوله تعالى : « وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ »[4] الآية؛ أى عبادتهم . والصلاة : النافلة؛ ومنه قوله تعالى : « وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ »[5] . والصلاة التسبيح؛ ومنه قوله تعالى : « فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ »[6] أى من المصلين . ومنه سُبْحة الضحى . وقد قيل فى تأويل « نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ »[7] : نصلّى . والصلاة : القراءة؛ ومنه قوله تعالى : « وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ »[8] فهى لفظ مشترك . والصلاة : بيت يصلّى فيه؛ قاله ابن فارس . وقد قيل : إن الصلاة اسم عَلَم وضع لهذه العبادة؛ فإن الله تعالى لم يُخلِ زمانا من شرع، ولم يُخلِ شرع من صلاة؛ حكاه أبو نصر القشيرى .

قلت : فعلى هذا القول لا اشتقاق لها؛ وعلى قول الجمهور وهى : —

الحادية عشرة — اختلف الأصوليون هل هى مبقاة على أصلها اللغوى الوضعى الابتدائى، وكذلك الإيمان والزكاة والصيام والحج، والشرع إنما تصرف بالشروط والأحكام، أو هل

(١) سورة الغاشية آية ٤ .
(٢) كذا فى جميع الأصول . وفى اللسان والتاج مادة (صلا) : « ... قيس بن زهير » .
(٣) كذا فى جميع الأصول . وفى اللسان : « عصاه » .
(٤) سورة الأنفال آية ٣٥ .
(٥) سورة طه آية ١٣٢ .
(٦) سورة الصافات آية ١٤٣ .
(٧) سورة البقرة آية ٣٠ .
(٨) سورة الإسراء آية ١١٠ .

Marfat.com

تلك الزيادة من الشرع تصيّرها موضوعة كالوضع الابتدائى من قبل الشرع . هذا اختلافهم والأول أصح؛ لأن الشريعة ثبتت بالعربية ؛ والقرآن نزل بها بلسان عربى مبين ؛ ولكن للعرب تحكّمٌ فى الأسماء ، كالدابة وضعت لكل ما يدبّ ، ثم خصصها العرف بالبهائم ، فكذلك لعرف الشرع تحكّمٌ فى الأسماء . والله أعلم .

الثانية عشرة — واختلف فى المراد بالصلاة هنا ؛ فقيل : الفرائض . وقيل : الفرائض والنوافل معاً ؛ وهو الصحيح ؛ لأن اللفظ عام والمتّقى يأتى بهما .

الثالثة عشرة — الصلاة سبب للرزق؛ قال الله تعالى : «وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ» الآية ؛ على ما يأتى بيانه فى « طه »[(١)] إن شاء الله تعالى . وشفاء من وجع البطن وغيره ؛ روى ابن ماجه عن أبى هريرة قال : هجّر[(٢)] النبىُّ صلى الله عليه وسلم فهجّرتُ فصليتُ ثم جلستُ ؛ فالتفت إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : " أشكمت دَرْدَه " قلت : نعم يا رسول الله ؛ قال : " قم فصلّ فإن فى الصلاة شفاء " . فى رواية : " أشكمت درد " يعنى تشتكى بطنك بالفارسية ؛ وكان عليه الصلاة والسلام إذا حزبه[(٣)] أمرٌ فزع إلى الصلاة .

الرابعة عشرة — الصلاة لا تصح إلا بشروط وفروض؛ فمن شروطها : الطهارة، وسيأتى بيان أحكامها فى سورة النساء[(٤)] والمائدة[(٥)] . وستر العورة ، يأتى فى الأعراف[(٦)] القول فيها إن شاء الله تعالى .

وأما فروضها : فاستقبال القبلة ، والنية ، وتكبيرة الإحرام والقيام لها ، وقراءة أم القرآن والقيام لها ، والركوع والطمأنينة فيه ، ورفع الرأس من الركوع والاعتدال فيه ، والسجود والطمأنينة فيه ، ورفع الرأس من السجود ، والجلوس بين السجدتين والطمأنينة فيه ، والسجود الثانى والطمأنينة فيه . والأصل فى هذه الجملة حديث أبى هريرة فى الرجل الذى علّمه النبىّ صلى الله عليه وسلم الصلاة لما أخلّ بها ، فقال له : " إذا قمت إلى الصلاة فأسبغ الوضوء ثم استقبل القبلة ثم كبر ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ثم اركع حتى تطمئن راكعا ثم ارفع

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٦٣ (٢) التهجير : التبكير إلى كل شىء والمبادرة إليه .
(٣) حزبه الأمر : نابه واشتد عليه ؛ وقيل : ضغطه . (٤) راجع جـ ٥ ص ٢٠٤ فما بعد .
(٥) راجع جـ ٦ ص ٨٠ فما بعد . (٦) راجع جـ ٧ ص ١٨٢ فما بعد .

حتى تعتــدل قائما ثم ٱسجد حتى تطمئن ساجدا ثم ٱرفع حتى تطمئن جالسا ثم ٱفعــل ذلك في صلاتك كلهــا " خرّجه مسلم . ومثله حديث رفاعة بن رافع، أخرجه الدّارَقُطْنِي وغيره . قال علماؤنا : فبيّن قوله صلى الله عليه وسلم أركان الصلاة ، وسكت عن الإقامة ورفع اليدين وعن حدّ القراءة وعن تكبير الانتقالات ، وعن التسبيح في الركوع والسجود، وعن الجلسة الوسطى، وعن التشهد وعن الجلسة الأخيرة وعن السلام. أما الإقامة وتعيين الفاتحة فقد مضى الكلام فيهما (١) . وأما رفع اليــدين فليس بواجب عند جماعة العلمــاء وعامة الفقهاء ؛ لحديث أبي هريرة وحديث رفاعة بن رافع . وقال داود وبعض أصحابه بوجوب ذلك عنــد تكبيرة الإحرام . وقال بعض أصحابه : الرفع عنــد الإحرام وعند الركوع وعند الرفع من الركوع واجب ، وإنّ من لم يرفع يديه فصلاته باطلة ؛ وهو قول الحميدي ، ورواية عن الأوزاعي . وٱحتجوا بقوله عليه السلام : " صلّوا كما رأيتموني أصلّي " أخرجه البخاري . قالوا : فوجب علينا أن نفعل كما رأيناه يفعل ؛ لأنه المبلِّغ عن الله مرادَه . وأما التكبير ما عدا تكبيرة الإحرام فمسنون عند الجمهور للحديث المذكور . وكان ٱبن قاسم صاحب مالك يقول : من أسقط من التكبير في الصلاة ثلاث تكبيرات فما فوقها سجد للسهو قبــل السلام ، وإن لم يسجد بطلت صلاته ؛ وإن نسي تكبيرة واحدة أو ٱثنتين سجد أيضا للسهو ، فإن لم يفعل فلا شيء عليــه ؛ وروى عنه أن التكبيرة الواحدة لا سهو على من سها فيهــا . وهــذا يدل على أن عُظْم التكبير وجملته عنده فرض ، وأن اليسير منه متجاوز عنــه . وقال أَصْبَغ بن الفرج وعبد الله بن عبد الحكم : ليس على من لم يكبّر في الصلاة من أولها إلى آخرها شيء إذا كبر تكبيرة الإحرام، فإن تركه ساهيا سجد للسهو ، فإن لم يسجد فلا شيء عليــه ؛ ولا ينبغي لأحد أن يترك التكبير عامدا ؛ لأنه سنة من سنن الصلاة، فإن فعل فقد أساء ولا شيء عليه وصلاته ماضية .

قلت : هذا هو الصحيح، وهو الذي عليه جماعة فقهاء الأمصار من الشافعيين والكوفيين وجماعة أهــل الحديث والمــالكيين غيرَ من ذهب مذهب ٱبن القاسم . وقد ترجم البخاري

(١) راجع ص ١١٧، ١٦٤ من هذا الجزء.

Marfat.com

رحمه الله (باب إتمام التكبير فى الركوع والسجود) وساق حديث مُطَرِّف بن عبد الله قال : صلّيت خلف عليّ بن أبى طالب أنا وعمران بن حُصين، فكان إذا سجد كبّر، و إذا رفع رأسه كبّر، و إذا نهض من الركعتين كبّر؛ فلما قضى الصلاة أخذ بيدى عمرانُ بن حصين فقال : لقد ذكرنى هـذا صلاة محمد صلى الله عليه وسلم، أو قال : لقـد صلى بنا صلاة محمد صلى الله عليه وسلم. وحديثَ عكرمة قال: رأيت رجلا عند المقام يكبر فى كل خفض ورفع، وإذا قام و إذا وضع، فأخبرت آبن عباس فقال: أو ليس تلك صلاة النبى صلى الله عليه وسلم لا أُمَّ لك![1] فدلّك البخارى رحمه الله بهذا الباب على أن التكبير لم يكن معمولا به عندهم. روى أبو إسحاق السَّبِيعى عن يزيد بن أبى مريم عن أبى موسى الأشعرى قال : صلّى بنا عليّ يومَ الجَمَل صلاة أذكرنا بهـا صلاة رسول الله صلى الله عليـه وسلم، كان يكبر فى كل خفض ورفع، وقيـام وقعود؛ قال أبو موسى : فإما نسيناها و إما تركناها عمدا .

قلت: أتراهم أعادوا الصلاة! فكيف يقال من ترك التكبير بطلت صلاته! ولو كان ذلك لم يكن فرق بين السنة والفرض، والشيء إذا لم يجب أفراده لم يجب جميعه؛ وبالله التوفيق .

الخـامسة عشرة ــ وأما التسبيح فى الركوع والسجود فغير واجب عند الجمهور للحديث المذكور؛ وأوجبـه إسحاق بن رَاهْوَيْه، وأن من تركه أعاد الصلاة، لقوله عليـه السلام : ”أما الركوع فعظموا فيه الربّ وأما السجود فآجتهدوا فى الدعاء فقَمِنٌ أن يستجاب لكم“.

السادسة عشرة ــ وأما الجلوس والتشهد فاختلف العلماء فى ذلك؛ فقال مالك وأصحابه : الجلوس الأوّل والتشهد له سنتان . وأوجب جماعة من العلمـاء الجلوس الأوّل وقالوا : هو مخصوص من بين سائر الفروض بأن ينوب عنه السجود كالعَرايا[2] من المُزَابنة[3]، والقِراض[4] من الإجارات، وكالوقوف بعد الإحرام لمن وجد الإمام راكعا. وآحتجوا بأنه لو كان سنة ما كان

---

(١) قوله : لا أمّ لك . فى نهاية آبن الأثير : « هو ذم وسب . أى أنت لقيط لا تُعْرَف لك أم . وقيـل : قد يقع مدحا بمعنى التعجب منه وفيه بُعْدٌ » . (٢) العرايا : نخل كانت توهب ثمارها للمساكين فلا يستطيعون أن ينتظروا بها رخص لهم أن يبيعوها بمـا شاءوا من التمـر . (٣) المزابنة : بيـع الرطب على رءوس النخل بالتمر كيلا، و بيع الزبيب بالكرم . (٤) القراض (بالكسر) : إجارة على التجر فى مال بجزء من ربحه .

Marfat.com

العامد لتركه تبطل صــلاته كما لا تبطل بترك سنن الصــلاة . ٱحتج من لم يوجبه بأن قال : لو كان من فرائض الصــلاة لرجع الساهى عنه إليه حتى يأتى به ، كما لو ترك سجدة أو ركعة ، ويراعى فيه مايراعى فى الركوع والسجود من الولاء والرتبة ؛ ثم يسجد لسهوه كما يصنع من ترك ركعة أو سجدة وأتى بهما . وفى حديث عبد الله بن بُحَيْنة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام من ركعتين ونسى أن يتشهد فسبّح الناس خلفه كيما يجلس فثبت قائمــا فقاموا ؛ فلما فرغ من صلاته سجد سجدتى السهو قبل التسليم ؛ فلو كان الجلوس فرضا لم يسقطه النسيان والسهو ؛ لأن الفرائض فى الصلاة يستوى فى تركها السهو والعمد إلا فى المؤتم .

وٱختلفوا فى حكم الجلوس الأخير فى الصلاة وما الغرض من ذلك . وهى : —

السابعة عشرة — على خمسة أقوال :

أحدها : أن الجلوس فرض والتشهد فرض والســلام فرض . وممن قال ذلك الشافعى وأحمد بن حنبل فى رواية ، وحكاه أبو مصعب فى مختصره عن مالك وأهل المدينة ، وبه قال داود . قال الشافعى : من ترك التشهد الأوّل والصلاة على النبيّ صلى الله عليه وسلم فلا إعادة عليه وعليه سجدتا السهو لتركه . وإذا ترك التشهد الأخير ساهيا أو عامدا أعاد . وٱحتجوا بأن بيان النبيّ صلى الله عليه وسلم فى الصلاة فرض ؛ لأن أصل فرضها مجمل يفتقر إلى البيان إلا ما خرج بدليل . وقد قال صلى الله عليه وسلم : " صلوا كما رأيتمونى أصلى " .

القول الثانى : أن الجلوس والتشهد والسلام ليس بواجب ، وإنما ذلك كله سنة مسنونة ؛ هذا قول بعض البصريين ، وإليه ذهب إبراهيم بن عُلَيّة ، وصرح بقياس الجلسة الأخيرة على الأولى ، فخالف الجمهور وشذّ ؛ إلا أنه يرى الإعادة على من ترك شيئا من ذلك كله . ومن حجتهم حديث عبد الله بن عمرو بن العاصى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "إذا رفع الإمام رأسه من آخر سجدةٍ فى صلاته ثم أحدث فقد تمت صلاته " وهو حديث لا يصح على ما قاله أبو عمر ؛ وقد بيناه فى كتاب المقتبس[(١)] . وهذا اللفظ إنمــا يُسقط السلام لا الجلوس .

(١) فى بعض الأصول : « المقتبس » .

القول الثالث : إن الجلوس مقدار التشهد فرض ، وليس التشهد ولا السلام بواجب فرضا . قاله أبو حنيفة وأصحابه وجمـاعة من الكوفيين . وآحتجوا بحديث آبن المبارك عن الإفريقي عبد الرحمن بن زياد وهو ضعيف ؛ وفيـه أن النبيّ صلى الله عليه وسـلم قال : " إذا جلس أحدكم فى آخر صلاته فأحدث قبل أن يسلّم فقد تمت صـلاته " . قال آبن العربى : وكان شيخنا فخر الإسلام ينشدنا فى الدرس :

و يرى الخروج من الصلاة بضَرْطَة * أَيْنَ الضّراطُ من الســـلامِ عليكمُ

قال آبن العربى : وسلك بعض علمائنا من هذه المسئلة فرعين ضعيفين ، أما أحدهما : فروى عبد الملك عن عبد الملك أن من سلّم من ركعتين متلاعبا ، فخرج البيان أنه إن كان على أربع أنه يجزئه ، وهذا مذهب أهل العراق بعينه . وأما الثانى : فوقع فى الكتب المنبوذة أن الإمام إذا أحدث بعد التشهد متعمدا وقبل السلام أنه يجزئُ مَن خلفَه ، وهذا ممـا لا ينبغى أن يلتفت إليه فى الفتوى ؛ وإن عمرت به المجالس للذكرى .

القول الرابع : أن الجلوس فرض والسلام فرض ، وليس التشهد بواجب . وممن قال هذا مالك بن أنس وأصحابه وأحمد بن حنبل فى رواية . وآحتجوا بأن قالوا : ليس شيء من الذكر يجب إلا تكبيرة الإحرام ، وقراءة أم القرآن .

القول الخامس : أن التشهد والجلوس واجبان ، وليس الســلام بواجب ؛ قاله جمـاعة منهم إسحاق بن رَاهَوَيْه ، وآحتج إسحاق بحديث آبن مسعود حين علّمه رســول الله صلى الله عليه وسلم التشهد وقال له : " إذا فرغت من هذا فقد تمت صـلاتك وقضيت ما عليك " . قال الدّارَقُطْنِيّ : قوله " إذا فرغت من هذا فقد تمت صـلاتك " أدرجه بعضهم عن زهير فى الحديث ، ووصله بكلام النبيّ صلى الله عليه وسـلم ؛ وفصله شَبَابَة عن زهير وجعله من كلام آبن مسعود ، وقوله أشبه بالصواب من قول من أدرجه فى حديث النبيّ صلى الله عليه وسـلم . وشَبَابة ثقة . وقد تابعـه غسّان بن الربيع على ذلك ، جعل آخر الحديث من كلام آبن مسعود ولم يرفعه إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم .

Marfat.com

الثامنة عشرة — وآختلف العلماء فى السلام؛ فقيل : واجب، وقيل : ليس بواجب . والصحيح وجوبه لحديث عائشة وحديث علىّ الصحيح خرّجه أبو داود والترمذىّ ورواه سفيان الثورىّ عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن محمد بن الحنفية عن علىّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مفتاح الصلاة الطهور وتحريمها التكبير وتحليلها التسليم" وهذا الحديث أصل فى إيجاب التكبير والتسليم، وأنه لا يجزئ عنهما غيرهما كما لا يجزئ عن الطهارة غيرها بآتفاق . قال عبد الرحمن بن مهدى : لو آفتتح رجل صلاته بسبعين آسما من آسماء الله عز وجلّ ولم يكبر تكبيرة الإحرام لم يجزه، وإن أحدث قبل أن يسلم لم يجزه؛ وهذا تصحيح من عبد الرحمن بن مهدى لحديث علىّ، وهو إمام فى علم الحديث ومعرفة صحيحه من سقيمه . وحَسْبُك به !

وقد آختلف العلماء فى وجوب التكبير عند الآفتتاح وهى : —

التاسعة عشرة — فقال آبن شهاب الزهرى وسعيد بن المسيّب والأوزاعى وعبد الرحمن وطائفة : تكبيرة الإحرام ليست بواجبة . وقد روى عن مالك فى المأموم ما يدل على هذا القول؛ والصحيح من مذهبه إيجاب تكبيرة الإحرام وأنها فرض وركن من أركان الصلاة؛ وهو الصواب وعليه الجمهور، وكل من خالف ذلك فمحجوج بالسنة .

الموفية عشرين — وآختلف العلماء فى اللفظ الذى يدخل به فى الصلاة؛ فقال مالك وأصحابه وجمهور العلماء : لا يجزئ إلا التكبير، لا يجزئ منه تهليل ولا تسبيح ولا تعظيم ولا تحميد . هذا قول الحجازيين وأكثر العراقيين؛ ولا يجزئ عند مالك إلا «الله أكبر» لا غير ذلك . وكذلك قال الشافعى وزاد : ويجزئ «الله الأكبر» و «الله الكبير» . والحجة لمالك حديث عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الصلاة بالتكبير، والقراءة بـ «الحمد لله رب العالمين» . وحديث علىّ : وتحريمها التكبير . وحديث الأعرابى : فكبّر . وفى سنن آبن ماجه حدّثنا أبو بكر بن أبى شيبة وعلىّ بن محمد الطنافسى قالا : حدّثنا أبو أسامة قال حدّثنى عبد الحميد بن جعفر قال حدّثنا محمد بن عمرو بن عطاء قال سمعت أبا حميد الساعدى

Marfat.com

يقول : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام إلى الصلاة ٱستقبل القبلة ورفع يديه وقال : « الله أكبر » وهذا نص صريح وحديث صحيح فى تعيين لفظ التكبير؛ قال الشاعر :

رأيتُ اللهَ أكبرَ كلِّ شيء * محاولةً وأعظمه جنـودا

ثم إنه يتضمن القدم، وليس يتضمنه كبير ولا عظيم، فكان أبلغ فى المعنى؛ والله أعلم .

وقال أبو حنيفة : إن ٱفتتح بلا إله إلا الله يجزيه ، وإن قال : اللهم ٱغفر لى لم يجزه ، وبه قال محمد بن الحسن . وقال أبو يوسف : لا يجزئه إذا كان يحسن التكبير . وكان الحكم ابن عتيبة يقول : إذا ذكر الله مكان التكبير أجزأه . قال ٱبن المنـذر : ولا أعلمهم يختلفون أن من أحسن القراءة فهلّل وكبّر ولم يقرأ أن صلاته فاسـدة، فمن كان هـذا مذهبه فاللازم له أن يقول لا يجزيه مكان التكبير غيره، كما لا يجزئ مكان القراءة غيرها . وقال أبو حنيفة : يجزئه التكبير بالفارسـية وإن كان يحسن العربية . قال ٱبن المنـذر : لا يجزيه لأنه خلاف ما عليه جماعات المسلمين، وخلاف ما علّم النبيّ صلى الله عليه وسلم أمته، ولا نعلم أحدا وافقه على ما قال . والله أعلم .

الحادية والعشرون ــ وٱتفقت الأمة على وجوب النية عند تكبيرة الإحرام إلا شيئا روى عن بعض أصحابنا يأتى الكلام عليه فى آية الطهارة؛ وحقيقتها قصد التقرب إلى الآمر بفعل ما أمر به على الوجه المطلوب منه . قال ٱبن العربى : والأصل فى كل نية أن يكون عقدها مع التلبس بالفعل المنوىّ بهـا ، أو قبل ذلك بشرط ٱستصحابها ، فإن تقدّمت النية وطرأت غفلة فوقع التلبس بالعبادة فى تلك الحالة لم يعتد بها ، كما لا يعتد بالنية إذا وقعت بعد التلبس بالفعل ، وقد رخص فى تقديمها فى الصوم لعظم الحرج فى ٱقترانها بأوله . قال ٱبن العربىّ : وقال لنا أبو الحسن القروىّ بثغر عسقلان : سمعت إمام الحرمين يقول: يحضر الإنسان عند التلبس بالصلاة النية ، ويجرد النظر فى الصانع وحدوث العالم والنبوّات حتى ينتهى نظره إلى نية الصلاة، قال : ولا يحتاج ذلك إلى زمان طويل، وإنما يكون ذلك فى أوحى[1] لحظة، لأن

(١) أوحى : أسرع .

تعليم الجمل يفتقر إلى الزمان الطويل، وتذكارها يكون فى لحظة ، ومن تمـام النية أن تكون مستصحبة على الصلاة كلها ، إلا أن ذلك لمـا كان أمرا يتعذر عليه سمح الشرع فى عزوب النية فى أثنائهـا . سمعت شيخنا أبا بكر الفهرى بالمسجد الأقصى يقول قال محمد بن سحنون : رأيت أبى سحنونا ربمـا يكمل الصـلاة فيعيدها ؛ فقلت له ما هـذا ؟ فقـال : عَزَبت نيتى فى أثنائها فلأجل ذلك أعدتها .

قلت : فهذه جملة من أحكام الصلاة، وسائر أحكامها يأتى بيانها فى مواضعها من هذا الكتاب بحول الله تعـالى؛ فيأتى ذكر الركوع وصلاة الجماعة والقبلة والمبادرة إلى الأوقات، وبعض صلاة الخوف فى هذه السورة، ويأتى ذكر قصر الصلاة وصلاة الخوف، فى «النساء»[1] والأوقات فى «هود»[2] و«سبحان»[3] و«الروم»[4] وصلاة الليل فى «المزمل»[5] وسجود التلاوة فى «الأعراف»[6] وسجود الشكر فى «ص»[7] كلٌّ فى موضعه إن شاء الله تعالى .

الثانيـة والعشرون ــ قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّـا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ رزقناهم : أعطيناهم ، والرزق عند أهل السنة ما صح الانتفاع به حلالا كان أو حراما ، خلافا للمعتزلة فى قولهم : إن الحرام ليس برزق لأنه لا يصح تملكه، وإن الله لا يرزق الحرام وإنمـا يرزق الحلال ، والرزق لا يكون إلا بمعنى الملك .

قالوا : فلو نشأ صـبى مع اللصوص ولم يأكل شيئا إلا ما أطعمه اللصوص إلى أن بلغ وقوى وصار لصا، ثم لم يزل يتلصّص ويأكل ما تلصّصه إلى أن مات، فإن الله لم يرزقه شيئا إذ لم يملكه، وإنه يموت ولم يأكل من رزق الله شيئا .

وهذا فاسد، والدليل عليه أن الرزق لو كان بمعنى التمليك لوجب ألا يكون الطفل مرزوقا، ولا البهائم التى ترتع فى الصحراء، ولا السِّخال من البهائم، لأن لبن أمهاتها ملك لصاحبها دون السخال .

ولمـا اجتمعت الأمة على أن الطفل والسخال والبهائم مرزوقون، وأن الله تعالى يرزقهم مع كونهم غير مالكين علم أن الرزق هو الغذاء ولأن الأمة مجمعة على أن العبيد والإماء مرزوقون،

(١) راجع جـ ٥ ص ٣٥١ فا بعد . (٢) راجع جـ ٩ ص ١٠٩ فا بعد . (٣) راجع جـ ١٠ ص ٣٠٣ فا بعد . (٤) راجع جـ ١٤ ص ١٤ فا بعد . (٥) راجع جـ ١٩ ص ٥١ فا بعد . (٦) راجع جـ ٧ ص ٣٥٧ فا بعد . (٧) راجع جـ ١٥ ص ١٨٣ .

Marfat.com

وأن الله تعـالى يرزقهم مع كونهم غير مالكين ؛ فعلم أن الرزق ما قلناه لا ما قالوه . والذى يدل على أنه لا رازق سواه قوله الحق : «هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»(١) وقال : «إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ الْمَتِينُ»(٢) وقال : «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا»(٣) وهذا قاطع ؛ فالله تعـالى رازق حقيقة وآبن آدم رازق تجوزا ، لأنه يملك ملكا منتزعا كما بيناه فى الفاتحة(٤)؛ مرزوق حقيقة كالبهائم التى لا ملك لها ؛ إلا أن الشىء إذا كان مأذونا له فى تناوله فهو حلال حكما ، وما كان منه غير مأذون له فى تناوله فهو حرام حكما ؛ وجميع ذلك رزق .

وقد خَرَّج بعض النبلاء من قوله تعالى : «كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ»(٥) فقال : ذكر المغفرة يشير إلى أن الرزق قد يكون فيه حرام .

الثالثة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ومِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ الرزق مصـدر رزق يرزق رَزقا ورزقا ، فالرَّزق بالفتح المصدر ، وبالكسر الآسم ، وجمعه أرزاق ؛ والرزق : العطاء . والرازقية : ثياب كتان [بيض](٦) . وآرتزق الجند : أخذوا أرزاقهم . والرزقة : المرة الواحدة ؛ هكذا قال أهل اللغـة . وقال آبن السكيت : الرزق بلغة أَزْدشَـنُوءَة : الشكر ؛ وهو قوله عزّ وجلّ : « وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ »(٧) أى شكركم التكذيب . ويقول : رزقنى أى شكرنى .

الرابعة والعشرون — قوله تعالى : ﴿يُنْفِقُونَ﴾ ينفقون : يخرجون . والإنفاق : إخراج المـال من اليد ؛ ومنه نَفَق البيع : أى خرج من يد البائع إلى المشـترى . ونَفَقت الدّابةُ : خرجت روحها ؛ ومنه النافقاء لِجُحْر اليربوع الذى يخرج منه إذا أخذ من جهة أخرى . ومنه المنافق ؛ لأنه يخرج من الإيمان أو يخرج الإيمان من قلبه . ونَيْفَق السراويل معروفة وهو مخرج الرِّجل منها . ونَفِق الزاد : فنى وأنفقه صاحبه . وأنفق القوم : فنى زادهم ؛ ومنه قوله تعالى: « إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ »(٨) .

(١) راجع جـ ١٤ ص ٣٢١ فما بعد . (٢) راجع جـ ١٧ ص ٥٥ (٣) راجع جـ ٩ ص ٦ فما بعد .
(٤) راجع ص ١٤٠ فما بعدها من هذا الجزء . (٥) راجع جـ ١٤ ص ٢٨٤ (٦) الزيادة عن اللسان مادة (رزق) . (٧) راجع جـ ١٧ ص ٢٢٨ فما بعد . (٨) راجع جـ ١٠ ص ٣٣٥

Marfat.com

الخامسة والعشرون — وآختلف العلماء في المراد بالنفقة هاهنا؛ فقيل: الزكاة المفروضة — روى عن آبن عباس — لمقارنتها الصــلاة . وقيل : نفقة الرجل على أهله — روى عن آبن مسعود — لأن ذلك أفضل النفقة . روى مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "دينارٌ أنفقته فى سبيل الله ودينار أنفقته فى رَقَبة ودينار تصدّقت به على مسكين ودينار أنفقته على أهلك أعظمها أجرًا الذى أنفقتــه على أهلك" . وروى عن ثَوْبان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أفضلُ دينارٍ ينفقه الرجل دينارٌ ينفقه على عياله ودينار ينفقه الرجل على دابته فى سبيل الله عزّ وجلّ ودينارٌ ينفقه على أصحابه فى سبيل الله" قال أبو قِلابة(١) : وبدأ بالعيال [ثم] قال أبو قِلابة : وأىّ رَجلٍ أعظم أجرا من رجل ينفق على عيال صغار يعفّهم أو ينفعهم الله به ويغنيهم . وقيل : المراد صــدقة التطوّع — روى عن الضحاك — نظرا إلى أن الزكاة لا تأتى إلا بلفظها المختص بها وهو الزكاة؛ فإذا جاءت بلفظ غير الزكاة آحتملت الفرض والتطوّع ، فإذا جاءت بلفظ الإنفاق لم تكن إلا التطوّع . قال الضحاك : كانت النفقة قربانا يتقرّبون بهــا إلى الله جلّ وعزّ على قدر جِدَتهم حتى نزلت فرائض الصدقات والناسخات(٢) فى «براءة» . وقيــل : إنه الحقوق الواجبة العارضــة فى الأموال ما عدا الزكاة؛ لأن الله تعالى لمــا قرنه بالصــلاة كان فرضا، ولمــا عدل عن لفظها كان فرضا سواها . وقيل : هو عام وهو الصحيح، لأنه خرج مخرج المدح فى الإنفاق مما رزقوا ، وذلك لا يكون إلا من الحلال ، أى يؤتون ما ألزمهــم الشرع من زكاة وغيرها ممــا يعنّ فى بعض الأحوال مع ما ندبهم إليــه . وقيــل : الإيمان بالغيب حظ القلب . و إقام الصــلاة حظ البــدن . ومما رزقناهم ينفقون حظ المــال، وهذا ظاهر. وقال بعض المتقدّمين فى تأويل قوله تعالى: « وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ » أى مما علّمناهم يعلّمون؛ حكاه أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم القُشــيرى .

---

(١) أبو قلابة : أحد رواة سند هذا الحديث .   (٢) مثل قوله تعالى : «خذ من أموالهم صدقة» الآية . جـ ٨ ص ٢٤٤ فقد قال آبن العربي إنها ناسخة لآية «والذين يكنزون الذهب والفضة» الآية آنظر صفحة ٣٨١ من الجزء الأوّل من تفسيره المطبوع بمصر سنة ١٣٣١ هـ . وكذلك روى الجصاص نسخها بها عن عمر بن عبد العزيز .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ ﴾

قيل : المراد مؤمنو أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام وفيه نزلت، ونزلت الأولى فى مؤمنى العرب. وقيل: الآيتان جميعا فى المؤمنين، وعليه فإعراب «الذين» خفضٌ على العطف، ويصح أن يكون رفعًا على الاستئناف أى وهم الذين . ومن جعلها فى صنفين فإعراب «الذين» رفع بالابتداء، وخبره «أولئك على هُدًى» ويحتمل الخفض عطفا .

قوله تعالى: ﴿بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ يعنى القرآن ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يعنى الكتب السالفة، بخلاف ما فعله اليهود والنصارى حسب ما أخبر الله عنهم فى قوله : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا» (1) الآية. و يقال: لما نزلت هذه الآية: «الذين يؤمنون بالغيب » قالت اليهود والنصارى : نحن آمنّا بالغيب ، فلما قال : « وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ » قالوا : نحن نقيم الصلاة ، فلما قال « ومما رزقناهم ينفقون » قالوا : نحن ننفق ونتصدّق ، فلما قال : « وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ » نفروا من ذلك . وفى حديث أبى ذرّ قال قلت : يا رسول الله كم كتابا أنزل الله ؟ قال : " مائة كتاب وأربعة كتب أنزل الله على شِيث خمسين صحيفة وعلى أخنوخ (2) ثلاثين صحيفة وعلى إبراهيم عشر صحائف وأنزل على موسى قبل التوراة عشر صحائف وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان " . الحديث أخرجه الحسين الآجُرى وأبو حاتم البُسْتِىّ .

وهنا مسئلة — إن قال قائل: كيف يمكن الإيمان بجميعها مع تنافى أحكامها؟ قيل له فيه جوابان : أحدهما — أن الإيمان بأن جميعها نزل من عند الله؛ وهو قول من أسقط التعبد بما تقدّم من الشرائع . الثانى — أن الإيمان بما لم ينسخ منها ؛ وهذا قول من أوجب التزام الشرائع المتقدمة، على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ أى و بالبعث والنشر هم عالمون . واليقين : العلم دون الشك؛ يقال منه : يَقِنْتُ الأمرَ (بالكسر) يَقْنًا، وأيقنتُ واستيقنتُ وتيقّنتُ كله بمعنًى،

(1) راجع جـ ٢ ص ٢٩ (2) أخنوخ هو إدريس عليه السلام .

Marfat.com

وأنا على يقين منه. وإنما صارت الياء واوا في قولك: مُوقن، للضمة قبلها، وإذا صغرته رددته إلى الأصل فقلت مُيَيْقِن. والتصغير يرد الأشياء إلى أصولها وكذلك الجمع. وربما عبروا باليقين عن الظن، ومنه قول علمائنا في اليمين اللَّغْو: هو أن يحلف بالله على أمر يوقنه ثم يتبين له أنه خلاف ذلك فلا شيء عليه؛ قال الشاعر (١):

تَحَسَّبَ هَوَّاسٌ وأَيْقَنَ أَنَّنِي * بها مُفْتَدٍ من واحدٍ لا أُغَامِرُهْ

يقول: تشمّم الأسد ناقتي، يظنّ أنني مُفْتَدٍ بها منه، وأستحمى نفسي فأتركها له ولا أقتحم المهالك بمقاتلته. فأما الظن بمعنى اليقين فورد في التنزيل وهو في الشعر كثير؛ وسيأتي. والآخرة مشتقة من التأخر لتأخرها عنا وتأخرنا عنها، كما أن الدنيا مشتقة من الدنو؛ على ما يأتي.

قوله تعالى: أُولَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

قال النحاس أهل نجد يقولون: أُلَاكَ، وبعضهم يقول: أُلَالِكَ؛ والكاف للخطاب. قال الكسائي: من قال أولئك فواحده ذلك، ومن قال أُلَاكَ فواحده ذاك. وأُلَالِكَ مثل أولئك؛ وأنشد ابن السكيت:

أُلَالِكَ قومي لم يكونوا أُشَابَةً (٢) * وهل يَعِظُ الضِّلِّيلَ إلا أُلَالِكَا

وربما قالوا: أولئك في غير العقلاء؛ قال الشاعر:

ذُمَّ المنازل بعد منزلة اللِّوَى * والعيشَ بعد أولئك الأيامِ

وقال تعالى: «إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا» (٣) وقال علماؤنا: إن في قوله تعالى: «مِنْ رَبِّهِمْ» ردًّا على القدرية في قولهم: يخلقون إيمانهم وهداهم، تعالى الله عن قولهم! ولو كان كما قالوا لقال: «من أنفسهم» (٤)، وقد تقدّم الكلام فيه وفي الهدى (٥) فلا معنى لإعادة ذلك.

﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ «هم» يجوز أن يكون مبتدأ ثانيا وخبره «المفلحون»، والثاني وخبره خبر الأول، ويجوز أن تكون «هم» زائدة - يسميها البصريون فاصلة والكوفيون عمادا - و«المفلحون» خبر «أولئك».

(١) هو أبو سدرة الأسدي، ويقال: الهجيمي. (٢) الأشابة من الناس: الأخلاط. والأشابة في الكسب: ما خالطه الحرام الذي لا خير فيه والسحت. (٣) راجع جـ ١٠ ص ٢٥٩ (٤) راجع المسألة الحادية والثلاثين ص ١٤٩. (٥) راجع المسألة الثانية ص ١٦٠ من هذا الجزء.

Marfat.com

والفَلْح أصله فى اللغة الشق والقطع ؛ قال الشاعر :

* إن الحـــديد بالحـــديد يُفْلَح *

أى يشق ؛ ومنه فلاحة الأرضين إنما هو شقّها للحرث ، قاله أبو عبيد . ولذلك سُمّىَ الأَكّارُ(١) فلّاحا . و يقال للذى شُقّت شفته السفلى أفلح ، وهو بَيّن الفَلَحة ، فكأن المفلح قد قطع المصاعب حتى نال مطلوبه . وقد يستعمل فى الفوز والبقاء، وهو أصله أيضا فى اللغة، ومنه قول الرجل لامرأته : آستَفْلِحِى بأمْرِك ، معناه فوزى بأمرك ، وقال الشاعر :

لو كان حَىّ مدرك الفلاح * أدركه مُلاعب الرماح

وقال الأضبط بن قُرَيع السعدىّ فى الجاهلية الجهلاء :

لكلّ هَمّ من الهموم سَــعَهْ * والمُسْىُ والصُّبْحُ لافَلاح مَعَهْ

يقول : ليس مع كرّ الليل والنهار بقاء . وقال آخر :

نحل بلادا كلّهــا حلّ قبلنا * ونرجو الفلاح بعد عاد وحِمْيَر

أى البقاء . وقال عبيد :

أفلِحْ بما شئتَ فقد يُدرَك بالضّـ * ـعْف وقــد يُخَـــدَّعُ الأريبُ

أى أبق بما شئت من كَيْس وحُمْق فقد يرزق الأحمق و يحرم العاقل. فمعنى «وأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُون» : أى الفائزون بالجنة والباقون فيها . وقال آبن أبى إسحاق : المفلحون هم الذين أدركوا ما طلبوا ونجَوْا من شر ما منه هربوا، والمعنى واحد. وقد آستعمل الفَلَاح فى السَّحور؛ ومنه الحديث: حتى كاد يفوتنا الفَلَاح مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. قلت: وما الفَلَاح؟ قال: السَّحور. أخرجه أبو داود. فكأنّ معنى الحديث أن السحور به بقاء الصوم فلهذا سمّاه فلاحا . والفلاح (بتشديد اللام) : المُكَارِى فى قول القائل(٢) :

لهــا رِطْلٌ تَكِيلُ الزيتَ فيه * وفَلّاحٌ يسـوق لها حِمـارًا

ثم الفلاح فى العُرْف : الظفر بالمطلوب ، والنجاة من المرهوب .

---

(١) الذى يحرث الأرض . (٢) هو عمرو بن أحمد الباهلى ؛ كما فى اللسان مادة (فلح) .

Marfat.com

مسئلة — إن قال قائل كيف قرأ حمزة : عليهُم وإليهُم ولديهُم ؛ ولم يقرأ من ربهُـم ولا فيهُم ولا جنّتيهُم؟ فالجواب أن عليهم وإليهم ولديهم الياء فيه منقلبة من ألف، والأصل علاهم ولداهم وإلاهم فأقرت الهاء على ضمتها؛ وليس ذلك فى فيهم ولا من ربهم ولا جنّتيهِمْ، ووافقه الكسائى فى « عليهم الذِّلة » و « إليهم ٱثنين » على ما هو معروف من القراءة عنهما.

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

لما ذكر المؤمنين وأحوالهم ذكر الكافرين ومآلهم . والكفر ضد الإيمان وهو المراد فى الآية . وقد يكون بمعنى جحود النعمة والإحسان ؛ ومنه قوله عليه السلام فى النساء فى حديث الكسوف : "ورأيت النار فلم أر منظرا كاليوم قطّ أفظع ورأيت أكثر أهلها النساء" قيل : بِمَ يا رسول الله ؟ قال : "بكفرهن" ، قيل أيكفرن بالله ؟ قال : "يكفرن العَشير ويكفرن الإحسان لو أحسنتَ إلى إحداهن الدهرَ كلّه ثم رأتْ منك شيئا قالت ما رأيت منك خيرا قط" أخرجه البخارى وغيره .

وأصل الكُفْر فى كلام العرب : الستر والتغطية ؛ ومنه قول الشاعر :

* فى ليلة كَفَر النُّجُومَ غَمامُها *

أى سترها . ومنه سُمّيَ الليل كافرًا؛ لأنه يغطى كل شيء بسواده؛ قال الشاعر[(1)] :

فَتَذَكَّرَا ثَقَلًا رَثِيـدًا بَعْدَمَا * ألقتْ ذُكاءُ يَمِينَها فى كافر

ذكاء (بضم الذال والمدّ) : اسم للشمس ؛ ومنه قول الآخر :

فوردَتْ قبل ٱنبلاج الفجرِ * وٱبْنُ ذُكاءٍ كَامِنٌ فى كَفْر

أى فى ليل . والكافر أيضا : البحر والنهر العظيم . والكافر: الزارع؛ والجمع كُفّار ، قال الله تعالى : « كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ »[(2)] . يعنى الزُّرّاع لأنهم يغطون الحب . ورماد

(١) هو ثعلبة بن صعيرة المازنى ، يصف الظليم والنعامة ورواحهما إلى بيضهما عند غروب الشمس . والثقل (بالتحريك) هنا : بيض النعام المصون . والرثيد : المنضد بعضه فوق بعض أو إلى جنب بعض . وألقت يمينها فى كافر : أى بدأت فى المغيب . اللسان مادة (كفر) .	(٢) راجع جـ ١٧ ص ٢٥٥

مكفور : سفت الريح عليه التراب . والكافر من الأرض : ما بَعُد عن الناس لا يكاد ينزله ولا يمرّ به أحد؛ ومَن حلّ بتلك المواضع فهم أهل الكفور. ويقال الكفور : القُرَى .

قوله تعالى : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ﴾ معناه معتدل عندهم الإنذار وتركه ؛ أى سواء عليهم هذا. وجىء بالاستفهام من أجل التسوية ؛ ومثله قوله تعالى : « سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ »[1] . وقال الشاعر[2] :

وليـلٍ يقول الناسُ من ظلماته * سواء صحيحات العيون وعورها

قوله تعالى : ﴿ أَأَنْذَرْتَهُمْ ﴾ الإنذار الإبلاغ والإعلام ، ولا يكاد يكون إلا فى تخويف يتّسع زمانه للاحتراز ، فإن لم يتسع زمانه للاحتراز كان إشعارا ولم يكن إنذارا؛ قال الشاعر :

أنذرتَ عَمْرًا وهو فى مَهَـلٍ * قبلَ الصباح فقد عصى عَمْرُو

وتَنَاذَر بنو فلان هذا الأمر إذا خوّفه بعضُهم بعضا .

واختلف العلماء فى تأويل هذه الآية ؛ فقيل: هى عامة ومعناها الخصوص فيمن حقّت عليه كلمة العذاب، وسبق فى علم الله أنه يموت على كفره . أراد الله تعالى أن يعلم أن فى الناس مَن هذه حاله دون أن يعيّن أحدا . وقال ابن عباس والكلبى : نزلت فى رؤساء اليهود، منهم حُيَيّ بن أَخْطب وكعب بن الأشرف ونظراؤهما . وقال الربيع بن أنس : نزلت فيمن قتل يوم بدر من قادة الأحزاب ؛ والأوّل أصح ، فإن من عيّن أحدا فإنما مثّل بمن كشف الغيب عنه بموته على الكفر ، وذلك داخل فى ضمن الآية .

قوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ موضعه رفعٌ خبر «إنّ»أى إن الذين كفروا لا يؤمنون. وقيل: خبر «إنّ» «سواء»وما بعده يقوم مقام الصلة؛ قاله ابن كَيسان. وقال محمد بن يزيد: «سواء» رفع بالابتداء، «أأنذرتهم أم لم تنذرهم »الخبر، والجملة خبر « إنّ» . قال النحاس :أى إنهم تبالَهُوا فلم تغن فيهم النذارة شيئا . واختلف القراء فى قراءة «أأنذرتهم» فقرأ أهل المدينة وأبو عمرو

(١) راجع جـ ١٣ ص ١٢٥ . (٢) هو أعشى قيس الملقب بالأعشى الأكبر .

والأعمش وعبد الله بن أبي إسحاق : « آنذرتهم » بتحقيق الأولى وتسهيل الثانية ، وآختارها الخليل وسيبويه ، وهي لغة قريش وسعد بن بكر ، وعليها قول الشاعر[(١)] :

أيَا ظَبْيَةَ الوَعْساءِ بين جُلَاجِلٍ * وبَيْنَ النَّقا آنْتِ أمْ أمُّ سالِمِ

هجاء « آنت » ألِفٌ واحدة . وقال آخر :

تطالَلْتُ فاستَشْرَفْتُه فعرفتُهُ * فقلت له آنتَ زَيْدُ الأرانِبِ

وروى عن آبن مُحَيْصن أنه قرأ : « أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ » بهمزة لا ألف بعدها ، فحذف لآلتقاء الهمزتين ، أو لأن أم تدل على الاستفهام ؛ كما قال الشاعر :

تَرُوحُ مِن الحَيِّ أم تَبْتَكِرْ * وماذا يَضِيرُك لو تَنْتَظِرْ

أراد : أتروح ؛ فاكتفى بأم من الألف . وروى عن آبن أبي إسحاق أنه قرأ : « أاأنذرتهم » فحقق الهمزتين وأدخل بينهما ألفا لئلا يجمع بينهما . قال أبو حاتم : ويجوز أن تدخل بينهما ألفا وتخفَّف الثانية ؛ وأبو عمرو ونافع يفعلان ذلك كثيرا . وقرأ حمزة وعاصم والكسائي بتحقيق الهمزتين : « أأنذرتهم » وهو آختيار أبي عبيد ؛ وذلك بعيد عند الخليل . وقال سيبويه : يشبه في الثقل ضَنِنُوا . قال الأخفش : ويجوز تخفيف الأولى من الهمزتين وذلك رديء ؛ لأنهم إنما يخفِّفون بعد الاستثقال ، وبعد حصول الواحدة . قال أبو حاتم : ويجوز تخفيف الهمزتين جميعا . فهذه سبعة أوجه من القراءات ، ووجه ثامن يجوز في غير القرآن ؛ لأنه مخالف للسواد[(٢)] . قال الأخفش سعيد : تبدل من الهمزة هاء تقول : هأنذرتهم ؛ كما يقال هيّاك وإياك ؛ وقال الأخفش في قوله تعالى : « هَا أَنْتُمْ » إنما هو أأنتم .

قوله تعالى : خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾

فيها عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ ﴾ بيّن سبحانه في هذه الآية المانع لهم من الإيمان بقوله : « ختم الله » . والختم مصدر ختمت الشيء ختما فهو مختوم ومختّم ؛ شدّد للمبالغة . ومعناه

(١) هو ذو الرمة كما في كتاب سيبويه ، والمفصل للزمخشري . (٢) السواد من الناس هم الجمهور الأعظم .

Marfat.com

التغطية على الشيء والاستيثاق منه حتى لا يدخله شيء؛ ومنه : ختم الكتاب والباب وما يشبه ذلك ، حتى لا يوصل إلى ما فيه ، ولا يوضع فيه غير ما فيه .

وقال أهل المعانى : وصف الله تعالى قلوب الكفار بعشرة أوصاف : بالختم والطبع والضيق والمرض والرَّيْن والموت والقساوة والانصراف والحَمِيَّة والإنكار . فقال فى الإنكار : « قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ »(1) . وقال فى الحمية : « إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ »(2) . وقال فى الانصراف : « ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ »(3) . وقال فى القساوة : « فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ »(4) . وقال : « ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ »(5) . وقال فى الموت : « أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ »(6) . وقال : « إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ »(7) . وقال فى الرين : « كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ »(8) . وقال فى المرض : « فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ » . وقال فى الضيق : « وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا »(9) . وقال فى الطبع : « فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ »(10) . وقال : « بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ »(11) . وقال فى الختم : « خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ » . وسيأتى بيانها كلها فى مواضعها إن شاء الله تعالى .

الثانيـــة — الختم يكون محسوسا كما بينا ، ومعنًى كما فى هذه الآية . فالختم على القلوب : عدم الوعى عن الحق — سبحانه — مفهوم مخاطباته والفكر فى آياته . وعلى السمع : عدم فهمهم للقرآن إذا تلى عليهم أو دعُوا إلى وحدانيته . وعلى الأبصار : عدم هدايتها للنظر فى مخلوقاته وعجائب مصنوعاته ؛ هذا معنى قول ٱبن عباس وٱبن مسعود وقتادة وغيرهم .

الثالثـــة — فى هذه الآية أدلّ دليل وأوضح سبيل على أن الله سبحانه خالق الهدى والضلال ، والكفر والإيمان ؛ فاعتبروا أيها السامعون ، وتعجبوا أيها المفكرون من عقول القدرية القائلين بخلق إيمانهم وهداهم ؛ فإن الختم هو الطبع فمن أين لهم الإيمان ولو جهدوا ؛

(1) راجع جـ ١٠ ص ٩٥ (2) راجع جـ ١٦ ص ٢٨٨ (3) راجع جـ ٨ ص ٣٠٠
(4) راجع جـ ١٥ ص ٢٤٨ (5) راجع جـ ١ ص ٤٦٢ (6) راجع جـ ٧ ص ٧٨
(7) راجع جـ ٦ ص ٤١٨ (8) راجع جـ ١٩ ص ٢٥٧ (9) راجع جـ ٧ ص ٨١
(10) راجع جـ ١٨ ص ١٢٤ (11) راجع جـ ٦ ص ٧

Marfat.com

وقد طبع على قلوبهم وعلى سمعهم وجعل على أبصارهم غشاوة ، فمتى يهتدون ، أو من يهديهم من بعد الله إذا أضلهم وأصمهم وأعمى أبصارهم « ومن يضلِلِ الله فما له من هادٍ »[1] ! وكان فعل الله ذلك عدلا فيمن أضله وخذله ، إذ لم يمنعه حقا وجب له فتزول صفة العدل ، وإنما منعهم ما كان له أن يتفضل به عليهم لا ما وجب لهم .

فإن قالوا : إن معنى الختم والطبع والغشاوة التسميةُ والحكم والإخبارُ بأنهم لا يؤمنون ، لا الفعل . قلنا : هـذا فاسد ، لأن حقيقة الختم والطبع إنما هو فعل ما يصير به القلب مطبوعا مختوما ؛ لا يجوز أن تكون حقيقته التسمية والحكم ؛ ألا ترى أنه إذا قيل : فلان طبع الكتاب وختمه ، كان حقيقة أنه فعل ما صار به الكتاب مطبوعا ومختوما ، لا التسمية والحكم . هذا ما لا خلاف فيه بين أهل اللغة ، ولأن الأمة مجمعة على أن الله تعالى قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين مجازاة لكفرهم ؛ كما قال تعالى : « بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ » . وأجمعت الأمة على أن الطبع والختم على قلوبهم من جهة النبي عليه السلام والملائكة والمؤمنين ممتنع ؛ فلو كان الختم والطبع هو التسمية والحكم لما امتنع من ذلك الأنبياء والمؤمنون ؛ لأنهم كلهم يسمون الكفار بأنهم مطبوع على قلوبهم ، وأنهم مختوم عليها وأنهم في ضلال لا يؤمنون ؛ ويحكمون عليهم بذلك . فثبت أن الختم والطبع هو معنًى غير التسمية والحكم ؛ وإنما هو معنًى يخلقه الله في القلب يمنع من الإيمان به ؛ دليله قوله تعالى : « كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ . لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ »[2] . وقال : « وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ »[2] . أي لئلا يفقهوه ، وما كان مثله .

الرابعــة — قوله : ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ فيه دليل على فضل القلب على جميع الجوارح . والقلب للإنسان وغيره . وخالص كل شيء وأشرفه قلبه ؛ فالقلب موضع الفكر . وهو في الأصل مصدر قَلَبْتُ الشيء أقلبه قلبا إذا رددته على بداءته . وقلبت الإناء : رددته على وجهه . ثم نقل هذا اللفظ فسمي به هذا العضو الذي هو أشرف الحيوان ، لسرعة الخواطر إليه ، ولترددها عليه ؛ كما قيل :

ما سُمِّيَ القلب إلا مِنْ تقلُّبِه * فاحذرْ على القلب من قَلْبٍ وتحويل

(١) راجع جـ ١٥ ص ٢٥٠ (٢) راجع جـ ١٠ ص ٧ و ٢٧١ .

Marfat.com

ثم لما نقلت العرب هذا المصدر لهذا العضو الشريف التزمت فيه تفخيم قافه ، تفريقاً بينه و بين أصله . روى ابن ماجه عن أبي موسى الأشعري عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " مَثَلُ القلب مَثَلُ ريشة تقلّبها الرياح بفلاة " . ولهذا المعنى كان عليه الصلاة والسلام يقول : " اللهمّ يا مثبّت القلوب ثبّت قلوبنا على طاعتك " . فإذا كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يقوله مع عظيم قدره وجلال منصبه فنحن أولى بذلك اقتداء به ؛ قال الله تعالى : « وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ » (١) . وسيأتي

الخامســـة — الجوارح و إن كانت تابعة للقلب فقد يتأثر القلب –و إن كان رئيسها وملكها — بأعمالها للارتباط الذى بين الظاهر والباطن؛ قال صلى الله عليه وسلم : " إن الرجل ليصدُقُ فتُنكت فى قلبه نكتة بيضاء و إن الرجل ليكذب الكذبة فيسودّ قلبه " وروى الترمذى وصححه عن أبى هريرة : "أن الرجل ليصيب الذنب فيسودّ قلبه فإن هو تاب صقل قلبه " . قال : وهو الرَّين الذى ذكره الله فى القرآن فى قوله : « كَلَّا بَلْ رَانَ (٢) عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » . وقال مجاهد : القلب كالكف يقبض منه بكل ذنب إصبع ، ثم يطبع .

قلت : وفى قول مجاهد هذا ، وقوله عليه السلام : " إن فى الجسد مُضْغةً إذا صلحت صلح الجسد كله و إذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب — " دليل على أن الختم يكون حقيقيا ؛ والله أعلم . وقد قيل : إن القلب يشبه الصَّنَوْبرة ، وهو يَعْضُد قول مجاهد ؛ والله أعلم .

وقد روى مسلم عن حذيفة قال حدّثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر : حدّثنا " أن الأمانة نزلت فى جَذْر قلوب الرجال ثم نزل القرآن فعلِموا من القرآن وعلِموا من السُّنة " . ثم حدّثنا عن رفع الأمانة قال : " ينام الرجل النَّومةَ فتُقبَض الأمانةُ من قلبه فيَظَل أثرها مثلَ الوَكْت ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل المَجْل كجَمْر دحرجته على رجلك فنَفِط فتراه مُنْتَبِرًا وليس فيه شيء — ثم أخذ حصى فدحرجه على رجله — فيُصبِح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدّى الأمانة حتى يقال إن

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٩٠ (٢) راجع جـ ١٩ ص ٢٥٧ .

فى بنى فلان رجلا أمينا حتى يقال للرجل ما أجْلَدَه ما أظرفه ما أعقله وما فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ولقد أتى علىّ زمان وما أبالى أيّكم بايعت لئن كان مسلما ليردّنه علىّ دينه ولئن كان نصرانيا أو يهوديا ليردّنه علىّ ساعيه[(١)] وأما اليوم فما كنت لأبايع منكم إلا فلانا وفلانا".

ففى قوله: "الوَكْت" وهو الأثر اليسير. ويقال للبُسْر إذا وقعت فيه نكتة من الإرطاب: قد وَكّت، فهو مُوَكِّت. وقوله: "المَجْل"، وهو أن يكون بين الجلد واللحم ماء؛ وقد فسّره النبىّ صلى الله عليه وسلم بقوله: "كجمرٍ دحرجته" أى دوّرته على رجلك فنفط. "فتراه مُنْتَبِرًا" أى مرتفعا — ما يدل على أن ذلك كله محسوس فى القلب يفعل فيه؛ وكذلك الختم والطبع؛ والله أعلم.

وفى حديث حذيفة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "تُعْرَض الفتن على القلوب كالحصير عُودًا عُودًا فأىّ قلب أُشْرِبَها نُكِت فيه نُكتةٌ سوداء وأىّ قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين على أبيضَ مثل الصَّفا فلا تضره فتنةٌ مادامت السموات والأرض والآخرُ أسودُ مُرْبَادٌّ[(٢)] كالكُوز مُجَخِّيًا لا يعرف معروفا ولا يُنْكِر منكرا إلّا ما أُشْرِب من هواه ..." وذكر الحديث. "مُجَخِّيًا": يعنى مائلا.

السادســـة — القلب قد يعبر عنه بالفؤاد والصدر، قال الله تعالى: «كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ[(٣)]». وقال: «أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ[(٤)]» يعنى فى الموضعين قلبك. وقد يعبر به عن العقل؛ قال الله تعالى: «إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ[(٥)] لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ» أى عقل؛ لأن القلب محل العقل فى قول الأكثرين. والفؤاد محل القلب، والصدر محل الفؤاد؛ والله أعلم.

السابعــة — قوله تعالى: ﴿ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ﴾ استدل بها من فضّل السمع على البصر لتقدمه عليه، وقال تعالى: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ[(٦)] وَأَبْصَارَكُمْ». وقال: «وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ[(٧)] وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ». قال: والسمع يُدْرَك به من الجهات الست، وفى النور والظلمة؛ ولا يُدْرَك بالبصر إلا من الجهة المقابلة، وبواسطة من ضياء وشعاع. وقال أكثر المتكلمين

---

(١) ساعيه: هو رئيسهم الذى يصدرون عن رأيه ولا يمضون أمرا دونه (النهاية). (٢) ويروى: «مربد» أى اختلط سواده بكدرة. (٣) راجع جـ ١٣ ص ٢٨ (٤) راجع جـ ٢٠ ص ١٠٤

(٥) راجع جـ ١٧ ص ٢٣ (٦) راجع جـ ٦ ص ٤٢٧ (٧) راجع جـ ١٠ ص ١٥١

Marfat.com

بتفضيل البصر على السمع ؛ لأن السمع لا يدرك به إلا الأصوات والكلام ، والبصر يدرك به الأجسام والألوان والهيئات كلها . قالوا : فلما كانت تعلقاته أكثر كان أفضـل ؛ وأجازوا الإدراك بالبصر من الجهات الست .

الثامنـــة — إن قال قائل : لِمَ جمع الأبصار ووحّد السمع ؟ قيل له : إنما وحّده لأنه مصدر يقع للقليل والكثير ؛ يقال : سمعت الشيء أسمعه سَمْعًا وسماعا ، فالسّمع مصدر سمعت ؛ والسمع أيضا آسم للجارحة المسموع بهـا سُمِّيت بالمصدر . وقيل : إنه لمـا أضاف السمع إلى الجماعة دل على أنه يراد به أسماع الجماعة ؛ كما قال الشاعر[(١)] :

بها جِيَفُ الحَسْرَى فأما عِظامُها • فبيـــضٌ وأما جلدها فصَلِيبُ

إنما يريد جلودها فوحّد ؛ لأنه قد علم أنه لا يكون للجماعة جلد واحد .

وقال آخر[(٢)] في مثله :

لا تُنكِرِ القتلَ وقـد سُبِينَا • في حَلْقِكم عَظْمٌ وقد شَجِينَا

يريد في حلوقكم ؛ ومثله قول الآخر :

كأنه وجهُ تُرْكِيَّيْنِ قد غضبا • مستهدف لطعـان غير تذبيب

وإنما يريد وجهين ، فقال وجه تركيين ؛ لأنه قد علم أنه لا يكون للاثنين وجه واحد ؛ ومثله كثير جدا . وقرئ : « وعلى أسماعهم » ويحتمل أن يكون المعنى وعلى مواضع سمعهم ؛ لأن السمع لا يختم وإنما يختم موضع السمع ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه . وقد يكون السمع بمعنى الاستماع ؛ يقال : سَمْعُك حديثي — أي آستماعك إلى حديثي — يعجبني ؛ ومنه قول ذي الرُّمة يصف ثورا تَسمّع إلى صوت صائد وكلاب :

وقد تَوَجَّسَ رِكْزًا مُقْفِرٌ نَدُسٌ • بِنَبْأَةِ الصوتِ ما في سَمعه كَذِبُ

---

(١) هو علقمة بن عبدة . وصف طريقا بعيدا شاقا على من سلكه . بجيف الحسرى وهى المعيبة من الإبل مستقرة فيه . وقوله : فأما عظامها فبيض ، أى أكلت السباع والطير ماعليها من اللحم فنخرت وبدا وضحها . وقوله : وأما جلدها الخ ، أى محرم يابس لأنه ملق بالفلاة لم يدبغ ، ويقال : الصليب هنا الودك ؛ أى قد سال مافيه من رطوبة لإحماء الشمس عليه . (عن شرح الشواهد للشنتمرى) . (٢) هو المسيب بن زُهَيْد مناة الغنوى ؛ كما في كتاب سيبويه .

أى ما فى ٱستماعه كذب؛ أى هو صادق الاستماع. والنَّدُس: الحاذق. والنَّبْأة: الصوت الخفى، وكذلك الركز. والسِّمع (بكسر السين وإسكان الميم): ذِكر الإنسانُ بالجميل؛ يقال: ذهب سِمْعه فى النـاس أى ذكره. والسِّمْع أيضا: ولد الذئب من الضبع. والوقف هنا: «وعلى سمعهم». و «غِشَاوَةٌ» رفع على الابتداء وما قبله خبر. والضمائر فى «قلوبهم» وما عُطِف عليه لمن سبق فى علم الله أنه لا يؤمن من كفار قريش، وقيل من المنافقين، وقيل من اليهود، وقيل من الجميع، وهو أصوب؛ لأنه يعم. فالختم على القلوب والأسماع. والغشاوة على الأبصار. والغشاء: الغطاء. وهى:

التاسـعة — ومنه غاشية السَّرْج؛ وغشيت الشىء أغشيه. قال النابغة:

هلّا سألت بنى ذُبْيان ما حسبِي * إذا الدُّخَانُ تَغشَّى الأشْمطَ البَرَمَا[1]

وقال آخر:[2]

صحبتُـكَ إذ عينى عليهـا غشاوةٌ * فلما ٱنجلَتْ قطّعتُ نفسى أَلُومُها

قال ٱبن كَيسان: فإن جمعت غشاوة قلت: غشاء بحذف الهاء. وحكى الفرّاء: غشاوى مثل أداوى. وقرئ: «غشاوةً» بالنصب على معنى وجعل، فيكون من باب قوله:

* علفتُها تِبْنًـا وماء باردا *

وقول الآخر:[3]

يا ليت زوجَك قـد غدا * متقـلِّدا سـيفًا ورُمْحـا

المعنى وأسقيتها ماء، وحاملا رمحا؛ لأن الرمح لا يتقلد. قال الفارسى: ولا تكاد تجد هذا الاستعمال فى حال سَعة وٱختيار؛ فقراءة الرفع أحسن، وتكون الواو عاطفة جملة على جملة. قال: ولم أسمع من الغشاوة فعلًا متصرفا بالواو. وقال بعض المفسرين: الغشاوة على الأسماع والأبصار؛ والوقف على «قلوبهم». وقال آخرون: الختم فى الجميع، والغشاوة هى الختم؛ فالوقف على هذا على «غشاوة». وقرأ الحسن «غُشاوة» بضم الغين، وقرأ أبو حَيْوَة بفتحها؛ وروى عن

(١) الأشمط: الذى خالطه الشيب. والبرم: الذى لا يدخل مع القوم فى الميسر ويأكل معهم من لحمه.
(٢) هو الحارث بن خالد المخزومى؛ كما فى اللسان مادة (غشا). (٣) هو عبد الله بن الزبعرى؛ كما فى الكامل للبرد ص ١٨٩ طبع أوربا.

Marfat.com

أبي عمرو: غشوة، ردّه إلى أصل المصدر. قال ابن كيسان: ويجوز غَشْوة وغُشْوة وأجودها غِشاوة، كذلك تستعمل العرب في كل ما كان مشتملا على الشيء، نحو عِمامة وكِنانة وقِلادة وعِصابة وغير ذلك.

العاشرة — قوله تعالى: ﴿ وَلَهُمْ ﴾ أي للكافرين المكذبين ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ نعتـه. والعذاب مثل الضرب بالسوط والحرق بالنار والقطع بالحديد، إلى غير ذلك مما يؤلم الإنسان. وفي التنزيل: «وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ»[(١)] وهو مشتق من الحبس والمنع، يقال في اللغة: أَعْذِبه عن كذا أي احبسه وامنعه، ومنـه سمي عذوبة الماء، لأنها قـد أعذبت. واستعذب بالحبس في الوعاء ليصفو ويفارقه ما خالطه، ومنه قول عليّ رضي الله عنه: أَعْذِبُوا نساءكم عن الخروج، أي احبسوهن. وعنه رضي الله عنه وقد شيّع سَرِيَّةً فقال: أَعْذِبُوا عن ذكر النساء [أنفسكم] فإن ذلك يَكْسِرُكم عن الغزو، وكل من منعته شيئا فقد أعذبته، وفي المثل: «لأُلجمنّك لجاما معذِبا» أي مانعا عن ركوب الناس. ويقال: أَعْذَبَ أي امتنع. وأَعْذَب غيره، فهو لازم ومتعدٍّ، فسمي العذاب عذابا لأن صاحبه يحبس ويمنع عنه جميع ما يلائم الجسد من الخير ويهال عليه أضدادها.

قوله تعالى: وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾

فيه سبع مسائل:

الأولى — روى ابن جُريج عن مجاهد قال: نزلت أربع آيات من سورة البقرة في المؤمنين، واثنتان في نعت الكافرين، وثلاث عشرة في المنافقين. وروى أسباط عن السدّي في قوله: «ومِنَ النَّاسِ» قال: هم المنافقون. وقال علماء الصوفية: الناس اسم جنس، واسم الجنس لا يخاطب به الأولياء.

الثانيـــة — واختلف النحاة في لفظ الناس، فقيل: هو اسم من أسماء الجموع، جمع إنسان وإنسانة، على غير اللفظ، وتصغيره نُوَيس. فالناس من النَّوْس وهو الحركة، يقال: ناس ينوس أي تحرك، ومنه حديث أم زرع: «أَنَاسَ من حُلِيٍّ أُذُنَيَّ». وقيل: أصله من نسي، فأصل

(١) راجع جـ ١٢ ص ١٦١

ناس نسى قلب فصار نيس تحركت الياء فآنفتح ماقبلها فآنقلبت ألفا، ثم دخلت الألف واللام فقيل : الناس . قال آبن عباس : نسى آدم عهـد الله فسُمِّىَ إنسانا . وقال عليـه السلام : " نسى آدم فنسيَتْ ذريّتُه" . وفى التنزيل : «وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ»(١) وسيأتى. وعلى هذا فالهمزة زائدة؛ قال الشاعر :

لا تَنْسَيَنْ تلك العُهودَ فإنَّما * سُمِّيتَ إنسانًا لأنّـك ناسِى

وقال آخـــر :

فإنْ نَسِيتَ عهودا منك سالفةً * فآغفرْ فأوّلُ ناسٍ أوّلُ الناس

وقيل : سمى إنسانا لِأُنْسه بحواء . وقيل : لِأُنْسه بربه، فالهمزة أصلية؛ قال الشاعر:

وما سُمِّىَ الإنسانُ إلّا لِأُنْسِهِ * ولا القلبُ إلّا أنّهُ يَتَقَلَّبُ

الثالثـــة — لـمـا ذكر الله جلّ وتعالى المؤمنين أوّلا، وبدأ بهم لشرفهم وفضلهم، ذكر الكافرين فى مقابلتهم؛ إذ الكفر والإيمان طرفان. ثم ذكر المنافقين بعدهم وألحقهم بالكافرين قبلهم؛ لنفى الإيمان عنهم بقوله الحق : « وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ» . ففى هذا ردّ على الكَرَّامِيّة حيث قالوا : إن الإيمان قول باللسان وإن لم يعتقد بالقلب؛ وآحتجوا بقوله تعالى : « فَأَثَابَهُمُ اللهُ(٢) بِمَا قَالُوا » . ولم يقل: بما قالوا وأضمروا؛ وبقوله عليه السلام : "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالُوها عَصَمُوا منّى دماءهم وأموالهم". وهذا منهم قصور وجمود، وتَرْكُ نظرٍ لمـا نطق به القرآن والسنة من العمل مع القول والآعتقاد ؛ وقـد قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "الإيمان معرفةٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالأركان". أخرجه آبن ماجه فى سُنَنه. فما ذهب إليه محمد بن كَرّام السّجستانى وأصحابه هو النفاق وعَيْن الشقاق؛ ونعوذ بالله من الخذلان وسوء الآعتقاد .

الرابعـــة — قال علماؤنا رحمة الله عليهم : المؤمن ضربان : مؤمن يحبه الله و يواليه ، ومؤمن لا يحبه الله ولا يواليه، بل يبغضه ويعاديه؛ فكلّ مَن علم الله أنه يوافى بالإيمان، فالله محب له، موالٍ له، راضٍ عنه . وكلّ مَن علم الله أنه يوافى بالكفر، فالله مبغض له، ساخط

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٥١ (٢) راجع جـ ٦ ص ٢٦٠

Marfat.com

عليـه، معادٍ له ، لا لأجل إيمانه، ولكن لكفره وضلاله الذى يوافق به . والكافر ضربان : كافر يُعاقَب لامحالة ، وكافر لايُعاقَب . فالذى يُعاقَب هو الذى يُوافِي بالكفر، فالله ساخط عليه معادٍ له . والذى لايعاقب هو الموافى بالإيمـان ، فالله غير ساخط على هذا ولا مبغض له ، بل محبّ له موالٍ ؛ لا لكفره لكن لإيمـانه الموافى به . فلا يجوز أن يطلق القول وهى : —

الخامســـة — بأن المؤمن يستحق الثواب، والكافر يستحق العقاب، بل يجب تقييده بالموافاة . ولأجل هذا قلنا : إن الله راضٍ عن عمر فى الوقت الذى كان يعبد الأصنام، ومريد لثوابه ودخوله الجنة ؛ لا لعبادته الصنم، لكن لإيمانه الموافى به . وإن الله تعالى ساخط على إبليس فى حال عبادته ؛ لكفره الموافى به .

وخالفت القَدَرِيةُ فى هذا وقالت : إن الله لم يكن ساخطا على إبليس وقت عبادته، ولا راضيا عن عمر وقت عبادته للصنم . وهذا فاسد ؛ لمـا ثبت أن الله سبحانه عالم بما يوافى به إبليس لعنه الله ، وبما يوافى به عمر رضى الله عنه فيما لم يزل ؛ فثبت أنه كان ساخطا على إبليس محبا لعمر . ويدل عليه إجماع الأمة على أن الله سبحانه وتعالى غير محب لمن علم أنه من أهل النار، بل هو ساخط عليه ؛ وأنه محب لمن علم أنه من أهل الجنة ؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "وإنما الأعمال بالخواتيم" ولهذا قال علماء الصوفية : ليس الإيمان ما يتزيّن به العبـد قولا وفعلا ؛ لكن الإيمان جَرْيُ السعادة فى سوابق الأزل ، وأما ظهوره على الهياكل فربما يكون عاريا ، وربما يكون حقيقة .

قلت : هذا كما ثبت فى صحيح مسلم وغيره عن عبد الله بن مسعود قال حدّثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق : "**إن أحدَكم يُجمع خَلقُه فى بطن أمّه أربعين يوما ثم يكون فى ذلك عَلَقة مثل ذلك ثم يكون فى ذلك مُضْغَة مثل ذلك ثم يُرسل الله المَلَك فينفُخ فيه الرُّوح ويُؤمر بأربع كلمات بكَتْب رزقه وأجله وعَمَله وشقيٌّ أو سعيد فوالذى لا إله غيره إن أحدكم ليَعْمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراعٌ فيَسْبِق عليه الكتابُ فيعمل بعمل أهل النار فيدخُلُها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع فيَسْبق عليه الكتابُ فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها**" . **فإن قيل وهى** : —

Marfat.com

السادســة — فقد خرّج الإمام الحافظ أبو محمد عبد الغنى بن سعيد المصرى من حديث محمد بن سعيد الشامى المصلوب فى الزندقة، وهو محمد بن أبى قيس، عن سليمان بن موسى وهو الأشدق، عن مجاهد بن جبر عن آبن عباس أخبرنا أبو رَزِين العقيلى قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لأشرب أنا وأنت يا أبا رزين من ابن لم يتغيّر طعمه " قال قلت : كيف يحيى الله الموتى ؟ قال : " أما مررتَ بأرض لك مُجْدبة ثم مررت بها مخصبة ثم مررت بها مجدبة ثم مررت بها مخصبة " قلت : بلى . قال : " كذلك النشور " قال قلت : كيف لى أن أعلم أنى مؤمن ؟ قال : " ليس أحد من هذه الأمة — قال آبن أبى قيس : أو قال من أمتى — عمل حسنة وعلم أنها حسنة وأن الله جازيه بها خيرا أو عمل سيئة وعلم أنها سيئة وأن الله جازيه بها شرا أو يغفرها إلا مؤمن " .

قلت : وهــذا الحديث وإن كان ســنده ليس بالقوى فإن معناه صحيح وليس بمعارض لحديث آبن مسعود؛ فإن ذلك موقوف على الخاتمة؛ كما قال عليه السلام : " وإنمـا الأعمال بالخواتيم " . وهذا إنمـا يدل على أنه مؤمن فى الحال؛ والله أعلم .

السابعــة — قال علماء اللغة : إنمـا سُمّى المنافق منافقاً لإظهاره غير ما يضمر؛ تشبيها باليربوع، له جحر يقال له : النافقاء، وآخر يقال له : القاصعاء . وذلك أنه يخرق الأرض حتى إذا كاد يبلغ ظاهر الأرض أرَقّ التراب؛ فإذا رابه ريب دفع ذلك التراب برأسه فخرج؛ فظاهر جُحره تراب، وباطنه حفر. وكذلك المنافق ظاهره إيمان، وباطنه كفر؛ وقد تقدّم هذا المعنى .

قوله تعـالى : ﴿ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُـواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾

قال علماؤنا : معنى « يخادعون الله » أى يخادعونه عند أنفسهم وعلى ظنهم . وقيل : قال ذلك لعملهم عمل المخادع . وقيــل : فى الكلام حذف، تقديره : يخادعون رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ عن الحسن وغيره . وجعل خداعهم لرســوله خداعا له؛ لأنه دعاهم برسالته؛ وكذلك إذا خادعوا المؤمنين فقد خادعوا الله . ومخادعتهم : ما أظهروه من الإيمان

Marfat.com

خلاف ما أبطنوه من الكفر، ليَحْقنوا دماءهم وأموالهم ، ويظنون أنهــم قد نجَوْا وخدعوا ؛ قاله جماعة من المتأولين . وقال أهل اللغــة : أصل الخدع فى كلام العرب الفساد ؛ حكاه ثعلب عن آبن الأعرابى . وأنشد :

أَبيَضُ اللَّونِ لذيذٌ طعْمُه * طيِّبُ الرِّيق إذا الرِّيقُ خَدَعْ [(1)]

قلت : فـ « يخادعون الله» على هذا ، أى يفسدون إيمانهم وأعمالهم فيما بينهم وبين الله تعالى بالرياء . وكذا جاء مفسَّرا عن النبىّ صلى الله عليه وسلم على ما يأتى . وفى التنزيل : « يُرَاءُونَ النَّاسَ » [(2)] . وقيل : أصله الإخفاء، ومنه مخدع البيت الذى يحرز فيه الشىء؛ حكاه آبن فارس وغيره . وتقول العرب : آنخدع الضب فى جُحره .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ﴾ نفى و إيجاب ؛ أى ماتحلّ عاقبة الخدع إلا بهم. ومن كلامهم : مَن خَدَع من لايُخْدع فإنما يَخْدع نفسه . وهذا صحيح؛ لأن الخداع إنما يكون مع من لا يعرف البواطن ؛ وأما من عرف البواطن فمن دخل معــه فى الخداع فإنمـا يخدع نفسه . ودلّ هذا على أن المنافقين لم يعرفوا الله إذ لو عرفوه لعرفوا أنه لا يخدع؛ وقد تقدّم من قوله عليه الســلام أنه قال : " لا تخادع الله فإنه مَن يخادع الله يخدعه الله ونفسَه يخدع لو يشعر " قالوا : يارسول الله، وكيف يُخادَع اللهُ ؟ قال : " تعمل بما أمرك الله به وتطلب به غيره " . وسيأتى بيان الخدع من الله تعالى كيف هو عند قوله تعالى : « اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » . وقرأ نافع وآبن كثير وأبو عمرو : «يخادعون» فى الموضعين؛ ليتجانس اللفظان . وقرأ عاصم وحمزة والكسائى وآبن عامر: «يخدعون» الثانى . والمصدر خِدْع (بكسر الخاء) وخديعة؛ حكى ذلك أبو زيد . وقرأ مُوَرِّق العجلىّ: « يُخَدِّعون الله» (بضم الياء وفتح الخاء وتشديد الدال) على التكثير . وقرأ أبو طالوت عبد السلام بن شــدّاد والجارود بضم الياء و إسكان الخــاء وفتح الدال، على معنى وما يخدعون إلا عن أنفسهم ، فحذف حرف الجر ؛ كما قال تعالى : « وَٱخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ » أى من قومه .

(1) قاله سويد بن أبى كاهل . يصف ثغر امرأة . (2) راجع جـ ٥ ص ٤٢٢

قوله تعالى : ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أى يفطنون أن وبال خدعهم راجع عليهم ؛ فيظنون أنهم قد نجوا بخدعهم وفازوا ؛ و إنما ذلك فى الدنيا ، وفى الآخرة يقال لهم : « آرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَآلْتَمِسُوا نُورًا » على ما يأتى (١). قال أهل اللغة : شَعَرْتُ بالشىء أى فطنت له ؛ ومنه الشاعر لفطنته ؛ لأنه يفطن لما لا يَفْطُن له غيره من غريب المعانى . ومنه قولهم : لَيْتَ شِعْرِى ؛ أى ليتنى علمت .

قوله تعالى : فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ابتداء وخبر . والمرض عبارة مستعارة للفساد الذى فى عقائدهم . وذلك إما أن يكون شكا ونفاقا ، و إما جَحْداً وتكذيباً . والمعنى : قلوبهم مرضى لخلوّها عن العصمة والتوفيق والرعاية والتأييد . قال آبن فارس اللغوى : المرض كل ما خرج به الإنسان عن حدّ الصحة من علّة أو نفاق أو تقصير فى امر . والقراء مجمعون على فتح الراء من « مَرَض » إلا ما روى الأصمعى عن أبى عمرو أنه سكّن الراء .

قوله تعالى : ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضاً﴾ قيل : هو دعاء عليهم . و يكون معنى الكلام : زادهم الله شكًّا ونفاقاً جزاء على كفرهم وضعفا عن الآنتصار وعجزا عن القدرة ؛ كما قال الشاعر :

يا مُرْسِلَ الرِّيحِ جَنوباً وصَبَاً　＊　إذْ غَضِبَتْ زيدٌ فزِدْها غضباَ

أى لا تهدها على الآنتصار فيما غضبت منه . وعلى هـذا يكون فى الآية دليل على جواز الدعاء على المنافقين والطرد لهم ؛ لأنهم شرّ خلق الله . وقيل : هو إخبار من الله تعالى عن زيادة مرضهم ؛ أى فزادهم الله مرضا إلى مرضهم ؛ كما قال فى آية أخرى : « فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ » (٢) . وقال أرباب المعانى : « فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ » أى بسكونهم إلى الدنيا وحبهم لها وغفلتهم عن الآخرة و إعراضهم عنها . وقوله : « فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضاً » أى وَكَلَهم إلى أنفسهم ، وجمع عليهم هموم الدنيا فلم يتفرغوا من ذلك إلى آهتمام بالدين . « وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » بما يفنى عما يبقى . وقال الجُنَيْد : عِللُ القلوب من آتباع الهوى ، كما أن علل الجوارح من مرض البدن .

(١) راجع جـ ١٧ ص ٢٤٦　　(٢) راجع جـ ٨ ص ٢٩٩

قوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ « أليم » فى كلام العرب معناه مؤلم أى موجع ، مثل السميع بمعنى المُسْمِع ؛ قال ذو الرُّمّة يصف إبلا :

ونرفعُ من صُدورِ شَمَرْدَلاتٍ * يَصُكُّ وجوهَها وَهَجٌ أليمُ (١)

وآلم إذا أوجع . والإيلام : الإيجاع . والألم : الوجع ، وقد ألِم يألَم ألَمًا . والتألّم : التوجّع . ويجمع أليم على أُلَمَاء مثل كريم وكُرَماء ، وآلام مثل أشراف .

قوله تعالى : ﴿ بِمَا كَانُوا يُكَذِّبُونَ ﴾ ما مصدرية ؛ أى بتكذيبهم الرسل وردّهم على الله جل وعز وتكذيبهم بآياته ؛ قاله أبو حاتم . وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بالتخفيف ؛ ومعناه بكذبهم وقولهم آمنا وليسوا بمؤمنين .

مسألة — واختلف العلماء فى إمساك النبىّ صلى الله عليه وسلم عن قتل المنافقين مع علمه بنفاقهم على أربعة أقوال :

القول الأول — قال بعض العلماء : إنما لم يقتلهم لأنه لم يعلم حالهم أحد سواه . وقد اتفق العلماء على بَكْرة أبيهم (٢) على أن القاضى لا يقتل بعلمه ، وإنما اختلفوا فى سائر الأحكام . قال ابن العربى : وهذا منتقض ، فقد قُتل بالمُجَذَّر بن زياد الحارثُ بن سُوَيد بن الصّامت ؛ لأنّ المُجَذَّر قتل أباه سُوَيدا يوم بُعاث (٣) ؛ فأسلم الحارث وأغفله يوم أُحُد فقتله ؛ فأخبر به جبريلُ النبىَّ صلى الله عليه وسلم فقتله به ؛ لأن قتله كان غِيلة (٤) ، وقتل الغيلة حَدٌّ من حدود الله .

قلت : وهذه غفلة من هذا الإمام ؛ لأنه إن ثبت الإجماع المذكور فليس بمنتقض بما ذكر ؛ لأن الإجماع لا ينعقد ولا يثبت إلا بعد موت النبىّ صلى الله عليه وسلم وانقطاع الوحى ؛ وعلى هذا فتكون تلك قضيّةً فى عَيْنٍ بوَحْيٍ ، فلا يحتج بها أو منسوخة بالإجماع . والله أعلم .

---

(١) شمردلات : إبل طوال . ونرفع : نستحثها فى السير . والوهج : الحر الشديد المؤلم .

(٢) قوله : « على بكرة أبيهم » هذه كلمة للعرب يريدون بها الكثرة وتوفير العدد .

(٣) بعاث : موضع فى نواحى المدينة ، كانت به وقائع بين الأوس والخزرج فى الجاهلية ؛ وكان الظفر فيه يومئذ للأوس على الخزرج .

(٤) راجع هذه القصة فى سيرة ابن هشام (ص ٣٥٦ ، ٥٧٩) طبع أوربا .

Marfat.com

القول الثانى — قال أصحاب الشافعى : إنما لم يقتلهم لأن الزنديق وهو الذى يُسِرّ الكفر ويظهر الإيمـان يُستتاب ولا يُقتل . قال ٱبن العربى : وهذا وَهَمٌ، فإن النبىّ صلى الله عليه وسلم لم يستتبهم ولا نَقل ذلك أحد، ولا يقول أحد إن ٱستتابة الزنديق واجبة (١) وقد كان النبىّ صلى الله عليه وسلم معرضًا عنهم مع علمه بهم . فهـذا المتأخر من أصحاب الشافعى الذى قال : إن ٱستتابة الزنديق جائزة (٢) قال قولا لم يصح لأحد .

القول الثالث — إنما لم يقتلهم مصلحةً لتأليف القلوب عليه لئلا تنفر عنه ؛ وقد أشار صلى الله عليه وسلم إلى هذا المعنى بقوله لعمر : "معاذ الله أن يتحدّث الناس أنى أقتل أصحابى" أخرجه البخارى ومسلم . وقد كان يُعطى للمؤلفة قلوبهم مع علمه بسوء ٱعتقادهم تألُّفًا ؛ وهـذا هو قول علمائنـا وغيرهم . قال ٱبن عطية : وهى طريقة أصحاب مالك رحمـه الله فى كفّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المنافقين ؛ نصّ على هذا محمد بن الجَهْم والقاضى إسماعيل والأبهرى وٱبن المـاجشون، وٱحتج بقوله تعالى : « لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ » إلى قوله . « وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا » (٣) . قال قتادة : معناه إذا هم أعلنوا النفاق . قال مالك رحمه الله : النفاق فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الزّندقة فينا اليوم ؛ فيُقتل الزنديق إذا شُهِد عليـه بها دون ٱستتابة ؛ وهو أحد قولى الشـافعى . قال مالك : وإنمـا كفّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المنافقين ليبيّن لأمته أن الحاكم لا يحكم بعلمه ؛ إذ لم يُشْهَد على المنافقين . قال القاضى إسمـاعيل : لم يشهد على عبد الله بن أُبَىّ (٤) إلا زيد بن أَرْقَم وحده ، ولا على الجُلَاس (٥) بن سويد إلا عُمَير بن سعد ربيبه ؛ ولو شهد على أحد منهم رجلان بكفره ونفاقه لقتل . وقال الشافعىّ رحمه الله محتجًّا للقول الآخر : السُّنّة فيمن شُهد عليه بالزندقة فجحد

(١) الذى فى كتاب الأحكام لابن العربى : « ... أن ٱستتابة الزنديق غير واجبة » .

(٢) كذا فى الأصول وكتاب الأحكام لأبن العربى . ولعل صواب العبارة : « إن ٱستتابة الزنديق واجبة » .

(٣) راجع جـ ١٤ ص ٢٤٥

(٤) سيذكر الإمام القرطبى قصته عند تفسير سورة « المنافقون » .

(٥) كان متهما بالنفاق ، وهو الذى نزل فيه قوله تعالى : « يحلفون بالله ما قالوا » الآية . وستأتى قصته عند تفسير هذه الآية فى سورة « براءة » إن شاء الله تعالى . وقد أوردها ٱبن هشام فى سيرته ص ٣٥٥ طبع أوربا . وٱبن عبد البر فى الٱستيعاب جـ ١ ص ٩٧ طبع الهند .

Marfat.com

وأعلن بالإيمان وتبرأ من كل دين سوى الإسلام أن ذلك يمنع من إراقة دمه . و به قال أصحاب الرأى وأحمد والطبرى وغيرهم . قال الشافعى وأصحابه : و إنما منع رسول الله صلى الله عليه وسلم من قتل المنافقين ما كانوا يظهرونه من الإسـلام مع العـلم بنفاقهم ؛ لأن مايظهرونه يَجُبُّ ماقبـله . وقال الطبرى : جعل الله تعـالى الأحكام بين عباده على الظاهر، وتولّى الحكم فى سرائرهم دون أحد من خلقه، فليس لأحد أن يحكم بخلاف ما ظهر؛ لأنه حكم بالظنون، ولو كان ذلك لأحدٍ كان أولى الناس به رسـول الله صلى الله عليه وسـلم ، وقد حكم للمنافقين بحكم المسلمين بما أظهروا، ووكّل سرائرهم إلى الله . وقد كذب الله ظاهرهم فى قوله : «وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ » . قال آبن عطية : ينفصل المـالكيون عما لزموه من هـذه الآية بأنهـا لم تُعيّن أشخاصهم فيها و إنمـا جاء فيها تو بيخ لكل مغموص(1) عليـه بالنفاق ؛ و بقى لكل واحد منهـم أن يقول : لم أُرَد بهـا وما أنا إلا مؤمن ، ولو عُيّن أحد لمـا جَبّ كذبه شيئا .

قلت : هذا الآنفصال فيه نظر، فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يَعْلَمهم أو كثيرا منهم بأسمائهم وأعيانهم بإعلام الله تعالى إياه ؛ وكان حُذيفة يعلم ذلك بإخبار النبيّ عليه السلام إياه حتى كان عمر رضى الله عنه يقول له : يا حذيفة هل أنا منهم ؟ فيقول له : لا .

القول الرابع — وهو أن الله تعـالى كان قد حفظ أصحاب نبيّه عليه السلام بكونه ثبّتهم أن يفسدهم المنافقون أو يفسـدوا دينهم فلم يكن فى تَبْقِيَتهم ضرر ، وليس كذلك اليوم؛ لأنّا لا نأمن من الزنادقة أن يفسدوا عامتنا وجهالنا .

قوله تعـالى :وَإِذَا قِيـلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا إِنَّمَـا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾

« إذا » فى موضع نصب على الظرف والعامل فيها « قالوا » ؛ وهى تؤذن بوقوع الفعل المنتظر . قال الجوهرى : «إذا» آسم يدلّ على زمان مستقبل، ولم تستعمل إلا مضافة إلى

(1) قوله : لكل مغموص . أى مطعون فى دينه ، متهم بالنفاق .

Marfat.com

جمـلة؛ تقول : أجيئك إذا ٱحمرّ الْبُسْر، و إذا قَدِم فلان . والذى يدل على أنها ٱسم وقوعها موقع قولك : آتيك يوم يَقدَم فلان؛ فهى ظرف وفيها معنى المجازاة . و جزاء الشرط ثلاثة : الفعل والفاء و إذا؛ فالفعل قولك : إن تأتنى آتك . والفاء : إن تأتنى فأنا أُحسن إليك . و إذا كقوله تعالى : « و إنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إذا هُمْ يَقْنَطُونَ »(١) . ومما جاء من المجازاة بإذا فى الشعر قول قيس بن الخَطِيم :

إذا قَصُرَتْ أسيافُنا كان وصلُها * خُطانا إلى أعدائنـا فنُضارِبِ(٢)

فعطف « فنضارب » بالجـزم على « كان » لأنه مجـزوم ؛ ولو لم يكن مجزوما لقال : فنضاربَ ؛ بالنصب . وقد تزاد على « إذا » « ما » تأكيدًا، فيُجزم بها أيضا ؛ ومنه قول الفَرَزْدَق :

فقام أبو لَيْلَى إليه ٱبنُ ظالمٍ * وكان إذا ما يَسْلُلِ السيفَ يضربِ

قال سيبويه : والجيّد ما قال كعب بن زُهَير :

و إذا ما تشـاءُ تبعثُ منهـا * مغربَ الشمسِ ناشِطًا مَذْعُورا(٣)

يعنى أن الجيّد ألا يجزم بإذا ؛ كما لم يجزم فى هذا البيت . وحكى عن المبرّد أنها فى قولك فى المفاجأة : خرجت فإذا زيد ، ظرف مكان ؛ لأنها تضمنت جُثّة . وهذا مردود ؛ لأن المعنى خرجت فإذا حضور زيد ؛ فإنما تضمّنت المصدر كما يقتضيه سائر ظروف الزمان ؛ ومنه قولهم : « اليومَ خَمْرٌ وغدًا أمْرٌ » فمعناه وجود خمر ووقوع أمر .

قوله : ﴿قِيلَ﴾ من القَول وأصله قُوِل؛ نُقِلت كسرة الواو إلى القاف فٱنقلبت الواو ياء . و يجوز : «قيل لهم» بإدغام اللام فى اللام . وجاز الجمع بين ساكنين؛ لأن الياء حرف مدّ ولين . قال الأخفش : و يجوز «قُيل» بضم القاف والياء . وقال الكسائى : و يجوز إشمام القاف الضم ليدل على أنه لمـا لم يسم فاعله، وهى لغـة قيس . وكذلك جِىءَ وغِيضَ وحِيل وسِيق وسِىء

---

(١) راجع ج ١٤ ص ٣٤ (٢) يقول : إذا قصرت أسيافنا فى اللقاء عن الوصول إلى الأقران وصلناها بخطانا مقدمين عليهم حتى تنالهم . (٣) وصف ناقته بالنشاط والسرعة بعد سير النهار كله ؛ فشبهها فى انبعاثها مسرعة بناشط قد ذعر من صائد أو سبع . والناشط : الثور يخرج من بلد إلى بلد ؛ فذلك أوحش له وأذعر .

Marfat.com

وسيئت . وكذلك روى هشام عن آبن عباس، ورُوَيْس عن يعقوب[1][2] . وأَشَمّ منها نافع سيء وسيئت خاصـة . وزاد آبن ذَكوان : حِيل وسِيق ؛ وكسر الباقون فى الجميع . فأما هُـذيل وبنو دُبَير من أسد و بنى فَقْعَس فيقولون : « قُوْل » بواو ساكنة .

قوله : ﴿لَا تُفْسِدُوا﴾ «لا» نهى . والفساد ضدّ الصلاح، وحقيقته العدول عن الآستقامة إلى ضدّها . فَسَد الشيء يَفْسُد فَسادا وفُسودًا وهو فاسد وفسِيد . والمعنى فى الآية : لا تُفسدوا فى الأرض بالكفر وموالاة أهله ، وتفريق الناس عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن. وقيـل : كانت الأرض قبـل أن يبعث النبيّ صلى الله عليه وسـلم فيها الفساد، و يفعـل فيها بالمعاصى ؛ فلمـا بُعث النبيّ صلى الله عليه وسلم آرتفع الفساد وصلحت الأرض . فإذا عملوا بالمعاصى فقد أفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ؛ كما قال فى آية أخرى : «وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا»[3] .

قوله : ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ الأرض مؤنثة، وهى آسم جنس، وكان حق الواحدة منها أن يقال أرْضة، ولكنهم لم يقولوا . والجمع أرَضات ؛ لأنهم قد يجمعون المؤنث الذى ليست فيه هاء التأنيث بالتاء كقولهم : عُرُسات . ثم قالوا أرَضون فجمعوا بالواو والنون ؛ والمؤنث لا يجمع بالواو والنون إلا أن يكون منقوصا كثُبَة وظُبَة، ولكنهم جعلوا الواو والنون عوضًا من حذفهم الألف والتاء وتركوا فتحة الراء على حالها، وربما سُكّنت . وقد تجمع على أُرُوض . وزعم أبو الخطاب أنهم يقولون : أرْض وآراض، كما قالوا : أهل وآهال . والأراضى أيضا على غير قياس ؛ كأنهم جمعوا آرُضا . وكل ما سـفل فهـو أرض . وأَرْض أرِيضة ؛ أى زكـيّة بيّنة الأراضة. وقد أرُضت بالضم ، أى زكت . قال أبو عمرو: نزلنا أرضا أريضة ؛ أى معجبة للعين ؛ و يقال : لا أرض لك ، كما يقال : لا أمّ لك . والأرض : أسفل قوائم الدابة ؛ قال حُمَيد يصف فرسا :

ولم يُقلِّب أرضَها البَيْطارُ * ولا لحَبْلَيْـه بها حَبَارُ

---

(١) فى نسخة : « ابن عامر» .
(٢) رويس (كزبير) محمد بن المتوكل القارئ ، راوى يعقوب ابن إسحاق .
(٣) راجع جـ ٧ ص ٢٢٦

Marfat.com

أى أثر . والأرض : النُّفْضَة والرِّعْدة . روى حماد بن سلمة عن قتادة عن عبــد الله بن الحارث قال : زُلزِلَت الأرض بالبصرة ؛ فقال ابن عباس : والله ما أدرى ! أزُلزلت الأرض أم بى أرْض ؟ أى أم بى رِعدة ؛ وقال ذو الرُّمّة يصف صائدا :

إذا تَوجّس رِكْزاً من سَنابكها * أو كان صاحبَ أرضٍ أو به المُومُ(١)

والأرض : الزّكام . وقد آرضه الله إيراضا ؛ أى أزكمه فهو مأروض . وفسِيل مستأرِض ، ووَدِيّة مستأرِضة (بكسر الراء) وهو أن يكون له عِرق فى الأرض ؛ فأما إذا نبت على جــذع النخل فهو الراكب . والإراض (بالكسر) : بساط ضخم من صوف أو وبر . ورجل أريض ؛ أى متواضع خليق للخير . قال الأصمعى يقال : هو آرَضُهم أن يفعل ذلك ؛ أى أخلقهم . وشىء عَرِيض أرِيض إتباع له ؛ وبعضهم يفرده ويقول : جَدْىٌ أرِيض ؛ أى سمين .

قوله : ﴿نَحْنُ﴾ أصل « نحن » نَحُنْ ، قُلبت حركة الحاء على النون وأسكنت الحاء ؛ قاله هشام بن معاوية النحوى . وقال الزجاج : « نحن » لجماعة ، ومن علامة الجماعة الواو ، والضمة من جنس الواو ؛ فلما آضطروا إلى حركة « نحن » لالتقاء الساكنين حركوها بما يكون للجماعة . قال : لهذا ضموا واو الجمع فى قوله عز وجل : « أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ » . وقال محمد ابن يزيد : « نحن » مثل قَبْلُ وبعدُ ؛ لأنها متعلقة بالإخبار عن آثنين وأكثر ، فـ« أنا » للواحد و« نحن » للتثنية والجمع ، وقد يخبر به المتكلم عن نفسه فى قوله : نحن قمنا ؛ قال الله تعالى : « نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ »(٢) . والمؤنث فى هــذا إذا كانت متكلمة بمنزلة المذكر ؛ تقول المــرأة : قمت وذهبت ، وقمنا وذهبنا ، وأنا فعلت ذاك ، ونحن فعلنا . هذا كلام العرب فآعلم .

قوله تعالى : ﴿مُصْلِحُونَ﴾ آسم فاعل من أصلح . والصلاح : ضد الفساد . وصَلُح الشىء (بضم اللام وفتحها) لغتان ؛ قاله آبن السِّكِّيت . والصُّـلوح (بضم الصاد) مصــدر صَلُح (بضم اللام) ؛ قال الشاعر :

(١) توجس : تسمع . الركز : الحس والصوت الخفى . سنابكها : حوافرها . الموم : البرسام وهو الخبل . وقيل : الموم الجدرى الكثير المتراكب . ومعناه : أن الصياد يُذهِبُ نَفَسَه إلى السماء ويَفْغَر إليها أبدا لئلا يجد الوحش نَفَسَه فينفر . وشبه بالمبرسم أو المزكوم لأن البرسام مفغر والزكام مفغر . (عن اللسان) . (٢) راجع جـ ١٦ ص ٨٣

Marfat.com

فكيف بإطراق إذا ما شَتَمْتَنِي * وما بعـد شَتْمِ الوالدين صُـلُوحُ

وصلاح من أسماء مكة . والصِّلْح (بكسر الصاد) : نهر .

وإنما قالوا ذلك على ظنهم ؛ لأن إفسادهم عندهم إصلاح ؛ أى أن ممالأتنا للكفار إنما نريد بها الإصلاح بينهم وبين المؤمنين . قاله ابن عباس وغيره .

قوله تعالى : أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾

قوله عز وجل : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ﴾ ردّا عليهم وتكذيبا لقولهم . قال أرباب المعانى : من أظهر الدعوى كذب ، ألا ترى أن الله عز وجل يقول : « أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ » وهذا صحيح . وكُسرت « إنّ » لأنها مبتدأة ؛ قاله النحاس . وقال على بن سليمان . يجوز فتحها ؛ كما أجاز سيبويه : حقا أنك منطلق ، بمعنى ألا .(١) و « هُمْ » يجوز أن يكون مبتدأ و « الْمُفْسِدُونَ » خبره والمبتدأ وخبره خبر « إنّ » . ويجوز أن تكون « هم » توكيدا للهاء والميم فى « إنهم » . ويجوز أن تكون فاصلة — والكوفيون يقولون عمادا — و « المفسدون » خبر « إنّ » ؛ والتقدير ألا إنهم المفسدون ، كما تقدّم فى قوله : « وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » .

قوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ قال ابن كَيْسان يقال : ما على من لم يعلم أنه مفسد من الذم ، إنما يذم إذا علم أنه مفسد ثم أفسد على علم ؛ قال : ففيه جوابان : أحدهما — أنهم كانوا يعملون الفساد سرا و يظهرون الصلاح وهم لا يشعرون أن أمرهم يظهر عند النبى صلى الله عليه وسلم . والوجه الآخر : أن يكون فسادهم عندهم صلاحا وهم لا يشعرون أن ذلك فساد ، وقد عصوا الله ورسوله فى تركهم تبيين الحق واتباعه . « وَلَٰكِنْ » حرف تأكيد واستدراك ولا بدّ فيه من نفى وإثبات ؛ إن كان قبله نفى كان بعده إيجاب ، وإن كان قبله إيجاب كان بعده نفى . ولا يجوز الاقتصار بعده على اسم واحد إذا تقدّم الإيجاب ، ولكنك تذكر جملة

(١) فى العبارة غموض . ولعل المعنى المراد : يجوز فتحها كما أجاز سيبويه أما أنك منطلق على معنى حقا أنك منطلق . وأما بمعنى ألا ؛ فإذا فتحت إن بعدهما كانتا بمعنى حقا أنك ... وإذا كسرت كانتا أداتى استفتاح . راجع كتاب سيبويه جـ ١ ص ٤٦٢ طبع بولاق .

Marfat.com

مضادة لمــا قبلها كما فى هذه الآية، وقولك : جاءنى زيد لكن عمرو لم يجئ؛ ولا يجوز جاءنى زيد لكن عمرو ثم تسكت؛ لأنهم قد آستغنوا ببل فى مثل هذا الموضع عن لكن، وإنما يجوز ذلك إذا تقدّم النفى كقولك : ما جاءنى زيد لكن عمرو .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ يعنى المنافقين فى قول مقاتل وغيره . ﴿ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ ﴾ أى صدّقوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وشَرْعه ، كما صدّق المهاجرون والمحققون[(١)] من أهل يَثْرِب . وألف « آمنوا » ألف قطع؛ لأنك تقول : يؤمن، والكاف فى موضع نصب؛ لأنها نعت لمصدر محذوف، أى إيمانا كإيمان الناس .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ﴾ يعنى أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم؛ عن آبن عباس . وعنه أيضا : مؤمنو أهل الكتاب . وهذا القول من المنافقين إنما كانوا يقولونه فى خفاء وآستهزاء فأطلع الله نبيّــه والمؤمنين على ذلك ، وقرّر أن السَّفه ورِقّة الحُـلُوم وفساد البصائر إنمــا هى فى حيِّزهم وصفة لهم ، وأخبر أنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون للرَّيْن الذى على قلوبهم . وروى الكلبي عن أبى صالح عن آبن عباس أنها نزلت فى شأن اليهود؛ أى وإذا قيل لهم ــ يعنى اليهود ــ آمنوا كما آمن الناس : عبــد الله بن سَلَام وأصحابُه، قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء! يعنى الجهال والخرقاء . وأصل السَّفَه فى كلام العرب : الخفّة والرقة؛ يقال : ثوب سَـفيه إذا كان ردىء النسج خفيفه ، أو كان باليا رقيقا . وتسفهت الريح الشجر : مالت به؛ قال ذو الرُّمة :

مَشَين كما آهتزّتْ رماحٌ تسفَّهتْ * أعاليَهَــا مَرُّ الرياح النَّواسِــمِ[(٢)]

(١) المحققون هنا هم الذين يكون إيمانهم مقرونا بالإخلاص خالصا عن شوائب النفاق كما قال الألوسى وغيره .

(٢) وصف نساء فيقول : إذا مشين آهتززن فى مشيهن وتثنين فكأنهن رماح نصبت فمرت عليها الرياح فاهتزت وتثنت . والنواسم : الخفيفة الهبوب .

Marfat.com

وتسفهت الشيء : آستحقرته . والسّفه : ضـد الحلم . ويقال : إنّ السّـفه أنْ يكثر الرجل شرب المـاء فلا يروى . ويجوز فى همزتى السفهاء[1] أربعـة أوجه ، أجودها أن تحقق الأولى وتقلب الثانية واوا خالصة ، وهى قراءة أهل المدينة والمعروف من قراءة أبى عمرو . وإن شئت خفّفتهما جميعا فجعلت الأولى بين الهمزة والواو وجعلت الثانية واوا خالصة . وإن شئت خفّفت الأولى وحقّقت الثانية . وإن شئت حقّقتهما جميعا .

قوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ مثل « وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ » ، وقد تقدّم . والعلم معرفة المعـلوم على ما هو به ؛ تقول : عَلِمت الشيء أعلمـه عِلْمًا عَرَفْته ، وعالمتُ الرجل فَعَلَمْتُه أَعْلُمُه (بالضم فى المستقبل) : غلبته بالعلم .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا ﴾ أنزلت هذه الآية فى ذكر المنافقين . أصل لَقُوا : لَقِيُوا ، نُقلت الضمة إلى القاف وحُذفت الياء لآلتقاء الساكنين . وقرأ محمد بن السَّمَيْقَع اليمانى : « لاقوا الذين آمنوا » . والأصل لاقيوا ، تحرّكت الياء وقبلها فتحة آنقلبت ألفا ، آجتمع ساكنان الألف والواو فحذفت الألف لآلتقاء الساكنين ثم حُرّكت الواو بالضم .

وإن قيل : لم ضُمّت الواو فى لاقُوا فى الإدراج وحُذفت من لَقُوا ؟ فالجواب : أن قبل الواو التى فى لَقُوا ضمة فلو حركت الواو بالضم لثقل على اللسان النطق بها فحذفت لثقلها ، وحُركت فى لاقوا لأن قبلها فتحة .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ إن قيل : لم وُصلت « خَلَوْا » بـ « إلى » وعُرفها أن توصل بالباء؟ قيل له : « خلوْا » هنا بمعنى ذهبوا وآنصرفوا ؛ ومنه قول الفرزدق :

كيف تراني قالبا مِجَنّى * [أضربُ أمرِى ظهره لبطْنِ][2]

* قد قتـل الله زيادا عَنّى *

(١) أى مع كلمة الا التى بعدها . (٢) الزيادة عن كتاب النقائض . وزياد ، هو زياد بن أبيه . والمجن : الترس .

لمـا أنزله منزلة صَرَفَ. وقال قوم: «إلى» بمعنى مع؛ وفيه ضعف. وقال قوم: «إلى» بمعنى الباء؛ وهذا يأباه الخليـل وسيبويه. وقيل: المعنى وإذا خلوا من المؤمنين إلى شياطينهم؛ فـ«إلى» على بابها. والشياطين جمع شيطان على التكسير؛ وقد تقدم القول فى آشتقاقه ومعناه فى الآستعاذة(١). وآختلف المفسرون فى المراد بالشياطين هنا؛ فقال آبن عباس والسُّدِّى: هم رؤساء الكفر. وقال الكلبى: هم شياطين الجن. وقال جمع من المفسرين: هم الكهان. ولفظ الشيطنة الذى معناه البعد عن الإيمان والخير يعم جميع مَن ذكر. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ أى مكذبون بما ندعى إليه. وقيل: ساخرون. والهزء: السخرية واللعب؛ يقال: هَزِئَ به وآستهزأ؛ قال الراجز(٢):

قـد هَزِئت مِنّى أمُّ طَيْسَلَهْ * قالت أراه مُعدِما لا مال لَهْ

وقيل: أصل الآستهزاء: الآنتقام؛ كما قال الآخر:

قد آستهزءوا منهم بألفَىْ مُدَجَّجٍ * سَرَاتُهمُ وسْطَ الصَّحَاصِحِ جُثَّمُ(٣)

قوله تعالى: ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ أى ينتقم منهم ويعاقبهم، ويسـخر بهم ويجازيهـم على آستهزائهم؛ فسمى العقوبة بآسم الذنب. هذا قول الجمهور من العلماء؛ والعرب تستعمل ذلك كثيرا فى كلامهم؛ من ذلك قول عمرو بن كُلثوم:

ألَا لا يَجهلَنْ أحدٌ علينا * فنَجهلَ فوقَ جهلِ الجاهلينا

فسمى آنتصاره جهلا، والجهل لا يفتخر به ذو عقل؛ وإنما قاله ليَزْدَوِج الكلام فيكون أخف على اللسان من المخـالفة بينهما. وكانت العرب إذا وضـعوا لفظا بإزاء لفظ جوابا له وجزاء ذكروه بمثل لفظه وإن كان مخالفا له فى معناه؛ وعلى ذلك جاء القرآن والسنة. وقال

(١) راجع ص ٩٠ (٢) هو صخر الغى الهلالى. والبيت كما ذكره القالى فى أماليه (ج ٢ ص ٢٨٤) طبع دار الكتب المصرية:

تهزأ منى أخت آل طيسله * قالت أراه مبلطا لا شىء له

(٣) الصحاصح (جمع صحصح): الأرض ليس بها شىء ولا شجر ولا قرار للماء. والجاثم: اللازم مكانه لا يبرح.

Marfat.com

الله عزّ وجلّ : « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا » . وقال : « فَمَنِ ٱعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَى عَلَيْكُمْ » . والجزاء لا يكون سيئة . والقصاص لا يكون آعتداء؛ لأنه حق وجب ؛ ومثله : « وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ » . و « إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا » . و « إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ . اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » وليس منه سبحانه مكرٌ ولا هزء ولا كَيد ، إنما هو جزاء لمكرهم وآستهزائهم وجزاء كيدهم ؛ وكذلك « يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ » . « فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله لا يَمَلّ حتى تَمَلّوا ولا يسأم حتى تسأموا" . قيل : حتى بمعنى الواو أي وتملوا . وقيل المعنى وأنتم تملون . وقيل : المعنى لا يقطع عنكم ثواب أعمالكم حتى تقطعوا العمل . وقال قوم : إن الله تعالى يفعل بهم أفعالاً هي في تأمل البشر هُزْءٌ وخَدْعٌ ومَكْرٌ ، حسب ما روى : " إن النار تجمد كما تجمد الإهالة(1) فيمشون عليها ويظنونها منجاة فتخسف بهم" . وروى الكلبي عن أبي صالح عن آبن عباس في قوله تعالى : « وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا » هم منافقو أهل الكتاب ؛ فذكرهم وذكر آستهزاءهم ، وأنهم إذا خلَوْا إلى شياطينهم يعني رؤساءهم في الكفر — على ما تقدّم — قالوا : إنا معكم على دينكم « إنما نحن مستهزئون » بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . « الله يستهزئ بهم » في الآخرة ، يفتح لهم باب جهنم من الجنة ، ثم يقال لهم : تعالوا ، فيقبلون يَسْبحون في النار ، والمؤمنون على الأرائك — وهي السرر — في الحِجال ينظرون إليهم ، فإذا آنتهوا إلى الباب سُدّ عنهم ، فيضحك المؤمنون منهم ؛ فذلك قول الله عزّ وجلّ : « اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » أي في الآخرة ، ويضحك المؤمنون منهم حين غُلِّقت دونهم الأبواب ؛ فذلك قوله تعالى : « فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ . عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ »(2) إلى أهل النار « هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ » . وقال قوم : الخداع من الله والآستهزاء هو آستدراجهم بدرور النعم الدنيوية عليهم ؛ فالله سبحانه وتعالى يظهر لهم من الإحسان في الدنيا خلاف ما يغيب عنهم ، ويستر عنهم من عذاب الآخرة ، فيظنون أنه راضٍ عنهم ، وهو تعالى

---

(1) الإهالة : ما أذيب من الألية والشحم . وقيل : الدسم الجامد . (2) راجع جـ ١٩ ص ٢٦٦

Marfat.com

قد حتّم عذابهم . فهذا على تأمل البشر كأنه آستهزاء ومكر وخداع ، ودلّ على هذا التأويل قوله صلى الله عليه وسلم : " إذا رأيتم الله عزّ وجلّ يعطى العبد ما يحبّ وهو مقيم على معاصيه فإنما ذلك منه آستدراج " . ثم نزع بهذه الآية : «فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ [(١)] . فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » . وقال بعض العلماء فى قوله تعالى « سَنَسْتَدْرِجُهُمْ [(٢)] مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ » : كلما أحدثوا ذنبًا أحدث لهم نعمة .

قوله تعالى : ﴿ وَيَمُدُّهُمْ ﴾ أى يطيل لهم المدّة ويمهلهم ويُمْلِى لهم ؛ كما قال : « إِنَّمَا [(٣)] نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا » وأصله الزيادة . قال يونس بن حبيب : يقال مدّ لهم فى الشر ، وأمدّ فى الخير ؛ قال الله تعالى : «وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ [(٤)] وَبَنِينَ» . وقال : « وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ [(٥)] وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ » . وحكى عن الأخفش : مددت له إذا تركته ، وأمددته إذا أعطيته . وعن الفرّاء واللّحيانى : مددت ، فيما كانت زيادته من مثله ، يقال : مدّ النَّهْرُ [(٦)] [النهر] ، وفى التنزيل : « وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ [(٧)] مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ » . وأمددت ، فيما كانت زيادته من غيره ؛ كقولك : أمددت الجيش بمَدَد ، ومنه : « يُمْدِدْكُمْ [(٨)] رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ » . وأمدّ الجُرْحُ ؛ لأن المِدّة من غيره ، أى صارت فيه مِدّة .

قوله تعالى : ﴿ فِي طُغْيَانِهِمْ ﴾ كفرهم وضلالهم . وأصل الطغيان مجاوزة الحدّ ؛ ومنه قوله تعالى : « إِنَّا لَمَّا طَغَى [(٩)] الْمَاءُ » أى آرتفع وعلا وتجاوز المقدار الذى قدرته الخزّان . وقوله فى فرعون : « إِنَّهُ طَغَى [(١٠)] » أى أسرف فى الدعوى حيث قال : « أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى » . والمعنى فى الآية : يمدّهم بطول العمر حتى يزيدوا فى الطغيان فيزيدهم فى عذابهم .

قوله تعالى : ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ يعمون . وقال مجاهد : أى يتردّدون متحيّرين فى الكفر . وحكى أهل اللغة : عَمِه الرجلُ يَعْمَه عُموهًا وعَمَهًا فهو عَمِه وعامِه إذا حار ، ويقال رجل عامه

(١) راجع جـ ٦ ص ٤٢٦ وقد ذكر القرطبي هنالك الحديث برواية تختلف فى بعض اللفظ ، وفيه : ثم تلا « فلما نسوا » الآية بدل نزع . (٢) راجع جـ ٧ ص ٣٢٩ (٣) راجع جـ ٤ ص ٢٨٧ (٤) راجع جـ ١٠ ص ٢١٧ (٥) راجع جـ ١٧ ص ٦٨ (٦) الزيادة عن اللسان مادة (مد) . (٧) راجع جـ ١٤ ص ٧٦ (٨) راجع جـ ٤ ص ١٩٠ (٩) راجع جـ ١٨ ص ٢٦٣ (١٠) راجع جـ ١٩ ص ١٩٩

Marfat.com

وعَمِه : حائر متردّد ، وجمعه عُمّـه . وذهبت إبلُه العُمَّهَى إذا لم يدر أين ذهبت . والعَمَى في العين ، والعَمَه في القلب ؛ وفي التنزيل : « فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـارُ وَلَكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ »(١) .

قوله تعالى : أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ ﴾ قال سيبويه : ضُمّت الواو في «ٱشتروا» فرقًا بينها و بين الواو الأصلية ، نحو : «وأَنْ لَوِ ٱسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ» . وقال ٱبن كَيْسان : الضمة في الواو أخف من غيرها لأنها من جنسها . وقال الزجاج : حُرّكت بالضم كما فعل في «نحن» . وقرأ ٱبن أبي إسحاق و يحيى بن يعمر(٢) بكسر الواو على أصل التقاء الساكنين . وروى أبو زيد الأنصاري عن قَعْنَب أبي السَّمّال العدوي أنه قرأ بفتح الواو لخفة الفتحة و إن كان(٣) ما قبلها مفتوحا . وأجاز الكسائي همز الواو وضمها كأدْؤُر . وٱشتروا : من الشراء . والشراء هنا مستعار . والمعنى استحبُّوا الكفر على الإيمـان ، كما قال : « فَٱسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى » فعبّر عنه بالشراء ، لأن الشراء إنما يكون فيما يحبه مشتريه . فأما أن يكون معنى شراء المعاوضة فلا ؛ لأن المنافقين لم يكونوا مؤمنين فيبيعون إيمانهم . وقال ٱبن عبـاس : أخذوا الضلالة وتركوا الهدى . ومعناه ٱستبدلوا وٱختاروا الكفر على الإيمان . و إنما أخرجه بلفظ الشراء توسُّعاً ؛ لأن الشراء والتجارة راجعان إلى الٱستبدال ؛ والعرب تستعمل ذلك في كل من ٱستبدل شيئا بشيء . قال أبو ذُؤيب :

فإن تَزْعُمِيـني كنتُ أجهلُ فيكم * فإني شَرَيتُ(٤) الحِـلمَ بعدكِ بالجهـل

(١) راجع جـ ١٢ ص ٧٧ (٢) قال صاحب تهذيب التهذيب : «في التقريب بفتح التحتانية والميم و بينهما مهملة ساكنة . وفي المغني بفتح الميم وضمها » . (٣) في بعض الأصول : « و إن ما قبلها مفتوحا » ، وفي البعض الآخر : « و إن كان قبلها مفتوحا » . (٤) ويروى : « اشتريت » كما في ديوان أبي ذؤيب . يقول : إن كنت تزعمين أني كنت أجهل في هواي لكم وصبوتي إليكم فقد شريت بذلك الجهل والصبا حلما وعقلا ، ورجعت عما كنت عليه . (عن شرح الشواهد)

Marfat.com

وأصل الضلالة : الحيرة . ويسمى النسيان ضلالة لما فيه من الحيرة ؛ قال جلّ وعزّ : « فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ »(١) أى الناسين . ويسمى الهلاك ضلالة ؛ كما قال عزّ وجلّ : « وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ »(٢) .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ ﴾ أسند تعالى الربح إلى التجارة على عادة العرب فى قولهم : رَبِحَ بَيْعُك، وخَسِرتْ صفقتك؛ وقولهم : ليلٌ قائم، ونهارٌ صائم؛ والمعنى : رَبِحتَ وخَسِرْتَ فى بيعك، وقمت فى ليلك وصُمت فى نهارك؛ أى فما ربحوا فى تجارتهم. وقال الشاعر :

نهـارُك هائمٌ وليـلُك نائمُ * كذلك فى الدنيا تَعيشُ البهائمُ

ٱبن كَيسان : ويجوز تجارة وتجائر ، وضلالة وضلائل .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ فى ٱشترائهم الضلالة . وقيل : فى سابق علم الله . والٱهتداء ضد الضلال ؛ وقد تقدّم(٣) .

قوله تعالى : مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَـٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ فمثلهم رفع بالابتداء والخبر فى الكاف، فهى ٱسم ؛ كما هى فى قول الأعشى :

أتنتهون ولن يَنْهَى ذوِى شَـطَطٍ * كالطعن يذهب فيه الزيتُ والفُتُلُ(٤)

وقول ٱمرئ القيس :

ورُحْنَا بِكَٱبْنِ المـاءِ يُجنَبُ وسطَنا * تَصَوَّبُ فيـه العينُ طَـوْرًا وتَرْتَقِى(٥)

---

(١) راجع جـ ١٣ ص ٩٥ (٢) راجع جـ ١٤ ص ٩١ (٣) راجع ص ١٦٠ من هذا الجزء .

(٤) المعنى : لا ينهى أصحاب الجور مثل طعن جائف ؛ أى نافذ إلى الجوف ، يغيب فيه الزيت والفتل . (عن خزانة الأدب) . (٥) يقول رجعنا بفرس كأنه ٱبن ماء (طير ماء) خفة وحسنا وطول عنق . وهو يجنب : أى يقاد فلا يركب .

Marfat.com

أراد مثل الطعن، و بمثل آبن المـاء . و يجوز أن يكون الخبر محذوفا؛ تقديره مثلهم مستقر كمثل؛ فالكاف على هـذا حرف . والمَثَل والمِثْل والمثِيل واحد ومعناه الشبيه . والمتماثلان : المتشابهان ؛ هكذا قال أهل اللغة .

قوله ﴿ الَّذِى ﴾ يقع للواحد والجمع . قال آبن الشَّجَرِى هبةُ الله بن عليّ : ومن العـرب من يأتى بالجمع بلفظ الواحد ؛ كما قال :

وإنّ الذى حانَتْ بفَلْج دماؤهم * هُمُ القومُ كلُّ القومِ يا أمَّ خالدِ[1]

وقيل فى قول الله تعالى «وَالَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ»[2] : إنه بهذه اللغة، وكذلك قوله : « مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى» قيل : المعنى كمثل الذين آستوقدوا، ولذلك قال : « ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ » ؛ فحمل أوّل الكلام على الواحد، وآخره على الجمع . فأما قوله تعالى : «وَخُضْتُمْ كَالَّذِى خَاضُوا»[3] فإن الذى ها هنا وصف لمصدر محذوف تقديره وخضتم كالخوض الذى خاضوا . وقيل : إنما وحّد «الذى» و«آستوقد» لأن المستوقد كان واحدا من جماعة تولّى الإيقاد لهم ، فلما ذهب الضوء رجع عليهم جميعا فقال «بنورهم» . وآستوقد بمعنى أوقد؛ مثل آستجاب بمعنى أجاب ؛ فالسين والتاء زائدتان ، قاله الأخفش ؛ ومنه قول الشاعر[4] :

وداعٍ دَعَا يا من يُجيب إلى النَّدَى * فلم يَستجِبْه عنـــد ذاك مُجيبُ

أى يجبه . وآختلف النحاة فى جواب لمـّا ، وفى عود الضمير من «نورهم» ؛ فقيل : جواب لمـّا محذوف وهو طَفِئت ، والضمير فى «نورهم» على هذا للمنافقين ، والإخبار بهذا عن حال تكون فى الآخرة ؛ كما قال تعالى : «فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ»[5] . وقيل : جوابه «ذهب» ، والضمير فى «نورهم» عائد على «الذى» ؛ وعلى هذا القول يتم تمثيل المنافق بالمستوقد ، لأن بقاء المستوقد فى ظلمات لا يبصر كبقاء المنافق فى حيرته وتردُّده . والمعنى المرادُ بالآية ضَرْبُ مَثَلٍ للمنافقين ،

---

(١) فلج (بفتح أوّله وسكون ثانيه) : موضع بين البصرة وضَرِيّة . وقيـل هو واد بطريق البصرة إلى مكة ، ببطنه منازل للحاج . قائله الأشهب بن رميلة يرثى قوما قتلوا فى هذا الموضع (عن اللسان) .

(٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٥٦ (٣) راجع جـ ٨ ص ٢٠١

(٤) هو كعب بن سعد الغنوى يرثى أخاه أبا المغوار (عن اللسان) . (٥) راجع جـ ١٧ ص ٢٤٦

Marfat.com

وذلك أن ما يظهرونه من الإيمــان الذى تثبت لهم به أحكام المسلمين من المنا كح والتوارث والغنائم والأمن على أنفسهم وأولادهم وأموالهم بمثابة من أوقد نارا فى ليــلة مظلمة فاستضاء بهــا ورأى ما ينبغى ان يتقيه وأمن منه؛ فإذا طَفِئت عنه أو ذهبت وصل إليه الأذى و بق متحيرا؛ فكذلك المنافقون لمــا آمنوا ٱغْتَرُّوا بكلمة الإسلام، ثم يصيرون بعد الموت إلى العذاب الأليم — كما أخبر التنزيل : « إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ »[1] — و يذهب نورهم؛ ولهــذا يقولون : « ٱنْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ »[2] . وقيــل : إن إقبال المنافقين إلى المسلمين وكلامهم معهم كالنار؛ وٱنصرافهم عن مودتهم وٱرتكاسهم عندهم كذهابها . وقيل غير هذا .

قوله : ﴿نَارًا﴾ النــار مؤنثة وهى من النــور وهو أيضا الإشراق . وهى من الواو؛ لأنك تقول فى التصغير : نو يرة، وفى الجمــع نور وأنوار ونيران؛ ٱنقلبت الواو ياء لكسر ما قبلها . وضاءت وأضاءت لغتــان ؛ يقال : ضاء القمــرُ يَضُوء ضَــوْءًا وأضاء يُضِىء ؛ يكون لازما ومتعدّيًا . وقرأ محمد بن السَّمَيْقَع : ضاءت بغير ألف ، والعامة بالألف ؛ قال الشاعر:

أضاءت لهم أحسابُهم ووجوهُهم * دُجَى الليل حتى نَظَّم الجَزْعَ[3] ثاقبه

﴿مَا حَوْلَهُ﴾ «ما» زائدة مؤكدة . وقيل : مفعولة بأضاءت . و«حَوْله» ظرف مكان ، والهاء فى موضع خفض بإضافته إليها . و﴿ذَهَبَ﴾ وأذهب لغتان من الذهاب ، وهو زوال الشىء . ﴿وَتَرَكَهُمْ﴾ أى أبقاهم . ﴿فِى ظُلُمَاتٍ﴾ جمع ظُلْمة . وقرأ الأعمش : «ظُلْمات» بإسكان اللام على الأصل . ومن قرأها بالضم فللفرق بين الاسم والنعت . وقرأ أشهب العقيلى : «ظُلَمات» بفتح اللام . قال البصريون : أبدل من الضمة فتحة لأنها أخف . وقال الكسائى : «ظلمات» جمع الجمع ، جمع ظُلَم . ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾ فعل مستقبل فى موضع الحال؛ كأنه قال : غير مبصرين ، فلا يجوز الوقف على هذا على « ظلمات » .

قوله تعالى : صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾

---

(١) راجع جـ ٥ ص ٤٢٤ (٢) راجع جـ ١٧ ص ٢٤٥ (٣) الجزع (بفتح الجيم وكسرها) : ضرب من الخرز . وقيل : هو الخرز اليمانى ، وهو الذى فيه بياض وسواد ، فشبه به الأعين .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ «صُمٌّ» أى هم صمّ ، فهو خبر ٱبتداء مضمر . وفى قراءة عبدالله ٱبن مسعود وحفصة : صُمًّا بكمًا عميًا ، فيجوز النصب على الذم ؛ كما قال تعالى : « مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا » (١) ، وكما قال : « وَٱمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ » (٢) ، وكما قال الشاعر (٣) :

سَقَوْنِى الخمرَ ثم تكنَّفُونى * عُدَاةَ اللهِ من كَذِبٍ وزُورِ

فنصب «عُدَاةَ اللهِ» على الذم . فالوقف على «يبصرون» على هذا المذهب صواب حسن . ويجوز أن ينصب صُمًّا بـ«تَرَكَهُمْ» ؛ كأنه قال : وتركهم صما بكما عميا ؛ فعلى هذا المذهب لا يحسن الوقف على «يبصرون» . والصمم فى كلام العرب : الٱنسداد ؛ يقال : قناة صمّاء إذا لم تكن مجوّفة . وصَمَمت القارورة إذا سددتها . فالأصم : من ٱنسدت خروق مسامعه . والأبكم : الذى لا ينطق ولا يفهم ؛ فإذا فهم فهو الأخرس . وقيل : الأخرس والأبكم واحد . ويقال : رجل أبكم وبَكِيم ؛ أى أخرس بيّن الخرس والبكم ؛ قال :

فليتَ لِسانِى كان نِصْفَيْنِ منهما * بَكِيمٌ ونِصفٌ عند مَجْرَى الكواكبِ

والعمى : ذهاب البصر ؛ وقد عَمِىَ فهو أعْمَى ، وقوم عُمْىٌ ، وأعماه الله . وتعامى الرجل : أرى ذلك من نفسه . وعَمِىَ عليه الأمر إذا ٱلتبس ؛ ومنه قوله تعالى : « فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ » (٤) . وليس الغرض مما ذكرناه نفى الإدراكات عن حواسهم جملة ، وإنما الغرض نفيها من جهة مّا ؛ تقول : فلان أصمّ عن الخنا . ولقد أحسن الشاعر حيث قال :

* أَصَمُّ عمّا سَاءَهُ سَمِيعُ *

وقال آخـــر :

وعوراءِ الكلامِ صَمَمتُ عنها * ولو أنى أشاء بها سميعُ

وقال الدارمىّ :

أعمى إذا ما جارتى خرجت * حتى يوارى جارتى الجُـدُرُ

(١) راجع جـ ١٤ ص ٢٤٧ (٢) راجع جـ ٢٠ ص ٢٣٩ (٣) هو عروة بن الورد . وصف ما كان من فعل قوم ٱمرأته حين ٱحتالوا عليه وسقوه الخمر حتى أجابهم إلى مفاداتها وكانت سبية عنده (عن شرح الشواهد) . (٤) راجع جـ ١٣ ص ٣٠٤

Marfat.com

وقال بعضهم فى وَصَاته لرجل يكثر الدخول على الملوك :

أُدخُــلْ إذا ما دخلتَ أعمَى * وآخرُجْ إذا ما خرجتَ أخرس

وقال قتادة : «صمٌّ» عن آستماع الحق، «بكمٌ» عن التكلم به، «عميٌ» عن الإبصار له.

قلت : وهذا المعنى هو المراد فى وصف النبيّ صلى الله عليه وسلم وُلاة آخر الزمان فى حديث جبريل "وإذا رأيت الحُفَاةَ العُراةَ الصُّمَّ البُكْمَ ملوك الأرض فذاك من أشراطها". والله أعلم.

قوله تعالى : ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أى إلى الحق لسابق علم الله تعالى فيهم . يقال : رجع بنفسه رجوعا، ورَجَعَه غيره؛ وهُذيل تقول: أرجعه غيره . وقوله تعالى : « يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ » أى يتلاومون فيما بينهم ؛ حسب ما بيّنه التنزيل فى سورة « سبأ » [1] .

قوله تعالى : أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ قال الطبرى : « أو » بمعنى الواو، وقاله الفرّاء . وأنشـــد :

وقد زَعَمتْ ليْــلَى بأنّىَ فاجرٌ * لنفسى تُقَاها أو عليها فُجُورها [2]

وقال آخـــر [3] :

نَال الخلافةَ أوكانت له قَدَرًا [4] * كما أتى ربَّه موسى على قَدَرِ

أى وكانت . وقيــل : « أو » للتخيير أى مثّلوهم بهذا أو بهذا ، لا على الآقتصار على أحد الأمرين ، والمعنى أو كأصحاب صَيِّب . والصَّيِّبُ : المطر . وآشـتقاقه من صَابَ يَصُوبُ إذا نزل، قال عَلْقَمة :

فلا تَعْـدِلى بَينِى وبين مُغَمَّرٍ * سَقَتكِ رَوايا المُـزْنِ حيث تَصُوبُ [5]

(١) راجع جـ ١٤ ص ٣٠٢ (٢) البيت من قصيدة لتوبة الخفاجى قالها فى ليلى الأخيلية .
(٣) هو جرير بن عطية يمدح عمر بن عبد العزيز . (٤) فى ديوانه المخطوط : « إذ » بدل « أو » .
(٥) المغمـــر والغمر : الجاهل الذى لم يجرب الأمور ؛ كأن الجهل غمـــره وآستولى عليه . وروايا المزن : التى تروى بكثرة مائها .

Marfat.com

وأصلـه : صَيْوِب ، اجتمعت اليـاء والواو وسـبقت إحداهمـا بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت ؛ كما فعلوا فى ميّت وسيّد وهيّن وليّن . وقال بعض الكوفيين : أصله صَوِيب على مثال فعيل . قال النحاس : « لو كان كما قالوا لمـا جاز إدغامه ، كما لا يجوز إدغام طويل . وجمع صيب صيايب . والتقدير فى العربية : مَثَلهم كَمَثل الذى آستوقد نارا أو كمثل صيب»[1] .

قوله تعـالى : ﴿ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ السماء تذكّر وتؤنث ، وتجمع على أسميـة وسموات وسُمِىّ ، على فُعُول ؛ قال العجاج :

* تَلُفُّـــه الرياحُ والسُّـــمِىُّ[2] *

والسماء : كل ما علاك فأظلّك ؛ ومنه قيل لسقف البيت : سماء . والسماء : المطر ، سُمّى به لنزوله من السماء . قال حسان بن ثابت :

ديارٌ من بنى الحَسْحاسِ قَفْرٌ * تُعَفّيهـا الروامِسُ والسماء

وقال آخـــر[3] :

إذا سَقَط السماءُ بأرض قومٍ * رَعَيناه و إن كانوا غِضـابَا

و يسمّى الطين والكلأ أيضا سمـاء ؛ يقال : مازِلْنا نطأ السماءَ حتى أتيناكم . يريدون الكلأ والطين . ويقال لظهر الفرس أيضا سماء لعلوه ؛ [4] :

وأحمرُ كالدّيباج أمّا سمـاؤه * فَرَيّا وأمّا أرضُـــه فَمُحُولُ

والسماء : ما علا . والأرض : ما سفل ؛ على ما تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ فِيهِ ظُلُمَاتٌ ﴾ آبتداء وخبر . ﴿ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾ معطوف عليه . وقال : ظلمات بالجمع إشارة إلى ظُلْمة الليل وظُلْمة الدَّجْن ، وهو الغيم ؛ ومن حيث تتراكب وتتزايد جمعت . وقد مضى ما فيه من اللغات[5] فلا معنى للإعادة ، وكذا كلّ ماتقدّم إن شاء الله تعالى .

(١) فى الأصل : « ... نارا أو كصيب » . والتصويب عن كتاب إعراب القرآن للنحاس . (٢) السمى : يريد الأمطار . (٣) هو معاوية بن مالك . (٤) القائل هو طفيل الغنوى ، كما فى اللسان مادة (سما) (٥) راجع ص ٢١٣ من هذا الجزء .

Marfat.com

وآختلف العلمـاء فى الرعد؛ ففى الترمذى عن آبن عباس قال : سألت اليهود النبيّ صلى الله عليه وسلم عن الرعد ماهو ؟ قال : " مَلك من الملائكة [موكل بالسحاب](١) معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله ". فقالوا : فما هذا الصوت الذى نسمع ؟ قال : " زجره بالسحاب إذا زجره حتى ينتهى إلى حيث أمر الله " قالوا : صدقت . الحديث بطوله . وعلى هذا التفسير أكثر العلماء . فالرعد : آسم الصوت المسموع، وقاله علىّ رضى الله عنه، وهو المعلوم فى لغة العرب؛ وقد قال لبيد فى جاهليته :

فَجّعَـنِى الرعدُ والصـواعقُ بال * ـفارِسِ يومَ الكريهـةِ النَّجِــدِ

وروى عن آبن عباس أنه قال : الرعد ريح تختنق بين السحاب فتصوّت ذلك الصوت .
وآختلفوا فى البرق؛ فروى عن علىّ وآبن مسعود وآبن عباس رضوان الله عليهم : البرق مخراق حديد بيد المَلَك يسوق به السحاب .

قلت : وهو الظاهر من حديث الترمذى . وعن آبن عباس أيضا هو سوط من نور بيد المَلَك يزجر به السحاب . وعنه أيضا : البرق مَلَك يتراءى .

وقالت الفلاسفة : الرعد صـوت آصطكاك أجرام السـحاب . والبرق ماينقـدح من آصطكاكها . وهذا مردود لايصح به نقل؛ والله أعلم . ويقال : أصل الرعد من الحركة؛ ومنه الرِّعديد للجبان . وآرتعد : آضطرب؛ ومنـه الحديث : " فجىء بهما تُرْعَدُ فَرَائصهما " الحديث . أخرجه أبو داود . والبرق أصـله من البريق والضوء؛ ومنـه البُرَاق : دابّة ركبها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسرِىَ به وركبها الأنبياء عليهم السلام قبله . ورَعَدت السماء من الرعد، وبَرَقت من الـبرق . ورَعَدت المرأة وبَرَقت : تحسّنت وتزيّنت . ورَعَد الرجل وبَرَق : تهدّد وأوعد؛ قال آبن أحمر :

ياجُلّ ما بَعُدَتْ عليـك بِلادُنا * وطِلابُنا فآبْرُقْ بأرضِك وآرعُدِ

---

(١) زيادة عن الترمذى .

Marfat.com

وأرعد القوم وأبرقوا : أصابهم رعد وبرق . وحكى أبو عبيدة وأبو عمرو : أرعدت السماء وأبرقت ، وأرعد الرجل وأبرق إذا تهدّد وأوعد ؛ وأنكره الأصمعى . وآحتج عليه بقول الكُمَيْت :

أبرِق وأرعِـــد يا يزيـ * ـدُ فما وعيدُكَ لى بِضائرْ

فقال : ليس الكُميت بحجة .

فائدة — روى آبن عباس قال : كنّا مع عمر بن الخطاب فى سَفْرة بين المدينـة والشام ومعنا كعب الأحبار ، قال : فأصابتنا ريح وأصابنا رعد ومطر شديد وبرد ، وفَرِق الناس . قال فقال لى كعب : إنه من قال حين يســمع الرعد : سبحان مَن يسبِّح الرعد بحمـده والملائكة من خيفته ، عُوفى ممـا يكون فى ذلك السحاب والبرد والصواعق . قال : فقلتها أنا وكعبٌ ، فلما أصبحنا وآجتمع الناس قلت لعمر : يا أمير المؤمنين ، كأنا كنا فى غير ما كان فيه الناس . قال : وما ذاك ؟ قال : فحدّثته حديث كعب . قال : سبحان الله ! أفلا قلتم لنا فنقول كما قلتم ! فى رواية فإذا بَرَدة(١) قد أصابت أنف عمر فأثّرت به . وستأتى هذه الرواية فى سورة « الرعد »(٢) إن شاء الله . ذكر الروايتين أبو بكر أحمد بن علىّ بن ثابت الخطيب فى روايات الصحابة عن التابعين رحمة الله عليهم أجمعين . وعن آبن عمر أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان إذا سمع الرعد والصواعق قال : " اللَّهُمّ لا تقتلنا بغضبك ولا تُهْلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك " .

قوله تعالى : ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ ﴾ جعلهم أصابعهم فى آذانهم لئلا يســمعوا القرآن فيؤمنوا به وبمحمد عليه السلام ؛ وذلك عندهم كفر والكفر موت . وفى واحد الأصابع خمس لغات : إِصْبَع بكسر الهمزة وفتح الباء ، وأَصْبِـع بفتح الهمزة وكسر الباء ، ويقال بفتحهما جميعا ، وضمهما جميعا ، وبكسرهما جميعا ؛ وهى مؤنثة . وكذلك الأذن وتخفّف وتثقّل وتصغّر ، فيقال : أذينة . ولو سمّيت بها رجلا ثم صغّرته قلت : أُذَيْن ؛ فلم تؤنث لزوال التأنيث عنه بالنقل إلى المذكر . فأما قولهم : أذينة فى الآسم العَلَم فإنما سُمّى به مصغّرا ، والجمع آذان . وتقول : أَذَنْتـه إذا ضربت أذنه . ورجل أُذُنٌ : إذا كان يسمع كلام كل أحد ، يستوى فيه الواحد

(١) البرد (بالتحريك) : حب الغمام . (٢) راجع ج ٩ ص ٢٩٥

Marfat.com

والجمع . وأذانِيّ : عظيم الأذنين . ونعجة أَذْناء ، وكَبْش آذَن . وأَذَّنت النعل وغيرَها تأذينا : إذا جعلت لها أُذُنًا . وأذّنت الصبيّ : عَرَكت أذنه .

قوله تعالى : ﴿ مِنَ الصَّوَاعِقِ ﴾ أى من أجل الصواعق . والصّواعق جمع صاعقة . قال آبن عباس ومجاهد وغيرهما : إذا آشتدّ غضب الرعد الذى هو المَلَك طار النار من فِيهِ وهى الصواعق . وكذا قال الخليل ، قال : هى الواقعــة الشديدة من صوت الرعد ، يكون معها أحيانا قطعة نار تحرق ما أتت عليه . وقال أبو زيد : الصاعقة نار تسقط من السماء فى رعد شديد . وحكى الخليل عن قوم : الساعقة (بالسين) . وقال أبو بكر النقاش : يقال صاعقة وصعقة وصاقعة بمعنًى واحد . وقرأ الحسن : من «الصواقع» (بتقديم القاف)؛ ومنه قول أبي النَّجْم :

يَحْكُون بالمَصْقُولة القواطِعِ　＊　تَشَقُّقَ البَرْقِ عن الصّواقِعِ

قال النحاس : وهى لغة تميم وبعض بنى ربيعــة . ويقال : صَعَقتهم السماء إذا ألقت عليهم الصاعقة . والصاعقة أيضا صيحة العذاب ؛ قال الله عز وجل : « فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ[(1)] الْعَذَابِ الْهُونِ » . ويقال : صَعِق الرجلُ صَعْقةً وتَصْعاقًا ؛ أى غُشِيَ عليه ؛ ومنه قوله تعالى : « وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا[(2)] » فأصعقه غيره . قال آبن مُقْبِل :

ترى النُّعَرات الزُّرْقَ تحت لَبانه　＊　أُحادَ ومَثْنَى أَصْعَقَتْها صَـواهِلُهُ[(3)]

وقوله تعــالى : « فَصَعِقَ[(4)] مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ » أى مات . وشــبّه الله تعالى فى هذه الآية أحوال المنافقين بما فى الصَّيِّب من الظلمات والرعد والبرق والصواعق . فالظلمات مَثَلٌ لمــا يعتقدونه من الكفر ، والرعد والبرق مَثَلٌ لمــا يُخَوَّفون به . وقيل : مثَّل الله تعالى القرآن بالصَّيِّب لمــا فيه من الإشكال عليهم ، والعمى هو الظلمات ؛ وما فيه من الوعيد والزجر هو الرعد ، وما فيه من النور والحجج الباهرة التى تكاد أحيانا أن تَبْهَرهم هو البرق . والصواعق

(1) راجع جـ ١٥ ص ٣٤٩ .　　(2) راجع جـ ٧ ص ٢٧٩　　(3) النعرة (مثال الهمزة) : ذباب ضخم أزرق العين أخضر ، له إبرة فى طرف ذنبه يلسع بها ذوات الحافر خاصة . واللبان : الصدر ، وقيــل : وسطه ، وقيل : ما بين الثديين ، ويكون للانسان وغيره . وأصعقتها صواهله : أى قتلها صهيله .　　(4) راجع جـ ١٥ ص ٢٧٩ .

Marfat.com

مَثَلٌ لمـا فى القرآن من الدعاء إلى القتال فى العاجل والوعيد فى الآجل . وقيل : الصواعق تكاليف الشرع التى يكرهونها من الجهاد والزكاة وغيرهما .

قوله : ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ حَذَر وحِذار بمعنًى، وقرئ بهما . قال سيبويه : هو منصوب؛ لأنه موقوع له أى مفعول من أجله ، وحقيقته أنه مصدر ، وأنشد سيبويه :

وأغْفِرُ عَـوْراءَ الكريم ٱدّخارَه * وأُعْرِض عن شَتْم اللئيم تكرُّماً (١)

وقال الفراء: هو منصوب على التمييز . والموت : ضدّ الحياة . وقد مات يموت، ويَمات أيضا ، قال الراجز :

بُنَيَّـــتِى سَـــيِّدةَ البَناتِ * عِيشِى ولا يُؤْمَن أن تَماتِى

فهو ميِّت وميْت، وقوم موتى وأموات وميِّتون وميْتون. والمُوَات(بالضم): الموت. والمَوَات (بالفتح) : ما لا رُوح فيه . والمَوَات أيضا: الأرض التى لا مالك لها من الآدميين ولا ينتفع بها أحد. والمَوَتان (بالتحريك): خلاف الحيوان، يقال : ٱشْترِ المَوَتانَ، ولا تشترِ الحيوان، أى ٱشترِ الأرضين والدور، ولا تشترِ الرقيق والدواب. والمُوْتان(بالضم): مَوْتٌ يقع فى الماشية؛ يقال : وقع فى المـال مُوتان . وأماته الله وموّته ، شُدِّد للمبالغة . وقال :

فعُـرْوةُ مات مَوْتا مستريحًا * فهاأنذا أُمَــوَّتُ كلَّ يومِ

وأماتت الناقة إذا مات ولدها، فهى مُميت ومُميتة. قال أبو عبيد: وكذلك المرأة ، وجمعها مَماويت . قال ٱبن السِّكيت : أمات فلان إذا مات له ٱبنٌ أو بَنُونَ . والمُتَماوِت من صفة الناسك المرائى. وموت مائتٌ، كقولك: ليلٌ لائلٌ، يؤخذ من لفظه ما يؤكّد به. والمُسْتَمِيتُ للأمر : المُسْتَرسِلُ له ، قال رُؤبة :

(١) البيت لحاتم الطائى . يقول : إذا جهل علىّ الكريم ٱحتملت جهله إبقاء عليه وٱدّخارا له ، وإن سبنى اللئيم أعرضت عن شتمه .

Marfat.com

وزَبَدُ البحــرِ له كَتِيت * واللّيــل فــوق المــاءِ مُسْتَمِيتُ(١)

المستميت أيضــا : المستقتل الذى لا يبــالى فى الحرب من الموت؛ وفى الحــديث : " أرى القــوم مُسْتَمِيتِين " وهم الذين يقاتلون على الموت . والمُوتة (بالضم) : جنس من الجنون والصرع يعــترى الإنسان ، فإذا أفاق عاد إليه كمال عقــله كالنائم والسكران . ومُؤْتة (بضم الميم وهمز الواو) : آسم أرض قُتل بها جعفر بن أبى طالب عليه السلام(٢) .

قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ مُحِيطٌ بِٱلْكَافِرِينَ ﴾ آبتداء وخبر؛ أى لا يفوتونه . يقال : أحاط السلطان بفلان إذا أخذه أخذا حاصرا من كل جهة ؛ قال الشاعر :

أحطنا بهــم حتى إذا ما تَيَقّنُوا * بما قد رأوْا مالوا جميعًا إلى السِّلْمِ

ومنه قوله تعالى : « وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ »(٣) . وأصله مُحْيِط ، نُقلت حركة الياء إلى الحاء فسكّنت . فالله سبحانه محيــط بجميع المخلوقات ، أى هى فى قبضته وتحت قهره ؛ كما قال : « وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »(٤) . وقيل : «مُحِيطٌ بِالكافرين» أى عالم بهم . دليله : «وَأَنَّ اللّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا»(٥) . وقيل : مهلكهم وجامعهم . دليله قوله تعالى : « إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ »(٦) أى إلا أن تهلكوا جميعا . وخص الكافرين بالذكر لتقدم ذكرهم فى الآية . والله أعلم .

قوله تعــالى : ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾

(١) كذا فى الأصول واللسان مادة « موت » . والذى فى ديوانه المخطوط المحفوظ بدار الكتب المصرية برقم ٥١٦ أدب .

وزبد البحر له كتيت * تراه والحوت له نئيت
كلاهما مغتمس مغتوت * وكلكل الماء له مبيت
والليل فوق الماء مستميت * يدفع عنه جوفه المسحوت

الكتيت : الهدير . والنئيت والزحير والطحير والأنيت كله الزحير (إخراج الصوت أو النفس عند عمل بأنين أو شدّة) . المغتوت : المغموم . والمسحوت : الذى لا يشبع .

(٢) وقيل إنها قرية من قرى البلقاء فى حدود الشام . وقيل : إنها بمشارف الشام وعلى آثنى عشر ميلا من أذرح . راجع تاج العروس مادة «مأت» .

(٣) راجع جـ ١٠ ص ٤٠٩

(٤) راجع جـ ١٥ ص ٢٧٧ (٥) راجع جـ ١٨ ص ١٧٦ (٦) راجع جـ ٩ ص ٢٢٥

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ «يكاد» معناه يقارب؛ يقال: كاد يفعل كذا إذا قارب ولم يفعل . ويجوز فى غير القرآن : يكاد أن يفعل؛ كما قال رُؤْبة :

* قد كاد من طُول البِلَى أن يَمْصَحاَ[1] *

مشتق من المصح وهو الدرس. والأجود أن تكون بغير «أن»؛ لأنها لمقاربة الحال، و«أن» تصرف الكلام إلى الاستقبال ، وهذا متناف؛ قال الله عز وجل : « يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ »[2]. ومن كلام العرب : كاد النعام يطير ، وكاد العروس يكون أميرا ؛ لقربهما من تلك الحـال . وكاد فعلٌ متصرف على فَعِل يَفْعَل . وقد جاء خبره بالاسم وهو قليل ، قال : « وَمَا كِدْتُ آئِبًا »[3] . ويجرى مجرى كاد كَرَب وجَعَل وقارب وطَفِق ، فى كون خبرها بغير « أن » ؛ قال الله عز وجل : « وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ »[4] لأنها كلها بمعنى الحال والمقاربة ؛ والحال لا يكون معها « أن » ، فآعلم .

قوله تعـالى : ﴿ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ﴾ الخطف : الأخذ بسرعة؛ ومنه سُمّىَ الطير خُطّافا لسرعته . فمن جعل القرآن مَثَلاً للتخويف فالمعنى أنّ خوفهم مما ينزل بهم يكاد يُذهب أبصارهم . ومن جعله مَثَـلاً للبيان الذى فى القرآن فالمعنى أنهم جاءهم من البيان ما بهرهم . ويَخْطَف و يَخطِف لغتان قرئ بهما. وقد خطِفه (بالكسر) يَخْطَفُه خَطْفاً ، وهى اللغة الجيدة، واللغة الأخرى حكاها الأخفش : خَطَف يَخْطِف . الجوهرى : وهى قليلة رديئة لا تكاد تعرف . وقد قرأ بها يونس فى قوله تعالى : « يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطِف أبصارَهم ». وقال النحاس: فى «يخطف» سبعة أوجه ؛القراءة الفصيحة : يَخْطَف. وقرأ علىّ بن الحسين ويحيى بن وثّاب: يخطِف بكسر الطاء ؛ قال سعيد الأخفش : هى لغة . وقرأ الحسن وقتادة وعاصم الجَحْدَرىّ وأبو رجاء العُطارِدى بفتح الياء وكسر الخـاء والطاء . ورُوى عن الحسن أيضا أنه قرأ بفتح الخاء . قال الفراء : وقرأ بعض أهل المدينـة بإسكان الخاء وتشديد الطاء . قال الكسائى والأخفش والفراء : يجوز «يِخِطف» بكسر الياء والخاء والطاء . فهذه ستة أوجه موافقة للخط.

---

(١) يمصح : يذهب و يدرس. (٢) راجع جـ ١٢ ص ٢٩٠ (٣) قائله تأبط شرا . والبيت بتمامه :

فأُبْتُ إلى فَهْم وما كدت آئبا * وكم مثلها فارقتها وهى تصـــفر

(٤) راجع جـ ٧ ص ١٨٠

والسابعــة حكاها عبد الوارث قال : رأيت فى مصحف أبىّ بن كعب « يتخطف »، وزعم سيبويه والكسائى أن من قرأ « يخِطف » بكسر الخاء والطاء فالأصــل عنده يختطف ، ثم أدغم التاء فى الطاء فٱلتقى ساكنان فكسرت الخاء لٱلتقاء الساكنين . قال سيبويه : ومن فتح الخــاء ألقى حركة التاء عليهــا . وقال الكسائى : ومن كسر الياء فــلأن الألف فى ٱختطف مكسورة . فأما ماحكاه الفراء عن أهل المدينة من إسكان الخاء والإدغام فلا يعرف ولا يجوز؛ لأنه جمع بين ساكنين . قاله النحاس وغيره .

قلت : وروى عن الحسن أيضا وأبى رجاء « يَخِطِّف » . قال ٱبن مجــاهد : وأظنــه غلطا ؛ وٱستدل على ذلك بأن « خَطِفَ الخَطْفَةَ »(١) لم يقرأه أحد بالفتح .

﴿ أَبْصَارَهُمْ ﴾ جمع بَصَر، وهى حاسة الرؤية . والمعنى : تكاد حجج القرآن وبراهينه الساطعة تَبْهَرهم . ومن جعل « البَرْق » مَثَلًا للتخويف فالمعنى أنّ خوفهم مما ينزل بهم يكاد يُذهب أبصارهم .

قوله تعــالى : ﴿ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ ﴾ « كلما » منصوب لأنه ظرف . وإذا كان « كلما » بمعنى « إذا » فهى موصولة والعامل فيه « مَشَــوْا » وهو جوابه ، ولا يعمل فيــه « أضاء » ؛ لأنه فى صلة ما . والمفعول فى قول المبرد محذوف ، التقــدير عنده : كلما أضاء لهم البرق الطريقَ . وقيل : يجوز أن يكون فَعَل وأفْعَــل بمعنًى ، كَسَكَت وأَسْكَت ؛ فيكون أضاء وضاء ســواء فلا يحتاج إلى تقدير حذف مفعول . قال الفــراء : يقال ضاء وأضاء ، وقد تقــدّم . والمعنى أنهم كلما سمعوا القــرآن وظهرت لهم الحجج أَنِسُوا ومشَــوْا معه ، فإذا نزل من القرآن مايَعْمَوْنَ فيه ويَضِلون به أو يكلَّفونه « قاموا » ، أى ثبتوا على نفاقهم ؛ عن ٱبن عباس . وقيل : المعنى كلما صلحت أحوالهم فى زروعهم ومواشيهم وتوالت النِّعم قالوا : دِين محمد دينٌ مبارك ، وإذا نزلت بهم مصيبة وأصابتهم شدّة سَخِطوا وثبتوا فى نفاقهم ؛ عن ٱبن مسعود وقتادة . قال النحاس : وهــذا قول حسن ، ويدل على صحته : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ »(٢) . وقال علماء الصوفية : هذا مَثَلٌ ضربه الله تعالى لمن لم تصح له أحوال الإرادة بدءا ، فارتقى من

(١) راجع جـ ١٥ ص ٦٧ . (٢) راجع جـ ١٢ ص ١٧ .

Marfat.com

تلك الأحوال بالدعاوى إلى أحوال الأكابر، كأن تضيء عليـه أحوال الإرادة لو صححها بملازمة آدابها ، فلما مزجها بالدعاوى أذهب الله عنه تلك الأنوار وبقى فى ظلمـات دعاويه لا يبصر طريق الخروج منها . وروى عن آبن عباس أن المراد اليهود، لمّا نُصِر النبيّ صـلى عليه وسلم ببَدْر طمِعوا وقالوا : هذا والله النبيّ الذى بشّرنا به موسى لا تردّ له راية ؛ فلمـا نُكِب بأُحُد آرتدّوا وشكّوا؛ وهذا ضعيف . والآية فى المنافقين، وهذا أصح عن آبن عباس، والمعنى يتناول الجميع .

قوله تعالى : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ «لو» حرف تَمَنٍّ وفيه معنى الجزاء، وجوابه اللام . والمعنى : ولو شاء الله لأطلع المؤمنين عليهم فذهب منهم عِزّ الإسلام بالاستيلاء عليهم وقتلهم وإخراجهم من بينهم . وخصّ السمع والبصر لتقدّم ذكرهما فى الآية أوّلا ، أو لأنهما أشرف ما فى الإنسان . وقرئ «بأسماعهم» على الجمع؛ وقد تقدّم الكلام فى هذا(١) .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ عموم، ومعناه عند المتكلمين فيما يجوز وصفه تعالى بالقدرة عليه . وأجمعت الأمة على تسمية الله تعـالى بالقدير، فهو سبحانه قـدير قادر مقتدر . والقدير أبلغ فى الوصف من القادر؛ قاله الزجاجيّ . وقال الهرويّ : والقدير والقادر بمعنًى واحد ؛ يقال : قَدَرت على الشيء أقـدُر قَدْراً وقَدَراً ومَقـدَرة ومَقْدُرة وقُدْرَانًا ؛ أى قُدْرة . والاقتدار على الشيء : القدرة عليه . فالله جلّ وعزّ قادر مقتدر قـدير على كل ممكن يقبل الوجود والعدم . فيجب على كل مكلف أن يعلم أن الله تعالى قادر ، له قدرة بها فَعَلَ ويَفْعَل ما يشاء على وَفْق علمه وآختياره . ويجب عليه أيضا أن يعلم أن للعبد قدرة يكتسب بها ما أقدره الله تعالى عليه على مجـرى العادة ، وأنه غير مستبدّ بقدرته . وإنما خص هنـا تعالى صفته التى هى القدرة بالذكر دون غيرها؛ لأنه تقدّم ذِكر فِعْلٍ مُضَمَّنُه الوعيد والإخافة؛ فكان ذكر القدرة مناسبًا لذلك . والله أعلم .

فهذه عشرون آية على عدد الكوفيين؛ أربع آيات فى وصف المؤمنين، ثم تليها آيتان فى ذكر الكافرين، وبقيتها فى المنافقين . وقد تقدّمت الرواية فيها عن آبن جُرَيج، وقاله مجاهد أيضا .

(١) راجع المسألة الثامنة ص ١٩٠ من هذا الجزء .

قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ ٱعْبُدُوا رَبَّكُمْ ﴾ قال علقمة ومجاهد : كل آية أولها « يأيها الناس » فإنما نزلت بمكة، وكل آية أولها « يأيها الذين آمنوا » فإنما نزلت بالمدينة .

قلت : وهـذا يردّه أن هذه السورة والنساء مدنيّتان وفيهما يأيها النـاس . وأما قولها في « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا » فصحيح . وقال عُرْوة بن الزبير : ما كان من حَدّ أو فريضة فإنه نزل بالمدينة، وما كان من ذكر الأمم والعذاب فإنه نزل بمكة . وهذا واضح .

و « يا » في قوله : « يأيهـا » حرف نداء . « أيُّ » منادَى مفرد مبنيّ على الضم؛ لأنه منادى في اللفظ، و « ها » للتنبيه . « الناسُ » مرفوع صفة لأى عنـد جماعة النحويين ؛ ما عدا المـازنى فإنه أجاز النصب قياسًا على جوازه في : يا هـذا الرجل . وقيـل : ضُمّت « أى » كما ضُمّ المقصود المفرد، وجاءوا بـ « ها » عِوَضًا عن ياء أخرى ، و إنما لم يأتوا بياء لئلا ينقطع الكلام فجاءوا بـ « ها » حتى يبقى الكلام متصلا . قال سيبويه : كأنك كررت « يا » مرتين وصار الاسم بينهما؛ كما قالوا : ها هو ذا . وقيل : لمـا تعذّر عليهم الجمع بين حرفى تعريف أتوا في الصورة بمنادى مجرّد عن حرف تعريف ، وأجروا عليه المعرّف باللام المقصود بالنداء، والتزموا رفعـه ؛ لأنه المقصود بالنـداء ؛ فجعلوا إعرابه بالحركة التي كان يستحقها لو باشرها النداء تنبيها على أنه المنادى؛ فآعلمه .

وٱخْتُلِف مَن المراد بالناس هنا على قولين : أحدهما ــ الكفار الذين لم يعبدوه ؛ يدل عليـه قوله : « وَإِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ » . الثاني ــ أنه عام في جميع النـاس؛ فيكون خطابه للمؤمنين بآستدامة العبادة، وللكافرين بآبتدائها . وهذا حَسَن .

قوله تعالى : ﴿ ٱعْبُدُوا ﴾ أمرٌ بالعبادة له . والعبادة هنا عبارة عن توحيده والتزام شرائع دينه . وأصل العبادة الخضوع والتذلل؛ يقال : طريق مُعَبَّدة إذا كانت موطوءةً بالأقدام .

Marfat.com

قال طرفـــة :

* وظِيفًا وظيفًا فوق مَوْرٍ مُعَبَّدِ[(١)] *

والعبادة : الطاعة . والتعبد : التنسّك . وعبّدت فلانا : اتخذته عبدا .

قوله تعـالى : ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ خصّ تعـالى خلقه لهم من بين سائر صفاته إذ كانت العرب مُقِرّة بأن الله خلقها ؛ فذكر ذلك حجةً عليهم وتقريعًا لهم . وقيـل : ليذكرهم بذلك نعمته عليهم . وفى أصل الخلق وجهان : أحدهما — التقدير؛ يقال : خَلَقتُ الأديم للسقاء إذا قدّرته قبل القطع؛ قال الشاعر[(٢)] :

ولأنتَ تَفْـرِى ما خَلَقتَ وبعـ * ـضُ القـوم يَخْلُقُ ثم لا يَفْرِى

وقال الحجاج : ما خَلَقتُ إلّا فَرَيْتُ ، ولا وَعَدْتُ إلّا وَفَيْتُ . الثـانى : الإنشاء والاختراع والإبداع؛ قال الله تعالى : « وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا[(٣)] » .

قوله تعـالى : ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ فيقال إذا ثبت عنـدهم خلقهم ثبت عندهم خلق غيرهم؛ فالجواب : أنه إنما يجرى الكلام على التنبيه والتذكير ليكون أبلغ فى العظة؛ فذكّرهم مَن قبلهم ليعلموا أن الذى أمات من قبلهم وهو خَلَقَهم يميتهـم ؛ وليفكّروا فيمن مضى قبلهم كيف كانوا ، وعلى أىّ الأمور مضوْا من إهلاك من أهلك؛ وليعلموا أنهم يُبتلون كما ٱبتلُوا . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ « لعلّ » متصلة بٱعبدوا لا بخلقكم ؛ لأن من ذَرَأه الله لجهنم لم يخلقه ليتّقى . وهـذا وما كان مثـله فيما ورد فى كلام الله تعـالى من قوله : « لعلّكم تَعْقِلون ، لعلّكم تَشْكُرون ، لعلّكم تَذَكَّرُون ، لعلّكم تَهْتَدُون » فيه ثلاث تأويلات :

---

(١) صدر البيت : * تبارى عتاقا ناجيات وأتبعت *
تبارى : تعارض ، يقال : هما يتباريان فى السير ، إذا فعل هـذا شيئا فعل هذا مثله . والعتاق : الكرام من الإبل البيض . والناجيات : السراع . والوظيف : عظم الساق . وقوله : أتبعت وظيفا وظيفا ؛ أى اتبعت هـذه الناقة وظيف رجلها وظيف يدها ، ويستحب من الناقة أن تجعـل رجلها فى موضع يدها إذا سارت . والمـور : الطريق (عن شرح المعلقات) . (٢) هو زهير بن أبى سلمى يمدح هرم بن سنان . يقول : أنت إذا قدرت أمرا قطعته وأمضيته . وغيرك يقدر ما لا يقطعه ؛ لأنه ليس بماضى العزم وأنت مضاء على ما عزمت عليه . (عن اللسان) .
(٣) راجع جـ ١٣ ص ٣٣٥

الأوّل ــ أن « لعَـلّ » على بابها من الترجّى والتوقّع ، والترجّى والتوقّع إنما هو فى حيّز البشر ؛ فكأنه قيـل لهم : آفعلوا ذلك على الرجاء منكم والطمع أن تعقـلوا وأن تذكروا وأن تتقوا . هـذا قول سيبويه ورؤساء اللسان . قال سيبويه فى قوله عز وجل : « ٱذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ . فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ »(١) قال معناه : اذهبا على طمعكما ورجائكما أن يتذكّر أو يخشى . وآختار هذا القول أبو المعالى .

الثـانى ــ أن العرب آستعملت « لعَـلّ » مجرّدة من الشك بمعـنى لام كى . فالمعنى لتعقلوا ولتذكروا ولتتقوا ؛ وعلى ذلك يدل قول الشاعر :

وقلتم لنـا كُفُّوا الحروبَ لعلّنا * نَكُـفُّ ووثقتم لنا كلّ مَوْثِقِ

فلما كففنا الحرب كانت عهودكم * كَلَمْعِ سَـرابٍ فى المَـلا مُتَألِّقِ

المعنى : كفُّوا الحروبَ لنكُفّ، ولو كانت «لعل» هنا شكًّا لم يوثقوا لهم كل موثق؛ وهذا القول عن قُطْرُب والطبرى .

الثالث ــ أن تكون « لعل » بمعنى التعرّض للشيء ؛ كأنه قيل : آفعلوا ذلك متعرّضين لأن تعقلوا، أو لأن تذكروا أو لأن تتقوا . والمعنى فى قوله « لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » : أى لعلكم أن تجعـلوا بقبول ما أمركم الله به وقاية بينكم و بين النار . وهـذا من قول العرب : آتقاه بحقه إذا آستقبله به ؛ فكأنه جعل دفعه حقه إليه وقاية له من المطالبة ؛ ومنه قول علىّ رضى الله عنه : كنا إذا آحمرّ البأس آتقينا بالنبىّ صلى الله عليه وسـلم ؛ أى جعلناه وقاية لنا من العدوّ . وقال عنترة :

ولقد كَرَرْتُ المُهْرَ يَدْمَى نَحْرُه * حتى آتّقتنى الخيلُ بآبنى حِذْيَمِ

قوله تعـالى : ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَـآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَـآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّـكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

(١) راجع جـ ١١ ص ١٩٩ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَاشًا ﴾ فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ ﴾ معناه هنا صيّر لتعديه إلى مفعولين . ويأتى بمعنى خلق ؛ ومنه قوله تعالى : « مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ »[١] وقوله : « وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَاتِ وَٱلنُّورَ » . ويأتى بمعنى سمّى؛ ومنه قوله تعالى : « حمٓ . وَٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِينِ . إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا »[٢] . وقوله : « وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا »[٢] . « وَجَعَلُوا ٱلْمَلَائِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا »[٢] أى سمّوهم . ويأتى بمعنى أخذ؛ كما قال الشاعر[٣] :

وقد جَعلتْ نَفسِى تَطيبُ لِضَغْمةٍ * لضَغْمِهِما هَا يَقـرَعُ العظمَ نابُهـا

وقد تأتى زائدة؛ كما قال الآخر :

وقد جعلتُ أرى الآثنين أربعةً * والواحد آثنينِ لمّـا هدّنى الكِبَرُ

وقد قيل فى قوله تعـالى « وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَاتِ وَٱلنُّورَ » : إنهـا زائدة . وجعل وآجتعل بمعنًى واحد؛ قال الشاعر[٤] :

ناط أَمْرَ الضِّعافِ وآجتعل الليـ * ـلَ كحَبْـلِ العـادِيّةِ المـمْـدُودِ

﴿ فِرَاشًا ﴾ أى وِطاء يفترشونها ويستقرون عليهـا . وما ليس بفراش كالجبال والأوعار والبحار فهى من مصالح ما يفترش منها؛ لأن الجبال كالأوتاد؛ كما قال : « أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَادًا . وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا »[٥] . والبحار تركب إلى سائر منافعها؛ كما قال : « وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَـا يَنْفَعُ ٱلنَّاسَ »[٦] .

الثانيــة — قال أصحاب الشافعى : لو حلف رجل ألا يبيت على فراش أو لا يستسرج بسراج فبـات على الأرض وجلس فى الشمس لم يحنث؛ لأن اللفظ لا يرجع إليهما عُرْفًا .

---

(١) راجع جـ ٦ ص ٣٣٥ و ٣٨٦ . (٢) راجع جـ ١٦ ص ٦١ و ٦٩ و ٧١ .

(٣) هو مغلس بن لقيط الأسدى . وصف شـدّة أصابه بها رجلان من قومه ، فيقول : قد جعلت نفسى تطيب لإصابتهما بمثل الشدّة التى أصاباني بهـا . وضرب الضغمة مثلا ثم وصف الضغمة فقال : يقرع العظم نابهـا . بجعل لها نابا على السعة . والمعنى : يصل الناب فيهـا إلى العظم فيقرعه . (عن شرح الشواهد للشنتمرى) .

(٤) هو أبو زبيـد الطائى يرثى اللجلاج ابن أخته . يقـول : جعل يسير الليـل كله مستقيا كاستقامة حبل البئر إلى المـاء . ناط : علق . والعادية : البئر القديمة . (عن اللسان) . (٥) راجع جـ ١٩ ص ١٦٩ .

(٦) راجع جـ ٢ ص ١٩٤ .

وأما المـالكية فبنوه على أصلهم فى الأيمان أنهـا محمولة على النية أو السبب أو البساط الذى جرت عليه اليمين؛ فإن عدم ذلك فالعرف .

الثالثـــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾ السماء للارض كالسّقف للبيت؛ ولهذا قال وقـوله الحق : « وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا » (١) . وكل ما علا فأظلّ قيل له سمـاء ؛ وقـد تقدّم القول فيه (٢) . والوقف على «بِناء» أحسن منه على «تَتَّقُونَ»؛ لأن قوله : « ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَاشًا » نعت للرب . ويقال : بَنَى فلان بيتًا ، و بنى على أهله ــ بِناء فيهما ــ أى زَفّها . والعامة تقول : بنى بأهله ، وهو خطأ ؛ وكأنّ الأصل فيه أن الداخل بأهله كان يضرب عليها قُبّةً ليلة دخوله بها؛فقيل لكل داخل بأهله : بانٍ. و بنّى(مقصورا) شدّد للكثرة، وٱبتنى دارا و بَنَى بمعنًى ؛ ومنه بنيان الحائط ؛ وأصله وضع لَبِنَة على أخرى حتى تثبت .

وأصل المـاء مَوَهٌ ، قلبت الواو ألفا لتحرّكها وتحرّك ما قبلها فقلت مَاهٌ ، فٱلتقى حرفان خفيّان فأبدلت من الهاء همزة؛لأنها أجلد،وهى بٱلألف أشبه؛ فقلت : ماء؛ الألف الأولى عين الفعل، و بعدها الهمزة التى هى بدل من الهاء، و بعد الهمزة ألف بدل من التنوين. قال أبو الحسن : لا يجوز أن يكتب إلا بألفين عند البصريين، و إن شئت بثلاث ؛ فإذا جمعوا أو صغّروا ردّوا إلى الأصل فقالوا : مُوَيْهٌ وأَمْوَاهٌ ومِيَاهٌ ؛ مثل جِمَال وأجْمال .

الرابعـــة ــ قوله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ﴾ الثمرات جمـع ثمرة . ويقال : ثَمَر مثل شَجَر . و يقال ثُمُر مثل خُشُب . و يقال : ثُمْر مثل بُدْن . وثِمَار مثل إكام جمع ثمر . وسيأتى لهذا مزيد بيان فى «الأنعام» (٣) إن شاء الله . وثمار السّياط : عُقَدُ أطرافها.

والمعنى فى الآية أخرجنا لكم ألوانا من الثمرات، وأنواعا من النبات.﴿رِزْقًا﴾ طعاماً لكم، وعَلَفًا لدوابّكم ؛ وقد بيّن هذا قولُه تعالى : « إِنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَاءَ صَبًّا . ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا . فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا . وَحَدَائِقَ غُلْبًا . وَفَاكِهَةً وَأَبًّا . مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ » (٤) . وقد مضى الكلام فى الرزق مستوفًى (٥) والحمد لله .

---

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٨٥		(٢) راجع ص ٢١٦ من هذا الجزء .		(٣) راجع جـ ٧ ص ٤٩
(٤) راجع جـ ١٩ ص ٢١٨		(٥) راجع ص ١٧٧ و ١٧٨ من هذا الجزء .

Marfat.com

فإن قيل : كيف أطلق آسم الرزق على ما يخرج من الثمرات قبل التملك ؟ قيل له : لأنها معدّة لأن تملك ويصح بها الآنتفاع ، فهى رزق .

الخامســـة — قلت : ودلّت هذه الآية على أن الله تعالى أغنى الإنسان عن كل مخلوق ؛ ولهذا قال عليه السلام مشيرًا إلى هــذا المعنى : " والله لأنْ يأخذ أحدُكم حَبْلَه فيَحْتطِبَ على ظهره خير له من أن يسأل أحدًا أعطاه أو منعه ". أخرجه مسلم. ويدخل فى معنى الآحتطاب جميــع الأشغال من الصنائع وغيرها ؛ فمن أحوج نفسه إلى بشر مثله بسبب الحرص والأمل والرغبة فى زُخرف الدنيا فقــد أخذ بطرف من جعل لله نِدًّا . وقال علماء الصوفية : أعلم الله عزّ وجل فى هذه الآية سبيل الفقر ، وهو أن تجعل الأرض وِطاء والسماء غِطاء ، والمــاء طيبا والكلأ طعاما ، ولا تعبد أحدا فى الدنيا من الخلق بسبب الدنيا ، فإن الله عزّ وجلّ قد أتاح[١] لك ما لا بدّ لك منه ، من غير مِنّة فيــه لأحد عليك . وقال نَوْف البِكَالِيّ : رأيت علىّ بن أبى طالب خرج فنظر إلى النجوم فقال : يا نَوْف ، أراقد أنت أم رامق؟ قلت : بل رامق يا أمير المؤمنين ، قال : طُوبَى للزاهدين فى الدنيا والراغبين فى الآخرة ، أولئك قوم آتخذوا الأرض بساطًا ، وتُرابها فِراشا ، وماءها طِيبا ، والقرآن والدعاء دِثارا وشِعارا ، فرفضوا الدنيا على منهاج المسيح عليه السلام ... وذكر باقى الخبر ، وسيأتى تمامه فى هذه السورة عند قوله تعالى : « أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ[٢] » إن شاء الله تعالى .

السادســـة — قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا ﴾ نَهْىٌ . ﴿ لِلَّهِ أَنْدَادًا ﴾ أى أكفاء وأمثالا ونظراء ، واحدها نِدّ ، وكذلك قرأ محمد بن السَّمَيْقَع « نِدًّا » ؛ قال الشاعر :

نَحْمَــدُ الله ولا نِدّ له * عنده الخير وما شاء فعلْ

وقال حسّان :

أتهجوه ولست له بِنِدٍّ * فشرُّكما لخيركما الفِــداء

(١) فى الأصول : « أباح » بالباء الموحدة ؛ وهو تصحيف .

(٢) راجع جـ ٢ ص ٣٠٨

ويقال : نِدٌّ ونَدِيدٌ ونَدِيدَةٌ على المبالغة ؛ قال لبيد :

لكيلا يكون السَّنْدَرِيُّ نَدِيدَتِي * وأجعلَ أقواما عُموماً عَماعِما (١)

وقال أبو عبيدة : « أندادا » أضدادا . النحاس : « أندادا » مفعول أوّل . و « لله » فى موضع الثانى . الجوهرى : والنَّدّ (بفتح النون) : التَّلُّ المرتفع فى السماء . والنَّدّ من الطيب ليس بعربيّ . ونَدّ البعير يَنِدُّ نَدًّا ونِدادا ونُدودا : نفر وذهب على وجهه ؛ ومنه قرأ بعضهم « يَوْمَ التَّنَادِّ » (٢) . ونَدّد به أى شهّره وسمّع به .

السابعـــة — قوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ابتداء وخبر، والجملة فى موضع الحال ، والخطاب للكافرين والمنافقين ؛ عن ابن عباس .

فإن قيل : كيف وصفهم بالعلم وقد نعتهم بخلاف ذلك من الخَتْم والطَّبْع والصَّمَم والعَمَى . فالجواب من وجهين : أحدهما — « وأنتم تعلمون » يريد العلم الخاص بأن الله تعالى خلق الخلق وأنزل المـاء وأنبت الرزق ؛ فيعلمون أنه المنعِم عليهـم دون الأنداد . الثـانى — أن يكون المعنى وأنتم تعلمون وحدانيّته بالقوة والإمكان لو تدبرتم ونظرتم ؛ والله أعلم . وفى هذا دليل على الأمر باستعمال حجج العقول و إبطال التقليد . وقال ابن فُورَك : يحتمل أن تتناول الآية المؤمنين ؛ فالمعنى لا ترتدّوا أيها المؤمنون وتجعلوا لله أندادا بعد علمكم الذى هو نَفْيُ الجهل بأن الله واحد .

قوله تعـالى : وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ ﴾ أى فى شـك . ﴿ مِمَّا نَزَّلْنَا ﴾ يعنى القـرآن ، والمراد المشركون الذين تُحُـدُّوا ، فإنهم لمـا سمعوا القرآن قالوا : ما يشبه هـذا كلام الله ،

---

(١) السندرى : ابن يزيد الكلابى ، شاعر كان مع علقمة بن علاثة ، وكان لبيد مع عامر بن الطفيـل ، فدعى لبيد إلى مهاجاته فأبى وقال البيت . والعماعم : الجماعات المتفرقون . ومعـنى الشطر الثانى : وأجعل أقـواما مجتمعين فرقا . (عن شرح القاموس واللسان) .　　(٢) راجع جـ ١٥ ص ٣١١ .

Marfat.com

و إنا لفى شك منه ؛ فنزلت الآية . ووجه آتصالها بما قبلها أن الله سبحانه لما ذكر فى الآية الأولى الدلالة على وحدانيته وقدرته ذكر بعدها الدلالة على نبوّة نبيّه ، وأن ما جاء به ليس مُفْتَرًى من عنده .

قوله : ﴿ عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم . والعبد مأخوذ من التعبّد وهو التذلّل ؛ فسُمِّىَ المملوكُ — من جنس ما يفعله — عبدًا لتذلّله لمولاه ؛ قال طَرَفة :

إلى أن تحامتنِى العشيرة كلها * وأُفْرِدْتُ إفرادَ البعير المُعَبَّد

أى المذلّل . قال بعضهم : لما كانت العبادة أشرف الخصال والتسمى بها أشرف الخطط ، سمّى نبيّه عبدًا ، وأنشدوا :

ياقومِ قلبى عند زهراءَ * يعرفه السامعُ والرائى

لاتَدْعُنى إلا بيَا عبدَها * فإنه أشرف أسمائى

﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ ﴾ الفاء جواب الشرط ، ائتوا مقصور لأنه من باب المجىء ؛ قاله آبن كَيْسان . وهو أمرٌ معناه التعجيز ؛ لأنه تعالى عَلِم عجزهم عنه . والسورة واحدة السُّوَر . وقد تقدّم الكلام فيها (١) وفى إعجاز القرآن (٢) ، فلا معنى للإعادة . و«مِن» — فى قوله ﴿ مِنْ مِثْلِهِ ﴾ — زائدة ؛ كما قال : « فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ » والضمير فى « مثله » عائد على القرآن عند الجمهور من العلماء ، كقتادة ومجاهد وغيرهما . وقيل : يعود على التوراة والإنجيل . فالمعنى فأتوا بسورة من كتاب مثله فإنها تصدّق ما فيه . وقيل : يعود على النبىّ صلى الله عليه وسلم . المعنى : من بَشَرٍ أُمِّىٍّ مثله لا يكتب ولا يقرأ . فمن على هذين التأويلين للتبعيض . والوقف على « مثله » ليس بتامّ ؛ لأن « وآدعوا » نَسَقٌ عليه .

قوله تعالى : ﴿ وَٱدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ ﴾ معناه أعوانكم ونصراءكم . الفرّاء : آلهتكم . وقال آبن كَيْسان : فإن قيل كيف ذكر الشهداء هاهنا ، وإنما يكون الشهداء ليشهدوا أمرا ، أو ليخبروا بأمر شهدوه ، وإنما قيل لهم : « فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ » ؟ فالجواب : أن

(١) راجع ص ٦٥ من هذا الجزء . (٢) راجع ص ٦٩ — ٧٨ من هذا الجزء .

Marfat.com

المعــنى ٱستعينوا بمن وجدتموه من علمائكم ، وأحضروهم ليشاهــدوا ما تأتون به ؛ فيكون الردّ على الجميع أوكدَ فى الحجة عليهم .

قلت : هذا هو معنى قول مجاهد . قال مجاهد : معنى «وَٱدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ» أى ٱدعوا ناسا يشهدون لكم ؛ أى يشهدون أنكم عارضتموه . النحاس : « شهداءكم » نصب بالفعل جمــع شهيد؛ يقال : شاهد وشهيد ، مثل قادر وقدير . وقوله : ﴿ مِنْ دُونِ ٱللهِ ﴾ أى من غيره ، ودُون نقيض فوق؛ وهو تقصير عن الغاية ، و يكون ظرفًا . والدُّون : الحقير الخسيس ؛ قال :

إذا ما علا المــرء رام العـــلاء * ويقنــع بالدُّون من كان دُونا

ولا يُشتق منــه فعل؛ و بعضهم يقول منــه : دان يَدُون دَوْنًا . ويقال : هــذا دُون ذاك؛ أى أقرب منه . ويقال فى الإغراء بالشيء : دُونَكَهُ . قالت تَميم للحجاج : أَقْبِرنا(١) صالحًا — وكان قد صلبه — فقال : دُونَكُمُوه .

قوله تعالى : ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما قلتم من أنكم تقدرون على المعارضة؛ لقولهم فى آية أخرى : «لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا(٢) مِثْلَ هَذَا» . والصدق : خلاف الكذب، وقد صَدَق فى الحديث . والصِّدْق : الصُّلب من الرماح ، ويقال : صَدَقُوهم القتال . والصِّدِّيق : الملازم للصدق . ويقال : رجل صِدْقٍ؛ كما يقال : نِعْمَ الرجل . والصداقة مشتقة من الصدق فى النصح والودّ .

قوله تعـالى : فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَـلُوا فَٱتَّقُوا ٱلنَّـارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْـكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ يعنى فيما مضى ﴿ وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ أى تُطيقوا ذلك فيما يأتى . والوقف على هذا على «صادقين» تام . وقال جماعة من المفسرين : معنى الآية وٱدعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ولن تفعلوا، فإن لم تفعلوا فاتقوا النار . فعلى هذا التفسير لا يتم الوقف على « صادقين » .

(١) أقبرنا ، أى ائذن لنا فى أن نقبره . وصالح : هو صالح بن عبد الرحمن مولى تميم ، كان كاتبا للحجاج ، ويرى رأى الخوارج . (٢) راجع جـ ٧ ص ٣٩٧

Marfat.com

فإن قيل : كيف دخلت «إن» على « لم » ولا يدخل عامل على عامل؟ فالجـواب أن «إن» ها هنا غير عاملة فى اللفظ ، فدخلت على « لم » كما تدخل على المـاضى؛ لأنها لا تعمل فى «لم» كما لا تعمل فى المـاضى؛ فمعنى إن لم تفعلوا : إن تركتم الفعل .

قوله تعالى : ﴿ وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ نصب بلن ، ومن العرب من يجزم بها ، ذكره أبو عبيدة؛ ومنه بيت النابغة :

* فلن أُعَرِّضْ أَبَيْتَ اللَّعْنَ بالصَّفَدِ *[1]

وفى حديث ٱبن عمر حين ذُهب به إلى النار فى منامه : فقيل لى «لن تُرَعْ». هذا على تلك اللغة . وفى قوله : «وَلَنْ تَفْعَلُوا» إثارة لهممهم، وتحريك لنفوسهم؛ ليكون عجزهم بعد ذلك أبدع ، وهذا من الغيوب التى أخبر بها القرآن قبل وقوعها . وقال ٱبن كَيْسان : «ولن تفعلوا» توقيفًا لهم على أنه الحق ، وأنهم ليسوا صادقين فيما زعموا من أنه كذب ، وأنه مفترًى وأنه سحر وأنه شِعر ، وأنه أساطير الأوّلين ؛ وهم يدّعون العلم ولا يأتون بسورة من مثله .

وقوله : ﴿ فاتَّقُوا النَّارَ ﴾ جواب «فإنْ لَمْ تَفْعَلُوا» ؛ أى ٱتقوا النار بتصديق النبيّ صلى الله عليه وسلم وطاعة الله تعالى . وقد تقدّم معنى التقوى[2] فلا معنى لإعادتها . ويقال: إن لغة تميم وأسد «فَتَقُوا النار» . وحكى سيبويه : تَقَى يَتْقِى ، مثل قضى يقضى . «النارَ» مفعولة . «التى» من نعتها . وفيها ثلاث لغات : التى واللّتِ (بكسر التاء) واللّتْ (بإسكانها) . وهى ٱسم مُبْهَم للمؤنث وهى معرفة ؛ ولا يجوز نزع الألف واللام منها للتنكير ، ولا تتم إلا بصلة . وفى تثنيتها ثلاث لغات أيضا : اللّتانِ واللّتا (بحذف النون) واللّتانِّ (بتشديد النون) . وفى جمعها خمس لغات:

---

(١) رواية الديوان وهى المشهورة فى مصادر الأدب : « فلم أعرض » . ويروى : « فما عرضت » . وصدر البيت :

* هـذا الثناء فإن تسمع به حسنا *

وقوله : أبيت اللعن . تحية كانوا يحيون بها الملوك . والصفد : العطاء ؛ معناه : أبيت أن تأتى من الأمور ما تلعن عليه وتذم . يقول : هـذا الثناء الصحيح الصادق فمن الحق أن تقبله منى ، فلم أمدحك متعرضا لعطائك ، لكن امتدحتك إقرارا بفضلك . (عن شرح الديوان) .

(٢) راجع ص ١٦١ من هذا الجزء .

Marfat.com

اللَّاتِي ، وهي لغة القرآن . واللّاتِ (بكسر التاء بلا ياء) . واللّواتِي . واللّواتِ (بلا ياء) ؛ وأنشد أبو عبيدة :

من اللّواتِي واللّتي واللّاتِي * زعمن أن قد كَبِرَتْ لِداتِي

واللّـوا (بإسقاط التاء) ؛ هـذا ما حكاه الجوهري . وزاد ابن الشّجري : اللّائى (بالهمز وإثبات الياء) . واللّاءِ (بكسر الهمزة وحذف الياء) . واللّا (بحذف الهمزة) . فإن جمعت الجمـع قلت فى اللّاتى : اللّواتى . وفى اللّائى : اللوائى . قال الجوهرى : وتصغير الّتى اللُّتَيّا (بالفتح والتشديد) ؛ قال الراجز (١) :

بعد اللُّتَيّا واللَّتَيّا والّتِي * إذا عَلَتْهَا أنفسٌ تَرَدَّتِ

و بعض الشعراء أدخل على « التى » حرف النـداء ، وحروف النداء لا تدخل على ما فيه الألف واللام إلا فى قولنا : يا الله ، وحده . فكأنه شبّهها به من حيث كانت الألف واللام غير مفارقتين لها ؛ وقال :

من آجلك يا الّتِي تَيَّمْتِ قلبِي * وأنت بخيـــلةٌ بالـوُدّ عنّي

ويقال : وقع فلان فى اللّتيّا والّتِي ؛ وهما آسمان من أسماء الدّاهية . والوقود (بالفتح) : الحطب . و بالضم : التوقد . و «الناس» عموم، ومعناه الخصوص فيمن سبق عليه القضاء أنه يكون حطباً لها ؛ أجارنا الله منها . «والحجارة» هى حجارة الكبريت الأسود — عن آبن مسعود والفرّاء — وخُصّت بذلك لأنها تزيد على جميـع الأحجار بخمسة أنواع من العذاب : سرعة الاتقاد، نتن الرائحة ، كثرة الدخان، شدّة الالتصاق بالأبدان ، قوة حرّها إذا حَمِيَت . وليس فى قوله تعالى : «وَقُودُهَا النّاسُ وَالحِجَارَةُ» دليل على أن ليس فيها غير الناس والحجارة؛ بدليل ما ذكره فى غير موضع من كَوْن الجنّ والشياطين فيها . وقيل : المراد بالحجارة الأصنام؛ لقوله تعالى : « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ (٢) » أى حطب جهنم . وعليـه فتكون الحجارة والناس وقودا للنار؛وذكر ذلك تعظيما للنار أنها تحرق الحجارة مع إحراقها للناس.

---

(١) هو العجاج . وصف دواهى شنيعة . يقول : بعـد الجهد والمشرف الذى أشرفت عليه . ومعنى تردت : سقطت هاوية وهلكت .

(٢) راجع جـ ١١ ص ٣٤٣

Marfat.com

وعلى التأويل الأوّل يكونون معذّبين بالنار والحجارة . وقـد جاء الحديث عن النبيّ صـلى الله عليه وسلم أنه قال : " كلُّ مُؤْذٍ فى النار " . وفى تأويله وجهان : أحدهما — أن كل من آذى الناس فى الدنيا عذّبه الله فى الآخرة بالنار . الثانى — أن كل ما يؤذى الناس فى الدنيا من السباع والهوام وغيرها فى النار مُعَـدٌّ لعقوبة أهل النار . وذهب بعض أهل التأويل إلى أن هذه النار المخصوصة بالحجارة هى نار الكافرين خاصّةً . والله أعلم .

روى مسلم عن العباس بن عبد المطلب قال قلت : يا رسول الله ، إن أبا طالب كان يَحُوطُك وينصرك ، فهل نفعه ذلك ؟ قال : " نعم وجدته فى غمرات من النار فأخرجته إلى ضَحْضَاح[(١)] — فى رواية — ولولا أنا لكان فى الدَّرْكِ الأسفل من النار " . «وَقُودُهَا» مبتدأ . « النَّاسُ » خبره . « والحجارةُ » عطف عليهم . وقرأ الحسن ومجاهد وطلحة بن مُصَرِّف : «وُقُودها» (بضم الواو) . وقرأ عُبيد بن عُمير : «وَقِيدُها النّاسُ» . قال الكسائى والأخفش : الوقود (بفتح الواو) : الحطب ، و (بالضم) : الفعل ؛ يقال : وَقَدَتِ النارُ تَقِدُ وُقُودًا (بالضم) ووَقْدًا وقِدَةً [ووَقِيدا ووَقْدًا][(٢)] ووَقَدَانًا ، أى تَوَقّدت . وأَوْقدتها أنا وآستوقدتها أيضا . والاتّقاد مثلُ التَّوَقّد ، والموضـع مَوْقِد ؛ مثلُ مجلِس ، والنـار مُوقَدة . والوَقْدة : شـدّة الحرّ ، وهى عشرة أيام أو نصف شهر . قال النحاس : يجب على هذا ألا يُقرأ إلا «وَقُودها» [(٣)] [بفتح الواو] لأن المعنى حطبها ؛ إلا أن الأخفش قال : وحُكى أن بعض العرب يجعل الوَقود والوُقود بمعنى الحطب والمصدر . قال النحاس : وذهب إلى أن الأوّل أكثر ، قال : كما أن الوَضُوء الماءُ ، والوُضُوء المصدر .

قوله تعالى : ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ ظاهره أن غير الكافرين لا يدخلها وليس كذلك ؛ بدليل ما ذكره فى غير موضع من الوعيد للمذنبين وبالأحاديث الثابتة فى الشفاعة ؛ على ما يأتى . وفيه دليل على ما يقوله أهـل الحق من أن النار موجودة مخلوقة ؛ خلافًا للمبتدعة فى قولهم : إنها لم تخلق حتى الآن . وهو القول الذى سقط فيه القاضى منذر بن سعيد البَلُّوطى الأندلسى .

روى مسلم عن عبد الله[(٤)] بن مسعود قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ سمِـع وَجْبَةً[(٥)] ؛

(١) الضحضاح فى الأصل : مارق من الماء على وجه الأرض ما يبلغ الكعبين ، وآستعير للنار .

(٢) الزيادة عن هامش بعض نسخ الأصل . (٣) الزيادة عن كتاب « إعراب القرآن للنحاس » .

(٤) كذا فى الأصول . وفى صحيح مسلم : « عن أبى هريرة » . (٥) الوجبة : صوت الشىء يسقط فيسمع له ، كالهدّة .

Marfat.com

فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "تدرون ما هذا" قال قلنا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : "هذا حَجَر رُمِىَ به فى النار منذ سبعين خَرِيفًا فهو يَهْوِى فى النار الآن حتى انتهى إلى قعرها". وروى البخاريّ عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "احتجّت النار والجنة فقالت هذه يدخلنى الجبارون والمتكبرون وقالت هذه يدخلنى الضعفاء والمساكين فقال الله عزّ وجلّ لهذه أنتِ عذابى أعذِّب بِكِ من أشاء وقال لهذه أنتِ رَحْمَتِى أرْحَمُ بِكِ من أشاء ولكل واحدة منكما ملؤها". وأخرجه مسلم(١) بمعناه. يقال : احتجّت بمعنى تحتج ؛ للحديث المتقدم حديث ابن مسعود(٢)، ولأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قد أُرِيَهما فى صلاة الكسوف، ورآهما أيضا فى إسرائه ودخل الجنة ؛ فلا معنى لما خالف ذلك. وبالله التوفيق. و ﴿ أُعِدَّتْ ﴾ يجوز أن يكون حالا للنار على معنى مُعَدّة، وأضمرت معه قد ؛ كما قال : « أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ(٣) » فمعناه قد حصرت صدورهم ؛ فمع « حَصِرت » قد مضمرة لأن الماضى لا يكون حالا إلا مع قد ؛ فعلى هذا لا يتم الوقف على « الحجارة ». ويجوز أن يكون كلامًا منقطعًا عما قبله ؛ كما قال : « وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ(٤) ». وقال السِّجِسْتَانى : « أُعِدّتْ لِلْكَافِرِينَ » من صلة « الّتِى » ؛ كما قال فى آل عمران : « وَٱتَّقُوا ٱلنَّارَ ٱلَّتِى أُعِدّتْ لِلْكَافِرِينَ(٥) ». ابن الأنبارى : وهذا غَلَط ؛ لأن التى فى سورة البقرة قد وُصلت بقوله : « وَقُودُهَا النّاسُ » فلا يجوز أن توصل بصلة ثانية ؛ وفى آل عمران ليس لها صلة غير « أُعِدّتْ ».

قوله تعالى : وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾

(١) بمراجعة صحيحى البخارى ومسلم وجدنا أن الرواية لمسلم، وأخرجه البخارى بمعناه.

(٢) يلاحظ أن راوى الحديث المتقدم فى صحيحى مسلم والبخارى أبو هريرة.

(٣) راجع جـ ٥ ص ٣٠٩. (٤) راجع جـ ١٥ ص ٣٥٣. (٥) راجع جـ ٤ ص ٢٠٢.

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — لمـا ذكر الله عزّ وجلّ جزاء الكافرين ذكر جزاء المؤمنين أيضا . والتبشـير الإخبار بما يَظهر أثره على البَشرة — وهى ظاهر الجلد — لتغيّرها بأوّل خبر يَرِد عليك ؛ ثم الغالب أن يُستعمل فى السرور مقيّدًا بالخير المُبَشَّر به ، وغير مقيّد أيضا . ولا يُستعمل فى الغمّ والشّر إلّا مُقَيَّدًا منصوصًا على الشر المبشَّر به ؛ قال الله تعالى : « فَبَشِّرْهُمْ بِعَـذَابٍ أَلِيمٍ » . ويقال : بَشَرته و بَشّرته — مخفّف ومشدّد — بِشارة (بكسر الباء) فأبشر وآستبشر . و بَشِر يَبْشَر إذا فَرِح . ووجه بشير إذا كان حَسَنًا بيّن البَشارة (بفتح الباء) . والبُشْرَى : مايُعطاه المُبَشَّر . وتباشير الشيء : أوّله .

الثانيـــة — أجمع العلماء على أن المكلَّف إذا قال : مَن بَشَّرَنى من عبيدى بكذا فهو حُرّ ، فبَشّره واحد من عبيـده فأ كثر فإن أوّلهم يكون حُرًّا دونَ الثانى . وآختلفـوا إذا قال : مَن أخبرنى من عبيدى بكذا فهو حُرٌّ فهل يكون الثانى مثل الأوّل ؛ فقال أصحاب الشافعى : نعم ؛ لأن كل واحد منهـم مخبر . وقال علماؤنا : لا ؛ لأن المكلّف إنما قصـد خبرا يكون بشارة ، وذلك يختص بالأوّل ، وهذا معلوم عُرْفًا فوجب صرف القول إليه . وفرّق محمـد آبن الحسن بين قـوله : أخبرنى ، أو حَدّثنى ؛ فقـال : إذا قال الرجل أىّ غلام لى أخبرنى بكذا ، أو أعلمنى بكذا وكذا فهو حُرٌّ — ولا نِيّةَ له — فأخبره غلام له بذلك بكتاب أو كلام أو رسول فإن الغلام يَعتق ؛ لأن هذا خبر . و إن أخبره بعد ذلك غلام له عَتَق ؛ لأنه قال : أىّ غلام أخبرنى فهـو حُرٌّ . ولو أخبروه كلّهـم عَتقوا ؛ و إن كان عَنَى — حين حلف — بالخبر كلام مشافهة لم يَعْتِق واحدٌ منهم إلا أن يخبره بكلام مشافهة بذلك الخبر . قال : و إذا قال أىّ غلام لى حَدّثنى ؛ فهذا على المشافهة ، لا يعتق واحد منهم .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ ردّ على من يقول : إن الإيمان بمجرّده يقتضى الطاعات ؛ لأنه لو كان ذلك ما أعادها ؛ فالجنـة تُنال بالإيمان والعمل الصـالح . وقيل : الجنة تُنال بالإيمان ، والدّرجات تُستحقّ بالأعمال الصالحات . والله أعلم .

Marfat.com

﴿ أَنَّ لَهُمْ ﴾ فى موضع نصب بـ « بَشِّر » ، والمعنى و بشر الذين آمنوا بأن لهم ، أو لأن لهم ؛ فلما سقط الخافض عمـل الفعل . وقال الكسائى و جمـاعة من البصريين : « أنّ » فى موضع خفض بإضمار الباء .

﴿ جَنَّاتٍ ﴾ فى موضع نصب آسم « أنّ » ، « وأنّ » وما عملت فيه فى موضع المفعول الثانى . والجنّات : البساتين ؛ و إنما سُمِّيت جنات لأنها تُجِنّ مَن فيها أى تستره بشجرها ؛ ومنه : المِجَنّ والجَنين والجنة .

﴿ تَجْرِى ﴾ فى موضع النعت لجنات ، وهو مرفوع ؛ لأنه فعل مستقبل فحذفت الضمة من الياء لثقلها معها .

﴿ مِنْ تَحْتِهَا ﴾ أى من تحت أشجارها ، ولم يجر لها ذكر ، لأن الجنّات دالة عليها .

﴿ ٱلأَنْهَارُ ﴾ أى ماء الأنهار ؛ فنُسب الجرى إلى الأنهار توسّعًا ، و إنما يجرى المـاء وحده فحذف آختصارا ؛ كما قال تعالى : «وَٱسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ»[1] أى أهلها . وقال الشاعر[2] :

نُبِّئْتُ أن النار بعدك أُوقِدت * وآستبّ بعدك يا كليبُ المجلسُ

أراد : أهل المجلس ؛ فحذف . والنهر : مأخوذ من أنهرت ، أى وسّعت ؛ ومنه قول قيس آبن الخَطِيم :

مَلَكْتُ[3] بها كَفّى فأنهرت فَتْقَها * يرى قائم من دونهـا ما وراءَها

أى وسّعتها ؛ يصف طَعْنة . ومنه قول النبىّ صلى الله عليه وسلم : "ما أنهر الدّمَ وذُكِر آسم الله عليه فَكُلُوهُ" . معناه : ما وَسّع الذبح حتى يجرى الدّمُ كالنهر . و جمع النَّهَر : نُهُرٌ وأنهار . ونَهَرٌ نَهِر : كثير المـاء ؛ قال أبو ذُؤيب :

أقامت به فآبتنتْ خَيْمَةً * على قَصَبٍ وفُرَاتٍ نَهِـــرْ[4]

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٢٤٦ (٢) هو مهلهل أخو كليب . (٣) ملكت : أى شددت وقويت .
(٤) قال الأصمعى : «قصب البطحاء مياه تجرى إلى عيون الركايا (الآبار) . يقول : أقامت بين قصب أى ركايا وماء عذب ؛ وكل فرات فهو عذب» . (عن اللسان وشرح الديوان) .

Marfat.com

وروى : أن أنهار الجنة ليست فى أخاديد، إنما تجرى على سطح الجنة منضبطة بالقدرة حيث شاء أهلها . والوقف على «الأنهار» حَسَن وليس بتام؛ لأن قوله : «كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ» من وصف الجنات .

﴿ رِزْقًا ﴾ مصدره، وقد تقدّم القول فى الرزق (١) . ومعنى ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ يعنى فى الدنيا، وفيه وجهان : أحدهما — أنهم قالوا هذا الذى وُعِدنا به فى الدنيا . والثانى — هذا الذى رُزِقنا فى الدنيا؛ لأن لَوْنَهـا يشبه لون ثمـار الدنيا؛ فإذا أكلوا وجدوا طعمه غير ذلك . وقيـل: « مِن قبـلُ » يعنى فى الجنة لأنهم يُرزقون ثم يُرزقون ؛ فإذا أُتُوا بطعام وثمـار فى أوّل النهار فأكلوا منها ، ثم أُتُوا منها فى آخر النهار قالوا : هذا الذى رُزِقنا مِن قبل؛ يعنى أُطْعِمْنا فى أوّل النهار ؛ لأن لونه يُشبه ذلك؛ فإذا أكلوا منها وَجَدُوا لها طعمًا غير طعم الأوّل .

﴿ وَأُتُوا ﴾ فُعِلوا من أتيت . وقرأه الجماعة بضم الهمزة والتاء . وقرأ هارون الأعْوَر «وأَتَوْا» بفتح الهمزة والتاء . فالضمير فى القراءة الأولى لأهل الجنة، وفى الثانية للخدام .

﴿ بِهِ مُتَشَابِهًا ﴾ حال من الضمير فى « به » ؛ أى يشبه بعضه بعضا فى المنظر ويختلف فى الطعم . قاله آبن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم . وقال عِكْرِمة : يُشبه ثمـرَ الدنيا و يباينه فى جُلّ الصفات . آبن عباس : هذا على وجه التعجُّب، وليس فى الدنيا شىء ممـا فى الجنة سوى الأسماء؛ فكأنهم تعجّبوا لمـا رأوه من حسن الثمرة وعظم خلقها . وقال قتادة : خياراً لا رَذْل فيه؛ كقوله تعالى : « كِتَابًا مُتَشَابِهًا » وليس كثمار الدنيا التى لا تتشابه؛ لأن فيها خيارا وغير خيار .

﴿ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ ﴾ ابتداء وخبر . وأزواج : جمع زَوْج . والمرأة : زَوْج الرجل . والرجل زَوْج المرأة . قال الأصمعىّ : ولا تكاد العرب تقول زوجة . وحكى الفَرّاء أنه يقال: زوجة؛ وأنشد الفَرَزْدَق :

و إن الذى يَسْعَى لِيُفسِد زَوْجتى * كساعٍ إلى أُسْد الشَّرَى يَسْتَبِيلُهَا (٢)

(١) راجع ص ١٧٧ من هذا الجزء .

(٢) الشرى : مأسدة جانب الفرات يضرب بها المثل . يستبيلها : أى يأخذ بولها فى يده .

Marfat.com

وقال عمّار بن ياسر فى شأن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها : والله إنى لأعلم أنها زوجته فى الدنيا والآخرة ، ولكن الله ٱبتلاكم . ذكره البخارى ، وٱختاره الكسائى .

﴿مُطَهَّرَةٌ﴾ نعتٌ للأزواج. ومُطَهَّرةٌ فى اللغة أجمع من طاهرة وأبلغ؛ ومعنى هذه الطهارة من الحَيْض والبُصاق وسائر أقذار الآدميّات . ذكر عبد الرازق قال أخبرنى الثَّوْرِىّ عن ٱبن أبى نَجِيح عن مجاهد : « مطهرة » قال : لا يَبُلْنَ ولا يتَغَوَّطْنَ ولا يَلِدْن ولا يَحِضْنَ ولا يمنين ولا يَبْصُقْنَ . وقد أتينا على هـذا كلّه فى وصف أهل الجنة وصفة الجنة ونعيمها من كتاب التذكرة . والحمد لله .

﴿ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ « هم » مبتدأ . « خالدون » خبره ، والظرف مُلْغًى . ويجـوز فى غير القرآن نصب خالدين على الحـال . والخلود : البقاء؛ ومنه جَنّة الخُلْد . وقد تستعمل مجازًا فيما يطول ؛ ومنه قولهم فى الدعاء : خَلّد الله مُلْكه ، أى طوّله . قال زُهَيْر :

ألَا لا أرى على الحوادث باقيًا * ولا خالدًا إلا الجبالَ الرواسيَا

وأمّا الذى فى الآية فهو أبدىّ حقيقةً .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِى أَنْ يَضْرِبَ مَثَـلًا ﴾ قال ٱبن عبـاس فى رواية أبى صـالح : لمّـا ضرب الله سبحانه هـذين المثلين للمنـافقين : يعنى « مَثَلُهُمْ كَمَثَـلِ الَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا » وقوله : « أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ » قالوا : الله أجلّ وأعلى من أن يضرب الأمثال ؛ فأنزل الله هذه الآية . وفى رواية عطاء عن ٱبن عباس قال : لمـا ذكر الله آلهة المشركين فقال : « وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْـهُ »(1) وذكر كَيْدَ الآلهة

(١) راجع جـ ١٢ ص ٩٧

Marfat.com

بجعله كبيت العنكبوت ، قالوا : أرأيت حيث ذكر الله الذباب والعنكبوت فيما أنزل من القـرآن على محمد ، أيّ شيء يصنع ؟ فأنزل الله الآية . وقال الحسن وقتادة : لمـا ذكر الله الذباب والعنكبوت فى كتابه وضربَ للشركين به المَثل ، ضحكت اليهود وقالوا : ما يشبه هذا كلام الله ؛ فأنزل الله الآية .

و ﴿يَسْتَحْيِي﴾ أصله يَسْتَحْيِيُ ، عينه ولامه حَرْفا علة ؛ أُعِلّت اللام منه بأن آستثقلت الضمة على الياء فسكنت . وآسم الفاعل على هـذا : مستحيٍ ، والجمع مُسْتَحْيُون ومُسْتَحْيِين . وقرأ آبن مُحَيْصِن «يستحِى» بكسر الحاء و ياء واحدة ساكنة ؛ ورُوى عن آبن كثير، وهى لغة تميم و بكر آبن وائل ؛ نُقلت فيها حركة الياء الأولى إلى الحاء فسكنت ، ثم آستثقلت الضمة على الثانيـة فسكنت ، فحذفت إحداهما للالتقاء ؛ وآسم الفاعل مُسْتَحٍ ، والجمـع مستحون ومستحين . قاله الجوهرى . وآختلف المتأولون فى معنى «يستحيي» فى هذه الآية ؛ فقيل : لا يخشى ؛ ورجحه الطبرى ؛ وفى التنزيل : « وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ »(١) بمعنى تستحى . وقال غيره : لا يترك . وقيل : لا يمتنع . وأصل الآستحياء الآنقباض عن الشيء والآمتناع منه خوفًا من مواقعة القبيح ؛ وهذا مُحال على الله تعالى . وفى صحيح مسلم عن أمّ سَلَمة رضى الله عنها قالت: جاءت أمّ سُلَيم إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، إن الله لا يستحيي من الحق . المعنى لا يأمر بالحياء فيه ، ولا يمتنع من ذكره .

قوله تعالى : ﴿أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا﴾ «يضرب» معناه يبيّن ، و «أن» مع الفعل فى موضع نصب بتقدير حذف مِن . « مَثَلًا » منصوب بيضرب . «بَعُوضَةً» فى نصبها أربعة أوجه :

الأول — تكون « ما » زائدة ، و « بعوضةً » بدلا من « مَثَلًا » .

الثـانى — تكون «ما» نكرة فى موضع نصب على البدل من قوله : «مَثَلًا» . و «بعوضةً» نعت لمـا ؛ فوصفت « ما » بالجنس المنكّر لإبهامها لأنها بمعنى قليـل ؛ قاله الفرّاء والزّجاج وثعلب .

---

(١) راجع جـ ١٤ ص ١٩٠

الثالث — نصبت على تقدير إسقاط الجار ، المعنى أن يضرب مثلا ما بين بعوضـة ؛ فحذفت « بين » وأعربت بعوضة بإعرابها ؛ والفاء بمعنى إلى ، أى إلى ما فوقها . وهـذا قول الكسائى والفرّاء أيضا ؛ وأنشد أبو العباس :

يا أَحْسَنَ الناسِ ما قَرْنًا إلى قَـدَمٍ * ولا حِبـالَ مُحِبٍّ واصـلٍ تَصِلُ

أراد ما بين قَرْن ، فلما أسقط « بين » نصب .

الرابـع — أن يكون « يضرب » بمعنى يجعل ، فتكون « بعوضةً » المفعول الثـانى . وقرأ الضحاك و إبراهيم بن أبى عَبْلَة ورُؤبة بن العَجّاج « بعوضةٌ » بالرفع ، وهى لغـة تميم . قال أبو الفتـح : ووجه ذلك أن « ما » آسم بمنزلة الذى ، و « بعوضـةٌ » رفع على إضمـار المبتدأ ، التقدير : لا يستحيى أن يضرب الذى هو بعوضة مثلا ؛ فحذف العائد على الموصول وهو مبتدأ . ومثله قراءة بعضهـم : « تَمَامًا عَلَى الَّذِى أَحْسَنُ » أى على الذى هو أحسن . وحكى سيبويه : ما أنا بالذى قائل لك شيئا ؛ أى هو قائل . قال النحاس : والحذف فى « ما » أقبح منـه فى « الذى » ؛ لأن « الذى » إنما له وجه واحد والآسم معه أطول . و يقال : إن معنى ضربت له مثـلا ، مَثّلت له مَثَلًا . وهذه الأبنيـة على ضربٍ واحد ، وعلى مثـال واحد ونوع واحد ؛ والضَّرْبُ النَّوْع . والبَعُوضة : فَعُولة من بَعَض إذا قطع اللحم ؛ يقال : بَضَعَ و بَعَضَ بمعنًى ، وقد بعّضته تبعيضًا ، أى جزّأته فتبعّض . والبَعُوض : البَـقّ[(١)] ، الواحدة بعوضة ؛ سُمِّيت بذلك لصغرها . قاله الجوهرى وغيره .

قوله تعالى : ﴿ فَمَـا فَوْقَهَا ﴾ قد تقدّم أن الفاء بمعنى إلى ، ومن جعل «ما» الأولى صلة زائدة فـ « ما » الثانية عطف عليها . وقال الكسائى وأبو عبيدة وغيرهما : معنى « فما فوقها » — والله أعلم — ما دونها ؛ أى إنهـا فوقها فى الصغر . قال الكسائى : وهـذا كقولك فى الكلام : أتراه قصـيرا ؟ فيقول القائل : أو فوق ذلك ؛ أى هو أقصر ممـا ترى . وقال قتادة وآبن جُريج : المعنى فى الكِبَر . والضمير فى «أنه» عائد على المَثَل ؛ أى إن المَثَل حق .

(١) قال الدميرى : « هو وهم » . وذكر البعوض بأوصافها . و يدل على أن البعوض غير البق ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم : "لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ..." الحديث .

Marfat.com

والحق خلاف الباطل . والحـق : واحد الحقوق . والحَقّة (بفتح الحاء) أخص منـه ؛ يقال : هذه حَقّتي ، أى حَقّي .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ لغة بنى تميم وبنى عامر فى « أمّا » أَيْمَـا ، يبدلون من إحدى الميمين ياء كراهية التضعيف ؛ وعلى هذا يُنْشد بيتُ عمر بن أبى ربيعة :

رأت رجلا أَيْمَا إذا الشمس عارضتْ * فيَضْحَى وأيْمَـا بالعشِيّ فيَخْصَـرُ[(1)]

قوله تعـالى : ﴿ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ﴾ آختلف النحويون فى « ماذا » ، فقيل : هى بمنزلة آسم واحد بمعنى أى شىء أراد الله ؛ فيكون فى موضع نصب بـ«أراد» . قال آبن كَيْسان : وهو الجيّد . وقيل : « ما » آسم تام فى موضع رفع بالآبتداء؛ و « ذا » بمعنى الذى وهو خبر الآبتـداء ، ويكون التقـدير : ما الذى أراده الله بهـذا مثلا . ومعنى كلامهم هذا : الإنكار بلفظ الآستفهام . و « مَثَلًا » منصوب على القطع ؛ التقدير : أراد مثلا؛ قاله ثَعْلَب . وقال آبن كَيْسان : هو منصوب على التمييز الذى وقع موقع الحال .

قوله تعـالى : ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ﴾ قيل : هو من قول الكافرين ؛ أى ما مراد الله بهذا المَثَل الذى يفرّق به الناس إلى ضلالة وإلى هُدًى . وقيـل : بل هو خبر من الله عز وجل ، وهو أشبه ؛ لأنهم يقرّون بالهُـدَى أنه من عنده ؛ فالمعنى : قل يضل الله به كثيرا ويهدى به كثيرا؛ أى يوفّق ويَخْذل؛ وعليه فيكون فيه ردّ على من تقدّم ذكرهم من المعتزلة وغيرهم فى قولهم : إن الله لا يخلق الضلال ولا الهدى . قالوا : ومعـنى « يُضِلّ بِهِ كَثِيرًا » التسمية هنا ، أى يسميه ضالا ؛ كما يقال : فسّقت فلانا ، يَعْنى سَمّيته فاسقا ؛ لأن الله تعالى لا يُضل أحدًا . هذا طريقهم فى الإضلال، وهو خلاف أقاويل المفسرين ، وهو غير محتمل فى اللغـة ؛ لأنه يقال : ضَلَّله إذا سمّاه ضالًّا ؛ ولا يقال : أضـله إذا سماه ضالا ؛ ولكن معناه ما ذكره المفسرون أهلُ التأويل من الحق أنه يخذل به كثيرا من الناس مجازاة لكفرهم . ولا خلاف أن قوله :

(1) الخصر (بالتحريك) : البرد .

Marfat.com

﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ أنه من قول الله تعالى. و«الفاسقين» نصب بوقوع الفعل عليهم، والتقـدير: وما يُضِـل به أحدا إلا الفاسقين الذين سبق فى علمه أنه لا يهديهـم. ولا يجوز أن تنصبهم على الاستثناء لأن الاستثناء لا يكون إلا بعد تمام الكلام. وقال نَوْف البِكالِىّ: قال عزير فيما ينـاجى ربّه عزّ وجلّ: إلهى تخلق خلقًا فتُضل من تشاء وتهـدى من تشاء. قال فقيل: يا عزير أعرض عن هذا! لتُعْرِضُنّ[1] عن هذا أو لأمْحُوَنّك من النبوّة، إنى لا أُسأل عما أفعل وهم يُسألون. والضلال أصله الهلاك؛ يقال منـه: ضلّ الماءُ فى اللبن إذا ٱستهلك؛ ومنه قوله تعالى: «أئذا ضَلَلْنَا فى ٱلأَرْضِ»[2] وقـد تقدّم فى الفاتحة[3]. والفِسْق أصـله فى كلام العرب الخروج عن الشىء؛ يقال: فَسَقَتِ الرُّطَبة إذا خرجت عن قشرها؛ والفارة من جُحْرها. والفُوَيْسِقة: الفارة؛ وفى الحديث: "خمسٌ فواسِـقُ يُقتَلْنَ فى الحِلّ والحَرَم الحيّة والغراب الأبقعُ والفارة والكلب العَقُور والحُدَيّا". روته عائشة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم، أخرجه مسلم. وفى رواية "العقرب" مكان "الحية". فأطلق صلى الله عليه وسلم عليها ٱسم الفسق لأذيّتها؛ على ما يأتى بيانه فى هذا الكتاب إن شاء الله تعالى. وفَسَق الرجل يَفْسِق ويَفْسُق أيضا ـ عن الأخفش ـ فِسْقًا وفُسوقًا؛ أى فَجَر. فأمّا قوله تعالى: «فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ» فمعناه خرج. وزعم ٱبن الأعرابىّ أنه لم يسمع قط فى كلام الجاهليـة ولا فى شـعرهم فاسق[4]. قال: وهـذا عجب، وهو كلام عربىّ حكاه عنـه ٱبن فارس والجوهرى.

قلت: قـد ذكر أبو بكر الأنبارى فى كتاب «الزاهر» له لمـا تكلم على معنى الفسـق قول الشاعر:

يَذْهَبْنَ فى نَجْـدٍ وغَوْرًا[5] غائرا * فواسـقًا عن قَصْـدها جوائرا

---

(١) فى نسخة من الأصل: أعرض عن هذا وإلا محوتك من النبوّة. (٢) راجع جـ ١٤ ص ٩١

(٣) راجع ص ١٥٠ (٤) أى بمعنى الخارج من طاعة الله، وهو بهذا المعنى حقيقة شرعية.

(٥) غورا، منصوب بفعل محذوف؛ أى ويسلكن. (راجع كتاب سيبويه جـ ١ ص ٤٩ طبع بولاق).

Marfat.com

والفِسّيق : الدائم الفسق . ويقال فى النداء : يافُسَقُ و ياخُبَثُ، يريد : يأيها الفاسق، ويأيها الخبيث . والفِسْق فى عُرْف الاستعمال الشرعى : الخروج من طاعة الله عز وجل، فقد يقع على من خرج بكُفْر وعلى من خرج بعصيان .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ (٢٧)

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ ﴾ « الَّذين » فى موضع نصب على النّعت للفاسقين، وإن شئت جعلته فى موضع رفع على أنه خبر آبتداء محذوف؛ أى هم الذين . وقد تقدّم[(١)] .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ يَنْقُضُونَ ﴾ النَّقض : إفساد ما أبرمته من بنـاء أو حبل أو عَهد . والنُّقَاضة . ما نُقض من حبل الشَّعر . والمُناقضة فى القول : أن تتكلم بما تناقض معناه . والنَّقيضة فى الشِّعر: ما يُنقَض به . والنِّقْض : المنقوض . واختلف الناس فى تعيين هـذا العهد؛ فقيل : هو الذى أخذه الله على بنى آدم حين آستخرجهم من ظهره . وقيل : هو وصية الله تعالى إلى خلقه، وأمْرُه إيّاهم بما أمرهم به من طاعته، ونَهْيُه إياهم عما نهاهم عنه من معصيته فى كتبه على ألسـنة رسله؛ ونقضهم ذلك ترك العمل به . وقيـل : بل نَصْب الأدلة على وحدانيّته بالسموات والأرض وسائر الصنعة هو بمنزلة العهد؛ ونقضهم ترك النظر فى ذلك . وقيـل : هو ما عهده إلى من أوتى الكتاب أن يبينوا نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ولا يكتموا أمره . فالآية على هذا فى أهل الكتاب . قال أبو إسحاق الزجاج: عهده جل وعز ما أخذه على النبيين ومن آتبعهم ألا يكفروا بالنبيّ صـلى الله عليـه وسلم . ودليـل ذلك : « وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَاقَ ٱلنَّبِيِّينَ[(٢)] » الى قوله تعالى : « وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى » أى عهدى .

قلت : وظاهر ما قبلُ وما بعــدُ يدلّ على أنها فى الكفار . فهذه خمسة أقوال؛ والقول الثانى يجمعها .

(١) راجع ص ١٦٢ من هذا الجزء . (٢) راجع جـ ٤ ص ١٢٤

الثالثـــة ــ قوله تعالى : ﴿مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ الميثاق : العهد المؤكّد باليمين؛ مفعال من الوثاقة والمعاهدة ، وهى الشدّة فى العقــد والربط ونحوه . والجمع المواثيق على الأصل ؛ لأن أصل مِيثاق مِوْثاق ، صارت الواو ياء لانكسار ما قبلها ــ والميائق والمياثيق أيضا ؛ وأنشد ابن الأعرابى :

حِمًى لا يُحَـلّ الدهرَ إلا بإذننا * ولا نسأل الأقوامَ عَهْدَ(١) الميائِقِ

والمَوْثق : الميثاق . والمواثقة : المعاهدة ؛ ومنه قوله تعالى : « وَمِيثَاقَهُ الَّذِى وَاثَقَكُمْ بِهِ » .

الرابعــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَيَقْطَعُونَ ﴾ القطع معروف ، والمصدر ــ فى الرَّحِم ــ القطيعة ؛ يقال : قَطَع رَحِمه قَطِيعة فهو رجل قُطَعٌ وقُطَعَة ؛ مثال هُمَزة . وقَطَعت الحبـل قطعًا . وقَطَعت النهر قُطُوعا . وقَطَعتِ الطيرُ قُطوعا وقُطَاعًا وقِطَاعًا إذا خرجت من بلد إلى بلد . وأصاب الناسَ قُطْعَةٌ : إذا قلّت مياههم . ورجل به قُطْعٌ(٢) : أى آنبهار .

الخامســة ــ قوله تعـالى : ﴿ مَا أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَـلَ ﴾ « ما » فى موضع نصب بـ « يَقْطَعُون » . و « أَنْ » إن شئت كانت بدلا من « ما » وإن شئت من الهاء فى « به » وهو أحسن . ويجوز أن يكون لئـلا يوصل ؛ أى كراهة أن يوصـل . وآختلف ما الشىء الذى أُمِر بوصله ؟ فقيل : صلة الأرحام . وقيل : أمر أن يوصل القول بالعمل ؛ فقطعوا بينهما بأن قالوا ولم يعملوا . وقيل: أمر أن يوصل التصديق بجميع أنبيائه ؛ فقطعوه بتصديق بعضهم وتكذيب بعضهم . وقيل : الإشارة إلى دين الله وعبادته فى الأرض، وإقامة شرائعه وحفظ حدوده . فهى عامة فى كل ما أمر الله تعـالى به أن يوصل . هـذا قول الجمهور ؛ والرَّحِم جزء من هذا .

السادســـة ــ قوله تعالى : ﴿ وَيُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ ﴾ أى يعبــدون غير الله تعـالى ويجورون فى الأفعال ، إذ هى بحسب شهواتهم ؛ وهذا غاية الفساد .

---

(١) فى اللسان وشرح القاموس مادة (وثق) : « عقد الميثاق » والبيت لعياض بن درة الطائى .

(٢) البهر (بالضم) : تتابع النَّفَس من الإعياء . وقيل انقطاعه .

Marfat.com

﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ ابتداء وخبر . و«هم» زائدة؛ ويجوز أن تكون «هم» ابتداء ثانٍ ، « الخاسرون » خبره ، والثانى وخبره خبر الأوّل كما تقـدّم[1] . والخاسر : الذى نقص نفسه حَظّها من الفلاح والفَوْز . والخُسْران : النقصان، كان فى ميزان أو غيره؛ قال جَرِير :

إن سَلِيطًا فى الخَسَار إنّهْ * أولادُ قومٍ خُلِقوا أقِنّـهْ[2]

يعنى بالخَسَار ما ينقص من حظوظهم وشرفهم . قال الجوهرى : وخَسَرت الشىء (بالفتح) وأخسرته نقصته . والخَسَار والخَسَارة والخَيْسَرَى : الضلال والهلاك . فقيل للهالك : خاسر ؛ لأنه خسر نفسه وأهله يوم القيامة ومُنع منزله من الجنة .

السابعــــة — فى هـذه الآية دليل على أن الوفاء بالعهد والتزامه وكل عهـد جائز ألزمه المرء نفسه فلا يحل له نقضه سواء أكان بين مسلم أم غيره ؛ لذمّ الله تعالى مَن نقض عهده . وقـد قال : « أَوْفُـوا بِالْعُقُودِ[3] » وقد قال لنبيّه عليه السلام : « وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ» فنهاه عن الغَدْر، وذلك لا يكون إلا بنقض العهد؛ على ما يأتى بيانه فى موضعه[4] إن شاء الله تعالى .

قوله تعـالى : كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾

« كيف » سؤال عن الحال ، وهى آسم فى موضع نصب بـ « تَكْفُرُونَ » ، وهى مبنيّة على الفتح وكان سبيلها أن تكون ساكنة ؛ لأن فيها معنى الآستفهام الذى معناه التعجب فأشبهت الحروف ، وآختير لهـا الفتح لخفته ؛ أى هـؤلاء ممن يجب أن يتعجّب منهم حين كفروا وقد ثبتت عليهم الحجة .

فإن قيـل : كيف يجوز أن يكون هـذا الخطاب لأهل الكتاب وهم لم يكفروا بالله ؟ فالجواب ما سبق من أنهم لمـا لم يثبتوا أمر محمد عليـه السلام ولم يصدّقوه فيما جاء به فقـد

(١) راجع ص ١٨١ من هذا الجزء . (٢) سليط . أبو قبيلة . والقن : الذى ملك هو وأبواه .
(٣) راجع جـ ٦ ص ٣٢ (٤) راجع جـ ٨ ص ٣١

أشركوا؛ لأنهم لم يقرّوا بأن القرآن من عند الله . ومن زعم أن القرآن كلام البشر فقد أشرك بالله وصار ناقضا للعهد . وقيل : « كيف » لفظه لفظ الاستفهام وليس به ، بل هو تقرير وتوبيخ ؛ أى كيف تكفرون نعمه عليكم وقدرته هذه ! قال الواسطيّ : وبّخهـم بهذا غاية التوبيخ؛ لأن المَوَات والجماد لا ينازع صانعه فى شىء، وإنما المنازعة من الهيا كل الروحانية .

قوله تعالى : ﴿ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا ﴾ هذه الواو واو الحال ، وقـد مضمرة . قال الزجاج : التقدير وقد كنتم ، ثم حذفت قد . وقال الفرّاء : « أمواتا » خبر « كنتم » .

﴿ فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ هذا وقف التمام؛ كذا قال أبو حاتم . ثم قال : ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ . واختلف أهل التأويل فى ترتيب هاتين الموتتين والحياتين، وكم من مَوْتة وحيـاة للإنسان ؟ فقال ابن عباس وابن مسعود : أى كنتم أمواتا معـدومين قبل أن تُخلقوا فأحيا كم — أى خلقكم — ثم يميتكم عنـد انقضاء آجالكم ، ثم يحييكم يوم القيامة . قال ابن عطية : وهـذا القول هو المراد بالآية، وهو الذى لا مَحِيد للكفار عنه لإقرارهم بهما ؛ وإذا أذعنتْ نفوس الكفار لكونهم أمواتا معدومين، ثم للإحياء فى الدنيا، ثم للإماتة فيها قَوِى عليهم لزوم الإحياء الآخر وجاء جحدهم له دعوى لا حجة عليها . قال غيره : والحياة التى تكون فى القـبر على هذا التأويل فى حكم حياة الدنيا . وقيل : لم يعتدّ بها كما لم يعتدّ بموت من أماته فى الدنيا ثم أحياه فى الدنيا . وقيل : كنتم أمواتا فى ظهر آدم ، ثم أخرجكم من ظهره كالذرّ ، ثم يميتكم موت الدنيا ثم يبعثكم . وقيل : كنتم أمواتا — أى نُطَفًا — فى أصـلاب الرجال وأرحام النساء ، ثم نقلكم من الأرحام فأحيا كم ، ثم يميتكم بعد هذه الحياة، ثم يحييكم فى القبر للمسئلة ، ثم يميتكم فى القبر، ثم يحييكم حياة النشر إلى الحشر ؛ وهى الحياة التى ليس بعدها موت .

قلت : فعلى هذا التأويل هى ثلاث موتات، وثلاث إحياءات . وكونهم موتى فى ظهر آدم ،وإخراجهم من ظهره والشهادة عليهم غير كونهم نُطَفًا فى أصلاب الرجال وأرحام النساء؛ فعلى هذا تجىء أربع موتات وأربع إحياءات . وقد قيل : إن الله تعالى أوجدهم قبل خلق آدم عليه السلام كالهباء ثم أماتهم ؛ فيكون على هذا خمس موتات، وخمس إحياءات . وموتة سادسة

Marfat.com

للعصاة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم إذا دخلوا النار ، لحديث أبى سعيد الخُدْرِيّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أمّا أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يَحيَوْن ولكنْ ناسٌ أصابتهم النارُ بذنوبهم — أو قال بخطاياهم — فأماتهم الله إماتةً حتى إذا كانوا فَحْمًا أُذِن فى الشفاعة فجىء بهم ضَبائرَ ضَبائرَ فَبُثُّوا على أنهار الجنة ثم قيل يا أهل الجنة أفيضوا عليهم فَيَنْبُتُون نباتَ الحِبّة تكون فى حَمِيل السَّيْل". فقال رجل من القوم: كأنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كان يرعى بالبادية[1] . أخرجه مسلم .

قلت : فقوله "فأماتهم الله" حقيقة فى الموت؛ لأنه أكّده بالمصدر، وذلك تكريمًا لهم. وقيل : يجوز أنْ يكون " أماتهم " عبارة عن تغييبهم عن آلامها بالنوم، ولا يكون ذلك موتًا على الحقيقة؛ والأوّل أصح . وقد أجمع النحويون على أنك إذا أكدت الفعل بالمصدر لم يكن مجازًا، وإنما هو على الحقيقة؛ ومثله : « وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا »[2] على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى . وقيل : المعنى وكنتم أمواتا بالخمول فأحياكم بأن ذُكِرتم وشُرِّفتم بهذا الدِّين والنبيِّ الذى جاءكم ، ثم يميتكم فيموت ذِكْرُكم، ثم يحييكم للبعث .

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أى إلى عذابه مرجعكم لكفركم . وقيل : إلى الحياة وإلى المسألة؛ كما قال تعالى : « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ »[3] فإعادتهم كابتدائهم؛ فهو رجوع. و « تُرْجَعُونَ » قراءة الجماعة . ويحيى بن يَعْمر وابن أبى إسحاق ومجاهد وابن مُحَيْصِن وسلام بن يعقوب يفتحون حرف المضارعة ويكسرون الجيم حيث وقعت .

قوله تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾

---

(١) الذى فى صحيح مسلم : « ... قد كان بالبادية » . والضبائر : هم الجماعات فى تفرقة ، واحدتها ضبارة ، مثل عمارة وعمائر ، وكل مجتمع ضبارة . والحبة (بالكسر) : بذور البقل . وقيل هو نبت صغير ينبت فى الحشيش ؛ فأما الحبة (بالفتح) فهى الحنطة والشعير ونحوهما . وحميل السيل : هو ما يجىء به السيل من الغُثاء .

(٢) راجع جـ ٦ ص ١٨ (٣) راجع جـ ١١ ص ٣٤٨

قوله تعالى : ﴿ هو ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُمْ ما فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ فيه عشر مسائل :

الأولى ﴿ خَلَقَ ﴾ معناه ٱخترع وأوْجَد بعد العَدَم . وقد يقال فى الإنسان : «خَلَق» عند إنشائه شيئا ؛ ومنه قول الشاعر :

مَن كان يَخْلُق ما يقو * ل فحِيلَتِى فيـــه قليلَهْ

وقد تقدّم[1] هذا المعنى . وقال ٱبن كَيْسان : «خَلَقَ لَكُمْ» أى من أجلكم . وقيل : المعنى أن جميع ما فى الأرض مُنْعَم به عليكم فهو لكم . وقيل : إنه دليل على التوحيد والاعتبار .

قلت : وهـذا هو الصحيح على ما نبيّنه . ويجوز أن يكون عَنَى به ما هم إليه محتاجون من جميع الأشياء .

الثانيـــة ــ ٱستدل من قال إن أصل الأشياء التى يُنتفع بها الإباحة بهذه الآية وما كان مثلها ــ كقوله : « وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِى ٱلسَّمَوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ[2] » الآية ــ حتى يقوم الدليل على الحظر . وعَضَدُوا هذا بأن قالوا : إن المآكل الشهية خُلِقت مع إمكان ألا تُخلَق فلم تُخلَق عبثًا ؛ فلا بُدّ لها من منفعة . وتلك المنفعة لا يصح رجوعها إلى الله تعالى لاستغنائه بذاته ، فهى راجعـة إلينا . ومنفعتنا إمّا فى نَيل لذّتهـا ، أو فى ٱجتنابهـا لنُختبَر بذلك ، أو فى ٱعتبارنا بهـا . ولا يحصل شىء من تلك الأمور إلا بذوقها ؛ فلزم أن تكون مباحة . وهذا فاسد ؛ لأنا لا نسلّم لزوم العبث من خلقها إلا لمنفعة ، بل خلقها كذلك لأنه لا يجب عليه أصل المنفعة ، بل هو الموجب . ولا نسلّم حصر المنفعة فيما ذكروه ، ولا حصول بعض تلك المنافع إلا بالذوق ، بل قد يُستدلّ على الطعوم بأمور أُخَر كما هو معروف عند الطبائعيين. ثم هو معارَض بمـا يخاف أن تكون سموما مهلكة ، ومعارضـون بشبهات أصحاب الحظر . وتوقّف آخرون وقالوا : ما مِن فِعل لا ندرك منه حُسْنًا ولا قُبْحًا إلا ويمكن أن يكون حَسَنًا فى نفسه ؛ ولا مُعَيِّن قبل ورود الشرع ، فتعيّن الوقف إلى ورود الشرع . وهـذه الأقاويل الثلاثة للمعتزلة . وقد أطلق الشيخ أبو الحسن وأصحابُه وأكثرُ المـالكية والصَّيرفىُّ فى هـذه

(١) راجع ص ٢٢٦ من هذا الجزء . (٢) راجع جـ ١٦ ص ١٦٠

Marfat.com

المسئلة القولَ بالوقف . ومعناه عندهم أن لا حكم فيها فى تلك الحال ، وأن للشرع إذا جاء أن يحكم بما شاء، وأن العقل لا يحكم بوجوبٍ ولا غيره، و إنما حَظُّه تَعَرُّف الأمور على ما هى عليـه . قال ٱبن عطية : وحكى ٱبن فُورَك عن ابن الصائغ أنه قال : لم يَخْلُ العقل قطُّ من السمع ، ولا نازلة إلا وفيها سَمْع ، أو لها تعلّق به ، أو لهـا حالٌ تُستصحَب . قال : فينبغى أن يُعتمد على هذا ، و يغنى عن النظر فى حظر و إباحة ووقف .

الثالثـــة ــ الصحيح فى معنى قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ لَكُمْ مَا فِى الْأَرْضِ ﴾ الآعتبار. يدلّ عليه ما قبـله وما بعده من نصب العِبَر : الإحياء والإماتة والخلق والآسـتواء إلى السماء وتسويتها ؛ أى الذى قَدَر على إحيائكم وخَلْقكم وخلقِ السّموات والأرض،لا تبعد منه القدرة على الإعادة .

فإن قيل : إن معنى « لكم » الآنتفاع؛ أى لتنتفعوا بجميع ذلك؛ قلنا : المراد بالآنتفاع الآعتبار لَمَـا ذكرنا . فإن قيل : وأى آعتبار فى العقارب والحيّات ؛ قلنا : قد يتذكّر الإنسان ببعض ما يرى من المؤذيات ما أعدّ الله للكفار فى النـار من العقوبات فيكون سببا للإيمان وترك المعاصى؛ وذلك أعظم الآعتبار . قال ٱبن العربىّ : وليس فى الإخبار بهذه القدرة عن هذه الجملة ما يقتضى حظرًا ولا إباحةً ولا وقفًا؛ و إنما جاء ذكر هذه الآية فى معرض الدلالة والتنبيه ليستدل بها على وحدانيته .

وقال أرباب المعانى فى قوله : ﴿ خَلَقَ لَكُمْ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ لتتقوّوا به على طاعته، لا لتصرفوه فى وجوه معصيته . وقال أبو عثمان : وَهَبَ لك الكلَّ وسخّره لك لتستدلّ به على سَعة جُوده ، وتَسْكُن إلى ما ضمن لك من جزيل عطائه فى المعاد ، ولا تستكثر كثيرَ برّه على قليل عملك ؛ فقد آبتدأك بعظيم النّعم قبل العمل وهو التوحيد .

الرابعـــة ــ روى زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، أن رجلا أتى رسول الله صلى الله عليه وسـلم فسأله أن يُعطيَه ؛ فقال رسول الله صـلى الله عليه وسلم : "ما عندى شىء ولكن آبتع علىّ فإذا جاء شىء قضينا " فقال له عمر : هذا أعطيت إذا كان

Marfat.com

عندك فما كلفك الله ما لا تقدر . فكره رسول الله صلى الله عليه وسلّم قول عمر ؛ فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله ،

* أنفق ولا تخش من ذى العرش إقلالا *

فتبسم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وعُرِف السرور فى وجهه لقول الأنصارى . ثم قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "بذلك أمرت". قال علماؤنا رحمة الله عليهم : فخوف الإقلال من سوء الظن بالله ؛ لأن الله تعالى خلق الأرض بما فيها لولد آدم ؛ وقال فى تنزيله : «خَلَقَ لَكُمْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا» ، «وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْه» . فهذه الأشياء كلها مسخرة للآدمى قطعًا لعذره وحجة عليه ، ليكون له عبدا كما خلقه عبدا ؛ فإذا كان العبد حسن الظن بالله لم يخف الإقلال لأنه يخلف عليه ؛ كما قال تعالى : «وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ»[1] . وقال : «فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ»[2] ، وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلم قال الله تعالى : "سَبقتْ رحمتى غضبى يا ٱبن آدم أَنْفِق أُنْفِق عليك يَمينُ الله ملأى سَحًّا[3] لا يَغيضها شىءٌ الليلَ والنهارَ". وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "ما من يوم يُصبح العبادُ فيه إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما اللّهُمَّ أعْطِ مُنْفقا خَلَفًا و يقول الآخر اللّهُمَّ أَعْط مُمْسكًا تَلَفًا". وكذا فى المساء عند الغروب يناديان أيضا ؛ وهذا كله صحيح رواه الأئمة والحمد لله . فمن ٱستنار صدره ، وعلم غنى ربّه وكرمه أنفق ولم يخف الإقلال ؛ وكذلك من ماتت شهواته عن الدنيا وٱجتزأ باليسير من القوت المقيم لمهجته ، وٱنقطعت مشيئته لنفسه ؛ فهذا يعطى من يُسره وعسره ولا يخاف إقلالا . و إنما يخاف الإقلال من له مشيئة فى الأشياء ؛ فإذا أعطى اليوم وله غدا مشيئة فى شىء خاف ألا يصيب غدا ، فيضيّق عليه الأمر فى نفقة اليوم لمخافة إقلاله . روى مسلم عن أسماء بنت أبى بكر قالت قال لى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "ٱنْفَحِى أو ٱنْضَحِى[4] أو أنفق ولا تُحصِى فيُحصِىَ الله عليكِ ولا تُوعِى فيُوعِىَ[5] عليكِ" . وروى النسائى عن عائشة قالت : دخل علىّ

(١) راجع جـ ١٤ ص ٣٠٧ (٢) راجع جـ ١٣ ص ٢٠٦ (٣) أى دائمة الصب والهطل بالعطاء.

(٤) قال النووى : «والنفح والنضح العطاء» ويطلق النضح أيضا على الصب فلعله المراد هنا ويكون أبلغ من النفح» .

(٥) الايعاء : جعل الشئ فى الوعاء ؛ أى لا تجمعى وتشحى بالنفقة فيشح عليك .

Marfat.com

سائل مرّة وعندى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فأمرت له بشىء ثم دعوت به فنظرت إليه فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : أمَا تريدين ألا يدخل بيتك شىء ولا يخرج إلا بعلمك" قلت : نعم ؛ قال : " مَهْلًا يا عائشة لا تُحْصى فيُحصى الله عزّ وجلّ عليك " .

الخامســـة — قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَى ﴾ «ثم» لترتيب الإخبار لا لترتيب الأمر فى نفسه . والاستواء فى اللغة : الارتفاع والعلوّ على الشىء ؛ قال الله تعالى : «فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ » ، وقال « لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ » ، وقال الشاعر :

فأوردتهـم ماء بفَيْفاء قَفـــرة * وقد حلّق النجم اليمانىّ فاستوى

أى ارتفع وعلا ، واستوت الشمس على رأسى واستوت الطير على قِمّة رأسى ، بمعنى علا . وهذه الآية من المشكلات، والناس فيها وفيما شاكلها على ثلاثة أوجه، قال بعضهم : نقرؤها ونؤمن بها ولا نفسرها ؛ وذهب إليه كثير من الأئمة ، وهـذا كما روى عن مالك رحمه الله أن رجلا سأله عن قوله تعـالى : « الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ ٱسْتَوَى »[1] قال مالك : الاســتواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة ، وأراك رجل سَوْء! أخرجوه . وقال بعضهم : نقرؤها ونفسّرها على ما يحتمله ظاهر اللغة . وهذا قول المشبّهة . وقال بعضهم : نقرؤها ونتأوّلها ونُحيل حَمْلَها على ظاهرها . وقال الفرّاء فى قوله عزّ وجلّ : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَى إِلَى ٱلسَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ ﴾ قال : الاستواء فى كلام العرب على وجهين ، أحدهما : أن يَسْتوِىَ الرجل وينتهى شبابه وقوّته ، أو يستوى عن اعوجاج . فهذان وجهان . ووجه ثالث أن تقول : كان[2] فلان مقبلا على فلان ثم استوى علىّ وإلىّ يشاتمنى . على معنى أقبل إلىّ وعلىّ . فهذا معنى قوله : «ثُمَّ ٱسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ» والله أعلم . قال وقد قال ابن عباس : ثم استوى إلى السماء صعِد. وهذا كقولك : كان قاعدا فاستوى قائما ، وكان قائما فاستوى قاعدا ؛ وكل ذلك فى كلام العـرب جائز . وقال البيهقى أبو بكر أحمـد بن علىّ بن الحسين : قوله :

---

(١) راجع ج ١١ ص ١٦٩ (٢) عبارة الأصول : « ... كان مقبلا علىّ يشاتمنى وإلىّ سـواء ، على معنى ... الخ » وبها لايستقيم المعنى . والتصويب عن اللسان وشرح القاموس وتفسير الطبرى .

« ٱستوى » بمعنى أقبل صحيح ، لأن الإقبال هو القصد إلى خلق السماء ، والقصد هو الإرادة ، وذلك جائز فى صفات الله تعالى . ولفظة « ثم » تتعلق بالخلق لا بالإرادة . وأما ما حكى عن ٱبن عباس فإنما أخذه عن تفسير الكلبى ، والكلبى ضعيف . وقال سفيان بن عُيينة وٱبن كَيسان فى قوله « ثُمَّ ٱسْتَوَى إِلَى ٱلسَّمَاءِ » : قصد إليها ، أى بخلقه وٱختراعه ؛ فهذا قول . وقيل : على دون تكييف ولا تحديد ، وٱختاره الطبرى . ويُذكر عن أبى العالية الرياحى فى هذه الآية أنه يقال : ٱستوى بمعنى أنه ٱرتفع . قال البيهق : ومراده من ذلك — والله أعلم — ٱرتفاع أمره ، وهو بخار الماء الذى وقع منه خلق السماء . وقيل : إن المستوى الدخان . وقال ٱبن عطية : وهذا يأباه وصف الكلام . وقيل : المعنى ٱستولى ؛ كما قال الشاعر[1] :

قد ٱستَوَى بِشْرٌ على العِراق * مِن غيرِ سَيفٍ ودَمٍ مُهْرَاق

قال ٱبن عطية : وهذا إنما يجىء فى قوله تعالى : « ٱلرَّحْمٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَى » .

قلت : قد تقدّم فى قول الفرّاء على و إلى بمعنًى . وسيأتى لهذا الباب مزيد بيان فى سورة « الأعراف[2] » إن شاء الله تعالى . والقاعدة فى هذه الآية ونحوها منع الحركة والنقلة .

السادســـة — يظهر من هـــذه الآية أنه سبحانه خلق الأرض قبــل السماء ؛ وكذلك فى « حم السجدة[3] » . وقال فى النازعات : « أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَاءُ بَنَاهَا[4] » فوصف خلقها ؛ ثم قال : « وَٱلْأَرْضَ بَعْـدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا » . فكأن السماء على هـذا خلقت قبل الأرض ؛ وقال تعـالى : « ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضَ[5] » وهذا قول قتادة : إن السماء خلقت أوّلا ؛ حكاه عنه الطبرى . وقال مجاهد وغيره من المفسرين : إنه تعالى أيبس الماء الذى كان عرشه عليه ، فجعله أرضا وثار منه دخان فٱرتفع ، فجعله سماء فصار خلق الأرض قبل خلق السماء ، ثم قصد أمره إلى السماء فسوّاهنّ سبع سموات ، ثم دحا[6] الأرض بعد ذلك ، وكانت إذ خلقها غير مَدْحُوّة .

---

(١) هو الأخطل كما فى شرح القاموس .
(٢) راجع جـ ٧ ص ٢١٩ .
(٣) راجع جـ ١٥ ص ٣٤٣ .
(٤) راجع جـ ١٩ ص ٢٠١ .
(٥) راجع جـ ٦ ص ٣٨٤ .
(٦) دحا الشىء : بسطه .

Marfat.com

قلت : وقول قتادة يخرج على وجه صحيح إن شاء الله تعالى، وهو أن الله تعالى خلق أوّلا دخان السماء ثم خلق الأرض، ثم آستوى إلى السماء وهى دخان فسوّاها، ثم دحا الأرض بعد ذلك.

ومما[1] يدل على أن الدخان خلق أوّلا قبل الأرض ما رواه السُّدّى عن أبى مالك، وعن أبى صالح عن آبن عباس، وعن مُرّة الهَمْدانىّ عن آبن مسعود، وعن ناس من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فى قوله عزّ وجلّ: «هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ» قال: إن الله تبارك وتعالى كان عرشه على الماء ولم يخلق شيئا قبل الماء؛ فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخانا فآرتفع فوق الماء، فسما عليه، فسمّاه سماء؛ ثم أيبس الماء فجعله أرضا واحدة، ثم فتقها فجعلها سبع أرضين فى يومين، فى الأحد والآثنين. فجعل الأرض على حُوت — والحُوت هو النُّون الذى ذكر الله تبارك وتعالى فى القرآن بقوله: «نٓ وَٱلْقَلَمِ»[2] — والحوت فى الماء و [الماء][3] على صَفاة[4]، والصفاة على ظهر مَلَك، والمَلَك على الصخرة، والصخرة فى الريح — وهى الصخرة التى ذكر لقمان: ليست فى السماء ولا فى الأرض — فتحرّك الحوت فآضطرب؛ فتزلزلت الأرض؛ فأرسل عليها الجبال فقرّت؛ فالجبال تفخر على الأرض، وذلك قوله تعالى: «وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ»[5] وخلق الجبال فيها، وأقوات أهلها وشجرها، وما ينبغى لها فى يومين، فى الثلاثاء والأربعاء، وذلك حين يقول: «قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ. وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ»[6] يقول: من سأل فهكذا الأمر. «ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ» وكان ذلك الدخان من تنفّس الماء حين تنفّس؛ فجعلها سماء واحدة، ثم فتقها فجعلها سبع سموات فى يومين، فى الخميس والجمعة؛ وإنما سُمّى يوم الجمعة لأنه جمع

(١) يلاحظ أن المؤلف رحمه الله خرج عما سنّه فى مقدّمته لهذا الكتاب من إضرابه عن هذا القصص وأمثاله مما ملئت به كتب التفسير الأخرى والذى لا يتمشى مع روح الدين الإسلامى؛ فقل من له العصمة.

(٢) راجع جـ ١٨ ص ٢٢٣. (٣) تكملة عن تفسير الطبرى وتاريخه.

(٤) الصفاة: العريض من الحجارة الأملس. (٥) راجع جـ ١٠ ص ٩٠.

(٦) راجع جـ ١٥ ص ٣٤٢.

Marfat.com

فيه خلق السموات والأرض، « وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا » قال : خلق فى كل سماء خلقها من الملائكة والخلق الذى فيها من البحار وجبال البَرَد وما لا يُعلم ؛ ثم زَيّن السماء الدنيا بالكواكب، فجعلها زينة وحِفْظًا تحفظ من الشياطين . فلما فرغ من خلق ما أحب آستوى على العرش ؛ قال فذلك حين يقول : « خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ » ويقول : « كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا »(١) وذكر القصة فى خلق آدم عليه السلام ؛ على ما يأتى بيانه فى هذه السورة إن شاء الله تعالى . وروى وَكِيع عن الأعمش عن أبى ظَبْيان عن آبن عباس قال : إن أوّل ما خلق الله عز وجل من شىء «القلم» فقال له آكتب . فقال : يا ربّ وما أكتب؟ قال : آكتب القَدَر . فجرى بما هو كائن من ذلك اليوم إلى قيام الساعة . قال : ثم خلق النُّونَ فدحا الأرض عليها ، فآرتفع بُخار الماء ففتق منه السموات ؛ وآضطرب النُّونُ فمادت الأرض فأُثبتت بالجبال ؛ فإن الجبال تَفْخَر على الأرض إلى يوم القيامة . ففى هذه الرواية خلق الأرض قبل آرتفاع بخار الماء الذى هو الدخان ؛ خلاف الرواية الأولى . والرواية الأولى عنه وعن غيره أولَى ؛ لقوله تعالى : « وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا »(٢) والله أعلم بما فعل ؛ فقد آختلفت فيه الأقاويل ، وليس للاجتهاد فيه مدخل .

وذكر أبو نعيم عن كعب الأحبار أن إبليس تغلغل إلى الحُوت الذى على ظهره الأرض كلها ، فألقى فى قلبه ، فقال : هل تدرى ما على ظهرك يا لوثيا من الأمم والشجر والدواب والناس والجبال! لو نفضتَهم ألقيتَهم عن ظهرك أجمع . قال : فهمّ لوثيا بفعل ذلك ؛ فبعث الله دابة فدخلت فى منخره ؛ فعجّ إلى الله منها فخرجت . قال كعب : والذى نفسى بيده ، إنه لينظر إليها بين يديه وتنظر إليه إن همّ بشىء من ذلك عادت حيث كانت .

السابعــة — أصل خلق الأشياء كلّها من الماء لما رواه آبن ماجه فى سننه، وأبو حاتم البُسْتِيّ فى صحيح مسنده عن أبى هريرة قال قلت : يا رسول الله ، إذا رأيتك طابت نفسى وقرّت عينى ، أنبئنى عن كل شىء . قال : "كل شىء خُلق من الماء" فقلت : أخبرنى عن

(١) راجع ج ١١ ص ٢٨٢		(٢) راجع ج ١٩ ص ٢٠٢

Marfat.com

شيء إذا عملتُ به دخلتُ الجنة . قال : " أطعِم الطعام وأفشِ السّـلام وصِلِ الأرحام وقُم الليل والناسُ نيام تدخل الجنة بسلام". قال أبوحاتم قولُ أبي هريرة : « أنبئني عن كل شيء» أراد به عن كل شيء خُلق من المـاء . والدليل على صحة هذا جواب المصطفى عليه السلام إياه حيث قال : " كل شيء خلق من المـاء " وإن لم يكن مخلوقا . وروى سعيد بن جُبير عن آبن عباس أنه كان يحدّث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إن أوّل شيء خلقه الله القَلم وأمره فكتب كلّ شيء يكون " ويروى ذلك أيضا عن عُبَادة بن الصّامت مرفوعا. قال البيهقي : وإنمـا أراد — والله أعلم — أوّل شيء خلقه بعـد خلق المـاء والريح والعرش « القـلم » . وذلك بيّن في حديث عِمران بن حُصين ؛ ثم خلق السموات والأرض . وذكر عبد الرزاق بن عمر بن حبيب المكي عن حُميد بن قيس الأعرج عن طاوس قال: جاء رجل إلى عبد الله بن عمرو بن العاص فسأله : مِمّ خُلق الخلق ؟ قال : من المـاء والنور والظلمـة والريح والتراب . قال الرجل : فمِمّ خُلق هـؤلاء ؟ قال : لا أدرى . قال : ثم أتى الرجل عبـدَ الله بن الزبير فسأله ؛ فقال مثل قول عبد الله بن عمرو . قال : فأتى الرجلُ عبدَ الله بن عباس فسأله ؛ فقال : مِمّ خُلق الخلق ؟ قال : من المـاء والنور والظلمة والريح والتراب . قال الرجل : فمِمّ خُلق هؤلاء ؟ فتلا عبـد الله بن عباس : « وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ (١) » فقال الرجل : ما كان ليأتي بهذا إلا رجل من أهـل بيت النبيّ صلى الله عليه وسلم . قال البيهقي : أراد أن مصدر الجميع منه ؛ أي من خلقه وإبداعه وآختراعه . خلق المـاء أوّلا ، أو المـاء وما شاء من خلقه ، لا عن أصل ولا على مثال سبق ، ثم جعله أصلا لمـا خلق بعدُ؛ فهو المبدع وهو البارئ لا إله غيره ولا خالق سواه، سبحانه جلّ وعزّ.

الثامنـــة — قوله تعالى : ﴿ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ﴾ ذكر تعالى أن السموات سبع . ولم يأت للأرض في التنزيل عدد صريح لا يحتمل التأويل إلا قوله تعالى : « وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ (٢) » وقد آختلف فيه؛ فقيل : ومن الأرض مثلهن أي في العدد ؛ لأن الكيفية والصفة مختلفة بالمشاهدة والأخبار ؛ فتعيّن العدد . وقيل : « ومن الأرض مثلهنّ » أي في غلظهن

(١) راجع جـ ١٦ ص ١٦٠ (٢) راجع جـ ١٨ ص ١٧٤

Marfat.com

وما بينهن . وقيل : هى سبع إلا أنه لم يفتق بعضها من بعض ؛ قاله الداودى . والصحيح الأول ؛ وأنها سبع كالسموات سبع . روى مسلم عن سعيد بن زيد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "من أخذ شبرا من الأرض ظُلْماً طُوِّقه إلى سبع أرضين". وعن عائشة رضى الله عنها مثـله ، إلا أن فيه « من » بدل « إلى » . ومن حديث أبى هريرة : " لا يأخذ أحدٌ شبرا من الأرض بغير حقه إلا طَوَّقه الله إلى سبع أرضين [يوم القيامة][1] " .

وروى النّسائى عن أبى سعيد الخُدْرِى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " قال موسى عليه السلام يا ربّ علّمنى شيئا أذكرك به وأدعوك به قال يا موسى قل لا إله إلا الله قال موسى يا ربّ كل عبادك يقول هذا قال قل لا إله إلا الله قال لا إله إلا أنت إنما أريد شيئا تخصّنى به قال يا موسى لو أن السموات السّبع وعامرهن غيرى والأرضين السبع فى كِفّة ولا إله إلا الله فى كِفّة مالت بهن لا إله إلا الله " . وروى الترمـذى عن أبى هريرة قال : بيـنما نبى الله صلى الله عليه وسلم جالس وأصحابه إذ أتى عليهم سحاب ؛ فقال نبى الله صلى الله عليه وسلم : " هل تدرون ما هذا" فقالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : " هـذا العَنان هذه روايا الأرض يسـوقه الله إلى قوم لا يشكرونه ولا يدْعونه — قال — هل تدرون ما فوقكم " قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : " فإنها الرَّقيع[2] سقفٌ محفوظ ومَوْج مكفوف — ثم قال — هل تدرون كم بينكم و بينها " قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : " بينكم و بينها [مسيرة][3] خمسمائة عام — ثم قال : — هل تدرون ما فوق ذلك " قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : " [فإن فوق[3] ذلك] سماءين بُعْدُ ما بينهما [مسيرة][3] خمسمائة سـنة " ثم قال كذلك حتى عدّ سبع سموات ما بين كل سماءين ما بين السماء والأرض . ثم قال : " هل تدرون ما فوق ذلك " قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال " فإن فوق ذلك العرش و بينه و بين السماء بُعْدُ ما بين السماءين — ثم قال : — هل تدرون ما الذى تحتكم " قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : " فإنها الأرض — ثم قال : — هل تدرون ما تحت ذلك" قالوا : الله ورسـوله أعلم ؛ قال : " فإن تحتها الأرض الأخرى

---

(١) الزيادة من صحيح مسلم . (٢) الرقيع : اسم سماء الدنيا . (٣) زيادة عن صحيح الترمذى .

Marfat.com

بينهما مسيرة خمسمائة سنة " حتى عدّ سبع أرضين ، بين كل أرضين مسيرة خمسمائة سنة ؛ ثم قال : " والذى نفس محمد بيده لو أنكم دُليتم بحبل إلى الأرض السُّفلى لهبط على الله — ثم قرأ — هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ". قال أبو عيسى : قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية تدل على أنه أراد : لهبط على عِلْم الله وقدرته وسلطانه ، [علم الله وقدرته وسلطانه[1]] فى كل مكان وهو على عرشه كما وصف نفسه فى كتابه . قال : هذا حديث غريب ، والحسن لم يسمع من أبى هريرة . والآثار بأن الأرضين سبع كثيرة ؛ وفيما ذكرنا كفاية . وقد روى أبو الضُّحَى — وآسمه مسلم — عن آبن عباس أنه قال : « اللهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ » قال : سبع أرضين فى كل أرض نبىّ كنبيّكم ، وآدم كآدم ، ونوح كنوح ، وإبراهيم كإبراهيم ، وعيسى كعيسى . قال البيهقى : إسناد هذا عن آبن عباس صحيح ، وهو شاذ بمرّة[2] لا أعلم لأبى الضُّحَا عليه دليلا ؛ والله أعلم .

التاسعة — قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ آبتداء وخبر . « ما » فى موضع نصب . ﴿ جَمِيعًا ﴾ عند سيبويه نصب على الحال . ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ ﴾ أهل نجد يُميلون ليدلّوا على أنه من ذوات الياء ، وأهل الحجاز يفخّمون . ﴿ سَبْعَ ﴾ منصوب على البدل من الهاء والنون ؛ أى آستوى سبع سموات . ويجوز أن يكون مفعولا على تقدير يسوّى بينهنّ سبع سموات ؛ كما قال الله جل وعز : « وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا » أى من قومه ؛ قاله النحاس . وقال الأخفش : آنتصب على الحال . ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ آبتداء وخبر . والأصل فى « هو » تحريك الهاء ، والإسكان آستخفاف .

والسماء تكون واحدة مؤنثة ؛ مثل عَنان ، وتذكيرها شاذّ ؛ وتكون جمعا لسماوة فى قول الأخفش ، وسماءة فى قول الزجاج ، وجمع الجمع سماوات وسماءات . فجاء «سوّاهنّ» إما على أن السماء جمع وإمّا على أنها مفرد آسم جنس . ومعنى سوّاهنّ سوّى سطوحهنّ بالإملاس . وقيل : جعلهنّ سواء .

---

(١) زيادة عن صحيح الترمذى . (٢) فى نسخة من الأصل : « متابعا » .

Marfat.com

العــاشرة ــ قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أى بما خلق، وهو خالق كل شىء؛ فوجب أن يكون عالما بكل شىء ؛ وقد قال: « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ »(١) فهو العالم والعليم بجميع المعلومات بعلم قديم أزلى واحد قائم بذاته ؛ ووافقنا المعتزلة على العالمية دون العالمية . وقالت الجَهْمِيّة : عالم بعــلم قائم لا فى محل ، تعالى الله عن قول أهل الزَّيغ والضلالات ؛ والردّ على هؤلاء فى كتب الديانات . وقد وصف نفسه سبحانه بالعلم فقال: « أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ »(٢) ، وقال : « فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ » ، وقال : « فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ » ، وقال : « وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ » ، وقال : « وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا(٣) إِلَّا هُوَ » الآية . وسنستدلّ على ثبوت علمه وسائر صفاته فى هذه السورة عند قوله : « يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ »(٤) إن شاء الله تعالى . وقرأ الكسائى وقالُون عن نافع بإسكان الهاء من: هو وهى، إذا كان قبلها فاء أو واو أو لام أو ثُمّ ؛ وكذلك فعل أبو عمرو إلا مع ثُمّ . وزاد أبو عَوْن عن الحُلْوانى عن قالُون إسكان الهاء من « أَنْ يُمِلَّ هُوَ » ، والباقون بالتحريك.

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ فيه سبع عشرة مســألة :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ ﴾ إذ وإذا حرفا توقيت ؛ فإذ للماضى ، وإذا للمستقبل ؛ وقد توضع إحداهما موضع الأخرى . وقال المُبَرِّد : إذا جاء « إذ » مع مستقبل كان معناه ماضيا؛ نحو قوله : « وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ » « وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ » معناه إذْ مكروا، وإذ قلت . وإذا جاء « إذا » مع الماضى كان معناه مستقبلا ؛ كقوله تعـالى : « فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ » « فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ » و « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ »

(١) راجع جـ ١٨ ص ٢١٤ (٢) راجع جـ ٦ ص ١٩ (٣) راجع جـ ٧ ص ١ (٤) راجع جـ ٢ ص ٣٠١

Marfat.com

أى يحيى . وقال مَعْمَر بن المُثَنَّى أبو عبيـدة : « إذ » زائدة ؛ والتقـدير : وقال ربك ؛ وآستشهد بقول الأسْوَد بن يَعْفُر :

فإذ[1] وذلك لا مَهاةَ لذكرِه • والدهر يُعْقِب صالحاً بفسادِ

وأنكر هذا القول الزجاجُ والنحاس وجميع المفسرين . قال النحاس : وهذا خطأ ؛ لأن «إذ» آسم وهى ظرف زمان ليس مما تزاد . وقال الزجاج : هذا آجترام من أبى عبيدة ؛ ذكر الله عز وجل خلق النـاس وغيرهم ؛ فالتقدير وآبتدأ خلقكم إذ قال ؛ فكان هـذا من المحذوف الذى دل عليه الكلام ؛ كما قال :

فإن المنيّــة مَن يخشها • فسوف تصادفه أينما

يريد أينما ذهب . ويحتمل أن تكون متعلقة بفعل مقدّر تقديره وآذكر إذ قال . وقيـل : هو مردود إلى قوله تعالى : « ٱعْبُدُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ » فالمعنى الذى خلقكم إذ قال ربك للملائكة . وقول الله تعـالى وخطابه للملائكة متقرّر قديم فى الأزل بشرط وجودهم وفهمهم . وهكذا الباب كله فى أوامر الله تعالى ونواهيه ومخاطباته . وهـذا مذهب الشيخ أبى الحسن الأشعرى ، وهو الذى آرتضاه أبو المعالى . وقد أتينا عليه فى كتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى وصفات الله العلى .

والرب : المـالك والسيّد والمصلح والجابر ؛ وقد تقدّم بيانه[2] .

الثانيـــة — قوله تعالى: ﴿ لِلْمَلَآئِكَةِ ﴾ الملائكة واحدها مَلَك. قال آبن كَيْسان وغيره: وزن مَلَك فَعَـل من الملك . وقال أبو عبيدة ؛ هو مفعل من لَأَكَ إذا أرسـل . والألُوكة والمَـأْلَكة والمَـأْلُكة : الرسالة ؛ قال لَبِيد :

وغلامٍ أرســلَتْهُ أمُّه • بألُوك فبذلنا ما سأل

وقال آخر[3] :

أبلــغ النُّعمانَ عنِّى مَأْلُــكاً • إنى قدطال حبسى وآنتظارِى

(١) يلاحظ أن رواية البيت : «فإذا» ولا يستقيم الوزن إلا به . (٢) راجع المسألة الثامنة وما بعدها ص ١٣٦ من هذا الجزء . (٣) هو عدى بن زيد ؛ كما فى اللسان مادة (ألك) . ويروى «إنه» بدل : «إنى»

ويقال : أَلِكْنِي أى أرسلني ؛ فأصله على هـذا مَأْلَك، الهمزة فاء الفعل فإنهم قلبوها إلى عينه فقالوا : مَلْأَك ، ثم سهّلوه فقالوا مَلَك . وقيل أصـله مَلْأَك من مَلَك يملك ، نحو شمأل من شَمَل ؛ فالهمزة زائدة عن ابن كَيْسان أيضا ؛ وقد تأتى فى الشعر على الأصل؛ قال الشاعر :

فلستَ لإنسيٍّ ولكن لِمَــلْأَكٍ * تنزّل من جَوّ السماء يَصوبُ

وقال النّضر بن شُمَيل . لا اشتقاق للملك عند العرب . والهاء فى الملائكة تأكيد لتأنيث الجمع؛ ومثله الصَّلادمة . والصَّلادم : الخيل الشّداد، واحدها صِلْدِم. وقيل : هى للمبالغة، كعلّامة ونسّابة . وقال أرباب المعانى : خاطب الله الملائكة لا للمشورة ولكن لاستخراج ما فيهم من رؤية الحركات والعبادة والتسبيح والتقديس ، ثم ردّهم إلى قيمتهم ؛ فقال عز وجل : « اسْجُدُوا لآدَمَ » .

الثالثــة ــ قوله تعالى : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ «جاعل» هنا بمعنى خالق؛ ذكره الطبرى عن أبى رَوْق، ويقضى بذلك تعدّيها إلى مفعول واحد، وقد تقدّم . والأرض قيل إنها مكة . روى ابن سابط عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " دُحِيَت الأرض من مكة " ولذلك سُمّيت أمّ القرى، قال : وقبر نوح وهود وصالح وشعيب بين زمزم والركن والمقام . و« خليفة » يكون بمعنى فاعل؛ أى يخلف من كان قبله من الملائكة فى الأرض، أو من كان قبله من غير الملائكة على ما رُوِيَ . ويجوز أن يكون «خليفة» بمعنى مفعول أى مخلف، كما يقال : ذبيحة بمعنى مفعولة . والخَلَف (بالتحريك) من الصالحين، وبتسكينها من الطالحين؛ هذا هو المعروف، وسيأتى له مزيد بيان فى «الأعراف»(1) إن شاء الله. و«خليفة» بالفاء قراءة الجماعة؛ إلا ما رُوِيَ عن زيد بن عليّ فإنه قرأ «خليقة» بالقاف. والمعنيّ بالخليفة هنا ــ فى قول ابن مسعود وابن عباس وجميع أهل التأويل ــ آدم عليه السلام، وهو خليفة الله فى إمضاء أحكامه وأوامره؛ لأنه أول رسول إلى الأرض؛ كما فى حديث أبى ذرّ، قال قلت: يارسول الله أنبيًّا كان مرسَلًا ؟ قال : " نعم " الحديث . ويقال : لمن كان رسولا ولم يكن

(1) راجع جـ ٧ ص ٣١٠

Marfat.com

فى الأرض أحد ؟ فيقال : كان وسولا إلى ولده، وكانوا أربعين ولدا فى عشرين بطنا فى كل بطن ذكر وأنثى، وتوالدوا حتى كثروا؛ كما قال الله تعالى : « خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً »(١) . وأنزل عليهم تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير. وعاش تسعمائة وثلاثين سنة ؛ هكذا ذكر أهل التوراة . ورُوى عن وهب بن مُنَبِّه أنه عاش ألف سنة، والله أعلم .

الرابعـــة — هذه الآية أصـلٌ فى نَصْب إمامٍ وخليفة يُسْمَع له ويطاع ؛ لتجتمع به الكلمة، وتنفذ به أحكام الخليفة . ولا خلاف فى وجوب ذلك بين الأمة ولا بين الأئمة إلا ما رُوى عن الأصمّ(٢) حيث كان عن الشريعة أصمّ ، وكذلك كل من قال بقوله واتبعه على رأيه ومذهبه ، قال : إنها غير واجبة فى الدين بل يسوغ ذلك ، وأن الأمة متى أقاموا حجهم وجهادهم، وتناصفوا فيما بينهم، وبذلوا الحق من أنفسهم، وقسموا الغنائم والفىء والصدقات على أهلها، وأقاموا الحدود على مَن وجبت عليه، أجزأهم ذلك ، ولا يجب عليهم أن ينصبوا إمامًا يتولى ذلك . ودليلنا قولُ الله تعالى : « إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً »، وقوله تعالى : « يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ »، وقال : « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ » أى يجعل منهم خلفاء، إلى غير ذلك من الآى .

وأجمعت الصحابة على تقديم الصدّيق بعد اختلاف وقع بين المهاجرين والأنصار فى سَقيفة بنى ساعدة فى التعيين، حتى قالت الأنصار : منا أمير ومنكم أمير ؛ فدفعهـم أبو بكر وعمر والمهاجرون عن ذلك ، وقالوا لهم : إن العرب لا تدين إلا لهذا الحىّ من قريش ، ورووا لهم الخبر فى ذلك، فرجعوا وأطاعوا لقريش . فلوكان فرض الإمامة غير واجب لا فى قريش ولا فى غيرهم لمـا ساغت هـذه المناظرة والمحاورة عليها ، ولقال قائل : إنهـا ليست بواجبة لا فى قريش ولا فى غيرهم، فما لتنازعكم وجه ولا فائدة فى أمر ليس بواجب . ثم إن الصدّيق رضى الله عنه لمـا حضرته الوفاة عهـد إلى عمر فى الإمامة ، ولم يقل له أحد هـذا أمر غير

(١) راجع جـ ٤ ص ٢ (٢) الأصم : من كبار المعتزلة واسمه أبو بكر .

Marfat.com

واجب علينا ولا عليك ؛ فدلّ على وجوبها وأنها ركن من أركان الدِّين الذى به قوام المسلمين ، والحمد لله رب العالمين .

وقالت الرافضة : يجب نصبه عقلا ، و إن السمع إنما ورد على جهة التأكيد لقضية العقل ؛ فأما معرفة الإمام فإن ذلك مدرَك من جهة السمع دون العقل . وهذا فاسد ؛ لأن العقل لا يوجب ولا يحظر ولا يُقبِّح ولا يُحسِّن ، و إذا كان كذلك ثبت أنها واجبة من جهة الشرع لا من جهة العقل ، وهذا واضح .

فإن قيل وهى :

الخامســة — إذا سُلِّم أن طريق وجوب الإمامة السمع ، فخبِّرونا هل يجب من جهة السمع بالنص على الإمام من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم ، أم من جهة آختيار أهل الحَلّ والعَقد له ، أم بكمال خصال الأئمة فيه ، ودعاؤه مع ذلك إلى نفسه كاف فيه ؟ .

فالجواب أن يقال : آختلف الناس فى هذا الباب ، فذهبت الإمامية وغيرها إلى أن الطريق الذى يُعرف به الإمام هو النص من الرسول عليه السلام ولا مدخل للاختيار فيه . وعندنا : النظر طريق إلى معرفة الإمام ، و إجماع أهل الاجتهاد طريق أيضا إليه ؛ وهؤلاء الذين قالوا لا طريق إليه إلا النص بنوه على أصلهم أن القياس والرأى والاجتهاد باطل لا يُعرف به شىء أصلا ، وأبطلوا القياس أصلا وفرعا . ثم آختلفوا على ثلاث فرق : فرقة تدّعى النص على أبى بكر ، وفرقة تدّعى النص على العباس ، وفرقة تدّعى النص على علىّ بن أبى طالب رضى الله عنهم . والدليل على فقد النص وعدمه على إمام بعينه هو أنه صلى الله عليه وسلم لو فرض على الأمة طاعة إمام بعينه بحيث لا يجوز العدول عنه إلى غيره لعلم ذلك ؛ لاستحالة تكليف الأمة بأسرها طاعة الله فى غير معيّن ، ولا سبيل لهم إلى العلم بذلك التكليف ؛ و إذا وجب العلم به لم يَخْلُ ذلك العلم من أن يكون طريقه أدلّة العقول أو الخبر ، وليس فى العقل ما يدل على ثبوت الإمامة لشخص معيّن ، وكذلك ليس فى الخبر ما يوجب العلم بثبوت إمام معيّن ؛ لأن ذلك الخبر إما أن يكون تواترا أوجب العلم ضرورةً أو آستدلالا ، أو يكون من أخبار الآحاد ؛ ولا يجوز أن يكون

Marfat.com

طريقه التواتر الموجب للعلم ضرورةً أو دلالة ، إذ لو كان كذلك لكان كل مكلّف يجد من نفسه العلم بوجوب الطاعة لذلك المعيَّن وأن ذلك من دين الله عليه ، كما أن كل مكلّف علم أن من دين الله الواجب عليه خمس صلوات ، وصوم رمضان ، وحج البيت ونحوها ؛ ولا أحد يعلم ذلك من نفسه ضرورة ، فبطلت هـذه الدعوى ، وبطل أن يكون معلوما بأخبار الآحاد لاستحالة وقوع العلم به . وأيضا فإنه لو وجب المصير إلى نقل النص على الإمام بأيّ وجه كان ، وجب إثبات إمامة أبي بكر والعباس ؛ لأن لكل واحد منهما قوماً ينقلون النّص صريحا في إمامته ؛ وإذا بطل إثبات الثلاثة بالنص في وقت واحد — على ما يأتي بيانه — كذلك الواحد ، إذ ليس أحد الفِرق أَوْلى بالنص من الآخر . وإذا بطل ثبوت النّص لعدم الطريق الموصل إليه ثبت الاختيار والاجتهاد . فإن تعسّف متعسِّف وادّعى التواتر والعلم الضروري بالنّص فينبغي أن يقابَلوا على الفور بنقيض دعواهم في النّص على أبي بكر وبأخبار في ذلك كثيرة تقوم أيضا في جملتها مقام النص ؛ ثم لا شك في تصميم مَن عدا الإماميّة على نفي النّص ؛ وهم الخلق الكثير والجمّ الغفير . والعلم الضروري لا يجتمع على نفيه من ينحطّ عن معشار أعداد مخالفي الإماميـة ؛ ولو جاز ردّ الضروري في ذلك لجاز أن ينكر طائفة بَغْداد والصين الأقصى وغيرهما .

السادســة — في ردّ الأحاديث التي احتجّ بها الإمامية في النّص على عليّ رضي الله عنه ، وأن الأمة كفَرت بهذا النّص وارتدّت ، وخالفت أمر الرسول عنادا ؛ منها قوله عليه السلام : "مَن كنتُ مولاه فعليّ مولاه اللّهُمّ والِ مَن والاه وعادِ مَن عاداه" . قالوا : والمَوْلى في اللغة بمعنى أَوْلَى ؛ فلما قال : " فعليّ مولاه " بفاء التعقيب عُلم أن المراد بقوله « مولى» أنه أحق وأَوْلَى . فوجب أن يكون أراد بذلك الإمامة وأنه مفترض الطاعة ؛ وقوله عليه السلام لعليّ : " أنت مِنّي بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبيّ بعدي " . قالوا : ومنزلة هارون معروفة ، وهو أنه كان مشاركا له في النبوّة ولم يكن ذلك لعليّ ، وكان أخاً له ولم يكن ذلك لعلي ، وكان خليفة ؛ فعُلم أن المراد به الخلافة ، إلى غير ذلك مما احتجوا به على ما يأتي ذكره في هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

Marfat.com

والجواب عن الحديث الأوّل : أنه ليس بمتواتر، وقد آختلف في صحته، وقد طعن فيه أبو داود السّجستاني وأبو حاتم الرازي، وآستدلا على بطلانه بأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "مُزَيْنَةُ وجُهَيْنَةُ وغِفَارُ وأَسْلَمُ موالىّ دون الناس كلهم ليس لهم مَوْلًى دون الله ورسوله". قالوا : فلو كان قد قال : "مَن كنتُ مولاه فعليّ مولاه" لكان أحد الخبرين كذبًا .

جواب ثان — وهو أن الخبر وإن كان صحيحًا رواه ثِقةٌ عن ثِقة فليس فيـه ما يدل على إمامته، وإنما يدل على فضيلته، وذلك أن المولى بمعنى الولىّ، فيكون معنى الخبر : مَن كنت وَلِيّه فعليّ وَلِيّه؛ قال الله تعالى : « فَإِنّ اللّهَ هُوَ مَوْلَاهُ » أى وَلِيّه . وكان المقصود من الخبر أن يعلم الناس أن ظاهر عليّ كباطنه، وذلك فضيلة عظيمة لعليّ .

جواب ثالث — وهو أن هـذا الخبر ورَدَ على سبب، وذلك أن أسامة وعليًّا آختصما، فقال عليّ لأسامة : أنت مولاى . فقال : لستُ مولاك، بل أنا مَوْلَى رسـولِ الله صلى الله عليه وسلم؛ فذكر للنبيّ صلى الله عليه وسلم، فقال : "مَن كنتُ مولاه فعليّ مولاه" .

جواب رابع — وهو أن عليًّا عليه السلام لمـا قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم في قصة الإفْك في عائشة رضى الله عنها : النساء سواها كثير . شقّ ذلك عليها، فوجد أهـل النفاق مجالا فطعنوا عليه وأظهروا البراءة منه؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم هذا المقال ردّا لقولهم، وتكذيبًا لهم فيما قدموا عليه من البراءة منه والطعن فيه؛ ولهذا ما روى عن جماعة من الصحابة أنهم قالوا : ما كنّا نعرف المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسـلم إلا ببغضهم لعليّ عليه السلام . وأما الحديث الثاني فلا خلاف أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يُرِد بمنزلة هارون من موسى الخلافة بعده، ولا خلاف أن هارون مات قبل موسى عليهما السلام — على ما يأتي من بيان وفاتهما في سورة « المـائدة »(1) — وما كان خليفةً بعده وإنما كان الخليفة يوشع بن نون؛ فلو أراد بقوله : "أنت مِنّي بمنزلة هارون من موسى" الخلافة لقال : أنت منى بمنزلة يوشع من موسى؛ فلما لم يقل هـذا دلّ على أنه لم يُرِد هذا، وإنمـا أراد أنى آستخلفتك على أهلى في حياتى وغيبوبتى عن أهلى، كما كان هارون خليفةَ موسى على قومه لمـا خرج إلى مناجاة

(1) راجع جـ ٦ ص ١٣١

Marfat.com

ربّه . وقد قيل : إن هـذا الحديث خرج على سبب ، وهو أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لمـا خرج إلى غَزْوة تَبُوك آستخلف عليًّا عليه السلام فى المدينة على أهله وقومه؛ فأرجف به أهل النفاق وقالوا : إنما خلفه بُغْضًا وقِلًى له ، فخرج علىّ فلحق بالنبيّ صلى الله عليه وسلم وقال له : إن المنافقين قالوا كذا وكذا ! فقال : "كذبوا بل خلفتك كما خلف موسى هارون" . وقال : "أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى" . وإذا ثبت أنه أراد الآستخلاف على زعمهم فقد شارك عليًّا فى هذه الفضيلة غيره؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم آستخلف فى كل غَزاة غزاها رجلًا من أصحابه ، منهم : آبن أمّ مَكْتُوم ، ومحمد بن مَسْلَمة وغيرهما من أصحـابه ، على أن مدار هذا الخبر على سعد بن أبى وَقّاص وهو خبرُ واحدٍ . وروى فى مقابلته لأبى بكر وعمر ما هو أولى منه . ورُوى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لمـا أنفذ معاذ بن جبل إلى اليمن قيل له : ألا تنفذ أبا بكر وعمر؟ فقال : "إنهما لا غنى بى عنهما إن منزلتهما منى بمنزلة السمع والبصر من الرأس" . وقال : "هما وزيراى فى أهل الأرض" . ورُوى عنه عليه السلام أنه قال : "أبو بكر وعمر بمنزلة هارون من موسى" . وهذا الخبر ورد آبتداء ، وخبر علىّ ورد على سبب ، فوجب أن يكون أبو بكر أَوْلى منه بالإمامة ، والله أعلم .

السابعـــة ــ وآختلف فيما يكون به الإمام إمامًا وذلك ثلاث طرق ، أحدها : النص ، وقد تقدّم الخلاف فيه ، وقال به أيضا الحنابلة وجماعة من أصحاب الحديث والحسن البصرى وبكر آبن أخت عبد الواحد وأصحابه وطائفة من الخوارج . وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم نصّ على أبى بكر بالإشارة ، وأبو بكر على عمر . فإذا نص المستخلف على واحد معين كما فعل الصدّيق ، أو على جماعة كما فعل عمر ، وهو الطريق الثانى ، ويكون التخيير إليهم فى تعيين واحد منهم كما فعل الصحابة رضى الله عنهم [فى تعيين عثمان بن عفان رضى الله عنه] (١) . الطريق الثالث : إجماع أهل الحلّ والعَقْد ، وذلك أن الجماعة فى مصر من أمصار المسلمين إذا مات إمامهم ولم يكن لهم إمام ولا آستخلف فأقام أهل ذلك المصر الذى هو حضرة الإمام وموضعه إمامًا لأنفسهم آجتمعوا عليـه ورَضُوه فإن كل مَن خلفهم وأمامهم من المسلمين فى الآفاق يلزمهم الدخول فى طاعة ذلك الإمام ، إذا لم يكن الإمام معلنا بالفسق والفساد ؛ لأنها دعوة

(١) الزيادة فى تفسير العلامى نقلا عن القرطبى .

محيطة بهم تجب إجابتها ولا يسع أحدا التخلف عنها لما فى إقامة إمامين من آختلاف الكلمة وفساد ذات البَيْن ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ثلاث لا يُغِل (١) عليهنّ قلبُ مؤمنٍ إخلاصُ العمل لله ولزومُ الجماعة ومناصحةُ ولاةِ الأمر فإن دعوة المسلمين من ورائهم محيطة " .

الثامنـــة — فإنْ عَقَدها واحد من أهل الحَلّ والعَقْـد فذلك ثابت ويلزم الغير فعله ، خلافا لبعض الناس حيث قال : لا تنعقد إلا بجماعة من أهل الحلّ والعقد ؛ ودليلنا أن عمر رضى الله عنه عقد البَيعة لأبى بكر ولم يُنكر أحد من الصحابة ذلك ؛ ولأنه عَقْد فوجب ألا يفتقر إلى عدد يعقدونه كسائر العقود . قال الإمام أبو المعالى : من آنعقدت له الإمامة بعقد واحد فقد لزمت ، ولا يجوز خلعه من غير حَدَث وتغيّر أمر ؛ قال : وهذا مُجْمَعٌ عليه .

التاســـعة — فإن تغلب مَن له أهليّة الإمامة وأخذها بالقهر والغَلَبة فقد قيل إن ذلك يكون طريقا رابعا ؛ وقد سُئل سهل بن عبد الله التُّسْتَرِى : ما يجب علينا لمن غلب على بلادنا وهو إمام ؟ قال : تجيبه وتؤدّى إليه ما يطالبك من حقه ، ولا تنكر فعاله ولا تفرّ منه ، و إذا ائتمنك على سِرّ من أمر الدِّين لم تُفْشِــه . وقال آبنُ خُوَيْزِمَنْداد : ولو وثب على الأمر من يصلح له من غير مشورة ولا اختيار وبايع له الناس تمّت له البَيْعة ، والله أعلم .

العــاشرة — وآختلف فى الشهادة على عقد الإمامة ؛ فقال بعض أصحابنا : إنه لا يفتقر إلى الشهود ؛ لأن الشهادة لا تثبت إلا بسمع قاطع ، وليس هاهنا سمع قاطع يدل على إثبات الشهادة . ومنهم من قال : يفتقر إلى شهود ؛ فمن قال بهذا آحتج بأن قال : لو لم تعقد فيه الشهادة أدّى إلى أن يدّعى كل مدّع (٢) أنه عُقد له سرًّا ، و يؤدّى إلى الهَرْج والفتنة ، فوجب أن تكون الشهادة معتبرة ويكفى فيها شاهدان ، خلافا للجُبّائى حيث قال باعتبار أربعة شهود وعاقد ومعقود له ؛ لأن عمر حيث جعلها شُورَى (٣) فى ستة دلّ على ذلك . ودليلنا أنه لا خلاف بيننا

(١) روى « لا يغل » بضم الياء وكسر الغين ؛ أى لا يكون معها فى قلبه غش ودغل ونفاق . وروى « لا يغل » بفتح الياء ؛ أى لا يدخله حقد يزيله عن الحق . (٢) فى تفسير العلامى : « مبتدع » .

(٣) الستة : هم الذين نصح عمر — رضى الله عنه — للسلمين أن يختاروا واحدا منهم لولاية الأمر بعده حين طلب إليه أن يعهد عهدا . وهم : علىّ وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وســعد بن أبى وقاص والزبير بن العوام وطلحة ابن عبيد الله . راجع قصة الشورى فى تاريخ ابن الأثير (ج ٣ ص ٥٠) طبع أوروبا .

Marfat.com

و بينه أن شهادة الآثنين معتبرة ، وما زاد مختلف فيه ولم يدل عليه الدليل فيجب ألا يعتبر .

الحادية عشرة — فى شرائط الإمام ؛ وهى أحد عشر :

الأول — أن يكون من صميم قريش ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : "الأئمة من قريش" . وقد آختلف فى هذا .

الثانى — أن يكون ممن يصلح أن يكون قاضياً من قضاة المسلمين مجتهدا لا يحتاج إلى غيره فى الآستفتاء فى الحوادث ؛ وهذا مُتّفق عليه .

الثالث — أن يكون ذا خبرة ورأى حصيف بأمر الحرب وتدبير الجيوش وسدّ الثُّغور وحماية البَيْضة (١) ورَدْع الأمة والآنتقام من الظالم والأخذ للظلوم .

الرابع — أن يكون ممن لا تلحقه رِقّة فى إقامة الحدود ولا فزع من ضرب الرقاب ولا قطع الأبشار . والدليل على هذا كله إجماع الصحابة رضى الله عنهم ؛ لأنه لا خلاف بينهم أنه لا بدّ من أن يكون ذلك كله مجتمعا فيه ؛ ولأنه هو الذى يولى القضاة والحكام ، وله أن يباشر الفصل والحكم ، ويتفحّص أمور خلفائه وقضاته ؛ ولن يصلح لذلك كله إلا من كان عالما بذلك كله قيّما به . والله أعلم .

الخامس — أن يكون حُرًّا ؛ ولا خفاء باشتراط حرية الإمام و إسلامه وهو السادس .

السابع — أن يكون ذكرا ، سليم الأعضاء وهو الثامن . وأجمعوا على أن المرأة لا يجوز أن تكون إماما و إن آختلفوا فى جواز كونها قاضية فيما تجوز شهادتها فيه .

التاسع والعاشر — أن يكون بالغا عاقلا ؛ ولا خلاف فى ذلك .

الحادى عشر — أن يكون عدلا ؛ لأنه لا خلاف بين الأمة أنه لا يجوز أن تعقد الإمامة لفاسق ؛ ويجب أن يكون من أفضلهم فى العلم ؛ لقوله عليه السلام : "أئمتكم شفعاؤكم فانظروا

---

(١) بيضة الاسلام : جماعتهم .

Marfat.com

بمن تستشفعون ". وفى التنزيل فى وصف طالوت : « إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ »[1] فبدأ بالعلم ثم ذكر ما يدلّ على القوّة وسلامة الأعضاء. وقوله : «ٱصطفاه» معناه ٱختاره؛ وهذا يدل على شرط النسب . وليس من شرطه أن يكون معصوما من الزلل والخطأ، ولا عالما بالغيب، ولا أفرس الأمة ولا أشجعهم، ولا أن يكون من بنى هاشم فقط دون غيرهم من قريش؛ فإن الإجماع قد ٱنعقد على إمامة أبى بكر وعمر وعثمان وليسوا من بنى هاشم .

الثانية عشرة — يجوز نصب المفضول مع وجود الفاضل خوف الفتنة وألا يستقيم أمر الأمة؛ وذلك أن الإمام إنما نصب لدفع العدو وحماية البيضة وسدّ الخلل وٱستخراج الحقوق وإقامة الحدود وجباية الأموال لبيت المال وقسمتها على أهلها . فإذا خِيف بإقامة الأفضل الهرج والفساد وتعطيل الأمور التى لأجلها ينصب الإمام كان ذلك عذرا ظاهرا فى العدول عن الفاضل إلى المفضول؛ ويدل على ذلك أيضا علم عمر وسائر الأمة وقت الشُّورَى بأن الستة فيهم فاضل ومفضول، وقد أجاز العقد لكل واحد منهم إذا أدّى المصلحة إلى ذلك وٱجتمعت كلمتهم عليه من غير إنكار أحد عليهم؛ والله أعلم .

الثالثة عشرة — الإمام إذا نُصِب ثم فَسَق بعد ٱنبرام العقد فقال الجمهور : إنه تنفسخ إمامته ويُخلع بالفسق الظاهر المعلوم؛ لأنه قد ثبت أن الإمام إنما يقام لإقامة الحدود وٱستيفاء الحقوق وحفظ أموال الأيتام والمجانين والنظر فى أمورهم إلى غير ذلك مما تقدّم ذكره؛ وما فيه من الفسق يُقعده عن القيام بهذه الأمور والنهوض بها . فلو جوّزنا أن يكون فاسقا أدّى إلى إبطال ما أقيم لأجله ، ألا ترى فى الٱبتداء إنما لم يجز أن يُعقد للفاسق لأجل أنه يؤدّى إلى إبطال ما أقيم له ، وكذلك هذا مثله . وقال آخرون : لا ينخلع إلا بالكفر أو بترك إقامة الصلاة أو الترك إلى دعائها أو شىء من الشريعة؛ لقوله عليه السلام فى حديث عُبادة : "وألا نُنازِع الأمر أهله [قال][2] إلا أن تروا كُفْرًا بَوَاحًا عندكم من الله فيه برهان" .

---

(١) راجع ج ٣ ص ٢٤٦ (٢) الزيادة عن صحيح مسلم (ج ٦ ص ١٧) طبع الآستانة . و«بواحا» أى جهارا ؛ من باح بالشىء يبوح به إذا أعلنه .

Marfat.com

وفى حديث عَوف بن مالك : "لا ما أقاموا فيكم الصلاة" الحديث . أخرجهما مسلم . وعن أم سَلَمة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: " إنه يُستعمَل عليكم أمراءُ فتَعرفون وتُنكِرون فمن كَرِه فقد بَرِئ ومَن أنكر فقد سلِم ولكن مَن رَضِيَ وتابع — قالوا: يا رسول الله ألاَ نقاتلهم؟ قال : — لا ما صَلَّوْا " . أى من كره بقلبه وأنكر بقلبه . أخرجه أيضا مسلم .

الرابعة عشرة — ويجب عليه أن يخلع نفسه إذا وجد فى نفسه نقصًا يؤثّر فى الإمامة . فأما إذا لم يجـد نقصا فهل له أن يعزل نفسه ويعقد لغيره ؟ آختلف الناس فيـه ؛ فمنهم من قال : ليس له أن يفعل ذلك وإن فعل لم تنخلع إمامته . ومنهم من قال : له أن يفعل ذلك. والدليل على أن الإمام إذا عزل نفسه آنعزل قول أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه : أقيـلونى أقيلونى . وقول الصحابة : لا نقيلك ولا نستقيلك ، قدّمك رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا فمن ذا يؤخرك! رضيك رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا فلا نرضاك ! فلو لم يكن له أن يفعل ذلك لأنكرت الصحابة ذلك عليه ولقالت له : ليس لك أن تقول هذا ، وليس لك أن تفعله . فلمـا أقرّته الصحابة على ذلك علم أن للإمام أن يفعل ذلك؛ ولأن الإمام ناظر للغيب(1) فيجب أن يكون حكمه حكم الحاكم ، والوكيل إذا عزل نفسه . فإن الإمام هو وكيل الأمة ونائب عنها ، ولمـا آتفق على أن الوكيل والحاكم وجميـع من ناب عن غيره فى شىء له أن يعزل نفسه ، كذلك الإمام يجب أن يكون مثله . والله أعلم .

الخامسة عشرة — إذا آنعقدت الإمامة بآتفاق أهل الحَلّ والعَقْد أو بواحد على ما تقدّم وجب على الناس كافّةً مبايعته على السمع والطاعة ، وإقامة كتاب الله وسُنّة رسوله صلى الله عليه وسلم . ومن تأبّى عن البَيعة لعُذر عُذِر ، ومن تأبّى لغير عذر جُبِر وقُهِر ؛ لئلا تفترق كلمة المسلمين . وإذا بويع لخليفتين فالخليفة الأوّل وقُتل الآخر؛ وآختلف فى قتله هل هو محسوس أو معنًى فيكون عزله قتلَه وموْته . والأوّل أظهر ؛ قال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم : " إذا بويع لخليفتين فاقتـلوا الآخر منهما " . رواه أبو سعيد الخُـدْرىّ أخرجه مسـلم .

(1) فى بعض الأصول : « للغير » .

Marfat.com

وفى حديث عبد الله بن عمرو عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه سمعه يقول : "ومن بايع إماما فأعطاه صفقةَ يده وثمرة قلبه فلْيُطعه إن ٱستطاع فإن جاء آخر ينازعه فٱضربوا عنق الآخر". رواه مسلم أيضا؛ ومن حديث عَرْفَجة : " فٱضربوه بالسيف كائنا من كان " . وهذا أدلّ دليل على منع إقامة إمامين ؛ ولأن ذلك يؤدّى إلى النفاق والمخالفة والشقاق وحدوث الفتن وزوال النعم ؛ لكن إن تباعدت الأقطار وتباينت كالأندلس وخراسان جاز ذلك ؛ على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

السادسة عشرة — لو خرج خارجيّ على إمام معروف العدالة وجب على الناس جهاده؛ فإن كان الإمام فاسقا والخارجيّ مظهر للعدل لم ينبغ للنـاس أن يسرعوا إلى نصرة الخارجيّ حتى يتبيّن أمره فيما يظهر من العدل ، أو تتفق كلمة الجماعة على خلع الأوّل ، وذلك أن كل من طلب مثـل هذا الأمر أظهر من نفســه الصلاح حتى إذا تمكّن رجع إلى عادته من خلاف ما أظهر .

السابعة عشرة — فأما إقامة إمامين أو ثلاثة فى عصر واحد وبلد واحد فلا يجوز إجماعا لمـا ذكرنا . قال الإمام أبو المعالى : ذهب أصحابنا إلى منع عقد الإمامة لشخصين فى طرفى العالَم؛ ثم قالوا : لو ٱتفق عقد الإمامة لشخصين نُزّل ذلك منزلة تزويج وَلِيّيْن ٱمرأة واحدة من زوجين من غير أن يشعر أحدهما بعقد الآخر . قال : والذى عندى فيه أن عقد الإمامة لشخصين فى صُـقع واحد متضايق الخِطط والمخاليف (١) غير جائز وقد حصل الإجماع عليـه . فأما إذا بَعُد المَدَى وتخلّل بين الإمامين شُسوع النّوَى فللاحتمال فى ذلك مجال وهو خارج عن القواطع . وكان الأستاذ أبو إسحاق يجـوّز ذلك فى إقليمين متباعدين غاية التباعد لئلا تتعطل حقوق الناس وأحكامهم . وذهبت الكرّامية إلى جواز نَصْب إمامين من غير تفصيل؛ ويلزمهم إجازة ذلك فى بلد واحد ، وصاروا إلى أن عليًّا ومعاوية كانا إمامين . قالوا : وإذا كانا ٱثنين فى بلدين أو ناحيتين كان كل واحد منهما أقوم بما فى يديه وأضبط لمـا يليه؛ ولأنه

(١) المخاليف : الأطراف والنواحى .

Marfat.com

لـما جاز بعثة نبيّين فى عصر واحد ولم يؤدّ ذلك إلى إبطال النبوّة كانت الإمامة أولى، ولا يؤدّى ذلك إلى إبطال الإمامة . والجواب أن ذلك جائز لولا منـع الشرع منه ؛ لقوله : " فاقتلوا الآخر منهما " ولأن الأُمّة عليه. وأما معاوية فلم يدّع الإمامة لنفسه وإنما آدّعى ولاية الشام بتولية مَن قبله من الأئمة. ومما يدلّ على هذا إجماع الأمة فى عصرهما على أن الإمام أحدهما؛ ولا قال أحدهما إنى إمام ومخالفى إمام . فإن قالوا : العقـل لا يحيل ذلك وليس فى السمع ما يمنع منه . قلنا : أقوى السمْع الإجماعُ ، وقد وُجد على المنع .

قوله تعـالى : ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ قد علمنا قطعًا أن الملائكة لا تعلم إلا ما أُعلِمت ولا تَسبِق بالقول، وذلك عام فى جميع الملائكة؛ لأن قوله : «لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ» خرج على جهة المدح لهم، فكيف قالوا : «أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا» ؟ فقيل : المعنى أنهم لـما سمعوا لفظ خليفة فهموا أن فى بنى آدم من يفسد؛ إذ الخليفة المقصود منه الإصلاح وترك الفساد، لكن عمّموا الحكم على الجميع بالمعصية ؛ فبيّن الربّ تعـالى أن فيهم من يفسد ومن لا يفسد فقال تطييباً لقلوبهم : « إِنِّي أَعْلَمُ » وحقّق ذلك بأن علّم آدم الأسماء ، وكشف لهم عن مكنون علمه . وقيل : إن الملائكة قد رأت وعلمت ما كان من إفساد الجن وسفكهم الدماء. وذلك لأن الأرض كان فيها الجن قبل خلق آدم فأفسدوا وسفكوا الدماء، فبعث الله إليهم إبليس فى جند من الملائكة فقتلهم وألحقهم بالبحار ورءوس الجبال ، فمن حينئذ دخلته العزّة. فجاء قولهم : «أَتَجْعَلُ فِيهَا» على جهة الآستفهام المحض: هل هذا الخليفة على طريقة من تقدّم من الجن أم لا ؟ قاله أحمد بن يحيى ثعلب. وقال آبن زيد وغيره : إن الله تعالى أعلمهم أن الخليفة سيكون من ذرّيته قوم يفسدون فى الأرض ويسفكون الدماء، فقالوا لذلك هذه المقالة، إمّا على طريق التعجب من آستخلاف الله من يعصيه أو من عصيان الله من يستخلفه فى أرضه ويُنعم عليه بذلك ، وإمّا على طريق الآستعظام والإكبار للفصلين جميعا : الآستخلاف والعصيان. وقال قتادة: كان الله أعلمهم أنه إذا جعل فى الأرض خلقا أفسدوا وسفكوا الدماء، فسألوا حين قال تعالى : « إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً » أهو الذى أعلمهم أم غيره .

Marfat.com

وهذا قول حَسَن، رواه عبد الرزاق قال: أخبرنا مَعْمَر عن قتادة فى قوله « أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا» قال: كان الله أعلمهم أنه إذا كان فى الأرض خلق أفسدوا فيها وسفكوا الدماء، فلذلك قالوا : « أتجعل فيها مَن يفسد فيها » . وفى الكلام حذف على مذهبه؛ والمعنى إنى جاعل فى الأرض خليفةً يفعل كذا و يفعل كذا، فقالوا : أتجعل فيها الذى أعلمتناه أم غيره ؟ والقول الأول أيضا حسن جدا؛ لأن فيه آستخراج العلم وآستنباطه من مقتضى الألفاظ وذلك لا يكون إلا من العلماء؛ وما بين القولين حسن، فتأمله . وقد قيل : إن سؤاله تعالى للملائكة بقوله: "كيف تركتم عبادى" — على ما ثبت فى صحيح مسلم وغيره — إنما هو على جهة التوبيخ لمن قال : أتجعل فيها ، و إظهار لما سبق فى معلومه إذ قال لهم : « إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » .

قوله : ﴿ مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ «مَن » فى موضع نصب على المفعول بتجعل والمفعول الثانى يقوم مقامه «فيها» . «يُفسد» على اللفظ، ويجوز فى غير القرآن يفسدون على المعنى . وفى التنزيل : « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ » على اللفظ ، « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ » على المعنى . ﴿ وَيَسْفِكُ ﴾ عطف عليه، ويجوز فيه الوجهان . وروى أسيد عن الأعرج أنه قرأ : « ويَسْفِكَ الدّماءَ» بالنصب ، يجعله جواب الآستفهام بالواو ، كما قال[(1)] :

ألم أكُ جارَكم وتكونَ بينى * وبينكُمُ المـــودّةُ والإخاءُ

والسَّـفْكُ : الصّب . سفكت الدم أَسْفِكه سَفْكًا : صببتــه ، وكذلك الدمع ؛ حكاه آبن فارس والجوهرى . والسـفّاك : السفاح ، وهو القادر على الكلام . قال المهدوى : ولا يستعمل السفك إلا فى الدم ، وقـد يستعمل فى نثر الكلام ؛ يقال سـفك الكلام إذا نثره . وواحد الدماء دَمٌ ، محذوف اللام . وقيل : أصله دَمْيٌ . وقيـل : دَمَيٌ ، ولا يكون آسم على حرفين إلا وقد حُذف منـه ، والمحذوف منـه ياء وقد نُطق به على الأصـل ؛ قال الشاعر :

فـــلو أنّا على حجـر ذُبحنـا * جَرَى الدّميـان بالخبر اليقين

---

(١) القائل هو الحطيئة .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ وَنَحْنُ نُسَـبِّحُ بِحَمْدِكَ ﴾ أى ننزهك عمّـا لا يليق بصفاتك . والتسبيح فى كلامهم التنزيه من السوء على وجه التعظيم ؛ ومنه قول أعْشَى بنى ثَعْلبة :

أقـــول لمّـا جاءنى فَخْـــرُهُ ✽ سبحانَ من عَلْقَمَـةَ الفاخرِ

أى براءة من عَلْقَمـة . وروى طلحة بن عبيد الله قال : سألت رسـول الله صـلى الله عليه وسلم عن تفسير سبحان الله فقال : " هو تنزيه الله عزّ وجلّ عن كل سـوء " . وهو مشتق من السَّبح وهو الجَرْى والذهاب ؛ قال الله تعالى : « إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا »[1] فالمسـبِّح جارٍ فى تنزيه الله تعالى وتبرئته من السّوء . وقد تقدّم الكلام فى «نحن»[2]،ولا يجوز إدغام النون فى النون لئلا يلتقى سا كنان .

مســـئلة : وآختلف أهل التأويل فى تسبيح الملائكة،فقال آبن مسعود وآبن عباس : تسبيحهم صلاتهم؛ومنه قول الله تعالى : «فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ»[3] أى المُصَلِّين. وقيل : تسبيحهم رفع الصوت بالذكر، قاله المفضّل، وآستشهد بقول جرير :

قَبَحَ الإلهُ وجوهَ تَغْلِبَ كلّمـا ✽ سَبَحَ[4] الحجيج وكَبَّرُوا إهلالَا

وقال قتادة : تسبيحهم : سبحان الله، على عُرفه فى اللغة، وهو الصحيح لمـا رواه أبو ذَرّ أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم سئل : أىّ الكلام أفضل ؟ قال : " ما آصطفى الله لملائكته [أو لعباده][5] سبحان الله وبحمده " . أخرجه مسـلم . وعن عبد الرحمن بن قُرْط أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم ليـلة أُسْرِىَ به سمع تسبيحًا فى السموات العلا : سبحان العلىّ الأعلى سبحانه وتعالى ؛ ذكره البيهق .

---

(١) راجع جـ ١٩ ص ٤١ (٢) راجع ص ٢٠٣ من هذا الجزء .

(٣) راجع جـ ١٥ ص ١٢٣ (٤) فى ديوان جرير : «شبح» . وفسر الشبح بأنه رفع الأيدى بالدعاء . راجع اللسان مادة « شبح » وديوان جرير المخطوط المحفوظ بدار الكتب المصرية رقم ١ أدب ش .

(٥) زيادة عن صحيح مسلم (ج ٨ ص ٨٦ طبع الآستانة) .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ بِحَمْدِكَ ﴾ أى وبحمدك نخلِط التسبيح بالحمد ونصله به . والحمد : الثناء، وقد تقدّم[(١)] . ويحتمل أن يكون قولهم : «بحمدك» آعتراضا بين الكلامين؛ كأنهم قالوا : ونحن نسبح ونقدّس، ثم آعترضوا على جهة التسليم؛ أى وأنت المحمود فى الهداية إلى ذلك . والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ أى نعظّمك ونُمجّدك ونطهّر ذكرك عما لا يليق بك مما نسبك إليه الملحدون؛ قاله مجاهـد وأبو صالح وغيرهما . وقال الضحاك وغيره : المعنى نطهّر أنفســنا لك آبتغاء مرضاتك . وقال قوم منهـم قتادة : « نقدّس لك » معناه نصـلّى . والتقديس : الصلاة . قال آبن عطية : وهذا ضعيف .

قلت : بل معناه صحيح؛ فإن الصــلاة تشتمل على التعظيم والتقديس والتسبيح، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى ركوعه وسجوده : "سُبُّوح قُدّوس ربُّ الملائكة والرُّوح". رواه عائشة أخرجه مسلم . وبناء «قدس» كيفما تصرّف فإن معناه التطهير؛ ومنه قوله تعالى : « آدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ[(٢)] » أى المطهّرة . وقال : «الْمَلِكُ الْقُدُّوس[(٣)]» يعنى الطاهر؛ ومثله : «بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ[(٤)] طُوًى» وبيت المَقْدِس سُمّى به لأنه المكان الذى يُتقدّس فيه من الذنوب أى يتطهّر؛ ومنه قيل للسَّطْل : قَدَس؛ لأنه يُتوضأ فيه ويُتطهّر؛ ومنه القادوس . وفى الحديث : "لا قُدِّسَتْ أمّةٌ لا يؤخذ لضعيفها من قويّها" . يريد لا طهّرها الله؛ أخرجه آبن ماجه فى سُنَنه . فالقُدْس : الطُّهْر من غير خلاف؛ وقال الشاعر[(٥)] :

فأدرَكْنَه يأخُذْنَ بالسّاق والنَّسَا * كما شَبْرَقَ الولدانُ ثوبَ المُقَـدّس

أى المطهّر . فالصــلاة طُهرةٌ للعبد من الذُّنوب، والمُصَلِّى يدخلها على أكمل الأحوال لكونها أفضل الأعمال، والله أعلم .

---

(١) راجع المسئلة الرابعة ص ١٣٣ من هذا الجزء .   (٢) راجع ج ٦ ص ١٢٥

(٣) راجع ج ١٨ ص ٤٥   (٤) راجع ج ١١ ص ١٧٥   (٥) هو امرؤ القيس . والهاء فى « أدركنه » ضمير الثور، والنون ضمير الكلاب . والنسا : عرق فى الفخذ . والشــبرقة : تقطيع الثوب وغيره . والمقــدّس (بكسر الدال وتشديدها) : الراهب . وبالفتــح : المبارك . يقول : أدركت الكلاب الثور يأخذن بساقه ونخذه، وشبرقت جلده كما شبرق ولدان النصارى ثوب الراهب المسبح لله عز وجل إذا نزل من صومعته فقطعوا ثيابه تبركا به . (عن شرح الديوان واللسان) .

قوله تعالى : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ «أعلم» فيه تأويلان ؛ قيل : إنه فعل مستقبل . وقيل : إنه آسم بمعنى فاعل ؛ كما يقال : الله أكبر، بمعنى كبير ؛ وكما قال (١) :

لَعَمْرُكَ ما أدرى وإنّى لَأَوْجَلُ ٭ على أيّنا تعـــدُو المنيّــة أوّلُ

فعلى أنه فعل تكون « ما » فى موضع نصب بأعلم ، ويجوز إدغام الميم فى الميم . وإن جعلته آسما بمعنى عالم تكون « ما » فى موضع خفض بالإضافة . قال آبن عطية : ولا يصح فيه الصرف بإجماع من النحاة ، وإنمـا الخلاف فى « أفعل » إذا سُمّىَ به وكان نكرة ، فسيبويه والخليل لا يَصْرِفانه ، والأخفش يَصْرِفه . قال المهدَوِى : يجوز أن تقدّر التنوين فى «أعلم» إذا قدّرته بمعنى عالم ، وتنصب «ما» به ؛ فيكون مثل حَواجٌ بيتَ الله . قال الجوهرى : ونسوةٌ حواجُّ بيتِ الله ، بالإضافة إذا كنّ قد حَجَجْن ، وإن لم يكنّ حججن قلت : حواجٌّ بيتَ الله ، فتنصب البيت ؛ لأنك تريد التنوين فى حواجّ .

قوله تعـالى : ﴿ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ آختلف علمـاء التأويل فى المـراد بقوله تعـالى : « مَا لَا تَعْلَمُونَ » . فقال آبن عباس : كان إبليس — لعنه الله — قد أعجب ودخله الكبر لمـا جعله خازن السماء وشرفه ، فآعتقد أن ذلك لمزيّة له ؛ فآستخف الكفر والمعصية فى جانب آدم عليه السلام . وقالت الملائكة : « وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ » وهى لا تعـلم أن فى نفس إبليس خلاف ذلك ؛ فقال الله تعالى لهم : « إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » . وقال قتادة : لمـا قالت الملائكة « أَتَجْعَلُ فِيهَا » وقد علم الله أن فيمن يستخلف فى الأرض أنبياء وفضلاء وأهل طاعة قال لهم « إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » .

قلت : ويحتمل أن يكون المعنى إنى أعلم ما لا تعلمون ممـا كان وممـا يكون وممـا هو كائن ؛ فهو عام .

(١) القائل هو معن بن أوس . كان له صديق وكان معن متزوّجا بأخته ، فآتفق أنه طلقها وتزوّج غيرها ، فآلى صديقه ألا يكلمه أبدا ؛ فأنشأ معن يستعطف قلبه عليه ويسترقه له . (عن أشعار الحماسة) .

قوله تعالى : وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٣١)

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ «علّم» معناه عرّف . وتعليمه هنا إلهام علمه ضرورةً . ويحتمل أن يكون بواسطة مَلَك وهو جبريل عليه السلام؛ على ما يأتى. وقرئ : «وعُلِّم» غير مسمّى الفاعل . والأوّل أظهر؛ على ما يأتى. قال علماء الصوفية : علمها بتعليم الحق إيّاه وحَفِظها بحفظه عليه ونسى ما عهد إليه؛ لأن وكَلَه فيه إلى نفسه فقال : « وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١) ». وقال ٱبن عطاء : لو لم يُكشف لآدم علم تلك الأسماء لكان أعجز من الملائكة فى الإخبار عنها . وهذا واضح .

وآدم عليه السلام يُكْنَى أبا البشر. وقيل: أبا محمد؛ كنى بمحمد خاتم الأنبياء صلوات الله عليهم؛ قاله السُّهَيْلى . وقيل : كُنيته فى الجنة أبو محمد ، وفى الأرض أبو البشر . وأصله بهمزتين؛ لأنه أفعل إلا أنهم ليّنوا الثانية ، فإذا ٱحتجت إلى تحريكها جعلتها واوا فقلت : أوادِم فى الجمع؛ لأنه ليس لها أصل فى الياء معروف ، فجعلت الغالب عليها الواو؛ عن الأخفش.

وٱختلف فى ٱشتقاقه؛ فقيل : هو مشتق من أَدَمة الأرض وأديمها وهو وجهها ، فسمّى بما خلق منه ؛ قاله ٱبن عباس . وقيل . إنه مشتق من الأُدْمَة وهى السُّمْرة . وٱختلفوا فى الأُدْمَة ، فزعم الضحاك أنها السُّمْرة؛ وزعم النَّضر أنها البياض ، وأن آدم عليه السلام كان أبيض ، مأخوذ من قولهم : ناقة أدماءُ ، إذا كانت بيضاء . وعلى هذا الاشتقاق جمعه أُدْم وأوادم؛ كحُمْر وأحامر ، ولا ينصرف بوجه . وعلى أنه مشتق من الأدمة جمعه آدمون؛ ويلزم قائلو هذه المقالة صرفه .

قلت : الصحيح أنه مشتق من أديم الأرض . قال سعيد بن جُبير: إنما سُمّى آدم لأنه خلق من أديم الأرض ، وإنما سُمّى إنسانا لأنه نَسِى؛ ذكره ٱبن سعد فى الطبقات . وروى

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٥١

Marfat.com

السُّدى عن أبى مالك وعن أبى صالح عن آبن عباس وعن مُرَّة الهَمْدانىّ عن آبن مسـعود فى قصة خلق آدم عليه السلام قال : فبعث الله جبريل عليه السلام إلى الأرض ليأتيه بطين منها ؛ فقالت الأرض : أعوذ بالله منـك أن تنقص منى أو تَشِينِنى[١] ؛ فرجع ولم يأخذ وقال : يارب إنهـا عاذت بك فأعذتهـا . فبعث ميكائيـل فعاذت منه فأعاذها ، فرجع فقال كما قال جبريل ؛ فبعث ملك الموت فعاذت منه فقال : وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفـذ أمره . فأخذ من وجه الأرض وخلط ، ولم يأخذ من مكان واحد ، وأخذ من تربة حمـراء و بيضاء وسوداء ، فلذلك خرج بنـو آدم مختلفين ــ ولذلك سمى آدم لأنه أخذ من أديم الأرض ــ فصعِد به ، فقال الله تعـالى له : " أمَا رَحِمت الأرض حين تضرّعت إليك " فقال : رأيت أمرك أوجب من قولها . فقال : " أنت تصلح لقبض أرواح ولده " فبلّ التراب حتى عاد طينًا لازبًا ؛ اللّازب : هوالذى يلتصق بعضه ببعض ، ثم تُرِك حتى أنتن ؛ فذلك حيث يقول : « مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ » قال : مُنتِن . ثم قال للملائكة : « إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ . فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ »[٢] . فخلقه الله بيده لكيلا يتكبّر إبليس عنه . يقول : أتتكبّر عمّا خلقتُ بيدى ولم أتكبّر أنا عنه ! فخلقه بشرًا فكان جسدًا من طين أربعين سـنة من مقدار يوم الجمعة ، فمرّت به الملائكة ففزِعوا منه لمـا رأوه وكان أشدّهم منه فزعا إبليس فكان يمرّ به فيضربه فيصوّت الجسد كما يصوّت الفخّار تكون له صَلْصلة ؛ فذلك حين يقول : « مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ »[٣] . و يقول لأمرٍ مّا خلقت ! . ودخل من فمه وخرج من دبره ؛ فقال إبليس للملائكة : لا ترهبوا من هذا فإنه أجوف ولئن سُلِّطت عليه لأهلكنّـه . و يقال : إنه كان إذا مرّ عليه مع الملائكة يقول : أرأيتم هـذا الذى لم تروا من الخلائق يشبهه إن فُضّل عليكم وأمرتم بطاعته ما أنتم فاعلون ! قالوا : نطيع أمر ربّنا ؛ فأسرّ إبليس فى نفسه لئن فُضّل علىّ فلا أطيعه ، ولئن فُضِّلتُ عليه لأهلكنّه ؛ فلما بلغ الحين الذى أريد أن ينفخ فيه الروح

---

(١) فى نسـخة . « أن تقبض منى أو تسيئنى » . وفى تاريخ الطبرى (ص ٨٧ قسم أول طبع أوربا) : « أن تنقص منى شيئا وتشيننى » .   (٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٢٧   (٣) راجع جـ ١٧ ص ١٦٠

Marfat.com

قال للملائكة : إذا نفخت فيه من روحى فاسجدوا له ؛ فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح فى رأسه عَطَس ؛ فقالت له الملائكة : قل الحمد لله ؛ فقال : الحمد لله ؛ فقال الله له : رحمك ربك ؛ فلما دخل الروح فى عينيه نظر إلى ثمار الجنة ، فلما دخل فى جوفه آشتهى الطعام فوثب قبل أن يبلغ الروح رجليه عجلان إلى ثمار الجنة ، فذلك حين يقول : « خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ »(١) « فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ . إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ »(٢) وذكر القصة .

و روى الترمذى عن أبى موسى الأشْعَرِى قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن الله عز وجل خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود و بين ذلك والسَّهْل والحَزْن والخبيث والطيّب" . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . أديم : جمع أَدَم ؛ قال الشاعر :

النـاسُ أخيافٌ(٣) وشَتَّى فى الشِّيَمْ * وكلُّهم يجمعهـم وَجه الأَدَمْ

فآدم مشتق من الأديم والأَدَم لا من الأُدْمة ؛ والله أعلم . ويحتمل أن يكون منهما جميعا . وسيأتى لهذا الباب مزيد بيان فى خلق آدم فى « الأنعام »(٤) وغيرها إن شاء الله تعالى .

و « آدم » لا ينصرف . قال أبو جعفر النحاس : « آدم لا ينصرف فى المعرفة بإجماع النحويين ؛ لأنه على أفْعَل وهو معرفة ، ولا يمتنع شىء من الصرف عند البصريين إلا لعلّتين . فإن نكّرته ولم يكن نعتًا لم يَصرفه الخليل وسيبويه ، وصرفه الأخفش سعيد ؛ لأنه كان نعتا وهو على وزن الفعل ، فإذا لم يكن نعتا صَرَفه . قال أبو إسحاق الزجاج : القول قول سيبويه ، ولا يفرّق بين النعت وغيره لأنه هو ذاك بعينه » .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ «الأسماء» هنا بمعنى العبارات ، فإن الآسم قد يطلق و يراد به المسمَّى ، كقولك : زيد قائم ، والأسد شجاع . وقد يراد به التسمية ذاتها ؛ كقولك : أسـد ثلاثة أحرف ؛ ففى الأوّل يقال : الآسم هو المسمّى بمعنى يراد به المسمى ، وفى الثانى لا يراد به المسمّى ؛ وقد يجرى آسم فى اللغة مجرى ذات العبارة وهو الأكثر من

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٨٨ (٢) راجع جـ ١٠ ص ٢٥ (٣) الأخياف : المختلفون فى الأخلاق والأشكال . (٤) راجع جـ ٦ ص ٣٨٧ و جـ ٧ ص ١٦٨

Marfat.com

استعمالها؛ ومنه قوله تعالى : «وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا» على أشهر التأويلات؛ ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إن لله تسعةً وتسعين آسمًا". ويجرى مجرى الذات، يقال: ذاتٌ ونفسٌ وعينٌ وآسمٌ بمعنًى؛ وعلى هذا حمل أكثر أهل العلم قوله تعالى : « سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى »(١) « تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ » « إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا » .

الثالثــة — وآختلف أهل التأويل فى معنى الأسماء التى علّمها لآدم عليه السلام ؛ فقال آبن عباس وعكرمة وقتادة ومجاهد وآبن جُبير : علّمه أسماء جميع الأشياء كلها جليلها وحقيرها. وروى عاصم بن كليب عن سعد مولى الحسن بن علىّ قال : كنت جالسا عند آبن عباس فذكروا آسم الآنيَة وآسم السَّوْط ؛ قال آبن عباس : « وعلّم آدم الأسماء كلها » .

قلت : وقد روى هذا المعنى مرفوعا على ما يأتى؛ وهو الذى يقتضيه لفظ « كلها » إذ هو آسم موضوع للإحاطة والعموم؛ وفى البخارىّ من حديث أنس عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "ويجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون لو آستشفعنا إلى ربّنا فيأتون آدم فيقولون أنت أبو الناس خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كلّ شىء" الحديث . قال آبن خُوَيْزِ مَنْدَاد : فى هذه الآية دليل على أن اللغة مأخوذة توقيفًا، وأن الله تعالى علّمها آدم عليه السلام جملةً وتفصيلا . وكذلك قال آبن عباس : علّمه أسماء كل شىء حتى الجَفْنة والمِحْلَب . وروى شَيْبان عن قتادة قال : علم آدم من الأسماء أسماء خلقه ما لم يعلم الملائكة ، وسمّى كل شىء بآسمه وأنحى(٢) منفعة كل شىء إلى جنسه . قال النحاس : وهذا أحسن ما روى فى هذا . والمعنى علّمه أسماء الأجناس وعرّفه منافعها، هذا كذا، وهو يصلح لكذا . وقال الطبرىّ : علّمه أسماء الملائكة وذرّيته، وآختار هذا ورجّحه بقوله : ﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ ﴾ . وقال آبن زيد : علّمه أسمـاء ذرّيته كلهم . الربيع بن خُثَيم(٣) : أسماء الملائكة خاصـة . القُتَبىّ : أسماء ما خلق فى الأرض . وقيل : أسماء الأجناس والأنواع .

قلت : القول الأوّل أصح، لمـا ذكرناه آنفًا ولمـا نبيّنه إن شاء الله تعالى .

(١) راجع جـ ٢٠ ص ١٣ (٢) أنحى : صرف . وفى الطبرى : « ألجا » .
(٣) فى التقريب بضم المعجمة وفتح المثلثة . وفى الخلاصة «خثيم» بفتح المعجمة والمثلثة بينهما تحتانية ساكنة .

Marfat.com

الرابعـــة — وآختلف المتأولون أيضا هـل عرض على الملائكة أسمـاء الأشخاص أو الأسماء دون الأشخاص ؛ فقال آبن مسعود وغيره : عرض الأشخاص لقوله تعالى : « عَرَضَهُمْ » وقوله : ﴿ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ ﴾ . وتقول العرب : عَرَضْتُ الشيء فأَعْرَض ؛ أي أظهرته فظهر . ومنه : عَرَضْتُ الشيء للبيع . وفي الحديث " إنه عَرَضهم أمثال الذّر " . وقال آبن عباس وغيره : عرض الأسماء . وفي حرف آبن مسعود : « عرضهنّ » ؛ فأعاد على الأسماء دون الأشخاص ؛ لأن الهاء والنون أخصّ بالمؤنث . وفي حرف أُبَيّ : « عرضها » . مجاهد : أصحاب الأسماء . فمن قال في الأسماء إنها التسميات فآستقام على قراءة أُبَيّ « عرضها » . وتقول في قراءة من قرأ « عرضهم » : إن لفظ الأسمـاء يدلّ على أشخاص ؛ فلذلك ساغ أن يقال للأسماء : « عرضهم » . وقال في « هؤلاء » المراد بالإشارة : إلى أشخاص الأسماء ، لكن وإن كانت غائبة فقد حضر ما هو منها بسببٍ وذلك أسماؤها . قال آبن عطية : والذي يظهر أن الله تعالى علّم آدم الأسماء وعرضهنّ عليه مع تلك الأجناس بأشخاصها ، ثم عرض تلك على الملائكة وسألهم عن تسمياتها التي قد تعلمها ، ثم إن آدم قال لهم : هذا آسمه كذا ، وهذا آسمه كذا . وقال المـاوَرْدِيّ : وكان الأصح توجّه العرض إلى المسمّين . ثم في زمن عرضهـم قولان : أحدهما أنه عرضهم بعد أن خلقهم . الثاني — أنه صوّرهم لقلوب الملائكة ثم عرضهم .

الخامســـة — وآختلف في أول من تكلم باللسان العربيّ ؛ فرُوِيَ عن كعب الأحبار : أن أوّل مَن وضع الكتاب العربيّ والسُّرْيانيّ والكتبَ كلّها وتكلّم بالألسنة كلّها آدم عليــه السلام . وقاله غير كعب الأحبار .

فإن قيل : قد روى عن كعب الأحبار من وجه حَسَن قال : أوّل مَن تكلّم بالعربيــة جبريل عليه السلام وهو الذي ألقاها على لسان نوح عليه الســلام وألقاها نوح على لسان آبنه سام ؛ ورواه ثَور بن زيد عن خالد بن مَعْدان عن كعب . ورُوى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أوّل مَن فتق لسانه بالعربية المبيّنة إسماعيل وهو آبن عشر سنين " . وقد رُوى أيضا : أن أوّل مَن تكلّم بالعربية يَعْرُب بن قَحْطان ، وقد روي غير ذلك . قلنا : الصحيح أن

Marfat.com

أوّل مَن تكلّم باللغات كلّها من البشر آدمُ عليه السلام، والقرآن يشهد له ؛ قال الله تعالى: « وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا » واللغات كلّها أسماء فهى داخلة تحته وبهذا جاءت السنة ؛ قال صلى الله عليه وسلم : "وعلّم آدم الأسماء كلّها حتى القَصْعة والقُصَيعة" وما ذكروه يحتمل أن يكون المراد به أوّل من تكلم بالعربيّـة من ولد إبراهيم عليه السلام إسماعيلُ عليه السـلام . وكذلك إن صح ما سواه فإنه يكون محمولا على أن المذكور أوّل من تكلّم من قبيلته بالعربية بدليل ما ذكرنا، والله أعلم . وكذلك جبريل أوّل من تكلم بها من الملائكة وألقاها على لسان نوح بعد أن علّمها الله آدم أو جبريل ؛ على ما تقدّم، والله أعلم .

قوله تعالى: ﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ لفظ مبنيّ على الكسر. ولغة تَميم وبعض قيس وأَسَد فيه القصر ؛ قال الأعشى :

هَؤُلاَ ثم هَؤُلاَ كلًّا أعطيـ * ـتَ نِعالًا مَحْذُوَّةً بمثالِ

ومن العرب من يقول : هولاء ؛ فيحذف الألف والهمزة (١) .

السادســة — قوله تعالى : ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ شرطٌ، والجواب محذوفٌ تقديره: إن كنتم صادقين أن بنى آدم يفسدون فى الأرض فأنبئونى ؛ قاله المبرّد . ومعنى «صادقين» عالمين ؛ ولذلك لم يسغ للملائكة الآجتهاد وقالوا : « سبحانك » ! حكاه النقاش قال : ولو لم يشترط عليهم إلا الصدق فى الإنبـاء لجاز لهم الآجتهاد كما جاز للذى أماته الله مائة عام حين قال له : « كَمْ لَبِثْتَ » فلم يشترط عليـه الإصابة، فقـال ولم يُصب ولم يُعنَّف ؛ وهذا بيّن لا خفاء فيـه . وحكى الطبرى وأبو عبيد : أن بعض المفسرين قال إن معنى « إن كنتم » : إذ كنتم، وقالا : هـذا خطأ . و « أَنْبِئُونِي » معناه أخبرونى . والنبأ : الخبر ؛ ومنه النبيء بالهمز ، وسيأتى بيانه إن شاء الله تعالى (٢) .

السابعــة — قال بعض العلماء: يخرج من هذا الأمر بالإنباء تكليف ما لا يطاق لأنه علم أنهم لا يعلمون . وقال المحققون من أهل التأويل : ليس هذا على جهة التكليف وإنما

(١) فى البحر لأبى حيان « بحذف ألف ها وهمزة أولاء، و إقرار الواو التى بعد تلك الهمزة » .

(٢) فى قوله تعالى : « و يقتلون النبيين بغير الحق ... » راجع ص ٤٣١ من هذا الجزء .

Marfat.com

هو على جهة التقرير والتوقيف . وسيأتى القول فى تكليف ما لا يطاق — هل وقع التكليف به أم لا — فى آخر السورة(١)، إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ أى تنزيهاً لك عن أن يعلم الغيب أحدٌ سواك . وهـذا جوابهم عن قوله : « أَنْبِئُونِى » فأجابوا أنهم لا يعلمون إلا ما أعلمهم به ولم يتعاطَوْا ما لا علم لهم به كما يفعله الجهال منا . و « ما » فى « ماعلمتنا » بمعنى الذى ؛ أى إلا الذى علّمتنا ؛ ويجوز أن تكون مصدرية بمعنى إلا تعليمك إيانا .

الثانيــة — الواجب على مَن سُئل عن علم أن يقول إن لم يعلم : الله أعلم ولا أدرى . اقتداء بالملائكة والأنبياء والفضلاء من العلماء، لكن قد أخبر الصادق أن بموت العلماء يقبض العلم؛ فيبقى ناس جُهّال يُستفتَوْن فيُفتون برأيهم فيَضِلّون ويُضِلّون . وأما ماورد من الأخبار عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين بعدهم فى معنى الآية فروَى البُسْتِيّ(٢) فى المسند الصحيح له عن ابن عمر أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيّ البقاع شرّ؟ قال : " لا أدرى حتى أسأل جبريل " فسأل جبريل؛ فقال : لا أدرى حتى أسأل ميكائيل؛ فجاء فقال : خير البقاع المساجد، وشرّها الأسواق . وقال الصّدّيق للجَدّة : ارجعى حتى أسأل الناس . وكان علىّ يقول : وابردها على الكبد؛ ثلاث مرات . قالوا وما ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال : أن يُسئل الرجلُ عما لا يعلم فيقول : الله أعلم . وسأل ابنَ عمر رجلٌ عن مسئلة فقال : لا علم لى بها؛ فلما أدبر الرجل . قال ابن عمر : نِعمَ ماقال ابن عمر، سُئل عما لا يعلم فقال لا علم لى به ! ذكره الدّارمىّ فى مسنده . وفى صحيح مسلم عن أبى عَقيل

(١) راجع جـ ٣ ص ٤٢٨؛　　(٢) فى نسخة « النسائى » .

Marfat.com

يحيى بن المتوكل صاحب بُهَيّة (١) قال : كنت جالسا عند القاسم بن عبيد الله ويحيى بن سعيد، فقال يحيى للقاسم : يا أبا محمد إنه قبيح على مثلك عظيمٌ أن يُسأل عن شيء من أمر هذا الدين فلا يوجد عندك منه عِلْمٌ ولا فَرَج، أو عِلْمٌ ولا مَخْرَج ؟ فقال له القاسم : وعَمّ ذاك ؟ قال : لأنك آبن إمامَيْ هُدًى : آبنُ أبي بكر وعمر (٢). قال يقول له القاسم : أقبحُ من ذاك عند من عَقَل عن الله أن أقول بغير علم أو آخذ عن غير ثقة . فسكت فما أجابه . وقال مالك بن أنس : سمعت آبن هُرْمُز يقول : ينبغي للعالم أن يُوَرّث جلساءه من بعده لا أدرى حتى يكون أصلا في أيديهم ؛ فإذا سُئل أحدهم عما لا يدرى قال : لا أدرى . وذكر الهَيْثَم بن جميل قال : شهدت مالك بن أنس سئل عن ثمان وأربعين مسئلة فقال في آثنتين وثلاثين منها : لا أدرى .

قلت : ومثلُه كثيرٌ عن الصحابة والتابعين وفقهاء المسلمين ، وإنما يحمل على ترك ذلك الرياسةُ وعدم الإنصاف في العلم . قال آبن عبد البَرّ : من بركة العلم وآدابه الإنصافُ فيه، ومن لم يُنصف لم يفهم ولم يتفهّم . روى يونس بن عبد الأعلى قال سمعت آبن وَهْب يقول سمعت مالك بن أنس يقول : ما في زماننا شيء أقلّ من الإنصاف .

قلت : هذا في زمن مالك فكيف في زماننا اليوم الذى عم فينا الفساد وكثر فيه الطَّغام ! وطُلب فيه العلم للرياسة لا للدّراية ، بل للظهور في الدنيا وغلبة الأقران بالمراء والجدال الذى يُقسّي القلب ويُورث الضِّغن؛ وذلك مما يحمل على عدم التقوى وترك الخوف من الله تعالى . أين هذا مما رُوى عن عمر رضى الله عنه وقد قال : لا تزيدوا في مهور النساء على أربعين أُوقيّة ولو كانت بنت ذى العَقَصة — يعني يزيد بن الحُصين الحارثي — فمن زاد ألقيت زيادته في بيت المال ؛ فقامت آمرأة من صَوْب النساء طويلةٌ فيها فَطَس (٣) فقالت : ماذلك لك !

---

(١) بُهَيّة (بالتصغير) : مولاة أبي بكر رضى الله عنه ، تروى عن عائشة . وروى عنها أبو عقيل المذكور .

(٢) القاسم هذا ، هو آبن عبيد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب . وأم القاسم هي أم عبد الله بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضى الله عنه ؛ فأبو بكر جدّه الأعلى لأمه ، وعمر جدّه الأعلى لأبيه ، وآبن عمر جدّه الحقيق لأبيه . رضى الله عنهم أجمعين . (عن شرح النووى على صحيح مسلم) .

(٣) فَطَس (بالتحريك) : آنخفاض قصبة الأنف وتطامنها وانتشارها .

Marfat.com

قال : ولم ؟ قالت لأن الله عزوجل يقول : «وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا» فقال عمر : امرأة أصابت ورجل أخطأ ! وروى وَكيع عن أبي معشر عن محمد بن كعب القُرَظي قال : سأل رجل عليًّا رضي الله عنه عن مسئلة فقال فيها ؛ فقال الرجل : ليس كذلك يا أمير المؤمنين ، ولكن كذا وكذا ؛ فقال علي : أصبتَ وأخطأتُ ، وفوق كل ذي عِلْمٍ عليم . وذكر أبو محمد قاسم بن أَصْبَغ قال : لمّا رحلتُ إلى المشرق نزلت القَيْروان فأخذت على بكر ابن حماد حديثَ مُسَدَّد ، ثم رحلتُ إلى بغداد ولقيت الناس ، فلما انصرفتُ عدتُ إليه لتمام حديث مسدّد ، فقرأت عليه فيه يوما حديث النبي صلى الله عليه وسلم : "أنه قدم عليه قوم من مُضَر من مُجْتابِي النِّمَار"(١) فقال : إنما هو مُجْتابي الثّمار ؛ فقلت إنما هو مُجتابي النمار ؛ هكذا قرأته على كل من قرأته عليه بالأندلس والعراق ؛ فقال لي : بدخولك العراق تُعارضنا وتفخَر علينا ! أو نحو هـذا . ثم قال لي : قم بنا إلى ذلك الشيخ — لشيخ كان في المسجد — فإن له بمثل هذا عِلمًا ؛ فقمنا إليه فسألناه عن ذلك فقال : إنما هو مُجْتابي النّمار ، كما قلت . وهم قوم كانوا يلبسون الثياب مشقّقة(٢) ، جيوبُهم أمامَهم . والنّمار جمع نَمِرة(٣) . فقال بكر بن حماد وأخذ بأنفه : رَغِم أنفي للحق ، رَغِم أنفي للحق . وانصرف . وقال يزيد بن الوليد بن عبد الملك فأحسن :

إذا ما تحـدّثتُ في مجلس * تناهَى حديثي إلى ما علمتُ
ولم أَعْـدُ علمي إلى غيره * وكان إذا ما تناهَى سَكَتّ

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ « سبحان » منصوب على المصدر عند الخليل وسيبويه ، يؤدّي عن معنى نُسَبِّحك تسبيحًا . وقال الكسائي : هو منصوب على أنه نداء مضاف . و﴿ الْعَلِيمُ ﴾ فعيل للمبالغة والتكثير في المعلومات في خلق الله تعالى . و﴿ الْحَكِيمُ ﴾ معناه الحاكم ؛ وبينهما مزيد المبالغة . وقيل معناه المُحكم ويجيء الحكيم على هذا من صفات الفعل ، صُرِف عن مُفْعِل إلى فَعيل ، كما صُرف عن مُسْمِع إلى سَمِيع ومُؤلِم إلى أليم ؛ قاله ابن

(١) مشققة مخططة . (٢) مجتابي النمار ؛ أي لابسيها . يقال : اجتبت القميص والظلام دخلت فيهما .
(٣) وهي كل شملة مخططة من مآزر الأعراب ؛ كأنها أخذت من لون النمر .

Marfat.com

الأنبارى. وقال قوم: «الحكيم» المانع من الفساد؛ ومنه سُمِّيت حَكَمَةُ اللِّجام؛ لأنها تمنع الفرس من الجرى والذهاب فى غير قصد. قال جرير:

أَبَنِى حَنِيفَةَ أَحْكِموا سُفهاءَكم * إنى أخاف عليكمُ أن أغْضَبَا

أى امنعوهم من الفساد. وقال زهير:

القائد الخيلَ مَنْكوبًا دوابُرها (١) * قد أُحكِمَت حَكَماتِ القِدّ والأَبَقَا

القِدّ: الجلد. والأَبَق: القُنَّب (٢). والعرب تقول: أَحْكِم اليتيم عن كذا وكذا؛ يريدون منعه. والسورة المُحْكَمة: الممنوعة من التغيير وكل التبديل، وأن يُلحق بها ما يخرج عنها، ويزاد عليها ما ليس منها؛ والحكمة من هـذا؛ لأنها تمنع صاحبها من الجهل. ويقال: أَحْكَمَ الشىء إذا أتقنه ومنعه من الخروج عما يريد. فهو مُحْكَم وحكيم على التكثير.

قوله تعالى: قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ فيه خمس مسائل:

الأولى — قوله تعالى: ﴿أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ أمره الله أن يُعلمهم بأسمائهم بعد أن عرضهم على الملائكة ليعلموا أنه أعلم بما سألهم عنه تنبيهًا على فضله وعلوّ شأنه؛ فكان أفضل منهم بأن قدّمه عليهم وأسجدهم له وجعلهم تلامذته وأمرهم بأن يتعلّموا منه. فحصلت له رتبة الجلال والعظمة بأن جعله مسجودا له، مختصًّا بالعلم.

الثانيـة — فى هذه الآية دليل على فضل العلم وأهله؛ وفى الحديث: "وإن الملائكة لتضع أجنحتها رِضًا لطالب العلم" أى تخضع وتتواضع؛ وإنما تفعل ذلك لأهل (٣) العلم خاصّة

(١) النكب: أن ينكُب الحجر ظفرا أو حافرا. والدوابر: أواخر الحوافر. يقول: يقود الخيـل فى الغزو ويبعد بها حتى تنكب دوابرها؛ أى تأكلها الأرض وتؤثر فيها. (٢) القنب (بكسر القاف وضمها): ضرب من الكتان. (٣) فى نسخة من الأصل: «لأجل».

Marfat.com

من بين سائر عيال[1] الله؛ لأن الله تعالى ألزمها ذلك فى آدم عليه السلام فتأدّبت بذلك الأدب . فكلما ظهر لها عِلْم فى بشر خضعت له وتواضعت وتذلّلت إعظامًا للعلم وأهله ، ورضًى[2] منهم بالطلب له والشغل به . هذا فى الطلاب منهم فكيف بالأحبار فيهم والربّانيين منهم ! جعلنا الله منهم وفيهم، إنه ذو فضل عظيم .

الثالثـــة ــ ٱختلف العلماء من هذا الباب، أيّما أفضل الملائكة أو بنو آدم على قولين : فذهب قوم إلى أن الرسل من البشر أفضل من الرسل من الملائكة، والأولياء من البشر أفضل من الأولياء من الملائكة. وذهب آخرون إلى أن الملأ الأعلى أفضل. ٱحتجّ من فضّل الملائكة بأنهم «عِبَادٌ مُكْرَمُونَ . لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ» . «لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ» . وقوله : «لَنْ يَسْتَنْكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ»[3] وقوله : «قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ»[4] . وفى البخارى: «يقول الله عز وجل: ”مَن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم“» . وهـذا نص . ٱحتجّ من فضل بنى آدم بقوله تعـالى : «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيئَةِ»[5] بالهمز، من برأ الله الخلق . وقوله عليه السلام: ”وإنّ الملائكة لَتَضع أجنحتها رِضًى لطالب العلم “ الحديث . اخرجه أبو داود، وبمـا جاء فى أحاديثَ مِن أن الله تعالى يُباهِى بأهل عَرفات الملائكة، ولا يُباهى إلا بالأفضل، والله أعلم. وقال بعض العلماء: ولا طريق إلى القطع بأن الأنبيـاء أفضل من الملائكة، ولا القطع بأن الملائكة خير منهـم؛ لأن طريق ذلك خبر الله تعالى وخبر رسـوله أو إجماع الأمة؛ وليس ها هنا شىء من ذلك، خلافا للقدرية والقاضى أبى بكر رحمه الله حيث قالوا: الملائكة أفضل . قال : وأما من قال من أصحابنا والشّيعة : إن الأنبياء أفضل لأن الله تعـالى أمر الملائكة بالسجود لآدم، فيقال لهم : المسجود له لا يكون أفضـل من الساجد، ألا ترى أن الكعبة مسجود لهـا والأنبياء والخلق يسجدون نحوها، ثم إن الأنبياء خير من الكعبة بٱتفاق الأمة. ولا خلاف أن السجود

(١) فى نسخ من الأصل : «عمال الله» .　　(٢) فى نسخة : «ورضى الله عنهم ... الخ» .
(٣) راجع جـ ٦ ص ٢٦　　(٤) راجع جـ ٦ ص ٤٢٩　　(٥) راجع جـ ٢٠ ص ١٤٥

Marfat.com

لا يكون إلا لله تعالى، لأن السجود عبادة، والعبادةُ لا تكون إلا لله، فإذا كان كذلك فكون السجود إلى جهة لا يدل على أن الجهة خير من الساجد العابد، وهذا واضح . وسيأتى له مزيد بيان فى الآية بعد هذا .

الرابعــة — قوله تعـالى : ﴿إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ دليل على أن أحدا لا يعلم من الغيب إلا ما أعلمه الله كالأنبياء أو من أعلمه من أعلمه الله تعـالى ؛ فالمنجمون والكُهّان وغيرهم كذبة . وسيأتى بيان هذا فى « الأنعام »(١) إن شاء الله تعالى عند قوله تعالى : « وَعِندَهُ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ » .

الخامســة — قوله تعـالى : ﴿ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ ﴾ أى من قولهم : « أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا » حكاه مَكّى والمـاوَرْدِىّ . وقال الزَّهراوِىّ : ما أبدوه هو بِدارُهم بالسجود لآدم. ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ قال آبن عباس وآبن مسعود وسعيد بن جُبير : المراد ما كتمه إبليس فى نفسـه من الكبر والمعصية . قال آبن عطية : وجاء « تكتمون » للجماعة ؛ والكاتم واحد فى هذا القول على تجوّز العرب وآتساعها ؛ كما يقال لقوم قد جَنَى سَفِيهٌ منهم : أنتم فعلتم كذا . أى منكم فاعله ، وهذا مع قصد تعنيف ؛ ومنه قوله تعالى : « إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ ٱلْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ »(٢) و إنما ناداه منهم عُيَيْنَة ، وقيل الأقرع . وقالت طائفة : الإبداء والمكتوم ذلك على معنى العموم فى معرفة أسرارهم وظواهرهم أجمع . وقال مهدى بن ميمون : كنا عند الحسن فسأله الحسن بن دينـار ما الذى كتمت الملائكة ؟ قال : إن الله عز وجل لمـا خلق آدم رأت الملائكة خلقًا عجبًا، وكأنهم دخلهم من ذلك شىء، قال : ثم أقبل بعضهم على بعض وأسرّوا ذلك بينهم، [فقالوا(٣) : و] ما يهمكم من هذا المخلوق ! إن الله لم يخلق خلقًا إلا كنا أكرم عليه منه . و «ما» فى قوله : «ما تبدون» يجوز أن ينتصب بـ«أعلم» على أنه فعل، ويجوز أن يكون بمعنى عالم وتنصب به«ما» فيكون مثل حَوَاجّ بيت الله، وقد تقدّم(٤).

---

(١) راجع جـ٧ ص ١ (٢) راجع جـ١٦ ص ٣٠٩ (٣) زيادة عن تفسير الطبرى .
(٤) راجع ص ٢٧٨

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾

فيه عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ أى وٱذكر . وأما قول أبى عبيدة : إنّ «إذْ» زائدة فليس بجائز؛ لأن إذ ظرف وقد تقدّم(١) . وقال : « قلنا » ولم يقل قلت لأن الجبار العظيم يخبر عن نفسه بفعـل الجماعة تفخيمًا و إشادةً بذ كره . والملائكة جمع مَلَك؛ وقد تقـدّم(٢) . وتقدّم القول أيضا فى آدم وٱشتقاقه(٣) فلا معنى لإعادته؛ وروى عن أبى جعفر بن القَعْقاع أنه ضمّ تاء التأنيث من الملائكة إتباعا لضم الجيم فى « ٱسجدوا » . ونظيره « الحمدُ لله » .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ٱسْجُدُوا﴾ السجود معناه فى كلام العرب التذلل والخضوع؛ قال الشاعر :

بِجَمْـعٍ تَضِلّ البُـلْقُ فى حَجَراته * ترى الأُكْمَ فيهـا سُجَّدًا لِلحوافِرِ

الأُكْمُ : الجبال الصغار . جعلها سُجَّدًا للحوافر لِقهر الحوافر إياها وأنها لا تمتنع عليها . وعَيْنٌ ساجدة؛ أى فاترة عن النظر، وغايته وضع الوجه بالأرض. قال ٱبن فارس: سَجَد إذ تطامن، وكلُّ ما سجد فقد ذَلّ . والإسجاد: إدامة النّظر. قال أبو عمرو: وأسجد إذا طأطأ رأسه؛ قال(٤) :

فُضُـولَ أزِمّتِهـا أسجدتْ * سجودَ النصارى لأحبارها

قال أبو عبيدة : وأنشدنى أعرابى من بنى أسد :

* وقلنَ له أَسْجِدْ لِليْـلَى فأسجدَا *

يعنى البعير إذا طأطأ رأسه . ودراهمُ الإسجاد: دراهم كانت عليها صُور كانوا يسجدون لها؛ قال:

* وافَى بهـا كدراهم الإسجاد *

(١) راجع المسئلة الأولى ص ٢٦١ (٢) راجع المسئلة الثانية ص ٢٦٢

(٣) راجع المسئلة الأولى ص ٢٧٩ (٤) هو حميد بن ثور يصف نساء . يقول : لما ٱرتحلن ولوين فضول أزمة جمالهن على معاصمهن أسجدت — طأطأت رءوسها — لهن . (عن اللسان وشرح القاموس) .

Marfat.com

الثالثـة ــ ٱستدلّ مَن فضّل آدم وبَنِيه بقوله تعـالى للملائكة : « ٱسْجُدُوا لِآدَمَ » . قالوا : وذلك يدلّ على أنه كان أفضلَ منهم . والجواب أن معنى «ٱسجدوا لآدم» ٱسجدوا لى مستقبلين وَجْه آدم . وهو كقوله تعالى : « أَقِمِ ٱلصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ » أى عند دلوك الشمس؛ وكقوله : « وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ » أى فقعوا لى عنـد إتمام خلقه ومواجهتكم إياه ساجدين . وقد بيّنا أن المسجود له لا يكون أفضـلَ من الساجد بدليل القِبْـلة .

فإن قيل : فإذا لم يكن أفضلَ منهم فما الحكمة فى الأمر بالسجود له ؟ قيل له : إن الملائكة لما ٱستعظموا بتسبيحهم وتقديسهم أمَرهم بالسجود لغيره ليريهم ٱستغناءه عنهم وعن عبادتهم . وقال بعضهم : عيّروا آدم وٱستصغروه ولم يعرفوا خصائص الصُّنع به فأمِروا بالسجود له تكريمًا . ويحتمل أن يكون الله تعالى أمرهم بالسجود له معاقبةً لهم على قولهم : « أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا » لما قال لهم : « إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَـةً » وكان علم منهـم أنه إن خاطبهم أنهم قائلون هـذا، فقال لهم : « إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ » وجاعله خليفةً ، فإذا نفخْتُ فيه من روحى فقَعُوا له ساجدين . والمعنى : ليكون ذلك عقوبةً لكم فى ذلك الوقت على ما أنتم قائلون لى الآن .

فإن قيل : فقد ٱستدلّ ٱبن عباس على فضل البشر بأن الله تعالى أقسم بحياة رسوله صلى الله عليه وسلم فقال : « لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ »(١) . وأمّنه من العـذاب بقوله : « لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَـدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ »(٢) . وقال للملائكة : « وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّى إِلَٰهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ »(٣) . قيل له : إنما لم يُقسم بحياة الملائكة كما لم يُقسم بحياة نفسه سبحانه؛ فلم يقل : لَعَمْرِى . وأقسم بالسماء والأرض؛ ولم يدلّ على أنهما أرفع قدرًا من العرش والجنان السّبع . وأقسم بالتين والزيتون . وأمّا قوله سبحانه : « وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّى إِلَٰهٌ مِنْ دُونِهِ » فهو نظير قوله لنبيّه عليه السلام : « لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ » فليس فيه إذًا دلالة ، والله أعلم .

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٩ (٢) راجع جـ ١٦ ص ٢٦٢ (٣) راجع جـ ١١ ص ٢٨٢

Marfat.com

الرابعـــة — وآختلف الناس فى كيفية سجود الملائكة لآدم بعد آتفاقهم على أنه لم يكن سجود عبادةٍ؛ فقال الجمهور : كان هـذا أمراً للملائكة بوضع الجباه على الأرض، كالسجود المعتاد فى الصلاة؛ لأنه الظاهر من السجود فى العُرف والشرع؛ وعلى هذا قيل : كان ذلك السجود تكريما لآدم وإظهارا لفضله، وطاعةً لله تعالى، وكان آدم كالقِبْلة لنا. ومعنى «لآدم» : إلى آدم؛ كما يقال صلّى للقِبْلة؛ أى إلى القبلة. وقال قوم: لم يكن هذا السجود المعتاد اليوم الذى هو وضع الجبهة على الأرض ولكنه مُبقًى على أصل اللغـة؛ فهو من التذلّل والآنقياد، أى آخضعوا لآدم وأقرّوا له بالفضل. ﴿ فَسَجَدُوا ﴾ أى آمتثلوا ما أمروا به

وآختُلِف أيضا هل كان ذلك السجود خاصًّا بآدم عليه السلام فلا يجوز السجود لغيره من جميع العالم إلا لله تعالى، أم كان جائزا بعده إلى زمان يعقوب عليه السلام؛ لقوله تعالى : « وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا »[1] فكان آخر ما أبيح من السجود للمخلوقين؟ والذى عليه الأكثر أنه كان مباحًا إلى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن أصحابه قالوا له حين سجدت له الشجرة والجمل : نحن أَوْلَى بالسجود لك من الشجرة والجمل الشارد؛ فقال لهم : "لا ينبغى أن يُسجد لأحد إلا لله ربّ العالمين". روى آبن ماجه فى سُننه والبُسْتِىّ فى صحيحه عن أبى واقد قال : لمـا قدم معاذ بن جبل من الشام سجد لرسول الله صلى الله عليه وسـلم؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما هذا" فقال: يا رسول الله، قدمتُ الشام فرأيتهم يسجدون لبطارقتهم وأساقفتهم، فأردت أن أفعل ذلك بك؛ قال :"فلا تفعل فإنى لو أَمَرتُ شـيئا أن يسجد لشىء لأمرتُ المرأة أن تسجد لزوجها لا تؤدّى المرأةُ حقَّ ربّها حتى تؤدّى حقَّ زوجها حتى لو سألها نفسَها وهى على قَتَب لم تمنعه". لفظ البُسْتِىّ. ومعنى القتب أن العرب يَعِزّ عندهم وجود كرسى للولادة فيحملون نساءهم على القَتَب[2] عند الولادة. وفى بعض طرق معاذ : ونَهَى عن السجود للبشر، وأمر بالمصافحة.

---

(١) راجع ج ٩ ص ٢٦٤

(٢) القتب : رحل صغير على قدر السنام.

Marfat.com

قلت : وهذا السجود المنهيُّ عنه قد آتخذه جُهّال المتصوّفة عادةً فى سماعهم وعند دخولهم على مشايخهم وآستغفارهم ؛ فيرى الواحد منهم إذا أخذه الحـال بزعمه يسجد للأقدام(١) لجهله سواء أكان للقبلة أم غيرها جهالة منه ؛ ضلّ سَعْيُهم وخاب عملهم .

الخامســة — قوله : ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ نصب على الآستثناء المتصل؛ لأنه كان من الملائكة على قول الجمهور : آبن عباس وآبن مسعود وآبن جُريج وآبن المسيِّب وقَتادة وغيرهم ؛ وهو آختيار الشيخ أبى الحسن، ورجّحه الطبرى؛ وهو ظاهر الآية. قال آبن عباس: وكان آسمه عزازيل وكان من أشراف الملائكة وكان من الأجنحة الأربعة ثم أُبلِس بعـد. روى سِمَاك آبن حرب عن عكرمة عن آبن عباس قال: كان إبليس من الملائكة فلما عصى الله غضب عليه فلعنه فصار شيطانا. وحكى الماوَرْدِى عن قتادة: أنه كان من أفضل صنف من الملائكة يقال لهم الجنة . وقال سعيد بن جُبير : إن الجنّ سِبْط من الملائكة خُلقوا من نار وإبليس منهم ، وخلق سائر(٢) الملائكة من نور . وقال آبن زيد والحسن وقتادة أيضا : إبليس أبو الجن كما أن آدم أبو البشر ولم يكن مَلَكا؛ وروى نحوه عن آبن عباس وقال : آسمه الحارث . وقال شَهر آبن حَوْشَب وبعض الأصوليين : كان من الجنّ الذين كانوا فى الأرض وقاتلهـم الملائكة فسبَوْه صغيرا وتعبّد مع الملائكة وخُوطب؛ وحكاه الطبرى عن آبن مسعود . والآستثناء على هذا منقطع، مثل قوله تعالى: «مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ الظَّنِّ»، وقوله : «إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ» فى أحد القولين ؛ وقال الشاعر :

لبس عليك عطشٌ ولا جوعْ * إلا الرّقادَ والرقادُ ممنـوعْ

وآحتجّ بعض أصحاب هذا القول بأن الله جلّ وعزّ وصف الملائكة فقال: «لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ»، وقوله تعالى : « إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ» والجنّ غير الملائكة. أجاب أهل المقالة الأولى بأنه لا يمتنع أن يخرج إبليس من جملة الملائكة لمـا سبق فى علم الله بشقائه عدلًا منه، لا يُسئل عما يَفعل، وليس فى خلقه من نار ولا فى تركيب الشهوة حين غضب عليه ما يدفع أنه من الملائكة. وقول من قال: إنه كان من جنّ الأرض فسُبِيَ،

(١) فى نسخ من الأصل : « للأقدم » . (٢) فى نسخ : « معاشر » .

فقد رُوى فى مقابلته أن إبليس هو الذى قاتل الجنّ فى الأرض مع جُند من الملائكة؛ حكاه المهدَوِىّ وغيره . وحكى الثّعلبي عن ٱبن عباس : أن إبليس كان من حىّ من أحياء الملائكة يقال لهم الجنّ خُلقوا من نار السموم ، وخُلقت الملائكة من نور ، وكان ٱسمه بالسريانية عزازيل ، وبالعربية الحارث ، وكان من خُزّان الجنة وكان رئيسَ ملائكة السماء الدنيا وكان له سلطانها وسلطان الأرض ، وكان من أشدّ الملائكة ٱجتهادا وأكثرهم علما ، وكان يسوس مابين السماء والأرض ؛ فرأى لنفسه بذلك شرفًا وعظمة ، فذلك الذى دعاه إلى الكفر فعصى الله فمسخه شيطانا رجيما . فإذا كانت خطيئة الرجل فى كِبْر فلا تَرْجُه ، وإن كانت خطيئته فى معصية فارْجُه ؛ وكانت خطيئة آدم عليه السلام معصية ، وخطيئة إبليس كِبْراً . والملائكة قد تُسَمَّى جِنًّا لٱستتارها ؛ وفى التنزيل : « وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا »(١) ؛ وقال الشاعر(٢) فى ذكر سليمان عليه السلام :

وسَخَّرَ مِن جِنّ الملائِكِ تِسعةً * قيامًا لَدَيْهِ يعملون بلا أَجْرِ

وأيضا لما كان من خُزّان الجنة نُسب إليها فٱشتق ٱسمه من ٱسمها ، والله أعلم . وإبليس وزنه إفعيل ، مشتق من الإبلاس وهو اليأس من رحمة الله تعالى . ولم ينصرف ؛ لأنه معرفة ولا نظير له فى الأسماء فشبّه بالأعجمية ؛ قاله أبو عبيدة وغيره . وقيل : هو أعجمى لا ٱشتقاق له فلم ينصرف للعُجْمة والتعريف ؛ قاله الزجاج وغيره .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ أَبَى ﴾ معناه ٱمتنع من فعل ما أُمر به ؛ ومنه الحديث الصحيح عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : " إذا قرأ ٱبن آدم السجدة [فسجد](٣) ٱعتزل الشيطان يبكى يقول ياوَيْلَه — وفى رواية : ياوَيْلِى — أُمِر ٱبن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأُمِرتُ بالسجود فأَبَيْتُ فلِىَ النار " . خرّجه مسلم . يقال : أَبَى يأبَى إباءً ، وهو حرف نادر جاء على فَعَل يَفْعَل ليس فيه حرف من حروف الحَلْق ؛ وقد قيل : إن الألف مضارِعة لحروف الحَلْق . قال الزجاج : سمعت إسماعيل بن إسحاق القاضى يقول : القول

(١) راجع جـ ١٥ ص ١٣٤ (٢) هو أعشى قيس ، كما فى تفسير الطبرى وأبى حيان .
(٣) الزيادة من صحيح مسلم .

Marfat.com

عندى أن الألف مضارعة لحروف الحلق . قال النحاس : ولا أعلم أن أبا إسحاق روى عن إسماعيل نحوًا غير هذا الحرف .

السابعـــة — قوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَكْبَرَ ﴾ الآستكبار : الآستعظام؛ فكأنه كره السجود فى حقه وآستعظمه فى حق آدم ؛ فكان ترك السجود لآدم تسفيهًا لأمر الله وحكمته . وعن هذا الكبر عبّر عليه السلام بقوله : " لا يدخل الجنة مَن [كان](١) فى قلبه مثقالُ حبة من خَرْدَل من كِبْر " . فى رواية فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسَنًا ونعله حسَنة . قال : " إن الله جميل يحب الجمال الكِبْرُ بَطَرُ الحق وغَمْطُ الناس " . أخرجه مسلم . ومعنى بطر الحق : تسفيهه و إبطاله . وغمط الناس : الاحتقار لهم والازدراء بهم . و يروى : « وغمص » بالصاد المهملة ، والمعنى واحد ؛ يقال : غَمَصه يَغْمَصه غَمْصًا وآغتمصه ؛ أى آستصغره ولم يره شيئا . وغَمَص فلان النعمة إذا لم يشكرها . وغَمَصتُ عليه قولًا قاله ؛ أى عِبته عليه . وقد صرّح اللعين بهذا المعنى فقال : « أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ »(٢) . « أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا » . « لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ » فكفّره الله بذلك . فكلّ من سَفّه شيئا من أوامر الله تعالى أو أمر رسوله عليه السلام كان حُكْمُه حُكْمَه ، وهذا ما لا خلاف فيه . وروى آبن القاسم عن مالك أنه قال : بلغنى أن أوّل معصية كانت الحسد والكبر، حسَدَ إبليسُ آدم ، وشح آدم فى أكله من الشجرة . وقال قتادة : حسَدَ إبليسُ آدم ، على ما أعطاه الله من الكرامة فقال : أنا نارىّ وهـذا طينىّ . وكان بدء الذنوب الكِبْر ، ثم الحرص حتى أكل آدم من الشجرة ، ثم الحسد إذ حسد آبن آدم أخاه .

الثامنـــة — قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ قيل : كان هنا بمعنى صار؛ ومنه قوله تعالى : « فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ » . وقال الشاعر :(٣)

بتَيْهاءَ قَفْـرٍ والمَطِىّ كأنها • قطا الحَزْن قد كانت فِراخًا بُيوضُها

(١) زيادة عن صحيح مسلم . (٢) راجع ج ٧ ص ١٧٠

(٣) هو آبن أحمر؛ كما فى اللسان مادة « كون » .

Marfat.com

أى صارت . وقال آبن فُورَك . « كان » هنا بمعنى صــار خطأ تردّه الأصول . وقال جمهور المتأولين : المعنى أى كان فى علم الله تعالى أنه سيكفر؛ لأن الكافر حقيقةً والمؤمنَ حقيقةً هو الذى قد علم الله منه الموافاة .

قلت : وهــذا صحيح ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم فى صحيح البخارى : " وإنمــا الأعمال بالخواتيم " . وقيل : إن إبليس عبد الله تعالى ثمــانين ألف سنة ، وأُعْطى الرياســة والخِزانة فى الجنة على الآستدراج ؛ كما أُعْطى المنافقون شهادة أن لا إله إلا الله على أطراف ألسنتهم ؛ وكما أُعطى بَلْعَام[1] الآسم الأعظم على طرف لسانه ؛ فكان فى رياسته والكبر فى نفسه متمكن . قال آبن عباس : كان يرى لنفسه أن له فضيلة على الملائكة بمــا عنده ؛ فلذلك قال : أنا خير منه ؛ ولذلك قال الله عز وجل : « مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَــا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ[2] » أى آستكبرت ولا كِبْر لك ، ولم أتكبّر أنا حين خلقتُه بيدىّ والكبر لى ! فلذلك قال : « وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ » . وكان أصل خلقته من نار العِزّة؛ ولذلك حَلف بالعِزّة فقال : «فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ » فالعِزّة أوْرثته الكِبْر حتى رأى الفضل له على آدم عليه السلام . وعن أبى صالح قال : خُلقت الملائكة من نُور العِزّة وخُلق إبليس من نار العِزّة .

التاســعة — قال علماؤنا — رحمة الله عليهم — : ومَن أظهر الله تعالى على يديه ممن ليس بنبىّ كرامات وخوارق للعادات فليس ذلك دالًّا على ولايتــه ؛ خلافا لبعض الصُّوفية والرافضة حيث قالوا : إن ذلك يدل على أنه وَلِىّ ، إذ لو لم يكن وَلِيًّــا ما أظهر الله على يديه ما أظهر . ودليلنــا أن العلم بأن الواحد منّا ولىّ لله تعالى لا يصح إلا بعد العــلم بأنه يموت مؤمنًا ، و إذا لم يعلم أنه يموت مؤمنا لم يمكنّا أن نقطع على أنه ولىّ لله تعالى؛ لأن الولىّ لله تعالى مَن علم الله تعــالى أنه لا يوافى إلا بالإيمان . ولمــا آتفقنا على أننا لا يمكننا أن نقطع على أن ذلك الرجل يوافى بالإيمان ، ولا الرجل نفسه يقطع على أنه يوافى بالإيمان ، علم أن ذلك ليس

---

(١) فى تاريخ آبن الأثير والطبرى إنه بلعــم بن باعور من ولد لوط ، كان فى عهد موسى عليه الســلام ، وهو من أهل كنعان . راجع تاريخ آبن الأثير جـ ١ ص ١٤٠ ، وتاريخ الطبرى قسم أوّل ص ٥٠٨ طبع أوربا .

(٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٢٨

Marfat.com

يدلّ على ولايته لله . قالوا : ولا نمنع أن يطلع الله بعض أوليائه على حسن عاقبته وخاتمة عمله وغيره معه ؛ قاله الشيخ أبو الحسن الأشْعَرِيّ وغيره . وذهب الطَّبَرِي إلى أن الله تعالى أراد بقصة إبليس تقريع أشباهه من بنى آدم، وهم اليهود الذى كفروا بمحمد عليه السلام مع علمهم بنبوّته ، ومع قِدَم نعم الله عليهم وعلى أسلافهم .

العـاشرة — وآختلف هل كان قبل إبليس كافر أولا؟ فقيل : لا، و إن إبليس أوّل من كفر . وقيل : كان قبله قوم كفار وهم الجن وهم الذين كانوا فى الأرض . وآختلف أيضا هل كفر إبليس جهلًا أو عنادًا على قولين بين أهـل السُّنة ، ولا خلاف أنه كان عالما بالله تعالى قبل كفره . فمن قال إنه كفر جهلًا قال : إنه سُلب العلم عند كفره . ومن قال كفر عنادًا قال : كفر ومعه علمه . قال آبن عطية : والكفر [عنادا](١) مع بقاء العلم مستبعد، إلا أنه عندى جائز لا يستحيل مع خذل الله لمن يشاء .

قوله تعـالى : وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾

فيه ثلاث عشرة مسئلة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ آسْكُنْ ﴾ لا خلاف أن الله تعـالى أخرج إبليس عند كفره وأبعده عن الجنة ، و بعد إخراجه قال لآدم : آسكن ؛ أى لازم الإقامة وآتخذها مسكنًا ، وهو محل السكون . وسَكَن إليه يَسْكُن سكونا . والسَّكَن : النار ؛ قال الشاعر :

قد قُوِّمَتْ بِسَكَنٍ وأدهان *

والسَّكَن : كل ما سُكن إليه . والسِّكين معروف ، سُمّىَ به لأنه يُسَكِّن حركة المذبوح ؛ ومنه المِسْكين لقلة تصرفه وحركته . وسُكَّانُ(٢) السفينة عربىّ ؛ لأنه يُسَكِّنها عن الأضطراب .

---

(١) زيادة عن تفسير آبن عطية . (٢) السكان (بالضم) : ذنب السفينة التى به تعدّل .

Marfat.com

الثانيــة — في قوله تعالى: ﴿ٱسْكُنْ﴾ تنبيه على الخروج؛ لأن السُّكْنَى لا تكون مِلْكًا؛ ولهذا قال بعض العارفين: السُّكْنَى تكون إلى مدّة ثم تنقطع، فدخولهما في الجنة كان دخول سُكْنَى لا دخول إقامة.(١)

قلت: وإذا كان هذا فيكون فيه دلالة على ما يقوله الجمهور من العلماء: إن من أسكن رجلا مسكنا له أنه لا يملكه بالسُّكْنَى، وأن له أن يخرجه إذا انقضت مدّة الإسكان. وكان الشعبيّ يقول: إذا قال الرجل داري لك سُكْنَى حتى تموت فهي له حياتَه وموتَه، وإذا قال: داري هذه اسكنها حتى تموت فإنها ترجع إلى صاحبها إذا مات. ونحوٌ من السُّكْنَى العُمْرَى، إلا أن الخلاف في العُمْرَى أقوى منه في السُّكْنَى. وسيأتي الكلام في العُمْرَى في «هود»(٢) إن شاء الله تعالى. قال الحَرْبيّ: سمعت ابن الإعرابي يقول: لم يختلف العرب في أن هذه الأشياء على مِلْك أربابها ومنافعها لمن جُعلت له العُمْرَى والرقبى والإفقار والإخبال والمِنحة والعَرِيّة والسُّكْنَى والإطراق. وهذا حجة مالك وأصحابه في أنه لا يملك شيء من العطايا إلا المنافع دون الرِّقاب؛ وهو قول اللَّيث بن سعد والقاسم بن محمد، ويزيد بن قُسيط.

والعُمْرَى: هو إسكانك الرجل في دار لك مدّة عمرك أو عمره. ومثله الرُّقْبَى: وهو أن يقول: إن مُتُّ قبلي رجعتْ إليّ وإن متُّ قبلك فهي لك؛ وهي من المراقبة. والمراقبة: أن يَرْقُب كلُّ واحد منهما موتَ صاحبه؛ ولذلك اختلفوا في إجازتها ومنعها، فأجازها أبو يوسف والشافعي، وكأنها وَصِيّةٌ عندهم. ومنعها مالك والكوفيون؛ لأن كل واحد منهم يقصد إلى عوض لا يدري هل يحصل له، ويتمنى كل واحد منهما موت صاحبه. وفي الباب حديثان أيضا بالإجازة والمنع ذكرهما ابن ماجه في سُننه؛ الأول رواه جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "العُمْرَى جائزةٌ لمن أُعمِرَها والرُّقْبَى جائزةٌ لمن أُرْقِبَها" ففي هذا الحديث التسويةُ بين العُمْرَى والرُّقْبَى في الحكم. الثاني رواه ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا رُقْبَى فمن أُرْقِب شيئا فهو له حياتَه ومماتَه". قال: والرُّقْبَى أن

---

(١) في بعض الأصول: «لا دخول ثواب».　　(٢) راجع جـ ٩ ص ٥٧

Marfat.com

يقول هو للآخر : منِّى ومنك موتا . فقوله : "لا رُقْبى" نهىٌ يدلّ على المنع ؛ وقوله : "من أرْقب شيئًا فهو له" يدلّ على الجواز ؛ وأخرجهما أيضا النَّسائى . وذكر عن آبن عباس قال : العُمْرى والرُّقْبى سواء . وقال آبن المنذر : ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "العُمْرى جائزة لمن أُعمرها والرُّقْبى جائزة لمن أُرقبها" . فقد صحّح الحديث آبن المنذر ؛ وهو حجة لمن قال بأن العُمْرى والرُّقْبى سواء . ورُوى عن علىّ ؛ و به قال الثورىّ وأحمد ، وأنها لا ترجع إلى الأوّل أبدا ؛ و به قال إسحاق . وقال طاوس : مَن أرقب شيئا فهو سبيل الميراث .

والإفقار مأخوذ من فَقار الظَّهر . أفقرتك ناقتى : أعَرْتُك فَقارها لتركبها . وأفقرك الصيد إذا أمكنك من فقاره حتى ترميه . ومثله الإخبال ، يقال : أخبلت فلانا إذا أعرته ناقة يركبها أو فرسا يغزو عليه ؛ قال زهير :

هنالك إن يُسْتَخْبَلُوا المال يُخْبِلوا * و إن يُسْئلوا يُعْطُوا و إن يَيْسِروا يَغْلُوا

والمِنْحة : العطيّة . والمِنْحة : منحة اللَّبن . والمَنِيحة : الناقةُ أو الشاة يُعطيها الرجلُ آخر يحتلبها ثم يردّها ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " العاريةُ مُؤدّاةٌ والمنحة مردودةٌ والدَّين مقضىّ والزَّعيم غارم" . رواه أبو أمامة ، أخرجه الترمذىّ والدَّارَقُطْنىّ وغيرهما ، وهو صحيح .

والإطراق : إعارة الفحل ؛ استطرق فلان فلانا فَحْلَه : إذا طلبه ليضرب في إبله ؛ فأطرقه إياه ؛ ويقال : أطرقنى فحلك أى أعرنى فَحْلَك ليضرب فى إبلى . وطَرَق الفحلُ الناقة يَطْرُق طروقا ؛ أى قَعَا عليها . وطَرُوقة الفحل : أُنثاه ؛ يقال : ناقة طَروقة الفحل التى بلغت أن يضربها الفحل .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ أَنْتَ وَزَوْجُكَ ﴾ « أنت » تأكيد للضمر الذى فى الفعل ؛ ومثله « فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ » . ولا يجوز آسكن وزوجك ، ولا آذهب وربك ، إلا فى ضرورة الشعر ؛ كما قال :

قلتُ إذ أقبلتْ وزُهْرٌ تَهادَى * كنِعاج المَلا تَعَسَّفْنَ رملا (1)

(1) قائله عمر بن أبى ربيعة . و«زهر» جمع زهراء ، وهى البيضاء المشرقة . والتهادى : المشى الرويد الساكن . والنعاج : بقر الوحش . « تعسفن » : ركبن .

Marfat.com

ف « زُهْر » معطوف على المضمر فى « أقبلتْ » ولم يؤكد ذلك المضمر . ويجوز فى غير القرآن على بُعْد : قم وزيد .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ وَزَوْجُكَ ﴾ لغة القرآن « زَوْجٌ » بغير هاء ، وقد تقدّم القول فيه[1] . وقد جاء فى صحيح مسلم : « زوجة » ، حدّثنا عبد الله بن مَسْلَمة بن قَعْنَب قال حدّثنا حماد بن سَلَمة عن ثابت البُنَانِيّ عن أنس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان مع إحدى نسائه فمرّ به رجل فدعاه فجاء فقال : " يا فلانُ هذه زوجتى فلانة " : فقال يارسول الله ، مَن كنتُ أظنّ به فلم أكن أظنّ بك ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الشيطان يجرى من الإنسان مَجْرى الدم " . وزوج آدم عليه السلام هى حوّاء عليها السلام ، وهو أوّل من سمّاها بذلك حين خُلقت من ضلعه من غير أن يَحُسّ[2] آدم عليه السلام بذلك ، ولو ألِم بذلك لم يَعْطِف رجل على آمرأته ؛ فلما آنتبه قيل له : من هذه ؟ قال : آمرأة ؛ قيل : وما آسمها ؟ قال : حوّاء ؛ قيل : ولِمَ سُمّيت آمرأة ؟ قال : لأنها من المرء أخذت ؛ قيل : ولِمَ سُمّيت حوّاء ؟ قال : لأنها خُلقت من حىّ . روى أن الملائكة سألته عن ذلك لتجرّب علمه ، وأنهم قالوا له : أتحبها يا آدم ؟ قال : نعم ؛ قالوا لحوّاء : أتحبينه ياحوّاء ؟ قالت : لا ؛ وفى قلبها أضعافُ ما فى قلبه من حبه . قالوا : فلو صَدَقت آمرأة فى حبّها لزوجها لصدَقت حوّاء . وقال آبن مسعود وآبن عباس : لمــا أُسْكِن آدم الجنة مشى فيها مستوحشًا ، فلمّا نام خُلقت حوّاء مِن ضلعه القُصْرَى مِن شقه الأيسر ليسكن إليها و يأنس بها ؛ فلما آنتبه رآها فقال : من أنت ؟ ! قالت : آمرأة خُلقت من ضلعك لتسكن إلىّ ؛ وهو معنى قوله تعالى : « هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا[3] » . قال العلماء : ولهذا كانت المرأة عَوْجاء ؛ لأنها خُلقت من أعوج وهو الضّلع . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن المرأة خُلقت من ضلع — فى رواية : و إنّ أعوج شىء فى الضلع أعلاه — لن تستقيم

(١) راجع ص ٢٤٠ من هذا الجزء .　　(٢) الضلع ، كعنب وجذع .
(٣) راجع ج ٧ ص ٣٣٧

Marfat.com

لك على طريقة واحدة فإن آستمتعتَ بها آستمتعتَ [بها](١) وبها عِوَج وإن ذهبتَ تُقيمها كَسَرْتَها وكَسْرُها طلاقُها ". وقال الشاعر :

هى الضِّـلَع العَوجاءُ لستَ تُقيمها * ألَا إنّ تقـويم الضلوع آنكسارها
أتجمع ضَعفاً وآقتـداراً على الفتى * أليس عجيبا ضَـعفُها وآقتـدارها

ومن هـذا الباب آستدل العلمـاء على ميراث الخنثى المُشْكل إذا تساوت فيـه علامات النساء والرجال من اللّحية والثّدى والمبال بنقص الأعضاء . فإن نقصت أضلاعه عن أضلاع المـرأة أُعطى نصيب رجل — روى ذلك عن علىّ رضى الله عنـه — لخلق حوّاءَ من أحد أضلاعه ، وسيأتى فى المواريث بيان هذا إن شاء الله تعالى(٢) .

الخامســة — قوله تعـالى : ﴿ الجَنّة ﴾ الجنة : البُستان ، وقد تقدّم القول فيها(٣) . ولا التفات لمـا ذهبت إليه المعتزلة والقدرية من أنه لم يكن فى جنة الخُلْد وإنما كان فى جنة بأرض عَدَن . وآستدلّوا على بدعتهم بأنها لو كانت جنة الخلد لمـا وصل إليه إبليس ، فإن الله يقول : « لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ(٤) » وقال : « لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا(٥) » وقال : « لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا . إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا(٦) » . وأنه لا يخرج منهـا أهلها لقوله : « وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ(٧) » . وأيضا فإن جنـة الخُلْد هى دار القُدْس ، قُدّست عن الخطايا والمعاصى تطهيرا لهـا . وقد لَغَا فيها إبليس وكَذَب ، وأُخرج منها آدم وحواء بمعصيتهما .

قالوا : وكيف يجـوز على آدم مع مكانه من الله وكمال عقله أن يطلب شجرة الخُلْد وهو فى دار الخُلْد والمُلْك الذى لا يبلَى ؟ فالجواب : أن الله تعـالى عَرّف الجنة بالألف واللام ؛ ومن قال: أسأل الله الجنة، لم يُفهم منه فى تعارف الخلق إلا طلب جنة الخلد. ولا يستحيل فى العقل دخول إبليس الجنة لتغرير آدم ؛ وقد لَقِىَ موسى آدم عليهما السلام فقال له موسى: أنت أشقيتَ ذُرّيتك وأخرجتهم من الجنة ؛ فأدخل الألف واللام ليدل على أنها جنة الخلد

(١) الزيادة عن صحيح مسلم . (٢) راجع جـ ٥ ص ٦٥ (٣) راجع ص ٢٣٩ من هذا الجزء .
(٤) راجع جـ ١٧ ص ٦٨ . (٥) راجع جـ ١٩ ص ١٨٢ (٦) راجع جـ ١٧ ص ٢٠٦
(٧) راجع جـ ١٠ ص ٣٤

Marfat.com

المعروفة ، فلم ينكر ذلك آدم ، ولو كانت غيرها لردّ على موسى ؛ فلمـا سكت آدم على ما قرّره موسى صحّ أن الدار التى أخرجهم الله عز وجلّ منهـا بخلاف الدار التى أُخرجوا إليها . وأما ما آحتجوا به من الآى فذلك إنما جعله الله فيها بعد دخول أهلها فيها يوم القيامة ، ولا يمتنع أن تكون دار الخلد لمن أراد الله تخليده فيها وقد يخرج منها من قُضى عليه بالفناء . وقد أجمع أهل التأويل على أن الملائكة يدخلون الجنة على أهل الجنة ويخرجون منها ، وقد كان مفاتيحها بيد إبليس ثم آنتزعت منـه بعد المعصية ، وقد دخلها النبيّ صلى الله عليـه وسلم ليلة الإسراء ثم خرج منها وأخبر بما فيها وأنها هى جنة الخلد حقًّا . وأما قولهم : إن الجنة دار القُدْس وقد طهّرها الله تعـالى من الخطايا بجهلٌ منهم ؛ وذلك أن الله تعالى أمر بنى إسرائيل أن يدخلوا الأرض المقدّسة وهى الشام ، وأجمع أهل الشرائع على أن الله تعالى قدّسها وقد شُـوهد فيها المعاصى والكفر والكذب ولم يكن تقديسها مما يمنع فيها المعاصى ؛ وكذلك دار القُدْس . قال أبو الحسن بن بطال : وقد حكى بعض المشايخ أن أهل السُّنّة مجمعون على أن جنة الخلد هى التى أهبط منها آدم عليه السلام ، فلا معنى لقول مَن خالفهم . وقولهم : كيف يجوز على آدم فى كمال عقله أن يطلب شجرة الخُـلْد وهو فى دار الخلد ؛ فيُعكس عليهم ويقال : كيف يجوز على آدم وهو فى كمال عقله أن يطلب شجرة الخلد فى دار الفناء ! هذا ما لا يجوز على من له أدنى مُسْكة من عقل ، فكيف بآدم الذى هو أرجح الخلق عقلا ، على ما قال أبو أمامة على ما يأتى .

السادســـة ــ قوله تعالى : ﴿ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ قراءة الجمهور «رَغَدًا» بفتح الغين . وقرأ النَّخَعِىّ وآبن وَثّاب بسكونها . والرَّغَد : العيش الدّارُّ الهنىّ الذى لا عَناء فيه ؛ قال :

بينما المـــرء تراه ناعمـا　*　يأمن الأحداث فى عيش رغد (١)

ويقال : رَغُد عيشُهم ورغِد (بضم الغـين وكسرها) . وأرغد القوم : أخصبوا وصاروا فى رَغَد من العيش . وهو منصوب على الصفة لمصـدر محذوف . وحَيْثُ وحيثَ وحيثِ ، وحَوْثَ وحوثِ وحاث ، كلّها لغات ، ذكرها النحاس وغيره .

(١) القائل هو آمرؤ القيس ؛ كما فى تفسير أبى حيان والطبرى .

Marfat.com

السابعـــة — قوله تعـالى : ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ أى لا تقرباها بأكل ؛ لأن الإباحة فيه[(١)] وقعت . قال آبن العربي : سمعت الشاشيّ فى مجلس النَّضْر [بن شُمَيل][(٢)] يقول : إذا قيل لا تقرَب (بفتح الراء) كان معناه لا تَلَبَّس بالفعل ، وإذا كان (بضم الراء) فإن معناه لا تَدْنُ منه . وفى الصحاح : قَرُب الشيءُ يقرُب قُرْبًا أى دنا . وقَرِبته (بالكسر) أَقْرَبه قُرْبانا أى دنَوت منه . وقَرَبت أَقْرُب قِرابة — مثل كتبت أكتب كتابة — إذا سِرت إلى المـاء وبينك وبينه ليلة ؛ والأسم القَرَب . قال الأصمعى : قلت لأعرابيّ : ما القَرَب ؟ فقال : سَيْرُ الليل لوِرْد الغد . وقال آبن عطية قال بعض الحذاق : إن الله تعالى لمـا أراد النهى عن أكل الشجرة نهى عنه بلفظ يقتضى الأكل وما يدعو إليه العرب وهو القرب . قال آبن عطية : وهذا مثالٌ بَيّن فى سدّ الذرائع . وقال بعض أرباب المعانى قوله : «ولا تَقْرَبَا» إشعار بالوقوع فى الخطيئة والخروج من الجنة ، وأن سكناه فيها لا يدوم ؛ لأن المخلَّد لا يحظر عليه شىء ولا يؤمر ولا يُنْهَى . والدليل على هذا قوله تعالى «إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً» فدلّ على خروجه منها .

الثامنـــة — قوله تعالى : ﴿هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ الأسم المبهَم يُنعت بمـا فيه الألف واللام لا غير ، كقولك : مررت بهذا الرجل وبهذه المرأة وهـذه الشجرة . وقـرأ آبن مُحَيْصِن : « هذى الشجرة » بالياء وهو الأصل ؛ لأن الهاء فى هذه بدل من ياء ولذلك آنكسر ما قبلها ، وليس فى الكلام هاء تأنيث قبلها كسرة سواها ، وذلك لأن أصلها الياء .

---

(١) أى من غير تلك الشجرة .

(٢) فى الأصول : « مجلس النظر يقول » . والتصويب والزيادة عن كتاب البحر لأبى حيان . وقد عقب عليه بقوله : « وفى هذه الحكاية عن آبن العربى من التخليط ما يتعجب من حاكيها ، وهو قوله : سمعت الشاشى فى مجلس النضر بن شميل ، وبين النضر والشاشى من السنين مئون إلا إن كان ثَمّ مكان معروف بمجلس النضر بن شميل فيمكن » . والشاشى هنا هو محمد بن أحمد بن الحسين بن عمر المعروف بأبى بكر الشاشى ولد بميافارقين سنة ٤٢٩ هـ وتوفى سنة ٥٠٧ هـ (راجع طبقات الشافعية ج ٤ ص ٥٧) .
أما النضر بن شميل فقد توفى سنة ثلاث وقيل أربع ومائتين (راجع بغية الوعاة ووفيات الأعيان) .
وولد أبو بكر بن العربى سنة ٤٦٨ ، وتوفى سنة ٥٤٣ هـ (راجع طبقات المفسرين) .

Marfat.com

والشَّجَرة والشِّجَرة والشِّيَرة، ثلاثُ لغات، وقرئ « الشِّجرة » بكسر الشين . والشَّجرة والشِّجَرة : ما كان على ساق من نبات الأرض . وأرض شَجِيرة وشَجْراء أى كثيرة الأشجار ، ووادٍ شَجير، ولا يقال : وادٍ أشجر . وواحد الشَّجْراء شَجَرة، ولم يأت من الجمع على هذا المثال إلا أحرف يسيرة : شَجَرة وشَجْراء، وقَصَبة وقَصْباء ، وطَرَفة وطَرْفاء ، وحَلَفة وحَلْفاء . وكان الأصمعي يقول فى واحد الحَلْفاء: حَلِفة، بكسر اللام مخالفة لأخواتها . وقال سيبويه : الشَّجراء واحد وجَمْع ، وكذلك القَصْباء والطَّرْفاء والحَلْفاء . والمَشْجَرة : موضع الأشجار . وأرض مَشْجَرة ، وهذه الأرض أشجر من هذه أى أكثر شجرا ؛ قاله الجوهري .

التاســعة — وٱختلف أهل التأويل فى تعيين هذه الشجرة التى نُهى عنها فأكل منها ؛ فقال ٱبن مسعود وٱبن عباس وسعيد بن جُبير وجَعْدة بن هُبيرة : هى الكَرْم ؛ ولذلك حُرِّمت علينا الخمر . وقال ٱبن عباس أيضا وأبو مالك وقَتادة : هى السُّنْبُلة ، والحبّةُ منها ككُلَى البقر، أحْلَى من العسل وألْيَن من الزُّبْد؛ قاله وَهْب بن مُنَبِّه . ولما تاب الله على آدم جعلها غذاء لبنيه . وقال ٱبن جُريج عن بعض الصحابة : هى شجرة التِّين[1] ، وكذا روى سعيد عن قتادة، ولذلك تُعَبَّر فى الرؤيا بالندامة لآكلها من أجل ندم آدم عليه السلام على أكلها ؛ ذكره السُّهَيْلى . قال ٱبن عطية : وليس فى شئ من هذا التعيين ما يَعْضُده خبرٌ ، وإنما الصواب أن يُعتقد أن الله تعالى نهى آدم عن شجرة فخالف هو إليها وعصى فى الأكل منها . وقال القُشيرى أبو نصر: وكان الإمام والدى رحمه الله يقول : يُعلم على الجملة أنها كانت شجرة المِحْنة .

العــاشرة — وٱختلفوا كيف أكل منهــا مع الوعيد المقترن بالقرب وهو قوله تعالى : « فَتَكُونَا مِنَ الظالِمين » ؛ فقال قوم : أكلا من غير التى أشير إليهــا ، فلم يتأوّلا النهى واقعا على جميع جنسها ، كأن إبليس غرّه [بالأخذ][2] بالظاهر . قال ٱبن العربي : وهى أوّل معصية عصى الله بها على هذا القول . قال : « وفيه دليل على أن من حلف ألا يأكل من هذا الخبز فأكل من جنسه حنث . وتحقيق المذاهب فيه أن أكثر العلماء قالوا : لاحِنْث فيه . وقال

(١) فى نسخة : « شعبة » وكلاهما يروى عن قتادة .　　(٢) الزيادة من ٱبن العربي .

Marfat.com

مالك وأصحابه : إن آقتضى بساط اليمين تعيين المشار إليه لم يحنَث بأكل جنسه ، وإن آقتضى بساط اليمين أو سببها أو نيتها الجنس حُمِل عليه وحنِث بأكل غيره ؛ وعليه حُملت قصة آدم عليه السلام فإنه نهى عن شجرة عُيِّنت له وأريد بها جنسها ؛ فحمل القول على اللفظ دون المعنى .

وقد آختلف علماؤنا فى فرْع من هذا ؛ وهو أنه إذا حلَف ألا يأكل هذه الحنطة فأكل خبزا منها على قولين ؛ قال فى الكتاب : يحنَث ؛ لأنها هكذا تؤكل . وقال آبن المواز : لا شىء عليه ؛ لأنه لم يأكل حنطة وإنما أكل خبزا فراعى الأسم والصفة . ولو قال فى يمينه : لا آكل من هذه الحنطة لحنِث بأكل الخبز المعمول منها » . وفيما آشترى بثمنها من طعام وفيما أنبتت خلاف . وقال آخرون : تأوّلا النّهى على النّدب . قال آبن العربىّ : وهذا وإن كان مسئلة من أصـول الفقه فقـد سقط ذلك هاهنا ؛ لقوله : « فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ » فقرن النّهى بالوعيد ، وكذلك قوله سبحانه : « فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ »(١) . وقال آبن المُسَيّب : إنما أكل آدم بعد أن سَقَته حَوّاء الخمر فسَكِر وكان فى غير عقله . وكذلك قال يزيد بن قُسيط ، وكانا يحلفان بالله أنه ما أكل من هذه الشجرة وهو يعقل . قال آبن العربىّ : وهـذا فاسد نقلاً وعقلاً ، أما النّقل فلم يصح بحال ، وقد وصف الله عز وجل خمر الجنة فقال : « لَا فِيهَا غَوْلٌ » . وأما العقل فلأن الأنبياء بعد النبوّة معصومون عما يؤدّى إلى الإخلال بالفرائض وآقتحام الجرائم .

قلت : قد آستنبط بعض العلماء نبوّة آدم عليه السلام قبل إسكانه الجنة من قوله تعالى : « فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ » فأمره الله تعالى أن ينبئ الملائكة بما ليس عندهم من علم الله جلّ وعزّ . وقيل : أكلها ناسيًا ، ومن الممكن أنهما نَسِيَا الوعيد .

قلت : وهو الصحيح لإخبار الله تعالى فى كتابه بذلك حَتْمًا وجَزْمًا فقال : « وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا »(١) . ولكن لمـا كان الأنبياء عليهم السلام يلزمهم من التحفظ والتيقّظ لكثرة معارفهم وعُـلُوّ منازلهم ما لا يلزم غيرهم كان تشـاغله عن تذكّر النّهى تضييعًا صار به عاصيًا ؛ أى مخالفا . قال أبو أمامة : لو أن أحلام بنى آدم منذ خلق الله الخلق إلى يوم القيامة وضعت فى كفّة ميزان ووُضع حِلْم آدم فى كِفّة أخرى لرجحهم ؛ وقـد قال الله تعالى : « وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا » .

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٥١ وص ٢٥٢

قلت : قولُ أبي أُمامة هذا عمومٌ في جميع بني آدم . وقد يحتمل أن يخصّ من ذلك نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم؛ فإنه كان أوفر الناسِ حلمًا وعقلًا. وقد يحتمل أن يكون المعنى لو أن أحلام بني آدم من غير الأنبياء . والله أعلم .

قلت : والقول الأوّل أيضا حَسَن ؛ فظنّا أن المراد العَيْن وكان المراد الجنس ، كقول النبيّ صلى الله عليه وسلم حين أخذ ذهبًا وحريرًا فقال : " هذان حرامان على ذكور أمتي " . وقال في خبر آخر : "هذان مهلكان أمتي" . وإنما أراد الجنس لا العين .

الحادية عشرة — يقـال : إن أوّل مَن أكل من الشجرة حـوّاء بإغواء إبليس إياها — على ما يأتي بيانه — وإن أوّل كلامه كان معها لأنها وسواس المخدّة، وهي أوّل فتنة دخلت على الرجال من النساء؛ فقال : ما مُنعتما هذه الشجرة إلا أنها شجرة الخُلْد؛ لأنه علم منهما أنهما كانا يُحبّان الخُلْد، فأتاهما من حيث أحبّا — «حُبّك الشيء يُعمِي ويُصِم» — فلما قالت حوّاء لآدم أنكر عليها وذكر العهد؛ فألحّ على حوّاء وألحّت حوّاء على آدم ، إلى أن قالت : أنا آكل قبلك حتى إن أصابني شيء سَلِمْتَ أنت ؛ فأكلتْ فلم يضرها ، فأتت آدم فقالت : كُلْ فإني قد أكلتُ فلم يضرّني ؛ فأكل فبـدت لهما سوءاتهما وحصلا في حكم الذنب؛ لقول الله تعالى : « وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ » بجمعهما في النّهي ؛ فلذلك لم تنزل بها العقوبة حتى وُجد المنهيّ عنه منهما جميعًا ، وخَفيت على آدم هذه المسئلة ؛ ولهذا قال بعض العلماء : إن من قال لزوجتيه أو أَمَتَيْه : إن دخلتما الدار فأنتما طالقتان أو حُرّتان؛ إن الطلاق والعتق لا يقع بدخول إحداهما . وقـد آختلف علمـاؤنا في ذلك على ثلاثة أقوال ؛ قال آبن القـاسم : لا تطلقان ولا تَعتِقان إلا بآجتماعهما في الدخول ، حملًا على هذا الأصل وأخذًا بمقتضى مطلق اللفظ . وقاله سُحْنون . وقال آبن القاسم مرة أخرى : تطلقان جميعا وتَعتِقان جميعا بوجود الدخول من إحداهما؛ لأن بعض الحِنْث حِنْث؛ كما لو حلف ألّا يأكل هذين الرغيفين فإنه يحنث بأكل أحدهما بل بأكل لُقمة منهما . وقال أشهب : تَعتِق وتطلُق التي دخلت وحدها ؛ لأن دخول

Marfat.com

كلّ واحدة منهما شرطٌ فى طلاقها أو عتقها . قال آبن العربى : وهذا بعيد ؛ لأن بعض الشرط لا يكون شرطًا إجماعًا .

قلت : الصحيح الأوّل ، و إن النّهى إذا كان معلّقًا على فعلين لا تحقق المخالفة إلا بهما ؛ لأنك إذا قلت : لا تدخلا الدار ؛ فدخل أحدهما ما وُجدت المخالفة منهما ؛ لأن قول الله تعالى «وَلَا تَقْرَبَا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ» نَهْىٌ لهما «فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ» جوابه ؛ فلا يكونا من الظالمين حتى يفعلا ؛ فلما أكلت لم يصبها شىء ؛ لأن المنهىّ عنه ما وُجد كاملًا . وخَفِىَ هذا المعنى على آدم فطمع ونسى هذا الحكم ، وهو معنى قوله تعالى : «وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ» . وقيل : نسى قوله : « إِنَّ هٰذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ » . والله أعلم .

الثـانية عشرة — وآختلف العلماء فى هذا الباب هل وقع من الأنبياء — صلوات الله عليهم أجمعين — صغائر من الذنوب يؤاخذون بها و يعاتبون عليها أم لا — بعد آتفاقهم على أنهم معصومون من الكبائر ومن كل رذيلة فيها شَيْن ونقص إجماعًا عند القاضى أبى بكر(١) وعند الأستاذ أبى إسحاق(٢) أن ذلك مقتضى دليل المعجزة ؛ وعند المعتزلة أن ذلك مقتضى دليل العقل على أصولهم — ؛ فقال الطبرى وغيره من الفقهاء والمتكلمين والمحدّثين : تقع الصغائر منهم . خلافا للرافضة حيث قالوا : إنهـم معصومون من جميع ذلك ؛ وآحتجّوا بمـا وقع من ذلك فى التنزيل وثبت من تنصّلهم من ذلك فى الحديث ، وهذا ظاهر لا خفاء فيه . وقال جمهور من الفقهاء ، من أصحـاب مالك وأبى حنيفة والشافعى : إنهـم معصومون من الصغائر كلها كعصمتهم من الكبائر أجمعها ؛ لأنا أُمِرنا بآتباعهم فى أفعـالهم وآثارهم وسِيَرهم أمرًا مطلقا من غير التزام قرينة ، فلو جوّزنا عليهم الصغائر لم يمكن الاقتداء بهم ؛ إذ ليس كل فعل من أفعالهم يتميّز مقصده من القُرْبة والإباحة أو الحَظْر أو المعصية ، ولا يصحّ أن يؤمر المرء بآمتثال أمرٍ لعلّه معصية ، لا سيّمـا على من يرى تقديم الفعل على القول إذا تعارضا من الأصوليين . قال

(١) هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم أبو بكر الباقلانى .

(٢) هو إبراهيم بن محمـد بن إبراهيم الأستاذ أبو إسحاق الأسفراينى . وفى الأصول : « عند الأستاذ أبى بكر » وهو تحريف . (راجع الكلام فى عصمة الأنبياء فى شرح المواقف) .

Marfat.com

الأستاذ أبو إسحاق الأسفرايني : وآختلفوا في الصغائر ؛ والذى عليه الأكثر أن ذلك غير جائز عليهم، وصار بعضهم إلى تجويزها، ولا أصل لهذه المقالة . وقال بعض المتأخرين ممن ذهب إلى القول الأوّل : الذى ينبغى أن يقال إن الله تعالى قد أخبر بوقوع ذنوب من بعضهم ونَسَبها إليهم وعاتبهم عليها، وأخبروا بهــا عن نفوسهم وتنصّلوا منها وأشفقوا منها وتابوا ؛ وكل ذلك وَرَد في مواضع كثيرة لا يقبل التأويل جملتها و إن قَبِل ذلك آحادها ؛ وكل ذلك ممــا لا يُزْرِى بمناصبهم، و إنمـا تلك الأمور التى وقعت منهم على جهة النُّدور وعلى جهـة الخطأ والنسيان، أو تأويل دعا إلى ذلك فهى بالنسبة إلى غيرهم حسنات وفى حقهم سيئات ؛ [بالنسبة] إلى مناصبهم وعُلو أقدارهم ؛ إذ قـد يؤاخذ الوزير بمـا يثاب عليـه السائس ، فأشفقوا من ذلك فى موقف القيامة مع علمهم بالأمن والأمان والسلامة . قال : وهذا هو الحق . ولقد أحسن الجُنَيد حيث قال : حسنات الأبرار سيئات المقربين . فهم — صلوات الله وسلامه عليهم — و إن كان قد شهدت النصوص بوقوع ذنوب منهم فلم يُخِلّ ذلك بمناصبهم ولا قَدَح فى رُتَبهم ، بل قد تلافاهم وآجتباهم وهداهم ومدحهم وزكّاهم وآختارهم وآصطفاهم ؛ صلوات الله عليهم وسـلامه .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ الظُّلم أصـله وضع الشىء فى غير موضعه . والأرض المظلومة : التى لم تُحفر قطُّ ثم حُفرت . قال النابغة .

وقفتُ فيها أُصَيْلالًا أسائلها　*　عَيَّتْ جوابًا وما بالرَّبع من أحدِ
إلا الأَوَارِىَّ لَأْيًا ما أُبَيِّنُهــا (١)　*　والنُّؤْىَ كالحَوْض بالمظلومة الجَلَدِ

ويُسَمَّى ذلك التراب الظَّلِيم . قال الشاعر :

فأصـبحَ فى غبراءَ بعــد إشاحةٍ (٢)　*　على العيش مردودٍ عليها ظَليمُها

(١) الأوارى (واحدها آرى) : حبل تشدّ به الدابة فى محبسها . واللأى : المشقة والجهد . والنؤى : حفرة حول البيت لئلا يصل إليه المـاء . والجلد (بالتحريك) : الأرض الصلبة . راجع خزانة الأدب فى إعرابه .

(٢) الإشاحة : الحذر والخوف لمن حاول أن يدفع الموت . قال صاحب اللسان : « يعنى حفرة القبر يردّ ترابها عليه بعد دفن الميت فيها » .

Marfat.com

وإذا نُحِر البعيرُ من غير داء به فقد ظُلِم؛ ومنه : • ... ظَلّامون لِلجُزُرِ[١] •

ويقال : سقانا ظَلِيمة طيّبة ، إذا سقاهم اللبن قبل إدراكه . وقد ظَلَم وَطْبَه[٢] ، إذا سَقَى منه قبل أن يَرُوب ويُخْرِج زُبْده . واللبنُ مظلوم وظَلِيم . قال :

وقائلةٍ ظلمتُ لكم سقائى • وهل يَخْفَى على العَكَدِ الظلِيمُ[٣]

ورجل ظَلِيم : شديد الظلم . والظلم : الشرك ؛ قال الله تعالى : « إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ[٤] » .

قوله تعالى : ﴿ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا ﴾ حُذفت النون من « كُلَا » لأنه أمر ، وحُذفت الهمزة لكثرة الاستعمال ، وحذفها شاذّ . قال سيبويه : من العرب من يقول أُؤْكل ، فيُتِمّ . يقال منه : أَكَلْت الطعام أَكْلًا ومأْكَلًا . والأَكْلة (بالفتح) : المرّة الواحدة حتى تشبع . والأُكْلة (بالضم) : اللُّقْمة ، تقول : أكلت أُكْلة واحدة ، أى لُقْمة ، وهى القُرْصة أيضا . وهذا الشىء أُكْلةٌ لك ، أى طُعْمةٌ لك . والأُكُل أيضا ما أُكِل . ويقال : فلان ذو أُكْل ، إذا كان ذا حظّ من الدنيا ورزق واسع . ﴿ رَغَدًا ﴾ نعتٌ لمصدر محذوف ، أى أَكْلًا رَغَدًا . قال ابن كَيْسان : ويجوز أن يكون مصدرا فى موضع الحال . وقال مجاهد : « رَغَدًا » أى لا حساب عليهم . والرَّغَد فى اللغة : الكثير الذى لا يُعَنِّيك ، ويقال : أرغد القوم ، إذا وقعوا فى خِصْب وسَعَة . وقد تقدّم هذا المعنى[٥] . و ﴿ حَيْثُ ﴾ مبنيّة على الضّم ؛ لأنها خالفت أخواتها الظروف فى أنها لا تضاف ، فأشبهت قبلُ وبعدُ إذا أفردتا فضُمّت . قال الكسائى : لغة قيس وكنانة الضّم ، ولغة تميم الفتح . قال الكسائى : وبنو أسد يخفضونها فى موضع الخفض ، وينصبونها فى موضع النصب ؛ قال الله تعالى : « سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ[٦] » وتُضمّ وتُفتح . ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ الهاء من « هـٰذِهِ » بدل من ياء الأصل ؛ لأن الأصل هذى . قال النحاس : ولا أعلم فى العربية هاء تأنيث مكسورا ما قبلها

---

(١) عجز بيت لابن مقبل ، وهو بتمامه :

عاد الأذلّة فى دار وكان بها • هُرْتُ الشَّقاشق ظلّامون للجزر

(٢) الوطب (بفتح فسكون) : الزق الذى يكون فيه السمن واللبن . (٣) ظلمت سقائى : سقيتهم إياه قبل أن يروب . والعكد (بضم العين وفتحها وفتح الكاف جمع العُكْدة والعَكَدة) : أصل اللسان . (٤) راجع جـ ١٤ ص ٦٢

(٥) راجع المسألة السادسة ص ٣٠٣ من هذا الجزء . (٦) آية ١٨٢ سورة الأعراف ، و ٤٤ سورة القلم .

Marfat.com

إلا هاء « هـذه » . ومن العرب من يقول : هاتا هند ، ومنهم من يقول : هاتى هنـد . وحكى سيبويه : هذه هند ؛ بإسكان الهاء . وحكى الكسائى عن العرب : ولا تقربا هذى الشجرة . وعن شِبْل بن عبّاد قال : كان آبن كَثير وآبن مُحَيْصِن لا يُثبتان الهاء فى « هذه » فى جميع القرآن . وقراءة الجماعة « رَغَدًا » بفتح الغين . وروى عن آبن وثّاب والنَّخَعِيّ أنهما سكّنا الغين . وحكى سلمة عن الفَرّاء قال يقال : هذه فعلت وهذى فعلت ، بإثبات ياء بعد الذال . وهـذِ فعلت ، بكسر الذال من غير إلحـاق ياء ولا هاء . وهاتا فعلت . قال هشام ويقال : تافعلت . وأنشد :

خَلِيلَيَّ لَوْلَا ساكنُ الدّارِ لم أُقِمْ　＊　بِتَا الدّارِ إلّا عابرَ آبن سـبيل

قال آبن الأنبارى : وتا بإسقاط ها بمنزله ذى بإسقاط ها من هذى ،و بمنزلة ذه بإسقاط ها من هذه . وقد قال الفرّاء: مَن قال هذِ قامتْ لا يُسقط ها ؛لأن الآسم لا يكون على ذال واحدة .

﴿فَتَكُونَا﴾ عطف على «تقربا» فلذلك حُذفت النون . وزعم الجَرْمِيّ[(١)] أن الفاء هى الناصبة ؛ وكلاهما جائز .

قوله تعـالى : فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ فيه عشر مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ قرأ الجماعة « فَأَزَلَّهما » بغير ألف ، من الزَّلة وهى الخطيئة ؛ أى آستزلّها وأوقعهما فيها . وقرأ حمزة « فأزالهما » بألف ، من التَّنحية ؛ أى نحّاهما . يقال: أزلته فزال . قال آبن كَيْسان : فأزالهما من الزوال؛ أى صرفهما عما كانا عليه من الطاعة إلى المعصية .

قلت : وعلى هذا تكون القراءتان بمعنًى ، إلّا أن قراءة الجماعة أمكن فى المعنى . يقال منه : أزللته فزَلّ . ودلّ على هذا قوله تعالى : « إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا[(٢)] » ، وقوله :

(١) الجرمى (بفتح الجيم وسكون الراء) : صالح بن إسحاق أبو عمر مولى جرم ؛ لغوى مشهور . (عن بغية الوعاة) .
(٢) راجع جـ ٤ ص ٢٤٣

Marfat.com

« فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ » والوسوسة إنما هى إدخالها فى الزلل بالمعصية ، وليس للشيطان قدرة على زوال أحد من مكان إلى مكان ، إنما قدرته [على] إدخاله فى الزلل ، فيكون ذلك سببا إلى زواله من مكان إلى مكان بذنبه . وقد قيل : إن معنى أزلهما من زلّ عن المكان إذا تنحّى ، فيكون فى المعنى كقراءة حمزة من الزوال . قال آمرؤ القيس :

يُزِلّ الغـــلامُ الخِفَّ عن صَهَوَاتِه * ويُلْوِى بأثواب العَنِيفِ المثقَّــلِ (١)

وقال أيضا :

كُمَيْتٍ يُزِلّ اللِّبْدُ عن حال مَتْنِه * كما زلّت الصَّـــفْواء بالمتـــنزَّلِ (٢)

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ إذا جعل أزال من زال عن المكان فقوله : « فأخرجهما » تأكيد وبيان للزوال ، إذ قد يمكن أن يزولا عن مكان كانا فيه إلى مكان آخر من الجنة ، وليس كذلك ، وإنما كان إخراجهما من الجنة إلى الأرض ؛ لأنهما خلقا منها ، وليكون آدم خليفة فى الأرض . ولم يقصد إبليس — لعنه الله — إخراجه منها وإنما قصد إسقاطه من مرتبته وإبعاده كما أُبعد هو ، فلم يبلغ مقصده ولا أدرك مراده ، بل آزداد سُخنة (٣) عين وغيظ نفس وخيبة ظنّ . قال الله جلّ ثناؤه : « ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى » (٤) فصار عليه السلام خليفة الله فى أرضه بعد أن كان جارًا له فى داره ؛ فكم بين الخليفة والجار ! صلّى الله عليه وسلم . ونسب ذلك إلى إبليس ؛ لأنه كان بسببه وإغوائه . ولا خلاف بين أهل التأويل وغيرهم أن إبليس كان متولّى إغواء آدم ؛ وآختلف فى الكيفية ، فقال آبن مسعود وآبن عباس وجمهور العلماء أغواهما مشافهة ؛ ودليل ذلك قوله تعالى : « وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ » والمقاسمة ظاهرها المشافهة . وقال بعضهم ، وذكره عبد الرزاق عن وهب بن مُنَبِّه ، : دخل الجنة فى فم الحيّة وهى ذات أربع كالبُخْتِيَّة من أحسن دابة خلقها الله تعالى بعد أن عرض

(١) الخف (بالكسر) : الخفيف . والصهوة : موضع اللبد من ظهر الفرس . ويلوى بها : يذهب بها من شدّة عدوه . والعنيف : الذى لا يحسن الركوب ، وليس له رفق بركوب الخيل . والمثقل : الثقيل .

(٢) الكميت : لون ليس بأشقر ولا أدهم . والحال : موضع اللبد من ظهر الفرس . والصفواء (جمع صفاة) : الصخرة الملساء . والمتنزل : الذى ينزل عليها فيزلق عنها .

(٣) سخنت عينه : نقيض قرّت .

(٤) راجع جـ ١١ ص ٢٥٧

نفسه على كثير من الحيوان فلم يُدخله إلا الحيّة؛ فلما دخلت به الجنة خرج من جَوْفها إبليس فأخذ من الشجرة التى نهى الله آدم وزوجه عنها فجاء بها إلى حوّاء فقال : آنظرى إلى هذه الشجرة، ما أطيبَ ريحَها وأطيبَ طعمَها وأحسن لونَها ! فلم يزل يُغويها حتى أخذتها حوّاء فأكلتها . ثم أغوى آدم، وقالت له حوّاء : كُلْ فإنى قد أكلتُ فلم يضرّنى؛ فأكل منها فبدت لهما سوءاتهما وحصلا فى حكم الذنب؛ فدخل آدم فى جوف الشجرة، فناداه ربه : أين أنت ؟ فقال : أنا هذا يارب؛ قال : ألا تخرج ؟ قال أستحى منك يارب؛ قال : آهبط إلى الأرض التى خُلقت منها . ولُعنت الحيّة ورُدّت قوائمها فى جوفها وجعلت العداوة بينها و بين بنى آدم؛ ولذلك أُمرنا بقتلها ، على ما يأتى بيانه . وقيل لحوّاء : كما أدْمَيْت الشجرة فكذلك يصيبك الدّم كل شهر وتحملين وتضعين كرها تشرفين به على الموت مرارا . زاد الطبرى والنقاش : وتكونى سَفِيهة وقد كنت حَلِيمة . وقالت طائفة : إن إبليس لم يدخل الجنة إلى آدم بعد ما أخرج منها وإنما أغوى بشيطانه وسلطانه ووسواسه التى أعطاه الله تعالى؛ كما قال صلى الله عليه وسلم : " إن الشيطان يجرى من آبن آدم مجرى الدم " . والله أعلم . وسيأتى فى الأعراف[(١)] أنه لما أكل بقى عُريانًا وطلب ما يستتر به فتباعدت عنه الأشجار وبكّتوه بالمعصية، فرحمته شجرة التّين، فأخذ من ورقه فآستتر به، فبُلِيَ بالعُرْى دون الشجر . والله أعلم . وقيل : إن الحكمة فى إخراج آدم من الجنة عمارة الدنيا .

الثالثــة — يُذكر أن الحيـة كانت خادم آدم عليه السلام فى الجنة فخانته بأن مكّنت عدوّ الله من نفسها وأظهرت العداوة له هناك ؛ فلما أهبطوا تأكّدت العداوة وجُعل رزقها التراب، وقيل لها : أنت عدوّ بنى آدم وهم أعداؤك وحيث لَقِيَك منهم أحدٌ شَدَخ رأسك . روى آبن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " خمسٌ يقتلهنّ المُحْرِم " فذكر الحية فيهن . وروى أن إبليس قال لها : أدخلينى الجنة وأنت فى ذمّتى ؛ فكان آبن عباس يقول : أخْفِرُوا[(٢)] ذِمّة إبليس . وروَت ساكنةُ بنتُ الجَعْد عن سَرّاء[(٣)] بنت نَبْهان الغَنَوِيّة قالت : سمعت

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١٨١ (٢) أى آنقضوا عهده وذمامه . (٣) فى التقريب : « بفتح أوّلها وتشديد الراء المهملة مع المدّ » . وفى أسد الغابة : « بفتح السين وإمالة الراء المشدّدة ، وآخره ياء مثل كنة » .

Marfat.com

رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " آقتلوا الحيّات صغيرَها وكبيرَها وأسودَها وأبيضَها فإن مَن قتلها كانت له فداء من النار ومَن قتلته كان شهيدا " . قال علماؤنا : وإنما كانت له فداء من النار لمشاركتها إبليس وإعانته على ضرر آدم وولده ؛ فلذلك كان مَن قتل حيّة فكأنما قتل كافرا . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يجتمع كافرٌ وقاتلُه في النار أبدًا " . أخرجه مسلم وغيره .

الرابعـــة — روى آبن جُريج عن عمرو بن دينار عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود[(1)] قال : كنا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم بمِنًى فمرّت حيّة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "آقتلوها " فسبقتنا إلى جُحْر فدخلته ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هاتوا بسعفة ونار فاضرموها عليه نارا " . قال علماؤنا : وهذا الحديث يخصّ نهيه عليه السلام عن المُثْلَة وعن أن يعذّب أحد بعذاب الله تعالى ؛ قالوا : فلم يبق[(2)] لهذا العدوّ حُرْمة حيث فاته حتى أوصل إليه الهلاك من حيث قدر .

فإن قيـل : قد رُوي عن إبراهيم النَّخَعي أنه كره أن تُحرق العقرب بالنار ، وقال : هو مُثْلة . قيل له : يحتمل أن يكون لم يبلغه هذا الأثر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وعمل على الأثر الذي جاء : " لا تعذّبوا بعذاب الله " فكان على هذا سبيل العمل عنده . .

فإن قيل : فقد روى مسلم عن عبد الله بن مسعود قال : كنا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم في غار وقد أنزلت عليه : « وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا »فنحن نأخذها من فيه رَطْبة ، إذ خرجت علينا حيّة ، فقال : " آقتلوها " ؛ فآبتدرناها لنقتلها فسبقتنا ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " وقاها الله شرّكم كما وقاكم شرّها " . فلم يُضرم نارا ولا آحتال في قتلها . قيل له : يحتمل أن يكون لم يجد نارا فتركها ، أو لم يكن الجُحْر بهيئة ينتفع بالنار هناك مع ضرر الدخان وعدم وصوله إلى الحيوان . والله أعلم . وقوله : " وقاها الله شرّكم " أي قتلكم إيّاها " كما وقاكم شرّها " أي لَسْعَها .

---

(1) كذا في جميع نسخ الأصل . وفي غيرها من التفاسير : « عن عبد الله بن مسعود » . ويبدو أن الأصل : « عن أبي عبيدة عن أبيه عبد الله » الخ . (2) الضمير للحديث ؛ أي لم يبق هذا الحديث الخ .

Marfat.com

الخامســـة — الأمرُ بقتل الحَيّات من باب الإرشاد إلى دفع المضرة المَخُوفة من الحيات؛ فما كان منها متحقِّق الضرر وجبت المبادرة إلى قتله؛ لقوله : "اقتلوا الحيّات واقتلوا ذا الطُّفْيَتَين(١) والأبْتَر فإنهما يَخْطَفان البصر ويُسقطان الحَبَل". فخصّهما بالذكر مع أنهما دخلا في العموم ونبّه على ذلك بسبب عظم ضررهما. وما لم يتحقق ضرره فما كان منها في غير البيوت قُتل أيضا لظاهر الأمر العام، ولأن نوع الحيّات غالبه الضرر، فيستصحب ذلك فيه، ولأنه كله مروّع بصورته وبما في النفوس من النّفرة عنه؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : "إن الله يحب الشّجاعة ولو على قتل حيّة". فشجّع على قتلها. وقال فيما خرّجه أبو داود من حديث عبد الله بن مسعود مرفوعا : "اقتلوا الحيات [كلّهنّ(٢)] فمن خاف ثأرهنّ فليس منى". والله أعلم.

السادســـة — ما كان من الحيّات في البيوت فلا يُقتل حتى يُؤذن ثلاثة أيام؛ لقوله عليه السلام : "إن بالمدينة جِنًّا قد أسلموا فإذا رأيتم منهم شيئا فآذنوه ثلاثة أيام". وقد حمل بعض العلماء هذا الحديث على المدينة وحدها لإسلام الجنّ بها؛ قالوا : ولا نعلم هل أسلم مِن جنّ غير المدينة أحدٌ أولا؛ قاله ابن نافع. وقال مالك : نهى عن قتل جِنّان(٣) البيوت في جميع البلاد. وهو الصحيح؛ لأن الله عز وجل قال : « وإِذْ صَرَفْنا إليْكَ نَفَرًا مِنَ الجِنِّ يَسْتَمِعُونَ القُرْآنَ(٤) » الآية. وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "أتاني داعى الجنّ فذهبت معهم فقرأت عليهم القرآن" وفيه : وسألوه الزاد وكانوا من جِنّ الجزيرة؛ الحديث. وسيأتي بكماله في سورة « الجن(٥) » إن شاء الله تعالى. وإذا ثبت هذا فلا يقتل شيء منها حتى يُحرَّج(٦) عليه ويُنذر؛ على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

---

(١) ذو الطفيتين : حية لها خطان أسودان كالطفيتين أي الخوصتين. (٢) الزيادة عن سنن أبى داود.
(٣) جنان (بتشديد النون الأولى، جمع جان) : ضرب من الحيات الدقيق الخفيف يضرب إلى الصفرة ليس بسام، وهو كثير في بيوت الناس. (٤) راجع جـ ١٦ ص ٢١٠ (٥) راجع جـ ١٩ ص ١ فما بعد.
(٦) في هامش نسخة من الأصل : « التحريج هو أن يقول لها : أنت في حرج — أى في ضيق — إن عدت إلينا فلا تلومينا أن نضيق عليك بالتتبع والطرد والقتل ». وكذلك هو في نهاية ابن الأثير واللسان.

Marfat.com

السابعـــة — روى الأئمة عن أبى السائب مَوْلى هشام بن زُهرة أنه دخل على أبى سعيد الخُدْرى فى بيته، قال : فوجدته يصلّى، فجلست أنتظره حتى يقضى صلاته، فسمعت تحريكا فى عَراجين ناحية البيت، فالتفتّ فإذا حيّة، فوثبتُ لأقتلها؛ فأشار إلىّ أن اجلس فجلست؛ فلما انصرف أشار إلى بيت فى الدار فقال : أترى هذا البيت ؟ فقلت نعم؛ فقال : كان فيه فتًى منا حديثُ عهد بعُرْس، قال : فخرجنا مع رسول الله صلى الله عليـه وسلم إلى الخَنْدَق؛ فكان ذلك الفتى يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنصاف النهار فيرجع إلى أهله؛ فاستأذنه يوما، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "خُذ عليك سلاحك فإنى أخشى عليك قُرَيْظة". فأخذ الرجل سـلاحه ثم رجع؛ فإذا امرأتُه بين البابين قائمـة فأهْوَى إليهـا بالرُّمح ليطعُنَها به وأصابته غَيْرة؛ فقالت له : اكفف عليك رمحك، وادخل البيت حتى تنظر ما الذى أخرجنى ! فدخل فإذا بحيّة عظيمة منطوية على الفراش، فأهوى إليها بالرمح فانتظمها به، ثم خرج فركزه فى الدار فاضطربت عليه، فمـا يُدْرَى أيُّهما كان أسرعَ موتاً، الحيّةُ أم الفتى ! قال : فجئنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسـلم فذكرنا ذلك له، وقلنا : ادع الله يحييه [لنـا][(1)]؛ فقال : "استغفروا لأخيـكم[(2)] — ثم قال : — إن بالمدينة جِنًّا قد أسلموا فإذا رأيتم منهم شيئا فآذنوه ثلاثة أيام فإن بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه فإنمـا هو شيطان". وفى طريق أخرى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن لهذه البيوت عوامر[(3)] فإذا رأيتم شيئا منها فحرِّجوا عليها ثلاثا فإن ذهب وإلا فاقتلوه فإنه كافر — وقال لهم : — اذهبوا فادفنوا صاحبكم". قال علماؤنا رحمة الله عليهم : لا يُفهم من هذا الحديث أن هذا الجان الذى قتله هذا الفتى كان مسلمًا وأن الجن قتلته به قصاصًا؛ لأنه لو سُلِّم أن القصاص مشروع بيننا وبين الجن لكان إنما يكون فى العمد المحض؛ وهذا الفتى لم يقصد ولم يتعمّد قتـل نفس مسلمة، إذ لم يكن عنده علم من ذلك، وإنمـا قصد إلى قتل ما سُوِّغ قتل نوعه شرعًا؛ فهذا قتـل خطأ ولا قصاص فيه . فالأولى

---

(١) الزيادة عن صحيح مسلم . (٢) فى صحيح مسلم : «لصاحبكم» .

(٣) العوامر : الحيات التى تكون فى البيوت، واحدها عامر وعامرة .

أن يقال : إن كفار الجن أو فسقتهم قتلوا الفتى بصاحبهم عَدْوًا وٱنتقاما . وقد قتلت سعد ٱبن عُبَادة رضى الله عنه ؛ وذلك أنه وُجد ميتًا فى مغتسله وقد ٱخضرّ جسده ، ولم يشعروا بموته حتى سمعوا قائلا يقول ولا يرون أحدا :

قـد قتلنا سـيّد الخزْ * رَج سعدَ بن عُباده

ورميناه بسهميـ * ـن فلم نُخْط فؤاده

و إنما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إن بالمدينة جنًّا قد أسلموا" ليبيّن طريقًا يحصل به التحرّز من قتل المسلم منهم و يتسلط به على قتل الكافر منهم . رُوِى من وجوه أن عائشةَ زوج النبيّ صلى الله عليه وسلم قتلت جانًّا فأُرِيتْ فى المنام أن قائلا يقول لها : لقد قتلت مسلما ، فقالت : لو كان مسلما لم يدخل على أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ قال : ما دخل عليك إلا وعليك ثيابك . فأصبحت فأمرت بٱثنى عشر ألف درهم فجعلت فى سبيل الله . وفى رواية : ما دخل عليك إلا وأنت مستترة؛ فتصدّقت وأعتقت رِقاباً . وقال الربيع بن بدر : الجان من الحيّات التى نَهى النبيّ صلى الله عليه وسلم عن قتلها هى التى تمشى ولا تلتوى ؛ وعن علقمة نحوه .

الثامنــة — فى صفة الإنذار ؛ قال مالك : أَحَبُّ إلىّ أن يُنذَروا ثلاثة أيام . وقاله عيسى بن دينار، وإن ظهر فى اليوم مرارا . ولا يُقتصر على إنذاره ثلاث مرار فى يوم واحد حتى يكون فى ثلاثة أيام . وقيل : يكفى ثلاث مرار؛ لقوله عليه السلام : "فليؤذنه ثلاثا"، وقوله : "حرِّجوا عليه ثلاثا" ولأن ثلاثا للعدد المؤنث؛ فظهر أن المراد ثلاث مرات . وقول مالك أولى؛ لقوله عليه السلام : "ثلاثة أيام". وهو نص صحيح مقيِّد لتلك المطلقات ، ويحمل ثلاثا على إرادة ليالى الأيام الثلاث ، فغلب الليلة على عادة العرب فى باب التاريخ فإنها تغلب فيها التأنيث . قال مالك : ويكفى فى الإنذار أن يقول : أحرّج عليك بالله واليوم الآخر ألا تبدوا لنا ولا تؤذونا . وذكر ثابت البُنَانى عن عبد الرحمن بن أبى لَيْلَى أنه ذكر عنده حيات البيوت فقال : إذا رأيتم منها شيئا فى مساكنكم فقولوا : أنشدكم بالعهد الذى أخذ عليكم نوح

Marfat.com

عليه السلام ، وأنشدكم بالعهد الذى أخذ عليكم سليمان عليه السلام ؛ فإذا رأيتم منهن شيئا بعدُ فاقتـــلوه .

قلت : وهذا يدلّ بظاهره أنه يكفى فى الإذن مرّة واحدة ؛ والحديث يردّه . والله أعلم . وقد حكى آبن حبيب عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه يقول : " أنشدكنّ بالعهد الذى أخذ عليكنّ سليمان — عليه السلام — ألّا تؤذينا وألّا تظهرن علينا .

التاسعـــة — روى جُبير عن نُفير عن أبى ثعلبة الخُشَنِيّ — وآسمه جرثوم — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الجنّ على ثلاثة أثلاث فثلثٌ لهم أجنحة يطيرون فى الهواء وثلث حيات وكلاب وثلث يَحُلّون ويَظْعَنون ". وروى أبو الدَّرداء — وآسمه عُوَيْمر — قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : " خلق الجنّ ثلاثة أثلاث فثلث كلاب وحيّات وخَشاش الأرض وثلث ريح هفّافة وثلث كبنى آدم لهم الثواب وعليهم العقاب وخلق الله الإنس ثلاثة أثلاث فثلث لهم قلوب لا يفقهون بها وأعين لا يُبصرون بها وآذان لا يسمعون بها إن هم إلا كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلاً وثلث أجسادهم كأجساد بنى آدم وقلوبهم قلوب الشياطين وثلث فى ظلّ الله يوم لا ظِلّ إلا ظلّه " .

العـاشرة — ما كان من الحيوان أصله الإذاية فإنه يُقتل آبتداء ، لأجل إذايته من غير خلاف ؛ كالحيّة والعَقْرب والفار والوَزَغ ، وشبهه . وقد قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : " خمسٌ فواسقُ يُقتلن فى الحِلّ والحَرَم ... " . وذكر الحديث .

فالحيّة أبْدت جوهرها الخبيث حيث خانت آدم بأن أدخلت إبليس الجنة بين فَكّيها ؛ ولو كانت تبرزه ما تركها رضوان تدخل به . وقال لها إبليس أنت فى ذمتى ؛ فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتلها وقال : " آقتلوها ولو كنتم فى الصلاة " يعنى الحية والعقرب .

والوَزَغة (١) نفخت على نار إبراهيم عليه السلام من بين سائر الدواب فلُعنت . وهذا من نوع ما يُرْوَى فى الحية . ورُوى عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنه قال : " مَن قتل وَزَغة فكأنما

(١) الوزغة (بالتحريك) : هى التى يقال لها سام أبرص .

Marfat.com

قتل كافرا". وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : "مَن قَتل وَزَغة فى أوّل ضربة كُتبت له مائةُ حسنة وفى الثانية دون ذلك وفى الثالثة دون ذلك" وفى راوية أنه قال : "فى أوّل ضربة سبعون حسنة" .

والفأرة أبدت جوهرها بأن عمدت إلى حبال سفينة نوح عليه السلام فقطعتها . وروى عبد الرحمن بن أبى نُعْم عن أبى سعيد الخُدْرِىّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "يَقتل المُحْرِمُ الحيَّةَ والعقرب والحدأة والسَّبُع العادى والكلب العقور والفُوَيْسقة". واستيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أخذت فَتِيلة لتحرق البيت فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتلها .

والغراب أبدى جوهره حيث بعثه نبيّ الله نوح عليه السلام من السفينة ليأتيه بخبر الأرض فترك أمره وأقبل على جِيفة . هذا كلّه فى معنى الحيّة؛ فلذلك ذكرناه . وسيأتى لهذا الباب مزيد بيان فى التعليل فى « المائدة »(١) وغيرها إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا﴾ حُذفت الألف من « ٱهبطوا » فى اللفظ لأنها ألف وصل . وحُذفت الألف من « قلنا » فى اللفظ لسكونها وسكون الهاء بعدها . وروى محمد بن مصَفَّى عن أبى حَيْوَةَ ضمّ الباء فى « ٱهبطوا » ، وهى لغة يقوّيها أنه غير متعدّ والأكثر فى غير المتعدّى أن يأتى على يَفْعُل . والخطاب لآدم وحواء والحية والشيطان؛ فى قول ٱبن عباس . وقال الحسن : آدم وحواء والوسوسة . وقال مجاهد والحسن أيضا : بنو آدم وبنو إبليس . والهبوط : النزول من فوق إلى أسفل؛ فأهبط آدم بسَرَنْدِيبَ فى الهند بجبل يقال له « بوذ »(٢) ومعه ريح الجنة فعلِق بشجرها وأوديتها فٱمتلأ ما هناك طِيبا؛ فمن ثَمّ يؤتى بالطيب من ريح آدم عليه السلام . وكان السحاب يمسح رأسه فأصلع، فأورث ولده الصلع . وفى البخارىّ عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "خلق الله آدم

(١) راجع جـ ٦ ص ٣٠٣   (٢) فى اللسان والقاموس ومعجم البلدان ومروج الذهب : « راهون » .

Marfat.com

وطوله ستون ذراعا " الحديث . وأخرجه مسلم وسيأتى . واهبطت حوّاء بجُدّة وإبليس بالأُبُلّة[(١)]، والحيّة بيَيْسان[(٢)]، وقيل : بسِجِسْتان[(٣)] . وسجستان أكثر بلاد الله حيات، ولولا العِرْبِدّ[(٤)] الذى يأكلها و يفنى كثيرا منها لأُخليت سجستان من أجل الحيات؛ ذكره أبو الحسن المسعودى .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ «بعضكم» مبتدأ ، «عدوّ» خبره، والجملة فى موضع نصب على الحال؛ والتقدير وهذه حالكم . وحذفت الواو من و «بعضكم» لأن فى الكلام عائدا؛ كما يقال : رأيتك السماء تمطر عليك . والعدوّ : خلاف الصديق؛ وهو من عدا إذا ظلم . وذئب عَدَوان : يَعْدُو على الناس . والعُدْوان : الظلم الصُّراح . وقيل : هو مأخـوذ من المجاوزة؛ من قولك : لا يَعْدُوك هـذا الأمر؛ أى لا يتجاوزك . وعداه إذا جاوزه؛ فسمّى عدوّا لمجاوزة الحـد فى مكروه صاحبه؛ ومنه العَـدْوُ بالقَدَم لمجاوزة الشىء ، والمعنيان متقاربان؛ فإن من ظلم فقد تجاوز .

قلت : وقد حمل بعض العلماء قوله تعالى : « بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ » على الإنسان نفسه، وفيه بُعْدٌ و إن كان صحيحا معنًى . يدلّ عليه قوله عليـه السلام : " إن العبد إذا أصبح تقول جوارحه للسانه ٱتق الله فينا فإنك إذا ٱستقمت ٱستقمنا و إن ٱعوججت ٱعوججنا ". فإن قيل : كيف قال « عدوّ » ولم يقـل أعداء؛ ففيه جوابان أحدهما : أن بَعْضًا وكُلًّا يُخبر عنهما بالواحد على اللفظ وعلى المعنى، وذلك فى القرآن؛ قال الله تعالى : « وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فَرْدًا[(٥)] » على اللفظ، وقال تعـالى : « وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ[(٦)] » على المعنى . والجواب الآخر : أن عدوّا يفرد فى موضع الجمع؛ قال الله عز وجل : « وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا[(٧)] » بمعنى أعداء ، وقال تعالى : « يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَـدُوُّ[(٨)] » . وقال ٱبن فارس : العدوّ ٱسم جامع للواحد والٱثنين والثلاثة والتأنيث، وقد يجمع .

---

(١) الأبلّة (بضم أوله وثانيه وتشديد اللام وفتحها) : البلد المعروف قرب البصرة من جانبها البحرى .

(٢) بيسان : بلدة بمرو وبالشام وبموضع باليمامة . (٣) سجستان (بكسر أوله وثانيه وقد يفتح أوله) : ٱسم مدينة من مدن خراسان . (عن شرح القاموس) . (٤) العربدّ (بكسر العين وسكون الراء وفتح الباء وكسرها وتشديد الدال) : حية تنفخ ولا تؤذى . (٥) راجع جـ ١١ ص ١٦٠ (٦) راجع جـ ١٣ ص ٢٤١

(٧) راجع جـ ١٠ ص ٤٢٠ (٨) راجع جـ ١٨ ص ١٢٥

الثالثـــة ــ لم يكن إخراج الله تعالى آدم من الجنة وإهباطه منها عقوبة له ؛ لأنه أهبطه بعد أن تاب عليه وقَبِل توبته، وإنما أهبطه إمّا تأديباً وإمّا تغليظًا للمِحْنة. والصحيح فى إهباطه وسكناه فى الأرض ما قــد ظهر من الحكمة الأزليّة فى ذلك ، وهى نشر نَسـله فيها ليكلّفهم ويمتحنهم ، ويرتب على ذلك ثوابهم وعقابهم الأُخْرَوِىَّ؛ إذ الجنة والنار ليستا بدار تكليف ؛ فكانت تلك الأكلة سبب إهباطه من الجنة . ولله أن يفعل مايشاء . وقد قال : « إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً » . وهــذه منقبة عظيمة وفضيلة كريمة شريفة ؛ وقــد تقدّمت الإشارة إليها مع أنه خُلق من الأرض . وإنمـا قلنا إنمـا أهبطه بعد أن تاب عليـه لقوله ثانية : « قُلْنَا ٱهْبِطُوا » (١) وسيأتى .

الرابعـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ وَلَكُمْ فِى الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ ﴾ ٱبتـداء وخبر ؛ أى موضـع ٱستقرار . قاله أبو العالية وٱبن زيد . وقال السُّدِّىّ : « مُسْتَقَرّ » يعنى القبور .

قلت : وقول الله تعـالى : « جَعلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَاراً » (٢) يحتمل المعنيين . والله أعلم .

الخامســـة ــ قوله تعـالى : ﴿ وَمَتَاعٌ ﴾ المتاع مايُستمتع به من أكل ولُبْس وحيـاة وحديث وأُنس وغير ذلك ؛ ومنه سُمِّيت مُتعة النكاح لأنها يُتَمَتَّع بها . وأنشد سليمان بن عبد الملك حين وقف على قبر ٱبنه أيوب إثر دفنه :

وقفتُ على قـبرٍ غريبٍ بقَفْرةٍ * متاعٌ قليـلٌ من حبيبٍ مفارقِ

السادســـة ــ قوله تعـالى : ﴿ إِلَى حِينٍ ﴾ اختلف المتأولون فى الحين على أقوال ؛ فقالت فرقة : إلى الموت ؛ وهــذا قول من يقول : المستقَرّ هو المقام فى الدنيا . وقيل : إلى قيام الساعة ؛ وهذا قول من يقول : المستقَرّ هو القبور . وقال الربيع : « إلى حين » إلى أجل . والحين : الوقت البعيد ؛ فحينئذ تبعيدٌ من قولك الآن . قال خويلد :

كابِى الرَّماد (٣) عظيمُ القِدْرِ جَفْنَتُه * حِينَ الشتاءِ كحوْض المَنْهَلِ اللَّقِفِ

لَقِف الحوض لَقَفًا ؛ أى تهوّر من أسفله وٱتّسع . وربمـا أدخلوا عليه التاء . قال أبو وَجْزَة :

العاطفـون تَحِين ما مِن عاطفٍ * والمُطْعِمون زمانَ أيْنَ المُطْعِمُ

(١) ص ٣٢٧ (٢) راجع جـ ١٥ ص ٣٢٨ (٣) كابى الرماد : أى عظيم الرماد .

Marfat.com

والحين أيضـا : المدّة ؛ ومنه قوله تعـالى : « هَـلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ »(١) . والحين : الساعة؛ قال الله تعالى : « أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى العَذَابَ »(٢) . قال ابن عَرَفة : الحين القطعة من الدهر كالساعة فما فوقها . وقوله : «فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ»(٣) أى حتى تفنى آجالهم . وقوله تعالى : « تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ »(٤) أى كل سنة؛ وقيل : بل كل ستة أشهر؛ وقيل : بل غُدْوَةً وعَشِيًّا . قال الأزهرى : الحين ٱسم كالوقت يصلح لجميع الأزمان كلها طالت أو قصرت . والمعنى أنه ينتفع بها فى كل وقت ولا ينقطع نفعها البَتَّةَ . قال : والحين يوم القيامة . والحين : الغُدْوَة والعَشِيَّة؛ قال الله تعـالى : « فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ »(٥) . ويقال : عاملته محايَنَةً؛ من الحين . وأحينت بالمكان : إذا أقمت به حِينًا . وحان حينُ كذا أى قرب . قالت بُثَيْنَةُ :

وإنّ سُلُوِّى عن جميلٍ لساعةٌ * من الدهر ماحانت ولاحان حِينُهَا

السابعـــة — لمـا ٱختلف أهل اللسان فى الحين ٱختلف فيـه أيضا علماؤنا وغيرهم ؛ فقال الفَـرّاء : الحين حينان : حين لا يوقف على حدّه، والحين الذى ذكر الله جل ثناؤه : « تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا »(٥) ستة أشهر. قال ٱبن العربى : الحين المجهول لا يتعلّق به حُكم، والحين المعلوم هو الذى تتعلق به الأحكام ويرتبط به التكليف؛ وأكثر المعلوم سنة . ومالك يرى فى الأحكام والأيمـان أعمّ الأسماء والأزمنة . والشافعى يرى الأقل . وأبو حنيفة توسط فقال : ستة أشهر . ولا معنى لقوله ؛ لأن المقدّرات عنده لا تثبت قياسا، وليس فيـه نص عن صاحب الشريعة، وإنمـا المعوّل على المعنى بعـد معرفة مقتضى اللفظ لغةً . فمن نَذَر أن يصلّى حِينًا فيُحمل على ركعة عنـد الشافعى ؛ لأنه أقل النافلة ، قياساً على ركعة الوتر. وقال مالك وأصحابه : أقل النافلة ركعتان؛ فيتقدّر الزمان بقدر الفعل . وذكر ٱبن خُوَيْزِ مَنْداد فى أحكامه : أن من حلف ألّا يكلم فلانا حِينًا أو لا يفعل كذا حينًا، أن الحين سنة . قال : وٱتفقوا فى الأحكام أن من حلف ألّا يفعل كذا حينًا أو لا يكلّم فلانا حينًا ، أن الزيادة على سنة لم تدخل فى يمينه .

(١) راجع جـ ١٩ ص ١١٦ (٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٧٢ (٣) راجع جـ ١٢ ص ١٣٠
(٤) راجع جـ ٩ ص ٣٦٠ (٥) راجع جـ ١٤ ص ١٤

Marfat.com

قلت : هذا الاتفاق إنمـا هو فى المذهب . قال مالك رحمه الله : مَنْ حلف ألا يفعل شيئا إلى حِينٍ أو زمان أو دهر، فذلك كلّه سنة . وقال عنه ابن وهب : إنه شك فى الدهر أن يكون سنة . وحكى ابن المنذر عن يعقوب وابن الحسن : أن الدهر ستة أشهر . وعن ابن عبـاس وأصحاب الرأى وعكرمة وسعيد بن جُبير وعامر الشَّعْبيّ وعَبِيـدة فى قوله تعالى . « تُؤْتِى أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها » أنه ستة أشهر . وقال الأوزاعى وأبو عبيـد : الحين ستة أشهر . وليس عند الشافعى فى الحين وقت معلوم، ولا للحين غاية؛ قد يكون الحين عنده مدّة الدنيا . وقال: لا نُحَنّثه أبدًا، والوَرَع أن يقضيه قبل انقضاء يوم . وقال أبو ثَور وغيره: الحين والزمان على ما تحتمله اللغة، يقال: قد جئت من حين، ولعلّه لم يجئ من نصف يوم . قال الكِيَا الطبرى الشافعى : وبالجملة، الحين له مصارف، ولم ير الشافعيّ تعيين محمل من هذه المحامل ؛ لأنه مجمل لم يوضع فى اللغـة لمعنًى معيّن . وقال بعض العلمـاء فى قوله تعالى : «إلى حِينٍ» فائدة بشارة إلى آدم عليه السلام ليعلم أنه غير باق فيها ومنتقل إلى الجنة التى وعد بالرجوع إليها ؛ وهى لغير آدم دالة على المعاد فحسب ؛ والله أعلم .

قوله تعـالى : فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (٣٧)

قوله تعالى : ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾ فيه ثمـان مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾ تلقّى قيـل معناه : فَهِم وفَطِن . وقيل : قَبِل وأخذ، وكان عليه السلام يتلقّى الوَحْى؛ أى يستقبله ويأخذه ويتلقّفه . تقول: خرجنا نتلقّى الحجيج ؛ أى نستقبلهم . وقيل : معنى تلقّى تلقّن . وهذا فى المعنى صحيح، ولكن لا يجوز أن يكون التلقّى مِن التلقّن فى الأصل ؛ لأن أحد الحرفين إنمـا يُقلب ياء إذا تجانسا، مثل تظنّى مِن تظنّن، وتقصّى من تقصّص. ومثله تسرّيت من تسرّرت، وأمليت من أمللت وشـبه ذلك؛ ولهذا لا يقال : تَقَبّى مِن تقبّل ، ولا تلقّى مِن تلقّن؛ فاعلم . وحَكَى مكيّ أنه أُلهمها فانتفع بها . وقال الحسن : قبولُها تعلّمه لها وعمله بها .

Marfat.com

الثانيـــة — وآختلف أهل التأويل فى الكلمات ؛ فقال آبن عباس والحسن وسـعيد آبن جبير والضحاك ومجاهد هى قوله : « ربَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ »(1) . وعن مجاهد أيضا : سبحانك اللّهمّ لا إلٰه إلّا أنت ربّى ظلمتُ نفسى فاغفر لى إنك أنت الغفور الرحيم . وقالت طائفـة : رأى مكتوبًا على ساق العـرش « محمد رسول الله » فتشفّع بذلك ، فهى الكلمات ، وقالت طائفة : المراد بالكلمات البكاء والحياء والدعاء . وقيل : الندم والآستغفار والحزن . قال آبن عطية : وهذا يقتضى أن آدم عليه السلام لم يقل شيئا إلا الآستغفار المعهود . وسئل بعض السلف عما ينبغى أن يقوله المذنب ؛ فقال: يقول ما قاله أبواه : « رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا » الآية . وقال موسى : « رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَاغْفِرْ لِى »(2) . وقال يونس : « لا إِلٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ »(3) . وعن آبن عباس ووهب بن مُنَبِّه : أن الكلمات « سبحانك اللّهمّ وبحمدك ، لا إلٰه إلا أنتَ عملتُ سوءا وظلمتُ نفسى فآغفر لى إنك خير الغافرين ، سبحانك اللّهمّ وبحمدك ، لا إلٰه إلا أنتَ عملتُ سوءا وظلمتُ نفسى فتُبْ علىّ إنك أنت التوّاب الرحيم » . وقال محمـد بن كعب هى قوله : « لا إلٰهَ إلا أنت سبحانك وبحمدك ، عملتُ سوءا وظلمتُ نفسى فتُبْ علىّ إنك أنت التواب الرحيم . لا إلٰهَ إلا أنت سبحانك وبحمدك ، عملتُ سوءا وظلمتُ نفسى فآرحمنى إنك أنت الغفور الرحيم . لا إلٰهَ إلا أنت سـبحانك وبحمدك عملتُ سـوءا وظلمتُ نفسى فآرحمنى إنك أرحم الراحمين » . وقيل : الكلمات قوله حين عطس : « الحمـد لله » . والكلمات : جمع كلمة ؛ والكلمة تقع على القليل والكثير . وقد تقدّم(4) :

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ أى قَبِل توبته ، أو وفّقه للتّوبة . وكان ذلك فى يوم عاشـوراء فى يوم جمعة ؛ على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى . وتاب العبـد : رجع إلى طاعة ربه . وعبد توّاب : كثير الرجوع إلى الطاعة . وأصل التوبة الرجوع ؛ يقال : تاب وثاب وآب وأناب : رجع .

(1) راجع ج ٧ ص ١٨١ (2) راجع ج ١٣ ص ٢٦١ (3) راجع ج ١١ ص ٣٣٣
(4) راجع ص ٦٧ من هذا الجزء .

Marfat.com

الرابعــة — إن قيل : لم قال « عليه » ولم يقل عليهما ، وحوّاء مشاركة له في الذنب بإجماع، وقد قال: «وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ» و «قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا» . فالجواب : أن آدم عليه السلام لما خوطب في أوّل القصة بقوله : « ٱسْكُنْ» خصّه بالذكر في التلقّي ، فلذلك كملت القصة بذكره وحده . وأيضا فلأن المرأة حُرمة ومستورة فأراد الله السّتر لها ؛ ولذلك لم يذكرها في المعصية في قوله : « وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ » . وأيضا لما كانت المرأة تابعة للرجل في غالب الأمر لم تُذكر، كما لم يذكر فتى موسى مع موسى في قوله : « أَلَمْ أَقُلْ لَكَ» . وقيل : إنه دلّ بذكر التوبة عليه أنه تاب عليها إذ أمرهما سواء ؛ قاله الحسن . وقيل : إنه مثل قوله تعالى : « وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا ٱنْفَضُّوا إِلَيْهَا »[1] أي التجارة لأنها كانت مقصود القوم، فأعاد الضمير عليها ولم يقل إليهما، والمعنى متقارب . وقال الشاعر[2] :

رَماني بأمر كنتُ منه ووالدي * بريئًا ومن فوق الطَّوِيّ[3] رماني

وفي التنزيل : « وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ »[4] فحذف إيجازا واختصارا .

الخامســة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ وصف نفسه سبحانه وتعالى بأنه التوّاب، وتكرر في القرآن معرّفا ومنكرا واسما وفعلا . وقد يُطلق على العبد أيضا توّاب؛ قال الله تعالى : « إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ »[5] . قال ابن العربي : ولعلمائنا في وصف الربّ بأنه توّاب ثلاثة أقوال ؛ أحدها : أنه يجوز في حق الربّ سبحانه وتعالى فيُدْعَى به كما في الكتاب والسّنّة ولا يتأوّل . وقال آخرون : هو وصف حقيقيّ لله سبحانه وتعالى، وتوبة الله على العبد رجوعُه من حال المعصية إلى حال الطاعة . وقال آخرون : توبة الله على العبد قبوله توبته، وذلك يحتمل أن يرجع إلى قوله سبحانه وتعالى : قبلت توبتك، وأن يرجع إلى خلقه الإنابة والرجوع في قلب المسيء وإجراء الطاعات على جوارحه الظاهرة .

(١) راجع جـ ١٨ ص ١٠٩ . (٢) هو عمرو بن أحمر الباهلي . (٣) الذي في شرح شواهد سيبويه : « ومن أجل الطوى » . والطوى : البئر المطوية بالحجارة . قال الشنتمري : « وصف في البيت رجلا كانت بينه وبينه مشاجرة في بئر ؛ فذكر أنه رماه بأمر يكرهه ورمى أباه بمثله على براءتهما منه من أجل المشاجرة التي كانت بينهما » . (٤) راجع جـ ٨ ص ١٩٣ . (٥) راجع جـ ٣ ص ٩١ .

Marfat.com

السادسـة — لا يجوز أن يقال فى حق الله تعالى : تائب، آسم فاعل من تاب يتوب؛ لأنه ليس لنا أن نُطلق عليه من الأسماء والصفات إلا ما أطلقه هو على نفسه أو نبيّه عليه السلام أو جماعة المسلمين؛ و إن كان فى اللغة محتملا جائزا . هذا هو الصحيح فى هذا الباب، على ما بيّناه فى (الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى) . قال الله تعالى : « لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ (١) » . وقال : « وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ (٢) » . و إنما قيل لله عز وجل : توّاب ، لمبالغة الفعل وكثرة قبوله تو بة عباده لكثرة من يتوب إليه .

السابعـة — اعلم أنه ليس لأحد قُدرة على خلق التّوبة ؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو المنفرد بخلق الأعمال؛ خلافا للمعتزلة ومَن قال بقولهم . وكذلك ليس لأحد أن يقبل تو بة من أسرف على نفسه ولا أن يعفو عنه . قال علماؤنا : وقد كفرت اليهود والنصارى بهذا الأصل العظيم فى الدّين « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ » جلّ وعزّ، وجعلوا لمن أذنب أن يأتى الحَبْرَ أو الراهب فيعطيه شيئا ويحطّ عنه ذنو به « افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (٣) » .

الثامنـة — قرأ آبن كَثير : « فتلقّى آدمَ مِنْ رَبّه كلماتٌ » . والباقون برفع « آدم » ونصب « كلمات » . والقراءتان ترجعان إلى معنًى ؛ لأن آدم إذا تلقّى الكلمات فقد تلقته . وقيل : لما كانت الكلمات هى المنقذة لآدم بتوفيق الله تعالى له لقبوله إياها ودعائه بها كانت الكلمات فاعلة ، وكأن الأصل على هذه القراءة « فتلقّت آدمَ من ربه كلماتٌ » ؛ لكن لمّا بعد ما بين المؤنث وفعله حَسُن حذف علامة التأنيث . وهذا أصل يجرى فى كل القرآن والكلامِ إذا جاء فعل المؤنث بغير علامة ؛ ومنه قولهم : حضر القاضى اليوم آمرأة . وقيل : إن الكلمات لمّا لم يكن تأنيثه حقيقيًّا حُمل على معنى الكَلِم ، فذُكّر . وقرأ الأعمش : « آدمْ مّن ربه » مدغما . وقرأ أبو نَوفل بن أبى عقرب : « أنه » بفتح الهمزة ، على معنى لأنه ؛ وكسر الباقون على الآستئناف . وأدغم الهاء فى الهاء أبو عمرو وعيسى وطلحة فيما حكى أبو حاتم عنهم . وقيل : لا يجوز ؛

(١) راجع جـ ٨ ص ٢٧٧ (٢) راجع جـ ١٦ ص ٢٦ (٣) راجع جـ ٧ ص ٩٦

Marfat.com

لأن بينهما واوا فى اللفظ لا فى الخط . قال النحاس : أجاز سيبويه أن تحذف هذه الواو ، وأنشـد :

لَه زَجَلٌ كأنَّهُ صَـوْتُ حادٍ * إذا طَلب الوَسِـيقةَ أو زَمِيرُ[1]

فعلى هـذا يجوز الإدغام ، وهو رفع بالابتداء . « التوّاب » خبره ، والجمـلة خبر « إنّ » . ويجوز أن يكون « هو » توكيدا للهاء ، ويجوز أن تكون فاصلة ؛ على ما تقدّم .

وقال سعيد بن جبير : لمـا أُهبط آدم إلى الأرض لم يكن فيهـا شيء غير النَّسر فى البر ، والحوت فى البحر ؛ فكان النسر يأوى إلى الحوت فيبيت عنده ؛ فلما رأى النسر آدم قال : ياحوت ، لقد أهبط اليوم إلى الأرض شيء يمشى على رجليه ويبطش بيديه ! فقال الحوت : لئن كنتَ صادقًا مالى منه فى البحر مَنْجى ، ولا لك فى البر منه مَخْلَص ! .

قوله تعـالى : ﴿ قُلْنَـا ٱهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٣٨)

قوله تعـالى : ﴿ قلنَا ٱهْبِطُوا ﴾ كرّر الأمر على جهة التغليظ وتأكيده ، كما تقول لرجل : قُمْ قُمْ . وقيـل : كرّر الأمر لمـا علّق بكل أمر منهمـا حُكمًا غيرَ حُكم الآخر ؛ فعلّق بالأوّل العداوة ، وبالثانى إتيـان الهدى . وقيل : الهبوط الأوّل من الجنة إلى السماء ، والثانى من السماء إلى الأرض . وعلى هذا يكون فيـه دليل على أن الجنة فى السماء السابعة ، كما دلّ عليـه حديث الإسراء ؛ على ما يأتى[2] .

﴿ جَمِيعًـا ﴾ نصب على الحال . وقال وهب بن مُنَبِّه : لمـا هبط آدم عليـه السلام إلى الأرض قال إبليس للسباع : إن هذا عدوّ لكم فأهلكوه ؛ فاجتمعوا وولّوا أمرهم إلى الكلب

---

(١) البيت للشماخ . وصف حمار وحش هائجا ؛ فيقول : إذا طلب وسيقته — وهى أتانه التى يضمها — صوّت بها ، وكأن صوته لمـا فيه من الزجل والحنين ومن حسن الترجيع والتطريب صوت حاد بإبل يتغنى و يطرب بها ، أو صوت مزمار . والزجل : صوت فيه حنين وترنم . (عن شرح الشواهد) .　　(٢) راجع جـ ١٠ ص ٢٠٥

Marfat.com

وقالوا : أنت أشجعنا ، وجعلوه رئيسا ؛ فلما رأى ذلك آدم عليه السلام تحيّر فى ذلك ؛ فجاءه جبريل عليه السلام وقال له : امسح يدك على رأس الكلب ؛ ففعل ، فلما رأت السباع أن الكلب ألِف آدم تفرّقوا . وآستأمنه الكلبُ فأمنه آدم، فبقى . به ومع أولاده . وقال الترمذى الحكيم نحو هذا ، وأن آدم عليه السلام لمـا أهبط إلى الأرض جاء إبليس إلى السباع فأشلاهم[1] على آدم ليؤذوه ؛ وكان أشدّهم عليه الكلب ، فأُميت فؤاده ؛ فروى فى الخبر أن جبريل عليه السلام أمره أن يضع يده على رأسه فوضعها فاطمأن إليه وألفه ؛ فصار ممن يحرسه ويحرس ولده ويألفهم . وبموت فؤاده يفزع من الآدميين ؛ فلو رُمى بمَدَر ولّى هاربا ثم يعود آلفًا لهم . ففيه شعبة من إبليس ، وفيه شعبة من مسحة آدم عليه السلام ؛ فهو بشعبة إبليس ينبح ويَهِرّ ويعدو على الآدمىّ ، وبمسحة آدم مات فؤاده حتى ذل وآنقاد وألف به وبولده يحرسهم ، ولَهَثُه[2] على كل أحواله من موت فؤاده ؛ ولذلك شبّه الله سبحانه وتعالى العلماء السوء بالكلب ، على ما يأتى بيانه فى « الأعراف[3] » إن شاء الله تعالى . ونزلت عليه تلك العصا التى جعلها الله آية لموسى ، فكان يطرد بها السباع عن نفسه .

قوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى ﴾ اختلف فى معنى قوله : « هُدًى » ؛ فقيل : كتاب الله ؛ قاله السُّدّى . وقيل : التوفيق للهداية . وقالت فرقة : الهُدَى الرسل ، وهى إلى آدم من الملائكة ، وإلى بنيـه من البشر ؛ كما جاء فى حديث أبى ذَرّ ، وخرّجه الآجُرّى . وفى قوله : « مِنِّى » إشارة إلى أن أفعال العباد خَلْقٌ لله تعالى ؛ خلافًا للقدرية وغيرهم ؛ كما تقدّم[4] وقرأ الجَحْدَرِىّ « هُـدَىّ » وهو لغـة هذيل ، يقولون : هُـدَىّ وعَصَىّ ومَحْيَىّ . وأنشد النحويون لأبى ذُؤَيب يرثى بنيه :

سَـبَقُوا هَوَىّ وأعنقوا لهواهمُ • فتُخُرِّموا ولكل جَنْبٍ مَصْرَعُ[5]

---

(١) أشلاهم : أغراهم .
(٢) لهث الكلب : إذا أخرج لسانه من التعب أو العطش .
(٣) راجع جـ ٧ ص ٣٢٢
(٤) راجع المسئلة الثالثة ص ١٨٦ من هذا الجزء .
(٥) « هوىّ » : يريد هواى ؛ أى ماتوا قبلى وكنت أحب أن أموت قبلهم . « وأعنقوا لهواهم » جعلهم كأنهم هووا الذهاب الى المنية لسرعتهم إليها وهم لم يهووها . « فتخرموا » أى أخذوا واحدا واحدا .

Marfat.com

قال النحاس : وعلّة هـذه اللغة عند الخليل وسيبويه أن سبيل ياء الإضافة أن يُكسر ماقبلها؛ فلما لم يَجُز أن تُحرَّك الألف أبدلت ياء وأدغمت . و « ما » في قوله : « إمّا » زائدة على « إنْ » التي للشرط ، وجواب الشرط الفاء مع الشرط الثاني في قوله : « فَمَنْ تَبِعَ » . و « مَن » في موضع رفع بالابتداء . و « تبع » في موضع جزم بالشرط . « فَلَا خَوْفٌ » جوابه . قال سيبويه : الشرط الثاني وجوابه همـا جواب الأوّل . وقال الكسائى : فلا خَوْفٌ عليهم » جواب الشرطين جميعا .

قوله تعـالى : ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ الخوف هو الذعر ولا يكون إلا في المستقبل . وخاوفني فلان فخُفْتُه؛ أي كنت أشدّ خوفا منه . والتخوُّف : التنقّص؛ ومنه قوله تعـالى : « أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ »(١) . وقرأ الزُّهْرِيّ والحسن وعيسى بن عمر وآبن أبي إسحاق ويعقوب : « فلا خوفَ » بفتح الفاء على التبرئة . والاختيار عند النحويين الرفع والتنوين على الابتداء؛ لأن الثاني معرفة لا يكون فيه إلا الرفع؛ لأن « لا » لا تعمل في معرفة؛ فآختاروا في الأوّل الرفع أيضا ليكون الكلام من وجه واحد . ويجوز أن تكون «لا» في قولك : فلا خوف؛ بمعنى ليس .

والحُزْن والحَزَن : ضدّ السرور ، ولا يكون إلا على ماض . وحَزِن الرجل (بالكسر) فهو حزِن وحزين؛ وأحزنه غيره وحَزَنه أيضا ، مثل أسلكه وسلكه؛ ومحزون بُنِيَ عليه . قال اليزيدى : حزنه لغة قريش ، وأحزنه لغة تميم؛ وقد قرئ بهما . وآحتزن وتحزّن بمعنًى . والمعنى في الآية : فلا خوف عليهم فيما بين أيديهم من الآخرة ، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من الدنيا . وقيل : ليس فيه دليل على نفي أهوال يوم القيامة وخوفها على المطيعين لمـا وصفه الله تعالى ورسوله من شـدائد القيامة إلا أنه يخففه عن المطيعين ، و إذا صاروا إلى رحمته فكأنهـم لم يخافوا . والله أعلم .

قوله تعـالى : وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٠٩

قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي أشركوا، لقوله : ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ الصحبة : الاقتران بالشيء في حالة مّا، في زمان مّا ؛ فإن كانت الملازمة والخُلْطة فهي كمال الصحبة، وهكذا هي صحبة أهل النار لهـا . وبهذا القول ينفك الخلاف في تسمية الصحابة رضي الله عنهم إذ مراتبهم متباينة، على ما نبيّنه في « براءة »[1] إن شاء الله . وباقي ألفاظ الآية تقدّم معناها والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۝٤٠﴾

قوله تعـالى : ﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ نداء مضاف، علامة النصب فيه الياء، وحذفت منه النون للإضافة . الواحد آبن ، والأصل فيه بنى، وقيل : بَنَوٌ ؛ فمن قال : المحذوف منه واو آحتج بقولهم : البنوّة . وهـذا لا حجة فيه؛ لأنهم قد قالوا : الفتوّة، وأصله اليـاء . وقال الزجاج : المحذوف منه عندي ياء كأنه من بنيت . الأخفش : اختار أن يكون المحذوف منه الواو؛ لأن حذفها أكثر لثقلها . ويقال : آبن بيّن البنوّة، والتصغير بُنَيّ . قال الفراء : يقال : يا بُنَيِّ و يا بُنَيَّ لغتان ، مثل يا أبتِ و يا أبتَ ؛ وقرئ بهما . وهو مشـتق من البناء وهو وضع الشيء على الشيء؛ والآبن فرع للأب وهو موضوع عليه .

و إسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام . قال أبو الفرج الجَوْزيّ : وليس في الأنبيـاء من له آسمان غيره، إلا نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم فإن له أسماء كثيرة . ذكره في كتاب « فهوم الآثار » له .

قلت : وقد قيل في المسيح إنه آسم عَلَم لعيسى عليه السلام غير مشتق، وقد سمّاه الله رُوحًا وكلمة، وكانوا يسمّونه أبيل الأبيلين ؛ ذكره الجوهري في الصحاح . وذكر البيهقي في «دلائل النبوّة» عن الخليل بن أحمد : خمسة من الأنبياء ذوو آسمين ، محمد وأحمـد نبيّنا صلى الله عليه وسلم، وعيسى والمسيح ، و إسرائيل و يعقوب ، و يونس وذو النون، و إلياس وذو الكفل، صلى الله عليهم وسلم .

(١) راجع جـ ٨ ص ١٤٨

قلت : ذكرنا أن لعيسى أربعة أسمـاء ، وأمّا نبيّنا صلى الله عليه وسلم فله أسماء كثيرة ، بيانها فى مواضعها .

وإسرائيل: اسم أعجمى، ولذلك لم ينصرف؛ وهو فى موضع خفض بالإضافة . وفيه سبع لغـات : إسرائيل، وهى لغة القرآن . و إسرائيل، بمدّة مهموزة مختلسة، حكاها شنّبوذ عن وَرْش . و إسراييل، بمدّة بعد اليـاء من غير همز، وهى قراءة الأعمش وعيسى بن عمر؛ وقرأ الحسن والزهرى بغير همز ولا مدّ . و إسرائل ، بغير ياء بهمزة مكسورة . و إسراءَل، بهمزة مفتوحة . وتميم يقولون : إسرائين، بالنون . ومعنى إسرائيل : عبد الله . قال ابن عباس : إسرا بالعبرانية هوعبد، و إيل هو الله . وقيل : إسرا هو صفوة الله، و إيل هو الله . وقيل : إسرا من الشدّ؛ فكأن إسرائيل الذى شدّه الله وأتقن خلقه؛ ذكره المهدوى . وقال السُّهيلى : سمى إسرائيل لأنه أسرى ذات ليلة حين هاجر إلى الله تعالى؛ فسمى إسرائيل أى أسرى إلى الله ونحو هذا؛ فيكون بعض الاسم عبرانياً و بعضه موافقا للعرب . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ ٱذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ الذكر اسم مشترك ، فالذكر بالقلب ضدّ النسيان، والذكر باللسان ضدّ الإنصات . وذكرت الشيء بلسانى وقلبى ذِكرا . واجعله منـك على ذُكر (بضم الذال) أى لا تنسـه . قال الكسائى : ما كان بالضمير فهـو مضموم الذال، وما كان باللسان فهو مكسور الذال . وقال غيره : هما لغتان ، يقال : ذِكر وذُكر ، ومعناهما واحد . والذَّكر (بفتح الذال) خلاف الأنثى . والذِّكر أيضا الشرف؛ ومنه قوله : « وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ »[(١)] . قال ابن الأنبارى : والمعنى فى الآية اذكروا شكر نعمتى؛ فحذف الشكر اكتفاء بذكر النعمة . وقيل : إنه أراد الذكر بالقلب وهو المطلوب؛ أى لا تغفلوا عن نعمتى التى أنعمت عليكم ولا تناسوها؛ وهو حسن . والنعمة هنا اسم جنس، فهى مفردة بمعنى الجمع، قال الله تعالى : « وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا »[(٢)] أى نِعمَه . ومن نعمه عليهم أن أنجاهم من آل فرعون، وجعل منهم أنبياء ، وأنزل عليهم الكتب والمنّ والسَّلْوَى ، وفجّر لهم

---

(١) راجع جـ ١٦ ص ٩٣ (٢) راجع جـ ٩ ص ٣٦٧

Marfat.com

من الحجر الماء، إلى ما آستودعهم من التوراة التى فيها صفة محمد صلى الله عليه وسلم ونعته ورسالته. والنعم على الآباء نعم على الأبناء؛ لأنهم يشرفون بشرف آبائهم.

تنبيه — قال أرباب المعانى: ربط سبحانه وتعالى بنى إسرائيل بذكر النعمة وأسقطه عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم ودعاهم إلى ذكره، فقال: «آذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ»(١) ليكون نظر الأمم من النعمة إلى المنعم، ونظر أمة محمد صلى الله عليه وسلم من المنعم إلى النعمة.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِى أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ أمرٌ وجوابه. وقرأ الزهرى: «أُوَفِّ» (بفتح الواو وشد الفاء) للتكثير. وآختلف فى هذا العهد ما هو؛ فقال الحسن: عهده قوله: «خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ»(٢)، وقوله: «وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَاقَ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا»(٣). وقيل هو قوله: «وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَاقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ»(٤). وقال الزجاج: «أوفوا بعهدى» الذى عهدت إليكم فى التوراة من آتباع محمد صلى الله عليه وسلم، «أوف بعهدكم» بما ضمنت لكم على ذلك، إن أوفيتم به فلكم الجنة. وقيل: «أوفوا بعهدى» فى أداء الفرائض على السنة والإخلاص، «أوف» بقبولها منكم ومجازاتكم عليها. وقال بعضهم: «أوفوا بعهدى» فى العبادات، «أوف بعهدكم» أى أوصلكم إلى منازل الرعايات. وقيل: «أوفوا بعهدى» فى حفظ آداب الظواهر، «اوف بعهدكم» بتزيين سرائركم. وقيل: هو عام فى جميع أوامره ونواهيه ووصاياه؛ فيدخل فى ذلك ذكر محمد صلى الله عليه وسلم الذى فى التوراة وغيره. هذا قول الجمهور من العلماء، وهو الصحيح. وعهده سبحانه وتعالى هو أن يدخلهم الجنة.

قلت: وما طلب من هؤلاء من الوفاء بالعهد هو مطلوب منا؛ قال الله تعالى: «أَوْفُوا بِٱلْعُقُودِ»، «وَأَوْفُوا بِعَهْدِ ٱللَّهِ»؛ وهو كثير. ووفاؤهم بعهد الله أمارة لوفاء الله تعالى لهم لا علة له، بل ذلك تفضُّل منه عليهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِيَّاىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ أى خافون. والرُّهْب والرَّهَب والرَّهْبَة: الخوف. ويتضمّن الأمر به معنى التهديد. وسقطت الياء بعد النون لأنها رأس آية. وقرأ آبن

(١) راجع جـ ٢ ص ١٧١
(٢) راجع ص ٤٣٧ من هذا الجزء
(٣) راجع جـ ٦ ص ١٠٢
(٤) راجع جـ ٤ ص ٣٠٤

Marfat.com

أبى إسحاق: « فَٱرْهَبونِى » بالياء، وكذا « فَٱتّقونى »؛ على الأصل . « و إيَّاىَ » منصوب بإضمار فعــل ، وكذا الآختيــار فى الأمر والنهى والآستفهام ؛ التقــدير : وإياى آرهبوا فارهبون . ويجوز فى الكلام وأنا فآرهبون؛ على الآبتداء والخبر . وكون « فآرهبون » الخبر على تقدير الحذف؛ المعنى وأنا ربكم فآرهبون .

قوله تعالى : وَءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِۦ وَلَا تَشْتَرُوا بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَآمِنُوا بِمَـا أَنْزَلْتُ ﴾ أى صدِّقوا ؛ يعنى بالقرآن . ﴿ مُصَدِّقًا ﴾ حال من الضمير فى « أنزلت »؛ التقدير بما أنزلته مصدقا ؛ والعامل فيه أنزلت . ويجوز أن يكون حالا من ما، والعامل فيه آمنوا؛ التقدير آمنوا بالقرآن مصدقا . ويجوز أن تكون مصدرية؛ التقدير آمنوا بإنزال . ﴿ لِمَـا مَعَكُمْ ﴾ يعنى من التوراة .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ﴾ الضمير فى « به » قيــل هو عائد على محمد صلى الله عليــه وسلم ؛ قاله أبو العالية . وقال آبن جُريج : هو عائد على القرآن ، إذ تضمنه قوله : « بِمَـا أَنْزَلْتُ » . وقيل : على التوراة، إذ تضمنها قوله : « لِمـا معكم » .

فإن قيل : كيف قال « كافر » ولم يقل كافرين ؛ قيل : التقدير ولا تكونوا أول فريق كافر به . وزعم الأخفش والفرّاء أنه محمول على معنى الفعل ؛ لأن المعنى أول من كفر به . وحكى سيبويه : هو أظرف الفتيان وأجمله ؛ وكان ظاهر الكلام هو أظرف فتًى وأجمله . وقال : « أوّلَ كافرٍ به » وقد كان قد كفر قبلهم كفار قريش، فإنما معناه من أهل الكتاب؛ إذ هم منظور إليهم فى مثل هــذا؛ لأنهم حجة مظنون بهم عِلم . و « أوّل » عنــد سيبويه نصب على خبر كان . وهو مما لم ينطق منه بفعل ؛ وهو على أفعل، عينه وفاؤه واو . وإنمـا لم ينطق منه بفعل لئلا يعتلّ من جهتين : العين والفــاء؛ وهذا مذهب البصريين . وقال الكوفيون : هو مِن وَأَلَ إذا نجا ؛ فأصــله أوْأَل ، ثم خُفِّفت الهمزة وأبدلت واوا وأدغمت

Marfat.com

فقيل أوّل، كما تخفف همزة خطيئة . قال الجوهرى : « والجمع الأوائل والأوالِى أيضا على القلب . وقال قوم : أصله وَوَّل على فَوْعَل؛ فقلبت الواو الأولى همزة . وإنما لم يجمع على أواول لاستثقالهم اجتماع الواوين بينهما ألف الجمع » . وقيل : هو أفعل من آل يؤول ، فأصله أأْوَل؛ قلب بجاء أعفل مقلوبا من أفعل، فسُهّل وأُبدل وأُدغم .

مسـألة — لا حُجّة فى هذه الآية لمن يمنع القول بدليل الخطاب ، وهم الكوفيون ومن وافقهم؛ لأن المقصود من الكلام النهى عن الكفر أوّلا وآخرا ؛ وخصّ الأوّل بالذكر لأن التقدّم(١) فيه أغلظ، فكان حكم المذكور والمسكوت عنه واحدا؛ وهذا واضح .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا ﴾ معطوف على قوله : « وَلَا تَكُونُوا » . نهاهم عن أن يكونوا أوّل من كفر وألا يأخذوا على آيات الله ثمنا؛ أى على تغيير صفة محمد صلى الله عليه وسلم رُشًى . وكان الأحبار يفعلون ذلك فنُهوا عنه ؛ قاله قوم من أهل التأويل، منهم الحسن وغيره . وقيل : كانت لهم مآكل يأكلونها على العلم كالراتب؛ فنُهوا عن ذلك . وقيل : إن الأحبار كانوا يعلّمون دينهم بالأجرة فنُهوا عن ذلك . وفى كتبهم : يابن آدم عَلِّم مجانا كما عُلِّمت مجانا ؛ أى باطلا بغير أجرة؛ قاله أبو العالية . وقيل : المعنى ولا تشتروا بأوامرى ونواهىّ وآياتى ثمنا قليلا ، يعنى الدنيا ومدّتها والعيش الذى هو نزر لا خطر له ؛ فسُمّى ما اعتاضوه عن ذلك ثمنا ؛ لأنهم جعلوه عوضا ؛ فانطلق عليه اسم الثمن وإن لم يكن ثمنا . وقد تقدّم هذا المعنى . وقال الشاعر :

إن كنتَ حاولتَ ذنباً أوظفِرتَ به * فما أصبتَ بترك الحج من ثَمَن

قلت : وهذه الآية وإن كانت خاصة ببنى إسرائيل فهى تتناول مَن فعل فعلهم . فمن أخذ رشوة على تغيير حق أو إبطاله ، أو امتنع من تعليم ما وجب عليه ، أو أداء ما علمه

(١) فى نسخة من الأصل : « ... لأن النقل منه أعظم » .

Marfat.com

وقد تعيّن عليه حتى يأخذ عليه أجرا فقد دخل فى مقتضى الآية . والله أعلم . وقد روى أبو داود عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَن تعلّم علماً مما يُبتغَى به وجه الله عز وجل لا يتعلّمه إلا ليصيب به عَرَضًا من الدنيا لم يجد عَرْف الجنة يوم القيامة" يعنى ريحها .

الثانيــة — وقد آختلف العلماء فى أخذ الأجرة على تعليم القرآن والعلم — لهذه الآية وما كان فى معناها — ؛ فمنع ذلك الزُّهرِىّ وأصحاب الرأى وقالوا : لا يجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن ؛ لأن تعليمه واجب من الواجبات التى يحتاج فيها إلى نيّة التقرّب والإخلاص ؛ فلا يؤخذ عليها أجرة كالصلاة والصيام . وقد قال تعالى : «وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً» . وروى آبن عباس أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "معلّمو صبيانكم شراركم أقلهم رحمة باليتيم وأغلظهم على المسكين" . وروى أبو هريرة قال : قلت يارسول الله ماتقول فى المعلمين ؟ قال : "درهمهم حرام وثوبهم سُحْت وكلامهم رياء" . وروى عُبَادة بن الصّامت قال : علّمت ناسا من أهل الصُّفّة القرآن والكتابة ، فأهدى إلىّ رجل منهم قوسًا ؛ فقلت : ليست بمال وأرمِى عنها فى سبيل الله ، فسألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال : "إنْ سرّك أن تُطوّق بها طوقًا من نار فآقبلها" . وأجاز أخذ الأجرة على تعليم القرآن مالك والشافعى وأحمد وأبو ثور وأكثر العلماء ؛ لقوله عليه السلام فى حديث آبن عباس — حديثِ الرُّقْيَة — : "إن أحقَّ ما أخذتم عليه أجرًا كتابُ الله" . أخرجه البخارى ؛ وهو نصٌّ يرفع الخلاف ، فينبغى أن يعوّل عليه .

وأمّا ما آحتج به المخالف من القياس على الصلاة والصيام ففاسد ؛ لأنه فى مقابلة النص ؛ ثم إن بينهما فُرقانا ، وهو أن الصلاة والصوم عباداتٌ مختصّة بالفاعل ، وتعليم القرآن عبادة متعدية لغير المعلّم ؛ فتجوز الأجرة على محاولته النقل كتعليم كتابة القرآن . قال آبن المنذر : وأبو حنيفة يكره تعليم القرآن بأجرة ؛ ويجوِّز أن يستأجر الرجلَ يكتب له لوحًا أو شِعرا أو غناء معلوما بأجرٍ معلوم ؛ فيجوّز الإجارة فيما هو معصية ويبطلها فيما هو طاعة .

Marfat.com

وأما الجواب عن الآية فالمراد بها بنو إسرائيل، وشَرْعُ مَن قبلنا هل هو شَرْع لنا؛ فيه خلاف، وهو لا يقول به .

جواب ثان — وهو أن تكون الآية فيمن تعيّن عليه التعليم فأبى حتى يأخذ عليه أجرا . فأما إذا لم يتعيّن فيجوز له أخذ الأجرة بدليل السُّنّة فى ذلك ، وقد يتعيّن عليه إلا أنه ليس عنده ما ينفقه على نفسه ولا على عياله فلا يجب عليه التعليم وله أن يقبل على صنعته وحرفته . ويجب على الإمام أن يعين لإقامة الدِّين إعانته ، وإلا فعلى المسلمين؛ لأن الصدّيق رضى الله عنه لما ولى الخلافة وعُيِّن لها لم يكن عنده ما يقيم به أهله ، فأخذ ثيابا وخرج إلى السوق، فقيل له فى ذلك ، فقال : ومن أين أنفق على عيالى ! فردّوه وفرضوا له كفايته . وأما الأحاديث فليس شىء منها يقوم على ساق، ولا يصح منها شىء عند أهل العلم بالنقل . أما حديث ابن عباس فرواه سعيد بن طَريف عن عكرمة عنه؛ وسعيد متروك . وأما حديث أبى هريرة فرواه علىّ بن عاصم عن حماد بن سَلَمة عن أبى جرهم عنه؛ وأبو جرهم مجهول لا يعرف، ولم يرو حماد بن سَلَمة عن أحد يقال له أبو جرهم ، وإنما رواه عن أبى المُهَزِّم وهو متروك الحديث أيضا ، وهو حديث لا أصل له . وأما حديث عُبَادة بن الصامت فرواه أبو داود من حديث المغيرة بن زياد الموصلىّ عن عبادة بن نُسَىّ عن الأسود بن ثعلبة عنه ؛ والمغيرة معروف عند(1) أهل العلم ولكنه له مناكير، هذا منها ، قاله أبو عمر . ثم قال : وأما حديث القوس فمعروف عند أهل العلم ؛ لأنه روى عن عبادة من وجهين ، وروى عن أُبَىّ بن كعب من حديث موسى بن علىّ عن أبيه عن أُبَىّ ، وهو منقطع . وليس فى الباب حديث يجب العمل به من جهة النقل ، وحديث عبادة وأُبَىّ يحتمل التأويل ؛ لأنه جائز أن يكون علّمه لله ثم أخذ عليه أجرا . وروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "خير الناس وخير من يمشى على جديد الأرض المعلّمون كلما خلق الدِّين جدّدوه أعطوهم ولا تستأجروهم فتحرجوهم فإن المعلم إذا قال للصبىّ قل بسم الله الرحمن الرحيم فقال الصبىّ بسم الله الرحمن الرحيم كتب الله براءة للصبىّ وبراءة للمعلم وبراءة لأبويه من النار" .

(1) فى نسخة : « معروف بحمل العلم » .

الثالثـــة ــ وآختلف العلماء فى حكم المصلى بأجرة؛ فروى أشهب عن مالك انه سئل عن الصلاة خلف من آستُؤجِر فى رمضان يقوم للناس؛ فقال : أرجو ألا يكون به بأس؛ وهو أشد كراهة له فى الفريضة . وقال الشافعى وأصحابه وأبوثور : لا بأس بذلك ولا بالصلاة خلفه . وقال الأوزاعى : لا صلاة له . وكرهه أبو حنيفة وأصحابه؛ على ما تقدّم . قال آبن عبد البر : وهذه المسئلة معلّقة من التى قبلها وأصلهما واحد .

قلت : ويأتى لهـذا أصل آخر من الكتاب فى « براءة » إن شاء الله تعـالى . وكره آبن القـاسم أخذ الأجرة على تعليم الشعر والنحو . وقال آبن حبيب : لا بأس بالإجارة على تعليم الشعر والرسائل وأيام العرب؛ ويكره من الشعر ما فيـه الخمر والخنا والهجاء . قال أبو الحسن اللَّخمِى : ويلزم على قوله أن يُجيز الإجارة على كتبه ويُجيز بيع كتبـه . وأما الغناء والنَّـوح فممنوع على كل حال .

الرابعـــة ــ روى الدارمى أبو محمد فى مسنده أخبرنا يعقوب بن إبراهيم قال حدّثنا محمد آبن عمر بن الكُمَيْت قال حدثنا على بن وهب الهمدانى قال أخبرنا الضحاك بن موسى قال : مرّ سليمان بن عبد الملك بالمدينة ــ وهو يريد مكة ــ فأقام بها أياما؛ فقال : هل بالمدينة أحد أدرك أحدا من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ؟ قالوا له : أبو حازم؛ فأرسل إليه؛ فلما دخل عليه قال له : يا أبا حازم ما هـذا الجفاء ؟ قال أبو حازم : يا أمير المؤمنين وأىّ جفاء رأيت منى ؟ قال : أتانى وجوه أهل المدينة ولم تأتنى ! قال : يا أمير المؤمنين أعيذك بالله أن تقول ما لم يكن ، ما عَرَفتنى قبل هذا اليوم ولا أنا رأيتك ! قال : فالتفت إلى محمد آبن شهاب الزهرى فقال : أصاب الشيخ وأخطأت . قال سليمان : يا أبا حازم، مالنا نكره المـوت ؟ ! قال : لأنكم أخربتم الآخرة وعمرتم الدنيـا فكرهتم أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب؛ قال : أصبت يا أبا حازم ، فكيف القدوم غدًا على الله تعالى ؟ قال : أمّا المحسن فكالغائب يَقْدَم على أهله ، وأمّا المسىء فكالآبق يَقْدَم على مولاه . فبكى سليمان وقال : ليت شعرى ! ما لنا عند الله؟ قال : أعرض عملك على كتاب الله . قال : وأىّ مكان أجده؟ قال :

«إنَّ الأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ . وَإنَّ الفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ» [(١)] . قال سليمان : فأين رحمة الله يا أبا حازم؟ قال أبو حازم : رحمة الله قريب من المحسنين . قال له سليمان : يا أبا حازم، فأىّ عباد الله أكرم؟ قال : أولو المروءة والنُّهى . قال له سليمان : فأىّ الأعمال أفضل ؟ قال أبو حازم : أداء الفرائض مع آجتناب المحارم . قال سليمان : فأى الدعاء أسمع؟ قال: دعاء المحسَن إليه للمحسِن. فقال: أىّ الصدقة أفضل ؟ قال : للسائل البائس، وجُهْد المُقِلّ [(٢)] ، ليس فيها مَنٌّ ولا أذًى . قال : فأىّ القول أعدل ؟ قال : قولُ الحق عند مَن تخافه أو ترجوه . قال : فأىّ المؤمنين أكْيَس؟ قال : رجلٌ عَمِل بطاعة الله ودلّ الناس عليها . قال : فأىّ المؤمنين أحمق؟ قال : رجل آنحطّ فى هوَى أخيه وهو ظالم ، فباع آخرته بدنيا غيره . قال له سليمان : أصبتَ ، فما تقول فيما نحن فيه؟ قال : يا أمير المؤمنين أوَ تُعفينى؟ قال له سليمان : لا! ولكن نصيحة تُلقيها إلىّ . قال : يا أمير المؤمنين، إن آباءك قهروا الناس بالسيف ، وأخذوا هـذا المُلْكَ عَنْوة على غير مَشُورة من المسلمين ولا رضاهم، حتى قتلوا منهم مقتلة عظيمة ؛ فقـد آرتحلوا عنها، فلو شعرتَ ما قالوه وما قيل لهم ! . فقال له رجل من جلسائه : بئس ما قلت يا أبا حازم! قال أبو حازم : كذبتَ، إن الله أخذ ميثاق العلماء لَيُبَيِّنُنَّه للناس ولا يكتمونه . قال له سليمان : فكيف لنا أن نُصلح ؟ قال : تدَعون الصَّلَف وتمسّكُون بالمروة وتقسمون بالسّويّة . قال له سليمان : فكيف لنـا بالمأخذ به ؟ قال أبو حازم : تأخذه مِن حِلّه وتضعه فى أهله . قال له سـليمان : هل لك يا أبا حازم أن تَصْحَبنا فتُصيبَ منـا ونُصيبَ منك ؟ قال : أعوذ بالله ! قال له سليمان : ولم ذاك ؟ قال : أخشى أن أركن إليكم شيئًا قليلا فيُذيقنى الله ضِعفَ الحياة وضعف الممات . قال له سليمان: ارفع إلينا حوائجك . قال: تنجينى من النار وتدخلنى الجنة . قال له سليمان : ليس ذاك إلىّ! قال له أبو حازم : فمالى إليك حاجة غيرها . قال : فآدع لى . قال أبو حازم : اللّهمّ إن كان سليمان وَلِيّك فيَسِّرْه لخير الدنيا والآخرة ، و إن كان عدوّك نفخذ بناصيته إلى ما تحبّ وترضى . قال له سليمان : قَطْ ! قال أبو حازم : قد أوجزتُ وأكثرتُ

(١) راجع جـ ١٩ ص ٢٤٧ (٢) جهد المقل : أى قدر ما يحتمله حال القليل المال .

إن كنت من أهــله ، و إن لم تكن من أهله فما ينبغي أن أرمى عن قوس ليس لهـا وَتَر . قال له سليمان : أوْصنى ؛ قال : سأُوصيك وأُوجِز : عظِّم ربك ، ونَزِّهه أن يراك حيث نهاك ، أو يفقدك حيث أمرك . فلما خرج من عنده بعث إليه بمائة دينار ، وكتب [إليه](1) أن أنفقها ولك عندى مثلها كثير . قال : فردّها عليه وكتب إليه : يا أمير المؤمنين ، أعيذك بالله أن يكون سـؤالك إيّاى هَزْلًا أو ردّى عليك بَذْلًا(2) ، وما أرضاها لك ، فكيف [أرضاها](1) لنفسى ! إن موسى بن عِمران لما وَرَد ماءَ مَدْين وجد عليه رِعاءً يَسقون ، ووجد من دونهم جاريتين تذودان [فسألهما ، فقالتا : لا نَسقى حتى يُصدر الرِّعاء وأبونا شيخ كبير](1) ؛ فسقى لهما ثم تولّى إلى الظّل فقال : رَبِّ إنى لمَـا أنزلتَ إلىّ من خير فقير . وذلك أنه كان جائعا خائفا لا يأمن ، فسأل ربّه ولم يسأل الناس . فلم يفطن الرعاء ، وفطنت الجاريتان . فلما رجعتا إلى أبيهما أخبرتاه بالقصة و بقوله . فقال أبوهما وهو شعيب عليه السلام : هـذا رجلٌ جائع . فقال لإحداهما : اذهبى فادعيه . فلما أتته عظّمته وغطّت وجهها وقالت : إن أبى يدعوك ليَجزيَك أجْرَ ما سقيتَ لنا ؛ فشقّ على موسى حين ذكرت «أجر ما سقيتَ لنا» ولم يجد بُدًّا من أن يتبعها ؛ لأنه كان بين الجبال جائعا مستوْحشًا . فلما تبعها هبّت الريح فجعلت تصفق ثيابها على ظهرها فتصِفُ له عجيزتها — وكانت ذات عَجُز — وجعل موسى يُعرِض مَرّة و يغض أخرى ؛ فلما عِيل صبره ناداها : يا أَمَةَ الله كونى خلفى ، وأرِينى السّمت بقولك . فلما دخل على شُعَيب إذ هو بالعَشاء مُهَيَّأ ؛ فقال له شعيب : اجلس يا شاب فتعشّ ؛ فقال له موسى عليه السلام : أعوذ بالله ! فقال له شعيب : لِمَ ! أمَا أنت جائع ؟ قال : بلى ، ولكنى أخاف أن يكون هذا عِوضًا لمَا سقيتُ لهما ، وأنا مِن أهل بيت لا نبيع شيئا من ديننا بملء الأرض ذهبا . فقال له شعيب : لا يا شابّ ، ولكنها عادتى وعادة آبائى : نَقْرِى الضيف ونطعم الطعام ؛ فجلس موسى فأكل . فإن كانت هذه المـائة دينار عوضًا لمـا حدّثتُ فالميتة والدّمُ ولحم الخنزير فى حال الاضطرار أحلّ من هذه ، و إن كان لحق فى بيت المـال فلى فيها نظراء ، فإن ساوَيْت بيننا و إلا فليس لى فيها حاجة .

(1) الزيادة عن مسند الدارمى . (2) بذلا : أى راجيا بَذْلَك وعطاءك .

قلت : هكذا يكون الاقتداء بالكتاب والأنبياء . انظروا إلى هذا الإمام الفاضل والحبر العالم كيف لم يأخذ على عمله عوضًا ، ولا على وصيته بدلًا ، ولا على نصيحته صفدًا[1] ، بل بين الحق وصدع ، ولم يلحقه فى ذلك خوف ولا فزع . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا يمنعن أحدكم هيبةُ أحد أن يقول أو يقوم بالحق حيث كان" . وفى التنزيل : « يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ »[2] .

قوله تعالى : ﴿ وَإِيَّايَ فَٱتَّقُونِ ﴾ قد تقدم معنى التقوى[3] . وقرئ « فاتقونى » بالياء ، وقد تقدم . وقال سهل بن عبد الله : قوله « وإياى فاتقون » قال : موضع علمى السابق فيكم . « وإياى فارهبون » قال : موضع المكر والاستدراج[4] ؛ لقول الله تعالى : « سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ »[5] ، وقوله : « فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَاسِرُونَ »[5] . فما استثنى نبيًا ولا صديقًا .

قوله تعالى : وَلَا تَلْبِسُوا ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا ٱلْحَقَّ بِٱلْبَاطِلِ ﴾ اللَّبس : الخلط . لَبَست عليه الأمر ألبسه ، إذا مزجت بيِّنه بمُشكله وحقَّه بباطله ؛ قال الله تعالى : « وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ »[6] . وفى الأمر لُبسة ؛ أى ليس بواضح . ومن هذا المعنى قول علىّ رضى الله عنه للحارث بن حوط : يا حارث إنه ملبوس عليك ، إن الحق لا يُعرف بالرجال ، اعرف الحق تعرف أهله . وقالت الخنساء :

ترى الجليس يقول الحقّ تحسَبه * رُشدًا وهيهات فانظر ما به التبسا
صدِّق مقالته واحذر عداوته * والبس عليه أمورا مثل ما لَبَسا

(١) الصفد (بالتحريك) : العطاء . (٢) راجع جـ ٦ ص ٢٢٠ (٣) راجع ص ١٦١ وما بعدها .
(٤) العبارة ها هنا غير واضحة . والذى فى البحر لأبى حيان : « وقال سهل : « وإياى فارهبون » موضع اليقين بمعرفته ، « وإياى فاتقون » موضع العلم السابق وموضع المكر والاستدراج » .
(٥) راجع جـ ٧ ص ٣٢٩ وص ٢٥٤ . (٦) راجع جـ ٦ ص ٣٩٤ .

وقال العجّاج :

لمـا لَبَسْنَ الحـــقَّ بالتَّجَـنِّى * غَنِيـن واستبدَلْن زيدًا مـنِّى

روى سعيد عن قتـادة فى قوله : « وَلَا تَلْبِسُوا الحقَّ بِالبَاطِلِ »، يقول : لا تلبسوا اليهودية والنصرانية بالإسـلام ، وقد علمتم أن دين الله — الذى لا يقبل غيره ولا يجـزى إلا به — الإسلامُ، وأن اليهودية والنصرانية بدعة وليست من الله . والظاهر من قول عنترة :

* وكَتِيبةٍ لبّستها بكتيبة *

أنه من هـذا المعنى ؛ ويحتمل أن يكون من اللباس . وقد قيل هذا فى معنى الآية؛ أى لا تُغَطّوا . ومنـه لبس الثوب ؛ يقال : لبِست الثوب ألْبَسه . ولبـاس الرجل زوجته ، وزوجها لباسها . قال الجَعْدِىّ :

إذا ما الضَّجيع ثَـنَى جِيـدَها * تَثَنَّتْ عليـــه فكانت لبـاسَا

وقال الأخْطل :

وقـد لَبِستُ لهـذا الأمر أعْصُرَه * حتى تجلّل رأسى الشيبُ فاشتعلا

واللَّبوس : كل ما يُلبس من ثياب ودرع ؛ قال الله تعالى : « وعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ »(١) . ولابست فلانا حتى عرفتُ باطنه . وفى فلان مَلْبَس؛ أى مستمتع . قال :

ألَا إن بعـد العُـدْم للمـرء قِنْـوةً(٢) * وبعـد المشيب طولَ عُمْرٍ ومَلْبَسَا

ولِبْس الكعبة والهودج : ما عليهما من لِباس (بكسر اللام) .

قوله تعالى : ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ الباطل فى كلام العرب خلاف الحق، ومعناه الزائل . قال لبيد :

* ألَا كُلُّ شىء ما خلا اللهَ باطلُ *

وبطل الشىء يبطل بُطْلا وبُطولا وبُطلانا [ذهب ضـياعا وخسرا](٣)، وأبطله غيره . ويقال : ذهب دمه بُطْلاً ؛ أى هَـدَرا . والباطل : الشيطان . والبَطَل : الشجاع ، سُمّى بذلك لأنه يُبطل شجاعة صاحبه . قال النابغة :

لهـم لـواء بأيـدى ماجِدٍ بطـلٍ * لا يقطع الخـرق إلا طرفُـه سامى

(١) راجع جـ ١١ ص ٣٢٠ (٢) القنوة (بكسر الأول وضمه) : الكِسْبة .
(٣) الزيادة عن اللسان .

Marfat.com

والمرأةُ بَطَـلة . وقد بطُل الرجل (بالضم) يبطُل بُطولة و بَطَالة (١) ؛ أى صار شجاعا . و بطَل الأجير (بالفتح) بِطَالة ؛ أى تعطّل، فهو بطّال . وآختلف أهل التأويل فى المراد بقوله : «ٱلْحَقَّ بِٱلْبَاطِلِ» ؛ فرُوى عن آبن عباس وغيره : لا تخلطوا ما عندكم من الحق فى الكتاب بالباطل ؛ وهو التغيير والتبديل . وقال أبو العالية : قالت اليهود : محمد مبعوث ولكن إلى غيرنا . فإقرارهم ببعثه حق ، وجحدهم أنه بُعث إليهم باطل . وقال آبن زيد : المراد بالحق التوراة ، والباطل ما بدّلوا فيها من ذكر محمد عليـه السلام وغيره . وقال مجاهد : لا تخلطوا اليهودية والنصرانية بالإسلام . وقاله قتادة ؛ وقد تقدم .

قلت : وقول آبن عباس أصوب ؛ لأنه عام فيدخل فيه جميع الأقوال . والله المستعان .

قوله تعالى : ﴿ وَتَكْتُمُوا ٱلْحَقَّ ﴾ يجوز أن يكون معطوفا على « تَلْبِسُوا » فيكون مجزوما ، و يجوز أن يكون منصوبا بإضمار أن ، التقـدير : لا يكن منكم لبس الحق وكتمانه ؛ أى وأن تكتموه . قال آبن عباس : يعنى كتمانهم أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم وهم يعرفونه . وقال محمد بن سِيرِين : نزل عصابة من ولد هارون يَثْرِبَ لمـا أصاب بنى إسرائيل ما أصابهم من ظهور العدو عليهم والذلة ، وتلك العصابة هم حملة التوراة يومئذ ، فأقاموا بيثرب يرجون أن يخرج محمد صلى الله عليـه وسلم بين ظهرانيهم ، وهم مؤمنون مصدّقون بنبوّته ، فمضى أولئك الآباء وهم مؤمنـون وخلف الأبناء وأبناء الأبناء فأدركوا محمدا صلى الله عليه وسـلم فكفروا به وهم يعرفونه ؛ وهو معنى قوله تعالى : « فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ » (٢) .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ جملة فى موضع الحال ؛ أى أن محمدا عليه السلام حق ؛ فكفرهم كان كفر عناد ؛ ولم يشهد تعالى لهم بعلم ، و إنمـا نهاهم عن كتمان ما علموا . ودل هذا على تغليظ الذنب على من واقعه على علم وأنه أعصى من الجاهل . وسيأتى بيان هذا عند قوله تعالى : « أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ » (٣) الآية .

قوله تعالى : وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾

فيه أربع وثلاثون مسئلة :

(١) فى تاج العروس : « والبطالة بالكسر والضم لغتان فى البطالة بالفتح بمعنى الشجاعة . الكسر نقـله الليث ، والضم حكاه بعض ونقله صاحب المصباح » . (٢) راجع جـ ٢ ص ٢٦ (٣) ص ٣٦٥ .

الأولى ـ قوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ أَمْرٌ معناه الوجوب ، ولا خلاف فيـه ؛ وقد تقدّم القول فى معنى إقامة الصلاة وآشتقاقها وفى جملة من أحكامها(١) ، والحمد لله .

الثانيـــة ـ قوله تعـالى : ﴿ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ أَمْرٌ أيضا يقتضى الوجوب . والإيتاء : الإعطاء . آتيتـه : أعطيته ؛ قال الله تعـالى : « لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ » . وأتيته ـ بالقصر من غير مَدّ ـ جئته ؛ فإذا كان المجىء بمعنى الآستقبال مُدّ ؛ ومنـه الحديث : " ولآتين رسول الله صلى الله عليه وسلم فلأخبرنه " . وسيأتى .

الثالثـــة ـ الزكاة مأخوذة من زكا الشىء إذا نمـا وزاد ؛ يقال : زكا الزرعُ والمـالُ يزكو ؛ إذا كثر وزاد . ورجل زكى ؛ أى زائد الخير . وسُمّىَ الإخراج من المـال زكاة وهو نقص منـه من حيث ينمو بالبركة أو بالأجر الذى يثاب به المزكِّى . ويقال : زرع زاكٍ بيّن الزكاء . وزكأت النـاقة بولدها تزكأ به : إذا رمتْ به من بين رجليها . وزكا الفرد : إذا صار زوجا بزيادة الزائد عليه حتى صار شفعًا . قال الشاعر :

كانوا خَسًا أو زَكًا من دون أربعة　＊　لم يَخْلَقُوا وجدود النـاس تَعْتَلِـجُ

جمع جَدّ؛ وهو الحظّ والبخت . تعتلج أى ترتفع . اعتلجت الأرض : طال نباتها . خسًا : الفردُ ، وزكًا : الزّوج .

وقيل : أصلها الثناء الجميل ؛ ومنه زكَّى القاضى الشاهد . فكأن مَن يُخرج الزكاة يحصل لنفسه الثنـاء الجميل . وقيل : الزكاة مأخوذة من التطهير ؛ كما يقال : زكا فلان ؛ أى طهر من دنس الجَرْحة والإغفال(٢) . فكأن الخارج من المـال يطهّره من تبعة الحق الذى جعل الله فيه للمساكين . ألا ترى أن النبىّ صلى الله عليه وسلم سمَّى ما يخرج من الزكاة أوساخَ الناس ؛ وقد قال تعالى : « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا(٣) » .

الرابعـــة ـ وآختلف فى المـراد بالزكاة هنـا ؛ فقيل : الزكاة المفروضة ، لمقارنتهـا بالصلاة . وقيل : صدقة الفطر ؛ قاله مالك فى سماع آبن القاسم .

(١) راجع ص ١٦٤ ـ ١٧٧ من هذا الجزء .　(٢) فى نسخة : « أو الإغفال » وكذا فى تفسير آبن عطية .
(٣) راجع جـ ٨ ص ٢٤٤ .

Marfat.com

قلت : فعلى الأوّل — وهو قول أكثر العلماء — فالزكاة فى الكتاب مجملة بيّنها النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فروى الأئمـة عن أبى سعيد الخدرىّ أن النبى صلى الله عليـه وسلم قال : " ليس فى حَبّ ولا تمر صدقة حتى يبلغ خمسة أَوْسُق (١) ولا فيما دون خمس ذَوْد (٢) صدقة ولا فيما دون خمس أواقٍ صدقة ". وقال البخارى : " خمس أواق من الوَرِق ". وروى البخارىّ عن ٱبن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " فيما سَقت السماء والعيون أو كان عَثَرِيًّا (٣) العُشْرُ وما سُقِىَ بالنَّضْح (٤) نصفُ العُشْر ". وسيأتى بيان هذا الباب فى « الأنعام (٥) » إن شاء الله تعالى. ويأتى فى « براءة » زكاة العين والماشية ، وبيان المال الذى لا يؤخذ منه زكاة عند قوله تعالى : « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً (٦) » . وأما زكاة الفطر فليس لها فى الكتاب نصٌّ عليها إلا ما تأوّله مالك هنا ، وقوله تعالى : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (٧) . وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى » . والمفسرون يذكرون الكلام عليها فى سورة « الأعلى » ؛ ورأيت الكلام عليها فى هذه السورة عند كلامنا على آى الصيام ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم فرض زكاة الفطر فى رمضان ، الحديث. وسيأتى ، فأضافها إلى رمضان .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ وَٱرْكَعُوا ﴾ الركوع فى اللغة الانحناء بالشخص ؛ وكل منحن راكع . قال لَبِيد :

أُخَبِّرُ أخبارَ القرون التى مضت * أَدِبُّ كأنى كلما قمت راكعُ

وقال ٱبن دُرَيد : الركعة الهُوَّة فى الأرض ، لغة يمانية . وقيل : الانحناء يعم الركوع والسجود ، ويستعار أيضا فى الانحطاط فى المنزلة . قال :

ولا تُعادِ الضعيفَ علّك أن * تركع يوما والدهر قد رفعه

---

(١) الوسق (بالفتح) : ستون صاعا ، وهو ثلثمائة وعشرون رطلا عند أهل الحجاز . (٢) الذود من الإبل : ما بين الثنتين إلى التسع . وقيل : ما بين الثلاث إلى العشر . واللفظة مؤنثة ، ولا واحد لها من لفظها . (٣) العثرى (بفتح المهملة والثاء المثلثة المخففة وكسر الراء وتشديد الياء) . قال ٱبن الأثير : « هو من النخيل الذى يشرب بعروقه من ماء المطر يجتمع فى حفيرة . وقيل : هو العذى (الزرع الذى لا يسقى إلا من ماء المطر لبعده من المياه ، وقيل فيه غير ذلك) . وقيل : هو ما يسقى سيحا ، والأوّل أشهر » . (٤) النضح (بفتح النون وسكون المعجمة بعدها مهملة) : ما سقى من الآبار . (٥) راجع جـ ٧ ص ٩٩ . (٦) راجع جـ ٨ ص ٢٤٤ . (٧) راجع جـ ٢٠ ص ٢١ .

السادســـة — وآختلف الناس فى تخصيص الركوع بالذكر، فقال قوم: جعل الركوع لمـا كان من أركان الصلاة عبارة عن الصلاة .

قلت: وهذا ليس مختصًّا بالركوع وحده، فقد جعل الشرع القراءة [عبارة] (١) عن الصلاة، والسجودَ عبارة عن الركعة بكمالها، فقال: «وَقُرْآنَ ٱلْفَجْرِ» أى صلاة الفجر، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أدرك سجدة من الصلاة فقد أدرك الصلاة"، وأهل الحجاز يطلقون على الركعة سجدة . وقيــل : إنمـا خص الركوع بالذكر لأن بنى إسرائيل لم يكن فى صلاتهم ركوع . وقيل: لأنه كان أثقل على القوم فى الجاهلية، حتى لقد قال بعض من أسلم — أظنه عمران بن حُصين — للنبىّ صلى الله عليــه وسلم : على ألّا أخِرّ إلا قائمـا . فمن تأويله على ألّا أركع؛ فلما تمكن الإسلام مِن قلبه آطمأنت بذلك نفسه وآمتثل ما أمر به من الركوع .

السابعــة — الركوع الشرعى هو أن يحنى الرجل صلبه ويمدّ ظهره وعنقه ويفتح أصابع يديه ويقبض على ركبتيه ثم يطمئن راكعًا يقول: سبحان ربى العظيم ثلاثا، وذلك أدناه . روى مسـلم عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليــه وسلم يستفتح الصلاة بالتكبير والقراءة بالحمد لله رب العالمين، وكان إذا ركع لم يُشخص (٢) رأسه ولم يصوّبه ولكن بين ذلك . وروى البخارى عن أبى حُميد الساعدى قال : رأيت رسول الله صلى الله عليــه وسلم إذا كبّر جعل يديه حَذْوَ منكبيه، وإذا ركع أمكن يديه من ركبتيه ثم هصر (٣) ظهره؛ الحديث .

الثامنــة — الركوع فرض، قرآنا وسُنّة، وكذلك السجود؛ لقوله تعالى فى آخر الحج : «آرْكَعُوا وَآسْجُدُوا» (٤) . وزادت السُّنة الطمأنينةَ فيهما والفصل بينهما . وقد تقدّم القول فى ذلك، وبيّنا صفة الركوع آنفا . وأما السجود فقد جاء مبيّنًا من حديث أبى حُميد الساعدىّ أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان إذا سجد مكّن جبهته وأنفه من الأرض ونحّى يديه عن جنبيه ووضع كفّيه حَذْو منكبيه . خرّجه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح . وروى مسلم عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اعتدلوا فى السجود ولا يبسط أحدكم ذراعيه

(١) زيادة يقتضيها السياق . (٢) الإشخاص : الرفع والتصويب : الخفض .
(٣) هصر ظهره : أى ثناه إلى الأرض . (٤) راجع ج ١٢ ص ٩٨

Marfat.com

آنبساط الكلب " . وعن البَرَاء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا سجدتَ فضَع كفيك وآرفع مرفقيك " . وعن ميمونة زوج النبيّ صلى الله عليـه وسلم قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سجد خَوّى بيديه – يعني جنح حتى يرى وَضَحُ إبطيه من ورائه – و إذا قعد آطمأن على فخذه اليسرى .

التاســـعة – وآختلف العلماء فيمن وضـع جبهته في السجود دون أنفه أو أنفه دون جبهته ؛ فقال مالك : يسجد على جبهته وأنفه ؛ وبه قال الثوريّ وأحمد ، وهو قول النَّخَعِيّ . قال أحمد : لا يجزئه السجود على أحدهما دون الآخر ؛ وبه قال أبو خَيْثَمة [(1)] وآبن أبي شيبة . قال إسحاق : إن سجـد على أحدهما دون الآخر فصلاته فاسدة . وقال الأوزاعي وسعيد بن عبد العزيز ، ورُوِي عن آبن عباس وسـعيد بن جبير وعكرمة وعبد الرحمن بن أبي ليلى كلهم أمر بالسجود على الأنف . وقالت طائفة : يجزئ أن يسجد على جبهته دون أنفه ؛ هذا قول عطاء وطاوس وعكرمة وآبن سِيرِين والحسن البصري ؛ وبه قال الشافعي وأبو ثور و يعقوب ومحمد . قال آبن المنذر : وقال قائل : إن وضع جبهته ولم يضع أنفه أو وضع أنفه ولم يضع جبهته فقد أساء وصلاته تامة ؛ هذا قول النعمان . قال آبن المنذر : ولا أعلم أحدا سبقه إلى هذا القول ولا تابعه عليه .

قلت : الصحيح في السجود وضع الجبهة والأنف ؛ لحديث أبي حُمَيد ، وقد تقدّم . وروى البخاري عن آبن عباس قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : " أمِرت أن أسجد على سبعة أعظم على الجبهة – وأشار بيده إلى أنفه – واليدين والركبتين وأطراف القدمين ولا نَكْفِتُ [(2)] الثياب والشَّعَر " . وهذا كله بيان لمجمل الصلاة ، فتعيّن القول به . والله أعلم وروى عن مالك أنه يجزيه أن يسجد على جبهته دون أنفه ؛ كقول عطاء والشافعي . والمختار عندنا قوله الأوّل ، ولا يجزئ عند مالك إذا لم يسجد على جبهته .

---

(١) كذا في بعض نسخ الأصل وتفسير العلامى نقلا عن القرطبي . وفي نسخة : « أبو حنيفة » .

(٢) قوله : « ولا نكفت » : أي لا نضمها ونجمعها . يريد جمع الثوب باليدين عند الركوع والسجود .

Marfat.com

العـاشرة — ويكره السجود على كَوْر العِمامة ؛ وإن كان طاقة أو طاقتين، مثل الثياب التي تستر الركب والقدمين فلا بأس ؛ والأفضـل مباشرة الأرض أو ما يسجد عليـه . فإن كان هناك ما يؤذيه أزاله قبـل دخوله في الصلاة، فإن لم يفعـل فليمسحه مسحة واحدة . وروى مسلم عن مُعَيْقِيب أن رسـول الله صلى الله عليـه وسلم قال في الرجل يسوّى التراب حيث يسجد قال : " إن كنتَ فاعلا فواحدة " . وروى عن أنس بن مالك قال : كنا نصلى مع رسول الله صلى الله عليـه وسلم في شدّة الحرّ ؛ فإذا لم يسـتطع أحدنا أن يمكّن جبهته من الأرض بسط ثوبه فسجد عليه .

الحـادية عشرة — لمـا قال تعالى : « ٱرْكَعُوا وَٱسْجُدُوا » قال بعض علمائنا وغيرهم : يكفى منهـا ما يُسمَّى ركوعا وسجودا ، وكذلك من القيام . ولم يشترطوا الطمأنينة في ذلك ؛ فأخذوا بأقلّ الاسم في ذلك ؛ وكأنهم لم يسمعوا الأحاديث الثابتـة في إلغاء الصـلاة . قال ٱبن عبد البر : ولا يجزى ركوع ولا سجود ولا وقوف بعد الركوع، ولا جلوس بين السجدتين حتى يعتـدل راكعا وواقفا وساجدا وجالسا . وهو الصحيح في الأثر، وعليـه جمهور العلماء وأهل النظر؛ وهي رواية ٱبن وهب وأبي مصعب عن مالك . وقال القـاضي أبو بكر بن العربي : وقد تكاثرت الرواية عن ٱبن القاسم وغيره بوجوب الفصل وسقوط الطمأنينة؛ وهو وَهَم عظيم ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم فعلها وأمر بها وعلّمها . فإن كان لٱبن القاسم عذر أن كان لم يطلع عليها فمـا لكم أنتم وقد ٱنتهى العلم إليكم وقامت الحجة به عليكم ! روى النسائي والدّارَقُطْنِيّ وعليّ بن عبد العزيز عن رفاعة بن رافع قال : كنت جالسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاءه رجل فدخل المسجد فصلّى، فلما قضى الصلاة جاء فسلّم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى القوم ؛ فقال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : " ارجع فصلّ فإنك لم تُصلّ " وجعل الرجل يصلي وجعلنا نرمق صلاته لا ندرى ما يعيب منها ؛ فلمـا جاء فسلّم على النبيّ صلى الله عليه وسلم وعلى القوم، فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : " وعليك ٱرجع فصلّ فإنك لم تصلّ " . قال همام : فلا ندرى، أمره بذلك مرتين أو ثلاثا؛ فقال له الرجل :[1]

(١) همام هذا ، أحد رجال سند هذا الحديث .

Marfat.com

ما أَلُوتُ ، فلا أدرى ما عِبتَ علىّ من صلاتى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنه لا تتم صلاة أحدكم حتى يُسبغ الوضوء كما أمره الله فيَغسل وجهه ويديه إلى المرفقين ويمسح برأسه ورجليه إلى الكعبين ثم يكبّر الله تعالى ويُثنى عليه ثم يقرأ أمّ القرآن وما أذن له فيه وتيسّر ثم يكبّر فيركع فيضع كفّيه على ركبتيه حتى تطمئن مفاصله ويسترخى ثم يقول سمع الله لمن حمده ويستوى قائما حتى يقيم صُلبه ويأخذ كل عظمٍ مأخذه ثم يكبّر فيسجد فيمكّن وجهه — قال همّام : وربما قال : جبهته — من الأرض حتى تطمئن مفاصله ويسترخى ثم يكبّر فيستوى قاعدا على مقعده ويقيم صلبه — فوصف الصلاة هكذا أربع ركعات حتى فرغ، ثم قال: — لا تَتمّ صلاة أحدكم حتى يفعل ذلك " . ومثله حديث أبى هريرة خرّجه مسلم ، وقد تقدّم .

قلت : فهذا بيان الصلاة المجملة فى الكتاب بتعليم النبىّ عليه السلام وتبليغه إياها جميع الأنام ، فمن لم يقف عند هذا البيان وأخلّ بما فرض عليه الرحمن ، ولم يمتثل ما بلغه عن نبيّه عليه السلام كان من جملة من دخل فى قوله تعالى : « فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ » . على ما يأتى بيانه هناك(1) إن شاء الله تعالى . روى البخارىّ عن زيد بن وهب قال : رأى حُذيفة رجلًا لا يتم الركوع ولا السجود فقال : ما صلّيتَ ولو متَّ لمتَّ على غير الفِطرة التى فَطَر الله عليها محمدا صلى الله عليه وسلم .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ « مع » تقتضى المَعِيّة والجمعيّة ؛ ولهذا قال جماعة من أهل التأويل بالقرآن : إن الأمر بالصلاة أوّلا لم يقتض شهود الجماعة ، فأمرهم بقوله « مع » شهود الجماعة . وقد اختلف العلماء فى شهود الجماعة على قولين؛ فالذى عليه الجمهور أن ذلك من السنن المؤكدة ، ويجب على من أدمن التخلف عنها من غير عذر العقوبة . وقد أوجبها بعض أهل العلم فرضا على الكفاية . قال ابن عبد البر: وهذا قول صحيح ؛ لإجماعهم على أنه لا يجوز أن يجتمع على تعطيل المساجد كلها من الجماعات . فإذا قامت الجماعة فى المسجد فصلاة المنفرد فى بيته جائزة ؛ لقوله عليه السلام : " صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفَذّ(2) بسبع وعشرين درجة " . أخرجه مسلم من حديث ابن عمر . وروى عن أبى هريرة رضى الله

(1) راجع جـ ١١ ص ١٢١ . (2) الفذ : المنفرد .

عنـه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "صلاة الجماعة أفضل من صلاة أحدكم وحده بخمسة وعشرين جزءا". وقال داود: الصلاة فى الجماعة فرض على كل أحد فى خاصته كالجمعة؛ وآحتج بقوله عليه السلام : "لا صلاةَ لجار المسجد إلا فى المسجد" خرّجه أبو داود وصححه أبو محمد عبد الحق ؛ وهو قول عطاء بن أبى رباح وأحمد بن حنبل وأبى ثَوْر وغيرهم . وقال الشافعى : لا أرخّص لمن قدر على الجماعة فى ترك إتيانها إلا من عذر؛ حكاه آبن المنـذر . وروى مسلم عن أبى هريرة قال : أتى النبىّ صلى الله عليـه وسـلم رجلٌ أعمى فقال : يا رسول الله، إنه ليس لى قائد يقودنى إلى المسجد؛ فسأل رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أن يرخّص له فيصلى فى بيته ؛ فرخص له؛ فلما ولّى دعاه فقال: "[هل](1) تسمع النداء بالصلاة" قال نعم؛ قال: "فأجب" . وقال أبو داود فى هذا الحديث : "لا أجد لك رخصة" . خرجه من حديث آبن أم مَكْتُوم؛ وذكر أنه كان هو السائل . وروى عن آبن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَن سمع النداء فلم يمنعه من إتيانه عذر — قالوا : وما العـذر ؟ قال : خوفٌ أو مرض — لم تُقبل منـه الصلاة التى صلى" . قال أبو محمـد عبد الحق : هذا يرويه مَغراء العبدى . والصحيح موقوف على آبن عباس : "من سمع النداء فلم يأت فلا صلاة له". على أن قاسم بن أَصْبَغ ذكره فى كتابه فقال: حدّثنا إسماعيل بن إسحاق القاضى، قال حدّثنا سليمان بن حرب، حدّثنا شعبة عن حبيب بن أبى ثابت عن سعيد بن جبير عن آبن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: "مَن سمع النداء فلم يُجب فلا صلاة له إلا من عذر". وحسبك بهذا الإسناد صحة . ومَغراء العبدى روى عنه أبو إسحاق. وقال آبن مسعود: ولقد رأيتُنا وما يتخلّف عنها إلا منافق معلوم النفاق . وقال عليه السلام: "بيننا وبين المنافقين شهود العَتَمة والصُّبح لا يستطيعونهما" . قال آبن المنذر : ولقـد روينا عن غير واحد من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم أنهم قالوا : "مَن سمع النداء فلم يُجب من غير عذر فلا صلاة له" منهم آبن مسعود وأبو موسى الأشعرىّ . وروى أبو داود عن أبى هريرة قال قال رسول

(١) الزيادة عن صحيح مسلم .

Marfat.com

الله صلى الله عليه وسلم : "لقد هممت أن آمر فتيتى فيجمعوا حُزَمًا من حطب ثم آتى قوما يصلون فى بيوتهم ليست لهم علة فأحرقها عليهم" . هذا ما احتج به من أوجب الصلاة فى الجماعة فرضا، وهى ظاهرة فى الوجوب ، وحملها الجمهور على تأكيد أمر شهود الصلوات فى الجماعة ؛ بدليل حديث ابن عمر وأبى هريرة . وحملوا قول الصحابة وما جاء فى الحديث من أنه "لا صلاة له" على الكمال والفضل ؛ وكذلك قوله عليه السلام لابن أم مكتوم : "فأجب" على الندب . وقوله عليه السلام : "لقد هممت" لا يدل على الوجوب الحتم ؛ لأنه همّ ولم يفعل ؛ وإنما مخرجه مخرج التهديد والوعيد للمنافقين الذين كانوا يتخلّفون عن الجماعة والجمعة . بيّن هذا المعنى ما رواه مسلم عن عبد الله قال : « مَن سرّه أن يلقى الله غدًا مسلمًا فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث يُنادَى بهن ، فإن الله شرع لنبيّكم صلى الله عليه وسلم سُنن الهُدَى ، وإنهن من سنن الهدى ، ولو أنكم صلّيتم فى بيوتكم كما يصلّى هذا المتخلّف فى بيته لتركتم سُنّة نبيّكم صلى الله عليه وسلم ، ولو تركتم سُنّة نبيّكم صلى الله عليه وسلم لضَلَلتم ، وما من رجل يتطهّر فيحسن الطُّهور ثم يَعمد إلى مسجد من هذه المساجد إلا كتب الله له بكل خُطوة يخطوها حسنة ويرفعه بها درجة ويحطّ عنه بها سيئة ، ولقد رأيتُنا وما يتخلّف عنها إلا منافق معلوم النفاق ، ولقد كان الرجل يؤتَى به يُهادَى(1) بين الرجلين حتى يقام فى الصّف » . فبيّن رضى الله عنه فى حديثه أن الاجتماع سُنّة من سُنن الهُدَى وتركه ضلال ؛ ولهذا قال القاضى أبو الفضل عِياض : اُختلِف فى التمالؤ على ترك ظاهر السنن ؛ هل يقاتل عليها أولا ؛ والصحيح قتالهم ؛ لأن فى التمالؤ عليها إماتتها .

قلت : فعلى هذا إذا أقيمت السُّنة وظهرت جازت صلاة المنفرد وصحّت . روى مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "صلاة الرجل فى جماعة تزيد على صلاته فى بيته وصلاته فى سوقه بضعًا وعشرين درجة وذلك أن أحدهم إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى المسجد لا يَنهزه(2) إلا الصلاة لا يريد إلا الصلاة فلم يَخْط خُطوة إلا رُفع له بها درجة

(1) معناه : يمسكه رجلان من جانبيه بعضديه يعتمد عليهما .

(2) النهز : الدفع . أى لا يقيمه من موضعه ؛ وهو بمعنى قوله بعده : "لا يريد إلا الصلاة" .

Marfat.com

وحطّ عنه بها خطيئة حتى يدخل المسجد فإذا دخل المسجد كان فى الصلاة ما كانت الصلاة هى تحبسه والملائكة يصلّون على أحدكم ما دام فى مجلسه الذى صلّى فيــه يقولون اللّهمّ ٱرحمه اللّهمّ ٱغفر له اللّهمّ تُبْ عليه ما لم يُؤْذِ فيه ما لم يُحْدِث فيه ". قيل لأبى هريرة : ما يحدث ؟ قال : يَفْسُو أو يَضْرِط .

الثالثة عشرة — وٱختلف العلماء فى هذا الفضل المضاف للجماعة؛ هل لأجل الجماعة فقط حيث كانت ، أو إنمـا يكون ذلك الفضـل للجماعة التى تكون فى المسجد ؛ لمـا يلازم ذلك من أفعال تختص بالمساجد كما جاء فى الحـديث ؛ قولان . والأول أظهر ؛ لأن الجماعة هو الوصف الذى عُلّق عليه الحُكم . والله أعلم . وما كان من إكثار الخطا إلى المساجد وقصد الإتيان إليها والمُكْث فيها فذلك زيادة ثواب خارج عن فضل الجماعة . والله أعلم .

الرابعة عشرة — وٱختلفوا أيضا هل تفضل جماعة جماعة بالكثرة وفضيلة الإمام؟ فقال مالك : لا . وقال ٱبن حبيب : نعم؛ لأن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " صلاة الرجل مع الرجل أزكى من صلاته وحده وصـلاته مع الرجلين أزكى من صلاته مع الرجل وما كَثُر فهو أحبّ إلى الله " . رواه أُبَىّ بن كعب وأخرجه أبو داود ، وفى إسناده لين .

الخامسة عشرة — وٱختلفوا أيضا فيمن صـلّى فى جماعة هل يُعيد صلاته تلك فى جماعة أخرى ؟ فقال مالك وأبو حنيفة والشافعى وأصحابهم : إنمـا يعيد الصلاة فى جماعة مع الإمام مَن صلّى وحده فى بيته وأهله أو فى غير بيتـه ؛ وأمّا من صلّى فى جماعة و إن قلّت فإنه لا يعيد فى جمـاعة أكثر منها ولا أقل . وقال أحمـد بن حنبل و إسحاق بن راهْوَيْه وداود بن علىّ : جائز لمن صلى فى جماعة ووجد جماعة أخرى فى تلك الصـلاة أن يعيدها معهم إن شاء؛ لأنها نافلة وسـنة . وروى ذلك عن حُذيفة بن اليَمـان وأبى موسى الأشـعرىّ وأنس بن مالك وصلة بن زفر والشَّعْبِى والنَّخَعِى ، وبه قال حماد بن زيد وسليمان بن حرب .

ٱحتج مالك بقوله صلى الله عليـه وسلم : " لا تُصلَّى صلاةٌ فى يوم مرتين " . ومنهم من يقول : لا تصلّوا . رواه سليمان بن يَسار عن ٱبن عمر . وٱتفق أحمـد و إسحاق على أن معنى

Marfat.com

هـذا الحديث أن يصلي الإنسان الفريضـة ، ثم يقوم فيصلّيها ثانية ينوى بهـا الفرض مرة أخرى ؛ فأمّا إذا صلّاها مع الإمام على أنها سُـنّة أو تطوع فليس بإعادة الصلاة، وقـد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للذين أمرهم بإعادة الصلاة فى جماعة : " إنها لكم نافلة " . من حديث أبى ذرّ وغيره .

السادسة عشرة — روى مسلم عن أبى مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " يَؤُمّ القوم أقرؤهم لكتاب الله فإن كانوا فى القراءة سواء فأعلمُهم بالسُّنة فإن كانوا فى السنة سواءً فأقدمهم هجرةً فإن كانوا فى الهجرة سـواءً فأقدَمُهم سِلْمًا ولا يؤمّنّ الرجلُ الرجلَ فى سلطانه ولا يقعد فى بيتـه على تَكْرِمته إلا بإذنه " وفى رواية " سِـنًّا " مكانَ " سِلْماً " . وأخرجه أبو داود وقال : قال شعبة : فقلت لإسماعيل ما تَكْرِمَتُه ؟ قال : فراشه . وأخرجه الترمذى وقال : حديث أبى مسعود حديث حسن صحيح ، والعمل عليه عند أهل العلم .

قالوا : أحق النـاس بالإمامة أقرؤهم لكتاب الله وأعلمهم بالسُّـنّة . وقالوا : صاحب المنزل أحق بالإمامة . وقال بعضهم : إذا أذِن صاحب المنزل لغيره فلا بأس أن يصلّى به . وكَرِهه بعضهم وقالوا : السُّنة أن يصلّى صاحب البيت . قال ٱبن المنذر : رَوَينا عن الأشعث ٱبن قيس أنه قـدّم غلاما وقال : إنمـا أقدّم القرآن . وممن قال : يؤم القوم أقرؤهم ٱبن سيرين والثورىُّ و إسحاقُ وأصحابُ الرأى . قال ٱبن المنذر : بهذا نقول؛ لأنه موافق للسُّنة . وقال مالك : يتقدّم القوم أعلمهم إذا كانت حاله حسنة ، و إن للسنّ حقًّا . وقال الأوزاعىّ : يؤمّهم أفقههم ؛ وكذلك قال الشافعى وأبو ثور إذا كان يقرأ القرآن ؛ وذلك لأن الفقيه أعرف بمـا ينوبه من الحوادث فى الصلاة . وتأوّلوا الحديث بأن الأقرأ من الصحابة كان الأفقه ؛ لأنهم كانوا يتفقهون فى القرآن ، وقد كان من عُرفهم الغالب تسميتهم الفقهاء بالقرّاء ؛ وٱستدلّوا بتقديم النبيّ صلى الله عليـه وسلم فى مرضه الذى مات فيه أبا بكر لفضله وعلمه . وقال إسحاق : إنمـا قدّمه النبيّ صلى الله عليه وسلم ليدل على أنه خليفته بعده . ذكره أبو عمر فى التمهيد . وروى أبو بكر البزار بإسناد حسن عن أبى هريرة قال قال رسـول الله صلى الله

Marfat.com

عليه وسلم : " إذا سافرتم فليؤمكم أقرؤكم و إن كان أصغركم و إذا أمكم فهو أميركم " . قال : لا نعلمه يروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم إلا من رواية أبى هريرة بهذا الإسناد .

قلت : إمامة الصغير جائزة إذا كان قارئا . ثبت فى صحيح البخاريّ عن عمرو بن سَلِمة قال : كنا بماء مَمَرِّ(١) الناس وكان يمر بنا الركبان فنسألهم ما للناس ؟ ما هذا الرجل؟ فيقولون : يزعم أن الله أرسله ، أوحَى إليه كذا ! أوحى إليه كذا ! فكنت أحفظ ذلك الكلام فكأنما يُقَرّ(٢) فى صدرى ؛ وكانت العرب تَلَوَّمُ(٣) بإسلامها فيقولون : آتركوه وقومه ، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبيّ صادق ؛ فلما كانت وقعة الفتح بادر كل قوم بإسلامهم ، و بدر أبى قومى بإسلامهم ، فلما قدم قال : جئتكم والله من عند نبيّ الله حقًّا ، قال : " صلوا صلاة كذا فى حين كذا فإذا حضرت الصلاة فليؤذِّن أحدكم وليؤمكم أكثركم قرآنا " . فنظروا فلم يكن أحد أكثر منى قرآنا لِمَا كنت أتلقّى من الركبان ، فقدّمونى بين أيديهم وأنا آبن ست أو سبع سنين ، وكانت علىّ بُرْدة إذا سجدت تقلّصت عنى ، فقالت آمرأة من الحَىّ : ألا تغطّون(٤) عنا آسْتَ قارئكم ! فآشتروْا فقطعوا لى قميصا ، فما فرحت بشىء فرحى بذلك القميص . وممن أجاز إمامة الصبىّ غير البالغ الحسنُ البصرى و إسحاقُ بن راهْوَيْه ، وآختاره آبن المنذر إذا عقل الصلاة وقام بها ؛ لدخوله فى جملة قوله صلى الله عليه وسلم : " يؤم القوم أقرؤهم " ولم يستثن ، ولحديث عمرو آبن سَلِمة . وقال الشافعى فى أحد قوليه : يؤم فى سائر الصلوات ولا يؤم فى يوم الجمعة ؛ وقد كان قبلُ يقول : ومن أجزأتْ إمامته فى المكتوبة أجزأت إمامته فى الأعياد ، غير أنى أكره فيها إمامة غير الوالى . وقال الأوزاعىّ : لا يؤم الغـلام فى الصلاة المكتوبة حتى يحتـلم ، إلا أن يكون قوم ليس معهم من القرآن شىء فإنه يؤمهم الغلام المراهق . وقال الزهرى : إن آضطروا إليه أمّهم . ومنع ذلك جملةً مالكٌ والثورىُّ وأصحابُ الرأى .

السابعة عشرة ــ الائتمام بكل إمام بالغ مسلم حُرٍّ على آستقامة جائزٌ من غير خلاف ، إذا كان يعلم حدود الصلاة ولم يكن يلحن فى أمّ القرآن لحنًا يُخِلّ بالمعنى ؛ مثل أن يكسر الكاف

(١) بتشديد الراء مجرورة صفة لماء ، و يجوز فتحها ؛ أى موضع مرورهم . (٢) يقرّ (بقاف مفتوحة) من القرار . وفى رواية « يقرا » بألف مقصورة أى يجمع ، أو بهمزة من القراءة . وفى رواية « يغرى » أى يلصق .
(٣) تلوّم : تنتظر . (٤) فى الأصول : « ألا تغطوا ... » بحذف النون ، ولا مقتضى له .

Marfat.com

من « إِيَّاكَ نَعْبُدُ » ويضم التاء فى « أَنْعَمْتَ » . ومنهم من راعى تفريق الطاء من الضاد ؛ وإن لم يفرّق بينهما لا تصح إمامته؛ لأن معناهما يختلف . ومنهم من رخّص فى ذلك كله إذا كان جاهلا بالقراءة وأمّ مثلَه . ولا يجوز الائتمام بامرأة ولا خُنْثَى مُشْكل ولا كافرٍ ولا مجنونٍ ولا أمّىّ، ولا يكون واحدٌ من هؤلاء إماماً بحال من الأحوال عند أكثر العلماء، على ما يأتى ذكره، إلا الأمّىّ لمثله . قال علماؤنا : لا تصح إمامة الأمّىّ الذى لا يحسن القراءة مع حضور القارئ له ولا لغيره ؛ وكذلك قال الشافعى . فإن أمّ أمّياً مثلَه صحّت صلاتهم عندنا وعند الشافعى . وقال أبو حنيفة : إذا صلّى الأمّىّ بقوم يقرءون وبقوم أمّيين فصلاتهم كلهم فاسدة . وخالفه أبو يوسف فقال : صلاة الإمام ومن لا يقرأ تامّة . وقالت فرقة : صلاتهم كلهم جائزة ؛ لأن كلاًّ مؤدٍّ فرضه ، وذلك مثل المتيمم يصلى بالمتطهرين بالماء ، والمصلى قاعدا يصلى بقوم قيام صلاتهم مجزئة فى قول من خالفنا؛ لأن كلاًّ مؤدّ فرض نفسه .

قلت : وقد يحتج لهذا القول بقوله عليه السلام : "ألا ينظر المصلى [إذا صلّى](١) كيف يصلى فإنما يصلى لنفسه" أخرجه مسلم . وإن صلاة المأموم ليست مرتبطة بصلاة الإمام ، والله أعلم . وكان عطاء بن أبى رباح يقول : إذا كانت امرأته تقرأ كبّر هو وتقرأ هى ؛ فإذا فرغت من القراءة كبّر وركع وسجد وهى خلفه تصلّى . ورُوِىَ هذا المعنى عن قتادة .

الثامنة عشرة — ولا بأس بإمامة الأعمى والأعرج والأشَلّ والأقطع والخصىّ والعبد إذا كان كل واحد منهم عالما بالصلاة . وقال ابن وهب : لا أرى أن يؤمّ الأقطع والأشل ؛ لأنه منتقص عن درجة الكمال، وكرهت إمامته لأجل النقص . وخالفه جمهور أصحابه وهو الصحيح ؛ لأنه عضو لا يمنع فقده فرضا من فروض الصلاة فجازت الإمامة الراتبة مع فقده كالعين ؛ وقد روى أنس أن النبىّ صلى الله عليه وسلم استخلف ابن أمّ مكتوم يؤمّ الناس وهو أعمى ، وكذا الأعرج والأقطع والأشل والخصىّ قياسا ونَظَرًا ، والله أعلم . وقد روى عن أنس بن مالك أنه قال فى الأعمى : وما حاجتهم إليه ! وكان ابن عباس وعِتْبان ابن مالك يؤمّان وكلاهما أعمى؛ وعليه عامّة العلماء .

(١) الزيادة عن صحيح مسلم .

Marfat.com

التاسعة عشرة — وٱختلفوا فى إمامة ولد الزنى؛ فقال مالك : أكره أن يكون إماما راتبا . وكره ذلك عمر بن عبد العزيز. وكان عطاء بن أبى رَباح يقول : له أن يؤم إذا كان مرضيا، وهو قول الحسن البصرى والزُّهرى والنَّخَعى وسفيان الثورى والأوزاعى وأحمد و إسحاق . وتجزئ الصلاة خلفه عند أصحاب الرأى، وغيره أحبّ إليهم . وقال الشافعى: أكره أن ينصب إماماً راتباً مَن لا يُعرف أبوه، ومَن صلى خلفه أجزأه . وقال عيسى بن دينار: لا أقول بقول مالك فى إمامة ولد الزنى وليس عليه من ذنب أبويه شىء . ونحوه قال ٱبن عبد الحكم إذا كان فى نفسه أهلاً للإمامة . قال ٱبن المنذر : يؤم لدخوله فى جملة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يؤم القومَ أقرؤهم " . وقال أبو عمر : ليس فى شىء من الآثار الواردة فى شرط الإمامة ما يدل على مراعاة نسب ؛ و إنما فيها الدلالة على الفقه والقراءة والصلاح فى الدِّين .

الموفية عشرين — وأما العبد فروَى البخارى عن ٱبن عمر قال : لما قدم المهاجرون الأوّلون العَصَبة — موضع بقُبَاء — قبل مقدم النبى صلى الله عليه وسلم كان يؤمّهم سالم مَوْلَى أبى حُذيفة وكان أكثرهم قرآنا . وعنه قال : كان سالم مولى أبى حذيفة يؤم المهاجرين الأوّلين وأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فى مسجد قُبَاء ، فيهم أبو بكر وعمر وزيد وعامر ابن ربيعة؛ وكانت عائشة يؤمّها عبدها ذكوان من المصحف . قال ٱبن المنذر : وأَمّ أبو سعيد مولى أبى أسيد — وهو عبد — نفراً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، منهم حذيفة وأبو مسعود .

ورخّص فى إمامة العبد النَّخَعِىُّ والشعبىُّ والحسنُ البصرى والحكمُ والثورىُّ والشافعىّ وأحمد و إسحاق وأصحابُ الرأى؛ وكره ذلك أبو مِجْلَز . وقال مالك : لا يؤمّهم إلا أن يكون العبد قارئًا ومَن معه من الأحرار لا يقرءون إلا أن يكون فى عيد أو جمعة فإن العبد لا يؤمهم فيها ؛ ويجزئ عند الأوزاعى إن صلوا وراءه . قال ٱبن المنذر : العبد داخل فى جملة قول النبى صلى الله عليه وسلم : " يؤم القوم أقرؤهم " .

الحادية والعشرون — وأما المرأة فروَى البخارى عن أبى بكرة قال : لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهل فارس قد ملّكوا بنت كسرى قال : " لن يفلح قوم ولّوا أمرهم

Marfat.com

آمرأة" . وذكر أبو داود عن عبـد الرحمن بن خلّاد عن أمّ ورقة بنت عبد الله قال : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزورها فى بيتها ، قال : وجعل لهـا مؤذّنا يؤذّن لهـا وأمرها أن تؤم أهـل دارها . قال عبـد الرحمن : فأنا رأيت مؤذنها شيخا كبيرا . قال آبن المنذر : والشافعى يوجب الإعادة على مَن صلّى من الرجال خلف المرأة . وقال أبو ثور : لا إعادة عليهم . وهذا قياس قول المُزَنى .

قلت : وقال علماؤنا لا تصح إمامتها للرجال ولا للنساء . وروى آبن أَيْمن[1] جواز إمامتها للنساء . وأما الخُنْثَى المشكل فقـال الشافعى : لا يؤم الرجال ويؤم النساء . وقال مالك : لا يكون إماما بحال ؛ وهو قول أكثر الفقهاء .

الثانيـة والعشرون — الكافر المخـالف للشرع كاليهودى والنصرانى يؤم المسلمين وهم لا يعلمون بكفره . وكان الشافعى وأحمـد يقولان : لا يجزئهم و يعيدون . وقاله مالك وأصحابه ؛ لأنه ليس من أهل القُربة . وقال الأوزاعى : يعاقب . وقال أبو ثور والمُزَنى : لا إعادة على مَن صلى خلفه ، ولا يكون بصلاته مسلمًا عنـد الشافعى وأبى ثور . وقال أحمد : يجبر على الإسلام .

الثالثة والعشرون — وأما أهل البِدع من أهل الأهواء كالمعتزلة والجهمية وغيرهما فذكر البخارى عن الحسن : صلّ ، وعليه بدعته . وقال أحمد : لا يصلى خلف أحد من أهل الأهواء إذا كان داعية إلى هواه . وقال مالك : و يصلى خلف أئمة الجَوْر ، ولا يصلى خلف أهل البدع من القدرية وغيرهم . وقال آبن المنذر : كل من أخرجته بدعته إلى الكفر لم تجز الصلاة خلفه ، ومن لم يكن كذلك فالصلاة خلفه جائزة ؛ ولا يجوز تقديم مَن هذه صفته .

الرابعـة والعشرون — وأما الفاسق بجوارحه كالزانى وشارب الخمر ونحو ذلك فاختلف المذهب فيه ؛ فقال آبن حبيب : من صلى وراء من شرب الخمر فإنه يعيد أبدا ، إلا أن يكون الوالى الذى تؤدّى إليه الطاعة ، فلا إعادة على من صلى خلفه إلا أن يكون حينئذ سكران . قاله

---

(١) فى نسخة : « ابن أبى أيمن » .

Marfat.com

من لقيت من أصحاب مالك . وروى من حديث جابر بن عبدالله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال على المنبر : " لا تؤمّنّ آمرأة رجلا ولا يؤمّنّ أعرابى مهاجرا ولا يؤمّنّ فاجر برًّا إلا أن يكون ذلك ذا سلطان " . قال أبو محمد عبد الحق : هـذا يرويه علىّ بن زيد بن جُدْعان عن سـعيد بن المسيّب ، والأكثر يضعّف علىّ بن زيد . وروى الدّارَقُطْنِىّ عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن سرّكم أن تُزَكّوا صلاتكم فقـدّموا خياركم " . فى إسناده أبو الوليد خالد بن إسماعيل المخزومى وهو ضعيف ؛ قاله الدّارَقُطْنِى . وقال فيه أبو أحمد بن عَدىّ : كان يضع الحديث على ثقات المسلمين ؛ وحديثه هذا يرويه عن آبن جُرَيج عن عطاء عن أبى هريرة . وذكر الدّارَقُطْنِىّ عن سلام بن سليمان عن عمر عن محمد بن واسع عن سعيد بن جُبير عن آبن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : " آجعلوا أئمتكم خياركم فإنهم وَفْدُ فيما بينكم و بين الله " . قال الدّارقطنى : عمر هذا هو عندى عمر بن يزيد قاضى المدائن ، وسلام بن سليمان أيضا مدائنى ليس بالقوى ؛ قاله عبد الحق .

الخامسة والعشرون — روى الأئمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنما جُعل الإمام لِيُؤتم به فلا تختلفوا عليه فإذا كبّر فكبّروا و إذا ركع فآركعوا و إذا قال سمع الله لمن حمده فقولوا اللّهُمّ ربّنا ولك الحمد و إذا سجد فآسجدوا و إذا صلى جالسا فصلّوا جلوسًا أجمعون " .

وقد آختلف العلماء فيمن ركع أو خفض قبل الإمام عامدًا على قولين : أحدهما — أن صلاته فاسدة إن فعل ذلك فيها كلها أو فى أكثرها ؛ وهو قول أهل الظاهر ورُوِىَ عن آبن عمر . ذكر سُنيد قال حدّثنا آبن عُلَيّة عن أيوب عن أبى قِلابة عن أبى الورد الأنصارى قال : صلّيت إلى جنب آبن عمر فجعلت أرفع قبل الإمام وأضع قبله ، فلما سلّم الإمام أخذ آبن عمر بيـدى فلوانى وجذبنى ، فقلت : مالك ! قال : مَن أنت ؟ قلتُ : فلان بن فلان ؛ قال : أنتَ من أهل بيت صدق ! فما يمنعك أن تصلّى ؟ قلت : أو ما رأيتنى إلى جنبك ! قال : قد رأيتك ترفع قبل الإمام وتضع قبـله و إنه لا صلاة لمن خالف الإمام . وقال الحسن بن حَىّ فيمن ركع أو سجد قبل الإمام ثم رفع من ركوعه أو سجوده قبل أن يركع الإمام أو يسجد :

Marfat.com

لم يعتدّ بذلك ولم يجزه . وقال أكثر الفقهاء : مَن فعـل ذلك فقد أساء ولم تفسد صلاته؛ لأن الأصل فى صلاة الجماعة والائتمام فيها بالأئمة سُنّة حسنة، فمن خالفها بعد أن أدّى فرض صلاته بطهارتها وركوعها وسجودها وفرائضها فليس عليه إعادتها و إن أسقط بعض سننها؛ لأنه لو شاء أن ينفرد فصلّى قبل إمامه تلك الصلاة أجزأت عنه؛ و بئس ما فعل فى تركه الجماعة . قالوا : ومن دخل فى صلاة الإمام فركع بركوعه وسجد بسجوده ولم يكن فى ركعة و إمامه فى أخرى فقد اقتدى و إن كان يرفع قبله و يخفض قبله ؛ لأنه بركوعه يركع و بسجوده يسجد و يرفع وهو فى ذلك تبع له ، إلا أنه مسيء فى فعله ذلك لخلافه سنة المأموم المجتمع عليها .

قلت : ما حكاه ابن عبد البر عن الجمهور ينبئ على أن صلاة المأموم عندهم غير مرتبطة بصلاة الإمام؛ لأن الإتبـاع الحسيّ والشرعى مفقود، وليس الأمر هكذا عنـد أكثرهم . والصحيح فى الأثر والنظر القول الأوّل؛ فإن الإمام إنمـا جُعل ليؤتم به و يُقتدَى به بأفعاله؛ ومنه قوله تعالى : « إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا »(١) أى يأتمّون بك؛ على ما يأتى بيانه .

هذا حقيقة الإمام لغة وشرعا، فمن خالف إمامه لم يتبعه؛ ثم أن النبيّ صلى الله عليه وسلم بيّن فقال : " إذا كبّر فكبّروا " الحديث . فأتى بالفاء التى توجب التعقيب، وهو المبيّن عن الله مراده . ثم أوعد من رفع أو ركع قبلُ وعيدًا شديدًا فقال : " أمَا يخشى الذى يرفع رأسه قبل الإمام أن يحوّل الله رأسه رأس حمار أو صورته صورة حمار " . أخرجه المُوَطّأ والبخارى ومسلم وأبو داود وغيرهم . وقال أبو هريرة : إنمـا ناصيته بيد شيطان . وقال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم : " كلُّ عملٍ ليس عليـه أمْرُنا فهو ردٌّ " . يعنى مردود . فمن تعمّد خلاف إمامه عالمـا بأنه مأمور باتباعه منهيّ عن مخالفته فقـد استخف بصلاته وخالف ما أُمر به؛ فواجب ألّا تجزى عنه صلاته تلك؛ والله أعلم .

السادسة والعشرون — فإن رفع رأسه ساهياً قبل الإمام فقال مالك رحمـه الله : السُّنّة فيمن سهـا ففعل ذلك فى ركوع أو فى سجود أن يرجع راكعا أو ساجدا وينتظر الإمام، وذلك خطأ ممن فعـله ؛ لأن النبيّ صلى الله عليـه وسلم قال : " إنمـا جُعل الإمام ليؤتم به

(١) راجع جـ ٢ ص ١٠٧

Marfat.com

فلا تختلفوا عليه" . قال ٱبن عبد البر : ظاهر قول مالك هذا لا يوجب الإعادة على من فعله عامدا؛ لقوله : « وذلك خطأ ممن فعله »؛ لأن الساهى الإثمُ عنه موضوع .

السابعة والعشرون — وهذا الخلاف إنما هو فيما عدا تكبيرة الإحرام والسلام، أما السلام فقد تقدّم القول فيه . وأما تكبيرة الإحرام فالجمهور على أن تكبير المأموم لا يكون إلا بعد تكبير الإمام، إلا ما رُوِىَ عن الشافعىّ فى أحد قوليه : أنه إن كبّر قبل إمامه تكبيرة الإحرام أجزأت عنه ؛ لحديث أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء إلى الصلاة فلما كبّر ٱنصرف وأومأ إليهم — أى كما أنتم — ثم خرج ثم جاء ورأسه تقطر فصلّى بهم؛ فلما انصرف قال : "إنى كنت جُنُبًا فنسيتُ أن أغتسل" . ومن حديث أنس «فكبّر وكبّرنا معه» وسيأتى بيان هذا عند قوله تعالى : « وَلَا جُنُبًا » (١) فى «النساء» إن شاء الله تعالى .

الثامنة والعشرون — وروى مسلم عن أبى مسعود قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح مناكبنا فى الصلاة و يقول : "ٱستوُوا ولا تختلفوا فتختلفَ قلوبكم لِيَلِنِي منكم أولو الأحلام والنُّهَى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم" . قال أبو مسعود : فأنتم اليوم أشدّ ٱختلافا . زاد من حديث عبد الله : "و إيّاكم وهَيْشات (٢) الأسواق" . وقوله : "ٱستوُوا" أمْرٌ بتسوية الصفوف وخاصّةً الصف الأوّل وهو الذى يلى الإمام، على ما يأتى بيانه فى سورة « الحجر » (٣) إن شاء الله تعالى . وهناك يأتى الكلام على معنى هذا الحديث بحول الله تعالى .

التاسعة والعشرون — وٱختلف العلماء فى كيفية الجلوس فى الصلاة لٱختلاف الآثار فى ذلك؛ فقال مالك وأصحابه : يُفْضى المصلّى بأَلْيَتَيْه إلى الأرض و ينصب رجله اليمنى ويَثْنِي رجله اليسرى؛ لما رواه فى مُوَطّئه عن يحيى بن سعيد أن القاسم بن محمد أراهم الجلوس فى التشهد فنصب رجله اليمنى وثنى رجله اليسرى وجلس على وَرِكه الأيسر ولم يجلس على قدمه، ثم قال : أرانى هذا عبدُ الله بن عمر، وحدّثنى أن أباه كان يفعل ذلك .

---

(١) راجع جـ ٥ ص ٢٠٤ (٢) الهيشة (مثل الهوشة) : الاختلاط والمنازعة وٱرتفاع الأصوات .
(٣) راجع جـ ١٠ ص ٢٠

Marfat.com

قلت : وهذا المعنى قد جاء فى صحيح مسـلم عن عائشة قالت ٠ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الصلاة بالتكبير والقراءة بالحمـد لله رب العالمين، وكان إذا ركع لم يُشْخِص رأسه ولم يُصَوِّبه، ولكن بين ذلك ، وكان إذا رفع رأسه من الركوع لم يسجد حتى يستوى قائمـا، وكان إذا رفع رأسه من السجدة لم يسجد حتى يستوى جالسا، وكان يقول فى كل ركعتين التحية ، وكان يفرُش رجـله اليسرى وينصب رجله اليمنى ، وكان ينْهى عن عُقْبة الشيطان(1)، وينْهى أن يفترِش الرجل ذراعيه آفتراش السَّبُع ، وكان يختم الصلاة بالتسليم .

قلت : ولهذا الحـديث — والله أعلم — قال آبن عمر : إنمـا سُنَّة الصلاة أن تنصب رجلك اليمنى وتثنى اليسرى . وقال الثَّورى وأبو حنيفة وأصحابه والحسن بن صـالح بن حَىّ : ينصب اليمنى و يقعد على اليسرى ، لحديث وائل بن حُجْر ؛ وكذلك قال الشافعىّ وأحمـد و إسحـاق فى الجلسة الوسطى . وقالوا فى الآخرة من الظهر أو العصر أو المغـرب أو العشاء كقول مالك ؛ لحديث أبى حُميـد الساعدى رواه البخارىّ قال : رأيت النبىّ صـلى الله عليه وسلم إذا كبَّر جعل يديه حَذْوَ مَنْكِبَيه ، و إذا ركع أمكن يديه من ركبتيه ثم هَصَر ظهره، فإذا رفع آستوى حتى يعود كل فقار مكانه ، فإذا سجد وضع يديه غير مفترش ولا قابضهما وآستقبل بأطراف أصـابع رجليه القبـلة ، و إذا جلس فى الركعتين جلس على رجـله اليسرى ونصب الأخرى ، و إذا جلس فى الركعة الآخرة قدّم رجله اليسرى ونصب اليمنى وقعد على مقعدته . قال الطبرى : إن فعل هذا فحسن، كل ذلك قد ثبت عن النبىّ صلى الله عليه وسلم .

الموفية الثلاثين — مالك عن مسلم بن أبى مريم عن علىّ بن عبد الرحمن المُعَاوىّ أنه قال : رآنى عبد الله بن عمر وأنا أعبث بالحصباء فى الصلاة؛ فلما آنصرف نهانى فقال : آصنع كما كان رسول الله صلى الله عليه وسـلم يصنع؛ قلت : وكيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنع ؟ قال : كان إذا جلس فى الصلاة وضع كفه اليمنى على فخذه اليمنى وقبض أصابعه

---

(1) عقبة الشيطان : قال آبن الأثير : « هو أن يضـع أليتيه على عقبيه بين السجدتين ، وهو الذى يجعله بعض الناس الإقعاء . وقيل : هو أن يترك عقبيه غير مغسولين فى الوضوء » .

Marfat.com

كلها وأشار بأصبعه التي تلي الإبهام ، ووضع كفه اليسرى على فخذه اليسرى ؛ وقال : هكذا كان يفعل . قال ٱبن عبــد البر : وما وصــفه ٱبن عمر من وضــع كفه اليمنى على فخذه اليمنى وقبض أصابع يده تلك كلها إلا السبابة منها فإنه يشير بهــا ، ووضع كفه اليسرى على فخذه اليسرى مفتوحة مفروجة الأصابع؛ كل ذلك سنة في الجلوس في الصلاة مُجْمَعٌ عليه، لا خلاف عَلِمته بين العلماء فيها، وحسبك بهذا . إلا أنهم ٱختلفوا في تحريك أصبعه السبابة، فمنهم من رأى تحريكها، ومنهــم من لم يره . وكل ذلك مرويّ في الآثار الصحاح المسندة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وجميعه مباح ، والحمــد لله . وروى سفيان بن عُيينة هذا الحديث عن مسلم بن أبي مريم بمعنى ما رواه مالك وزاد فيه : قال سفيان : وكان يحيى بن سعيد حدّثناه عن مســلم ثم لقيته فسمعته منه وزادني فيــه : قال : " هي مذبّة الشيطان لا يسهو أحدكم ما دام يشير بإصبعه و يقول هكذا " .

قلت : روى أبو داود في حديث ٱبن الزبير أنه عليــه السلام كان يشير بإصبعه إذا دعا ولا يحركها . و إلى هذا ذهب بعض العراقيين، فمنع من تحريكها . و بعض علمائنا رأوا أن مدّها إشارة إلى دوام التوحيد . وذهب أكثر العلماء من أصحاب مالك وغيرهم إلى تحريكها، إلا أنهم ٱختلفوا في الموالاة بالتحريك على قولين؛ تأوّل مَن والاه بأن قال : إن ذلك يذكر بموالاة الحضور في الصلاة ؛ و بأنهــا مقمعة ومدفعة للشيطان على ما روى سفيان . ومن لم يوال رأى تحريكها عنــد التلفظ بكلمتي الشهادة، وتأول في الحركة كأنها نطق بتلك الجارحة بالتوحيد؛ والله أعلم .

الحادية والثلاثون — وٱختلفوا في جلوس المرأة في الصلاة؛ فقال مالك : هي كالرجل، ولا تخالفه فيما بعــد الإحرام إلا في اللباس والجهر . وقال الثوريّ : تسدُل المرأة جلبابها من جانب واحد ؛ ورواه عن إبراهيم النَّخَعِيّ . وقال أبو حنيفة وأصحابه : تجلس المرأة كأيسر ما يكون لهــا . وهو قول الشَّعْبي : تقعد كيف تيسر لهــا . وقال الشافعيّ : تجلس بأســتر ما يكون لهــا .

Marfat.com

الثانيـة والثلاثون — روى مسلم عن طاوس قال : قلنـا لأبن عبـاس فى الإقعاء على القدمين؛ فقال: هى السُّنّة ؛ فقلنا له إنا لنراه جفاء بالرجل؛ فقال آبن عباس : [بل] (١) هى سُنّة نبيك صلى الله عليه وسلم . وقد آختلف العلماء فى صفة الإقعاء ما هو؛ فقال أبو عبيد : الإقعاء جلوس الرجل على أليتيه ناصبًا فخـذيه مثل إقعاء الكلب والسَّبُع . قال آبن عبد البر : وهذا إقعاء مجتمع عليه لا يختلف العلماء فيـه . وهذا تفسير أهل اللغة وطائفة من أهـل الفقه . وقال أبو عبيد : وأما أهـل الحديث فإنهم يجعلون الإقعاء أن يجعل أليتيه على عقبيه بين السجدتين . قال القاضى عياض : والأشبه عندى فى تأويل الإقعاء الذى قال فيه آبن عباس إنه من السُّنّة؛ الذى فسّر به الفقهاء من وضع الأليتين على العقبين بين السجدتين؛ وكذا جاء مفسَّرا عن آبن عبـاس : من السُّـنة أن تمس عقبـك أليتك . رواه إبراهيم بن مَيْسرة عن طاوس عنه؛ ذكره أبو عمر . قال القاضى : وقد رُوى عن جماعة من السلف والصحابة أنهم كانوا يفعلونه، ولم يقل بذلك عامة فقهاء الأمصار وسمّوْه إقعاء . ذكر عبد الرزاق عن معمر عن آبن طاوس عن أبيه أنه رأى آبن عمر وآبن عباس وابن الزبير يَقْعون بين السجدتين .

الثالثة والثلاثون — لم يختلف من قال من العلمـاء بوجوب التسليم وبعدم وجوبه أن التسليمة الثانية ليست بفرض، إلا ما روى عن الحسن بن حَىّ أنه أوجب التسليمتين معًا . قال أبو جعفر الطحاوىّ : لم نجد عن أحد من أهل العلم الذين ذهبوا إلى التسليمتين أن الثانية من فرائضها غيره . قال آبن عبد البر : من حجة الحسن بن صالح فى إيجابه التسليمتين جميعا — وقوله : إن من أحدث بعد الأولى وقبل الثانية فسدت صلاته — قولُه صلى الله عليه وسـلم : " تحليلها التسليم " . ثم بيّن كيف التسليم فكان يسـلّم عن يمينه وعن يساره . ومن حجة من أوجب التسليمة الواحدة دون الثانية قوله صلى الله عليه وسلم : "تحليلها التسليم" قالوا : والتسليمة الواحدة يقع عليها آسم تسليم .

---

(١) الزيادة من صحيح مسلم .

قلت : هذه المسئلة مبنية على الأخذ بأقل الاسم أو بآخره ، ولمـا كان الدخول فى الصلاة بتكبيرة واحدة بإجماع فكذلك الخروج منها بتسليمة واحدة ، إلا أنه تواردت(١) السنن الثابتـة من حديث ابن مسعود — وهو أكثرها تواترا — ومن حديث وائل بن حُجْر الحضرمىّ وحديث عمّـار وحديث البَراء بن عازب وحديث ابن عمر وحديث سعد بن أبى وَقّاص أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يسلم تسليمتين . روى ابن جُريج وسليمان بن بلال وعبد العزيز ابن محمد الدّراوَرْدِىّ كلُّهـم عن عمرو بن يحيى المـازنى عن محمد بن يحيى بن حَبّان عن عمه واسع بن حَبّان قال قلت لابن عمر : حدّثنى عن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف كانت ؟ فذكر التكبير كلما رفع رأسـه وكلما خفضه ، وذكر السلام عليكم ورحمة الله عن يمينه ، السلام عليكم ورحمة الله عن يساره . قال ابن عبد البر : وهـذا إسناد مدنى صحيح ، والعمل المشهور بالمدينة التسليمة الواحدة ، وهـو عمل قد توارثه أهـل المدينة كابرا عن كابر ، ومثله يصح فيه الاحتجاج بالعمل فى كل بلد ؛ لأنه لا يخفى لوقوعه فى كل يوم مرارا . وكذلك العمل بالكوفة وغيرها مستفيض عنـدهم بالتسليمتين ومتوارث عندهم أيضا . وكل ما جرى هـذا المجرى فهو اختلاف فى المباح كالأذان ، وكذلك لا يروى عن عالم بالحجـاز ولا بالعـراق ولا بالشام ولا بمصر إنكار التسليمة الواحدة ولا إنكار التسليمتين بـل ذلك عندهم معـروف ، وحديث التسليمة الواحدة رواه سـعد بن أبى وقّاص وعائشة وأنس ؛ إلا أنها معلولة لا يصححها أهل العلم بالحديث .

الرابعـة والثلاثون — روى الدّارَقُطْنِىّ عن ابن مسعود أنه قال : من السُّنة أن يخفى التشهّد . واختار مالك تشهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو . التحيات لله الزكيات لله الطيبات الصلوات لله ، السلام عليك أيها النبىّ ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبـده ورسوله . واختـار الشافعى وأصحابه واللّيث بن سعد تشهّد ابن عباس ؛ قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلّمنا التشهد كما يعلمنا السورة من القرآن ، فكان يقول : " التحيات المباركات الصلوات الطيبات

(١) فى نسخة : « توارثت » .

Marfat.com

لله ، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسـول الله " . وٱختار الثـوري والكوفيون وأكثر أهل الحديث تشهد ٱبن مسعود الذى رواه مسلم أيضا قال : كنا نقول فى الصلاة خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم : السلام على الله ، السلام على فلان ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم : " إن الله هو السلام فإذا قعد أحدكم فى الصلاة فليقل التحيّات لله والصلوات والطيبات السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين — فإذا قالها أصابت كل عبد [لله](١) صالح فى السماء والأرض — أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ثم يتخير من المسألة ما شاء " . وبه قال أحمد وإسحاق وداود . وكان أحمد بن خالد بالأندلس يختاره ويميل إليه . وروى عن أبى موسى الأشعرى مرفوعا وموقوفا نحو تشهد ٱبن مسعود . وهذا كله ٱختلاف فى مباح ليس شيء منـه على الوجوب ، والحمد لله وحده . فهـذه جملة من أحكام الإمام والمأموم تضمّنها قوله جل وعز : « وَٱرْكَعُوا مَعَ ٱلرَّاكِعِينَ » . وسيأتى القول فى القيام فى الصلاة عند قوله تعالى : « وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ »(٢) . ويأتى هناك حكم الإمام المريض وغيره من أحكام الصلاة ، ويأتى فى « آل عمران »(٣) حكم صـلاة المريض غير الامام ، ويأتى فى « النساء »(٤) فى صـلاة الخوف حكم المفترض خلف المتنفل ، ويأتى فى سـورة « مريم »(٥) حكم الامام يصـلى أرفع من المأموم ، إلى غير ذلك من الأوقات والأذان والمساجد ؛ وهذا كله بيان لقوله تعالى : « وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ » . وقد تقدّم فى أول السورة جملة من أحكامها ، والحمد لله على ذلك .

قوله تعـالى : أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾

فيه تسع مسائل :

---

(١) الزيادة من مسلم . (٢) راجع جـ ٣ ص ٢١٣ (٣) راجع جـ ٤ ص ٣١١
(٤) راجع جـ ٥ ص ٣٥١ (٥) راجع جـ ١١ ص ٨٥

Marfat.com

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ ﴾ هذا آستفهام معناه التوبيخ، والمراد في قول أهل التأويل علماءُ اليهود . قال آبن عباس : كان يهود المدينة يقول الرجل منهم لصهره ولذي قرابته ولمن بينه وبينه رضاع من المسلمين : آثبت على الذي أنت عليه وما يأمرك به هـذا الرجل — يريدون محمدا صلى الله عليه وسلم — فإن أمره حق ؛ فكانوا يأمرون النـاس بذلك ولا يفعلونه . وعن آبن عباس أيضا : كان الأحبار يأمرون مقلديهم وأتباعهم بآتباع التوراة ، وكانوا يخالفونها في جحدهم صفة محمد صلى الله عليه وسلم . وقال آبن جُريج : كان الأحبار يحضّون على طاعة الله وكانوا هم يواقعون المعـاصي . وقالت فرقة : كانوا يحضّون على الصـدقة ويبخلون . والمعنى متقـارب . وقال بعض أهل الإشارات : المعنى أتطالبون الناس بحقائق المعاني وأنتم تخالفون عن ظواهر رسومها ! .

الثانيــة — في شدّة عذاب من هـذه صفته ؛ روى حماد بن سلمة عن عليّ بن زيد عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليلةَ أسري بي مررت على ناس تُقرض شفاههم بمقاريضَ من نار[1] ، فقلت يا جبريل من هؤلاء ؟ قال هؤلاء الخطباء من أهل الدنيا يأمرون الناس بالبر وينسْون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون " . وروى أبو أمامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الذين يأمرون النـاس بالبر وينسْون أنفسهم يجترون قُصْبهم[2] في نار جهنم فيقـال لهم من أنتم ؟ فيقولون نحن الذين كنا نأمر النـاس بالخير وننسى أنفسنا " .

قلت : وهذا الحديث وإن كان فيه لين ؛ لأن في سنده الخصيب بن جَحْدر كان الإمام أحمد يستضعفه ، وكذلك آبن مَعين يرويه عن أبي غالب عن أبي أمامة صُـديّ بن عجلان الباهلي ، وأبو غالب هو — فيما حكى يحيى بن مَعين — حَزَوَّر القرشي مولى خالد بن عبد الله آبن أسـيد . وقيل : مولى باهلة . وقيـل : مولى عبد الرحمن الحضرمي ، كان يختلف إلى

---

(١) كذا في مسند الإمام أحمـد بن حنبل (جـ ٣ ص ١٢٠) وتفسـير الفخر الرازي (جـ ١ ص ٤٩٦) . وفي الأصول : « من أمتك » .

(٢) سيأتي معنى « القصب » .

Marfat.com

الشام فى تجارته . قال يحيى بن مَعين : هو صالح الحديث ، فقـد رواه مسلم فى صحيحه بمعناه عن أسامة بن زيد قال سمعت رسـول الله صلى الله عليـه وسلم يقول : " يؤتَى بالرجل يوم القيامة فيلق فى النـار فتندلق أقتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار [بالرحى](1) فيجتمع إليـه أهل النار فيقولون يا فلان ما لك ألم [تكن](1) تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فيقول بلى قد كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه " .

القُصْب (بضم القاف) : المِعَى ، وجمعـه أقصاب . والأقتاب : الأمعـاء ، واحدها قِتب . ومعنى « فتندلق » : فتخرج بسرعة . وروينا « فتنفلق » .

قلت : فقد دلّ الحديث الصحيح وألفاظ الآية على أن عقوبة من كان عالمـا بالمعروف وبالمنكر وبوجوب القيـام بوظيفة كل واحد منهما أشـد ممن لم يعلمه ؛ وإنمـا ذلك لأنه كالمستهين بحرمات الله تعالى ، ومستخفّ بأحكامه ، وهو ممن لا ينتفع بعلمه ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أشدّ النـاس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمـه " . أخرجه ابن ماجه فى سُننه .

الثالثـــة — اعلم وفّقك الله تعـالى أن التوبيخ فى الآية بسبب ترك فعل البر لا بسبب الأمر بالبر ، ولهذا ذمّ الله تعـالى فى كتابه قوما كانوا يأمرون بأعمال البر ولا يعملون بهـا ؛ وبخهم به توبيخًا يُتْـلَى على طول الدهر إلى يوم القيامة فقال : « أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّـاسَ بِٱلْبِرِّ » الآية . وقال منصور الفقيه فأحسن :

إن قومًا يأمرونا * بالذى لا يفعـــلونا
لمجانين وإن هـم * لم يكونوا يصرعونا

وقال أبو العتاهية :

وصفتَ التُّقَى حتى كأنك ذو تُقًى * وريحُ الخطايا من ثيابك تسطع

(1) الزيادة من صحيح مسلم .

وقال أبو الأسود الدؤلي :

لاتنـهَ عن خُلق وتأتيَ مثــلَه * عارٌ عليـك إذا فعلتَ عظــيمُ
وآبدأ بنفسـك فآنهها عن غيّها * فإن آنتهتْ عنه فأنت حكــيمُ
فهناك يُقبَل إن وَعظتَ ويُقتدَى * بالقول منـك وينفع التعلــيمُ

وقال أبو عمرو بن مطر : حضرت مجلس أبي عثمان الحيري الزاهد فخرج وقعـد على موضعه الذي كان يقعد عليه للتذكير، فسكت حتى طال سكوته؛ فناداه رجل كان يعرف بأبي العباس : ترى أن تقول في سكوتك شيئا ؟ فأنشأ يقول :

وغير تَقِيٍّ يأمر النـاس بالتُّــقَى * طبيبٌ يداوي والطبيبُ مريضُ

قال : فآرتفعت الأصوات بالبكاء والضجيج .

الرابعــة — قال إبراهيم النَّخَعي : إني لأكره القَصص لثلاث آيات ، قوله تعالى : « أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ» الآية، وقوله : « لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ »(1) ، وقوله : « وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ »(2) . وقال سَلْم(3) بن عمرو :

ما أقبحَ التزهيـدَ من واعظٍ * يُزَهّــد النـاسَ ولا يَزْهَــدُ
لو كان في تزهيده صـادقا * أَضحى وأمسى بيتُه المسـجدُ
إنْ رفض الدنيا فما بالُه * يَستمنح النـاس ويسـترفِدُ
والرزق مقسومٌ على من ترى * ينـالُه(4) الأبيضُ والأســودُ

وقال الحسن لمطرِّف بن عبد الله : عِظ أصحابك؛ فقال إني أخاف أن أقول مالا أفعل؛ قال : يرحمك الله ! وأيّنا يفعل ما يقول ! ويودّ الشيطان أنه قد ظَفِر بهذا، فلم يأمر أحد بمعروف ولم ينه عن منكر. وقال مالك عن ربيعـة بن أبي عبد الرحمن سمعت سعيد بن جُبير يقول : لو كان المرء لايأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيـه شيء ، ما أمر

---

(1) راجع جـ ١٨ ص ٧٧　　(2) راجع جـ ٩ ص ٨٩　　(3) كذا في الأصول . والصحيح أن الأبيات للجماز، وهو آبن أخت سـلم بن عمرو الخاسر . يراجع الأغاني (ج ٤ ص ٧٦) طبع دار الكتب المصرية .

(4) كذا في الأغاني . وفي الأصول : « يسعى له » .

أحد بمعروف ولا نَهى عن منكر . قال مالك : وصدق، من ذا الذى ليس فيه شىء [(١)] !.

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ بِالْبِرِّ ﴾ البِرّ هنا الطاعة والعمل الصالح . والبِرّ : الصدق . والبِرّ : ولد الثعلب . والبِرّ : سَوق الغنم؛ ومنه قولهم : « لا يعرف هِرًّا من بِر» أى لا يعرف دعاء الغنم من سَوقها . فهو مشترك؛ وقال الشاعر :

لا هُمّ رَبّ إن بكرا [(٢)] دونكا * يَبَرّك الناس ويفجرونكا

أراد بقوله « يبرّك الناس » : أى يطيعونك . ويقال : إن البِرّ الفؤادُ فى قوله :

أكون مكان البِرّ منه ودونه [(٣)] * وأجعل مالى دونه وأوامِرُه

والبُرّ (بضم الباء) معروف، و (بفتحها) الإجلال والتعظيم؛ ومنه ولد بَرّ وبارّ؛ أى يُعظّم والديه ويكرمهما .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ أى تتركون . والنسيان (بكسر النون) يكون بمعنى التَّرك؛ وهو المراد هنا، وفى قوله تعالى : « نَسُوا اللّهَ فَنَسِيَهُمْ [(٤)] »، وقوله : « فلما نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ [(٥)] »، وقوله : « وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ [(٦)] » . ويكون خلاف الذِّكر والحفظ؛ ومنه الحديث : " نَسِيَ آدمُ فنسِيَتْ ذرّيّتُه " . وسيأتى . يقال : رجل نَسْيان (بفتح النون) : كثير النِّسيان للشىء . وقد نَسِيت الشىء نِسْيانًا، ولا تقل نَسَيانا (بالتحريك)؛ لأن النَّسَيان إنما هو تثنية نَسَا العِرْق . وأنفس : جمع نَفْس، جمع قِلّة . والنَّفْس : الروح؛ يقال : خرجت نَفْسُه، قال أبو خراش :

نجا سالم والنَّفس منه بشِدْقِهِ * ولم يَنْج إلا جَفْن سَيف ومئزرا

أى بجفن سيف ومئزر . ومن الدليل على أن النفس الروح قوله تعالى : « اللّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا [(٧)] » يريد الأرواح؛ فى قول جماعة من أهل التأويل على ما يأتى . وذلك

(١) فى نسخة : « عليه » . (٢) كذا فى البحر المحيط لأبى حيان . وفى الأصول : « بكوا » بالواو . وفى تفسير الشوكانى : « إن يكونوا » . (٣) كذا فى الأصول واللسان مادة « برر » . وفى شرح القاموس :

* يكون مكان البرمنى ودونه *

(٤) راجع جـ ٨ ص ١٩٩ (٥) راجع جـ ٦ ص ٤٢٦ (٦) راجع جـ ٣ ص ٢٠٨
(٧) راجع جـ ١٥ ص ٢٦٠

Marfat.com

بين فى قول بلال للنبيّ صلّى الله عليه وسلم فى حديث ٱبن شهاب : أخذ بنفسى يا رسول الله الذى أخذ بنفسك . وقوله عليه السلام فى حديث زيد بن أسلم : "إن الله قبض أرواحنا ولو شاء لردّها إلينا فى حين غير هذا" . رواهما مالك؛ وهو أوْلى ما يقال به . والنّفْس أيضا الدم؛ يقال : سالت نفسه؛ قال الشاعر (١) :

تسيل على حدّ السيوف (٢) نفوسُنا * وليست على غير الظُّبات تسيل

وقال إبراهيم النَّخَعيّ : ما ليس له نَفْس سائلة فإنه لا ينجس الماء إذا مات فيه . والنفس أيضا الجسد؛ قال الشاعر (٣) :

نُبِّئتُ أن بنى سُحَيم أدخلوا * أبياتَهم تامُورَ نَفْسِ المُنذرِ

والتامور أيضا : الدم .

السابعة — قوله تعالى : ﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَابَ﴾ توبيخ عظيم لمن فَهِم . «وتَتْلُونَ» : تقرءون . «الكتاب» : التوراة . وكذا مَن فعل فعلهم كان مثلَهم . وأصل التلاوة الاتباع؛ ولذلك ٱستعمل فى القراءة؛ لأنه يتبع بعض الكلام ببعض فى حروفه حتى يأتى على نَسَقه؛ يقال : تلوته إذا تبعته تُلُوًّا، وتلوتُ القرآن تِلاوة . وتلوتُ الرجلَ تُلُوًّا إذا خذلته . والتَّلِيّة والتُّلاوة (بضم التاء) : البقية؛ يقال : تَلِيَتْ لى من حقى تُلاوة وتَلِية؛ أى بقيت . وأتليت : أبقيت . وتتلّيتُ حقى إذا تتبعته حتى تستوفيه . قال أبو زيد : تَلِّى الرجلُ إذا كان بآخر رَمق .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أى أفلا تمنعون أنفسكم من مواقعة هذه الحال المردية لكم . والعقل : المنع؛ ومنه عِقال البعير؛ لأنه يمنع عن الحركة . ومنه العقل للدّية؛ لأنه يمنع وليّ المقتول عن قتل الجانى . ومنه ٱعتقال البطن واللّسان . ومنه يقال للحصن : مَعْقِل . والعقل . نقيض الجهل . والعقل : ثوب أحمر تتخذه نساء العرب تُغَشّى به الهوادج؛ قال عَلقمة :

عَقْلًا ورَقْمًا تكاد الطير تخطفه * كأنه من دم الأجواف مَدمومُ

(١) هو السموءل . (٢) فى اللسان : «حد الظبات» . (٣) هو أوس بن حجر؛ يحرض عمرو بن هند على بنى حنيفة وهم قتلة أبيه المنذر بن ماء السماء . أى حملوا دمه إلى أبياتهم . (عن اللسان) .

Marfat.com

المدموم (بالدال المهملة) : الأحمر، وهو المراد هنا . والمدموم : الممتلئ شحماً من البعير وغيره . ويقال : هما ضربان من البرود . قال ابن فارس : والعقل من شيات الثياب ما كان نقشه طولا، وما كان نقشـه مستديرا فهو الرَّقْم . وقال الزجاج : العاقل مَن عمل بمـا أوجب الله عليه، فمن لم يعمل فهو جاهل .

التاســعة ــ اتفق أهـل الحق على أن العقل كائن ،وجود ليس بقـديم ولا معدوم؛ لأنه لو كان معدوما لمـا اختصّ بالاتصاف به بعض الذوات دون بعض ؛ وإذا ثبت وجوده فيستحيل القول بقدمه ؛ إذ الدليل قد قام على أن لا قديم إلا الله تعالى، على ما يأتى بيانه فى هذه السورة وغيرها، إن شاء الله تعالى .

وقـد صارت الفلاسفة إلى أن العقل قديم ؛ ثم منهـم من صار إلى أنه جوهر لطيف فى البدن ينبثّ شعاعه منه بمنزلة السراج فى البيت، يفصل به بين حقائق المعلومات . ومنهم من قال : إنه جوهر بسيط ؛ أى غير مركب . ثم اختلفوا فى محله ؛ فقالت طائفة منهم : محله الدماغ ؛ لأن الدماغ محل الحِسّ . وقالت طائفة أخرى : محـله القلب، لأن القلب معدن الحيـاة ومادة الحواس . وهـذا القول فى العقل بأنه جوهر فاسـد، من حيث إن الجواهر متمـاثلة؛ فلو كان جوهر عقلا لكان كل جوهر عقلا . وقيل : إن العقل هو المدرك للأشياء على ما هى عليه من حقائق المعانى . وهـذا القول وإن كان أقرب ممـا قبله فيبعد عن الصواب من جهـة أن الإدراك من صـفات الحىّ، والعقل عَرَض يستحيل ذلك منه كما يستحيل أن يكون ملتذا ومشتهيا . وقال الشيخ أبو الحسن الأشعرى والأستاذ أبو إسحـاق الأسفراينى وغيرهما من المحققين : العقل هو العلم، بدليل أنه لا يقال : عَقَلت وما علمت، أو علمت وما عقلت . وقال القاضى أبو بكر : العقل علوم ضرورية بوجوب الواجبات وجواز الجائزات واستحالة المستحيلات ؛ وهو اختيار أبى المعـالى فى الإرشاد ؛ واختار فى البرهان أنه صفة يتأتّى بهـا درك العلوم . واعترض على مذهب القاضى واستدل على فساد مذهبـه . وحكى فى البرهان عن المحاسبى أنه قال : العقل غريزة . وحكى الأستاذ

Marfat.com

أبو بكر عن الشافعى وأبى عبـد الله بن مجاهـد أنهما قالا : العقـل آلة التمييز . وحكى عن أبى العباس القَلَانسى أنه قال : العقل قوة التمييز . وحكى عن المحاسبى أنه قال : العقل أنوار وبصائر . ثم رتّب هذه الأقوال وحملها على محامل فقال : والأولى ألا يصح هذا النقل عن الشافعى ولا عن ابن مجاهد ، فإن الآلة إنما تستعمل فى الآلة المثبتة(١) واستعمالها فى الأعراض مجاز . وكذلك قول من قال : إنه قوة ، فإنه لا يعقل من القوة إلا القدرة ، والقلانسى أطلق ما أطلقه توسُّعاً فى العبارات ، وكذلك المحاسبى . والعقل ليس بصورة ولا نور ، ولكن تستفاد به الأنوار والبصائر . وسيأتى فى هذه السورة بيان فائدته فى آية(٢) التوحيد إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿وَٱسْتَعِينُوا بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾

فيه ثمـان مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿وَٱسْتَعِينُوا بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَاةِ﴾ الصبر : الحبس فى اللغـة . وقُتِل فلان صَـبْراً ؛ أى أُمسِك وحُبِس حتى أُتلف . وصَبَرْتُ نفسى على الشىء : حبستها . والمصبورة التى نُهى عنها فى الحديث هى المحبوسة على الموت ، وهى المُجَثَّمة . وقال عنترة :

فَصَبَرْتُ عارفـةً لذلك حُرَّةً * تَرْسُو إذا نَفْسُ الجبان تَطَلَّعُ

الثانيـــة — أمر تعالى بالصبر على الطاعة وعن المخالفة فى كتابه فقال : « وَٱصْبِرُوا » . يقال : فلان صابر عن المعاصى . وإذا صبر عن المعاصى فقـد صبر على الطاعة ؛ هـذا أصح ما قيل . قال النحاس : ولا يقال لمن صبر على المصيبة : صابر ؛ إنمـا يقال : صابر على كذا . فإذا قلت : صابر مطلقا فهو على ما ذكرنا ؛ قال الله تعـالى : « إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ(٣) » .

الثالثـــة — قوله تعـالى : ﴿وَٱلصَّلَاةِ﴾ خصّ الصلاة بالذكر من بين سائر العبادات تنويهاً بذكرها . وكان عليه السلام إذا حَزَبَه(٤) أمرٌ فزع إلى الصلاة . ومنه ما روى أن عبد الله

(١) فى بعض نسخ الأصل : « فى الآلة المبنية » . (٢) راجع جـ ٢ ص ١٩١
(٣) راجع جـ ١٥ ص ٢٤١ . (٤) حزبه : أى نزل به مُهم أو أصابه غم .

ابن عباس نُعِيَ له أخوه قُثَم — وقيل بنت له — وهو فى سفر فاسترجع وقال : عَوْرة سترها الله، ومؤنة كفاها الله، وأجْر ساقه الله . ثم تنحّى عن الطريق وصلّى، ثم انصرف إلى راحلته وهو يقرأ : « وَٱسْتَعِينُوا بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّـلَاةِ » . فالصلاة على هـذا التأويل هى الشرعية .
وقال قوم: هى الدعاء على عُرْفها فى اللغة؛ فتكون الآية على هذا التأويل مشبهة لقوله تعالى : « إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا وَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ »؛ لأن الثبات هو الصبر، والذكر هو الدعاء. وقول ثالث، قال مجاهد : الصبر فى هـذه الآية الصوم ؛ ومنه قيـل لرمضان : شهر الصبر ؛ فجاء الصوم والصلاة على هـذا القول فى الآية متناسبًا فى أن الصيام يمنع من الشهوات ويزهّد فى الدنيا ، والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وتُخشع ويُقرأ فيها القرآن الذى يذكّر الآخرة . والله أعلم .

الرابعـــة — الصبر على الأذى والطاعات من باب جهاد النفس وقمعها عن شهواتها ومنعها من تطاولها ، وهو من أخلاق الأنبيـاء والصالحين . قال يحيى بن اليمَـان : الصبر ألا تمنّى حالة سوى ما رزقك الله ، والرضا بمـا قضى الله من أمر دنيـاك وآخرتك . وقال الشعبيّ : قال علىّ رضى الله عنه : الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد. قال الطبرى : وصدق علىّ رضى الله عنه ؛ وذلك أن الإيمان معرفة بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالجوارح؛ فمن لم يصبر على العمل بجوارحه لم يستحق الإيمـان بالإطلاق . فالصبر على العمل بالشرائع نظير الرأس من الجسد للإنسان الذى لا تمام له إلا به .

الخامســـة — وصف الله تعالى جزاء الأعمال وجعل لها نهاية وحدًّا فقال : « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا »(١) . وجعـل جزاء الصدقة فى سبيل الله فوق هـذا فقال : « مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ »(٢) الآية . وجعل أجر الصابرين بغير حساب ، ومدح أهله فقال : « إِنَّمَـا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَـيْرِ حِسَابٍ » . وقال : « وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ »(٣) . وقد قيل : إن المراد بالصابرين فى قوله : « إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ » أى الصائمون ؛ لقوله تعالى فى صحيح السُّنّة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : " الصيام لى وأنا أَجْزِى به " فلم يذكر ثوابا مقدّرا كما لم يذكره فى الصبر . والله أعلم .

(١) راجع جـ ٧ ص ١٥٠ . (٢) راجع جـ ٣ ص ٣٠٢ . (٣) راجع جـ ١٦ ص ٤٤ .

Marfat.com

السادســـة — مِن فَضْل الصّبر وصفَ الله تعالى نفســه به؛ كما فى حديث أبي موسى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "ليس أحد أو ليس شيء أصـبرَ على أذًى سمعه من الله تعالى إنهم ليَدْعُون له ولدا و إنه ليعافيهــم و يرزقهم" . أخرجه البخارى . قال علمـاؤنا : وصفُ الله تعالى بالصبر إنمـا هو بمعنى الحلم ، ومعنى وصـفه تعالى بالحلم هو تأخير العقوبة عن المستحقين لها ، ووصفه تعالى بالصبر لم يَرِد فى التنزيل وإنما ورد فى حديث أبى موسى ، وتأوّله أهل السُّنة على تأويل الحلم؛ قاله ٱبن فُورَك وغيره . وجاء فى أسمائه «الصبور» للمبالغة فى الحلم عمن عصاه .

السابعـــة — قوله تعالى : ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ اختلف المتأوّلون فى عود الضمير من قوله : « وإنهـا » ؛ فقيل : على الصلاة وحدها خاصة ؛ لأنها تكبر على النفوس مالا يكبر الصوم . والصبر هنا : الصوم . فالصلاة فيها سجن النفوس ، والصوم إنما فيه منع الشهوة ؛ فليس مَن مُنع شهوة واحدة أو شهوتين كمن مُنع جميع الشهوات . فالصائم إنما منع شهوة النساء والطعام والشراب، ثم ينبسط فى سائر الشهوات من الكلام والمشى والنظـر إلى غير ذلك من ملاقاة الخلق ، فيتسلّى بتلك الأشياء عما مُنع . والمصـلّى يمتنع من جميع ذلك ، فجوارحه كلها مقيَّدة بالصلاة عن جميع الشهوات . و إذا كان ذلك كانت الصـلاة أصعبَ على النفس ومكابدتها أشـدّ ، فلذلك قال : « وإنّها لكبيرةٌ » . وقيـل : عليهما ، ولكنه كَنَى عن الأغلب وهو الصلاة ؛ كقوله : « وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّـةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ » (1) ، وقوله : «وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْـوًا ٱنْفَضُّوا إِلَيْهَا» (2) . فردّ الكناية إلى الفضة ؛ لأنها الأغلب والأعم ، وإلى التجارة؛ لأنها الأفضل والأهم . وقيل : إن الصبر لمـّا كان داخلا فى الصلاة أعاد عليها ؛ كما قال : « وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ » (3) . ولم يقل : يرضوهما ؛ لأن رضا الرسول داخل فى رضا الله جل وعز ؛ ومنه قول الشاعر (4) :

إنّ شَرْخَ الشَّبابِ والشَّعَرَ الأسـ * ـودَ ما لم يُعاصَ كان جنونا

---

(1) راجع جـ ٨ ص ١٢٣ — ١٢٧　　(2) راجع جـ ١٨ ص ١٠٩
(3) راجع جـ ٨ ص ١٩٣　　(4) هو حسان بن ثابت .

Marfat.com

ولم يقل بماصيا ، ردّ إلى الشباب لأن الشَّعَر داخل فيه . وقيل : ردّ الكناية إلى كل واحد منهما لكن حذف آختصارا ؛ قال الله تعالى : « وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً »(١) ولم يقل آيتين ؛ ومنه قول الشاعر(٢) :

فمن يك أمسى بالمدينة رَحْلُه * فإنى وقيَّارٌ بها لغـــريبُ

وقال آخر(٣) :

لكلِّ هَمٍّ مِن الهمـــوم سَـعَةْ * والصُّبْحُ والمُسْىُ لا فلاح مَعَهْ

أراد : لغريبان، لا فلاح معهما . وقيل : على العبادة التى يتضمّنها بالمعنى ذكر الصبر والصلاة . وقيل : على المصدر، وهى الآستعانة التى يقتضيها قوله : «وآستعينُوا» . وقيل : على إجابة محمد عليه السلام ؛ لأن الصبر والصلاة مما كان يدعو إليه . وقيل : على الكعبة ؛ لأن الأمر بالصلاة إنما هو إليها . « وكبيرةٌ » معناه ثقيلة شاقة، خبر « إنّ » . ويجوز فى غير القرآن : وإنه لكبيرة . « إلا على الخاشعين » فإنها خفيفة عليهم . قال أرباب المعانى : إلا على من أُيِّد فى الأزل بخصائص الآجتباء والهدى .

الثامنـــة — قوله تعالى : ﴿ عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴾ الخاشعون جمع خاشع وهو المتواضع . والخشوع : هيئة فى النفس يظهر منها فى الجوارح سكون وتواضع . وقال قتادة : الخشوع فى القلب، وهو الخوف وغض البصر فى الصلاة . قال الزجاج : الخاشع الذى يُرَى أثر الذل والخشوع عليه ؛ كخشوع الدار بعد الإقواء . هذا هو الأصل . قال النابغة :

رَمادٌ ككُحْل العين لَأْيًا أُبِينُه * ونُؤْىٌ كجِذْم الحوض أثْلَمُ خاشعُ

ومكان خاشع : لا يُهتَدى له . وخَشَعت الأصوات أى سكنت . وخَشَعت خَراشِىُّ صدره إذا ألقى بُصاقًا لزِجًا . وخَشَع ببصره إذا غَضّه . والخُشْـعة : قطعة من الأرض رِخـوة ؛ وفى الحديث : "كانت خُشْعة على الماء ثم دُحِيت بعدُ"(٤) . وبلدة خاشعة : مغبرّة لا منزل

---

(١) راجع جـ ١٢ ص ١٢٦ (٢) هو ضابئ البرجمى ؛ كما فى اللسان مادة (قير) والكامل للبرد (جـ ١ ص ١٨١) طبع أوربا . (٣) هو الأضبط بن قريع السعدى ؛ عن اللسان مادة (مسا) .

(٤) الذى فى نهاية ابن الأثير مادة (خشع) : « كانت الكعبة خشعة على الماء فدحيت منها الأرض » .

Marfat.com

بها . قال سفيان الثوري : سألت الأعمش عن الخشوع فقال : يا ثوري، أنت تريد أن تكون إماما للناس ولا تعرف الخشوع ! سألت إبراهيم النخعي عن الخشوع ؛ فقال : أُعَيْمِش ! تريد أن تكون إماما للناس ولا تعرف الخشوع ! ليس الخشوع بأكل الخشن ولبس الخشن وتطأطؤ الرأس ! لكن الخشوع أن ترى الشريف والدنىء فى الحق سواء ، وتخشع لله فى كل فرض آفترض عليك . ونظر عمر بن الخطاب إلى شاب قد نكس رأسه فقال : يا هذا ! ارفع رأسك، فإن الخشوع لا يزيد على ما فى القلب . وقال على بن أبى طالب : الخشوع فى القلب ، وأن تلين كفيك للمرء المسلم ، وألّا تلتفت فى صلاتك . وسيأتى هذا المعنى مجوّدا عند قوله تعالى : «قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ»(١) . فمن اظهر للناس خشوعًا فوق ما فى قلبه فإنمـا أظهر نفاقا على نفاق . قال سهل بن عبد الله : لا يكون خاشعا حتى تخشع كل شعرة على جسده ؛ لقول الله تبارك وتعالى : «تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ»(٢) .

قلت : هذا هو الخشوع المحمود ؛ لأن الخوف إذا سكن القلب أوجب خشوع الظاهر فلا يملك صاحبه دفعه ، فتراه مطرقًا متأدّبًا متذللًا . وقد كان السلف يجتهدون فى ستر ما يظهر من ذلك ؛ وأما المذموم فتكلّفـه والتباكى ومطأطأة الرأس كما يفعـله الجهال ليُرَوْا بعين البر والإجلال ، وذلك خدع من الشيطان ، وتسويل من نفس الإنسان . روى الحسن أن رجلا تنفّس عند عمـر بن الخطاب كأنه يتحازن ؛ فلكزه عمر ، أو قال لكمه . وكان عمر رضى الله عنه إذا تكلّم أسمع ، وإذا مشى أسرع ، وإذا ضرب أوجـع ، وكان ناسكا صـدقا ، وخاشعا حقًّا . وروى آبن أبى نجيح عن مجاهد قال : الخاشعون هم المؤمنون حقًّا .

قوله تعـالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ ﴾ «الذين» فى موضع خفض على النعت للخاشعين ، ويجوز الرفع على القطع . والظن هنا فى قول الجمهور بمعنى اليقين ؛ ومنه قوله تعالى : «إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ»(٣) وقوله : «فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا»(٤) . قال دُرَيد بن الصِّمّة :

فقلت لهم ظُنُّوا بألفَىْ مدجَّج * سَرَاتُهُم فى الفارسىّ المُسَرَّدِ

(١) راجع جـ ١٢ ص ١٠٢ (٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٤٨ (٣) راجع جـ ١٨ ص ٢٧٠ (٤) راجع جـ ١١ ص ٣

Marfat.com

وقال أبو دُواد :

رُبَّ هَمٍّ فرّجتـه بغـريم * وغيوب كشفتها بظنون

وقد قيل : إن الظن فى الآية يصح أن يكون على بابه ، ويضمر فى الكلام بذنوبهم ؛ فكأنهم يتوقّعون لقـاءه مذنبين ؛ ذكر المهدوِيّ والمـاوَرْدِى . قال ٱبن عطية : وهـذا تعسُّف . وزعم الفرّاء أن الظنّ قـد يقع بمعنى الكذب ؛ ولا يعرف ذلك البصريون . وأصـل الظن وقاعدته الشك مع ميل إلى أحد معتقديه ، وقد يوقع موقع اليقين ؛ كما فى هذه الآية وغيرها ؛ لكنه لا يوقع فيما قد خرج إلى الحسّ ؛ لا تقول العرب فى رجل مرئِيّ حاضر : أظن هـذا إنسانا . وإنمـا تجد الاستعمال فيما لم يخرج إلى الحسّ بعـد ؛ كهذه الآية والشـعر ، وكقوله تعـالى : « فَظَنُّوا أَنَّهُم مُوَاقِعُوهَا » . وقد يجيء اليقين بمعنى الظن ، وقد تقدّم بيـانه أوّل السورة . وتقول : سُـؤت به ظنًّا ، وأسأت به الظن . يدخلون الألف إذا جاءوا بالألف واللام . ومعنى ﴿ مُلَاقُو رَبِّهِمْ ﴾ جزاء ربّهم . وقيل : جاء على المفاعلة وهو من واحد ؛ مثل عافاه الله . ﴿ وَأَنَّهُـمْ ﴾ بفتح الهمزة عطف على الأوّل ، ويجوز «وإنهم» بكسرها على القطع . ﴿ إِلَيْـهِ ﴾ أى إلى ربهم ، وقيل إلى جزائه . ﴿ رَاجِعُونَ ﴾ إقرار بالبعث والجزاء والعَرْض على الملك الأعلى .

قوله تعـالى : يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ٱذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ تقدّم[1] . ﴿ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ ﴾ يريد على عالَمِى زمانهم ، وأهل كل زمان عالَم . وقيل : على كل العالمين بمـا جعل فيهم من الأنبياء . وهذا خاصّة لهم وليست لغيرهم .

قوله تعـالى : وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾

(١) راجع ص ٣٣٠ من هذا الجزء .

قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ﴾ أمْرٌ معناه الوعيد، وقد مضى الكلام فى التقوى[(١)] . « يومًا » يريد عذابه وهَوْله ، وهو يوم القيامة . وٱنتصب على المفعول بـ«ٱتقوا» . ويجوز فى غير القرآن يوم لا تجزى ، على الإضافة . وفى الكلام حذف بين النحويين فيه ٱختلاف . قال البصريون : التقدير يوما لا تجزى فيــه نفس عن نفس شيئا ، ثم حذف فيه؛ كما قال :

* ويومًا شهدناه سُلَيمًا وعامرا[(٢)] *

أى شهدنا فيه . وقال الكسائى : هــذا خطأ لا يجوز حذف « فيه » ولكن التقدير : وٱتقوا يوما لا تجزيه نفس، ثم حذف الهاء . وإنمــا يجوز حذف الهاء لأن الظروف عنده لا يجوز حذفها . قال : لا يجوز أن تقول : هــذا رجلا قصدت ، ولا رأيت رجلا أرغب ؛ وأنت تريد قصدت إليه وأرغب فيه . قال : ولو جاز ذلك لجاز : الذى تكلمت زيد؛ بمعنى تكلمت فيه زيد . وقال الفَرّاء : يجوز أن تحذف الهــاء وفيه . وحكى المهدوى أن الوجهين جائزان عند سيبويه والأخفش والزجاج .

ومعنى « لَا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا » : أى لا تؤاخذ نفس بذنب أخرى ولا تدفع عنها شيئا؛ تقول : جَزَى عنّى هــذا الأمر يَجْزِى؛ كما تقول : قَضَى عنى . وٱجتزأت بالشىء ٱجتزاء إذا ٱكتفيت به؛ قال الشاعر :

فإنّ الغــدر فى الأقوام عارٌ * وأنّ الحرّ يَجزأ بالكُراع

أى يكتفى بهــا . وفى حديث عمر : " إذا أجريت المــاء على المــاء جَزَى عنــك " . يريد إذا صببت المــاء على البول فى الأرض فجرى عليه طهر المكان، ولا حاجة بك إلى غسل ذلك الموضع وتنشيف المــاء بخرقة أو غيرها كما يفعل كثير من الناس . وفى صحيح الحــديث عن أبى بُردة بن نِيَار فى الأُضْحِيّة : " لن تَجزِىَ عن أحد بعدك " أى لن تغنى . فمعنى لا تجزى : لا تقضى ولا تغنى ولا تكفى إن لم يكن عليهــا شىء؛ فإن كان فإنهــا تجزى وتقضى وتغنى ،

---

(١) راجع ص ١٦١ من هذا الجزء . (٢) سليم وعامر : قبيلتان من قيس عيلان

Marfat.com

بغير آختيارها من حسناتها ما عليها من الحقوق؛ كما فى حديث أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من كانت عنده مَظلِمة لأخيه من عِرْضه أو شىء فليتحلّله منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أُخذ منه بقدر مظلمته و إن لم يكن له حسنات أُخذ من سيئات صاحبه فحُمِل عليه" . خرّجه البخارى . ومثله حديثه الآخر فى المُفْلِس، وقد ذكرناه فى التذكرة خرّجه مسلم[1] . وقرى « تُجزِئ » بضم التاء والهمز . و يقال : جَزَى وأجزى بمعنًى واحد . وقد فرّق بينهما قوم فقالوا : جَزَى بمعنى قضى وكافأ . وأجزى بمعنى أغنى وكفى . أجزأنى الشىء يجزئنى أى كفانى؛ قال الشاعر :

وأجزأتَ أمر العالمين ولم يكن * ليجزئَ إلا كاملٌ وآبنُ كامل

الثالثــة[2] — قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ﴾ الشفاعة مأخوذة من الشَّفع وهما الآثنان؛ تقول : كان وَتْرًا فشفعتُه شَفْعًا؛ والشُّفْعة منه ؛ لأنك تضم ملك شريكك إلى ملكك . والشفيع : صاحب الشُّفْعة وصاحب الشفاعة . وناقة شافع : إذا آجتمع لها حَمْل وولد يتبعها؛ تقول منه : شَفعتِ الناقة شَفْعاً . وناقة شَفُوع وهى التى تجمع بين مَحْلَبين فى حَلْبة واحدة . وآستشفعته إلى فلان : سألته أن يشفع لى إليه . وتشفّعت إليه فى فلان فشفّعنى فيه؛ فالشفاعة إذًا ضم غيرك إلى جاهك ووسيلتك فهى على التحقيق إظهار لمنزلة الشفيع عند المشفَّع، و إيصال منفعته للمشفوع .

الرابعــة — مذهب أهل الحق أن الشفاعة حق؛ وأنكرها المعتزلة وخلّدوا المؤمنين من المذنبين الذين دخلوا النار فى العذاب . والأخبار متظاهرة بأن من كان من العصاة المذنبين الموحّدين من أمم النبيين هم الذين تنالهم شفاعة الشافعين من الملائكة والنبيّين والشهداء والصالحين . وقد تمسّك القاضى عليهم فى الردّ بشيئين : أحدهما — الأخبار الكثيرة التى تواترت فى المعنى . والثانى : الإجماع من السلف على تلقّ هذه الأخبار بالقبول ؛ ولم يبدُ من

(١) راجع صحيح مسلم، باب تحريم الظلم (جـ ٢ ص ٢٨٣) طبع بولاق .

(٢) يلاحظ أن جميع نسخ الأصل التى بأيدينا لم تذكر المسألة الأولى والثانية فى هذه الآية .

أحد منهم فى عصر من الأعصار نكير ؛ فظهور روايتها و إطباقهم على صحتها وقبولهم لها دليل قاطع على صحة عقيدة أهل الحق وفساد دين المعتزلة .

فإن قالوا : قد وردت نصوص من الكتاب بما يوجب رد هـذه الأخبار ؛ مثل قوله : « مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ ولا شَفِيعٍ يُطَاعُ » . قالوا : وأصحاب الكبائر ظالمون. وقال : « مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ »[1] ، « ولا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ » . قلنا : ليست هـذه الآيات عامة فى كل ظالم . والعموم لا صيغة له ؛ فلا تعمّ هـذه الآيات كل من يعمل سوءا وكل نفس ، وإنما المراد بها الكافرون دون المؤمنين بدليل الأخبار الواردة فى ذلك . وأيضا فإن الله تعالى أثبت شفاعة لأقوام ونفاها عن أقوام؛ فقال فى صفة الكافرين : « فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ» وقال : «وَلا يَشْفَعُونَ إلا لِمَنِ ٱرْتَضَى»[2] وقال : «وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ»[3] . فعلمنا بهذه الجملة أن الشفاعة إنما تنفع المؤمنين دون الكافرين . وقد أجمع المفسرون على أن المراد بقوله تعالى : «وَٱتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنها شَفَاعَةٌ » النفسُ الكافرة لا كل نفس . ونحن وإن قلنا بعموم العـذاب لكل ظالم عاص فلا نقول : إنهم مخلّدون فيها بدليـل الأخبار التى رويناها . و بدليل قوله : « وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ»[4] ، وقوله : « إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الكَافِرُونَ » .

فإن قالوا : فقـد قال تعالى « ولا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَى » والفاسق غير مُرْتَضًى . قلنا : لم يقل لمن لا يرضى ، و إنمـا قال : « لِمَنِ ٱرْتَضَى» ومن ٱرتضاه الله للشفاعة هم الموحّدون ؛ بدليل قوله : « لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلا مَنِ ٱتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا »[6] . وقيـل للنبي صلى الله عليه وسلم : ما عهد الله مع خلقه؟ قال : " أن يؤمنوا ولا يشركوا به شيئا " . وقال المفسرون : إلا من قال لا إله إلا الله .

فإن قالوا : المرتَضَى هو التائب الذى ٱتخذ عند الله عهدا بالإنابة إليه ، بدليل أن الملائكة ٱستغفروا لهم ؛ وقال : « فَٱغْفِرْ لِلذِينَ تَابُوا وَٱتَّبَعُوا سَبِيلَكَ » . وكذلك شفاعة الأنبياء عليهم السلام إنما هى لأهل التوبة دون أهل الكبائر . قلنا : عندكم يجب على الله تعالى قبول التوبة ،

(١) راجع جـ ٥ ص ٣٩٦ (٢) راجع جـ ١٩ ص ٨٦ (٣) راجع جـ ١١ ص ٢٨١
(٤) راجع جـ ١٤ ص ٢٩٥ (٥) راجع جـ ٥ ص ٢٤٥ (٦) راجع جـ ١١ ص ١٥٣

Marfat.com

فإذا قبـل الله توبة المذنب فلا يحتاج إلى الشـفاعة ولا إلى الاستغفار . وأجمع أهل التفسير على أن المراد بقوله : « فاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا » أى من الشرك « وَٱتَّبَعُوا سَبِيلَكَ » أى سبيل المؤمنين . سألوا الله تعالى أن يغفر لهم ما دون الشرك من ذنوبهم؛ كما قال تعالى : « وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » .

فإن قالوا : جميـع الأمة يرغبون فى شفاعة النبيّ صلى الله عليـه وسلم ، فلو كانت لأهل الكبائر خاصّة بطل سؤالهم .

قلنا : إنمـا يطلب كل مسلم شفاعة الرسول ويرغب إلى الله فى أن تناله ؛ لاعتقاده أنه غير سالم من الذنوب ولا قائم لله سبحانه بكل ما آفترض عليه؛ بل كل واحد معترف على نفسه بالنقص فهو لذلك يخاف العقاب ويرجو النجاة؛ وقال صلى الله عليه وسلم : " لا ينجو أحد إلا برحمة الله تعـالى — فقيل : ولا أنت يا رسـول الله؟ — فقال : ولا أنا إلا أن يتغمّدنى الله برحمته " .

الخامسـة — قوله تعالى : ﴿وَلَا يُقْبَلُ﴾ قرأ آبن كثير وأبو عمرو «تُقبل» بالتاء ؛ لأن الشفاعة مؤنثة . وقرأ الباقون بالياء على التذكير؛ لأنها بمعنى الشفيع . وقال الأخفش : حَسَن التذكير؛ لأنك قد فرّقت؛ كما تقدّم فى قوله : « فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ »(١) .

السادسـة — قوله تعالى : ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أى فداء. والعدل (بفتح العين) : الفداء، و(بكسرها): المِثْل؛ يقال : عِدْل وعَدِيل للذى يماثلك فى الوزن والقدر . ويقال : عَدْلُ الشيء هو الذى يساويه قيمةً وقدرا وإن لم يكن من جنسه . والعِدل (بالكسر) : هو الذى يساوى الشيء من جنسه وفى جِرْمه . وحكى الطبرىّ : أن من العـرب من يكسر العين من معنى الفِدية . فأما واحد الأعدال فبالكسر لا غير .

قوله تعالى : ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ أى يعانون . والنّصْر : العَوْن. والأنصار: الأعوان؛ ومنـه قوله : « مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللهِ »(٢) أى من يضم نُصرته إلى نصرتى . وآنتصر الرجل : آنتقم . والنصر : الإتيان؛ يقال : نصرتُ أرضَ بنى فلان : أتيتها؛ قال الشاعر(٣) :

(١) راجع ص ٣٢٦ (٢) راجع جـ ١٨ ص ٨٩ (٣) هو الراعى يخاطب خيلا (عن اللسان) .

Marfat.com

إذا دخل الشهرُ الحرامُ فوَدِّعى * بلادَ تميم وٱنْصُرِى أرضَ عامرِ

والنصر : المطر؛ يقال : نُصِرَت الأرض : مُطِرت . والنصر العطاء؛ قال :

إنى وأَسْطارٍ سُـطِرن سطرًا * لقـائلٌ يا نصرُ نصرًا نصرًا

وكان سبب هذه الآية فيما ذكروا أن بنى إسرائيل قالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه وأبناء أنبيائه وسيشفع لنـا آباؤنا ؛ فأعلمهم الله تعـالى عن يوم القيامة أنه لا تقبل فيـه الشفاعات ولا يؤخذ فيه فِدْية . وإنما خص الشفاعة والفِدية والنصر بالذكر ؛ لأنها هى المعـانى التى آعتادها بنو آدم فى الدنيا؛ فإن الواقع فى الشدّة لا يتخاص إلا بأن يُشفع له أو يُنصر أو يُفتدى .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾

فيه ثلاث عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ «إذ» فى موضع نصب عطف على « آذْكُرُوا نِعْمَتِيَ » . وهذا وما بعده تذكير ببعض النعم التى كانت له عليهم؛ أى آذكروا نعمتى بإنجائكم من عدوّكم وجعل الأنبياء فيكم . والخطاب للوجودين والمراد مَن سلف من الآباء؛ كما قال : « إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ »(١) أى حملنا آباءكم . وقيل : إنمـا قال « نجيناكم » لأن نجاة الآباء كانت سـببا لنجاة هؤلاء الموجودين . ومعنى « نجيناكم » ألقيناكم على نَجْـوَة من الأرض ، وهى ما آرتفع منهـا . هذا هو الأصل ؛ ثم سُمّىَ كل فائز ناجيًا . فالنّاجى مَن خرج من ضيق إلى سَعة . وقرئ : « وإذ نَجَّيْتُكم » على التوحيد .

الثـانيـــة — قوله تعالى : ﴿ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ «آل فرعون» قومه وأتباعه وأهل دينه . وكذلك آل الرسول صلى الله عليه وسلم من هو على دينه وملّته فى عصره وسائر الأعصار؛ سواء كان نسيبا له أو لم يكن . ومن لم يكن على دينـه وملّته فليس من آله ولا أهله ، وإن كان نسيبَه وقريبَه . خلافا للرافضة حيث قالت : إن آل رسول الله صلى الله عليه وسـلم فاطمة

(١) راجع جـ ١٨ ص ٢٦٣ .

Marfat.com

والحسن والحسين فقط . دليلنا قوله تعـالى : « وأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ » «أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ»[١] أى آل دينه؛ إذ لم يكن له ٱبن ولا بنت ولا أب ولا عمّ ولا أخٌ ولا عَصَبة . ولأنه لا خلاف أن من ليس بمؤمن ولا مُوَحّد فإنه ليس من آل محمـد و إن كان قريبا له ؛ ولأجل هذا يقال : إن أبا لهب وأبا جهل ليسا من آله ولا من أهله ؛ و إن كان بينهما و بين النبيّ صلى الله عليه وسلم قرابة؛ ولأجل هذا قال الله تعالى فى ٱبن نوح : « إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ »[٢] . وفى صحيح مسلم عن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم جهاراً غيرَ سِرّ يقول : "[ألا][٣] إنّ آلَ أبى — يعنى فلانا[٤] — ليسوا [لى][٣] بأولياء إنما وَلِيِّىَ اللهُ وصالحُ المؤمنين" . وقالت طائفة : آل محمد أزواجُه وذريّتُه خاصة ؛ لحديث أبى حُمَيد السّاعدى أنهم قالوا : يارسول الله كيف نصلّى عليك ؟ قال : "قولوا اللّهُمّ صلّ على محمد وعلى أزواجه وذُرِّيته كما صلّيت على آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى أزواجه وذُرِّيته كما باركتَ على آل إبراهيم إنك حميد مجيـد" . رواه مسلم . وقالت طائفة من أهل العلم : الأهل معلوم ، والآل : الأتباع . والأوّل أصح لمـا ذكرناه ؛ ولحديث عبـد الله بن أبى أَوْفَى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أتاه قوم بصدقتهم قال : "اللّهُمّ صلّ عليهم" فأتاه أبى بصدقته فقال : "اللّهُمّ صلّ على آل أبى أَوْفَى" .

الثالثـــة — اختلف النحاة هل يضاف الآل إلى البلدان أو لا ؟ فقال الكسائى : إنما يقال آل فلان وآل فلانة ، ولا يقال فى البـلدان هو من آل حِمص ولا من آل المدينة . قال الأخفش : إنما يقال فى الرئيس الأعظم ، نحو آل محمد صلى الله عليه وسلم . وآل فرعون لأنه رئيسهم فى الضلالة . قال : وقد سمعناه فى البلدان ، قالوا : أهل المدينة وآل المدينة .

---

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣١٩ (٢) راجع جـ ٩ ص ٤٦ (٣) الزيادة عن صحيح مسلم .

(٤) قوله : يعنى فلانا . وروى "ألا إن آل أبى فلان" . قال النووى : «هذه الكناية هى من بعض الرواة، خشى أن يسميه فيترتب عليه مفسدة وفتنة ... قال القاضى عياض : قيل إن المكنى عنه ها هنا هو الحكم بن أبى العاص » . والحكم هذا ، من النفر الذين كانوا يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيته . راجع سيرة ٱبن هشام (جـ ١ ص ٢٧٦) طبع أوروبا .

Marfat.com

الرابعــة ــ وآختلف النحاة أيضا هـل يضاف الآل إلى المضمر أولا ؟ فمنع من ذلك النحاس والزبيدى والكسائى ؛ فلا يقال إلا اللّهُمّ صلّ على محمد وآل محمد، ولا يقال وآله، والصواب أن يقال : أهله . وذهبت طائفة أخرى إلى أن ذلك يقال؛ منهم آبن السيِّد وهو الصواب؛ لأن السماع الصحيح يَعْضُده، فإنه قد جاء فى قول عبد المطلب :

لا هُمّ إن العبــد يمـ * ـنع رَحْلَه فآمنــع حِلالك[1]

وآنصــر على آل الصّـليـ * ـب وعابديه اليــومَ آلك

وقال نُدْبة :

أنا الفارس الحامى حقيقةَ والدى * وآلى كما تَحْمِى حقيقــةَ آلِكَا

الحقيقة (بقافين) : ما يَحُقّ على الإنسان أن يحميه؛ أى تجب عليه حمايته .

الخامســة ــ وآختلفوا أيضا فى أصل آل ؛ فقال النحاس : أصله أهل، ثم أبدل من الهاء ألفا ، فإن صغّرته رددته إلى أصله فقلت : أُهَيْل . وقال المهدوى : أصله أَوْل وقيل : أهل، قُلبت الهاء همزة ثم أبدلت الهمزة ألفا ، وجمعه آلون . وتصغيره أُوَيْل ؛ فيما حكى الكسائى . وحكى غيره أهيل . وقد ذكرناه عن النحاس . وقال أبو الحسن بن كَيْسان : إذا جمعت آلًا قلت آلون ، فإن جمعت آلًا الذى هو السراب قلت آوال؛ مثل مال وأموال .

السادســة ــ قوله تعالى : ﴿ فِرْعَوْنَ ﴾ « فرعون » قيل : إنه آسم ذلك المَلِك بعينه . وقيـل إنه آسم كل ملك من ملوك العمالقة ؛ مثل كسرى للفرس ، وقَيْصر للروم، والنجاشى للحبشة ، وإن آسم فرعون موسى : قابوس؛ فى قول أهل الكتاب . وقال وهب : آسمه الوليد آبن مصعب بن الريّان ، ويكنى أبا مُرّة وهو من بنى عمليق بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام . قال السهيلى : وكل من وَلِى القبط ومصر فهو فرعون . وكان فارسيًّا من أهل اصْطَخْر . قال المسعودى : لا يعرف لفرعون تفسير بالعربيــة . قال الجوهرى : فرعون لقب الوليد بن مصعب ملك مصر ؛ وكل عاتٍ فرعون . والعتاة : الفراعنة ؛ وقد تفرعن،

---

(١) الحلال (بالكسر) : القوم المقيمون المتجاورون ، يريد بهم سكان الحرم .

Marfat.com

وهو ذو فرعنة؛ أى دهاء ونكر . وفى الحديث : " أخذنا فرعون هذه الامة " . « وفرعونَ » فى موضع خفض إلا أنه لا ينصرف لعُجْمته .

السابعــــة ـــ قوله تعالى : ﴿ يَسُومُونَكُمْ ﴾ قيل : معناه يذيقونكم و يلزمونكم إياه . وقال أبو عبيدة : يُولُونكم ؛ يقال : سامه خُطّة خَسْف إذا أَوْلاه إياها ؛ ومنه قول عمرو آبن كُلثوم :

إذا ما المَلْك سام الناسَ خَسْفًا * أَبَينـا أن نُقِرّ الخسف فينـا

وقيل : يديمون تعذيبكم . والسَّوْم : الدوام ؛ ومنه سـائمة الغنم لمداومتها الرَّعْى . قال الأخفش : وهو فى موضع رفع على الابتداء[(١)] ، و إن شئت كان فى موضع نصب على الحال؛ أى سائمين لكم .

الثامنـــة ـــ قوله تعالى : ﴿ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ مفعول ثان لـ « يسومونكم » ومعناه أشـد العذاب . ويجوز أن يكون بمعنى سوم العذاب . وقد يجوز أن يكون نعتاً؛ بمعنى سوما سيئا . فروى أن فرعون جعل بنى إسرائيل خَدَمًا وخَوَلًا وصنفهم فى أعماله ؛ فصنف يبنون ، وصنف يحرثون و يزرعون ، وصنف يَخدمون ـــ وكان قومه جندا ملوكا ـــ ومن لم يكن منهم فى عمل من هذه الأعمال ضُربت عليه الجِزْية ؛ فذلك سوء العذاب .

التاســـعة ـــ قوله تعالى : ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ «يذبّحون» بغير واو على البدل من قوله : « يسومونكم » كما قال ـــ أنشده سيبويه ـــ :

مَتَى تأتنا تُلْمِـم بنا فى ديارنا * تجِـد حطبًا جَزْلًا ونارًا تأجّجا

قال الفَرّاء وغيره : «يذبحون» بغير واو على التفسير لقوله : « يَسُومُونكم سُـوءَ العذاب » كما تقول : أتانى القوم زيد وعمرو ؛ فلا تحتاج إلى الواو فى زيد؛ ونظيره : « وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أثَامًا . يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ »[(٢)] ، وفى سورة إبراهيم : « و يذبّحون » بالواو ، لأن المعنى

---

(١) يريد أنها مستأنفة . وعبارة البحر لأبى حيان : « يحتمل أن تكون هـذه الجملة مستأنفة وهى حكاية حال ماضية ، ويحتمل أن تكون فى موضع الحال؛ أى سائميكم » . (٢) راجع جـ ١٣ ص ٧٦ .

يعـذّبونكم بالذّبح و بغير الذّبح . فقوله : « وَيُذَبِّحون أبناءَكم » جنس آخر من العذاب ، لا تفسير لما قبله . والله أعلم .

قلت : قد يحتمل أن يقال : إن الواو زائدة بدليل سورة « البقـرة » والواو قد تزاد ، كما قال :

* فلمّـا أجزنا ساحة الحىّ وآنتحى *

أى قد آنتحى . وقال آخر :

إلى المَـلِك القَرْم وآبن الهمام * وليثِ الكتيبة فى المُزْدحم

أراد إلى الملك القرم آبن الهمام ليث الكتيبة ؛ وهو كثير .

العـاشرة — قوله تعـالى : ﴿ يُذَبِّحُونَ ﴾ قراءة الجماعة بالتشديد على التكثير . وقرأ آبن مُحَيْصِن « يَذْبَحون » بفتح الباء . والذَّبح : الشّق . والذِّبح : المذبوح . والذُّبَاح : تشقق فى أصول الأصابع . وذبحت الدَّن : بزلته ؛ أى كشفته . وسعدُ الذّابحُ : أحد السـعود . والمذابح : المحاريب . والمذابح : جمع مذبح ، وهو إذا جاء السيل نخدّ فى الأرض ، فما كان كالشبر ونحوه سمى مذبحا . فكان فرعون يَذْبح الأطفال ويُبقِى البنات ، وعبّر عنهم بآسم النساء بالمآل . وقالت طائفة : « يذبِّحون أبناءكم » يعنى الرجال ، وسُمُّوا أبناء لمـا كانوا كذلك ؛ وآستدل هذا القائل بقوله : « نِساءكم » . والأوّل أصح ؛ لأنه الأظهر ، والله أعلم .

الحادية عشرة — نسب الله تعالى الفعل إلى آل فرعون ؛ وهم إنمـا كانوا يفعلون بأمره وسلطانه ؛ لتولّيهم ذلك بأنفسهم ؛ وليعلم أن المباشر مأخوذ بفعله . قال الطبرىّ : و يقتضى أن من أمره ظالم بقتل أحد فقتله المأمور فهو المأخوذ به .

قلت : وقد آختلف العلماء فى هذه المسألة على ثلاثة أقوال : يُقتلان جميعا ، هذا بأمره والمأمور بمباشرته . هكذا قال النَّخَعِىّ ؛ وقاله الشافعىّ ومالك فى تفصيل لهما . قال الشافعى : إذا أمر السلطان رجلا بقتل رجل والمأمور يعلم أنه أمر بقتله ظُلما كان عليه وعلى الإمام القَوَد كقاتِلَيْن معًا ، و إن أكرهه الإمام عليه وعلم أنه يقتله ظلما كان على الإمام القَوَد . وفى المأمور

Marfat.com

قولان : أحدهما — أن عليه القَوَد . والآخر لا قَوَد عليه وعليه نصف الدِّيَة ؛ حكاه آبن المنذر. وقال علماؤنا : لا يخلو المأمور أن يكون ممن تلزمه طاعة الآمر و يخاف شره كالسلطان والسيد لعبده ، فالقَوَد فى ذلك لازم لهما ؛ أو يكون ممن لا يلزمه ذلك فيُقتَل المباشرُ وحده دون الآمر ؛ وذلك كالأب يأمر ولده ، أو المعلّم بعضَ صبيانه ، أو الصانع بعضَ متعلّميه إذا كان مُحْتلِمًا ؛ فإن كان غير محتلم فالقتل على الآمر ، وعلى عاقلة الصبيّ نصف الدية . وقال آبن نافع : لا يُقتل السيد إذا أمر عبده — و إن كان أعجميًّا — بقتل إنسان . قال آبن حبيب : وبقول آبن القاسم أقول إن القتل عليهما . فأما أمر من لا خوف على المأمور فى مخالفته فإنه لا يلحق بالإكراه بل يُقتَل المأمور دون الآمر ، و يُضرب الآمر ويُحبس . وقال أحمد فى السيّد يأمر عبده أن يقتل رجلا : يُقتل السيّد . وروى هذا القول عن عليّ بن أبى طالب وأبى هريرة رضى الله عنهما . وقال عليّ : ويُستودع العبد السجن . وقال أحمد : ويُحبس العبد ويُضرب و يؤدّب . وقال الثوريّ : يُعزَّر السيد . وقال الحكم وحمّاد : يُقتل العبد . وقال قتادة : يُقتلان جميعا . وقال الشافعيّ : إن كان العبد فصيحا يَعقل قُتل العبد وعُوقب السيد ؛ و إن كان العبد أعجميًّا فعلى السيّد القَود . وقال سليمان بن موسى : لا يُقتل الآمر ولكن تُقطع يديه ثم يُعاقب ويُحبس — وهو القول الثانى — ويقتل المأمور للمباشرة . كذلك قال عطاء والحكم وحماد والشافعيّ وأحمد وإسحاق فى الرجل يأمر الرجلَ بقتل الرجل ؛ وذكره آبن المنذر . وقال زُفَر : لا يُقتل واحد منهما — وهو القول الثالث — حكاه أبو المعالى فى البرهان ؛ ورأى أن الآمر والمباشر ليس كل واحد منهما مستقلا فى القَود ؛ فلذلك لا يُقتل واحد منهما عنده . والله أعلم .

الثانية عشرة — قرأ الجمهور « يذبِّحون » بالتشديد على المبالغة . وقرأ آبن مُحَيْصِن « يَذْبَحون » بالتخفيف . والأولى أرجح إذ الذبح متكرر . وكان فرعون على ما رُوِىَ قد رأى فى منامه نارا خرجت من بيت المَقْدِس فأحرقت بيوت مصر ؛ فأُوِّلت له رؤياه : أن مولودا من بنى إسرائيل ينشأ فيكون خراب ملكه على يديه . وقيل غير هذا ؛ والمعنى متقارب .

Marfat.com

الثالثة عشرة ــ قوله تعالى : ﴿ وفِي ذَ ٰلِكُمْ ﴾ إشارة إلى جملة الأمر، إذ هو خبر فهو كمفرد حاضر؛ أى وفى فعلهم ذلك بكم بلاء، أى آمتحان وآختبار. و ﴿ بَلَآءٌ ﴾ نعمة؛ ومنه قوله تعالى : « وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْـهُ بَلاءً حَسَنًا » . قال أبو الهيثم : البـلاء يكون حَسَنًا ويكون سيئا، وأصله المِحنة؛ والله عز وجل يبلو عبده بالصنع الجميل ليمتحن شكره، ويبلوه بالبلوَى التى يكرهها ليمتحن صبره؛ فقيل للحَسَن بلاء، وللسيّئ بلاء؛ حكاه الهَرَوِىّ . وقال قوم : الإشارة بـ«ذلكم» إلى التنجية؛ فيكون البلاء على هذا فى الخير؛ أى تنجيتكم نعمة من الله عليكم . وقال الجمهور : الإشارة إلى الذبح ونحوه ، والبـلاء هنا فى الشر؛ والمعنى : وفى الذبح مكروه وآمتحان . وقال آبن كَيْسان : ويقال فى الخير أبلاه الله وبلاه؛ وأنشد :

جزَى اللهُ بالإحسان ما فعلا بكم ✽ وأبلاهمـا خيرَ البلاء الذى يَبْلُو[(1)]

فجمع بين اللغتين . والأكثر فى الخـير أبليته ، وفى الشر بلوته ، وفى الآختبار آبتليته وبلوته؛ قاله النحاس .

قوله تعـالى : وَإِذْ فَرَقْنَـا بِكُمُ ٱلْبَحْـرَ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ ﴾ « إذ » فى موضع نصب . و « فَرَقْنَا » فلقنا ؛ فكان كل فِرْق كالطَّوْد العظيم ، أى الجبل العظيم . وأصل الفَرْق الفصل ؛ ومنـه فَرْق الشّعر؛ ومنه الفُرقان؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل أى يفصل ؛ ومنه : « فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا »[(2)] يعنى الملائكة تنزل بالفرق بين الحق والباطل؛ ومنـه : « يَوْمَ الْفُرْقَانِ »[(3)] يعنى يوم بَدْر، كان فيه فرق بين الحق والباطل، ومنه : « وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ »[(4)] أى فصّلناه وأحكمناه . وقرأ الزُّهْرِى : « فرّقنا » بتشديد الراء؛ أى جعلناه فرقا . ومعنى «بكم» أى لكم، فالباء بمعنى اللام . وقيل : البـاء فى مكانها؛ أى فرقنا البحر بدخولكم إياه . أى صاروا بين الماءين، فصار الفرق بهم؛ وهذا أَوْلَى، يبيّنه « فآنفلق » .

---

(١) قائله زهير (٢) راجع جـ١٩ ص١٥٢ (٣) راجع جـ٨ ص٢٠ (٤) راجع جـ١٠ ص٣٣٩

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ٱلْبَحْرَ﴾ البحر معروف، سُمّى بذلك لاتساعه . ويقال : فَرَسٌ بَحْرٌ إذا كان واسع الجَرْى؛ أى كثيره . ومن ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مَنْدُوبٍ فرس أبى طلحة : " وإنْ وجدناه لبحرًا " . والبحر : الماء الملح . ويقال : أبحر الماء : مَلُح؛ قال نُصَيب :

وقد عاد ماءُ الأرض بَحْـرًا فزادنى * إلى مَرَضِى أن أبْحَرَ المَشْرَبُ العذْبُ

والبحر : البلدة؛ يقال : هذه بَحْرَتُنا ؛ أى بلدتنا . قاله الأُموىّ . والبَحَر : السُّلال[1] يصيب الإنسان . ويقولون : لقيته صَحْـرَةً بَحْرَةً ؛ أى بارزا مكشوفا . وفى الخبر عن كعب الأحبار قال : إن لله ملَكًا يقال له : صندفاييل ، البحار كلها فى نقرة إبهامه . ذكره أبو نعيم عن ثور ابن يزيد عن خالد بن مَعْدان عن كعب .

قوله تعالى : ﴿فَأَنْجَيْنَاكُمْ﴾ أى أخرجناكم منه ؛ يقال : نجوت من كذا نجاء، ممدود، ونجاة، مقصور . والصدق منجاة . وأنجيت غيرى ونجّيته ؛ وقرئ بهما « وإذ نجيناكم » ، « فأنجيناكم » .

قوله تعالى : ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ يقال : غَرِق فى الماء غَرَقًا فهو غَرِق وغارق أيضا؛ ومنه قول أبى النَّجْم :

* من بين مقتولٍ وطافٍ غارقِ[2] *

وأغرقه غيره وغَرّقه فهو مغرَّق وغريق . ولجام مغرّق بالفضة ؛ أى مُحلًّى . والتغريق : القتل؛ قال الأعشى :

* ألا ليت قَيْسًا غَرّقته القوابل[3] *

وذلك أن القابلة كانت تغرق المولود فى ماء السَّلَى عام القحط، ذكرا كان أو أنثى حتى يموت ، ثم جعل كل قتل تغريقا؛ ومنه قول ذى الرُّمّة :

---

(١) السلال (كغراب) : قرحة تحدث فى الرئة أو زكام ونوازل أو سعال طويل ، وتلزمها حمى هادئة . (عن القاموس) .

(٢) صدر البيت : * فأصبحوا فى الماء والخنادق *

(٣) المراد به قيس بن مسعود الشيبانى . وصدر البيت : * أطورين فى عام غزاة ورحلة *

إذا غَرَّقتْ أرباضُها ثِنْيَ بَكْرةٍ * بتَيْهاءَ لم تُصبِح رَءُوماً سَلُوبُهَا

والأرباض : الحبال . والبَكْرة : الناقة الفتية . وثِنْيُها : بطنها الثانى؛ وإنما لم تعطف على ولدها لما لحقها من التعب .

القول فى آختلاف العلماء فى كيفيّة إنجاء بنى إسرائيل

فذكر الطبرى أن موسى عليه السلام أُوحِىَ إليه أن يسرى من مصر ببنى إسرائيل فأمرهم موسى أن يستعيروا الحلىّ والمتاع من القبط، وأحلّ الله ذلك لبنى إسرائيل؛ فسرى بهم موسى من أول الليل؛ فأُعلم فرعون فقال : لا يتبعهم أحد حتى تصيح الدِّيَكَة، فلم يصح تلك الليلة بمصر ديك؛ وأمات الله تلك الليلة كثيرا من أبناء القبط فاشتغلوا فى الدفن وخرجوا فى الأتباع مشرقين؛ كما قال تعالى : « فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ » [(1)] . وذهب موسى إلى ناحية البحر حتى بلغه . وكانت عِدّة بنى إسرائيل نَيِّفا على ستمائة ألف . وكانت عِدّة فرعون ألف ألف ومائتى ألف . وقيل : إن فرعون اتّبعه فى ألف ألف حصان سوى الإناث . وقيل : دخل إسرائيل — وهو يعقوب عليه السلام — مصر فى ستة وسبعين نفسا من ولده وولد ولده؛ فأنمى الله عددهم وبارك فى ذرّيته؛ حتى خرجوا إلى البحر يوم فرعون وهم ستمائة ألف من المقاتلة سوى الشيوخ والذرية والنساء . وذكر أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبى شيبة قال حدّثنا شَبَابة بن سَوّار عن يونس بن أبى إسحاق عن أبى إسحاق عن عمرو بن ميمون عن عبد الله بن مسعود أن موسى عليه السلام حين أسرى ببنى إسرائيل بلغ فرعون فأمر بشاة فذبحت، ثم قال : لا والله لا يفرغ من سلخها حتى تجتمع لى ستمائة ألف من القبط؛ قال : فانطلق موسى حتى آنتهى إلى البحر؛ فقال له : آنْفَرِق؛ فقال له البحر : لقد آستكبرت ياموسى ! وهل فَرَقْت لأحد من ولد آدم فأفرق لك! قال : ومع موسى رجل على حصان له؛ قال : فقال له ذلك الرجل : أين أُمرتَ يانبىّ الله ؟ قال : ما أُمرتُ إلا بهذا الوجه؛ قال : فاقتحم فرسه فسَبَح فخرج . فقال أين أُمرتَ يانبىّ الله ؟ قال ما أُمِرْتُ إلا بهذا الوجه؛ قال : والله ما كَذَبْتَ ولا كُذِّبْتَ؛ ثم آقتحم الثانية فسَبَح به حتى خرج؛ فقال : أين أُمرتَ يانبىّ الله ؟ فقال : ما أُمرتُ

(1) راجع ج ١٣ ص ١٠٥ .

إلا بهذا الوجه؛ قال: والله ما كَذَبْتَ ولا كُذِّبْتَ؛ قال فأوحى الله إليه: «أَنِ ٱضْرِبْ بِعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ» فضربه موسى بعصاه؛ «فَٱنْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ». فكان فيه آثنا عشر فِرقا، لاثنى عشر سِبْطا، لكل سبط طريق يتراءون؛ وذلك أن أطواد الماء صار فيها طيقانا وشبابيك يرى منها بعضهم بعضا؛ فلما خرج أصحاب موسى وقام أصحاب فرعون التطم البحر عليهم فأغرقهم. ويذكر أن البحر هو بحر القُلْزم، وأن الرجل الذى كان مع موسى على الفرس هو فتاه يوشع بن نون. وأن الله تعالى أوحى إلى البحر أن آنفرق لموسى إذا ضربك؛ فبات البحر تلك الليلة يضطرب؛ فحين أصبح ضرب البحر وكنّاه أبا خالد[1]. ذكره آبن أبى شيبة أيضا. وقد أكثر المفسرون فى قصص هذا المعنى؛ وما ذكرناه كافٍ، وسيأتى فى سورة «يونس، والشعراء»[2] زيادة بيان إن شاء الله تعالى.

فصـــل — ذكر الله تعالى الإنجاء والإغراق، ولم يذكر اليوم الذى كان ذلك فيه. فروى مسلم عن آبن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة فوجد اليهود صياما يوم عاشوراء؛ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما هذا اليوم الذى تصومونه" فقالوا: هـذا يوم عظيم أنجى الله فيـه موسى وقومه وغرّق فرعونَ وقومه، فصـامه موسى شكرا؛ فنحن نصومه. فقال رسـول الله صلى الله عليه وسلم: "فنحن أحق وأولى بموسى منكم" فصامه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر بصيامه. وأخرجه البخارى أيضا عن آبن عباس، وأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه: "أنتم أحق بموسى منهم فصوموا".

مسئلة — ظاهر هذه الأحاديث تدل على أن النبيّ صلى الله عليه وسلم إنما صام عاشوراء وأمر بصيامه آقتداء بموسى عليه السلام على ما أخبره به اليهود. وليس كذلك؛ لما روته عائشة رضى الله عنها قالت: كان يوم عاشوراء تصومه قريش فى الجاهلية، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصومه فى الجاهلية؛ فلما قدم المدينة صامه وأمر بصيامه؛ فلما فُرض رمضان ترك صيام يوم عاشوراء فمن شاء صامه ومن شاء تركه. أخرجه البخاريّ ومسلم.

(١) أى كنى موسى البحر. (٢) راجع ج ٨ ص ٣٧٧ و ج ١٣ ص ١٠٥.

فإن قيل : يحتمل أن تكون قريش إنمـا صامته بإخبار اليهود لها لأنهم كانوا يسمعون منهم؛ لأنهم كانوا عندهم أهل علم ؛ فصامه النبيّ عليه السلام كذلك فى الجاهلية، أى بمكة ؛ فلمـا قدم المدينـة ووجد اليهود يصومونه قال : "نحن أحقّ وأولى بموسى منكم" فصـامه آتباعا لموسى . «وأمر بصيامه» أى أوجبه وأكّد أمره، حتى كانوا يصومونه الصغار . قلنا : هـذه شبهة من قال : إن النبيّ صلى الله عليه وسـلم لعلّه كان متعبّدا بشريعة موسى؛ وليس كذلك، على ما يأتى بيانه فى« الأنعام»(1) عند قوله تعالى : « فَبِهُدَاهُمُ ٱقْتَدِهْ » .

مسئلة — اختلِف فى يوم عاشـوراء ، هل هو التاسـع من المحرّم أو العاشر ؟ فذهب الشافعىّ إلى أنه التاسع؛ لحـديث الحكم بن الأعرج قال : آنتهيت إلى آبن عباس رضى الله عنهما وهو متوسِّد رداءه فى زمزم، فقلت له : أخبرنى عن صوم عاشوراء؛ فقال : إذا رأيت هلال المحرّم فآعدُد وأصْبِحْ يوم التاسع صائمـا . قلت : هكذا كان محمد صلى الله عليه وسلم يصومه؟ قال نعم . خرّجه مسلم . وذهب سعيد بن المسيّب والحسن البصرى ومالك وجماعة من السلف إلى أنه العاشر . وذكر الترمذى حديث الحَـكَم ولم يصفه بصحة ولا حسن . ثم أردفه : أنبأنا قُتيبة أنبأنا عبد الوارث عن يونس عن الحسن عن آبن عباس قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بصوم عاشوراء يوم العاشر . قال أبو عيسى : حديث آبن عباس حديث حسن صحيح . قال الترمذىّ: وروى عن آبن عباس أنه قال: صوموا التاسع والعاشر وخالفوا اليهود . وبهـذا الحديث يقول الشافعىّ وأحمد بن حنبل و إسحـاق . قال غيره : وقول آبن عباس للسائل : « فآعدُد وأصبح يوم التاسع صائمـا » ليس فيه دليل على ترك صوم العاشر، بل وعد أن يصوم التاسـع مضافا إلى العاشر . قالوا : فصيام اليومين جَمْع بين الأحاديث . وقول آبن عباس للحَكَم لمـا قال له : هكذا كان محمد صلى الله عليه وسلم يصومه؟ قال : نعم . معناه أن لو عاش ؛ و إلا فمـا كان النبيّ صلى الله عليه وسلم صام التاسع قطّ . يبيِّنه ما خرّجه آبن ماجه فى سُنه ومسلم فى صحيحه عن آبن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لئن بَقِيت إلى قابِلٍ لأصومنّ اليوم التاسع" .

(1) راجع جـ ٧ ص ٣٥ .

Marfat.com

فضيلة — روى أبو قتادة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "صيام يوم عاشوراء أحتسب على الله أن يكفّر السّنة التى قبله". أخرجه مسلم والترمذى ، وقال : لا نعلم فى شىء من الروايات أنه قال : "صيام يوم عاشوراء كفّارة سنة" إلا فى حديث أبى قتادة .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ جملة فى موضع الحال ، ومعناه بأبصاركم ؛ فيقال إن آل فرعون طفوا على الماء فنظروا إليهم يغرقون ، وإلى أنفسهم ينجون ؛ ففى هذا أعظم المنّة. وقد قيل : إنهم أخرجوا لهم حتى رأوهم . فهذه مِنّة بعد مِنّة . وقيل : المعنى «وأنتم تنظرون» أى ببصائركم الاعتبار ؛ لأنهم كانوا فى شغل عن الوقوف والنظر بالأبصار . وقيل : المعنى وأنتم بحال من ينظر لو نظر ؛ كما تقول : هذا الأمر منك بمرأى ومسمع ؛ أى بحال تراه وتسمعه إن شئت . وهذا القول والأول أشبه بأحوال بنى إسرائيل لتوالى عدم الاعتبار فيما صدر من بنى إسرائيل بعد خروجهم من البحر ؛ وذلك أن الله تعالى لما أنجاهم وغرق عدوّهم قالوا : ياموسى إن قلوبنا لا تطمئن ، إن فرعون قد غَرِق ! حتى أمر الله البحر فلفَظَه فنظروا إليه .

ذكر أبو بكر بن أبى شيبة عن قيس بن عُبَاد أن بنى إسرائيل قالت : ما مات فرعون وما كان ليموت أبدا ! قال : فلما أن سمع الله (١) تكذيبهم نبيه عليه السلام ، رمى به على ساحل البحر كأنه ثور أحمر يتراءاه بنو إسرائيل ؛ فلما أطمأنوا و بُعثوا من طريق البر إلى مدائن فرعون حتى نقلوا كنوزه وغرقوا فى النعمة ، رأوا قوما يعكُفون على أصنام لهم ؛ قالوا ياموسى اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة ؛ حتى زجرهم موسى وقال : أغير الله أبغيكم إلهًا وهو فضّلكم على العالمين ؛ أى عالمى زمانه . ثم أمرهم أن يسيروا إلى الأرض المقدّسة التى كانت مساكن آبائهم ويتطهروا من أرض فرعون . وكانت الأرض المقدّسة فى أيدى الجبارين قد غَلبوا عليها فاحتاجوا إلى دفعهم عنها بالقتال ؛ فقالوا : أتريد أن تجعلنا لَحْمة للجبارين ! فلو أنك تركتنا فى يد فرعون كان خيرا لنا . قال : « يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ » إلى قوله « قَاعِدُونَ » حتى دعا عليهم وسمّاهم فاسقين . فبقوا فى التّيه أربعين سنة عقوبة ثم رحمهم فمنّ عليهم بالسَّلْوَى و بالغمام — على ما يأتى بيانه — ، ثم سار موسى إلى طُورِ سَيْنَاء

(١) فى نسخة : « فلم يَعْدُ أن سمع الله ... » الخ .

ليجيئهم بالتوراة، فاتخذوا العجل — على ما يأتى بيانه (١) — ، ثم قيل لهم : قد وصلتم إلى بيت المقدس فآدخلوا البـاب سُجَّدًا وقولوا حِطّة — على ما يأتى — ، وكان موسى عليه السـلام شديد الحياء ستّيرا ؛ فقالوا : إنه آدر (٢) . فلما آغتسل وضع على الحجر ثوبه ؛ فعدا الحجر بثوبه إلى مجـالس بنى إسرائيل ، وموسى على أثره عُريان وهو يقول : يا حجر ثوبى! فذلك قوله تعالى : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا » — على ما يأتى بيانه (٣) — ، ثم لمـا مات هارون قالوا له : أنت قتلت هارون وحسدته ؛ حتى نزلت الملائكة بسريره وهارون ميت عليه — وسيأتى فى المـائدة (٤) — ، ثم سألوه أن يعلَموا آية فى قبول قربانهم ؛ فجعلت نار تجىء من السماء فتقبل قربانهـم ؛ ثم سألوه أنْ بيِّن لنـا كفارات ذنوبنا فى الدنيا ، فكان من أذنب ذنبا أصبح على بابه مكتوب : «عملت كذا ، وكفارته قطع عضو من أعضائك » يسمّيه له ؛ ومن أصابه بول لم يطهر حتى يَقرِضـه ويزيل جلدته من بدنه ؛ ثم بدّلوا التوراة وآفتروا على الله وكتبوا بأيديهم وآشتروا به عَرَضًا ؛ ثم صار أمرهم إلى أن قتلوا أنبياءهم ورسلهم . فهذه معاملتهم مع ربهم وسيرتهم فى دينهم وسوء أخلاقهم . وسيأتى بيان كل فصل من هـذه الفصول مستوفًى فى موضـعه إن شاء الله تعـالى . وقال الطبرى : وفى أخبـار القرآن على لسان محمد عليـه السلام بهذه المغيّبات التى لم تكن من علم العـرب ولا وقعت إلا فى حق بنى إسرائيل دليل واضح عند بنى إسرائيل قائم عليهم بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم .

قوله تعـالى : وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْـلَةً ثُمَّ ٱتَّخَـذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْـدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿٥١﴾

فيـــه ست مسائل :

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٧٣　　(٢) الأدرة (بالضم) : نفخة فى الخصية .

(٣) راجع جـ ١٤ ص ٢٥٠　　(٤) راجع جـ ٦ ص ١٣٠

Marfat.com

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ قرأ أبو عمرو « وَعَدْنَا » بغير ألف ، وآختاره أبو عبيد ورجّحه وأنكر « واعدنا » قال : لأن المواعدة إنمـا تكون من البشر ، فأما الله جل وعز فإنما هو المنفرد بالوعد والوعيد . على هـذا وجدنا القرآن؛ كقوله عز وجل : « وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ »(١) وقوله : «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ»(٢) ، وقوله : « وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ » . قال مكيّ : وأيضـا فإن ظاهر اللفظ فيه وَعْدٌ من الله تعالى لموسى، وليس فيه وعد من موسى؛ فوجب حمـله على الواحد، لظـاهر النص أن الفعل مضاف إلى الله تعالى وحده ؛ وهي قراءة الحسن وأبي رجاء وأبي جعفر وشيبة وعيسى بن عمر ؛ و به قرأ قتادة وآبن أبي إسحاق . قال أبو حاتم : قراءة العامة عندنا «وعدنا» بغير ألف؛ لأن المواعدة أكثر ما تكون بين المخلوقين والمتكافئين ، كل واحد منهما يَعِـد صاحبه . قال الجوهري : الميعاد : المواعدة والوقت والموضـع . قال مكيّ : المواعدة أصلها من آثنين ،وقد تأتي المفاعلة من واحد في كلام العرب؛قالوا: طارقت النّعل ، وداويت العليل ، وعاقبت اللص ؛ والفعل من واحد . فيكون لفظ المواعدة من الله خاصة لموسى كمعنى وعدنا؛ فتكون القراءتان بمعنًى واحد . والآختيار «واعدنا» بالألف لأنه بمعنى «وعدنا» في أحد معنييه، ولأنه لا بدّ لموسى من وعد أو قبول يقوم مقام الوعد فتصح المفاعلة . قال النحاس : وقراءة «واعدنا» بالألف أجود وأحسن ،وهي قراءة مجاهد والأعرج وآبن كثير ونافع والأعمش وحمزة والكسائي؛ وليس قوله عز وجل : « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » من هذا في شيء؛ لأن «واعدنا موسى» إنما هو من باب الموافاة ، وليس هذا من الوعد والوعيد في شيء ، و إنما هو من قولك : موعدك يوم الجمعة ، وموعدك موضع كذا . والفصيح في هـذا أن يقال : واعدته . قال أبو إسحاق الزجاج : « واعدنا » ها هنا بالألف جيّـد؛ لأن الطاعة في القبول بمنزلة المواعدة؛ فمن الله جل وعز وَعْد ، ومن موسى قبول وآتباع يجرى مجرى المواعدة . قال آبن عطية . ورجّح أبو عبيدة « وعدنا » وليس بصحيح؛ لأن قبول موسى لوعد الله والتزامه وآرتقابه يشبه المواعدة .

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٥٦ (٢) راجع جـ ١٢ ص ٢٩٧

Marfat.com

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ مُوسَى ﴾ موسى ٱسم أعجمى لا ينصرف للعُجْمة والتعريف. والقبط على — مايروى — يقولون للماء : مو، وللشجر : شا[1] . فلما وُجد موسى فى التابوت عند ماء وشجر، سُمّىَ موسى . قال السُّدّى : لما خافت عليه أمّه جعلته فى التابوت وألقته فى اليّم — كما أوحى الله إليها — فألقته فى اليّم بين أشجار عند بيت فرعون؛ فخرج جوارى آسية ٱمرأة فرعون يغتسلن فوجدنه؛ فسُمِّىَ باسم المكان . وذكر النقاش وغيره : أن ٱسم الذى ٱلتقطته صابوث . قال ٱبن إسحاق : وموسى هو موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث ٱبن لاوى بن يعقوب إسرائيل الله[2] بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام .

الثالثـــة — قوله تعـالى : ﴿ أَرْبَعِينَ لَيْـلَةً ﴾ أربعين نصب على المفعول الثـانى، وفى الكلام حذف؛ قال الأخفش : التقدير وإذ واعدنا موسى تمام أربعين ليلة؛ كما قال : « وَٱسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ » والأربعون كلها داخلة فى الميعاد .

والأربعون فى قول أكثر المفسرين : ذو القعدة وعشرة من ذى الحجة . وكان ذلك بعد أن جاوز البحر وسأله قومه أن يأتيهم بكتاب من عند الله؛ فخرج إلى الطور فى سبعين من خيار بنى إسرائيل، وصعدوا الجبل وواعدهم إلى تمام أربعين ليلة؛ فعدّوا — فيما ذكر المفسرين — عشرين يوما وعشرين ليلة، وقالوا قد أخلفنا موعده . فٱتخذوا العجل، وقال لهم السامرىّ : هذا إلٰهكم وإلٰه موسى، فاطمئنوا إلى قوله . ونهاهم هارون وقال : « يَاقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوا أَمْرِى . قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى[3] » . فلم يتبع هارون ولم يطعه فى ترك عبادة العجل إلا ٱثنا عشر ألفا فيما روى فى الخبر . وتهافت فى عبادته سائرهم وهم أكثر من ألفى ألف؛ فلما رجع موسى ووجدهم على تلك الحال، ألقى الألواح فرفع من جملتها ستة أجزاء وبقى جزء واحد وهو الحلال والحرام وما يحتاجون؛ وأحرق العجل وذراه فى البحر؛ فشربوا من مائه حُبًّا للعجل؛ فظهرت على شفاههم صفرة

---

(١) كذا فى بعض نسخ الأصل ، وفى بعضها : « سا » بالسين المهملة . وفى القاموس وشرحه : « ... وسا الشجر ؛ كذا فى سائر النسخ ؛ وقال ٱبن الجواليق : هو بالشين المعجمة » .

(٢) كذا فى الأصول، وٱسم الجلالة زائد، ولا يبعد أن يكون الأصل : عبد الله، وهو معنى إسرائيل . راجع ص ٣٣١ من هذا الجزء .

(٣) راجع ج ١١ ص ٢٣٦ .

Marfat.com

وورمت بطونهم ؛ فتــابوا ولم تُقبـل توبتهم دون أن يقتـلوا أنفسهم؛ فذلك قوله تعــالى : « فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ » . فقاموا بالخناجر والسيوف بعضهم إلى بعض من لَدُن طلوع الشمس إلى آرتفاع الضّحى؛ فقتل بعضهم بعضا، لا يسئل والد عن ولده ولا ولد عن والده ، ولا أخ عن أخيه ولا أحد عن أحد؛ كل من آستقبله ضربه بالسيف وضربه الآخر بمثله ؛ حتى عَجَّ موسى إلى الله صارخا : يا رباه ، قد فنيت بنو إسرائيل ! فرحمهم الله وجاد عليهم بفضله ؛ فقبل توبة من بقى وجعل من قُتل فى الشهداء، على ما يأتى .

الرابعــة ــ إن قيل : لم خصّ الليالى بالذكر دون الأيام ؟ قيل له : لأن الليلة أسبق من اليوم فهى قبله فى الرتبة ، ولذلك وقع بها التاريخ ، فالليالى أول الشهور والأيام تَبَع لهــا .

الخامســة ــ قال النقاش : فى هذه الآية إشارة إلى صلة الصوم؛ لأنه تعالى لو ذكر الأيام لأمكن أن يعتقـد أنه كان يفطر بالليـل ، فلما نصّ على الليـالى آقتضت قـوّة الكلام أنه عليـه السلام واصـل أربعين يوما بلياليها . قال آبن عطية : سمعت أبى يقول : سمعت الشيخ الزاهد الإمام الواعظ أبا الفضـل الجوهرىّ رحمـه الله يعظ النـاس فى الخلوة بالله والدُّنُوّ منه فى الصلاة ونحوه ، وأن ذلك يشغل عن كل طعام وشراب ، ويقـول : أين حال موسى فى القرب من الله ! ووِصال ثمانين من الدهر من قوله حين سار إلى الخضر لفتاه فى بعض يوم : « آتِنَا غَدَاءَنَا » .

قلت : وبهذا آستدل علماء الصوفية على الوصال ، وأن أفضله أربعون يوما . وسيأتى الكلام فى الوصال فى آى الصيام[1] من هذه السورة إن شاء الله تعالى . ويأتى فى « الأعراف »[2] زيادة أحكام لهـذه الآية عند قوله تعالى : « وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً » ، ويأتى لقصة العجل بيانٌ فى كيفيته وخُواره هناك وفى « طه »[3] إن شاء الله تعالى .

السادسـة ــ قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أى آتخذتموه إلهًــا من بعد موسى . وأصل آتخذتم آتخذتم ، من الأخذ ، ووزنه آفتعلتم ، سهلت الهمزة الثـانية لآمتناع همزتين فجاء إيتخذتم ، فآضطربت الياء فى التصريف جاءت ألفا فى ياتخذ ، وواوا فى موتخذ ،

(١) راجع جـ ٢ ص ٣٢٩ (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٧٤ وص ٢٨٤ (٣) راجع جـ ١١ ص ٢٣٥

Marfat.com

فبُدلت بحرف جَلْد ثابت من جنس ما بعدها وهى التاء وأدغمت ؛ ثم آجتُلِبت ألف الوصل للنطق، وقد يستغنى عنها إذا كان معنى الكلام التقرير، كقوله تعالى : « قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْـدَ اللهِ عَهْدًا » فآستغنى عن ألف الوصل بألف التقرير، قال الشاعر (١) :

أَسْتحدَثَ الرَّكبُ عن أشياعهم خَبَرًا　＊　أم راجـع القلبَ من أطرابه طَرَبُ

ونحوه فى القـرآن : « أَطَّلَعَ الْغَيْبَ » . « أَصْطَفَى الْبَنَاتِ » . « أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ » . ومذهب أبى علىّ الفارسىّ أن « آتخذتم » ، من تخذ لا من أخذ . ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ جملة فى موضع الحال . وقد تقدّم معنى الظُّلم (٢) . والحمد لله .

قوله تعـالى : ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ ﴾ العَفْوُ : عفوُ الله جل وعز عن خلقه ، وقد يكون بعد العقوبة وقبلها ، بخلاف الغُفران فإنه لا يكون معه عقوبةٌ الْبَتَّةَ . وكل من آستحق عقوبة فتُرِكت له فقـد عُفِىَ عنه . فالعفو : مَحْوُ الذنب ، أى محوْنا ذنوبكم وتجاوزنا عنكم . مأخوذ من قولك : عَفَتِ الريح الأثر ، أى أذهبته . وعفا الشىءُ : كثر . فهو من الأضداد ، ومنه قوله تعالى : « حَتَّى عَفَوْا » .

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ أى من بعد عبادتكم العجل . وسُمِّىَ العجل عجـلًا لآستعجالهم عبـادته . والله أعلم . والعجل : ولد البقرة . والعِجَّوْل مثـله ، والجمع العجاجيل ، والأنثى عِجْلة . عن أبى الجراح .

الثالثـــة ــ قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ كى تشكروا عفو الله عنكم . وقد تقدّم معنى لعل (٣) . وأما الشكر فهو فى اللغـة الظهور ، من قوله : دابة شَكور ، إذا ظهر عليهـا من السِّمَن فوق ما تُعْطى من العَلَف . وحقيقته الثنـاء على الإنسان بمعروف يُولِيكه . كما تقدّم

---

(١) هو ذو الرمة .　(٢) راجع ص ٣٠٩　(٣) راجع ص ٢٢٧ من هذا الجزء .

Marfat.com

فى الفاتحة . قال الجوهرى : الشكر : الثناء على المحسن بما أَوْلاَكه من المعروف؛ يقال[1] : شكرته وشكرت له ؛ و باللام أفصح . والشكران : خلاف الكُفران . وتشكّرت له مثل شكَرت له . وروى الترمذيّ وأبو داود عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "لا يشكر الله من لا يشكر الناس" . قال الخطابى : هذا الكلام يتأوّل على معنيين : أحدهما — أن من كان من طبعه كفران نعمة الناس وترك الشكر لمعروفهم كان من عادته كفران نعمة الله عزّ وجل وترك الشكر له . والوجه الآخر — أن الله سبحانه لا يقبل شكر العبد على إحسانه إليه إذ كان العبد لا يشكر إحسان الناس إليه و يكفر معروفهم؛ لاتصال أحد الأمرين بالآخر .

الرابعة — فى عبارات العلماء فى معنى الشكر؛ فقال سَهْل بن عبد الله : الشكر : الاجتهاد فى بذل الطاعة مع الاجتناب للمعصية فى السر والعلانية . وقالت فرقة أخرى : الشكر هو الاعتراف فى تقصير الشكر للنعم؛ ولذلك قال تعالى : « ٱعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا »[2] . فقال داود : كيف أشكرك يا رب، والشكر نعمة منك ! قال : الآن قد عرفتنى وشكرتنى ؛ إذ قد عرفت أن الشكر منى نعمة . قال : يا ربّ فأرنى أخفَى نعمك علىّ . قال : يا داود تنفّس؛ فتنفّس داود . فقال الله تعالى : مَن يُحصى هذه النعمة الليلَ والنهارَ . وقال موسى عليه السلام : كيف أشكرك وأصغر نعمة وضعتها بيدى من نعمك لا يجازى بها عملى كله ! فأوحى الله إليه : يا موسى الآن شكرتنى . وقال الجُنَيْد : حقيقة الشكر العجز عن الشكر . وعنه قال : كنت بين يدى السَّرِىّ السَّقَطِىّ ألعب وأنا ابن سبع سنين و بين يديه جماعة يتكلمون فى الشكر ، فقال لى : يا غلام ما الشكر ؟ فقلت : ألا يُعْصَى الله بنعمه . فقال لى : أخشى أن يكون حظك من الله لسانك . قال الجنيد : فلا أزال أبكى على هذه الكلمة التى قالها السرىّ لى . وقال الشبلىّ : الشكر : التواضع والمحافظة على الحسنات ، ومخالفة الشهوات وبذل الطاعات ، ومراقبة جبّار الأرض والسموات . وقال ذو النُّون المصرىّ أبو الفَيْض : الشكر لمن فوقك بالطاعة ، ولنظيرك بالمكافأة ، ولمن دونك بالإحسان والإفضال .

---

(١) راجع ص ١٣٣ من هذا الجزء . (٢) راجع ج ١٤ ص ٢٧٦

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (٥٣)

« إذا » آسم للوقت المـاضى . و « إذا » آسم للوقت المستقبل . و « آتينا » : أعطينا . وقد تقدّم جميع هـذا[1] . والكتاب : التوراة بإجمـاع من المتأولين . وآختلف فى الفرقان ؛ فقال الفرّاء وقُطْرُب : المعنى آتينا موسى التوراة، ومحمدا عليه السلام الفرقان . قال النحاس : هـذا خطأ فى الإعراب والمعنى ؛ أما الإعراب فإن المعطوف على الشيء مثله ؛ وعلى هذا القول يكون المعطوف على الشيء خلافه . وأما المعنى فقد قال تعالى : « وَلَقَـدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ ٱلْفُرْقَانَ » . قال أبو إسحـاق الزجاج : يكون الفـرقان هو الكتاب ؛ أعيد ذكره باسمين تأكيدا . وحكى عن الفرّاء؛ ومنه قول الشاعر :

وَقَدّمتِ الأديمَ[2] لراهِشَيْهِ * وأَلْفَى قولَها كذِبًا ومَيْنَا

وقال آخر[3] :

ألَا حبّذا هِنـدٌ وأرضٌ بها هِنـدُ * وهندٌ أتى من دونها النَّأْىُ والبُعْدُ

فنسق البُعْد على النّأى ، والمَيْنُ على الكذب ؛ لآختلاف اللفظين تأكيدا ؛ ومنه قول عنترة :

حُيِّيتِ مِن طَلَل تقادمَ عهدُه * أقْوَى وأقفرَ بعـد أمّ الهيْـثَم

قال النحاس : وهذا إنمـا يجىء فى الشعر ، وأحسن ما قيل فى هذا قول مجاهد : فرقا بين الحق والباطل ؛ أى الذى علمه إياه . وقال آبن زيد : الفرقان آنفراق البحـر له حتى صار فِرَقًا فعبروا . وقيل : الفرقان الفرج من الكرب ؛ لأنهم كانوا مستعبدين مع القبط ؛ ومنه قوله تعالى : « إِنْ تَتَّقُوا ٱللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا » أى فرجا ومخرجا . وقيل : إنه الحجة والبيان . قاله آبن بحـر . وقيل : الواو صـلة ، والمعنى آتينا موسى الكتاب الفرقان ، والواو قد تزاد فى النعوت ؛ كقولهم : فلان حسن وطويل ؛ وأنشد :

إلى المَلِكِ القَرْمِ وآبن الهمام * وليثِ الكَتيبةِ فى المُزْدَحَمْ

---

(١) راجع ص ٢٦١ ص ٣٤٣ (٢) الرواية المشهورة فى البيت : « فقددت الأديم » وهو لعدى بن زيد . والقد : القطع . والأديم : الجلد . والراهشان : عرقان فى باطن الذراع . (٣) هو الحطيئة .

Marfat.com

أراد إلى الملك القرم آبن الهمام ليث الكتيبة . ودليل هذا التأويل قوله عزّ وجلّ : « ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ(1) » أى بين الحرام والحلال والكفر والإيمان والوعد والوعيد، وغير ذلك . وقيل : الفرقان الفَرْق بينهم و بين قوم فرعون ؛ أنجى هؤلاء وأغرق أولئك . ونظيره : «يَوْمَ الْفُرْقَانِ» . فقيل : يعنى به يوم بَدْر ؛ نصر الله فيه محمدا صلّى الله عليه وسلّم وأصحابَه ، وأهلك أبا جهل وأصحابه . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ لكى تهتدوا من الضلالة . وقد تقدّم(2) .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ﴾ القوم : الجماعة الرجال دون النساء ؛ قال الله تعالى : « لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ » ثم قال : « وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ » . وقال زُهير :

وما أدرى وسوف إخال أدرى * أقــومٌ آلُ حِصْنٍ أم نســاءُ

وقال تعالى : « وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ » أراد الرجال دون النساء . وقد يقع القوم على الرجال والنساء ؛ قال الله تعـالى : « إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ » وكذا كل نبيّ مرسَـل إلى النساء والرجال جميعا .

قوله تعالى : ﴿ يَا قَوْمِ ﴾ منادًى مضاف . وحذفت الياء فى «يا قَوْم» لأنه موضع حذف، والكسرة تدل عليها ؛ وهى بمنزلة التنوين فحذفتها كما تحذف التنوين من المفرد . ويجوز فى غير القرآن إثباتها ساكنة ؛ فتقول : يا قومى ؛ لأنها آسم وهى فى موضع خفض . وإن شئت فتحتها و إن شئت ألحقت معها هاء ؛ فقلت : يا قوميَهْ . و إن شئت أبدلت منها ألفا لأنها أخفّ ؛ فقلت : يا قوما ، و إن شئت قلت : يا قومُ ؛ بمعنى يأيها القوم . و إن جعلتهم نكرة نصبت ونوّنت . وواحد القوم آمرؤ على غير اللفظ . وتقول : قوم وأقوام ؛ وأقاوم جمع الجمع . والمراد هنا بالقوم عَبَدة العجل، وكانت مخاطبته عليه السلام لهم بأمر من الله تعالى .

(1) راجع جـ ٧ ص ١٤٢ (2) راجع ص ١٦٠ من هذا الجزء .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ آستغنى بالجمع القليل عن الكثير، والكثير نفوس . وقد يوضع الجمع الكثير موضع جمع القِلة ، والقليل موضع الكثرة ؛ قال الله تعالى : « ثَلاثَةَ قروءٍ » . وقال : « وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ » . ويقال لكل مَن فعل فعلا يعود عليه ضرره : إنما أسأتَ إلى نفسك . وأصل الظلم وضع الشيء في غير موضعه . ثم قال تعالى : ﴿ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ ﴾ قال بعض أرباب المعاني : عِجْلُ كلّ إنسان نفسه ؛ فمن أسقطه وخالف مراده فقد برئ من ظلمه . والصحيح أنه هنا عِجل على الحقيقة عبدوه كما نطق به التنزيل . والحمد لله .

قوله تعـالى : ﴿ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ ﴾ لمـا قال لهم : فتـوبوا إلى بارئكم ؛ قالوا : كيف ؟ قال : ﴿ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ . قال أرباب الخواطر : ذَلّلوها بالطاعات وكُفّوها عن الشهوات . والصحيح أنه قَتْلٌ على الحقيقة هنا . والقتــل : إماتة الحركة . وقتلت الخمر : كسرت شدّتها بالمـاء . قال سفيان بن عُيَيْنَة : التوبة نعمة من الله أنعم الله بها على هذه الأمة دون غيرها من الأمم ؛ وكانت توبة بنى إسرائيل القتل . وأجمعوا على أنه لم يؤمر كل واحد من عبدة العِجل بأن يقتل نفسه بيده . قال الزُّهْرِيّ : لمـا قيل لهم : « فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ » قاموا صفّين وقتل بعضهم بعضا ؛ حتى قيل لهم : كُفّوا . فكان ذلك شهادةً للمقتول وتوبةً للحيّ ؛ على ما تقــدّم . وقال بعض المفسرين : أرسل الله عليهم ظلاما ففعلوا ذلك . وقيل : وقف الذين عبدوا العجل صفًّا ، ودخل الذيــن لم يعبدوه عليهم بالسلاح فقتلوهم . وقيل : قام السبعون الذين كانوا مع موسى فقَتَلوا — إذ لم يعبدوا العجل — مَن عبد العجل . ويروى أن يوشع بن نون خرج عليهــم وهم مُحْتَبُون فقال : ملعون من حلّ حَبْوَته أو مدّ طرفه إلى قاتله أو آتقاه بيد أو رِجل . فما حلّ أحد منهم حبوته حتى قتل منهم — يعنى من قتل — وأقبل الرجل يقتل من يليه . ذكره النحاس وغيره . وإنما عوقب الذين لم يعبدوا العجل بقتل أنفسهم — على القول الأول — ؛ لأنهم لم يغيّروا المنكر حين عبدوه ؛ وإنما آعتزلوا ، وكان الواجب عليهــم أن يقاتلوا من عبده . وهذه سنة الله فى عباده إذا فشا المنكر ولم يُغيَّر عوقب الجميع . روى جَرِير قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من قوم يُعمل فيهم

Marfat.com

بالمعاصى هم أعزّ منهم وأمنع لا يغيّرون إلا عمّهم الله بعقاب". أخرجه آبن ماجه فى سُننه. وسيأتى الكلام فى هذا المعنى إن شاء الله تعالى. فلما آستحرّ[1] فيهم القتل وبلغ سبعين ألفا عفا الله عنهم. قاله آبن عباس وعلىّ رضى الله عنهما. وإنمـا رفع الله عنهم القتل لأنهم أعطوا المجهود فى قتل أنفسهم. فما أنعم الله على هذه الأمة نعمة بعد الإسلام هى أفضل من التوبة. وقرأ قتادة: فأقيلوا أنفسكم — من الإقالة —؛ أى آستقبلوها من العثرة بالقتل.

قوله تعالى: ﴿ بَارِئِكُمْ ﴾ البارئ: الخالق؛ وبينهما فرق، وذلك أن البارئ هو المبدع المحدث. والخالق هو المقـدّر الناقل من حال إلى حال. والبَرِيّة: الخلق؛ وهى فَعِيلة بمعنى مفعولة غير أنها لا تُهمز. وقرأ أبو عمرو «بارئْكم» — بسكون الهمزة — ويشعرْكم وينصرْكم ويأمرْكم. وآختلف النحاة فى هـذا؛ فمنهم من يُسكن الضمة والكسرة فى الوصل؛ وذلك فى الشعر. وقال أبو العباس المبرد: لا يجوز التسكين مع توالى الحركات فى حرف الإعراب فى كلام ولا شعر. وقراءة أبى عمرو لحن. قال النحاس وغيره: وقد أجاز ذلك النحويون القدماء الأئمة؛ وأنشدوا:

إذا اعْوَجَجْنَ قلتُ صاحبْ قَوِّمِ * بالدَّوّ[2] أمثالَ السَّفِينِ العُوَّمِ

وقال آمرؤ القيس:

فاليومَ أشـرَبْ غيرَ مُسْتَحْقِبٍ[3] * إثْمًا من الله ولا واغِـلِ

وقال آخــر:

* قالتَ سُلَيمَى آشترْ لنا سَوِيقا *

وقال الآخــر:

رُحتِ وفى رجليـك ما فيهما * وقد بدا هَنْـكِ من المِئْزرِ

(١) استحرّ: اشتدّ وكثر. (٢) الدو (بفتح الدال وتشديد الواو): الصحراء. وأراد بأمثال السفين رواحل محملة تقطع الصحراء قطع السفن البحر. (٣) المستحقب: المكتسب. والواغل: الذى يدخل على القوم فى طعامهم وشرابهم من غير أن يدعوه. يقول هـذا حين قتل أبوه ونذر ألا يشرب الخمـر حتى يثأر به؛ فلما أدرك ثأره حلت له بزعمه فلا يأثم بشربها، إذ وفّى بنذره فيها.

Marfat.com

فمن أنكر التسكين فى حرف الإعراب فحجّته أن ذلك لا يجوز من حيث كان علما للإعراب. قال أبو علىّ : وأما حركة البناء فلم يختلف النحاة فى جواز تسكينها مع توالى الحركات. وأصل برأ من تبرّى الشىء من الشىء وهو انفصاله منه . فالخلق قد فُصلوا من العدم إلى الوجود ؛ ومنه بَرَأْت من المرض بَرْءًا (بالفتح) كذا يقول أهل الحجاز . وغيرهم يقول : بِرئت من المرض بُرْءًا (بالضم) ؛ و برئت منـك ومن الديون والعيوب براءة ؛ ومنه المبـارأة للمرأة . وقد بارأ شريكه وآمرأته .

قوله تعـالى : ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ فى الكلام حذف ، تقـديره ففعلتم « فتاب عليكم » ؛ أى فتجاوز عنكم ، أى على الباقين منكم . ﴿ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ تقدّم معناه(١)، والحمد لله.

قوله تعـالى : وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وإِذْ قُلْتُمْ ﴾ معطوف . ﴿ يا مُوسَى ﴾ نداء مفرد . ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ ﴾ أى نصدّقك . ﴿ حتى نَرَى اللهَ جَهْرَةً ﴾ قيل : هم السبعون الذين آختارهم موسى ؛ وذلك أنهم لمـا أسمعهم كلام الله تعالى قالوا له بعد ذلك : « لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ » . والإيمـان بالأنبياء واجب بعد ظهور معجزاتهم . فأرسل الله عليهم نارا من السماء فأحرقهم ؛ ثم دعا موسى ربه فأحياهم ؛ كما قال تعالى : « ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعدِ مَوْتِكُمْ » . وستأتى قصة السبعين فى الأعراف(٢) إن شاء الله تعـالى . قال آبن فُورَك : يحتمل أن تكون معاقبتهم لإخراجهم طلب الرؤية عن طريقه بقولهم لموسى : « أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً » وليس ذلك من مقدور موسى عليه السلام .

وقد آختُلف فى جواز رؤية الله تعالى ؛ فأكثر المبتدعة على إنكارها فى الدنيـا والآخرة . وأهل السُّـنّة والسلف على جوازها فيهما ووقوعها فى الآخرة ؛ فعلى هـذا لم يطلبوا من الرؤية

(١) راجع ص ١٠٣ فما بعدها وص ٣٢٥ (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٩٤

Marfat.com

محالا ؛ وقد سألها موسى عليه السلام . وسيأتى الكلام فى الرؤية فى «الأنعام» و«الأعراف»[1] إن شاء الله تعالى .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ جَهْرَةً ﴾ مصدر فى موضع الحال ، ومعناه علانية . وقيل عِيانا ؛ قاله آبن عباس . وأصل الجهر الظهور ؛ ومنه الجهر بالقراءة إنما هو إظهارها . والمجاهرة بالمعاصى : المظاهرة بها . ورأيت الأمير جِهارا وجهرة ؛ أى غير مستتر بشىء . وقرأ آبن عباس « جَهَرة » بفتح الهاء . وهما لغتان ؛ مثل زَهْرة وزَهَرة . وفى الجهر وجهان : أحدهما — أنه صفة لخطابهم لموسى أنهم جهروا به وأعلنوا ؛ فيكون فى الكلام تقديم وتأخير ؛ والتقدير : وإذ قلتم جهرة يا موسى . الثانى — أنه صفة لما سألوه من رؤية الله تعالى أن يروه جهرة وعِيانا ؛ فيكون الكلام على نسقه لا تقديم فيه ولا تأخير . وأكّد بالجهر فرقا بين رؤية العيان ورؤية المنام .

الثالثـــة — قوله تعـالى : ﴿ فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ ﴾ قـد تقدّم فى أوّل الســورة معنى الصاعقة[2] . وقرأ عمر وعثمان وعلىّ « الصَّعْقة » ، وهى قراءة آبن مُحَيْصِن فى جميع القرآن . ﴿ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ جملة فى موضـع الحال . ويقـال : كيف يموتون وهم ينظـرون ؟ فالجواب أن العرب تقول : دور آل فلان تراءى ؛ أى يقابل بعضها بعضا . وقيل : المعنى « تنظرون » أى إلى حالكم وما نزل بكم من الموت وآثار الصعقة .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ ﴾ أى أحييناكم . قال قتادة : ماتوا وذهبت أرواحهم ثُمّ ردوا لآستيفاء آجالهم . قال النحاس : وهذا آحتجاج على من لم يؤمن بالبعث من قريش ، وآحتجاج على أهل الكتاب إذ خبروا بهذا ، والمعنى ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ما فعل بكم من البعث بعد الموت . وقيـل : ماتوا مَوْتَ همودٍ يعتبر به الغير ، ثم أرسـلوا . وأصل البعث الإرسال . وقيل : بل أصـله إثارة الشىء من محله ؛ يقال : بعثت الناقة : أثرتها ، أى حركتها ؛ قال آمرؤ القيس :

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٥٤ وص ٢٧٨ (٢) راجع ص ٢١٩ من هذا الجزء .

Marfat.com

وفتيان صدْق قد بعثتُ بسُحْرة[(١)] * فقاموا جميعًا بين عاثٍ ونَشْوان

وقال عنـــترة :

وصحـابةٍ شُمّ الأنوف بعثتهـــم * ليـلا وقد مال الكرى بطُلاها[(٢)]

وقال بعضهم : « بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ » علّمناكم من بعد جهلكم .

قلت : والأوّل أصح ؛ لأن الأصـل الحقيقةُ ، وكان موت عقوبة ؛ ومنه قوله تعالى : «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ» . على ما يأتى[(٣)] .

الخامســـة — قال المـاوَرْدىّ : وآختُلِف فى بقاء تكليف مَن أعيد بعد موته ومعاينة الأحوال المضطرة إلى المعرفة على قولين : أحدهما — بقاء تكليفهم لئلا يخلو عاقل من تعبّد . الثانى : سقوط تكليفهم معتبرا بالآستدلال دون الآضطرار .

قلت : والأوّل أصح ؛ فإن بنى إسرائيل قد رأوا الجبل فى الهواء ساقطا عليهم والنار محيطة بهم ؛ وذلك ممـا آضطرهم إلى الإيمـان ، وبقاء التكليف ثابت عليهم ؛ ومثلهم قوم يونس . ومحال أن يكونوا غير مكلّفين . والله أعلم .

قوله تعالى : وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾

فيه ثمـانى مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ ﴾ أى جعلناه عليكم كالظُّلّة . والغمام جمع غمامة ، كسحابة وسحاب ؛ قاله الأخفش سعيد . قال الفراء : ويجوز غمائم وهى السحاب ؛ لأنها تغمّ السماء أى تسترها ؛ وكل مغطّى فهو مغموم ؛ ومنه المغموم على عقله . وغُمّ الهلال

(١) السحرة (بضم أوله) : السَّحَر . وقيل : أعلى السحر . وقيل : هو من ثلث الليل الآخر إلى طلوع الفجر .

(٢) الطلى (بضم ففتح) : الأعناق . (٣) راجع جـ ٣ ص ٢٣٠

Marfat.com

إذا غطّاه الغَيْم . والغين مثل الغيم ؛ ومنه قوله عليـه السلام : " إنه لَيُغان على قلبي " . قال صاحب العين : غِين عليه : غطّى عليـه . والغَيْن : شجر ملتفّ . وقال السُّدّى : الغمام السحاب الأبيض . وفعـل هـذا بهم ليقيهم حرّ الشمس نهارا ، ويجـلى فى آخره ليستضيئوا بالقمر ليلا . وذكر المفسرون أن هذا جرى فى التِّيه بين مصر والشام لما آمتنعوا من دخول مدينة الجبّارين وقتالهم ، وقالوا لموسى : « فَٱذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا »(١) . فعوقبوا فى ذلك الفَحْص(٢) أربعين ســنة يتيهون فى خمسة فراسخ أو ستة . رُوى أنهم كانوا يمشون النهـار كله وينزلون للبيت فيصبحون حيث كانوا بكرة أمس . وإذ كانوا بأجمعهم فى التِّيه قالوا لموسى : مَن لنا بالطعام ! فأنزل الله عليهم المنّ والسَّلْوَى . قالوا : مَن لنا من حَرّ الشمس ! فظلّل عليهم الغمام . قالوا : فبم نستصبح ! فضرب لهم عمود نور فى وسـط محلّتهم . وذكر مكّىّ : عمود من نار . قالوا : من لنا بالمـاء ! فأمر موسى بضرب الحجر . قالوا : من لنا باللباس ! فأعطوا ؛ ألّا يبـلى لهم ثوب ولا يَخْلَق ولا يدرَن ، وأن تنمو صغارها حسب نموّ الصبيان . والله أعلم .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى ﴾ اختُلِف فى المنّ ما هو وتعيينه على أقوال ؛ فقيـل : التَّرَنْجَبِين(٣) — بتشديد الراء وتسكين النون ، ذكره النحاس ، ويقال : الطَّرَنْجَبِين بالطاء — وعلى هذا أكثر المفسرين . وقيل : صمغة حُلوة . وقيل عسل . وقيل : شراب حلو . وقيل : خبز الرُّقَاق ؛ عن وهب بن مُنبِّه . وقيل : « المنّ » مصدر يعم جميع ما منّ الله به على عباده من غير تعب ولا زرع ؛ ومنه قول رسول الله صلى الله عليه وسـلم فى حديث سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيل : " الكمأة من المنّ الذى أنزل الله على بنى إسرائيل وماؤها شفاء للعين " فى رواية " من المنّ الذى أنزل الله على موسى " . رواه مسلم . قال علماؤنا : وهذا الحديث يدل على أن الكمأة مما أنزل الله على بنى إسرائيل ؛ أى مما خلقه الله لهم فى التِّيه . قال أبو عبيد : إنمـا شبهها بالمنّ لأنه لا مؤونة فيها ببذر ولا سقى ولا علاج ؛ فهى منه . أى مِن جنس مَنّ

---

(١) راجع جـ ٦ ص ١٢٨ (٢) الفحص : كل موضع يسكن . وفى حديث كعب : « إن الله بارك فى الشام وخص بالتقديس من فحص الأردنّ إلى رفح ... » وفحصه ما بسط منه وكشف من نواحيه . (عن القاموس والنهاية) . (٣) الترنجبين : طل يقع من السماء وهو ندى شبيه بالعسل جامد متحبب (عن مفردات ابن البيطار) .

بنى إسرائيل فى أنه كان دون تكلُّف . روى أنه كان ينزل عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس كالثلج ، فيأخذ الرجل ما يكفيه ليومه ، فإن آدّخر منـه شيئا فسد عليه ، إلا فى يوم الجمعة فإنهم كانوا يدخرون ليوم السبت فلا يفسد عليهم ؛ لأن يوم السبت يوم عبادة ، وما كان ينزل عليهم يوم السبت شىء .

الثالثــة — لما نصّ عليـه السلام على أن ماء الكمأة شفاء للعين قال بعض أهل العلم بالطب : اما لتبريد العين من بعض ما يكون فيها من الحرارة فتستعمل بنفسها مفردة ، واما لغير ذلك فمركبة مع غيرها . وذهب أبو هريرة رضى الله عنه إلى آستعمالها بحتًا فى جميع مرض العين . وهذا كما آستعمل أبو وَجْزَة العسلَ فى جميع الأمراض كلّها حتى فى الكحل ، على ما يأتى بيانه فى سورة « النحل »[1] إن شاء الله تعالى . وقال أهل اللغة : الكمء واحد ، وكمآن آثنان ، وأكمؤ ثلاثة ، فإذا زادوا قالوا : كمأة — بالتاء — على عكس شجرة وشجر . والمنّ آسم جنس لا واحد له من لفظه ؛ مثل الخير والشر ؛ قاله الأخفش .

الرابعــة — قوله تعالى : ﴿ وَالسَّلْوَى ﴾ اختُلف فى السَّلْوَى ، فقيل : هو السُّمَانَى بعينه ؛ قاله الضحاك . قال آبن عطية : السَّلْوَى طير بإجماع المفسرين ؛ وقد غَلِط الهُذَلىّ[2] فقال :

وقاسمها بالله جَهْــدًا لَأَنْتُمُ　＊　ألذّ من السّلوَى إذا ما نَشُورُهَا

ظنّ السلوى العسل .

قلت : ما آدّعاه من الإجماع لا يصح ؛ وقد قال المؤرِّج[3] أحد علماء اللغة والتفسير : إنه العسل ، وآستدلّ ببيت الهذلىّ ، وذكر أنه كذلك بلغة كنانة ؛ سُمّىَ به لأنه يسلى به ؛ ومنه عين السُّلوان[4] ، وأنشد :

لو أشرب السُّـلوان ما سَلِيتُ　＊　ما بى غنًى عنـك وإن غَنِيتُ[5]

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٣٦ .　(٢) هو خالد بن زهير .　(٣) هو مؤرّج بن عمر السدوسى ، و يكنى أبا فيد . كان من أصحاب الخليل بن أحمـد ؛ مات سنة خمس وتسعين ومائة .　(٤) عين السلوان : عين نضاخة يتبرك بها و يستشفى منها بالبيت المقدس . (عن معجم ياقوت) .　(٥) البيت لرؤبة .

Marfat.com

وقال الجوهرى : والسلوى العسل؛ وذكر بيت الهُذَلىّ :

* ألذّ من السَّلْوَى إذا ما نَشُورُهَا *

ولم يذكر غلطا . والسُّـلوانة (بالضم) : خرزة كانوا يقولون إذا صُبّ عليها ماء المطر فشربه العاشق سلا؛ قال :

شربتُ على سُـلوانةٍ ماءَ مُزْنةٍ * فلا وجديدِ العيش يا مَىّ ما أسْلُو

وآسم ذلك المـاء السُّلوان . وقال بعضهم : السـلوان دواء يُسقاه الحزين فيسلو؛ والأطبـاء يسمونه المُفَرِّح . يقال : سَلِيت وسلوْت؛ لغتان . وهو فى سُلْوة من العيش ، أى فى رغد؛ عن أبى زيد .

الخامســـة — وٱخْتُلِف فى السَّـلْوَى هل هو جمع أو مفـرد؛ فقال الأخفش : جمع لا واحد له من لفظه؛ مثـل الخير والشر؛ وهو يشبه أن يكون واحده سَلْوَى مثل جماعته؛ كما قالوا : دِفْلَى[1] للواحد والجمـاعة ، وسُمَانَى وشُكَاعَى[2] فى الواحـد والجميع . وقال الخليـل : واحده سَلْواة؛ وأنشد :

وإنى لتعرونى لذكـرك هِزّةٌ[3] * كما ٱنتفض السَّلْواة من بلل القطر

وقال الكسائى : السَّلْوَى واحدة، وجمعه سلاوى .

السادســـة — «السَّلْوَى» عطفٌ على «المنّ»، ولم يظهر فيه الإعراب، لأنه مقصور. ووجب هذا فى المقصور كله؛ لأنه لا يخلو من أن يكون فى آخره ألف . قال الخليل : والألف حرف هوائى لا مستقر له؛ فأشـبه الحركة فٱستحالت حركته . وقال الفـرّاء : لو حرّكت الألف صارت همزة .

السـابعـــة — قوله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ «كلوا» فيه حذف، تقديره وقلنا كلوا؛ فحذف اختصارا لدلالة الظاهر عليه . والطيبات هنا قد جمعت الحلال واللذيذ .

---

(١) الدفلى (كذكرى) : شجر مر أخضر حسن المنظر يكون فى الأودية . (٢) الشكاعى (كحبارى وقد تفتح) : من دق النبات ، وهى دقيقة العيدان صغيرة خضراء ، والناس يتداوون بها . (٣) فى الأصول : «سلوة» وهو تحريف .

Marfat.com

الثامنـــة — قوله تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا ﴾ يقدّر قبله فعصوا ولم يقابلوا النّعم بالشكر . ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ لمقابلتهم النعم بالمعاصى .

قوله تعـالى : وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَـٰيَـٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾

فيه تسع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا هَذِهِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ حُذفت الألف من «قلنا» لسكونها وسكون الدال بعدها، والألف التى يُبتدأ بها قبل الدال ألف وصل؛ لأنه من يدخل .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ هَذِهِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ أى المدينة؛ سُمّيت بذلك لأنها تقرّت أى آجتمعت؛ ومنه قَرَيت المـاء فى الحوض، أى جمعته؛ وآسم ذلك المـاء قِرًى (بكسر القاف) مقصور . وكذلك ما قُرِىَ به الضيف؛ قاله الجوهرى . والمِقْراة للحوض . والقَرِىّ لمسيل المـاء . والقَرَا للظهر؛ ومنه قوله (١) :

* لاحِـــقُ بطنٍ بِقَـــرًا سمينِ *

والمقارِى : الجِفان الكبار؛ قال :

* عظام المقارى ضيفهم لا يُفَزَّع *

رواحد المقارى مِقراة؛ وكله بمعنى الجمع غير مهموز . والقِرية (بكسر القاف) لغة اليمن . وآختُلف فى تعيينها؛ فقال الجمهور : هى بيت المقدس . وقيل : أرِيحاء من بيت المقدس . قال عمر بن شَـبّة : كانت قاعدة ومسكن ملوك . آبن كَيْسان : الشام . الضحاك : الرَّمْلة والأُرْدُنّ وفلسطين وتَدْمُر . وهـذه نعمة أخرى ، وهى أنه أباح لهم دخول البـلدة وأزال عنهم التِّيه .

(١) هو حميد الأرقط . وصف فرسا بضمور البطن ثم نفى أن يكون ضمره من هزال ، فقال : « بقرا سمين » . واللاحق الضامر . (عن شرح الشواهد) .

Marfat.com

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ فَكُلُوا ﴾ إباحة . و﴿ رَغَدًا ﴾ كثيرًا واسـعًا؛ وهو نعت لمصدر محذوف؛ أي أكلًا رَغَدًا . ويجوز أن يكون في موضع الحال؛ على ما تقدّم . وكانت أرضا مباركة عظيمة الغَلّة ، فلذلك قال : « رغدا » .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ وَٱدْخُلُوا ٱلْبَـابَ سُجَّدًا ﴾ الباب يُجمع أبوابا ؛ وقد قالوا : أَبْوِبَة للازدواج؛ قال الشاعر (١) :

هتّـاك أَخْبِيةٍ ولّاج أبوِبَة * يَخْلِط بالبِرّ منه الجِدَّ واللِّينا

واو أفرده لم يجـز . ومثله قوله عليه السلام : " مرحبا بالقوم — أو بالوفد — غير خَزَايا ولا نَدامَى " . وتبوّبت بوّابا اتخذته . وأبواب مبوّبة؛ كما قالوا : أصناف مُصنّفة . وهذا شيء من بابَتِك ؛ أي يصلح لك . وقد تقدّم معنى السجود (٢) فلا معنى لإعادته . والحمد لله .

والبـاب الذي أُمِروا بدخوله هو باب في بيت المقدس يعرف اليوم بـ«باب حِطّة» ؛ عن مجاهد وغيره . وقيل : باب القُبّة التي كان يصلي إليها موسى وبنو إسرائيل . و « سجدا » قال ابن عباس : منحنين ركوعا . وقيل : متواضعين خضوعا لا على هيئة متعينة .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ وَقُولُوا ﴾ عطف على ادخلوا . و﴿ حِطَّةٌ ﴾ بالرفع قراءة الجمهور؛ على إضمار مبتدأ ، أي مسئلتنا حطة ، أو يكون حكاية . قال الأخفش : وقرئت «حِطّةً» بالنصب ، على معنى احطط عنـا ذنوبنا حِطة . قال النحاس : الحديثُ (٣) عن ابن عباس أنه قيـل لهم : قولوا لا إله إلا الله ، وفي حديث آخر عنـه قيل لهم : قولوا مغفرة — تفسير للنصب ؛ أي قولوا شيئا يحط ذنوبكم ؛ كما يقال : قل خيرا . والأئمة من القراء على الرفع . وهو أولى في اللغة ؛ لمـا حكي عن العرب في معنى بدّل ، قال أحمـد بن يحيى : يقال بدّلته ؛ أي غيرته ولم أزل عينه . وأبدلته أزلت عينه وشخصه ، كما قال (٤) :

* عَزْلَ الأمير للأمير المُبْدَل *

---

(١) هو القلاخ بن جناب . وقيل : هو ابن مقبل . (عن اللسان) (٢) راجع ص ٣٤٥ .

(٣) في الأصول : « قال النحاس جاء الحديث ... » والتصويب عن إعراب القرآن للنحاس . و«الحديث» مبتدأ ، وخبره « تفسير » . (٤) هو أبو النجم . (عن إعراب القرآن للنحاس) .

Marfat.com

وقال الله عز وجل : « قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ٱئْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ » . وحديث (١) آبن مسعود قالوا : «حِطّة» تفسير على الرفع . هذا كله قول النحاس . وقال الحسن وعكرمة : « حِطّةٌ » بمعنى حُطّ ذنوبنا ؛ أُمروا أن يقولوا : لا إله إلا الله ليحطّ بها ذنوبهم . وقال آبن جبير : معناه الآستغفار . أبان بن تَغْلِب : التوبة ؛ قال الشاعر :

فاز بالحطة التى جعـــل اللّ　＊　ـه بها ذنب عبده مغفورا

وقال آبن فارس فى المُجْمَل : «حِطّة» كلمة أُمِر بها بنو إسرائيل لو قالوها لحطّت أوزارهم . وقاله الجوهرى أيضا فى الصحاح .

قلت : يحتمل أن يكونوا تعبّدوا بهذا اللفظ بعينه ، وهو الظاهر من الحديث . روى مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قيـل لبنى إسرائيل آدخلوا البـاب سُجّدًا وقولوا حِطّةٌ يُغفر لكم خطاياكم [فبـدّلوا] (٢) فدخلوا الباب يَزْحفُون على أستاههم وقالوا حَبّة فى شَعَرة " . وأخرجه البخارى وقال : " فبدّلوا وقالوا حِطّةٌ حَبّةٌ فى شعرة ". فى غير الصحيحين : « حنطة فى شَعَر » . وقيل : قالوا هِطّا سُمْهاثا . وهى لفظة عبرانية ، تفسيرها : حنطة حمراء ؛ حكاها آبن قتيبة ، وحكاه الهروى عن السدّى ومجاهد . وكان قصدهم خلاف ما أمرهم الله به فعصوا وتمرّدوا وآستهزءوا ؛ فعاقبهم الله بالرجز وهو العذاب . وقال آبن زيد : كان طاعونا أهلك منهم سبعين ألفا . ورُوِيَ أن الباب جُعِل قصيرا ليدخلوه رُكّعًا فدخلوه متورّكين على أستاههم . والله أعلم .

السادســـة — استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن تبديل الأقوال المنصوص عليها فى الشريعـة لا يخلو أن يقع التعبّد بلفظها أو بمعناها ؛ فإن كان التعبّـد وقع بلفظها فلا يجوز تبديلها ؛ لذمّ الله تعالى مَن بدّل ما أمره بقوله . وإن وقع بمعناها جاز تبديلها بما يؤدّى إلى ذلك المعنى ؛ ولا يجوز تبديلها بما يخرج عنه .

---

(١) فى الأصل : « وحديث ابن مسعود » . والتصويب عن النحاس .

(٢) الزيادة عن صحيح مسلم .

Marfat.com

وقد آختلف العلماء فى هذا المعنى ؛ فحُكِىَ عن مالك والشافعىّ وأبى حنيفة وأصحابهم أنه يجوز للعالم بمواقع الخطاب البصير بآحاد كلماته نقل الحديث بالمعنى لكن بشرط المطابقة للمعنى بكماله ؛ وهو قول الجمهور . ومنع ذلك جمعٌ كثير من العلماء منهم آبن سيرين والقاسم بن محمد ورجاء بن حَيْوَة . وقال مجاهد : أنْقُص من الحديث إن شئت ولا تزد فيه . وكان مالك بن أنس يشدّد فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التاء والياء ونحو هذا . وعلى هذا جماعة من أئمة الحديث لا يرون إبدال اللفظ ولا تغييره حتى إنهم يسمعون ملحونا و يعلمون ذلك ولا يغيّرونه . وروى أبو مِجْلَز عن قيس بن عُبَاد قال قال عمر بن الخطاب : مَن سمع حديثا فحدّث به كما سمع فقد سلم . وروى نحوه عن عبد الله بن عمرو وزيد بن أرقم . وكذا الخلاف فى التقديم والتأخير والزيادة والنقصان؛ فإن منهم من يعتدّ بالمعنى ولا يعتدّ باللفظ، ومنهم من يشدّد فى ذلك ولا يفارق اللفظ . وذلك هو الأحوط فى الدّين والأتق والأولى؛ ولكن أكثر العلماء على خلافه . والقول بالجواز هو الصحيح إن شاء الله تعالى ؛ وذلك أن المعلوم من سيرة الصحابة رضى الله عنهم هو أنهم كانوا يروون الوقائع المتحدة بألفاظ مختلفة، وما ذاك إلا أنهم كانوا يصرفون عنايتهم للمعانى ولم يلتزموا التكرار على الأحاديث ولا كتبها . وروى عن واثلة بن الأَسْقع أنه قال : ليس كل ما أخبرنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم نقلناه إليكم ؛ حسبكم المعنى . وقال قتادة عن زُرارة بن أَوْفَى : لقيت عدّة من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم فآختلفوا علىّ فى اللفظ وآجتمعوا فى المعنى . وكان النّخَعِىّ والحسن والشعبىّ رحمهم الله يأتون بالحديث على المعانى . وقال الحسن : إذا أصبت المعنى أجزأك . وقال سفيان الثورىّ رحمه الله : إذا قلت لكم إنى أحدثكم كما سمعت فلا تصدّقونى ؛ إنما هو المعنى . وقال وَكِيع رحمه الله : إن لم يكن المعنى واسعًا فقد هلك الناس . وآتفق العلمـاء على جواز نقل الشرع للعجم بلسانهـم وترجمته لهم ؛ وذلك هو النقل بالمعنى . وقد فعل الله ذلك فى كتابه فيما قص من أنباء ما قد سلف ، فقصّ قصصًا ذكر بعضها فى مواضـع بألفاظ مختلفة والمعنى واحد، ونقلها من ألسنتهم إلى اللسان العربىّ وهو مخالف لها فى التقديم والتأخير، والحذف والإلغاء،

Marfat.com

والزيادة والنقصان . وإذا جاز إبدال العربية بالعجمية فلأن يجـوز بالعربية أولى . ٱحتج بهذا المعنى الحسن والشافعيّ ، وهو الصحيح فى الباب .

فإن قيل : فقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " نَضَر الله ٱمرأً سمع مقالتى فبلّغها كما سمعها " وذكر الحديث . وما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه أمر رجلا أن يقول عند مضجعه فى دعاء علمه : " آمنت بكتابك الذى أنزلت ونبيّك الذى أرسلت " ؛ فقال الرجل : ورسولك الذى أرسلت ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ونبيّك الذى أرسلت " . قالوا : أفلا ترى أنه لم يسوّغ لمن علمه الدعاء مخالفة اللفظ وقال : " فأدّاها كما سمعها " . قيل لهم : أما قوله " فأدّاها كما سمعها " فالمراد حكمها لا لفظها ؛ لأن اللفظ غير معتدٍّ به . ويدلّك على أن المراد من الخطاب حكمه قوله : " فرُبّ حاملِ فقه غير فقيه ورُبّ حاملِ فقه إلى من هو أفقه منه " . ثم إن هذا الحديث بعينه قد نقل بألفاظ مختلفة والمعنى واحد ؛ وإن أمكن أن يكون جميع الألفاظ قول النبيّ صلى الله عليه وسلم فى أوقات مختلفة ؛ لكن الأغلب أنه حديث واحد نقل بألفاظ مختلفة ؛ وذلك أدلّ دليل على الجواز . وأما ردّه عليه السلام الرجلَ من قوله : "ورسولك — إلى قوله — ونبيك" ؛ لأن لفظ النبيّ صلى الله عليه وسلم أمدح ؛ ولكل نعت من هذين النعتين موضع . ألا ترى أن ٱسم الرسول يقع على الكافة ، وٱسم النبيّ لا يستحقه إلا الأنبياء عليهم السلام ! وإنما فُضّل المرسلون من الأنبياء لأنهم جمعوا النبوّة والرسالة . فلما قال : "ونبيك" ، جاء بالنعت الأمدح ، ثم قيّده بالرسالة بقوله : "الذى أرسلت" . وأيضا فإن نقله من قوله : "ورسولك — إلى قوله — ونبيك" ليجمع بين النبوّة والرسالة . ومستقبح فى الكلام أن تقول : هذا رسول فلان الذى أرسله ، وهذا قتيل زيد الذى قتله ؛ لأنك تجتزئ بقولك : رسول فلان ، وقتيل فلان عن إعادة المرسل والقاتل ؛ إذ كنت لا تفيد به إلا المعنى الأوّل . وإنما يحسن أن تقول : هذا رسول عبد الله الذى أرسله إلى عمرو ، وهذا قتيل زيد الذى قتله بالأمس أو فى وقعة كذا . والله وليّ التوفيق .

Marfat.com

فإن قيل : إذا جاز للراوى الأوّل تغيير ألفاظ الرسول عليه السلام جاز للثانى تغيير ألفاظ الأوّل، و يؤدّى ذلك إلى طمس الحديث بالكلية لدقة الفروق وخفائها . قيـل له : الجواز مشروط بالمطابقة والمساواة كما ذكرنا؛ فإن عُدمت لم يجز . قال آبن العربىّ : الخلاف فى هذه المسألة إنّمـا يُتصوّر بالنظر إلى عصر الصحابة والتابعين لتساويهم فى معرفة اللغة الجِبِلّية الذّوقية؛ وأما من بعدهم فلا نشك فى أن ذلك لا يجوز؛ إذ الطباع قد تغـيّرت، والفهوم قد تباينت، والعوائد قد آختلفت؛ وهذا هو الحق . والله أعلم .

قال بعض علمـائنا : لقد تعاجم آبن العربىّ رحمه الله ؛ فإن الجواز إذا كان مشروطا بالمطابقة فلا فرق بين زمن الصحابة والتابعين وزمن غيرهم ؛ ولهذا لم يفصّل أحد من الأصوليين ولا أهل الحديث هذا التفصيل . نعم، لو قال : المطابقة فى زمنه أبعد كان أقرب، والله أعلم.

السابعـــة — قوله تعالى : ﴿ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ﴾ قراءة نافع بالياء مع ضمها . وآبن عامر بالتاء مع ضمها، وهى قراءة مجاهد . وقرأها الباقون بالنون مع نصبها، وهى أبينها؛ لأن قبلها «وَ إِذْ قُلْنَا آدْخُلُوا» فجرى «نَغْفِرْ» على الإخبار عن الله تعالى؛ والتقدير وقلنا آدخلوا الباب سُجَّدًا نغفر، ولأن بعده « وَسَنَزِيدُ » بالنون. و «خطاياكم» آتباعا للسواد وأنه على بابه . ووجه من قرأ بالتاء أنه أنث لتأنيث لفظ الخطايا ؛ لأنها جمع خطيئة على التكسير . ووجه القراءة بالياء أنه ذكّر لمـا حال بين المؤنث و بين فعله ؛ على ما تقدّم فى قوله : « فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٌ » . وحَسُن الياء والتاء و إن كان قبله إخبار عن الله تعالى فى قوله : « و إذ قلنا » لأنه قد عُلِم أن ذنوب الخاطئين لا يغفرها إلا الله تعالى؛ فآستغنى عن النون وردّ الفعل إلى الخطايا المغفورة .

الثامنـــة — واختلف فى أصل خطايا جمع خطيئة بالهمزة؛ فقال الخليل: الأصل فى خطايا أن يقول : خطايئ ، ثم قلب فقيل : خطائى بهمزة بعدها ياء ، ثم تبدل من الياء ألفا بدلا لازما فتقول : خطاءا ؛ فلمـا آجتمعت ألفان بينهما همزة والهمزة من جنس الألف صرت كأنك جمعت بين ثلاث ألفات ، فأبدلت من الهمزة ياء فقلت : خطايا . وأما سيبويه فمذهبه أن الأصل مثل الأوّل خطايئ ، ثم وجب بهذه أن تهمز الياء كما همزتها فى مدائن فتقول :

Marfat.com

خطائئ ، ولا تجتمع همـزتان فى كلمة ؛ فأبدلت من الثانيــة ياء فقلت : خطائى ، ثم عملت كما عملت فى الأول . وقال الفرّاء : خطايا جمع خطية بلا همز؛ كما تقول : هديّة وهدايا . قال الفراء : ولو جمعت خطيئة مهموزة لقلت : خطاءا . وقال الكسائى : لو جمعتها مهموزة أدغمت الهمزة فى الهمزة؛ كما قلت : دوابّ .

التاســعة ــ قوله تعالى : ﴿ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أى فى إحسان من لم يعبد العجل . ويقال : يغفر خطايا من رفع المنّ والسَّلْوَى للغد ، وسـنزيد فى إحسان من لم يرفع للغـد . ويقال : يغفر خطايا من هو عاص ، وسيزيد فى إحسان من هو محسن ؛ أى نزيدهم إحسانا على الإحسان المتقدّم عندهم . وهو ٱسم فاعل من أحسن . والمحسن : من صحح عقد توحيده ، وأحسن سـياسة نفسه ، وأقبل على أداء فرائضه ، وكفى المسلمين شرّه . وفى حديث جبريل عليه السلام : "ما الإحسان قال أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك قال صدقت" وذكر الحديث . خرّجه مسلم .

قوله تعالى : فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾

فية أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا ﴾ «الذين» فى موضع رفع ؛ أى فبدّل الظالمون منهـم قولا غير الذى قيل لهم . وذلك أنه قيل لهم : قولوا حِطّة ؛ فقالوا حنطة ، على ما تقدم ؛ فزادوا حرفا فى الكلام فلقوا من البـلاء مالقوا ؛ تعريفا أن الزيادة فى الدِّين والأبتداع فى الشريعة عظيمة الخطر شديدة الضرر . هذا فى تغيير كلمة هى عبارة عن التوبة أوجبت كل ذلك من العذاب ؛ فما ظنك بتغيير ما هو من صفات المعبود ! هذا والقول أنقص من العمل ، فكيف بالتبديل والتغيير فى الفعل .

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿ فَبَدَّلَ ﴾ تقدم معنى بدّل وأبدل ، وقرئ « عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْـدِلَنَا » على الوجهين . قال الجوهرى : وأبدلت الشىء بغـيره . و بدّله الله من الخوف

Marfat.com

أمنًا . وتبديل الشيء أيضا تغييره و إن لم يأت ببدَل. وآستبدل الشيء بغيره، وتبدّله به إذا أخذه مكانه . والمبادلة التبادل . والأبدال: قوم من الصالحين لا تخلو الدنيا منهم ؛ إذا مات واحد منهـم أبدل الله مكانه بآخر. قال آبن دُرَيد : الواحد بديل . والبـديل : البدل . و بدَلُ الشيء : غيره؛ يقال: بَدَلٌ وبِدْلٌ، لغتان؛مثل: شَبَه وشِبْه،ومَثَل ومِثْل،ونَكَل ونِكْل. قال أبو عبيد[1] : لم يُسمع فى فَعَل وفِعْل غير هذه الأربعة الأحرف . والبَدَل : وَجَع يكون فى اليدين والرجلين . وقد بَدِل (بالكسر) يَبْدَلُ بَدَلًا .

الثالثـــة ــ قوله تعالى : ﴿ فَأَنْزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ كرر لفظ «ظلموا» ولم يضمره تعظيما للأمر . والتكرير يكون على ضربين ؛ أحدهما : استعماله بعد تمـام الكلام؛ كما فى هذه الآية وقوله : « فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ » ، ثم قال بعدُ : « فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ » ولم يقل : ممـا كتبوا . وكرر الويل تغليظا لفعلهم؛ ومنه قول الخنساء :

تعـرّقنى الدهرُ نَهْسـًا[2] وحَزّا * وأوجعنى الدهرُ قَرْعًا وغَمْزَا

أرادت أن الدهر أوجعها بكبريات نوائبه وصغرياتها. والضرب الثانى: مجىء تكرير الظاهر فى موضع المضمر قبل أن يتم الكلام؛ كقوله تعـالى : «ٱلْحَاقَّةُ . مَا ٱلْحَاقَّةُ » و « ٱلْقَارِعَةُ . مَا ٱلْقَارِعَةُ » كان القياس لولا ما أريد به من التعظيم والتفخيم: الحاقة ما هى، والقارعة ما هى؛ ومثله : «فَأَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ . وَأَصْحَابُ ٱلْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ ٱلْمَشْأَمَةِ» . كرر « أصحاب الميمنة» تفخيما لمـا ينيلهم من جزيل الثواب؛ وكرر لفظ « أصحاب المشأمة » لمـا ينالهم من أليم العذاب . ومن هذا الضرب قول الشاعر :

ليتَ الغرابَ غداةَ ينعَبُ دائبًـا * كان الغـرابُ مقطّعَ الأوداج

وقد جمع عَدِىّ بن زيد المعنيين فقال :

---

(١) فى الأصل : « أبو عبيدة » والتصويب عن اللسان وصحاح الجوهرى .

(٢) فى بعض الأصول : « نهشا » بالشين المعجمة . والنهش : أن يتناول المرء الشىء بفمه لبعضه فيؤثر فيـه ولا يجرحه . والنهس : القبض على اللحم ونتره ؛ أى جذبه .

لا أرى الموتَ يسبِقُ الموتَ شيءٌ * نغَّص الموتُ ذا الغِنَى والفقيرا

فكرر لفظ الموت ثلاثا، وهو من الضرب الأوّل؛ ومنه قول الآخر :

ألا حبّــذا هندٌ وأرضٌ بهـا هندُ * وهندٌ أتى مِن دونها النّأْيُ والبُعْدُ

فكرر ذكر محبوبته ثلاثا تفخيما لها .

الرابعـــة ــ قوله تعالى : ﴿ رِجْزًا ﴾ قراءة الجماعة «رِجْزًا» بكسر الراء، وٱبن مُحَيْصن بضم الراء . والرجز : العذاب (بالزاى)، و (بالسين) : النَّتْن والقَذَر؛ ومنه قوله تعالى : «فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ» ؛ أى نَتْنًا إلى نَتْنهم؛ قاله الكِسائى . وقال الفرّاء : الرِّجْز هو الرِّجْس . قال أبو عبيد : كما يقال السُّـدْغ والزُّدْغ ، وكذا رِجْس ورِجْز بمعنًى . قال الفرّاء : وذكر بعضهم أن الرُّجْز (بالضم) : ٱسم صنم كانوا يعبدونه؛ وقرئ بذلك فى قوله تعالى : «والرُّجْزَ فَٱهْجُرْ»[1] . والرَّجَز (بفتح الراء والجيم) : نوع من الشِّعْر؛ وأنكر الخليل أن يكون شِعرا . وهو مشـتق من الرَّجَز؛ وهو داء يصيب الإبل فى أعجازها، فإذا ثارت ٱرتعشت أفخاذها . ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ أى بفسقهم . والفِسْق الخروج، وقد تقدّم[2] . وقرأ ٱبن وَثّاب والنَّخَعِى : «يَفْسِقُون» بكسر السين .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَٱشْرَبُوا مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾

فيه ثمـانى مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ﴾ كُسرت الذال لالتقاء الساكنين . والسين سين السؤال؛ مثل : ٱستعلم وٱستخبر وٱستنصر، ونحو ذلك؛ أى طلب وسأل السَّقْىَ لقومه . والعرب تقول : سقيته وأسقيته، لغتان بمعنًى؛ قال[3] :

---

(١) راجع جـ ١٩ ص ٦٥ (٢) يراجع ص ٢٤٥ من هذا الجزء . (٣) هو لبيد (كما فى اللسان) .

Marfat.com

سقى قومى بنى مَجْدٍ وأَسْـقَى * نُمَـيْراً والقبائلَ من هِـلال

وقيل : سقيتُه مِن سقى الشَّفَة ، وأسقيته دَلَلْته على المـاء .

الثانيـــة — الآستسقاء إنمـا يكون عند عدم المـاء وحبس القطر، و إذا كان كذلك فالحكم حينئذ إظهار العبودية والفقر والمسكنة والذِّلة مع التو بة النَّصوح . وقد آستسقى نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم فخرج إلى المصلَّى متواضعًا متذلّلًا متخشعًا مترسِّلًا متضرّعًا ، وحسبك به ! فكيف بنا ولا تو بة معنا إلا العناد ومخالفة رب العباد، فأنَّى نُسْقَى ! لكن قد قال صلى الله عليه وسلم فى حديث آبن عمر: "ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا مُنِعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يُمْطَرُوا" الحديث . وسيأتى بكماله إن شاء الله .

الثالثـــة — سُنّة الآستسقاء الخروج إلى المصلَّى — على الصفة التى ذكرنا — والخطبة والصلاة ؛ وبهـذا قال جمهور العلمـاء . وذهب أبو حنيفة إلى أنه ليس من سُنّته صـلاة ولا خروج، وإنمـا هو دعاء لا غير . وآحتج بحديث أنس الصحيح، أخرجه البخارىّ ومسلم . ولا حجة له فيه؛ فإن ذلك كان دعاء عُجِّلت إجابته فآكتفى به عما سواه ، ولم يقصـد بذلك بيان سُنّة ؛ ولمـا قصد البيان بيّن بفعـله ، حسب ما رواه عبد الله بن زيد المـازنىّ قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المصلى فاستسقى وحوّل رداءه ثم صلى ركعتين . رواه مسلم . وسيأتى من أحكام الآستسقاء زيادة فى سورة « هود »(١) إن شاء الله .

الرابعـــة — قوله تعـالى : ﴿ فَقُلْنَا آضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ﴾ العصا : معروف ، وهو آسم مقصور مؤنّث وألفه منقلبة عن واو؛ قال(٢) :

* على عَصَوَيْهَا(٣) سابِرِىٌّ مُشَبْرَقُ *

(١) لم يذكر المصنف شيئا عن الاستسقاء فى ســورة « هود » ، وإنمـا هو مذكور فى سورة « نوح » جـ ١٨ ص ٣٠٢ (٢) هو ذو الرمة . وصدر البيت : * بجاءت بنسج العنكبوت كأنه *

(٣) عصويها : عرقوتى الدلو ، وهما الخشبتان اللتان يعترضان على الدلو كالصليب . والسابرى : الدقيق من الثياب . والمشبرق : المخرق .

Marfat.com

والجمع عُصِىّ وعِصِىّ ، وهو فعول ، وإنمـا كُسرت العين لمـا بعدها من الكسرة ؛ وأعْصٍ أيضا مثله ؛ مثل زَمَنٍ وأزْمُنٍ . وفى المثل : «العَصَا من العُصَيّة» أى بعض الأمر من بعض. وقولهم : « أَلْقَى عصاه » أى أقام وترك الأسفار؛ وهو مَثَل . قال :

فألقتْ عصاها وآستقرّ بها النَّوى * كما قَـرّ عَيْنًـا بالإياب المسافرُ

وفى التنزيل : « وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى . قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَـا »(١) . وهناك يأتى الكلام فى منافعها إن شاء الله تعالى . قال الفرّاء : أوّل لحن سُمع بالعراق هذه عصاتى . وقد يعبّر بالعصا عن الآجتماع والآفتراق ؛ ومنه يقال فى الخوارج : قد شقُّوا عصا المسلمين ؛ أى آجتماعهم وآئتلافهم . وآنشقّت العصا؛ أى وقع الخلاف؛ قال الشاعر :

إذا كانت الهَيْجاءُ وآنشقّتِ العصا * فحَسْبُكَ والضّحاكَ سَيْفٌ مُهَنَّـدُ

أى يكفيك ويكفى الضحاك . وقولهـم : لا ترفع عصاك عن أهلك؛ يراد به الأدب . والله أعلم .

والحجر معروف، وقياس جمعه فى أدنى العدد أحجار ، وفى الكثير حِجار وحجارة؛ والحجارة نادر . وهو كقولنا : جَمَل وجِمَالة ، وذَكَر وذِكَارة؛ كذا قال آبن فارس والجوهرى .

قلت : وفى القرآن « فَهِىَ كَالْحِجَارَةِ » . « وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ » . « قُلْ كُونُوا حِجَارَةً » . « تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ » . « وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِـمْ حِجَارَةً » فكيف يكون نادرا، إلا أن يريدا أنه نادر فى القياس كثير فى الآستعمال فصيح . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿فَانْفَجَرَتْ﴾ فى الكلام حذف؛ تقديره فضرب فآنفجرت . وقد كان تعالى قادرا على تفجير المـاء وفلق الحجـر من غير ضرب ؛ لكن أراد أن يربط المسبّبات بالأسباب حكمةً منه للعباد فى وصولهم إلى المراد؛ وليرتّب على ذلك ثوابهم وعقابهم فى المعاد. والآنفجار: الآنشقاق؛ ومنه آنشـق الفجر . وآنفجر المـاء آنفجارا : آنفتح . والفُجْرة : موضع تفجّر المـاء . والآنبجاس أضيق من الآنفجار؛ لأنه يكون آنبجاسا ثم يصير آنفجارا . وقيل: آنبجس وتبجّس وتفجّر وتفتّق، بمعنًى واحد؛ حكاه الهَرَوِىّ وغيره .

(١) راجع ج ١١ ص ١٨٦ .

Marfat.com

الخامســـة ــ قوله تعالى : ﴿ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ « اثنتا » فى موضع رفع بـ « ا نفجرت » وعلامة الرفع فيها الألف . وأعربت دون نظائرها لأن التثنية معربة أبدا لصحة معناها . «عَيْنًا» نُصب على البيان . وقرأ مجاهد وطلحة وعيسى « عَشِرة » بكسر الشين ؛ وهى لغة بنى تميم ، وهذا من لغتهم نادر ؛ لأن سبيلهم التخفيف . ولغة أهل الحجاز «عشْرة» وسبيلهم التثقيل . قال جميعه النحاس . والعَيْن من الأسماء المشتركة ؛ يقال : عَيْنُ المـاء ، وعَيْنُ الإنسان ، وعين الرُّكْبَة[(1)]، وعين الشمس . والعَيْن : سحابة تُقبل من ناحية القِبلة . والعين : مطر يدوم خمساً أو ستًّا لا يقلع . وبلد قليل العَيْن : أى قليـل الناس . وما بها عين ، محرّكة الياء[(2)] . والعين : الثقب فى المزادة . والعَيْنُ من المـاء مُشَبّهة بالعين من الحيوان ؛ لخروج المـاء منها كخروج الدمع من عين الحيوان . وقيل : لمـا كان عين الحيوان أشرف ما فيه ، شُبّهت به عين المـاء ؛ لأنها أشرف ما فى الأرض .

السادســـة : لمـا استسق موسى عليه السـلام لقومه أمر أن يضرب عنـد استسقائه بعصاه حجرا ؛ قيل : مربعًا طُوريًّا (من الطور) على قدر رأس الشاة يلقى فى كسر جُوالق ويُرحل به ؛ فإذا نزلوا وُضع فى وسط محلّتهم . وذُكر أنهم لم يكونوا يحملون الحجرَ لكنهم كانوا يجدونه فى كل مرحلة فى منزلته من المرحلة الأولى ؛ وهـذا أعظم فى الآية والإعجاز . وقيل : إنه أطلق له آسم الحجـر ليضرب موسى أىّ حجر شاء ؛ وهذا أبلغ فى الإعجاز . وقيل : إن الله تعالى أمره أن يضرب حجراً بعينه بيّنه لموسى عليه السلام ؛ ولذلك ذكر بلفظ التعريف . قال سعيد بن جُبير : هو الحجر الذى وضع عليه موسى ثوبه لمـا اغتسل ، وفر بثوبه حتى برّأه الله مما رماه به قومه . قال آبن عطية : ولا خلاف أنه كان حجرا منفصلا مربعًا ، تَطّرد من كل جهة ثلاث عيون إذا ضربه موسى ، و إذا استغنوا عن المـاء ورحلوا جفّت العيون .

---

(١) كذا فى بعض نسخ الأصل . وعين الرُّكبة (براء مضمومة و باء موحدة) : نقرة فى مقدمها عند الساق ، ولكل ركبة عينان ؛ على التشبيه بنقرة العين الحاسة . وفى البعض الآخر : «عين الرَّكِيَّة» (براء مفتوحة و ياء مثناة من تحت) وهى مفجر ماء البئر ومنبعها . (٢) الذى فى القاموس أن الياء تحرّك وتسكن فى العين بهذا المعنى .

قلت : ما أوتى نبيّنا محمد صلى الله عليه وسـلم من نبع المـاء وآنفجاره من يده و بين أصابعه أعظم فى المعجزة؛ فإنا نشاهد المـاء يتفجّر من الأحجار آناء الليل وآناء النهار، ومعجزة نبيّنا عليه السلام لم تكن لنبىّ قبل نبيّنا صلى الله عليه وسلم، يخرج المـاء من بين لحم ودم! . روى الأئمة الثّقات والفقهاء الأثبات عن عبد الله قال : كنا مع النبىّ صلى الله عليه وسلم فلم نجد ماء فأتِىَ بتَـوْر[1] فأدخل يده فيه؛ فلقد رأيت المـاء يتفجّـر من بين أصابعه و يقول : "حىّ على الطّهور" . قال الأعمش : فحدّثنى سالم بن أبى الجَعْد قال قلت لجابر : كم كنتم يومئذ ؟ قال : ألفا وخمسمائة . لفظ النسائى .

السابعـــة ـــ قوله تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ ﴾ يعنى أن لكل سِبْط منهم عيناً قد عرفها لا يشرب من غيرها . والمَشْرَب : موضع الشرب . وقيل : المشروب . والأسباط فى بنى إسرائيـل كالقبائل فى العـرب ، وهم ذُرّية الآثنى عشر أولاد يعقوب عليـه السلام؛ وكان لكل سِـبْط عَيْنٌ من تلك العيون لا يتعدّاها . قال عطاء : كان للحَجَر أربعـة أوجه، يخرج من كل وجه ثلاث أعين؛ لكل سِبط عَين لا يخالطهم سواهم . و بلغنا أنه كان فى كل سبط خمســون ألف مقاتل سوى خيلهم ودوابهم . قال عطاء : كان يظهر على كل موضـع من ضربة موسى مثل ثدى المرأة على الحجر فيعرق أوّلا ثم يسيل .

الثامنـــة ـــ قوله تعـالى : ﴿ كُلُوا وَٱشْرَبُوا ﴾ فى الكلام حذف تقديره وقلنا لهم كلوا المنّ والسلوى، وآشربوا المـاء المتفجّر من الحجر المنفصل . ﴿ وَلَا تَعْثَوْا ﴾ أى لا تفسدوا . والعيث : شدّة الفساد؛ نهاهم عن ذلك . يقال : عَثِىَ يَعْثَى عُثِيًّا ، وعثا يَعْثو عُثُوًّا ، وعاث يَعِيث عَيْثًا وعُيُوثًا ومَعَاثًا؛ والأوّل لغة القرآن . و يقال : عَثّ يَعُثّ فى المضاعف : أفسد؛ ومنه العُثّة ، وهى السُّوسة التى تَلْحَس الصّوف . و ﴿ مُفْسِدِينَ ﴾ حال؛ وتكرر المعنى تأكيدا لآختلاف اللفظ . وفى هذه الكلمات إباحة النعم وتعدادها ، والتقدّم فى المعاصى والنهى عنها .

---

(١) التور (بالتاء المثناة) : إناء من صُفْر أو حجارة يشرب منه أو يتوضأ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ ﴾ كان هـذا القول منهم في التِّيـه حين مَلُّوا المنّ والسَّلْوَى ، وتذكّروا عيشهم الأوّل بمصر . قال الحسن : كانوا نَتَانَى أهل كُرّاث وأبصال وأعداس ، فنزعوا إلى عِكْرِهم عِكْرِ السّوء،[1] وآشتاقت طباعهم إلى ما جرت عليه عادتهم فقالوا : لن نصبر على طعام واحد . وكنوا عن المنّ والسلوى بطعام واحد وهما آثنان لأنهم كانوا يأكلون أحدهما بالآخر ؛ فلذلك قالوا : طعام واحد . وقيـل : لتكرارهما في كل يوم غذاء ؛ كما تقـول لمن يداوم على الصوم والصـلاة والقراءة : هو على أمر واحد ؛ لملازمته لذلك . وقيل : المعنى لن نصـبر على الغنى فيكون جميعنا أغنياء فلا يقدر بعضنا على الآستعانة ببعض ؛ لآستغناء كل واحد منّا بنفسه . وكذلك كانوا ؛ فهم أوّل من آتخذ العبيـد والخـدَم .

قوله تعالى : ﴿ عَلَى طَعَامٍ ﴾ الطعام يُطلق على ما يُطعم ويُشرب ؛ قال الله تعالى : « وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي » وقـال : « لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا » أي ما شربوه من الخمر ، على ما يأتي بيانه[2] . وإن كان السلوى العسل — كما حكى المؤرّج — فهو مشروب أيضا . وربما خُصّ بالطعام البُرّ والتمْر ، كما في حديث أبي سعيد الخُدْرِيّ قال : كنا نُخرج صدقةَ الفطر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسـلم صاعاً من طعام أو صاعا من

(١) العكر (بكسر أوله وسكون ثانيه) : الأصـل . وقيل : العادة والديدن . و العكر (بالتحريك) : دُرْدِيّ كل شيء .
(٢) راجع جـ ٦ ص ٢٩٢ .

شعير، الحديث . والعرف جارٍ بأن القائل : ذهبت إلى ســوق الطعام، فليس يفهم منه إلا موضع بيعه دون غيره مما يؤكل أو يُشرب . والطَّعْم (بالفتح) : هو ما يؤدّيه الذوق، يقال : طعمه مرّ . والطَّعْم أيضا : ما يشتهى منه ؛ يقال : ليس له طعم . وما فلان بذى طعم : إذا كان غثًّا . والطُّعم (بالضم) : الطعام، قال أبو خراش :

أُرُدّ شُجـاعَ البطن لو تعلمينـه (١) * وأُوثِرُ غيرى من عِيَالك بالطُّعْمِ

وأغتبِـق المـاء القَـرَاحَ فأنتهى * إذا الزادُ أمسى لِلْمُزَلَّجِ (٢) ذا طَعْـمِ

أراد بالأوّل الطعام، وبالثانى ما يُشتهى منه . وقد طَعِم يَطْعَمُ فهو طاعم إذا أكل وذاق؛ ومنه قوله تعالى : « وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّه مِنِّى » أى من لم يذقه . وقال : « فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنْتَشِرُوا » أى أكلتم . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى زمزم : ”إنها طَعامُ طُعْمٍ وشِفاءُ سُقْمٍ (٣)“ . وٱستطعمنى فلان الحديث إذا أراد أن تحدّثه . وفى الحديث : ”إذا ٱستطعمكم الإمامُ فأطعموه“ . يقول : إذا ٱستفتح فٱفتحوا عليه . وفلان ما يَطْعَم النوم إلا قائما . وقال الشـاعر :

نَعامًا بوَجْرَةَ صُفر الحدو (٤) * د ما تَطْعَم النومَ إلا صِياما

قوله تعالى : ﴿ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّـا تُنْبِتُ الْأَرْضُ ﴾ لغة بنى عامر « فٱدعِ » بكسر العين لٱلتقاء الساكنين، يُجرون المعتل مجرى الصحيح ولا يراعون المحـذوف . و« يُخْرِجْ » مجزوم على معنى سَلْه وقل له : أَخرِجْ، يُخْرِج . وقيل : هو على معنى الدعاء على تقدير حذف

---

(١) فى ديوان الهذليين واللسان مادّة (طعم) : « قد تعلمينه » . (٢) المزلج : من معانيه البخيل . والملزق بالقوم وليس منهم . وكلاهما محتمل . (٣) أى يشبع الإنسان إذا شرب ماءها كما يشبع من الطعام .

(٤) كذا فى نسخ الأصل . ووجرة (بفتح فسكون) : موضع بين مكة والبصرة . والذى فى كتب اللغة ومعاجم البلدان :

نعاما بخطمة صعر الخـدو * د لا تطعم الماء إلا صياما

وقبله : فأما بنـــو عامر بالنسار * غداة لقونا فكانوا نعـاما

وهو لبشر بن أبى خازم . وخطمة (بفتح فسكون) : موضع أعلى المدينة . وفى اللسان بعد البيت : « يقول : هى صائمة منه لا تطعمه ؛ قال : وذلك لأن النعام لا ترد المـاء ولا تطعمه » .

Marfat.com

اللام ، وضعّفه الزجاج . و « مِن » ، في قوله « مِمَّا » زائدة في قول الأخفش ، وغير زائدة في قول سيبويه ؛ لأن الكلام موجب . قال النحاس : وإنما دعا الأخفش إلى هذا لأنه لم يجد مفعولا لـ « يُخرِج » فأراد أن يجعل « ما » مفعولا . والأولى أن يكون المفعول محذوفا دلّ عليه سائر الكلام ؛ التقدير : يخرج لنا مما تُنبت الأرض مأكولا . فـ « مِن » الأولى على هذا للتبعيض ، والثانية للتخصيص . و ﴿ مِنْ بَقْلِهَا ﴾ بدل من « ما » بإعادة الحرف . ﴿ وَقِثَّائِهَا ﴾ عطف عليه ، وكذا ما بعده ؛ فاعلمه . والبَقْل معروف ، وهو كل نبات ليس له ساق . والشجر : ماله ساق . والقِثّاء أيضا معروف ، وقد تُضمّ قافه ، وهي قراءة يحيى بن وثّاب وطلحة ابن مُصَرِّف ، لغتان والكسر أكثر . وقيل في جمع قِثّاء : قَثَائِيّ ؛ مثل عِلْبَاء وعَلَابِيّ ؛ إلا أن قثاء من ذوات الواو ؛ تقول : أقثأتُ القوم ؛ أي أطعمتهم ذلك .

[وفَثَأَتِ القِدْرَ[1] سكّنت غليانها بالماء ؛ قال الجَعْدِيّ :

تَفُور علينا قِدْرُهم فنُدِيمُهَا * ونَفْثَؤُها عنّا إذا حَمْيُهَا غلا

وفثأتُ الرجل إذا كسرتَه عنك بقول أو غيره وسكّنت غضبه . وعدا حتى أفثأ ؛ أي أعيا وانبهر . وأفثأ الحَرُّ أي سكن وفتر . ومن أمثالهم في اليسير من البِرّ قولهم : إن الرَّثِيئة تفثأ الغضب » . وأصله أن رجلا كان غَضِب على قوم وكان مع غضبه جائعا ، فسقَوْه رَثِيئة فسكن غضبه وكف عنهم . الرثيئة : اللبن المحلوب على الحامض ليَخْثُر . رَثَأْت اللبن رَثْأً إذا حلبته على حامض فخَثُر ؛ والاسم الرَّثيئة . وارتثأ اللبن خثر] .

وروى ابن ماجه حدّثنا محمد بن عبد الله بن نمير حدّثنا يونس بن بُكَير حدّثنا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت : كانت أمّي تعالجني للسُّمْنة ، تريد أن تُدخلني على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما استقام لها ذلك حتى أكلت القِثّاء بالرُّطَب فسَمِنتُ كأحسن سِمنة . وهذا إسناد صحيح .

---

(١) الكلام الموضوع بين المربعين نقله المؤلف من معاجم اللغة سهوا على أنه من مادة « قثا » بالقاف ؛ والواقع أنه من مادة « فثأ » بالفاء .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَفُومِهَا ﴾ اختلف فى الفُوم، فقيل : هو الثُّوم؛ لأنه المشاكل للبصل . رواه جُوَيْبِر عن الضحاك . والثاء تبدل من الفاء، كما قالوا : مغافير ومغاثير (١) . وجَدَثٌ وجَدَفٌ؛ للقبر . وقرأ ٱبن مسعود « ثومها » بالثاء المثلثة؛ وروى ذلك عن ٱبن عباس . وقال أُمَيَّة ابن أبى الصَّلْت :

كانت منـازلهم إذ ذاك ظـاهرةً * فيها الفَرَادِيسُ والفُومانُ والبَصَـلُ

الفراديس : واحدها فرديس . وكَرْم مُفَرْدَس؛ أى معرّش .

وقال حسّان :

وأنتم أناسٌ لئـامُ الأصول * طعـامُكُمُ الفُـومُ والحَوْقَـلُ

يعنى الثّوم والبصـل؛ وهو قول الكسائى والنّضر بن شُمَيل . وقيل : الفُوم الحنطـة؛ روى عن ٱبن عباس أيضا وأكثر المفسرين؛ وٱختاره النحاس، قال : وهو أَوْلى، ومن قال به أعلى، وأسانيده صحاح؛ وليس جُوَيْبِر بنظير لرُوايته؛ وإن كان الكسائى والفراء قد ٱختارا القول الأوّل، لإبدال العرب الفاء من الثاء؛ والإبدال لا يقاس عليه؛ وليس ذلك بكثير فى كلام العرب . وأنشد ٱبن عباس لمن سأله عن الفوم وأنه الحنطة، قول أُحَيْحَة بن الجُلَاح :

قد كنتُ أغنَى النـاسِ شخصًا واحدًا * وَرَدَ المدينـــةَ عن زراعة فُـومِ

وقال أبو إسحاق الزجاج : وكيف يطلب القوم طعامًا لا بُرَّ فيه، والبرّ أصل الغذاء ! .

وقال الجوهرى أبو نصر : الفوم الحنطة . وأنشد الأخفش :

قد كنت أحسبنى كأغنى واحد * نزل المدينـة عن زراعة فُومِ (٢)

وقال ٱبن دُرَيد : الفُومة السُّنْبلة؛ وأنشد :

وقال رَبِيئُهم (٣) لمّـا أتانا * بِكَفّه فومةٌ أو فُومتان

---

(١) المغافير : قيل : هو صمغ يسيل من شجر العرفط رائحته ليست بطيبة .

(٢) فى الأغانى (جـ ٢١ ص ٢١١) طبع أوربا : « عن زراعة فول » . وقبل البيت :

ولقـد نظرت إلى الشموس ودونها * حرج من الرحمن غـير قليل

وعلى هذا فالقافية لامية .

(٣) فى بعض الأصول : « وقال رئيسهم » . الربى . (ومثله الربيئة) : العين والطليعة الذى ينظر للقوم لئلا يدهمهم عدو، ولا يكون إلا على جبل أو شرف ينظر منه .

والهـاء فى « كفه » غير مشبعة . وقال بعضهم : الفُوم : الحِمَّص؛ لغةٌ شامية . و بائعه فاميّ ، مغيَّر عن فُوميّ؛ لأنهم قد يغيّرون فى النسب، كما قالوا : سُهْلِيّ ودُهْرِيّ . و يقال : فَوِّموا لنا ؛ أى آختبزوا . قال الفرّاء : هى لغة قديمة . وقال عطاء وقتادة : الفُوم كل حب يُختَـــبز .

مسئلة — آختلف العلماء فى أكل البصل والثوم وما له رائحة كريهة من سائر البقول . فذهب جمهور العلماء إلى إباحة ذلك ؛ للأحاديث الثابتة فى ذلك . وذهبت طائفة من أهل الظاهر — القائلين بوجوب الصلاة فى الجماعة فرضًا — إلى المنع، وقالوا : كل مامَنَع من إتيان الفرض والقيام به فحرام عمله والتشاغل به . وآحتجّوا بأن رسـول الله صلى الله عليه وسلم سمّاها خبيثة ، والله عز وجل قد وصف نبيّـه عليه السلام بأنه يحرّم الخبائث . ومن الحجـة للجمهور ما ثبت عن جابر أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أُتِيَ ببَدْر(١) فيه خَضِرات من بقول فوجد لها ريحا ؛ قال : فأُخْبِر بما فيها من البقول ، فقال : "قرّبوها" — إلى بعض أصحابه كان معه — فلما رآه كره أكلها ، قال : "كُلْ فإنّى أُناجِى مَن لا تُناجِى" . أخرجه مسلم وأبو داود . فهذا بيّن فى الخصوص له والإباحة لغيره . وفى صحيح مسلم أيضا عن أبى أيوب أن النبيّ صلى الله عليه وسلم نزل على أبى أيوب ، فصنع للنبيّ صلى الله عليه وسلم طعاما فيه ثُوم ، فلما رُدّ إليه سأل عن موضع أصابع النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقيل له : لم يأكل . ففزع وصعِد إليه فقال : أحرامٌ هو ؟ قال النبيّ صلى الله عليه وسـلم : "لا ولكنى أكرهُه" . قال : فإنى أكره ما تكره أو ما كرهت . قال : وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يُؤْتَى (يعنى يأتيه الوحى) . فهذا نصّ على عدم التحريم . وكذلك ما رواه أبو سـعيد الخُدْرِيّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم حين أكلوا الثوم زمنَ خَيْبَر وفتحها : "أيها الناس إنه ليس لى تحـريمُ ما أحلّ الله ولكنها شجـرة أكره ريحها" . فهـذه الأحاديث تُشعر بأن الحكم خاصّ به ، إذ هو المخصوص بمناجاة المَلَك . لكن قد علمنا هذا الحكم فى حديث جابر بما يقتضى التسوية بينه و بين غيره فى هذا الحكم حيث قال : "من أكل من هـذه البقلة الثوم — وقال مرة : من أكل البصل والثـوم

(١) فى الأصول : « بقدر » . والتصويب عن سنن أبى داود . يعنى بالبدر الطبق ؛ شبه بالبدر لاستدارته .

والكُرّاث — فلا يَقْرَبَنّ مسجدنا فإن الملائكة تتأذّى مما يتأذى منه بنو آدم " . وقال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه في حديث فيه طُول : إنكم أيها الناس ، تأكلون شجرتين لا أراهما إلا خبيثتين ، هذا البصل والثوم . ولقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا وجد ريحهما من الرجل في المسجد أمر به فأُخرِج إلى البَقيع ، فمن أكلهما فَلْيُمِتْهما طبخا . خرّجه مسلم .

قوله تعالى : ﴿ وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ﴾ العدس معروف . والعَدَسَةُ : بَثْرةٌ تخرج بالإنسان ، وربما قتلت . وعَدَسْ : زَجْرٌ للبغال ؛ قال :

عَدَسْ ما لِعَبّادٍ عليكِ إمارةٌ * نَجَوْتِ وهذا تحملين طَلِيق (١)

والعَدْس : شدّة الوطء ، والكَدْح أيضا ؛ يقال : عَدَسه . وعَدَسَ في الأرض : ذهب فيها . وعَدَسَتْ إليه المنيّة أي سارت ؛ قال الكُمَيْت :

أُكَلِّفها هَوْلَ الظلامِ ولم أزَلْ * أخا الليلِ مَعْدوساً إليّ وعادِسا

أي يسار إليّ بالليل . وعَدَسْ : لغة في حَدَس ؛ قاله الجوهري . ويؤثر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم من حديث عليّ أنه قال : " عليكم بالعدس فإنه مبارك مقدّس وإنه يُرِق القلب ويكثر الدّمعة فإنه بارك فيه سبعون نبيًّا آخرهم عيسى بن مريم " ؛ ذكره الثعلبي وغيره . وكان عمر بن عبد العزيز يأكل يوما خبزا بزيت ، ويوما بلحم (٢) ، ويوما بعدس . قال الحَلِيميّ : والعدس والزيت طعام الصالحين ؛ ولو لم يكن له فضيلة إلا أنه ضيافة إبراهيم عليه السلام في مدينته لا تخلو منه لكان فيه كفاية . وهو مما يخفّف البدن فيخفّ للعبادة ، ولا تثور منه الشهوات كما تثور من اللحم . والحِنْطة من جملة الحبوب وهي الفُوم على الصحيح ، والشعير قريب منها وكان طعام أهل المدينة ، كما كان العدس من طعام قرية إبراهيم عليه السلام ؛ فصار لكل واحد من الحبّتين بأحد النبيين عليهما السلام فضيلة . وقد روى أن النبيّ صلى الله

(١) البيت ليزيد بن مفرغ .   (٢) في بعض نسخ الأصل : « بملح » .

Marfat.com

عليه وسلم لم يَشْبع هو وأهله من خُبْز بُرٍّ ثلاثة أيام متتابعة منذ قدِم المدينة إلى أن توفاه الله عزّ وجلّ .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴾ الاستبدال : وضع الشيء موضع الآخر ؛ ومنه البدل ، وقد تقدّم . و « أَدْنَى » مأخوذ — عند الزجاج — من الدُّنُوّ أى القُرْب فى القيمة ؛ من قولهم : ثَوْبٌ مقارِب ؛ أى قليل الثمن . وقال علىّ بن سليمان : هو مهموز من الدنىء البيّن الدناءة بمعنى الأخس ، إلا أنه خفّف همزته . وقيل : هو مأخوذ من الدُّون أى الأحط ؛ فأصله أَدْوَن ، أفْعَل ، قُلِب فجاء أفْلَع ؛ وحُوّلت الواو ألفا لتطرّفها . وقُرِئ فى الشّـواذّ « أدنى »(1) . ومعنى الآية : أتستبدلون البَقْل والقِثّاء والفُومَ والعَدَس والبَصل الذى هو أدنى بالمنّ والسَّلْوَى الذى هو خير .

وٱختُلِف فى الوجوه التى توجب فضل المنّ والسَّلْوَى على الشيء الذى طلبوه وهى خمسة :

الأوّل — أن البقول لمـا كانت لا خطر لها بالنسبة إلى المنّ والسلوى كانا أفضل ؛ قاله الزجاج .

الثـانى — لمّـا كان المنّ والسلوى طعاما منّ الله به عليهم وأمرهم بأكله وكان فى ٱستدامة أمر الله وشكر نعمته أجر وذُخْرٌ فى الآخرة ، والذى طلبوه عارٍ من هـذه الخصائل ، كان أدنى فى هذا الوجه .

الثـالث — لمّـا كان ما منّ الله به عليهـم أطيب وألذّ من الذى سألوه ، كان ما سألوه أدنى من هذا الوجه لا محالة .

الرابــع — لمّـا كان ما أُعْطُوا لا كُلْفَةَ فيه ولا تعب ، والذى طلبوه لا يجيء إلا بالحرث والزراعة والتعب ، كان أدنى .

الخامس — لمّـا كان ما ينزل عليهم لا مِرْيةَ فى حِلّه وخُلوصــه لنزوله من عند الله ، والحبــوب والأرض يتخلّلها البيوع والغصوب وتدخلها الشُّبه ، كانت أدنى من هذا الوجه .

(1) كذا فى نسخ الأصل . والذى فى كتب الشواذ : « أدنأ بالهمز » وهى قراءة زهير الفرقبى » .

مسئلة — فى هـذه الآية دليلٌ على جـواز أكل الطّيبات والمطاعم المستلذّات ، وكان النبيّ صلى الله عليه وسلّم يحبّ الحَلْوى والعَسَل ، ويشرب المـاء البارد العَذْب ؛ وسيأتى هذا المعنى فى « المـائدة »[1] و « النحل »[2] إن شاء الله مستوفًى .

قوله تعالى : ﴿ ٱهْبِطُوا مِصْرًا ﴾ تقدّم معنى الهبوط[3] ، وهذا أمر معناه التعجيز ، كقوله تعالى : « قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا » . لأنهم كانوا فى التِّيه وهذا عقوبة لهم . وقيل : إنهم أُعطوا ما طلبوه . و « مِصْراً » بالتنوين منكَّراً قراءة الجمهور ، وهو خطّ المصحف . قال مجاهد وغيره : فمن صَرَفها أراد مِصْراً من الأمصار غير معيَّن . وروى عكرمة عن ٱبن عباس فى قوله : « ٱهْبِطُوا مِصْراً » قال : مِصْراً من هـذه الأمصار . وقالت طائفة ممن صَرَفهـا أيضا : أراد مِصْرَ فرعون بعينها . استدلّ الأوّلون بما ٱقتضاه ظاهر القرآن من أمرهم دخول القرية ، وبمـا تظاهرت به الرواية أنهم سكنوا الشام بعـد التِّيه . وٱستدلّ الآخرون بمـا فى القـرآن من أن الله أورث بنى إسرائيل ديار آل فرعون وآثارهم ، وأجازوا صرفها . قال الأخفش والكسائى : لخفّتها وشبهها بِهِنْد ودَعْد ؛ وأنشد :

لم تَتَلَفَّعْ بفضـل مِئزرها ＊ دَعْدٌ ولم تُسْقَ دَعْدُ فى العُلَبِ[4]

فجمع بين اللغتين . وسيبويه والخليل والفرّاء لا يجيزون هـذا ؛ لأنك لو سمّيت ٱمرأة بزيد لم تَصرف . وقال غير الأخفش : أراد المكان فصَرَف . وقرأ الحسن وأَبَان بن تَغْلِب وطلحة : « مِصْرَ » بترك الصرف . وكذلك هى فى مصحف أُبَيّ بن كعب وقراءة ٱبن مسعود . وقالوا : هى مصر فرعون . قال أشهب قال لى مالك : هى عندى مصر قريتك مسكن فرعون ؛ ذكره ٱبن عطية . والمِصر أصله فى اللغة الحدّ . ومِصر الدّار : حدودها . قال ٱبن فارس ويقال : إن أهل هَجَر يكتبون فى شروطهم «ٱشترى فلان الدار بمُصُورها» أى حدودها ؛ قال عَدِيّ :

وجاعلُ الشمسِ مصراً لا خفاءَ به ＊ بين النهار وبين الليـل قد فَصَلاَ

---

(١) راجع جـ ٦ ص ٢٦٣ .　　(٢) راجع جـ ١٠ ص ١٣٦ .　　(٣) راجع ص ٣١٩ .

(٤) البيت لجرير . والعلب : أقداح من جلود يحلب فيهـا اللبن و يشرب . يقول هى حضرية رقيقة العيش لا تلبس لبس الأعراب ولا تتغذى غذاءهم . (شرح الشواهد) .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ لَكُمْ مَاسَأَلْتُمْ ﴾ «ما» نصب بإن . وقرأ ٱبن وَثّاب والنَّخَعِيّ «سِألتم» بكسر السين؛ يقال : سالت وسلت بغير همز . وهو من ذوات الواو، بدليل قولهم : يتساولان . ومعنى ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ ﴾ أى أُلزِموهما وقُضِىَ عليهم بهما؛ مأخوذ من ضرب القباب، قال الفرزدق فى جَرِير :

ضربتْ عليك العنكبوتُ بنَسْجها * وقضَى عليك به الكتابُ المُنْزَلُ

وضرب الحاكم على اليد؛ أى حمل وألزم . والذِّلّة : الذُّلّ والصَّغار . والمسكنة : الفقر . فلا يوجد يهودىّ وإن كان غَنِيًّا خاليًا من زِىّ الفقر وخضوعه ومهانته . وقيل : الذلة فرض الجِزْية ؛ عن الحسن وقتادة . والمسكنة الخضوع ، وهى مأخوذة من السكون ؛ أى قلّل الفقر حركته؛ قاله الزجاج . وقال أبو عبيدة : الذّلة الصَّغار . والمسكنة مصدر المسكين . وروى الضّحاك بن مُزاحم عن ٱبن عباس : « وضُرِبَتْ عليهم الذِّلّةُ والمسكنةُ »قال : هم أصحاب القَبَالات[(١)] .

قوله تعالى : ﴿ وبَاءُوا ﴾ أى ٱنقلبوا ورجعوا ؛ أى لزمهم ذلك . ومنه قوله عليه السلام فى دعائه ومناجاته : "أَبُوءُ بنعمتك علىّ" أى أُقِرّ بها وأُلزمها نفسى . وأصله فى اللغة الرجوع ؛ يقال باء بكذا، أى رجع به . وباء إلى المَبَاءة — وهى المنزل — أى رجع . والبواء : الرجوع بالقَوَد . وهم فى هذا الأمر بَوَاء ؛ أى سواء، يرجعون فيه إلى معنًى واحد . وقال الشاعر[(٢)] :

أَلا تَنْتَهِى عنّا ملوكٌ وتَتَّقِى * محارِمَنا لا يَبُوءُ الدمُ بالدمِ

أى لا يرجع الدّم بالدم فى القَوَد . وقال :

فآبُوا بالنِّهابِ وبالسَّبايَا * وأُبْنَا بالملوكِ مُصَفَّدِينَا[(٣)]

أى رجعوا ورجعنا . وقد تقدّم معنى الغضب فى الفاتحة[(٤)] .

---

(١) فى تفسير ٱبن كثير : « ... ... القبالات يعنى الجزية » . (٢) هو جابر بن جبير التغلبى (عن شرح الشواهد) . (٣) البيت من معلقة عمرو بن كلثوم التغلبى ، ولا شاهد فيه ، إذ الرواية فيه : «فآبوا...وأبنا» ومادة «آب» غير مادة «باء» وإن كان معنى المادتين واحدا . (٤) راجع ص ١٤٩ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ﴾ «ذلك» تعليل. ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أى يكذّبون ﴿بِآيَاتِ اللهِ﴾ أى بكتابه ومعجزات أنبيائه ؛ كعيسى ويحيى وزكريا ومحمد عليهم السلام . ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾ معطوف على « يكفرون » . ورُوِىَ عن الحسن « يُقَتِّلُون » وعنه أيضا كالجماعة . وقرأ نافع « النَّبِيئين » بالهمز حيث وقع فى القرآن إلا فى موضعين : فى سورة الأحزاب : « إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ » (١) . و « لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا » فإنه قرأ بلا مدّ ولا همز . وإنما ترك همز هذين لاجتماع همزتين مكسورتين . وتَرَكَ الهمزَ فى جميع ذلك الباقون . فأمّا من همز فهو عنده من أنبأ إذا أخبر ، واسم فاعله مُنْبِئ . ويجمع نبىء أنبياء ، وقد جاء فى جمع نبىّ نُبآء ، قال العباس بن مِرْدَاس السُّلَمىّ يمدح النبىّ صلى الله عليه وسلم :

يا خاتَمَ النُّبَآءِ إنك مُرْسَـلٌ * بالحق كلُّ هُدَى السبيلِ هُداكا

هذا معنى قراءة الهمز . واختلف القائلون بترك الهمز ؛ فمنهم من اشتق اشتقاق من همز ، ثم سهّل الهمز . ومنهـم من قال : هو مشتق من نَبَا يَنْبُـو إذا ظهر . فالنبىّ من النبوّة وهو الارتفاع ؛ فمنزلة النبىّ رفيعة . والنبىّ بترك الهمز أيضا الطريق ، فسُمِّىَ الرسول نَبِيًّا لاهتداء الخلق به كالطريق ؛ قال الشاعر (٢) :

لأصبح رَتْمًـا دُقاق الحَصَى * مكانَ النَّبِىّ من الكاثِبِ

رَتَمْت الشىء : كسرته ؛ يقال : رتم أنفه ورثمه ، بالتاء والثـاء جميعا . والرتم أيضا المرتوم أى المكسور . والكاثب اسم جبل . فالأنبياء لنـا كالسُّبُل فى الأرض . ويروى أن رجلا قال للنبىّ صلى الله عليه وسلم : السلام عليك يانبىء الله ؛ وهمز . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "لستُ بنبىء الله — وهمز — ولكنى نبىّ الله" ولم يهمز . قال أبو علىّ : ضُعِّف سند هذا الحديث ؛ ومما يقوّى ضعفه أنه عليه السلام قد أنشده المـادح : * ياخاتَمَ النُّبَآء ... * ولم يُؤْثَر فى ذلك إنكار .

---

(١) ج ١٤ ص ٢١٠ وص ٢٢٣

(٢) هو أوس بن حجر (كما فى اللسان) .

Marfat.com

قوله تعــالى : ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ تعظيم للشُّنْعة والذنب الذى أتوه .

فإن قيل : هذا دليل على أنه قد يصح أن يُقتلوا بالحق ؛ ومعلوم أن الأنبياء معصومون من أن يصدر منهم ما يُقتلون به . قيل له : ليس كذلك ؛ وإنمــا خرج هــذا مخرج الصفة لقتلهم أنه ظُلم وليس بحق ؛ فكان هــذا تعظيما للشُّنْعة عليهم ؛ ومعلوم أنه لا يُقتل نبيّ بحق ، ولكن يُقتل على الحق ؛ فصرّح قوله : « بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ » عن شُنعة الذنب ووضوحه ؛ ولم يأت نبيّ قط بشيء يوجب قتله .

فإن قيل : كيف جاز أن يخلّى بين الكافرين وقتل الأنبياء؟ قيل : ذلك كرامة لهم وزيادة فى منازلهم ؛ كمثل من يُقتل فى سبيل الله من المؤمنين ، وليس ذلك بخذلان لهم . قال ٱبن عباس والحسن : لم يُقتل نبيّ قط من الأنبيــاء إلا من لم يؤمر بقتال ، وكلُّ مَن أمر بقتال نُصر .

قوله تعــالى : ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ «ذلك» ردّ على الأوّل وتأكيد للإشارة إليه . والباء فى « بمــا » باء السبب . قال الأخفش : أى بعصيانهم . والعصيان : خلاف الطاعة . وٱعتصتِ النّواةُ إذا ٱشــتدّت . والاعتداء : تجاوز الحــدّ فى كل شيء ؛ وعُرف فى الظلم والمعــاصى .

قوله تعــالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِـلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِـمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِـمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾

فيه ثمــانى مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا) أى صــدّقوا بمحمد صلى الله عليه وســلم . وقال سُــفيان : المراد المنافقون . كأنه قال : الذين آمنوا فى ظاهر أمرهم ؛ فلذلك قرنهــم باليهود والنصارى والصابئين ، ثم بيّن حكم من آمن بالله واليوم الآخر من جميعهم .

الثانيـــة ــ قوله تعالى : (وَالَّذِينَ هَادُوا) معناه صاروا يهوداً ؛ نُسبوا إلى يهوذا وهو أكبر ولد يعقوب عليــه السلام ؛ فقلبت العرب الذال دالا ؛ لأن الأعجمية إذا عُرِّبت غُيِّرت

Marfat.com

عن لفظها . وقيل : سُمُّوا بذلك لتوبتهم عن عبادة العجل . هاد : تاب . والهائد : التائب؛ قال الشاعر :

* إنى آمرؤ من حُبّه هائدُ *

أى تائب . وفى التنزيل : « إنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ » أى تُبْنَا . وهاد القوم يهودون هَوْدًا وهيادة إذا تابوا . وقال آبن عرفة : « هُدْنَا إليك » أى سكنّا إلى أمرك . والهوادة السكون والموادعة . قال : ومنه قوله تعالى : « إنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا » . وقرأ أبو السَّمّال : « هادَوْا » بفتح الدال .

الثالثة — قوله تعالى : (وَٱلنَّصَارَى) جمع ، واحده نَصْرانىّ . وقيل : نَصْرَان بإسقاط الياء؛ وهذا قول سيبويه . والأنثى نصرانة؛ كندمان وندمانة . وهو نكرة يعرّف بالألف واللام؛ قال الشاعر[(١)] :

صدّتْ كما صدّ عما لا يَحِلّ له * ساقِى نَصارَى قُبيل الفِصْح[(٢)] صُوّامِ

فوصفه بالنكرة . وقال الخليل : واحد النصارى نَصْرِىّ؛ كَمَهْرِىّ ومَهارَى . وأنشد سيبويه شاهدًا على قوله :

تَراه إذا دار العِشَا مُتَحَنِّفًا * ويُضْحى لديه وهو نَصْرانُ شامِس

وأنشد :

فكلتاهما خَرّتْ وأسجد رأسُها * كما أسجدتْ نَصرانةٌ لم تَحَنَّفِ[(٣)]

يقال : أسجد إذا مال . ولكن لا يستعمل نَصران ونَصرانة إلا بياءى النسب؛ لأنهم قالوا : رجل نصرانىّ وآمرأة نصرانية . ونَصّره : جعله نَصرانيًّا . وفى الحديث : " فأبواه يُهَوّدانِه أو يُنَصِّرانِه " . وقال عليه السلام : " لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يَهُودىّ ولا نَصرانىّ

---

(١) هو النمر بن تولب . يصف ناقة عرض عليها الماء فعافته .   (٢) فى نسخ الأصل : « الصبح » بالباء . والتصويب عن كتاب سيبويه . والفصح . فطر النصارى ، وهو عيد لهم .   (٣) البيت لأبى الأخزر الحمانى ، يصف ناقتين طأطأتا رءوسهما من الإعياء . فشبه رأس الناقة برأس النصرانية إذا طأطأته فى صلاتها . (عن شرح القاموس واللسان) .

ثم لم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النــار " . وقد جاءت جموع على غير ما يستعمل واحدها؛ وقياســه النصرانيون . ثم قيل : سُمُّوا بذلك لقرية تسمّى « ناصرة » كان ينزلها عيسى عليه السلام فنُسب إليها فقيل : عيسى الناصرى؛ فلما نُسب أصحابه إليــه قيــل النصارى؛ قاله آبن عباس وقتادة . وقال الجــوهرى : ونصران قرية بالشام يُنسب إليها النصارى، ويقال ناصرة . وقيل : سُمُّوا بذلك لنُصرة بعضهم بعضا؛ قال الشاعر :

لمـا رأيتُ نَبَطًا أنصـارَا * شَمَّـرت عن ركبَتىَ الإزارا

* كنتُ لهم من النصارى جارا *

وقيل : سُمُّوا بذلك لقوله : « مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ » .

الرابعــة — قوله تعـالى : (والصَّابِئِينَ) جمـع صابئ، وقيل : صابٍ؛ ولذلك آختلفوا فى همزه، وهمزه الجمهور إلا نافعا . فمن همزه جعله من صَبَأَتِ النّجوم إذا طلعت، وصَبَأَتْ ثَنِيّةُ الغلامِ إذا خرجت . ومن لم يهمز جعــله من صبا يصبو إذا مال . فالصابئُ فى اللغة : من خرج ومال من دين إلى دين ؛ ولهذا كانت العرب تقول لمن أسلم قد صبأ . فالصابئون قد خرجوا من دين أهل الكتاب .

الخامســة — لاخلاف فى أن اليهود والنصارى أهل كتاب ولأجل كتابهم جاز نكاحُ نسائهم وأكْلُ طعامهم — على ما يأتى بيانه فى المـائدة [(١)] — وضَرْبُ الجزية عليهم؛ على ما يأتى فى سورة « براءة » [(٢)] إن شـاء الله . وآخْتُلف فى الصابئين ؛ فقال السُّدّى : هم فرقة من أهل الكتاب ، وقاله إسحاق بن رَاهَوَيْه . قال آبن المنذر وقال إسحاق : لابأس بذبائح الصابئين لأنهم طائفة من أهل الكتاب . وقال أبو حنيفة : لابأس بذبائحهم ومناكحة نسائهم . وقال الخليل : هم قوم يُشْبه دينُهم دين النصارى ، إلا أن قبلتهم نحو مهبّ الجنوب ؛ يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام . وقال مجاهد والحسن وآبن أبى نَجيح : هم قوم تركّب دينهم بين اليهودية والمجوسيّة ، لا تؤكل ذبائحهم . آبن عباس : ولا تنكح نساؤهم . وقال الحسن أيضا وقتادة هم قوم يعبدون الملائكة و يصلّون إلى القبلة و يقرءون الزّبور و يصلّون الخمس ؛ رآهم زياد

(١) راجع جـ ٦ ص ٧٦ . (٢) راجع جـ ٨ ص ١١٠ .

ٱبن أبى سفيان فأراد وضع الجزية عنهم حين عرف أنهم يعبدون الملائكة . والذى تحصّل من مذهبهم — فيما ذكره بعض علمائنا — أنهم مُوَحّدون معتقدون تأثير النجوم وأنها فعالة؛ ولهذا أفتى أبو سعيد الإِصْطَخْرِيّ القادرَ بالله بكفرهم حين سأله عنهم .

السادســـة — قوله تعـالى : ﴿مَنْ آمَنَ﴾ أى صدّق . و « مَن » فى قوله : « مَنْ آمَنَ » فى موضع نصب بدل من « الذين » . والفاء فى قوله « فَلَهُمْ » داخلة بسبب الإبهام الذى فى « مَن » . و « لَهُمْ أَجْرُهُمْ » ٱبتـداء وخبر فى موضع خبر إنّ . ويحسن أن يكون «من» فى موضع رفع بالٱبتداء، ومعناها الشرط . و « آمن» فى موضع جزم بالشرط، والفاء الجواب . و « لهم أجرهم » خبر « من »، والجملة كلها خبر « إنّ »؛ والعائد على « الذين » محذوف؛ تقديره من آمن منهم بالله . وفى الإيمـان بالله واليوم الآخر ٱندارج الإيمـان بالرسل والكتب والبعث .

السابعـــة — إن قال قائل : لِمَ جُمِـع الضمير فى قوله تعالى : «لَهُمْ أَجْرُهُمْ» و « آمن » لفظ مفرد ليس بجمع، وإنمـا كان يستقيم لو قال : له أجره . فالجواب أنّ « مَن » يقع على الواحد والتثنية والجمع، فجائز أن يرجع الضمير مفرداً ومثنًّى ومجموعاً؛ قال الله تعالى : « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ» على المعنى . وقال : « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ » على اللفظ . وقال الشاعر :

أَلِمَّـا بسَلْمَى عنكما إنْ عَرَضْتُمَا * وقُولَا لهـا عُوجِى على مَن تَخَلَّفُوا

وقال الفرزدق :

تعـالَ فإنْ عاهـدتَنى لا تخـونُنى * نكن مثـلَ مَن ياذئبُ يصطحبانِ

فحمل على المعنى، ولو حمل على اللفظ لقال : يصطحب، وتخلّف . وقال تعـالى : « وَمَنْ يُطِـعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ » فحمل على اللفظ . ثم قال : « خَالِدِيـنَ » فحمل على المعنى؛ ولو راعى اللفظ لقال : خالدا فيهـا . وإذا جرى ما بعد « مَن » على اللفظ فجائز أن يخالف به بعدُ على المعنى كما فى هـذه الآية . وإذا جرى ما بعدها على المعنى لم يجز أن يخالف به بعـدُ على اللفظ؛ لأن الإلباس يدخل فى الكلام . وقـد مضى الكلام فى قوله تعـالى : ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١) . والحمد لله .

(١) راجع ص ٣٢٩ من هذا الجزء .

Marfat.com

الثامنـــة — رُوِىَ عن ابن عباس أن قوله : « إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا » الآية. منسوخ بقوله تعـالى : « وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ » الآية . وقال غيره : ليست بمنسوخة . وهى فيمن ثبت على إيمـانه من المؤمنين بالنبىّ عليه السلام .

قوله تعـالى : وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ ﴾ هذه الآية تفسّر معنى قوله تعالى : « وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ »[1] . قال أبو عبيدة : المعنى زعزعناه فاستخرجناه من مكانه . قال : وكل شىء قلعته فرمَيْتَ به فقد نتقته . وقيل : نتقناه رفعناه . قال ابن الأعرابىّ : الناتقُ الرافعُ، والناتقُ الباسـطُ، والناتقُ الفاتقُ . وامرأة ناتق ومِنتاق : كثيرة الولد . وقال القُتَبِىّ : أُخذ ذلك من نَتْقِ السِّقَاء، وهو نفضه حتى تقتلع الزُّبْدة منـه . قال وقوله : « وإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ » قال : قُلع من أصله .

واختلف فى الطور؛ فقيل : الطور اسم للجبل الذى كلّم الله عليه موسى عليه السلام وأنزل عليه فيه التوراة دون غيره؛ رواه ابن جريج عن ابن عباس . وروى الضحاك عنه أن الطور ما أنبتَ من الجبال خاصة دون ما لم ينبت . وقال مجاهـد وقتاده : أى جبل كان . إلا أن مجاهدا قال : هو اسم لكل جبل بالسريانية؛ وقاله أبو العاليـة . وقد مضى الكلام هل وقع فى القرآن ألفاظ مفردة غير معربة من غير كلام العرب فى مقدمة الكتاب[2] . والحمد لله . وزعم البكرى أنه سُمّى بطور بن إسماعيل عليه السلام . والله تعالى أعلم .

القول فى سبب رفع الطور

وذلك أن موسى عليه السلام لمـا جاء بنى إسرائيل من عنـد الله بالألواح فيها التوراة قال لهم : خذوها والتزموها . فقالوا : لا ! إلا أن يكلّمنا الله بها كما كلّمك . فصعقوا ثم أُحْيُوا . فقال لهم : خذوها . فقالوا لا . فأمر الله الملائكة فاقتلعت جبلا من جبال فلسطين طوله

(١) راجع جـ ٧ ص ٣١٣ (٢) راجع ص ٦٨ من هذا الجزء .

Marfat.com

فرسخ فى مثله ؛ وكذلك كان عسكرهم ؛ فجُعل عليهم مثل الظُّلة ، وأُتُوا ببحر من خَلْفِهم ، ونار من قِبَـل وجوههم ، وقيل لهم : خذوها وعليكم الميثاق ألا تضيّعوها ، وإلا سـقط عليكم الجبـل . فسجدوا توبةً لله وأخذوا التـوراة بالميثاق . قال الطبرى عن بعض العلماء : لو أخذوها أوّل مرة لم يكن عليهم ميثاق . وكان سجودهم على شِقّ ؛ لأنهم كانوا يرقبون الجبل خوفًا؛ فلما رحمهم الله قالوا : لا سجدة أفضل من سجدة تقبّلها الله ورَحِم بهـا عباده، فأمَرّوا سجودَهم على شِق واحد . قال ٱبن عَطية : والذى لا يصح سواه أن الله تعـالى ٱخترع وقت سجودهم الإيمـان [فى قلوبهم[(1)]] لا أنهم آمنوا كرها وقلوبهم غير مطمئنة بذلك .

قوله تعالى : ﴿ خُذُوا ﴾ أى فقلنا خذوا؛ فحذف . ﴿ مَا آتَيْنَاكُمْ ﴾ أعطيناكم . ﴿ بِقُوَّةٍ ﴾ أى بجِـد وٱجتهاد ؛ قاله ٱبن عباس وقتادة والسدّى . وقيل : بنيّـة وإخلاص . مجاهد : القوّة العمل بمـا فيه . وقيل : بقـوّة ، بكثرة درس . ﴿ وَٱذْكُرُوا مَا فِيـهِ ﴾ أى تدبّروه وٱحفظوا أوامره ووعيده، ولا تنسوه ولا تضيّعوه .

قلت : هذا هو المقصود من الكُتب، العملُ بمقتضاها لا تلاوتها باللسان وترتيلها؛ فإن ذلك نَبْذٌ لهـا ؛ على ما قاله الشعبي وٱبن عُيَيْنة ؛ وسيأتى قولهما عند قوله تعالى : « نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ[(2)] » . وقد روى النسائى عن أبى سعيد الخُدْرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنّ مِن شرّ الناس رجلًا فاسقًا يقرأ القرآن لا يَرْعَوِى إلى شىء منه " . فبيّن صلى الله عليه وسلم أن المقصود العمل كما بيّنا . وقال مالك : قد يَقرأ القرآنَ مَن لا خير فيه . فمـا لزم إذًا مَن قبلنا وأُخذ عليهم لازمٌ لنـا وواجبٌ علينا . قال الله تعالى : « وَٱتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِن رَبِّكُمْ[(3)] » . فأُمِرنا باتّباع كتابه والعمل بمقتضاه ؛ لكن تركنا ذلك ، كما تركت اليهـود والنصارى ، وبقيت أشخاص الكتب والمصاحف لا تفيد شيئا ؛ لغلبـة الجهل وطلب الرياسـة وٱتباع الأهواء . روى الترمذى عن جُبَيْر بن نُفَـيْر عن أبى الدرداء قال : كنا مع النبى صلى الله عليـه وسلم ، فشخص ببصره إلى السماء ثم قال : " هـذا أوانٌ

(1) زيادة عن تفسير ابن عطية . (2) راجع جـ ٢ ص ٤١ (3) راجع جـ ١٥ ص ٢٧٠

Marfat.com

يُختلس فيه العلمُ من الناس حتى لا يقدِروا منه على شيء ". فقال زياد بن لَبِيد الأنصاري: كيف يُختلس منا وقد قرأنا القرآن! فوالله لنقرأنه ولنُقرِئنّه نساءنا وأبناءنا. فقال: "ثكلتك أمُّك يا زياد أن كنتُ لأعُدّك من فقهاء المدينة هـذه التوارة والإنجيل عند اليهود والنصارى فمـاذا تُغنى عنهم" وذكر الحديث، وسيأتى. وخرّجه النسائى من حديث جُبير بن نُفير أيضا عن عَوف بن مالك الأشجعى من طريق صحيحة، وأن النبى صلى الله عليه وسلم قال لزياد: "ثكلتك أمُّـك يا زياد هـذه التوارة والإنجيل عند اليهـود والنصارى". وفى المُوطّأ عن عبدالله بن مسعود قال لإنسان: «إنك فى زمانٍ كثيرٍ فقهاؤه، قليلٍ قُرّاؤه، تُحفظ فيه حدودُ القرآن وتُضيّع حروفه، قليلٍ مَن يسأل، كثيرٍ مَن يُعطى، يطيلون الصلاة ويُقصِرون فيـه الخطبـة، يبدءون فيه أعمالهم قبل أهوائهم. وسيأتى على النـاس زمان قليلٌ فقهاؤه، كثيرٌ قرّاؤه، تُحفظ فيه حروف القرآن، وتُضيّع حدوده، كثيرٌ من يسأل، قليلٌ من يعطى، يطيلون فيه الخطبة، ويقصرون الصلاة، يبدءون فيه أهواءهم قبل أعمالهم». وهذه نصوص تدل على ما ذكرنا. وقـد قال يحيى: سألت ٱبن نافع عن قوله: يبدءون أهواءهم قبل أعمالهم؟ قال يقول: يتبعون أهواءهم ويتركون العمل بالذى ٱفترض عليهم. وتقـدّم القول فى معنى قوله: «لعلكم تتقون»[1]. فلا معنى لإعادته.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ تولّى تفعّل، وأصله الإعراض والإدبار عن الشىء بالجسم؛ ثم ٱستعمل فى الإعراض عن الأوامر والأديان والمعتقـدات ٱتساعا ومجازا. وقـوله: ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أى من بعـد البرهان، وهو أخذ الميثاق ورفع الجبل. وقـوله: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ «فضلُ» مرفوع بالٱبتداء عند سيبويه والخبر محذوف لا يجوز إظهاره؛ لأن العرب ٱستغنت عن إظهاره؛ إلا أنهم إذا أرادوا إظهاره جاءوا بأنّ، فإذا جاءوا بهـا لم يحذفوا الخبر. والتقدير فلولا فضل الله تداركَكم. ﴿وَرَحْمَتُـهُ﴾ عطف على «فضل» أى

(١) راجع ص ٢٢٧ من هذا الجزء.

Marfat.com

لطفــه وإمهاله . ﴿لَكُنتُم﴾ جواب «لولا» . ﴿مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ﴾ خبر كنتم . والخسران : النقصان؛ وقد تقدّم[1] . وقيل : فضله قبول التوبة، و«رحمته» العفو . والفضل : الزيادة على ما وجب . والإفضال : فعل ما لم يجب . قال ٱبن فارس فى المُجْمَل : الفضل الزيادة والخير، والإفضال : الإحسان .

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ «علمتم» معناه عرفتم أعيانهم . وقيل : علمتم أحكامهم . والفرق بينهما أن المعرفة متوجّهة إلى ذات المُسَمَّى . والعلم متوجّه إلى أحوال المسمّى . فإذا قلت : عرفت زيدا، فالمراد شخصه . وإذا قلت : علمت زيدا، فالمراد به العلم بأحواله من فضل ونقص . فعلى الأوّل يتعدّى الفعل إلى مفعول واحد، وهو قول سيبويه : «علمتم» بمعنى عرفتم . وعلى الثانى إلى مفعولين . وحكى الأخفش : ولقــد علمت زيدا ولم أكن أعلمه . وفى التنزيل : «لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ» . كل هـذا بمعنى المعرفة؛ فٱعلم . «ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ» صلة «الذين» . والاعتداء . التجاوز، وقد تقدّم[2] .

الثانيـــة — روى النَّسائى عن صفوان بن عسّال قال : قال يهودىّ لصاحبه : اذهب بنا إلى هـذا النبىّ . فقال له صاحبه : لا تقل نبىّ لو سمعك ! فإن له أربعة أعين[3] . فأتيا رسول الله صلى الله عليـه وسلم وسألاه عن تسع آيات بينات؛ فقال لهم : "لا تشركوا بالله شيئا ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتـلوا النفس التى حرّم الله إلا بالحـق ولا تمشُوا ببرىء إلى سلطان ولا تَسْحَرُوا ولا تأكلوا الربا ولا تَقْذِفُوا المُحْصَنة ولا تُوَلُّوا يوم الزّحف وعليكم خاصّةً يهودُ ألّا تعـدوا فى السّبت" . فقبّلوا يديه ورجليه وقالوا : نشهد أنك نبىّ . قال : "فما

(١) راجع ص ٢٤٨ (٢) راجع ص ٤٣٢ (٣) الذى فى نسخة النسائى : «لو سمعك كان له أربعة أعين» مع تأنيث العدد أيضا .

Marfat.com

يمنعكم أن تتبعونى " ! . قالوا : إن داود دعا بألّا يزال من ذُرّيته نبيّ ، وإنا نخاف إن آتبعناك أن تقتلنا يهود . وخرّجه الترمذيّ وقال : حديث حسن صحيح . وسيأتى لفظه فى سورة « سبحان »[١] إن شاء الله تعالى .

الثالثـــة — ﴿فِى ٱلسَّبْتِ﴾ معناه فى يوم السبت ؛ ويحتمل أن يريد فى حكم السبت. والأوّل قول الحسن وأنهم أخذوا فيه الحيتان على جهة الآستحلال . وروى أشهب عن مالك قال : زعم آبن رُومان أنهم كانوا يأخذ الرجل منهم خَيْطاً ويضع فيه وَهْقَة[٢] وألقاها فى ذَنَب الحوت، وفى الطرف الآخر من الخيط وَتِد وتركه كذلك إلى الأحد ؛ ثم تطرّق الناس حين رأوا مَن صَنَع لا يُبتلَى ، حتى كثر صيد الحوت ومُشِيَ به فى الأسواق ، وأعلن الفَسَقة بصيده . فقامت فرقة فنهت وجاهرت بالنّهى وآعتزلت . ويقال : إن الناهين قالوا : لا نساكنكم ؛ فقسموا القرية بجدار . فأصبح الناهون ذات يوم فى مجالسهم ولم يخرج من المعتدين أحد ؛ فقالوا : إنّ للناس لشأنا ؛ فعلَوْا على الجدار فنظروا فإذا هم قِردة ؛ ففتحوا الباب ودخلوا عليهم ، فعرفت القردة أنسابها من الإنس ، ولا يعرف الإنس أنسابهم من القِردة؛ فجعلت القردة تأتى نسيبها من الإنس فتَشَمّ ثيابه وتبكى؛ فيقول : ألم نَنْهَكم ! فتقول برأسها نعم . قال قتادة : صار الشبان قِردة ، والشيوخ خنازير؛ فما نجا إلا الذين نهَوْا وهلك سائرهم . وسيأتى فى « الأعراف »[٣] قول من قال : إنهم كانوا ثلاث فرق . وهو أصح من قول من قال : إنهم لم يفترقوا إلا فرقتين . والله أعلم .

والسَّبْت مأخوذ من السَّبْت وهو القطع؛ فقيل : إن الأشياء فيه سَبَتت وتمّت خِلقتها. وقيل : هو مأخوذ من السُّبُوت الذى هو الراحة والدعة .

وآختلف العلماء فى الممسوخ هل يَنْسُل على قولين . قال الزجاج : قال قوم يجوز أن تكون هذه القِردة منهم . وآختاره القاضى أبو بكر بن العربى . وقال الجمهور : الممسوخ لا يَنْسُل وإن القردة والخنازير وغيرهما كانت قبل ذلك ؛ والذين مسخهم الله قد هلكوا

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٣٥ (٢) الوهق (بالتحريك وتسكن الهاء) : الحبل فى طرفيه أنشوطة تطرح فى عنق الدابة أو الإنسان حتى تؤخذ . والأنشوطة عقدة يسهل انحلالها كعقدة التكة عند جذبها . راجع جـ ٧ ص٣٠٦

(٣) راجع جـ ٧ ص ٣٠٧

Marfat.com

ولم يبق لهم نسل ؛ لأنه قد أصابهم السّخط والعذاب ، فلم يكن لهم قرار فى الدنيا بعد ثلاثة أيام . قال ٱبن عباس : لم يعش مَسْخٌ قطّ فوق ثلاثة أيام ، ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل . قال ٱبن عطية : وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وثبت أن الممسوخ لا ينسل ولا يأكل ولا يشرب ولا يعيش أكثر من ثلاثة أيام .

قلت : هذا هو الصحيح من القولين . وأما ما ٱحتج به ٱبن العربى وغيره على صحة القول الأوّل من قوله صلى الله عليه وسلم : "فُقِدتْ أمّةٌ من بنى إسرائيل لا يُدْرَى ما فعلت ولا أراها إلا الفار ألاَ ترونها إذا وُضِع لها ألبانُ الإبل لم تشربه وإذا وُضِع لها ألبانُ الشاء شربته" . رواه أبو هريرة أخرجه مسلم ، وبحديث الضَّبّ رواه مسلم أيضا عن أبى سعيد وجابر ؛ قال جابر : أُتِيَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم بضبّ فأبى أن يأكل منه ؛ وقال : "لا أدرى لعله من القرون التى مُسختْ" فمتأوّل على ما يأتى . قال ٱبن العربى : وفى البخارى عن عمرو بن مَيْمُون أنه قال : رأيت فى الجاهلية قِردة قد زَنَت فرجموها فرجمتها معهم . ثبت فى بعض نسخ البخارى وسقط فى بعضها ، وثبت فى نص الحديث « قد زنت » وسقط هـذا اللفظ عند بعضهم . قال ٱبن العربى : فإن قيل : وكأن البهائم بقيت فيهم معارف الشرائع حتى ورثوها خَلَفاً عن سَلَف إلى زمان عمرو؟ قلنا : نعم كذلك كان ؛ لأن اليهود غيّروا الرجم فأراد الله أن يقيمه فى مُسُوخهم(1) حتى يكون أبلغ فى الحجـة على ما أنكروه من ذلك وغيّروه ، حتى تشهد عليهم كتبهم وأحبارهم ومسوخهم(1) ، حتى يعلموا أن الله يعلم ما يُسِرّون وما يُعلنون ، ويُحصى ما يُبدّلون وما يغيّرون ، ويُقيم عليهم الحجة من حيث لا يشعرون ، وينصر نبيّه عليه السلام وهم لا يُنصرون .

قلت : هـذا كلامه فى الأحكام ، ولا حجة فى شىء منه . وأمّا ما ذكره من قصة عمرو فذكر الحميدى فى جمع الصحيحين : حكى أبو مسعود الدمشقى أن لعمرو بن ميمون الأَوْدىّ فى الصحيحين حكايةً من رواية حُصين عنه قال : رأيت فى الجاهلية قردة ٱجتمع عليها قردة

(1) فى الأصول : « ممسوخهم » . والتصويب عن أحكام القرآن لابن العربى .

Marfat.com

فرجموها فرجمتها معهم . كذا حكى أبو مسـعود ولم يذكر فى أى موضع أخرجه البخارىّ من كتابه؛ فبحثنا عن ذلك فوجدناه فى بعض النسخ لا فى كلها، فذكر فى كتاب أيام الجاهلية . وليس فى رواية النعيمىّ عن الفَرَبْرِىّ أصلًا شىء من هذا الخبر فى القردة، ولعلها من المُقْحَمات فى كتاب البخارى . والذى قال البخارىّ فى التاريخ الكبير: قال لى نُعيم بن حمّاد أخبرنا هُشَيم عن أبى بَلْج وحُصين عن عمرو بن مَيمون قال : رأيت فى الجاهليـة قِردة آجتمع عليها قرود فرجموها فرجمتها معهم. وليس فيه «قد زنت». فإن صحت هذه الرواية فإنما أخرجها البخارىّ دلالةً على أن عمرو بن ميمون قد أدرك الجاهلية ولم يُبال بظنّه الذى ظنّه فى الجاهلية . وذكر أبو عمر فى الآستيعاب عمرو بن ميمون وأنّ كنيته أبو عبـد الله « معدود فى كبار التابعين من الكوفيين، وهو الذى رأى الرجم فى الجاهلية من القردة إن صح ذلك ؛ لأنّ رواته مجهولون . وقد ذكره البخارىّ عن نُعيم عن هُشَيم عن حُصين عن عمرو بن ميمون الأَوْدِىّ مختصرا قال : رأيت فى الجاهليـة قردة زنت فرجموها — يعنى القردة — فرجمتها معهم . ورواه عباد بن العوّام عن حُصين كما رواه هُشيم مختصرا . وأما القصة بطولها فإنها تدور على عبد الملك بن مسلم عن عيسى بن حِطّان، وليسا ممن يُحتج بهما . وهذا عند جماعة أهل العلم منكر إضافة الزنى إلى غير مكلَّف ، و إقامة الحدود فى البهائم . ولو صح لكانوا من الجن ؛ لأن العبادات فى الإنس والجن دون غيرهما » . وأمّا قوله عليه السلام فى حديث أبى هريرة : ”ولا أراها إلا الفار“ وفى الضب : ”لا أدرى لعله من القرون التى مُسِخت“ وما كان مثله ، فإنمـا كان ظناً وخوفاً لأن يكون الضب والفار وغيرهما ممـا مُسِخ ، وكان هذا حَدْساً منه صلى الله عليه وسـلم قبل أن يُوحَى إليه أن الله لم يجعل للمسخ نسلًا ؛ فلما أوحى إليه بذلك زال عنـه ذلك التخوّف ، وعلم أن الضبّ والفار ليسا ممـا مُسِخ ؛ وعند ذلك أخبرنا بقوله صلى الله عليه وسلم لمن سأله عن القردة والخنازير: هى مما مسخ ؟ فقال : ”إنّ الله لم يُهلكْ قوماً أو يعذّب قوماً فيجعل لهم نسلًا وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك“[1]. وهذا نص صريح صحيح رواه عبد الله بن مسعود أخرجه مسلم فى كتاب القَدَر . وثبتت النصوص بأكل الضب بحضرته وعلى مائدته ولم يُنكر ؛

[1] رقم الحديث ٢٦٦٣ - ٢٠٥١/٤ -

Marfat.com

فدلّ على صحة ما ذكرنا . و بالله توفيقنا . ورُوِىَ عن مجاهد فى تفسير هذه الآية أنه إنمـا مُسخت قلوبُهم فقط ، ورُدّت أفهامهم كأفهام القِردة . ولم يقله غيره من المفسرين فيما أعلم . والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً ﴾ « قردة » خبر كان . ﴿ خَاسِئِينَ ﴾ نعت ، و إن شئت جعلته خبرا ثانيا لكان ، أو حالا من الضمير فى « كونوا » . ومعناه مبعَدين . يقال : خَسَأْته خَسأ وخَسِئ وٱنخسأ ؛ أى أبعدته فبَعُدَ . وقوله تعالى : « يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً »(1) أى مبعَدًا . وقوله : « ٱخْسَئُوا فِيهَا »(2) أى تباعدوا تبـاعد سخط . قال الكسائى : خسأ الرجل خُسُوءا ، وخَسَأْته خَسْأً . ويكون الخاسئ بمعنى الصاغر القَمِىء . يقال : قَمُؤَ الرجل قماء وقماءة صار قميئًا ، وهو الصاغر الذليل . وأقمأته : صغّرته وذلّلته ، فهو قمىء على فعيل .

قوله تعـالى : فَجَعَلْنَـٰهَا نَـكَـٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَـا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَـةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً ﴾ نصب على المفعول الثانى . وفى المجعول نكالا أقاويل ؛ قيل : العقوبة . وقيل : القرية ؛ إذ معنى الكلام يقتضيها . وقيل : الأمة التى مُسخت . وقيـل : الحِيتان ؛ وفيه بُعْدٌ . والنّكال : الزجر والعقاب . والنِّكْل والأنكال : القيـود . وسُمِّيت القيـود أنكالا لأنها يُنْكل بهـا ؛ أى يمنع . و يقال للجام الثقيل : نَكْل ونِكل(3) ؛ لأن الدابة تُمنع به . ونَكَل عن الأمر يَنْكُل ، ونَكِل يَنْكَل إذا ٱمتنع . والتّنكيل : إصابة الأعداء بعقوبة تُنَـكِّل مَن وراءهم ؛ أى تُجبّنهم . وقال الأزهرى : النكال العقوبة . ٱبن دُرَيْد : والمَنْكَل : الشىء الذى يُنَكِّل بالإنسان ؛ قال(4) :

* فارمِ على أقفائهم بمَنْكَل *

---

(1) راجع جـ ١٨ ص ٢٠٩ (2) راجع جـ ١٢ ص ١٥٣ (3) هذه الكلمة موجودة فى بعض نسخ الأصل ؛ ومعاجم اللغة لا تؤيده . والذى بها إنمـا هو بالكسر لا غير . (4) القائل رباح المؤمل . وقبله :

* يارب أشقانى بنـو مؤمل * وبعده : * بصخرة أوعرض جيش جحفل *

(عن شرح القاموس) .

Marfat.com

قوله : ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ قال آبن عباس والسُّدّى : لِمَا بين يدى المَسْخة ما قبلها من ذنوب القوم . ﴿وَمَا خلفها﴾ لمن يعمل بعدها مثـل تلك الذنوب . قال الفـرّاء : جُعلت المسخة نكالا لما مضى من الذنوب ؛ ولما يُعمل بعدها ليخافوا المسخ بذنوبهم . قال آبن عطية : وهذا قول جيّد، والضميران للعقوبة . وروى الحكم عن مجاهد عن آبن عباس : لمن حضر معهم ولمن يأتى بعدهم . وآختاره النحاس ؛ قال : وهو أشبه بالمعنى، والله أعلم . وعن آبن عباس أيضا : « لما بين يديها وما خلفها » من القُرَى . وقال قتادة : « لما بين يديها » من ذنوبهم، « وما خلفها » من صيد الحيتان .

قوله تعـالى : ﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ عطف على نكال ، ووزنُهـا مَفْعِـلة من الآتعاظ والآنزجار . والوعظ : التخويف . والعِظَة الآسم . قال الخليل : الوَعْظ التّذكير بالخير فيما يَرِق له القلب . قال المـاوَرْدِىّ : وخصّ المتقين و إن كانت موعظة للعالمين لتفردهم بها عن الكافرين المعـاندين . قال آبن عطية : واللفظ يعمّ كل مُتّقٍ من كل أمّة . وقال الزجاج : « وموعظة للتقين » لأمة محمد صلى الله عليه وسلم أن ينتهكوا من حُرَم الله جلّ وعزّ ما نهاهم عنه ، فيصيبهم ما أصاب أصحاب السبت إذ آنتهكوا حُرَم الله فى سبتهم .

قوله تعـالى : وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ﴿وَ إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى ـــ قوله تعـالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ حُكى عن أبى عمـرو أنه قرأ « يَأْمُرْكُم » بالسكون ، وحذف الضمة من الراء لثقلها . قال أبو العباس المبرد : لا يجوز هـذا لأن الراء حرف الإعراب، و إنمـا الصحيح عن أبى عمـرو أنه كان يختلس الحركة . ﴿أَنْ تَذْبَحُوا﴾ فى موضع نصب بـ « يأمركم » ؛ أى بأن تذبحوا . ﴿بَقَـرَةً﴾ نصب بـ « تذبحوا » . وقـد تقدّم معنى الذبح[1]، فلا معنى لإعادته .

(١) راجع المسألة العاشرة ص ٣٨٥ من هذا الجزء .

Marfat.com

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ مقدّم فى التلاوة، وقوله : « قَتَلْتُمْ نَفْسًا » مقدّم فى المعنى على جميع ما ابتدأ به من شأن البقرة . ويجوز أن يكون قوله : « قتلتم » فى النزول مقدّما ، والأمر بالذبح مؤخرا . ويجوز أن يكون ترتيب نزولها على حسب تلاوتها ؛ فكأن الله أمرهم بذبح البقرة حتى ذبحوها ثم وقع ما وقع من أمر القتل ، فأُمروا أن يضربوه ببعضها ؛ ويكون « وإذ قتلتم » مقدّما فى المعنى على القول الأوّل حسب ما ذكرنا ، لأن الواو لا توجب الترتيب . ونظيره فى التنزيل فى قصة نوح بعد ذكر الطُّوفان وانقضائه فى قوله : « حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ — إلى قوله — إِلَّا قَلِيلٌ » (1) . فذكر إهلاك مَن هلك منهم ثم عطف عليه بقوله : « وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا » . فذكر الركوب متأخرًا فى الخطاب؛ ومعلومٌ أن ركوبهم كان قبل الهلاك . وكذلك قوله تعالى : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قَيِّمًا » (2) . وتقديره : أنزل على عبده الكتاب قيّماً ولم يجعل له عوجا ؛ ومثله فى القرآن كثير .

الثـالثـــة — لا خلاف بين العلماء أن الذّبح أَوْلى فى الغنم ، والنحر أَوْلى فى الإبل ، والتخيّر فى البقر . وقيل : الذبح أَوْلى ؛ لأنه الذى ذكره الله ، وقُرب المنحَر من المذبح . قال ابن المنذر : لا أعلم أحدا حَرّم أكل ما نُحر ممـا يُذبح ، أو ذُبح مما يُنحر . وكره مالك ذلك ، وقد يكره المرء الشئ ولا يحرّمه . وسيأتى فى سورة « المـائدة » أحكام الذبح والذابح وشرائطهما عند قوله تعالى : « إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ » (3) مستوفًى إن شاء الله تعالى . قال المـاوردى : وإنما أُمروا — والله أعلم — بذبح بقرة دون غيرها ؛ لأنها من جنس ما عبدوه من العجل ليهوّن عندهم ما كان يرونه من تعظيمه ، وليعلم بإجابتهم ما كان فى نفوسهم من عبادته . وهذا المعنى علّة فى ذبح البقرة ، وليس بعلة فى جواب السائل ؛ ولكن المعنى فيه أن يحيا القتيل بقتل حىّ ، فيكون أظهر لقدرته فى اختراع الأشياء من أضدادها .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ بَقَرَةً ﴾ البقرة اسم للأنثى ، والثَّور اسم للذكر ؛ مثل ناقة وجمل ، وامرأة ورجل . وقيل : البقرة واحد البقر ؛ الأنثى والذكر سواء . وأصله من قولك :

(1) راجع جـ ٩ ص ٣٣ (2) راجع جـ ١٠ ص ٣٤٦ (3) راجع جـ ٦ ص ٥٤

Marfat.com

بَقَر بطنه ، أى شقه ، فالبقرة تشقّ الأرض بالحرث وتثيره . ومنه الباقر لأبى جعفر محمد بن على زين العابدين ، لأنه بَقَر العلم وعرف أصله ، أى شقه . والبَقِيرة : ثوب يُشق فتلقيه المرأة فى عنقها من غير كُمَّين . وفى حديث آبن عبـاس فى شأن الهُـدهد " فبقر الأرض " . قال شَمِر : بَقَر نَظَر موضع المـاء ، فرأى المـاء تحت الأرض . قال الأزهرى : البقر آسم للجنس وجمعه باقر . آبن عرفة : يقال بقير وباقر و بيْقور . وقرأ عكرمة وآبن يعمر « إن الباقر »[1] . والثَّور : واحد الثيران . والثَّور : السيِّد من الرجال . والثَّور القطعة من الأَقِط . والثَّور : الطُّحْلُب . وثَور : جبل . وثَوْر : قبيلة من العرب . وفى الحديث : " ووقت العشاء ما لم يغب ثَور الشّـفق " يعنى آنتشاره ، يقـال : ثار يثـور ثوراً وثورانا إذا آنتشر فى الأفق . وفى الحديث : " من أراد العـلم فَلْيُثَوِّر القرآن " . قال شَمِر : تثـوير القرآن قراءته ومفاتشة العلمـاء به .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ هذا جواب منهم لموسى عليه السلام لمـا قال لهم : « إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً » وذلك أنهـم وجدوا قتيلا بين أظهرهم — قيل : آسمه عاميل — وآشـتبه أمر قاتله عليهم ، ووقع بينهم خلاف ، فقالوا : نقتتل ورسـول الله بين أظهرنا ، فأتَوْه وسألوه البيان — وذلك قبل نزول القَسَامة[2] فى التوراة ، فسألوا موسى أن يدعو الله — فسأل موسى عليه السلام ربه فأمرهم بذبح بقرة ، فلما سمـعوا ذلك من موسى وليس فى ظاهره جواب عمـا سألوه عنه وآحتكوا فيه عنده ، قالوا : أتتخذنا هزؤا ؟ والهـزء : اللّعب والسُّخرية ، وقد تقدّم[3] . وقرأ الجَحْدَرى « أيتخذنا » بالياء ، أى قال ذلك بعضهم لبعض فأجابهم موسى عليه السلام بقوله : « أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ » لأن الخروج عن جواب السائل المسترشد إلى الهزء جهل ، فاستعاذ منه عليه السلام ، لأنهـا صفة تنتفى عن الأنبياء . والجهل نقيض العلم . فآسـتعاذ من الجهل ، كما جهلوا فى قولهم : أتتخذنا هزؤا ،

---

(١) فى لسان العرب : فأما بقر و باقر و بقير و بيقور و باقور و باقورة فأسماء للجميع .

(٢) سيتكلم المؤلف رحمه الله على القسامة وحكمها عند قوله تعالى : «فقلنا اضربوه ببعضها» راجع ص ٤٥٧ من هذا الجزء .

(٣) راجع ص ٢٠٧ .

Marfat.com

لمن يخبرهم عن الله تعـالى ، وظاهر هـذا القول يدلّ على فساد ٱعتقاد من قاله . ولا يصحّ إيمان مَن قال لنبيٍّ قد ظهرت معجزته ، ـ وقال : إن الله يأمرك بكذا ـ : أتتخذنا هُزُوًا ؟ ولو قال ذلك اليوم أحد عن بعض أقوال النبيّ صلى الله عليه وسلم لوجب تكفيره . وذهب قوم إلى أن ذلك منهم على جهـة غلظ الطبع والجفاء والمعصية ؛ على نحو ما قال القائل للنبيّ صلى الله عليه وسلم فى قسمة غنائم حُنَين : إن هذه لقِسمةٌ ما أريد بها وجه الله . وكما قال له الآخر : اعدل يا محمد . وفى هذا كلّه أدلّ دليل على قبح الجهل، وأنه مفسد للدّين .

قوله تعالى : ﴿ هُزُوًا ﴾ مفعول ثان ، ويجوز تخفيف الهمزة تجعلها بين الواو والهمزة . وجَعَلَها حَفْص واوا مفتوحة ، لأنها همزة مفتوحة قبلها ضمة فهى تجرى على البدل ؛ كقوله : « السفهاء ولكن » . ويجوز حذف الضمة من الزاى كما تحذفها من عَضُد ، فتقول : هزْؤًا ، كما قرأ أهـل الكوفة ؛ وكذلك « وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُؤًا أحد » . وحكى الأخفش عن عيسى بن عمر أن كل ٱسم على ثلاثة أحرف أوّله مضموم ففيه لغتان : التخفيف والتثقيل ؛ نحو العسر واليسر والهزء . ومثله ما كان من الجمع على فُعْل ككُتُب وكُتْب ، ورُسُـل ورُسْل ، وعُون وعُوْن . وأما قوله تعالى : « وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا » فليس مثل هزء وكفء ؛ لأنه على فُعْل من الأصل . على ما يأتى فى موضعه(١) إن شاء الله تعـالى .

مسـألة ــ فى الآية دليل على منع الٱستهزاء بدين الله ودين المسلمين ومن يجب تعظيمه ، وأن ذلك جهل وصاحبـه مستحقّ للوعيد . وليس المُزاح من الٱستهزاء بسبيل ؛ ألَا ترى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يمزح والأئمـة بعده . قال ٱبن خُوَيْزِ مَنْداد : وقد بلغنا أن رجلا تقدّم إلى عبيد الله بن الحسن وهو قاضى الكوفة فمـازحه عبيد الله فقال : جُبّتُك هذه من صوف نعجة أو صوف كَبْش ؟ فقال له : لا تجهل أيهـا القاضى ! فقال له عبيد الله : وأين وجدت المزاح جهلًا ! فتلا عليه هذه الآية ؛ فأعرض عنه عبيد الله ؛ لأنه رآه جاهلا لا يعرف المزح من الٱستهزاء، وليس أحدهما من الآخر بسبيل .

---

(١) راجع جـ ١٦ ص ٦٩

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَٱفْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾﴾

قوله تعالى : ﴿قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ هـذا تعنيت منهم وقلّة طواعية ؛ ولو ٱمتثلوا الأمر وذبحوا أىّ بقرة كانت لحصل المقصود، لكنهم شدّدوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم ؛ قاله ٱبن عباس وأبو العاليـة وغيرهما . ونحو ذلك روى الحسن البصرىّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم . ولغــة بنى عامر «ٱدعِ» وقد تقدّم[(١)] . و﴿يُبَيِّنْ﴾ مجزوم على جواب الأمر . ﴿مَا هِيَ﴾ ابتداء وخبر . وماهيّة الشىء : حقيقته وذاته التى هو عليها .

قوله تعـالى : ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ فى هذا دليل على جواز النسخ قبل وقت الفعل؛ لأنه لمـا أمر ببقرة ٱقتضى أىّ بقرة كانت ، فلما زاد فى الصفة نســخ الحكم الأوّل بغيره ؛ كما لو قال : فى ثلاثين من الإبل بنتُ مَخَاض ، ثم نَسَخه بٱبنة لَبُون أو حِقّة . وكذلك ها هنا لمـا عيّن الصفة صار ذلك نسخًا للحكم المتقدّم . والفارض : المُسِنّة . وقد فَرَضَت تَفْرِض فروضًا؛ أى أسنّت . ويقال للشىء القديم فارض؛ قال الراجز :

شَيَّبَ أصداغِى فرأسِى أبيضُ * مَحَامِـلٌ[(٢)] فيهـا رجال فُــرَّضُ

يعنى هَرْمَى؛ قال آخر :

لعَمْرُك[(٣)] قـد أعطيتَ جارك فارضًا * تُساق إليـــه ما تقــوم على رِجْلِ

أى قديمـا؛ وقال آخر :

يا رُبّ ذى ضِغْنٍ علىّ فارِض * له قُــروء كقُروء الحـائِض

---

(١) راجع ص ٤٢٣ (٢) فى الصحاح للجوهرى : «محافل» بالفاء ، وفيــه رواية أخرى رواها ٱبن الأعرابى هى :

* محامل بيض وقــوم فرض *

يريد أنهم ثقال كالمحامل . راجع اللسان مادة «فرض» .

(٣) رواية اللسان : «لعمرى لقد» وذكر أنه لعلقمة بن عوف ، وقد عَنَى بقرة هَرِمَة .

أى قديم . و «لا فارِضٌ» رفع على الصّفة لبقرة . «ولَا بِكْرٌ» عطف . وقيل : «لا فارضٌ» خبر مبتـدأ مضمر ؛ أى لا هى فارض وكذا « لا ذلول » ، وكذلك « لَا تَسْقِى الحَـرْثَ » وكذلك « مُسَلَّمَةٌ » فآعلمه . وقيل : الفارض التى قد ولدت بطونا كثيرةً فيتّسع جَوْفها لذلك ؛ لأن معنى الفارض فى اللغة الواسع ؛ قاله بعض المتأخرين . والبِكر : الصغيرة التى لم تحمل . وحكى القُتَبِىّ أنها التى ولدت . والبكر : الأوّل من الأولاد ؛ قال :

يا بِكْرَ بِكْرَيْنِ ويا خِلْبَ الكَبِـدْ * أصبحتَ مِنّى كذراع مِن عَضُدْ

والبِكْرُ أيضـا فى إناث البهائم وبنى آدم : ما لم يَفْتَحِلْه الفحل؛ وهى مكسورة الباء . وبفتحها الفَتِىّ من الإبل . والعَوَان : النَّصَف التى قد ولدت بطنـاً أو بطنين ؛ وهى أقوى ما تكون من البقر وأحسنه، بخلاف الخيل؛ قال الشاعر يصف فرسا :

كُمَيْت بَهِيم اللَّوْنِ ليس بفارِض * ولا بِعَـوان ذاتِ لَوْن مُخَصَّفِ

فرس أَخْصَف : إذا آرتفع البَلَق من بطنه إلى جنبه . وقال مجاهـد : العَوان من البقر هى التى قد ولدت مَرّة بعد مَرّة . وحكاه أهل اللغـة . ويقال : إن العَوان النّخلةُ الطويلة ؛ وهى فيما زعموا لغة يمانية . وحَرْبٌ عَوَانٌ : إذا كان قبلها حَرْب بِكْرٌ ؛ قال زُهير :

إذا لَقِحتْ حربٌ عَوانٌ مُضِرّةٌ * ضَروسٌ تُهِرّ(١) الناسَ أنيابُها عُصُلُ

أى لا هى صغيرة ولا هى مُسِنّة؛ أى هى عَوان، وجمعها « عُونٌ » بضم العين وسكون الواو ؛ وسُمع « عُوُن » بضم الواو كرُسُل . وقد تقدم . وحكى الفَرّاء من العوان عَوّنَت تَعْوِيناً .

قوله تعـالى : ﴿ فَٱفْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ تجـديد للأمر وتأكيد وتنبيه على ترك التعنّت فمـا تركوه . وهذا يدل على أن مقتضى الأمر الوجوب كما تقوله الفقهاء ؛ وهو الصحيح على ما هو مذكور فى أصول الفقه ، وعلى أن الأمر على الفَوْر؛ وهو مذهب أكثر الفقهاء أيضا . ويدلّ على صحـة ذلك أنه تعـالى آستقصرهم حين لم يبادروا إلى فعـل ما أُمِروا به فقال :

(١) فى الأصول : « تهز » بالزاى . والتصويب عن شرح الديوان . ومعنى « تهز الناس » أى تصيّرهم يهرّونها ؛ أى يكرهونها . ولقحت : آشتدت . ومضرة : ملحة . وضروس : عضوض سيئة الخلق . وعصل : كالحة معوجة .

Marfat.com

« فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ » . وقيـل : لا ، بل على التراخى؛ لأنه لم يعنّفهم على التأخير والمراجعة فى الخطاب . قاله ٱبن خُوَيْزِ مَنْداد .

قوله تعـالى : قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾

قوله تعالى : ﴿قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾ «ما» ٱستفهام مبتد . و « لونها » الخبر . ويجوز نصب « لونها » بـ « يبيّن » ، وتكون « ما » زائدة . واللون واحد الألوان، وهو هيئة كالسواد والبياض والحمـرة . واللَّوْن : النّوع . وفلان مُتَلَوِّن : إذا كان لا يثبت على خلق واحد وحال واحد ؛ قال :

كلّ يـوم تتلوّنْ * غير هـذا بك أجْمَـلْ

ولَوّن البُسْر تلوينًـا : إذا بدا فيه أثر النُّضْج . واللَّوْن : الدَّقَل، وهـو ضرب من النخل . قال الأخفش : هو جماعة، واحدها لِينة .

قوله : ﴿صَـفْرَاءُ﴾ جمهور المفسرين أنهـا صفراء اللون ، من الصُّفرة المعروفة . قال مكيّ عن بعضهم : حتى القَرْن والظِّلْف . وقال الحسن وٱبن جُبير : كانت صـفراء القرن والظِّلْف فقط . وعن الحسن أيضا : « صفراء » معناه سوداء؛ قال الشاعر (١) :

تلك خَيْلِي منـه وتلك رِكابِي * هنّ صُفْرٌ أولادُها كالزَّبِيبِ

قلت : والأوّل أصح لأنه الظاهر ، وهـذا شاذّ لا يُستعمل مجازا إلا فى الإبل؛ قال الله تعالى : « كأنّه جِمَالَةٌ صُفْرٌ » وذلك أن السُّود من الإبل سوادها صُفرة . ولو أراد السواد لمـا أكّده بالفُقُوع ، وذلك نَعْتٌ مختصّ بالصّفرة ، وليس يوصف السواد بذلك ؛ تقول العرب : أسودُ حالِكٌ وحَلَكُوك وحُلْكُوك ، ودَجُوجِيّ وغِرْبِيب ، وأحمرُ قانِئٌ ، وأبيضُ ناصعٌ ، ولَهِقٌ ولِهَـاق ويَقَق ، وأخضرُ ناضِرٌ ، وأصفرُ فاقِـعٌ ؛ هكذا نصّ نَقَلَة اللغـة عن العرب . قال

(١) القائل هو الأعشى ؛ كما فى اللسان .

Marfat.com

الكسائي : يقال فَقَع لَوْنُهَا يَفْقَع فُقوعاً إذا خَلَصت صُـفْرته . والإفقاع : سـوء الحال . وفواقع الدهر بوائقه . وفَقَع بأصابعه إذا صوّت ؛ ومنه حديث ٱبن عباس : نهى عن التفقيع في الصلاة ؛ وهي الفرقعة، وهي غمز الأصابع حتى تُنْقِض (١) . ولم ينصرف «صفراء» في معرفة ولا نكرة ؛ لأن فيها ألفَ التأنيث وهي ملازمة تخالفت الهـاء ؛ لأن ما فيه الهـاء ينصرف في النكرة، كفاطمةٍ وعائشةٍ .

قوله تعالى : ﴿ فَاقِـعٌ لَوْنُهَا ﴾ يريد خالصًا لونها لا لَوْن فيها سوى لون جلدها . ﴿ تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾ قال وهب : كأن شُـعاع الشمس يخرج من جلدها ؛ ولهـذا قال ٱبن عبـاس : الصـفرة تسرّ النفس . وحضّ على لبـاس النِّعال الصُّفر ؛ حكاه عنـه النقاش . وقال علي ابن أبي طالب رضي الله عنه : من لبس نعلي جلد أصفرَ قلّ همّه ؛ لأن الله تعـالى يقول : «صَفْرَاءُ فَاقِـعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ» ؛ حكاه عنه الثعلبي . ونَهى ٱبن الزبير ومحمد بن أبي كثير عن لباس النعال السود ؛ لأنها تُهِمّ . ومعنى « تسرّ » تُعجِب . وقال أبو العالية : معناه في سَمْتها ومنظرها فهي ذاتُ وصفين، والله أعلم .

قوله تعـالى : قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَـٰبَهَ عَلَيْنَـا وَإِنَّـآ إِن شَـآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا ﴾ سألوا سؤالا رابعا، ولم يمتثلوا الأمر بعد البيان . وذكّر البقر لأنه بمعنى الجمـع ، ولذلك قال : « إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَـا » فذكّره للفظ تذكير البقر . قال قُطْرُب : جمع البقرة باقر وباقور وبقر . وقال الأصمعي : الباقر جمع باقرة، قال : ويجمع بقر على باقورة ؛ حكاه النحاس . وقال الزجاج : المعنى إن جنس البقر . وقرأ الحسن فيما ذكر النحاس، والأعرج فيما ذكر الثعلبي « إن البقر تَشّابه » بالتاء وشدّ الشين ؛ جعله فعلا مستقبلا وأنّثه . والأصل تتشابه، ثم أدغم التاء في الشين . وقرأ مجاهد «تَشَّبه» كقراءتهما ،

(١) كل صوت لمفصل وأصبع فهو نقيض .

Marfat.com

إلا أنه بغير ألف . وفى مصحف أُبَىّ «تَشّابهت» بتشديد الشين . قال أبو حاتم : وهو غلط ؛ لأن التــاء فى هذا الباب لا تُدغم إلا فى المضارعة . وقرأ يحيى بن يَعمر « إن الباقر يشّابه » جعله فعلا مستقبلا ، وذكّر البقر وأدغم . ويجوز « إن البقر تَشَـابَهُ » بتخفيف الشـين وضم الهـاء ، وحكاها الثعلبي عن الحسن . النحاس : ولا يجوز « يَشابه » بتخفيف الشين والياء ، وإنمـا جاز فى التاء لأن الأصل تتشابه فحذفت لاجتماع التائين . والبقر والباقر والبَيْقور والبَقير لغاتٌ بمعنًى ، والعرب تذكّره وتؤنّثه ، وإلى ذلك ترجع معانى القراءات فى «تشابه» . وقيل : إنمـا قالوا : « إنّ ٱلْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا » لأن وجوه البقر تتشابه ؛ ومنه حديث حُذيفة بن اليمـان عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه ذكر " فِتَناً كقِطَع الليل تأتى كوجوه البقر " . يريد أنها يشبه بعضها بعضا . ووجوه البقر تتشابه ، ولذلك قالت بنو إسرائيل : إن البقر تشابه علينا .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ استثناء منهم ؛ وفى استثنائهم فى هذا السؤال الأخير إنابةٌ ما وانقياد ، ودليل ندم على عدم موافقة الأمر . وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لو ما استثنوا ما اهتدَوْا إليها أبدا "(١) . وتقدير الكلام وإنا لمهتدون إن شاء الله . فقدّم على ذكر الاهتداء اهتماماً به . و« شـاء » فى موضع جزم بالشرط ، وجوابه عنـد سيبويه الجملة « إن » وما عملت فيه . وعند أبى العباس المبرّد محذوف .

قوله تعـالى : قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ ﴾ قرأ الجمهور « لا ذلولٌ » بالرفع على الصفة لبقرة . قال الأخفش : « لا ذلول » نعته ولا يجوز نصبه . وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمى « لا ذلولَ » بالنصب على النفى والخبر مضمر . ويجوز لا هى ذلول ، لا هى تسقى الحرث ، هى مُسَلَّمة . ومعنى «لا ذلول» لم يذلّلها العمل ؛ يقال : بقرة مذلَّلة بيِّنة الذِّل (بكسر الذال) . ورجل ذليل بيّن الذُّلّ (بضم الذال) . أى هى بقرة صعبة غير رَيِّضة لم تذلَّل بالعمل .

(١) فى نسخة من الأصل : « لولا » وروى الحديث من طرق بلفظ : « لو لم يستثنوا » .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ تُثِيرُ الْأَرْضَ ﴾ « تُثير » فى موضع رفع على الصفة للبقرة ؛ أى هى بقرة لا ذَلُولٌ مُثيرة . قال الحسن : وكانت تلك البقرة وحْشِيّة ، ولهـذا وصفها الله تعـالى بأنها لا تثير الأرض ولا تسقى الحرث ، أى لا يُسْنَى بهـا لسَقْى الزرع ولا يُسقى عليهـا . والوقف هاهنا حســن . وقال قوم : « تثير » فعـل مستأنف ، والمعنى إيجاب الحرث لهـا ، وأنها كانت تحـرث ولا تسقى . والوقف على هـذا التأويل « لا ذلول » . والقول الأول أصح لوجهين : أحدهما ــ ما ذكره النحاس عن علىّ بن سليمان أنه قال : لا يجوز أن يكون « تثير » مسـتأنفا ؛ لأن بعـده « ولا تسقى الحرث » ، فلو كان مستأنفًا لمـا جمع بين الواو و « لا » . الثـانى ــ أنها لو كانت تثير الأرض لكانت الإثارة قد ذلّلتها ، والله تعالى قد نفى عنها الذّل بقوله : « لا ذلول » .

قلت : ويحتمل أن تكون « تثير الْأَرْضَ » فى غير العمل مرحًا ونشاطًا ؛ كما قال آمرؤ القيس :

يُهِيل ويُذرِى تُرْبَه ويُثيره * إثارةَ نَبّـاثِ الهواجرِ مُخْمِسِ (١)

فعلى هذا يكون « تثير » مستأنفا ، « ولا تسقى » معطوف عليه ؛ فتأمله . وإثارة الأرض : تحريكها وبحثها ؛ ومنه الحديث : "أثيروا القرآن فإنه (٢) عِلْم الأوّلين والآخِرين" وفى رواية أخرى : "من أراد العـلم فَلْيُثَوِّر القرآن" وقد تقدّم (٣) . وفى التنزيل : « وأثاروا الأرض » أى قلَبوها للزراعة . والحرث : ما حُرِث وزُرِع . وسيأتى .

مســـئلة ــ فى هذه الآية أدل دليل على حصر الحيوان بصفاته ، وإذا ضُبط بالصفة وحُصر بها جاز السّـلَم فيه . وبه قال مالك وأصحابه والأوزاعىّ والليث والشافعىّ . وكذلك كل ما يُضبط بالصفة ؛ لوصف الله تعـالى البقرة فى كتابه وصفًا يقوم مقام التعيين ؛ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تصف المرأةُ المرأةَ لزوجها حتى كأنه ينظر إليها" . أخرجه مسلم . فجعل النبىّ صلى الله عليه وسلم الصّفةَ تقوم مقام الرؤية ، وجعل صلى الله عليه وسلم دِيَة الخطأ فى ذِمّة من أوجبها عليه دَيْنًـا إلى أجل ولم يجعلها على الحلول . وهو يرد قول

(١) قوله « نباث الهواجر » يعنى الرجل الذى إذا اشـتدّ عليه الحر هال التراب ليصل إلى ثراه . والمخمس : صاحب الإبل التى ترد خمسا . (٢) فى نهاية ابن الأثير : « فإن فيه » . (٣) راجع ص ٤٤٦ ،

Marfat.com

الكوفيين أبى حنيفة وأصحابه والثورىّ والحسن بن صالح حيث قالوا : لا يجوز السَّلَم فى الحيوان . ورُوِى عن آبن مسعود وحُذيفة وعبد الرحمن بن سَمُـرة ؛ لأن الحيوان لا يوقف على حقيقه صفته من مشى وحركة ، وكل ذلك يزيد فى ثمنه ويرفع من قيمته . وسيأتى حكم السَّلَم وشروطه فى آخر السورة فى آية الدَّيْن[1] ، إن شاء الله تعالى .

قوله تعـالى : ﴿ مُسَلَّمَةٌ ﴾ أى هى مُسَلَّمة . ويجـوز أن يكون وصفًا ؛ أى أنها بقرة مُسَلَّمة من العَرَج وسـائر العيوب ؛ قاله قتادة وأبو العالية . ولا يقال : مُسَلَّمة من العمـل لنفى الله العمل عنها . وقال الحسن : يعنى سليمة القوائم لا أثر فيها للعمل .

قوله تعـالى : ﴿ لَا شِيَةَ فِيهَا ﴾ أى ليس فيها لَوْن يخالف معظم لونها ، هى صفراء كلها لا بياض فيها ولا حمرة ولا سواد ؛ كما قال : « فَاقِـعٌ لَوْنُهَا » . وأصل « شِيَة » وَشْى ، حُذفت الواو كما حذفت من يشى ، والأصل يوشى ؛ ونظيره الزِّنَة والعِدَة والصِّلَة . والشِّـيَة مأخوذة من وَشْى الثوب إذا نُسج على لونين مختلفين . وثَوْر مُوَشًّى : فى وجهه وقوائمه سـواد . قال آبن عرفة : الشِّيَة اللون . ولا يقال لمن نمّ : واشٍ ، حتى يُغيِّر الكلام ويُلَوِّنه فيجعله ضروبا ويزين منه ماشاء . والوَشْى : الكثرة . ووَشَى بنـو فلان : كثروا . ويقال : فَرَسٌ أبلقُ ، وكَبْشٌ أَخْرَجُ ، وتَيس أَبْرَقُ ، وغرابٌ أَبْقَعُ ، وثور أَشْـيَهُ . كل ذلك بمعنى البُلْقَـة ؛ هكذا نصّ أهل اللغة .

وهذه الأوصاف فى البقرة سببها أنهم شدّدوا فشدّد الله عليهم ، ودِين الله يُسْرٌ ، والتعمّق فى سؤال الأنبياء وغيرهم من العلماء مذموم ؛ نسأل الله العافية . وروى فى قصص هذه البقرة روايات تلخيصها : أن رجلا من بنى إسرائيل وُلد له آبن ، وكانت له عِجلة فأرسلها فى غَيْضَة وقال : اللّهمّ إنى أستودعك هذه العجلة لهذا الصبى . ومات الرجل ، فلما كبر الصبى قالت له أمّه — وكان بَرًّا بها — : إن أباك آستودع الله عِجلة لك فآذهب فخذها ؛ فذهب فلما رأته البقرة جاءت إليـه حتى أخذ بقرنيهـا — وكانت مسـتوحشة — فجعل يقودها نحو أمّه ؛ فلقيـه بنو إسرائيل ووجدوا بقرة على الصفة التى أُمِروا بها ؛ فساموه فاشتطّ عليهم . وكان قيمتها على

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٧٧ فما بعدها .

ما رُوى عن عكرمة ثلاثة دنانير، فأتَوْا به موسى عليه السلام وقالوا : إن هذا اشتطّ علينا ؛ فقال لهم : أرْضُوه فى مِلكه ، فاشتروْها منه بوزنها مَرّة ؛ قاله عَبيدة . السُّدّىّ : بوزنها عشر مرات . وقيل : بملء مَسْكِها دنانير . وذكر مَكّىّ : أن هذه البقرة نزلت من السماء ولم تكن من بقر الأرض . فالله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾ أى بيّنت الحق ؛ قاله قتادة . وحكى الأخفش : « قالوا ألْآن » قطع ألف الوصل ؛ كما يقال : يا ألله . وحكى وجهًا آخر « قالوا لَانَ » بإثبات الواو . نظيره قراءة أهل المدينة وأبى عمرو « عادًا لُولى » . وقرأ الكوفيون « قالوا الْآن » بالهمز . وقراءة أهل المدينة « قالُ لَان » بتخفيف الهمز مع حذف الواو لالتقاء الساكنين . قال الزجاج : « الْآن » مبنىّ على الفتح لمخالفته سائر ما فيه الألف واللام ؛ لأن الألف واللام دخلتا لغير عهد ؛ تقول : أنت إلى الآن هنا ؛ فالمعنى إلى هذا الوقت . فبُنِيت كما بُنِىَ هذا ، وفُتحت النون لالتقاء الساكنين . وهو عبارة عما بين الماضى والمستقبل .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ أجاز سيبويه : كاد أن يفعـل ؛ تشبيهًا بعسى . وقد تقدّم أوّل السورة (١) . وهذا إخبار عن تثبيطهم فى ذبحها وقلّة مبادرتهم إلى أمر الله . وقال القُرَظىّ محمد بن كعب : لغلاء ثمنها . وقيل : خوفًا من الفضيحة على أنفسهم فى معرفة القاتل منهم ؛ قاله وهب بن مُنَبِّه .

قوله تعـالى : وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ﴾ هـذا الكلام مقدم على أول القصة، التقدير : وإذ قتلتم نفسًا فادّارأتم فيها . فقال موسى : إن الله يأمركم بكذا . وهذا كقوله : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا . قَيِّمًا » أى أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ قَيِّمًا وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ؛ ومثله كثير، وقد بيّناه أوّل القصة .

(١) راجع ص ٢٢٢ من هذا الجزء .

Marfat.com

وفى سبب قتله قولان : أحدهما — لابنة له حسناء أحب أن يتزوجها ابنُ عمّها فمنعه عمّه ؛ فقتله وحمله من قريتـه إلى قرية أخرى فألقاه هناك . وقيـل : ألقاه بين قريتين . الثانى — قتله طلبا لميراثه ، فإنه كان فقيرا وآدّعى قتله على بعض الأسباط . قال عِكرمة : كان لبنى إسرائيل مسجد له آثنا عشر بابا لكل باب قوم يدخلون منه ، فوجدوا قتيلا فى سِبط من الأسباط ، فادّعى هؤلاء على هؤلاء ، وآدّعى هؤلاء على هؤلاء ، ثم أتوا موسى يختصمون إليه فقال : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً » الآية . ومعنى « ادّارَأْتُمْ » : آختلفتم وتنازعتم ؛ قاله مجاهد . وأصله تدارأتم ثم أدغمت التاء فى الدال ؛ ولا يجوز الابتداء بالمدغم ؛ لأنه ساكن فزيد ألف الوصل . ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ﴾ ابتداء وخبر . ﴿مَا كُنْتُمْ﴾ فى موضع نصب بـ « مُخْرِج » ؛ ويجوز حذف التنوين على الإضافة . ﴿تَكْتُمُونَ﴾ جملة فى موضـع خبر كان ، والعائد محذوف ؛ التقدير تكتمونه .

وعلى القول بأنه قتله طلبا لميراثه لم يَرِث قاتلُ عمـدٍ من حينئذ ؛ قاله عَبِيدة السَّلْمانى . قال آبن عباس : قتل هـذا الرجلُ عمَّه ليرثه . قال آبن عطية : وبمثله جاء شرعنا . وحكى مالك رحمه الله فى « مُوَطَّئه » أن قصة أُحَيْحَة بن الجُلَاح فى عمّه هى كانت سبب ألا يَرِث قاتلٌ ، ثم ثبّت ذلك الإسلام كما ثبّت كثيرا من نوازل الجاهلية . ولا خلاف بين العلماء أنه لا يَرِث قاتلُ العمدِ من الدّية ولا من المـال ، إلا فرقة شذّت عن الجمهور كلهم أهل بدع . ويرث قاتل الخطأ من المـال ولا يرث من الدّية فى قول مالك والأوزاعى وأبى ثور والشافعى ؛ لأنه لا يُتّهم على أنه قتـله ليرثه ويأخذ ماله . وقال سـفيان الثَّوْرىّ وأبو حنيفة وأصحابه ، والشافعى فى قول له آخر : لا يرث القاتل عمدًا ولا خطأً شيئاً من المـال ولا من الدِّية . وهو قول شُرَيْح وطاوس والشَّعْبِىّ والنَّخَعِىّ . ورواه الشَّعْبِىّ عن عمر وعلىّ وزيد قالوا : لا يَرِث القاتل عمدًا ولا خطأً شيئاً . وروى عن مجاهد القولان جميعا . وقالت طائفة من البصريين : يَرِث قاتل الخطأ من الدّية ومن المـال جميعا ؛ حكاه أبو عمر . وقول مالك أصح ، على ما يأتى بيانه فى آية المواريث[1] إن شاء الله تعالى .

(١) راجع جـ ٥ ص ٥٥ فما بعدها .

Marfat.com

قوله تعالى : فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾

قوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾ قيـل : باللسان لأنه آلة الكلام . وقيـل : بعَجْب الذَّنَب، إذ فيه يُركّب خَلْق الإنسان . وقيل : بالفخذ . وقيل : بعظم من عظامها ؛ والمقطوع به عضو من أعضائها ، فلما ضُرب به حَيِيَ وأخبر بقاتله ثم عاد ميتا كما كان .

مســـئلة — استدل مالك رحمه الله فى رواية ٱبن وهب وٱبن القاسم على صحة القول بالقَسامة بقول المقتول : دمى عند فلان ، أو فلانٌ قتلنى . ومنعه الشافعى وجمهور العلماء ، قالوا : وهو الصحيح ؛ لأن قول المقتول : دمى عند فلان ، أو فلان قتلنى ، خبر يحتمل الصدق والكذب . ولا خلاف أن دم المدّعَى عليه معصوم ممنوع إباحته إلا بيقين ، ولا يقين مع الاحتمال ؛ فبطل ٱعتبار قول المقتول دمى عند فلان . وأما قتيل بنى إسرائيـل فكانت معجزة وأخبر تعـالى أنه يحييه ، وذلك يتضمّن الإخبارَ بقاتله خبرًا جزمًا لا يدخله ٱحتمال ؛ فافترقا . قال ٱبن العربى : المعجزة كانت فى إحيائه ؛ فلمـا صار حيًّا كان كلامه كسائر كلام الناس كلهم فى القبول والرد . وهذا فَنٌّ دقيق من العلم لم يتفطّن له إلا مالك ، وليس فى القرآن أنه إذا أخبر وجب صدقه ، فلعله أمرهم بالقسامة معه . وٱستبعد ذلك البخارى والشافعى وجماعة من العلماء فقالوا : كيف يُقبل قوله فى الدّم وهو لا يُقبل قوله فى درهم .

مســـئلة — اختلف العلماء فى الحُكْم بالقَسامة ؛ فرُوِىَ عن سالم وأبى قِلَابة وعمر بن عبد العزيز والحكم بن عُيَيْنة[1] التّوقّف فى الحُكم بهـا . وإليـه مال البخارى ؛ لأنه أتى بحديث القَسامة فى غير موضعه . وقال الجمهور : الحُكْم بالقسامة ثابت عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ثم ٱختلفوا فى كيفيّة الحُكم بها ؛ فقالت طائفة : يبدأ فيها المدّعون بالأيمان فإن حلَفوا ٱستحقُّوا ، وإن نَكَلُوا حلَف المدّعَى عليهم خمسين يمينًا وبَرِءُوا . هذا قول أهل المدينة واللّيث والشافعى وأحمد وأبى ثور . وهو مقتضى حديث حُوَيِّصَة ومُحَيِّصة ، خرّجه الأئمة مالك وغيره . وذهبت

(١) فى نسخة : « الحكم بن عتيبة » .

Marfat.com

طائفة إلى أنه يبدأ بالأيمان المدّعَى عليهم فيحلفون و يبرءون . رُوِىَ هذا عن عمر بن الخطاب والشَّعْبي والنَّخَعِي ، و به قال الثَّوْرِى والكوفيّون ؛ وآحتجُّوا بحديث شعبة بن عبيد عن بُشير آبن يسار ؛ وفيه : فبدأ بالأيمان المدّعَى عليهم وهم اليهود . و بما رواه أبو داود عن الزُّهْرِى عن أبى سَلَمَة بن عبد الرحمن عن رجال من الأنصار أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لليهود و بدأ بهـم : "أيحلف منكم خمسون رجلا" . فأبوا ؛ فقال للأنصار : "آستحقّوا" فقالوا : نحلف على الغيب يا رسـول الله ! فجعلها رسول الله صلى الله عليه وسـلم دِيَةً على يهود ؛ لأنه وُجد بين أظهرهم . و بقوله عليه السلام : "ولكن اليمين على المدّعَى عليه" فعيِّنوا[1] . قالوا : وهذا هو الأصل المقطوع به فى الدعاوى الذى نبّه الشرع على حكمته بقوله عليه السلام : "لو يُعْطَى الناسُ بدعواهم لادّعى ناس دماء رجال وأموالهم ولكن اليمـين على المدّعى عليه"[2] . رَدّ عليهم أهل المقالة الأولى فقالوا : حديث سعيد بن عُبيد فى تبدية اليهود وَهَم عند أهل الحديث ، وقد أخرجه النسائى وقال : ولم يتابع سعيد فى هذه الرواية فيما أعلم ، وقد أسند حديث بُشير عن سهل أن النبيّ صلى الله عليه وسـلم بدأ بالمدّعين يحيى بنُ سعيد وآبنُ عُيينة وحمّاد بن زيد وعبدُ الوهاب الثقفى وعيسى بنُ حماد و بِشْر بن المفضَّل ؛ فهؤلاء سبعة . و إن كان أرسله مالك فقد وصله جماعة الحفاظ ، وهو أصح من حديث سـعيد بن عُبيد . قال أبو محمد الأصيلى : فلا يجوز أن يعترض بخبر واحد على خبر جماعة ، مع أن سعيد بن عُبيد قال فى حديثه : فَوَدَاه رسول الله صلى الله عليه وسلم مائةً من إبل الصدقة ؛ والصدقةُ لا تعطَى فى الدِّيات ولا يُصالَح بها عن غير أهلها ، وحديث أبى داود مرسـل فلا تعارض به الأحاديث الصحاح المتصلة ، وأجابوا عن التمسك بالأصل بأن هـذا الحكم أصل بنفسه لحُرْمة الدماء . قال آبن المنذر : ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل البيّنة على المدّعِى واليمينَ على المدّعَى عليه ، والحُكْم بظاهر ذلك يجب ، إلا أن يخصّ الله فى كتابه أو على لسان نبيّه صلى الله عليـه وسلم حكمًا فى شيء من الأشـياء فيُستثنى من جملة هـذا الخبر . فما دلّ عليه الكتاب إلزام القـاذف حدّ المقذوف إذا لم يكن معه أربعة شهداء يشهدون له على صدق ما رمى به المقذوف . وخصّ

(١) هذه الكلمة ساقطة فى بعض النسخ . (٢) كذا ورد هذا الحديث فى بعض نسخ الأصل وصحيح مسلم . قال ابن الملك : إنما ذكر اليمين فقط لأنها هى الحجة فى الدعوى آخرا ، و إلا فعلى المدعى إقامة البينة أولا .

مَن رمى زوجته بأن أسقط عنه الحدّ إذا شهد أربع شهادات . ومما خصّته السُّنّة حكم النبيّ صلى الله عليه وسلم بالقَسَامة . وقد روى آبن جُرَيج عن عطاء عن أبى هريرة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " البيّنةُ على مَن آدّعى واليمينُ على مَن أنكر إلّا فى القَسَامة " . خرّجه الدّارَقُطْنِيّ . وقد آحتج مالك لهذه المسئلة فى مُوَطّئه بما فيه كفاية ؛ فتأمله هناك .

مســئلة — وآختلفوا أيضا فى وجوب القَوَد بالقسامة ؛ فأوجبت طائفة القَوَد بها ؛ وهو قول مالك واللّيث وأحمد وأبى ثَوْر ؛ لقوله عليه السلام لحُوَيِّصة ومُحَيِّصة وعبد الرحمن : " أتحلفون وتستحقون دمَ صاحبكم " . وروى أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قتل رجلا بالقَسَامة من بنى نضر بن مالك . قال الدّارَقُطْنِى : نسخة عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه صحيحة ؛ وكذلك أبو عمر بن عبد البر يصحّح حديث عمرو بن شعيب ويحتج به . وقال البخارى : رأيت علىّ بن المدينى وأحمد بن حنبل والحُمَيْدى وإسحاق بن رَاهُوَيْه يحتجّون به ؛ قاله الدارقطنى فى السنن . وقالت طائفة : لا قَوَد بالقسامة ، وإنما توجب الدّية . رُوى هذا عن عمر وآبن عباس ؛ وهو قول النَّخَعى والحسن ، وإليه ذهب الثَّوْرى والكوفيون والشافعى وإسحاق ، وآحتجوا بما رواه مالك عن آبن أبى ليلى بن عبد الله عن سهل بن أبى حَثْمة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قوله للأنصار : " إما أن يَدُوا صاحبَكم وإما أن يؤذنوا بحرب " . قالوا : وهذا يدل على الدّية لا على القَوَد ؛ قالوا : ومعنى قوله عليه السلام : " وتستحقّون دَمَ صاحبِكم " دِية دمِ قتيلكم ؛ لأن اليهود ليسوا بأصحاب لهم ؛ ومن آستحق دية صاحبه فقد آستحق دمه ؛ لأن الدّية قد تؤخذ فى العمد فيكون ذلك آستحقاقا للدم .

مســئلة — الموجب للقسامة اللَّوْثُ ولا بُدّ منه . واللّوْثُ : أمارة تغلب على الظن صدق مدّعى القتل ؛ كشهادة العدل الواحد على رؤية القتل ، أو يرى المقتول يتَشَحّط(١) فى دمه ، والمتّهم نحوه أو قُربه عليه آثار القتل . وقد آختلف فى اللّوْث والقول به ؛ فقال مالك : هو قول المقتول دمى عند فلان . والشاهد العدل لوث . كذا فى رواية آبن القاسم عنه .

(١) يتشحط فى دمه : أى يتخبط فيه ويضطرب ويتمرغ .

وروى أشهب عن مالك أنه يُقسم مع الشاهد غير العدل ومع المرأة . وروى آبن وهب أن شهادة النساء لَوث . وذكر محمد عن آبن القاسم أن شهادة المرأتين لَوث دون شهادة المرأة الواحدة . قال القاضى أبو بكر بن العربى : آختلف فى اللّوث آختلافا كثيرا ؛ مشهور المذهب أنه الشاهد العدل . وقال محمد : هو أحبّ إلىّ . قال : وأخذ به آبن القاسم وآبن عبد الحكم . ورُوى عن عبد الملك بن مروان : أن المجروح أو المضروب إذا قال دمى عند فلان ومات كانت القَسَامة . وبه قال مالك والليث بن سعد . وآحتج مالك بقتيل بنى إسرائيل أنه قال : قتلنى فلان . وقال الشافعىّ : اللّوث الشاهد العدل ، أو يأتى ببيّنة وإن لم يكونوا عدولا . وأوجب الثورىّ والكوفيون القسامة بوجود القتيل فقط ، وآستغنوا عن مراعاة قول المقتول وعن الشاهد ، قالوا : إذا وُجد قتيل فى مَحلّة قومٍ وبه أثرٌ حلف أهل ذلك الموضع أنهم لم يقتلوه ويكون عَقْلُه عليهم ؛ وإذا لم يكن به أثر لم يكن على العاقلة شىء إلا أن تقوم البيّنة على واحد . وقال سفيان : وهذا مما أُجمع عليه عندنا ؛ وهو قول ضعيف خالفوا فيه أهل العلم ، ولا سلف لهم فيه ، وهو مخالف للقرآن والسُّنة ؛ ولأن فيه إلزامَ العاقلة مالاً بغير بيّنة ثبتت عليهم ولا إقرارٍ منهم . وذهب مالك والشافعىّ إلى أن القتيلَ إذا وُجد فى مَحلّة قومٍ أنه هَدَر ، لا يؤخذ به أقرب الناس دارا ؛ لأن القتيل قد يُقتل ثم يُلقى على باب قوم ليلطخوا به ؛ فلا يؤاخذ بمثل ذلك حتى تكون الأسباب التى شرطوها فى وجوب القسامة . وقد قال عمر بن عبد العزيز : هذا مما يؤخر فيه القضاء حتى يقضى الله فيه يوم القيامة .

مسـألة — قال القاسم بن مسعدة قلت للنّسائى : لا يقول مالك بالقسامة إلا باللّوث ، فلم أُورَد حديث القسامة ولا لَوث فيه ؟ قال النسائى : أنزل مالك العداوة التى كانت بينهم وبين اليهود بمنزلة اللوث ، وأنزل اللّوث أو قول الميت بمنزلة العداوة . قال آبن أبى زيد : وأصل هذا فى قصة بنى إسرائيل حين أحيا الله الذى ضُرب ببعض البقرة فقال : قتلنى فلان ؛ وبأن العداوة لَوْث . قال الشافعى : ولا نرى قول المقتول لوثًا ؛ كما تقدّم . قال الشافعى :

Marfat.com

إذا كان بين قوم وقوم عداوة ظاهرة كالعداوة التى كانت بين الأنصار واليهود، ووجد قتيل فى أحد الفريقين ولا يخالطهم غيرهم وجبت القسامة فيه .

مســألة — وآختلفوا فى القتيــل يوجد فى المحلة التى أكراها أربابها ؛ فقال أصحاب الرأى : هو على أهل الخِطّة وليس على السكان شىء، فإن باعوا دُورهم ثم وُجد قتيــل فالدّية على المشترى وليس على السكان شىء، وإن كان أرباب الدُّور غُيَّبًا وقد أكروا دُورهم فالقسامة والدية على أرباب الدور الغُيَّب وليس على السكان الذى وُجد القتيل بين أظهرهم شىء .

ثم رجع يعقوب من بينهم عن هذا القول فقال : القسامة والدّية على السكان فى الدُّور . وحكى هذا القول عن آبن أبى ليلى ، وآحتج بأن أهل خَيْبَرَ كانوا عُمَّالًا سُكَّانًا يعملون فوُجد القتيل فيهم . قال الثورى ونحن نقول : هو على أصحاب الأصل، يعنى أهل الدور . وقال أحمد : القول قول آبن أبى ليلى فى القسامة لا فى الدية . وقال الشافعى : وذلك كله سواء، ولا عَقْل ولا قَوَد إلا ببيّنة تقوم، أو ما يوجب القسامة فيُقسم الأولياء . قال آبن المنذر : وهذا أصح .

مســألة — ولا يحلف فى القسامة أقلُّ من خمسين يمينا ؛ لقوله عليه السلام فى حديث حُوَيِّصة ومُحَيِّصة : "يُقسم خمسين منكم على رجل منهم". فإن كان المستحقّون خمسين حلف كل واحد منهم يمينًا واحدة، فان كانوا أقل من ذلك أو نَكَل منهم من لا يجوز عفوه رُدّت الأيمـان عليهم بحسب عددهم . ولا يحلف فى العمد أقل من آثنين من الرجال، لا يحلف فيه الواحد من الرجال ولا النساء، يحلف الأولياء ومن يستعين بهم الأوليــاء من العَصَبة خمسين يمينًا . هذا مذهب مالك واللّيث والثَّوْرى والأوزاعىّ وأحمـد وداود . وروى مُطَرِّف عن مالك أنه لا يحلف مع المدّعَى عليه أحدٌ ويحلف هم أنفُسهم — كما لو كانوا واحدا فأكثر — خمسين يمينًا يبرئون بها أنفسهم ؛ وهو قول الشافعى . قال الشافعى : لا يُقسم إلا وارث، كان القتل عمدا أو خطأ . ولا يحلف على مال و يستحقه إلا من له المِلك لنفسه أو من جعل الله له المِلك من الورثة ؛ والورثةُ يُقسمون على قدر مواريثهم . وبه قال أبو ثَوْر وآختاره آبن المنذر وهو الصحيح ؛ لأن من لم يدّع عليه لم يكن له سبب يتوجّه عليه فيه يمين . ثم مقصود هذه

Marfat.com

الأيمان البراءة من الدعوى ومن لم يُدّع عليه برىء . وقال مالك فى الخطأ : يحلف فيها الواحد من الرجال والنساء، فمهما كملت خمسين يمينا من واحد أو أكثر استحق الحالف ميراثه، ومَن نَكَل لم يستحق شيئا ؛ فإن جاء من غاب حلف من الأيمان ما كان يجب عليه لو حضر بحسب ميراثه . هذا قول مالك المشهور عنه ؛ وقد رُوِىَ عنه أنه لا يرى فى الخطأ قسامة .

وتتميم مسائل القسامة وفروعها وأحكامها مذكور فى كتب الفقه والخلاف، وفيما ذكرناه كفاية، والله الموفق .

مســألة — فى قصة البقرة هذه دليل على أن شَرْع مَن قبلنا شَرْعٌ لنا ؛ وقال به طوائف من المتكلمين وقومٌ من الفقهاء، واختاره الكرخى ونصّ عليه ابن بُكير القاضى من علمائنا، وقال القاضى أبو محمد عبد الوهاب : هو الذى تقتضيه أصول مالك ومَنازعه فى كتبه، وإليه مال الشافعى، وقد قال الله : « فَبِهُدَاهُمُ ٱقْتَدِهْ » على ما يأتى[(١)] إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يُحْيِي ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ أى كما أحيا هذا بعد موته كذلك يحيى الله كل من مات . فالكاف فى موضع نصب، لأنه نعت لمصدر محذوف . ﴿ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾ أى علاماته وقدرته . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ كى تعقلوا . وقد تقدّم[(٢)] . أى تمتنعون من عصيانه . وعقلتُ نفسى عن كذا أى منعتها منه . والمعاقل : الحصون .

وقوله تعالى : ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ القسوة : الصلابة والشدّة واليُبْس . وهى عبارة عن خلوّها من الإنابة والإذعان لآيات الله تعالى . قال أبو العالية وقتادة وغيرهما :

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٥ (٢) راجع ص ٢٢٦ من هذا الجزء

Marfat.com

المراد قلوب جميع بنى إسرائيل . وقال ٱبن عباس : المراد قلوب ورثة القتيل؛ لأنهم حين حَيِيَ وأخبر بقاتله وعاد إلى موته أنكروا قتله ، وقالوا : كَذَب ؛ بعد ما رأوا هذه الآية العظمى ؛ فلم يكونوا قط أعمى قلوبا ، ولا أشدّ تكذيباً لنبيهم منهم عند ذلك ، لكن نفذ حكم الله بقتله . روى الترمذى عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي" . وفى مسند البزار عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أربعة من الشقاء جمود العين وقَساء[1] القلب وطول الأمل والحرص على الدنيا " .

قوله تعالى : ﴿ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ « أو » قيل : هى بمعنى الواو ، كما قال : « آثِمًا أَوْ كَفُورًا » . « عُذْرًا أَوْ نُذْرًا » وقال الشاعر :

* نال الخلافة أو كانت له قدرا *

أى وكانت . وقيل : هى بمعنى بل ؛ كقوله تعالى : « وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ[2] » المعنى بل يزيدون . وقال الشاعر :

بَدتْ مِثل قَرْن الشمس فى رَوْنق الضحى * وصورتِها أو أنت فى العين أملح[3]

أى بل أنت . وقيل : معناها الإبهام على المخاطب ؛ ومنه قول أبى الأسود الدُّؤَلِى :

أحبّ محمدا حبًّا شديدا * وعبّاسا وحمزة أو عليّا

فإن يك حبّهم رشدا أُصِبْه * ولستُ بمخطئ إن كان غيّا

ولم يشك أبو الأسود أن حبهم رشد ظاهر ، وإنما قصد الإبهام . وقد قيل لأبى الأسود حين قال ذلك : شككت ! قال : كلا ؛ ثم ٱستشهد بقوله تعالى : « وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ[4] » وقال : أوَ كان شاكًّا من أخبر بهذا ! وقيل : معناها التخيير ، أى شبهوها بالحجارة

(١) القساء (بالفتح والمد) : مصدر ، مثل القسوة والقساوة .
(٢) راجع جـ ١٥ ص ١٣٠
(٣) راجع البيت فى خزانة الأدب فى الشاهد ٨٩٥
(٤) راجع جـ ١٤ ص ٢٩٨

Marfat.com

تصبيوا، أو بأشد من الحجارة تصبيوا ؛ وهذا كقول القائل : جالس الحسن أو ابن سيرين، وتعلّم الفقه أو الحديث أو النحو . وقيل : بل هى على بابها من الشك، ومعناها عندكم أيها المخاطبون وفى نظركم أن لو شاهدتم قسوتها لشككتم : أهى كالحجارة أو أشدّ من الحجارة؟ وقد قيل هـذا المعنى فى قوله تعالى : « إلى مِائةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ » . وقالت فرقة : إنمـا أراد الله تعالى أن فيهم مَن قلبه كالحجر، وفيهم من قلبه أشدّ من الحجر . فالمعنى : هم فرقتان .

قوله تعالى : ﴿أَوْ أَشَدُّ﴾ «أشدّ» مرفوع بالعطف على موضع الكاف فى قوله «كالحجارة»؛ لأن المعنى فهى مثل الحجـارة أو أشدّ . ويجوز أو « أشـدَّ » بالفتح عطف على الحجـارة . و ﴿ قَسْوَةً ﴾ نصب على التمييز . وقرأ أبو حَيْوَة « قساوة » والمعنى واحد .

قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَـا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنها لَمَـا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنهُ الْمَـاءُ﴾ قد تقدّم معنى الانفجار (١) . ويشّقّق أصله يتشقّق ، أدغمت التاء فى الشين ؛ وهـذه عبارة عن العيون التى لم تَعْظُم حتى تكون أنهـارا ، أو عن الحجارة التى تتشقّق وإن لم يجر ماء منفسح . وقرأ ابن مُصَرِّف «ينشقق» بالنون، وقرأ «لمّا يتفجر» «لمّا يتشقّق» بتشديد «لمـا» فى الموضعين . وهى قراءة غير متّجهة . وقرأ مالك بن دينار «ينفجر» بالنون وكسر الجيم . قال قتادة : عذر الحجارة ولم يعـذر شقىّ بنى آدم . قال أبو حاتم : يجوز لمـا تتفجر بالتـاء، ولا يجـوز لمـا تتشقق بالتاء؛ لأنه إذا قال تتفجر أنّثـه بتأنيث الأنهار؛ وهذا لا يكون فى تشقق . قال النحاس : يجـوز ما أنكره على المعنى ؛ لأن المعنى وإن منها لحجارةٌ تتشقق ؛ وأما يشقق فمحمول على لفظ ما . والشّق واحد الشُّقوق؛ فهو فى الأصل مصدر ، تقول : بيد فلان ورجليـه شقوق، ولا تقل : شقاق ؛ إنما الشُّقاق داء يكون بالدواب، وهو تشقّق يصيب أرساغها وربما ارتفع إلى وظيفها (٢)؛ عن يعقوب . والشّق : الصبح . و«ما» فى قوله :

(١) راجع ص ٤١٩ من هذا الجزء .

(٢) الوظيف : مستدق الذراع والساق . وقيل : ما فوق الرسغ الى الساق .

Marfat.com

«لَمَا يَتَفَجَّرُ» فى موضع نصب؛ لأنها آسم إنّ واللام للتأكيد . «منه» على لفظ ما ، ويجوز منها على المعنى؛ وكذلك « وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ منه المَاءُ» . وقرأ قتادة « وإنْ » فى الموضعين ، مخففة من الثقيلة .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ يقول : إنّ من الحجارة ما هو أنفع من قلوبكم؛ لخروج المـاء منها وتردّيها . قال مجاهد : ماتردّى حجر من رأس جبل، ولا تفجّر نهر من حجر، ولا خرج منه ماء إلا من خشية الله؛ نزل بذلك القرآن الكريم . ومثله عن آبن جُرَيج . وقال بعض المتكلمين فى قـوله : « وإن منهـا لمـا يَهْبِط مِن خشـيةِ اللهِ » : البَرَد الهـابط من السحاب . وقيل : لفظة الهبوط مجاز ؛ وذلك أن الحجـارة لمـا كانت القلوب تعتبر بخلقها، وتخشع بالنظر إليها، أضيف تواضع الناظر إليها؛ كما قالت العرب : ناقة تاجرة؛ أى تبعث من يراها على شرائها . وحكى الطبرى عن فرقة أن الخشية للحجارة مستعارة ؛ كما آستعيرت الإرادة للجدار فى قوله : « يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ » ، وكما قال زيد الخيل[(1)] :

لمـا أتى خبر الزبير تواضعت ✻ ســورُ المدينة والجبالُ الخُشّـعُ

وذكر آبن بحر أن الضمير فى قوله تعالى : « وإنّ مِنها » راجع إلى القلوب لا إلى الحجارة ؛ أى من القلوب لمـا يخضع من خشية الله .

قلت : كل ما قيل يحتمله اللفظ ، والأوّل صحيح؛ فإنه لايمتنع أن يعطى بعض الجمادات المعرفة فيعقل ، كالذى رُوِىَ عن الجذع الذى كان يستند إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خطب، فلما تحوّل عنه حنّ؛ وثبت عنه أنه قال : " إن حجرا كان يسلّم علىّ فى الجاهلية

(١) نسب هذا البيت فى كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد فى ترجمة الزبير بن العوام وفى كتاب سيبويه إلى جرير . ويلاحظ أن زيد الخيل توفى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أو فى آخر خلافة عمر رضى الله عنه . فوفاته إذا قبل وفاة الزبير . وقد وصف مقتل الزبير بن العوام حين آنصرف يوم الجمل وقتل فى الطريق غيلة . يقول : لمـا وافى خبره المدينة (مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم) تواضعت هى وجبالها وخشعت حزنا له .

Marfat.com

إنى لأعرفه الآن ". وكما روى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " قال لى ثَبِير(١) اهبط فإنى أخاف أن يقتلوك على ظهرى فيعذبنى الله " . فناداه حراء : إلىّ يارسول الله . وفى التنزيل: « إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ(٢) » الآية . وقال: «لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ(٣) » يعنى تذللا وخضوعا ، وسيأتى لهذا مزيد بيان فى سورة « سبحان(٤) » إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى: ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ «بغافل» فى موضع نصب على لغة أهل الحجاز، وعلى لغة تميم فى موضع رفع . والباء توكيد . « عَمَّا تَعْمَلُونَ » أى عن عملكم حتى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا يحصيها عليكم ؛ «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ(٥) » . ولا تحتاج «ما» إلى عائد إلا أن يجعلها بمعنى الذى فيحذف العائد لطول الاسم؛ أى عن الذى تعملونه . وقرأ ابن كثير « يعملون » بالياء؛ والمخاطبة على هذا لمحمد عليه السلام ٥

(١) ثبير : جبل معروف عند مكة . (٢) راجع جـ ١٤ ص ٢٥٣

(٣) راجع جـ ١٨ ص ٤٤ (٤) راجع جـ ١٠ ص ٢٦٧ (٥) راجع جـ ٢٠ ص ١٥٠

تم الجزء الأول من تفسير القرطبي

يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الثانى، وأوله قوله تعالى : ﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم﴾ الآية .

Marfat.com

الجزء الثاني

الجامع لأحكام القرآن

Marfat.com

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء الثاني

اعادت طبعه بالأوفست
دار إحياء التراث العربي
بيروت

Marfat.com

فهـرس الجـزء الثـانى

سـورة البقـرة

صفحة

تفسير قوله تعالى : « أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ... » الآية . فيـه أربع مسائل . ١

تفسير قوله تعالى : « وإذا لَقُوا الذين آمنوا قالوا آمنّا ... » الآية ٣

تفسير قوله تعالى : « ومنهـم أُمِّيُّون لا يعلمون الكتاب إلا أمَانِىّ ... » الآية . فيه أربع مسائل : ٥

تفسير قوله تعالى : « فَوَيْلٌ للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ... » الآية . فيه خمس مسائل : معنى الويل واختلاف العلماء فيه . أول من كتب بالقلم . التحذير من التبديل والزيادة فى الشرع ٧

تفسير قوله تعالى : « وقالوا لن تمسّنا النـارُ إلا أيامًا معدودةً ... » الآية . فيه ثلاث مسائل : الاختلاف فى سبب نزولها ١٠

تفسير قوله تعالى : « بَلَى مَن كسب سيئة ... » . الآية . فيه ثلاث مسائل : الكلام على « بـلى ونعم » . معنى السيئة . بيان أن المعلّق على شرطين لا يتم بأقلهما . ١١

تفسير قوله تعالى : « وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله ... » الاية . فيـه عشر مسائل : الاختلاف فى الميثـاق . الحض على برّ الوالدين واليتامى وذى القربى والمساكين . الأمر بالإحسان إلى جميع الناس ١٢

تفسير قوله تعالى : « ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم ... » الآية . سبب نزول هذه الآية . الكلام على الأسـارى وفكّ الأسرى ١٩

تفسير قوله تعالى : « ولقد آتينا موسى الكتاب وقَفَّيْنَا ... » الآية . معنى التَّقْفِيَة . بيان ما أوتيه عيسى عليه السلام من البينات ، ومعنى روح القدس ٢٣

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « بئسما اشتروا به أنفسهم ... » الآية . الكلام فى « بئسما » . ٢٧

تفسير قوله تعالى : «ولقد جاءكم موسى بالبينات ...» الآية . الكلام على البينات. ٣٠

تفسير قوله تعالى : « وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور ... » الآية ٣١

تفسير قوله تعالى : « ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ... » الآية . الكلام على حرص اليهود على الحياة ٣٤

تفسير قوله تعالى : « قل من كان عدوا لجبريل ... » الآية . الكلام على سبب نزولها . بيان ما فى جبريل وميكائيل من اللغات ٣٦

تفسير قوله تعالى : « واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان ... » الآية . فيه أربع وعشرون مسألة : الكلام على السحر وأصله . الاختلاف فى هل له حقيقة أولا . من السحر ما يكون كفراً من فاعله . الفرق بين السحر والمعجزة . اختلاف الفقهاء فى حكم الساحر المسلم والذمى . الكلام على هاروت وماروت ٤١

تفسير قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا ... » الاية . فيه خمس مسائل : بيان أن الله تعالى أمر المؤمنين أن يتخيروا من الألفاظ أحسنها . الكلام على سد الذرائع وحمايتها ٥٧

تفسير قوله تعالى : « ما ننسخ من آية أو ننسها ... » الآية . فيه خمس عشرة مسألة : الكلام على سبب نزول هذه الآية . بيان النسخ فى كلام العرب وحكمه . اختلاف العلماء فى الأخبار هل يدخلها النسخ . بيان الطرق لمعرفة الناسخ ٦١

تفسير قوله تعالى : « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم ... » الآية . فيه مسألتان : الكلام على الحسد وأن فيه مذموما ومحمودا ٧٠

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « ومَن أظلم ممن مَنع مساجد الله ... » الآية . فيه سبع مسائل
آختلف فى المراد بهذه الآية وفيمن نزلت . خراب المساجد يكون حقيقيًّا
ويكون مجازا . لا يجوز نقض المسجد ولا بيعه . فى الآية دليل على أن الكافر
ليس له دخول المسجد بحال ٧٦

تفسير قوله تعالى : « ولله المشرقُ والمغربُ ... » الآية . فيه خمس مسائل :
اختلاف العلماء فى معنى « فأينما تُوَلُّوا » . الكلام على استقبال القبلة
فى الصلاة . التنفّل على الدابة . صلاة الجنازة على الغائب . آختلف فى تأويل
الوجه المضاف إلى الله تعالى فى القرآن والسُّنة ٧٩

تفسير قوله تعالى : « بَديعُ السمواتِ والأرض ... » الآية . فيه ست مسائل :
الكلام على البدعة وبيان معانيها . بيان أن الأمر فى قوله : « وإذا قَضَى
أمرا » ينصرف على أربعة عشر وجهًا ٨٦

تفسير قوله تعالى : « ولن تَرْضَى عنك اليهودُ ولا النصارى ... » الآية . فيه
مسألتان : الكلام على الدِّين والمِلّة والشريعة ، بيان أن الكفر كله مِلّةٌ واحدة . ٩٣

تفسير قوله تعالى : « الذين آتيناهم الكتاب يَتْلُونَهُ ... » الآية . الكلام على هذه
الآية وفيمن نزلت ٩٥

تفسير قوله تعالى : « وإذ آبتلى إبراهيمَ رَبُّه بكلماتٍ فأتمهن ... » الآية . فيه
عشرون مسألة : الكلام على نَسَب إبراهيم . اختلاف العلماء فى المراد
بالكلمات . الكلام على الختان وآختلاف العلماء فيه . الكلام على الآستحداد .
الكلام على تقليم الأظفار . تنظيف اللّثة وتَنْقِيَة البَراجم . الكلام على قصّ
الشارب . الكلام على الشيب . معنى الذّرية وما فيها من اللغات . المراد بالعهد
فى قوله تعالى « لا ينال عَهْدِى الظالمين » . الكلام على الإمامة ومن يكون
إماما . القول فى أن الصبر على طاعة الإمام الجائر أَوْلَى من الخروج عليه ٩٦

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « وإذ جعلنا البيتَ مَثابةً للناس ... » الاية . الكلام على إقامة الحدّ فى الحَرَم . قول عمر رضى الله عنه : «وافقتُ ربى فى ثلاث» . الكلام على مقام إبراهيم . الكلام على الصلاة داخل الكعبة وعلى ظهرها . ٱختلاف العلماء أيما أفضل الصلاة عند البيت أو الطواف به ١١٠

تفسير قوله تعالى : «وإذ قال إبراهيم رَبِّ ٱجعل هذا بلدًا آمنًا ... » الآية . فيه ثلاث مسائل : الكلام فى مكة ، وهل صارت حَرَمًا بسؤال إبراهيم أو كانت قبله كذلك . ١١٧

تفسير قوله تعالى : « وإذ يَرفع إبراهيم القواعدَ من البيت وإسماعيل ... » الآية . ٱختلاف العلماء فيمن بنى البيت أوّلا وأسّسه ١٢٠

تفسير قوله تعالى : « رَبَّنا وٱجعلنا مُسْلِمَيْنِ لك ... » الآية . معنى الأُمّة . بيان المراد بالمناسك ، وأصل النسك فى اللغة ١٢٦

تفسير قوله تعالى : « رَبَّنـا وٱبعث فيهم رسـولًا منهم ... » الآية . المعنى المراد من الحكمة ١٣١

تفسير قوله تعالى : « إذ قال له رَبُّه أَسْلِم ... » الآية . معنى الإسلام فى كلام العرب . ١٣٤

تفسير قوله تعالى : « ووَصَّى بها إبراهيمُ بَنيـه ويعقوبُ ... » الآية . الكلام على أولاد إبراهـيم ١٣٥

تفسير قوله تعالى : « تلك أُمَّةٌ قد خَلَتْ ... » الآية . مذهب أهل السُّنة والجبرية والمعتزلة فى أفعال العباد ١٣٩

تفسير قوله تعالى : « صِبْغَةَ الله ومَن أحسنُ من الله صِبْغَةً ... » الآيات . بيان المراد بالصبغة . الكلام على الإخلاص ١٤٤

تفسير قوله تعالى : « سيقول السفهاء من الناس ... » الآية . فيه إحدى عشرة مسألة : المراد بالسفهاء هنا . الكلام على سبب نزول هذه الآية . الٱختلاف

Marfat.com

صفحة

فى وقت تحويل القبلة . الاختلاف فى كيفية استقبال الرسول عليه السلام لبيت المقدس . الكلام على أن فى هـذه الآية دليلا على جواز نسخ السنة بالقرآن، وعلى جواز القطع بخبر الواحد، وعلى أن من لم يبلغه الناسخ إنه متعبد بالحكم الأول. ١٤٧

تفسير قوله تعالى : « وكذلك جعلناكم أُمَّةً وَسَطًا ... » الآية . فيه أربع مسائل : معنى الوسط . الكلام على قوله « وما كان الله لِيُضِيعَ إيمانكم » ١٥٣

تفسير قوله تعالى : « قد نَرَى تَقَلُّبَ وجهِك فى السماء ... » الآية . الكلام على الشّطر . بيان أن الكعبة قبلة فى كل أفق . اختلِف هل فرض الغائب استقبال عينها أو جهتها ١٥٨

تفسير قوله تعالى : « ولكلٍّ وِجْهَةٌ هو مُوَلِّيهَا ... » الآية . فيه أربع مسائل : معنى الوجهة . الحث على المبادرة بالصلاة أوّل وقتها ١٦٤

تفسير قوله تعالى : « فاذكرونى أذكركم .. » الآية . بيان أصل الذكر ومعناه . الكلام على الشكر ١٧١

تفسير قوله تعالى : « ولَنَبْلُوَنَّكُمْ بشىء من الخوف والجوع ... » الآية . معنى البلاء . الكلام على الصبر وما جاء فيه ١٧٣

تفسير قوله تعالى : « الذين إذا أصابتهم مُصيبةٌ ... » الاية . فيه ست مسائل : معنى المصيبة واشتقاقها . من أعظم المصائب المصيبةُ فى الدِّين ١٧٥

تفسير قوله تعالى : « إن الصَّفَا والمَرْوَةَ من شعائر الله ... » الآية . فيه تسع مسائل : الكلام على الصفا والمروة وما هما . أصل الصفا فى اللغة . معنى الشعائر . طوافه صلى الله عليه وسلم بالصفا والمروة حين قدم مكة . اختلاف العلماء فى وجوب السعى بين الصفا والمروة . لا يطوف أحد بالبيت ولا بين الصفا والمروة راكبًا إلا من عذر ١٧٧

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات ... » الآية . فيه سبع مسائل : اختلف فى هـذه الآية هل هى عامة فى كل مَن كتم حقًّا ، أم خاصة باليهود . لا يجوز تعليم المبتدع الجدال، ولا نشر الرخص فى السفهاء . فى الآية دليـل على وجوب العمل بقول الواحد ١٨٤

تفسير قوله تعالى : « إن الذين كفروا وماتوا وهم كُفّارٌ ... » الآيات . القول فى أن الكافر المعيَّن لا يجوز لعنه . الخلاف فى لعن العاصى المعيَّن ١٨٨

تفسير قوله تعالى : « وإلٰهُكُمْ إلٰهٌ واحد ... » الآية . فيه مسألتان : سبب نزول هذه الآية ١٩٠

تفسير قوله تعالى : « إن فى خلق السموات والأرض ... » الآية . فيه أربع عشرة مسألة : بيان ما فى السموات والأرض من آيات . القول فى اختلاف الليـل والنهار، واشتقاقهما . الكلام على الفلك وركوب البحر . الكلام على الرياح وتصريفها وأسمائها . الكلام على السحاب . دليل الوحدانية ١٩١

تفسير قوله تعالى : « يأيها الناس كلوا ممـا فى الأرض حلالًا طَيِّبًا ... » الآية . فيـه أربع مسائل : سبب نزول هـذه الآية . معنى الطيِّب والحلال . النَّهْىُ عن اتبـاع خطوات الشيطان، وما هى خطواته ٢٠٧

تفسـير قوله تعالى : « وإذا قيـل لهم اتبعوا ما أنزل الله ... » الآية . فيـه سبع مسائل : أقوال العلمـاء فى التقليـد ٢١٠

تفسير قوله تعـالى : « إنما حَرَّمَ عليكم الميتةَ والدَّمَ ... » الآية . فيه أربع وثلاثون مسألة : الكلام فى تحريم الميتة واستثناء السمك منها . اختلاف العلماء فى جواز الانتفاع بالميتة أو بشىء من النجاسات . القول فى جلد الميتة وشعرها وأنفحتها ولبنها . إذا وقع فى القدر حيوان طائر أو غيره فمات . اتفاق العلماء على أن الدم حرام نجس . بيان تحريم لحم الخنزير وشحمه وشعره واشتقاق لفظه . الكلام

Marfat.com

صفحة

فيما أهِلّ به لغير الله . الترخيص للمضطر فى الأكل من الميتة بقدر ما يَسُدُّ رَمَقه ، وبيان الاضطرار . حكم المضطر إلى شرب الخمر والتداوى بها ٢١٦

تفسير قوله تعالى : « ليس البِرَّ أن تُوَلُّوا وجوهَكم ... » الآية . فيه ثمانى مسائل : بيان أن البر هو الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر . الردّ على اليهود والنصارى فى ادعائهم حصر البِرّ على قِبْلتهم . الكلام فى المال هل فيه حَقّ سوى الزكاة . ٢٣٧

تفسير قوله تعالى : «يأيها الذين آمنوا كُتب عليكم القصاصُ فى القَتْلَى .. » الآية . فيه سبع عشرة مسألة : سبب مشروعية القصاص وكيفيته . بيان الخلاف فى أخذ الدِّية من قاتل العمد . اختلافهم فيمن قَتل بعد أخذ الدية ٢٤٤

تفسير قوله تعالى : ولكم فى القصاص حياةٌ ... » الآية . فيه أربع مسائل : اتفاق العلماء على أنه لا يجوز لأحد أن يقتصّ من أحد حقّه دون السلطان ٢٥٦

تفسير قوله تعالى : « كُتب عليكم إذا حَضَر أحدَكم الموتُ ... » الآية . فيه إحدى وعشرون مسألة : الكلام فى مشروعية الوصية . اختلاف العلماء فى وجوب الوصية على من خلّف مالا . القول فى أنه لا يجوز لأحد أن يوصى بأكثر من الثلث . إجماع العلماء على أن للإنسان أن يغيّر وصيته و يرجع فيما شاء منها . اختلف العلماء فى هذه الآية هل هى منسوخة أو مُحْكَمة . الكلام فى الوصية للأقربين وغيرهم . الاختلاف فى وصية البالغ الضعيف فى عقله والسفيه... ... ٢٥٧

تفسير قوله تعالى : « فمن بدّله بعد ما سمعه ... » الآية . فيه أربع مسائل : الكلام على الدَّين الذى أوصى به الميت . ما يجوز تبديله من الوصية ، وما لا يجوز إمضاؤه ٢٦٨

تفسير قوله تعالى : « فمن خاف من مُوصٍ جَنَفًا أو إثمًا ... » الآية . فيه ست مسائل : فى الآية دليل على الحكم بالظن . الكلام على أن الصدقة فى حال الحياة والصحة أفضل منها عند الموت ٢٦٩

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا كُتِب عليكم الصيامُ ... » الآية .
فيه ست مسائل : الكلام على الصوم لغة وشرعًا . فضل الصوم . اختلف أهل التأويل فى موضع التشبيه ، هل يرجع إلى وقت الصوم وقدره ، أو هو راجع إلى أصل وجوبه ، أو على صفته ٢٧٢

تفسير قوله تعالى : «فمن كان منكم مريضا أو على سفر» . فيه ست عشرة مسألة : الكلام على المرض الذى يجب معه الفطر . اختلاف العلماء فى السفر الذى يجوز فيه الفطر والقصر . اتفاق العلماء على أن المسافر فى رمضان لا يجوز له أن يبيِّت الفطر . اختلافهم فى الأفضل من الفطر أو الصوم فى السفر . الكلام على قضاء ما أفطره الصائم . الاختلاف فيمن أفطر أو جامع فى قضاء رمضان ماذا يجب عليه . القول فيمن مات وعليه صوم من رمضان لم يقضه ٢٧٦

تفسير قوله تعالى : « وعلى الذين يُطِيقونه فِدْيَة ... » فيه خمس مسائل : هل الآية منسوخة أو محكمة . الاختلاف فى مقدار الفدية ٢٨٦

تفسير قوله تعالى : « شَهْرُ رمضانَ الذى أنزل فيه القرآنُ ... » الآية . فيه إحدى وعشرون مسألة : الكلام على رمضان واشتقاقه . هل يقال رمضان دون أن يضاف إلى شهر . الاختلاف فى ثبوت هلال رمضان . القول فيمن رأى هلال رمضان وحده أو هلال شوّال . الكلام فى اختلاف المطالع . القول فى أن القرآن نزل فى أوقات مختلفة . ماذا يجب على الكافر إذا أسلم، أو على الصبي إذا بلغ فى رمضان . الكلام فى رؤية هلال شوّال يوم الثلاثين من رمضان نهارًا . القول فيما إذا اختلف الناس فى آخر يوم من رمضان . التكبير فى آخر رمضان و بيان لفظه ٢٩٠

تفسير قوله تعالى : « و إذا سألك عبادى عنى ... » الآية . فيه أربع مسائل : الاختلاف فى سبب نزول هذه الآية . الكلام على الدعاء، وما يمنع من إجابته. ٣٠٨

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « أُحِلّ لكم ليلةَ الصيام الرَّفَثُ إلى نسائكم ... » الآية . فيه ست وثلاثون مسألة : الكلام على سبب نزول هذه الآية . معنى الرفث فى كلام العرب . الاختلاف فى الحد الذى يجب به الإمساك . الكلام على النية فى الصيام . ماذكر فى قوله : «الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر» . القول فيمن أفطر فى رمضان عامدا . اختلافهم فيما يجب على المرأة يطؤها زوجها فى رمضان . من جامع ناسياً لصومه او أكل . الكلام فيمن قَبّل أو باشر وهو صائم . القول فى صحة صوم من طلع عليه الفجر وهو جُنُب . الحائض تطهر قبل الفجر فى رمضان . إن ظنّ أن الشمس قد غَرَبت لغَيْم أو غيره فأفطر . النّهىُ عن الوصال فى الصوم . يستحبّ للصائم أن يصوم ستة أيام من شوّال . الكلام على الاعتكاف لغة وشرعًا . إجماع العلماء على أن الاعتكاف لا يكون إلا فى المسجد . ما يلزم المعتكف ٣١٤

تفسير قوله تعالى : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ... » الآية . فيه ثمانى مسائل : الكلام على سبب نزول هذه الآية . مايقع عليه اسم الباطل . الأقوال فى أن حكم الحاكم على الظاهر لايغيِّر حكم الباطن . النّهىُ عن الإدلاء إلى الحكام بالحجج الباطلة . اتفق أهل السنة على أن من أخذ ما وقع عليه اسم مالٍ قلّ أو كثر أنه يُفَسَّق بذلك ٣٣٧

تفسير قوله تعالى : « يسألونك عن الأهِلّة ... » الآية . فيه اثنتا عشرة مسألة : الكلام على سبب نزول هذه الآية . معنى الهلال . جعلت الأهلة مواقيت لزوال الإشكال فى الآجال والمعاملات وغيرها . كان الأنصار إذا حَجُّوا وعادُوا لا يدخلون من أبواب بيوتهم، فنُهُوا عن ذلك . الكلام على الحُمْس... ... ... ٣٤١

تفسير قوله تعالى : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ... الآية » . فيه ثلاث مسائل : بيان أن هذه أوّل آية نزلت فى الأمر بالقتال . الكلام على صُلح الحديبية . النهى عن الاعتداء فى قتل الصبيان وما أشبههم إلا أن يكون لهم إذاية ٣٤٧

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « وآقتلوهم حيث ثقفتموهم ... » الآية . فيه خمس مسائل :

الكلام على القتال عند المسجد الحرام ٣٥٠

تفسير قوله تعالى : «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ...» الآية . فيه مسألتان : ٣٥٣

تفسير قوله تعالى : «الشهرُ الحرام بالشهر الحرام والحُرُماتُ قِصاصٌ ...» الآية . فيه عشر مسائل : القول فى سبب نزول هذه الآية . هل لمن تعدّى عليه فى مال أو جرح أن يتعدّى بمثل ما تُعُدِّى به عليه ؟ أمر أمور القصاص وَقْفٌ على الحكام . آختلاف العلماء فى المكافأة فى أخذ الحقوق هل تُسمّى عدواناً . آختلافهم فيمن آستهلك أو أفسد شيئا من الحيوان أو العروض التى لا تُكال ولا تُوزَن . القول فى أن هذه الآية أصل فى المماثلة فى القصاص ٣٥٤

تفسير قوله تعالى : « وأنفقوا فى سبيل الله ولا تُلقُوا بأيديكم إلى التَّهْلُكَة ... » الآية . فيه ثلاث مسائل : أقوال العلماء فى الإلقاء باليد إلى التهلكة . آختلف العلماء فى آقتحام الرجل فى الحرب وحمله على العدو وحده ٣٦١

تفسير قوله تعالى : « وأتِمُّوا الحجَّ والعُمْرَةَ لله » . فيه سبع مسائل : آختلف العلماء فى المعنى المراد بإتمام الحج والعمرة لله . الكلام على مواقيت الحج . الدليل على وجوب العمرة . القول فيمن شهد مناسك الحج وهو لا ينوى حجًّا ولا عمرة . آختلاف العلماء فى المراهق والعبد يُحرمان بالحج ثم يَحتلم هذا ويَعتق هذا قبل الوقوف بعرفة ٣٦٥

تفسير قوله تعالى : « فإن أُحصرتم فما آستيسر من الهَدْى » . فيه اثنتا عشرة مسألة : أقوال العلماء فى الإحصار فى الحج . ماذا يجب على المُحْصَر . القول فى الحاصر . الكلام فى الحلق والهدى . بيان الخلاف فى الإطعام فى فدية الأذى، وبيان مكانها . الكلام على التمتع والإفراد والقِران . الترخيص فى الصوم لمن لم يجد الهَدْى ٣٧١

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « الحجُّ أشهرٌ معلوماتٌ ... » الاية . فيه أربع عشرة مسألة :
الآختلاف فى الأشهر المعلومات . الآختلاف فى الإهلال بالحج فى غير أشهر
الحج . معنى الرفث والفسوق والجدال فى الحج ٤٠٥

تفسير قوله تعالى : « ليس عليكم جُناحٌ أن تبتغوا فضلًا من ربكم » فيه مسألتان :
جواز التجارة فى الحج للحاج ٤١٣

تفسير قوله تعالى : « فإذا أفضتم من عرفات ... » الآية . فيه ست عشرة مسألة :
الكلام على عرفات والوقوف بها . بيان فضل يوم عرفة . آختلاف العلماء
فى هيئة الصلاة بالمزدلفة . الكلام على المبيت بالمزدلفة ٤١٤

تفسير قوله تعالى : « ثم أفيضوا مِن حيثُ أفاض النـاسُ ... » الآية . فيه أربع
مسائل : الكلام على سبب نزول هذه الآية ٤٢٧

تفسير قوله تعالى : « فإذا قضيتم مناسككم فآذكروا الله ... » الآية . فيه مسألتان :
معنى المناسك ٤٣١

تفسير قوله تعالى : « ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة ... » الآية . فيه
ثلاث مسائل : الآختلاف فى تأويل الحسنتين . القول فى أن هذه الآية من
جوامع الدعاء التى عمّت الدنيا والآخرة ٤٣٢

تفسير قوله تعالى : « أولئك لهم نصيب مما كسبوا ... » الآية . فيه ثلاث مسائل :
بيان أن الرجل يأخذ مالًا يحج به عن غيره فيكون له ثواب ٤٣٤

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

بعون الله وتوفيقه، قد فرغنا من إعادة طبع الجزء الثانى من كتاب « الجامع لأحكام القرآن » للقرطبي، بعد مقابلته على عدّة نسخ مخطوطة، وقد أشرنا إلى كل نسخة بحرف؛ ليسهل على الباحث الرجوع إليها عند الحاجة، وهى :

١ — نسخة المكتبة الأزهرية رقم ٢٥٨ تفسير... ... وقد رمزنا لها بحرف « ز ».

٢ — نسخة مكتبة حليم رقم ١ تفسير ... ... وقد رمزنا لها بحرف « ح ».

٣ — نسخة الدار رقم ٩٥ تفسير ... ... وقد رمزنا لها بحرف « أ ».

٤ — نسخة الدار رقم ٢٦٨ تفسير ... ... وقد رمزنا لها بحرف « ب ».

٥ — نسخة الدار رقم ٢٨٣ تفسير ... ... وقد رمزنا لها بحرف « ج ».

هذا، وإنا نسأل الله تعالى التوفيق والسداد. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد، وعلى آله وصحابته وسلم .

مصححه

أحمد عبد العليم البردونى

وكيل القسم الأدبى

فى ٢٢ من جمادى الأولى سنة ١٣٧٣

٢٧ من يناير سنة ١٩٥٤

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ ﴾ هذا استفهام فيه معنى الإنكار، كأنه أيأسهم من إيمان هذه الفرقة من اليهود؛ أي إن كفروا فلهم سابقة في ذلك . والخطاب لأصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم . وذلك أن الأنصار كان لهم حرص على إسلام اليهود للحلف والجوار الذي كان بينهم . وقيل : الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم خاصة؛ عن ابن عباس . أي لا تحزن على تكذيبهم إياك، وأخبره أنهم من أهل السوء الذين مضوا . و « أنْ » في موضع نصب، أي في أن يؤمنوا؛ نصب بأن، ولذلك حذفت منه النون .

يقال : طَمِع فيه طَمَعًا وطَمَاعِيَة — مخفف — فهو طَمِعٌ؛ على وزن فَعِل . وأطمعه فيه غيره . ويقال في التعجب : طَمُع الرجل — بضم الميم — أي صار كثير الطمع . والطمع : رزق الجُنْد؛ يقال : أمر لهم الأمير بأطماعهم؛ أي بأرزاقهم . وامرأة مِطْماع : تُطمِع ولا تُمَكِّن .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ ﴾ الفريق اسم جمع لا واحد له من لفظه، وجمعه في أدنى العدد أفرقة، وفي الكثير أفرقاء . ﴿ يَسْمَعُونَ ﴾ في موضع نصب خبر « كان » . ويجوز أن يكون الخبر « مِنْهم »، ويكون « يَسمعون » نعتًا لفريق؛ وفيه بُعْدٌ . ﴿ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ قراءة الجماعة . وقرأ الأعمش « كَلِمَ اللهِ » على جمع كلمة . قال سيبويه : واعلم أن ناسا من ربيعة يقولون « مِنْهِم » بكسر الهاء إتباعا لكسرة الميم؛ ولم يكن المسكّن حاجزا حصينا عنده . « كلامَ الله » مفعول بـ « يسمعون » . والمراد السبعون الذين اختارهم موسى عليه

Marfat.com

السلام ؛ فسمعوا كلام الله فلم يمتثلوا أمره ، وحرّفوا القول فى إخبارهم لقومهم . هذا قول الربيع وآبن إسحاق ؛ وفى هـذا القول ضعف . ومن قال : إن السبعين سمعوا ما سمع موسى فقد أخطأ ، وأذهب بفضيلة موسى وآختصاصه بالتكليم . وقد قال السُّدّى وغيره : لم يطيقوا سماعه ، واختلطت أذهانهم ورغبوا أن يكون موسى يسمع و يعيده لهم ؛ فلما فرغوا وخرجوا بدّلت طائفة منهم ما سمعت من كلام الله على لسان نبيهم موسى عليه السلام ؛ كما قال تعالى : « وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ آسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ »[١] .

فإن قيل : فقد روى الكلبيّ عن أبى صالح عن آبن عباس أن قوم موسى سألوا موسى أن يسأل ربه أن يسمعهم كلامه ، فسمعوا صوتًا كصوت الشَّبُّور[٢] : «إنى أنا الله لا إله إلا أنا الحىّ القيوم أخرجتكم من مصر بيد رفيعة وذراع شديدة » .

قلت : هذا حديث باطل لا يصح ، رواه آبن مَرْوان عن الكلبيّ وكلاهما ضعيف لا يحتج به ؛ وإنما الكلام شىء خُصّ به موسى من بين جميع ولد آدم ؛ فإن كان كلّم قومه أيضا حتى أسمعهم كلامه فما فَضْلُ موسى عليهم ؛ وقد قال وقوله الحق : « إِنِّى آصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِى وبِكَلَامِى »[٣] . وهذا واضح .

الثالثــة ــ وآختلف النـاس بمـاذا عرف موسى كلام الله ولم يكن سمع قبـل ذلك خطابه ؛ فمنهم من قال : إنه سمع كلاما ليس بحروف وأصوات ، وليس فيه تقطيع ولا نفس ؛ فحينئذ علم أن ذلك ليس هو كلام البشر و إنما هو كلام رب العالمين . وقال آخرون : إنه لما سمع كلامًا لا من جهة ، وكلامُ البشر يُسمع من جهة من الجهات الستّ ، علم أنه ليس من كلام البشر . وقيل : إنه صار جسده كله مسامع حتى سمع بها ذلك الكلام ؛ فعلم أنه كلام الله . وقيل فيه : إن المعجزة دلّت على أن ما سمعه هو كلام الله ؛ وذلك أنه قيل له : ألق عصاك ، فألقاها فصارت ثعبانا ؛ فكان ذلك علامة له على صدق الحال ، وأن الذى يقول له : « إِنِّى أَنَا رَبُّكَ »[٤] هو الله جلّ وعز . وقيل : إنه قد كان أضمر فى نفسه شيئا لا يقف عليه

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٧٥ .
(٢) الشبور (على وزن التنور) : البوق .
(٣) راجع جـ ٧ ص ٢٨٠ .
(٤) راجع جـ ١١ ص ١٧٢

Marfat.com

إلا علام الغيوب، فأخبره الله تعالى في خطابه بذلك الضمير، فعلم أن الذى يخاطبه هو الله جل وعز . وسيأتي في سورة «القصص» بيان معنى قوله تعالى: «نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ»(١) إن شاء الله تعالى .

الرابعــة — قوله تعالى : ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ قال مجاهد والسُّدّى : هم علماء اليهود الذين يحرّفون التوراة فيجعلون الحرام حلالا والحلال حراما اتباعا لأهوائهم . ﴿مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ أى عرفوه وعلموه . وهذا توبيخ لهم ؛ أى إن هؤلاء اليهود قد سلفت لآبائهم أفاعيل سوء وعناد، فهؤلاء على ذلك السَّنن، فكيف تطمعون في إيمانهم ! .

ودلّ هـذا الكلام أيضا على أن العالم بالحق المعاند فيه بعيد من الرشد؛ لأنه علم الوعد والوعيد ولم ينهه ذلك عن عناده .

قوله تعالى : وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ هذا في المنافقين . وأصل «لقوا» لقيُوا وقـد تقدّم(٢) . ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ الآية في اليهود، وذلك أن ناسًا منهم أسلموا ثم نافقوا ؛ فكانوا يحدّثون المؤمنين من العرب بمـا عُذِّب به آباؤهم ؛ فقالت لهم اليهود : ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أى حكم الله عليكم من العذاب ، ليقولوا نحن أكرم على الله منكم ؛ عن ابن عباس والسُّدّى . وقيل : إن عليًّا لمـا نازل قُرَيظة يوم خَيْبر سَمِع سبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فانصرف إليه وقال : يا رسول الله، لا تبلغ إليهم، وعرّض له ؛ فقال : "أظنك سمعت شتمى منهم لو رأونى لكفّوا عن ذلك" ونهض إليهم، فلما رأوه أمسكوا، فقال لهم : "أنقضتم العهـد يا إخوة القردة والخنازير أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته" فقالوا :

(١) راجع جـ ١٣ ص ٢٨١　　(٢) يراجع جـ ١ ص ٢٠٦ طبعة ثانية .

Marfat.com

ما كنت جاهلا يا محمد فلا تجهل علينا، من حدّثك بهذا؟ ما خرج هذا الخبر إلا من عندنا! روى هذا المعنى عن مجاهد .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا خَلَا ﴾ الأصل فى «خلا» خَلَوَ، قُلبت الواو ألفًا لتحركها وانفتاح ما قبلها؛ وتقدّم معنى «خلا» فى أوّل السورة (١) . ومعنى « فَتَح » حَكَمَ . والفتح عند العرب : القضاء والحُكم؛ ومنه قوله تعالى : «رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٢)» أى الحاكمين. والفتّاح : القاضى بلغة اليمن؛ يقال : بينى و بينك الفتّاح؛ قيل ذلك لأنه ينصر المظلوم على الظالم . والفتح : النصر؛ ومنه قوله : « يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا (٣) » ، وقوله : « إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ ٱلْفَتْحُ (٤) » . و يكون بمعنى الفرق بين الشيئين .

قوله تعالى : ﴿ لِيُحَاجُّوكُمْ ﴾ نصب بلام كَىْ، وإن شئت بإضمار أنْ، وعلامة النصب حذف النون . قال يونس : وناس من العرب يفتحون لام كى . قال الأخفش : لأن الفتح الأصل. قال خلف الأحمر: هى لغة بنى العنبر. ومعنى «لِيُحَاجُّوكُمْ» ليعيِّروكم، ويقولوا نحن أكرم على الله منكم . وقيل : المعنى ليحتجوا عليكم بقولكم ؛ يقولون كفرتم به بعد أن وقفتم على صدقه . وقيل : إن الرجل من اليهود كان يلقى صديقه من المسلمين فيقول له : تمسّك بدين محمد فإنه نبىّ حقًّا . ﴿ عِنْدَ رَبِّكُمْ ﴾ قيل فى الآخرة؛ كما قال : « ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٥) » . وقيل: عند ذكر ربكم . وقيل : «عند» بمعنى «فى» أى ليحاجّوكم به فى ربكم؛ فيكونوا أحق به منكم لظهور الحجة عليكم؛ روى عن الحسن. والحجة: الكلام المستقيم على الإطلاق؛ ومن ذلك مَحَجّةُ الطريق . وحاججتُ فلانا فحججته، أى غلبته بالحجة؛ ومنه الحديث : "فحجّ آدمُ موسى" . ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ قيل : هو من قول الأحبار للأتباع . وقيل : هو خطاب من الله تعالى للمؤمنين؛ أى أفلا تعقلون أن بنى إسرائيل لايؤمنون وهم بهذه الأحوال؛ ثم وبّخهم توبيخًا يُتلى فقال : ﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ ﴾ الآية . فهو آستفهام معناه التوبيخ والتقريع . وقرأ الجمهور «يعلمون» بالياء، وآبن مُحَيْصن بالتاء؛ خطاباً للمؤمنين . والذى أسرّوه كفرهم، والذى أعلنوه الجحْدُ به .

(١) يراجع جـ ١ ص ٢٠٦ طبعة ثانية . (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٥١ (٣) راجع ص ٢٦ من هذا الجزء . (٤) راجع جـ ٧ ص ٣٨٦ (٥) راجع جـ ١٥ ص ٢٥٤

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾ أى من اليهود . وقيل : من اليهود والمنافقين أمّيون؛ أى من لا يكتب ولا يقرأ، واحدهم أُمّى، منسوب إلى الأُمّة الأُمّية التى هى على أصل ولادة أمهاتها لم تتعلم الكتابة ولا قراءتها ؛ ومنه قوله عليه السلام : " إنّا أُمّة أُمّية لا نكتب ولا نحسب " الحديث . وقد قيـل لهم إنهم أُمّيون لأنهم لم يصدّقوا بأمّ الكتاب ؛ عن ابن عباس . وقال أبو عبيدة : إنمـا قيل لهم أمّيون لنزول الكتاب عليهم ، كأنهم نُسبوا إلى أمّ الكتاب ؛ فكأنه قال : ومنهم أهـل الكتاب لا يعلمون الكتاب . عكرمة والضحاك : هم نصارى العرب . وقيل : هم قوم من أهل الكتاب، رُفع كتابهم لذنوب ارتكبوها فصاروا أمّيين . على رضى الله عنه : هم المجوس .

قلت : والقول الأوّل أظهر ، والله أعلم .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ « إلّا » هاهنا بمعنى لكن ، فهو آستثناء منقطع ؛ كقوله تعالى : « وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ الظَّنِّ »[(١)] . وقال النابغة :

حلفتُ يمينـا غـيرَ ذى مَثْنَوِيّةٍ[(٢)] * ولا عِلْمَ إلّا حُسْنَ ظنٍّ بصاحبِ

وقرأ أبو جعفر وشيبة والأعرج « إلّا أمانِيَ » خفيفة الياء، حذفوا إحدى الياءين آستخفافا . قال أبو حاتم : كل ما جاء من هذا النحو واحده مشدّد ، فلك فيه التشديد والتخفيف؛ مثل أثافى وأغانى وأمانى، ونحوه . وقال الأخفش : هـذا كما يقـال فى جمـع مفتاح : مفاتيح ومفاتح، وهى ياء الجمع . قال النحاس : الحذف فى المعتل أكثر؛ كما قال الشاعر[(٣)] :

وهل يَرجع التسليمَ أو يكشفُ العَمَى * ثلاثُ الأثافِى[(٤)] والرسـومُ البـلاقع

---

(١) راجع جـ ٦ ص ٩ (٢) المثنوية : الاستثناء فى اليمين (٣) هو ذو الرمة ؛ كما فى ديوانه .

(٤) الأثافى (جمع أثفية ، بضم الهمزة وكسرها وسكون الثاء وتشديد الياء) : الحجر الذى توضع عليه القدر . والرسوم : بقايا الأبنية . والبلاقع (جمع بلقع) : الخراب .

Marfat.com

والأمانى جمع أُمْنِيَّة وهى التلاوة؛ وأصلها أُمْنُويَة على وزن أُفْعولة، فأدغمت الواو فى الياء فانكسرت النون من أجل الياء فصارت أُمنية؛ ومنه قوله تعالى: «إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ»[1] أى إذا تلا ألقى الشيطان فى تلاوته. وقال كعب بن مالك:

تَمَنَّى كتابَ الله أوّلَ ليلِه * وآخرَه لاقى حِمامَ المقادر

وقال آخر:

تَمَنَّى كتابَ الله آخرَ لَيْلِه * تَمَنِّيَ داودَ الزَّبُورَ على رِسْلِ

والأمانى أيضا الأكاذيب؛ ومنه قول عثمان رضى الله عنه: ما تمنّيت منذ أسلمت؛ أى ما كذبت. وقول بعض العرب لابن دَأْب وهو يحدّث: أهذا شىء رَوَيْتَه أم شىء تَمَنَّيْتَه؟ أى افتعلته. وبهذا المعنى فسّر ابن عباس ومجاهد «أمانىّ» فى الآية. والأمانىّ أيضا ما يتمنّاه الإنسان ويشتهيه. قال قتادة: «إلا أمانىّ» يعنى أنهم يتمنّون على الله ما ليس لهم. وقيل: الأمانى التقدير؛ يقال: مَنَى له أى قدّر؛ قاله الجوهرى، وحكاه ابن بحر، وأنشد قول الشاعر:

لا تأمَنَنَّ وإن أمسيتَ فى حَرَمٍ * حتى تُلاقِي ما يَمْنِي لك المانِي[2]

أى يقدّر لك المقدّر.

الثالثة — قوله تعالى: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ «إنْ» بمعنى ما النافية؛ كما قال تعالى: «إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ». و«يظنّون» يكذبون ويحدّثون؛ لأنهم لا علم لهم بصحة ما يتلون، وإنما هم مقلّدون لأحبارهم فيما يقرءون به.

قال أبو بكر الأنبارى: وقد حدّثنا أحمد بن يحيى النحوى أن العرب تجعل الظنّ علمًا وشكًّا وكذبًا، وقال: إذا قامت براهين العلم فكانت أكثر من براهين الشك فالظنّ يقين، وإذا اعتدلت براهين اليقين وبراهين الشك فالظنّ شك، وإذا زادت براهين الشك على براهين اليقين فالظنّ كذب؛ قال الله عز وجل: «وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ» أراد إلا يكذبون.

الرابعة — قال علماؤنا رحمة الله عليهم: نعتَ الله تعالى أحبارهم بأنهم يبدّلون ويحرّفون فقال وقوله الحق: «فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ» الآية. وذلك أنه لما درس

(١) راجع جـ ١٢ ص ٧٩. (٢) نسب شارح القاموس هذا البيت لسويد بن عامر المصطلق.

Marfat.com

الأمر فيهم ، وساءت رعيّة علمائهم ، وأقبلوا على الدنيا حرصًا وطمعًا ، طلبوا أشياء تصرف وجوه الناس إليهم ، فأحدثوا فى شريعتهم و بدّلوها ، وألحقوا ذلك بالتوراة ، وقالوا لسفهائهم : هذا من عند الله ؛ ليقبلوها عنهم فتتأكّد رياستهم و ينالوا به حطام الدنيا وأوساخها . وكان مما أحدثوا فيه أن قالوا : ليس علينا فى الأمّيين سبيل ؛ وهم العرب ، أى ما أخذنا من أموالهم فهو حِلّ لنا . وكان مما أحدثوا فيه أن قالوا : لا يضرّنا ذنب ، فنحن أحبّاؤه وأبناؤه ؛ تعالى الله عن ذلك ! و إنما كان فى التوراة « يا أحبارى و يا أبناء رسلى » فغيّروه وكتبوا « يا أحبّائى و يا أبنائى » فأنزل الله تكذيبهم : « وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ ٱللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ[(١)] » . فقالت : لن يعذّبنا الله ، و إن عذّبنا فأر بعين يوما مقدار أيام العجل ؛ فأنزل الله تعالى : « وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ ٱللَّهِ عَهْدًا[(٢)] » . قال ٱبن مِقْسم : يعنى توحيدًا ، بدليل قوله تعالى : « إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِنْدَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا[(٣)] » يعنى لا إله إلا الله « فَلَنْ يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » . ثم أكذبهم فقال : « بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[(٤)] » . فبيّن تعالى أن الخلود فى النار والجنة إنما هو بحسب الكفر والإيمان ، لا بما قالوه .

قوله تعالى : فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩)

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله : ﴿ فَوَيْلٌ ﴾ ٱختُلِف فى الوَيْل[(٥)] ما هو ؛ فروى عثمان بن عفّان عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه جبل من نار . وروى أبو سعيد الخُدْرىّ أن الويل وادٍ فى جهنم بين

(١) راجع ج ٦ ص ١٢٠ (٢) راجع ص ١٠ من هذا الجزء . (٣) راجع ج ١١ ص ١٥٣

(٤) راجع ص ١١ من هذا الجزء . (٥) قال أبو حيان فى البحر المحيط بعد أن ذكر الأقوال التى وردت فى معنى الويل : « لو صح فى تفسير الويل شىء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لوجب المصير إليه ، وقد تكلمت العرب فى نظمها ونثرها بلفظ الويل قبل أن يجىء القرآن ولم تطلقه على شىء من هذه التفاسير ، و إنما مدلوله ما فسره به أهل اللغة » .

Marfat.com

جابن يهوى فيه الهاوى أربعين خريفًا . وروى سفيان وعطاء بن يَسار : أن الويل فى هذه الآية وادٍ يجرى بِفناء جهنم من صديد أهل النار . وقيل: صهريج فى جهنم . وحكى الزهراوى عن آخرين : أنه باب من أبواب جهنم . وعن ابن عباس : الويل المشقة من العذاب . وقال الخليل : الويل شدة الشر[1] . الأصمعى : الويلُ تفجعٌ، والويحُ ترحمٌ . سيبويه : وَيْلٌ لمن وقع فى الهَلَكة، وويحٌ زجرٌ لمن أشرف على الهَلَكة . ابن عرفة : الويل الحزن؛ يقال : تويّل الرجل اذا دعا بالويل؛ وإنما يقال ذلك عند الحزن والمكروه؛ ومنه قوله : « فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ » . وقيل : أصله الهَلَكة، وكل من وقع فى هَلَكة دعا بالويل؛ ومنه قوله تعالى : « يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَابِ »[2] . وهى الوَيْل والوَيْلة، وهما الهَلَكة، والجمع الويلات؛ قال :

* له الوَيْل إن أمسَى ولا أمّ هاشم *

وقال أيضا :

* فقالت لك الوَيْلات إنك مُرْجِلِي *

وارتفع « وَيْلٌ » بالابتداء، وجاز الابتداء به وإن كان نكرة لأن فيه معنى الدعاء . قال الأخفش : ويجوز النصب على إضمار فعل ؛ أى ألزمهم الله وَيْلًا . وقال الفرّاء : الأصل فى الويل « وَىْ » أى حُزْن ؛ كما تقول : وَىْ لفلان ؛ أى حُزْن له، فوصلته العرب باللام وقدّروها منه فأعربوها . والأحسن فيه إذا فُصل عن الإضافة الرفع؛ لأنه يقتضى الوقوع . ويصحّ النصب على معنى الدعاء، كما ذكرنا .

قال الخليل : ولم يُسمع على بنائه إلا وَيْح ووَيْس ووَيْه ووَيْك ووَيْل ووَيْب؛ وكله يتقارب فى المعنى . وقد فرّق بينها قوم ؛ وهى مصادر لم تنطق العرب منها بفعل . قال الجَرْمىّ : ومما ينتصب انتصاب المصادر وَيْلَه وعَوْلَه ووَيْحَه ووَيْسَه ؛ فإذا أدخلت اللام رفعت فقلت : وَيْلٌ له ، ووَيْحٌ له .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ﴾ الكتابة معروفة . وأوّل من كتب بالقلم وخطّ به إدريس عليه السلام ؛ وجاء ذلك فى حديث أبى ذرّ، خرّجه الآجُرّى وغيره . وقد قيل : إن آدم عليه السلام أُعطى الخط فصار وراثة فى ولده .

(١) كذا فى نسخ الأصل ، وكتاب البحر لأبى حيان . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٤١٨ .

Marfat.com

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ تأكيد ، فإنه قـد عُلم أن الكَتْب لا يكون إلا باليـد ؛ فهو مثل قوله : « وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْـهِ » ، وقوله : « يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم » . وقيل : فائدة « بأيديهم » بيان لجُرْمهم و إثبات لمجاهرتهم ، فإن مَن تولّى الفعل أشدّ مواقعة ممن لم يتولّه و إن كان رأيا له . وقال ابن السّراج : « بأيديهم » كناية عن أنهم من تلقائهم دون أن ينزل عليهم ، و إن لم تكن حقيقة فى كَتْبِ أيديهم .

الرابعــة — فى هذه الآية والتى قبلها التحذير من التبديل والتغيير والزيادة فى الشرع ؛ فكل من بدّل وغيّر أو ابتدع فى دين الله ما ليس منـه ولا يجوز فيه فهو داخل تحت هـذا الوعيد الشديد، والعذاب الأليم؛ وقد حذّر رسـول الله صلى الله عليه وسلم أمته لـما قد علم ما يكون فى آخر الزمان فقال : " ألَا إنّ مَن قبلكم مِن أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين ملّة و إن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النـار إلا واحدة " الحديث ، وسيأتى . فحذّرهم أن يُحدِثوا من تلقاء أنفسهم فى الدِّين خلاف كتاب الله أو سنته أو سـنة أصحابه فيُضِلّوا به الناس ؛ وقـد وقع ماحذّره وشاع ، وكـثر وذاع ؛ فإنا لله وإنّا إليـه راجعـون .

الخامســة — قوله تعالى : ﴿ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ وصف الله تعالى ما يأخذونه بالقلة ؛ إمّا لفنائه وعدم ثباته ، و إمّا لكونه حراما ؛ لأن الحرام لا بركة فيـه ولا يربو عند الله . قال ابن إسحاق والكلبى : كانت صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كتابهم رَبْعة أسمر ، فجعلوه آدم سَبْطًا طويلا ، وقالوا لأصحابهم وأتباعهم : انظروا إلى صفة النبىّ — صلى الله عليه وسلم — الذى يُبعث فى آخر الزمان ليس يشبهه نعت هذا . وكانت للأحبار والعلماء رياسة ومكاسب ؛ فخافوا إن بيّنُوا أن تذهب مآكلهم ورياستهم ؛ فمن ثَمّ غيّروا .

ثم قال تعـالى : ﴿ فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّـا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّـا يَكْسِبُونَ ﴾ قيـل من المآكل . وقيل من المعاصى . وكرّر الويل تغليظًا لفعلهم .

Marfat.com

قوله تعالى : وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا﴾ يعني اليهود . ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ اختلف في سبب نزولها؛ فقيل : إن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لليهود : "من أهل النار". قالوا : نحن ، ثم تخلفونا أنتم . فقال : "كذبتم لقد علمتم أنا لا نخلفكم" فنزلت هذه الآية ؛ قاله ابن زيد . وقال عكرمة عن ابن عباس: قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة واليهود تقول: إنما هذه الدنيا سبعة آلاف، و إنما يعذّب الناس في النار لكل ألف سنة من أيام الدنيا يوم واحد في النار من أيام الآخرة، و إنما هي سبعة أيام؛ فأنزل الله الآية؛ وهذا قول مجاهد . وقالت طائفة : قالت اليهود إن في التوراة أن جهنم مسيرة أربعين سنة، وأنهم يقطعون في كل يوم سنة حتى يكملوها وتذهب جهنم . ورواه الضحاك عن ابن عباس . وعن ابن عباس : زعم اليهود أنهم وجدوا في التوراة مكتوبًا أن ما بين طرفي جهنم مسيرة أربعين سنة إلى أن ينتهوا إلى شجرة الزقوم . وقالوا : إنما نعذّب حتى ننتهي إلى شجرة الزقوم فتذهب جهنم وتهلك . وعن ابن عباس أيضا وقتادة : أن اليهود قالت إن الله أقسم أن يدخلهم النار أربعين يوما عدد عبادتهم العجل؛ فأكذبهم الله، كما تقدم .

الثانيـة — في هذه الآية ردّ على أبي حنيفة وأصحابه حيث استدلوا بقوله عليه السلام : "دعي الصلاة أيامَ أقرائك" في أن مدة الحيض ما يُسمّى أيام الحيض، وأقلها ثلاثة وأكثرها عشرة ؛ قالوا : لأن ما دون الثلاثة يسمّى يوما و يومين، وما زاد على العشرة يقال فيه أحد عشر يوما ولا يقال فيه أيام؛ و إنما يقال أيام من الثلاثة إلى العشرة؛ قال الله تعالى : « فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ »(١)، « تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ »(٢)، « سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا »(٣) .

(١) راجع ص ٣٩٩ من هذا الجزء. (٢) راجع جـ ٩ ص ٦٠ (٣) راجع جـ ١٨ ص ٢٥٩

Marfat.com

فيقال لهم : فقد قال الله تعالى فى الصوم : « أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ » يعنى جميع الشهر ؛ وقال : « لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ (١) » يعنى أربعين يوما . وأيضا فإذا أضيفت الأيام إلى عارض لم يُرَد به تحديد العدد ؛ بل يقال : أيامُ مَشْيِك وسَفرِك و إقامتك ، و إن كان ثلاثين وعشرين وما شئت من العدد؛ ولعله أراد ما كان معتادا لها ، والعادة ستّ أو سبع ؛ فخرّج الكلام عليه ، والله أعلم .

الثالثـــة ـــ قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ ﴾ تقدّم القول فى « اتّخذ (٢) » فلا معنى لإعادته . ﴿ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا ﴾ أى أسلفتم عملًا صالحا فآمنتم وأطعتم فتستوجبون بذلك الخروج من النار! أو هل عرفتم ذلك بوَحْيِه الذى عهده إليكم ﴿ فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ توبيخ وتقريع .

قوله تعالى : بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُولَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُولَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ـــ قوله تعالى : ﴿ بَلَىٰ ﴾ أى ليس الأمر كما ذكرتم . قال سيبويه : ليس « بلى » و « نعم » اسمين . وإنمـا هما حرفان مثل « بل » وغيره ؛ وهى ردٌّ لقولهم : لن تمسّنا النار . وقال الكوفيون : أصلها بل التى للإضراب عن الأوّل ، زيدت عليها اليـاء ليحسن الوقف ، وضُمّنت الياء معنى الإيجاب والإنعام . فـ « بَلْ » تدلّ على رَدّ الجَحْد ، والياء تدلّ على الإيجاب لمـا بعدُ . قالوا : ولو قال قائل : ألم تأخذ دينارا ؟ فقلت : نعم ؛ لكان المعنى لا ، لم آخذ ؛ لأنك حقّقت النفى وما بعده . فإذا قلت : بلى ؛ صـار المعنى قد أخذت . قال الفراء : إذا قال الرجل لصاحبه : مالك علىّ شىء ؛ فقال الآخر : نعم ؛ كان ذلك تصديقا ؛ لأن لا شىء

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٥١   (٢) راجع جـ ١ ص ٣٩٦ طبعة ثانية .

Marfat.com

له عليه؛ ولو قال : بلى، كان ردًا لقوله؛ وتقديره : بلى لى عليك . وفى التنزيل «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى»(١) ولو قالوا نعم لكفروا .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ سَيِّئَةً ﴾ السيئة الشرك . قال ابن جُرَيج قلت لعطاء : «مَن كَسب سـيئة» ؟ قال : الشرك؛ وتلا « وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ»(٢) . وكذا قال الحسن وقتادة ، قالا : والخطيئة الكبيرة .

الثالثـــة — لمـا قال تعـالى : ﴿ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ ﴾ دلّ على أن المعلّق على شرطين لا يتم بأقلهما؛ ومثـله قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا »(٣) ، وقوله عليـه السلام لسُفيان بن عبد الله الثّقفى وقد قال له : يا رسول الله ، قل لى فى الإسلام قولًا لا أسأل عنـه أحدًا بعدك . قال : " قل آمنت بالله ثم ٱستقم ". رواه مسلم . وقد مضى القول فى هذا المعنى وما للعلماء فيه عند قوله تعـالى لآدم وحواء : «وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ»(٤) . وقرأ نافع «خطيئاته» بالجمع، الباقون بالإفراد؛ والمعنى الكثرة ، مثل قوله تعالى : « وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا »(٥) .

قوله تعـالى : وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَاءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾

فيه عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ تقدم الكلام فى بيان هذه الألفاظ(٦) . وٱختلف فى الميثاق هنـا ؛ فقال مكّى : هو الميثاق الذى أُخذ عليهم حين أخرجوا من صلب آدم كالذرّ . وقيل : هو ميثاق أخذ عليهم وهم عقلاء فى حياتهم على ألسنة أنبيائهم

(١) راجع جـ ٧ ص ٣١٦ (٢) راجع جـ ١٣ ص ٢٤٥ (٣) راجع جـ ١٥ ص ٣٥٧
(٤) راجع جـ ١ ص ٣٠٤ (٥) راجع جـ ٩ ص ٣٦٧ (٦) راجع جـ ١ ص ٢٤٦ ، ٣٣٠ .

Marfat.com

وهو قوله : « لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ » وعبادةُ الله إثبات توحيده، وتصديقُ رُسُلِه، والعملُ بما أنزل فى كتبه .

الثانيــة — قوله تعالى: ﴿لَا تَعْبُدُونَ﴾ قال سيبويه : «لا تعبدون» متعلق بقَسَم؛ والمعنى وإذ استحلفناهم والله لا تعبدون؛ وأجازه المبرّد والكسائى والفرّاء . وقرأ أُبَىّ وابن مسعود « لا تعبدوا » على النَّهْى؛ ولهذا وصل الكلام بالأمر فقال : « وقوموا، وقولوا، وأقيموا، وآتوا » . وقيل : هو فى موضع الحال؛ أى أخذنا ميثاقهم موحّدين، أو غير معاندين؛ قاله قُطْرب والمبرّد أيضا . وهذا إنما يتّجه على قراءة ابن كثير وحمزة والكسائى « يعبدون » بالياء من أسفل . وقال الفرّاء والزجاج وجماعة : المعنى أخذنا ميثاقهم بألا يعبدوا إلا الله، وبأن يحسنوا للوالدين، وبألا يسفكوا الدماء؛ ثم حذفت أنْ والباء فارتفع الفعل لزوالهما؛ كقوله تعالى : « أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّى » [(١)] . قال المبرّد : هذا خطأ؛ لأن كل ما أضمر فى العربية فهو يعمل عمله مظهرا؛ تقول : وبلدٍ قطعت؛ أى رُبّ بلد .

قلت : ليس هذا بخطإ، بل هما وجهان صحيحان، وعليهما أنشد سيبويه :

أَلَا أَيُّهَا ذا الزّاجِرِى أَحْضُرَ الوَغَى * وأنْ أشهدَ اللّذاتِ هل أنت مُخْلِدِى [(٢)]

بالنصب والرفع؛ فالنصب على إضمار أن، والرفع على حذفها .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أى وأمرناهم بالوالدين إحسانا . وقَرَن الله عز وجل فى هذه الآية حق الوالدين بالتوحيد، لأن النَّشأة الأولى من عند الله، والنَّشْء الثانى — وهو التربية — من جهة الوالدين؛ ولهذا قَرَن تعالى الشكر لهما بشكره فقال : « أَنِ اشْكُرْ لِى وَلِوَالِدَيْكَ » [(٣)] . والإحسان إلى الوالدين : معاشرتهما بالمعروف، والتواضعُ لهما، وامتثال أمرهما، والدعاءُ بالمغفرة بعد مماتهما، وصلةُ أهل ودّهما؛ على ما يأتى بيانه مفصّلا فى « الإسراء » [(٤)] إن شاء الله تعالى .

---

(١) راجع جـ ١٥ ص ٢٧٦ (٢) البيت لطرفة بن العبد فى معلقته .
(٣) راجع جـ ١٤ ص ٦٥ (٤) راجع جـ ١٠ ص ٢٣٨

Marfat.com

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ عطف ذى القربى على الوالدين . والقُرْبَى : بمعنى القرابة ، وهو مصدر كالرُّجْعَى والعُقْبَى ؛ أى وأمرناهم بالإحسان إلى القرابات بصلة أرحامهم . وسيأتى بيان هذا مفصَّلًا فى سورة « القتال »(١) إن شاء الله تعالى .

الخامســـة — قوله تعـالى : ﴿ وَٱلْيَتَامَىٰ ﴾ اليتامى عطف أيضا، وهو جمع يتيم؛ مثل نَدامَى جمع نَديم . واليُتْم فى بنى آدم بفقـد الأب، وفى البهائم بفقد الأم . وحكى المـاوردىّ أن اليتيم يقال فى بنى آدم فى فقد الأم؛ والأوّل المعروف . وأصله الانفراد؛ يقال : صبىٌّ يتيم، أى منفرد من أبيه . وبيت يتيم : أى ليس قبله ولا بعده شىء من الشِّعْر . ودُرّة يتيمة : ليس لها نظير . وقيل : أصله الإبطاء؛ فسُمِّىَ به اليتيم؛ لأن البِرّ يبطئ عنه . ويقال : يَتُمَ يَيْتُمُ يُتْمًا؛ مثل عَظُم يَعْظُم . ويَتِم يَيْتَم يُتْمًا ويَتَمًا؛ مثل سَمِـع يَسْمع؛ ذكر الوجهين الفرّاء . وقد أيتمه الله . ويدلّ هذا على الرأفة باليتيم والحضّ على كفالته وحفظ ماله؛ على ما يأتى بيانه فى « النساء »(٢) .
وقال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : " كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين فى الجنة " .
وأشار مالكٌ(٣) بالسبّابة والوسطى؛ رواه أبو هريرة أخرجه مسلم . وخرّج الإمام الحافظ أبو محمد عبد الغنى بن سـعيد من حديث الحسن بن دينـار أبى سعيد البصرىّ وهو الحسن بن واصل(٤) قال حدّثنا الأسـود بن عبد الرحمن عن هِصّان(٥) عن أبى موسى الأشـعرى عن النبىّ صلى الله عليه وسـلم قال : " ما قعد يتيم مع قوم على قَصْعتهم فيقرَب قَصْعتهم الشـيطان " . وخرّج أيضا من حديث حسـين بن قيس وهو أبو على الرَّحَبِىّ(٦) عن عكرمة عن ابن عبـاس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مَن ضَمّ يتيمًا من بين مسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يُغْنِيَه الله عن وجل غُفرت له ذنوبه ألبتّةَ إلّا أن يعمل عملًا لا يُغفر ومن أذهب الله كريمتيه فصبر واحتسب غُفرت له ذنوبه — قالوا : وما كريمتاه ؟ قال : — عيناه ومن كان له ثلاث بنـات أو ثلاث أخوات فأنفق عليهن وأحسن إليهن حتى يَبِنّ(٧) أو يمتن غُفرت له ذنوبه ألبتّةَ

(١) راجع جـ ١٦ ص ٢٤٥ (٢) راجع جـ ٥ ص ٨ (٣) مالك : أحد رواة سـند هذا الحديث . (٤) لأنه ربيب دينـار . (٥) فى تهذيب التهذيب : « بكسر أوّله وتشديد المهملة آخره نون » وهو ابن كاهن ويقال ابن كاهل ، كان أبوه كاهنا فى الجاهلية » . (٦) الرحبى (بفتح الراء والحاء المهملتين وباء موحدة) : منسوب إلى رحبة بن زرعة . (٧) يبن : يتزوّجن .

Marfat.com

إلا أن يعمل عملا لا يُغفر" فناداه رجل من الأعراب ممن هاجر فقال : يا رسول الله أو آثنتين ؟ فقال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم : " أو آثنتين " . فكان آبن عباس إذا حدّث بهـذا الحديث قال : هذا والله من غرائب الحديث وغُرَرِه .

السادســة — السبّابة من الأصابع هى التى تلى الإبهام ، وكانت فى الجاهليـة تدعى بالسبابة ؛ لأنهم كانوا يَسُبُّون بها ؛ فلما جاء الله بالإسلام كرهوا هذا الأسم فسمّوْها المشيرة ؛ لأنهم كانوا يشيرون بهـا إلى الله فى التوحيد . وتُسمَّى أيضا بالسبّاحة، جاء تسميتها بذلك فى حديث وائل بن حُجْر وغيره ؛ ولكن اللغة سارت بمـا كانت تعرفه فى الجاهليـة فغلبت . وروى عن أصابع رسول الله صلى الله عليـه وسلم أن المشيرة منها كانت أطول من الوسطى ، ثم الوسطى أقصر منها ، ثم البنصر أقصر من الوسطى . روى يزيد بن هارون قال : أخبرنا عبد الله بن مِقْسَم الطائفيّ قال حدّثتنى عمتى سارة بنت مِقْسَم أنهـا سمعت ميمونة بنت كَرْدَم قالت : خرجتُ فى حجّة حجّها رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلته وسأله أبى عن أشياء؛ فلقد رأيتنى أتعجّب وأنا جارية من طول أصبعه التى تلى الإبهـام على سائر أصابعه . فقوله عليه السـلام : " أنا وهو كهاتين فى الجنة " ، وقوله فى الحديث الآخر : " أحشَر أنا وأبو بكر وعمر يوم القيامة هكذا " وأشار بأصابعه الثلاث ؛ فإنمـا أراد ذكر المنازل والإشراف على الخلق فقال : نحشر هكذا ونحن مشرفون، وكذا كافل اليتيم تكون منزلته رفيعة ، فمن لم يعرف شأن أصابع رسول الله صلى الله عليه وسلم حمل تأويل الحديث على الأنضمام والآقتراب بعضهم من بعض فى محل القربة . وهـذا معنى بعيد ؛ لأن منازل الرسل والنبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين مراتب متباينة، ومنازل مختلفة .

السابعــة — قوله تعالى : ﴿ وَٱلْمَسَاكِينِ ﴾ « المساكين » عطف أيضا؛ أى وأمرناهم بالإحسان إلى المساكين ، وهم الذين أسكنتهم الحاجة وأذلتهم . وهذا يتضمّن الحضّ على الصدقة والمؤاساة وتفقّد أحوال المساكين والضعفاء . روى مسلم عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "السّاعِى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله — وأحسِبه قال —

Marfat.com

وكالقـائم لا يفـتُرُ[(١)] وكالصائم لا يُفطِر ". قال ابن المنذر : وكان طاوس يرى السعى على الأخوات أفضل من الجهاد فى سبيل الله .

الثامنــة — قوله تعالى : ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ « حُسْنًا » نصب على المصدر على المعنى؛ لأن المعنى ليَحْسُن قولُكم . وقيل : التقدير وقولوا للناس قولًا ذا حُسْن؛ فهو مصدر لا على المعنى . وقرأ حمـزة والكسائى « حَسَنًا » بفتح الحاء والسين . قال الأخفش : هما بمعنًى واحد؛ مثل البُخْل والبَخَل، والرُّشْد والرَّشَد . وحكى الأخفش : «حُسْنَى» بغير تنوين على فُعْلى . قال النحاس : « وهذا لا يجوز فى العربية، لا يقال من هذا شىء إلا بالألف واللام، نحو الفُضْلَى والكُبْرَى والحُسْنَى؛ هذا قول سيبويه . وقرأ عيسى بن عمر « حُسُنًا » بضمتين؛ مثل الحُلُم » . قال ابن عباس : المعنى قولوا لهم لا إله إلا الله ومُرُوهم بها . ابن جُرَيج : قولوا للناس صدقا فى أمر محمد صلى الله عليـه وسلم ولا تغيّروا نعته . سُفيان الثَّوْرى : مُرُوهم بالمعروف وانهوهم عن المنكر . أبو العالية : قولوا لهم الطيّب من القول، وجازوهم بأحسن ما تحبون أن تجازوا به . وهــذا كله حض على مكارم الأخلاق؛ فينبغى للإنسان أن يكون قوله للناس ليّنًا ووجهــه منبسطًا طَلْقًا مع البَرّ والفاجر، والسُّنّى والمبتدع، من غير مداهنة، ومن غير أن يتكلم معه بكلام يظن أنه يُرضى مذهبه؛ لأن الله تعالى قال لموسى وهارون : « فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا[(٢)] » . فالقائل ليس بأفضل من موسى وهارون، والفاجر ليس بأخبث من فرعون، وقد أمرهما الله تعالى باللين معــه . وقال طلحة بن عمر : قلت لعطاء إنك رجل يجتمع عنــدك ناس ذوو أهواء مختلفة، وأنا رجل فىّ حِدّة فأقول لهــم بعض القول الغليظ؛ فقال : لا تفعل ! يقول الله تعـالى : « وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا » . فدخل فى هذه الآية اليهود والنصارى فكيف بالحنيفىّ[(٣)] . وروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال لعائشة : " لا تكونى فحّاشة فإن الفحش لو كان رجلا لكان رجل سوء " . وقيل : أراد بالناس محمدا صلى الله عليه وسلم؛ كقوله : « أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ[(٤)] » . فكأنه قال : قولوا للنبىّ صلى الله عليـه وسلم حُسْنًا . وحكى

(١) كذا فى صحيح مسلم . والذى فى نسخ الأصل : « لا يفتر من صلاة ... الخ » . (٢) راجع جـ ١١ ص ١٩٩ . (٣) فى بعض نسخ الأصل : « فكيف فى غيرهما » . (٤) راجع جـ ٥ ص ٢٥١ .

المهـدوى عن قتادة أن قوله : « وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا » منسوخ بآية السـيف . وحكاه أبو نصر عبد الرحيم[١] عن ابن عباس . قال ابن عباس : نزلت هذه الآية فى الابتداء ثم نسختها آية السيف . قال ابن عطية : وهـذا يدلّ على أن هـذه الأمة خوطبت بمثل هـذا اللفظ فى صدر الإسلام ؛ وأما الخبر عن بنى إسرائيل وما أُمِروا به فلا نسخ فيه ، والله أعلم .

التاسـعة — قوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾[٢] تقدّم القول فيه . والخطاب لبنى إسرائيل . قال ابن عطية : وزكاتهم هى التى كانوا يضعونها فتنزل النار على ما يُتَقَبَّل ؛ ولا تنزل على ما لم يُتقبَّل ، ولم تكن كزكاة أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

قلت : وهذا يحتاج إلى نقل ، كما ثبت ذلك فى الغنائم . وقد روى عن ابن عباس أنه قال : الزكاة التى أُمِروا بها طاعةُ الله والإخلاصُ .

العـاشرة — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ الخطاب لمعاصرى محمد صلى الله عليه وسلم ؛ وأسند إليهم تولّى أسلافهم إذ هم كلهم بتلك السبيل فى إعراضهم عن الحق مثلهم ؛ كما قال « شِنْشِنة أعرفها من أَخْزَم »[٣] . ﴿ إِلَّا قَلِيـلًا ﴾ كعبد الله بن سَلَام وأصحابه . و « قليـلًا » نصب على الاستثناء ؛ والمستثنى عند سـيبويه منصوب ؛ لأنه مشبه بالمفعول . وقال محمد ابن يزيد : هو مفعول على الحقيقـة ؛ المعنى استثنيت قليـلا . ﴿ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ ابتداء وخبر . والإعراض والتولّى بمعنًى واحد ، مخالَف بينهما فى اللفظ . وقيل : التولّى بالجسم ، والإعراض بالقلب . قال المهـدوى : « وأنتم مُعْرِضُون » حال ؛ لأن التولّى فيـه دلالة على الإعراض .

---

(١) فى بعض نسخ الأصل : « عبد الرحمن » . (٢) يراجع جـ ١ ص ١٦٤ ، ٣٤٣ طبعة ثانية .

(٣) الشنشنة (بالكسر) : الطبيعة والخليقة والسجية . قال الأصمعى : وهذا بيت رجز تمثل به لأبى أخزم الطائى ؛ وهـــو : إنّ بنىّ زَمّلونى بالدم * شنشنة أعرفها من أخزم

* من يلق آساد الرجال يكلم *

قال ابن برى : كان أخزم عاقا لأبيه فمـات وترك بنين وعقوا جدهم وضربوه وأدموه ، فقال ذلك . (عن اللسان) .

قوله تعـالى : وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾

فيـه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ ﴾ تقدم القول فيه[1] . ﴿ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ ﴾ المراد بنـو إسرائيـل ؛ ودخل فيه بالمعنى مَن بعـدهم . « لَا تَسْفِكُونَ » مثـل « لا تَعبُدُونَ »[2] فى الإعراب . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف وشعيب بن أبى حمـزة بضم الفاء ، وهى لغة ؛ وأبو نهيـك « تُسَفِّكون » بضم التاء وتشـديد الفاء وفتح السـين . والسَّفْك : الصَّب . وقد تقدّم[3] . ﴿ وَلَا تُخْرِجُونَ ﴾ معطوف . ﴿ أَنْفُسَكُمْ ﴾ النفس مأخوذة من النَّفَاسة ، فنفس الإنسان أشرف مافيه . والدار : المنزل الذى فيه أبنية المقام بخلاف منزل الارتحال . وقال الخليل : كل موضع حَلّه قوم فهو دار لهم وإن لم تكن فيه أبنية . وقيل : سُمِّيت دارًا لدورها على سكانها ؛ كما سُمِّيَ الحـائط حائطا لإحاطته على ما يحـويه . و﴿ أَقْـرَرْتُمْ ﴾ من الإقرار ؛ أى بهذا الميثاق الذى أُخذ عليكم وعلى أوائلكم . ﴿ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ من الشهادة ؛ أى شهداء بقلوبكم على هذا . وقيل : الشهادة بمعنى الحضور ؛ أى تحضرون سفك دمائكم ، وإخراج أنفسكم من دياركم .

الثانيـــة — فإن قيـل : وهل يَسفِك أحد دمه ويُخرج نفسه من داره ؟ قيـل له : لمـا كانت ملّتهم واحدة وأمرهم واحد وكانوا فى الأمم كالشخص الواحد جعل قتـل بعضهم بعضا وإخراج بعضهم بعضا قتلًا لأنفسهم ونَفيًا لها . وقيل : المراد القصاص ؛ أى لا يَقتل أحد فيُقتل قصاصًا ، فكأنه سفك دمه . وكذلك لا يزنى ولا يرتدّ ، فإن ذلك يبيـح الدم . ولا يُفسِد فيُنْفَى ، فيكون قد أخرج نفسه من دياره . وهذا تأويل فيه بُعْدٌ وإن كان صحيح المعنى .

وإنمـا كان الأمر أن الله تعالى قد أخذ على بنى إسرائيـل فى التوراة ميثاقا ألّا يقتـل بعضهم بعضا ؛ ولا ينفيه ولا يسترقّه ، ولا يدعه يسرق ؛ إلى غير ذلك من الطاعات .

---

(١) راجع جـ ١ ص ٤٣٦ . (٢) راجع ص ١٣ من هذا الجزء . (٣) راجع جـ ١ ص ٢٧٥ طبعة ثانية .

Marfat.com

قلت : وهذا كله محرّم علينا ، وقد وقع ذلك كله بالفتن فينا ؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون ! وفى التنزيل : «أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ»[(١)] وسيأتى . قال آبن خُوَيْزِ منداد : وقد يجوز أن يراد به الظاهر ، لا يقتل الإنسان نفسه ، ولا يخرج من داره سفهًا ؛ كما تقتل الهند أنفسها . أو يقتل الإنسان نفسه من جَهد وبلاء يصيبه ، أو يَهيم فى الصحراء ولا يأوى البيوت جهلًا فى ديانته وسفهًا فى حِلمه ؛ فهو عموم فى جميع ذلك . وقد روى أن عثمان بن مَظْعُون بايع فى عشرة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فعزموا أن يلبسوا المسوح ، وأن يهيموا فى الصحراء ولا يأوُوا البيوت ، ولا يأكلوا اللحم ولا يغشوا النساء ؛ فبلغ ذلك النبيّ صلى الله عليه وسلم فجاء إلى دار عثمان بن مظعون فلم يجده ، فقال لآمرأته : " ما حديثٌ بلغنى عن عثمان " ؟ وكَرِهت أن تُفشى سِرّ زوجها ، وأن تكذِب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقالت : يا رسول الله ، إن كان قد بلغك شىء فهو كما بلغك ؛ فقال : "قولى لعثمان أخلاف لسُنّتى أم على غير مِلّتى إنى أصلّى وأنام وأصوم وأُفطر وأَغْشَى النساء وآوى البيوت وآكل اللحم فمن رَغِب عن سُنّتى فليس منى" فرجع عثمان وأصحابه عما كانوا عليه .

قوله تعالى : ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ « أنتم » فى موضع رفع بالابتداء ، ولا يعرب ؛ لأنه مضمر . وضُمّت التاء من « أنتم » لأنها كانت مفتوحة إذا خاطبت واحدا مذكّرا ، ومكسورة

(١) راجع جـ ٧ ص ٩ .

Marfat.com

إذا خاطبت واحدة مؤنثة ، فلما ثنّيت أو جمعت لم يبق إلا الضمة . ﴿ هَٰؤُلَاءِ ﴾ قال القُتَبِيّ : التقدير يا هؤلاء . قال النحاس : هذا خطأ على قول سيبويه ، ولا يجوز هذا أقبل . وقال الزجاج : هؤلاء بمعنى الذين . و ﴿ تَقْتُلُونَ ﴾ داخل فى الصلة ؛ أى ثم أنتم الذين تقتلون . وقيل : « هؤلاء » رفع بالابتداء ، و « أنتم » خبر مقدم ، و « تقتلون » حال من أولاء . وقيل : « هؤلاء » نصب بإضمار أعنى . وقرأ الزُّهْرِيّ « تُقَتِّلون » بضم التاء مشدّدا ، وكذلك « فَلِمَ تُقَتِّلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ » . وهذه الآية خطاب للواجهين لايحتمل ردّه إلى الأسلاف . نزلت فى بنى قَيْنُقاع وقُرَيظة والنَّضِير من اليهود؛ وكانت بنو قَيْنُقاع أعداء قُرَيظة ، وكانت الأَوْس حلفاء بنى قَيْنُقاع ، والخَزْرج حلفاء بنى قُرَيظة . والنَّضير والأوس والخزرج إخوان ، وقريظة والنضير أيضا إخوان ، ثم افترقوا فكانوا يقتتلون ، ثم يرتفع الحرب فيفدون أساراهم؛ فعيّرهم الله بذلك فقال : «وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ» .

قوله تعالى : ﴿ تَظَاهَرُونَ ﴾ معنى « تظاهرون » تتعاونون ، مشتق من الظَّهر ؛ لأن بعضهم يقوّى بعضًا فيكون له كالظهر ؛ ومنه قول الشاعر :

تظاهرتم أَسْتاه بيتٍ تجمعت[(١)] * على واحد لازلتُمُ قِرْنَ واحِدِ

والإثم : الفعل الذى يستحق عليه صاحبه الذم . والعدوان : الإفراط فى الظلم والتجاوز فيه . وقرأ أهل المدينة وأهل مكة «تَظَّاهرون» بالتشديد، يُدغمون التاء فى الظاء لقربهما منها؛ والأصل تتظاهرون . وقرأ الكوفيون «تَظَاهرون» مخففًا ، حذفوا التاء الثانية لدلالة الأولى عليها ؛ وكذا « وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ[(٢)] » . وقرأ قتادة « تَظْهرون عليهم » وكله راجع إلى معنى التعاون؛ ومنه : « وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا[(٣)] » وقوله : « وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ[(٤)] » فاعلمه .

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى ﴾ شرط ، وجوابه « تفادوهم » و « أُسارَى » نصب على الحال . قال أبو عبيد وكان أبو عمرو يقول: ما صار فى أيديهم فهم

(١) كذا فى بعض نسخ الأصل . وفى البعض الآخر : « ... أستاه قوم ... الخ » . وقد وردت رواية البيت فى تفسير الشوكانى هكذا : * تظاهرتم من كل أوب ووجهة ... الخ *

(٢) راجع جـ ١٨ ص ١٨٩ (٣) راجع جـ ١٣ ص ٦١ (٤) راجع جـ ١٨ ص ١٩١

Marfat.com

الأسارى، وما جاء مستأسِرًا فهم الأَسْرَى . ولا يعرف أهل اللغــة ما قال أبو عمرو، إنمــا هو كما تقول : سَكارى وسَكْرى . وقراءة الجماعة « أُسارى » ما عدا حمزة فإنه قرأ « أَسْرَى » على فَعْلَى، جمع أسير بمعنى مأسور، والباب — فى تكسيره إذا كان كذلك — فَعْلَى، كما تقول : قتيل وقتــلى ، وجريح وجرحى . قال أبو حاتم : ولا يجوز أَسَارى . وقال الزجاج : يقال أسارى كما يقال سَكارى، وفَعالى هو الأصل ، وفُعالى داخلة عليها . وحُكى عن محمد بن يزيد قال : يقال أسـير وأُسراء، كظريف وظُرفاء . قال ابن فارس : يقال فى جمع أسـير أسرى وأسارى، وقرئ بهما . وقيل : أَسارى (بفتح الهمزة) وليست بالعالية .

الثانيــــة — الأسير مشتق من الإسار ، وهو القِدّ الذى يُشدّ به المحمل فسمّى أسيرا ؛ لأنه يشدّ وثاقه ، والعرب تقول : قد أَسَرَ قَتَبه[(١)]، أى شدّه، ثم سُمّى كل أَخيذ أسيرا وإن لم يؤسر، وقال الأعشى :

وقَيّـدنى الشّــعرُ فى بيْتِــهِ * كما قَيّـد الآسِراتُ الحِمـارا[(٢)]

أى أنا فى بيتــه، يريد بذلك بلوغه النهاية فيه . فأمّا الأَسْر فى قوله عز وجل : « وشَـدَدْنَا أَسْرَهُمْ[(٣)] » فهو الخَلْق . وأُسرة الرجل رهطه، لأنه يتقوى بهم .

الثالثـــــة — قوله تعالى: ﴿تُفَادُوهُمْ﴾ كذا قرأ نافع وحمزة والكسائى . والباقون « تَفْدُوهم » من الفداء . والفداء : طلب الفِدية فى الأسير الذى فى أيديهم . قال الجوهرى : « الفداء إذا كُسر أوله يُمدّ ويقصر، وإذا فُتح فهو مقصور، يقال : قُمْ فَدًى لك أبى . ومن العرب من يكسر « فِداءً » بالتنوين إذا جاور لام الجر خاصة، فيقول: فِداءٍ لك، لأنه نكرة يريدون به معنى الدعاء . وأنشد الأصمعى للنابغة :

مَهْلًا فِـداءٍ لك الأقوامُ كلُّهمُ * وما أُثَمِّــرَ من مالٍ ومن وَلَدِ

ويقال : فَداه وفاداه إذا أعطى فِداءه فأنقذه . وفَداه بنفسه ، وفدّاه يُفَدّيه إذا قال جعلت فَداك . وتَفَادَوْا، أى فَــدَى بعضهم بعضا » . والفِدية والفَدَى والفِــداء كله بمعنًى واحد .

---

(١) القتب (بكسر فسكون وبالتحريك أيضا) : رحل صغير على قدر سنام البعير .

(٢) الحمار : من معانيه أنه خشبة فى مقدم الرحل تقبض عليها المرأة . وقيل : العود الذى يحمل عليه الأقتاب . والآسرات : النساء اللواتى يؤكدن الرحال بالقد ويوثقنها .

(٣) راجع جـ ١٩ ص ١٤٩

وفاديت نفسى إذا أطلقتها بعـد أن دفعت شيئا، بمعنى فديت ؛ ومنه قول العباس للنبيّ صلى الله عليه وسلم : فاديتُ نفسى وفاديتُ عَقيلًا . وهما فعلان يتعدّيان إلى مفعولين الثانى منهما بحرف الجر، تقول : فديت نفسى بمالى وفاديته بمالى، قال الشاعر :

قِفِى فادِى أسـيرَكِ إنّ قومى * وقومَكِ ما أرى لهـمُ آجتماعَا

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ﴾ «هو» مبتدأ وهو كناية عن الإخراج، و«مُحَرَّمٌ» خبره، و«إخراجُهم» بدلٌ من «هو» وإن شئت كان كناية عن الحديث والقصة، والجملة التى بعده خبره ؛ أى والأمر محرّم عليكم إخراجهم . فـ « إخراجهم » مبتدأ ثان . و « محرم » خبره، والجملة خبر عن « هو » ؛ وفى « محرّم » ضمير ما لم يسم فاعله يعـود على الإخراج . ويجوز أن يكون « محـرمٌ » مبتدأ ، و « إخراجهم » مفعول ما لم يُسَمّ فاعله يسدّ مسدّ خبر « محرم » ، والجـملة خبر عن « هو » . وزعم الفراء أن « هو » عماد، وهـذا عند البصريين خطأ لا معنى له ؛ لأن العماد لا يكون فى أول الكلام . ويُقرأ « وهْوَ » بسكون الهاء لثقل الضمة ؛ كما قال الشاعر[(1)] :

فَهْـــو لا تَنْمِى[(2)] رَمِيَّتُـه * مالَه لا عُـدّ مِن نَفَرِهْ

وكذلك إن جئت باللام وثم ؛ وقد تقدّم[(3)] . قال علماؤنا : كان الله تعالى قد أخذ عليهم أربعة عهود : ترك القتل، وترك الإخراج ، وترك المظاهرة، وفـداء أساراهم ؛ فأعرضوا عن كل ما أمروا به إلا الفداء، فوبّخهم الله على ذلك توبيخا يُتْلَى فقال: «أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ» وهو التوراة « وتكفرون ببعض » ! !

قلت : ولَعَمْرُ الله لقد أعرضنا نحن عن الجميع بالفتن فتظاهر بعضنا على بعض ! ليت بالمسلمين ، بل بالكافرين ! حتى تركنا إخواننا أذلّاء صاغرين يجرى عليهم حكم المشركين ؛ فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ! .

قال علماؤنا : فداء الأسارى واجب وإن لم يبق درهم واحد . قال آبن خُوَيْزِمَنْداد : تضمّنت الآية وجوب فكّ الأسرى، وبذلك وردت الآثار عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه

(١) هو آمرؤ القيس ؛ كما فى اللسان وشرح الديوان .
(٢) أنميت الصيد فنمى ينمى ، وذلك أن ترميه فتصيبه ويذهب عنك فيموت بعد ما يغيب .
(٣) يراجع جـ ١ ص ٢٦١ طبعة ثانية .

Marfat.com

فكّ الأسارى وأمر بفكّهم ، وجرى بذلك عمل المسلمين وانعقد به الإجماع . ويجب فك الأسارى من بيت المـال ، فإن لم يكن فهـو فرض على كافة المسلمين ؛ ومن قام به منهـم أسقط الفرض عن الباقين . وسيأتى (١) .

الخامســة — قوله تعالى : ﴿ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ ابتداء وخبر . والخِزْيُ الهوان . قال الجوهرى : وخَزِيَ — بالكسر — يَخْزَى خِزْيا إذا ذَلّ وهان . قال ابن السكّيت : وقع فى بلية . وأخزاه الله ، وخَزِى أيضا يَخْزَى خَزَاية إذا استحيا ، فهو خَزْيان . وقوم خَزَايا وامرأة خَزْيا .

السادســة — قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ ﴾ « يردون » بالياء قراءة العامة ، وقرأ الحسن « تردون » بالتاء على الخطاب . ﴿ إِلَى أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ تقدّم القول فيه (٢) ، وكذلك : ﴿ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ﴾ الآية (٣) ؛ فلا معنى للإعادة . « يومَ » منصوب بـ « يُرَدُّون » .

قوله تعـالى : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (٨٧)

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ ﴾ يعنى التـوراة . ﴿ وَقَفَّيْنَا ﴾ أى أتبعنا . والتَّقْفِية : الإتباع والإرداف ؛ مأخوذ من إتباع القَفَا وهو مؤخر العنق . تقـول استقفيته إذا جئت من خلفه ؛ ومنه سُمِّيت قافية الشعر ؛ لأنها تتلو سائر الكلام . والقافية : القفا ؛ ومنه الحديث : " يعقِد الشيطان على قافية رأس أحدكم " . والقَفِىّ والقَفاوة : ما يدّخر من اللبن وغيره لمن تريد إكرامه . وقفوت الرجل : قذفته بفجور . وفلانٌ قِفْوَتى أى تُهَمَتى . وقِفوتى أى خيرتى . قال ابن دريد كأنه من الأضداد . قال العلماء : وهذه الآية مثل قوله تعالى : « ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا (٤) » . وكل رسول جاء بعد موسى فإنما جاء بإثبات التوراة والأمر

(١) راجع جـ ٨ ص ٥٢ . (٢) راجع جـ ١ ص ٤٦٦ . (٣) راجع جـ ١ ص ٢١٠ طبعة ثانية . (٤) راجع جـ ١٢ ص ١٢٥ .

بلزومها إلى عيسى عليه السلام . ويقال : رُسُل ورُسْل لغتان، الأولى لغة الحجاز، والثانية لغة تميم ؛ وسواء كان مُضافًا أو غير مضاف . وكان أبو عمرو يخفف إذا أضاف إلى حرفين، ويُثَقّل إذا أضاف إلى حرف واحد .

قوله تعالى : ﴿ وآتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَاتِ ﴾ أى الحجج والدلالات ؛ وهى التى ذكرها الله فى «آل عمران» و «المائدة» (١) ؛ قاله ابن عباس . ﴿ وَأَيَّدْنَاهُ ﴾ أى قويناه . وقرأ مجاهد وابن مُحَيْصن «آيدناه» بالمدّ ، وهما لغتان . ﴿ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ روى أبو مالك وأبو صالح عن ابن عباس ومَعْمر عن قتادة قالا : جبريل عليه السلام . وقال حسان :

وجبريلٌ رسولُ الله فينا * وروحُ القُدْسِ ليس به خَفَاءُ

قال النحاس : وسُمِّيَ جبريل روحا وأضيف إلى القدس ؛ لأنه كان بتكوين الله عز وجل له رُوحًا من غير ولادة والد ولده ؛ وكذلك سُمِّيَ عيسى رُوحًا لهذا . وروى غالب بن عبد الله عن مجاهد قال : القدس هو الله عز وجل . وكذا قال الحسن : القدس هو الله ، وروحه جبريل . وروى أبو رَوْق عن الضحاك عن ابن عباس : « بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ » قال : هو الاسم الذى كان يحيى به عيسى الموتى؛ وقاله سعيد بن جبير وعبيد بن عمير، وهو اسم الله الأعظم . وقيل : المراد الإنجيل ؛ سمّاه روحًا كما سمى الله القرآن روحا فى قوله تعالى : « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا » (٢) . والأوّل أظهر، والله تعالى أعلم . والقدس : الطهارة . وقد تقدّم (٣) .

قوله تعالى : ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ ﴾ أى بما لا يوافقها و يلائمها ؛ وحُذفت الهاء لطول الاسم ؛ أى بما لا تهواه . ﴿ ٱسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ عن إجابته احتقارًا للرسل، واستبعادا للرسالة . وأصل الهوى الميل إلى الشىء ؛ ويجمع أهواء ، كما جاء فى التنزيل ، ولا يجمع أهوية ؛ على أنهم قد قالوا فى نَدًى أندية ؛ قال الشاعر :

فى ليلةٍ من جُمادَى ذاتِ أنديةٍ * لا يُبصِر الكلبُ فى ظَلْمائها الطُّنُبَا (٤)

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٩٣ ؛ جـ ٦ ص ٣٦٢ (٢) راجع جـ ١٦ ص ٥٤
(٣) راجع جـ ١ ص ٢٧٧ طبعة ثانية . (٤) الطنب (بضم الطاء وسكون النون وضمها) : حبل الخباء والسرادق وغيرهما .

Marfat.com

قال الجوهرى : وهــو شاذ . وسُمّىَ الهَوَى هَوًى لأنه يهـوِى بصاحبه إلى النـار ؛ ولذلك لايستعمل فى الغالب إلا فيما ليس بحق وفيما لا خير فيه ؛ وهذه الآيةَ من ذلك . وقد يستعمل فى الحق ، ومنه قول عمر رضى الله عنه فى أسارى بَدْر : فهَوِىَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر ولم يَهْوَ ما قلت . وقالت عائشة للنبىّ صلى الله عليه وسلم فى صحيح الحديث : والله ما أرى ربَّك إلّا يُسارِع فى هواك . أخرجهما مسلم .

قوله تعالى : ﴿ فَفَـرِيقًا كَذَّبْتُمْ ﴾ « ففريقًا » منصوب بـ « كذّبتم » ، وكذا ﴿ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ فكان ممن كذبوه عيسى ومحمد عليهما السلام ، وممن قتلوه يحيى وزكريا عليهما السلام ، على ما يأتى بيانه فى « سبحانَ »(١) إن شاء الله تعالى .

قوله تعـالى : وَقَالُواْ قُلُوبُنَـا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُـمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا ﴾ يعنى اليهود ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ بسكون اللام جمـع أغلف ؛ أى عليها أغطية . وهو مثل قوله : « قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ »(٢) أى فى أوْعيـة . قال مجاهـد : « غُلْفٌ » عليها غشاوة . وقال عكرمة : عليهـا طابع . وحكى أهل اللغـة غَلّفت السيف جعلت له غلافا ؛ فقَلْبٌ أغلف ، أى مستور عن الفهـم والتمييز . وقرأ ٱبن عباس والأعرج وٱبن مُحَيْصِن «غُلُف» بضم اللام . قال ٱبن عباس : أى قلوبنا ممتلئة علماً لاتحتاج إلى علم محمد صلى الله عليه وسـلم ولا غيره . وقيل : هو جمع غِلاف ؛ مثل خِمار وخُمُـر ؛ أى قلوبنا أوعية للعلم فما بالها لا تفهم عنك وقد وَعَينا علما كثيرا ! وقيل : المعـنى فكيف يعزب عنها علم محمد صلى الله عليه وسلم . فردّ الله تعالى عليهم بقوله : ﴿ بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ثم بيّن أن السبب فى نفورهم عن الإيمان إنما هو أنهم لُعِنوا بما تقدّم من كفرهم وٱجترائهم ؛ وهـذا هو الجزاء على الذنب بأعظم منه . وأصل اللّعن فى كلام العـرب الطّرد والإبعاد . ويقال للذئب : لعين . وللرجل الطريد : لعين ؛ وقال الشّمّاخ :

ذَعَرتُ به القَطا ونَفَيْتُ عنــه * مَقـامَ الذّئب كالرجل اللّعـينِ

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣١٨ .   (٢) راجع جـ ١٥ ص ٣٣٩ .

Marfat.com

ووجه الكلام : مقام الذئب اللعين كالرجل ؛ فالمعنى أبعـدهم الله من رحمته . وقيل : من توفيقه وهدايته . وقيل : من كل خير ؛ وهذا عام . « فقليلًا » نعت لمصدر محـذوف ؛ تقديره فإيمانًا قليـلا ما يؤمنون . وقال مَعْمَر : المعـنى لا يؤمنون إلا بقليـل ممـا فى أيديهم ويكفرون بأكثره ؛ ويكون « قليـلا » منصوب بنزع حرف الصفة . و « ما » صـلة ؛ أى فقليلا يؤمنون . وقال الواقدى : معناه لا يؤمنون قليـلا ولا كثيرا ؛ كما تقول : ما أقلَّ ما يفعل كذا ؛ أى لا يفعله ألبتّة . وقال الكسائى : تقول العرب مررْنا بأرض قلَّ ما تنبت الكُرَّاث والبصل ؛ أى لا تنبت شيئا .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَـٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ يعنى اليهود . ﴿ كِتَابٌ ﴾ يعنى القرآن . ﴿ مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ ﴾ نعت لكتاب ؛ و يجوز فى غير القـرآن نصبه على الحال ؛ وكذلك هو فى مصحف أُبَىٍّ بالنصب فيما رُوِىَ . ﴿ لِمَا مَعَهُمْ ﴾ يعنى التوراة والإنجيل يخـبرهم بما فيهما . ﴿ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ ﴾ أى يستنصرون . والاستفتاح الاستنصار . استفتحت : استنصرت . وفى الحديث : كان النبىّ صلى الله عليه وسلم يستفتح بصعاليك المهاجرين ؛ أى يستنصر بدعائهم وصلاتهم[1] . ومنه « فَعَسَى ٱللَّهُ أَنْ يَأْتِىَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ[2] » . والنصر : فتح شىء مغلق ؛ فهو يرجع إلى قولهم فتحت الباب . وروى النسائى عن أبى سعيد الخدرى[3] أن النبىّ صلى الله عليه وسـلم قال : " إنما نصر[4] الله هذه الأمة بضعفائها بدعوتهم وصلاتهم و إخلاصهـم " . وروى النسائى أيضا عن أبى الدرداء قال : سمعت رسـول الله صلى الله عليـه وسلم يقول :

(١) الذى فى نهاية ابن الأثير واللسان مادة فتح : «أى يستنصر بهم» . (٢) راجع جـ ٦ ص ٢١٧ .
(٣) يلاحظ أن راوى هذا الحديث هو سـعد بن أبى وقاص ؛ ففى سنن النسائى (جـ ١ ص ٦٥ طبع المطبعـة الميمنية) باب الاستنصار بالضعيف : أخبرنا محمد بن إدريس ... عن مصعب بن سعد عن أبيه أنه ظن ... » الخ .
(٤) الذى فى سنن النسائى : « إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها » .

Marfat.com

" أبغُونِى الضعيف فإنكم إنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم " . قال ابن عباس : كانت يهود خَيْبر تقاتل غَطَفان فلما التقوا هزمت يهود،فعادت(١) يهود بهذا الدعاء وقالوا : إنا نسألك بحق النبيّ الأُمّيّ الذى وعدتنا أن تخرجه لنا فى آخر الزمان إلا تنصرنا عليهم . قال : فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا الدعاء فهزموا غطفان ؛ فلما بُعث النبيّ صلى الله عليه وسلم كفروا ؛ فأنزل الله تعالى : ﴿ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى بك يا محمد، إلى قوله : ﴿ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ جواب « لمّا » الفاءَ وما بعدها فى قوله : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا ﴾ فى قول الفرّاء ؛ وجواب « لمّا » الثانية « كفروا » . وقال الأخفش سعيد : جواب « لما » محذوف لعلم السامع ؛ وقاله الزجاج . وقال المبرد : جواب «لما» فى قوله : « كفروا » ، وأعيدت «لما» الثانية لطول الكلام . ويفيد ذلك تقرير الذنب وتأكيدًا له .

قوله تعالى : ﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩٠) ﴾

قوله تعالى : ﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا ﴾ بئس فى كلام العرب مستوفية للذّم ؛ كما أن « نعم » مستوفية للمدح . وفى كل واحدة منها أربع لغات : بِئْس بَئْس بَئِس بِئِس . نِعْم نَعْم نَعِم نِعِم . ومذهب سيبويه أن « ما » فاعلة بئس ، ولا تدخل إلا على أسماء الأجناس والنكرات . وكذا نِعم ، فتقول نِعم الرّجلُ زيدٌ ، ونعم رجلًا زيدٌ ؛ فإذا كان معها اسم بغير ألف ولام فهو نصب أبدا ؛ فإذا كان فيه ألف ولام فهو رفع أبدا ؛ ونصب رجل على التمييز . وفى نعم مضمر على شريطة التفسير ؛ وزيد مرفوع على وجهين : على خبر ابتداء محذوف ؛ كأنه قيل مَن الممدوح ؟ قلت هو زيد ، والآخر على الابتداء وما قبله خبره . وأجاز أبو علىّ أن تليها « ما » موصولة وغير موصولة من حيث كانت مبهمة تقع على الكثرة ولا تخصّ واحدا

(١) فى ب : « فعاذت » بالذال المعجمة .

Marfat.com

بعينه، والتقدير عند سيبويه : بئس الشئ آشتروا به أنفسهم أن يكفروا . فـ«أن يكفروا» فى موضع رفع بالآبتداء وخبره فيا قبله ؛ كقولك : بئس الرجل زيد ، و « ما » على هـذا القول موصـولة . وقال الأخفش : « ما » فى موضع نصب على التمييز ؛ كقولك : بئس رجلًا زيدٌ ، فالتقدير بئس شيئا أن يكفروا . فـ« آشتروا به أنفسهم » على هذا القول صفة « ما » . وقال الفراء : « بئسما » بجملته شىء واحد رُكّب كحبّذا . وفى هذا القول آعتراض؛ لأنه يبقى فعـل بلا فاعل . وقال الكسائى : « ما » و « آشـتروا » بمنزلة آسم واحد قائم بنفسه ، والتقدير بئس آشتراؤهم أن يكفروا . وهـذا مردود ، فإن نعم وبئس لا يدخلان على آسم معيّن مُعرّف ، والشراء قد تعرّف بإضافته إلى الضمير . قال النحاس : وأبين هذه الأقوال قول الأخفش وسيبويه . قال الفراء والكسائى : « أن يكفروا » إن شئت كانت « أن » فى موضع خفض ردًّا على الهـاء فى به . قال الفراء : أى آشتروا أنفسهم بأن يكفروا بما أنزل الله . فآشترى بمعنى باع وبمعنى آبتاع؛ والمعنى : بئس الشىء الذى آختاروا لأنفسهم حيث آستبدلوا الباطل بالحق ، والكفر بالإيمان .

قوله تعالى : ﴿ بَغْيًا ﴾ معناه حسدًا ؛ قاله قتادة والسُّدّى، وهو مفعول من أجله ، وهو على الحقيقة مصدر . الأصمعى : وهو مأخوذ من قولهم : قد بَغَى الجرح إذا فسد . وقيل : أصله الطلب ، ولذلك سُمّيت الزانية بَغِيًّا . ﴿ أَنْ يُنَزِّلَ ٱللَّهُ ﴾ فى موضع نصب ؛ أى لأن ينزّل ؛ أى لأجل إنزال الله الفضل على نبيّه صلى الله عليه وسلم . وقرأ آبن كَثير وأبو عمرو ويعقوب وآبن مُحَيْصِن « أن يُنْزِل » مخففًا، وكذلك سائر ما فى القرآن، إلا « وَمَا نُنَزِّلُهُ » فى «الحِجْر»[(١)]، وفى « الأنعام » « عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً »[(٢)] .

قوله تعالى : ﴿ فَبَـاءُوا ﴾ أى رجعوا، وأكثر ما يقال فى الشر، وقد تقدّم[(٣)] . ﴿ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ ﴾ تقدّم معنى غضب الله عليهم[(٤)] ، وهو عقابه ، فقيل : الغضب الأوّل لعبادتهـم العجل ، والثانى لكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسـلم ؛ قاله آبن عباس . وقال عكرمة : لأنهم كفروا بعيسى ثم كفروا بمحمد ؛ يعنى اليهود . وروى سـعيد عن قتادة : الأوّل لكفـرهم

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٤ . (٢) راجع جـ ٦ ص ٤١٨ . (٣) راجع جـ ١ ص ٤٣٠ .
(٤) راجع جـ ١ ص ١٤٩ طبعة ثانية .

Marfat.com

بالإنجيل ، والثـانى لكفرهم بالقرآن . وقال قوم : المراد التأييد وشدة الحال عليهم ، لا أنه أراد غضبين معلّلين بمعصيتين . و﴿مُهِينٌ﴾ مأخوذ من الهوان، وهو ما اقتضى الخلود فى النار دائما بخلاف خلود العصاة من المسلمين ؛ فإن ذلك تمحيص لهم وتطهير؛ كرجم الزانى وقطع يد السارق، على ما يأتى بيانه فى سورة « النساء »(١) من حديث أبى سعيد الخدرى ، إن شاء الله تعالى .

قوله تعـالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾

قوله تعـالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا﴾ أى صدّقوا ﴿بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ يعنى القرآن ﴿قَالُوا نُؤْمِنُ﴾ أى نصدّق ﴿بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ يعنى التوراة . ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ أى بمـا سواه؛ عن الفرّاء . وقتادة : بمـا بعده؛ وهو قول أبى عُبيدة، والمعنى واحد . قال الجوهرى : وراء بمعنى خلف؛ وقد تكون بمعنى قدّام . وهى من الأضداد؛ قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾(٢) أى أمامهـم ؛ وتصغيرها وُرَيِّئَة (بالهـاء) وهى شاذّة . وانتصب « وراءه » على الظرف . قال الأخفش : يقال لَقِيته من وراءُ، فترفعه على الغاية إذا كان غير مضاف تجعله اسما وهو غير متمكّن، كقولك : من قبلُ ومن بعدُ ؛ وأنشد :

إذا أنا لم أُومَن عليكَ ولم يكن * لقـاؤكَ إلا مِن وراءُ وراءُ(٣)

قلت : ومنه قول إبراهيم عليـه السلام فى حديث الشفاعة : "إنمـا(٤) كنتُ خليلاً من وراءَ وراءَ" . والوراء : ولد الولد أيضا .

قوله تعـالى : ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ ابتداء وخبر . ﴿مُصَدِّقًا﴾ حال مؤكّدة عند سيبويه . ﴿لِمَا مَعَهُمْ﴾ ما فى موضع خفض باللام، و«معهم» صلتها، و«معهم» نصب بالاستقرار؛ ومن أسكن جعله حرفا .

---

(١) راجع جـ ٥ ص ٨٧ ـــ ويأتى أيضا فى المائدة والنور، راجع جـ ٦ ص ١٥٩ ، جـ ١٢ ص ١٥٩

(٢) راجع جـ ١١ ص ٣٤ (٣) البيت لعُتَىّ بن مالك العقيلى . (عن اللسان) .

(٤) الذى فى النهاية واللسان مادة (ورى) : « إنى كنت ... الخ » وفيهما : هكذا يروى مبنيا على الفتح ؛ أى من خلف حجاب » .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ ٱللَّهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ ردٌّ من الله تعالى عليهم فى قولهم إنهم آمنوا بمـا أنزل عليهم ، وتكذيبٌ منه لهم وتوبيخ ؛ المعنى : فكيف قتلتم وقد نُهيتم عن ذلك ! فالخطاب لمن حضر محمدا صلى الله عليه وسلم والمراد أسلافهم . وإنمـا توجّه الخطاب لأبنائهم؛ لأنهم كانوا يتولّون أولئك الذين قتلوا ، كما قال : « وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ »(١) فإذا تولّوهم فهم بمنزلتهم . وقيل : لأنهم رَضُوا فعلهم فنُسب ذلك إليهم . وجاء « تقتلون » بلفظ الاستقبال وهو بمعنى المضىّ لمـا ٱرتفع الإشكال بقوله : « مِنْ قَبْـلُ » . وإذا لم يشكل فجائز أن يأتى المـاضى بمعنى المستقبل ، والمستقبل بمعنى المـاضى، قال الحُطَيئة :

شَهِد الحُطَيئةُ يـوم يلقَى رَبَّـه * أنّ الوليـد أحقّ بالعـــذرِ

شهد بمعنى يشهد . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أى إن كنتم معتقدين الإيمـان فلِم رضيتم بقتـل الأنبياء ! وقيل : « إنْ » بمعنى ما ، وأصل « لِمَ » لِمـا ، حذفت الألف فرقًا بين الاستفهام والخبر ؛ ولا ينبغى أن يوقف عليه ؛ لأنه إن وقف عليـه بلا هاء كان لحنًا ، وإن وقف عليه بالهـاء زيد فى السواد .

قوله تعـالى : وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِۦ وَأَنْتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ اللام لام القَسَم . والبينات قوله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ »(٢) وهى العصا ، والسُّنون ، واليد ، والدّم ، والطُّوفان ، والجراد ، والقُمّل ، والضفادع ، وفلق البحر . وقيل : البينات التوراة ، وما فيها من الدلالات .

قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ ﴾ توبيخ ، و « ثُمّ » أبلغ من الواو فى التقريع ؛ أى بعد النظر فى الآيات والإتيان بها ٱتخذتم . وهذا يدلّ على أنهم إنمـا فعلوا ذلك بعد مهلة من النظر فى الآيات ، وذلك أعظم لجرمهم .

---

(١) راجع جـ ٦ ص ٢٥٤ (٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٣٥

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا ﴾ تقدّم الكلام في هذا (١) . ومعنى «ٱسمعوا» أطيعوا، وليس معناه الأمر بإدراك القول فقط ، وإنما المراد ٱعملوا بما سمعتم والتزموه ؛ ومنه قولهم : سمع الله لمن حمده ؛ أي قبل وأجاب . قال :

دعوتُ الله حتى خِفتُ ألّا * يكون الله يسمع ما أقول

أي يَقبل؛ وقال الراجز :

والسمعُ والطاعةُ والتسليمُ * خيرٌ وأعفَى لبني تميم

﴿ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ ٱختلف هل صدر منهم هذا اللفظ حقيقةً باللسان نُطْقًا ، أو يكونوا فعلوا فعلًا قام مقام القول فيكون مجازا؛ كما قال :

ٱمتلأ الحَوْضُ وقال قَطْني * مهلًا رُوَيْدًا قد ملأتَ بطْني

وهذا ٱحتجاج عليهم في قولهم : « نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا » .

قوله تعالى : ﴿ وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ ﴾ أي حُبّ العجل . والمعنى : جعلت قلوبهم تُشربه ، وهذا تشبيه ومجاز عبارة عن تمكّن أمر العجل في قلوبهم . وفي الحديث : "تُعْرَضُ الفِتن على القلوب كالحصير عُودًا عُودًا فأيّ قَلبٍ أشرِبَها نُكِت فيه نُكتةٌ سوداء" الحديث، خرّجه مسلم . يقال أُشرِب قلبُه حبَّ كذا؛ قال زهير :

فصحوتُ عنها بعد حُبٍّ داخلٍ * والحبُّ تُشرِبُه فؤادَك داءُ

---

(١) راجع جـ ١ ص ٤٣٦ وما بعدها ، طبعة ثانية .

Marfat.com

وإنما عبّر عن حُبّ العجل بالشُّرب دون الأكل لأن شرب الماء يتغلغل فى الأعضاء حتى يصل إلى باطنها ، والطعام مجاور لها غير متغلغل فيها . وقد زاد على هذا المعنى أحد التابعين فقال فى زوجته عَثْمَة ، وكان عَتَب عليها فى بعض الأمر فطلّقها وكان مُحبًّا لها :

تغلغل حُبُّ عَثْمَةَ فى فؤادى * فباديه مع الخافى يسير
تغلغل حيث لم يبلغ شراب * ولا حزن ولم يبلغ سرور
أكاد إذا ذكرتُ العهد منها * أطير لو أن إنسانا يطير

وقال السُّدّى وابن جُريج : إن موسى عليه السلام بَرَد العجل وذرّاه فى الماء، وقال لبنى إسرائيل : اشربوا من ذلك الماء ؛ فشرب جميعهم ، فمن كان يحبّ العجل خرجت بُرادة الذهب على شَفَتَيْه . ورُوِىَ أنه ما شربه أحد إلا جُنّ ؛ حكاه القُشيرى .

قلت : أمّا تذريتُه فى البحر فقد دلّ عليه قوله تعالى : « ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا »[1] ؛ وأمّا شُرْبُ الماء وظهور البُرادة على الشِّفاه فيردّه قوله تعالى : «وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ» . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ ﴾ أى إيمانكم الذى زعمتم فى قولكم : نؤمن بما أُنزل علينا . وقيل : إن هذا الكلام خطاب للنبىّ صلى الله عليه وسلم ، أُمِر أن يوبّخهم ، أى قل لهم يا محمد . بئس هذه الأشياء التى فعلتم وأمركم بها إيمانكم . وقد مضى الكلام فى « بئسما »[2] والحمد لله وحده .

قوله تعالى : قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾

لما ادّعت اليهود دعاوى باطلة حكاها الله عز وجل عنهم فى كتابه ؛ كقوله تعالى : « لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً » ، وقوله : « وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ

(١) راجع ج ١١ ص ٢٤٣ . (٢) راجع ص ٢٧ من هذا الجزء .

Marfat.com

هُودًا أَوْ نَصَارَى » ، وقالوا : « نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ »(١) أكذبهم الله عز وجل وألزمهم الحجة فقال قل لهم يا محمد : « إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخرة » يعنى الجنة « فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » فى أقوالكم ؛ لأن من اعتقد أنه من أهل الجنة كان الموت أحبَّ إليه من الحياة فى الدنيا ، لما يصير إليه من نعيم الجنة ، و يزول عنه من أذى الدنيا ، فأحجموا عن تمنّى ذلك فَرَقًا من الله لقبح أعمالهم ومعرفتهم بكفرهم فى قولهم : « نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ » ، وحرصهم على الدنيا ؛ ولهذا قال تعالى مخبرًا عنهم بقوله الحق : ﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ تحقيقًا لكذبهم . وأيضا لو تمنَّوُا الموت لماتوا ؛ كما روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لو أن اليهود تمنَّوُا الموت لماتوا ورأوا مقامهم(٢) من النار" . وقيل : إن الله صرفهم عن إظهار التمنى ، وقصرهم على الإمساك ليجعل ذلك آية لنبيّه صلى الله عليه وسلم ؛ فهذه ثلاثة أوجه فى تركهم التمنى . وحكى عِكرمة عن ابن عباس فى قوله : « فتمنَّوُا الموت » أن المراد ادعوا بالموت على أكذب الفريقين منّا ومنكم ؛ فما دعوا لعلمهم بكذبهم .

فإن قيل : فالتّمنى يكون باللسان تارةً و بالقلب أخرى ؛ فمن أين عُلم أنهم لم يتمنّوه بقلوبهم ؟ قيل له : نطق القرآن بذلك بقوله « وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا » ولو تمنّوه بقلوبهم لأظهروه بألسنتهم ردًا على النبى صلى الله عليه وسلم و إبطالا لحجته ؛ وهذا بيّن .

قوله تعالى : ﴿ خَالِصَةً ﴾ نصب على خبر كان ، و إن شئت كان حالا ، و يكون « عند الله » فى موضع الخبر . ﴿ أَبَدًا ﴾ ظرف زمان يقع على القليل والكثير ؛ كالحين والوقت ، وهو هنا من أول العمر إلى الموت . و « ما » فى قوله « بما » بمعنى الذى والعائد محذوف ؛ والتقدير قدّمته ، وتكون مصدرية ولا تحتاج إلى عائد . و « أيديهم » فى موضع رفع ، حُذفت الضمة من الياء لثقلها مع الكسرة ؛ و إن كانت فى موضع نصب حرّكتها ؛ لأن النصب خفيف ، ويجوز إسكانها فى الشعر . ﴿ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ ابتداء وخبر .

---

(١) راجع ج ٦ ص ١٢٠ .　　(٢) فى بعض نسخ الأصل : « مقاعدهم » .

Marfat.com

قوله تعالى : وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ﴾ يعنى اليهود . ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ قيل : المعنى وأحرص ، فحذف « مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا » لمعرفتهم بذنوبهم وألّا خيرلهم عند الله ؛ ومشركو العرب لا يعرفون إلا هذه الحياة ولا علم لهم من الآخرة ؛ ألا ترى قول شاعرهم : (١)

تمتّـع من الدنيـا فإنك فانٍ * من النَّشَوات والنساء الحسان

والضمير فى «أَحَدُهُمْ» يعود فى هذا القول على اليهود . وقيل : إن الكلام تم فى «حياة» ثم آستؤنف الإخبار عن طائفة من المشركين . قيـل : هم المجوس ؛ وذلك بيِّن فى أدعياتهم للعاطس بلغاتهم بمـا معناه « عِشْ ألفَ سنة » . وخُصّ الألف بالذكر لأنهـا نهاية العِقد فى الحساب . وذهب الحسن إلى أن « الذين أشركوا » مشركو العرب ، خُصُّوا بذلك لأنهم لا يؤمنون بالبعث ؛ فهم يتمنّون طول العمر . وأصل سنة سَنْهَة . وقيل : سَنْوَة . وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير ، والمعنى ولتجدنهم وطائفة من الذين أشركوا أحرص الناس على حياة .

قوله تعالى : ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ أصل « يَوَدُّ » يَوْدَد ، أُدغمت لئلا يجمع بين حرفين من جنس واحد متحركين ، وقُلبت حركة الدال على الواو ؛ ليـدل ذلك على أنه يفعل . وحكى الكسائى : وَدَدْت ؛ فيجوز على هذا يِوَدّ بكسر الواو . ومعنى يَوَدّ : يتمنّى .

قوله تعالى : ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾ اختلف النحاة فى هو ، فقيل : هو ضمير الأحد المتقدّم ، التقدير ما أحدهم بمزحزحه ، وخبر الابتداء فى المجرور . « أن يعمّر » فاعل بمزحزح . وقالت فرقة : هو ضمير التعمير ، والتقـدير وما التعمير بمزحزحه ، والخبر فى المجرور ، « أن يعمر » بدل من التعمير على هـذا القول . وحكى الطبرى عن فرقة أنها قالت : « هو » عماد .

(١) البيت لامرئ القيس . والنشوات (جمع نشوة) : السكر .

Marfat.com

قلت : وفيه بُعْدٌ، فإن حقّ العِماد أن يكون بين شيئين متلازمين؛ مثل قوله : « إنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ »(١)، وقوله : « وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ »(٢) ونحو ذلك . وقيل : « ما » عاملة حجازية، و « هو » اسمها، والخبر فى « بِمُزَحْزِحِهِ » . وقالت طائفة : « هو » ضمير الأمر والشأن . ابن عطية : وفيه بُعْدٌ، فإن المحفوظ عن النحاة أن يفسّر بجملة سالمة من حرف جرّ .

وقوله : ﴿ بِمُزَحْزِحِهِ ﴾ الزحزحة : الإبعاد والتّنحية ؛ يقال : زحزحتـه أى باعدته فتزحزح أى تنحى وتباعد؛ يكون لازمًا ومتعدّيًا؛ قال الشاعر فى المتعدّى :

يا قابضَ الرُّوح من نفس إذا احتضرتْ * وغافرَ الذنب زَحْزِحْنِي عن النـارِ

وأنشده ذو الرُّمّة :

يا قابضَ الروح عن جسم عصَى زَمنـًا * وغافرَ الذنب زحزحنى عن النـار

وقال آخر فى اللازم :

خليـلىّ ما بالُ الدُّجَى لا يتزحزح * وما بالُ ضَـوْءِ الصّبح لا يتوضّحُ

وروى النسائى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسـلم قال : "من صام يوما فى سبيل الله زحزح الله وجهه عن النار سبعين خريفا " .

قوله تعـالى : ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِمَـا يَعْمَلُونَ ﴾ أى بمـا يعمل هؤلاء الذين يَوَدّ أحدهم أن يُعمَّر ألف سنة . ومن قرأ بالتاء فالتقدير عنده : قل لهم يا محمد الله بصير بمـا تعملون . وقال العلماء : وصف الله عز وجل نفسه بأنه بصـير على معنى أنه عالم بخفيّات الأمور . والبصير فى كلام العرب : العالم بالشىء الخبير به؛ ومنه قولهم : فلان بصير بالطّب، و بصير بالفقه، و بصير بملاقاة الرجال؛ قال :

فإن تسألونى بالنسـاء فإننى * بصيرٌ بأدواء النسـاء طبيب

قال الخطّابى : البصير العالم، والبصير المُبْصِر . وقيل : وصف تعالى نفسه بأنه بصير على معنى جاعل الأشـياء المبصرة ذوات إبصار ، أى مدركة للبصرات بمـا خلق لها من الآلة المدركة والقوة؛ فالله بصير بعباده، أى جاعل عباده مبصرين .

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٩٨ . (٢) راجع جـ ١٦ ص ١١٥ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾

سبب نزولها أن اليهود قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم : إنه ليس نبيّ من الأنبياء إلا يأتيه مَلَك من الملائكة من عند ربّه بالرسالة وبالوَحْى، فمَن صاحبك حتى نتابعك؟ قال: "جبريل" قالوا : ذاك الذى ينزل بالحرب وبالقتال، ذاك عدوّنا ! لو قلت : ميكائيل الذى ينزل بالقطر وبالرحمة تابعناك؛ فأنزل الله الآية إلى قوله : « للكافرين » أخرجه الترمذى .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ الضمير فى «إنه» يحتمل معنيين؛ الأوّل : فإن الله نزّل جبريل على قلبك . الثانى : فإن جبريل نزل بالقرآن على قلبك . وخصّ القلب بالذكر لأنه موضع العقل والعلم وتلقّى المعارف . ودلّت الآية على شرف جبريل عليه السلام وذمّ معاديه .

وقوله تعالى : ﴿ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ أى بإرادته وعلمه . ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ يعنى التوراة . ﴿ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ تقدّم معناه(1)، والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾

قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ ﴾ شرط، وجوابه ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ . وهذا وعيد وذمّ لمُعَادى جبريل عليه السلام، وإعلانٌ أن عداوة البعض تقتضى عداوة الله لهم . وعداوة العبد لله هى معصيته واجتناب طاعته ، ومعادات أوليائه . وعداوةُ الله للعبد تعذيبه وإظهار أثر العداوة عليه .

فإن قيل : لِمَ خصّ الله جبريل وميكائيل بالذكر وإن كان ذكر الملائكة قد عمّهما ؟ قيل له : خصّهما بالذكر تشريفًا لهما؛ كما قال : « فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ »(2). وقيل : خُصَّا لأن اليهود ذكروهما، ونزلت الآية بسببهما؛ فذكْرُهما واجبٌ لئلا تقول اليهود : إنا لم نعاد

---

(1) راجع جـ ١ ص ١٦٠ ، ١٦٢ ، ٢٣٨ طبعة ثانية . (2) راجع جـ ١٧ ص ١٨٥ .

Marfat.com

الله وجميع ملائكته ؛ فنصّ الله تعالى عليهما لإبطال ما يتأولونه من التخصيص . ولعلمـاء اللسان فى جبريل وميكائيل عليهما السلام لغات ؛ فأما التى فى جبريل فعَشْر :

الأولى — جِبريل ؛ وهى لغة أهل الحجاز ؛ قال حسان بن ثابت :

* وجِبْرِيلُ رسولُ الله فِينَا *

الثانيـــة — جَبْرِيل (بفتح الجيم) وهى قراءة الحسن وآبن كَثير ؛ ورُوِىَ عن آبن كَثير أنه قال : رأيت النبيّ صلى الله عليه وسلم فى النوم وهو يقرأ جبريل وميكائيل فـلا أزال أقرؤهما أبدًا كذلك .

الثالثـــة — جَبْرَئِيـل (بياء بعد الهمزة ، مثال جبرعيل) ، كما قـرأ أهل الكوفـة ؛ وأنشـــدوا :

شَهِدنا فمـا تلقى لنـا من كتيبة * مَدَى الدهر إلا جَبْرَئِيلُ أمامُها (١)

وهى لغة تميم وقيس .

الرابعـــة — جَبْرَئِل (على وزن جَبْرَعِل) مقصور ، وهى قراءة أبى بكر عن عاصم .

الخامســـة — مثلها ، وهى قراءة يحيى بن يَعْمر ، إلا أنه شدّد اللام .

السادســـة — جبرائل (بألف بعد الراء ثم همزة) وبها قرأ عِكرمة .

السابعـــة — مثلها ، إلا أن بعد الهمزة ياء .

الثامنـــة — جبرييل (بياءين بغير همزة) وبها قرأ الأعمش ويحيى بن يعمر أيضا .

التاســـعة — جَبْرَئِين (بفتح الجيم مع همزة مكسورة بعدها ياء ونون) .

العـاشرة — جِبْرِين (بكسر الجيم وتسكين الياء بنون من غير همزة) وهى لغة بنى أسد . قال الطبرى : ولم يُقرأ بها . قال النحاس — وذكر قراءة آبن كَثير — : « لا يُعرف فى كلام العرب فَعْليل ؛ وفيه فِعْليل ؛ نحو دِهليز وقِطمير وبِرطيل ؛ وليس ينكر أن يكون فى كلام العجم ما ليس له نظير فى كلام العرب ، وليس ينكر أن يكثر تغيّره ، كما قالوا : إبراهيم وإبْرَهَم وإبراهُم

(١) البيت لكعب بن مالك ، كما فى شرح القاموس .

Marfat.com

وإبراهام » . قال غيره : جبريل آسم أعجمى عرّبته العرب ، فلها فيه هـذه اللغات ولذلك لم ينصرف .

قلت : قد تقـدّم فى أوّل الكتاب[1] أن الصحيح فى هذه الألفاظ عربية نزل بها جبريل بلسان عربىّ مبين . قال النحاس : ويجمع جبريل على التكسير جباريل .

وأمّا اللغات التى فى ميكائيل فستّ :

الأولى — ميكاييل، قراءة نافع . وميكائيل (بياء بعد الهمزة) قراءة حمزة . ميكال ، لغة أهـل الحجاز ، وهى قراءة أبى عمـرو وحفص عن عاصم . ورُوِىَ عن آبن كَثير الثـلاثة أوجه؛ قال كعب بن مالك :

ويوم بَدْرٍ لقيناكم لنـا مَدَدٌ • فيه مع النصر ميكالٌ وجبريلُ

وقال آخر[2] :

عبدوا الصّليب وكذّبوا بمحمّد • وبجـبرئيل وكذّبوا ميكالَا

الرابعــة — ميكئيل ، مثل ميكعيل ؛ وهى قراءة آبن مُحَيْصِن .

الخامســة — ميكاييل (بياءين) وهى قراءة الأعمش باختلاف عنه .

السادســة — ميكاءِل؛ كما يقال (إسراءل بهمزة مفتـوحة) ، وهو آسم أعجمى فـلذلك لم ينصرف . وذكر آبن عباس أن جَبْر وميكا وإسراف هى كلها بالأعجمية بمعنى: عبد ومملوك . وإيل : آسم الله تعالى؛ ومنه قول أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه حين سمع سجع مُسَيْلِمة: هذا كلام لم يخرج من إلٍّ ؛ وفى التنزيل : « لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلا ذِمَّةً » فى أحد التأويلين ، وسيأتى[3] . قال المـاوردى : إن جبريل وميكائيل اسمان ، أحدهما عبد الله ، والآخر عبيد الله؛ لأن إيل هو الله تعالى، وجبر هو عبد ، وميكا هو عبيد ؛ فكأن جبريل عبد الله، وميكائيل عبيد الله ؛ هذا قول آبن عباس ، وليس له فى المفسرين مخالف .

(١) راجع جـ ١ ص ٦٨ طبعة ثانية . (٢) هو جرير ؛ كما فى ديوانه . (٣) راجع جـ ٨ ص ٧٩

قلت : و زاد بعض المفسرين : و إسرافيل عبـد الرحمن . قال النحاس : ومن تأوّل الحـديث « جبر » عبد ، و « إلّ » الله وجب عليه أن يقول : هـذا جَبْرُئل و رأيت جبرَئل ومررت بجبرِئل؛ وهذا لا يقـال؛ فوجب أن يكون معنى الحديث أنه مُسَمًّى بهـذا . قال غيره : ولو كان كما قالوا لكان مصروفا ، فتركُ الصرف يدلّ على أنه ٱسم واحد مفرد ليس بمضاف . وروى عبد الغنى الحافظ من حديث أَفْلَت بن خليفة — وهو فُليت العامرى وهو أبو حسان — عن جَسْرة بنت دَجَاجة عن عائشـة رضى الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اللّهُمّ ربّ جبريل وميكايل و إسرافيل أعوذ بك من حَرّ النار وعذاب القبر".

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾

قال ٱبن عباس رضى الله عنهما : هـذا جواب لٱبن صوريا[1] حيث قال لرسول الله صلى الله عليه وسـلم : يا محمد ما جئتنا بشيء نعرفه ، وما أنزل عليك من آية بيّنة فنتبعك بها ؟ فأنزل الله هذه الآية؛ ذكره الطبرى .

قوله تعـالى : أَوَكُلَّمَا عَـٰهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾

قوله تعالى : ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا﴾ الواو واو العطف ، دخلت عليها ألف الٱستفهام كما تدخل على الفاء فى قوله : « أَفَحُكْمَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ »[2] ، «أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ»[3] ، «أَفَتَتَّخِذُونَهُ وذُرِّيَّتَهُ»[4] . وعلى ثُمّ كقوله : « أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ »[5] هذا قول سيبويه . وقال الأخفش : الواو زائدة . ومذهب الكسائى أنهـا أو ، حُرّكت الواو منها تسهيلا . وقرأها قوم أوْ، ساكنة الواو فتجيء بمعنى بل ؛ كما يقول القائل : لأضربنك ؛ فيقول المجيب : أو يكفى الله . قال ٱبن عطية : وهذا كله متكلّف؛ والصحيح قول سيبويه . «كلما» نصب على الظرف؛ والمعنى

(١) كذا فى نسخ الأصل وتفسير الطبرى وأسباب النزول للواحدى . وفى سيرة ابن هشام (ص ٣٧٩ طبع أوربا) : « أبو صلوبا الفطيونى » .　(٢) راجع جـ ٦ ص ٢١٤　(٣) راجع جـ ٨ ص ٣٤٦
(٤) راجع جـ ١٠ ص ٤٢٠　(٥) راجع جـ ٨ ص ٣٥١

Marfat.com

فى الآية مالك بن الصّيف ، ويقال فيه ٱبن الضيف[(١)]، كان قد قال : والله ما أخذ علينا عهدٌ فى كتابنا أن نؤمن بمحمد ولا ميثاق ؛ فنزلت الآية . وقيل : إن اليهود عاهدوا لئن خرج محمد لنؤمنن به ولنكونن معه على مشركى العرب ؛ فلما بُعث كفروا به . وقال عطاء : هى العهود التى كانت بين النبىّ صلى الله عليه وسلم و بين اليهود فنقضوها ، كفعل قُريظة والنّضير؛ دليله قوله تعالى : « الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ[(٢)] » .

قوله تعـالى : ﴿ نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ ﴾ النبذ : الطرح والإلقاء ؛ ومنه النّبيذ والمنبوذ ، قال أبو الأسـود :

وخبّرنى مَن كنت أرسلتُ إنما * أخذتَ كتابى معـرضًا بشمالكا

نظرتَ إلى عنـوانه فنبـذتَه * كنبذك نعلاً أخلقتْ من نعالكا

آخــر :

إن الذين أمرتهم أن يعـدلوا * نبذوا كتابك وٱستحلّوا المَحْرَمَا

وهـذا مَثَل يُضرَب لمن ٱستخفّ بالشىء فلا يعمل به ؛ تقول العرب : ٱجعل هـذا خَلْفَ ظهـرك ، ودَبْرًا منـك ، وتحت قدمك ؛ أى ٱتركه وأعرض عنـه ؛ قال الله تعـالى : « وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا[(٣)] » . وأنشد الفراء :

تميمُ بنُ زيد لا تكوننّ حاجتى * بظَهْـرٍ فلا يَعْيَا علىّ جوابُها[(٤)]

﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ ﴾ ابتداء . ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ فعل مستقبل فى موضع الخبر .

قوله تعالى : وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾

---

(١) فى ١ ، ب ، ح : « الصيت » بالتاء المثناة ، وفى ج : « الصيب » بالباء . والتصويب عن سيرة ٱبن هشام ص ٣٥٢ طبع أوربا .
(٢) ج ٨ ص ٣٠
(٣) ج ٩ ص ٩١
(٤) البيت للفرزدق ؛ يخاطب تميم بن زيد القينى وكان على السند . (عن النقائض ص ٢٨١) طبع أوربا .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ ﴾ نعتٌ لرسول ، ويجوز نصبه على الحال . ﴿ نَبَذَ فَرِيقٌ ﴾ جواب « لما » . ﴿ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ ﴾ نصب بـ « نَبَذَ » ، والمراد التوراة ؛ لأن كفرهم بالنبيّ عليه السلام وتكذيبهم له نبذٌ لها . قال السُّدّى : نبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف ، وسحرِ هاروت وماروت . وقيل : يجوز أن يعني به القرآن . قال الشَّعْبيّ : هو بين أيديهم يقرءونه ؛ ولكن نبذوا العمل به . وقال سفيان بن عُيَيْنة : أدرجوه في الحرير والديباج ، وحلّوه بالذهب والفضة ، ولم يُحِلّوا حلاله ولم يحرّموا حرامه ؛ فذلك النَّبذ . وقد تقدّم بيانه مستوفًى (١) . ﴿ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ تشبيهٌ بمن لا يعلم ، إذ فعلوا فعلَ الجاهل ، فيجيء من اللفظ أنهم كفروا على علمٍ .

قوله تعالى : وَٱتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾

فيه أربع وعشرون مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ هذا إخبار من الله تعالى عن الطائفة الذين نبذوا الكتاب بأنهم اتبعوا السحر أيضا ، وهم اليهود . وقال السُّدّى : عارضت اليهود محمدا صلى الله عليه وسلم بالتوراة فاتفقت التوراة والقرآن فنبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف و بسحرِ هاروت وماروت . وقال محمد بن إسحاق : لما ذكر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم سليمانَ في المرسلين قال بعض أحبارهم : يزعم محمد أن ابن داود

(١) في الصفحة السابقة .

Marfat.com

كان نبيا! والله ما كان إلا ساحرا، فأنزل الله عز وجل : ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ أى ألقت إلى بنى آدم أن ما فعله سليمان من ركوب البحر واستسخار الطير والشياطين كان سحرا . وقال الكلبى : كتبت الشياطين السحر والنِّيرَنْجِيَّات[1] على لسان آصف كاتب سليمان ، ودفنوه تحت مصلّاه حين آنتزع الله ملكه ولم يشعر بذلك سليمان، فلما مات سليمان آستخرجوه وقالوا للناس : إنما ملككم بهذا فتعلّموه، فأما علماء بنى إسرائيل فقالوا : معاذ الله أن يكون هذا علم سليمان ! وأما السِّفْلة فقالوا : هذا علم سليمان، وأقبلوا على تعليمه ورفضوا كتب أنبيائهم حتى بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله عز وجل على نبيّه عذر سليمان وأظهر براءته مما رُمى به فقال : « وَٱتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ » . قال عطاء : « تتلو » تقرأ من التلاوة . وقال آبن عباس : « تتلو » تتبع، كما تقول : جاء القوم يتلو بعضهم بعضا . وقال الطبرى : « آتبعوا » بمعنى فضّلوا .

قلت : لأن كل من اتبع شيئا وجعله أمامه فقد فضّله على غيره . ومعنى « تتلو » يعنى تلت ، فهو بمعنى المضىّ، قال الشاعر :

وإذا مررتَ بقبره فآعْقِر به ٭ كُومَ الهِجانِ[2] وكلَّ طرفٍ سابحِ
وآنضح جوانبَ قبره بدمائها ٭ فلقد يكون أخا دمٍ وذبائحِ

أى فلقد كان . و « ما » مفعول بـ « اتبعوا » ؛ أى آتبعوا ما تقوّلته الشياطين على سليمان وتلته . وقيل : «ما» نفىٌ، وليس بشىء لا فى نظام الكلام ولا فى صحته، قاله ابن العربى . ﴿عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ أى على شرعه ونبوّته . قال الزجاج : المعنى على عهد مُلك سليمان . وقيل : المعنى فى ملك سليمان، يعنى فى قصصه وصفاته وأخباره . قال الفرّاء : تصلح على وفى، فى مثل هذا الموضع . وقال « علَى » ولم يقل بَعْدَ لقوله تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ

---

(١) اختلفت الأصول فى رسم هذه الكلمة ، والذى فى القاموس : « النيرنج » قال شارح القاموس : « هكذا فى سائر النسخ ، والمنقول عن نص كلام الليث : «النيرج» بإسقاط النون الثانية . وكذا ورد فى اللسان . وهو أُخَذٌ كالسحر وليس به ، إنما هو تشبيه وتلبيس » .

(٢) الكوم (بالضم) : جمع كوماء ، وهى الناقة العظيمة السنام . والهجان من الابل : البيض الكرام .

Marfat.com

وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِـهِ[(١)] » أى فى تلاوته . وقد تقـدّم معنى الشيطان وآشتقاقه، فلا معنى لإعادته[(٢)] . والشياطين هنا قيل : هم شياطين الجن؛ وهو المفهوم من هذا الأسم . وقيل : المراد شياطين الإنس المتمرّدون فى الضلال؛ كقول جرير :

أيام يَدعونني الشيطان من غَزلِي ✻ وكنّ يَهْـوينني إذ كنتُ شـيطانَا

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ﴾ تبرئة من الله لسليمان؛ ولم يتقدّم فى الآية أن أحدا نسبه إلى الكفر، ولكن اليهود نسبته إلى السحر، ولكن لمـا كان السحر كفرا صار بمنزلة من نسـبه إلى الكفر، ثم قال : ﴿ وَلَكِنَّ الشَّـيَاطِينَ كَفَرُوا ﴾ فأثبت كفرهم بتعليم السحر . و « يُعَلِّمُونَ » فى موضع نصب على الحال، ويجوز أن يكون فى موضع رفع على أنه خبر ثان . وقرأ الكوفيون سوى عاصم « ولكِنِ الشّياطِينُ » بتخفيف « لكن » ، ورفع النون من « الشياطين »؛ وكذلك فى الأنفال « ولكِنِ اللهُ رمى[(٣)] » ووافقهم آبن عامر . الباقون بالتشديد والنصب . و « لكن » كلمة لها معنيان : نفى الخبر المـاضى، وإثبات الخبر المستقبل؛ وهى مبنيّة من ثلاث كلمات : لا ، ك ، إن . « لا » نفى ، و « الكاف » خطاب ، و « إن » إثبـات وتحقيق ؛ فذهبت الهمزة آستثقالا ، وهى تثقّـل وتخفّف؛ فإذا ثُقّلت نصبت كإنّ الثقيلة ، وإذا خُفّفت رفعت بها كما ترفع بإن الخفيفة .

الثالثـــة ــ السحر، قيل : السحر أصله التمويه بالحيل والتخاييل، وهو أن يفعل الساحر أشياء ومعانى ، فيُخيَّل للمسحور أنهـا بخلاف ما هى به؛ كالذى يرى السراب من بعيد فيُخيَّل إليه أنه ماء ، وكراكب السفينة السائرة سيرًا حثيثًا يُخيَّل إليه أن ما يرى من الأشجـار والجبال سائرة معه . وقيـل : هو مشتقّ من سَحرتُ الصبىَّ إذا خدعته ، وكذلك إذا عللته . والتسحير مثله؛ قال لَبيد :

فإنْ تسألينا فِيمَ نحن فإنّنـا ✻ عصافيرُ من هذا الأنام المُسَحَّرِ

---

(١) راجع جـ ١٢ ص ٧٩ (٢) راجع جـ ١ ص ٩٠ طبعة ثانية . (٣) راجع جـ ٧ ص ٣٨٤

Marfat.com

آخـــر[١] :

أرانا مُوضِعين لأمرٍ غَيْبٍ[٢] * ونُسْحَرُ بالطعام وبالشراب
عصافيرٌ وذِبّانٌ ودُودٌ * وأجْرأ من مُجَلِّحَةِ[٣] الذئاب

وقوله تعالى : «إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ» يقال : المُسَحَّر الذى خُلِق ذا سَحْر، ويقال من المعلِّلين ؛ أى ممن يأكل الطعام ويشرب الشراب . وقيل : أصله الخفاء ، فإن الساحر يفعله فى خُفية . وقيل : أصله الصَّرف؛ يقال : ما سَحَرك عن كذا ، أى ما صرفك عنه؛ فالسِّحر مصروف عن جهته . وقيل : أصله الآستمالة؛ وكلُّ مَن آستمالك فقد سحرك . وقيل فى قوله تعالى : « بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ » أى سُحِرنا فأزلنا بالتخييل عن معرفتنا . وقال الجوهرى : السِّحر الأُخْذة ، وكلُّ ما لَطُف مأخذه ودَقّ فهو سحر؛ وقد سحره يَسحره سحرًا. والساحر : العالم ، وسحره أيضا بمعنى خدعه ؛ وقد ذكرناه . وقال آبن مسعود : كنّا نُسمّى السحر فى الجاهلية العِضَه . والعِضَهُ عند العرب : شدّة البَهْت وتمويه الكذب؛ قال الشاعر:

أعـوذ بربِّى من النّافثا * ت فى عِضَهِ العاضه المُعْضِه

الرابعـــة — واختلف هل له حقيقة أم لا؛ فذكر الغَزْنَوِىّ الحنفى فى عيون المعانى له : أن السحر عند المعتزلة خدع لا أصل له ، وعند الشافعى وسوسة وأمراض . قال : وعندنا أصله طِلَّسْم يُبنى على تأثير خصائص الكواكب؛ كتأثير الشمس فى زئبق عِصِىّ فرعون، أو تعظيم الشياطين ليسهِّلوا له ما عَسُر .

قلت : وعندنا أنه حقّ وله حقيقة يخلق الله عنده ما شاء؛ على ما يأتى . ثم من السحر ما يكون بخفّة اليد كالشَّعْوذة . والشَّعْوَذِىّ : البريد لخفّة سيره . قال آبن فارس فى المُجْمَل : الشَّعوذة ليست من كلام أهل البادية، وهى خفة فى اليدين وأُخْذةٌ كالسحر؛ ومنه ما يكون كلامًا يُحفظ، ورُقًى من أسماء الله تعالى . وقد يكون من عهود الشياطين؛ ويكون أدوية وأدخنة وغير ذلك .

---

(١) هو آمرؤ القيس؛ كما فى ديوانه واللسان . (٢) موضعين : مسرعين . لأمر غيب : يريد الموت؛ وأنه قد غيب عنا وقته ، ونحن نلهى عنه بالطعام والشراب . (٣) ذئب مجلح : جرىء .

الخامســـة ــ سَمّى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الفصاحةَ فى الكلام واللِّسانة فيه سِحْرًا؛ فقال : " إنّ من البيان لَسحْرًا " أخرجه مالك وغيره . وذلك لأن فيه تصويب الباطل حتى يتوهّم السامع أنه حـق؛ فعلى هـذا يكون قوله عليـه السلام . " إنّ من البيان لَسِـحْرًا " خرج مخرج الذم للبـلاغة والفصاحة ، إذ شبّهها بالسحر . وقيل : خرج مخرج المدح للبلاغة والتفضيل للبيان؛ قاله جماعة من أهل العلم . والأوّل أصح، والدليل عليه قوله عليه السلام : " فلعلّ بعضَكم أن يكون أَلْحَنَ بحجّته من بعض " ، وقـوله : " إنّ أبغضكم إلىّ الثَّرْثَارون المُتَفَيْهِقُون " . الثَّرثرة : كثرة الكلام وترديده؛ يقال: ثرثر الرجل فهو ثَرثار مِهذار . والمُتَفيْهِق نحوه . قال آبن دُريد . فلان يتفَيْهَق فى كلامه إذا توَسّع فيه وتنطّع ؛ قال : وأصله الفَهْق وهو الأمتلاء؛ كأنه ملأ به فمه .

قلت : وبهـذا المعنى الذى ذكرناه فسّره عامر الشعبىّ راوى الحـديث وصَعْصَعة بن صُوحان فقالا : أمّا قوله صلى الله عليه وسلم :"إنّ من البيان لسحرًا" فالرجل يكون عليه الحق وهو أَلْحَنُ بالحجج من صاحب الحق فيَسْحَرُ القومَ ببيانه فيذهب بالحق وهو عليه؛ وإنما يحمد العلمـاء البلاغة واللسانة ما لم تخرج إلى حدّ الإسهاب والإطناب، وتصوير الباطل فى صورة الحق . وهذا بيّن، والحمد لله .

السادســـة ــ مِن السِّحر ما يكون كُفْرًا من فاعله ؛ مثل ما يدّعون من تغيير صُوَر الناس، وإخراجهم فى هيئة بَهيمة، وقطع مسافة شهر فى ليلة، والطيران فى الهواء؛ فكل مَن فعل هذا ليُوهِم الناس أنه محقّ فذلك كفر منه ؛ قاله أبو نصر عبـد الرحيم القُشَيرى . قال أبو عمرو : من زعم أن الساحر يُقلب الحيوان من صورة إلى صورة ، فيجعل الإنسان حمـارا أو نحوه ، ويقدر على نقل الأجساد وهلاكها وتبديلها؛ فهذا يرى قتل الساحر لأنه كافر بالأنبياء، يدّعى مثـل آياتهم ومعجزاتهم ، ولا يتهيّأ مع هـذا علم صحة النبوّة إذ قد يحصل مثلها بالحيـلة . وأما من زعم أن السحر خُدَع ومخاريق وتمويهات وتخييلات فلم يجب على أصله قتل الساحر، إلا أن يَقتل بفعله أحدا فيُقتل به .

Marfat.com

السابعــة — ذهب أهل السُّنة إلى أن السحر ثابت وله حقيقة . وذهب عامّة المعتزلة وأبو إسحاق الأسترابادى من أصحاب الشافعى إلى أن السحر لا حقيقة له ، وإنما هو تمويه وتخييل وإيهام لكون الشيء على غير ما هو به ، وأنه ضَرْب من الخفّة والشَّعْوَذة ، كما قال تعالى : « يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ »(١) ولم يقل تسعى على الحقيقة ، ولكن قال « يُخَيَّل إليه » . وقال أيضا : « سَحَرُوا أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ »(٢) . وهـذا لا حجة فيه ؛ لأنا لا ننكر أن يكون التخييل وغيره من جملة السحر ، ولكن ثبت وراء ذلك أمور جوّزها العقل وورَد بها السمع ؛ فمن ذلك ما جاء فى هذه الآية من ذكر السحر وتعليمه ، ولو لم يكن له حقيقة لم يمكن تعليمه ، ولا أخبر تعالى أنهم يعلّمونه الناس ، فدلّ على أن له حقيقة . وقوله تعالى فى قصة سَحَرة فرعون : « وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ » وسورة « الفلق » ، مع اتفاق المفسرين على أن سبب نزولها ما كان من سحر لَبِيد بن الأعصم ، وهو مما خرّجه البخارى ومسلم وغيرهما عن عائشة رضى الله عنها قالت : سَحر رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يهودىٌّ من يهود بنى زُرَيق يقال له لَبِيد بن الأعصم ، الحديث . وفيه : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لمـا حُلّ السِّحر : "إن الله شفانى" . والشفاء إنما يكون برفع العِلّة وزوال المرض ؛ فدلّ على أن له حقًّا وحقيقة ، فهو مقطوع به بإخبار الله تعالى ورسوله على وجوده ووقوعه . وعلى هذا أهل الحلّ والعقد الذين ينعقد بهم الإجماع ، ولا عبرة مع اتفاقهم بحُثَالة المعتزلة ومخالفتهم أهل الحق . ولقد شاع السِّحر وذاع فى سابق الزمان وتكلّم الناس فيه ، ولم يَبْدُ من الصحابة ولا من التابعين إنكار لأصله . وروى سفيان عن أبى الأعور عن عكرمة عن ابن عباس قال : عُلِّم السحر فى قرية من قرى مصر يقال لها : « الفَرَما » فمن كذّب به فهو كافر ، مكذّب لله ورسوله ، منكرٌ لما عُلم مشاهدةً وعِيانًا .

الثامنــة — قال علماؤنا : لا يُنكَر أن يظهر على يد الساحر خَرْق العادات مما ليس فى مقدور البشر من مرض وتفريق وزوال عقل وتعويج عضو ، إلى غير ذلك مما قام الدليل على استحالة كونه من مقدورات العباد . قالوا : ولا يبعد فى السحر أن يستدقّ جسم الساحر حتى يتولج فى الكُوّات والخوخات والانتصاب على رأس قصبة ، والجَرْى على

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٢٢ (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٥٩

Marfat.com

خيط مستدقّ، والطيران فى الهواء والمشى على المـاء وركوب كلب وغير ذلك . ومع ذلك فلا يكون السحر موجبًا لذلك، ولا علّة لوقوعه ولا سببًا مولدا، ولا يكون الساحر مستقلا به، وإنما يخلق الله تعالى هذه الأشياء ويُحدِثها عند وجود السّحر، كما يخلق الشبع عند الأكل، والرّى عند شرب المـاء . روى سفيان عن عمار الذّهبى أن ساحرا كان عند الوليد بن عُقْبة يمشى على الحبل، ويدخل فى آسْت الحمار ويخرج من فيه؛ فاشتمل له جُنْدُب على السيف فقتله جندب — هذا هو جُنْدَب بن كعب الأزدى ويقال البَجَلى — وهو الذى قال فى حقه النبىّ صلى الله عليه وسلم : "يكون فى أمتى رجل يقال له جندب يضرب ضربة بالسيف يفرّق بين الحق والباطل" . فكانوا يرونه جُنْدَبًا هذا قاتل الساحر . قال على بن المدينى : روى عنه حارثة بن مُضَرِّب .

التاســـعة — أجمع المسلمون على أنه ليس فى السحر ما يفعل الله عنــده إنزال الجراد والقُمّل والضفادع وفلق البحر وقلب العصا وإحياء الموتى وإنطاق العجماء، وأمثال ذلك من عظيم آيات الرسل عليهم السلام . فهذا ونحوه مما يجب القطع بأنه لا يكون ولا يفعله الله عند إرادة الساحر . قال القاضى أبو بكر بن الطيّب : وإنما منعنا ذلك بالإجماع ولولاه لأجزناه .

العـاشرة — فى الفرق بين السحر والمعجزة؛ قال علمـاؤنا : السحر يوجد من الساحر وغيره، وقد يكون جماعة يعرفونه ويمكنهم الإتيان به فى وقت واحد . والمعجزة لا يمكّن الله أحدا أن يأتى بمثلها وبمعارضتها؛ ثم الساحر لم يَدّع النبوّة فالذى يصدر منه متميّز عن المعجزة؛ فإن المعجزة شرطها اقتران دعوى النبوّة والتحدّى بها، كما تقدّم[(1)] فى مقدّمة الكتاب .

الحادية عشرة — واختلف الفقهاء فى حكم الساحر المسلم والذّمىّ؛ فذهب مالك إلى أن المسلم إذا سحر بنفسه بكلام يكون كفرًا يُقتل ولا يُستتاب ولا تُقبل توبته؛ لأنه أمرٌ يستَسِرّ به كالزنديق والزانى، ولأن الله تعـالى سمّى السحر كفرًا بقوله : « وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ » وهو قول أحمـد بن حنبل وأبى ثور وإسحاق والشافعى

(1) يراجع جـ ١ ص ٦٩ وما بعدها طبعة ثانية .

Marfat.com

وأبى حنيفة . ورُوى قتــل الساحر عن عمــر وعثمان وآبن عمر وحفصة وأبى موسى وقيس ابن سعد وعن سبعة من التابعين . ورُوى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم: "حَدُّ الساحرِ ضَرْبُهُ بالسيف" خرّجه الترمذى وليس بالقوىّ؛ آنفرد به إسماعيل بن مسلم وهو ضعيف عندهم ، رواه آبن عُيَيْنة عن إسماعيل بن مسلم عن الحسن مُرْسَـلًا ؛ ومنهم من جعله عن الحسن عن جُنْدَب . قال آبن المنذر : وقد رَوَينا عن عائشة أنها باعت ساحرة كانت سحرتها وجعلت ثمنها فى الرِّقاب . قال آبن المنذر : وإذا أقرّ الرجل أنه سحر بكلام يكون كفرا وجب قتله إن لم يَتُب ، وكذلك لو ثبتت به عليــه بيّنة ووصفت البينة كلامًا يكون كفرا . وإن كان الكلام الذى ذكر أنه سَحَر به ليس بكفر لم يجز قتــله ، فإن كان أحدث فى المسحور جناية توجب القصاص آقتُصّ منه إن كان عَمَد ذلك ؛ وإن كان مما لا قصاص فيه ففيه دِيَة ذلك . قال آبن المنــذر : وإذا آختلف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسـلم فى المسألة وجب آتباع أشبههم بالكتاب والسُّنة ؛ وقــد يجوز أن يكون السِّحر الذى أَمَر من أمر منهم بقتل الساحر سحرا يكون كفرا فيكون ذلك موافقًا لسُنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويحتَمل أن تكون عائشة رضى الله عنها أمرت ببيع ساحرة لم يكن سحرها كفرًا . فإن آحتجّ محتجّ بحديث جُنْدَب عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : "حَدُّ الساحر ضربه بالسيف" فلو صحّ لآحتمل أن يكون أمر بقتل الساحر الذى يكون سحره كفرا ، فيكون ذلك موافقا للأخبار التى جاءت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا يحلّ دَمُ آمرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث ..."

قلت : وهذا صحيح ، ودماء المسلمين محظورة لا تُستباح إلا بيقين ولا يقين مع الآختلاف. والله تعـالى أعلم . وقال بعض العلماء : إن قال أهل الصناعة أن السحر لا يتمّ إلا مع الكفر والآستكبار، أو تعظيم الشيطان فالسحر إذًا دالٌّ على الكفر على هذا التقدير، والله تعالى أعلم. وروى عن الشافعى : لا يُقتل الساحر إلا أن يَقتل بسحره ويقول تعمّدت القتل ، وإن قال لم أتعمده لم يُقتل ، وكانت فيه الدّية كقتل الخطأ ؛ وإن أضرّ به أُدِّب على قدر الضرر . قال آبن العربى : وهــذا باطل من وجهين ؛ أحدهما : أنه لم يعلم السحر ، وحقيقته أنه كلام

Marfat.com

مؤلف يُعظَّم به غير الله تعالى، وتُنسب إليه المقادير والكائنات . الثانى : أن الله سبحانه قد صرّح فى كتابه بأنه كُفر فقال : « وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ » بقول السحر « وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا » به و بتعليمه . وهاروت وماروت يقولان : « إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ » وهذا تأكيد للبيان .

احتج أصحاب مالك بأنه لا تُقبل توبته ؛ لأن السحر باطن لا يُظهره صاحبه فلا تعرف توبته كالزنديق ؛ و إنما يستتاب من أظهر الكفر مرتدًّا . قال مالك : فإن جاء الساحر أو الزنديق تائبا قبل أن يُشهد عليهما قُبلت توبتهما ؛ والحجة لذلك قوله تعالى : « فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا »[1] فدلّ على أنه كان ينفعهم إيمانهم قبل نزول العذاب ، فكذلك هذان .

الثانية عشرة — وأما ساحر الذِّمة ؛ فقيل يُقتل . وقال مالك : لا يُقتل إلا أن يَقتل بسحره و يضمن ماجَنَى، ويُقتل إن جاء منه مالم يُعاهد عليه . وقال ٱبن خُوَيْزِمَنْدَاد : فأمّا إذا كان ذِمّيًّا فقد ٱختلفت الرواية عن مالك ؛ فقال مَرّة : يُستتاب وتوبتُه الإسلام . وقال مَرّة : يُقتل و إن أسلم . وأما الحربيّ فلا يُقتل إذا تاب؛ وكذلك قال مالك فى ذِمّيّ سبّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم : يُستتاب وتوبتُه الإسلام . وقال مَرّة : يُقتل ولا يُستتاب كالمسلم . وقال مالك أيضا فى الذِّمى إذا سَحَر: يُعاقب؛ إلا أن يكون قَتل بسحره، أو أحدث حَدَثًا فيؤخذ منه بقدره . وقال غيره : يُقتل؛ لأنه قد نقض العهد . ولا يرث الساحرَ ورثتُه؛ لأنه كافر إلا أن يكون سِحْره لا يُسمَّى كفرًا . وقال مالك فى المرأة تَعقد زوجها عن نفسها أو عن غيرها : تُنَكَّل ولا تُقتل .

الثالثة عشرة — وٱختلفوا هل يُسئل الساحر حلّ السحر عن المسحور ؛ فأجازه سعيد ابن المسيّب على ما ذكره البخارى، و إليه مال المُزَنيّ وكرهه الحسن البصرى . وقال الشّعبي : لا بأس بالنُّشْرة[2] . قال ٱبن بَطّال : وفى كتاب وَهْب بن مُنَبّه أن يأخذ سبع ورقات من سِدْر

---

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣٣٦		(٢) النشرة (بالضم) : ضرب من الرقية والعلاج ، يعالج به من كان يظن أن به مسًّا من الجن ؛ لأنه يُنشر بها عنه ما خامره من الداء، أى يكشف و يزال .

Marfat.com

أخضر فيدقّه بين حجرين ثم يضر به بالماء و يقرأ عليه آية الكرسى، ثم يَحْسُو منه ثلاث حَسَوات و يغتسل به ؛ فإنه يذهب عنه كل ما به ، إن شاء الله تعالى، وهو جيّد للرجل إذا حُبس عن أهله .

الرابعـة عشرة — أنكر معظم المعتزلة الشياطين والجن ؛ ودلّ إنكارهم على قلّة مبالاتهم وركاكة دياناتهم، وليس فى إثباتهم مستحيل عقلىّ ؛ وقد دلّت نصوص الكتاب والسُّنة على إثباتهم، وحقّ على اللبيب المعتصم بحبل الله أن يثبت ما قضى العقل بجوازه، ونصّ الشرع على ثبوته ؛ قال الله تعالى : « وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا » وقال : «وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ[1]» إلى غير ذلك من الآى، وسورة «الجنّ» تقضى بذلك ؛ وقال عليه السلام : "إن الشيطان يجرى من ابن آدم مَجْرَى الدم" . وقد أنكر هـذا الخبر كثير من الناس، وأحالوا روحين فى جسد؛ والعقل لا يحيل سلوكهم فى الإنس إذا كانت أجسامهم رقيقة بسيطة على ما يقوله بعض الناس بل أكثرهم ؛ ولو كانوا كثافا لصحّ ذلك أيضا منهم، كما يصح دخول الطعام والشراب فى الفراغ من الجسم، وكذلك الدِّيدان قد تكون فى بنى آدم وهى أحياء .

الخامسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ ﴾ « ما » نفى؛ والواو للعطف على قوله : « وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ » وذلك أن اليهود قالوا : إن الله أنزل جبريل وميكائيل بالسحر؛ فنفى الله ذلك . وفى الكلام تقديم وتأخير ، التقدير وما كفر سليمان ، وما أنزل على الملكين، ولكن الشياطين كفروا يعلّمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت؛ فهاروت وماروت بدل من الشياطين فى قوله « وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا » . هـذا أولى ما حُملت عليه الآية من التأويل ، وأصحّ ما قيل فيها ولا يلتفت إلى سواه ؛ فالسحر من استخراج الشياطين للطافة جوهرهم، ودقّة أفهامهم؛ وأكثر ما يتعاطاه من الإنس النساءُ وخاصّةً فى حال طَمْثِهِنّ؛ قال الله تعالى : « وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ[2] » . وقال الشاعر :

أعوذ بربّى من النّـافثا ت ... ...

السادسة عشرة — إن قال قائل : كيف يكون اثنان بدلا من جمع والبدلُ إنما يكون على حدّ المبدَل منه ؛ فالجواب من وجوه ثلاثة ؛ الأول : أن الاثنين قد يُطلق عليهما اسم

(١) راجع جـ ١١ ص ٣٢٢ (٢) راجع جـ ٢٠ ص ٢٥٧

الجمع ؛ كما قال تعـالى : « فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ » ولا يحجبها عن الثلث إلى السّدس إلا آثنان من الإخوة فصاعدا ؛ على ما يأتى بيانه فى « النساء » (١) . الثانى : أنهما لمّا كانا الرأس فى التعليم نصّ عليهما دون أتباعهما ؛ كما قال تعـالى : « عَلَيْهَا تِسْـعَةَ عَشَرَ » (٢) الثالث : إنما خُصّا بالذّكر من بينهم لتمرّدهما ؛ كما قال تعالى : « فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ » (٣) وقوله : « وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ » . وهذا كثير فى القرآن وفى كلام العـرب ، فقد ينصّ بالذكر على بعض أشخاص العموم إمّا لشرفه و إمّا لفضله ؛ كقوله تعالى : « إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَذَا ٱلنَّبِيُّ » (٤) وقـوله : « وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ » ، و إمّا لطيبه كقوله : « فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ » ، و إمّا لأكثريته ؛ كقوله صلى الله عليه وسلم : "جُعلت لىَ الأرضُ مسجدًا وتربتها طهـورا" ، و إمّا لتمرّده وعُتُوّه كما فى هـذه الآية ، والله تعالى أعلم . وقد قيل : إن « ما » عطف على السِّحر وهى مفعولة ؛ فعلى هذا يكون « ما » بمعنى الذى ، و يكون السحر متّزلا على الملكين فتنة للناس وآمتحانًا ، ولله أن يمتحن عباده بما شاء ، كما آمتحن بنهر طالوت ، ولهذا يقول المَلَكان : إنمـا نحن فتنة ؛ أى مِحْنَة من الله ، نخبرك أن عمـل الساحر كُفر فإن أطعتنا نجوْت ، و إن عصيْتنا هلكت . وقد روى عن علىّ وآبن مسعود وآبن عباس وآبن عمـر وكعب الأحبار والسّـدّى والكلبي ما معناه : أنه لمـا كثر الفساد من أولاد آدم عليـه السلام — وذلك فى زمن إدريس عليه السلام — عيّرتهم الملائكة ؛ فقال الله تعالى : أمَا إنكم لو كنتم مكانهم و رَكّبت فيكم ما رَكّبت فيهم لعَمِلتم مثل أعمالهم ؛ فقالوا : سبحانك ! ما كان ينبغى لنا ذلك ؛ قال : فآختاروا مَلَكين من خياركم ؛ فآختاروا هاروت وماروت ، فأنزلهما إلى الأرض فركّب فيهما الشّهوة ، فما مرّ بهما شهر حتى فُتِنَا بآمرأة آسمها بالنّبطيّة « بيدخت » و بالفارسية « ناهيل » (٥) و بالعربية « الزُّهَرَة » آختصمت إليهما ، وراوداها عن نفسها فأبتْ إلّا أن يدخلا فى دينها و يشربا الخمر و يقتلا النفس التى حرّم الله ؛ فأجاباها وشربَا الخمر وألمّا بها ؛ فرآهما رجل فقتلاه ، وسألتهما عن الآسم الذى يصعدان به إلى السماء فعلّماها فتكلّمت به

(١) راجع جـ ٥ ص ٧٢ . (٢) راجع جـ ١٩ ص ٧٧ . (٣) راجع جـ ١٧ ص ١٨٥ .
(٤) راجع جـ ٤ ص ١٠٩ . (٥) فى بعض نسخ الأصل : « ناهيد » بالدال المهملة بدل اللام .

Marfat.com

فعرجت فمسخت كوكبا . وقال سالم عن أبيه عن عبد الله : فحدثني كعب الحبر أنهما لم يستكملا يومهما حتى عملا بما حرّم الله عليهما . وفي غير هذا الحديث : فخُيّرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فآختارا عذاب الدنيا ؛ فهما يُعذّبان ببابل في سَرَب من الأرض . قيل : بابل العراق . وقيل : بابل نهاوند . وكان آبن عمر فيما يُروَى عن عطاء أنه كان إذا رأى الزُّهَرة وسُهيلا سبّهما وشتمهما ؛ و يقول : إن سُهيلا كان عشّارا(١) باليمن يظلم الناس ؛ و إن الزُّهَرة كانت صاحبة هاروت وماروت .

قلنا : هذا كلّه ضعيف و بعيد عن آبن عمر وغيره ، لا يصحّ منه شيء ؛ فإنه قول تدفعه الأصول في الملائكة الذين هم أمناء الله على وحيه ، وسُفراؤه إلى رسله «لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ»(٢) . «بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ . لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ»(٣) . «يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ»(٣) . وأما العقل فلا يُنكر وقوع المعصية من الملائكة و يوجد منهم خلاف ما كلفوه ، ويخلق فيهم الشهوات ؛ إذ في قدرة الله تعالى كل موهوم ؛ ومن هذا خوف الأنبياء والأولياء الفضلاء العلماء ، لكن وقوع هذا الجائز لا يُدرك إلا بالسمع ولم يصح . ومما يدلّ على عدم صحته أن الله تعالى خلق النجوم وهذه الكواكب حين خلق السماء ؛ ففي الخبر : "أن السماء لما خلقت خلق فيها سبعة دوّارة زُحَل والمُشْتَرِي وبَهرام وعُطارد والزُّهَرة والشمس والقمر". وهذا معنى قول الله تعالى : «وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ»(٣) . فثبت بهذا أن الزُّهَرة وسُهيلا قد كانا قبل خلق آدم ؛ ثم إن قول الملائكة : «ما كان ينبغي لنا» عورة(٤) : لا تقدر على فتنتنا ؛ وهذا كُفر نعوذ بالله منه ومن نسبته إلى الملائكة الكرام صلوات الله عليهم أجمعين ؛ وقد نزّهناهم وهم المنزهون عن كل ما ذكره ونقله المفسرون ، سبحان ربّك ربّ العزّة عما يَصفون .

السابعة عشرة — قرأ آبن عباس وآبن أَبْزَى والضحاك والحسن : « المَلِكين » بكسر اللام . قال آبن أَبْزَى : هما داود وسليمان . فـ«ما» على هذا القول أيضا نافية ؛ وضعّف هذا القول آبن العربي . وقال الحسن : هما عِلْجان كانا ببابل مَلِكين ؛ فـ«ما» على هذا القول مفعولة غير نافية .

(١) العشار : الذي يقبض عشر الأموال . (٢) راجع جـ ١٨ ص ١٩٦ (٣) راجع جـ ١١ ص ٢٨١ ، ٢٧٨ . (٤) كذا في أ ، ب ، جـ . وفي ح ، ز : « عوده » . وكتب على هامش الأزهرية : « لعله تقديره » . وقد تكون هذه الكلمة محرفة عن « غوره » وغور كل شيء : عمقه و بعده .

الثامنة عشرة — قوله تعالى : ﴿ بِبَابِلَ ﴾ بابل لا ينصرف للتأنيث والتعريف والعُجْمة، وهي قُطر من الأرض ؛ قيـل : العراق وما والاه . وقال آبن مسعود لأهل الكوفة : أنتم بين الحِيرة و بابل . وقال قتادة : هى من نَصِيبِين إلى رأس العين . وقال قوم : هى بالمغرب . قال آبن عطية : وهذا ضعيف . وقال قوم : هو جبل نهاوَنْد؛ فالله تعالى أعلم .

وآختلف فى تسميته ببابل ؛ فقيـل : سُمِّىَ بذلك لتبلبل الألسن بهـا حين سقط صَرْح نمروذ . وقيـل : سُمِّىَ به لأن الله تعالى لمـا أراد أن يخالف بين ألسـنة بنى آدم بعث ريحًا فحشرتهم من الآفاق إلى بابل؛ فبلبل الله ألسنتهم بها ؛ ثم فرقتهم تلك الريح فى البـلاد . والبلبلة : التفريق؛ قال معناه الخليل . وقال أبو عمر بن عبد البر: من أخصر ما قيل فى البَلْبَلَة وأحسنه ما رواه داود بن أبى هند عن عِلْبَاء بن أحمر عن عكرمة عن آبن عباس أن نوحا عليه السلام لمـا هبط إلى أسفل الجُـودِىّ آبتنى قرية وسمّاها ثمـانين ؛ فأصبح ذات يوم وقـد تَبَلْبَلَت ألسنتهم على ثمانين لغة، إحداها اللسان العربى ، وكان لا يفهم بعضهم عن بعض .

التاسعة عشرة — روى عبدالله بن بشر المـازنى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اتّقُوا الدنيا فوالذى نفسى بيـده إنها لأسحر من هاروت وماروت" . قال علماؤنا : إنمـا كانت الدنيا أسحر منهما لأنها تسحرك بخدعها ، وتكتمك فتنتَها ، فتـدعوك إلى التحارص عليها والتنافس فيها ، والجمع لها والمنع ، حتى تفرق بينك وبين طاعة الله تعالى ، وتفرق بينك وبين رؤية الحق ورعايته ؛ فالدنيا أسحر منهما ، تأخذ بقلبك عن الله ، وعن القيام بحقوقه ، وعن وعده ووعيده . وسحر الدنيـا : محبّتها وتلذّذك بشهواتها ، وتمنّيك بأمانيها الكاذبة حتى تأخذ بقلبك ؛ ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "حُبّك الشىء يُعْمِى ويُصِمّ" .

الموفية عشرين — قوله تعالى : ﴿ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾ لا ينصرف « هاروت » ؛ لأنه أعجمىّ معرفة ، وكذا « ماروت » ؛ ويجمع هواريت ومواريت ، مثل طواغيت ؛ و يقـال : هوارتة وهوار ، وموارتة وموار ، ومثله جالوت وطالوت ؛ فآعلم . وقد تقدّم هل هما ملكان أو غيرهما ؟ خلاف . قال الزّجاج : ورُوِى عن علىّ رضى الله عنه أنه قال : أىْ والذى أنزل

Marfat.com

على المَلَكين، وأن الملكين يعلّمان الناس تعليم إنذار من السّحر لا تعليم دعاء إليـه . قال الزجاج : وهذا القول الذى عليه أكثر أهل اللغة والنظر، ومعناه أنهما يعلّمان الناس على النهى فيقولان لهم : لا تفعلوا كذا، ولا تحتالوا بكذا لتفرّقوا بين المرء وزوجه . والذى أُنزل عليهما هو النّهى، كأنه قولا للناس : لا تعملوا كذا؛ فـ « يُعَلِّمَان» بمعنى يُعْلِمان؛ كما قال : « وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ »(١) أى أكرمنا .

الحادية والعشرون — قوله تعـالى : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ ﴾ « من » زائدة للتوكيد، والتقدير : وما يعلمان أحدا . ﴿ حَتَّى يَقُولَا ﴾ نصب بحتى فلذلك حذفت منه النون؛ ولغـة هُذيل وثَقيف « عتّى » بالعين غير المعجمة . والضمير فى « يُعلّمان » لهـاروت وماروت . وفى «يُعَلِّمَان» قولان؛ أحدهما : أنه على بابه من التعليم . الثانى : أنه من الإعلام لا من التعليم؛ فـ « يُعَلِّمَان » بمعنى يُعْلِمان، وقد جاء فى كلام العرب تعـلّم بمعنى أعلم؛ ذكره آبن الأعرابى وآبن الأنبارى . قال كعب بن مالك :

تعـلّم رسـول الله أنك مُدْرِكى ﴿ وأنّ وعيدًا منك كالأخذ باليـد

وقال القُطامىّ :

تعلّم أنّ بعد الغَىّ رشـدا ﴿ وأنّ لذلك الغىّ آنقشاعا

وقال زُهـير :

تَعَـلَّمَنْ ها لعَمْـرُ الله ذا قسمًا ﴿ فآقدِر بذرعك وآنظر أين تَنْسلِكُ(٢)

وقال آخر :

تعـلّم أنــه لا طـير إلا ﴿ عـلى مُتَطيِّرٍ وهــو الثُّبُـور

﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ ﴾ لـمّا أنبأا بفتنتهما كانت الدنيا أسحر منهما حين كتمت فتنتها . ﴿ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ قالت فرقة بتعليم السحر، وقالت فرقة بآستعماله . وحكى المهدوىّ أنه آستهزاء؛ لأنهما إنما يقولانه لمن قد تحقّقا ضلاله .

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٩٣ (٢) فى البيت شاهد آخر، وهو تقديم « ها » التى للتنبيه على « ذا » وقد حال بينهما بقوله : « لعمر الله ». والمعنى تعلمن لعمر الله هذا ما أقسم به . وفى الديوان : «فاقصد بذرعك» .

Marfat.com

الثانيــة والعشرون — قوله تعــالى : ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا ﴾ قال سيبويه : التقدير فهــم يتعلمون؛ قال ومثله « كُنْ فَيَكُونُ » . وقيل : هو معطوف على موضع « مَا يُعَلِّمَانِ » ؛ لأن قوله : « وَمَا يُعَلِّمَانِ » وإن دخلت عليه ما النافية فضمَّنه الإيجاب في التعليم . وقال الفراء : هي مردودة على قوله : « يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ » فيتعلمون؛ ويكون « فيتعلّمون » متصلة بقوله « إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ » فيأتون فيتعلمون . قال السُّدّى : كانا يقولان لمن جاءهما : إنمــا نحن فتنة فلا تكفر؛ فإن أبى أن يرجع قالا له : ائت هــذا الرَّماد فَبُلْ فيه؛ فإذا بال فيه خرج منه نور يسطع إلى السماء ، وهو الإيمان ؛ ثم يخرج منه دخان أســود فيدخل في أذنيــه وهو الكفر ؛ فإذا أخبرهما بمــا رآه من ذلك علّماه ما يفرّقون به بين المرء وزوجه . ذهبت طائفة من العلماء إلى أن الساحر ليس يقــدر على أكثر ممــا أخبر الله عنه من التفرقة ؛ لأن الله ذكر ذلك في معرض الذمّ للسحر والغاية في تعليمه ؛ فلو كان يقــدر على أكثر من ذلك لذكره . وقالت طائفــة : ذلك خرج على الأغلب ، ولا ينكر أن السحر له تأثير في القــلوب ، بالحب والبُغض وبإلقاء الشرور حتى يفرق الساحر بين المرء وزوجه ، ويحول بين المرء وقلبه ، وذلك بإدخال الآلام وعظيم الأســقام؛ وكل ذلك مدرك بالمشاهدة وإنكاره معاندة ؛ وقــد تقدّم هذا، والحمد لله .

الثــالثة والعشرون — قوله تعــالى : ﴿ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ « مَا هُمْ » إشارة إلى السحرة . وقيــل إلى اليهود، وقيــل إلى الشياطين . « بِضَارِّينَ بِهِ » أى بالسحر . « مِنْ أَحَدٍ » أى أحدا؛ ومن زائدة . « إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ » أى بإرادته وقضائه لا بأمره؛ لأنه تعالى لا يأمر بالفحشاء ويقضى على الخلق بها . وقال الزجاج : « إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ » إلا بعلم الله . قال النحاس : وقول أبى إسحاق « إلّا بإذْن اللّه » إلا بعلم الله غلط ؛ لأنه إنما يقال في العــلم أَذِنَ ، وقد أَذِنْت أَذَنًا . ولكن لمــا لم يحل فيما بينهم وبينه وظلوا يفعلونه كان كأنه أباحه مجــازا .

الرابعة والعشرون — قوله تعــالى : ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ ﴾ يريد في الآخرة وإن أخذوا بها نفعًا قليلا في الدنيا . وقيل : يضرهم في الدنيــا ؛ لأن ضرر السحر والتفريق يعود

Marfat.com

على الساحر فى الدنيا إذا عثر عليه ؛ لأنه يُؤدّب ويُزجَر، ويلحقه شؤم السحر . وباقى الآى بين لتقدّم معانيها . واللام فى « وَلَقَدْ عَلِمُوا » لام توكيد . ﴿ لَمَنِ ٱشْتَرَاهُ ﴾ لام يمين، وهى للتوكيد أيضا . وموضع «مَن» رفع بالابتداء ؛ لأنه لا يعمل ما قبل اللام فيما بعدها . و«مَن» بمعنى الذى . وقال الفرّاء : هى للجازاة . وقال الزجاج : ليس هذا بموضع شرط، و «مَن» بمعنى الذى ؛ كما تقول : لقد علمت، لمن جاءك ما له عقل . ﴿ مِنْ خَلَاقٍ ﴾ «من» زائدة ، والتقدير ما له فى الآخرة خلاق، ولا تزاد فى الواجب ؛ هذا قول البصريين . وقال الكوفيون: تكون زائدة فى الواجب ،واستدلوا بقوله تعالى : «يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ»[1] والخلاق: النصيب ؛ قاله مجاهد . قال الزجاج : وكذلك هو عند أهل اللغة ، إلا أنه لا يكاد يستعمل إلا للنصيب من الخير . وسئل عن قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ ٱشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِى ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾ فأخبر أنهم قد علموا ؛ ثم قال : ﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ فأخبر أنهم لا يعلمون ؛ فالجواب وهو قول قُطْرُب والأخفش : أن يكون الذين يعلمون الشياطين ،والذين شَرَوْا أنفسهم — أى باعوها — هم الإنس الذين لا يعلمون . قال الزجاج وقال على بن سليمان : الأجود عندى أن يكون « وَلَقَدْ عَلِمُوا » للملكين ؛ لأنهما أولى بأن يعلموا . وقال : «علموا» كما يقال : الزيدان قاموا . وقال الزجاج : الذين علموا علماء اليهود ؛ ولكن قيل : «لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» أى فدخلوا فى محل من يقال له : لست بعالم ؛ لأنهم تركوا العمل بعلمهم واسترشدوا من الذين عملوا بالسحر .

قوله تعـالى : وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَٱتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَٱتَّقَوْا ﴾ أى اتقوا السحر . ﴿ لَمَثُوبَةٌ ﴾ المثوبة الثواب ؛ وهى جواب « وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا » عند قوم . وقال الأخفش سعيد : ليس لـ « لَوْ » هنا جواب فى اللفظ ولكن فى المعنى ؛ والمعنى لأثيبوا . وموضع «أنّ» من قوله : « وَلَوْ أَنَّهُم » موضع رفع ؛ أى لو وقع إيمانهم ؛ لأن « لو » لا يليها إلا الفعل ظاهرا أو مضمرا ؛ لأنها بمنزلة حروف الشرط إذ كان لا بدّ له من جواب ؛ و « أنّ » يليه فعل . قال محمد بن يزيد :

(١) راجع جـ ١٦ ص ٢١٧

Marfat.com

وإنما لم يجاز بـ «لو» لأن سبيل حروف المجازاة كلها أن تقلب الماضى إلى معنى المستقبل، فلما لم يكن هذا فى «لو» لم يجز أن يجازى بها .

قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١٠٤)

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا ﴾ ذكر شيئا آخر من جهالات اليهود، والمقصود نهى المسلمين عن مثل ذلك . وحقيقة « رَاعِنَا » فى اللغة أَرْعِنَا ولْنَرْعَك ؛ لأن المفاعلة من اثنين ؛ فتكون من رعاك الله ، أى احفظنا ولنحفظك ، وارْقُبْنا ولنرقبك . ويجوز أن يكون من أرعنا سمعك؛ أى فرّغ سمعك لكلامنا . وفى المخاطبة بهذا جفاء؛ فأمر المؤمنين أن يتخيّروا من الألفاظ أحسنها ومن المعانى أرقّها . قال ابن عباس : كان المسلمون يقولون للنبيّ صلى الله عليه وسلم : راعنا . على جهة الطلب والرّغبة — من المراعاة — أى التفت إلينا ؛ وكان هذا بلسان اليهود سبًّا، أى اسمع لا سمعت ؛ فاغتنموها وقالوا : كنا نَسُبّه سرًّا فالآن نَسُبّه جهرًا؛ فكانوا يخاطبون بها النبيّ صلى الله عليه وسلم ويضحكون فيما بينهم ، فسمعها سعد بن معاذ وكان يعرف لغتهم؛ فقال لليهود : عليكم لعنة الله ! لئن سمعتها من رجل منكم يقولها للنبيّ صلى الله عليه وسلم لأضربنّ عنقه ؛ فقالوا : أولستم تقولونها ؟ فنزلت الآية ، ونُهُوا عنها لئلا تقتدى بها اليهود فى اللفظ وتقصد المعنى الفاسد فيه .

الثانية — فى هذه الآية دليلان : أحدهما — على تجنّب الألفاظ المحتملة التى فيها التعريض للتنقيص والغضّ، ويخرج من هذا فهم القذف بالتعريض، وذلك يوجب الحدّ عندنا خلافا لأبى حنيفة والشافعى وأصحابهما حين قالوا : التعريض محتمل للقذف وغيره، والحدّ مما يسقط بالشبهة . وسيأتى فى «النور»(١) بيان هذا، إن شاء الله تعالى .

الدليل الثانى : التمسّك بسدّ الذرائع(٢) وحمايتها وهو مذهب مالك وأصحابه وأحمد ابن حنبل فى رواية عنه ؛ وقد دلّ على هذا الأصل الكتابُ والسّنّة . والذّريعة عبارةٌ عن أمر

(١) راجع جـ ١٢ ص ١٧٥ . (٢) الذرائع (جمع الذريعة) وهى لغة : الوسيلة والسبب إلى الشىء .

Marfat.com

غير ممنوع لنفسه يخاف من آرتكابه الوقوع فى ممنوع . أما الكتاب فهذه الآية، ووجه التمسك بها أن اليهود كانوا يقولون ذلك وهى سبّ بلغتهم؛ فلما علم الله ذلك منهم منع من إطلاق ذلك اللفظ؛ لأنه ذريعة للسبّ، وقوله تعالى: «وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ»(١) فمنع من سبّ آلهتهم مخافة مقابلتهم بمثل ذلك، وقوله تعالى: «وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ»(١) الآية؛ فحرّم عليهم تبارك وتعالى الصيد فى يوم السبت؛ فكانت الحيتان تأتيهم يوم السبت شُرّعًا، أى ظاهرة، فسدّوا عليها يوم السبت وأخذوها يوم الأحد، وكان السّدّ ذريعة للاصطياد؛ فمسخهم الله قردة وخنازير؛ وذكر الله لنا ذلك فى معنى التحذير عن ذلك؛ وقوله تعالى لآدم وحوّاء: «وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ» وقد تقدّم(٢). وأمّا السّنة فأحاديث كثيرة ثابتة صحيحة، منها حديث عائشة رضى الله عنها أن أمّ حبيبة وأمّ سلمة رضى الله عنهنّ ذكرتا كنيسة رأياها بالحبشة فيها تصاوير [فذكرتا ذلك](٣) لرسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنَوْا على قبره مسجدا وصوّروا فيه تلك الصُّوَر أولئك شرار الخلق عند الله". أخرجه البخارى ومسلم. قال علماؤنا: ففعل ذلك أوائلهم ليتأنسوا برؤية تلك الصُّوَر ويتذكّروا أحوالهم الصالحة فيجتهدون كاجتهادهم ويعبدون الله عز وجل عند قبورهم، فمضت لهم بذلك أزمان، ثم أنهم خَلَف من بعدهم خلوف جهلوا أغراضهم، ووسوس لهم الشيطان أن آباءكم وأجدادكم كانوا يعبدون هذه الصورة فعبدوها؛ فحذّر النبىّ صلى الله عليه وسلم عن مثل ذلك، وشدّد النكير والوعيد على من فعل ذلك، وسدّ الذرائع المؤدّية إلى ذلك فقال: "اشتدّ غضب الله على قوم آتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد" وقال: "اللهمّ لا تجعل قبرى وثنا يُعبد". وروى مسلم عن النعمان بن بشير قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما أمور متشابهات فمن آتقى الشبهات آستبرأ لدينه وعرضه ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى يوشك أن يقع فيه"(٤) الحديث. فمنع من الإقدام

(١) راجع جـ ٧ ص ٦١ وص ٣٠٤ (٢) راجع جـ ١ ص ٣٠٤
(٣) زيادة عن صحيح البخارى. (٤) ورد هذا فى صحيح مسلم — كتاب البيوع — ببعض اختلاف فى ألفاظه.

دلائل قرآن

دلائل سنت

على الشبهات مخافة الوقوع فى المحرّمات ، وذلك سَدًّا للذريعة . وقال صلى الله عليه وسلم : " لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يَدَعَ ما لا بأس به حذرًا ممـا به البأس " . وقال صلى الله عليه وسلم : " إن من الكبائر شتم الرجل والديه " قالوا : يا رسول الله وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال : " نعم يَسُبُّ أبا الرجل فيَسُبُّ أباه و يسبُّ أُمَّه فيسبُّ أمّه " . فجعل التعرّض لسبّ الآباء كسبّ الآباء . وقال صلى الله عليه وسلم : " إذا تبايعتم بالعِينَة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلّط الله عليكم ذُلًّا لا ينزعه منكم حتى ترجعوا إلى دينكم ". وقال أبو عبيد الهَرَوِى : العِينَة هو أن يبيع الرجل من رجل سلعة بثمن معلوم إلى أجل مُسَمًّى، ثم يشتريها منه بأقل من الثمن الذى باعها به . قال : فإن ٱشترى بحضرة طالب العينة سلعة من آخر بثمن معلوم وقبضها ثم باعها من طالب العينة بثمن أكثر مما ٱشتراه إلى أجل مسمًّى ثم باعها المشـترى من البائع الأوّل بالنقد بأقل من الثمن فهذه أيضـا عِينة ، وهى أهون من الأولى، وهو جائز عند بعضهم . وسُمّيت عِينة لحصول النقد لصاحب العِينة؛ وذلك لأن العَيْن هو المـال الحاضر والمشترى إنما يشتريها ليبيعها بعَيْن حاضر يصل إليه من فوره . وروى ٱبن وهب عن مالك أن أم ولد لزيد بن الأَرْقَم ذكرت لعائشة رضى الله عنها أنها باعت من زيد عبدًا بثمانمائة إلى العطاء ثم ٱبتاعته منه بستمائة نقدًا؛ فقالت عائشة : بئس ما شَرَيتِ، و بئس ما ٱشتريت ! أبلغى زيدا أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إن لم يَتُب . ومثل هـذا لا يقال بالرأى ؛ لأن إبطال الأعمال لا يتوصّل إلى معرفتها إلا بالوَحْى ؛ فثبت أنه مرفوع إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : دَعُوا الربا والرِّيبة . ونهى ابن عباس رضى الله عنهما عن دراهم بدراهم بينهما حريزة (١) .

قلت : فهذه هى الأدلة التى لنـا على سدّ الذرائع ، وعليه بنى المـالكية كتاب الآجال وغيره من المسائل فى البيوع وغيرها . وليس عند الشافعية كتاب الآجال ؛ لأن ذلك عندهم

(١) كذا فى ا . وفى ب : « جريرة » . وفى جـ « حريرة » . وفى ح « جريزة » . ولم نوفق إلى وجه الصواب فيها .

Marfat.com

عقود مختلفة مستقلة ، قالوا : وأصل الأشياء على الظواهر لا على الظنون. والمالكية جعلوا السِّلعة محلّلة ليُتَوصَّل بها إلى دراهم بأكثر منها ، وهذا هو الربا بعينه ؛ فاعلمه .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ نهيٌ يقتضى التحريم، على ما تقدم. وقرأ الحسن «راعنًا» منونة . وقال : أى هُجْرًا من القول ،وهو مصدر ونصبه بالقول؛ أى لا تقولوا رُعُونة . وقرأ زِرّ بن حُبَيْش والأعمش «راعونا»؛ يقال لما نَتَأ من الجبل : رَعْنٌ ؛ والجبل أَرْعَن . وجَيْش أَرْعَن؛ أى متفرّق . وكذا رجل أَرْعن؛ أى متفرق الحجج وليس عقله مجتمعا؛ عن النحاس . وقال ابن فارس : رَعُن الرجل يَرْعَن رَعْنًا فهو أرْعَن؛ أى أهْوَج. والمرأة رَعْناء . وسُمِّيت البصرة رَعْناء لأنها تُشبّه بِرَعْن الجبل ؛ قال ابن دُرَيْد ذلك ، وأنشد للفرزدق :

لولا ابن عتبة عمــرو والرجاء له * ما كانت البصرة الرّعناء لى وطنـا

الرابعــة — قوله تعالى : ﴿وَقُولُوا انْظُرْنَا﴾ أُمِروا أن يخاطبوه صلى الله عليه وسلم بالإجلال؛ والمعنى : أَقبل علينا وانظر إلينا؛ فحذف حرف التعدية؛ كما قال :

ظاهرات الجمـال والحسن ينظر * ن كما ينظر الأراكَ الظِّبـاءُ

أى إلى الأراك . وقال مجاهد : المعنى فَهِّمنا و بَيِّن لنا . وقيل : المعنى انتظرنا وتأنّ بنا؛ قال:(١)

فإنكما إن تنظـرانىَ ساعةً * من الدهر ينفعنى لَدَى أُمِّ جُندَب

والظاهر استدعاء نظر العين المقترن بتدبّر الحال؛ وهذا هو معنى راعنا . فبدلت اللفظة للمؤمنين وزال تعلق اليهود . وقرأ الأعمش وغيره « أَنْظِرنا » بقطع الألف وكسر الظاء، بمعنى أَخِّرنا وأمهلنا حتى نفهم عنك ونتلقّى منك؛ قال الشاعر :(٢)

أبا هنــد فـلا تعجل علينا * وأَنْظِـرنا نخــبّرك اليقينا

الخامســة — قوله تعالى : ﴿وَاسْمَعُوا﴾ لما نهى وأمر جل وعز، حضّ على السمع الذى فى ضمنه الطاعة . وأعلم أن لمن خالف أمره فكفر عذابا أليمـا .

---

(١) القائل هو امرؤ القيس ؛ كما فى ديوانه . (٢) هو عمرو بن كلثوم .

Marfat.com

قوله تعالى : مَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾

قوله تعالى : ﴿ مَا يَوَدُّ ﴾ أى ما يتمنى ، وقد تقدّم (١) . ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ ﴾ معطوف على « أهل » . و يجوز : ولا المشركون ، تعطفه على الذين ؛ قاله النحاس . ﴿ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ ﴾ « من » زائدة ، « خير » آسم ما لم يُسمّ فاعله . و « أن » فى موضع نصب ؛ أى بأن ينزل . ﴿ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ قال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : « يختص برحمته » أى بنبوّته ، خص بها محمدا صلى الله عليه وسلم . وقال قوم : الرحمة القرآن . وقيل : الرحمة فى هذه الآية عامّة لجميع أنواعها التى قد منحها الله عباده قديما وحديثا ؛ يقال : رَحِم يَرْحَم إذا رقّ . وَالرُّحْمُ والمَرْحَمَة والرَّحمة بمعنًى ؛ قاله آبن فارس . ورحمة الله لعباده : إنعامه عليهم وعفوه لهم . ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ « ذو » بمعنى صاحب .

قوله تعالى : مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾

فيه خمس عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا ﴾ « نُنسِها » عطف على « ننسخ » ، وحذفت الياء للجزم . ومن قرأ « نَنْسَأْها » حذف الضمة من الهمزة للجزم ؛ وسيأتى معناه . ﴿ نَأْتِ ﴾ جواب الشرط ، وهذه آية عظمى فى الأحكام . وسببها أن اليهود لما حسدوا المسلمين فى التوجّه إلى الكعبة وطعنوا فى الإسلام بذلك ، وقالوا : إن محمدا يأمر أصحابه بشىء ثم ينهاهم عنه ؛ فما كان هذا القرآن إلا من جهته ، ولهذا يناقض بعضه بعضا ؛ فأنزل الله : « وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ (٢) » وأنزل « مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ » .

---

(١) يراجع ص ٣٤ من هذا الجزء .		(٢) راجع جـ ١٠ ص ١٧٦

Marfat.com

الثانيـــة — معرفة هذا الباب أكيدة وفائدته عظيمة ، لا يستغنى عن معرفته العلماء ، ولا ينكره إلا الجهـلة الأغبياء؛ لمـا يترتّب عليه من النوازل فى الأحكام، ومعرفة الحلال من الحرام . روى أبو البَخْتَرِىّ قال : دخل علىّ رضى الله عنه المسجد فإذا رجل يخوّف الناس؛ فقال : ماهذا ؟ قالوا : رجل يذكّر الناس ، فقال : ليس برجل يذكّر الناس ! لكنه يقول أنا فلان ٱبن فلان فٱعرفونى، فأرسل إليه فقال : أتعرف الناسخ من المنسوخ؟! فقال : لا ؛ قال : فٱخرج من مسـجدنا ولا تُذكّر فيــه . وفى رواية أُخرى : أعلمتَ الناسخ والمنسوخ ؟ قال : لا؛ قال : هلكتَ وأهلكتَ ! . ومثله عن ٱبن عباس رضى الله عنهما .

الثالثـــة — النسخ فى كلام العرب على وجهين :

أحدهمـا — النقل ، كنقل كتاب من آخر . وعلى هذا يكون القرآن كله منسوخا ، أعنى من اللوح المحفوظ و إنزاله إلى بيت العِزّة فى السماء الدنيا؛ وهذا لا مدخل له فى هذه الآية ؛ ومنه قوله تعالى : « إنّا كُنّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [(١)] » أى نأمر بنسخه و إثباته .

الثـانى : الإبطال والإزالة ، وهو المقصود هنا ؛ وهو منقسم فى اللغة على ضربين :

أحدهما : إبطال الشىء وزواله و إقامة آخر مقامه ؛ ومنه نسخَتِ الشمسُ الظلَّ إذا أذهبته وحلّت محله ؛ وهو معنى قوله تعالى : « مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا » . وفى صحيح مسـلم : " لم تكن نبوّة قطّ إلا تناسخت " أى تحوّلت من حال إلى حال ، يعنى أمر الأمّة . قال ٱبن فارس : النّسخ نسـخ الكتاب ، والنّسخ أن تزيل أمرًا كانــ من قبل يُعمل به ثم تنسخه بحادث غيره ؛ كالآية تنزل بأمر ثم ينسـخ بأخرى . وكلّ شىء خلف شيئا فقــد ٱنتسخه ؛ يقال : ٱنتسخت الشمسُ الظلَّ ، والشيبُ الشبابَ . وتناسُخ الورثة : أن تموت ورثة بعد ورثة وأصل الميراث قائم لم يقسم ؛ وكذلك تناسُخ الأزمنة والقرون .

الثـانى : إزالة الشىء دون أن يقوم آخر مقامه ؛ كقولهم : نسخت الريح الأثر ؛ ومن هذا المعنى قوله تعالى : « فَيَنْسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَانُ [(٢)] » أى يزيله فلا يتلى ولا يثبت فى المصحف بدله .

(١) راجع جـ ١٦ ص ١٧٥ (٢) راجع جـ ١٢ ص ٧٩

Marfat.com

وزعم أبو عبيد أن هذا النسخ الثانى قد كان ينزل على النبيّ صلى الله عليه وسلم السورة فتُرفع فلا تُتلى ولا تُكتب .

قلت : ومنه ما روى عن أُبَيّ بن كعب وعائشة رضى الله عنهما أن سورة « الأحزاب » كانت تعدل سورة البقرة فى الطول؛ على ما يأتى مبيّناً هناك (١) إن شاء الله تعالى . ومما يدل على هذا ما ذكره أبو بكر الأنبارى حدّثنا أبى حدّثنا نصر بن داود حدّثنا أبو عبيد حدّثنا عبد الله ابن صالح عن الليث عن يونس وعقيل عن ابن شهاب قال : حدّثنى أبو أمامة بن سهل ابن حُنيف فى مجلس سعيد بن المسيّب أن رجلا قام من الليل ليقرأ سورة من القرآن فلم يقدر على شىء منها، وقام آخر فلم يقدر على شىء منها، وقام آخر فلم يقدر على شىء منها ؛ فغدوْا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال أحدهم : قمتُ الليلة يا رسول الله لأقرأ سورة من القرآن فلم أقدر على شىء منها؛ فقام الآخر فقال : وأنا والله كذلك يا رسول الله؛ فقام الآخر فقال : وأنا والله كذلك يا رسول الله؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنها مما نَسخ الله البارحة". وفى إحدى الروايات : وسعيد بن المسيّب يسمع ما يحدّث به أبو أمامة فلا ينكره .

الرابعـــة — أنكرت طوائف من المنتمين للإسلام المتأخرين جوازه ؛ وهم محجوجون بإجماع السّلف السابق على وقوعه فى الشريعة . وأنكرته أيضا طوائف من اليهود ؛ وهم محجوجون بما جاء فى توراتهم بزعمهم أن الله تعالى قال لنوح عليه السلام عند خروجه من السفينة : إنى قد جعلت كل دابة مأْكَلًا لك ولذريّتك ، وأطلقت ذلك لكم كنبات العُشْب، ما خلا الدم فلا تأكلوه . ثم قد حرّم على موسى وعلى بنى إسرائيل كثيرا من الحيوان؛ وبما كان آدم عليه السلام يزوّج الأخ من الأخت؛ وقد حرم الله ذلك على موسى عليه السلام وعلى غيره، وبأن إبراهيم الخليل أمر بذبح ابنه ثم قال له : لا تذبحه؛ وبأن موسى أمر بنى إسرائيل أن يقتلوا من عَبَد منهم العجل، ثم أمرهم برفع السيف عنهم؛ وبأن نبوّته غير متعبَّد بها قبل بعثه؛ ثم تُعبِّد بها بعد ذلك، إلى غير ذلك . وليس هذا من باب البداء بل هو نقل العباد من عبادة إلى عبادة، وحكم إلى حكم؛ لضرب من المصلحة ، إظهارا لحكمته وكمال مملكته . ولا

(١) راجع جـ ١٤ ص ١١٣

Marfat.com

خلاف بين العقلاء أن شرائع الأنبياء قُصد بها مصالح الخلق الدّينية والدنيويّة ؛ وإنما كان يلزم البداء لو لم يكن عالما بمآل الأمور ؛ وأما العالم بذلك فإنما تتبدّل خطاباته بحسب تبدّل المصالح ، كالطبيب المراعى أحوال العليل ؛ فراعى ذلك فى خليقته بمشيئته وإرادته ، لا إله إلا هو ؛ فخطابه يتبدّل ، وعلمه وإرادته لا تتغيّر ، فإن ذلك محال فى جهة الله تعالى .

وجعلت اليهود النسخ والبـداء شيئا واحدا ؛ ولذلك لم يجوّزوه فضَلّوا . قال النحاس : والفرق بين النسخ والبداء أن النسخ تحويل العبادة من شىء إلى شىء قد كان حلالا فيحرَم ، أو كان حراما فيُحلّل . وأما البداء فهو ترك ما عزم عليه ؛ كقولك : امض إلى فلان اليوم ، ثم تقول لا تمض إليه ، فيبدو لك العدول عن القول الأوّل ؛ وهـذا يلحق البشر لنقصانهم . وكذلك إن قلت : ازرع كذا فى هذه السنة ، ثم قلت : لا تفعل ، فهو البداء .

الخامسـة — اعلم أن الناسخ على الحقيقة هو الله تعالى ، ويسمّى الخطاب الشرعى ناسخا تجوّزا ، إذ به يقع النسخ ، كما قد يتجوّز فيسمّى المحكوم فيه ناسخا ، فيقال : صوم رمضان ناسخ لصوم عاشوراء ، فالمنسوخ هو المزال ، والمنسوخ عنه هو المتعبَّد بالعبادة المزالة ، وهو المكلَّف .

السادسـة — اختلفت عبارات أئمتنا فى حدّ الناسخ ؛ فالذى عليه الحُذّاق من أهل السُّنة أنه إزالة ما قد استقرّ من الحكم الشرعى بخطاب وارد متراخيًا ؛ هكذا حدّه القاضى عبد الوهاب والقاضى أبو بكر ، وزادا : لولاه لكان السابق ثابتا ؛ فحافظا على معنى النسخ اللغوى ، إذ هو بمعنى الرفع والإزالة ، وتحرُّزًا من الحكم العقلى ، وذكر الخطاب ليعم وجوه الدلالة من النص والظاهر والمفهوم وغيره ؛ وليخرج القياس والاجماع ، إذ لا يتصوّر النسخ فيهما ولا بهما . وقيّدا بالتراخى ، لأنه لو اتصل به لكان بيانا لغاية الحكم لا ناسخا ، أو يكون آخر الكلام يرفع أوله ، كقولك : قم لا تقم .

السابعـة — المنسوخ عند أئمتنا أهل السُّنة هو الحكم الثابت نفسه لا مثله ؛ كما تقوله المعتزلة بأنه الخطاب الدال على أن مثل الحكم الثابت فيما يستقبل بالنص المتقدم زائل . والذى

Marfat.com

قادتهم إلى ذلك مذهبهم فى أن الأوامر مرادة، وأن الحسن صفة نفسية للحسن ، ومراد الله حَسَن؛ وهذا قد أبطله علماؤنا فى كتبهم .

الثامنــــة — آختلف علماؤنا فى الأخبار هل يدخلها النسخ؛ فالجمهور على أن النسخ إنما هو مختص بالأوامر والنواهى ، والخبر لا يدخله النسخ لاستحالة الكذب على الله تعالى .

وقيل : إن الخبر إذا تضمّن حكمًا شرعيًا جاز نسخه؛ كقوله تعالى : « وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا » (١) . وهناك يأتى القول فيه إن شاء الله تعالى .

التاسعــة — التخصيص من العموم يُوهِم أنه نسخ وليس به؛ لأن المخصّص لم يتناوله العموم قطّ ، ولو ثبت تنــاول العموم لشىء مّا ثم أخرج ذلك الشىء عن العموم لكان نسخًا لا تخصيصا؛ والمتقدّمون يطلقون على التخصيص نسخًا توسُّعًا ومجازًا .

العــاشرة — اعلم أنه قد يرد فى الشرع أخبار ظاهرها الإطلاق والآستغراق؛ ويرد تقييدها فى موضع آخر فيرتفع ذلك الإطلاق ؛ كقوله تعالى : « وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ » (٢) . فهذا الحكم ظاهره خبر عن إجابة كل داعٍ على كل حال؛ لكن قد جاء ما قيّده فى موضع آخر؛ كقوله « فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ » (٣) . فقد يظنّ من لا بصيرة عنده أن هــذا من باب النسخ فى الأخبار وليس كذلك ، بل هو من باب الإطلاق والتقييد . وسيأتى لهذه المسألة زيادة بيان فى موضعها إن شاء الله تعالى .

الحادية عشرة — قال علماؤنا رحمهم الله تعالى : جائز نسخ الأثقل إلى الأخف؛ كنسخ الثبوت لعشرة بالثبوت لآثنين (٤) . ويجوز نسخ الأخف إلى الأثقل؛ كنسخ يوم عاشوراء والأيام المعدودة برمضان؛ على ما يأتى بيانه فى آية الصيام (٥) . ويُنْسَخ المِثل بمثله ثقلًا وخفة، كالقبلة. ويُنسخ الشىء لا إلى بدل كصدقة النَّجْوَى. ويُنسخ القرآن بالقرآن. والسُّنّة بالعبارة؛ وهذه العبارة يراد بها الخبر المتواتر القطعى . ويُنْسَخ خبر الواحد بخبر الواحد .

وحُذّاق الأئمة على أن القرآن يُنسخ بالسّنة، وذلك موجود فى قوله عليه السلام : "لا وصيّة لوارث" . وهو ظاهر مسائل مالك . وأبى ذلك الشافعى وأبو الفرج المالكى؛

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٢٧   (٢) ص ٣٠٨ من هذا الجزء .   (٣) جـ ٦ ص ٤٢٣

(٤) وهو أن الله تعالى نسخ وقوف الواحد للعشرة فى الجهاد بثبوته لاثنين .   (٥) ص ٢٧٥ من هذا الجزء .

Marfat.com

والأول أصح، بدليل أن الكل حكم الله تعالى ومن عنده وإن آختلفت فى الأسماء . وأيضا فإن الجلد ساقط فى حدّ الزنى عن الثيّب الذى يُرجم، ولا مسقط لذلك إلا السُّـنة فعل النبيّ صلى الله عليه وسلم، وهذا بيّن .

والحذّاق أيضا على أن السُّنة تنسخ بالقرآن وذلك موجود فى القِبْلة، فإن الصلاة إلى الشام لم تكن فى كتاب الله تعالى . وفى قوله تعالى : « فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ »(١) فإن رجوعهن إنمـا كان بصلح النبيّ صلى الله عليه وسلم لقريش .

والحذّاق على تجويز نسخ القرآن بخبر الواحد عقلًا، وآختلفوا هل وقع شرعًا ؛ فذهب أبو المعالى وغيره إلى وقوعه فى نازلة مسجد قُبَاء، على ما يأتى بيانه(٢)؛ وأبى ذلك قوم . ولا يصح نسخ نصّ بقياس؛ إذ من شروط القياس ألا يخالف نصًّا .

وهذا كله فى مدّة النبيّ صلى الله عليه وسلم، وأما بعـد موته وآستقرار الشريعة فأجمعت الأمّة أنه لا نسخ؛ ولهذا كان الإجماع لا ينسخ ولا يُنسخ به إذ آنعقاده بعد آنقطاع الوحى؛ فإذا وجدنا إجماعًا يخالف نصًّا فيُعلم أن الإجماع آستند إلى نص ناسخ لا نعلمه نحن، وأن ذلك النصّ المخالف متروك العمل به ، وأن مقتضاه نُسخ وبقى سـنة يُقرأ ويُروى ؛ كما آية عدّة السَّنة فى القرآن تُتْلَى(٣)؛ فتأمّلْ هذا فإنه نفيس، ويكون من باب نسخ الحكم دون التلاوة؛ ومثله صدقة النَّجْوَى . وقد تُنسخ التلاوة دون الحكم كآية الرجم . وقد تُنسخ التلاوة والحكم معا؛ ومنه قول الصدّيق رضى الله عنه : كنا نقرأ « لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر » ومثله كثير .

والذى عليه الحُذّاق أن من لم يبلغه الناسخ فهو متعبّد بالحكم الأوّل ؛ كما يأتى بيـانه فى تحويل القبلة .

والحُذّاق على جواز نسخ الحُكم قبل فعله ،وهو موجود فى قصة الذبيح ،وفى فرض خمسين صلاة قبل فعلها بخمس؛ على ما يأتى بيانه فى « الإسراء »(٤) و« الصافات »(٥)، إن شاء الله تعالى .

الثانيـة عشرة — لمعرفة الناسخ طُرُق ؛ منها — أن يكون فى اللفظ ما يدل عليه؛ كقوله عليه السلام : ” كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ونهيتكم عن الأشربة إلا فى ظروف

(١) راجع جـ ١٨ ص ٦٣ (٢) جـ ٨ ص ٢٥٩ (٣) يريد قوله تعالى : « متاعا إلى الحول... » فإنه قد نسخ حكمها وبقيت تلاوتها . راجع جـ ٣ ص ٢٢٦ (٤) جـ ١٠ ص ٢١٠ (٥) جـ ١٥ ص ١٠٧

الأدم فاشربوا فى كل وعاء غير ألّا تشربوا مُسْكِرًا " ونحوه . ومنها — أن يذكر الراوى التاريخ؛ مثل أن يقول : سمعت عامَ الخَنْدَق، وكان المنسوخ معلومًا قبله . أو يقول: نُسخ حكم كذا بكذا . ومنهــا — أن تجمع الأمة على حُكم أنه منسوخ وأن ناسخه متقدّم . وهذا الباب مبسوط فى أصول الفقه، نبّهنا منه على ما فيه لمن آقتصر كفاية، والله الموفّق للهداية .

الثالثة عشرة — قرأ الجمهور « مَا نَنْسَخ » بفتح النون، من نَسَخ، وهو الظاهر المستعمل على معنى: ما نرفع من حكم آية ونُبق تلاوتها؛ كما تقدّم . ويحتمل أن يكون المعنى: ما نرفع من حكم آية وتلاوتها؛ على ما ذكرناه. وقرأ آبن عامر «نُنسخ» بضم النون، من أنسخت الكتاب؛ على معنى وجدته منسوخا . قال أبو حاتم : هو غلط . وقال الفارسى أبو علىّ : ليست لغة؛ لأنه لا يقال : نَسَخ وأنسخ بمعنًى، إلا أن يكون المعنى ما نجده منسوخا؛ كما تقول : أحمدت الرجل وأبخلته، بمعنى وجدته محمودا و بخيلا . قال أبو علىّ : وليس نجــده منسوخا إلا بأن ننسخه، فتتفق القراءتان فى المعنى وإن آختلفتا فى اللفظ . وقيل: «ما ننسخ» ما نجعل لك نسخه؛ يقــال : نسخت الكتاب إذا كتبته، وآنتسخته غيرى إذا جعلت نســخه له . قال مكّى : ولا يجوز أن تكون الهمزة للتعدّى، لأن المعنى يتغيّر، ويصير المعنى ما ننسخك من آية يا محمد؛ وإنساخه إياها إنزالها عليه، فيصير المعنى ما ننزل عليك من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها؛ فيؤول المعنى إلى أن كل آية أنزلت أتى بخير منها؛ فيصير القرآن كله منسوخا وهذا لا يمكن؛ لأنه لم يُنسخ إلا اليسير من القرآن . فلمــا آمتنع أن يكون أفعل وفَعَــل بمعنًى إذ لم يسمع، وآمتنع أن تكون الهمزة للتعــدّى لفساد المعنى، لم يبق ممكن إلا أن يكون من باب أحمــدته وأبخلته إذا وجدته محمودا أو بخيلا .

الرابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿أَوْ نُنْسِهَا﴾ قرأ أبو عمرو وآبن كثير بفتح النون والسين والهمز، وبه قرأ عمر وآبن عباس وعطاء ومجاهد وأُبَىّ بن كعب وعبيد بن عُمير والنَّخَعىّ وآبن مُحَيْصِن، من التأخير؛ أى نؤخّر نسخ لفظها، أى نتركه فى آخر أم الكتاب (١) فــلا يكون (٢) . وهــذا قول عطاء . وقال غير عطاء : معنى أو ننسأها : نؤخرها عن النسخ إلى وقت معلوم؛ من قولهم :

(١) كذا فى نسخة أ والذى فى ب، ج، ح، ز : «فى أم الكتاب» . (٢) فى ح : « فلا تكن نسخا » .

Marfat.com

نسأت هذا الأمر إذا أخرته ؛ ومن ذلك قولهم : بعته نَسْأً إذا أخرته . قال آبن فارس : ويقولون : نسأ الله فى أجلك ، وأنسأ الله أجلك . وقد آنتسأ القوم إذا تأخروا وتباعدوا ، ونسأتهم أنا أخرتهم . فالمعنى نؤخر نزولها أو نسخها على ما ذكرنا . وقيل : نذهبها عنكم حتى لا تقرأ ولا تذكر . وقرأ الباقون «ننسها» بضم النون ، من النسيان الذى بمعنى الترك ، أى نتركها فلا نبدلها ولا ننسخها ؛ قاله آبن عباس والسُّدى ؛ ومنه قوله تعالى : «نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ»(١) أى تركوا عبادته فتركهم فى العذاب . وآختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم ، قال أبو عبيد : سمعت أبا نُعيم القارئ يقول : قرأت على النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام بقراءة أبى عمرو فلم يغيّر علىّ إلا حرفين ؛ قال : قرأت عليه «وأَرِنا»(٢) فقال : أَرِنا ؛ فقال أبو عبيد : وأحسب الحرف الآخر «أو ننسأها» فقال : « أو ننسها » . وحكى الأزهرى «ننسها» نأمر بتركها ؛ يقال : أنسيته الشىء أى أمرت بتركه ، ونسيته تركته ؛ قال الشاعر :

إن علىّ عُقْبة أقضيها ٭ لستُ بناسيها ولا مُنْسِيها(٣)

أى ولا آمر بتركها . وقال الزجاج : إن القراءة بضم النون لا يتوجه فيها معنى الترك ؛ لا يقال : أنسى بمعنى ترك ، وما روى علىّ بن أبى طلحة عن آبن عباس « أو ننسها » قال : نتركها لا نبدلها ، فلا يصح . ولعل آبن عباس قال : نتركها ؛ فلم يضبط . والذى عليه أكثر أهل اللغة والنظر أن معنى «أو ننسها» نبح لكم تركها ؛ من نسى إذا ترك ، ثم تعديه . وقال أبو علىّ وغيره : ذلك مُتَّجه ؛ لأنه بمعنى نجعلك تتركها . وقيل : من النسيان على بابه الذى هو عدم الذكر ؛ على معنى أو ننسكها يا محمد فلا تذكرها ؛ نقل بالهمز فتعدّى الفعل إلى مفعولين : وهما النبىّ والهاء ، لكن آسم النبىّ محذوف .

الخامسة عشرة — قوله تعالى : ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَآ﴾ لفظة «بخير» هنا صفة تفضيل ؛ والمعنى بأنفع لكم أيها الناس فى عاجل إن كانت الناسخة أخف ، وفى آجل إن كانت أثقل ، وبمثلها

---

(١) راجع جـ ٨ ص ١٩٩ (٢) سيأتى الكلام عليها فى ص ١٢٧ من هذا الجزء .

(٣) العقبة (بضم فسكون) من معانيها : الإبل يرعاها الرجل ويسقيها ، أى أنا أسوق عقبتى وأحسن رعيها .

إن كانت مستوية . وقال مالك : مُحْكَمة مكان منسوخة . وقيل : ليس المراد بأخير التفضيل ؛ لأن كلام الله لا يتفاضل ، وإنما هو مثل قوله : « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا »(١) أى فله منها خير ، أى نفع وأجر ، لا الخير الذى هو بمعنى الأفضل ، ويدل على القول الأول قوله : « أَوْ مِثْلِهَا » .

قوله تعالى : أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٠٧)

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ ﴾ جزم بلم ، وحروف الاستفهام لا تغير عمل العامل ؛ وفتحت « أن » لأنها فى موضع نصب . ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أى بالإيجاد والاختراع ، والمُلك والسلطان ، ونفوذ الأمر والإرادة . وارتفع « مُلْكُ » بالابتداء ، والخبر « له » والجملة خبر « أن » . والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد أمته ؛ لقوله : ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ . وقيل : المعنى أى قل لهم يا محمد ألم تعلموا أن لله سلطان السموات والأرض وما لكم من دون الله من ولىّ ؛ من وَلِيت أمر فلان ، أى قمت به ؛ ومنه ولىّ العهد ، أى القيّم بما عُهِد إليه من أمر المسلمين . ومعنى ﴿ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ سوى الله وبَعدَ الله ؛ كما قال أُمَيّة بن أبى الصَّلْت :

يا نفسُ ما لكِ دونَ الله من واقِ * وما على حَدَثان الدهر من باقِ

وقراءة الجماعة « وَلَا نَصيرٍ » بالخفض عطفا على « وَلِيّ » ويجوز « ولا نصيرٌ » بالرفع عطفا على الموضع ، لأن المعنى ما لكم من دون الله ولى ولا نصير .

قوله تعالى : أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨)

قوله تعالى : ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ ﴾ هذه « أَمْ » المنقطعة التى بمعنى بل ؛ أى بل تريدون ، ومعنى الكلام التوبيخ . ﴿ أَنْ تَسْأَلُوا ﴾ فى موضع نصب بـ « تريدون » . ﴿ كَمَا سُئِلَ ﴾ الكاف فى موضع

(١) راجع جـ ١٣ ص ٢٤٤

Marfat.com

نصب نعت لمصدر، أى سؤالا كما. و«موسى» فى موضع رفع على مالم يسم فاعله. «من قبل»: سؤالهم إياه أن يريهم الله جهرة، وسألوا محمدا أن يأتى بالله والملائكة قبيلا. عن ابن عباس ومجاهد: سألوا أن يجعل لهم الصّفا ذهبًا. وقرأ الحسن «كما سِيل»، وهذا على لغة من قال: سِلْتُ أسالُ، ويجوز أن يكون على بدل الهمزة ياء ساكنة على غير قياس فانكسرت السين قبلها. قال النحاس: بدل الهمزة بعيد. والسّواء من كل شيء: الوسط. قاله أبو عبيدة مَعْمَر بن المُثنَّى، ومنه قوله: «فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ». وحكى عيسى بن عمر قال: ما زلت أكتب حتى انقطع سوائى، وأنشد قول حسان يرثى رسول الله صلى الله عليه وسلم:

يا وَيْحَ أصحابِ النبيّ ورهطِه * بعدَ المُغيَّبِ فى سواء المُلْحَدِ

وقيل: السواء القصد، عن الفرّاء، أى ذهب عن قصد الطريق وسَمْته، أى طريق طاعة الله عز وجل. وعن ابن عباس أيضا أن سبب نزول هذه الآية أن رافع بن حُرَيْمة ووهب ابن زيد قالا للنبيّ صلى الله عليه وسلم: آئتنا بكتاب من السماء نقرؤه، وفجّر لنا أنهارا نتّبعك.

قوله تعالى: وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾. فيه مسألتان:

الأولى — ﴿وَدَّ﴾ تمنّى، وقد تقدّم.(1) ﴿كُفَّارًا﴾ مفعول ثان بـ «يَرُدُّونَكُمْ». ﴿مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ قيل: هو متعلق بـ «وَدَّ». وقيل: بـ «حَسَدًا»، فالوقف على قوله: «كُفَّارًا». و«حسدا» مفعول له، أى وَدُّوا ذلك للحسد، أو مصدر دلّ ماقبله على الفعل. ومعنى «مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ» أى من

(1) راجع ص ٣٤ من هذا الجزء.

Marfat.com

تلقاءهم من غير أن يجدوه فى كتاب ولا أمروا به؛ ولفظة الحسد تُعطى هذا . فجاء « من عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ » تأكيدًا وإلزامًا، كما قال تعالى : « يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ »[(١)]، « يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ »، « وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ »[(٢)] . والآية فى اليهود .

الثانيـــة — الحســد نوعان : مذموم ومحمود ؛ فالمذموم أن تتمنّى زوال نعمة الله عن أخيك المسلم ؛ وسواء تمنّيت مع ذلك أن تعود إليك أو لا ؛ وهذا النوع الذى ذمّه الله تعالى فى كتابه بقوله : « أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ »[(٣)] وإنما كان مذموما لأن فيه تسفيه الحق سبحانه، وأنه أنعم على من لا يستحق . وأما المحمود فهو ما جاء فى صحيح الحديث من قوله عليه السلام : " لا حَسَدَ إلا فى اثنتين رجلٍ آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليلِ وآناء النهارِ ورجلٍ آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليلِ وآناء النهارِ ". وهذا الحسد معناه الغبطة . وكذلك ترجم عليه البخارى « باب الاغتباط فى العلم والحكمة » . وحقيقتها : أن تتمنّى أن يكون لك ما لأخيك المسلم من الخير والنعمة ولا يزول عنه خيره ؛ وقد يجوز أن يسمّى هذا منافسة ؛ ومنه قوله تعـالى : « وَفِى ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ »[(٤)] . ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ أى من بعد ما تبيّن الحق لهم وهو محمد صلى الله عليه وسلم، والقرآن الذى جاء به .

قوله تعالى : ﴿ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَاعْفُوا ﴾ والأصل اُعْفُوُوا حُذفت الضمة لثقلها، ثم حذفت الواو لالتقاء الساكنين . والعَفْوُ : ترك المؤاخذة بالذنب . والصفح : إزالة أثره من النفس . صفحت عن فلان إذا أعرضت عن ذنبه . وقـد ضربت عنه صفحًا إذا أعرضت عنـه وتركته ؛ ومنه قوله تعالى : « أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا »[(٥)] .

الثانيـــة — هذه الآية منسوخة بقوله : « قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ » إلى قوله : « صَاغِرُونَ »[(٦)] عن ابن عباس . وقيل : الناسخ لها « فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ »[(٧)] . قال أبو عبيدة :

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٦٧ . (٢) جـ ٦ ص ٤١٩ . (٣) جـ ٥ ص ٢٥١ .
(٤) جـ ١٩ ص ٢٦٤ . (٥) جـ ١٦ ص ٦٢ . (٦) جـ ٨ ص ١٠٩ (٧) جـ ٨ ص ٧٢ .

Marfat.com

كل آية فيها تَرْكٌ للقتال فهى مَكِّيَّة منسوخة بالقتال . قال ابن عطية : وحُكْمُه بأن هذه الآية مَكِّيَّة ضعيف ؛ لأن معاندات اليهود إنما كانت بالمدينة .

قلت : وهو الصحيح ، روى البخارى ومسلم عن أسامة بن زيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رَكِب على حمار عليه قَطِيفة فَدَكِيَّة [١] وأسامة وراءه ، يعود سعد بن عُبَادة فى بنى الحارث ابن الخزرج قبل وقعة بَدْر ؛ فسارا حتى مرّا بمجلس فيه عبد الله بن أُبَىّ ابن سَلُول [٢] — وذلك قبل أن يسلم عبد الله بن أُبَىّ — فإذا فى المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عَبَدَة الأوثان واليهود ؛ وفى المسلمين عبد الله بن رَوَاحة ؛ فلما غشيت المجلس عَجَاجَةُ [٣] الدابة خَمَّر [٤] ابن أُبَىّ أنفه بردائه وقال : لا تُغَبِّروا علينا ! فسلّم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم وقف فنزل، فدعاهم إلى الله تعالى وقرأ عليهم القرآن ؛ فقال له عبد الله بن أُبَىّ ابن سَلُول : أيها المرء، لا أحسن مما تقول إن كان حقًّا ! فلا تؤذنا به فى مجالسنا، [ارجع إلى رَحْلك [٥]] فمن جاءك فاقصص عليه . قال عبد الله بن رَوَاحة : بلى يا رسول الله، فاغْشَنا فى مجالسنا، فإنا نحب ذلك . فاستبّ المشركون والمسلمون واليهود حتى كادوا يتثاورون؛ فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يُخَفِّضهم حتى سكنوا ؛ ثم ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم دابته فسار حتى دخل على سعد بن عبادة ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " [يا سعد [٥]] ألم تسمع إلى ما قال أبو حُبَاب — يريد عبد الله بن أُبَىّ — قال كذا وكذا " فقال : أى رسول الله، بأبى أنت وأمى ! اعف عنه واصفح، فوالذى أنزل عليك الكتاب بالحق لقد جاءك الله بالحق الذى أنزل عليك ؛ ولقد اصطلح أهل هذه البُحَيرة [٦] على أن يُتَوِّجُوه ويُعَصِّبُوه بالعصابة ، فلما ردّ الله ذلك بالحق الذى أعطاك شَرِق بذلك، فذلك فعل ما رأيت؛ فعفا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يَعْفُون عن المشركين وأهل الكتاب كما

---

(١) فدكية : منسوبة إلى فدك (بالتحريك) قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان . (٢) سلول : أم عبد الله بن أبى . (٣) العجاج : الغبار . (٤) خمر أنفه : غطاه . (٥) زيادة عن صحيحى البخارى ومسلم يقتضيها السياق . والرحل : المنزل . (٦) البحيرة (تصغير البحرة) : مدينة الرسول عليه السلام ؛ وقد جاء فى رواية مكبرا

Marfat.com

أمرهم الله تعالى، و يصبرون على الأذى ؛ قال الله عز وجل : « وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا »[(١)] . وقال : « وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ » . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتأوّل فى العفو عنهم ما أمره الله به حتى أذن له فيهم ؛ فلما غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم بدرًا فقتل الله به من قتل من صناديد الكفار وسادات قريش ؛ فقفل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه غانمين منصورين ، معهم أسارى من صناديد الكفار وسادات قريش ؛ قال عبد الله بن أبىّ بن سلول ومن معه من المشركين وعبدة الأوثان : هذا أمرٌ قد توجه[(٢)] ؛ فبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام ، فأسلموا .

قوله تعالى : ﴿ حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ يعنى قتل قريظة وجلاء بنى النضير . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ تقدّم[(٣)] . والحمد لله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ جاء فى الحديث " أن العبد إذا مات قال الناس ما خلّف وقالت الملائكة ما قدّم" . وخرّج البخارىّ والنّسائى عن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أيّكم مالُ وارثه أحبُّ إليه من ماله". قالوا : يا رسول الله ، ما منّا من أحد إلا مالُه أحبُّ إليه من مال وارثه ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ليس منكم من أحد إلا مالُ وارثه أحب إليه من ماله . مالُك ما قدّمت ومالُ وارثك ما أخّرت" ؛ لفظ النسائى . ولفظ البخارى : قال عبد الله قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "أيّكم مالُ وارثه أحبُّ إليه من ماله" قالوا : يا رسول الله ، ما منّا أحدٌ إلا مالُه أحبُّ إليه ؛ قال : "فإن مالَه ما قدّم ومال وارثه ما أخّر" . وجاء عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه مرّ ببقيع الغرقد[(٤)] فقال : السلام عليكم أهلَ القبور ، أخبارُ ما عندنا أن نساءكم قد تزوّجن ، ودُوركم قد سُكنت ، وأموالكم قد قُسمت . فأجابه هاتف : يابن الخطاب أخبار ما عندنا أن ما قدّمناه وجدناه ، وما أنفقناه فقد ربحناه ، وما خلّفناه فقد خسرناه . ولقد أحسن القائل :

قَدِّم لنفسك قبل موتك صالحًا * واعمل فليس إلى الخلود سبيل

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٣٠٣ (٢) أى ظهر وجهه . (٣) يراجع جـ ١ ص ١٦٤ وما بعدها ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ وما بعدها ، طبعة ثانية . (٤) بقيع الغرقد : مقبرة أهل المدينة

Marfat.com

وقال آخر :

قــدّم لنفســك تَوْبةً مرجُوّة • قبل الممات وقبل حبس الألسن

وقال آخر :

وَلدتْك إذ وَلدتْـك أمُّك باكيًا • والقومُ حَوْلك يضحكون سرورَا

فاعمل ليومٍ تكون فيـه إذا بكَوْا • فى يوم موتـك ضاحكًا مسرورَا

وقال آخر :

سابق إلى الخير وبادِرْ به • فإنمـا خَلْفَـك ما تعـلمُ

وقـدّم الخير فكلّ ٱمرئٍ • عـلى الذى قـدّمه يقـدمُ

وأحسن من هذا كله قول أبى العتاهية :

إسْـعَدْ بمـالك فى حياتـك إنمـا • يبـقى وراءك مصلحٌ أو مفسـدُ

وإذا تركت لمفسـدٍ لم يبقـه • وأخـو الصـلاح قليـله يتزيّـد

وإن ٱستطعت فكن لنفسك وارثًا • إن المـورّث نفسـه لمسـدّد

﴿ إنّ ٱللّهَ بِمَـا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ تقدّم [(1)].

قوله تعالى : وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ ٱلْجَنَّـةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى ﴾ المعنى : وقالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا . وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا . وأجاز الفراء أن يكون «هُودًا» بمعنى يهوديا ، حُذف منه الزائد، وأن يكون

---

(١) يراجع ص ٣٥ من هذا الجزء .

Marfat.com

جمع هائد . وقال الأخفش سعيد : « إلا من كان » جعل « كان » واحدا على لفظ « من » ، ثم قال هـودا بجمع ؛ لأن معنى « من » جمع . ويجوز « تلك أمانيهـم » وتقدم الكلام[1] فى هذا ، والحمد لله .

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ أصـل « هاتوا » هاتيوا ، حذفت الضمة لثقلها ثم حذفت الياء لالتقاء الساكنين ؛ يقال فى الواحد المذكر : هات ، مثل رام ؛ وفى المؤنث : هاتى ، مثل رامى . والبرهان : الدليل الذى يوقع اليقين ، وجمعه براهين ؛ مثل قربان وقرابين ، وسلطان وسلاطين . قال الطبرى : طلب الدليل هنا يقضى إثبات النظر ويرد على من ينفيه . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ يعنى فى إيمانكم أو فى قولكم تدخلون الجنة ؛ أى بينوا ما قلتم ببرهان ، ثم قال تعالى : ﴿ بَلَى ﴾ ردًّا عليهم وتكذيبًا لهم ؛ أى ليس كما تقولون . وقيـل : إن « بلى » محمولة على المعنى ؛ كأنه قيل أما يدخل الجنـة أحد ؟ فقيل : ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾ ومعنى « أسلم » استسلم وخضع . وقيل : أخلص عمله . وخص الوجه بالذكر لكونه أشرف ما يرى من الإنسان ؛ ولأنه موضع الحواس ، وفيه يظهر العز والذل . والعرب تخـبر بالوجه عن جمـلة الشىء . ويصح أن يكون الوجه فى هـذه الآية المقصد . ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ جملة فى موضع الحال ، وعاد الضمير فى « وجهه » و « له » على لفظ « من » وكذلك « أجره » وعاد فى « عليهم » على المعنى ، وكذلك فى « يحزنون » وقد تقدم[2] .

قوله تعـالى : وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾

---

(١) راجع المسألة الثانية ص ٥ من هذا الجزء .		(٢) راجع جـ ١ ص ٣٢٩ طبعة ثانية .

Marfat.com

معناه ادّعى كل فريق منهـم أن صاحبه ليس على شىء ، وأنه أحق برحمة الله منـه .
﴿ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ﴾ يعنى التوارة والإنجيل ، والجملة فى موضع الحال . والمراد بـ «الذين لا يعلمون» فى قول الجمهور : كفار العـرب ؛ لأنهم لا كتاب لهم . وقال عطاء : المراد أممٌ كانت قبل اليهود والنصارى . الربيع بن أنس : المعنى كذلك قالت اليهود قبل النصارى . ابن عباس : قَدِم أهل نجران على النبىّ صلى الله عليه وسلم فأتتهم أحبار يهود ، فتنازعوا عند النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وقالت كل فرقة منهم للأخرى : لستم على شىء ؛ فنزلت الآية .

قوله تعـالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ أُوْلَـٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ ٱللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُ ﴾ «من» رفع بالابتداء ، و « أَظْلَمُ » خبره ، والمعنى لا أحدَ أظلم . و «أن» فى موضع نصب على البدل من « مساجد » ، ويجوز أن يكون التقدير : كراهية أن يُذكر ، ثم حذف . ويجوز أن يكون التقدير : من أن يذكر فيها ؛ وحرف الخفض يُحذف مع «أنْ» لطول الكلام . وأراد بالمساجد هنا بيت المَقْدس ومحاريبه . وقيل الكعبة ، وجمعت لأنها قِبْلة المساجد أو للتعظيم . وقيل: المراد سائر المساجد ، والواحد مَسْجِد (بكسر الجيم) ، ومن العرب من يقـول : مَسْجَد ، (بفتحها) . قال الفراء : « كل ما كان على فَعَل يَفْعُل ، مثل دخل يدخل ، فالمفعل منه بالفتح اسما كان أو مصدرا ، ولا يقع فيه الفرق ، مثل دخل يَدْخُل مَدْخَلًا ، وهذا مَدْخَلُه ؛ إلا أحرفًا من الأسماء ألزموها كسر العين ، من ذلك : المَسْجِد والمَطْلِع والمغرب والمشرق والمَسْقِط والمَفْرِق والمَجْزِر والمَسْكِن والمَرْفِق (من رفَق يَرْفُق) والمَنْبِت والمَنْسِك (من نَسَك يَنْسُك) ؛ فجعلوا

Marfat.com

الكسر علامة للاسم، ورُبَّما فتحه بعض العـرب فى الاسم» . والمَسْجَد (بالفتح) : جبهة الرجل حيث يصيبه نَدَبُ السجود . والآراب (١) : السبعة مساجد؛ قاله الجوهرى .

الثانيـــة — وآختلف الناس فى المراد بهذه الآية وفيمن نزلت؛ فذكر المفسرون أنها نزلت فى بُخْتَ نَصَّر؛ لأنه كان أخرب بيت المقـدس . وقال آبن عباس وغيره : نزلت فى النصارى؛ والمعنى كيف تدعون أيها النصارى أنكم من أهل الجنـة ! وقد خرّبتم بيت المقدس ومنعتم المصلين من الصلاة فيه . ومعنى الآية على هذا : التعجّب من فعل النصارى ببيت المقدس مع تعظيمهم له ، وإنما فعلوا ما فعلوا عداوة لليهود . روى سعيد عن قتادة قال : أولئـك أعداء الله النصارى، حملهم إبغاض اليهـود على أن أعانوا بُخْتَ نَصَّر البابلىّ المجوسىّ على تخريب بيت المقـدس . وروى أن هذا التخريب بقى إلى زمن عمر رضى الله عنه . وقيل : نزلت فى المشركين إذ منعوا المصلين والنبىّ صلى الله عليه وسلم ، وصدّوهم عن المسجد الحرام عامَ الحُدَيْبِيَة . وقيـل : المراد مَن منع من كل مسجد إلى يوم القيامة، وهو الصحيح؛ لأن اللفظ عام ورد بصيغة الجمع ، فتخصيصها ببعض المساجد وبعض الأشخاص ضعيف؛ والله تعالى أعلم .

الثالثـــة — خراب المساجد قـد يكون حقيقيًّا كتخريب بُخْتَ نَصَّر والنصارى بيت المقدس على ما ذُكر أنهـم غَزَوْا بنى إسرائيل مع بعض ملوكهم — قيل : آسمه نطوس بن اسبيسانوس (٢) الرومى فيما ذكر الغزنَوِىّ — فقتلوا وسبَوْا، وحرقوا التوراة، وقذفوا فى بيت المقدس العَذِرة وخربوه .

ويكون مجازًا كمنع المشركين المسلمين حين صدّوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المسجد الحرام؛ وعلى الجملة فتعطيل المساجد عن الصلاة وإظهار شعائر الإسلام فيها خراب لها .

---

(١) الآراب (جمع إرب بكسر فسكون) : الأعضاء ؛ والمراد بالسبعة : الجبهة واليدان والركبتان والقدمان .

(٢) آضطربت الأصول فى رسم هذا الاسم ؛ ففى ا ، ح ، ز «ببلوس» بالباء الموحدة التحتية . وفى ب : «تطرس» بالتاء المثناة من فوق، وفى حـ : «نطوس» بالنون .

Marfat.com

الرابعــة — قال علماؤنا : ولهذا قلنا لا يجوز منع المرأة من الحج إذا كانت ضَرُورة[(١)]، سواء كان لها مَحْرَم أو لم يكن؛ ولا تمنع أيضا من الصلاة فى المساجد ما لم يخف عليها الفتنة؛ وكذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم : "لا تمنعوا إماء الله مساجد الله" ولذلك قلنا : لا يجوز نقض المسجد ولا بيعه ولا تعطيله وإن خربت المحلة ، ولا يمنع بناء المساجد إلا أن يقصدوا الشقاق والخلاف، بأن يبنوا مسجدا إلى جنب مسجد أو قربه؛ يريدون بذلك تفريق أهل المسجد الأوّل وخرابه وٱختلاف الكلمة، فإن المسجد الثانى ينقض ويمنع من بنيانه؛ ولذلك قلنا : لا يجوز أن يكون فى المصر جامعان ، ولا لمسجد واحد إمامان ، ولا يصلى فى مسجد جماعتان . وسيأتى لهذا كله مزيد بيان فى سورة « براءة[(٢)] » إن شاء الله تعالى، وفى « النور[(٣)] » حكم المساجد وبنائها بحول الله تعالى . ودلّت الآية أيضا على تعظيم أمر الصلاة، وأنها لمّا كانت أفضل الأعمال وأعظمها أجرًا كان منعها أعظم إثمًا .

الخامســة — كل موضع يمكن أن يُعبد الله فيه ويُسجد له يسمّى مسجدًا ؛ قال صلى الله عليه وسلم : "جُعلت لِيَ الأرض مسجدا وطهورا"، أخرجه الأئمة . وأجمعت الأمة على أن البُقعة إذا عُيِّنت للصلاة بالقول خرجت عن جملة الأملاك المختصة بربّها وصارت عامةً لجميع المسلمين؛ فلو بنى رجل فى داره مسجدا وحجزه على الناس وٱختص به لنفسه لبقى على ملكه ولم يخرج إلى حدّ المسجدية، ولو أباحه للناس كلهم كان حكمه حكم سائر المساجد العامة، وخرج عن ٱختصاص الأملاك .

السادســة — قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ﴾ «أولئك» مبتدأ وما بعده خبره . « خائفين » حال؛ يعنى إذا ٱستولى عليها المسلمون وحصلت تحت سلطانهم فلا يتمكن الكافر حينئذ من دخولها . فإن دخلوها، فعلى خوف من إخراج المسلمين لهم، وتأديبهم على دخولها . وفى هـذا دليل على أن الكافر ليس له دخول المسجد بحال، على ما يأتى فى « براءة » إن شاء الله تعالى . ومن جعل الآية فى النصارى روى أنه مرّ زمان

(١) الصرورة : التى لم تحج قط . (٢) راجع جـ ٨ ص ٢٥٤ وص ١٠٤ (٣) جـ ١٢ ص ٢٦٥

بعد بناء عمر بيت المقدس فى الإسلام لا يدخله نصرانى إلا أُوجع ضرباً بعد أن كان متعبّدهم. ومن جعلها فى قريش قال: كذلك نودى بأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم: "ألَا لا يَحُجّ بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبَيْت عُرْيان". وقيل: هو خبر ومقصوده الأمر؛ أى جاهدوهم واستأصلوهم حتى لا يدخل أحد منهم المسجد الحرام إلا خائفا؛ كقوله: «وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ» (1) فإنه نَهْى وَرَدَ بلفظ الخبر.

السابعـة — قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ قيل القَتْل للحربىّ، والجزية للذّمى؛ عن قتادة. السُّدىّ: الخزْىُ لهم فى الدنيا قيامُ المهدِىّ، وفتحُ عَمُّورِيّة ورُومِيَة وقُسْطَنْطِينِيَة، وغير ذلك من مُدُنهم؛ على ما ذكرناه فى كتاب التذكرة. ومن جعلها فى قريش جعل الخزْى عليهم فى الفتح، والعذاب فى الآخرة لمن مات منهم كافرا.

قوله تعالى: وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى — قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ «المشرق» موضع الشروق. «والمغرب» موضع الغروب؛ أى هُمَا له ملك وما بينهما من الجهات والمخلوقات بالإيجاد والاختراع؛ كما تقدّم. وخصّهما بالذكر والإضافة إليه تشريفًا؛ نحو بيت الله، وناقة الله، ولأن سبب الآية اقتضى ذلك؛ على ما يأتى.

الثانيـة — قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا﴾ شَرْطٌ، ولذلك حذفت النون، و«أين» العاملة، و«ما» زائدة، والجواب «فَثَمَّ وجهُ اللهِ». وقرأ الحسن «تَوَلَّوْا» بفتح التاء واللام، والأصل تتولّوا. و«ثَمَّ» فى موضع نصب على الظرف، ومعناها البعد؛ إلا أنها مبنية على الفتح غير مُعْرَبة لأنها مبهمة، تكون بمنزلة هناك للبُعْد، فإن أردت القُرب قلت هنا.

الثالثـة — اختلف العلماء فى المعنى الذى نزلت فيه «فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا» على خمسة أقوال: فقال عبد الله بن عامر بن ربيعة: نزلت فيمن صلّى إلى غير القبلة فى ليلة مظلمة؛ أخرجه

(1) راجع ج ١٤ ص ٢٢٨.

Marfat.com

الترمذى عنه عن أبيه قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم فى سفر فى ليلة مظلمة فلم ندر أين القبلة ، فصلّى كل رجل منّا على حياله ، فلما أصبحنا ذكرنا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فنزلت : « فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ » . قال أبو عيسى : هذا حديث ليس إسناده بذاك ، لا نعرفه إلا من حديث أشعث السّمان ، وأشعث بن سعيد أبو الربيع يُضعَّف فى الحديث . وقد ذهب أكثر أهل العلم إلى هذا ؛ قالوا : إذا صلّى فى الغيم لغير القبلة ثم آستبان له بعد ذلك أنه صلّى لغير القبلة فإن صلاته جائزة ؛ وبه يقول سفيان وآبن المبارك وأحمد وإسحاق.

قلت : وهو قول أبي حنيفة ومالك ، غير أن مالكا قال : تُستحب له الإعادة فى الوقت ، وليس ذلك بواجب عليه ؛ لأنه قد أدّى فرضه على ما أُمر ، والكمال يُستدرك فى الوقت ؛ آستدلالا بالسنة فيمن صلّى وحده ثم أدرك تلك الصلاة فى وقتها فى جماعة أنه يعيد معهم ؛ ولا يعيد فى الوقت آستحبابا إلا من آستدبر القبلة أو شرّق أو غرّب جدًّا مجتهدًا ، وأمّا من تيامن أو تياسر قليلا مجتهدا فلا إعادة عليه فى وقت ولا غيره . وقال المُغيرة والشافعى : لا يجزيه ؛ لأن القبلة شَرْط من شروط الصلاة . وما قاله مالك أصح ؛ لأن جهة القبلة تبيح الضرورة تركها فى المُسايفة ، وتبيحها أيضا الرّخصة حالة السفر . وقال آبن عمر : نزلت فى المسافر يتنفّل حيثما توجّهت به راحلته . أخرجه مسلم عنه ؛ قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلّى وهو مُقبل من مكة إلى المدينة على راحلته حيث كان وجهه ، قال : وفيه نزلت « فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ » . ولا خلاف بين العلماء فى جواز النافلة على الراحلة لهذا الحديث وما كان مثله . ولا يجوز لأحد أن يَدَع القبلة عامدًا بوجه من الوجوه إلا فى شدّة الخوف ؛ على ما يأتى .

وآختلف قول مالك فى المريض يصلّى على مَحْمِله ؛ فمرّة قال : لا يصلّى على ظهر البعير فريضة وإن آشتدّ مرضه . قال سُحْنون : فإن فعل أعاد ؛ حكاه الباجى . ومرّة قال : إن كان ممن لا يصلى بالأرض إلا إيماءً فليُصَلّ على البعير بعد أن يوقَف له ويستقبل القبلة .

وأجمعوا على أنه لايجوز لأحد صحيح أن يصلّى فريضة إلا بالأرض إلا فى الخوف الشديد خاصة ، على ما يأتى بيانه .

وآختلف الفقهاء فى المسافر سفرًا لا تقصر فى مثله الصلاة ؛ فقال مالك وأصحابه والثّوْرى: لا يتطوع على الراحلة إلا فى سفر تقصر فى مثله الصلاة ؛ قالوا : لأن الأسفار التى حُكى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يتطوع فيها كانت مما تقصر فيه الصلاة . وقال الشافعى وأبو حنيفة وأصحابهما والحسن بن حَىّ والليث بن سعد وداود بن علىّ : يجوز التطوع على الراحلة خارج المصر فى كل سفر، وسواء كان مما تقصر فيه الصلاة أولا ؛ لأن الآثار ليس فيها تخصيص سفرٍ من سفر ، فكلّ سفرٍ جائز ذلك فيه ، إلا أن يخص شىء من الأسفار بما يجب التسليم له . وقال أبو يوسف : يصلّى فى المصر على الدابة بالإيماء ؛ لحديث يحيى بن سعيد عن أنس بن مالك أنه صلّى على حمار فى أزقّة المدينة يومئ إيماء . وقال الطبرى : يجوز لكل راكب وماش حاضرًا كان أو مسافرًا أن يتنفل على دابته و راحلته وعلى رجليه [بالإيماء] . وحكى عن بعض أصحاب الشافعى أن مذهبهم جواز التنفل على الدابة فى الحَضَر والسَّفر . وقال الأثرم : قيل لأحمد بن حنبل الصلاة على الدابة فى الحضر؛ فقال : أمّا فى السفر فقد سمعتُ ، وما سمعتُ فى الحضر . قال آبن القاسم : من تنفّل فى محمله تنفّل جالسًا ، قيامُه تربّع ، يركع واضعا يديه على ركبتيه ثم يرفع رأسه . وقال قتادة : نزلت فى النَّجاشى ، وذلك أنه لما مات دعا النبىّ صلى الله عليه وسلم المسلمين إلى الصلاة عليه خارج المدينة ، فقالوا : كيف نصلّى على رجل مات ؟ وهو يصلى لغير قِبْلتنا ، وكان النَّجاشى ملك الحَبَشة — وآسمه أَصْحَمَة وهو بالعربية عطية — يصلّى إلى بيت المقدس حتى مات ، وقد صُرفت القبلة إلى الكعبة فنزلت الآية ، ونزل فيه : « وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ »(١) فكان هذا عُذْرًا للنجاشى ، وكانت صلاة النبىّ صلى الله عليه وسلم بأصحابه سنة تسع من الهجرة . وقد آستدلّ بهذا من أجاز الصلاة على الغائب ، وهو الشافعى . قال آبن العربى : ومن أغرب مسائل الصلاة على الميت ما قال الشافعى : يصلى على الغائب ؛ وقد كنت ببغداد

(١) راجع جـ ٤ ص ٣٢٢

Marfat.com

فى مجلس الإمام فخر الإسلام فيدخل عليه الرجل من خراسان فيقول له : كيف حال فلان ؟ فيقول له : مات ؛ فيقول : إنّا لله وإنّا إليه راجعون ! ثم يقول لنا : قوموا فلأصلّ لكم ؛ فيقوم فيصلّى عليه بنا ، وذلك بعد ستة أشهر من المدّة ، وبينه وبين بلده ستة أشهر .

والأصل عندهم فى ذلك صلاة النبيّ صلى الله عليه وسلم على النجاشى . وقال علماؤنا رحمة الله عليهم : النبيّ صلى الله عليه وسلم بذلك مخصوص لثلاثة أوجه :

أحدها — أن الأرض دُحيتْ له جنوباً وشمالاً حتى رأى نعش النجاشى، كما دُحيت له شمالا وجنوباً حتى رأى المسجد الأقصى. وقال المخالف: وأىّ فائدة فى رؤيته، وإنما الفائدة فى لحوق بركته.

الثـانى — أن النجاشى لم يكن له هناك ولىّ من المؤمنين يقـوم بالصلاة عليـه . قال المخالف : هذا محال عادة ! ملِك على دين لا يكون له أتباع ، والتأويل بالمحال محال .

الثـالث — أن النبيّ صلى الله عليه وسـلم إنما أراد بالصلاة على النجاشى إدخال الرحمة عليه وٱستئلاف بقية الملوك بعده إذا رأوا الاهتمام به حيًّا وميتًا . قال المخالف : بركة الدعاء من النبيّ صلى الله عليه وسلم ومن سواه تلحق الميت بٱتفاق . قال ٱبن العربىّ : والذى عندى فى صلاة النبى صلى الله عليه وسلم على النجاشى أنه علم أن النجاشى ومَن آمن معه ليس عندهم من سُنة الصلاة على الميت أثَر ، فعلم أنهم سيدفنونه بغير صلاة فبادر إلى الصلاة عليه .

قلت : والتأويل الأول أحسن ؛ لأنه إذا رآه فما صلّى على غائب وإنما صلّى على مَرْئِىّ حاضر ، والغائب ما لا يُرَى . والله تعالى أعلم .

القول الرابع — قال ٱبن زيد : كانت اليهـود قد ٱستحسنت صلاة النبىّ صلى الله عليه وسـلم إلى بيت المقدس وقالوا : ما ٱهتدى إلا بنا ؛ فلمـا حُوّل إلى الكعبة قالت اليهود : ما وَلّاهم عن قبلتهـم التى كانوا عليها ؛ فنزلت : « وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ » فوَجْه النظم على هذا القول : أن اليهود لمـا أنكروا أمر القبلة بيّن الله تعالى أن له أن يتعبّد عباده بمـا شاء، فإن شاء أمرهم بالتوجّه إلى بيت المَقْـدس، وإن شاء أمرهم بالتوجّه إلى الكعبـة ، فعل لا حجة عليه (١) ، ولا يُسئل عما يفعل وهم يُسئلون .

---

(١) فى ب ، ج : « لا حجر » .

Marfat.com

القول الخامس — أن الآية منسوخة بقوله : « وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ »(١) ذكره ٱبن عباس ؛ فكأنه كان يجوز في الابتداء أن يصلّي المرء كيف شاء ثم نسخ ذلك . وقال قتادة : الناسخ قوله تعالى : « فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » أي تلقاءه ؛ حكاه أبو عيسى الترمذي .

وقول سادس — رُوِيَ عن مجاهد والضحاك أنها مُحْكَمَة ، المعنى : أينما كنتم من شرق وغرب فَثَمَّ وجهُ الله الذي أمرنا باستقباله وهو الكعبة . وعن مجاهد أيضا وٱبن جُبير لما نزلت : « ٱدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ » قالوا : إلى أين ؟ فنزلت : « فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ » . وعن ٱبن عمر والنَّخَعِيّ : أينما تولُّوا في أسفاركم ومنصرفاتكم فَثَمَّ وجه الله . وقيل : هي متصلة بقوله تعالى : « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُ » الآية ؛ فالمعنى أن بلاد الله أيها المؤمنون تَسَعكم ، فلا يمنعكم تخريب من خرّب مساجد الله أن تولّوا وجوهكم نحو قبلة الله أينما كنتم من أرضه . وقيل : نزلت حين صُدّ النبيّ صلى الله عليه وسلم عن البيت عامَ الحُدَيْبِيَة فٱغتمّ المسلمون لذلك . فهذه عشرة أقوال .

ومن جعلها منسوخة فلا ٱعتراض عليه من جهة كونها خبرًا ؛ لأنها محتملة لمعنى الأمر . يحتمل أن يكون معنى « فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ » : وَلُّوا وجوهكم نحو وجه الله ؛ وهذه الآية هي التي تلا سعيد بن جُبير رحمه الله لما أمر الحجاجُ بذبحه إلى الأرض .

الرابعــة — اختلف الناس في تأويل الوجه المضاف إلى الله تعالى في القرآن والسُّنة ؛ فقال الحُذّاق : ذلك راجع إلى الوجود ، والعبارة عنه بالوجه من مجاز الكلام ، إذ كان الوجه أظهر الأعضاء في الشاهد وأجلّها قدرًا . وقال ٱبن فُورك : قد تُذكر صفة الشيء والمراد بها الموصوف توسُّعًا ؛ كما يقول القائل : رأيت علم فلان اليوم ، ونظرت إلى علمه ؛ ـ إنما يريد بذلك رأيت العالم ونظرت إلى العالم ؛ كذلك إذا ذُكر الوجه هنا ، والمراد من له الوجه ، أي الوجود . وعلى هذا يتأول قوله تعالى : « إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ »(٢) لأن المراد به : لله الذي له الوجه ؛ وكذلك قوله : « إِلَّا ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى »(٣) أي الذي له الوجه . قال ٱبن عباس :

(١) راجع ص ١٥٩ ، ١٦٨ من هذا الجزء . (٢) راجع جـ ١٩ ص ١٢٨ (٣) راجع جـ ٢٠ ص ٨٨

Marfat.com

الوجه عبارة عنه عز وجلّ ؛ كما قال : « وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ »(١) . وقال بعض الأئمة : تلك صفة ثابتة بالسمع زائدةٌ على ما توجبه العقول من صفات القديم تعالى . قال ابن عطية : وضعّف أبو المعالى هذا القول ، وهو كذلك ضعيف ؛ وإنما المراد وجوده . وقيل : المراد بالوجه هنا الجهة التى وُجِّهنا إليها أى القبلة . وقيل : الوجه القصد ؛ كما قال الشاعر :

أستغفر الله ذنبًا لستُ مُحْصِيَه * ربَّ العباد إليه الوَجْهُ والعَمَلُ

وقيل : المعنى فثمّ رضا الله وثوابه ؛ كما قال : « إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ » أى لرضائه وطلب ثوابه ؛ ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " من بنى مسجدا يبتغى به وجه الله بنى الله له مثله فى الجنة " . وقوله : " يُجاء يوم القيامة بصحف مُختّمة فتُنصب بين يدى الله تعالى فيقول عز وجل لملائكته ألقوا هذا وأقبلوا هذا فتقول الملائكة وعزّتك يا ربّنا ما رأينا إلا خيرا وهو أعلم فيقول إن هذا كان لغير وجهى ولا أقبل من العمل إلا ما ابتغى به وجهى " أى خالصًا لى ؛ خرّجه الدارقطنىّ . وقيل : المراد فثمّ الله ؛ والوجه صلة ؛ وهو كقوله : « وَهُوَ مَعَكُمْ » . قاله الكلبى والقُتَبىّ ، ونحوه قول المعتزلة .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ أى يوسع على عباده فى دينهم ، ولا يكلفهم ما ليس فى وسعهم . وقيل : « واسع » بمعنى أنه يَسَع علمه كل شىء ؛ كما قال : « وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا »(٢) . وقال الفرّاء : الواسع هو الجواد الذى يسع عطاؤه كل شىء ؛ دليله قوله تعالى : « ورحمتى وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ »(٣) . وقيل : واسع المغفرة أى لا يتعاظمه ذنب . وقيل : متفضّل على العباد وغنىٌّ عن أعمالهم ؛ يقال : فلان يسع ما يُسئل ، أى لا يبخل ؛ قال الله تعالى : « لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ »(٤) أى لينفق الغنى مما أعطاه الله . وقد أتينا عليه فى الكتاب « الأسنى » والحمد لله .

قوله تعالى : وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾

(١) راجع ج ١٧ ص ١٦٥ (٢) راجع ج ١١ ص ٢٤٣ (٣) راجع ج ٧ ص ٢٩٦ .
(٤) راجع ج ١٨ ص ١٧٠ .

Marfat.com

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾ هـذا إخبار عن النصارى فى قولهم : المسيح ٱبن الله . وقيـل عن اليهـود فى قولهم : عُزَيْرٌ ٱبن الله . وقيـل عن كفرة العرب فى قولهم : الملائكة بنات الله . وقد جاء مثل هذه الأخبار عن الجهلة الكفار فى « مريم »[1] و « الأنبياء »[1] .

الثانيــة — قوله : ﴿ سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ ﴾ الآية . خرّج البخارى عن ٱبن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " قال الله تعالى كذّبنى ٱبن آدم ولم يكن له ذلك وشتمنى ولم يكن له ذلك فأمّا تكذيبه إياى فزعم أنى لا أقدر أن أعيده كما كان وأمّا شتمه إياى فقوله لى ولد فسبحانى أن أتخذ صاحبة أو ولدا " .

الثالثــة — « سُبْحَانَ » منصوب على المصـدر ، ومعناه التبرئة والتنزيه والمحاشاة ، من قولهم : ٱتخـذ الله ولدا ، بل هو الله تعـالى واحد فى ذاته ، أحدٌ فى صـفاته ، لم يـلد فيحتاج إلى صاحبـة ، « أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَـةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ » ولم يولد فيكون مسبوقا ، جلّ وتعالى عمّا يقول الظالمون والجاحدون علوّا كبيرا ! ﴿ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ «ما» رفع بالابتداء والخبر فى المجرور ، أى كل ذلك له ملك بالإيجاد والاختراع . والقائل بأنه ٱتخذ ولدا داخل فى جملة السموات والأرض . وقد تقدّم أن معنى سبحان الله : براءة الله من السوء[2] .

الرابعــة — لا يكون الولد إلا من جنس الوالد ، فكيف يكون للحق سـبحانه أن يتخذ ولدا من مخلوقاته وهو لا يشـبهه شىء ، وقد قال : « إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْـدًا »[1] ، كما قال هنا : « بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » فالولدية تقتضى الجنسية والحدوث ، والقدم يقتضى الوحدانية والثبوت ، فهو سبحانه القديم الأزلى الواحد الأحد ، الفَرْد الصَّمد ، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كُفُوًا أحدٌ . ثم إن البنوّة تنافى الرّق والعبودية — على ما يأتى بيانه فى سـورة « مريم »[1] إن شاء الله تعالى — فكيف يكون ولد عبدا ! هذا محال ، وما أدّى إلى المحال محال .

---

(١) راجع جـ ١١ ص ١٥٨ فما بعدها وص ٢٨١ (٢) راجع جـ ١ ص ٢٧٦ طبعة ثانية .

Marfat.com

الخامســة — قوله تعالى : ﴿ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ﴾ ابتداء وخبر، والتقدير كلهم، ثم حذف الهاء والميم . « قَانِتُونَ » أى مطيعون وخاضعون ؛ فالمخـلوقات كلها تَقْنُتُ لله ، أى تخضع وتطيع . والجمادات قُنُوتهـم فى ظهور الصنعة عليهـم وفيهم . فالقنوت الطاعة ، والقنوت السكوت ؛ ومنه قول زيد بن أرقم : كنا نتكلم فى الصـلاة، يُكَلِّم الرجل صاحبـه إلى جنبه حـتى نزلت : « وَقُـومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ » فأُمرنا بالسكوت ونُهينا عن الكلام . والقنـوت : الصلاة ؛ قال الشاعر :

قانتـا لله يتـلو كُتُبَه * وعلى عمد من الناس اعتزل

وقال السُّدّى وغيره فى قوله : « كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ » أى يوم القيامة . الحسن : كل قائم بالشهادة أنه عبده . والقنوت فى اللغة أصله القيام؛ ومنه الحديث : "أفضل الصلاة طول القنوت" قاله الزجاج . فالخلق قانتون ؛ أى قائمون بالعبودية إما إقـرارا و إما أن يكونوا على خلاف ذلك؛ فأثر الصنعة بَيِّن عليهـم . وقيل : أصـله الطاعة ؛ ومنه قوله تعـالى : « وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ » . وسيأتى لهذا مزيد بيان عند قوله تعالى : « وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ » (١) .

قوله تعـالى : بَدِيعُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ ﴾ فعيل للمبالغة ، وارتفـع على خبر ابتداء محـذوف ، واسم الفاعل مُبْـدِع ؛ كبصير من مُبْصر . أبدعتُ الشىء لا عن مثـال ؛ فالله عز وجل بديع السموات والأرض ، أى منشئها ومُوجدها ومبـدعها ومخترعها على غير حدّ ولا مثال . وكل من أنشأ ما لم يُسبق إليـه قيل له مبدع ؛ ومنه أصحاب البِـدَع . وسُمّيت البِدْعة بِدعة لأن قائلها ابتدعها من غير فعل أو مقال إمام؛ وفى البخارى "ونِعْمَتِ البِـدْعة هذه" يعنى قيام رمضان .

(١) راجع جـ ٣ ص ٢١٣ .

الثانيـــة — كل بِدْعة صدرتْ من مخلوق فلا يخلو أن يكون لها أصل فى الشرع أولا؛ فإن كان لها أصل كانت واقعة تحت عموم ما ندب الله إليه وحضّ رسوله عليه؛ فهى فى حيّز المـدح . وإن لم يكن مثاله موجودا كنوع من الجود والسخاء وفعل المعروف؛ فهذا فعله من الأفعال المحمودة ، وإن لم يكن الفاعل قد سُبق إليه . ويَعْضُد هذا قول عمر رضى الله عنه : نِعْمتِ البدعة هـذه؛(١) لمّـا كانت من أفعـال الخير وداخلة فى حيّز المدح ، وهى وإن كان النبيّ صلى الله عليه وسلم قـد صلاها إلا أنه تركها ولم يحافظ عليها ، ولا جمع النـاس عليها؛ فمحافظة عمر رضى الله عنه عليها ، وجمعُ الناس لهـا ، وندبُهم إليها، بدعةٌ لكنها بدعة محمودة ممدوحة . وإن كانت فى خلاف ما أمر الله به ورسوله فهى فى حيّز الذم والإنكار؛ قال معناه الخطّابى وغيره .

قلت : وهو معنى قوله صلى الله عليه وسلم فى خطبته : "وشَرُّ الأمور مُحدثاتها وكل بِدعة ضلالة" يريد مالم يوافق كتابا أو سُـنّة ، أو عمل الصحابة رضى الله عنهم ، وقـد بيّن هذا بقوله : "مَن سَنّ فى الإسلام سُنّةً حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بهـا من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شىء ومَن سنّ فى الإسلام سُنَّة سيئة كان عليه وِزْرُها ووزر من عمل بها من بعـده من غير أن ينقص من أوزارهم شىء" . وهـذا إشارة إلى ما ٱبتدع من قبيح وحسن ، وهو أصل هذا الباب، وبالله العصمة والتوفيق، لا ربَّ غيره .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ أى إذا أراد إحكامه وإتقانه — كما سبق فى علمه — قال له كن . قال ٱبن عرفة : قضاء الشىء إحكامه وإمضاؤه والفراغ منـه؛ ومنه سُمِّىَ القاضى؛ لإنه إذا حكم فقد فرغ ممـا بين الخصمين . وقال الأزهرى : قضى فى اللغـة على وجوه، مرجعها إلى ٱنقطاع الشىء وتمـامه؛ قال أبو ذُؤَيْب :

وعليهما مَسْرُودتان قضاهما * داودُ أو صَنَعُ السَّوابِـغِ تُبَّعُ(٢)

وقال الشمّاخ فى عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

قضيتَ أمورا ثم غادرت بعـدها * بـوائق فى أكمامها لم تُفتَّـق

(١) يريد : قيام رمضان .
(٢) مسرودتان : درعان مخروزتان . والصنع : الحاذق بالعمل .

قال علماؤنا : «قَضَى» لفظ مشترك ، يكون بمعنى الخلق؛ قال الله تعالى : «فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ»(١) أي خلقهن . ويكون بمعنى الإعلام؛ قال الله تعالى : «وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ»(٢) أي أعلمنا . ويكون بمعنى الأمر؛ كقوله تعالى : «وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ»(٢) . ويكون بمعنى الإلزام وإمضاء الأحكام؛ ومنه سُمّي الحاكم قاضياً . ويكون بمعنى تَوْفِيَة الحق ؛ قال الله تعالى : «فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ»(٣) . ويكون بمعنى الإرادة؛ كقوله تعالى : «فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» أي إذا أراد خلق شيء . قال ابن عطية : «قَضَى» معناه قدّر ؛ وقد يجيء بمعنى أمضى ، ويتّجه في هذه الآية المعنيان على مذهب أهل السُّنة قدّر في الأزل وأمضى فيه . وعلى مذهب المعتزلة أمضى عند الخلق والإيجاد .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿أَمْرًا﴾ الأمر واحد الأمور ، وليس بمصدر أمر يأمر .

قال علماؤنا : والأمر في القرآن يتصرف على أربعة عشر وجهاً :

الأول — الدِّين؛ قال الله تعالى : «حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ»(٤) يعني دين الله الإسلام.

الثاني — القول ؛ ومنه قوله تعالى : «فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا» يعني قولنا ، وقوله : «فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ» يعني قولهم .

الثالث — العذاب؛ ومنه قوله تعالى : «لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ»(٥) يعني لما وجب العذاب بأهل النار .

الرابع — عيسى عليه السلام ؛ قال الله تعالى : «إِذَا قَضَى أَمْرًا»(٦) يعني عيسى، وكان في علمه أن يكون من غير أب .

الخامس — القتل ببَدْر ؛ قال الله تعالى : «فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ»(٧) يعني القتل ببدر، وقوله تعالى : «لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا»(٨) يعني قتل كفار مكة .

السادس — فتح مكة ؛ قال الله تعالى : «فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ»(٩) يعني فتح مكة .

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣٤٥ . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٢١٤ ، ٢٣٦ . (٣) راجع جـ ١٣ ص ٢٨٠ . (٤) راجع جـ ٨ ص ١٥٧ (٥) راجع جـ ٩ ص ٣٥٦ (٦) راجع جـ ٤ ص ٩٣ . (٧) راجع جـ ١٥ ص ٣٣٤ . (٨) راجع جـ ٨ ص ٢٢ . (٩) راجع جـ ٨ ص ٩٥

السابــع ــ قتــل قُرَيظة وجلاء بنى النَّضير ؛ قال الله تعـالى : « فَٱعْفُوا وَٱصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِ »(١) .

الثـامن ــ القيامة ؛ قال الله تعالى : « أَتَىٰ أَمْرُ ٱللَّهِ »(٢) .

التاسـع ــ القضاء ؛ قال الله تعالى : « يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ »(٣) يعنى القضاء .

العـاشر ــ الوَحْى ؛ قال الله تعـالى : « يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ »(٤) يقـول : ينزّل الوحى من السماء إلى الأرض ، وقوله : « يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ »(٥) يعنى الوحى .

الحادى عشر ــ أمر الخلق ؛ قال الله تعالى : « أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ »(٦) يعنى أمور الخـــلائق .

الثـانى عشر ــ النَّصْرُ ؛ قال الله تعالى : « يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ »(٧) . يعنون النصر ، « قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ » يعنى النصر .

الثالث عشر ــ الذّنب ؛ قال الله تعـالى : « فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا »(٨) يعنى جزاء ذنبها .

الرابع عشر ــ الشأن والفعل ؛ قال الله تعـالى : « وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ »(٩) أى فعله وشأنه ، وقال : « فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦ »(١٠) أى فعله .

الخامســـة ــ قوله تعالى : ﴿ كُنْ ﴾ قيـل : الكاف من كَيْنُونه ، والنون من نُوره ؛ وهى المراد بقوله عليه السلام : "أعوذ بكلمات الله التّامات من شرّ ما خلق" . و يُروى : "بكلمة الله التامة" على الإفراد . فالجمع لمـا كانت هـذه الكلمة فى الأمور كلها ، فإذا قال لكل أمر كن ، ولكل شيء كن ، فهنّ كلمـات . يدلّ على هـذا ما رُوِى عن أبى ذَرّ عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم فيما يُحكى عن الله تعالى : "عطائى كلام وعذابى كلام" . خرّجه الترمذى فى حديث فيه طول . والكلمة على الإفراد بمعنى الكلمات أيضا ؛ لكن لمـا تفرقت الكلمة الواحدة فى الأمور فى الأوقات صارت كلمات ومرجعهن إلى كلمة واحدة . و إنمـا قيل « تامة » لأن أقل الكلام عنـد أهل اللغة على ثلاثة أحرف : حرف مبتـدأ ، وحرف تُحشَي به الكلمة ، وحرف يُسكت عليـه . و إذا كان على حرفين فهو عندهم منقوص ، كيَدٍ

Marfat.com

ودَم ولَحم؛ و إنما نقص لعلّة . فهى من الآدميّين من المنقوصات لأنها على حرفين؛ ولأنها كلمة ملفوظة بالأدوات. ومن ربّنا تبارك وتعالى تامة؛ لأنها بغير الأدوات، تعالى عن شبه المخلوقين.

السادســة — قوله تعالى : ﴿ فَيَكُونُ ﴾ قُرئ برفع النون على الاستئناف . قال سيبويه : فهو يكون، أو فإنه يكون . وقال غيره : هو معطوف على « يقول » ؛ فعلى الأوّل كائنا بعد الأمر ، و إن كان معدوما فإنه بمنزلة الموجود إذ هو عنده معلوم ؛ على ما يأتى بيانه . وعلى الثانى كائنا مع الأمر ؛ واختاره الطبرى وقال : أمره للشيء بـ « كن » لا يتقـدّم الوجود ولا يتأخّر عنه ؛ فلا يكون الشيء مأمورا بالوجود إلا وهو موجود بالأمر ، ولا موجودا إلا وهو مأمور بالوجود ، على ما يأتى بيـانه . قال : ونظيره قيام الناس من قبورهم لا يتقـدّم دعاء الله ولا يتأخّر عنــه ؛ كما قال « ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ »(1) . وضعّف ابن عطية هذا القول وقال : هو خطأ من جهة المعنى(2) ؛ لأنه يقتضى أن القول مع التكوين والوجود .

وتلخيص المعتقَد فى هذه الآية : أن الله عزّ وجلّ لم يزل آمرًا للمعدومات بشرط وجودها، قادرًا مع تأخر المقدورات ، عالمًا مع تأخر المعلومات . فكلّ ما فى الآية يقتضى الاستقبال فهو بحسب المأمورات؛ إذ المحدَثات تجيء بعد أن لم تكن . وكل ما يُسند إلى الله تعالى من قدرة وعلم فهو قديم لم يزل . والمعنى الذى تقتضيه عبارة « كن » : هو قديم قائم بالذات .

وقال أبو الحسن الماوَرْدِى: فإن قيل : ففى أى حال يقول له كن فيكون ؟ أفى حال عدمه ، أم فى حال وجوده؟ فإن كان فى حال عدمه استحال أن يأمر إلا مأمورًا، كما يستحيل أن يكون الأمر إلا من آمر ؛ و إن كان فى حال وجوده فتلك حال لا يجوز أن يأمر فيهـا بالوجود والحدوث ؛ لأنه موجود حادث ؟ قيل عن هذا السؤال أجوبة ثلاثة :

أحدها — أنه خبر من الله تعالى عن نفـوذ أوامره فى خلقـه الموجود ؛ كما أمر فى بنى إسرائيل أن يكونوا قِرَدَةً خاسئين ؛ ولا يكون هذا واردًا فى إيجاد المعدومات .

(1) راجع جـ ١٤ ص ١٩ .   (2) فى ا : « من جهة التكوين » .

الثـانى ــ أن الله عزّ وجلّ عالم بمـا هو كائن قبل كونه؛ فكانت الأشياء التى لم تكن وهى كائنة بعلمه قبل كونها مشابهة للتى هى موجودة؛ فجاز أن يقول لهـا : كونى؛ و يأمرها بالخروج من حال العدم إلى حال الوجود؛ لتصوّر جميعها له ولعلمه بها فى حال العدم .

الثـالث ــ أن ذلك خبر من الله تعالى عام عن جميع ما يُحدثه و يكوّنه إذا أراد خلقه و إنشاءه كان، ووجد من غير أن يكون هناك قول يقوله ، و إنمـا هو قضاء يريده؛ فعبر عنه بالقول و إن لم يكن قولًا؛ كقول أبى النَّجْم :

* قد قالتِ الأَنْساع للبَطْنِ ٱلْحَقِ *

ولا قول هناك ، و إنمـا أراد أن الظَّهر قد لَحِق بالبطن ، وكقول عمرو بن حممة الدُّوسىّ :

فأصبحتُ مثلَ النَّسْر طارت فِراخُه * إذا رامَ تَطْيـارًا يقـال له قَـــع

وكما قال الآخر :

قالت جناحاه لساقَيْـه ٱلحقـا * ونجّيـا لحمكما أن يمـزقا

قوله تعالى : وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَـٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْأَيَـٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾

قوله تعالى : ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قال ابن عباس : هم اليهود. مجاهد : النصارى؛ ورجّحه الطبرى؛ لأنهم المذكورون فى الآية أولا . وقال الربيع والسُّدّى وقتادة : مشركو العرب . و « لولا » بمعنى « هلّا » تحضيض؛ كما قال الأشهب بن رُمَيْلة[(١)] :

تَعُـدّون عَقْر النِّيب أفضل مجدكم * بنى ضَوْطَرَى لولا الكَمِىّ المُقَنَّعا

(١) كذا فى الأصول . وقال البغدادى صاحب خزانة الأدب : «نسبه ابن الشجرى فى أماليه للأشهب ، والصحيح أنه من قصيدة لجرير ، لا خلاف بين الرواة أنها له ، وهى جواب عن قصيدة تقدّمت للفرزدق على قافيتها » . وقضية عقر الإبل مشهورة فى التواريخ . والنيب (بكسر النون وسكون الياء جمع ناب) : الناقة المسنة . وضوطرى : قيل : الرجل الضخم اللئيم الذى لا غناء عنـده . وقيل : الحمق . والكمى : الشجاع . والمقنع : الذى على رأسه البيضة والمغفر . راجع خزانة الأدب فى الشاهد الرابع والستين بعد المائة . وكتاب المغنى فى «لولا» والنقائض ص ٨٣٣ طبع أوربا ، وذيل أمالى القالي .

Marfat.com

وليست هذه « لولا » التى تعطى منع الشىء لوجود غيره ؛ والفرق بينهما عند علماء اللسان أن « لـولا » بمعنى التحضيض لا يليها إلا الفعل مُظْهراً أو مقـدرا ، والتى للامتناع يليها الابتداء ، وجرت العادة بحذف الخبر . ومعنى الكلام هَلَّا يكلّمنا الله بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم فنعلم أنه نبى فنؤمن به ، أو يأتينا بآية تكون علامة على نبوّته . والآية : الدلالة والعلامة ، وقد تقدّم[1] . و ﴿ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ اليهود والنصارى فى قول من جعل « ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » كفار العرب ، أو الأمم السالفـة فى قول من جعل « ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » اليهود والنصارى ، أو اليهود فى قول من جعل « الذين لا يعلمون » النصارى . ﴿ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ قيل : فى التعنيت والاقتراح وترك الإيمـان . وقال الفرّاء . « تَشابَهتْ قلوبُهـم » فى اتفاقهم على الكفر . ﴿ قَدْ بَيَّنَّـا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[2] تقدّم .

قوله تعـالى : إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيراً ﴾ « بشيرا » نصب على الحال ، « وَنَذِيراً » عطف عليه ، وقد تقدّم معناهما[3] . ﴿ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ قال مقاتل : إن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " لو أنزل الله بأسه باليهود لآمنوا "، فأنزل الله تعالى : « وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ » برفع تسأل ، وهى قراءة الجمهور ، ويكون فى موضع الحال بعطفه على « بَشيراً ونذيراً » . والمعنى إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا غير مسئول . وقال سعيد الأخفش : ولا تَسألُ (بفتح التاء وضم اللام) ؛ ويكون فى موضع الحال عطفًا على « بشـيرا ونذيرا » . والمعنى : إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا غير سائل عنهم ؛ لأن علم الله بكفرهم بعد إنذارهم يغنى عن سؤاله عنهم . هذا معنى غير سائل . ومعنى غير مسئول لا يكون مؤاخذا بكفر من كفر بعد التبشير والإنذار . وقال ابن عباس ومحمد بن كعب : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم : " ليت شعرى ما فعل أبواى " . فنزلت هـذه الآية ؛ وهذا على قراءة من قرأ « ولا تسألْ » جزماً على النّهى ، وهى قراءة نافع وحده ؛ وفيه وجهان :

(١) راجع جـ ١ ص ٦٦ طبعة ثانية . (٢) راجع جـ ١ ص ١٨٠ طبعة ثانية .
(٣) راجع جـ ١ ص ١٨٤ ، ٢٣٨ طبعة ثانية .

Marfat.com

أحدهما — أنه نهى عن السؤال عمن عصى وكفر من الأحياء ؛ لأنه قد يتغير حاله فينتقل عن الكفر إلى الإيمان ، وعن المعصية إلى الطاعة .

والثانى — وهو الأظهر ، أنه نهى عن السؤال عمن مات على كفره ومعصيته ، تعظيما لحاله وتغليظا لشأنه ، وهذا كما يقال : لا تسأل عن فلان ! أى قد بلغ فوق ما تحسب . وقرأ ابن مسعود « ولن تسأل » . وقرأ أُبَىّ « وما تسأل » ؛ ومعناهما موافق لقراءة الجمهور ، نفى أن يكون مسئولا عنهم . وقيل : إنما سأل أى أبويه أحدث موتا ؛ فنزلت . وقد ذكرنا فى كتاب « التذكرة » أن الله تعالى أحيا له أباه وأمه وآمنا به ، وذكرنا قوله عليه السلام للرجل : " إن أبى وأباك فى النار " وبينا ذلك ، والحمد لله .

قوله تعالى : وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ . فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ المعنى : ليس غرضهم يا محمد بما يقترحون من الآيات أن يؤمنوا ، بل لو أتيتهم بكل ما يسألون لم يرضوا عنك ، و إنما يرضيهم ترك ما أنت عليه من الإسلام واتباعهم . يقال : رضِىَ يَرْضَى رِضًا و رُضًا و رِضْوانًا و رُضْوانًا ومَرْضاة ؛ وهو من ذوات الواو ؛ و يقال فى التثنية : رِضَوَانِ ، وحكى الكسائى : رِضَيَانِ . وحُكى رضاء ممدود ، وكأنه مصدر راضى يراضى مُراضاة ورِضاءً . و « تَتَّبِعَ » منصوب بأن ولكنها لا تظهر مع حتى ؛ قاله الخليل . وذلك أن حتى خافضة للاسم ؛ كقوله : « حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ » وما يعمل فى الاسم لا يعمل فى الفعل ألبتة ، وما يخفض اسما لا ينصب شيئا . وقال النحاس : « تَتَّبِعَ » منصوب بحتى ، و « حتى » بدل من أن . والمِلّة : اسم لما شرعه الله لعباده فى كتبه وعلى ألسنة رسله .

Marfat.com

فكانت المِلّة والشريعة سواء ؛ فأما الدِّين فقد فرق بينه وبين المِلّة والشريعة ؛ فإن المِلّة والشريعة ما دعا اللهُ عبادَه إلى فعله ، والدِّين ما فعله العباد عن أمره .

الثانيــة ــ تمسّك بهذه الآية جماعة من العلماء منهم أبو حنيفة والشافعى وداود وأحمد ابن حنبل على أن الكفر كله ملة واحدة ؛ لقوله تعالى : « مِلَّتَهُمْ » فوحّد المِلّة ، وبقوله تعالى : « لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ »(١) ، وبقوله عليه السلام : "لا يتوارث أهل مِلّتين" على أن المراد به الإسلام والكفر ، بدليل قوله عليه السلام : "لا يرث المسلم الكافر". وذهب مالك وأحمد فى الرواية الأخرى إلى أن الكفر مِلَل ، فلا يرث اليهودىّ النصرانىّ ، ولا يرثان المجوسىّ ؛ أخذا بظاهر قوله عليه السلام : "لا يتوارث أهل مِلّتين" ؛ وأما قوله تعالى : « مِلّتهم » فالمراد به الكثرة وإن كانت موحدة فى اللفظ بدليل إضافتها إلى ضمير الكثرة ؛ كما تقول : أخذت عن علماء أهل المدينة ــ مثلا ــ عِلْمَهم ، وسمعت عليهم حديثهم ؛ يعنى علومهم وأحاديثهم .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ المعنى ما أنت عليه يا محمد من هدى الله الحق الذى يضعه فى قلب من يشاء هو الهُدَى الحقيق ، لا ما يدّعيه هؤلاء .

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم ﴾ الأهواء جمع هَوًى ؛ كما تقول : جمل وأجمال ، ولما كانت مختلفة جمعت ، ولو حُمل على أفراد المِلّة لقال هواهم . وفى هذا الخطاب وجهان : أحدهما ــ أنه للرسول ، لتوجّه الخطاب إليه . والثانى ــ أنه للرسول والمراد به أمّته ؛ وعلى الأول يكون فيه تأديب لأمّته ، إذ منزلتهم دون منزلته . وسبب الآية أنهم كانوا يسألون المسالمة والهُدنة ، ويَعِدون النبىّ صلى الله عليه وسلم بالإسلام ؛ فأعلمه الله أنهم لن يرضوا عنه حتى يتبع مِلّتهم ، وأمره بجهادهم .

قوله تعالى : ﴿ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ سُئل أحمد بن حنبل عمن يقول : القرآن مخلوق ؛ فقال : كافر ؛ فقيل : بِمَ كفّرته ؟ فقال : بآيات من كتاب الله تعالى : « وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ »(٢) والقرآنُ من علم الله . فمن زعم أنه مخلوق فقد كفر .

---

(١) راجع جـ ٢٠ ص ٢٢٩ . (٢) راجع جـ ٩ ص ٣٢٦

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ ﴾ قال قتادة : هم أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ والكتاب على هذا التأويل القرآن . وقال ٱبن زيد : هم مَن أسلم من بنى إسرائيل . والكتاب على هذا التأويل : التوراة ؛ والآية تَعُم . و « الذين » رفع بالأبتداء، « آتيناهم » صلته ، « يَتْلُونَهُ » خبر الأبتداء ، و إن شئت كان الخبر « أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ » .

وٱختلف فى معنى ﴿ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ﴾ فقيل : يتّبعونه حق ٱتباعه، بٱتباع الأمر والنهى ؛ فيحلّلون حلاله ، ويحرّمون حرامه ، ويعملون بما تضمّنه ؛ قاله عكرمة . قال عكرمة : أما سمعت قول الله تعالى : « وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا » أى ٱتبعها؛ وهو معنى قول ٱبن عباس وٱبن مسعود رضى الله عنهما . وقال الشاعر :

* قـد جَعَلَتْ دَلْوِى تَسْتَتْلِينِى (١) *

وروى نصر بن عيسى عن مالك عن نافع عن ٱبن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : « يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ » قال : "يتّبعونه حق ٱتباعه" . فى إسناده غير واحد من المجهولين فيما ذكر الخطيب أبو بكر أحمد ، إلا أن معناه صحيح . وقال أبو موسى الأشعرى : من يتّبع القرآن يهبط به على رياض الجنة . وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه : هم الذين إذا مَرُّوا بآية رحمة سألوها من الله ، وإذا مَرُّوا بآية عذاب ٱستعاذوا منها . وقد روى هذا المعنى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : كان إذا مرّ بآية رحمة سأل، وإذا مرّ بآية عذاب

(١) تمامه :　　　* ولا أريد تبع القرين *

تَعَوَّذ . وقال الحسن : هم الذين يعملون بمُحْكَمِه ، ويؤمنون بمتشابهه ، ويكِلُون ما أشكل عليهم إلى عالمه . وقيل : يقرءونه حق قراءته .

قلت : وهذا فيه بُعْدٌ ، إلا أن يكون المعنى يرتلون ألفاظه ، ويفهمون معانيه ؛ فإن بفهم المعاني يكون الاتّباع لمن وُفّق .

قوله تعالى : وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾

فيه عشرون مسألة :

الأولى — لما جرى ذكر الكعبة والقبلة اتصل ذلك بذكر إبراهيم عليه السلام، وأنه الذي بنى البيت ؛ فكان من حق اليهود — وهم من نسل إبراهيم — ألّا يرغبوا عن دينه . والابتلاء : الامتحان والاختبار ؛ ومعناه أمْرٌ وتعبُّدٌ . وإبراهيم تفسيره بالسُّريانية فيما ذكر الماوردي، وبالعربية فيما ذكر ابن عطية : أبٌ رحيم . قال السُّهيلي : وكثيرا ما يقع الاتفاق بين السُّرياني والعربي أو يقاربه في اللفظ ؛ ألا ترى أن إبراهيم تفسيره أب راحم ؛ لرحمته بالأطفال ؛ ولذلك جعل هو وسارة زوجته كافلين لأطفال المؤمنين الذين يموتون صغارا إلى يوم القيامة .

قلت : ومما يدلّ على هذا ما خرّجه البخاري من حديث الرؤيا الطويل عن سَمُرة، وفيه : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم رأى في الروضة إبراهيم عليه السلام وحوله أولاد الناس، وقد أتينا عليه في كتاب التذكرة، والحمد لله .

وإبراهيم هذا هو ابن تارخ بن ناخور في قول بعض المؤرّخين . وفي التنزيل : « وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ »(1) وكذلك في صحيح البخاري ؛ ولا تناقض في ذلك ، على ما يأتي في « الأنعام » بيانه إن شاء الله تعالى . وكان له أربع بنين : إسماعيل وإسحاق ومَدْين ومدائن ؛ على ما ذكره السُّهيلي . وقدّم على الفاعل للاهتمام ؛ إذ كون الربّ تبارك وتعالى

(1) راجع جـ ٧ ص ٢٢

Marfat.com

مبتليًا معـلوم ، وكون الضمير المفعول فى العربيـة متصلًا بالفاعل موجب تقديم المفعول ؛ فإنما بُني الكلام على هذا الاهتمام ، فاعلمه . وقراءة العامة « إبراهيمَ » بالنصب ، « رَبُّهُ » بالرفع على ما ذكرنا . وروى عن جابر بن زيد أنه قرأ على العكس ، وزعم أن ابن عباس أقرأه كذلك . والمعنى دعا إبراهيم ربه وسأل ؛ وفيه بُعْدٌ ؛ لأجل الباء فى قوله : « بِكَلِمَاتٍ » .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ بِكَلِمَاتٍ ﴾ الكلمات جمع كلمة ، ويرجع تحقيقها إلى كلام البارى تعالى ، لكنه عبّر عنها عن الوظائف التى كُلِّفها إبراهيم عليه السلام ؛ ولما كان تكليفها بالكلام سُمّيت به ، كما سُمِّيَ عيسى كلمة ؛ لأنه صدر عن كلمة وهى « كُن » . وتسمية الشىء بمقدّمته أحد قسمى المجاز ؛ قاله ابن العربى .

الثالثـــة — واختلف العلماء فى المراد بالكلمات على أقوال : أحدها — شرائع الإسلام ، وهى ثلاثون سهما ، عشرة منها فى سورة براءة : « التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ »[(1)] إلى آخرها ، وعشرة فى الأحزاب : « إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ »[(2)] إلى آخرها ، وعشرة فى المؤمنون : « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ »[(3)] إلى قوله : « على صَلَوَاتِهِمْ يحافظون » وقوله فى « سأل سائل »[(4)] : « إِلَّا الْمُصَلِّينَ » إلى قوله : « وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ » . قال ابن عباس رضى الله عنهما : ما ابتلى الله أحدًا بهنّ فقام بها كلّها إلا إبراهيم عليه السلام ، ابْتُلِيَ بالإسلام فأتمه فكتب الله له البراءة فقال : « وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّى »[(5)] . وقال بعضهم : بالأمر والنهى ، وقال بعضهم : بذبح ابنه ، وقال بعضهم : بأداء الرسالة ؛ والمعنى متقارب . وقال مجاهد : هى قوله تعالى : إنى مبتليك بأمر ، قال : تجعلنى للناس إماما ؟ قال نعم . قال : ومن ذرّيتى ؟ قال : لا ينال عهدى الظالمين ؛ قال : تجعل البيت مَثابةً للناس ؟ قال نعم . قال : وأَمْنًا ؟ قال نعم . قال : وتُرِينا مناسكنا وتتوب علينا ؟ قال نعم . قال : وترزق أهله من الثمرات ؟ قال نعم . وعلى هذا القول فالله تعالى هو الذى أتم . وأصح من هذا ما ذكره عبد الرزاق عن معمر عن

(١) راجع جـ ٨ ص ٢٦٩　(٢) راجع جـ ١٤ ص ١٨٥　(٣) راجع جـ ١٢ ص ١٠٢
(٤) راجع جـ ١٨ ص ٢٩١　(٥) راجع جـ ١٧ ص ١١٣

Marfat.com

آبن طاوس عن آبن عباس فى قوله : « وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ » قال : آبتلاه الله بالطهارة ، خمس فى الرأس وخمس فى الجسد : قصّ الشارب ، والمضمضة ، والآستنشاق ، والسِّواك ، وفَرْق الشعر . وفى الجسد : تقليم الأظفار ، وحلق العانة ، والآختتان ، ونَتْف الإبْط ، وغسل مكان الغائط والبول بالماء ؛ وعلى هذا القول فالذى أتمّ هو إبراهيم ، وهو ظاهر القرآن . وروى مطر(١) عن أبى الجلد أنها عشر أيضا ، إلا أنه جعل موضع الفَرْق غسل البراجم(٢) ، وموضع الآستنجاء الآستحداد(٣) . وقال قتادة : هى مناسك الحج خاصة . الحسن : هى الخلال الست : الكوكب ، والقمر ، والشمس ، والنار ، والهجرة ، والختان . قال أبو إسحاق الزجاج : وهذه الأقوال ليست بمتناقضة ؛ لأن هذا كله مما آبتلى به إبراهيم عليه السلام .

قلت : وفى الموطأ وغيره عن يحيى بن سعيد أنه سمع سعيد بن المسيّب يقول : إبراهيم عليه السلام أول من آختتن ، وأول من أضاف الضيف ، وأول من آستحدّ ، وأول من قلّم الأظفار ، وأول من قصّ الشارب ، وأول من شاب ؛ فلما رأى الشيب قال : ما هذا ؟ قال : وقار ، قال : يا رب زدنى وقارا . وذكر أبو بكر بن أبى شيبة عن سعيد بن إبراهيم عن أبيه قال : أول من خطب على المنابر إبراهيم خليل الله . قال غيره : وأول من ثَرَد الثَّريد ، وأول من ضرب بالسيف ، وأول من آستاك ، وأول من آستنجى بالماء ، وأول من لبس السراويل . وروى معاذ بن جبل قال قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إنْ أَتَّخِذِ المنبر فقد آتخذه أبى إبراهيم و إنْ أَتَّخِذ العصا فقد آتخذها أبى إبراهيم " .

قلت : وهذه أحكامٌ يجب بيانها والوقوف عليها والكلام فيها ؛ فأول ذلك « الختان » وما جاء فيه ، وهى المسألة :

الرابعـــة — أجمع العلماء على أن إبراهيم عليه السلام أول من آختتن . وآختُلِف فى السن التى آختتن فيها ، ففى الموطأ عن أبى هريرة موقوفا : " وهو آبن مائة وعشرين سنة وعاش

---

(١) فى ج : « مطرف » . (٢) سيأتى الكلام على البراجم فى المسألة العاشرة .
(٣) سيذكر المؤلف معنى الآستحداد عند المسألة التاسعة .

Marfat.com

بعد ذلك ثمـانين سنة" . ومثل هذا لا يكون رأيا، وقـد رواه الأوزاعى مرفوعا عن يحيي ابن سعيد عن سـعيد بن المسيّب عن أبى هريرة قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : "اختتن إبراهيم عليه السلام وهو ابن مائة وعشرين سنة ثم عاش بعد ذلك ثمـانين سنة" . ذكره أبو عمر[١] . وروى مسـندا مرفوعا من غير رواية يحـيى من وجوه : " أنه اختتن حين بلغ ثمـانين سنة واختتن بالقـدوم[٢]" . كذا فى صحيح مسلم وغيره «ابن ثمـانين سنة»؛ وهو المحفوظ فى حديث ابن عجلان وحديث الأعرج عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم. قال عكرمة : اختتن إبراهيم وهو ابن ثمانين سنة . قال : ولم يَطُف بالبيت بعدُ على مِلّة إبراهيم إلا مَخْتُون؛ هكذا قال عكرمة وقاله المسيّب بن رافع ؛ ذكره المَرْوَزِىّ . و « القدوم » يروى مشدّدا ومخفّفا . قال أبو الزناد : القَدُّوم (مشدّدا) : موضع .

الخامســة — واختلف العلمـاء فى الختان؛ فجمهورهم على أن ذلك من مؤكّدات السُّنن ومن فطرة الإسـلام التى لا يسع تركها فى الرجال . وقالت طائفـة : ذلك فرض ؛ لقوله تعالى : «أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا» . قال قتادة : هو الاختتان؛ وإليه مال بعض المـالكيّين، وهو قول الشافعى . واسـتدل ابن سريج[٣] على وجوبه بالإجماع على تحريم النظر إلى العَـوْرة ، وقال : لولا أن الختان فرض لـمـا أبيح النظر إليها من المختون . وأجيب عن هذا بأن مثل هـذا يباح لمصلحة الجسم كنظر الطبيب ، والطبّ ليس بواجب إجمـاعا؛ على ما يأتى فى « النحل » بيانه إن شاء الله تعالى . وقد احتج بعض أصحابنا بمـا رواه الحجاج بن أرطاة عن أبى المليح عن أبيـه عن شدّاد بن أوس أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم قال : "الختان سُنّة للرجال مَكْرُمَةٌ للنساء" . والحجاج ليس ممن يحتجّ به .

---

(١) فى ج : « ذكره عبد الرزاق » .

(٢) قال النووى : « رواة مسلم متفقون على تخفيف (القدوم)، ووقع فى روايات البخارى الخلاف فى تشديده وتخفيفه، قالوا : وآلة النجار يقال لها : قدوم بالتخفيف لا غير، وأما القدوم مكان بالشام ففيه التخفيف والتشديد. فمن رواه بالتشديد أراد القرية، ورواية التخفيف تحتمل القرية والآلة ؛ والأكثرون على التخفيف وعلى إرادة الآلة » .

(٣) فى ا، ح : « ابن شريح » .

Marfat.com

قلت : أعلى ما يحتجّ به فى هـــذا الباب حديث أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " الفطرة خمس الاختتان ... " الحديث، وسيأتى . وروى أبو داود عن أم عطية أن آمرأة كانت تختن النساء بالمدينــة، فقال لهـا النبيّ صلى الله عليه وسـلم : "لا تَنْهَكِى (١) فإن ذلك أَحْظَى للرأة وأحبّ للبعل " . قال أبو داود : وهذا الحديث ضعيف راويه مجهول . وفى رواية ذكرها رزين : "ولا تَنْهَكِى فإنه أنْوَرُ للوجه وأحْظَى عند الرجل " .

السادســـة — فإن وُلد الصبيّ مختونًا فقد كفى مؤنة الختان . قال الميمونى قال لى أحمد : إن ها هنا رجلا ولد له ولد مختون، فآغتمّ لذلك غمًّا شديدا، فقلت له : إذا كان الله قد كفاك المؤنة فمـا غمّك بهذا !

السابعـــة — قال أبو الفـــرج الجوزىّ حدّثت عن كعب الأحبـار قال : خلق من الأنبيـاء ثلاثة عشر مختونين : آدم وشيث و إدريس ونوح وسام ولوط و يوسـف وموسى وشعيب وسليمان ويحيى وعيسى والنبيّ صلى الله عليه وسلم . وقال محمد بن حبيب الهاشمىّ : هم أربعـة عشر : آدم وشيث ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب و يوسف وموسى وسليمان وزكريا وعيسى وحنظلة بن صفوان (نبىّ أصحاب الرّسّ (٢)) ومحمد، صلى الله عليه وعليهم أجمعين .

قلت :آختلفت الروايات فى النبيّ صلى الله عليه وسلم، فذكر أبو نعيم الحافظ فى « كتاب الحِلْية » بإسناده أن النبيّ صلى الله عليه وسـلم ولد مختونا . وأسند أبو عمر فى التمهيد حدّثنا أحمد بن محمد بن أحمد حدّثنا محمد بن عيسى حدّثنا يحيى بن أيوب بن بادى (٣) العلاف حدّثنا محمد آبن أبى السرىّ العسقلانى حدّثنا الوليد بن مسلم عن شعيب عن عطاء الخراسانىّ عن عكرمة عن آبن عباس : أن عبد المطلب خَتَن النّبى صلى الله عليه وسلم يوم سابعه، وجعل له مأدبة وسمّاه « محمدا » . قال أبو عمر : هـــذا حديث مسند غريب . قال يحيى بن أيوب : طلبت

(١) « لا تنهكى » أى لا تبالغى فى استقصاء الختان .

(٢) فى اللسان : « قال الزجاج : يروى أن الرس ديار لطائفة من ثمود، قال و يروى أن الرس قرية باليمامة يقال لها فلج، و يروى أنهم كذبوا نبيهم ورسوه فى بئر، أى دسوه فيها حتى مات، و يروى أن الرس بئر، وكل بئر عند العـــرب رس » .

(٣) فى الأصول : « زياد » والتصويب عن تهذيب التهذيب .

Marfat.com

هذا الحديث فلم أجده عند أحد من أهل الحديث ممن لقيته إلا عند آبن أبى السَّرِىّ . قال أبو عمر : وقد قيل : إن النبىّ صلى الله عليه وسلم وُلِدَ مختونا .

الثامنــــة ــــ وآختلفوا متى يُختَن الصبىّ ؛ فثبت فى الأخبار عن جماعة من العلماء أنهم قالوا : ختن إبراهيمُ إسماعيلَ لثلاث عشرة سنة . وختن آبنــه إسحاق لسبعة أيام . وروى عن فاطمة أنها كانت تختن ولدها يوم السابع ؛ وأنكر ذلك مالك وقال ذلك من عمل اليهود . ذكره عنه آبن وهب . وقال اللَّيث بن سعد : يُختن الصبىّ ما بين سبع سنين إلى عشر . ونحوه روى آبن وهب عن مالك . وقال أحمد : لم أسمع فى ذلك شيئا . وفى البخارىّ عن سعيد بن جُبير قال : سئل آبن عباس : مِثْلُ مَن أنت حين قبض رسول الله صلى الله عليـه وسلم ؟ قال : أنا يومئذ مختون . قال : وكانوا لا يختنون الرجل حتى يُدرك أو يقارب الآحتـــلام .

وآستحب العلماء فى الرجل الكبير يُسلم أن يختتن ؛ وكان عطاء يقول : لا يتم إسـلامه حتى يختتن وإن بلغ ثمـانين سنة . وروى عن الحسن أنه كان يرخّص للشيخ الذى يُسلم ألّا يختتن ، ولا يرى به بأسًا ولا بشهادته وذبيحته وحجّه وصلاته ؛ قال آبن عبد البر : وعامةُ أهل العلم على هذا . وحديث بُرَيْدة فى حج الأغلف لا يثبت . وروى عن آبن عباس وجابر ابن زيد وعكرمة : أن الأغلف لا تؤكل ذبيحته ولا تجوز شهادته .

التاســـعة ــــ قوله : «وأوّل من آستحدّ» فالآستحداد آستعمال الحديد فى حلق العانة . وروت أم سلمة أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان إذا آطّلى (١) وَلِىَ عانته بيده . وروى آبن عباس أن رجلا طَلَى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا بلغ إلى عانته قال له : آخرج عنى ، ثم طَلَى عانته بيده . وروى أنس أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان لا يَتَنَــوّر ، وكان إذا كثر الشعر على عانته حلقه . قال آبن خُوَيْزِمَنداد : وهذا يدلّ على أن الأكثر من فعله كان الحلق وإنما تَنَوّر نادرا ، ليصح الجمع بين الحديثين .

---

(١) اطلى : يعنى بالنورة وهى حجر يتخذ منه طلاء لإزالة الشعر من بواطن الجسد .

Marfat.com

العاشرة — في تقليم الأظفار . وتقليم الأظفار : قصّها ؛ والقُلامة مايزال منها . وقال مالك : أُحبّ للنساء من قص الأظفار وحلق العانة مثل ما هو على الرجال . ذكره الحارث ابن مسكين وسُحْنُون عن ابن القاسم . وذكر الترمذيّ الحكيم في « نوادر الأصول » له (الأصل التاسع والعشرون) : حدّثنا عمر بن أبي عمر قال حدّثنا إبراهيم بن العلاء الزبيدي عن عمر بن بلال القَزَاريّ قال سمعت عبد الله بن بشر المازنيّ يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قُصُّوا أظافيركم وآدفِنوا قُلاماتكم وَنقُّوا بَراجمكم وَنظِّفُوا لِثاتكم من الطعام وتَسنَّنُوا ولا تدخلوا عليّ قُحْرًا بُخْرًا(١) " ثم تكلّم عليه فأحسن . قال الترمذيّ : فأما قَص الأظفار فمن أجل أنه يَخْدِش ويَخْمُش ويضرّ، وهو مجتمع الوسخ ، فربّما أجنب ولا يصل الماء إلى البشرة من أجل الوسخ فلا يزال جُنبًا . ومن أجنب فبقي موضع إبرة من جسده بعد الغسل غير مغسول فهو جُنُب على حاله حتى يعمّ الغسل جسده كله ؛ فلذلك نَدبهم إلى قص الأظفار . والأظافير جمع الأظفور ، والأظفار جمع الظفر . وفي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث سَها في صلاته فقال : " ومالي لا أُوهِم ورُفْغُ(٢) أحدكم بين ظفره وأنملته ويسالني أحدكم عن خبر السماء وفي أظافيره الجنابة والتَّفَث " . وذكر هذا الخبر أبو الحسن عليّ بن محمد الطبري المعروف بالكِيَا في « أحكام القرآن » له ، عن سليمان بن فرج أبي واصل قال : أتيت أبا أيوب رضي الله عنه فصافحته ، فرأى في أظفاري طولا فقال : جاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم يسأله عن خبر السماء فقال : " يجيء أحدكم يسأل عن خبر السماء وأظفاره كأظفار الطير حتى يجتمع فيها الوسخ والتَّفَث " .

وأما قوله : " آدفنُوا قلاماتكم " فإن جسد المؤمن ذو حُرمة ، فما سقط منه وزال عنه فحفظه من الحرمة قائم ، فيحقّ عليه أن يدفنه ، كما أنه لو مات دُفِن ، فإذا مات بعضه فكذلك أيضا تقام حرمته بدفنه ، كي لا يتفرّق ولا يقع في النار أو في مزابل قذرة . وقد أمر رسول الله

---

(١) اضطربت الأصول في رسم هذه الكلمة ، والتصويب عن « نوادر الأصول » وسينقل المؤلف رحمه الله كلام الترمذي من هذا الحديث . (٢) . الرفغ : الوسخ الذي بين الأنملة والظفر .

Marfat.com

صلى الله عليه وسـلم بدفن دمه حيث احتجم كى لا تبحث عنـه الكلاب . حدّثنا بذلك أبى رحمه الله تعـالى قال حدّثنا موسى بن إسماعيل قال حدّثنا الهنيد بن القاسم بن عبدالرحمن بن ماعز قال سمعت عامر بن عبدالله بن الزبير يقول إن أباه حدّثه أنه أتى رسـول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحتجم، فلما فرغ قال : "يا عبد الله آذهب بهذا الدم فأهْرِقه حيث لا يراك أحد" . فلما برز عن رسول الله صلى الله عليـه وسلم عمد إلى الدم فشربه؛ فلما رجع قال : "يا عبد الله ما صنعت به ؟" . قال : جعلته فى أخفى مكان ظننت أنه خافيًا عن الناس . قال : "لعلك شربته؟" قال نعم . قال : "لم شربتَ الدم [وَيْلٌ للناس منك و(١)] ويلٌ لك من الناس" . حدّثنى أبى قال حدّثنا مالك بن سليمان الهَرَوى قال حدّثنا داود بن عبدالرحمن عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بدفن سبعة أشياء من الإنسان : الشعر، والظفر، والدم، والحَيْضة، والسن، والقَلَفة، والبَشيمة .

وأما قـوله : "نَقُّوا بَراجِمكم" فالبَراجِم تلك الغضون من المفاصل، وهى مجتمع الدَّرَن (واحدها بُرْجُمة) وهو ظهر عقدة كلّ مفصل؛ فظهر العقدة يسمى بُرْجُمة، وما بين العقدتين تسمى راجبة، وجمعها رواجب؛ وذلك ممـا يلى ظهرها، وهى قصبة الأصبع؛ فلكل أصبع بُرْجُمتان وثلاث رواجب إلا الإبهام فإن لهـا بُرْجُمة وراجبتين؛ فأمر بتنقيته لئلا يَدْرَن فتبقى فيه الجنابة، ويحول الدّرن بين المـاء والبشرة .

وأما قوله : "نَظِّفُوا لِثاتكم" فاللِّثَة واحدة، واللِّثات جماعة، وهى اللّحمة فوق الأسنان ودون الأسنان، وهى منابتها . والعُمُور : اللّحمة القليلة بيـن السنّين، واحدها عُمْر . فأمر بتنظيفها لئلا يبقى فيها وضَر الطعام فتتغيّر عليه النَّكْهة وتتنكّر الرائحة، ويتأذّى الملكان؛ لأنه طريق القرآن، ومقعد الملكين عند نابيه . ورُوِىَ فى الخبر فى قوله تعـالى : « مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيـدٌ(٢) » قال : عند نابيه . حدّثنا بذلك محمد بن علىّ الشّقيقى قال سمعت أبى يذكر ذلك عن سفيان بن عُيينة، وجاد ما قال ؛ وذلك أن اللفظ هو عمل الشفتين يلفظ

(١) زيادة عن كتاب « نوادر الأصول » . (٢) راجع جـ ١٧ ص ١١

الكلام عن لسانه إلى البراز . وقوله : « لَدَيهِ » أى عنده، واللَّدَى والعِنْد فى لغتهم السائرة بمعنًى واحد، وكذلك قولهم « لَدُن » فالنون زائدة . فكأن الآية تنبئ أن الرقيب عَتِيد عند مغلظ الكلام وهو الناب .

وأما قوله : " تَسَنَّنُوا " وهو السواك مأخوذ من السِّن، أى نَظِّفُوا السِّن .

وقوله : "لا تدخلوا علىّ قُخْرا بُخْرا" فالمحفوظ عندى "قُحْلًا وقُلْحًا" . وسمعت الجارود يذكر عن النضر قال : الأقلح الذى قد اصفرت أسنانه حتى بَخِرت من باطنها، ولا أعرف القَخَر . والبَخَر : الذى تجد له رائحة منكرة لبشرته؛ يقال : رجل أبخر، ورجال بُخْر . حدّثنا الجارود قال حدّثنا جرير عن منصور عن أبى علىّ عن أبى جعفر بن تمام بن العباس عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :"استاكوا مالكم تدخلون علىّ قُلْحًا".

الحادية عشرة — فى قص الشارب . وهو الأخذ منه حتى يبدو طَرَف الشَّفَة وهو الإطار، ولا يجزّه فيمثّل نفسه؛ قاله مالك . وذكر ابن عبدالحكم عنه قال: وأرى أن يؤدّب من حلق شاربه . وذكر أشهب عنه أنه قال فى حلق الشارب : هذه بدع، وأرى أن يُوجع ضربًا مَن فعله . وقال ابن خُوَيْزِ منداد قال مالك : أرى أن يُوجع مَن حلقه ضربا . كأنه يراه ممثّلا بنفسه، وكذلك بنتفه الشعر، وتقصيره عنده أولى من حلقه . وكذلك روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه كان ذا لِمّة؛ وكان أصحابه من بين وافر الشَّعر أو مُقَصِّر؛ وإنما حَلَق وحَلَقوا فى النُّسُك . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقصّ أظافره وشاربه قبل أن يخرج إلى الجمعة . وقال الطحاوى : لم نجد عن الشافعى فى هذا شيئا منصوصًا، وأصحابه الذين رأيناهم : المُزَنِىّ والربيع كانا يُحْفِيان شواربهما، ويدلّ ذلك أنهما أخذا ذلك عن الشافعى رحمه الله تعالى . قال : وأما أبو حنيفة وزُفَر وأبو يوسف ومحمد فكان مذهبهم فى شعر الرأس والشارب أن الإحفاء أفضل من التقصير. وذكر ابن خُوَيْزِ منداد عن الشافعى أن مذهبه فى حلق الشارب كمذهب أبى حنيفة سواء. وقال أبو بكر الأَثْرَم : رأيت أحمد بن حنبل يُحْفِى شاربه شديدًا، وسمعته سئل عن السُّنة فى إحفاء الشارب فقال : يُحْفَى كما قال النبىّ صلى الله عليه وسلم: "احْفُوا الشَّوارب" . قال أبو عمر : إنما فى هذا الباب

أصلان : أحدهما — أُحْفُوا ، وهو لفـظ محتمل التأويل . والثـانى — قصّ الشارب ، وهو مفسّر ، والمفسّر يقضى على المجمل ، وهو عمـل أهل المدينة ، وهو أولى ما قيـل به فى هـذا الباب . روى الترمذىّ عن ٱبن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسـلم يقصّ من شاربه ويقـول : " إن إبراهيم خليل الرحمن كان يفعله " . قال : هـذا حديث حسن غريب . وخرّج مسلم عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسـلم قال : " الفِطرة خمسٌ الاختتان والاستحداد وقصّ الشارب وتقليم الأظفار ونَتْف الإبْط " . وفيـه عن ٱبن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " خالفوا المشركين أُحْفُوا الشـوارب وأوْفُوا اللِّحَى[(١)] " . والأعاجم يقصّون لحاهم ، ويوفّرون شواربهـم أو يوفرونهما معًا ، وذلك عكس الجمال والنظافة . ذكر رَزين عن نافع أن ٱبن عمـر كان يُحْفِى شاربه حتى ينظر إلى الجلد ، ويأخذ هذين ، يعنى ما بين الشارب واللحية . وفى البخارى : وكان ٱبن عمر يأخذ من طول لحيته مازاد على القَبْضة إذا حجّ أو ٱعتمر . وروى الترمذىّ عن عبدالله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأخذ من لحيتـه من عرضها وطولها . قال : هذا حديث غريب .

الثانية عشرة — وأما الإبْط فسُنّته النّتْف ، كما أن سُنّة العانة الحَـلْق ، فلو عكس جاز لحصول النظافة ، والأوّل أوْلى ؛ لأنه المتيسّر المعتاد .

الثالثة عشرة — وفَرْق الشعر : تفريقه فى المَفْرِق[(٢)] ، وفى صفته صلى الله عليه وسلم : إن ٱنفرقتْ عَقِيصتُه[(٣)] فَرَق ؛ يقال : فرقت الشعر أَفْرُقُـه فَرْقًا ؛ يقول : إن ٱنفـرق شعر رأسه فرقه فى مَفْرِقه ، فإن لم ينفرق تركه وَفْرَةً[(٤)] واحدة . خرّج النسائى عن ٱبن عباس أن رسـول الله صلى الله عليه وسـلم كان يَسْدل شعره ، وكان المشركون يفـرقون شعورهم ، وكان يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشىء ، ثم فرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك ؛ أخرجه البخارى ومسلم عن أنس . قال القاضى عِياض : سَدْلُ الشعر إرساله ، والمراد به هاهنا عند العلماء إرساله على الجبين ، وٱتخاذه كالقُصّة ، والفرقُ فى الشعر سُنّة ؛ لأنه الذى رجع إليه النبىّ صلى الله عليه وسلم . وقد روى أن عمر بن عبد العزيز كان إذا ٱنصرف من الجمعة

(١) إحفاء الشوارب : قص ما طال منها . وإعفاء اللحى : توفيرها .　(٢) المفرق : وسط الرأس .
(٣) العقيصة : الشعر المعقوص ، وهو نحو من المضفور .　(٤) الوفرة : الشعر المجتمع على الرأس .

Marfat.com

أقام على باب المسجد حرسًا يجزّون ناصية كلّ من لم يفرق شعره . وقد قيل : إن الفرق كان من سُنّة إبراهيم عليه السلام ؛ فالله أعلم .

الرابعة عشرة — وأما الشَّيْب فنُورٌ ويُكره نَتْفـه ؛ ففى النسائى وأبى داود من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لاتنتفوا الشيب ما من مسلم يشيب شَيْبَةً فى الإسلام إلا كانت له نورا يوم القيامة وكتب الله له حسنة وحطّ عنه خطيئة " .

قلت : وكما يُكره نتفه كذلك يُكره تغييره بالسواد ، فأما تغييره بغير السواد فجائز ؛ لقـوله صلى الله عليه وسلم فى حق أبى قُحَافة — وقـد جىء به ولحيته كالثَّغامة(١) بياضا — : " غيّروا هذا بشىء وٱجتنبوا السواد " . ولقد أحسن من قال :

يســودّ أعلاها ويبيضّ أصـلها * ولا خير فى الأعلى إذا فسد الأصل

وقال آخر :

يا خاضبَ الشيبِ بالحناء تسـتره * سَـلِ المليك له سـترًا من النار

الخامسة عشرة — وأما الثريد فهـو أزكى الطعام وأكثره بركة ، وهو طعام العـرب ، وقد شهد له النبيّ صلى الله عليه وسـلم بالفضل على سائر الطعام فقال : " فضل عائشـة على النساء كفضل الثّريد على سائر الطّعام" . وفى صحيح البُسْتِيّ عن أسماء بنت أبى بكر أنها كانت إذا ثَرَدت غطّته شيئا حتى يذهب فَوْره وتقـول : إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إنه أعظم للبركة " .

السادسة عشرة — قلت : وهـذا كله فى معنى ما ذكره عبد الرزاق عن ٱبن عبـاس ، وما قاله سـعيد بن المسيّب وغيره . ويأتى ذكر المضمضة والاستنشاق والسـواك فى سورة « النساء(٢) » وحكم الاسـتنجاء فى « براءة(٣) » وحكم الضيافة فى « هـود(٤) » إن شاء الله تعالى .

وخرّج مسـلم عن أنس قال : وُقّت لنـا فى قصّ الشارب وتقليم الأظفار ونَتْـف الإبْط وحَلْق العـانة ألّا نَـتْرُك أكثر من أربعين ليلة . قال علماؤنا : هذا تحديد فى أكثر المدّة ،

(١) الثغامة : نبت أبيض الثمر والزهر ؛ يشبّه بياض الشيب به .
(٢) راجع جـ ٥ ص ٢١٢ .
(٣) راجع جـ ٨ ص ٢٦٢
(٤) راجع جـ ٩ ص ٦٤

والمستحبّ تفقّد ذلك من الجمعة إلى الجمعة ؛ وهذا الحديث يرويه جعفر بن سليمان . قال العقيلي : في حديثه نظر . وقال أبو عمر فيه : ليس بحجة ؛ لسوء حفظه وكثرة غلطه . وهذا الحديث ليس بالقويّ من جهة النقل، ولكنه قد قال به قوم، وأكثرهم على ألّا توقيت في ذلك ، وبالله التوفيق .

السابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ الإمام : القُدْوة ؛ ومنه قيل لخيط البناء : إمام ، وللطريق : إمام؛ لأنه يؤم فيه للمسالك ، أي يقصد . فالمعنى : جعلناك للناس إمامًا يأتمّون بك في هذه الخصال ، ويقتدي بك الصالحون . فجعله الله تعالى إمامًا لأهل طاعته ؛ فلذلك أجتمعت الأمم على الدعوى فيه — والله أعلم — أنه كان حنيفًا .

الثامنة عشرة — قوله تعالى : ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ دعاء على جهة الرَّغباء إلى الله تعالى ؛ أي من ذُرّيتي يا ربّ فآجعل . وقيل : هذا منه على جهة الآستفهام عنهم؛ أي ومن ذريتي يا ربّ ماذا يكون ؟ فأخبره الله تعالى أن فيهم عاصيًا وظالمًا لا يستحق الإمامة . قال آبن عباس : سأل إبراهيم عليه السلام أن يُجعل مِن ذُرّيته إمام؛ فأعلمه الله أن في ذُرّيته من يعصي فقال : « لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّالِمِينَ » .

التاسعة عشرة — قوله تعالى : ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ أصل ذُرّية ، فُعْلِيَّة من الذَّر؛ لأن الله تعالى أخرج الخلق من صُلب آدم عليه السلام كالذَّر حين أشهدهم على أنفسهم . وقيل : هو مأخوذ من ذرأ الله الخلق يذرؤهم ذرءًا خَلَقهم ؛ ومنه الذُّرّية وهي نَسل الثَّقَلين ؛ إلا أن العرب تركت همزها ، والجمع الذّراري . وقرأ زيد بن ثابت « ذِرّية » بكسر الذال و« ذَرِّية » بفتحها . قال آبن جِنّي أبو الفتح عثمان : يحتمل أصل هذا الحرف أربعة ألفاظ : أحدها — ذرأ ، والثاني — ذَرَرَ ، والثالث — ذرو ، والرابع ذري ؛ فأما الهمزة فمن ذرأ الله الخلق ، وأما ذَرَر فمن لفظ الذّر ومعناه ، وذلك لما ورد في الخبر " أن الخلق كان كالذّر " وأما الواو والياء ، فمن ذَرَوت الحَبّ وذَرَيْته يقالان جميعا ، وذلك قوله تعالى : « فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَاحُ »[1] وهذا للطفه وخفته ، وتلك حال الذّر أيضا . قال الجوهري :

(١) راجع جـ ١٠ ص ٤١٣

Marfat.com

ذَرَت الريح التراب وغيره تَذْرُوه وتَذْرِيه ذَرْوًا وذَرْيًا أى نسفته ؛ ومنه قولهم : ذرى الناس الحنطة ، وأذريت الشيء إذا ألقيتـه ، كإلقائك الحبّ للزرع . وطَعَنه فأذراه عن ظهـر دابتـه ؛ أى ألقاه . وقال الخليل : إنمـا سُمّوا ذُرّية ؛ لأن الله تعـالى ذرأها على الأرض كما ذرأ الزارع البذر . وقيل : أصل ذُرّية ، ذُرُّورة ، لكن لمـا كثر التضعيف أبدل من إحدى الراءات ياء ، فصارت ذُرُّويَة ، ثم أدغمت الواو فى الياء فصارت ذُرِّية . والمراد بالذرية هنا الأبناء خاصّة ، وقـد تُطلق على الآباء والأبناء ؛ ومنه قوله تعالى : « وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُم » (١) يعنى آباءهم .

الموفيـة عشرين — قوله تعـالى : ﴿لَا يَنَالُ عَهْـدِي ٱلظَّالِمِينَ﴾ آختلف فى المراد بالعَهْـد ؛ فروى أبو صالح عن آبن عباس أنه النبوّة ؛ وقاله السُّـدّىّ . مجاهد : الإمامة . قتادة : الإيمان . عطاء : الرحمة . الضحاك : دين الله تعالى . وقيل : عهده أمره . ويطلق العهد على الأمر ، قال الله تعالى : « إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا » (٢) أى أمرنا . وقال : « أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ » يعنى ألم أقدّم إليكم الأمر به ؛ وإذا كان عهد الله هو أوامره فقوله : « لَا يَنَالُ عَهْـدِي ٱلظَّالِمِينَ » أى لا يجـوز أن يكونوا بمحل من يقبل منهم أوامر الله ولا يقيمون عليها (٣) ؛ على ما يأتى بيانه بعد هذا آنفا (٤) إن شاء الله تعالى . وروى مَعْمَر عن قتادة فى قوله تعالى : « لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّالِمِينَ » قال : لا ينال عهد الله فى الآخرة الظالمين ؛ فأمّا فى الدنيا فقد ناله الظالم فأمن به ، وأكل وعاش وأبصر . قال الزجاج : وهذا قول حسن ، أى لا ينـال أمانى الظالمين ، أى لا أؤمنهم من عذابى . وقال سـعيد بن جبير : الظالم هنا المشرك . وقرأ آبن مسعود وطَلْحة بن مُصَرِّف « لا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظالمون » برفع الظالمون . الباقون بالنصب . وأسكن حمزة وحفص وآبن مُحَيْصِن الياء فى « عهدى » ، وفتحها الباقون .

الحادية والعشرون — آسـتدلّ جماعة من العلماء بهـذه الآية على أن الإمام يكون من أهل العدل والإحسان والفضل مع القوّة على القيام بذلك ، وهو الذى أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم ألّا ينازعوا الأمر أهله ؛ على ما تقدّم (٥) من القول فيه . فأما أهل الفسوق والجور والظلم

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣٤ (٢) راجع جـ ٤ ص ٢٩٥ (٣) فى ب ، جـ : «ولا يفتون عليها» .
(٤) آنفا : الآن . وفعلت الشيء آنفا : أى فى أول وقت يقرب منى . (٥) راجع جـ ١ ص ٢٦٤ طبعة ثانية .

Marfat.com

فليسوا له بأهل؛ لقوله تعالى: « لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّالِمِينَ » ولهذا خرج ٱبن الزبير والحسين(١) ابن علي رضى الله عنهم . وخرج خيار أهل العراق وعلماؤهم على الحجاج، وأخرج أهل المدينة بنى أمية وقاموا عليهم ، فكانت الحَرّة التى أوقعها بهم مسلم بن عقبة(٢) .

والذى عليه الأكثر من العلماء أن الصبر على طاعة الإمام الجائر أولى من الخروج عليه ؛ لأن فى منازعته والخروج عليــه ٱستبدال الأمن بالخوف ، وإراقة الدماء ، وٱنطـلاق أيدى السفهاء ، وشَنّ الغارات على المسلمين ، والفساد فى الأرض . والأوّل مذهب طائفــة من المعتزلة ، وهو مذهب الخوارج ، فٱعلمه .

الثانية والعشرون ــ قال ٱبن خُوَيْزِمَنْداد : وكل من كان ظالمـا لم يكن نبياً ولا خليفةً ولا حاكمًا ولا مُفْتيًا ، ولا إمامَ صــلاة ، ولا يُقبل عنه ما يرويه عن صاحب الشريعــة ، ولا تُقبل شهادته فى الأحكام، غير أنه لا يُعزل بفسقه حتى يعزله أهل الحَلّ والعَقْد . وما تقدّم من أحكامه موافقًا للصواب ماضٍ غير منقوض . وقد نصّ مالك على هذا فى الخوارج والبُغاة أن أحكامهــم لا تُنقض إذا أصابوا بها وجهًا من الاجتهاد، ولم يخرقوا الإجماع ، أو يخالفوا النصوص . وإنمـا قلنا ذلك لإجماع الصحابة ، وذلك أن الخوارج قــد خرجوا فى أيامهم ولم ينقل أن الأئمة تتبّعوا أحكامهم، ولا نقضوا شيئا منها، ولا أعادوا أخذ الزكاة ولا إقامة الحدود التى أخذوا وأقاموا؛ فدل على أنهم إذا أصابوا وجه الاجتهاد لم يتعرّض لأحكامهم.

الثالثة والعشرون ــ قال ٱبن خُوَيْزِمنداد : وأما أخذ الأرزاق من الأئمة الظلمة فلذلك ثلاثة أحوال : إن كان جميع ما فى أيديهم مأخوذا على موجب الشريعــة فجائز أخذه ، وقد أخذت الصحابة والتابعون من يد الحجاج وغيره . وإن كان مختلطا حلالا وظلما كما فى أيدى

---

(١) فى ب، جـ : « والحسن » . (٢) الذى فى الأصول : « عقبة بن مسلم » وهو تحريف . ويوم الحرة ذكره ٱبن الأثير فى النهاية فقال : « وهو يوم مشهور فى الإسلام أيام يزيد بن معاوية لمـا ٱنتهب المدينة عسكره من أهل الشام الذين ندبهم لقتال أهل المدينــة من الصحابة والتابعين ، وأمّر عليهم مسلم بن عقبة المرى فى ذى الحجة سنة ثلاث وستين ، وعقيبها هلك يزيد . والحرة هذه : أرض بظاهر المدينة بها حجارة سود كثيرة وكانت الوقعة بها » . ويراجع تاريخ الطبرى وٱبن الأثير والنجوم الزاهرة فى حوادث سنة ثلاث وستين .

Marfat.com

الأمراء اليوم فالورع تركه ، ويجوز للمحتاج أخذه ، وهو كلص فى يده مال مسروق، ومال جيّد حلال قد وكله فيه رجل فجاء اللص يتصدّق به على إنسان فيجوز أن تؤخذ منه الصدقة، وإن كان قد يجوز أن يكون اللص يتصدّق ببعض ما سرق ، إذا لم يكن شيء معروف بنهب، وكذلك لو باع أو اشترى كان العقد صحيحا لازما — وإن كان الورع التنزّه عنه — وذلك أن الأموال لا تُحرّم بأعيانها وإنما تُحرم لجهاتها . وإن كان ما فى أيديهم ظُلْمًا صُراحًا فلا يجوز أن يؤخذ من أيديهم . ولو كان ما فى أيديهم من المال مغصوبا غير أنه لا يعرف له صاحب ولا مطالب ؛ فهو كما لو وجد فى أيدى اللصوص وقُطّاع الطريق ، ويجعل فى بيت المال وينتظر طالبه بقدر الاجتهاد، فاذا لم يُعرف صَرَفه الإمام فى مصالح المسلمين .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ جَعَلْنَا ﴾ بمعنى صيّرنا لتعديه إلى مفعولين، وقد تقدّم . ﴿ ٱلْبَيْتَ ﴾ يعنى الكعبة ﴿ مَثَابَةً ﴾ أى مرجعًا؛ يقال : ثاب يثوب مَثابًا ومَثابةً وثُؤوبًا وثَوَبانًا . فالمثابة مصدر وُصف به ويراد به الموضع الذى يُثاب إليه؛ أى يرجع إليه . قال ورقة بن نوفل فى الكعبة:[1]

مَثابًا لأفناء القبائل كلّها ＊ تَخُبُّ إليها اليَعْمَلاتُ الذّوامِلُ

وقرأ الأعمش « مَثاباتٍ » على الجمع . ويحتمل أن يكون من الثواب ؛ أى يثابون هناك .
وقال مجاهد : لا يقضى أحد منه وَطَرًا ؛ قال الشاعر :

جُعِل البيتُ مَثابًا لهمُ ＊ ليس منه الدّهرَ يقضون الوَطَرْ

والأصل مثوبة، قُلبت حركة الواو على الثاء فقلبت الواو ألفا آتباعا لثاب يثوب، وآنتصب على المفعول الثانى، ودخلت الهاء للمبالغة لكثرة من يثوب أى يرجع؛ لأنه قل ما يفارق أحد البيت إلا وهو يرى أنه لم يقض منه وطرًا؛ فهى كنسّابة وعلّامة؛ قاله الأخفش . وقال غيره : هى هاء تأنيث المصدر وليست للمبالغة .

(١) الذى فى اللسان وشرح القاموس مادة « ثوب » أن البيت لأبى طالب .

Marfat.com

فإن قيل : ليس كل من جاءه يعود إليه ؛ قيل : ليس يختص بمن ورد عليه ، وإنما المعنى أنه لا يخلو من الجملة ، ولا يعدم قاصدا من الناس ؛ والله تعالى أعلم .

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَأَمْنًا ﴾ استدلّ به أبو حنيفة وجماعة من فقهاء الأمصار على ترك إقامة الحدّ فى الحَرَم على المُحْصن والسارق إذا لجأ إليه ، وعَضَدُوا ذلك بقوله تعالى : « وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا » كأنه قال : آمنوا من دخل البيت . والصحيح إقامة الحـدود فى الحَرَم ، وأن ذلك من المنسوخ ؛ لأن الاتفاق حاصـل أنه لا يقتل فى البيت ، ويقتل خارج البيت . وإنما الخلاف هل يقتـل فى الحَرَم أم لا ؟ والحَرَمُ لا يقع عليـه اسم البيت حقيقة . وقد أجمعوا أنه لو قَتل فى الحَرَم قُتل به ، ولو أتى حَدًّا أُقِيد منه فيه ، ولو حارب فيه حُورب وقُتـل مكانه . وقال أبو حنيفة : من لجـأ إلى الحرم لا يُقتـل فيه ولا يُتابع ، ولا يزال يُضيَّق عليـه حتى يموت أو يخـرج . فنحن نقتـله بالسيف ، وهو يقتـله بالجوع والصّدّ ؛ فأيّ قتل أشدّ من هذا . وفى قوله : « وَأَمْنًا » تأكيد للأمر باستقبال الكعبة ؛ أى ليس فى بيت المَقْدس هذه الفضيلة ، ولا يحج إليه الناس ، ومن استعاذ بالحَـرَم أَمِن من أن يُغار عليه . وسيأتى بيان هذا فى « المـائدة »(١) إن شاء الله تعالى .

قوله تعـالى : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : « وَاتَّخَذُوا » قرأ نافع وابن عامر بفتح الخاء على جهة الخـبر عمن اتخذه من متّبعى إبراهـيم ، وهو معطوف على « جعلنا » أى جعلنا البيت مَثابةً واتخذوه مُصَلًّى . وقيل هو معطوف على تقدير إذ ، كأنه قال : وإذ جعلنا البيت مَثابةً وإذ اتخذوا ؛ فعلى الأوّل الكلام جملة واحدة ، وعلى الثانى جملتان . وقرأ جمهور القراء « وَاتَّخِذُوا » بكسر الخاء على جهة الأمر ، قطعوه من الأوّل وجعلوه معطوفًا جملة على جملة . قال المهدوىّ : يجوز أن يكون معطوفا على « اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ » كأنه قال ذلك لليهود ، أو على معنى إذ جعلنا البيت ؛ لأن معناه اذكروا إذ جعلنا . أو على معنى قوله : « مَثابةً » لأن معناه ثُوبُوا .

(١) راجع جـ ٦ ص ٣٢٥

Marfat.com

الثانيــة — روى ٱبن عمر قال قال عمر : وافقتُ ربّى فى ثلاث : فى مقام إبراهيم، وفى الحجاب ، وفى أسارى بدر . خرّجه مسلم وغيره . وخرّجه البخارى عن أنس قال قال عمـر : وافقت الله فى ثلاث ، أو وافقنى ربى فى ثلاث ... الحـديث ، وأخرجه أبو داود الطيالسى فى مسنده فقال : حدّثنا حماد بن سلمة حدّثنا علىّ بن زيد عن أنس بن مالك قال قال عمـر : وافقت ربى فى أربع ؛ قلت يا رسـول الله : لو صلّيت خلف المقام ؟ فنزلت هـذه الآية : « وَٱتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى » وقلت : يا رسـول الله ، لو ضَرَبْتَ على نسائك الحجـاب فإنه يدخل عليهن البرّ والفـاجر؟ فأنزل الله : « وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَٱسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ »(١) ، ونزلت هذه الآية : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ »(٢) ؛ فلما نزلت قلت أنا : تبارك الله أحسن الخالقين ؛ فنزلت : « فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ »(٢) ، ودخلتُ على أزواج النبىّ صـلى الله عليه وسـلم فقلت : لتنتهنّ أو ليبدلنّه الله بأزواج خير منكن؛ فنزلت الآية : « عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ »(٣) .

قلت : ليس فى هذه الرواية ذكر للأسارى، فتكون موافقة عمر فى خمس .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ مِنْ مَقَامِ ﴾ المقام فى اللغة : موضع القدمين . قال النحاس : « مَقام » من قام يقوم، يكون مصدرًا وٱسمًا للوضع . ومُقام من أقام ؛ فأما قول زُهَير :

وفيهم مقاماتٌ حِسانٌ وجوهُهم(٤) * وأنديةٌ ينتابُهـا القولُ والفعـلُ

فمعناه : فيهم أهل مقامات . وٱختلف فى تعيين المقام على أقوال؛ أصحها — أنه الحجَر الذى تعرفه الناس اليوم الذى يصلّون عنده ركعتى طواف القدوم . وهذا قول جابر بن عبد الله وٱبن عباس وقتادة وغيرهم . وفى صحيح مسلم من حديث جابر الطويل أن النبىّ صلى الله عليه وسلم لمـا رأى البيت ٱستلم الركن فرَمَل(٥) ثلاثا ، ومشى أربعا ؛ ثم تقـدّم إلى مقام إبراهيم فقرأ : « وَٱتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى » فصـلى ركعتين قرأ فيهما بـ « قُلْ هُـوَ ٱللهُ أَحَدٌ » و « قُلْ يَأَيُّهَـا الْكَافِرُونَ » . وهـذا يدل على أن ركعتى الطـواف وغيرهما من الصـلوات

(١) راجع جـ ١٤ ص ٢٢٧ (٢) راجع جـ ١٢ ص ١٠٩ ، ١١٠ (٣) راجع جـ ١٨ ص ١٩٢

(٤) فى نسخ الأصل : « وجوهها » . والتصويب عن الديوان . (٥) فى ب، جـ، ز : « تقذ » .

Marfat.com

[لأهل مكة[1] أفضـل و] يدل من وجه على أن الطواف للغـرباء أفضل ، على ما يأتى .
وفى البخارى : أنه الحجر الذى آرتفع عليه إبراهيم حين ضَعُف عن رفع الحجارة التى كان إسماعيل يناولها إياه فى بناء البيت ، وغَرِقت قدماه فيـه . قال أنس : رأيت فى المقام أثر أصابعه وعقبه وأخمص قدميه ، غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم ؛ حكاه القُشَيرى . وقال السُّدّى : المقام الحجر الذى وضعته زوجة إسماعيل تحت قدم إبراهيم عليه السلام حين غسلت رأسه . وعن آبن عبـاس أيضا ومجاهـد وعكرمة[2] وعطاء : الحج كله . وعن عطاء : عَرَفة ومُزْدَلِفة والجمار ؛ وقاله الشَّعْبى . النَّخَعِىّ : الحَرَم كله مقام إبراهيم ؛ وقاله مجاهد .

قلت : والصحيح فى المقام القول الأول ، حسب ما ثبت فى الصحيح . وخرّج أبو نعيم من حديث محمد بن سُوقة عن محمد بن المُنْكَدِر عن جابر قال : نظر النبىّ صلى الله عليه وسلم إلى رجل بين الركن والمقام ، أو الباب والمقام وهو يدعو و يقول : اللّهُمّ آغفر لفلان ؛ فقال له النبىّ صلى الله عليه وسلم : " ما هـذا " ؟ فقال : رجل آستودعنى أن أدْعُوَ له فى هذا المقام ؛ فقال : " آرجع فقد غُفِر لصاحبك " . قال أبو نعيم : حدّثناه أحمد بن محمد بن أحمد آبن إبراهيم القاضى قال حدّثنا محمد بن عاصم بن يحيى الكاتب قال حدّثنا عبـد الرحمن بن القاسم القطّان الكوفى قال حدثنا الحارث بن عمران الجعفرى عن محمـد بن سُوقة ؛ فذكره . قال أبو نعيم : كذا رواه عبدالرحمن عن الحارث عن محمد عن جابر ، وإنمـا يعرف من حديث الحارث عن محمد عن عكرمة عن آبن عباس . ومعنى «مُصَلًّى» : مدّعى يُدعَى فيه ؛ قاله مجاهد . وقيل : موضع صلاة يصلَّى عنده ؛ قاله قتادة . وقيل : قِبلة يقف الإمام عندها ؛ قاله الحسن .

قوله تعـالى : ﴿ وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيـلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ فيه ست مسائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ وَعَهِدْنَا ﴾ قيل : معناه أمرنا . وقيل : أوحينا . ﴿ أَنْ طَهِّرَا ﴾ « أن » فى موضع نصب على تقدير حذف الخافض . وقال سيبويه : إنها بمعنى أى

(١) زيادة يقتضيها السياق ، وقد اعتمدنا فى زيادتها على ما ورد فى المسألة السادسة ص ١١٦ من هذا الجزء .
(٢) هذا الاسم ساقط من ب ، جـ ، ز .

Marfat.com

مفسّرة، فلا موضع لها من الإعراب . وقال الكوفيون : تكون بمعنى القول . و « طَهِّرَا » قيل معناه : من الأوثان؛ عن مجاهد والزهرى . وقال عُبيد بن عُمير وسعيد بن جبير : من الآفات والرِّيَب . وقيل : من الكفار . وقال السُّدّى : أبنياه وأسّساه على طهارة ونية طهارة؛ فيجىء مثل قوله : « أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى »[1] . وقال يَمَان : بخّراه وخَلِّقاه . ﴿بَيْتِيَ﴾ أضاف البيت إلى نفسه إضافة تشريف وتكريم ، وهى إضافة مخلوق إلى خالق، ومملوك إلى مالك . وقرأ الحسن وآبن أبى إسحاق وأهل المدينة وهشام وحفص : « بَيْتِيَ » بفتح الياء، والآخرون بإسكانها .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ ظاهره الذين يطوفون به؛ وهو قول عطاء . وقال سعيد بن جبير : معناه للغرباء الطارئين على مكة؛ وفيه بُعْد . ﴿وَالْعَاكِفِينَ﴾ المقيمين من بلدىّ وغريب؛ عن عطاء . وكذلك قوله : « لِلطَّائِفِينَ » . والعكوف فى اللغة : اللزوم والإقبال على الشىء؛ كما قال الشاعر[2] :

* عَكْفَ النَّبِيط يلعبون الفَنْزَجَا[3] *

وقال مجاهد : العاكفون المجاورون . آبن عباس : المصلّون . وقيل : الجالسون بغير طواف؛ والمعنى متقارب . ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ أى المصلّون عند الكعبة . وخصّ الركوع والسجود بالذكر؛ لأنهما أقرب أحوال المصلّى إلى الله تعالى . وقد تقدّم[4] معنى الركوع والسجود لغة والحمد لله .

الثالثـــة — لما قال الله تعالى « أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ » دخل فيه بالمعنى جميع بيوته تعالى؛ فيكون حكمها حكمه فى التطهير والنظافة . وإنما خصّ الكعبة بالذكر لأنه لم يكن هناك غيرها، أو لكونها أعظم حُرْمة؛ والأوّل أظهر، والله أعلم . وفى التنزيل «فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ»[5] وهناك يأتى حكم المساجد إن شاء الله تعالى . وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٢٥٩ (٢) هو العجاج، يصف ثورا . وصدر البيت : * فهن يعكفن به إذا حجا . *

(٣) الفنزجة والفنزج (بفتح فسكون) : رقص العجم إذا أخذ بعضهم يد بعض وهم يرقصون .

(٤) راجع جـ ١ ص ٢٩١ ، ٣٤٤ طبعة ثانية . (٥) راجع جـ ١٢ ص ٢٦٤

Marfat.com

سمع صوت رجل فى المسجد فقال : ما هذا ! أتدرى أين أنت ! ؟ وقال حذيفة قال النبيّ صلى الله عليه وسـلم : " إن الله أوحى إلىّ يا أخا المنـذرين يا أخا المرسلين أنْذر قومك ألا يدخلوا بيتًا من بيوتى إلا بقلوب سليمة وألسنة صادقة وأيد نَقِيّة وفروج طاهرة وألّا يدخلوا بيتًا من بيـوتى ما دام لأحد عندهم مظلمة فإنى ألعنه ما دام قائما بين يدىّ حـتى يردّ تلك الظلامة إلى أهلها فأكون سمعـه الذى يَسمع به و بصره الذى يبصر به و يكون من أوليائى وأصفيائى و يكون جارى مع النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين " .

الرابعـــة — آستدلّ الشافعى وأبو حنيفة والثورىّ وجماعة من السلف بهذه الآية على جواز الصلاة الفرض والنفل داخل البيت . قال الشـافعى رحمه الله : إن صـلّى فى جوفها مستقبلا حائطا من حيطانها فصـلاته جائزة، و إن صلّى نحو الباب والباب مفتوح فصـلاته باطلة ، وكذلك من صـلّى على ظهرها ؛ لأنه لم يستقبل منها شـيئا . وقال مالك : لا يصلى فيه الفرض ولا السُّنن ، و يصلّى فيه التطوّع ؛ غير أنه إن صلّى فيه الفرض أعاد فى الوقت . وقال أصبغ : يعيد أبدا .

قلت : وهو الصحيح ؛ لمـا رواه مسـلم عن آبن عباس قال : أخبرنى أسامة بن زيد أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لمـا دخل البيت دعا فى نواحيه كلها ولم يصلّ فيه حتى خرج منه؛ فلما خرج ركع فى قُبُل الكعبة ركعتين وقال : " هذه القِبلة " وهذا نص .

فإن قيل : فقد روى البخارىّ عن آبن عمر قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم هو وأسامة بن زيد و بلال وعثمان بن طلحة الحَجَبِيّ البيت فأغلقوا عليهم الباب . فلما فتحوا كنت أوّل من وَلج فلقيت بلالًا فسألته : هـل صلّى فيه رسول الله صلى الله عليه وسـلم ؟ قال ، نعم بين العمودين اليمانيين . وأخرجه مسـلم ، وفيه قال : جعل عمـودين عن يساره وعمـودا عن يمينه وثلاثة أعمـدة وراءه ؛ وكان البيت يومئذ على ستة أعمـدة . قلنا : هذا يحتمل أن يكون صلّى بمعنى دعا ، كما قال أسامة ؛ ويحتمل أن يكون صلّى الصلاة العُرْفيّة ، وإذا آحتمل هذا وهذا سقط الآحتجاج به .

Marfat.com

فإن قيل : فقد روى آبن المنذر وغيره عن أسامة قال : رأى النبيّ صلى الله عليه وسلم صُوَرا فى الكعبة فكنت آتيه بماء فى الدّلو يضرب به تلك الصور . وخرّجه أبو داود الطيالسى قال : حدّثنا آبن أبى ذئب عن عبد الرحمن بن مهران قال حدّثنا عمير مولى آبن عباس عن أسامة بن زيد قال : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الكعبة ورأى صورا قال : فدعا بدلو من ماء فأتيته به فجعل يمحوها ويقول : "قاتل الله قوما يصوّرون ما لا يخلقون" . فيحتمل أن يكون النبيّ صلى الله عليه وسلم صلّى فى حالة مُضِىّ أسامة فى طلب الماء فشاهد بلال ما لم يشاهده أسامة ، فكان من أثبت أولى ممن نفى ؛ وقد قال أسامة نفسه : فأخذ الناس بقول بلال وتركوا قولى . وقد روى مجاهد عن عبد الله بن صَفْوان قال قلت لعمر بن الخطاب : كيف صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل الكعبة؟ قال: صلى ركعتين .

قلنا : هذا محمول على النافلة ، ولا نعلم خلافا بين العلماء فى صحة النافلة فى الكعبة ، وأمّا الفرض فلا ؛ لأن الله تعالى عيّن الجهة بقوله تعالى : « فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ » على ما يأتى بيانه(١) ، وقوله صلى الله عليه وسلم لما خرج : "هذه القبلة" فعينها كما عينها الله تعالى . ولو كان الفرض يصح داخلها لما قال : "هذه القبلة" . وبهذا يصح الجمع بين الأحاديث ، وهو أولى من إسقاط بعضها ؛ فلا تعارض ، والحمد لله .

الخامســة ـــ وآختلفوا أيضا فى الصلاة على ظهرها ؛ فقال الشافعى ما ذكرناه . وقال مالك : من صلّى على ظهر الكعبة أعاد فى الوقت . وقد رُوِىَ عن بعض أصحاب مالك : يعيد أبدا . وقال أبو حنيفة : من صلّى على ظهر الكعبة فلا شىء عليه .

السادســة ـــ وآختلفوا أيضا أيُّما أفضل الصلاة عند البيت أو الطّواف به ؟ فقال مالك : الطواف لأهل الأمصار أفضل ، والصلاة لأهل مكة أفضل . وذُكِر عن آبن عباس وعطاء ومجاهد . والجمهور على أن الصلاة أفضل . وفى الخبر : " لولا رجال خُشّع وشيوخ رُكّع وأطفال رُضّع وبهائم رُتّع لصببنا عليكم العذاب صبّاً " . ذكر أبو بكر أحمد بن على بن ثابت الخطيب فى كتاب (السابق واللاحق) عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله

---

(١) راجع ص ١٦٠ من هذا الجزء .

عليه وسـلم : " لولا فيكم رجال خُشّـع و بهائم رُتّع وصبيان رُضّع لصُبّ العـذاب على المذنبين صَبًّا" . لم يذكر فيه « وشيوخ ركع » . و فى حديث أبى ذر "الصلاة خير موضوع فآستكثر أو آستقل" . خرّجه الآجرى . والأخبار فى فضل الصلاة والسجود كثيرة تشهد لقول الجمهور، والله تعالى أعلم .

قوله تعـالى : وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾

وفيه ثلاث مسائل :

الأولى ـــ قوله تعـالى : ﴿ بَلَدًا آمِنًا ﴾ يعنى مكة؛ فدعا لذريتـه وغيرهم بالأمن ورغد العيش . فروى أنه لمـا دعا بهذا الدعاء أمر الله تعالى جبريل فآقتلع الطائف من الشام فطاف بهـا حول البيت أسـبوعا ، فسُمِّيت الطائف لذلك، ثم أنزلهـا تهامة ؛ وكانت مكة وما يليها حين ذلك قَفْرًا لا ماء ولا نبـات ، فبارك الله فيما حولها كالطائف وغيرها ، وأنبت فيها أنواع الثمرات، على ما يأتى بيانه فى سورة « إبراهيم »(١) إن شاء الله تعالى .

الثانيـــة ـــ آختلف العلماء فى مكة هل صارت حَرَمًا آمناً بسؤال إبراهيم أو كانت قبله كذلك على قولين :

أحدهما ـــ أنهـا لم تزل حَرَمًا من الجبابرة المسلّطين، ومن الخسوف والزلازل ، وسائر المَثُلات التى تحل بالبـلاد، وجعل فى النفوس المتمردة من تعظيمها والهيبة لهـا ما صار به أهلها متميّزين بالأمن من غيرهم من أهل القرى . ولقد جعل فيها سبحانه من العلامة العظيمة على توحيده ما شوهد من أمر الصيد فيهـا ؛ فيجتمع فيها الكلب والصيد فلا يَهِيج الكلبُ الصيدَ ولا ينفر منه ، حتى إذا خرجا من الحَرَم عدا الكلب عليه وعاد إلى النفور والهرب .

و إنمـا سأل إبراهيم ربه أن يجعلها آمناً من القَحْط والجَـدْب والغارات ، وأن يرزق أهله من الثمرات؛ لا على ما ظنه بعض الناس أنه المنع من سفك الدم فى حق من لزمه القتل ؛

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٦٨ فما بعدها .

Marfat.com

فإن ذلك يبعد كونه مقصودا لإبراهيم صلى الله عليه وسلم حتى يقال : طلب من الله أن يكون فى شرعه تحريمَ قتل من التجأ إلى الحَرَم، هذا بعيد جدا .

الثانى — أن مكة كانت حلالًا قبل دعوة إبراهيم عليه السلام كسائر البلاد ، وأن بدعوته صارت حَرَمًا آمنًا كما صارت المدينة بتحريم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمنًا بعد أن كانت حلالا .

احتجّ أهل المقالة الأولى بحديث ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة : " إن هذا البلد حرّمه الله تعالى يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحُرْمة الله تعالى إلى يوم القيامة و إنه لم يَحِلّ القتالُ فيه لأحد قبلى ولم يَحِلّ لى إلا ساعةً من نهارفهو حرام بحُرْمة الله إلى يوم القيامة لا يُعْضَد(١) شَوْكُه ولا يُنَفَّر صيدُه ولا تُلتقط لُقَطته إلا من عَرَفها ولا يُخْتَلَى خلاها(٢) " فقال العباس : يا رسول الله إلّا الإذْخِر(٣) فإنه لقَيْنِهم ولبيوتهم؛ فقال : " إلا الإذْخِر " . ونحوه حديث أبى شُرَيح، أخرجهما مسلم وغيره .

وفى صحيح مسلم أيضا عن عبد الله بن زيد بن عاصم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن إبراهيم حرّم مكة ودعا لأهلها و إنى حرّمت المدينة كما حرّم إبراهيم مكة و إنى دَعَوْت فى صاعها ومُدّها بمِثْلَىْ ما دعا به إبراهيم لأهل مكة " . قال ابن عطية : «ولا تعارض بين الحديثين؛ لأن الأول إخبار بسابق علم الله فيها وقضائه،وكون الحُرْمة مدة آدم وأوقات عمارة القطر بإيمان . والثانى إخبار بتجديد إبراهيم لحرمتها و إظهاره ذلك بعد الدُّثور، وكان القول الأوّل من النبىّ صلى الله عليه وسلم ثانى يوم الفتح إخبارا بتعظيم حُرمة مكة على المؤمنين بإسناد التحريم إلى الله تعالى ، وذكر إبراهيم عند تحريم المدينة مثالًا لنفسه ، ولا محالة أن تحريم المدينة هو أيضا من قبل الله تعالى ومن نافذ قضائه وسابق علمه» . وقال الطبرى : كانت مكة حرامًا فلم يتعبّد الله الخلق بذلك حتى سأله إبراهيم فحرّمها .

---

(١) لا يعضد : لا يقطع. (٢) الخلى (مقصور) : النبات الرطب الرقيق ما دام رطبا؛ واختلاؤه : قطعه .
(٣) الإذخر (بكسر الهمزة والخاء) : حشيشة طيبة الرائحة يسقف بها البيوت فوق الخشب ، و يحرق بدل الحطب والفحم . والقين : الحداد .

Marfat.com

الثالثــــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَٱرْزُقْ أَهْـلَهُ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ ﴾ تقدّم معنى الرزق(١). والثمرات جمع ثمرة ، وقد تقدّم(٢) . « مَنْ آمَنَ » بدل من أهـل ، بدل البعض من الكل . والإيمـان : التصديق ، وقد تقـدّم(٣) . ﴿ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ ﴾ « مَن » فى قـوله « وَمَنْ كَفَرَ » فى موضع نصب ؛ والتقدير وآرزق من كفر ، ويجوز أن يكون فى موضع رفع بالآبتـداء ، وهى شرط والخبر « فَأُمَتِّعُهُ » وهو الجواب .

وآختلف هل هذا القول من الله تعالى أو من إبراهيم عليه السلام؟ فقال أُبَيّ بن كعب وآبن إسحاق وغيرهما : هو من الله تعالى، وقرءوا « فَأُمَتِّعُهُ » بضم الهمزة وفتح الميم وتشديد التاء . ﴿ ثُمَّ أَضْطَرُّهُ ﴾ بقطـع الألف وضم الراء ، وكذلك القـرّاء السبعة خلا آبن عامر فإنه سكّن الميم وخفّف التاء . وحكى أبو إسحاق الزجاج أن فى قراءة أُبَيّ « فنمتّعه قليـلاً ثم نضطّره » بالنون . وقال آبن عباس ومجاهـد وقتادة : هذا القول من إبراهيم عليه السـلام . وقرءوا « فأَمْتِعه » بفتح الهمزة وسكون الميم ، « ثم آضطرَّه » بوصل الألف وفتح الراء ؛ فكأن إبراهيم عليه السلام دعا للؤمنين وعلى الكافرين ، وعليه فيكون الضمير فى « قال » لإبراهيم ، وأعيد « قال » لطول الكلام، أو لخروجه من الدعاء لقوم إلى الدعاء على آخرين . والفاعل فى « قال » على قراءة الجماعة آسم الله تعالى ، وآختاره النحاس ، وجعل القراءة بفتح الهمزة وسكون الميم ووصل الألف شاذة ، قال : ونسق الكلام والتفسير جميعا يدلّان على غيرها ؛ أمّا نسق الكلام فإن الله تعالى خبّر عن إبراهيم عليه السلام أنه قال : « رَبِّ ٱجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا » ثم جاء بقـوله عز وجلّ : « وَٱرْزُقْ أَهْـلَهُ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِٱللَّهِ وَٱلْيَـوْمِ ٱلْآخِرِ » ولم يفصل بينه بقال ، ثم قال بعدُ : « قَالَ وَمَنْ كَفَرَ » فكان هذا جوابا من الله، ولم يقل بعدُ : قال إبراهيم . وأمّا التفسير فقد صح عن آبن عباس وسعيد بن جبير ومحمـد بن كعب . وهذا لفظ آبن عباس : دعا إبراهيم عليه السلام لمن آمن دون الناس خاصّة، فأعلم الله عز وجل أنه يرزق من كفر كما يرزق من آمن ، وأنه يمتّعه قليـلا ثم يضطّره إلى عذاب

(١) راجع المسألة الثانية والعشرين جـ ١ ص ١٧٧ (٢) راجع المسألة الرابعة جـ ١ ص ٢٢٩
(٣) راجع المسألة الأولى جـ ١ ص ١٦٢ طبعة ثانية .

Marfat.com

النار . قال أبو جعفر : وقال الله عز وجل : « كُلًّا نُمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ »(١) وقال جل ثناؤه : « وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ »(٢) . قال أبو إسحاق : إنما علم إبراهيم عليه السلام أن فى ذريته كفارا نخص المؤمنين ؛ لأن الله تعالى قال : « لَا يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ » .

قوله تعالى : وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ﴾ القواعد : أساسه ؛ فى قول أبى عبيدة والفراء . وقال الكسائى : هى الجُدُر . والمعروف أنها الأساس . وفى الحديث : " إن البيت لما هُدم أخرجت منه حجارة عظام " فقال ٱبن الزبير : هذه القواعد التى رفعها إبراهيم عليه السلام . وقيل : إن القواعد كانت قد ٱندرست فأطلع الله إبراهيم عليها . ٱبن عباس : وضع البيت على أركان رآها قبل أن تخلق الدنيا بألفى عام ثم دُحيت الأرض من تحته . والقواعد واحدتها قاعدة . والقواعد من النساء واحدها قاعد .

وٱختلف الناس فيمن بنى البيت أوّلا وأسّسه ؛ فقيل : الملائكة . رُوى عن جعفر بن محمد قال : سئل أبى وأنا حاضر عن بدء خلق البيت فقال : إن الله عز وجل لما قال : « إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً » قالت الملائكة : « أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ » فغضب عليهم ؛ فعاذوا بعرشه وطافوا حوله سبعة أشواط يسترضون ربهم حتى رضى الله عنهم ، وقال لهم : ابنوا لى بيتا فى الأرض يتعوّذ به من سخطت عليه من بنى آدم ، و يطوف حوله كما طفتم حول عرشى ، فأرضى عنه كما رضيت عنكم ؛ فبنوا هذا البيت .

وذكر عبد الرزاق عن ٱبن جُريج عن عطاء، وٱبن المسيب وغيرهما أن الله عز وجل أوحى إلى آدم : إذا هبطت ٱبن لى بيتا ثم ٱحفف به كما رأيت الملائكة تحف بعرشى الذى

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٣٦ (٢) راجع جـ ٩ ص ٤٨

Marfat.com

فى السماء . قال عطاء : فزعم الناس أنه بناه من خمسة أجبل : من حِرَاء، ومن طُور سِينا ، ومن لُبنان، ومن الجُودِيّ، ومن طُورزيتا؛ وكان رُبْضه[(١)] من حِراء . قال الخليل : والرُّبْض هاهنا الأساس المستدير بالبيت من الصخر؛ ومنه يقال لما حول المدينة : رَبَض . وذكر الماورديّ عن عطاء عن ابن عباس قال : لما أهبط آدم من الجنة إلى الأرض قال له : يا آدم ، اذهب فابن لى بيتًا وطُف به ، واذكرنى عنده كما رأيت الملائكة تصنع حول عرشى ؛ فأقبل آدم يتخطّى وطُوِيَت له الأرض، وقُبضت له المفازة؛ فلا يقع قدمه على شىء من الأرض إلا صار عُمرانًا حتى انتهى إلى موضع البيت الحرام ؛ وأن جبريل عليه السلام ضرب بجناحيه الأرض فأبرز عن أسّ ثابت على الأرض السابعة السُّفلى ، وقذفت إليه الملائكة بالصَّخر، فما يُطيق الصخرة منها ثلاثون رجلا ، وأنه بناه من خمسة أجبل كما ذكرنا . وقد رُوِىَ فى بعض الأخبار : أنه أهبط لآدم عليه السلام خيمة من خيام الجنة ، فضُربت فى موضع الكعبة ليسكن إليها و يطوف حولها ، فلم تزل باقية حتى قبض الله عز وجل آدم ثم رُفعت . وهذا من طريق وَهْب بن مُنَبّه . وفى رواية : أنه أهبط معه بيت فكان يطوف به والمؤمنون من ولده كذلك إلى زمان الغرق ، ثم رفعه الله فصار فى السماء ، وهو الذى يُدعى البيت المعمور . رُوِىَ هذا عن قتادة ذكره الحَلِيمى فى كتاب « منهاج الدين » له ، وقال : يجوز أن يكون معنى ما قال قتادة من أنه أهبط مع آدم بيت[(٢)] ، أى أهبط معه مقدار البيت المعمور طُولًا وعَرْضًا وسُمْكًا، ثم قيل له : ابن بقدره، وتحرّى أن يكون بحياله ، فكان حياله موضع الكعبة، فبناها فيه . وأما الخيمة فقد يجوز أن تكون أنزلت وضُربت فى موضع الكعبة، فلما أمر ببنائها فبناها كانت حول الكعبة طمأنينة لقلب آدم صلى الله عليه وسلم ما عاش ثم رفعت ؛ فتتفق هذه الأخبار . فهذا بناء آدم عليه السلام ، ثم بناه إبراهيم عليه السلام . قال ابن جريج وقال ناس : أرسل الله سحابة فيها رأس ؛ فقال الرأس : يا إبراهيم، إن ربّك يأمرك أن تأخذ بقدر هذه السحابة ؛ فجعل ينظر إليها و يخط قدرها ، ثم قال الرأس : أنه قد فعلتَ ؛ فحفر فأبرز عن أساس ثابت فى الأرض . ورُوِىَ عن علىّ بن

(١) الربض (بضم الراء ، وبسكون الباء وضمها) : الأساس . وبفتحهما : ما حول المدينة .
(٢) فى ا ، جـ ، ز : « ويجوز أن يكون » .

Marfat.com

أبى طالب رضى الله عنه : أن الله تعالى لما أمر إبراهيم بعمارة البيت خرج من الشام ومعه ابنه إسماعيل وأمّه هاجر ، وبعث معه السّكينة [١] لها لسان تتكلّم به يغدو معها إبراهيم إذا غدت ، و يروح معها إذا راحت ، حتى انتهت به إلى مكة ؛ فقالت لإبراهيم : ابن على موضعى [٢] الأساس ؛ فرفع البيت هو و إسماعيل حتى انتهى إلى موضع الركن ؛ فقال لابنه : يا بُنَىّ ، ابغنى حجرا أجعله علمًا للناس ؛ فجاءه بحجر فلم يرضه ، وقال : ابغنى غيره ؛ فذهب يلتمس ، فجاءه وقد أتى بالركن فوضعه موضعه ؛ فقال : يا أبة ، مَن جاءك بهذا الحجر ؟ فقال : من لم يَكِلْنى إليك . ابن عباس : صاح أبو قُبيس [٢] : يا إبراهيم ، يا خليل الرحمن ، إن لك عندى وديعة فخذها ، فإذا هو بحجر أبيض من ياقوت الجنة كان آدم قد نزل به من الجنة ؛ فلما رفع إبراهيم و إسماعيل القواعد من البيت جاءت سحابة مربَّعة فيها رأس فنادت : أن ارفعا على تربيعى . فهذا بناء إبراهيم عليه السلام . ورُوِىَ أن إبراهيم و إسماعيل لما فرغا من بناء البيت أعطاهما الله الخيل جزاء عن رفع قواعد البيت . روى الترمذى الحكيم حدّثنا عمر بن أبى عمر حدّثنى نعيم بن حماد حدّثنا عبد الوهاب بن همام أخو عبد الرزاق عن ابن جُريج عن ابن أبى مُليكة عن ابن عباس قال : كانت الخيل وَحْشًا كسائر الوحش ، فلما أذن الله لإبراهيم و إسماعيل برفع القواعد قال الله تبارك اسمه : "إنى معطيكما كنزا ادّخرته لكما" ثم أوحى إلى إسماعيل أن اخرج إلى أجياد فادع يأتك الكنز . فخرج إلى أجياد — وكانت وطنا — ولا يدرى ما الدعاء ولا الكنز ، فألهمه ؛ فلم يبق على وجه الأرض فرس بأرض العرب إلا جاءته فأمكنته من نواصيها وذلّلها له ، فاركبوها واعلفوها فإنها ميامين ، وهى ميراث أبيكم إسماعيل ؛ فإنما سُمّى [٣] الفرس عربيًا لأن إسماعيل أمر بالدعاء و إياه أتى . وروى عبد المنعم بن إدريس عن وهب بن مُنَبِّه ، قال : أوّل من بنى البيت بالطين والحجارة شِيث عليه السلام . وأما بنيان قريش له فمشهور ، وخبر الحيّة فى ذلك مذكور ، وكانت تمنعهم من هَدمه إلى أن اجتمعت قريش عند المقام فعَجّوا إلى الله تعالى وقالوا : ربّنا ، لم تُرَعْ ! أردنا تشريف بيتك وتزيينه ، فإن كنت ترضى بذلك و إلا فما بدا لك فافعل ، فسمعوا

(١) السكينة (بفتح فكسر) : ريح خجوج ، أى سريعة المرّ . (٢) فى ج : «ابن علىّ موضع الأساس» . وأبو قبيس : اسم الجبل المشرف على مكة . (٣) هكذا فى جميع النسخ التى بأيدينا .

خَوَاتًا من السماء — والخَـوَات : حفيف جناح الطـير الضخم — فإذا هو بطائر أعظم من النَّسر ، أسود الظهر أبيض البطن والرجلين ؛ فغرز مخاليبه فى قفا الحيّة ، ثم انطلق بها تجرّ ذنبها أعظم من كذا وكذا حتى انطلق بها نحـو أجياد ؛ فهدمتها قريش وجعلوا يبنونها بحجارة الوادى تحملها قريش على رقابها ، فرفعوها فى السماء عشرين ذراعا ، فبينا النبيّ صلى الله عليه وسلم يحمل حجارة من أجياد وعليه نَمِرة(١) فضاقت عليـه النَّمِرة فذهب يرفع النَّمِرة على عاتقـه ، فتُرَى عورته من صغر النمرة ؛ فنودى : يا محمد ، خَمّر عَوْرَتك ؛ فلم يُرَ عُرْيانًا بعدُ . وكان بين بنيان الكعبة وبين ما أنزل عليـه خمس سنين ، وبين مخرجه وبنائها خمس عشرة سـنة . ذكره عبد الرزاق عن معمر عن عبـد الله بن عثمان عن أبى الطفيـل . وذكر عن معمر عن الزهرى : حتى إذا بنوها وبلغوا موضـع الركن اختصمت قريش فى الركن ، أىّ القبائل تلى رفعه ؟ حتى شَجَر بينهـم ؛ فقالوا : تعـالَوْا نحكّم أول من يطلع علينا من هـذه السكّة ؛ فاصطلحوا على ذلك ؛ فأطلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو غلام عليه وِشاح نَمِرة ، فحكّموه فأمر بالركن فوُضع فى ثوب ، ثم أمر سـيّد كل قبيلة فأعطاه ناحية من الثـوب ، ثم ارتقى هو فرفعوا إليه الركن ؛ فكان هو يضعه صلى الله عليه وسلم .

قال ابن إسحاق : وحُدِّثت أن قريشا وجدوا فى الركن كتابا بالسريانية فلم يُدْرَ ما هو ، حتى قـرأه لهم رجل من يهود ، فإذا فيـه : « أنا الله ذو بَكّة خلقتها يوم خلقتُ السموات والأرض وصوّرت الشمس والقمر، وحففتها بسبعة أملاك حنفاء لا تزول حتى يزول أخشباها(٢) ، مباركٌ لأهلها فى المـاء واللبن » . وعن أبى جعفر محمـد بن علىّ قال : كان باب الكعبة على عهـد العماليق وجُرْهُم وإبراهيم عليه السلام بالأرض حتى بنته قريش . خرّج مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الجَدْر(٣) أمن البيت هو ؟ قال: "نعم" قلت : فلم لم يدخلوه [فى البيت](٤) ؟ قال :" إنّ قومك قَصّرتْ بهم النفقة". قلت :

(١) النمرة : كل شملة مخططة من مآزر العرب .
(٢) الأخشبان : الجبلان المطيفان بمكة ، وهما : أبو قبيس ، والأحمر .
(٣) الجدر : (بفتح الجيم وإسكان الدال) : حجر الكعبة (بكسر الحاء) .
(٤) الزيادة عن صحيح مسلم .

Marfat.com

فما شأن بابه مرتفعا ؟ قال : " فعل ذلك قومك ليُدخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا ولولا أن قومك حديثٌ عهدُهم فى الجاهلية فأخاف أن تُنكر قلوبهم لنظرتُ أن أُدخل الجَدْر فى البيت وأن أُلزِق بابه بالأرض " . وخرّج عن عبد الله بن الزبير رضى الله عنه قال : حدّثتنى خالتى (يعنى عائشة) رضى الله عنها قالت قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " يا عائشة لولا أن قومك حديثُو عَهْدٍ بشِرْك لهدمتُ الكعبة فألزقتها بالأرض وجعلتُ لها بابين بابا شرقيًّا وبابًا غربيًّا وزدت فيها ستة أذرع من الحِجْر فإن قريشا ٱقتصرتها حيث بنت الكعبة " . وعن عروة عن [أبيه عن] (١) عائشة قالت قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لولا حَداثة [عَهْد] (١) قومك بالكفر لنقضت الكعبة ولجعلتها على أساس إبراهيم فإنّ قريشا حين بنت الكعبة ٱستقصرتْ ولجعلتُ لها خَلْفًا " . وفى البخارى قال هشام بن عروة : يعنى بابًا . وفى البخارى أيضا : " لجعلت لها خَلْفين " يعنى بابين؛ فهذا بناء قريش . ثم لما غزا أهل الشام عبدَالله بن الزبير ووَهَت الكعبة من حريقهم، هدمها ٱبن الزبير وبناها على ما أخبرته عائشة ، وزاد فيه خمسة أذرع من الحِجْر ، حتى أبدى أُسًّا نظر الناس إليه ، فبنى عليه البناء ، وكان طول الكعبة ثمانى عشرة ذراعا ، فلما زاد فيه ٱستقصره ، فزاد فى طوله عشرة أذرع، وجعل لها بابين أحدهما يُدخل منه، والآخر يُخرج منه؛ كذا فى صحيح مسلم، وألفاظ الحديث تختلف . وذكر سفيان عن داود بن شابور عن مجاهد قال : لما أراد ٱبن الزبير أن يهدم الكعبة ويَبْنِيَه (٢) قال للناس : ٱهدموا ؛ قال : فأبَوْا أن يهدموا وخافوا أن ينزل عليهم العذاب . قال مجاهد : فخرجنا إلى مِنًى فأقمنا بها ثلاثا ننتظر العذاب . قال : وٱرتقى ٱبن الزبير على جدار الكعبة هو بنفسه؛ فلما رأوا أنه لم يصبه شىء ٱجترءوا على ذلك ؛ قال : فهدموا . فلما بناها جعل لها بابين : بابًا يدخلون منه، وبابًا يخرجون منه، وزاد فيه مما يلى الحِجْر ستة أذرع، وزاد فى طولها تسعة أذرع . قال مسلم فى حديثه : فلما قتل ٱبن الزبير كتب الحجاج إلى عبدالملك ٱبن مروان يخبره بذلك، ويخبره أن ٱبن الزبير قد وضع البناء على أُسّ نظر إليه العدول من أهل

---

(١) الزيادة من صحيح مسلم .

(٢) كذا فى نسخ الأصل . ولعل تذكير الضمير على معنى البيت .

مكة ؛ فكتب إليه عبد الملك : إنّا لسنا من تلطيخ ٱبن الزبير في شيء (١) ؛ أما ما زاد في طوله فأقِرّه، وأما ما زاد فيه من الحِجر فردّه إلى بنائه، وسُدّ الباب الذى فتحه؛ فنقضه وأعاده إلى بنائه . في رواية : قال عبد الملك : ما كنت أظن أبا خُبيب (يعنى ٱبن الزبير) سمع من عائشة ما كان يزعم أنه سمعه منها؛ قال الحارث بن عبد الله : بلى ، أنا سمعته منها؛ قال : سمعتها تقول ماذا ؟ قال : قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن قومك ٱستقصروا من بنيان البيت ولولا حداثة عهدهم بالشرك أعدتُ ما تركوا منه (٢) فإن بدا لقومك من بعدى أن يبنوه فهلُمّى لأرِيَكِ ما تركوا منه فأراها قريبا من سبعة أذرع " . في أخرى : قال عبد الملك : لو كنت سمعته قبل أن أهدمه لتركته على ما بنى ٱبن الزبير . فهذا ما جاء في بناء الكعبة من الآثار .

ورُوِى أن الرشيد ذكر لمالك بن أنس أنه يريد هدم ما بنى الحجاج من الكعبة ، وأن يردّه على بناء ٱبن الزبير لما جاء عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وٱمتثله ٱبن الزبير؛ فقال له مالك : ناشدتك الله يا أمير المؤمنين ، ألّا تجعل هذا البيت ملعبة للملوك ، لا يشاء أحد منهم إلا نقض البيت وبناه ؛ فتذهب هيبته من صدور الناس . وذكر الواقدى : حدّثنا معمر عن همام بن منبه سمع أبا هريرة يقول : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سبّ أسعد الحميرى ، وهو تُبّع ، وهو أوّل من كسا البيت ، وهو تُبّع الآخر . قال ٱبن إسحاق : كانت تُكْسَى القباطىّ (٣) ثم كسيت البُرُد ، وأوّل من كساها الديباج الحجاج .

قال العلماء : ولا ينبغى أن يؤخذ من كسوة الكعبة شىء ، فإنه مهدًى إليها ، ولا ينقص منها شيء . روى عن سعيد بن جبير أنه كان يكره أن يؤخذ من طِيب الكعبة يستشفى به ؛ وكان إذا رأى الخادم يأخذ منه قفدها قفدة (٤) لا يألو أن يوجعها . وقال عطاء : كان أحدنا إذا أراد أن يستشفى به جاء بطيب من عنده فمسح به الحجر ثم أخذه .

---

(١) قوله : إنا لسنا ... الخ ، قال النووى : «يريد بذلك سبه وعيب فعله ؛ يقال : لطخته أى رميته بأمر قبيح» .

(٢) كان في صحيح مسلم . وفي نسخ الأصل : « تمامه » .

(٣) القباطىّ (جمع القبطية بضم القاف) : ثياب كتان بيض رقاق تعمل بمصر ، وهى منسوبة إلى القبط على غير قياس . (٤) القفد (بفتح فسكون) : صفع الرأس ببسط الكف من قبل القفا .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ﴾ المعنى : ويقولان « رَبَّنَـا »، لحذف . وكذلك هى فى قراءة أبيّ وعبد الله بن مسعود : « وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ويقولان رَبَّنَا تقبّلْ مِنَّا » .

وتفسير إسماعيل : اسمع يا الله؛ لأن « إيل » بالسُّريانية هو الله؛ وقد تقدّم (١) . فقيل : إن إبراهيم لما دعا ربّه قال : اسمع يا إيل؛ فلما أجابه ربّه ورزقه الولد سمّاه بما دعاه . ذكره الماوَرْدِيّ .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ اسمان من أسماء الله تعالى قد أتينا عليهما فى الكتاب « الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى » .

قوله تعالى : رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾ أى صيّرنا، و« مسلمين » مفعول ثان؛ سألا التثبيت والدوام . والإسلام فى هذا الموضع : الإيمان والأعمال جميعا؛ ومنه قوله تعالى : « إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَامُ (٢) » ففى هذا دليل لمن قال : إن الإيمان والإسلام شىء واحد؛ وعضدوا هذا بقوله تعالى فى الآية الأخرى : « فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ . فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ (٣) » . وقرأ ابن عباس وعوف الأعرابى « مسلمين » على الجمع .

قوله تعالى : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ أى ومن ذريّتنا فاجعل؛ فيقال : إنه لم يدع نبىّ إلا لنفسه ولأمته إلا إبراهيم فإنه دعا مع دعائه لنفسه ولأمته ولهذه الأمة . و« من » فى قوله : « ومن ذُرِّيَّتِنَا » للتبعيض؛ لأن الله تعالى قد كان أعلمه أن منهم ظالمين . وحكى الطبرى (٤) : أنه أراد بقوله « ومن ذُرِّيَّتِنَا » العرب خاصة . قال السهيلى : وذريتهما

---

(١) راجع ص ٣٦ من هذا الجزء . (٢) راجع جـ ٤ ص ٤٣ (٣) راجع جـ ١٧ ص ٤٨

(٤) اضطربت الأصول فى ذكر كلام السهيلى؛ وقد ذكر الطبرى فى تاريخه خبر أولاد إسماعيل (ص ٣٥١ قسم أول)، وابن الأثير (جـ ١ ص ٨٨) وابن هشام فى سيرته (ص ٤) طبع أوربا؛ فيراجع .

Marfat.com

العرب؛ لأنهم بنو نَبْت بن إسماعيل، أو بنـو تيمن بن إسماعيل. ويقال: قَيْذَر بن نبت بن إسماعيل. أما العـدنانية فمن نبت، وأما القَحْطانية فمن قيدر بن نبت بن إسماعيل، أو تيمن على أحد القولين. قال ابن عطية: وهذا ضعيف؛ لأن دعوته ظهرت فى العرب وفيمن آمن من غيرهم. والأمّة: الجماعة هنـا، وتكون واحدا إذا كان يُقْتدى به فى الخير؛ ومنه قوله تعالى: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ»[1]، وقال صلى الله عليه وسلم فى زيد بن عمرو بن نُفَيل: "يُبعث أمّةً وحده" لأنه لم يشرك فى دينه غيره، والله أعلم. وقد يطلق لفظ الأمّة على غير هذا المعنى؛ ومنه قوله تعـالى: «إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّـةٍ»[2] أى على دين وملّة؛ ومنـه قوله تعالى: «إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً»[3]. وقد تكون بمعنى الحين والزمان؛ ومنه قوله تعالى: «وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّـةٍ»[4] أى بعد حين وزمان. ويقال: هذه أُمّة زيد؛ أى أُمّ زيد. والأمّة أيضا: القامة؛ يقال: فلان حسن الأمّة؛ أى حسن القامة؛ قال[5]:

وإنّ معاويةَ الأكرميـ * ـن حسانُ الوجوه طِوالُ الأُمَمْ

وقيل: الأمّة الشجة التى تبلغ أمّ الدماغ؛ يقال: رجل مأموم وأميم.

قوله تعالى: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ «أرِنَا» من رؤية البصر، فتتعدّى إلى مفعولين، وقيل: من رؤية القلب؛ ويلزم قائله أن يتعدّى الفعل منـه إلى ثلاثة مفاعيل. قال ابن عطيـة: وينفصل[6] بأنه يوجد معـدّى بالهمزة من رؤية القلب إلى مفعولين [كغير المعـدّى[7]]، قال حُطائط ابن يعفُر أخو الأسود بن يَعْفُر:

أرِينى جـواداً مات هزْلًا لأنّنى[8] أرى ما تَرَيْنَ أو بخيلاً مُخَـلَّدَا

وقرأ عمر بن عبد العزيز وقتادة وابن كثير وابن مُحَيْصِن والسُّدّى ورَوْح عن يعقوب ورُوَيْس والسُّوسى «أرْنَا» بسكون الراء فى القرآن؛ واختاره أبو حاتم. وقرأ أبو عمرو باختلاس كسرة

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٩٧ (٢) راجع جـ ١٦ ص ٧٤ (٣) راجع جـ ١١ ص ٣٣٨
(٤) راجع جـ ٩ ص ٢٠١ (٥) القائل هو الأعشى؛ كما فى اللسان. (٦) قال أبو حيان فى البحر: «وقوله: ينفصل ... الخ. يعنى أنه قد استعمل فى اللسان العربى متعدّيا إلى اثنين ومعه همزة النقل كما استعمل متعديا إلى اثنين بغير الهمزة». (٧) زيادة عن ابن عطية. (٨) ويروى «لعلى»، ولأن بمعنى لعل.

Marfat.com

الراء ، والباقون بكسرها ، واختاره أبو عبيد . وأصله أرْئِنَا بالهمز ، فمن قرأ بالسكون قال : ذهبت الهمزة وذهبت حركتها و بقيت الراء ساكنة على حالها ، واستدلّ بقول الشاعر :

أرْنا إداوة عبـد الله نملـؤها * من ماء زمزم إن القوم قد ظَمِئوا

ومن كسر فإنه نقـل حركة الهمزة المحذوفة إلى الراء ، وأبو عمرو طلب الخفـة . وعن شُجاع ابن أبى نصر[1] وكان أمينا صادقا أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام فذاكره أشياء من حروف أبى عمرو فلم يرد عليه إلا حرفين : هذا ، والآخر « مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَنْسَأْهَا » مهمـوزا .

قوله تعـالى : ﴿ مَنَاسِكَنَا ﴾ يقال : إن أصل النُّسك فى اللغة الغسل ؛ يقال منه : نسك ثوبه إذا غسله . وهو فى الشرع آسم للعبادة؛ يقال : رجل ناسك إذا كان عابدا .

وآختلف العلماء فى المراد بالمناسك هنا ؛ فقيل : مناسك الحج ومعالمه ؛ قاله قتادة والسُّدى . وقال مجاهد وعطاء وآبن جُريج : المناسك المذابح ، أى مواضع الذبح . وقيل : جميع المتعبَّدات . وكل ما يُتعبَّد به إلى الله تعالى يقال له مَنْسَك ومَنْسِك . والناسك : العابد . قال النحاس : يقال نَسَك يَنْسُك ، فكان يجب أن يقال على هذا : مَنْسُك ، إلا أنه ليس فى كلام العرب مَفْعُل . وعن زهير بن محمد قال : لمـا فرغ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت الحرام قال : أى رَبّ ، قـد فرغتُ فأرنا مناسكنا ؛ فبعث الله تعـالى إليه جبريل فحجّ به ، حتى إذا رجع من عَرَفة وجاء يوم النَّحر عَرَض له إبليس ، فقال له : أحصبه ، فحَصَبه بسبع حَصَيات ، ثم الغـد ثم اليوم الثالث ، ثم علا ثَبِيرًا[2] فقال : يا عباد الله ، أجيبوا ؛ فسمع دعوته مَنْ بين الأبحر ممن فى قلبه مثقال ذَرّة من إيمان ، فقال : لَبّيْكَ ، اللّهُمّ لَبّيْكَ ؛ قال : ولم يزل على وجه الأرض سبعة مسلمون فصاعدا ، لولا ذلك لأهلكت الأرض ومن عليها . وأوّل من أجابه أهـل اليمن . وعن أبى مِجْلَز قال : لمـا فرغ إبراهيم من البيت جاءه جبريل عليه السلام فأراه الطواف

---

(١) فى ا ، ب ، ز : « أبى نصرة » . وفى ج ، ح : « أبى بصرة » . والتصويب عن طبقات القرّاء وتهذيب التهذيب .

(٢) ثبير : جبل بين مكة ومنى وهو على يمين الذاهب إلى مكة .

Marfat.com

بالبيت — قال : وأحسبه قال : والصَّفَا والمَرْوَة — ثم ٱنطلقا إلى العقبة فعرض لهما الشيطان، فأخذ جبريل سبع حَصَيات وأعطى إبراهيم سبع حَصَيات، فرمى وكَبّر، وقال لإبراهيم : ارم وكَبّر، فرميا وكبّرا مع كل رمية حتى أفَل الشيطان . ثم ٱنطلقا إلى الجَمْرة الوسطى، فعرض لهما الشيطان، فأخذ جبريل سبع حَصَيات وأعطى إبراهيم سبع حَصَيات، وقال : ارم وكَبّر، فرميا وكبّرا مع كل رمية حتى أفَل الشيطان . ثم أتيا الجمرة القُصْوى فعرض لهما الشيطان، فأخذ جبريل سبع حَصَيات وأعطى إبراهيم سبع حصيات وقال : ارم وكَبّر، فرميا وكبّرا مع كل رمية حتى أفَل الشيطان . ثم أتى به جَمْعاً (١) فقال : هاهنا يجمع الناس الصلوات . ثم أتى با عَرَفات فقال : عَرَفْتَ ؟ فقال نعم، فمن ثَمَّ سُمِّيَ عرفات . وروى أنه قال له : عَرَفْتَ، عرفتَ، عرفتَ ؟ أى مِنًى والجَمْع وهذا، فقال نعم، فسُمّيَ ذلك المكان عرفات . وعن خُصَيْف بن عبد الرحمن أن مجاهدا حدّثه قال : لما قال إبراهيم عليه السلام : « وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا » أى الصَّفَا والمَرْوَة، وهما من شعائر الله بنص القرآن، ثم خرج به جبريل، فلما مَرّ بجَمْرة العَقَبة إذا إبليس عليها، فقال له جبريل : كَبّر وٱرْمِه، فٱرتفع إبليس إلى الوسطى، فقال جبريل : كَبّر وٱرْمِه، ثم فى الجمرة القُصْوَى كذلك . ثم ٱنطلق به إلى المَشْعر الحرام، ثم أتى به عَرفة فقال له : هل عَرفتَ ما أريتك ؟ قال نعم، فسُمّيتْ عرفات لذلك فيما قيل، قال : فأذِّنْ فى الناس بالحج، قال : كيف أقول؟ قال قل : يأيها الناس، أجيبوا رَبّكم، ثلاث مرار، ففعل، فقالوا : لَبّيْكَ، اللّهُمّ لَبّيْكَ . قال : فمن أجاب يومئذ فهو حاج . وفى رواية أخرى : أنه حين نادى ٱستدار فدعا فى كل وجه، فلَبّى الناس من كل مشرق ومغرب، وتطاطأت الجبال حتى بَعُد صوته . وقال محمد بن إسحاق : لما فرغ إبراهيم خليل الرحمن صلوات الله عليه من بناء البيت الحرام جاءه جبريل عليه السلام فقال له : طُفْ به سبعا، فطاف به سبعا هو وإسماعيل عليهما السلام، يستلمان الأركان كلها فى كل طواف، فلما أكملا سبعا صلّيا خلف المقام ركعتين . قال : فقام جبريل فأراه المناسك كلها : الصَّفَا والمَرْوَة ومِنًى والمُزْدَلِفة . قال :

(١) جمع (بفتح فسكون) : المزدلفة .

Marfat.com

فلما دخل مِنًى وهبط من العَقَبة تمثّل له إبليس ... ، فذكر نحو ما تقدّم . قال ابن إسحاق : وبلغنى أن آدم عليه السلام كان يستلم الأركان كلها قبل إبراهيم عليه السلام . وقال : حجّ إسحاق وسارة من الشام، وكان إبراهيم عليه السلام يحجّه كل سنة على البراق؛ وحجّته بعد ذلك الأنبياء والأمم . وروى محمد بن سابط عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "كان النبيّ من الأنبياء إذا هلكت أُمّته لحق مكة فتعبّد بها هو ومن آمن معه حتى يموتوا فمات بها نوح وهود وصالح وقبورهم بين زمزم والحِجْر" . وذكر ابن وهب أن شُعَيْبًا مات بمكة هو ومن معه من المؤمنين ، فقبورهم فى غربى مكة بين دار النَّدْوة و بين بنى سَهْم . وقال ابن عباس : فى المسجد الحرام قبران ليس فيه غيرهما ، قبر إسماعيل وقبر شعيب عليهما السلام؛ فقبر إسماعيل فى الحِجْر، وقبر شعيب مقابل الحَجَر الأسود . وقال عبد الله بن ضمرة السَّلولى : مابين الركن والمقام إلى زمزم قبور تسعة وتسعين نبيًّا جاءوا حجاجًا فقبِروا هنالك، صلوات الله عليهم أجمعين .

قوله تعالى : ﴿ وَتُبْ عَلَيْنَا ﴾ اختلف فى معنى قول إبراهيم و إسماعيل عليهما السلام : « وَتُبْ عَلَيْنَا » وهم أنبياء معصومون؛ فقالت طائفة : طلبا التثبيت والدوام، لا أنهما كان لهما ذنب .

قلت : وهذا حسن ، وأحسن منه أنهما لما عرفا المناسك و بنيا البيت أرادا أن يبيّنا للناس و يعرّفاهم أن ذلك الموقف وتلك المواضع مكان التنصّل من الذنوب وطلب التوبة . وقيل : المعنى وتُبْ على الظلمة منّا . وقد مضى الكلام فى عصمة الأنبياء عليهم السلام فى قصة آدم (١) عليه السلام، وتقدّم القول فى معنى قوله : « إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » (٢) فأغنى عن إعادته .

قوله تعالى : رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾

---

(١) يراجع ج ١ ص ٣٠٨ طبعة ثانية . (٢) يراجع ج ١ ص ٣٢٥ طبعة ثانية .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ يعني محمدا صلى الله عليه وسلم . وفي قراءة أُبَيّ « وَٱبْعثْ فِي آخِرِهِم رَسُولًا مِنهم » . وقد روى خالد بن مَعْدَان : أنّ نفرا من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم قالوا له : يا رسول الله ، أخبرنا عن نفسك ؛ قال : " نعم أنا دعوة أبي إبراهيم وبُشْرَي عيسى " . و « رسـولًا » أي مرسَلًا ؛ وهو فعـول من الرسالة . قال ٱبن الأنباري : يشبه أن يكون أصله من قولهم : ناقةٌ مِرْسالٌ ورَسْلَة ؛ إذا كانت سهلة السير ماضية أمام النُّوق . ويقال للجماعة المهملة المرسَلة : رَسَلٌ ، وجمعـه أرسال . ويقال : جاء القوم أرسالا ، أي بعضهم في أثر بعض ؛ ومنه يقال للبن رِسْلٌ ؛ لأنه يرسل من الضرع .

قوله تعالى : ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ « الكتاب » : القرآن . و « الحكمة » : المعرفة بالدِّين ، والفقه في التأويل ، والفهم الذي هو سجيّة ونور من الله تعالى ؛ قاله مالك ، ورواه عنه ٱبن وهب ، وقاله ٱبن زيد . وقال قتـادة : « الحكمة » السُّنة وبيان الشرائع . وقيـل : الحُكْم والقضاء خاصّـةً ؛ والمعنى متقارب . ونُسب التعليم إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم من حيث هو يعطي الأمور التي ينظر فيها ، ويعلم طريق النظر بمـا يلقيه الله إليه من وَحْيه . ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي يطهّرهم من وَضَر[1] الشرك ؛ عن ٱبن جُريج وغيره . والزكاة : التطهير ، وقد تقدّم[2] . وقيل : إن الآيات تلاوة ظاهر الألفاظ . والكتاب معاني الألفاظ . والحكمة الحُكْم ؛ وهو مراد الله بالخطاب من مطلق ومقيّد ، ومفسّر ومُجْمَـل ، وعموم وخصوص ، وهو معنى ما تقدّم ، والله تعالى أعلم . ﴿وَالْعَزِيزُ﴾ معناه المنيع الذي لا ينال ولا يغالب . وقال ٱبن كَيْسان : معناه الذي لا يُعجزه شيء ؛ دليله : « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ »[3] . الكسائي : « العزيز » الغالب ؛ ومنه قوله تعالى : « وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ »[4] . وفي المثل : « مَن عَزّ بَزّ » أي من غَلب سَلب . وقيل : « العزيز » الذي لا مِثْل له ؛ بيانه « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ »[5] . وقد زدنا هذا المعنى بياناً في ٱسمه العزيز في كتاب « الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى » وقد تقدّم معنى « الحكيم »[6] والحمد لله .

(١) الوضر : الوسخ . (٢) يراجع جـ ١ ص ٣٤٣ طبعة ثانية . (٣) راجع جـ ١٤ ص ٣٦١
(٤) راجع جـ ١٥ ص ١٧٤ (٥) راجع جـ ١٦ ص ٨ (٦) راجع المسألة الثالثة جـ ١ ص ٢٨٧ طبعة ثانية .

Marfat.com

قوله تعالى : وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبراهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ « مَن » آستفهام فى موضع رفع بالآبتداء ، و « يَرْغَبُ » صلة « مَن » . « إلّا مَنْ سَفِه نَفْسَه » فى موضع الخبر . وهو تقريع وتوبيخ وقع فيه معنى النفى ؛ أى وما يرغب ، قاله النحاس . والمعنى : يزهد فيها وينأى بنفسه عنها؛ أى عن المِلّة وهى الدّين والشّرع . « إلّا مَن سَفِه نَفْسَه » قال قتادة : هم اليهود والنصارى ، رَغِبُوا عن مِلّة إبراهيم وآتخذوا اليهودية والنصرانية بِدْعةً ليست من الله تعالى . قال الزجاج : « سَفِه » بمعنى جهل ؛ أى جَهِل أمر نفسه فلم يفكّر فيها . وقال أبو عبيدة : المعنى أهلك نفسه . وحكى ثعلب والمبرد أن « سفِه » بكسر الفاء يتعدّى كسَفَّه بفتح الفاء وشدّها . وحكى عن أبى الخطاب ويونس أنها لغة . وقال الأخفش: « سَفِه نَفْسَه » أى فعل بها من السّفه ما صار به سفيهاً . وعنه أيضا هى لغة بمعنى سفّه ؛ حكاه المهدوىّ . والأوّل ذكره الماوَرْدىّ . فأمّا سَفُه بضم الفاء فلا يتعدّى ؛ قاله المبرد وثعلب . وحكى الكسائى عن الأخفش أن المعنى جَهِل فى نفسه ، فحذفت « فى » فآنتصب . قال الأخفش : ومثله « عُقْدَةَ النِّكاح »(١) ، أى على عقدة النكاح . وهذا يجرى على مذهب سيبويه فيما حكاه من قولهم : ضَرب فلان الظّهرَ والبطنَ ؛ أى فى الظهر والبطن . الفرّاء : هو تمييز . قال آبن بحر : معناه جهل نفسه وما فيها من الدلالات والآيات الدالة على أن لها صانعا ليس كمثله شىء ؛ فيعلم به توحيد الله وقدرته .

قلت : وهذا هو معنى قول الزجاج ؛ فيفكّر فى نفسه من يَدَيْن يبطش بهما ، ورجلين يمشى عليهما ، وعين يبصر بها ، وأذن يسمع بها ، ولسان ينطق به ، وأضراس تنبت له عند غناه عن الرضاع وحاجته إلى الغذاء ليطحن بها الطعام ، ومعدة أعدّت لطبخ الغذاء ، وكبد يصعد إليها صَفْوه ، وعروق ومعابر ينفذ فيها إلى الأطراف ، وأمعاء يرسُب إليها ثُفل الغذاء ويبرز من أسفل البدن ؛ فيستدلّ بهذا على أن له خالقا قادرا عليما حكيما ؛ وهذا معنى قوله تعالى :

(١) أى فى قوله تعالى : « ولا تعزموا عقدة النكاح » راجع جـ ٣ ص ١٩٢

Marfat.com

« وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ » . أشار إلى هذا الخطّابي رحمه الله تعالى . وسيأتى له مزيد بيان فى سورة « والذّاريات »(١) إن شاء الله تعالى .

وقد آستدلّ بهذه الآية من قال : إن شريعة إبراهيم شريعةٌ لنا إلا ما نُسخ منها؛ وهذا كقوله : « مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ »(٢)، « أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ »(٣) . وسيأتى بيانه .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَاهُ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ أى آخترناه للرسالة فجعلناه صافيًا من الأدناس . والأصل فى « ٱصْطَفَيْنَاهُ » آصتفيناه ، أُبدلت التاء طاء لتناسبها(٤) مع الصاد فى الإطباق . واللفظ مشتق من الصَّفْوة ؛ ومعناه تخيّر الأصفى .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ فِى ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّالِحِينَ ﴾ الصالح فى الآخرة هو الفائز . ثم قيل : كيف جاز تقديم « فِى ٱلْآخِرَةِ » وهو داخل فى الصّلة ؛ قال النحاس : فالجواب أنه ليس التقدير إنه لمن الصالحين فى الآخرة ، فتكون الصلة قد تقدّمت ؛ ولأهل العربية فيه ثلاثة أقوال: منها أن يكون المعنى وإنه صالح فى الآخرة، ثم حذف . وقيل: «فى الآخرة» متعلّق بمصدر محذوف ؛ أى صلاحه فى الآخرة . والقول الثالث : أن « الصالحين » ليس بمعنى الذين صلحوا ، ولكنه آسم قائم بنفسه ؛ كما يقال الرجل والغلام .

قلت : وقول رابع أن المعنى وإنه فى عمل الآخرة لمن الصالحين ؛ فالكلام على حذف مضاف . وقال الحسين بن الفضل : فى الكلام تقديم وتأخير، مجازه ولقد آصطفيناه فى الدنيا والآخرة وإنه لمن الصالحين . وروى حَجّاج بن حجاج — وهو حجاج الأسود ، وهو أيضا حجاج الأحول المعروف بزِقّ العَسَل — قال: سمعت معاوية بن قُرّة يقول: اللّهُمّ إن الصالحين أنت أصلحتهم ورزقتهم أن عملوا بطاعتك فرضيت عنهم ، اللّهُمّ كما أصلحتهم فأصلحنا ، وكما رزقتهم أن عملوا بطاعتك فرضيت عنهم فآرزقنا أن نعمل بطاعتك ، وآرض عنا .

---

(١) راجع جـ ١٧ ص ٤٠　　(٢) راجع جـ ١٢ ص ١٠١
(٣) راجع جـ ١٠ ص ١٩٨　　(٤) فى ا : « لتشابهها ... » .

Marfat.com

قوله تعالى : إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾

العامل فى « إذ » قوله : « ٱصْطَفَيْنَٰهُ » أى آصطفيناه إذ قال له ربُّه أسلم . وكان هذا القول من الله تعالى حين آبتلاه بالكوكب والقمر والشمس . قال آبن كَيْسان والكلبي : أى أخلص دينك لله بالتّوحيد . وقيل : آخضع وآخشع . وقال آبن عباس : إنما قال له ذلك حين خرج من السَّرَب[1]، على ما يأتى ذكره فى « الأنعام[2] » . والإسلام هنا على أتم وجوهه . والإسلام فى كلام العرب : الخضوع والآنقياد للستسلم . وليس كل إسلام إيمانًا، وكل إيمان إسلام؛ لأن من آمن بالله فقد آستسلم وآنقاد لله . وليس كل من أسلم آمن بالله؛ لأنه قد يتكلّم فَزَعًا[3] من السيف ، ولا يكون ذلك إيمانا ؛ خلافا للقدرية والخوارج حيث قالوا : إن الإسلام هو الإيمان؛ فكل مؤمن مسلم ، وكل مسلم مؤمن؛ لقوله : « إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ[4] » فدلّ على أن الإسلام هو الدّين، وأن من ليس بمسلم فليس بمؤمن. ودليلنا قوله تعالى : « قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا[5] » الآية . فأخبر الله تعالى أنه ليس كل من أسلم مؤمنا ؛ فدلّ على أنه ليس كل مسلم مؤمنًا ؛ وقال صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبى وقّاص لمّا قال له : أعطِ فلانا فإنه مؤمن ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أوْ مسلم" الحديث ، خرّجه مسلم ؛ فدل على أن الإيمان ليس الإسلام، فإن الإيمان باطن، والإسلام ظاهر، وهذا بيّن . وقد يطلق الإيمان بمعنى الإسلام، والإسلام و يراد به الإيمان ؛ للزوم أحدهما الآخر وصدوره عنه ؛ كالإسلام الذى هو ثمرة الإيمان ودلالة على صحته ، فآعلمه . و بالله التوفيق .

قوله تعالى : وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾

---

(١) السرب (بالتحريك) : الحفير، و بيت تحت الأرض .

(٢) راجع ٧ ص ٢٤ (٣) فى ب : « فرقا » .

(٤) راجع ج ٤ ص ٤٣ (٥) راجع ج ١٦ ص ٣٤٨

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ وَوَصَّى بِهَآ إِبْرَاهِـيمُ ﴾ أى بالملّة؛ وقيـل : بالكلمة التى هى قـوله : « أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » وهو أصوب ؛ لأنه أقرب مذكور ، أى قولوا أسلمنا . ووَصّى وأوْصى لغتان لقريش وغيرهم بمعنًى ؛ مثـل كَرَّمنا وأكرمنا؛ وقرئ بهما . وفى مصحف عبد الله « ووَصّى » ، وفى مصحف عثمان « وأَوْصَى » وهى قراءة أهل المدينـة والشام . الباقون « ووَصّى » وفيه معنى التكثير . « وإبراهيمُ » رفع بفعله ، « ويعقوبُ » عطف عليه؛ وقيل : هو مقطوع مستأنف، والمعنى : وأوصى يعقوب وقال يا بَنىّ إن الله آصطفى لكم الدين ؛ فيكون إبراهيم قد وَصّى بنيه ، ثم وَصّى بعده يعقوبُ بنيه .

وبنو إبراهيم : إسماعيل ، وأمه هاجَر القبطية ، وهو أكبر ولده؛ نقله إبراهيم إلى مكّة وهو رضيع . وقيل : كان له سنتان ؛ وقيل : كان له أربع عشرة سـنة؛ والأول أصح؛ على ما يأتى فى سورة «إبراهيم»(١) بيانه إن شاء الله تعالى . ووُلد قبل أخيه إسحاق بأربع عشرة سنة؛ ومات وله مائة وسبع وثلاثون سنة . وقيـل : مائة وثلاثون . وكان سِـنّه لمـا مات أبوه إبراهيم عليهما السـلام تسعا وثمانين سـنة ؛ وهو الذَّبيح فى قولٍ . وإسحاق أُمّه سارة ، وهو الذَّبيح فى قول آخر، وهو الأصح، على ما يأتى بيانه فى سورة « والصافات»(٢) إن شاء الله. ومن ولده الروم واليونان والأرمن ومن يجرى مجراهم وبنو إسرائيل . وعاش إسحاق مائة وثمانين سنة، ومات بالأرض المقدّسة ودُفن عند أبيه إبراهيم الخليل عليهما السلام . ثم لمـا تُوُفِّيت سارة تزوّج إبراهيم عليه السـلام قنطورا بنت يقطن الكنعانيّـة ، فولدت له مدين ومداين ونهشان وزمران ونشيق وشيوخ(٣) ؛ ثم توفى عليه السـلام . وكان بين وفاته وبين مولد النبىّ صلى الله عليه وسـلم نحو من ألفى سـنة وستمائة سنة ؛ واليهـود ينقصون من ذلك نحوا من أربعمائة سنة . وسيأتى ذكر أولاد يعقوب فى سورة « يوسفُ »(٤) إن شاء الله تعـالى . وقرأ عمرو بن فائد ألأسوارى وإسماعيل بن عبـد الله المكى : « ويعقوبَ » بالنصب عطفًا على

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٦٨ (٢) راجع جـ ١٥ ص ٩٩ (٣) كذا وردت هذه الأسماء فى نسخ الأصل . والذى فى كتاب الرسل والملوك لأبن جرير الطبرى قسم أول ص ٣٤٥ طبع أوربا : « يقسان، وزمران، ومديان، ويسبق ، وسوح ، وبسر » . وفى تاريخ ابن الأثير جـ ١ ص ٨٧ طبع أوربا : « نفشان ، ومران ، ومديان ، ومدن، ونشق ؛ وسرح » . (٤) راجع جـ ٩ ص ١٣٠

Marfat.com

« بنيه »؛ فيكون يعقوب داخلا فيمن أوْصَى . قال القُشَيْرِىّ : وقُرِئَ «يعقوبَ» بالنصب عطفًا على « بنيــه » وهو بعيد ؛ لأن يعقــوب لم يكن فيما بين أولاد إبراهيم لمـّا وصّاهم ، ولم ينقل أن يعقوب أدرك جدّه إبراهيم ، و إنما وُلِد بعد موت إبراهيم، وأنّ[1] يعقوب أوصى بنيه أيضًا كما فعل إبراهيم . وسيأتى تسمية أولاد يعقوب إن شاء الله تعالى .

قال الكلبي : لمـّا دخل يعقوب إلى مصر رآهم يعبدون الأوثان والنيران والبقر ، فجمع ولده وخاف عليهم وقال : ما تعبدون من بعدى ؟

و يقال : إنّمـا سُمِّىَ يعقوب لأنه كان هو والعِيص تَوْأَمَين ، فخرج من بطن أمه آخذًا بعقب أخيه العِيص . وفى ذلك نظر ؛ لأن هـذا آشتقاق عربىّ ، و يعقوب آسم أعجمى ، و إن كان قد وافق العربيــة فى التسمية به كذَكَر الحَجَلِ[2] . عاش عليه السـلام مائة وسبعًا وأر بعين سنة ومات بمصر، وأوصى أن يُحمل إلى الأرض المقدّسة، ويُدفن عند أبيه إسحاق، فحمله يوسف ودفنه عنده .

قوله تعـالى : ﴿ يَا بَنِيَّ ﴾ معناه أنْ يا بنىّ ؛ وكذلك هو فى قراءة أُبَىّ وآبن مسعود والضّحاك . قال الفَرّاء : أُلغيتْ أنْ لأنّ التوصـية كالقول، وكل كلام يرجع إلى القول جاز فيه دخول أنْ وجاز فيــه إلغاؤها . قال : وقـول النحو يين إنما أراد « أن » فألغيت ليس بشىء . النحاس : « يا بَنِىّ » نداء مضاف ، وهذه ياء النفْس لا يجوز هنا إلا فتحها؛ لأنها لو سكنتْ لألتقى ساكنان ، ومثلـه « بِمُصْرِخِىّ[3] » . ﴿ إنّ آللهَ ﴾ كُسرت « إنّ » لأن أوصى وقال واحد . وقيل : على إضمار القول . ﴿ آصْطَفَى ﴾ آختار . قال الراجز :

يابن ملوك ورّثوا الأملاكا * خلافــة الله التى أعطاكا
* لك آصطفاها ولهـا آصطفاكا *

﴿ لَكُمُ ٱلدِّينَ ﴾ أى الإسلام ؛ والألف واللام فى «الدّين» للعهد؛ لأنهم قد كانوا عرفوه . ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ إيجاز بليغ . والمعنى : الزموا الإسلام ودُوموا عليه ولا تفارقوه

(١) فى أ ، ب ، ز : «بل إن» . (٢) الحجل (بالتحريك) : طائر على قدر الحمام كالقطا ، أحمر المنقار والرجلين ، و يسمى دجاج البر . و يسمى الذكر منه يعقوب وجمعه يعاقب و يعاقيب . (٣) راجع جـ ٩ ص ٣٥٧

حتى تموتوا . فأتى بلفظ موجز يتضمّن المقصود، ويتضمّن وعظًا وتذكيرًا بالموت؛ وذلك أن المرء يتحقق أنه يموت ولا يدرى متى؛ فإذا أُمِر بأمر لا يأتيه الموت إلا وهو عليه، فقد توجّه الخطاب من وقت الأمر دائبًا لازمًا . و «لا» نَهْى «تَمُوتُنّ» فى موضع جزم بالنهى، أُكِّد بالنون الثقيلة، وحُذفت الواو لالتقاء الساكنين . «إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» ابتداء وخبر فى موضع الحال؛ أى محسنون بربكم الظنّ، وقيل مخلصون، وقيل مفوّضون، وقيل مؤمنون .

قوله تعـالى : أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ﴾ «شهداء» خبر كان، ولم يُصرف لأن فيه ألف التأنيث؛ ودخلت لتأنيث الجماعة كما تدخل الهـاء . والخطاب لليهـود والنصارى الذين ينسـبون إلى إبراهيم ما لم يُوصِ به بَنِيـه، وأنهم على اليهودية والنصرانية؛ فردّ الله عليهم قولهم وكذبهم، وقال لهم على جهـة التوبيخ : أشهدتم يعقوب وعلمتم بمـا أوصى فتدّعون عن علم؛ أى لم تشهدوا، بل أنتم تفترون ! . و « أم » بمعنى بل؛ أى بل أشهد أسلافكم يعقوب . والعامل فى « إذ » الأولى معنى الشهادة، و « إذ » الثانية بدل من الأولى . و « شهداء » جمع شاهد أى حاضر . ومعنى « حَضَرَ يعقوبَ الموتُ » أى مقدّماته وأسبابه؛ و إلا فلو حضر الموت لمـا أمكن أن يقول شيئا . وعبّر عن المعبود بـ « ما » ولم يقل مَن؛ لأنه أراد أن يختبرهم؛ ولو قال « مَن » لكان مقصوده أن ينظر مَن لهم الاهتـداء منهم؛ وإنمـا أراد تجربتهم فقال « ما » . وأيضا فالمعبودات المتعارفة من دون الله جمادات كالأوثان والنار والشمس والحجارة؛ فاستفهم عمـا يعبدون من هـذه . ومعنى « مِنْ بَعْدِى » أى من بعـد موتى . وحُكى أن يعقوب حين خُيّر كما تُخيَّر الأنبيـاء اختار الموت وقال : أمهلونى حتى أوصى بنىّ وأهـلى؛ فجمعهم وقال لهم هـذا؛ فاهتدوا وقالوا : « نَعْبُدُ إِلٰهك » الآية . فأروه ثبوتهم على الدِّين ومعرفتهم بالله تعالى .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ « إبراهيم وإسماعيل وإسحاق » في موضع خفض على البدل ، ولم تنصرف لأنها أعجمية . قال الكسائي : وإن شئت صرفت « إسحاق » وجعلته من السُّحق ، وصرفت « يعقوب » وجعلته من الطير . وسمّى الله كلّ واحد من العمّ والجدّ أبًا ، وبدأ بذكر الجدّ ثم إسماعيل العمّ لأنه أكبر من إسحاق . و « إلٰهًا » بدل من « إلٰهك » بدل النكرة من المعرفة ؛ وكرره لفائدة الصّفة بالوحدانية . وقيل : « إلٰهًا » حال . قال ابن عطية : وهو قول حسن ؛ لأن الغرض إثبات حال الوحدانية . وقرأ الحسن ويحيى بن يعمُر والجَحْدَري وأبو رجاء العُطارِدي « وإلٰه أبيك » وفيه وجهان :

أحدهما — أن يكون أفرد وأراد إبراهيم وحده ، وكره أن يجعل إسماعيل أبًا لأنه عمّ . قال النحاس : وهذا لا يجب ؛ لأن العرب تسمّي العمّ أبًا .

الثاني — على مذهب سيبويه أن يكون « أبيك » جمع سلامة ؛ حكى سيبويه أبٌ وأبُونَ وأبين ؛ كما قال الشاعر :

* فقلنا أسلموا إنّا أخوكم * (١)

وقال آخر :

فلما تبيّنّ أصواتنا * بكين وفدّيننا بالأبينا (٢)

قوله تعالى : ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ ابتداء وخبر ؛ ويحتمل أن يكون في موضع الحال ، والعامل « نعبد » .

قوله تعالى : تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾

(١) الشاهد فيه « أخوكم » فإنه جمع بالواو والنون وحذفت النون للإضافة ليصح الإخبار به عن ضمير الجمع . وتمام البيت : * فقد سلمت من الإحن الصدور *

(٢) وصف نساء سبين فوفد عليهن من قومهن من يفاديهن فبكين إليهم وفديتهم بآبائهن سرورا بوفودهم عليهن . (عن شرح الشواهد) .

(٢) راجع خزانة الأدب في الشاهد الثامن والعشرين بعد الثلثمائة .

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾ «تلك» مبتدأ، و «أُمَّةٌ» خبر، «قَدْ خَلَتْ» نعت لأمة، وإن شئت كانت خبر المبتدأ، وتكون «أُمَّةٌ» بدلا من «تلك». ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ ﴾ «ما» فى موضع رفع بالابتداء أو بالصفة على قول الكوفيين. ﴿ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ مثله، يريد من خير وشر. وفى هذا دليل على أن العبد يضاف إليه أعمال وأكساب؛ وإن كان الله تعالى أقدره على ذلك، إن كان خيرا فبفضله وإن كان شرا فبعدله؛ وهذا مذهب أهل السنة؛ والآى فى القرآن بهذا المعنى كثيرة. فالعبد مكتسب لأفعاله، على معنى أنه خُلقت له قدرة مقارنة للفعل، يُدرك بها الفرق بين حركة الاختيار وحركة الرعشة مثلا؛ وذلك التمكن هو مناط التكليف. وقالت الجَبْرِيّة بنفى اكتساب العبد، وإنه كالنبات الذى تصرّفه الرياح. وقالت القدرية والمعتزلة خلاف هذين القولين، وإن العبد يخلق أفعاله.

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى لا يؤاخذ أحد بذنب أحد؛ مثل قوله تعالى : « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » أى لا تحمل حاملة ثقل أخرى؛ وسيأتى[1].

قوله تعالى : وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا ﴾ دعت كلّ فرقة إلى ما هى عليه؛ فردّ الله تعالى ذلك عليهم فقال : ﴿ بَلْ مِلَّةَ ﴾ أى قل يا محمد : بل نتّبع مِلّة؛ فلهذا نصب المِلّة. وقيل : المعنى بل نهتدى بملّة إبراهيم؛ فلما حذف حرف الجرّ صار منصوبا. وقرأ الأعرج وابن أبى عَبْلة : «بَلْ مِلَّةُ» بالرفع؛ والتقدير بل الهدى مِلّةُ، أو مِلّتنا دين إبراهيم. و « حَنِيفًا » مائلا عن الأديان المكروهة إلى الحق دينِ إبراهيم؛ وهو فى موضع نصب على الحال؛ قاله الزجاج. أى بل نتبع ملّة إبراهيم فى هذه الحالة. وقال على بن سليمان : هو منصوب على أعنى، والحال خطأ، لا يجوز جاءنى غلام هندٍ مسرعة. وسُمّى إبراهيم حنيفا لأنه

(١) راجع جـ ٧ ص ١٥٧

Marfat.com

حَنَف إلى دين الله وهو الإسلام . والحَنَف : المَيْل ؛ ومنه رِجْلٌ حَنْفاء، ورَجُل أحنف، وهو الذى تميل قدماه كل واحدة منهما إلى أختها بأصابعها . قالت أم الأحْنَف :

واللهِ لولا حَنَفٌ برِجْـلِه * ما كان فى فتيانكم من مِثْلِه

وقال الشاعر :

إذا حوّل الظل العشىّ رأيته * حَنيفًا وفى قَرْن الضحى يَتنصّرُ

أى الحِرْباء تستقبل القِبْـلة بالعشىّ، والمَشْرِق بالغداة، وهو قبـلة النصارى . وقال قوم : الحَنَف الاستقامة؛ فسُمّىَ دين إبراهيم حنيفًا لاستقامته . وسُمّىَ المِعْوَجّ الرِّجلين أحنف تفاؤلًا بالاستقامة؛ كما قيل للّديغ سليم، وللمهلكة مفازة؛ فى قول أكثرهم .

قوله تعـالى : ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ (١٣٦)

قوله تعـالى : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ ﴾ خرّج البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسّرونها بالعربية لأهل الإسلام؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذّبوهم وقُولُوا آمنّا بالله وما أُنزل" الآية . وقال محمد بن سيرين : إذا قيل لك أنت مؤمن ؟ فقل : « آمنّا بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق » الآية . وكره أكثر السلف أن يقـول الرجل : أنا مؤمن حقًّا؛ وسيأتى بيـانه فى « الأنفال »[(١)] إن شاء الله تعـالى . وسُئل بعض المتقدّمين عن رجل قيـل له : أتؤمن بفلان النبىّ؛ فسمّاه باسم لم يعرفه؛ فلو قال نعم، فلعـلّه لم يكن نبيًّا، فقد شهد بالنبوّة لغير نبىّ، ولو قال لا، فلعلّه نبىّ، فقد جحد نبيًّا من الأنبياء؛ فكيف يصنع ؟ فقال : ينبغى أن يقول : إن كان نبيًّا فقد آمنتُ به . والخطاب فى هذه الآية لهذه الأمة، علّمهم الإيمـان . قال ابن عباس : جاء نفر من اليهود إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٦٧

فسألوه عمن يؤمن به من الأنبياء، فنزلت الآية . فلما جاء ذكر عيسى قالوا: لا نؤمن بعيسى ولا من آمن به .

قوله تعـالى : ﴿ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَـا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيـلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ﴾ جمع إبراهيم براهيم، وإسماعيل سماعيل؛ قاله الخليل وسيبويه، وقاله الكوفيون، وحكوا بَراهِمة وسَماعِلة، وحكوا براهِم وسماعِل . قال محمد بن يزيد : هذا غلط، لأن الهمزة ليس هذا موضع زيادتها، ولكن أقول : أباره وأسامـع ، ويجوز أباريه وأساميع . وأجاز أحمد بن يحيى بِراه، كما يقال فى التصغير بُرَيْه . وجمع إسحاق أساحيق، وحكى الكوفيون أساحقة وأساحق؛ وكذا يعقوب ويعاقيب، ويعاقبة ويعاقب . قال النحاس : فأما إسرائيل فلا نعـلم أحدا يجيز حذف الهمزة من أوله، وإنمـا يقال أساريل، وحكى الكوفيون أسارلة وأسارِل . والباب فى هذا كله أن يُجمَـع مسلما فيقال : إبراهيمون وإسحاقون ويعقوبون، والمسلم لا عمل فيه .

والأسباط : وَلَدُ يعقوب عليه السلام، وهم آثنا عشر ولدا، وُلِد لكل واحد منهم أُمّة من الناس؛ واحدهم سِبْط . والسِّبْط فى بنى إسرائيل بمنزلة القَبِيلة فى ولد إسماعيل . وسُمُّوا الأسباط من السَّبط وهو التتابع؛ فهم جماعة متتابعون . وقيل : أصله من السَّبَط (بالتحريك) وهو الشجر؛ أى هم فى الكثرة بمنزلة الشجر، الواحدة سَبَطة . قال أبو إسحاق الزجاج : ويُبَيِّن لك هذا ما حدّثنا به محمد بن جعفر الأنبارى قال حدّثنا أبو نُجَيد(١) الدّقاق قال حدّثنا الأسود بن عامر قال حدّثنا إسرائيل عن سِماك عن عِكرمة عن ٱبن عباس قال : كل الأنبياء من بنى إسرائيل إلا عشرة : نوحًا وشعيبًا وهودًا وصالحًا ولوطًا وإبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ وإسماعيلَ ومحمدًا صلى الله عليه وسلم . ولم يكن أحد له ٱسمان إلا عيسى ويعقوب . والسِّبْط : الجماعة والقبيلة الراجعون إلى أصل واحد . وشَعر سَبْط وسَبِط : غير جَعْد . ﴿ لَا نُفَـرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُـمْ ﴾ قال الفرّاء : أى لا نؤمن ببعضهم ونكفر ببعضهم كما فعلت اليهود والنصارى .

---

(١) كذا فى جـ وتفسير ٱبن كثير فى هذا الموضع . وفى سائر الأصول : «أبو مجيد» بالميم .

Marfat.com

قوله تعـالى : فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَـدِ ٱهْتَدَوْا ﴾ الخطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم وأمته . المعنى : فإن آمنوا مثـل إيمانكم ، وصدّقوا مثل تصديقكم فقـد ٱهتدوْا ؛ فالممـاثلة وقعت بين الإيمانين، وقيل[1] : إن الباء زائدة مؤكّدة . وكان ٱبن عباس يقرأ فيما حكى الطبرى : « فإن آمنوا بالذى آمنتم بِهِ فقد ٱهتدوْا » ، وهذا هو معنى القراءة و إن خالف المصحف ؛ فـ « مِثْل » زائدة كما هى فى قوله : « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ[2] » أى ليس كهو شىء .
وقال الشاعر[3] :

* فصُيِّروا مثل كعَصْف مأكول *

وروى بَقِيّـة حدّثنـا شُعبة عن أبى حمزة عن ٱبن عبـاس قال : لا تقولوا فإن آمنوا بمثـل ما آمنتم به فإن الله ليس له مثـل ، ولكن قولوا : بالذى آمنتم بِه . تابعه علىّ بن نصر الجَهْضَمِىّ عن شعبة ، ذكره البيهقى . والمعنى : أى فإن آمنوا بنبيّكم و بعامة الأنبياء ولم يفرّقوا بينهم كما لم تُفرّقوا فقد ٱهتدوْا ، و إن أبَوْا إلا التفريق فهـم الناكبون عن الدين[4] إلى الشقاق « فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّهُ » . وحكى عن جماعة من أهل النظر قالوا : ويحتمل أن تكون الكاف فى قوله : « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ » زائدة . قال : والذى روى عن ٱبن عباس من نَهْيه عن القراءة العـامّة شىء ذهب إليه للمبـالغة فى نفى التشبيه عن الله عز وجل . وقال ٱبن عطية : هـذا من ٱبن عباس على جهة التفسير؛ أى هكذا فليتأوّل . وقد قيل : إن الباء بمعنى على، والمعنى : فإن آمنوا على مثل إيمانكم . وقيل : « مثل » على بابها أى بمثل المنزّل ، دليله قوله : « وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ ٱللّهُ مِنْ كِتَابٍ[5] » ، وقوله : « وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ[6] » .

---

(١) هذه الجملة من تمام القول الأوّل وليست قولا آخر كما يتبادر من السياق . (٢) راجع جـ ١٦ ص ٨

(٣) هو حميد الأرقط ؛ وصف قوما ٱستؤصلوا فشبههم بالعصف الذى أكل حبه . والعصف التبن . (عن شرح الشواهد) . (٤) فى جـ : « عن التبيين » . وفى ب ، ز : « عن التدين » .

(٥) راجع جـ ١٦ ص ١٣ (٦) راجع جـ ١٢ ص ٣٥١

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أى عن الإيمـان ﴿ فَإِنَّمَـا هُمْ فِي شِقَاقٍ ﴾ قال زيد بن أسلم: الشقاق المنـازعة . وقيـل : الشقاق المجـادلة والمخالفة والتّعادى . وأصـله من الشّق وهو الجانب؛ فكأن كل واحد من الفريقين فى شِقّ غير شِقّ صاحبه . قال الشاعر :

إلى كم تقتـل العلماء قسرا * وتفجـر بالشقاق و بالنفاق[(١)]

وقال آخر :

و إلّا فاعلموا أنّا وأنتم * بُغـاةٌ ما بقينا فى شِـقاقِ

وقيل : إن الشقاق مأخوذ من فِعل ما يَشُقّ و يصعُب ؛ فكأن كل واحد من الفريقين يحرِص على ما يشقّ على صاحبه .

قوله تعالى : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ﴾ أى فسيكفى اللهُ رسولَه عدوّه . فكان هذا وعدًا من الله تعالى لنبيّه عليه السلام أنه سيكفيه مَن عانده ومَن خالفه من المتولّين بمن يَهديه من المؤمنين، فأنجز له الوعد؛ وكان ذلك فى قتـل بنى قَيْنُقاع و بنى قُريظة و إجلاء بنى النَّضير . والكاف والهاء والميم فى موضع نصب مفعولان . ويجوز فى غير القرآن : فسيكفيك [إياهم](٢) . وهذا الحرف « فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ » هو الذى وقع عليه دمُ عثمان حين قُتل بإخبار النبىّ صلى الله عليه وسلم إيّاه بذلك . و﴿ السَّمِيعُ ﴾ لقول كل قائل ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بما يُنفذه فى عباده ويُجريه عليهم . وحكى أن أبا دُلَامة دخل على المنصور وعليه قَلَنْسُوة طويلة ، ودُرّاعة(٣) مكتوب بين كتفيها « فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » ، وسيف معلّق فى وسطه؛ وكان المنصور قد أمر الجند بهذا الزّى ، فقال له : كيف حالك يا أبا دُلَامة؟ قال : بشَرّ يا أمير المؤمنين! قال : وكيف ذاك؟ قال : ما ظنّك برجل وجهه فى وسطه، وسيفه فى آسته ، وقد نبذ كتاب الله وراء ظهره ! فضحك المنصور منه ، وأمر بتغيير ذلك الزىّ من وقته .

---

(١) فى أ : « ... يقتل ... و يفجر ... » باليا. .

(٢) زيادة من إعراب القرآن للنحاس .

(٣) الدُّرّاعة والمِدرع : جبة مشقوقة المقدم .

Marfat.com

قوله تعالى : صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾

فيه مسألتان :

الأولى ــ قوله تعالى: ﴿صِبغَةَ اللهِ﴾ قال الأخفش وغيره: دين الله؛ وهو بدل من «ملة». وقال الكسائى: وهى منصوبة على تقدير ٱتبعوا. أو على الإغراء أى ٱلزموا. ولو قُرِئت بالرفع لجاز؛ أى هى صبغة الله. وروى شَيبان عن قتادة قال: إن اليهود تصبغ أبناءهم يهودا، وإن النصارى تصبغ أبناءهم نصارى؛ وإن صبغة الله الإسلامُ. قال الزجاج: ويدلّك على هذا أن «صِبْغَةَ» بدل من «مِلّة». وقال مجاهد: أى فطرة الله التى فطر الناس عليها. قال أبو إسحاق الزجاج: وقول مجاهد هذا يرجع إلى الإسلام؛ لأن الفطرة ٱبتداء الخلق، وٱبتداء ما خُلقوا عليه الإسلام. وروى عن مجاهد والحسن وأبى العالية وقتادة: الصِّبغةُ الدِّين. وأصل ذلك أن النصارى كانوا يصبغون أولادهم فى الماء، وهو الذى يسمّونه المعموديّة، ويقولون: هذا تطهير لهم. وقال ٱبن عباس: هو أن النصارى كانوا إذا وُلد لهم ولد فأتى عليه سبعة أيام غمسوه فى ماء لهم يقال له ماء المعموديّة، فصبغوه بذلك ليطهّروه به مكان الختان؛ لأن الختان تطهير، فإذا فعلوا ذلك قالوا: الآن صار نصرانيًّا حقًّا؛ فردّ الله تعالى ذلك عليهم بأن قال: «صِبْغَةَ اللهِ» أى صبغة الله أحسن صِبغة وهى الإسلام؛ فسُمّىَ الدِّين صبغة ٱستعارة ومجازًا من حيث تظهر أعماله وسِمَته على المتديّن، كما يظهر أثر الصبغ فى الثوب. وقال بعض شعراء ملوك هَمْدان:

وكلُّ أُناسٍ لهم صِبْغَةٌ * وصبغةُ هَمْدان خير الصِّبَغْ
صَبَغنا على ذاك أبناءَنا * فأكرِمْ بِصبغتنا فى الصِّبَغْ

وقيل: إن الصّبغة الآغتسال لمن أراد الدخول فى الإسلام، بدلًا من معمودية النصارى؛ ذكره الماوردى.

قلت: وعلى هذا التأويل يكون غسل الكافر واجبًا تعبُّدًا، وهى المسألة:

Marfat.com

الثانيــة — لأن معنى « صبغةَ الله » غُسل الله ؛ أى ٱغتسلوا عنـد إسلامكم الغسل الذى أوجبه الله عليكم . و بهذا المعنى جاءت السُّنة الثابتة فى قيس بن عاصم وثُمَـامةبن أثَال حين أسلما . روى أبو حاتم البُسْتيّ فى صحيح مسـنده عن أبى هريرة رضى الله عنه : أن ثُمَـامة الحنفى[1] أُسِر فمرّ به النبيّ صلى الله عليه وسلم يومًا فأسلم؛ فبعث به إلى حائط[2] أبى طَلْحة فأمره أن يغتسل فٱغتسل وصلّى ركعتين؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "حَسُنَ إسلامُ صاحبكم". وخرّج أيضا عن قيس بن عاصم أنه أسلم ، فأمره النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يغتسل بمـاء وسِدْر . ذكره النسائى وصحّحه أبو محمد عبد الحق . وقيل : إن القُرْبة إلى الله تعالى يقال لها صِبْغة ؛ حكاه ٱبن فارس فى المُجْمَل . وقال الجوهرى : « صبغة الله » دينه . وقيل : إن الصّبغة الختان ، ٱختتن إبراهيم فجرت الصبغة على الختان لصبغهم الغلمان فى المـاء ؛ قاله الفرّاء . ﴿ وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾ ابتداء وخبر .

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ ﴾

قال الحسن : كانت المحاجة أن قالوا : نحن أوْلى بالله منكم ؛ لأنّا أبنـاء الله وأحباؤه . وقيـل : لتقدّم آبائنا وكتبنا ، ولأنا لم نعبـد الأوثان . فمعنى الآية : قل لهم يا محمد ، أى قل لهؤلاء اليهود والنصارى الذين زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه وٱدّعوا أنهم أوْلى بالله منكم لِقدم آبائهم وكتبهم : « أتحاجُّوننا » أى أتجاذبوننا الحجة على دعواكم والربُّ واحد ، وكلٌّ مجازى بعمـله ؛ فأى تأثير لِقدم الدّين . ومعنى « فى الله » أى فى دينه والقُرْب منه والحظوة له[3] . وقراءة الجماعة : « أتحاجُّوننا » . وجاز ٱجتماع حرفين مثلين من جنس واحد متحركين ؛ لأن الثانى كالمنفصل . وقرأ ٱبن مُحَيْصِن «أتحاجُّونَا» بالإدغام لٱجتماع المثلين . قال النحاس : وهذا

---

(١) ثمـامة الحنفى هو ثمامة بن أثال المتقدّم .　(٢) الحائط : البستان من النخل إذا كان عليه جدار .

(٣) كذا فى الأصول ، ولعل صوابه : « والحظوة عنده » .

جائز إلا أنه مخالف للسواد . ويجوز « أتحاجُّونِ » بحذف النون الثانية ، كما قرأ نافع « فَبِمَ تُبَشِّرُونِ »(١) .

قوله تعالى : ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴾ أى مخلصون العبادة ، وفيه معنى التوبيخ ؛ أى ولم تُخلصوا أنتم فكيف تدّعون ما نحن أَوْلى به منكم ! . والإخلاص حقيقته تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " إن الله تعالى يقول أنا خير شريك فمن أشرك معى شريكًا فهو لشريكى يأيها الناس أخلصوا أعمالكم لله تعالى فإن الله تعالى لا يقبل إلا ما خلص له ولا تقولوا هذا لله وللرَّحِم فإنها للرَّحِم وليس لله منها شىء ولا تقولوا هذا لله ولوجوهكم فإنها لوجوهكم وليس لله تعالى منها شىء" . رواه الضحاك بن قيس الفِهْرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ... فذكره ؛ خرّجه الدَّارَقُطْنِىّ . وقال رُوَيْم : الإخلاص من العمل هو ألا يريد صاحبه عليه عِوَضًا فى الدارين ولا حظًّا من المَلَكين . وقال الجُنَيْد : الإخلاص سِرٌّ بين العبد وبين الله، لا يعلمه مَلَك فيكتبه ، ولا شيطان فيفسده ، ولا هوًى فيميله . وذكر أبو القاسم القشيرى وغيره عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " سألت جبريل عن الإخلاص ما هو فقال سألت رَبّ العِزّة عن الإخلاص ما هو قال سِرٌّ من سِرِّى أستودعته قلب من أحببته من عبادى " .

قوله تعالى : أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠)

قوله تعالى: ﴿ أَمْ تَقُولُونَ ﴾ بمعنى قالوا(٢) . وقرأ حمزة والكسائى وعاصم فى رواية حفص «تقولون» بالتاء وهى قراءة حسنة ؛ لأن الكلام متّسق ، كأن المعنى : أتحاجوننا فى الله أم تقولون إن الأنبياء كانوا على دينكم ؛ فهى أم المتصلة ، وهى على قراءة من قرأ بالياء منقطعة ؛ فيكون

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٥ (٢) هذا القول بأن « أم » منقطعة .

كلامين وتكون « أمْ » بمعنى بل . ﴿ هُودًا ﴾ خبر كان ، وخبر « إنّ » فى الجملة . ويجوز فى غير القرآن رفع « هودا » على خبر « إنّ » ، وتكون كان ملغاة ؛ ذكره النحاس .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ ﴾ تقرير وتوبيخ فى آدعائهم بأنهم كانوا هودا أو نصارى . فردّ الله عليهم بأنه أعلم بهم منكم ؛ أى لم يكونوا هودًا ولا نصارى .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ لفظه الآستفهام ، والمعنى : لا أحد أظلم . ﴿ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً ﴾ يريد علمهم بأن الأنبياء كانوا على الإسلام . وقيل : ما كتموه من صفة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ قاله قتادة ، والأوّل أشبه بسياق الآية . ﴿ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ وعيد وإعلام بأنه لم يترك أمرهم سُدًى وأنه يجازيهم على أعمالهم . والغافل : الذى لا يَفْطَن للأمور إهمالًا منه ؛ مأخوذ من الأرض الغُفْل وهى التى لا عَلَم بها ولا أثر عمارة . وناقة غُفْل : لاسِمَة بها . ورَجل غُفْل : لم يجرّب الأمور . وقال الكسائى : أرض غُفْل لم تُمطر . غَفَلت عن الشيء غَفْلة وغُفولا ، وأغفلت الشيء : تركته على ذُكر منك .

قوله تعالى : تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

كرّرها لأنها تضمّنت معنى التهديد والتخويف ؛ أى إذا كان أولئك الأنبياء على إمامتهم وفضلهم يجازون بكسبهم فأنتم أحْرَى ؛ فوجب التأكيد ، فلذلك كرّرها .

قوله تعالى : سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ ﴾ أعلم الله تعالى أنهم سيقولون فى تحويل المؤمنين من الشام إلى الكعبة : ما وَلّاهم . و«سيقول» بمعنى قال؛ جعل المستقبل

Marfat.com

موضع الماضى، دلالة على آستدامة ذلك وأنهم يستمرون على ذلك القول . وخصّ بقوله : « مِنَ النَّاسِ » لأن السَّفَه يكون فى جمادات وحيوانات . والمراد من « السُّفهاء » جميع من قال « ما ولَّاهم » . والسُّفهاء جمع ، واحده سفيه، وهو الخفيف العقل؛ من قولهم : ثوبٌ سَفيه إذا كان خفيف النَّسْج، وقد تقدّم[1] . والنساء سفائه . وقال المؤرِّج : السَّفيه البهّات الكذاب المتعمِّد خلاف ما يعلم . قُطْرُب : الظلوم الجهول . والمراد بالسفهاء هنا اليهود الذين بالمدينة؛ قاله مجاهد . السُّدِّى : المنافقون . الزّجاج : كفار قريش لمّا أنكروا تحويل القِبْلة قالوا : قد آشتاق محمد إلى مولده وعن قريب يرجع إلى دينكم . وقالت اليهود : قد التبس عليه أمره وتحيّر . وقال المنافقون : ما ولّاهم عن قبلتهم ! وآستهزءوا بالمسلمين . « ما ولّاهم » يعنى عدلهم وصرفهم .

الثانيــــة — روى الأئمة واللفظ لمالك عن آبن عمر قال : بينما الناس بقُباء[2] فى صلاة الصبح إذ جاءهم آتٍ فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أُنزل عليه الليلة قرآن، وقد أُمر أن يستقبل الكعبة فآستقبلوها ؛ وكانت وجوههم إلى الشام فآستداروا إلى الكعبة . وخرّج البُخارىّ عن البَرَاء أنّ النبىّ صلى الله عليه وسلم صلّى إلى بيت المَقْدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا ، وكان يعجبه أن تكون قِبْلته قِبَل البيت ، وإنه صلّى أوّل صلاة صلّاها[3] العصر وصلّى معه قوم ؛ فخرج رجل ممن كان صلّى مع النبىّ صلى الله عليه وسلم فمرّ على أهل المسجد وهم راكعون فقال : أشهد بالله، لقد صلّيت مع النبىّ صلى الله عليه وسلم قِبَل مكة؛ فداروا كما هم قِبَل البيت . وكان الذى مات على القِبْلة قبل أن تُحوّل قِبَل البيت رجال قُتلوا لم ندر ما نقول فيهم ؛ فأنزل الله عز وجل : « وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ » ؛ ففى هذه الرواية صلاة العصر، وفى رواية مالك صلاة الصبح . وقيل : نزل ذلك على النبىّ صلى الله عليه وسلم فى مسجد بنى سَلِمَة وهو فى صلاة الظهر بعد ركعتين منها فتحوّل فى الصلاة؛ فسُمّى ذلك

(١) يراجع جـ ١ ص ٢٠٥ طبعة ثانية . (٢) قباء (بالضم) : قرية على ميلين من المدينة على يسار القاصد إلى مكة بها أثر بنيان كثير ، وهناك مسجد التقوى . (عن معجم ياقوت) .

(٣) رواية البخارى كما فى صحيحه : « وإنه صلى — أو صلاها — صلاة العصر... » .

Marfat.com

المسجد مسجد القِبلتَين . وذكر أبو الفرج أنّ عَبّاد بن نَهِيك كان مع النبيّ صلى الله عليه وسلم فى هذه الصلاة . وذكر أبو عمر فى التمهيد عن نُوَيْلة (١) بنت أسلم وكانت من المُبَايِعات ، قالت : كنا فى صلاة الظهر فأقبل عَبّاد بن بِشر بن قَيْظِيّ فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد آستقبل القِبلة ــ أو قال : البيت الحرام ــ فتحوّل الرجال مكان النساء ، وتحوّل النساء مكان الرجال . وقيل : إنّ الآية نزلت فى غير صلاة ؛ وهو الأكثر . وكان أوّل صلاة إلى الكعبة العصر ؛ والله أعلم . وروى أنّ أوّل مَن صلّى إلى الكعبة حين صُرفت القِبلة عن بيت المقدس أبو سعيد بن المُعَلَّى ؛ وذلك أنه كان مجتازًا على المسجد فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب الناس بتحويل القبلة على المنبر وهو يقرأ هذه الآية : « قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى السَّمَاءِ » حتى فرغ من الآية ؛ فقلت لصاحبى : تعال نركع ركعتين قبل أن ينزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فنكون أوّلَ مَن صلّى فتوارَيْنا نَعَمًا (٢) فصلّيناهما ؛ ثم نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلّى بالناس الظهر يومئذ . قال أبو عمر : ليس لأبى سعيد بن المُعَلَّى غير هذا الحديث ، وحديث : « كنت أصلّى » فى فضل الفاتحة ، خرّجه البخارى ، وقد تقدّم (٣) .

الثالثــة ــ وآختلف فى وقت تحويل القبلة بعد قدومه المدينة ؛ فقيل : حُوّلت بعد ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا ؛ كما فى البخارى . وخرّجه الدّارَقُطْنِيّ عن البَرَاء أيضا ، قال : صلّينا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد قدومه المدينة ستة عشر شهرا نحو بيت المَقْدِس ، ثم علم الله هوَى نبيّه فنزلت : « قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى السَّمَاءِ » الآية . ففى هذه الرواية ستة عشر شهرا من غير شك . وروى مالك عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيّب أن تحويلها كان قبل غَزْوة بَدْرٍ بشهرين . قال إبراهيم بن إسحاق : وذلك فى رجب من سنة

(١) فى كتاب الاستيعاب والقاموس : « نولة » بالنون ، وقال صاحب القاموس : « أو هى بجهينة » . وقد ذكرت فى كتاب الإصابة مصغرة فى حرف التاء والنون ، وهى بالنون رواية إسحاق بن إدريس عن جعفر بن محمود ، وبالتاء رواية إبراهيم بن حمزة ؛ قال صاحب الإصابة : « وهى أوثق » .

(٢) هذه الكلمة ساقطة من أ ــ والنعم ــ بفتحتين ــ : واحد الأنعام ، الإبل والشاء أو الإبل خاصة ؛ يذكر ويؤنث .

(٣) يراجع جـ ١ ص ١٠٨ طبعة ثانية .

Marfat.com

آثنتين . وقال أبو حاتم البُسْتِيّ : صلّى المسلمون إلى بيت المَقْدس سبعة عشر شهرا وثلاثة أيام سواء، وذلك أن قدومه المدينة كان يوم الإثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأوّل، وأمره الله عز وجل بآستقبال الكعبة يوم الثلاثاء للنصف من شعبان .

الرابعـــة — وآختلف العلماء أيضا فى كيفية آستقباله بيت المقدس على ثلاثة أقوال ؛ فقال الحسن : كان ذلك منـه عن رأى وآجتهاد، وقاله[1] عِكرِمة وأبو العاليَة . الثانى — أنه كان مخيَّرا بينه وبين الكعبة ، فآختار القُـدْس طمعًا فى إيمـان اليهود وآستمالتهم؛ قاله الطبرى . وقال الزجاج : آمتحانًا للشركين لأنهم أَلِفُوا الكعبة . الثالث — وهو الذى عليـه الجمهور : آبن عباس وغيره، وجب عليه آستقباله بأمر الله تعالى ووَحْيِه لا محالة، ثم نسخ الله ذلك وأمره الله أن يستقبل بصلاته الكعبة ، وآستدلّوا بقوله تعـالى : « وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ » الآية .

الخامســـة — وآختلفوا أيضا حين فرضت عليه الصلاة أوّلا بمكة، هل كانت إلى بيت المقدس أو إلى مكة ، على قولين؛ فقالت طائفة : إلى بيت المقدس وبالمدينة سـبعة عشر شهرا ، ثم صرفه الله تعـالى إلى الكعبة؛ قاله آبن عباس . وقال آخرون : أوّل ما آفتُرِضت الصلاة عليه إلى الكعبة، ولم يزل يصلى إليها طولَ مقامه بمكة على ما كانت عليه صلاة إبراهيم وإسماعيل ؛ فلما قدم المدينة صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا، على الخلاف، ثم صرفه الله إلى الكعبة . قال أبو عمر : وهـذا أصح القولين عندى . قال غيره : وذلك أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لمـا قدم المدينـة أراد أن يستألف اليهود فتوجه [إلى] قبلتهم ليكون ذلك أدعى لهم؛ فلما تبيّن عنادهم وأيِس منهم أحبّ أن يحوّل إلى الكعبة فكان ينظر إلى السماء، وكانت محبته إلى الكعبة لأنها قِبلة إبراهيم؛ عن آبن عباس . وقيل : لأنها كانت أدعى للعرب إلى الإسلام، وقيل : مخالفة لليهود؛ عن مجاهد . وروى عن أبى العالية

(١) فى الأصول : « وقال » .

الرياحى أنه قال : كانت[1] مسجد صالح عليـه السلام وقِبْلتـه إلى الكعبة ؛ قال : وكان موسى عليه السلام يصـلّى إلى الصخرة نحو الكعبة ، وهى قِبْلة الأنبيـاء كلّهم ؛ صلوات الله عليهم أجمعين .

السادســـة — فى هـذه الآية دليل واضح على أن فى أحكام الله تعالى وكتابه ناسخًا ومنسوخًا ، وأجمعت عليـه الأمة إلّا من شذّ ، كما تقدّم[2] . وأجمع العلماء على أن القبلة أول ما نُسخ من القرآن ، وأنها نُسخت مرتين ، على أحد القولين المذكورين فى المسألة قبلُ .

السابعـــة — ودلّت أيضا على جواز نسـخ السُّنة بالقرآن ؛ وذلك أن النبيّ صـلى الله عليه وسلم صلّى نحو بيت المقدس ؛ وليس فى ذلك قرآن ، فلم يكن الحُكم إلا من جهة السُّنة ثم نسخ ذلك بالقرآن ؛ وعلى هذا يكون : « كُنْتَ عَلَيْهَا » بمعنى أنت عليها .

الثامنـــة — وفيها دليـل على جواز القطع بخبر الواحد ؛ وذلك أن ٱستقبال بيت المقدس كان مقطوعًا به من الشريعـة عندهم ، ثم أن أهل قُبَاء لما أتاهم الآتى وأخبرهم أن القبلة قـد حُوّلت إلى المسجد الحرام قَبِلوا قوله وٱستداروا نحو الكعبة ؛ فتركوا المتواتر بخبر الواحد وهو مظنون .

وقـد ٱختلفت العلماء فى جوازه عقلًا ووقوعه ؛ فقال أبو حاتم : والمختار جـواز ذلك عقلًا لو تعبّد الشرع به ، ووقوعًا فى زمن رسـول الله صلى الله عليه وسلم بدليل قصّة قُبَـاء ، وبدليل أنه كان عليه السـلام يُنفذ آحاد الوُلاة إلى الأطراف وكانوا يبلّغون الناسخ والمنسوخ جميعا . ولكن ذلك ممنوع بعـد وفاته صلى الله عليه وسـلم ، بدليل الإجماع من الصحابة على أن القرآن والمتواتر المعلوم لا يُرفع بخبر الواحد ، فلا ذاهب إلى تجويزه من السَّلف والخَلَف . ٱحتج من منع ذلك بأنه يُفضى إلى المحال وهو رفع المقطوع بالمظنون . وأما قصّة أهل قباء

(١) العبارة هنا غير واضحة . والذى فى تفسير الطبرى (ج ٢ ص ٢١ طبع بولاق) : « ... قال الربيع : إن يهوديا خاصم أبا العالية فقال : إن موسى عليه السلام كان يصلى إلى صخرة بيت المقدس ؛ فقال أبو العالية : كان يصلى عند الصخرة إلى البيت الحرام . قال قال : فبينى و بينك مسجد صالح فإنه نحته من الجبل ؛ قال أبو العالية : قد صليت فيه وقبلته إلى البيت الحرام ؛ قال الربيع : وأخبرنى أبو العالية أنه مر على مسجد ذى القرنين وقبلته إلى الكعبة » .

(٢) عند قوله تعالى : « ما ننسخ من آية أو ننسها » ص ٦١ من هذا الجزء .

Marfat.com

وولاة النبيّ صلى الله عليه وسلم فمحمول على قرائن إفادة العلم إمّا نقلًا وتحقيقًا، و إمّا آحتمالا وتقديرًا . وتتميم هذا سؤالا وجوابًا فى أصول الفقه .

التاســعة — وفيها دليل على أنّ من لم يبلغه الناسخ إنه متعبّد بالحكم الأوّل؛ خلافًا لمن قال : إن الحكم الأوّل يرتفع بوجود الناسخ لا بالعلم به، والأوّل أصح؛ لأن أهل قُباء لم يزالوا يصلّون إلى بيت المقدس إلى أن أتاهم الآتى فأخبرهم بالناسخ فمالوا نحو الكعبة . فالناسخ إذًا حصل فى الوجود فهو رافع لا محالة لكن بشرط العلم به ؛ لأن الناسخ خطاب ، ولا يكون خطابًا فى حق من لم يبلغه . وفائدة هذا الخلاف فى عبادات فُعلت بعد النسخ وقبل البلاغ هل تعاد أم لا ؛ وعليه تنبنى مسألة الوكيل فى تصرّفه بعد عَزْل مُوَكِّله أو موته وقبل علمه بذلك على قولين . وكذلك المُقارِض (١) ، والحاكم إذا مات من وَلّاه أو عُزل . والصحيح أن ما فعله كل واحد من هؤلاء يَنفذ فعله ولا يردّ حكمه . قال القاضى عِياض : ولم يختلف المذهب فى أحكام من أعتق ولم يعلم بعتقه أنها أحكام حُرّة فيما بينه وبين الناس، وأمّا بينه وبين الله تعالى فجائزة . ولم يختلفوا فى المُعْتَقة أنها لا تعيد ما صلّت بعد عتقها وقبل علمها بغير ستر، و إنما آختلفوا فيمن يطرأ عليه مُوجِب يغيّر حكم عبادته وهو فيها، قياسًا على مسألة قباء؛ فمن صلّى على حال ثم تغيّرت به حاله تلك قبل أن يتمّ صلاته إنه يُتمّها ولا يقطعها ويُجزيه ما مضى . وكذلك كمن صلّى عُريانًا ثم وجد ثوبا فى الصلاة، أو آبتدأ صلاته صحيحا فمرض ، أو مريضًا فصحّ ، أو قاعدًا ثم قدر على القيام، أو أَمَة عتقت وهى فى الصلاة إنها تأخذ قناعها وتَبْنى .

قلت : وكمن دخل فى الصلاة بالتيمّم فطرأ عليه الماء، إنه لا يقطع، كما يقوله مالك والشافعى — رحمهما الله — وغيرهما . وقيل : يقطع، وهو قول أبى حنيفة رحمه الله تعالى، وسيأتى .

العاشرة — وفيها دليل على قبول خبر الواحد، وهو مُجْمَع عليه من السّلف معلوم بالتواتر من عادة النبيّ صلى الله عليه وسلم فى توجيهه وُلَاته ورسله آحادًا للآفاق؛ ليعلّموا الناس دينهم فيبلّغوهم سُنّة رسولهم صلى الله عليه وسلم من الأوامر والنواهى .

(١) القراض (بكسر القاف) عند المالكية هو ما يسمى بالمضاربة عند الحنفية ؛ وهو إعطاء المقارض (بكسر الراء وهو رب المال) المقارَض (بفتح الراء وهو العامل) مالًا ليتّجر به على أن يكون له جزء معلوم من الربح .

Marfat.com

الحادية عشرة — وفيها دليل على أن القرآن كان ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئًا بعد شيء وفى حال بعد حال ، على حسب الحاجة إليه ، حتى أكمل الله دينه ؛ كما قال : «ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ»(1) .

قوله تعالى : ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ أقامه حجة ؛ أى له ملك المشارق والمغارب وما بينهما ؛ فله أن يأمر بالتوجه إلى أى جهة شاء ، وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ إشارة إلى هداية الله تعالى هذه الأمة إلى قِبْلة إبراهيم ، والله تعالى أعلم . والصراط : الطريق . والمستقيم : الذى لا اعوجاج فيه ؛ وقد تقدّم(2) .

قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٤٣)

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ المعنى : وكما أن الكعبة وسط الأرض كذلك جعلناكم أمةً وسطًا ؛ أى جعلناكم دون الأنبياء وفوق الأمم . والوسط : العَدْل ؛ وأصل هذا أنّ أحمد الأشياء أوسطها . وروى الترمذى عن أبى سعيد الخُدْرِىّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : «وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا» قال : "عَدْلًا" . قال : هذا حديث حسن صحيح . وفى التنزيل : «قَالَ أَوْسَطُهُمْ»(3) أى أعدلهم وخيرهم . وقال زهير :

هُمُ وَسَطٌ يَرْضَى الأنامُ بحكمهم * إذا نزلتْ إحدى الليالى بمُعْظَمِ

(1) راجع جـ ٦ ص ٦١   (2) جـ ١ ص ١٤٧   (3) جـ ١٨ ص ٢٤٤

Marfat.com

آخـر :

أنتمُ أوسـطُ حىّ علمـوا * بصغير الأمر أو إحدى الكُبَر

وقال آخر :

لا تـذهَبَنّ فى الأمـور فَرَطـا * لا تسألَن إن سألتَ شَطَطا

* وكُنْ من النـاس جميعًا وَسَطا *

ووسط الوادى : خير موضع فيه وأكثره كَلَأً وماء . ولما كان الوسط مجانبًا للغلو والتقصير كان محمودا ؛ أى هـذه الأمة لم تَغْل غُلوّ النصارى فى أنبيائهـم ، ولا قصّروا تقصـير اليهود فى أنبيائهـم . وفى الحديث : " خير الأمور أوسطها " . وفيـه عن علىّ رضى الله عنـه : « عليكم بالنَّمَط الأوسط[1] ، فإليه ينزل العالى ، وإليه يرتفع النازل » . وفلان من أوسط قومه ، وإنه لواسطة قومه ، ووسط قومه ؛ أى من خيارهم وأهل الحسب منهم . وقد وَسَط وساطة وسِطَة ؛ وليس من الوسَـط الذى بين شيئين فى شىء . والوَسْط (بسكون السين) الظَّرف ؛ تقول : صلّيت وَسْط القوم . وجلست وَسَط الدار (بالتحريك) لأنه آسم . قال الجوهرى : وكل موضع صلَح فيه « بَيْن » فهو وَسْط ، وإن لم يصلح فيه « بين » فهو وَسَط بالتحريك ، وربمـا يسكَّن وليس بالوجه .

الثانيـة - قوله تعالى : ﴿ لِتَكُونُوا ﴾ نصب بلام كى ؛ أى لأن تكونوا . ﴿ شُهَدَاءَ ﴾ خبر كان . ﴿ عَلَى النَّاسِ ﴾ أى فى المحشر للأنبيـاء على أممهم ؛ كما ثبت فى صحيح البخارى عن أبى سعيد الخُـدْرىّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يُدْعَى نوح عليه السلام يوم القيامة فيقول لَبَّيْك وسَـعْدَيْك يارَبّ فيقول هـل بلّغت فيقول نعم فيقال لأمّتـه هل بلّغكم فيقولون ما أتانا من نذير فيقول مَن يشهد لك فيقول محمد وأمّته فيشهدون أنه قد بلّغ ويكون الرسـول عليكم شهيدًا فذلك قوله عز وجل وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّـةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّـاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ... " . وذكر هذا الحديث مطوّلا آبن المبارك بمعناه ،

(١) فى اللسان والنهاية : « ... خير هذه الأمة النمط الأوسط ، يلحق بهم التالى ، ويرجع إليهم الغالى » والنمط : جماعة من الناس أمرهم واحد . وقيل : هو الطريقة .

Marfat.com

وفيه : "فتقــول تلك الأمم كيف يَشهد علينا مَن لم يُدركنا فيقــول لهم الربّ ســبحانه كيف تشهدون على مَن لم تُدركوا فيقــولون ربّنا بعثت إلينا رســولاً وأنزلت إلينا عهــدك وكتابك وقصصتَ علينا أنهم قــد بلّغوا فشَهدنا بمــا عَهِدتَ إلينا فيقول الربّ صــدقوا فذلك قــوله عزّ وجلّ وكذلك جعلناكم أمــةً وسطًا — والوَسَط العَــدْل — لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّــاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا". قال ٱبن أَنْعُم : فبلغني أنه يشهد يومئذ أمّة محمد عليه السلام، إلّا مَن كان فى قلبه حِنّة (١) على أخيه . وقالت طائفة : معنى الآية يَشهد بعضكم على بعض بعد الموت ، كما ثبت فى صحيح مسلم عن أنس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال حين مرّت به جنازة فأُثْنِيَ عليها خيرٌ فقال : "وَجَبَتْ وَجبتْ وَجبتْ" . ثم مُرّ عليــه بأخرى فأُثْنِيَ عليها شرٌّ فقال : "وَجَبَتْ وَجبت وَجبتْ" . فقال عمر : فِدًى لك أبي وأُمّي ! مُرّ بجنازة فأُثْنِيَ عليها خير فقلت : "وجبتْ وَجبتْ وَجبتْ" ومُرّ بجنازة فأُثْنِيَ عليهــا شَرّ فقلت : "وَجبتْ وَجبتْ وَجبتُ" ؟ فقال رســول الله صلى الله عليه وسلم : "من أثنيتم عليه خيرًا وَجبتْ له الجنة ومن أثنيتم عليه شرًّا وجبت له النار أنتم شُهداء الله فى الأرض أنتم شُهداء الله فى الأرض أنتم شهداء الله فى الأرض" . أخرجه البخارى بمعناه . وفى بعض طُرُقه فى غير الصحيحين وتلا : « لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّــاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا » . وروَى أَبَان ولَيْث عن شَهر بن حَوْشَب عن عُبَادة بن الصّامت قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "أُعْطِيَتْ أُمّتِي ثلاثًا لم تُعْط إلّا الأنبياء كان الله إذا بَعث نبيًّــا قال له ٱدعُنِي أستجب لك وقال لهذه الأمة ٱدْعُونِي أستجب لكم وكان الله إذا بعث النبيّ قال له ما جعل عليك فى الدِّين من حَرَج وقال لهذه الأمة وما جعل عليكم فى الدِّين من حَرَج وكان الله إذا بَعث النبيّ جعله شهيدا على قومه وجعل هــذه الأمة شُهداء على الناس" . خرّجه الترمذى الحكيم أبو عبد الله فى « نوادر الأصول » .

الثالثــة — قال علماؤنا : أنبأنا رَبّنا تبارك وتعالى فى كتابه بما أنعم علينا من تفضيله لنا بٱسم العدالة وتَوْلِيَة خطير الشهادة على جميع خلقه ، فجعلنا أوّلا مكانًا وإن كنا آخرًا زمانًا ، كما قال

(١) الحنة (بكسر الحاء) : العداوة ؛ وهى لغة قليلة فى الإحنة .

Marfat.com

عليه السلام : "نحن الآخرون الأولون". وهذا دليل على أنه لا يشهد إلا العدول، ولا ينفذ قول الغير على الغير إلا أن يكون عَدْلًا . وسيأتى بيان العدالة وحكمها فى آخر السورة[1] إن شاء الله تعالى .

صحة الإجماع

الرابعــة – وفيه دليل على صحة الإجماع ووجوب الحُكم به؛ لأنهم إذا كانوا عدولا شهدوا على الناس . فكلُّ عصرٍ شهيدٌ على مَن بعده؛ فقولُ الصحابة حُجَّةٌ وشاهدٌ على التابعين، وقولُ التابعين على مَن بعدَهم . وإذ جُعلت الأمة شهداء فقد وَجبَ قبول قولهم . ولا معنى لقول من قال : أريد به جميع الأمة ؛ لأنه حينئذ لا يثبت مجمع عليه إلى قيام الساعة . وبيان هذا فى كتب أصول الفقه .

قوله تعالى : ﴿ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ قيل : معناه بأعمالكم يوم القيامة . وقيل : «عليكم» بمعنى لكم؛ أى يشهد لكم بالإيمان . وقيل : أى يشهد عليكم بالتبليغ لكم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَا ﴾ قيل: المراد بالقِبْلة هنا القِبلةُ الأولى؛ لقوله «كنت عليها» . وقيل : الثانيــة ؛ فتكون الكاف زائدة ، أى أنت الآن عليها ، كما تقدم ، وكما قال : « كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ[2] » أى أنتم ، فى قول بعضهم ، وسيأتى .

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ ﴾ قال علىّ بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه : معنى « لنعلم » لنرى . والعرب تضع العلم مكان الرؤية ، والرؤية مكان العلم؛ كقوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ[3] » بمعنى ألم تعلم . وقيل : المعنى إلّا لتعلموا أننا نعلم؛ فإن المنافقين كانوا فى شك من علم الله تعالى بالأشياء قبل كَونها . وقيل : المعنى لنمـيِّز أهل اليقين من أهل الشك؛ حكاه ٱبن فُورَك، وذكره الطبرى عن ٱبن عباس . وقيل : المعنى إلا ليعلم النبىّ وأتباعه ، وأخبر تعالى بذلك عن نفسه ، كما يقال : فعـل الأمير كذا ، وإنما فعله أتباعه؛ ذكره المَهْدَوىّ وهو جيد . وقيل : معناه ليعلم محمد ؛ فأضاف علمه إلى نفسه تعالى تخصيصًا وتفضيلًا ، كما كَنَّى عن نفسه سبحانه فى قوله : "يا ٱبن آدم مَرِضتُ فلم تَعُدْنِى"[4]

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٨٣ (٢) راجع جـ ٤ ص ١٧٠ (٣) راجع جـ ٢٠ ص ٤٤

(٤) أضاف المرض إليه سبحانه وتعالى والمراد العبد تشريفا للعبد وتقريبا له . وفى الحديث : "قال يا رب وكيف أعودك وأنت رب العالمين قال أما علمت أن عبدى فلانا مرض فلم تعده أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده ..." . راجع صحيح مسلم « فضل عيادة المريض » .

Marfat.com

الحديث . والأوّل أظهر، وأن معناه علم المعاينة الذى يوجب الجزاء، وهو سبحانه عالم الغيب والشهادة ، عَلِم ما يكون قبل أن يكون ، تختلف الأحوال على المعلومات وعلمه لا يختلف بل يتعلّق بالكل تعلّقًا واحدًا . وهكذا كل ما ورد فى الكتاب من هذا المعنى من قوله تعالى : « وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ »(١) ، « وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ ٱلْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَٱلصَّابِرِينَ »(٢) وما أشبه . والآية جواب لقريش فى قولهم : « مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا » وكانت قريش تألف الكعبة ، فأراد الله عزّ وجل أن يمتحنهم بغير ما ألفوه ليظهر من يتبع الرسولَ ممن لا يتبعه . وقرأ الزهرى « إلا لِيُعلم » فـ « مَن » فى موضع رفع على هذه القراءة ؛ لأنها آسم ما لم يُسَمّ فاعله . وعلى قراءة الجماعة فى موضع نصب على المفعول . ﴿ يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ ﴾ يعنى فيما أمر به من آستقبال الكعبة . ﴿ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ ﴾ يعنى ممن يرتدّ عن دينه ؛ لأن القبلة لما حُوّلت آرتدّ من المسلمين قوم ونافق قوم ؛ ولهذا قال : « وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً » أى تحويلها ؛ قاله آبن عباس ومجاهد وقتادة . والتقدير فى العربية : وإن كانت التحويلة .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً ﴾ ذهب الفراء إلى أنّ « إنْ » واللام بمعنى ما وإلّا ؛ والبصريون يقولون : هى إنّ الثقيلة خُففت . وقال الأخفش : أى وإن كانت القِبْلة أو التحويلة أو التَّوْلية لكبيرة . ﴿ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ﴾ أى خلق الهُدى الذى هو الإيمان فى قلوبهم ؛ كما قال تعالى : « أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَانَ »(٣) .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ اتفق العلماء على أنها نزلت فيمن مات وهو يصلّى إلى بيت المَقْدس ؛ كما ثبت فى البخارى من حديث البَراء بن عازب ، على ما تقدّم(٤) . وخرّج الترمذى عن آبن عباس قال : لما وُجّه النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة قالوا : يا رسول الله ، كيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يُصلّون إلى بيت المقدس ؟ فأنزل الله تعالى : « وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ » الآية ، قال : هذا حديث حسن صحيح . فسمّى الصلاة إيمانًا لآشتمالها على نيّة وقول وعمل . وقال مالك : إنى لأذكر بهذه الآية قولَ المُرْجئة : إن الصلاة ليست من الإيمان . وقال محمد بن إسحاق : « وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ » أى

(١) راجع جـ ٤ ص ٢١٨ (٢) راجع جـ ١٦ ص ٢٥٣ (٣) راجع جـ ١٧ ص ٣٠٨
(٤) راجع ص ١٤٨ من هذا الجزء .

Marfat.com

بالتوجّه إلى القبلة وتصديقكم نبيكم؛ وعلى هذا معظم المسلمين والأصوليين . وروى ابن وهب وابن القاسم وابن عبد الحكم وأشهب عن مالك «وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ» قال : صلاتكم.

قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ الرأفة أشدّ من الرحمة . وقال أبو عمرو بن العلاء : الرأفة أكثر من الرحمة ؛ والمعنى متقارب . وقد أتينا على لغته وأشعاره ومعانيه في الكتاب « الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى » فلْيُنظر هناك. وقرأ الكوفيون وأبو عمرو « لَرَؤُف » على وزن فَعُل ؛ وهي لغة بني أسد؛ ومنه قول الوليد بن عُقبة :

وشَرُّ الطالبين فلا تكنه * يقاتل عمه الرَّؤُف الرحيم

وحكى الكسائي أن لغة بني أسد «لَرَأْف» ، على فَعْل . وقرأ أبو جعفر بن القعقاع «لَرُوف» مثقلا بغير همز ؛ وكذلك سَهّل كل همزة في كتاب الله تعالى ، ساكنةً كانت أو متحركة .

قوله تعالى : ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤)﴾

قال العلماء : هذه الآية مقدّمة في النزول على قوله تعالى : «سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ» . ومعنى « تَقَلُّبَ وَجْهِكَ» : تحوّل وجهك إلى السماء؛ قاله الطبري . الزّجاج : تقلّب عينيك في النظر إلى السماء؛ والمعنى متقارب . وخصّ السماء بالذّكر إذ هي مختصة بتعظيم ما أضيف إليها و يعود منها كالمطر والرحمة والوَحْي . ومعنى « تَرْضَاهَا » تحبّها . قال السُّدّي : كان إذا صلّى نحو بيت المقدس رفع رأسه إلى السماء ينظر ما يُؤمر به ، وكان يحبّ أن يصلّي إلى قبل الكعبة فأنزل الله تعالى : « قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَاءِ » . وروى أبو إسحاق عن البَرَاء قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلم صلّى نحو بيت المقدس ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر شهرًا ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبّ أن يُوَجَّه نحو الكعبة؛ فأنزل الله تعالى : « قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَاءِ » . وقد تقدم هذا المعنى والقول فيه، والحمد لله .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَوَلِّ ﴾ أمر ﴿ وَجْهَكَ شَطْرَ ﴾ أى ناحية ﴿ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ يعني الكعبة ، ولا خلاف في هذا . قيـل : حيال البيت كله ؛ عن ٱبن عباس . وقال ٱبن عمر : حيال المِيزاب من الكعبة؛ قاله ٱبن عطية . والمِيزاب : هو قِبلة المدينة وأهل الشام، وهناك قبلة أهل الأندلس .

قلت : قـد روى ٱبن جُريج عن عطاء عن ٱبن عباس رضى الله عنهما أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم قال : " البيتُ قِبْلَةٌ لأهل المسجد والمسجدُ قِبلةٌ لأهل الحَرَم والحَرَمُ قِبْلَةٌ لأهل الأرض في مشارقها ومغاربها من أمتي " .

الثانيــة — : قوله تعالى : ﴿ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ الشَّطْر له محامل : يكون الناحية والجهة ، كما في هذه الآية ، وهو ظرف مكان؛ كما تقول : تلقاءه وجهته . وٱنتصب الظرف لأنه فضلة بمنزلة المفعول [به][1] ، وأيضا فإن الفعـل واقع فيه . وقال داود بن أبي هنـد : إن في حرف ٱبن مسعود « فَوَلِّ وَجْهَك تِلقاءَ المسجدِ الحرام » . وقال الشاعر[2] :

أقــول لأُمّ زِنْبـاعٍ أقِيمى　＊　صُدورَ العِيسِ شَطْرَ بنى تَمِيمِ

وقال آخــــر :

وقد أظلَّكُمُ من شَطْرِ تَغرِكُمُ　＊　هَوْلٌ له ظُـلَمٌ يغشاكُمُ قطعا

وقال آخــر :

ألاَ مَنْ مُبلِـغٌ عمرًا رسولًا　＊　وما تُغنِي الرسالةُ شَطْرَ عمرو

وشَطْرُ الشيء : نِصفُه ؛ ومنه الحديث : " الطُّهورُ شَطْرُ الإيمان " . ويكون من الأضداد، يقال : شَطَر إلى كذا إذا أقبل نحوه ، وشَطَر عن كذا إذا أُبعد منه وأعرض عنـه . فأمّا الشاطر من الرجال فلأنه قـد أخذ في نحوٍ غير الٱستواء ، وهو الذى أعْيَا أهلَه خُبْثاً ؛ وقد شَطَر وشَطُر (بالضم) شَطارةً فيهما . وسئل بعضهم عن الشاطر ، فقال : هـو من أخذ في البعد عما نهى الله عنه .

(١) التكملة عن إعراب القرآن للنحاس .　(٢) هو أبو زنباع الجذامى ؛ (عن اللسان) .

Marfat.com

الثـالثـة ــ لا خلاف بين العلماء أنّ الكعبة قِبْلَةٌ فى كل أفق ، وأجمعوا على أن من شاهدها وعاينها فُرِض عليـه آستقبالها ، وأنه إن ترك آستقبالها وهـو معاينٌ لها وعالمٌ بجهتها فلا صـلاة له ، وعليه إعادة كلّ ما صلّى ؛ ذكره أبو عمر . وأجمعوا على أن كل من غاب عنها أن يستقبل ناحيتها وشطرها وتلقاءها ؛ فإن خَفيتْ عليه فعليه أن يستدلّ على ذلك بكل ما يمكنه من النجوم والرياح والجبال وغير ذلك مما يمكن أن يستدلّ به على ناحيتها . ومن جلس فى المسجد الحرام فليكن وجهـه إلى الكعبة و ينظر إليها إيمانًا وآحتسابًا ؛ فإنه يروَى أنّ النظر إلى الكعبة عبادة ؛ قاله عطاء ومجاهد .

الرابعـة ــ وآختلفـوا هل فَرْض الغائب آسـتقبال العين أو الجهة ؛ فمنهـم من قال بالأوّل . قال آبن العربى : وهو ضعيف ؛ لأنه تكليف لمـا لا يصلُ(١) إليه . ومنهم من قال بالجهة ؛ وهـو الصحيح لثلاثة أوجه : الأوّل ــ أنه الممكن الذى يرتبـط به التكليف . الثـانى ــ أنه المأمور به فى القرآن ؛ لقوله تعـالى : « فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ » يعنى من الأرض من شَرق أو غَرب « فَـوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَـطْرَهُ » . الثالث ــ أن العلماء آحتجّوا بالصفّ الطويل الذى يُعلم قطعًا أنه أضعاف عرض البيت .

الخامسـة ــ فى هذه الآية حجة واضحة لمـا ذهب إليه مالك ومن وافقه فى أن المصلِّى حكه أن ينظر أمامه لا إلى موضع سجوده . وقال الثورى وأبو حنيفة والشافعى والحسن بن حَىّ : يستحب أن يكون نظره إلى موضـع سجوده . وقال شريك القاضى : ينظر فى القيام إلى موضع السجود، وفى الركوع إلى موضع قدميه، وفى السجود إلى موضع أنفه، وفى القعود إلى حِجره . قال آبن العربى : إنما ينظر أمامه فإنه إن حَنَى رأسه ذهب بعض القيام المفترض عليـه فى الرأس وهو أشرف الأعضاء ، و إن أقام رأسـه وتكلف النظر ببصره إلى الأرض فتلك مشقّة عظيمة وحَرَج ، وما جعل علينا فى الدِّين من حَرَج ؛ أما إنّ ذلك أفضل لمن قدر عليـه .

(١) كذا فى كتاب الأحكام لابن العربى . وفى الأصول : « ما لا يوصل إليه » .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ﴾ يريد اليهود والنصارى ﴿لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ يعنى تحويل القِبلة من بيت المَقْدس . فإن قيل : كيف يعلمــون ذلك وليس من دينهم ولا فى كتابهم ؟ قيل عنه جوابان : أحدهما — أنهم لما علموا من كتابهم أن محمدا صلى الله عليه وسلم نبيّ علموا أنه لا يقول إلا الحقّ ولا يأمر إلا به . الثانى — أنهم علموا من دينهم جواز النسخ وإن جحده بعضهم ؛ فصاروا عالمين بجواز القبلة .

قوله تعالى : ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ تقـدّم معناه[1] . وقـرأ ٱبن عامر وحمزة والكسائى « تعملون » بالتاء على مخاطبة أهل الكتاب أو أمة محمد صلى الله عليه وسلم . وعلى الوجهين فهـو إعلام بأن الله تعالى لا يُهمل[2] أعمال العباد ولا يَغْفُل عنها ، وضمنه الوعيـد . وقرأ الباقون بالياء من تحت .

قوله تعالى : وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ لأنهم كفروا وقـد تبيّن لهم الحق ، وليس تنفعهم الآيات ؛ أى العـلامات . وجمع قِبْـلة فى التكسير : قِبَل . وفى التسليم : قِبِلاتٌ . ويجوز أن تبدل من الكسرة فتحة ، فتقول قِبَلات . ويجوز أن تحذف الكسرة وتسكن الباء فتقول قِبْلات . وأُجيبت «لئن» بجواب « لو » وهى ضدّها فى أنّ « لو » تَطلب فى جوابها المضيّ والوقوع ، و « لئن » تطلب الاستقبال ؛ فقال الفراء والأخفش : أجيبت بجواب « لو » لأن المعنى : ولو أتيت . وكذلك تُجاب « لو » بجواب « لئن » ، تقول : لو أحسنت أحسن إليك ؛ ومثله قوله تعالى : « وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا »[3] أى ولو أرسلنا ريحًا . وخالفهما سيبويه فقال : إن معـنى « لئن » مخالف

(١) راجع جـ ١ ص ٤٦٦ . (٢) فى ب : « بأن الله تعالى يعلم أعمال ... » .
(٣) راجع جـ ١٤ ص ٤٥ .

Marfat.com

لمعـنى « لو » فلا يدخل واحد منهما على الآخر؛ فالمعنى : ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية لا يتبعون قِبْلتك . قال سيبويه : ومعنى « وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا » ليظلّنّ .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ﴾ لفـظ خبر ويتضمّن الأمر؛ أى فلا تركن إلى شىء من ذلك . ثم أخبر تعالى أنّ اليهود ليست متّبعة قِبلة النصارى ولا النصارى متّبعة قِبلة اليهود ؛ عن السُّدّى وآبن زيد . فهذا إعلام بآختلافهم وتدابرهم وضـلالهم . وقال قوم : المعنى وما من آتبعك ممن أسلم منهم بمتّبع قِبلةَ مَن لم يُسلم ، ولا من لم يُسلم قِبلةَ مَن أسـلم . والأوّل أظهر ، والله تعالى أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ ٱلظَّالِمِينَ ﴾ الخطاب للنبىّ صلى الله عليه وسلم، والمراد أمّته ممن يجوز أن يتّبع هواه فيصير بآتباعه ظالمًا، وليس يجوز أن يفعل النبىّ صلى الله عليه وسلم ما يكون به ظالمًا ؛ فهو محمول على إرادة أمته لعصمة النبىّ صلى الله عليه وسـلم وقطعنا أنّ ذلك لا يكون منه ، وخُوطب النبىّ صـلى الله عليه وسـلم تعظيمًا للأمر ولأنه المنزل عليه . والأهـواء : جمع هوًى ، وقد تقـدّم (١) ؛ وكذا « مِنَ الْعِلْمِ » تقدّم أيضا (٢) ، فلا معنى للإعادة .

قوله تعـالى : ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ « الذين » فى موضع رفع بالأبتداء والخبر « يعرفونه » . ويصح أن يكون فى موضع خفض على الصفة لـ « لظالمين »، و « يَعْرِفُونَ » فى موضع الحال؛ أى يعرفون نبوّته وصدق رسالته؛ والضمير عائد على محمد صلى الله عليه وسلم؛ قاله مجاهد وقتادة وغيرهما . وقيل: « يعرفون » تحويل القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة أنه حق؛ قاله آبن عباس وآبن جريج والربيـع وقتادة أيضا .

(١) راجع ص ٩٤ من هذا الجزء . (٢) راجع ص ٩٥ من هذا الجزء .

Marfat.com

وخص الأبناء فى المعرفة بالذِّكر دون الأنفس وإن كانت ألصق لأن الإنسان يمرّ عليـه من زمنه بُرْهة لا يعرف فيها نفســه ، ولا يمرّ عليــه وقت لا يعرف فيه ٱبنه . ورُوِىَ أنّ عمـر قال لعبد الله بن سَلَام : أتعرف محمدا صلى الله عليه وسلم كما تعرف ٱبنك؟ فقال : نعم وأكثر، بعث الله أَمِينه فى سمائه إلى أَمِينه فى أرضه بنعته فعرفتُه ، وٱبنى لا أدرى ما كان من أُمّه .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ ﴾ يعنى محمدًا صلى الله عليه وسلم؛ قاله مجاهد وقتادة وخُصيف . وقيل : استقبال الكعبة ، على ما ذكرنا آنفا .

قوله تعـالى : ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ظاهر فى صحة الكفر عنادًا ؛ ومثله : « وَجَحَدُوا بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ »[(١)] وقوله : « فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ » .

قوله تعـالى : ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾ يعنى ٱستقبال الكعبة ، لا ما أخبرك به اليهـود من قِبلتهم . وروى عن علىّ رضى الله عنه أنه قرأ « الحقّ » منصوباً بـ«يعلمون» أى يعلمون الحق . ويصح نصبه على تقدير ٱلزم الحق . والرفعُ على الابتداء أو على إضمار مبتدأ، والتقدير هو الحق ، أو على إضمار فعل ، أى جاءك الحق . قال النحاس : فأمّا الذى فى « الأنبياء » « الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ »[(٢)] فلا نعلم أحدًا قرأه إلا منصوباً ؛ والفرق بينهما أن الذى فى سورة « البقرة » مبتدأ آية[(٣)]، والذى فى الأنبياء ليس كذلك .

قوله تعـالى : ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ أى من الشاكين . والخطاب للنبىّ صلى الله عليه وسلم والمراد أُمّته . يقال : ٱمْتَرَى فلان [فى] كذا إذا ٱعترضه اليقين مَرّةً والشكّ أخرى فدافع إحداهما بالأخرى ؛ ومنه المِراء لأنّ كل واحد منهما يشكّ فى قول صاحبه . والامتراء فى الشىء الشك فيه ، وكذا التمـارى . وأنشد الطبرىّ شاهدًا على أن الممترين الشاكون قول الأعشى :

تَـدُرّ على أَسْـؤُق المـمترِيـ ... ـن رَكْضًا إذا ما السَّرابُ ٱرْجَحَنّ

---

(١) راجع جـ ١٣ ص ١٦٣ (٢) راجع جـ ١١ ص ٢٨٠ (٣) فى ا : « به » .

Marfat.com

قال ٱبن عطيـة : ووَهِمَ فى هـذا ؛ لأن أبا عبيـدة وغيره قال : الممترون فى البيت هم الذين يَمْرُون الخيل بأرجلهم هَمْزًا لتجرِى كأنهم يحتلبون الجَرْىَ منها، وليس فى البيت معنى الشك كما قال الطبرى .

قلت : معنى الشك فيـه موجود ؛ لأنه يحتمل أن يختـبر الفرَس صاحبُه هـل هو على ما عهد منه من الجرى أمْ لَا؛ لئلا يكون أصابه شىء، أو يكون هذا عند أوّل شرائه فيُجريه ليعلم مقدار جَرْيه . قال الجوهرىّ : ومَرَيْتُ الفرس إذا ٱستخرجت ما عنـده من الجرى بسوط أو غيره . والاسم المِرْيَةُ (بالكسر) وقـد تضم . ومَرَيت الناقة مَرْيًا : إذا مسحت ضَرعها لتَدِرّ . وأَمْرَتْ هى إذا دَرّ لَبَنُها، والاسم المِرْيَةُ (بالكسر)، والضم غلط . والمِرْيَةُ: الشك ، وقد تضم ، وقرئ بهما .

قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسْتَبِقُوا ٱلْخَيْرَٰتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ١٤٨

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ ﴾ الوِجْهة وزنها فِعْلة من المواجهة . والوجهة والجهة والوجه بمعنًى واحد، والمراد القِبْلة؛ أى إنهم لا يتّبعون قِبلتك وأنت لا تتّبع قِبلتهم، ولكلٍّ وجهةٌ إمّا بحقّ وإمّا بهوًى .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ «هو» عائد على لفظ كلّ لا على معناه، لأنه لو كان على المعنى لقال : هم مُوَلُّوها وجوهَهم؛ فالهاء والألف مفعول أوّل والمفعول الثانى محذوف، أى هو موليها وجهه ونفسـه . والمعنى : ولكلّ صاحب مِلّةٍ قِبلةٌ ، صاحب القِبلة مُوَلِّيها وجهه، على لفظ كلّ؛ وهو قول الربيع وعطاء وٱبن عباس . وقال علىّ بن سليمان : «مُوَلِّيها» أى متولّيها . وقرأ ٱبن عباس وٱبن عامر « مُوَلَّاها » على ما لم يسمّ فاعله . والضمير على هذه القراءة لواحد؛ أى ولكل واحد من الناس قِبلة، الواحدُ مُوَلَّاها أى مصروف إليها؛ قاله الزجاج . ويحتمل أن يكون على قراءة الجماعة « هو » ضمير ٱسم الله عز وجل وإن لم يجر له ذكر، إذ

Marfat.com

معلوم أن الله عز وجل فاعل ذلك ، والمعنى : لكل صاحب ملة قبلة الله موليها إياه . وحكى الطبرى : أن قوما قرءوا « ولكلِّ وجهةٍ » بإضافة كل إلى وجهة . قال ٱبن عطية : وخطأها الطبرى ، وهى متجهة ؛ أى فاستبقوا الخيرات لكل وجهة ولاكموها ، ولا تعترضوا فيما أمركم بين هذه وهذه ؛ أى إنما عليكم الطاعة فى الجميع . وقدم قوله « ولكلٍّ وجهة » على الأمر فى قوله : « فَٱسْتَبِقُوا ٱلْخَيْرَاتِ » للاهتمام بالوجهة كما يقدم المفعول ؛ وذكر أبو عمرو الدانى هذه القراءة عن ٱبن عباس رضى الله عنهما . وسلمت الواو فى « وجهة » للفرق بين عِدَة وزِنَة ؛ لأن جهةً ظرف ، وتلك مصادر . وقال أبو على : ذهب قوم إلى أنه مصدر شذ عن القياس فسلم . وذهب قوم إلى أنه ٱسم وليس بمصدر . وقال غير أبى على : وإذا أردت المصدر قلت جهة ، وقد يقال الجهة فى الظرف .

الثالثـــة ــ قوله تعالى : ﴿ فَٱسْتَبِقُوا ٱلْخَيْرَاتِ ﴾ أى إلى الخيرات . فحذف الحرف ؛ أى بادروا ما أمركم الله عز وجل من ٱستقبال البيت الحرام ؛ وإن كان يتضمن الحث على المبادرة والاستعجال إلى جميع الطاعات بالعموم ؛ فالمراد ما ذكر من الاستقبال لسياق الآى . والمعنى المراد المبادرة بالصلاة أول وقتها ، والله تعالى أعلم . روى النسائى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنما مَثَلُ المُهَجِّر إلى الصلاة كمثل الذى يُهْدِى البَدَنَة ثم الذى على أَثَره كالذى يُهْدِى البقرة ثم الذى على أثره كالذى يُهدِى الكبش ثم الذى على أثره كالذى يُهْدِى الدجاجة ثم الذى على أثره كالذى يُهْدِى البيضة " . وروى الدَّارَقُطْنِى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن أحدكم ليصلِّى الصلاة لوقتها وقد ترك من الوقت الأول ما هو خير له من أهله وماله " . وأخرجه مالك عن يحيى بن سعيد قوله . وروى الدَّارَقُطْنِى أيضا عن ٱبن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "خير الأعمال الصلاةُ فى أول وقتها" . وفى حديث ٱبن مسعود «أول وقتها» بإسقاط « فى » . وروى أيضا عن إبراهيم بن عبد الملك عن أبى مَحْذُورَة عن أبيه عن جده قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أوَّلُ الوقت رضوانُ الله ووَسَطُ الوقت رحمةُ الله

Marfat.com

وآخرُ الوقت عفوُ الله " . زاد ٱبن العربى : فقال أبو بكر : رضوانُ الله أحبّ إلينا من عفوه، فإن رضوانه عن المحسنين وعفوه عن المُقَصِّرين؛ وهذا ٱختيار الشافعى . وقال أبو حنيفة : آخر الوقت أفضل؛ لأنه وقت الوجوب . وأمّا مالك ففصّل القول ؛ فأما الصبح والمغرب فأوّل الوقت فيهما أفضل؛ أما الصبح فلحديث عائشة رضى الله عنها قالت : " إنْ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلّى الصبح فينصرف النساء مُتَلَفِّعاتٍ بمُرُوطهنّ ما يُعرفن من الغَلَس " — فى رواية — " متلفِّفات " . وأما المغرب فلحديث سلمة بن الأكْوَع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلى المغرب إذا غَرَبت الشمس وتوارت بالحجاب ؛ أخرجهما مسلم . وأما العشاء فتأخيرها أفضل لمن قَدَر عليه . روى ٱبن عمر قال : مكثنا [ذات](١) ليلة ننتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم لصلاة العشاء الآخرة ؛ فخرج إلينا حين ذهب ثُلُث الليل أو بعده، فلا ندرى أشىء شغله فى أهله أو غيرُ ذلك ؛ فقال حين خرج : " إنكم لتنتظرون صلاةً ماينتظرها أهلُ دين غيرُكم ولولا أن يَثْقُل على أمّتى لصلّيتُ بهم هذه الساعة " . وفى البخارىّ عن أنس قال : أخّر النبىّ صلى الله عليه وسلم صلاة العشاء إلى نصف الليل ثم صلّى ... ؛ وذكر الحديث . وقال أبو بَرْزَة : كان النبىّ صلى الله عليه وسلم يستحبّ تأخيرها . وأمّا الظهر فإنها تأتى الناس [على](٢) غفلة فيستحبّ تأخيرها قليلًا حتى يتأهّبوا ويجتمعوا . قال أبو الفرج قال مالك : أوّل الوقت أفضلُ فى كل صلاة إلا للظهر فى شدّة الحرّ . وقال ٱبن أبى أُوَيْس : وكان مالك يكره أن يصلى الظهر عند الزوال ولكن بعد ذلك، ويقول : تلك صلاة الخوارج . وفى صحيح البخارى وصحيح الترمذىّ عن أبى ذَرّ الغِفارىّ قال : كنا مع النبىّ صلى الله عليه وسلم فى سَفَر فأراد المؤذّن أن يؤذّن للظهر ؛ فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " أَبْرِد " ثم أراد أن يؤذّن فقال له : " أبْرِد " حتى رأينا فَىْء التُّلول؛ فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " إن شدّة الحرّ من فَيْح(٣) جهنم فإذا ٱشتدّ الحرّ فأبرِدُوا بالصلاة " . وفى صحيح مسلم عن أنس أنّ النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يصلى الظهر إذا زالت الشمس . والذى يجمع بين الحديثين مارواه أنس أنه إذا كان الحرّ أبرد بالصلاة، وإذا كان البرد عجّل .

(١) الزيادة عن صحيح مسلم وسنن النسائى .
(٢) الزيادة عن أحكام القرآن لابن العربى .
(٣) الفيح : سطوع الحرّ وفورانه .

Marfat.com

قال أبو عيسى الترمذي : « وقد اختار قوم [من أهل العلم](١) تأخير صلاة الظهر في شدّة الحرّ ، وهو قول ابن المبارك وأحمد و إسحاق . قال الشافعي : إنما الإبراد بصلاة الظهر إذا كان [مسجدا](١) ينتاب(٢) أهله من البعد ، فأمّا المُصَلِّي وحده والذي يصلّي في مسجد قومه فالذي أحبّ له ألّا يؤخّر الصلاة في شدّة الحرّ . قال أبو عيسى : ومعنى من ذهب إلى تأخير الظهر(٣) في شدّة الحرّ هو أولى وأشبه بالاتّباع ، وأمّا ما ذهب إليه الشافعيّ رحمه الله أنّ الرخصة لمن ينتاب من البعد وللمشقّة على الناس ، فإن في حديث أبي ذرّ رضي الله عنه ما يدل على خلاف ما قال الشافعي . قال أبو ذرّ : كنّا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم في سفر فأذّن بلالٌ بصلاة الظهر ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " [يا بلال](١) أَبْرِد ثم أَبْرِد ". فلو كان الأمر على ما ذهب إليه الشافعي لم يكن للإبراد في ذلك الوقت معنًى ؛ لاجتماعهم في السفر وكانوا لا يحتاجون أن ينتابوا من البُعد » . وأمّا العصر فتقديمها أفضل . ولا خلاف في مذهبنا أن تأخير الصلاة رجاءَ الجماعة أفضل من تقديمها ؛ فإن فضل الجماعة معلوم ، وفضل أول الوقت مجهول وتحصيل المعلوم أَوْلى ؛ قاله ابن العربيّ .

الرابعــة ــ قوله تعالى : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا ﴾ شرط ، وجوابه : ﴿ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ﴾ يعني يوم القيامة . ثم وصف نفسه تعالى بالقدرة على كل شيء لتناسب الصفة مع ما ذكر من الإعادة بعد الموت والبِلَى .

قوله تعالى : وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾

(١) الزيادة من صحيح الترمذي .   (٢) انتاب : قصد .
(٣) كذا في صحيح الترمذي . وفي الأصول : « تأخير الصلاة » .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ قيل : هـذا تأكيد للأمر بآستقبال الكعبة وآهتمام بها ؛ لأن موقع التحويل كان صعباً[(١)] فى نفوسهم جدًّا ؛ فأكّد الأمر ليرى الناس الآهتمام به فيخفّ عليهم وتسكن نفوسهم إليه . وقيل : أراد بالأوّل : ولّ وجهك شطر الكعبة ؛ أى عاينها إذا صلّيت تلقاءها . ثم قال : ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ ﴾ معاشر المسلمين فى سائر المساجد بالمدينة وغيرها ﴿ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ . ثم قال : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ ﴾ يعنى وجوب الآستقبال فى الأسفار ؛ فكان هذا أمرًا بالتوجّه إلى الكعبة فى جميع المواضع من نواحى الأرض .

قلت : هذا القول أحسن من الأوّل ؛ لأن فيه حملَ كلّ آية على فائدة . وقد روى الدَّارَقُطْنِيّ عن أنس بن مالك قال : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا كان فى سفر فأراد أن يصلّى على راحلته آستقبل القبلة وكبّر ثم صلّى حيث توجّهت به . أخرجه أبو داود أيضا ، وبه قال الشافعيّ وأحمد وأبو ثور . وذهب مالك إلى أنه لا يلزمه الآستقبال ؛ لحديث آبن عمر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلّى وهو مُقْبل من مكة إلى المدينة على راحلته ، قال : وفيه نزل « فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ » وقد تقدّم .

قلت : ولا تعارض بين الحديثين ؛ لأن هذا من باب المطلق والمقيّد ؛ فقول الشافعيّ أوْلَى ، وحديث أنس فى ذلك حديث صحيح . ويروى أن جعفر بن محمد سُئل ما معنى تكرير القَصَص فى القرآن ؟ فقال : عَلِم الله أن كلّ الناس لا يحفظ القرآن ، فلو لم تكن القصة مكرّرة لجاز أن تكون عند بعض الناس ولا تكون عند بعض ؛ فكُرِّرت لتكون عند من حفظ البعض .

قوله تعالى : ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ قال مجاهد : هم مشركو العرب . وحجّتهم قولهم : راجعتَ قبلتنا ؛ وقد أجيبوا عن هذا بقوله : « قُلْ لِلّٰهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ » . وقيل : معنى « لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ » لئلا يقولوا لكم : قد أُمِرتم باستقبال الكعبة ولستم تَرَوْنها ؛ فلما قال عزّ وجلّ : « وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا

(١) فى نسخ الأصل : « كان معنى » . والتصويب عن تفسير ابن عطية .

وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ » زال هـذا . وقال أبو عبيدة : إنّ « إلا » هاهنا بمعنى الواو ، أى والذين ظلموا ؛ فهو آستثناء بمعنى الواو ؛ ومنه قول الشاعر (١) :

ما بالمدينــة دارٌ غيرُ واحـدة * دار الخليفــة إلّا دارُ مَرْوانَا

كأنه قال : إلّا دار الخليفة ودارُ مَرْوان ؛ وكذا قيل فى قوله تعـالى : « إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٢) » أى الذين آمنوا . وأبطل الزجاج هذا القول وقال : هذا خطأ عنـد الحُذّاق من النحويين ، وفيـه بطلان المعـانى ، وتكون « إلّا » وما بعدها مستغنًى عن ذكرهما . والقول عندهم أن هذا آستثناء ليس مرب الأوّل ؛ أى لكن الذين ظلموا منهم فإنهم يحتجُّون . قال أبو إسحاق الزجّاج : أى عرّفكم الله أمر الآحتجاج فى القبلة فى قـوله : « وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا » ، « لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّـاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّـةٌ » إلّا مَن ظلم بآحتجاجه فيما قد وضح له ؛ كما تقول : ما لك علىّ حُجّةٌ إلا الظلم أو إلّا أن تظلمنى ؛ أى مالك حجةٌ ألْبتّةَ ولكنك تظلمنى ؛ فسمّى ظلمه حُجّـة لأن المحتجّ به سمّاه حجة و إن كانت داحضة . وقال قُطْرُب : يجـوز أن يكون المعنى لئلا يكون للنـاس عليكم حجة إلّا على الذين ظلموا ؛ فالذين بدل من الكاف والميم فى « عليكم » . وقالت فرقة : « إِلَّا الَّذِينَ » آستثناء متّصل ؛ روى معناه عن آبن عباس وغيره ، وآختاره الطبرى وقال : نَفَى الله أن يكون لأحد حُجّةٌ على النبىّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى آستقبالهم الكعبة . والمعنى : لا حُجّةَ لأحد عليكم إلا الحجة الداحضة . حيث قالوا : ما وَلّاهم ، وتحيّر محمد فى دينه ، وما توجّه إلى قبلتنا إلّا أنّا كنا أهدى منه ؛ وغير ذلك من الأقوال التى لم تنبعث إلّا من عابد وَثَنٍ أو يهودىّ أو منافق . والحُجّـةُ بمعنى المحاجّة التى هى المخاصمة والمجادلة . وسمّاها الله حُجّة وحَكم بفسادها حيث كانت من ظَلَمة. وقال آبن عطية : وقيل إن الآستثناء منقطع ؛ وهـذا على أن يكون المراد بالنـاس اليهود ، ثم آستثنى كُفّار العـرب ، كأنه قال : لكن الذين ظلموا يحاجُّونكم ؛ وقوله « مِنْهم » يردّ هذا التأويل . والمعنى لكن الذيــن ظلموا ، يعنى كفار قريش فى قولهم : رجع محمد إلى قبلتنا

(١) هو الفرزدق ؛ وأراد مروان بن الحكم . (عن شرح الشواهد) .
(٢) راجع جـ ٢٠ ص ١١٦

Marfat.com

وسيرجع إلى ديننا كله . ويدخل فى ذلك كلّ من تكلّم فى النازلة من غير اليهود . وقرأ آبن عباس وزيد بن علىّ وآبن زيد « ألَا الذين ظَلَمُوا » بفتح الهمزة وتخفيف اللام على معنى آستفتاح الكلام ، فيكون « الذين ظلموا » آبتداء ، أو على معنى الإغراء، فيكون « الذين » منصوبًا بفعل مقدّر .

قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ ﴾ يريد الناس ﴿ وَآخْشَوْنِي ﴾ الخَشْيَةُ أصلها طمأنينة فى القلب تبعث على التّوَقّى . والخوف : فزع القلب تخف له الأعضاء، ولخفّة الأعضاء به سُمّى خوفًا . ومعنى الآية التحقير لكل مَن سوى الله تعالى، والأمر بآطّراح أمرهم ومراعاة أمر الله تعالى.

قوله تعالى : ﴿ وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ ﴾ معطوف على « لِئَلَّا يَكُونَ » أى ولأن أتمّ ؛ قاله الأخفش . وقيل : مقطوع فى موضع رفع بالآبتداء والخبر مضمر ، التقدير : ولأتمّ نعمتى عليكم عرّفتكم قِبلتى؛ قاله الزجاج[1] . وإتمام النعمة الهداية إلى القِبْلة ، وقيل : دخول الجنة . قال سعيد بن جُبير : ولم تتم نعمة الله على عبد حتى يُدخله الجنة . و ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ تقدّم[2] .

قوله تعالى : كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾

قوله تعالى : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا ﴾ الكاف فى موضع نصب على النعت لمصدر محذوف؛ المعنى: ولأتم نعمتى عليكم إتمامًا مثل ما أرسلنا؛ قاله الفرّاء . قال آبن عطية : وهذا أحسن الأقوال؛ أى ولأتم نعمتى عليكم فى بيان سُنّة إبراهيم عليه السلام مثل ما أرسلنا . وقيل : المعنى ولعلكم تهتدون آهتداء مثل ما أرسلنا . وقيل: هى فى موضع نصب على الحال، والمعنى: ولأتم نعمتى عليكم فى هذه الحال . والتشبيه واقع على أن النعمة فى القِبلة كالنِّعْمة فى الرسالة ، وأن الذِّكر المأمور به فى عِظمه كعِظم النعمة . وقيل: معنى الكلام على التقديم والتأخير؛ أى فآذكرونى

(١) نص العبارة فى البحر المحيط لأبى حيان : « وقيل : تتعلق اللام بفعل مؤخر ، التقدير : ولأتم نعمتى عليكم عرفتكم قبلتى » .
(٢) يراجع جـ ١ ص ١٦٠ طبعة ثانية .

Marfat.com

كما أرسلنا . روى عن عليّ رضى الله عنه وآختاره الزجاج . أى كما أرسلنا فيكم رسولا تعرفونه بالصدق فآذكرونى بالتوحيد والتصديق به . والوقف على « تَهْتَدُونَ » على هذا القول جائز .

قلت : وهذا آختيار الترمذيّ الحكيم فى كتابه ؛ أى كما فعلتُ بكم هذا من المنن التى عددتها عليكم «فاذكرونى بالشكر أذكركم بالمزيد؛ لأن فى ذكركم ذلك شكراً لى، وقد وعدتكم بالمزيد على الشكر، وهو قوله : « لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ »[1] ؛ فالكاف فى قوله « كما » هنا، وفى الأنفال « كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ »[2] وفى آخر الحجر « كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ »[3] متعلقة بما بعده، على ما يأتى بيانه .

قوله تعالى : فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾

قوله تعالى ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ أمرٌ وجوابُه ، وفيــه معنى المجازاة فلذلك جُزم . وأصــل الذّكر التّنبه بالقلب للمذكور والتيقظ له . وسُمى الذّكر باللسان ذكرا لأنه دلالة على الذكر القلبى ؛ غير أنه لمـا كثر إطلاق الذكر على القول اللسانى صار هو السابق للفهم .

ومعنى الآية : آذكرونى بالطاعة أذكركم بالثواب والمغفرة؛ قاله سعيد بن جبير . وقال أيضا : الذكر طاعة الله ؛ فمن لم يطعه لم يذكره وإن أكثر التسبيح والتهليل وقراءة القرآن ؛ وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : "من أطاع الله فقد ذكر الله وإن أقلّ صلاته وصومه وصنيعه للخير ومَن عصى الله فقد نسى الله وإن كثر صـلاتَه وصومَه وصنيعَه للخير" ؛ ذكره أبو عبد الله محمد بن خُوَيْزِ مَنْداد فى «أحكام القرآن» له . وقال أبو عثمان النَّهْدى : إنى لأعلم الساعة التى يذكرنا الله فيها؛ قيل له : ومن أين تعلمها؟ قال يقول الله عز وجل : «فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ» . وقال السُّدّى : ليس من عبدٍ يذكر الله إلا ذكره الله عز وجل، لا يذكره مؤمن إلا ذكره الله برحمته، ولا يذكره كافر إلا ذكره الله بعذاب . وسُئل أبو عثمان فقيل له : نذكر الله ولانجد فى قلوبنا حلاوة ؟ فقال : آحمدوا الله تعالى على أن زَيّن جارحة من جوارحكم بطاعته . وقال ذو النُّون المصرى رحمه الله : من ذكر الله تعالى ذِكرًا على الحقيقة نَسِىَ فى جنب ذكره

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٤٣　　(٢) راجع جـ ٧ ص ٣٦٧　　(٣) راجع جـ ١٠ ص ٥٧

Marfat.com

كل شىء، وحفظ الله عليه كل شىء،وكان له عوضًا من كل شىء. وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه : ما عمـل آبن آدم من عمـل أنجى له من عذاب الله من ذكر الله . والأحاديث فى فضل الذكر وثوابه كثيرة خرّجها الأئمة . روى آبن ماجه عن عبد الله بن بُسر أن أعرابيًّا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن شرائع الإسلام قـد كثرت علىّ فأنبئنى منهـا بشىء أتشبّث به؛ قال : " لا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله عز وجل " . وخرّج عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليـه وسلم قال : " إن الله عز وجل يقول أنا مع عبـدى إذا هو ذكرنى وتحرّكت بى شفتاه ". وسيأتى لهذا الباب مزيد بيان عند قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آذْكُرُوا آللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا(١) » وأن المراد ذكر القلب الذى يجب آستدامته فى عموم الحالات .

قوله تعـالى : ﴿ وَآشْكُرُوا لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ قال الفرّاء يقال : شكرتك وشكرت لك ، ونصـحتك ونصحت لك؛ والفصيح الأوّل(٢). والشكر معرفة الإحسان والتحدّث به ؛ وأصله فى اللغة الظهور؛ وقد تقدّم(٣) . فشكر العبد لله تعالى ثناؤه عليه بذكر إحسانه إليه، وشكر الحق سبحانه للعبد ثناؤه عليه بطاعته له ؛ إلا أن شكر العبد نطقٌ باللسان و إقرارٌ بالقلب بإنعام الربّ مع الطاعات .

قوله تعالى : ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ نَهْىٌ؛ ولذلك حُذفت منه نون الجماعة ،وهذه نون المتكلم. وحذفت الياء لأنها رأس آية، و إثباتها أحسن فى غير القرآن؛ أى لا تكفروا نعمتى وأيادى . فالكفر هنا ستر النعمة لا التكذيب . وقد مضى القول فى الكفر(٤) لغة ، ومضى القول فى معنى الاستعانة(٥) بالصبر والصلاة ، فلا معنى للإعادة .

قوله تعـالى : وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَـلُ فِى سَبِيلِ آللَّهِ أَمْوَٰتٌ بَلْ أَحْيَـآءٌ وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾

---

(١) راجع جـ ١٤ ص ١٩٧ (٢) الذى فى معاجم اللغة أن الفصيح الثانى. (٣) راجع المسألة الثالثة وما بعدها جـ ١ ص ٣٩٧ طبعة ثانية . (٤) يراجع جـ ١ ص ١٨٣ . (٥) يراجع جـ ١ ص ٣٧١ طبعة ثانية .

Marfat.com

هذا مثل قوله تعالى فى الآية الأخرى: «وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ»، وهناك يأتى[1] الكلام فى الشهداء وأحكامهم، إن شاء الله تعالى.

وإذا كان الله تعالى يحييهم بعد الموت ليرزقهم — على ما يأتى — فيجوز أن يحيى الكفار ليعذبهم، ويكون فيه دليل على عذاب القبر. والشهداء أحياء كما قال الله تعالى، وليس معناه أنهم سيحيون؛ إذ لو كان كذلك لم يكن بين الشهداء وبين غيرهم فرق إذ كل أحد سيحيا. ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ والمؤمنون يشعرون أنهم سيحيون. وارتفع «أموات» على إضمار مبتدأ، وكذلك «بل أحياء» أى هم أموات وهم أحياء، ولا يصح إعمال القول فيه لأنه ليس بينه وبينه تناسب، كما يصح فى قولك: قلت كلاما وحجة.

قوله تعالى: وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥)

قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ هذه الواو مفتوحة عند سيبويه لالتقاء الساكنين. وقال غيره: لما ضمت إلى النون الثقيلة بنى الفعل فصار بمنزلة خمسة عشر. والبلاء يكون حسنا ويكون سيئا. وأصله المحنة، وقد تقدم[2]. والمعنى لنمتحننكم لنعلم المجاهد والصابر علم معاينة حتى يقع عليه الجزاء، كما تقدم. وقيل: إنما ابتلوا بهذا ليكون آية لمن بعدهم فيعلموا أنهم إنما صبروا على هذا حين وضح لهم الحق. وقيل: أعلمهم بهذا ليكونوا على يقين منه أنه يصيبهم، فيوطنوا أنفسهم عليه فيكونوا أبعد لهم من الجزع، وفيه تعجيل ثواب الله تعالى على العزم وتوطين النفس.

قوله تعالى: ﴿بِشَيْءٍ﴾ لفظ مفرد ومعناه الجمع. وقرأ الضحاك «بأشياء» على الجمع وقرأ الجمهور بالتوحيد، أى بشىء من هذا وشىء من هذا، فاكتفى بالأول إيجازا ﴿مِّنَ الْخَوْفِ﴾ أى خوف العدو والفزع فى القتال، قاله ابن عباس. وقال الشافعى: هو خوف

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٦٨ (٢) تراجع المسألة الثالثة عشرة جـ ١ ص ٣٨٧ طبعة ثانية.

Marfat.com

الله عز وجل . ﴿ والجُـوعِ ﴾ يعنى المجاعة بالجدب والقحط ؛ فى قـول ابن عباس . وقال الشافعى : هو الجوع فى شهر رمضان ﴿وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ﴾ بسبب الأشتغال بقتال الكفار. وقيل : الجوائح المتلفة . وقال الشافعى : بالزكاة المفروضة . ﴿ والأَنْفُسِ ﴾ قال آبن عباس : بالقتل و لموت فى الجهاد . وقال الشافعى : يعنى بالأمراض . ﴿ والثَّمَراتِ ﴾ قال الشافعى : المـراد موت الأولاد ، وولد الرجل ثمرة قلبـه ؛ كما جاء فى الخـبر ، على ما يأتى . وقال آبن عباس : المراد قلّة النبات وآنقطاع البركات .

قوله تعـالى : ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ أى بالثواب على الصـبر . والصبر أصله الحبس ، وثوابه غير مقدّر ؛ وقد تقدّم[1] . لكن لا يكون ذلك إلا بالصبر عند الصدمة الأولى ؛ كما روى البخارى عن أنس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إنما الصبر عند الصدمة الأولى " . وأخرجه مسلم أتمّ منه ؛ أى إنما الصبر الشاق على النفس الذى يعظم الثواب عليه إنما هو عند هجوم المصيبة وحرارتهـا ؛ فإنه يدل على قوّة القلب وتثبته فى مقام الصـبر ، وأما إذا بردت حرارة المصيبة فكل أحد يصبر إذ ذاك ؛ ولذلك قيـل : يجب على كل عاقل أن يلتزم عنـد المصيبة ما لا بدّ للأحمق منه بعد ثلاث . وقال سهل بن عبد الله التُّسْتَرِى : لمـا قال تعالى : « وَبَشِّرِ الصَّابِرِين » صار الصبر عيشًا[2] . والصبر صبران : صبر عن معصية الله ، فهذا مجاهد، وصبر على طاعة الله ، فهـذا عابد . فإذا صبر عن معصية الله وصـبر على طاعة الله أورثه الله الرضا بقضائه ؛ وعلامة الرضا سكون القلب بما ورد على النفس من المكروهات والمحبوبات . وقال الخوّاص : الصبر الثبات على أحكام الكتاب والسنة . وقال رُوَيم : الصبر ترك الشكوى . وقال ذو النون المصرى : الصـبر هو الأستعانة بالله تعـالى . وقال الأسـتاذ أبو علىّ : الصـبر حدّه ألا تعترض على التقدير ؛ فأما إظهار البـلوى على غير وجه الشكوى فـلا ينافى الصبر ؛ قال الله تعالى فى قصـة أيوب : « إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ[3] » مع ما أخبر عنه أنه قال : « مَسَّنِيَ الضُّرُّ » .

(١) راجع جـ ١ ص ٣٧١ (٢) هكذا فى جميع النسخ التى بأيدينا . (٣) راجع جـ ١٥ ص ٢١٥

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ مُّصِيبَةٞ ﴾ المصيبة : كل ما يؤذى المؤمن ويصيبه؛ يقال : أصابه إصابة ومُصابة ومُصابا . والمصيبة واحدة المصائب . والمَصُوبة (بضم الصاد) مثل المصيبة . وأجمعت العرب على همز المصائب ، وأصله الواو ؛ كأنهم شبّهوا الأصلي بالزائد ، ويجمع على مصاوب ، وهو الأصل . والمُصابُ الإصابةُ ؛ قال الشاعر :

أَسُليم إنّ مُصابكم رجلًا ＊ أهدَى السلام تحيّةً ظُلْمُ

وصاب السّهمُ القرطاسَ يَصيب صَيْبًا ؛ لغة فى أصابه . والمصيبة : النكبة ينكبها الإنسان وإن صغرت ؛ وتستعمل فى الشر ؛ روى عكرمة أن مصباح رسول الله صلى الله عليه وسلم ٱنطفأ ذات ليلة فقال : « إِنَّا لِلَّهِ وإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ » فقيل : أمصيبة هى يا رسول الله ؟ قال : " نعم كل ما آذى المؤمن فهو مصيبة " .

قلت : هذا ثابت معناه فى الصحيح ، خرّج مسلم عن أبى سعيد وعن أبى هريرة رضى الله عنهما أنهما سمعا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ما يصيب المؤمن من وَصَب ولا نَصَب ولا سَقَم ولا حَزَن حتى الهَمّ يُهَمُّه(١) إلا كُفِّر به من سيئاته " .

الثانيــة — خرّج ٱبن ماجه فى سننه حدّثنا أبو بكر بن أبى شيبة حدّثنا وكيع بن الجرّاح عن هشام بن زياد عن أمه عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أصيب بمصيبة فذكر مصيبته فأحدث ٱسترجاعًا وإن تقادم عهدها كتب الله له من الأجر مثله يوم أصيب " .

---

(١) قال النووى فى شرحه على صحيح مسلم : « قال القاضى : هو بضم الياء وفتح الهاء على ما لم يسم فاعله ، وضبطه غيره بفتح الياء وضم الهاء ، أى يغمه ، وكلاهما صحيح » .

Marfat.com

الثالثــة — من أعظم المصائب المصيبة فى الدِّين؛ ذكر أبو عمر عن الفِرْيَابِيّ قال حدّثنا فِطْر بن خليفــة حدّثنا عطاء بن أبى رَبَاح قال قال رسول الله صلى الله عليه وســلم : ” إذا أصاب أحدكم مصيبة فليذكر مصابه بى فإنها من أعظم المصائب“ . أخرجه السَّمرقندى أبو محمــد فى مسنده ، أخبرنا أبو نعيم قال : أنبأنا فطر ... ؛ فذكر مثله سواء . وأسند مثله عن مكحول مرسلا . قال أبو عمر : وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأن المصيبة به أعظم من كل مصيبة يصاب بها المسلم بعده إلى يوم القيامة ؛ انقطع الوَحْى وماتت النبوّة . وكان أوّل ظهور الشر بآرتداد العرب وغير ذلك ، وكان أوّل آنقطاع الخير وأوّل نقصانه . قال أبو سعيد : ما نفضنا أيدينا من التراب من قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أنكرنا قلوبنا . ولقد أحسن أبو العتاهية فى نظمه معنى هذا الحديث حيث يقول :

اصــبِرْ لكل مصيبة وتجــلّدِ * وآعــلم بأن المرءَ غيرُ مُخَــلَّدِ
أوَ ما ترى أن المصائب جَمّــةٌ * وترى المنيّــةَ للعبــاد بمَرْصَــدِ
مَن لم يُصَبْ ممن ترى بمصيبة؟ * هــذا سبيلٌ لستَ فيــه بأوحد
فإذا ذكــرتَ محمدا ومصــابه * فآذكــر مصابك بالنبيّ محمد

الرابعــة — قوله تعــالى : ﴿قَالُوا إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ جعل الله تعالى هذه الكلمات ملجأ لذوى المصائب ، وعصمة للممتحَنين؛ لمــا جمعت من المعــانى المباركة ؛ فإن قوله : « إِنَّا لِلّهِ » توحيد وإقرار بالعبودية والملك . وقوله : « وإنا إليــه راجعون » إقرار بالهُلْك على أنفسنا والبعث من قبورنا؛ واليقين أن رجوع الأمر كله إليه كما هو له . قال سعيد آبن جبير رحمــه الله تعالى : لم تعط هذه الكلمات نبيًّــا قبل نبيّنا ، ولو عرفها يعقوب لمــا قال : يا أسفى على يوسف .

الخامســة — قال أبو سنان : دفنت آبنى سنانا ، وأبو طلحة الخَوْلانى على شفير القبر؛ فلما أردت الخروج أخذ بيدى فأنشطنى وقال : ألا أبشّرك يا أبا ســنان ، حدّثنى الضحاك عن أبى موسى أن النبيّ صلى الله عليه وســلم قال : ” إذا مات ولد العبــد قال الله لملائكته أقبضتم ولد عبدى فيقولون نعم فيقول أقبضتم ثمرة فؤاده فيقولون نعم فيقول فماذا قال عبدى

فيقولون حمدك وآسترجع فيقول الله تعالى آبنوا لعبدى بيتًا فى الجنة وسمّوه بيت الحمـد " .

وروى مسلم عن أمّ سَلَمَة قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله عزّ وجلّ إنا لله وإنا إليه راجعون اللّهُمَّ أْجُرْنى فى مصيبتى وأَخْلِف لى خيرا منها إلا أخلف الله له خيرا منها" . فهذا تنبيه على قوله تعـالى : « وبَشِّرِ الصَّابِرِينَ » إمّا بالخَلَف كما أخلف الله لأمّ سلمة رسولَ الله صلى الله عليه وسلم؛ فإنه تزوّجها لمـا مات أبو سلمـة زوجها . وإمّا بالثواب الجـزيل ؛ كما فى حديث أبى موسى ، وقد يكون بهما .

السادســـة — قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ هـذه نِعَمٌ من الله عز وجل على الصابرين المسترجعين . وصلاة الله على عبده : عفوه ورحمته وبركته وتشريفه إياه فى الدنيـا والآخرة . وقال الزجاج : الصلاة من الله عز وجل الغفران والثناء الحسن . ومن هـذا الصلاةُ على الميت إنمـا هو الثناء عليـه والدعاء له ؛ وكرر الرحمة لمـا آختلف اللفظ تأكيدًا وإشبـاعًا للمعنى ؛ كما قال : « مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُـدَى » ، وقوله « أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ » . وقال الشاعر :

صلّى على يحيى وأشـياعِه * ربٌّ كريمٌ وشفيعٌ مطاعْ

وقيل : أراد بالرحمة كشف الكربة وقضاء الحاجة . وفى البخارى وقال عمر رضى الله عنه : نِعم العِدلان ونِعم العِـلاوة : « الذين إذا أصابتهم مُصيبةٌ قالُوا إنّا لِله وإنّا إلَيْه راجعُونَ . أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ » . أراد بالعِدلين الصلاة والرحمة ، وبالعِلاوة الاهتـداء . قيل : إلى آستحقاق الثواب وإجزال الأجر ، وقيـل : إلى تسهيل المصائب وتخفيف الحزن .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَـآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْـهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾

Marfat.com

فيه تسع مسائل :

الأولى — روى البخارىّ عن عاصم بن سليمان قال : سألت أنس بن مالك عن الصّفا والمَرْوَة فقال : كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية، فلما كان الإسلام أمسكنا عنهما؛ فأنزل الله عز وجل : « إنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ ٱللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا » . وخرّج الترمذىّ عن عروة قال : « قلت لعائشة ما أرى على أحد لم يطف بين الصفا والمروة شيئا، وما أبالى ألّا أطوف بينهما . فقالت : بئس ماقلت يابن أختى! طاف رسول الله صلى الله عليه وسلم وطاف المسلمون، و إنما كان من أَهَلّ لِمَنَاة[1] الطاغية التى بالمُشَلَّل لا يطوفون بين الصفا والمروة ؛ فأنزل الله تعالى : «فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا » ولو كانت كما تقول لكانت : « فلا جناح عليه ألّا يَطَّوَّف بهما » . قال الزُّهْرِىّ : فذكرت ذلك لأبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام فأعجبه ذلك وقال : إن هـذا لَعِلْمٌ، ولقد سمعت رجالا من أهـل العلم يقولون : إنمـا كان من لا يطوف بين الصفا والمروة من العرب يقولون إن طوافنا بين هذين الحجرين من أمر الجاهليـة . وقال آخرون من الأنصار : إنما أمرنا بالطواف [بالبيت][2] ولم نؤمر به بين الصفا والمَرْوَة ؛ فأنزل الله تعالى : « إنّ الصَّفا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ » قال أبو بكر بن عبـد الرحمن : فأراها قد نزلت فى هؤلاء وهؤلاء . قال : « هذا حديث حسن صحيح » . أخرجه البخارى بمعناه، وفيه بَعْدَ قوله فأنزل الله تعالى « إن الصفا والمروة من شعائرِ ٱلله » : « قالت عائشة وقد سنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم الطواف بينهما ، فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما » ؛ ثم أخبرت أبا بكر بن عبـد الرحمن فقال : إن هـذا لَعِلْمٌ ما كنت سمعته ، ولقد سمعت رجالا من أهل العلم يذكرون أن الناس — إلا مَن ذكرتْ عائشةُ — ممن كان يُهِلّ بمَنَاة كانوا يطوفون كلهم بالصّفا والمروة؛ فلما ذكر الله تعالى الطواف بالبيت ولم يذكر الصفا والمروة فى القرآن قالوا : يارسول الله، كنا نطوف بالصفا والمروة ، وإن الله أنزل الطواف بالبيت فلم يذكر الصفا، فهل علينا من حَرَج أن

(١) مناة : اسم صنم فى جهة البحر مما يلى قديدا بالمشلل (وهو جبل يهبط منه إلى قديد من ناحية البحر) على سبعة أميال من المدينة . وكانت الأزد وغسان يهلون له ويحجون إليه ، وكان أوّل من نصبه عمرو بن لحىّ الخزاعى . (راجع معجم ياقوت فى اسم مناة) . (٢) زيادة عن الترمذى .

Marfat.com

نطوف بالصفا والمروة ؟ فأنزل الله عز وجل : « إن الصفا وٱلمروة مِن شعائِرِ اللهِ » الآية . قال أبو بكر : فأسمع هـذه الآية نزلت فى الفريقين كليهما : فى الذين كانوا يتحرجون أن يطوفوا فى الجاهلية بالصفا والمروة ، والذين يطوفون ثم تحرجوا أن يطوفوا بهما فى الإسلام؛ من أجل أن الله تعالى أمر بالطواف بالبيت ، ولم يذكر الصفا حتى ذكر ذلك بعـد ما ذكر الطواف بالبيت » . وروى الترمذى عن عاصم بن سليمان الأحْوَل قال : « سألت أنس بن مالك[1] عن الصفا والمروة فقـال : كانا من شعائر الجاهلية ، فلما كان الإسلام أمسكنا عنهما ؛ فأنزل الله عز وجل : « إنّ الصفا وٱلمروة مِن شعائِرِ اللهِ فمن حج البيت أو ٱعتمر فلا جناح عليه أن يطَّوف بهما » قال : هما تطوع ، « وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عليمٌ » . قال : هذا حديث حسن صحيح » . خرّجه البخارى أيضا . وعن ٱبن عباس قال : كان فى الجاهلية شياطين تعزف الليل كله بين الصفا والمروة وكان بينهما آلهة ، فلما ظهر الإسلام قال المسلمون : يارسول الله ، لا نطوف بين الصفا والمروة فإنهما شرك ؛ فنزلت . وقال الشعبى : كان على الصفا فى الجاهلية صنم يُسَمَّى « إِسَافًا » وعلى المَرْوَة صنم يسمَّى « نائلة » فكانوا يمسحونهما إذا طافوا ؛ فٱمتنع المسلمون من الطواف بينهما من أجل ذلك ؛ فنزلت الآية .

الثانيـــة — أصل الصّفا فى اللغة الحجر الأملس ؛ وهو هنا جبل بمكة معروف ، وكذلك المروة جبل أيضا ؛ ولذلك أخرجهما بلفظ التعريف . وذُكر الصفا لأن آدم المصطفى صلى الله عليه وسلم وقف عليه فسُمِّىَ به ، ووقفت حوّاء على المروة فسُمِّيت بٱسم المـرأة ، فأُنِّث لذلك ؛ والله أعلم . وقال الشعبى : كان على الصفا صـنم يسمى « إساقا » وعلى المروة صـنم يدعى « نائلة » فٱطرد ذلك فى التذكير والتأنيث وقدّم المذكّر ، وهذا حسن ؛ لأن الأحاديث المذكورة تدل على هذا المعنى . وما كان كراهة من كره الطواف بينهما إلا من أجل هذا ؛ حتى رفع الله الحرج فى ذلك . وزعم أهل الكتاب أنهما زَنَيَا فى الكعبة فمسخهما الله حجرين

(١) كذا فى الأصول وصحيح البخارى وتفسير الطبرى . والذى فى صحيح الترمذى : « أنس بن سيرين ... » وهو مولى أنس بن مالك وممن روى عنه .

Marfat.com

فوضعهما على الصفا والمروة ليُعتبر بهما؛ فلما طالت المدّة عُبِدا من دون الله؛ والله تعالى أعلم .

والصفا (مقصور) : جمع صَفاة ، وهى الحجارة الملس . وقيـل : الصفا آسم مفرد، وجمعه صُفِيّ (بضم الصاد) وأصفاء على مثل أرحاء . قال الراجز (١) :

كأنّ مَتْنَيْه (٢) من النَّفِيّ * مواقعُ الطير على الصُّفِيّ

وقيل : من شروط الصفا البياض والصلابة ؛ وآشتقاقه من صـفا يصفو ، أى خَلَص من التراب والطين . والمروة (واحدة المَرْو) وهى الحجارة الصغار التى فيها لين . وقد قيل إنهـا الصلاب . والصحيح أن المرو الحجارة صليبها و رخوها الذى يتشظّى وترِقّ حاشيته؛ وفى هذا يقال : المرو أكثر و يقال فى الصليب . قال الشاعر :

وتولّى الأرض خفًّا ذابلًا * فإذا ما صادف المرو رضخ

وقال أبو ذؤيب :

حتى كأنى للحـوادث مَرْوة * بصَفَا المُشقَّر (٣) كل يوم تُقْرَعُ

وقد قيل : إنها الحجارة السود . وقيل : حجارة بيض برّاقة تكون فيها النار .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ أى من معالمه ومواضـع عباداته ؛ وهى جمع شـعيرة . والشعائر : المتعبّدات التى أشعرها الله تعالى ؛ أى جعلها أعلاما للناس ، من الموقف والسَّعْى والنَّحـر . والشِّعار : العـلامة ؛ يقال : أشعر الهَـدْىَ أعلمَه بغرز حديدة فى سَنَامه ؛ من قولك : أشعرت أى أعلمت ، وقال الكُميت :

نُقتّلهم جِيلًا فجِيلًا تَراهُمُ * شعائرَ قُرْبَانٍ بهم يُتقرَّبُ

---

(١) هو الأخيل ؛ كما فى اللسان . (٢) فى اللسان : « قال آبن سيده : كذا أنشده أبو على ، وأنشده آبن دريد فى الجمهرة : « كأن متنى » قال : وهو الصحيح ، لقوله بعده : من طول إشراق على الطَّوِىّ . والنَّفِيّ : تطاير الماء عن الرشاء عند الأستقاء . ونفى المطر : ما تنفيه وترشه . قال صاحب اللسان : « وفسره ثعلب فقال : شبه الماء وقد وقع على متن المستق بذرق الطائر على الصفى » . (٣) المشقر : حصن بالبحرين عظيم لعبد القيس يلى حصنا لهم آخر يقال له الصفا قبل مدينة هجر . ويروى «بصفا المشرق» قال أبو عبيدة : المشرق سوق الطائف . وقال الأصمعى : المشرق المصلّى . (عن شرح الديوان ومعجم ياقوت) .

Marfat.com

الرابعـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ ﴾ أى قصد . وأصل الحج القصد ، قال الشاعر (١) :

فأشهدُ مِن عَوْفٍ حُلولًا (٢) كثيرةً * يَحُجّون سِبَّ الزِّبْرِقان المُزَعْفَرا

السِّب : لفظ مشترك . قال أبو عبيدة : السِّبّ (بالكسر) الكثير السِّباب . وسِبُّك أيضا الذى يُسابُّك ؛ قال الشاعر (٣) :

لا تَسُبَّنَّنِي فلستَ بِسِبِّي * إنّ سِبِّي مِن الرِّجال الكريمُ

والسِّبّ أيضا الخمار ، وكذلك العِمامة ؛ قال المُخَبَّل السّعدى :

* يَحُجُّون سِبَّ الزِّبْرِقان المُزَعْفَرا *

والسِّبّ أيضا الحبل فى لغة هذيل ؛ قال أبو ذؤيب :

تَـدَلّى عليهـا بين سِبٍّ وخَيْطَـة * بجَرْداءَ مِثْلِ الوكْفِ يكبُو غُرابُها

والسُّبوب : الحبال . والسِّبّ : شُقّة كَتّان رقيقة ، والسَّبيبة مثله ؛ والجمع السُّبوب والسبائب ؛ قاله الجوهرى . وحَجّ الطبيب الشَّجّة إذا سبرها بالميل ؛ قال الشاعر (٤) :

* يحجّ مأمُومةً (٥) فى قعرها لَجَفُ *

اللَّجَف : الخَسْف . تلجّفت البئر : انخسف أسفلها . ثم اختص هـذا الاسم بالقصد إلى البيت الحرام لأفعال مخصوصة .

الخامســـة ــ قوله تعالى : ﴿ أَوِ اعْتَمَرَ ﴾ أى زار . والعُمْرة : الزيارة ؛ قال الشاعر (٦) :

لقد سما ابنُ مَعْمَرٍ حين اعْتَمَرْ * مَغْزًى بعيـدا من بعيـد وضَبَرْ (٧)

---

(١) هو المخبل السعدى كما سيجىء . (٢) الحلول : الأحياء المجتمعة ، وهو جمع حال . والمزعفر : الملون بالزعفران ، وسادات العرب تصبغ عمائمها بالزعفران . (٣) هو عبد الرحمن بن حسان يهجو مسكينا الدارمى . (عن اللسان) . (٤) هو عذار بن درّة الطائى ؛ كما فى اللسان . وتمام البيت :

* فاست الطبيب قـذاها كالمغاريد *

(٥) المأمومة : الشجة التى بلغت أم الرأس ، وهى الجلدة التى تجمع الدماغ . وفى اللسان : « وفسر ابن دريد هذا الشعر فقال : وصف هـذا الشاعر طبيبا يداوى شجة بعيدة القعر فهو يجزع من هولها ؛ فالقذى يتساقط من استه كالمغاريد » . والمغاريد : جمع مغرود وهو صمغ معروف .

(٦) هو العجاج يمدح عمر بن عبيد الله القرشى . عن اللسان . (٧) ضبر : جمع قوائمه ليثب .

Marfat.com

السادســـة — قوله تعـالى : ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْـهِ ﴾ أى لا إثم . وأصـله من الجنوح وهو الميل ؛ ومنه الجوانح للأعضاء لأعوجاجها . وقد تقدّم تأويل عائشة لهذه الآية . قال آبن العربى : «وتحقيق القول فيه أن قول القائل : لا جناح عليك أن تفعل؛ إباحة الفعل . وقوله : لا جناح عليك ألّا تفعـل ، إباحة لترك الفعل ، فلما سمع عروة قول الله تعـالى : « فلا جناح عليـهِ أنْ يَطّوّف بِهِما » قال : هذا دليـل على أن ترك الطواف جائز، ثم رأى الشريعـة مطبقة على أن الطواف لا رخصـة فى تَركه فطلب الجمع بين هـذين المتعارضين . فقالت له عائشة : ليس قوله : « فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا » دليلا على ترك الطواف، إنما كان يكون دليلا على تركه لوكان « فلا جناح عليه ألّا يطوّف بهما » فلم يأت هذا اللفظ لإباحة ترك الطواف ، ولا فيه دليل عليه ؛ و إنما جاء لإفادة إباحة الطـواف لمن كان يتحرج منه فى الجاهلية ، أو لمن كان يطوف به فى الجاهلية قصدا للأصنام التى كانت فيه ؛ فأعلمهم الله سبحانه أن الطواف ليس بمحظور إذا لم يقصد الطائف قصدا باطلا » .

فإن قيل : فقد روى عطاء عن آبن عباس أنه قرأ « فلا جناح عليه ألّا يطوف بهما » وهى قراءة آبن مسعود، ويروى أنها فى مصحف أُبَىّ كذلك ، ويروى عن أنس مثل هذا . والجـواب أن ذلك خلاف ما فى المصحف ، ولا يترك ما قد ثبت فى المصحف إلى قـراءة لا يدرى أصحّت أم لا ؛ وكان عطاء يكثر الإرسال عن آبن عباس من غير سمـاع . والرواية فى هذا عن أنس قد قيل إنها ليست بالمضبوطة، أو تكون « لا » زائدة للتوكيد، كما قال :

وما ألوم البِيض الا تسـخرا * لمـا رأيْنَ الشّـمطَ القَفَنْدَرا (١)

السابعــة — روى الترمذى عن جابر أن النبىّ صلى الله عليه وسلم حين قـدم مكة فطاف بالبيت سبعا فقرأ : « وَٱتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى » وصلى خلف المقام ، ثم أتى الحجر فآستلمه ثم قال : "نبدأ بمـا بدأ الله به" فبدأ بالصفا وقال (٢) : « إن الصفا والمروة من

---

(١) القفندر : القبيح المنظر . (٢) الذى فى صحيح الترمذى : « وقرأ » .

شعائر الله » قال : هذا حديث حسن صحيح ، والعمل على هذا عند أهل العلم أنه يبدأ بالصفا قبل المروة ؛ فإن بدأ بالمروة قبل الصفا لم يجزه و يبدأ بالصفا .

الثامنــة — وآختلف العلماء في وجوب السعي بين الصفا والمروة؛ فقال الشافعي وآبن حنبل : هو ركن؛ وهو المشهور من مذهب مالك ؛ لقوله عليــه السلام : " آسعوْا فإن الله كتب عليكم السعي". خرّجه الدارقطني . وكتب بمعنى أوجب ؛ لقوله تعالى : « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ » ، وقوله عليــه السلام : " خمس صلوات كتبهن الله على العبــاد " ، وخرّج آبن ماجه عن أمّ ولدٍ لشَيْبة قالت : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسعى بين الصفا والمروة وهو يقول : " لا يُقطع الأبطح إلا شَدًّا(1) " فمن تركه أو شوطا منه ناسيًا أو عامدًا رجع من بلده أو من حيث ذَكر إلى مكة ، فيطوف و يسعى ؛ لأن السعي لا يكون إلا متصلا بالطواف . وسواء عند مالك كان ذلك في حج أو عُمْرة و إن لم يكن في العمرة فرضًا ، فإن كان قد أصاب النساء فعليه عُمرة وهَدْيٌ عند مالك مع تمام مناسكه . وقال الشافعي : عليه هَدْيٌ ، ولا معنى للعمرة إذا رجع وطاف وسعى . وقال أبو حنيفة وأصحابه والثوري والشعبي : ليس بواجب ، فإن تركه أحدٌ من الحاج حتى يرجع إلى بلاده جبره بالدّم ؛ لأنه سُنّة من سنن الحج . وهو قول مالك في العتبية(2) . وروي عن آبن عباس وآبن الزبير وأنس بن مالك وآبن سيرين أنه تطوّع ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا ﴾ . وقرأ حمزة والكسائي « يطوّعْ » مضارع مجزوم ، وكذلك « فمن تطوّع خيرا فهو خير له » الباقون « تطوّع » ماضٍ ؛ وهو ما يأتيه المؤمن من قِبل نفسه فمن أتى بشيء من النوافل فإن الله يشكره . وشُكر الله للعبد إثابتــه على الطاعة . والصحيح ما ذهب إليه الشافعي رحمه الله تعالى لمــا ذكرنا ، وقوله عليه السلام : " خذوا عنّي مناسككم " فصار بيانًا لمجمل الحج ؛ فالواجب أن يكون فرضًا ؛ كبيانه لعدد الركعات ، وما كان مثل ذلك إذا لم يتفق على أنه سُنّة أو تطوّع . وقال طُليب : رأى آبن عباس قوما يطوفون بين الصفا والمروة فقال : هذا ما أورثتكم أُمّكم أم إسماعيل .

---

(1) شدًا : أي عدْوًا .　　(2) العتبية : كتاب في مذهب الإمام مالك ، نسبت إلى مؤلفها فقيه الأندلس محمد بن أحمد بن عبد العزيز العتبي القرطبي المتوفى سنة ٢٥٤ هـ .

Marfat.com

قلت : وهذا ثابت فى صحيح البخارى ، على ما يأتى بيانه فى سورة « إبراهيم »[١]

التاسعة — ولا يجوز أن يطوف أحد بالبيت ولا بين الصفا والمروة راكبًا إلا من عذر ؛ فإن طاف معذورا فعليه دم ، وإن طاف غير معذور أعاد إن كان بحضرة البيت ، وإن غاب عنه أَهْدَى . إنما قلنا ذلك لأن النبى صلى الله عليه وسلم طاف بنفسه وقال : " خذوا عنى مناسككم " ، وإنما جوّزنا ذلك من العذر؛ لأن النبىّ صلى الله عليه وسلم طاف على بعيره وآستلم الركن بمِحْجَنِه[٢] ، وقال لعائشة وقد قالت له : إنى أشتكى ؛ فقال : " طُوفِى من وراء الناس وأنت راكبة " . وفرّق أصحابنا بين أن يطوف على بعير أو يطوف على ظهر إنسان؛ فإن طاف على ظهر إنسان لم يجزه؛ لأنه حينئذ لا يكون طائفا ، وإنما الطائف الحامل . وإذا طاف على بعير يكون هو الطائف . قال آبن خُوَيْزِمَنْدَاد: وهذه تفرقة آختيار، وأما الإجزاء فيجزئ؛ ألا ترى أنه لو أغمى عليه فَطِيف به محمولا ، أو وقف به بعرفات محمولًا كان مجزئا عنه .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ (١٥٩)

فيه سبع مسائل :

الأولى — أخبر الله تعالى أن الذى يكتم ما أنزل من البيّنات والهُدَى ملعون . وآختلفوا مَن المراد بذلك؛ فقيل : أحبار اليهود ورهبان النصارى الذين كتموا أمر محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد كتم اليهودُ أمرَ الرجم . وقيل : المراد كل من كتم الحق ؛ فهى عامة فى كل من كتم علمًا من دين الله يحتاج إلى بثّه ؛ وذلك مفسّر فى قوله صلى الله عليه وسلم : "من سئل عن علم [يعلمه][٣] فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار" . رواه أبو هريرة وعمرو بن العاص ، أخرجه آبن ماجه . ويعارضه قول عبد الله بن مسعود : ما أنت بمحدّث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة . وقال عليه السلام : " حدّث الناس بما يفهمون أتحبون أن

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٦٨ (٢) المحجن : عصا معوجة الرأس يتناول بها الراكب ما سقط له .
(٣) الزيادة عن سنن آبن ماجه .

Marfat.com

يكذب الله ورسوله ". وهذا محمول على بعض العلوم ، كعلم الكلام أو ما لا يستوى فى فهمه جميع العوام؛ فحكم العالم أن يُحدّث بما يُفهم عنه، وينزل كل إنسان منزلته؛ والله تعالى أعلم .

الثانيـــة — هـذه الآية هى التى أراد أبو هريرة رضى الله عنـه فى قوله : لولا آية[(1)] فى كتاب الله تعالى ما حدّثتكم حديثا . وبها آستدلّ العلماء على وجوب تبليغ العلم الحق، وتبيان العلم على الجملة، دون أخذ الأجرة عليه؛ إذ لا يستحق الأجرة على ما عليه فعله، كما لا يستحق الأجرة على الإسلام . وقد مضى القول[(2)] فى هذا .

وتحقيق الآية هو: أن العالم إذا قصـد كتمان العلم عصى، وإذا لم يقصده لم يلزمه التبليغ إذا عرف أنه مع غيره . وأمّا من سُئل فقد وجب عليه التبليغ لهذه الآية وللحديث . أما أنه لا يجوز تعليم الكافر القرآن والعلم حتى يُسلم، وكذلك لا يجوز تعليم المبتدع الجـدال والحِجاج ليجادل به أهل الحق ، ولا يُعلم الخصم على خصمه حجة يقطع بها ماله ، ولا السلطان تأويلا يتطرق به إلى مكاره الرعية، ولا ينشر الرُّخص فى السفهاء فيجعلوا ذلك طريقا إلى آرتكاب المحظورات، وترك الواجبات ونحو ذلك . يُرْوَى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا تمنعوا الحكمة أهلها فتظلموهم ولا تضعوها فى غير أهلها فتظلموها". وروى عنه صلى الله عليه وسـلم أنه قال : "لا تعلّقوا الدُّرّ فى أعناق الخنازير" ؛ يريد تعليم الفقه من ليس من أهله . وقد قال سُحْنون : إن حديث أبى هريرة وعمرو بن العاص إنما جاء فى الشهادة . قال آبن العربى : والصحيح خلافه ؛ لأن فى الحديث "مَن سُئل عن علم" ولم يقل عن شهادة ، والبقاء على الظاهر حتى يرد عليه ما يزيله ؛ والله أعلم .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ مِنَ الْبَيِّنَاتِ والْهُدَى ﴾ يعمّ المنصوص عليـه والمستنبط ؛ لشمول آسم الهُدَى للجميع . وفيه دليل على وجوب العمل بقول الواحد؛ لأنه لا يجب عليه البيان إلا وقد وجب قبول قوله ، وقال : « إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا» فحكم بوقوع البيان بخبرهم .

---

(١) الذى فى صحيح البخارى وسنن ابن ماجه : « لولا آيتان » .
(٢) راجع المسألة الثانيـة جـ ١ ص ٣٣٥ طبعة ثانية .

Marfat.com

فإن قيـل : إنه يجوز أن يكون كل واحد منهم منهياً عن الكتمان ومأموراً بالبيان ليكثر المخبرون ويتواتر بهـم الخبر . قلنا : هذا غلط ؛ لأنهم لم ينهوا عن الكتمان إلا وهم ممن يجوز عليهم التواطؤ عليـه ، ومن جاز منهم التواطؤ على الكتمان فلا يكون خبرهم موجباً للعلم؛ والله تعـالى أعلم .

الرابعـــة — لمـا قال : « مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى » دلّ على أن ما كان من غير ذلك جائز كتمه ، لا سيما إن كان مع ذلك خوف فإن ذلك آكد فى الكتمان . وقد ترك أبو هريرة ذلك حين خاف فقال : حفظت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وِعاءَيْن؛ فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته قُطع هذا البُلْعوم . أخرجه البخارى . قال أبو عبد الله (١) : البلعوم مجرى الطعام. قال علماؤنا : وهذا الذى لم يبثّه أبو هريرة وخاف على نفسه فيه الفتنة أو القتل إنما هو ممـا يتعـلق بأمر الفتن والنص على أعيان المرتدين والمنافقين ، ونحو هذا ممـا لا يتعلّق بالبينات والهدى ؛ والله تعالى أعلم .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ ﴾ الكناية فى « بيناه » ترجع إلى ما أنزل من البينات والهدى . والكتاب : اسم جنس ؛ فالمراد جميع الكتب المنزلة .

السادســـة — قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ ﴾ أى يتبرأ منهم ويبعـدهم من ثوابه ويقول لهم : عليكم لعنتى ؛ كما قال للّعين : « وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي » . وأصـل اللعن فى اللغة الإبعاد والطرد ؛ وقد تقدم (٢) .

السابعـــة — قوله تعالى : ﴿ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ قال قتادة والربيع : المراد بـ«اللاعنون» الملائكة والمؤمنون . قال ابن عطية : وهـذا واضح جارٍ على مقتضى الكلام . وقال مجاهـد وعكرمة : هم الحشرات والبهائم يصيبهم الجدْب بذنوب علمـاء السوء الكاتمين فيلعنونهـم . قال الزجاج : والصواب قول من قال : « اللاعنون » الملائكة والمؤمنون ؛ فأما أن يكون ذلك لدواب الأرض فلا يوقف على حقيقته إلا بنص أو خبر لازم ولم نجد من ذَيْنِك شيئا .

---

(١) أبو عبد الله : كنية البخارى رضى الله عنه . (٢) يراجع ص ٢٥ من هذا الجزء .

قلت : قد جاء بذلك خبر رواه البراء بن عازب رضى الله عنه قال قال رســول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : « يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّاعِنُونَ » قال : " دواب الأرض " . أخرجه ابن ماجه عن محمد بن الصباح أنبأنا عمار بن محمد عن ليث عن أبى المنهال عن زاذان عن البراء ؛ إسناد حسن .

فإن قيـل : كيف جمع من لا يعقل جمـع من يعقل؟ . قيل : لأنه أسـند إليهم فعل من يعقل ؛ كما قال « رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ »(١) ولم يقل ساجدات ، وقـد قال : « لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا »(٢) ، وقال : « وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ »(٣) ، ومثله كثير ، وسيأتى إن شاء الله تعـالى . وقال البراء بن عازب وابن عباس : «اللاعنون» كل المخلوقات ما عدا الثقلين : الجن والإنس ؛ وذلك أن النبيّ صلى الله عليه وسـلم قال : " الكافر إذا ضُرب فى قبره فصاح سمعـه الكل إلا الثقلين ولعنه كل سامع " . وقال ابن مسعود والسُّدّى : هو الرجل يلعن صاحبه فترتفع اللعنة إلى السماء ثم تنحدر فلا تجد صاحبها الذى قيلت فيه أهلًا لذلك ، فترجع إلى الذى تكلم بها فلا تجـده أهلًا فتنطلق فتقع على اليهـود الذين كتموا ما أنزل الله تعـالى ؛ فهو قوله : « وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّاعِنُونَ » فمن مات منهم ارتفعت اللعنة عنه فكانت فيمن بقى من اليهود .

قوله تعـالى : إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا ﴾ استثنى تعالى التائبين الصالحين لأعمالهم وأقوالهم المنيبين لتوبتهم . ولا يكفى فى التوبة عند علمائنا قول القائل : قد تبت ، حتى يظهر منه فى الثانى خلاف الأوّل ؛ فإن كان مرتدًّا رجع إلى الإسـلام مظهرا شرائعـه ، وإن كان من أهـل المعاصى ظهر منه العمل الصالح ، وجانب أهل الفساد والأحوال التى كان عليها . وإن كان من أهل الأوثان جانبهم وخالط أهل الإسلام ، وهكذا يظهر عكس ما كان عليه . وسيأتى بيان التـوبة وأحكامها فى « النساء »(٤) إن شاء الله تعـالى . وقال بعض العلماء فى قـوله :

(١) راجع جـ ٩ ص ١٢٢ (٢) راجع جـ ١٥ ص ٣٥٠ (٣) راجع جـ ٧ ص ٣٤٤
(٤) راجع جـ ٥ ص ٩١

Marfat.com

﴿ وَبَيَّنُوا ﴾ أى بكسر الخمر وإراقتها . وقيل : « بَيَّنُوا » يعنى ما فى التوراة من نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ووجوب آتباعه . والعموم أولى على ما بيّناه؛ أى بيّنوا خلاف ما كانوا عليه؛ والله تعالى أعلم . ﴿ فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (١) تقدّم والحمد لله .

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ الواو واو الحال . قال ٱبن العربى : قال لى كثير من أشياخى إن الكافر المعيّن لا يجوز لعنه؛ لأن حاله عند الموافاة لا تُعلم ، وقد شرط الله تعالى فى هذه الآية فى إطلاق اللعنة : الموافاة على الكفر؛ وأما ما رُوِىَ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه لعن أقواما بأعيانهم من الكفار فإنما كان ذلك لعلمه بمآلهم . قال ٱبن العربى : والصحيح عندى جواز لعنه لظاهر حاله ولجواز قتله وقتاله؛ وقد رُوِىَ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "اللّهُمّ إن عمرو بن العاص هجانى وقد علم أنى لست بشاعر فٱلعنه وٱهجه عدد ما هجانى" . فلعنه ، وإن كان الإيمان والدّين والإسلام مآله . وٱنتصف بقوله : "عدد ما هجانى" ولم يزد ليعلم العدل والإنصاف ، وأضاف الهَجْوَ إلى الله تعالى فى باب الجزاء دون الآبتداء بالوصف بذلك؛ كما يضاف إليه المكر والآستهزاء والخديعة . سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون عُلُوًّا كبيرًا .

قلت : أما لعن الكفار جملة من غير تعيين فلا خلاف فى ذلك؛ لما رواه مالك عن داود ابن الحُصَين أنه سمع الأعرج يقول : ما أدركت الناس إلا وهم يلعنون الكفرة فى رمضان . قال علماؤنا : وسواء كانت لهم ذمّة أم لم تكن ، وليس ذلك بواجب ، ولكنه مباح لمن

(١) تراجع المسألة الخامسة وما بعدها جـ ١ ص ٣٢٥ طبعة ثانية .

Marfat.com

فعـله ؛ بجحدهم الحق وعداوتهم للدّين وأهـله . وكذلك كل مَن جاهر بالمعاصى كشُرّاب الخمر وأكلة الرّبا ، ومَن تشبّه من النساء بالرجال ومن الرجال بالنساء ، إلى غير ذلك ممـا ورد فى الأحاديث لعنه .

الثانيـــة — ليس لعن الكافر بطريق الزّجْر له عن الكفر ؛ بل هو جزاء على الكفر وإظهار قبح كفره ، كان الكافر ميتاً أو مجنوناً . وقال قوم من السلف : إنه لا فائدة فى لعن مَن جُنّ أو مات منهم ، لا بطريق الجزاء ولا بطريق الزجر ، فإنه لا يتأثّر به .

والمراد بالآية على هـذا المعنى أن الناس يلعنونه يوم القيامة ليتأثّر بذلك ويتضرّر ويتألّم قلبه ، فيكون ذلك جزاء على كفره ، كما قال تعالى : « ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا »[1] ، ويدل على هـذا القول أن الآية دالة على الإخبار عن الله تعـالى بلعنهم ، لا على الأمر . وذكر ابن العـربى أن لعن العاصى المعيَّن لا يجوز إتفاقاً ؛ لمـا روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه أُتِيَ بشارب خمر مراراً ، فقال بعض من حضره : لعنه الله ، ما أكثر ما يُؤتَى به ! فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لا تكونوا عَوْن الشيطان على أخيكم" فجعل له حُرمة الأخوة ؛ وهذا يوجب الشفقة ، وهذا حديث صحيح .

قلت : خرّجه البخارى ومسلم . وقـد ذكر بعض العلماء خلافاً فى لعن العاصى المعيَّن ؛ قال : وإنمـا قال عليه السلام : "لا تكونوا عَوْن الشيطان على أخيكم" فى حق نُعيمان[2] بعد إقامة الحدّ عليـه ؛ ومن أقيم عليه حدّ الله تعالى فلا ينبغى لعنه ، ومَن لم يُقَم عليه الحدّ فلعنته جائزة سـواء سُمِّىَ أو عُيِّن أم لا ؛ لأن النبيّ صلى الله عليـه وسلم لا يلعن إلا من تجب عليـه اللعنة ما دام على تلك الحالة الموجبة للّعن ؛ فإذا تاب منها وأقلع وطهّره الحدّ فلا لعنة تتوجّه عليه . وبيّن هذا قولُه صلى الله عليه وسلم : "إذا زَنَت أَمَةُ أحدِكم فليجلدها الحدّ ولا يُثَرِّب"[3] .

---

(١) راجع جـ ١٣ ص ٣٣٩ (٢) نعيمان : هو ابن عمرو بن رفاعة ، شهد العقبة وبدرا والمشاهد بعدها ، وكان كثير المزاح ، يضحك النبيّ صلى الله عليه وسلم من مزاحه . (عن أسد الغابة) .

(٣) قال ابن الأثير فى النهاية : « أى لا يوبخها ولا يقرعها بالزنا بعد الضرب . وقيل : أراد لا يقنع فى عقوبتها بالتثريب بل يضربها الحدّ » .

Marfat.com

فدلّ هذا الحديث مع صحته على أن التثريب واللّعن إنمـا يكون قبل أخذ الحدّ وقبل التوبة ؛ والله تعـالى أعلم .

قال آبن العربى : وأما لعن العاصى مطلقًا فيجوز إجماعاً ؛ لمـا روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لعن الله السارق يَسْرِق البَيْضة فتُقْطع يده" .

الثالثــة — قوله تعـالى : ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ أى إبعادهم من رحمته . وأصل اللعن : الطرد والإبعاد؛ وقد تقدّم[1]. فاللعنة من العباد الطرد، ومن الله العذاب . وقرأ الحسن البصرى « والملائكةُ والنّاسُ أجمعون » بالرفع . وتأويلها : أولئك جزاؤهم أن يلعنهم الله ويلعنهم الملائكة ويلعنهم الناس أجمعون؛ كما تقول : كرهت قيام زيد وعمرٌو وخالدٌ؛ لأن المعنى : كرهت أن قام زيد . وقراءة الحسن هذه مخالفة للصاحف .

فإن قيل : ليس يلعنهم جميع الناس لأن قومهم لا يلعنونهم؛ قيل عن هذا ثلاثة أجوبة؛ أحدها — أن اللعنة من أكثر الناس يطلق عليها لعنة الناس تغليباً لحكم الأكثر على الأقل . الثـانى — قال السُّدّى : كل أحد يلعن الظالم ، وإذا لعن الكافرُ الظالمَ فقـد لعن نفسه . الثالث — قال أبو العالية : المراد به يوم القيامة يلعنهم قومهم مع جميع الناس؛ كما قال تعالى: « ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا »[2] . ثم قال جل وعز : ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ يعنى فى اللعنة ؛ أى فى جزائها . وقيـل : خلودهم فى اللعنة أنهـا مؤبدة عليهم ﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ أى لا يؤخّرون عن العذاب وقتاً من الأوقات . و« خالدين » نصب على الحال من الهـاء والميم فى « عليهم » ؛ والعامل فيـه الظرف من قوله : « عليهم » لأن فيها معنى آستقرار اللعنة .

قوله تعـالى : وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ لمـا حذّر تعالى من كتمان الحق بيّن أن أوّل ما يجب إظهاره ولا يجوز كتمانه أمر التوحيد، ووصل ذلك بذكر البرهان، وعلم طريق

(١) راجع ص ٢٥ من هذا الجزء . (٢) راجع جـ ١٣ ص ٣٣٩

Marfat.com

النظر ، وهو الفكر فى عجائب الصنع ؛ ليعلم أنه لابدّ له من فاعل لا يشبهه شيء . قال ابن عباس رضى الله عنهما : قالت كفار قريش : يا محمد انسب لنا ربك ؛ فأنزل الله تعالى سورة « الإخلاص » وهذه الآية . وكان للشركين ثلثمائة وستون صنما ؛ فبيّن الله أنه واحد .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ نفىٌ وإثبات . أوّلها كفر وآخرها إيمان ، ومعناه لامعبود إلا الله . وحُكى عن الشّبلىّ رحمه الله أنه كان يقول : الله ؛ ولا يقول : لا إلٰه ؛ فسُئل عن ذلك فقال أخشى أن آخذ فى كلمة الجحود ولا أصل إلى كلمة الإقرار .

قلت : وهذا من علومهم الدقيقة ، التى ليست لها حقيقة ؛ فإن الله جلّ اسمه ذكر هذا المعنى فى كتابه نفيًا وإثباتًا وكرره ، ووعد بالثواب الجزيل لقائله على لسان نبيّه صلى الله عليه وسلم ؛ خرّجه الموطأ والبخارىّ ومسلم وغيرهم . وقال صلى الله عليه وسلم : " من كان آخر كلامه لا إلٰه إلا الله دخل الجنة " . خرّجه مسلم . والمقصود القلب لا اللسان ؛ فلو قال : لا إلٰه ومات ومعتقده وضميره الوحدانية وما يجب له من الصفات لكان من أهل الجنة باتفاق أهل السُّنة . وقد أتينا على معنى اسمه الواحد ، ولا إلٰه إلا هو والرحمن الرحيم فى « الكتاب الأسنى ، فى شرح أسماء الله الحسنى » . والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

فيه أربع عشرة مسألة :

الأولى — قال عطاء : لما نزلت « وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ » قالت كفار قريش : كيف يسع الناس إلٰه واحد ! فنزلت « إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » . ورواه سفيان عن أبيه

Marfat.com

عن أبى الضُّحى قال : لمـا نزلت « و إلهكم إله واحد » قالوا هـل من دليـل على ذلك ؟ فأنزل الله تعالى «إن فى خلق السموات والأرض» فكأنهم طلبوا آية فبيّن لهم دليل التوحيد، وأن هذا العالم والبناء العجيب لابدّ له من بانٍ وصانع . وجَمَعَ السموات لأنها أجناس مختلفة كل سماء من جنس غير جنس الأخرى . ووَحّدَ الأرض لأنها كلها تراب؛ والله تعالى أعلم.

فآية السموات : آرتفاعها بغير عمد من تحتها ولا علائق من فوقها؛ودلّ ذلك على القدرة وخرق العادة . ولو جاء نبيّ فتُحدِّى بوقوف جبل فى الهواء دون علاقة كان معجزًا . ثم ما فيها من الشمس والقمـر والنجوم السائرة والكواكب الزاهرة شارقة وغاربة نـيِّرة وممحوّة آية ثانيـة .

وآية الأرض : بحارها وأنهارها ومعادنها وشجرها وسهلها ووَعرها .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿وَٱخْتِلَافِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ قيل : اختلافهما بإقبال أحدهما و إدبار الآخر من حيث لايعلم . وقيل : اختلافهما فى الأوصاف من النور والظلمة والطول والقصر . والليل جمع ليلة؛ مثل تَمْرة وتَمْر ونخلة ونخل . و يجمع أيضا ليالى وليال بمعنًى، وهو ممـا شذّ عن قياس الجمـوع؛ كشَبه ومشابه وحاجة وحوائج وذكر ومذاكر ؛ وكأن ليـالى فى القياس جمع ليلاة . وقد آستعملوا ذلك فى الشعر قال :

* فى كلّ يوم وكل ليـلاة *

وقال آخر :

فى كلّ يومٍ ماوكُلّ لَيْـلاه * حتى يقول كلُّ راءٍ إذ رآه

* يا وَيْحَهُ من جَمَلٍ ما أشقاه *

قال آبن فارس فى المُجمل : و يقال إنّ بعض الطير يسمى ليلا ؛ ولا أعرفه . والنهار يجمع نُهُر وأنهِرَة[1] . قال أحمد بن يحيى ثعلب : نَهَر جمع نُهُر وهو جمع [الجمع][2] للنهار، وقيل النهار آسم

(١) قال الجوهرى فى الصحاح : « وذكر قوم أن الليل ولد الكروان ، وأن النهار ولد الحبارى ؛ وقد جاء ذلك فى بعض الأشعار » . (٢) زيادة عن اللسان .

مفرد لم يجمع لأنه بمعنى المصدر، كقولك الضياء، يقع على القليل والكثير . والأول أكثر؛ قال الشاعر :

لولا الثَّرِيدانِ هَلَكْنا بالضُّمُرْ * ثَرِيدُ لَيْـلٍ وثَرِيدٌ بالنُّهُـرْ

قال ٱبن فارس : النهار معروف ، والجمع نهر وأنهار . ويقال : إن النهار يجمع على النهر . والنهار: ضياء ما بين طلوع الفجر إلى غروب الشمس . ورَجُل نَهِرٌ: صاحب نهار . ويقال: إن النّهار فَرْخ الحُبَارى . قال النَّضر بن شُمَيْل : أوّل النهار طلوع الشمس ، ولا يُعَدّ ما قبل ذلك من النهار . وقال ثعلب : أوّله عند العرب طلوع الشمس ؛ وٱستشهد بقول أُمَيّة بن أبي الصَّلْت .

والشمس تطلع كلَّ آخرِ ليلةٍ * حمراء يُصبِح لونُهَا يتـورّد

وأنشد قول عَدِىّ بن زيد :

وجاعلُ الشمسِ مِصْرًا[1] لاخفاءَ به * بين النهار وبين الليل قد فَصَلَا

وأنشد الكسائى :

إذا طلعت شمس النهـار فإنها * أمارة تسليمى عليك فسلِّمى

قال الزجاج فى كتاب الأنواء : أوّل النهـار ذرور الشمس . وقسّم ٱبن الأنبـارى الزمن ثلاثة أقسام : قسمًا جعله ليلًا محضًا ؛ وهو من غروب الشمس إلى طلوع الفجر . وقسمًا جعله نهارًا محضًا ؛ وهو من طلوع الشمس إلى غروبها . وقسمًا جعله مشتركًا بين النهار والليل ؛ وهو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، لبقايا ظلمة الليل ومبادئ ضوء النهار .

قلت : والصحيح أن النهار من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ؛ كما رواه ٱبن فارس فى المُجْمَل ؛ يدلّ عليه ما ثبت فى صحيح مسلم عن عَدِىّ بن حاتم قال : لما نزلت «حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ» قال له عَدِىّ : يا رسول الله ، إنى أجعل تحت وسادتى عِقالين : عقالًا أبيض وعقالًا أسودَ، أعرف بهما الليل من النهار. فقال

(١) المصر : الحاجز بين الشيئين .

Marfat.com

رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن وِسادك لعريض إنمـا هو سواد الليل و بياض النهار" .
فهـذا الحديث يقضى أن النهار من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، وهو مقتضى الفقـه فى الأيمـان ، و به ترتبط الأحكام . فمن حلف ألّا يُكلّم فلانا نهارا فكلّمه قبل طلوع الشمس حَنِث ، وعلى الأوّل لا يحنَث . وقولُ النبيّ صلى الله عليه وسلم هو الفَيْصل فى ذلك والحَكَم .
وأمّا على ظاهر اللغة وأخذه من السُّنّة فهو من وقت الإسفار إذا آتسع وقت النهار، كما قال[1]:

مَلَكتُ بهـا كَفّى فأنهرتُ فتقها • يرى قائمٌ من دونها ما وراءها

وقد جاء عن حذيفة ما يدلّ على هذا القول ، خرّجه النسائى[2] . وسيأتى فى آى الصيام إن شاء الله تعـالى .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ ﴾ الفلك : السفن ، و إفراده وجمعـه بلفظ واحد ، ويذكّر ويؤنّث . وليست الحركات فى المفرد تلك بأعيانها فى الجمع ، بل كأنه بَنَى الجمع بناء آخر ، يدلّ على ذلك توسّط التثنية فى قولهم : فُلْكان . والفلك المفرد مذكّر ، قال تعالى : « فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ[3] » فجاء به مذكّرا ، وقال : « وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ » فأنّث . ويحتمل واحدًا وجمعًا ، وقال : « حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ[4] » فجمع ، فكأنه يذهب بها إذا كانت واحدة إلى المَرْكب فيذكّر ، و إلى السفينة فيؤنّث . وقيل : واحده فلك ، مثل أَسد وأُسْد ، وخَشَب وخُشْب ، وأصله من الدّوران ، ومنه : فلك السماء التى تدور عليه النجوم . وفَلَّكت الجاريةُ آستدار ثديها ، ومنه فَلْكة المِغْزَل . وسُمّيت السفينة فُلْكا لأنها تدور بالمـاء أسهل دور .

ووجه الآية فى الفلك : تسخيرالله إيّاها حتى تجرى على وجه المـاء ووقوفها فوقه مع ثقلها . وأوّل من عملها نوح عليه السلام كما أخبر تعالى ، وقال له جبريل : اصنعها على جُؤجُؤ[5] الطائر ، فعملها نوح عليه السـلام وراثة فى العالمين بمـا أراه جبريل . فالسفينة طائر مقلوب والمـاء فى أسفلها نظير الهواء فى أعلاها ، قاله آبن العربى .

---

(١) هو قيس بن الخطيم ، يصف طعنة . (٢) راجع ص ٢٧٣ من هذا الجزء . (٣) راجع جـ ١٥ ص ٣٤ . (٤) راجع جـ ٨ ص ٣٢٤ . (٥) الجؤجؤ : الصدر . وقيل : عظامه .

الرابعـــة ــ هذه الآية وما كان مثلها دليـــل على جواز ركوب البحر مطلقًا لتجارة كان أو عبـادة ، كالحج والجهاد . ومن السُّنة حديث أبي هريرة قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسـلم فقال : يا رسول الله ، إنا نركب البحر ونحمل معنا القليـل من المـاء . الحديث . وحديث أنس بن مالك فى قصة أم حرام ؛ أخرجهما الأئمة : مالك وغيره . روى حديث أنس عنــه جماعةٌ عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس ، ورواه بشر بن عمر عن مالك عن إسحاق عن أنس عن أم حرام ؛ جعله من مسند أم حرام لا من مسند أنس . هكذا حدّث عنه به بُنْدار محمد بن بشار ؛ ففيه دليل واضح على ركوب البحر فى الجهاد للرجال والنساء ؛ و إذا جاز ركوبه للجهاد فركوبه للحج المفـترض أولى وأوجب . وروى عن عمـر آبن الخطاب وعمر بن عبد العزيز رضى الله عنهما المنع من ركوبه . والقرآن والسُّنة يرد هـذا القول ؛ ولو كان ركوبه يكره أو لا يجوز لنهى عنه النبيّ صلى الله عليه وسـلم الذين قالوا له : إنا نركب البحر . وهـذه الآية وما كان مثلها نَصٌّ فى الغـرض و إليها المفزع . وقـد تُؤوِّل ما روى عن العُمَرين فى ذلك بأن ذلك محمـول على الآحتياط وترك التغـرير بالمهج فى طلب الدنيا والآستكثار منها ، وأما فى أداء الفـرائض فلا . ومما يدلّ على جواز ركوبه من جهة المعنى أن الله تعالى ضرب البحر وسط الأرض وجعل الخلق فى العُدْوَتين[1] ، وقسّم المنافع بين الجهتين فلا يوصل إلى جانبها إلا بشَقّ البحر لها ؛ فسهّل الله سبيله بالفُلْك ؛ قاله آبن العربى. قال أبو عمر : وقد كان مالك يكره للمرأة الركوب للحج فى البحر ، وهـو للجهاد لذلك أكره . والقرآن والسُّنة يردّ قوله ، إلا أن بعض أصحابنا من أهـل البصرة قال : إنما كره ذلك مالك لأن السفن بالحجاز صـغار ، وأن النساء لا يقـدرن على الآسـتتار عند الخلاء فيها لضيقها وتزاحم الناس فيها ؛ وكان الطريق من المدينـة إلى مكة على البرّ ممكنا ؛ فـلذلك كره مالك ذلك . وأمّا السفن الكبار نحو سفن أهـــل البصرة فليس بذلك بأس . قال : والأصل أن الحج على كل من آستطاع إليه سـبيلا من الأحرار البالغين ، نساء كانوا أو رجالا ، إذا كان الأغلب من الطريق الأمن ، ولم يخصّ بحرًا من برّ .

(١) العدوة : شاطئ الوادى .

قلت : فدل الكتاب والسّنة والمعنى على إباحة ركوبه للعنيين جميعا : العبادة والتجارة ؛ فهى الحجة وفيها الأُسوة . إلا أنّ الناس فى ركوب البحر تختلف أحوالهم ؛ فـرُبّ راكبٍ يسهل عليه ذلك ولا يشقّ ، وآخر يشق عليه و يضعف به ؛ كالمائد[1] المفرط المَيْد ، ومن لم يقدر معه على أداء فرض الصلاة ونحوها من الفرائض ؛ فالأوّل ذلك له جائز ، والثانى يحرم عليه و يمنع منه . ولا خلاف بين أهل العلم وهى :

الخامسة — إن البحر إذا أَرْتَج[2] لم يجز ركوبه لأحد بوجه من الوجوه فى حين ارتجاجه ولا فى الزمن الذى الأغلب فيه عدم السلامة ؛ و إنما يجوز عندهم ركوبه فى زمن تكون السلامة فيه الأغلب ؛ فإن الذين يركبونه حال السلامة و ينجون لا حاصر لهم ، والذين يهلكون فيه محصورون .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ﴾ أى بالذى ينفعهم من التجارات وسائر المآرب التى تصلح بها أحوالهم . وبركوب البحر تكتسب الأرباح ، وينتفع من يحمل إليه المتاع أيضا . وقد قال بعض من طعن فى الدِّين : إن الله تعالى يقول فى كتابكم : « مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِنْ شَىْءٍ[3] » فأين ذكر التوابل المصلحة للطعام من المِلْح والفُلْفُل وغير ذلك ؟ فقيل له فى قوله : « بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ » .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ ﴾ يعنى بها الأمطار التى بها إنعاش العالم و إخراج النبات والأرزاق ، وجعل منه المخزون عُدّة للانتفاع فى غير وقت نزوله ؛ كما قال تعالى : « فَأَسْكَنَّاهُ فِى الْأَرْضِ[4] » .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ﴾ أى فرّق ونشر؛ ومنه « كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ[5] » . ودابة تجمع الحيوان كله ؛ وقد أخرج بعض الناس الطير ، وهو مردود ؛

---

(١) المائد : الذى يركب البحر فتغثى نفسه حتى يدار به و يكاد يغشى عليه . (٢) أرتج البحر : إذا هاج . وقيل : إذا كثر ماؤه فعم كل شىء . (٣) راجع جـ ٦ ص ٤٢٠ (٤) راجع جـ ١٢ ص ١١٢
(٥) راجع جـ ٢٠ ص ١٦٥

قال الله تعــالى : «وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا»(١) فإن الطير يدبّ على رجليه في بعض حالاته؛ قال الأعشى :

* دبيب قطا البَطْحاء في كلِّ مَنْهَل *

وقال علقمة بن عبدة :

* صَواعِقُها لطيرهنّ دَبِيبُ *

التاســعة — قوله تعالى : ﴿ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ ﴾ تصريفها : إرسالها عقيماً ومُلْقِحة، وصِرّاً ونَصْراً وهلاكاً، وحارّة وباردة، ولَيّنة وعاصفة . وقيــل : تصريفها إرسالها جنوباً وشمالاً، ودَبوراً وصَبًا، ونَكْباء، وهي التي تأتي بين مَهَبّيْ ريحين . وقيل : تصريفها أن تأتي السفن الكبار بقدر ما تحملها، والصغار كذلك؛ ويصرف عنهما ما يضرّ بهما، ولا اعتبار بكبر القلاع ولا صغرها؛ فإن الريح لو جاءت جسداً واحداً لصدمت القلاع وأغرقت . والرياح جمع ريح سُمِّيت به لأنها تأتي بالروح غالباً . روى أبو داود عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "الرّيح من رَوْح الله تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب فإذا رأيتموها فلا تَسُبُّوها وآسألوا الله خيرها وآستعيذوا بالله من شرها"(٢) . وأخرجه أيضا آبن ماجه في سُنَنه حدّثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدّثنا يحيى بن سعيد عن الأوزاعي عن الزُّهري حدّثنا ثابت الزُّرَقي عن أبي هريرة قال قال رســول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تَسُبُّوا الريح فإنها من رَوح الله تأتي بالرحمة والعذاب ولكن سَلُوا الله من خيرها وتعوّذوا بالله من شرها" . وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا تسبُّوا الريح فإنها من نَفَس الرحمن" . المعنى : أن الله تعالى جعل فيها التفريج والتنفيس والترويح؛ والإضافةُ من طريق الفعل . والمعنى : أن الله تعالى جعلها كذلك . وفي صحيح مسلم عن آبن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "نُصِرْتُ بالصَّبَا وأُهْلِكَتْ عَادٌ بالدَّبُور"(٣) . وهذا معنى ما جاء في الخبر أن الله سبحانه وتعالى

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٦　　(٢) كذا ورد في سنن أبي داود . والذي في الأصول : « الريح من روح الله . قال سلمة : فروح الله عز وجل تأتي ... » الخ وسلمة هذا أحد من روى عنهم أبو داود هذا الحديث .

(٣) أي يوم الأحزاب . وسيأتي معنى « الصبا والدبور » .

Marfat.com

فرّج عن نبيّه صلى الله عليه وسلم بالريح يوم الأحزاب؛ فقال تعالى : « فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا »(١) . ويقال : نفّس الله عن فلان كُربة من كرب الدنيا ؛ أى فرّج عنه . وفى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه : "مَن نفّس عن مسلم كُربة من كُرَب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كُرَب يوم القيامة" أى فرّج عنه . وقال الشاعر :

كأنّ الصَّبا ريح إذا ما تنسّمت • على كَبِـد مهموم تجلّت همومُها

قال ٱبن الأعرابى : النسيم أوّل هبوب الريح . وأصل الريح روح ؛ ولهذا قيل فى جمع القلة أرواح ، ولا يقال : أرياح ؛ لأنها من ذوات الواو ، وإنما قيل : رياح من جهة الكثرة وطلب تناسب الياء معها . وفى مصحف حفصة « وتصريف الأرواح » .

العاشرة — قوله تعالى : ﴿ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَاحِ ﴾ قرأ حمزة والكسائى « الريح » على الإفراد ، وكذا فى الأعراف والكهف و إبراهيم والنمل والرُّوم وفاطر والشُّورى والجاثيـة ؛ لا خلاف بينهما فى ذلك . ووافقهما ٱبن كثير فى الأعراف والنمل والرُّوم وفاطر والشُّورى . وأفرد حمزة « الرِّيحَ لواقحَ »(٢) . وأفرد ٱبن كثير « وَهُوَ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيحَ »(٣) فى الفُرقان . وقرأ الباقون بالجمع فى جميعها سوى الذى فى إبراهيم والشورى فلم يقرأهما بالجمع سوى نافع ؛ ولم يختلف السبعة فيما سوى هذه المواضع . والذى ذكرناه فى الرُّوم هو الثانى « اللهُ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ »(٤) . ولا خلاف بينهم فى « الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ » . وكان أبو جعفر يزيد بن القَعْقاع يجمع الرياح إذا كان فيها ألف ولام فى جميع القرآن ؛ سوى « تَهْوِى بِهِ الرِّيحُ » و « الرِّيحَ العَقِيمَ » . فإن لم يكن فيه ألف ولام أفرد . فمن وحّد الريح فلأنه ٱسم للجنس يدل على القليل والكثير . ومن جمع فلاختلاف الجهات التى تهبّ منها الرياح . ومن جمع مع الرحمة ووحّد مع العذاب فإنه فعـل ذلك ٱعتبارا بالأغلب فى القرآن ؛ نحو : « الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ » و « الرِّيحَ العَقِيمَ » فجاءت فى القرآن مجموعة مع الرحمة مفردة مع العذاب؛ إلا فى يونس فى قوله : « وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ » . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا هبّت الريح : "اللهمّ ٱجعلها رياحًا ولا تجعلها ريحًا" . وذلك لأن ريح العذاب شديدة ملتئمة الأجزاء كأنها جسم

(١) راجع جـ ١٤ ص ١٤٣ (٢) راجع جـ ١٠ ص ١٥
(٣) راجع جـ ١٣ ص ٣٩ (٤) راجع جـ ١٤ ص ٤٤

Marfat.com

واحد ، وريح الرحمــة لينة متقطّعة فلذلك هي رياح . فأفـرِدت مع الفُلْك في « يونس » ؛ لأن ريح إجراء السفن إنما هي ريح واحدة متّصـلة ثم وُصفت بالطّيب فزال الاشتراك بينها وبين ريح العذاب .

الحــادية عشرة — قال العلماء : الرّيح تحرّك الهواء ؛ وقد يشتدّ ويضعف . فإذا بَدَت حركة الهواء من تجاه القبلة ذاهبةً إلى سَمْت القِبلة قيل لتلك الريح : « الصَّبَا » . وإذا بدت حركة الهواء من وراء القبلة وكانت ذاهبة إلى تجاه القبلة قيل لتلك الريح : « الدَّبُور » . وإذا بَدَت حركة الهواء عن يمين القِبلة ذاهبةً إلى يسارها قيل لها : « ريح الجنوب » . وإذا بَدَت حركة الهواء عن يسار القبلة ذاهبةً إلى يمينها قيـل لها : « ريح الشَّمال » . ولكل واحدة من هذه الرياح طبع ، فتكون منفعتها بحسب طبعها ؛ فالصَّبا حارّةٌ يابسة ، والدَّبورُ باردةٌ رطبة ، والجنوب حارّةٌ رطبةٌ ، والشَّمال باردةٌ يابسة . واختـلاف طباعها كاختلاف طبائع فصول السنة . وذلك أن الله تعالى وضـع للزمان أربعة فصول مرجعها إلى تغيير أحوال الهواء ؛ فجعل الربيع الذي هو أوّل الفصول حارًّا رَطْبًا ، ورتّب فيه النَّشْء والنُّمُوّ فتنزل فيه المياه ، وتُخرج الأرض زهرتها وتظهر نباتها ، ويأخذ الناس في غرس الأشجار وكثير من الزرع ، وتتوالد فيه الحيوانات وتكثر الألبان . فإذا ٱنقضى الرّبيـع تلاه الصيف الذي هو مشاكل للربيـع في إحدى طبيعتيه وهي الحـرارة ، ومباين له في الأخرى وهي الرطوبة ؛ لأن الهواء في الصيف حارّ يابس ، فتَنْضَج فيه الثمار وتيبس فيه الحبوب المزروعة في الربيع . فإذا ٱنقضى الصيف تبعه الخريف الذي هو مشاكل للصيف في إحدى طبيعتيه وهي اليبس ، ومباين له في الأخرى وهي الحرارة ؛ لأن الهواء في الخريف بارد يابس ، فيتناهى فيه صلاح الثمار وتيبس وتجفّ فتصير إلى حال الآدّخار ، فتُقطف الثمار وتُحصد الأعناب وتَفرغ من جمعها الأشجار . فإذا ٱنقضى الخـريف تلاه الشتاء وهـو ملائم للخريف في إحدى طبيعتيـه وهي البرودة ، ومباين له في الأخرى وهو اليبس ؛ لأن الهواء في الشتاء بارد رطب ، فتكثر الأمطار والثلوج وتَهْمُد الأرض كالجسد المستريح ؛ فلا تتحرّك إلّا أن يعيـد الله تبارك وتعـالى إليها حرارة

Marfat.com

الريح ، فإذا آجتمعت مع الرطوبة كان عند ذلك النَّشْء والنُّمُوّ بإذن الله سبحانه وتعالى .
وقد تهُبّ رياح كثيرة سوى ما ذكرناه ، إلّا أن الأصول هذه الأربع . فكل ريح تهُب بين
ريحين فحكمها حكم الريح التى تكون فى هبوبها أقرب إلى مكانها وتسمى « النَّكْباء » .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ والسَّحابِ المُسَخَّرِ بين السَّماءِ والأَرْضِ ﴾ سُمّى السحاب سحابا لآنسحابه فى الهواء . وسحبت ذَيْلى سَحْبًا . وتَسحّب فلان على فلان : اجترأ . والسَّحْب : شدّة الأكل والشرب . والمسخَّر : المذلَّل ؛ وتسخيره بعثه من مكان إلى آخر . وقيل : تسخيره ثبوته بين السماء والأرض من غير عمد ولا علائق ؛ والأوّل أظهر . وقد يكون بماء وبعذاب ؛ روى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "بينما رجلٌ بفلاة من الأرض فسمع صوتًا فى سحابة آسق حديقة فلان فتنحّى ذلك السحاب فأفرغ ماءه فى حَرّة فإذا شَرْجة (1) من تلك الشِّراج قد آستوعبت ذلك الماء كله فتتبّع الماء فإذا رجل قائم فى حديقته يحوّل الماء بمِسحاته فقال له يا عبد الله ما آسمك قال فلان للاسم الذى سَمِع فى السحابة فقال له يا عبد الله لم تسألنى عن آسمى فقال إنى سمعت صوتا فى السحاب الذى هذا ماؤه يقول آسق حديقة فلان لآسمك فما تصنع [فيها] (2) قال أمّا إذ قلتَ هذا فإنى أنظر إلى ما يخرج منها فأتصدّق بثلثه وآكل أنا وعيالى ثلثا وأردّ فيها ثلثه" . وفى رواية "وأجعل ثلثه فى المساكين والسائلين وآبن السبيل" . وفى التنزيل : « واللهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ » (3) ، وقال : « حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ » (4) وهو فى التنزيل كثير . وخرّج آبن ماجه عن عائشة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا رأى سحابا مقبلًا من أفق من الآفاق ترك ما هو فيه وإن كان فى صلاة حتى يستقبله فيقول : "اللَّهُمّ إنا نعوذ بك من شرّ ما أُرسل به" فإن أمطر قال : "اللَّهُمّ سَيْبًا نافعًا" مرتين أو ثلاثة ، وإن كشفه الله ولم يمطر حمد الله على ذلك . أخرجه مسلم بمعناه عن عائشة زوج النبيّ صلى الله عليه وسلم قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان يوم الرّيح والغيم عُرِف ذلك فى وجهه

(1) الحرة : أرض ذات أحجار سود . والشرجة : طريق الماء ومسيله . (2) الزيادة عن صحيح مسلم .
(3) راجع ج ١٤ ص ٣٢٦ (4) راجع ج ٧ ص ٢٢٩

وأقبل وأدبر؛ فإذا مطرت سُرّ به وذهب عنه ذلك. قالت عائشة: فسألته فقال: "إنى خشيت أن يكون عذابًا سُلّط على أمتى". ويقول إذا رأى المطر: "رحمة". فى رواية فقال: "لعله ياعائشة كما قال قوم عاد «فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِم قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا»"(١). فهذه الأحاديث والآى تدلّ على صحة القول الأوّل وأن تسخيرها ليس ثبوتها؛ والله تعالى أعلم. فإن الثبوت يدلّ على عدم الآنتقال؛ فإن أريد بالثبوت كونها فى الهواء ليست فى السماء ولا فى الأرض فصحيح؛ لقوله «بين» وهى مع ذلك مسخرة محمولة، وذلك أعظم فى القدرة، كالطير فى الهواء؛ قال الله تعالى: «أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ»(٢)، وقال: «أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ»(٣).

الثالثــة عشرة — قال كعب الأحبار: السحاب غِربال المطر، لولا السحاب حين ينزل المـاء من السماء لأفسد ما يقع عليه من الأرض؛ رواه عنه آبن عباس. ذكره الخطيب أبو بكر أحمد بن علىّ عن معاذ بن عبد الله بن خُبيب الجُهَنِيّ قال: رأيت آبن عباس مرّ على بغلة وأنا فى بنى سلمة، فمرّ به تُبَيْع آبن آمرأة كعب فسلّم على آبن عباس فسأله آبن عباس: هــل سمعت كعب الأحبار يقــول فى السحاب شيئا؟ قال: نعم؛ قال: السحاب غربال المطر، لولا السحاب حين ينزل المـاء من السماء لأفسد ما يقع عليــه من الأرض. قال: سمعتَ كعبًا يقول فى الأرض تنبت العـام نباتا، وتنبت عاما قابلاً غيره؟ قال نعم، سمعتــه يقول: إن البذر ينزل من السماء. قال آبن عباس: وقد سمعت ذلك من كعب.

الرابعة عشرة — قوله تعـالى: ﴿لَآيَاتٍ﴾ أى دلالات تدل على وحدانيّته وقدرته؛ ولذلك ذكر هذه الأمور عقيب قوله: «وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ» ليدلّ بهـا على صدق الخبر عما ذكره قبلها من وحدانيته سبحانه، وذكر رحمته ورأفته بخلقه. وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "وَيْلٌ لمن قرأ هذه الآية فمجّ بها" أى لم يتفكّر فيها ولم يعتبرها.

فإن قيل: فـا أنكرت أنها أحدثت أنفسها. قيل له: هــذا محال؛ لأنها لو أحدثت أنفسها لم تخل من أنـ تكون أحدثتها وهى موجودة أو هى معــدومة؛ فإن أحدثتها وهى

(١) راجع ج ١٦ ص ٢٠٥ (٢) راجع ج ١٠ ص ١٥٢ (٣) راجع ج ١٨ ص ٢١٧

Marfat.com

معدومة كان محالا ؛ لأن الإحداث لا يتأتى إلا من حىّ عالم قادر مريد ، وما ليس بموجود لا يصح وصفــه بذلك . و إن كانت موجودة فوجودها يغنى عن إحداث أنفسها . وأيضا فلو جاز ما قالوه لجاز أن يحدث البناء نفسه ، وكذلك النجارة والنسج ، وذلك محال ، وما أدّى إلى المحال محال . ثم أن الله تعالى لم يقتصر بها فى وحدانيته على مجرّد الأخبار حتى قرن ذلك بالنظـر والاعتبار فى آى من القرآن ؛ فقال لنبيه صلى الله عليه وسـلم : « قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ »(١) والخطاب للكفار ؛ لقوله تعالى : « وما تُغْنِي الآيَاتُ والنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ » ، وقال : « أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ »(٢) يعنى بالملكوت الآيات . وقال : « وفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ »(٣) . يقول : أو لم ينظروا فى ذلك نظر تفكر وتدبّر حتى يستدلّوا بكونها محلّا للحوادث والتغييرات على أنها محدَثات ، وأن المحدَث لا يستغنى عن صانع يصنعه ، وأن ذلك الصانع حكيم عالم قدير مريد سميع بصير متكلم ؛ لأنه لو لم يكن بهذه الصفات لكان الإنسان أكمل منه وذلك محال . وقال تعـالى : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ »(٤) يعنى آدم عليه السلام ، « ثُمَّ جَعَلْنَاهُ » أى جعلنا نسله وذرّيته « نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ » إلى قوله : « تُبْعَثُونَ » . فالإنسان إذا تفكّر بهذا التنبيه بمـا جُعل له من العقل فى نفسه رآها مدبَّرة وعلى أحوال شتّى مصرّفة . كان نُطفةً ثم عَلَقة ثم مُضْغة ثم لحمًـا وعظمًا ؛ فيعلم أنه لم ينقل نفسه من حال النقص إلى حال الكمال ؛ لأنه لا يقدر على أن يُحدث لنفسه فى الحال الأفضل التى هى كمال عقله و بلوغ أشُدّه عضوًا من الأعضاء ، ولا يمكنه أن يزيد فى جوارحه جارحة ؛ فيـدلّه ذلك على أنه فى حال نقصه وأوان ضعفه عن فعـل ذلك أعجز . وقـد يرى نفسه شابًّا ثم كهْلًا ثم شيخًا وهو لم ينقل نفســه من حال الشباب والقوّة إلى حال الشيخوخة والهرم . ولا اختاره لنفسه ولا فى وسعه أن يزايل حال المَشيب و يراجع قوّة الشباب ؛ فيعلم بذلك أنه ليس هو الذى فعل تلك الأفعال بنفسه ، وأن له صانعًا صنعه وناقلًا نقله من حال إلى حال ؛ ولولا ذلك لم تتبدّل أحواله بلا ناقل ولا مدبّر . وقال بعض الحكماء : إن كل شىء فى العـالم الكبير له نظير فى العالم الصغير ، الذى هـو بدن الإنسان ؛ ولذلك قال تعالى : « لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ » وقال : « وفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٨٦ (٢) جـ ٧ ص ٣٣٠ (٣) جـ ١٧ ص ٤٠ (٤) جـ ١٢ ص ١٠٩

تُبْصِرُونَ » . فحواسّ الإنسان أشرف من الكواكب المضيئة، والسمع والبصر منها بمنزلة الشمس والقمر فى إدراك المدركات بها، وأعضاؤه تصير عند البِلَى ترابًا من جنس الأرض؛ وفيه من جنس الماء العرق وسائر رطوبات البدن، ومن جنس الهواء فيه الروح والنَّفَس، ومن جنس النار فيه المِرّة الصفراء. وعروقه بمنزلة الأنهار فى الأرض، وكبده بمنزلة العيون التى تستمدّ منها الأنهار؛ لأن العروق تستمدّ من الكبد. ومثانته بمنزلة البحر؛ لانصباب مافى أوعية البدن إليها كما تنصب الأنهار إلى البحر. وعظامه بمنزلة الجبال التى هى أوتاد الأرض. وأعضاؤه كالأشجار؛ فكما أن لكل شجر ورقًا أو ثمرًا فكذلك لكل عضو فعل أو أثر. والشعر على البدن بمنزلة النبات والحشيش على الأرض. ثم إن الإنسان يحكى بلسانه كل صوت حيوان، ويحاكى بأعضائه صنيع كل حيوان؛ فهو العالَم الصغير مع العالَم الكبير مخلوق محدَث لصانع واحد، لا إله إلا هو.

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ ﴾

لمّا أخبر الله سبحانه وتعالى فى الآية قبلُ ما دلّ على وحدانيّته وقدرته وعِظَم سلطانه أخبر أن مع هذه الآيات القاهرة لذوى العقول من يتخذ معه أندادًا، وواحدها نِدٌّ، وقد تقدّم(١). والمراد الأوثان والأصنام التى كانوا يعبدونها كعبادة الله مع عجزها؛ قاله مجاهد.

قوله تعالى : ﴿ يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ ﴾ أى يحبون أصنامهم على الباطل كحب المؤمنين لله على الحق؛ قاله المبرّد، وقال معناه الزجاج. أى أنهم مع عجز الأصنام يحبّونهم كحب المؤمنين لله مع قدرته. وقال ابن عباس والسُّدّى : المراد بالأنداد الرؤساء المتبعون؛ يطيعونهم فى معاصى الله. وجاء الضمير فى «يُحِبُّونَهُمْ» على هذا على الأصل، وعلى الأول جاء ضمير الأصنام

(١) تراجع المسألة السادسة جـ ١ ص ٢٣٠ طبعة ثانية.

Marfat.com

ضمير مَن يعقل على غير الأصل . وقال ابن كَيْسان والزّجاج أيضا : معنى «يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ» أى يسوّون بين الأصنام و بين الله تعالى فى المحبة . قال أبو إسحاق : وهذا القول الصحيح ؛ والدليل على صحته : « والَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ » . وقرأ أبو رجاء «يَحبونهم» بفتح الياء . وكذلك ما كان منه فى القرآن ، وهى لغة ؛ يقال : حببت الرجل فهو محبوب . قال الفرّاء : أنشدنى أبو تراب :

أحبّ لحبّها السُّودان حتى * حببت لحبّها سُودَ الكلاب

و« مَن » فى قوله «مَنْ يَتَّخِذُ» فى موضع رفع بالابتداء ، و «يتخذ» على اللفظ، ويجوز فى غير القرآن «يتخذون» على المعنى، و «يحبُّونهم» على المعنى؛ و «يحبهم» على اللفظ، وهو فى موضع نصب على الحال من الضمير الذى فى «يتخذ» أى محبين، و إن شئت كان نعتا للأنداد؛ أى محبوبة . والكاف من «كحب» نعت لمصدر محذوف؛ أى يحبونهم حبًّا كحب الله . ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ أى أشدّ من حب أهل الأوثان لأوثانهم والتابعين لمتبوعهم . وقيل : إنما قال ﴿ والَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ لأن الله تعالى أحبهم أوّلا ثم أحبّوه . ومن شهد له محبو به بالمحبة كانت محبته أتمّ ؛ قال الله تعالى : « يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ » . وسيأتى بيان حبّ المؤمنين لله تعالى وحبه لهم فى سورة «آل عمران»(1) إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾ قراءة أهل المدينة وأهل الشام بالتاء ، وأهل مكة وأهل الكوفة وأبو عمرو بالياء؛ وهو اختيار أبى عبيد . وفى الآية إشكال وحذف؛ فقال أبو عبيد: المعنى لو يرى الذين ظلموا فى الدنيا عذاب الآخرة لعلموا حين يرونه أن القوّة لله جميعا . و « يرى » على هذا من رؤية البصر . قال النحاس فى كتاب «معانى القرآن» له : وهذا القول هو الذى عليه أهل التفسير. وقال فى كتاب «إعراب القرآن» له : وروى عن محمد بن يزيد أنه قال: هذا التفسير الذى جاء به أبو عبيد بعيد، وليست عبارته فيه بالجيدة ؛ لأنه يقدّر : ولو يرى الذين ظلموا العذاب؛ فكأنه يجعله مشكوكا فيه وقد أوجبه الله تعالى ؛ ولكن التقدير وهو قول الأخفش :

(1) راجع جـ ٤ ص ٥٩

Marfat.com

ولو يرى الذين ظلموا أن القوّة لله . و « يرى » بمعنى يعلم؛ أى لو يعلمون حقيقة قوّة الله عزّ وجلّ وشدّة عذابه؛ فـ «يرى» واقعة على أن القوّة لله، وسدّت مسدّ المفعولين . و « الذين » فاعل « يرى » ،وجواب « لو » محذوف؛ أى ليتبيّنُوا ضرر اتخاذهم الآلهة؛ كما قال عزّ وجلّ: « وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ »[1] ، « وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ »[1] ولم يأت لـ « لَوْ » جواب . قال الزهرى وقتادة : الإضمار أشدّ للوعيد؛ ومثله قول القائل : لو رأيتَ فلاناً والسياط تأخذه ! ومن قرأ بالتـاء فالتقدير : ولو ترى يا محمد الذين ظلموا فى حال رؤيتهم العـذاب وفزعهم منه وآستعظامهم له لأقرّوا أن القوّة لله ؛ فالجواب مضمر على هذا النحو من المعنى وهو العامل فى « أنّ » . وتقدير آخر : ولو ترى يا محمد الذين ظلموا فى حال رؤيتهم العذاب وفزعهم منه لعلمت أن القوّة لله جميعًا . وقد كان النبيّ صلى الله عليه وسلم علم ذلك، ولكن خوطب والمراد أمّته ؛ فإن فيهم من يحتاج إلى تقوية علمه بمشاهدة مثل هـذا . ويجوز أن يكون المعنى : قل يا محمد للظالم هذا . وقيـل : « أنّ » فى موضع نصب مفعول من أجله ؛ أى لأنّ القوّة لله جميعاً . وأنشد سيبويه :

وأغفـرُ عـوراءَ الكريمِ آدّخارَه * وأُعرِضُ عن شتم اللئيم تكرُّما

أى لآدّخاره ؛ والمعنى : ولو ترى يا محمد الذين ظلموا فى حال رؤيتهـم للعذاب لأنّ القوّة لله لعلمت مبلغهم من النكال ولآستعظمت ما حلّ بهم . ودخلت « إذ » وهى لمـا مضى فى إثبات هذه المستقبلات تقريبًا للأمر وتصحيحًا لوقوعه . وقرأ آبن عامر وحده « يرون » بضم الياء، والباقون بفتحها . وقرأ الحسن ويعقوب وشَيبة وسَلّام وأبو جعفر « إن القوّة، وإن الله » بكسر الهمزة فيهما على الآستئناف أو على تقـدير القول ؛ أى ولو ترى الذين ظلموا إذ يرون العذاب يقولون إن القوّة لله . وثبت بنصّ هذه الآية القوّة لله، بخلاف قول المعتزلة فى نفْيهم معانى الصفات القديمة؛ تعالى الله عن قولهم .

قوله تعـالى : إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾

(١) راجع جـ ٦ ص ٤١١ ، ٤٠٨

قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا ﴾ يعنى السادة والرؤساء تبرءوا ممن آتبعهم على الكفر؛ عن قتادة وعطاء والربيع . وقال قتادة أيضا والسُّدّى : هم الشياطين المضلّون تبرءوا من الإنس . وقيل : هو عام فى كل متبوع . ﴿ وَرَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ يعنى التابعين والمتبوعين؛ قيل : بتيقّنهم له عند المعاينة فى الدنيا . وقيل : عند العرض والمُساءلة فى الآخرة .

قلت : كلاهما حاصل ، فهم يعاينون عند الموت ما يصيرون إليه من الهوان، وفى الآخرة يذوقون أليم العذاب والنَّكال .

قوله تعـالى : ﴿ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾ أى الوُصُلات التى كانوا يتواصلون بهـا فى الدنيا من رَحِم وغيره؛ عن مجاهد وغيره . الواحد سَبَب ووُصْلة . وأصل السَّبب الحبل يشدّ بالشيء فيجذبه؛ ثم جعـل كل ماجرّ شيئا سببًا . وقال السُّدّى وآبن زيد : إن الأسباب أعمالهم . والسبب الناحية؛ ومنه قول زُهير :

ومن هاب أسباب المنـايا ينلنه * ولو رام أسـبابَ السماء بسُـلَّم

قوله تعـالى : وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً ﴾ « أنّ » فى موضع رفع؛ أى لو ثبت أن لنا رَجْعة ﴿ فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ ﴾ جواب التمنّى . والكَرّة : الرجعة والعودة إلى حال قد كانت؛ أى قال الأتباع : لو رُددنا إلى الدنيـا حتى نعمل صالحا ونتبرّأ منهم ﴿ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ﴾ أى تبرّأ كما؛ فالكاف فى موضع نصب على النعت لمصدر محذوف . ويجوز أن يكون نصبًا على الحال، تقديرها متبرّئين؛ والتبرّؤ الآنفصال .

قوله تعـالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ﴾ الكاف فى موضـع رفع ؛ أى الأمر كذلك . أى كما أراهم الله العذاب كذلك يريهم الله أعمالهم . و« يُرِيهِمُ اللَّهُ » قيل :

Marfat.com

هى من رؤية البَصَر، فيكون متعدّياً لمفعولين : الأول الهـاء والميم فى « يُرِيهم » . والثـانى « أعمـالَهم » ؛ وتكون « حَسَراتٍ » حال . ويحتمل أن يكون من رؤية القلب ؛ فتكون « حسراتٍ » المفعول الثالث . « أعمالَهم » قال الربيع : أى الأعمال الفاسدة التى آرتكبوها فوجبت لهم بها النـار . وقال آبن مسعود والسُّدّى : الأعمال الصالحـة التى تركوها ففاتتهم الجنـة؛ ورُوِيَت فى هذا القول أحاديث . قال السدّى : ترفع لهم الجنـة فينظرون إليها و إلى بيوتهم فيها لو أطاعوا الله تعالى، ثم تقسم بين المؤمنين فذلك حين يندمون . وأضيفت هـذه الأعمال إليهم من حيث هم مأمورون بها ، وأما إضافة الأعمال الفاسدة إليهم فمن حيث عملوها . والحسْرة واحدة الحسرات، كتمرة وتمرات، وجَفْنة وجَفَنات، وشَهْوة وشَهوات . هذا إذا كان آسمًا، فإن نعته سكّنت، كقولك : ضَخْمة وضَخْمات، وعَبْلة وعَبْلات . والحسْرة أعلا درجات الندامة على شىء فائت . والتحسّر : التلهّف؛ يقال : حَسِرت عليه (بالكسر) أحْسَر حَسَرًا وحَسْرة . وهى مشتقّة من الشىء الحسير الذى قد آنقطع وذهبت قوّته، كالبعير إذا عَيِيَ . وقيل : هى مشتقّة من حَسَر إذا كشف؛ ومنه الحاسر فى الحرب : الذى لا دِرْعَ معه . والانحسار : الانكشاف .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ دليـل على خلود الكفار فيها وأنهـم لا يخرجون منها . وهذا قول جماعة أهل السُّنّة؛ لهذه الآية، ولقوله تعالى : « وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حتى يَلِجَ الجَمَلُ فى سَمِّ الخِيَاطِ » . وسيأتى (١) .

قوله تعـالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (١٦٨)

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّها النَّاسُ ﴾ الآية . قيـل : إنها نزلت فى ثقيف وخزاعة وبنى مُدْلِج فيما حرّموه على أنفسهم من الأنعام؛ واللفظ عامّ . والطَّيِّب هنا الحلال ؛ فهو تأكيد لاختـلاف اللفظ ؛ وهـذا قول مالك فى الطَّيِّب . وقال الشافعى : الطَّيِّب المستلَذّ ؛ فهو

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٠٦ .

Marfat.com

تنو يع، ولذلك يمنع أكل الحيوان القَذِر. وسيأتى بيان هذا فى «الأنعام»[1] و«الأعراف»[1] إن شاء الله تعـالى .

الثـانيـــة — قوله تعالى : ﴿ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ «حلالًا» حال، وقيـل مفعول . وسُمِّىَ الحلال حلالًا لانحلال عقدة الحَظْر عنـه . قال سهـل بن عبد الله : النّجاة فى ثلاثة : أكل الحلال ، وأداء الفرائض ، والاقتداء بالنبيّ صلى الله عليه وسلم . وقال أبو عبـد الله الساجى واسمه سعيد بن يزيد: خمس خصال بها تمام العلم، وهى: معرفة الله عز وجل، ومعرفة الحق و إخلاص العمل لله، والعمل على السُّنة، وأكل الحلال؛ فإن فُقدت واحدة لم يُرْفع العمل . قال سهل : ولا يصح أكل الحلال إلا بالعلم، ولا يكون المـال حلالا حتى يصفُوَ من ست خصال : الربا والحرام والسُّحْت — وهو اسم مجمل — والغُلول والمكروه والشُّبهة .

الثالثـة — قوله تعـالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا ﴾ نَهْىٌ ﴿ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ «خُطُوات» جمع خَطْوة وخُطْوة بمعنًى واحد . قال الفـرّاء : الخطوات جمع خَطوة ؛ بالفتح . وخُطوة (بالضم) : ما بين القدمين . وقال الجَوْهرى : وجمع القِلّة خَطْوات وخُطُوات وخَطَوات، والكثير خُطًا . والخَطْوة (بالفتح) : المرّة الواحدة، والجمع خَطَوات (بالتحريك) وخِطاء؛ مثل رَكْوة ورِكاء؛ قال امرؤ القيس :

لهـا وَثَباتٌ كوَثْب الظِّباءْ ❊ فَـوادٍ خِطاءٌ ووادٍ مَطَــر[2]

وقرأ أبو السَّمال العَدَوى وعُبيد بن عُمير «خَطَوات» بفتح الخـاء والطاء . وروى عن علىّ بن أبى طالب وقتادة والأعرج وعمرو بن مَيمون والأعمش «خُطُؤات» بضم الخاء والطاء والهمزة على الواو. قال الأخفش: وذهبوا بهذه القراءة إلى أنها جمع خطيئة، من الخطأ لا من الخَطْو . والمعنى على قراءة الجمهور : ولا تَقْفُوا أثَر الشيطان وعمله ؛ وما لم يَرِد به الشرع فهو منسوب إلى الشيطان . قال ابن عباس : «خُطُوات الشَّيْطان» أعماله . مجاهد : خطاياه . السُّدّى : طاعته . أبو مِجْلَز : هى النذور فى المعاصى .

(١) راجع ج ٧ ص ١١٥ ، ٣٠٠ .
(٢) يقـول : مرة تخطو فتكف عن العدو ، ومرة تعدو عدْوًا يشبه المطر . عن شرح الديوان .

Marfat.com

قلت — والصحيح أن اللفظ عامّ فى كل ما عدا السُّنن والشرائع من البِدَع والمعاصى . وتقدّم القول فى « الشيطان » مستوفًى[1] .

الرابعــة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ أخبر تعالى بأن الشّيطان عدُوّ، وخبره حق وصدق . فالواجب على العاقل أن يأخذ حذره من هذا العدو الذى قد أبان عداوته من زمن آدم، و بذل نفسه وعمره فى إفساد أحوال بنى آدم؛ وقد أمر الله تعالى بالحذر منه فقال جلّ من قائل : « وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ » ، « إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » وقال : « الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ »[2] وقال : « وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا » وقال : « إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ »[3] وقال : « إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ »[4] وقال : « إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ »[5] . وهذا غاية فى التحذير، ومثله فى القرآن كثير . وقال عبد الله ابن عمر : إن إبليس مُوثَق فى الأرض السُّفلى، فإذا تحرّك فإن كل شرّ فى الأرض بين آثنين فصاعدًا من تحرّكه . وخرّج الترمذى من حديث أبى مالك الأشعرى وفيــه : " وآمركم أن تذكروا الله فإن مَثَل ذلك كمَثَل رجل خرج العدوّ فى أثره سراعاً حتى إذا أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم كذلك العبد لا يحرز نفســه من الشيطان إلا بذكر الله " الحديث . وقال فيه : حديث حسن صحيح غريب .

قوله تعالى : إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوٓءِ وَالْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ ﴾ سُمّى السّوء سوءًا لأنه يسوء صاحبه بسوء عواقبه . وهو مصدر ساءه يسوءه سُوءًا ومساءةً إذا أحزنه . وسُؤْته فسِيء إذا أحزنته فحزن؛ قال الله تعالى : « سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا »[6] . وقال الشاعر :

(١) تراجع المسألة العاشرة ج ١ ص ٩٠ طبعة ثانية . (٢) راجع ج ٣ ص ٣٢٨ . (٣) راجع ج ٦ ص ٢٩٢ .
(٤) راجع ج ١٣ ص ٢٦١ . (٥) راجع ج ١٤ ص ٣٢٣ . (٦) راجع ج ١٨ ص ٢٢٠ .

Marfat.com

إن يك هذا الدهر قد ساءنى * فطالما قـد سرّنى الدهر
الأمر عنـدى فيهما واحد * لذاك شكرٌ ولذاك صبر

والفحشاء أصله قبح المنظر ؛ كما قال :

وجيدٍ كجيد الرّيم[1] ليس بفاحش *

ثم ٱستعملت اللفظة فيما يقبح من المعانى . والشرع هو الذى يحسّن و يقبّح ؛ فكل مانهت عنـه الشريعة فهو من الفحشاء . وقال مُقاتل : إن كل ما فى القرآن من ذكر الفحشاء فإنه الزنى ؛ إلا قوله : « الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ » فإنه منع الزكاة .

قلت : فعلى هذا قيل : السوء ما لا حَدّ فيـه ، والفحشاء ما فيـه حَدٌّ . وحكى عن ٱبن عباس وغيره ؛ والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَالَا تَعْلَمُونَ ﴾ قال الطبرى : يريد ما حرّموا من البحيرة[2] والسائبة[3] ونحوها مما جعلوه شرعًا . « وَأَنْ تَقُولُوا » فى موضع خفض عطفًا على قوله تعالى : « بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ » .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ يعنى كفّار العرب . ٱبن عبـاس : نزلت فى اليهود . الطبرى : الضمير فى « لهم » عائد على الناس من قوله تعالى : « يَأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا » .

---

(١) الريم : الظبي الأبيض الخالص البياض . (٢) قال أبو إسحاق النحوى : « أثبت ما روينا عن أهل اللغة فى البحيرة أنها الناقة كانت إذا نتجت خمسة أبطن فكان آخرها ذكرًا بحروا أذنها أى شقوه ، وأعفوا ظهرها من الركوب والحمل والذبح ، ولا تُحلأ (تطرد) عن ماء ترده ، ولا تمنع من مرعى ، و إذا لقيها المُعْيِى المنقطع به لم يركبها » .

(٣) كان الرجل فى الجاهلية إذا قدم من سفر بعيد ، أو برئ من علة ، أو نجته دابة من مشقة أو حرب قال : ناقتى سائبة ؛ أى تسيب فلا ينتفع بظهرها ولا تحلأ عن ماء ، ولا تمنع من كلأ ولا تركب . (عن اللسان) .

Marfat.com

وقيل : هو عائد على «من» فى قوله تعالى : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ ٱللهِ » الآية .
وقوله : ﴿ ٱتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ ٱللهُ ﴾ أى بالقبول والعمل . ﴿ قَالُوا بَلْ نَتَّبِـعُ ما أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آباءَنَا ﴾ ألفينا : وجدنا . وقال الشاعر :

فألْفَيْتُــه غيرَ مُسْتَعْتِبٍ * ولا ذاكِرِ اللهَ إلّا قليــلَا

الثانيــــة — قوله تعالى : ﴿أَوَ لَوْ كَانَ آباؤُهُمْ﴾ الألف للاستفهام، وفُتحت الواو لأنها واو عطف، عَطفتْ جملةَ كلام على جملة؛ لأن غاية الفساد فى الالتزام أن يقولوا: نَتّبع آباءنا ولو كانوا لا يعقلون، فقُرِّروا على التزامهم هذا، إذ هى حال آبائهم .

مسألة — قال علماؤنا : وقُـوّة ألفاظ هـذه الآية تعطى إبطال التقليد ، ونظيرها : «وإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إلى ما أَنْزَلَ اللهُ وإلى الرَّسُولِ قالُوا حَسْبُنَا ما وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا» الآية . وهذه الآية والتى قبلها مرتبطة بما قبلهما ؛ وذلك أن الله سبحانه أخبر عن جهالة العرب فيما تحكّمت فيه بآرائها السَّفيهة فى البَحِيرة والسائبة والوصِيلة (١)؛ فاحتجّوا بأنه أمْرٌ وجدوا عليه آباءهم فاتبعوهم فى ذلك، وتركوا ما أنزل الله على رسـوله وأمر به فى دينه؛ فالضمير فى «لهم» عائد عليهم فى الآيتين جميعا .

الثالثـــة — تعلّق قوم بهذه الآية فى ذمّ التقليد لذمّ الله تعالى الكفارَ باتباعهم لآبائهم فى الباطل، واقتدائهم بهم فى الكفر والمعصية . وهذا فى الباطل صحيح، أما التقليد فى الحق فأصل من أصول الدِّين، وعِصْمةٌ من عِصم المسلمين يلجأ إليها الجاهل المقصِّر عن دَرْك النظر .

واختلف العلماء فى جوازه فى مسائل الأصول على ما يأتى؛ وأما جوازه فى مسائل الفروع فصـــحيح .

الرابعـــة — التقليد عند العلماء حقيقته قبول قول بلا حجة؛ وعلى هذا فَمَن قَبِل قول النبي صلى الله عليه وسلم من غير نظر فى معجزته يكون مُقَلِّدا؛ وأمّا من نظر فيها فلا يكون مُقَلِّدا .

---

(١) قال المفسرون : الوصيلة كانت فى الشاء خاصـة ؛ كانت الشاة إذا ولدت أنثى فهى لهم ، و إذا ولدت ذكرا جعلوه لآلهتهـم ، فاذا ولدت ذكرا وأنثى قالوا : وصـلت أخاها ؛ فلم يذبحوا الذكر لآلهتهـم . وفيها معان أخر . (يراجع اللسان مادة « وصل ») . وتقدم معنى « البحيرة والسائبة » ص ٢١٠

Marfat.com

وقيـل : هو آعتقاد صحة فُتْيا مَن لا يعلم صحة قوله . وهو فى اللغة مأخوذ من قِلادة البعير ؛ فإن العرب تقول: قلّدت البعير إذا جعلت فى عنقه حبلاً يُقاد به ؛ فكأن المقلِّد يجعل أمره كله لمن يقوده حيث شاء؛ وكذلك قال شاعرهم :

وقـلّدوا أمركم لله دَرّكمُ • ثَبْتَ الجَنانِ بأمرِ الحربِ مضطلعَا

الخامسـة — التقليد ليس طريقًا للعلم ولا مُوصِّلا له ، لا فى الأصول ولا فى الفروع ؛ وهو قول جمهور العقلاء والعلماء ؛ خلافًا لمـا يحكى عن جُهّال الحشوية والثعلبية من أنه طريق إلى معرفة الحق ، وأن ذلك هو الواجب ، وأن النظر والبحث حرام ؛ والآحتجاج عليهم فى كتب الأصول .

السادسـة — فرض العامى الذى لا يشتغل بآستنباط الأحكام من أصولها لعدم أهليته فيما لا يعلمه من أمر دينـه و يحتاج إليه أن يقصد أعلم مَن فى زمانه و بلده فيسأله عن نازلته فيمتثل فيها فتواه ؛ لقوله تعالى : «فاسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ» (١) ، وعليه الآجتهاد فى أعلم أهل وقته بالبحث عنه ، حتى يقع عليه الآتفاق من الأكثر من الناس . وعلى العـالم أيضا فرض أن يقلد عالمـا مثله فى نازلة خفى عليـه فيها وجه الدليل والنظر ، وأراد أن يجدّد الفكر فيها والنظر حتى يقف على المطلوب ، فضاق الوقت عن ذلك ، وخاف على العبادة أن تفوت ، أو على الحكم أن يذهب ، سواء كان ذلك المجتهد الآخر صحابيًّا أو غيره ؛ و إليه ذهب القاضى أبو بكر و جماعة من المحققين .

السابعـة — قال آبن عطية : أجمعت الأمة على إبطال التقليد فى العقائد . وذكر فيه غيره خلافًا كالقـاضى أبى بكر بن العـربى وأبى عمرو عثمان بن عيسى بن درباس الشافعى . قال آبن درباس فى كتاب « الآنتصار » له : وقال بعض النـاس يجوز التقليد فى أمر التوحيد ؛ وهو خطأ لقوله تعالى : « إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ » (٢) . فذمّهم بتقليدهم آباءهم وتركهم آتباع الرسل ؛ كصنيع أهل الأهواء فى تقليدهم كبراءهم وتركهم آتباع محمد صلى الله عليه وسلم فى دينه ؛ ولأنه فرض على كل مكلّف تعلّم أمر التوحيد والقطع به ؛ وذلك لا يحصل إلا من جهة الكتاب والسنة ، كما بيّناه فى آية التوحيد (٣) ، والله يهدى من يريد .

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٠٨ و جـ ١١ ص ٢٧٢ . (٢) راجع جـ ١٦ ص ٧٤ (٣) ص ١٩٠ من هذا الجزء .

Marfat.com

قال ابن درباس : وقـد أكثر أهل الزَّيْغ القولَ على مَن تمسّك بالكتاب والسُّنة أنهـم مقلِّدون . وهذا خطأ منهـم ، بل هو بهم أليَق وبمذاهبهم أخْلَق ؛ إذ قبلوا قول ساداتهـم وكبرائهم فيما خالفوا فيه كتاب الله وسُـنّة رسوله وإجماع الصحابة رضى الله عنهـم ؛ فكانوا داخلين فيمن ذمّهم الله بقوله : « رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا » إلى قـوله : « كَبِيراً »(١) وقوله : « إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ »(٢) . ثم قال لنبيّه : « قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ »(٢) ثم قال لنبيّه عليه السلام « فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ »(٢) الآية . فبيّن تعالى أن الهُـدَى فيما جاءت به رسله عليهم السـلام . وليس قول أهـل الأثر فى عقائدهم : إنا وجدنا أئمتنا وآباءنا والناس على الأخذ بالكتاب والسُّـنة وإجمـاع السلف الصالح من الأمة ، من قـولهم : إنا وجدنا آباءنا وأطعنا سادتنا وكبراءنا بسبيل ؛ لأن هؤلاء نَسبوا ذلك إلى التنزيل وإلى متابعة الرسول ؛ وأولئـك نَسبوا إفكهم إلى أهل الأباطيل ، فآزدادوا بذلك فى التضليل ؛ ألا ترى أن الله سبحانه أثنى على يوسف عليه السلام فى القرآن حيث قال : « إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ . وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِـيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ »(٣) . فلما كان آباؤه عليه وعليهم السلام أنبياءَ متّبِعين للوحى وهو الدين الخالص الذى آرتضاه الله ، كان آتباعه آباءه من صفات المدح . ولم يجئ فيما جاءوا به ذكر الأعراض وتعلّقها بالجواهر وآنقلابها فيها ؛ فدلّ على أن لا هُدَى فيها ولا رشد فى واضعيها .

قال ابن الحصّار : وإنمـا ظهر التلفـظ بها فى زمن المأمون بعد المـائتين لمـا تُرجمت كتب الأوائل وظهر فيها آختلافهم فى قدم العالَم وحدوثه . وآختلافهم فى الجوهر وثبوته ، والعَرَض وماهيّتـه ؛ فسارع المبتـدعون ومَن فى قلبه زيغ إلى حفظ تلك الاصطلاحات ، وقصدوا بها الإغراب على أهل السُّنة ، وإدخال الشُّبه على الضعفاء من أهل المِلّة . فلم يزل الأمر كذلك إلى أن ظهرت البِدْعة ، وصارت للمبتدعة شيعة ، وآلتبس الأمر على السلطان ؛ حتى قال الأمير بخلق القرآن ، وجبر الناس عليه ، وضرب أحمد بن حنبل على ذلك .

(١) راجع ج ١٤ ص ٢٤٩ (٢) راجع ج ١٦ ص ٧٤ فما بعدها . (٣) راجع ج ٩ ص ١٩١

فانتدب رجال من أهل السنة كالشيخ أبى الحسن الأشعري وعبد الله بن كُلّاب[1] وآبن مجاهد والمحاسبي وأضرابهم ؛ فخاضوا مع المبتدعة فى إصطلاحاتهم ، ثم قاتلوهم وقتلوهم بسلاحهم . وكان مَن دَرَج من المسلمين من هذه الأمة متمسّكين بالكتاب والسّنة، معرضين عن شُبَه الملحدين ، لم ينظروا فى الجوهر والعَرَض ؛ على ذلك كان السّلف .

قلت : ومن نظر الآن فى آصطلاح المتكلمين حتى يناضل بذلك عن الدّين فمنزلته قريبة من النبيّين . فأمّا مَن يهجن من غلاة المتكلمين طريق مَن أخذ بالأثر من المؤمنين ، ويحض على درس كتب الكلام ، وأنه لا يعرف الحق إلا من جهتها بتلك الأصطلاحات فصاروا مذمومين لنقضهم طريق المتقدّمين من الأئمة الماضين ؛ والله أعلم . وأما المخاصمة والجدال بالدليل والبرهان فذلك بيّن فى القرآن ؛ وسيأتى بيانه[2] إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (١٧١)

شبّه تعالى واعظ الكفار وداعيهم وهو محمد صلى الله عليه وسلم بالراعى الذى يَنْعِق بالغنم والإبل فلا تسمع إلا دعاءه ونداءه ، ولا تفهم ما يقول ؛ هكذا فسّره آبن عباس ومجاهد وعكرمة والسّدى والزجاج والفرّاء وسيبويه ؛ وهذه نهاية الإيجاز . قال سيبويه : لم يُشبَّهوا بالناعق إنما شُبّهوا بالمنعوق به . والمعنى : ومثلك يا محمد ومَثَل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به من البهائم التى لا تفهم؛ فحذف لدلالة المعنى . وقال آبن زيد : المعنى مثل الذين كفروا فى دعائهم الآلهة الجماد كمثل الصائح فى جَوْف الليل فيجيبه الصَّدَى ؛ فهو يصيح بما لا يسمع، ويجيبه مالا حقيقة فيه ولا منتفع . وقال قُطْرب : المعنى مثل الذين كفروا فى دعائهم مالا يفهم، يعنى الأصنام، كمثل الراعى إذا نَعَق بغنمه وهو لا يدرى أين هى . قال الطبرى : المراد مثل الكافرين فى دعائهم آلهتهم كمثل الذى ينعق بشيء بعيد فهو لا يسمع من أجل

---

(١) فى الأصول : «وأبى عبد الله» والتصويب عن القاموس وشرحه ، وهو عبد الله بن سعيد بن كلاب التميمى البصري ، وهو رأس الطائفة الكلابية من أهل السنة .

(٢) راجع جـ ١٢ ص ٩٤ ، جـ ١٣ ص ٣٥٠

Marfat.com

البعـد ؛ فليس للناعق من ذلك إلا النّـداء الذى يُتعبـه ويُنصبه . ففى هـذه التأويلات الثلاثة يشبّه الكفار بالناعق الصائح، والأصنام بالمنعوق به. والنّعيق: زجر الغنم والصياح بها؛ يقال : نَعَق الراعى بغنمه يَنْعِق نَعِيقا ونُعاقًا ونَعَقانًا؛ أى صاح بها وزجرها . قال الأخطل:

انْعِـق بضأنك يا جريرُ فإنمـا * مَنّتك نفسك فى الخلاء ضلالَا

قال القُتَبِى : لم يكن جرير راعى ضأن ، وإنمـا أراد أن بنى كُلَيب يُعَـيَّرون برعى الضأن ، وجرير منهم ؛ فهو فى جهلهم . والعـرب تضرب المثل براعى الغنم فى الجهـل ويقولون : « أجهل من راعى ضأن» . قال القتبى : ومن ذهب إلى هـذا فى معنى الآية كان مذهبًا؛ غير أنه لم يذهب إليه أحد من العلماء فيما نعلم .

والنداء للبعيد، والدعاء للقريب ؛ ولذلك قيل للأذان بالصلاة نداء لأنه للأباعد . وقد تضم النون فى النـداء والأصل الكسر . ثم شبّه تعـالى الكافرين بأنهم صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ . وقد تقدّم فى أوّل السورة[1] .

قوله تعـالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾

هذا تأكيد للأمر الأول، وخصّ المؤمنين هنا بالذكر تفضيلًا. والمراد بالأكل الانتفاع من جميع الوجوه . وقيـل : هو الأكل المعتاد . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أيها الناس إن الله تعالى طيّب لا يقبل إلا طيّباً وإن الله أمر المؤمنين بمـا أَمَر به المرسلين فقال «يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَٱعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ» وقال «يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ» ثم ذَكَر الرَّجلُ[2] يُطِيل السَّفَر أشعثَ أغبرَ يمـدّ يديه إلى السّماء يارَبِّ يا ربِّ ومَطْعَمُه حرام [ومشربه حرام] ومَلْبَسُه حرام [وغُذِىَ بالحـرام][3] فأنّى يُستجاب لذلك " . ﴿وَٱشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُـدُونَ﴾ تقدّم معنى الشكر[4] فلا معنى للإعادة .

(١) راجع جـ ١ ص ٢١٤ طبعة ثانية . (٢) هذه الجملة من كلام الراوى ، والضمير للنبى صلى الله عليه وسلم . و«الرجل» بالرفع مبتدأ ، مذكور على الحكاية من لفظ الرسول عليه السلام . ويجوز أن ينصب على أنه مفعول « ذكر » . (٣) الزيادة عن صحيح مسلم . (٤) تراجع المسألة الثالثة وما بعدها جـ ١ ص ٣٩٧ طبعة ثانية .

Marfat.com

قوله تعالى : إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾

فيه أربع وثلاثون مسألة[1] :

الأولى — قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ « إنما » كلمة موضوعة للحصر، تتضمن النفى والإثبات ؛ فتثبت ما تناوله الخطاب وتنفى ما عداه ، وقد حصرت ها هنا التحريم ، لا سيما وقد جاءت عقيب التحليل فى قوله تعالى : « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ » فأفادت الإباحة على الإطلاق، ثم عقبها بذكر المحرّم بكلمة « إنما » الحاصرة ، فآقتضى ذلك الإيعاب للقسمين ؛ فلا محرّم يخرج عن هذه الآية ، وهى مدنية ، وأكدها بالآية الأخرى التى رُوِىَ أنها نزلت بعرفة : « قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ » إلى آخرها ؛ فآستوفى البيان أوّلا وآخرا ؛ قاله آبن العربى . وسيأتى الكلام فى تلك فى « الأنعام »[2] إن شاء الله تعالى .

الثانيـــة — « الْمَيْتَةَ » نصب بـ « حرّم » ، و« ما » كافّة . ويجوز أن تجعلها بمعنى الذى ، منفصلة فى الخط ، وترفع « الميتة والدّم ولحم الخنزير » على خبر « إنّ » وهى قراءة آبن أبى عبلة . وفى « حرّم » ضمير يعود على الذى ، ونظيره قوله تعالى : « إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ »[3] . وقرأ أبو جعفر « حُرِم » بضم الحاء وكسر الراء ورفع الأسماء بعدها ، إمّا على ما لم يُسمّ فاعله وإمّا على خبر إن . وقرأ أبو جعفر بن القعقاع أيضا « الميِّتة » بالتشديد . الطبرى : وقال جماعة من اللغويين : التشديد والتخفيف فى مَيْت ومَيِّت لغتان . وقال أبو حاتم وغيره : ما قد مات فيقالان فيه ، وما لم يَمُت بعدُ فلا يقال فيه « مَيْت » بالتخفيف ؛ دليله قوله تعالى : « إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ »[4] . وقال الشاعر :

ليس من مات فآستراح بمَيْت ٭ إنما المَيْت مَيِّت الأحياء

---

(١) اضطربت جميع نسخ الأصل فى ذكر هذه المسائل ، فبعضها أسقط الثانية ، وأخرى « الحادية والعشرين » ، وأخرى « الرابعة والعشرين » . (٢) راجع جـ ٧ ص ١١٥ (٣) راجع جـ ١١ ص ٢٢٣ (٤) راجع جـ ١٥ ص ٢٥٤

Marfat.com

ولم يقـرأ أحد بتخفيف ما لم يمت ؛ إلا ما روى البَزّى عن ابن كَثير « وَمَا هُـوَ بِمَيْتٍ »[1] والمشهور عنه التثقيل ؛ وأما قول الشاعر :

إذا ما مات مَيْتٌ من تميم * فسَرّك أن يعيش فجئ بزاد

فلا أبلـغ فى الهجاء من أنه أراد الميت حقيقة ؛ وقـد ذهب بعض النـاس إلى أنه أراد من شارف الموت ؛ والأول أشهر .

الثالثـــة — الميْتة : ما فارقته الروح من غير ذكاة مما يُذبح ؛ وما ليس بمأكول فذكاته كموته ؛ كالسباع وغيرها ، على ما يأتى بيانه هنا وفى « الأنعام »[2] إن شاء الله تعالى .

الرابعـــة — هذه الآية عامة دخلها التخصيص بقوله عليه السلام : "أُحلّت لنا مَيْتَتان الحُوتُ والجراد ودَمانِ الكبدُ والطّحال" . أخرجه الدَّارَقُطْنِيّ ، وكذلك حديث جابر فى العَنْبَر[3] يخصص عموم القرآن بصحة سـنده . خرّجه البخارى ومسلم مع قوله تعـالى : « أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ » ، على ما يأتى بيانه هناك[4] ، إن شاء الله تعالى .

وأكثر أهل العـلم على جواز أكل جميع دواب البحر حيّها وميّتها ؛ وهو مذهب مالك . وتوقّف أن يجيب فى خنزير المـاء وقال : أنتم تقولون خنزيرا ! . قال ابن القاسم : وأنا أتقيه ولا أراه حراما .

الخامســـة — وقد اختلف الناس فى تخصيص كتاب الله تعالى بالسُّنة ، ومع اختلافهم فى ذلك اتفقوا على أنه لا يجوز تخصيصه بحديث ضعيف ؛ قاله ابن العربى . وقد يستـدلّ على تخصيص هذه الآية أيضا بما فى صحيح مسلم من حديث عبد الله بن أبى أَوْفَى قال : غَزَوْنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات كنا نأكل الجراد معه . وظاهره أكله كيف ما مات بعـلاج أو حَتْف أنفـه ؛ وبهذا قال ابن نافع وابن عبـد الحكم وأكثر العلمـاء ؛ وهو مذهب الشافعى وأبى حنيفة وغيرهما . ومنع مالك وجمهور أصحابه من أكله إن مات حَتْف أنفه ؛ لأنه من صـيد البر ؛ ألا ترى أن المُحْرِم يجزئه إذا قتله ؛ فأشـبه الغزال . وقال

(١) راجع ج ٩ ص ٣٥٢ . (٢) راجع ج ٧ ص ١١٦ . (٣) العنبر : سمكة كبيرة بحرية تتخذ من جلدها الأتراس ، ويقال للترس : عنبر ، وسمى هذا الحوت بالعنبر لوجوده فى جوفه . (عن القسطلانى واللسان) .
(٤) راجع ج ٦ ص ٣١٨ .

Marfat.com

أشهب : إن مات من قطع رجل أو جناح لم يؤكل؛ لأنها حالة قد يعيش بها وينسل. وسيأتى لحكم الجراد مزيد بيان فى « الأعراف »(١) عند ذكره، إن شاء الله تعالى .

السادســة — وآختلف العلماء هل يجـوز أن ينتفع بالميتـة أو بشىء من النجاسات، وآختلف عن مالك فى ذلك أيضا ؛ فقال مرّة : يجوز الانتفاع بها ؛ لأن النبىّ صلى الله عليه وسلم مرّ على شاة ميمونة فقال : "هلّا أخذتم إهابها" الحديث . وقال مرّة : جملتها محرّم، فلا يجوز الانتفاع بشىء منها ، ولا بشىء من النجاسات على وجه من وجوه الآنتفاع ؛ حتى لا يجوز أن يسقى الزرع ولا الحيوان المـاء النجس ، ولا تُعلف البهائم النجاسات ، ولا تُطعم الميتة الكلاب والسباع ، وإن أكلتها لم تمنع . ووجه هذا القول ظاهر قوله تعالى : «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ» ولم يخصّ وجهًا من وجه ، ولا يجوز أن يقال : هذا الخطاب مجمل؛ لأن المجمل ما لا يُفهم المراد من ظاهره ، وقد فهمت العرب المراد من قوله تعـالى : « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ » ، وأيضا فإن النبىّ صلى الله عليه وسـلم قال : "لا تنتفعوا من الميتة بشىء" . وفى حديث عبد الله بن عُكيم "لا تنتفعوا من الميتة بإهاب ولا عَصَب" . وهذا آخر ما ورد به كتابه قبـل موته بشهر؛ وسيأتى بيانـ هذه الأخبـار والكلام عليهـا فى « النحـل »(٢) إن شاء الله تعـالى .

السابعــة — فأما الناقة إذا نُحرت ، أو البقرة أو الشـاة إذا ذُبحت، وكان فى بطنهـا جنين ميت فجائز أكله من غير تذكية له فى نفسه، إلّا أن يخرج حيًا فيُذَكّى، ويكون له حكم نفسه؛ وذلك أن الجنين إذا خرج منها بعد الذبح ميتًا جرى مجرى العضو من أعضائها . وممـا يبيّن ذلك أنه لو باع الشاة وآستثنى ما فى بطنها لم يجز ، كما لو آستثنى عضوًا منها ، وكانـ ما فى بطنها تابعا لها كسائر أعضائها . وكذلك لو أعتقها من غير أن يوقع على ما فى بطنها عتقًا مبتدأ؛ ولو كان منفصلا عنها لم يتبعها فى بيع ولا عتق . وقد روى جابر رضى الله عنـه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سُئل عن البقرة والشاة تذبح، والناقة تنحر فيكون فى بطنها جنين ميت؛ فقال : "إن شئتم فكلوه لأن ذكاته ذكاة أمه" . خرّجه أبو داود بمعناه من حديث

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٦٨ . (٢) فى قوله تعالى : «إنما حرم عليكم الميتة . . » آية ١١٥ ولم يذكر المؤلف فيها شيئا ، بل أحال على ما هنا ؛ راجع جـ ١٠ ص ١٩٥ .

Marfat.com

أبى سعيد الخُدْرى وهو نصّ لايحتمل . وسيأتى لهـذا مزيد بيان فى سورة « المـائدة »(١) إن شاء الله تعالى .

الثامنـــة — وٱختلفت الرواية عن مالك فى جِلْد الميتة هل يطهـر بالدباغ أولا ؛ فرُوِى عنه أنه لا يطهر ، وهو ظاهر مذهبه . ورُوِىَ عنه أنه يطهر ؛ لقوله عليه السلام "أَيُّمَـا إهابٍ دُبغ فقد طَهُر" . ووجه قوله : لا يطهر ؛ بأنه جزء من الميتة لو أخذ منهـا فى حال الحياة كان نجسًا ، فوجب ألّا يطهره الدّباغ قياسًا على اللحم . وتُحمل الأخبار بالطهارة على أن الدّباغ يُزيل الأوساخ عن الجلد حتى يُنتفع به فى الأشياء اليابسة وفى الجلوس عليـه ، ويجوز أيضا أن يُنتفع به فى المـاء ، بأن يجعل سقاء ؛ لأن المـاء على أصل الطهارة مالم يتغير له وصف على ما يأتى من حكمه فى سـورة « الفرقان »(٢) . والطهارة فى اللغة متوجّهة نحو إزالة الأوساخ كما تتوجّه إلى الطهارة الشرعية ، والله تعالى أعلم .

التاســـعة — وأما شعر الميتة وصوفُها فطاهر ؛ لمـا رُوِىَ عن أم سَلَمة رضى الله عنها عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا بأس بمَسْك الميتة إذا دُبِـغ وصوفها وشـعرها إذا غُسل" . ولأنه كان طاهرًا لو أُخذ منها فى حال الحياة فوجب أن يكون كذلك بعد الموت ، إلا أن اللحم لمـا كان نجسًا فى حال الحياة كان كذلك بعد الموت ؛ فيجب أن يكون الصوف خلافه فى حال الموت كما كان خلافه فى حال الحياة ٱستدلالا بالعكس . ولا يلزم على هذا اللبن والبيضة من الدجاجة الميتة ؛ لأن اللبن عندنا طاهر بعد الموت . وكذلك البيضة ؛ ولكنهما حصلا فى وعاء نجس فتنجّسا بمجاورة الوعاء لا أنهما نُجِّسا بالموت . وسيأتى مزيد بيان لهذه المسألة والتى قبلها وما للعلماء فيهما من الخلاف فى سورة « النحل »(٣) إن شاء الله تعالى .

العـاشرة — وأما ما وقعت فيه الفأرة فله حالتان : حالة تكون إن أُخرجت الفأرة حيّة فهو طاهر . وإن ماتت فيه فله حالتان : حالة يكون مائعًا فإنه ينجس جميعه . وحالة يكون جامدًا فإنه ينجس ماجاورها ، فتُطرح وما حولها ، ويُنتفع بما بقى وهو على طهارته ؛ لمـا روى أن النبى صلّى الله عليه وسلم سُـئل عن الفأرة تقع فى السمن فتموت ؛ فقال عليه السلام :

(١) راجع جـ ٦ ص ٥٠ (٢) راجع جـ ١٣ ص ٣٩ فما بعدها . (٣) راجع جـ ١٠ ص ١٩٥

Marfat.com

" إن كان جامدًا فاطرحوها وما حَوْلها وإن كان مائعًا فأرِيقُوه ". وٱختلف العلمـاء فيه إذا غُسل؛ فقيل: لا يطهر بالغسل؛ لأنه مائع نجس فأشبه الدّم والخمر والبول وسائر النجاسات. وقال ٱبن القاسم: يطهر بالغسل؛ لأنه جسم تنجّس بمجاورة النّجاسة فأشبه الثوب؛ ولا يلزم على هذا الدم؛ لأنه نجس بعينه، ولا الخمر والبول لأن الغسل يستهلكهما ولا يتأتّى فيه.

الحادية عشرة — فإذا حكمنا بطهارته بالغسل رجع إلى حالته الأولى في الطهارة وسائر وجوه الاستفاع؛ لكن لا يبيعه حتى يبيّن؛ لأن ذلك عَيْب عند الناس تأباه نفوسهم. ومنهم من يعتقد تحريمه ونجاسته؛ فلا يجوز بيعه حتى يبيّن العيب كسائر الأشياء المَعيبة. وأما قبل الغسل فلا يجوز بيعـه بحال؛ لأن النجاسات عنده لا يجوز بيعها، ولأنه مائع نجس فأشبه الخمر، ولأن النبيّ صلى الله عليه وسلم سئل عن ثمن الخمر فقال: " لعن الله اليهود حرّمت عليهم الشّحوم فجَمَلُوها(1) فباعوها وأكلوا أثمانها ". وأن الله إذا حرّم شيئا حرّم ثمنه. وهذا المـائع محرّم لنجاسته، فوجب أن يحرم ثمنه بحكم الظاهر.

الثانية عشرة — وٱختلف إذا وقع في القدر حيوان: طائر أو غيره [فمات] فروى ٱبن وهب عن مالك أنه قال: لا يؤكل ما في القِدْر، وقد تنجّس بمخالطة الميتة إياه. وروى ٱبن القاسم عنه أنه قال: يُغسل اللحم ويُراق المرق. وقد سئل ٱبن عباس عن هـذه المسألة فقال: يغسل اللحم ويؤكل. ولا مخالف له في المرق(2) من أصحابه؛ ذكره ٱبن خُوَيْزِمَنْداد.

الثالثة عشرة — فأما أنفحة الميتـة ولبن الميتة فقال الشافعيّ: ذلك نجس لعموم قوله تعالى « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ ». وقال أبو حنيفة بطهارتهما؛ ولم يجعل لموضع الخلقة أثرًا في تنجّس ما جاوره ممـا حدث فيه خلقة، قال: ولذلك يؤكل اللحم بمـا فيه من العروق، مع القطع بمجاورة الدم لدواخلها من غير تطهير ولا غسل إجماعًا. وقال مالك نحو قول أبي حنيفة إن ذلك لا ينجس بالموت، ولكن ينجس بمجاورة الوعاء النجس وهو مما لا يتأتّى فيه الغسل.

(1) جمل الشحم وأجمله: أذابه وٱستخرج دهنـه.

(2) في بعض الأصـول والنسخة الأزهرية: « ولا مخالف له في الصحابة ».

Marfat.com

وكذلك الدجاجة تخرج منها البيضة بعد موتها ؛ لأن البيضة لَيِّنة فى حكم المائع قبل خروجها ، وإنما تجمد وتصلب بالهواء .

قال ٱبن خُوَيْزِ مَنْدَاد فإن قيل : فقولكم يؤدِّى إلى خلاف الإجماع ؛ وذلك أن النبيّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين بعده كانوا يأكلون الجبن وكان مجلوبًا إليهم من أرض العجم ، ومعلوم أن ذبائح العجم وهم مجوس مَيْتَـة ، ولم يعتدّوا بأن يكون مجمّدا بأنفحة مَيْتَة أو ذُكًى . قيـل له : قدر ما يقع من الأنفحة فى اللبن المجبّن يسـير ؛ واليسير من النجاسة معفوّ عنه إذا خالط الكثير من المائع . هذا جواب على إحدى الروايتين . وعلى الرواية الأخرى إنما كان ذلك فى أول الإسلام ، ولا يمكن أحد أن ينقل أن الصحابة أكلت الجبن المحمول من أرض العجم ، بل الجبن ليس من طعام العرب ؛ فلما ٱنتشر المسلمون فى أرض العجم بالفتوح صارت الذبائح لهم ؛ فمن أين لنا أن النبيّ صلى الله عليه وسلم والصحابة أكلت جبنًا فضلًا عن أن يكون محمولًا من أرض العجم ومعمولًا من أنفحة ذبائحهم ! .

وقال أبو عمر : ولا بأس بأكل طعام عَبَدة الأوثان والمجوس وسائر من لا كتاب له من الكفار ما لم يكن من ذبائحهم ولم يحتج إلى ذكاة إلا الجبن لما فيه من أنفحة الميتة . وفى سنن ٱبن ماجه « الجبن والسمن » حدّثنا إسماعيل بن موسى السدّى حدّثنا سيف بن هارون عن سليمان التيميّ عن أبى عثمان النَّهدى عن سلمان الفارسى قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن السمن والجبن والفِرَاء . فقال : " الحلال ما أحلّ الله فى كتابه والحرام ما حرّم الله فى كتابه وما سكت عنه فهو مما عفا عنه " .

الرابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿وَالدَّمَ﴾ ٱتفق العلماء على أن الدم حرام نجس لا يؤكل ولا ينتفع به . قال ٱبن خُوَيْزِ مَنْدَاد : وأما الدم فمحرّم ما لم تعمّ به البلوى ، ومعفوّ عما تعمّ به البلوى . والذى تعمّ به البلوى هو الدم فى اللحم وعروقه ، ويسيره فى البدن والثوب يُصلَّى فيه . وإنما قلنا ذلك لأن الله تعالى قال : « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ » ، وقال فى موضع آخر : « قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا[1] »

(١) راجع جـ ٧ ص ١١٥

Marfat.com

لحـرم المسفوح لمن الدم . وقد روت عائشة رضى الله عنها قالت : كنا نطبخ البُرْمة على عهد رســول الله صلى الله عليه وسـلم تعلوها الصُّفرة من الدم فنأكل ولا ننكره ؛ لأن التحفظ من هذا إصْرٌ وفيه مشقة، والإصْر والمشقة فى الدِّين موضوع . وهذا أصل فى الشرع ، أن كلما حَرِجت الأمة فى أداء العبادة فيـه وثَقُل عليها سقطت العبادة عنها فيه ؛ ألا ترى أن المضطر يأكل الميتة، وأن المريض يُفطر ويَتَيَمّم فى نحو ذلك .

قلت : ذكر الله سبحانه وتعالى الدم هاهنا مطلقا، وقيّده فى الأنعام بقوله « مَسْفُوحًا »[1] وحمل العلمـاء هاهنا المطلق على المقيّد إجماعا . فالدم هنـا يراد به المسفوح ؛ لأن ما خالط اللحم فغير محرّم بإجماع ، وكذلك الكبد والطحال مجمع عليه . وفى دم الحوت المزايل له آختلاف ؛ ورُوى عن القابسى أنه طاهر ، ويلزم على طهارته أنه غير محرّم . وهو آختيار آبن العربى ، قال : لأنه لو كان دم السمك نجسًا لشُرِعت ذكاته .

قلت : وهو مذهب أبى حنيفة فى دم الحوت ؛ سمعت بعض الحنفيّة يقول : الدليل على أنه طاهر أنه إذا يبس آبيضّ بخلاف سائر الدماء فإنه يسودّ . وهذه النكتة لهم فى الآحتجاج على الشافعية .

الخامسة عشرة — قوله تعـالى : ﴿ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ ﴾ خصّ الله تعالى ذكر اللحم من الخنزير ليدل على تحريم عينه ذُكِّىَ أو لم يُذَكَّ، وليعمّ الشحم وما هنالك من الغضاريف[2] وغيرها .

السادسة عشرة — أجمعت الأمة على تحـريم شحم الخنزير . وقد آستدل مالك وأصحابه على أن من حلف ألّا يأكل شحمًا فأكل لحمًـا لم يَحْنَث بأكل اللحم . فإن حلف ألا يأكل لحمًـا فأكل شحمًا حَنِث ؛ لأن اللحم مع الشحم يقع عليـه آسم اللحم ؛ فقد دخل الشحم فى آسم اللحم ولا يدخل اللحم فى آسم الشحم . وقد حرّم الله تعالى لحم الخنزير فناب ذكر لحمه عن شحمه ؛ لأنه دخل تحت آسم اللحم . وحرّم الله تعالى على بنى إسرائيل الشُّحوم بقوله : « حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا » فلم يقع بهذا عليهم تحريم اللحم ولم يدخل فى آسم الشحم ؛ فلهذا فرّق مالك بين الحالف

(١) راجع جـ ٧ ص ١٢٣ . (٢) الغضروف والغرضوف : كل عظم لين رَخْص فى أى موضع كان .

Marfat.com

فى الشحم والحالف فى اللحم ؛ إلا أن يكون للحالف نية فى اللحم دون الشحم فلا يحنث ، والله تعالى أعلم . ولا يحنث فى قول الشافعى وأبى ثور وأصحاب الرأى إذا حلف ألا يأكل لحمًا فأكل شحمًا . وقال أحمـد : إذا حلف ألا يأكل لحمًا فأكل الشحم لا بأس به إلا أن يكون أراد اجتناب الدسم .

السابعـة عشرة — لا خلاف أن جملة الخنزير محرمة إلا الشـعر فإنه يجوز الخرازة به . وقد روى أن رجلا سأل رسـول الله صلى الله عليه وسلم عن الخرازة بشـعر الخنزير، فقال : "لا بأس بذلك" ذكره ابن خُوَيْزِ مَنْدَاد، قال: ولأن الخرازة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت ، وبعده موجودة ظاهرة ، لا نعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنكرها ولا أحد من الأئمة بعده . وما أجازه الرسول صلى الله عليه وسلم فهو كابتداء الشرع منه .

الثـامنة عشرة — لا خلاف فى تحريم خنزير البر كما ذكرنا ؛ وفى خنزير المـاء خلاف. وأبى مالك أن يجيب فيه بشيء ، وقال : أنتم تقـولون خنزيرا ! وقد تقـدّم ؛ وسيأتى بيانه فى «المـائدة»[1] إن شاء الله تعالى .

التاسعة عشرة — ذهب أكثر اللغويين إلى أن لفظة الخنزير رباعية. وحكى ابن سيده عن بعضهم أنه مشتق من خَزَر العَيْن ؛ لأنه كذلك ينظر ، واللفظة على هـذا ثلاثية . وفى الصحاح : وتخازر الرَّجُل إذا ضيّق جَفْنه ليحدّد النظر . والخَزَر : ضِيق العين وصغرها. رجل أَخْزَر بيّن الخَزَر . ويقال : هو أن يكون الإنسان كأنه ينظر بمُؤْخِرها . وجمعُ الخنزير خنازير . والخنازير أيضا علّة معروفة ، وهى قروح صُلْبة تحدث فى الرقبة .

الموفّية عشرين — قوله تعـالى : ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ﴾ أى ذكر عليه غير اسم الله تعـالى ، وهى ذبيحـة المجوسىّ والوثنىّ والمُعَطِّل . فالوثنىّ يذبح للوثن، والمجوسىّ للنـار ، والمُعَطِّل لا يعتقد شـيئا فيذبح لنفسه . ولا خلاف بين العلمـاء أن ما ذبحه المجوسىّ لنـاره والوثنى لوثنه لا يؤكل ، ولا تؤكل ذبيحتهما عند مالك والشافعى وغيرهما وإن لم يذبحا لنـاره ووثنه ؛ وأجازهما ابن المسيّب وأبو ثور إذا ذبح لمسلم بأمره. وسيأتى لهـذا مزيد بيان

(١) راجع جـ ٦ ص ٣٢٠ .

Marfat.com

إن شاء الله تعالى فى سـورة « المـائدة »[1] . والإهلال : رفع الصوت ؛ يقال : أَهَلَّ بكذا ؛ أى رفع صوته . قال آبن أحمر يصف فلاة :

يُهِـلّ بالفَرْقَـد رُكبانُها * كما يُهِلّ الراكب المُعْتَمِر

وقال النـابغة :

أو دُرّةٌ صَـدَفِيّةٌ غَوّاصُهـا * بَهِجٌ متى يرها يُهِلّ ويَسجُدُ

ومنـه إهلال الصبىّ وآستهلاله ، وهو صياحه عند ولادته . وقال آبن عباس وغيره : المراد ما ذُبح للأنصاب والأوثان ، لا ما ذُكر عليه آسم المسيح ؛ على ما يأتى بيانه فى سورة «المـائدة»[1] إن شاء الله تعـالى . وجرت عادة العـرب بالصياح باسم المقصـود بالذبيحة ، وغلب ذلك فى آستعمالهم حتى عبّر به عن النية التى هى علة التحريم ؛ ألا ترى أن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه راعى النية فى الإبل التى نحرها غالب أبو الفرزدق فقال : إنها ممـا أُهلّ لغير الله به ؛ فتركها النـاس . قال آبن عطية : ورأيت فى أخبـار الحسن بن أبى الحسن أنه سـئل عن آمرأة مترفة صنعت للُعَبها عرسا فنحرت جَزُورا ؛ فقال الحسن : لا يحـل أكلها فإنها إنمـا نُحرت لصنم .

قلت : ومن هـذا المعنى ما رويناه عن يحيى بن يحيى التميمى شيخ مسـلم قال : أخبرنا جرير عن قابوس قال : أرسل أبى آمرأة إلى عائشة رضى الله عنها وأمرها أن تقرأ عليها السلام منه ، وتسألهـا أيّة صـلاة كانت أعجبَ إلى رسول الله صـلى الله عليه وسـلم يدوم عليها . قالت : كان يصـلّى قبل الظهر أربع ركعات يطيل فيهن القيام ويحسن الركوع والسجود ، فأمّا ما لم يَدَع قطّ ، صحيحا ولا مريضا ولا شاهدا ، ركعتين قبل صلاة الغداة . قالت آمرأة عند ذلك من النـاس : يا أمّ المؤمنين ، إن لنا أظآرًا من العجم لا يزال يكون لهم عيد فيهدون لنا منه ، أفنأكل منه شيئا ؟ قالت : أمّا ما ذُبح لذلك اليوم فلا تأكلوا ولكن كلوا من أشجارهم .

الحـادية والعشرون ــ قوله تعـالى : ﴿ فَمَنِ آضْطُرَّ ﴾ قرئ بضم النون للاتباع وبالكسر وهو الأصل لالتقاء السـاكنين ، وفيه إضمـار ؛ أى فمن آضطر إلى شىء من هذه

(١) راجع جـ ٦ ص ٧٦ .

المحرّمات أى أُحوِج إليها ؛ فهو ٱفتعل من الضرورة . وقرأ ٱبن مُحَيْصِن « فمن ٱطُّرَّ » بإدغام الضاد فى الطاء . وأبو السّمّال « فمن ٱضطِر » بكسر الطاء . وأصله ٱضطرر فلما أدغمت نقلت حركة الراء إلى الطاء .

الثانية والعشرون — الاضطرار لا يخلو أن يكون بإكراه من ظالم أو بجوع فى مَخْمَصَة . والذى عليه الجمهور من الفقهاء والعلماء فى معنى الآية هو من صيّره العُدْم والغَرَث وهو الجوع إلى ذلك ؛ وهو الصحيح . وقيل : معناه أُكره وغُلب على أكل هذه المحرّمات . قال مجاهد : يعنى أُكره عليه كالرجل يأخذه العدوّ فيكرهونه على أكل لحم الخنزير وغيره من معصية الله تعالى ؛ إلا أن الإكراه يبيح ذلك إلى آخر الإكراه .

وأما المَخْمَصَة فلا يخلو أن تكون دائمة أولا ؛ فإن كانت دائمة فلا خلاف فى جواز الشبع من الميتة ؛ إلا أنه لا يحل له أكلها وهو يجد مال مسلم لا يخاف فيه قَطْعًا ؛ كالتمر المعلّق وحَرِيسة الجبل(١) ، ونحو ذلك مما لا قَطْع فيه ولا أذًى . وهذا مما لا ٱختلاف فيه ؛ لحديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر إذ رأينا إبلًا مصرورة(٢) بعضاه الشجر فثُبْنا إليها فنادانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجعنا إليه فقال : " إن هذه الإبل لأهل بيت من المسلمين هو قوتهم ويُمْنُهم(٣) بعد الله أيسرّكم لو رجعتم إلى مَزَاودكم فوجدتم ما فيها قد ذُهب به أترون ذلك عدلا " قالوا لا ؛ فقال : " إن هذه كذلك " . قلنا : أفرأيت إن ٱحتجنا إلى الطعام والشراب ؟ فقال : " كل ولا تحمل وٱشرب ولا تحمل " . خرّجه ٱبن ماجه رحمه الله ؛ وقال : هذا الأصل عندى . وذكره ٱبن المنذر قال : قلنا يارسول الله ، ما يحلّ لأحدنا من مال أخيه إذا ٱضطرّ إليه ؟ قال : " يأكل ولا يحمل ويشرب ولا يحمل " . قال ٱبن المنذر : وكل مختلف فيه بعد ذلك فمردود إلى تحريم الله الأموال . قال أبو عمر : وجملة القول فى ذلك أن المسلم إذا تعين عليه ردّ رَمَق مُهْجة المسلم ، وتوجّه

(١) الحريسة : الشاة تسرق ليلا . وفى الحديث " لا قطع فى حريسة الجبل " أى ليس فيما يحرس بالجبل قطع ؛ لأنه ليس بحرز .　　(٢) مصرورة : مربوطة الضروع ؛ وكان عادة العرب أنهم إذا أرسلوا الحلوبات إلى المراعى ربطوا ضروعها .　　(٣) كذا فى سنن ٱبن ماجه ؛ أى بركتهم وخيرهم . وفى الأصول « فيهم » .

Marfat.com

الفرض فى ذلك بألا يكون هناك غيره قضى عليه بترميق تلك المهجة الآدمية . وكان للممنوع منه ماله من ذلك محاربة مَن منعه ومقاتلته ، و إن أتى ذلك على نفسه ؛ وذلك عند أهل العلم إذا لم يكن هناك إلا واحد لا غير ؛ فحينئذ يتعيّن عليه الفرض . فإن كانوا كثيرًا أو جماعةً وعددًا كان ذلك عليهم فرضًا على الكفاية . والماء فى ذلك وغيره مما يرد نفس المسلم و يمسكها سواء . إلا أنهم ٱختلفوا فى وجوب قيمة ذلك الشىء على الذى ردّت به مهجته ورمق به نفسه ؛ فأوجبها موجبون ، وأباها آخرون . وفى مذهبنا القولان جميعًا . ولا خلاف بين أهل العلم متأخريهم ومتقدميهم فى وجوب ردّ مهجة المسلم عند خوف الذهاب والتلف بالشىء اليسير الذى لا مضرّة فيه على صاحبه وفيه البُلْغة .

الثالثة والعشرون — خرّج ٱبن ماجه أنبأنا أبو بكر بن أبى شيبة أنبأنا شَبابة (ح)[1] وحدّثنا محمد ابن بشار ومحمد بن الوليد قالا حدّثنا محمد بن جعفر حدّثنا شعبة عن أبى بشر جعفر بن إياس قال : سمعت عبّاد بن شرحبيل — رجلا من بنى غُبَر — قال : أصابنا عام مخمصة فأتيت المدينة فأتيت حائطا[2] من حيطانها فأخذت سنبلا ففركته وأكلته وجعلته فى كسائى ؛ فجاء صاحب الحائط فضربنى وأخذ ثوبى ؛ فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته ؛ فقال للرجل : "ما أطعمته إذ كان جائعا أو ساغبا ولا علّمته إذ كان جاهلا" فأمره النبىّ صلى الله عليه وسلم فردّ إليه ثوبه ، وأمر له بوَسْق من طعام أو نصف وَسق .

قلت : هـذا حديث صحيح ٱتفق على رجاله البخارىّ ومسلم ؛ إلا ٱبن أبى شيبة فإنه لمسلم وحده . وعبّاد بن شرحبيل الغُبَرى اليَشْكُرى لم يُخرج له البخارى ومسلم شيئا ، وليس له عن النبىّ صلى الله عليه وسلم غير هذه القصة فيما ذكر أبو عمر رحمه الله ، وهو ينفى القطع والأدب فى المخمصة . وقد روى أبو داود عن الحسن عن سَمُرة أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "إذا أتى أحدكم على ماشية فإن كان فيها صاحبها فليستأذنه فإن أذن له فليحتلب وليشرب و إن لم يكن فيها فليُصَوّت ثلاثا فإن أجاب فليستأذنه فإن أذن له و إلا فليحتلب وليشرب

(١) إذا كان للحديث إسنادان أو أكثر كتبوا عند الانتقال من إسناد إلى إسناد : « ح » وهى مأخوذة من التحول ... الخ . راجع كتب المصطلح .

(٢) الحائط : البستان من النخيل وغيره إذا كان عليه جدار .

ولا يحمـل ". وذكر الترمذى عن يحيى بن سليم عن عبيد الله عن نافع عن ٱبن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم قال : " من دخل حائطا فليأكل ولا يتّخذ خُبْنة ". قال : هذا حديث غريب لانعرفه إلا من حديث يحيى بن سليم. وذكر من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبيّ صلى الله عليه وسلم سئل عن الثمر المعلق؛ فقال: "من أصاب منه من ذى حاجة غير متّخذ خُبْنة فلا شىء عليه ". قال فيه : حديث حسن. وفى حديث عمر رضى الله عنه : " إذا مرّ أحدكم بحائط فليأكل ولا يتّخذ ثِبَـانًا ". قال أبو عبيد قال أبو عمر : وهو الوعاء الذى يُحمل فيـه الشىء؛ فإن حملته بين يديك فهو ثِبَان؛ يقال : قـد تَثَبّنت ثِبانا؛ فإن حملته على ظهرك فهو الحال؛ يقال منه : قد تحوّلت كسائى إذا جعلت فيه شيئا ثم حملته على ظهرك. فإن جعلته فى حِضنك فهو خُبْنة؛ ومنه حديث عمرو بن شعيب المرفوع "ولا يتّخذ خُبْنة". يقال منه : خَبَنْت أخْبِن خَبْنًا . قال أبو عبيد : وإنما يوجّه هذا الحديث أنه رُخّص فيه للجائع المضطّر الذى لا شىء معه يشترى به ألّا يَحمل إلا ما كان فى بطنه قدر قوته .

قلت : لأن الأصل المتّفق عليه تحريم مال الغير إلا بطيب نفس منه ؛ فإن كانت هناك عادة بعمل ذلك كما كان فى أوّل الإسـلام ، أوكما هو الآن فى بعض البلدان ، فذلك جائز . ويُحمل ذلك على أوقات المجاعة والضرورة ، كما تقدّم والله أعلم .

وإن كان الثـانى[(١)] وهو النادر فى وقت من الأوقات ؛ فاختلف العلمـاء فيها على قولين : أحدهما ــ أنه يأكل حتى يشبع ويتضلّع[(٢)] ؛ ويتزوّد إذا خشى الضرورة فيما بين يديه من مفازة وقفر ، وإذا وجد عنها غِنًى طرحها . قال معناه مالك فى مُوَطَّئـه ؛ وبه قال الشافعيّ وكثير من العلماء . والحجة فى ذلك أن الضرورة ترفع التحريم فيعود مباحًا . ومقدار الضرورة إنما هو فى حالة عدم القوت إلى حالة وجوده . وحديث العَنْبر نصٌّ فى ذلك ؛ فإن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لمـا رجعوا من سـفرهم وقد ذهب عنهم الزاد ، ٱنطلقوا إلى ساحل البحر فرُفع

(١) يريد بالثانى أحد فرضى المخمصة الذى تقدّم فى المسألة « الثانية والعشرين » وهو غير الدائمة .
(٢) تضلّع : امتلأ شبعا أو ريًّا .

Marfat.com

لهم على ساحله كهيئة الكثيب الضخم، فلما أتوه إذا هى دابة تدعى العنبر؛ فقال أبو عبيـدة أميرهم : مَيْتة . ثم قال : لا ، بل نحن رسـل رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى سبيل الله، وقـد اضطررتم فكلوا . قال : فأقمنا عليها شهرا ونحن ثلثمائة حتى سَمِنّا ، الحـديث . فأكلوا وشبعوا — رضوان الله عليهم — مما اعتقدوا أنه ميتة وتزوّدوا منها إلى المدينة، وذكروا ذلك للنبيّ صلى الله عليه وسلم فأخبرهم صلى الله عليه وسلم أنه حلال وقال : "هل معكم من لحمه شىء فتطعمونا " فأرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليـه وسلم منه فأكله . وقالت طائفة . يأكل بقدر سدّ الرمق . وبه قال ابن المـاجشون وابن حبيب وفرّق أصحاب الشافعى بين حالة المقيم والمسافر فقالوا : المقيم يأكل بقدر ما يسـدّ رمقه ، والمسافر يتضلّع ويتزوّد : فاذا وجد غِنًى عنها طرحهـا ، وإن وجد مضطرا أعطاه إياها ولا يأخذ منـه عِوضـا ؛ فإن المَيْتـة لا يجوز بيعها .

الرابعة والعشرون — فإن اضطرّ إلى خمر فإن كان بإكراه شرب بلا خلاف ، وإن كان بجـوع أو عطش فلا يشرب؛ وبه قال مالك فى العتبيّة قال : ولا يزيده الخمر إلا عطشًا . وهو قول الشافعى؛ فإن الله تعالى حرّم الخمر تحريمًا مطلقًا، وحرّم الميتة بشرط عدم الضرورة. وقال الأبهرى : إن ردّت الخمر عنه جوعًا أو عطشًا شربها ؛ لأن الله تعـالى قال فى الخنزير «فإنّه رِجْسٌ» ثم أباحه للضرورة. وقال تعالى فى الخمر إنها «رجس» فتدخل فى إباحة الخنزير للضرورة بالمعنى الجلىّ الذى هو أقوى من القياس، ولا بدّ أن تروى ولو ساعة وترد الجوع ولو مدّة .

الخامسة والعشرون — روى أصبغ عن ابن القاسم أنه قال : يشرب المضطرُّ الدمَ ولا يشرب الخمر، ويأكل الميتة ولا يقرب ضَوَالّ الإبل — وقاله ابن وهب — ويشرب البول ولا يشرب الخمر؛ لأن الخمر يلزم فيها الحدّ فهى أغلظ . نص عليه أصحاب الشافعى .

السادسة والعشرون — فإن غصّ بلقمة فهل يسيغها بخمر أوْلا ؛ فقيل . لا ؛ مخافة أن يدّعى ذلك . وأجاز ذلك ابن حبيب؛ لأنها حالة ضرورة . ابن العربى : «أما الغاصّ بلقمة

Marfat.com

فإنه يجوز له فيما بينه وبين الله تعالى ، وأما فيما بيننا فإن شاهدناه فلا تخفى علينا بقرائن الحال صـورة الغُصّة من غيرها، فيصدق إذا ظهر ذلك ؛ وإن لم يظهر حَدّدناه ظاهرًا وسَـلِم من العقوبة عند الله تعـالى باطنًا . ثم إذا وجد المضطرُّ ميتةً وخنزيرا ولحمَ ابنِ آدم أكل الميتة، لأنها حلال فى حال . والخنزيرُ وابنُ آدم لا يحلّ بحال. والتحريم المخفَّف أولى أن يقتحم من التحريم المثقل؛ كما لو أكره أن يطأ أخته أو أجنبية،وطئ الأجنبية لأنها تحل له بحال. وهذا هو الضابط لهذه الأحكام.ولا يأكل ابنَ آدم ولو مات؛ قاله علماؤنا،وبه قال أحمد وداود. احتجّ أحمد بقوله عليه السلام : "كَسْرُ عظمِ الميت ككسره حيًّا" . وقال الشافعى : يأكل لحم ابن آدم.ولا يجوزله أن يقتل ذِمّيًّا لأنه محترم الدم، ولا مسلماً ولا أسيراً لأنه مال الغير . فإن كان حربيًّا أو زانيًا مُحْصنًا جاز قتله والأكل منه . وشنّع داود على المُزَنى بأن قال : قد أبحت أكل لحوم الأنبياء ! فغلب عليه ابن شريح بأن قال : فأنت قد تعرّضت لقتل الأنبياء إذ منعتهم من أكل الكافر . قال ابن العربى : الصحيح عنـدى ألا يأكل الآدمى إلا إذا تحقّق أن ذلك ينجيه ويحييه؛ والله أعلم .

السابعة والعشرون — سـئل مالك عن المضطر إلى أكل الميتة وهو يجد مال الغير تمرًا أو زرعًا أو غنمًا،فقال: إن أمن الضرر على بدنه بحيث لا يُعدّ سارقًا ويصدَّق فى قوله ، أكل من أىّ ذلك وجد ما يردّ جوعه ولا يحمل منه شيئا ، وذلك أحبّ إلىّ من أن يأكل الميتة ؛ وقد تقدم هذا المعنى مستوفًى.وإن هو خَشِىَ ألا يصدّقوه وأن يعدّوه سارقًا فإنّ أكل الميتة أجْوز عندى، وله فى أكل الميتة على هذه المنزلة سَعة .

الثامنة والعشرون — روى أبو داود قال حدثنا موسى بن إسماعيل قال حدّثنا حماد عن سِمَاك بن حرب عن جابر بن سَمُرة أن رجلا نزل الحَرّة[1] ومعه أهله وولده، فقال رجل: إن ناقة لى ضَلّت فإن وجدتهـا فأمسكها ؛ فوجدها فلم يجد صاحبها فمرضت، فقالت امرأته : انحرها، فأبى فنفقت . فقالت : اسلخها حتى نُقدّد لحمها وشحمها ونأكله؛ فقال: حتى أسأل

(١) الحرّة (بفتح الحاء والراء المشدّدة) : أرض بظاهر المدينة بها حجارة سود .

Marfat.com

رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاه فسأله ، فقال : " هل عندك غِنًى يغنيك " قال لا ، قال : "فكلوها" قال : فجاء صاحبها فأخبره الخبر، فقال : هلّا كنت نحرتَها لم فقال : آستحييت منك . قال آبن خُوَيْزِمَنْداد : فى هذا الحديث دليلان : أحدهما — أن المضطر يأكل من الميتة و إن لم يخف التّلف ؛ لأنه سأله عن الغنى ولم يسأله عن خوفه على نفسه . والثانى — يأكل و يشبع و يدّخر و يتزوّد؛ لأنه أباحه الآدّخار ولم يشترط عليه ألّا يشبع . قال أبو داود : وحدثنا هارون بن عبد الله قال حدثنا الفضـل بن دُكين قال أنبأنا عقبـة بن وهب بن عقبة العامرى قال : سمعت أبى يحدّث عن الفُجَيع العامرى أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما يحل لنـا الميتة ؟ قال : " ما طعامكم " قلنا : نَغْتَبِق ونصطبِح . قال أبو نعيم[1] : فسّره لى عقبة : قَدَحٌ غُدْوَةً وقدحٌ عشيّة. قال : "ذاك وأبى الجوع". قال : فأحلّ لهم الميتة على هـذه الحال . قال أبو داود : الغبوق من آخر النهـار والصبوح من أوّل النهـار . وقال الخطابى : الغبوق العَشاء، والصبوح الغداء، والقَدَح من اللبن بالغداة، والقدح بالعشىّ يمسك الرَّمق ويُقيم النفس، و إن كان لا يُغذّى البدن ولا يُشبع الشبع التام ؛ وقد أباح لهم مع ذلك تناول الميتة ؛ فكان دلالته أنّ تناول الميتة مباح إلى أن تأخذ النفس حاجتها من القـوت . و إلى هذا ذهب مالك وهو أحد قولى الشافعى . قال آبن خُوَيْزِمَنْداد: إذا جاز أن يصطبحوا و يغتبقوا جاز أن يشبعوا و يتزوّدوا . وقال أبو حنيفة والشافعى فى القول الآخر : لا يجوز له أن يتناول من الميتة إلا قدر ما يمسك رمقه ؛ و إليه ذهب المزنىّ . قالوا : لأنه لو كان فى الآبتداء بهـذه الحال لم يجز له أن يأكل منها شيئا ؛ فكذلك إذا بلغها بعـد تناولها . وروى نحوه عن الحسن . وقال قتـادة : لا يتضلّع منها بشىء . وقال مقاتل بن حَيّان : لا يزداد على ثلاث لُقَم . والصحيح خلاف هذا ، كما تقدّم .

التاسعة والعشرون — وأما التداوى بها فلا يخلو أن يحتاج إلى آستعمالها قائمة العين أو محرقة ؛ فإن تغيّرت بالإحراق فقال آبن حبيب : يجوز التداوى بها والصلاة . وخفّفه آبن المـاجشون

---

(١) أبو نعيم : كنية الفضل بن دكين .

بناء على أن الحرق تطهير لتغيّر الصفات. وفى العُتْبِيّة من رواية مالك فى المَرْتَك(١) يُصنع من عظام المَيْتة إذا وضعه فى جرحه لا يصلى به حتى يغسله. و إن كانت الميتة قائمة بعينها فقد قال سُحْنُون: لا يُتداوى بها بحال ولا بالخنزير؛ لأن منها عوضًا حلالًا بخلاف المجاعة. ولو وُجد منها عوض فى المجاعة لم تؤكل. وكذلك الخمر لا يتداوى بها؛ قاله مالك، وهو ظاهر مذهب الشافعى، وهو آختيار آبن أبى هريرة من أصحابه. وقال أبو حنيفة: يجوز شربها للتداوى دون العطش، وهو آختيار القاضى الطبرى من أصحاب الشافعى، وهو قول الثورى. وقال بعض البغداديين من الشافعية: يجوز شربها للعطش دون التداوى؛ لأن ضرر العطش عاجل بخلاف التداوى. وقيل: يجوز شربها للأمرين جميعا. ومنع بعض أصحاب الشافعى التداوى بكل محرّم إلا بأبوال الإبل خاصة؛ لحديث العُرَنِيِّين. ومنع بعضهم التداوى بكل محرّم؛ لقوله عليه السلام: "إن الله لم يجعل شفاء أمتى فيما حُرّم عليهم"، ولقوله عليه السلام لطارق بن سويد وقد سأله عن الخمر فنهاه أو كره أن يصنعها فقال: إنما أصنعها للدواء؛ فقال: "إنه ليس بدواء ولكنه داء". رواه مسلم فى الصحيح. وهذا يحتمل أن يقيّد بحالة الآضطرار؛ فإنه يجوز التداوى بالسم ولا يجوز شربه؛ والله أعلم.

الموفّية ثلاثين — قوله تعالى: ﴿ غَيْرَ بَاغٍ ﴾ «غير» نصب على الحال، وقيل: على الآستثناء. و إذا رأيت «غير» يصلح فى موضعها «فى» فهى حال، و إذا صلح موضعها «إلا» فهى آستثناء، فقس عليه. و«باغ» أصله باغى، ثقلت الضمة على الياء فسكنت والتنوين ساكن، فحذفت الياء والكسرة تدل عليها. والمعنى فيما قال قتادة والحسن والربيع وآبن زيد وعكرمة «غير باغ» فى أكله فوق حاجته، «ولا عادٍ» بأن يجد عن هذه المحرّمات مندوحة و يأكلها. وقال السدّى: «غير باغٍ» فى أكلها شهوة وتلذذًا، «ولا عاد» بآستيفاء الأكل إلى حدّ الشبع. وقال مجاهد وآبن جبير وغيرهما: المعنى «غير باغٍ» على المسلمين «ولا عادٍ» عليهم؛ فيدخل فى الباغى والعادى قطاع الطريق والخارج على السلطان والمسافر فى قطع الرحم والغارة على

(١) المرتك (كمقعد): ضرب من الأدوية.

Marfat.com

المسلمين وماشاكله . وهذا صحيح ؛ فإن أصل البغى فى اللغة قصد الفساد ؛ يقال : بغت المرأة تبغى بغاء إذا فجرت ؛ قال الله تعالى : « وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ »(١) . وربما استعمل البغى فى طلب غير الفساد . والعرب تقول : خرج الرجل فى بغاء إبلٍ له ، أى فى طلبها ؛ ومنه قول الشاعر :

لا يمنعنك من بُغا ٭ ء الخير تَعْقادُ الرَّتائم
إن الأشائم كالأيا ٭ من والأيامن كالأشائم

الحادية والثلاثون — قوله تعالى : ﴿وَلَا عَادٍ﴾ أصل «عاد» عائد ؛ فهو من المقلوب ؛ كشاك السلاح وهارٍ ولاثٍ . والأصل شائك وهائر ولائث ؛ من لُثت العمامة . فأباح الله فى حالة الاضطرار أكل جميع المحرمات لعجزه عن جميع المباحات كما بينا ؛ فصار عدم المباح شرطًا فى استباحة المحرم .

الثانية والثلاثون — واختلف العلماء إذا اقترن بضرورته معصية ، بقطع طريق و إخافة سبيل ؛ فحظرها عليه مالك والشافعيّ فى أحد قوليه لأجل معصيته ؛ لأن الله سبحانه أباح ذلك عونًا ، والعاصى لا يحلّ أن يُعان ؛ فإن أراد الأكل فليتُب وليأكل . وأباحها له أبو حنيفة والشافعيّ فى القول الآخر له ، وسوّيا فى استباحته بين طاعته ومعصيته . قال ابن العربى : وعجبًا ممن يبيح له ذلك مع التمادى على المعصية ، وما أظن أحدًا يقوله ، فإن قاله فهو مخطئ قطعًا .

قلت : الصحيح خلاف هذا ؛ فإن إتلاف المرء نفسه فى سفر المعصية أشد معصية مما هو فيه ، قال الله تعالى : « وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ »(٢) وهذا عامّ ، ولعله يتوب فى ثانى حال فتمحو التوبة عنه ما كان . وقد قال مسروق : من اضطر إلى أكل الميتة والدم ولحم الخنزير فلم يأكل حتى مات دخل النار ، إلا أن يعفو الله عنه . قال أبو الحسن الطبرى المعروف بالكِيَا : وليس أكل الميتة عند الضرورة رُخصة بل هو عزيمة واجبة ، ولو امتنع من أكل الميتة كان عاصيًا ،

(١) راجع جـ ١٢ ص ٢٥٤ (٢) راجع جـ ٥ ص ١٥٦

وليس [تناول][1] الميتة من رخص السفر أو متعلقا بالسفر بل هو من نتائج الضرورة سفرًا كان أو حَضَرًا ، وهو كالإفطار للعاصى المقيم إذا كان مريضًا ، وكالتيمّم للعاصى المسافر عند عدم المـاء . قال : وهو الصحيح عندنا .

قلت : وٱختلفت الروايات عن مالك فى ذلك ؛ فالمشهور من مذهبه فيما ذكره البـاجى فى المنتقى : أنه يجوز له الأكل فى سـفر المعصية ولا يجوز له القصر والفطر . وقال ٱبن خُوَيْزِمَنْداد : فأما الأكل عند الاضطرار فالطائع والعاصى فيه سواء ؛ لأن الميتة يجوز تناولها فى السفر والحضر ، وليس بخروج الخارج إلى المعاصى يسقط عنه حكم المقيم بل أسـوأ حالة من أن يكون مقيمًا ؛ وليس كذلك الفطر والقصر ؛ لأنهما رخصتان متعلّقتان بالسفر . فمتى كان السفر سفرَ معصية لم يجز أن يقصر فيه ؛ لأن هذه الرخصة تختص بالسفر ، ولذلك قلنا : إنه يتيمّم إذا عدم المـاء فى سفر المعصية ؛ لأن التيمم فى الحضر والسفر سواء . وكيف يجوز منعه من أكل الميتـة والتيمم لأجل معصية ٱرتكبها ، وفى تركه الأكل تلف نفســه ، وتلك أكبر المعاصى ، وفى تركه التيمم إضاعة للصـلاة . أيجوز أن يقـال له : ٱرتكبت معصية فارتكب أخرى ! أيجوز أن يقال لشارب الخمر : ازن ، وللزانى : اكفر ! أو يقال لهما : ضيّعا الصلاة ؟ ذكر هـذا كله فى أحكام القرآن له ، ولم يذكر خلافًا عن مالك ولا عن أحد من أصحـابه . وقال الباجى : « وروى زياد بن عبـد الرحمن الأندلسى أن العاصى بسفره يقصر الصـلاة ، ويُفطر فى رمضان . فسوّى بين ذلك كله ، وهو قول أبى حنيفة . ولا خلاف أنه لا يجوز له قتل نفسه بالإمساك عن الأكل ، وأنه مأمور بالأكل على وجه الوجوب ؛ ومن كان فى سفر معصية لا تسقط عنـه الفروض والواجبات من الصيام والصـلاة ، بل يلزمه الإتيان بهـا ؛ فكذلك ما ذكرناه . وجه القول الأوّل أن هذه المعانى إنمـا أبيحت فى الأسفار لحاجة الناس إليها ؛ فلا يباح له أن يستعين بها على المعاصى وله سبيل إلى ألّا يقتل نفسه . قال ٱبن حبيب : وذلك بأن يتوب ثم يتناول لحم الميتة بعـد توبته . وتعلّق ٱبن حبيب فى ذلك بقوله تعالى : « فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ » فاشترط فى إباحة الميتـة للضرورة ألّا يكون باغيًا . والمسافر

(١) الزيادة عن كتاب « أحكام القرآن » للكيا الهراسى .

Marfat.com

على وجه الحرابة أو القطع، أو فى قطع رَحِم أو طالب إثم — باغٍ ومعتـد ؛ فلم توجد فيـه شروط الإباحة؛ والله أعلم »

قلت : هذا آستدلال بمفهوم الخطاب، وهو مختلف فيه بين الأصوليين . ومنظوم الآية أن المضطر غير باغ ولا عاد لا إثم عليه، وغيره مسكوت عنه، والأصل عموم الخطاب؛ فمن آدعى زواله لأمر تما فعليه الدليل .

الرابعـة والثلاثون[1] — قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أى يغفر المعاصى ؛ فأولى ألا يؤاخذ بمـا رخّص فيه ، ومن رحمته أنه رخّص .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَـٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ يعنى علمـاء اليهود، كتموا ما أنزل الله فى التوراة من صفة محمد صلى الله عليه وسلم وصحة رسالته . ومعنى «أنزل» : أظهر؛ كما قال تعـالى : « وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْـلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ[2] » أى سأظهر . وقيل : هو على بابه من النزول؛ أى ما أنزل به ملائكته على رسله . ﴿ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ﴾ أى بالمكتوم ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يعنى أخذ الرّشاء . وسمّاه قليلًا لانقطاع مدّته وسوء عاقبته . وقيل : لأن ما كانوا يأخذونه من الرشاء كان قليلا .

قلت : وهذه الآية و إن كانت فى الأخبار فإنها تتناول من المسلمين من كتم الحق مختارًا لذلك بسبب دنيا يصيبها؛ وقد تقدّم[3] هذا المعنى .

قوله تعـالى : ﴿ فِي بُطُونِهِـمْ ﴾ ذكر البطون دلالةً وتأكيدًا على حقيقة الأكل؛ إذ قد يستعمل مجازا فى مثـل أكل فلان أرضى ونحوه . وفى ذكر البطون أيضًا تنبيه على جشعهم

(١) يلاحظ أن نسخ الأصل اضطربت فى عد هذه المسائل . (٢) راجع جـ ٧ ص ٤٠ .
(٣) راجع جـ ١ ص ٣٣٤ ، ص ٩ من هذا الجزء .

Marfat.com

وأنهم باعوا آخرتهم بحظّهم من المطعم الذى لا خطر له . ومعنى « إِلَّا النَّـارَ » أى إنه حرام يعذّبهم الله عليـه بالنار ؛ فسُمّى ما أكلوه من الرّشاء نارًا لأنه يؤدّيهـم إلى النار ؛ هكذا قال أكثر المفسرين . وقيل : أى إنه يعاقبهم على كتمانهم بأكل النار فى جهنم حقيقةً . فأخبر عن المآل بالحال، كما قال تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا »[(١)] أى أن عاقبته تؤول إلى ذلك ؛ ومنه قولهم :

* لِدُوا للموت وٱبْنُوا للخراب *[(٢)]

قال :

* فللموت ما تلد الوالده *

آخـر :

* ودُورُنا لخراب الدّهر نبنيها *

وهو فى القرآن والشعر كثير .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ ﴾ عبارة عن الغضب عليهم وإزالة الرضا عنهم ؛ يقال : فـلان لا يكلّم فلانًا إذا غضب عليه . وقال الطـبرى : المعنى « ولا يكلمهم » بما يحبونه . وفى التنزيل : «اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ»[(٣)] . وقيل : المعنى ولا يرسل إليهم الملائكة بالتحية . ﴿ وَلَا يُزَكِّيهِـمْ ﴾ أى لا يصلح أعمالهم الخبيثـة فيطهّرهم . وقال الزجاج : لا يثنى عليهم خيرًا ولا يسمّيهم أزكياء . و ﴿ أَلِيمٌ ﴾[(٤)] بمعنى مؤلم ؛ وقد تقـدّم . وفى صحيح مسـلم عن أبى هريرة رضى الله عنـه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " ثلاثة لا يكلّمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهـم ولهم عذاب أليم شـيخٌ زانٍ ومَلِكٌ كذاب وعائلٌ مستكبر " . وإنما خصّ هؤلاء بأليم العذاب وشـدّة العقوبة لمحض المعاندة والاستخفاف الحامل لهم على تلك المعاصى ؛ إذ لم يحملهم على ذلك حاجة، ولا دعتهم إليه ضرورة كما تدعو من لم يكن مثلهم . ومعنى « لا ينظر إليهم » لا يرحمهم ولا يعطف عليهم . وسيأتى فى « آل عمران »[(٥)] إن شاء الله تعالى .

---

(١) راجع جـ ٥ ص ٥٣ (٢) اختلف فى أنه حديث أو غير حديث . راجع كشف الخفاء جـ٢ ص ١٤٠
(٣) راجع جـ ١٢ ص ١٥٣ (٤) راجع جـ ١ ص ١٩٨ (٥) راجع جـ ٤ ص ١١٩

Marfat.com

قوله تعـالى : أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾

قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ﴾ [1] تقـدّم القول فيه . ولمـا كان العـذاب تابعًا للضـلالة وكانت المغفرة تابعـةً للهدى الذى آطّرحوه دخلا فى تجوّز الشراء .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴾ مذهب الجمهور — منهم الحسن ومجاهد — أن « ما » معناه التعجب ، وهو مردود إلى المخلوقين ، كأنه قال : آعجبوا من صـبرهم على النار ومُكثهم فيها . وفى التنزيل : « قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ » [2] و « أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ » [3] . وبهذا المعنى صدر أبو علىّ . قال الحسن وقتادة وآبن جبير والرّبيـع : ما لهم والله عليها من صـبر، ولكن ما أجرأهم على النار ! وهى لغـة يَمَنِيّة معروفة . قال الفرّاء : أخبرنى الكسائى قال : أخبرنى قاضى اليمن أن خصمين آختصما إليـه فوجبت اليمين على أحدهما فحلف ؛ فقـال له صاحبه : ما أصبرك على الله ؟ أى ما أجرأك عليه . والمعنى : ما أشجعهم على النار إذ يعملون عملًا يؤدّى إليها . وحكى الزجاج أن المعـنى ما أبقاهم على النار ؛ من قولهم : ما أصـبر فلانًا على الحبس ! أى ما أبقاه فيه . وقيـل : المعنى فمـا أقلّ جزعهم من النار ؛ فجعل قلة الجزع صبرًا . وقال الكسائى وقُطْرُب : أى ما أدْومهم على عمل أهل النار . وقيل: «ما» آستفهام معناه التوبيخ ؛ قاله آبن عباس والسدّى وعطاء وأبو عبيدة مَعْمَر بن المُثَنَّى ؛ ومعناه : أىْ أىّ شىء صبرهم على عمل أهل النار ؟ ! وقيـل : هذا على وجه الآستهانة بهم والآستخفاف بأمرهـــم .

قوله تعـالى : ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾

(١) راجع جـ ١ ص ٢١٠ طبعة ثانية . (٢) راجع جـ ١٩ ص ٢١٥ (٣) راجع جـ ١١ ص ١٠٨

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ذَلِكَ﴾ « ذلك » فى موضع رفع ، وهو إشارة إلى الحُكم ؛ كأنه قال : ذلك الحكم بالنار . وقال الزجاج : تقديره الأمر ذلك ، أو ذلك الأمر ، أو ذلك العذاب لهم . قال الأخفش : وخبر « ذلك » مضمر، معناه ذلك معلوم لهم . وقيل : محله نصب ، معناه فعلنا ذلك بهـم . ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَابَ﴾ يعنى القرآن فى هـذا الموضع ﴿بِالْحَقِّ﴾ أى بالصدق . وقيل بالحجـة . ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِي ٱلْكِتَابِ﴾ يعنى التوراة ؛ فٱدّعى النصارى أن فيها صفة عيسى ، وأنكر اليهود صفته . وقيل : خالفوا آباءهم وسلفهم فى التمسك بها . وقيل : خالفوا ما فى التوراة من صفة محمد صلى الله عليه وسـلم وٱختلفوا فيها . وقيل : المراد القرآن ، والذين ٱختلفوا كفار قريش ؛ يقول بعضهم : هو سحر ، و بعضهم يقول : أساطير الأولين . و بعضهم : مفترًى ؛ إلى غير ذلك . وقد تقدّم القول فى معنى الشقاق[(١)] ، والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿لَيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ (١٧٧)

فيه ثمـان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ﴾ ٱختلف من المراد بهذا الخطاب ؛ فقال قتادة : ذُكر لنـا أن رجلًا سأل نبىّ الله صلى الله عليه وسلم عن البرّ ؛ فأنزل الله هـذه الآية . قال : وقد كان الرجل قبل الفرائض إذا شهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، ثم مات على ذلك وجبت له الجنة ؛ فأنزل الله هذه الآية . وقال الربيع وقتادة أيضا : الخطاب لليهود

(١) راجع ص ١٤٣ من هذا الجزء .

Marfat.com

والنصارى لأنهم آختلفوا فى التوجّه والتّولّى ؛ فاليهود إلى المغرب قِبَل بيت المقدس ، والنصارى إلى المشرق مطلع الشمس ؛ وتكلّموا فى تحويل القبلة وفضّلت كل فرقة توليتها ؛ فقيل لهم : ليس البر ما أنتم فيه، ولكن البر من آمن بالله .

الثانيــة — قرأ حمزة وحفص « البِرَّ » بالنصب ؛ لأن ليس من أخوات كان، يقع بعدها المعرفتان فتجعل أيهما شئت الآسم أو الخبر؛ فلما وقع بعد « ليس » : « البرّ » نصبه؛ وجعل « أن تُوَلُّوا » الآسم ، وكان المصدر أولى بأن يكون آسمًا لأنه لا يتنكّر، والبرّ قد يتنكّر والفعل أقوى فى التعريف . وقرأ الباقون « البِرُّ » بالرفع على أنه آسم ليس ، وخبره « أن تُوَلُّوا » ، تقديره : ليس البرّ توليتكم وجوهكم ؛ وعلى الأول ليس توليتكم وجوهكم البرّ ، كقوله : « مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا »[1] ، « ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوءَى أَنْ كَذَّبُوا »[2] « فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ »[3] وما كان مثله . ويقوّى قراءة الرفع أن الثانى معه الباء إجماعًا فى قوله : « وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا ٱلْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا » ولا يجوز فيه إلا الرفع ؛ فحملُ الأول على الثانى أولى من مخالفته له . وكذلك هو فى مصحف أُبَىّ بالباء « ليس البر بأن تُوَلُّوا » وكذلك فى مصحف آبن مسعود أيضا ؛ وعليه أكثر القراء، والقراءتان حسنتان .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِٱللَّهِ ﴾ البر ها هنا آسم جامع للخير، والتقدير : ولكن البرّ برّ من آمن ؛ فحذف المضاف ؛ كقوله تعالى : « وَٱسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ »[4] ، « وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ »[5] قاله الفرّاء وقُطْرُب والزجاج . وقال الشاعر :

* فإنما هى إقبالٌ وإدبار *

أى ذات إقبال وذات إدبار . وقال النابغة :

وكيف تُواصل من أصبحتْ * خِلَالَتُــه كأبى مَــرْحَبِ[6]

---

(١) راجع جـ ١٦ ص ١٧٣ (٢) راجع جـ ١٤ ص ١٠ (٣) راجع جـ ١٨ ص ٤٢

(٤) راجع جـ ٩ ص ٢٤٦ (٥) راجع ص ٣١ من هذا الجزء .

(٦) الخلالة : (بفتح الخاء وكسرها وضمها ، جمع الخُلّة) : الصداقة . وأبو مرحب : كنية الظل ، ويقال : هو كنية عرقوب . يقول : خلة هـذه المرأة ووصالها لا يثبت كما لا تثبت خلة أبى مرحب ؛ فلا ينبغى أن تستأنس إليها و يعتدّ بها . (عن اللسان وشرح الشواهد) .

Marfat.com

أى كلالة أبى مرحب؛ فحذف . وقيل: المعنى ولكنّ ذا البر؛ كقوله تعالى: « هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ »(١) أى ذوو درجات. وذلك أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لمـا هاجر إلى المدينة وفُرضت الفرائض وصُرفت القبلة إلى الكعبة وحُدّت الحدود أنزل الله هذه الآية فقال: ليس البر كله أن تصلّوا ولا تعملوا غير ذلك، ولكن البر — أى ذا البر — من آمن بالله، إلى آخرها؛ قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك وعطاء وسفيان والزجاج أيضا. ويجوز أن يكون « البر » بمعنى البـارّ والبَرّ، والفاعل قد يُسمّى بمعنى المصـدر؛ كما يقال: رجل عَدْل، وصَـوْم وفِطْر. وفى التنزيل: « إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا »(٢) أى غائرا؛ وهذا آختيار أبى عبيدة. وقال المبرد: لو كنت ممن يقرأ القرآن لقرأت « ولكنّ البَرّ » بفتح الباء.

الرابعــة — قوله تعـالى: ﴿ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ ﴾ فقيـل: يكون « الموفون » عطفا على « مَن » لأن من فى موضع جمع ومحل رفع؛ كأنه قال: ولكن البرّ المؤمنون والموفون؛ قاله الفراء والأخفش. « والصابرين » نصب على المدح، أو بإضمار فعل. والعرب تنصب على المدح وعلى الذم كأنهم يريدون بذلك إفراد الممدوح والمذموم ولا يتبعونه أوّل الكلام، وينصبونه. فأمّا المدح فقوله: « والمقيمين الصلاة »(٣). وأنشد الكسائى:

وكُلُّ قومٍ أطاعوا أَمْرَ مُرْشِدِهم * إلا نُمَـيرًا أطاعت أَمْرَ غاوِيها
الظاعنين ولمـا يُظْعِنوا أحدا * والقائلون لِمَـنْ دارٌ نُخَلِّيهـا

وأنشد أبو عبيدة:

لا يَبْعَدن قومى الذين هُمُ * سَمُّ العُـدَاةِ وآفةُ الجُـزُرِ(٤)
النازلين بكـل مُعْتَرَكٍ * والطيبون مَعَـاقِدَ الأُزُرِ

وقال آخر:

* نحن بنى ضَبَّةَ أصحاب الجَمَـل *

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٦٣   (٢) راجع جـ ١٨ ص ٢٢٢   (٣) راجع جـ ٦ ص ١٣

(٤) راجع كتاب سيبويه وتوجيه الاعراب فيه (جـ ١ ص ١٠٤ ، ٢٤٦ ، ٢٤٩) طبع بولاق .

Marfat.com

فنصب على المدح . وأمّا الذم فقوله تعـالى : « مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا[1] » الآية . وقال عُرْوَة آبن الوَرْد :

سَقَوْنى الخمـر ثم تَكَنَّفُونى ٭ عُدَاةَ اللهِ من كَذِب وزورِ

وهذا مَهْيَع[2] فى النعوت، لا مطعن فيه من جهة الإعراب، موجود فى كلام العرب كما بيّنّا . وقال بعض من تعسّف فى كلامه : إن هذا غلط من الكُتّاب حين كتبوا مصحف الإمام ؛ قال : والدليل على ذلك ما روى عن عثمان أنه نظر فى المصحف فقال : أرى فيه لحنًا[3] وستقيمه العرب بألسنتها . وهكذا قال فى سـورة النساء « والمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ » ، وفى سورة المـائدة «وَالصَّابِئُونَ[4]» . والجواب ما ذكرناه . وقيل : «الموفون» رفع على الأبتداء والخبر محذوف ، تقديره وهم الموفون . وقال الكسائى : « والصابرين » عطف على « ذوى القربى » كأنه قال : وآتى الصابرين . قال النحاس : «وهذا القول خطأ وغلط بيّن؛ لأنك إذا نصبت «والصابرين» ونسقته على «ذوى القربى» دخل فى صلة «من» و إذا رفعت «والموفون» على أنه نسق على «مَن» فقد نسقت على «مَن» من قبل أن تتم الصلة ، وفرّقت بين الصلة والموصول بالمعطوف» . وقال الكسائى : وفى قراءة عبدالله «والموفين ، والصابرين» . وقال النحاس : «يكونان منسوقين على « ذوى القربى » أو على المدح . قال الفرّاء : وفى قراءة عبـد الله فى النساء « والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة[5] » . وقرأ يعقوب والأعمش «والموفون والصابرون» بالرفع فيهما . وقرأ

(١) راجع جـ ١٤ ص ٢٤٧ . (٢) المهيع : الطريق الواسع البيّن . (٣) هـذا القول من أخبث ما وضع الوضاعون على عثمان رضى الله عنـه ، وقد أنكر العلماء صحة نسبته إليه . على أن عثمان لم يستقل بجمع المصحف بل شاركه كبار الصحابة فى جمعـه وكتابته ولم ينشروه بين المسلمين حتى قابلوه على الصحف التى جمع القرآن فيها على عهد أبى بكر رضى الله عنـه ، فلم يتداوله المسلمون إلا وهو بإجماع الصحابة موافق تمام الموافقة للعرضة الأخيرة التى عرض فيها النبى صلى الله عليه وسلم القرآن على جبريل عليه السـلام . وهل يظن ظان أن عثمان رضى الله عنه وهو ثالث الخلفاء الراشدين يرى فى المصحف لحنا يخالف ما أنزل الله و يتركه و يقول : ستقيمه العرب بألسنتها ! وكيف يعقل أن يقول ذلك فى حضرة الصحابة ولا يقفون فى وجهه و يردون عليه قوله وهم أنصار الدين وحماته . وممن أنكر نسبة هـذا القول إلى عثمان المصنف والزمخشرى وأبو حيان والآلوسى فى سـورة « النساء » عند قوله تعالى : « والمقيمين الصلاة » آية ١٦٢ ، راجع جـ ٦ ص ١٣ . (٤) راجع جـ ٦ ص ٢٤٦ .

(٥) كذا فى كتاب « إعراب القرآن » للنحاس ، وما يدل عليه سياق الكلام فى البحر المحيط لأبى حيان فى سورة « النساء » . وفى الأصول : « والمقيمين ... والمؤتين » .

Marfat.com

الجحدرى « بعهودهم » . وقد قيل : إن « والموفون » عطف على الضمير الذى فى « آمن » . وأنكره أبو على وقال : ليس المعنى عليه، إذ ليس المراد أن البرّ برّ من آمن بالله هو والموفون، أى آمنا جميعا . كما تقول : الشجاع مَن أقدم هو وعمرو، و إنما الذى بعد قوله « من آمن » تعداد لأفعال من آمن وأوصافهم .

الخامســة — قال علماؤنا : هــذه آية عظيمة من أمهات الأحكام، لأنها تضمنت ست عشرة قاعدة : الإيمان بالله و بأسمائه وصفاته — وقد أتينا عليها فى « الكتاب الأسنى » — والنشر والحشر والميزان والصراط والحوض والشــفاعة والجنة والنار — وقــد أتينا عليها فى كتاب « التذكرة » — والملائكة والكتب المنزلة وأنها حق من عند الله — كما تقدّم — والنبيين و إنفاق المــال فيما يعِنّ من الواجب والمندوب و إيصال القرابة وترك قطعهم وتفقّد اليتيم وعدم إهماله والمساكين كذلك ، ومراعاة ٱبن ٱلسبيل — قيل المنقطع به ، وقيــل : الضيف — والسّؤال وفكّ الرقاب . وسيأتى بيان هذا فى آية الصدقات(١)، والمحافظة على الصلاة و إيتاء الزكاة والوفاء بالعهود والصبر فى الشدائد . وكل قاعدة من هذه القواعد تحتاج إلى كتاب . وتقدّم التنبيه على أكثرها، و يأتى بيان باقيها بمــا فيها فى مواضعها إن شاء الله تعالى .

وٱختلف هل يُعطَى اليتيم من صدقة التّطوّع بمجرّد اليُتْم على وجه الصلة و إن كان غنياً، أو لا يعطى حتى يكون فقيرا ؛ قولان للعلماء . وهــذا على أن يكون إيتاء المــال غير الزكاة الواجبة ، على ما نبيّنه آنفًا(٢) .

السادســة — قوله تعالى : ﴿وَآتَى المَــالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ ٱستدلّ به من قال : إن فى المــال حقًّا سوى الزكاة وبها كمال البرّ . وقيل : المراد الزكاة المفروضة، والأول أصح؛ لمــا خرّجه الدّارَقُطْنِي عن فاطمة بنت قيس قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن فى المــال حقًّا سوى الزكاة " ثم تلا هذه الآية « لَيْس البِرّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ » إلى آخر الآية . وأخرجه ٱبن ماجه فى سُننه والترمذى فى جامعه وقال : « هذا حديث ليس إسناده بذاك، وأبو حمزة

(١) راجع جـ ٨ ص ١٦٧　　(٢) آنفا : أى الآن .

Marfat.com

ميمون الأعور يُضعَّف . وروى بيان و إسماعيل بن سالم عن الشعبي هـذا الحديث قوله وهو أصح » .

قلت : والحديث و إن كان فيه مقال فقد دلّ على صحته معنى ما فى الآية نفسها من قوله تعالى : « وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ » فذكر الزكاة مع الصلاة، وذلك دليل على أن المراد بقوله : « وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ » ليس الزكاة المفروضة، فإن ذلك كان يكون تكرارا، والله أعلم . وآتفق العلماء على أنه إذا نزلت بالمسلمين حاجة بعد أداء الزكاة فإنه يجب صرف المال إليها . قال مالك رحمه الله : يجب على الناس فداء أسراهم و إن آستغرق ذلك أموالهم . وهذا إجماع أيضا، وهو يقوّى ما آخترناه، والموفق الإلٰه .

السابعــة — قوله تعالى : ﴿ عَلَى حُبِّهِ ﴾ الضمير فى « حُبِّه » آختلف فى عوده؛ فقيل : يعود على المعطى للمال، وحذف المفعول وهو المال . و يجوز نصب « ذَوِى الْقُرْبَى » بالحُبّ، فيكون التقدير على حبّ المعطى ذوى القربى . وقيـل : يعود على المال، فيكون المصدر مضافا إلى المفعول . قال آبن عطية : ويجيء قوله « على حُبِّه » آعتراضًا بليغًا أثناء القول .

قلت : ونظيره قوله الحق : « وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا »(١) فإنه جمع المعنيين، الآعتراض و إضافة المصدر إلى المفعول؛ أى على حب الطعام . ومن الآعتراض قوله الحق : « وَمَنْ يَعْمَـلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ »(٢) وهـذا عندهم يسمى التتميم، وهو نوع من البلاغة، و يُسمّى أيضا الآحتراس والآحتياط، فتمّم بقوله « على حبه » وقوله : « وهو مؤمن »؛ ومنه قول زهير :

مَنْ يَلْقَ يومًا على عِلّاته هَرِمًا • يَلْقَ السَّماحةَ منـه والنَّـدَى خُلُقَا

وقال امرؤ القيس :

على هَيكل يُعطيك قبل سـؤاله • أفانينَ جَرْيٍ غـير كَزٍّ ولا وَانِ

فقوله : « على علاته » و « قبل سؤاله » تتميم حسن؛ ومنه قول عنترة :

أثنى عـلىّ بمـا علمتِ فإننى • سَهـلٌ مخالقـتى إذا لم أُظْلَم

(١) راجع جـ ١٩ ص ١٢٦ (٢) راجع جـ ٥ ص ٣٩٩

Marfat.com

فقوله : « إذا لم أُظلم » تتميم حَسَن . وقال طَرَفة :

فسَـقى ديارَكَ غيرَ مفسدِها * صوبُ الربيع ودِيمةٌ تَهمِى

وقال الربيع بن ضَبع الفَزَارىّ :

فنيت وما يفنى صنيعى ومنطق * وكل آمرئ إلا أحاديثه فانٍ

فقوله : « غير مفسدها » ، و « إلا أحاديثه » تتميم وآحتراس . وقال أبو هفّان :

فأفنى الردى أرواحنا غير ظالم * وأفنى الندى أموالنا غير عائب

فقوله : « غير ظالم ، و « غير عائب » تتميم وآحتياط ، وهو فى الشعر كثير . وقيل : يعود على الإيتاء ؛ لأن الفعل يدل على مصـدره ، وهو كقوله تعالى : « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَـا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُـمْ » (١) أى البخل خيرًا لهم ، فإذا أصابت الناس حاجة أو فاقة فإيتاء المـال حبيب إليهـم . وقيل : يعود على آسم الله تعالى فى قوله : « مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ » . والمعنى المقصـود أن يتصدق المرء فى هـذه الوجوه وهو صحيح شحيح يخشى الفقر ويأمن البقاء .

الثامنـــة ـــ قوله تعالى : ﴿ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ﴾ أى فيما بينهم وبين الله تعالى وفيما بينهم وبين الناس . ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾ البأساء : الشدّة والفقر . والضّراء : المرض والزّمانة ؛ قاله آبن مسعود . وقال عليه السلام : " يقول الله تعالى أيما عبدٍ من عبادى آبتليته ببلاء فى فراشه فلم يَشْكُ إلى عوّاده أبدلته لحمًا خيرًا من لحمه ودمًا خيرًا من دمه فإن قبضته فإلى رحمتى وإن عافيته عافيته وليس له ذنب " قيـل : يارسول الله ، ما لحمٌ خيرٌ من لحمـه ؟ قال : " لحم لم يُذنب " قيل : فما دمٌ خير من دمه ؟ قال : " دم لم يذنب " . والبأساء والضراء آسمـان بُنيا على فعلاء ، ولا فعـل لهما ؛ لأنهما آسمـان وليسا بنعت . ﴿ وَحِينَ الْبَأْسِ ﴾ أى وقت الحزب (٢) .

قوله تعـالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ وصفهم بالصدق والتقوى فى أمورهم والوفاء بها ، وأنهم كانوا جادّين فى الدِّين ؛ وهذا غاية الثناء . والصدق : خلاف

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٩٠ . (٢) فى ب : « وقت الجدب » .

Marfat.com

الكذب . ويقال: صَدَقُوهم القتال . والصِّدِّيق: الملازم للصدق؛ وفى الحديث: "عليكم بالصدق فإن الصدق يَهْدى إلى البِرّ وإن البِرّ يَهدى إلى الجنة وما يزال الرجل يَصْدق ويتحرّى الصدق حتى يُكتب عند الله صِدِّيقًا" .

قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾

فيه سبع عشرة مسألة :

الأولى — روى البخارى والنسائى والدارقُطْنى عن ٱبن عباس قال: «كان فى بنى إسرائيل القصاص ولم تكن فيهم الدية ، فقال الله لهذه الأمة : « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِى الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِىَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ » فالعَفْوُ أن يقبل الدية فى العمد «فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ» يَتّبع بالمعروف ويؤدى بإحسان « ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ » مما كتب على من كان قبلكم « فَمَنِ ٱعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ » قتل بعد قبول الدية » . هذا لفظ البخارى : حدّثنا الحميدى حدّثنا سفيان حدّثنا عمرو [قال][(1)] سمعت مجاهدا [قال][(1)] سمعت ٱبن عباس [يقول][(1)] . وقال الشعبى فى قوله تعالى: « الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى » قال : أنزلت فى قبيلتين من قبائل العرب ٱقتتلتا فقالوا ، نقتل بعبدنا فلان بن فلان ، وبأَمَتنا فلانة بنت فلان ؛ ونحوه عن قتادة .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ «كُتب» معناه فُرض وأُثبت؛ ومنه قول عمر بن أبى ربيعة :

كُتب القتل والقتال علينا * وعلى الغانيات جَرّ الذُيول

(١) الزيادة عن صحيح البخارى .

Marfat.com

وقد قيل : إن « كُتب » هنا إخبار عما كُتب فى اللوح المحفوظ وسبق به القضاء. والقصاص مأخوذ من قَصّ الأثر وهو آتباعه ؛ ومنــه القاصّ لأنه يتبع الآثار والأخبار . وقصّ الشــعر آتباع أثره ؛ فكأن القاتل سلك طريقًا من القتــل فقُصّ أثره فيها ومشى على سبيله فى ذلك ؛ ومنه « فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا » . وقيل : القصّ القطع ؛ يقال : قصصت ما بينهما . ومنه أخذ القِصاص ؛ لأنه يجرحه مثل جرحه أو يقتله به ؛ يقال : أقصّ الحاكمُ فلانا من فلان وأباءه به فأمثله فآمتثل منه ؛ أى آقتص منه .

الثالثـــة — صورة القِصاص هو أن القاتل فُرض عليه إذا أراد الولىّ القتل الآستسلامُ لأمر الله والآنقيادُ لقصاصه المشروع ، وأن الولىّ فُرض عليه الوقوف عند قاتل وليّــه وترك التعدّى على غيره ؛ كما كانت العرب تتعدّى فتقتل غير القاتل ؛ وهو معنى قوله عليــه السلام : "إنّ مِن أعْتَى النــاس على الله يوم القيامة ثلاثة رجلٌ قتــل غير قاتله ورجل قتــل فى الحَرَم ورجل أخذ بذُحول الجاهلية"[(1)] . قال الشعبى وقتادة وغيرهما : إن أهل الجاهلية كان فيهم بغى وطاعة للشيطان ؛ فكان الحىّ إذا كان فيــه عزّ ومنَعَة فقُتل لهم عبد ؛ قتــله عبد قوم آخرين قالوا : لا نقتل به إلا حُرًّا ، و إذا قُتلت منهــم آمرأة قالوا : لا نقتــل بها إلا رجلا ، و إذا قُتل لهم وضيع قالوا : لا نقتل به إلا شريفًا ؛ و يقولون : « القتل أَوْقَى للقتل » بالواو والقاف . و يروى « أبقى » بالبــاء والقاف ، و يروى « أنفى » بالنون والفاء ؛ فنهاهم الله عن البغى فقال : « كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُــرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ » الآية ، وقال « وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ » . و بين الكلامين فى الفصاحة والجَزْل بَوْنٌ عظيم .

الرابعـــة — لا خلاف أن القصاص فى القتل لا يقيمه إلا أولو الأمر ، فرض عليهم النهوض بالقصاص و إقامة الحدود وغير ذلك ؛ لأنّ الله سبحانه خاطب جميــع المؤمنين بالقصاص ، ثم لا يتهيأ للؤمنين جميعا أن يجتمعوا على القصاص ؛ فأقاموا السلطان مقام أنفسهم

---

(١) الذحل (بفتح فسكون) : قيل هو العداوة والحقد ، وقيل : الثأر وطلب المكافأة بجناية جنيت عليه من قتل أوجرح ، ونحو ذلك .

Marfat.com

فى إقامة القصاص وغيره من الحدود. وليس القصاص بلازم إنما اللازم ألّا يتجاوز القصاص وغيره من الحدود إلى الاعتـداء ؛ فأما إذا وقع الرضا بدون القصاص من دِيَة أو عَفْو فذلك مباح ، على ما يأتى بيانه .

فإن قيل : فان قوله تعالى « كُتِبَ عَلَيْكُمْ » معناه فُرِض وألزم ؛ فكيف يكون القصاص غير واجب ؟ قيل له : معناه إذا أردتم ؛ فاعلم أن القصاص هو الغاية عند التشاحّ . والقتلى جمع قتيل ، لفظ مؤنث تأنيث الجماعة ، وهو ممّا يدخل على الناس كرها ؛ فلذلك جاء على هذا البناء كجرحى وزمنى وحمقى وصرعى وغرقى ؛ وشبههن .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ﴾ الآية . آختلف فى تأويلها ؛ فقالت طائفة : جاءت الآية مبيّنة لحكم النوع إذا قتل نوعه ؛ فبينت حكم الحرّ إذا قتـل حُرًّا ، والعبد إذا قتل عبدًا ، والأنثى إذا قتلت أنثى ، ولم تتعرّض لأحد النوعين إذا قتل الآخر ؛ فالآية مُحكمة وفيها إجمال بيّنه قوله تعالى : «وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ» ، و بيّنه النبيّ صلى الله عليه وسلم بسُنّته لمـا قتل اليهودىّ بالمرأة ؛ قاله مجاهد ، وذكره أبو عبيد عن آبن عباس . وروى عن آبن عباس أيضا أنها منسوخة بآية « المـائدة »[1] وهو قول أهل العراق .

السادســـة — قال الكوفيون والثورى : يُقتل الحر بالعبد ، والمسلمُ بالذمى ؛ وآحتجّوا بقوله تعـالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى » فعمّ ، وقوله : « وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ » ، قالوا : والذّمى مع المســلم[2] متساويان فى الحُرمة التى تكفى فى القصـاص وهى حُرمة الدّم الثابتة على التأبيد ؛ فإن الذّمى مَحْقُون الدم على التأبيد ، والمسلم كذلك ، وكلاهما قد صار من أهل دار الإسلام ؛ والذى يحقق ذلك أن المسلم يُقطع بسرقة مال الذمىّ ، وهذا يدلّ على أن مال الذمىّ قد ساوى مال المســلم ؛ فدل على مساواته لدمه إذ المـال إنما يحرم بحرمة مالكه . وآتفق أبو حنيفـة وأصحابه والثورىّ وآبن أبى ليـلى على أن الحر يُقتل بالعبـد كما يُقتل العبد به ؛ وهو قول داود ، وروى ذلك عن علىّ وآبن مسـعود

(١) راجع ج ٦ ص ١٩١ . (٢) فى ب ، ج ، ز : «مع الحر» .

رضى الله عنهما، وبه قال سعيد بن المسيّب وقتادة وإبراهيم النَّخَعِي والحكم بن عُيينة. والجمهور من العلماء لا يقتلون الحرّ بالعبد؛ للتنويع والتقسيم فى الآية. وقال أبو ثور: لمـا اتفق جميعهم على أنه لا قصاص بين العبيد والأحرار فيما دون النفوس كانت النفوس أحْرَى بذلك، ومَن فرّق منهم بين ذلك فقد ناقض. وأيضا فالإجماع فيمن قتل عبدا خطأ أنه ليس عليه إلا القيمة، فكما لم يشبه الحرّ فى الخطأ لم يشبهه فى العمد. وأيضا فإن العبد سلعة من السلع يباع ويشترى، ويتصرّف فيه الحرّ كيف شاء، فلا مساواة بينه وبين الحرّ ولا مقاومة.

قلت: هذا الإجماع صحيح، وأما قوله أوّلا: « ولمـا اتفق جميعهم — إلى قوله — فقد ناقض » فقـد قال ابن أبى ليلى وداود بالقصاص بين الأحرار والعبيـد فى النفس وفى جميع الأعضاء؛ واستدل داود بقوله عليه السلام: "المسلمون تتكافأ دماؤهم" فلم يفرّق بين حُرّ وعبد. وسيأتى بيانه فى « النساء »(١) إن شاء الله تعالى.

السابعـــة — والجمهور أيضا على أنه لا يُقتل مسلم بكافر؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: "لا يُقتل مسلم بكافر" أخرجه البخارىّ عن علىّ بن أبى طالب. ولا يصحّ لهم ما رَوَوْه من حديث ربيعة أن النبىّ صلى الله عليه وسـلم قَتل يوم خَيْبَر مسلما بكافر؛ لأنه منقطع، ومن حديث ابن البَيْلَمَانىّ وهو ضعيف عن ابن عمر عن النبىّ صلى الله عليه وسـلم مرفوعا. قال الدَّارَقُطْنى: « لم يسنده غير إبراهيم بن أبى يحيى وهو متروك الحديث. والصواب عن ربيعة عن ابن البَيْلَمَانىّ مرسَـل عن النبىّ صلى الله عليه وسلم، وابن البَيْلَمَانىّ ضعيف الحديث لا تقوم به حجة إذا وصل الحديث، فكيف بما يرسله ».

قلت: فلا يصح فى البـاب إلا حديث البخارىّ، وهو يخصص عموم قوله تعـالى: « كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِصَاصُ فِي الْقَتْلَى » الآية، وعموم قوله: « النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ».

الثامنـــة — رُوى عن علىّ بن أبى طالب والحسن بن أبى الحسن البصرىّ أن الآية نزلت مبيّنة حكم المذكورين، ليـدل ذلك على الفرق بينهم وبين أن يَقتل حرّ عبدًا أو عبـدٌ حرًّا، أو ذكرٌ أنثى أو أنثى ذكرًا، وقالا: إذا قتل رجلٌ امرأة فإن أراد أولياؤها قتلوا صاحبهم ووفّوا

(١) راجع جـ ٥ ص ٣١٤

Marfat.com

أولياءه نصف الدية ، و إن أرادوا آستحيَوه وأخذوا منه دِيَة المرأة . و إذا قتلت آمرأةٌ رجلا فإن أراد أولياؤه قتلها قتلوها وأخذوا نصف الدية ، و إلا أخذوا دِية صاحبهم وآستحيَوها . روى هذا الشعبي عن علىّ ، ولا يصح ؛ لأن الشعبىّ لم يلق عليًّا . وقد روى الحَكَم عن علىّ وعبد الله قالا : إذا قتل الرجلُ المرأةَ متعمّدا فهو بها قَوَدٌ ؛ وهذا يعارض رواية الشعبىّ عن علىّ . وأجمع العلماء على أن الأعور والأَشَلّ إذا قتل رجلا سالمَ الأعضاء أنه ليس لوليّه أن يقتل الأعور ، و يأخذ منه نصف الدية من أجل أنه قتل ذا عينين وهو أعور ، وقتل ذا يدَيْن وهو أشلّ ؛ فهذا يدلّ على أن النفس مكافئة للنفس ، و يكافئ الطفل فيها الكبير .

و يقال لقائل ذلك : إن كان الرجل لا تكافئه المرأة ولا تدخل تحت قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : "المسلمون تتكافأ دماؤهم" فلِمَ قتلت الرجل بها وهى لا تكافئه ثم تأخذ نصف الدية ، والعلماء قد أجمعوا أن الدية لا تجتمع مع القصاص ، وأن الدية إذا قُبلت حَرُم الدم وآرتفع القصاص ؛ فليس قولك هذا بأصل ولا قياس ، قاله أبو عمر رضى الله عنه . وإذا قتل الحرُّ العبدَ ، فإن أراد سيّد العبد قَتل وأعطى دِية الحر إلا قيمة العبد ، و إن شاء آستحيا وأخذ قيمة العبد ؛ هذا مذكور عن علىّ والحسن ؛ وقد أنكر ذلك عنهم أيضا .

التاسعة — وأجمع العلماء على قتل الرجل بالمرأة والمرأة بالرجل ؛ والجمهور لا يرون الرجوع بشىء . وفرقة ترى الأتباع بفضل الديات . قال مالك والشافعى وأحمد و إسحاق والثورىّ وأبو ثور : وكذلك القصاص بينهما فيما دون النفس . وقال حماد بن أبى سليمان وأبو حنيفة : لا قصاص بينهما فيما دون النفس بالنفس و إنما هو فى النفس بالنفس ؛ وهما محجوجان بإلحاق ما دون النفس بالنفس على طريق الأحرى والأَوْلى ، على ما تقدّم .

العاشرة — قال آبن العربى : «ولقد بلغت الجهالة بأقوام إلى أن قالوا : يُقتل الحرّ بعبد نفسه ، ورَوَوْا فى ذلك حديثا عن الحسن عن سَمُرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "مَن قتل عبده قتلناه" وهو حديث ضعيف . ودليلنا قوله تعالى : « وَمَنْ قُتِل

مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ(١) » والوَلِيّ ها هنا السّـيد ، فكيف يجعل له سلطان على نفسه » . وقد ٱتفق الجميع على أن السّيد لو قتل عبده خطأ أنه لا تؤخذ منه قيمته لبيت المـال؛ وقد روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أن رجلًا قتل عبده متعمّدًا فجلده النبيّ صلى الله عليه وسلم ونفاه سَنَةً ومَحَا سهمه من المسلمين ولم يُقِده به .

فإن قيل : فإذا قتل الرجل زوجته لِمَ لَمْ تقولوا : ينصب النكاح شبهة فى درء القصاص عن الزوج، إذ النكاح ضرب من الرّق ، وقـد قال ذلك اللّيث بن سـعد . قلنـا : النكاح ينعقد لهـا عليه، كما ينعقد له عليها ؛ بدليل أنه لا يتزوج أختها ولا أربعًا سـواها ، وتطالبـه فى حق الوطء بمـا يطالبها ، ولكن له عليها فضل القَوَامة التى جعل الله له عليها بما أنفق من ماله ؛ أى بمـا وجب عليه من صداق ونفقة؛ فلو أورث شبهة لأورثها فى الجانبين .

قلت : هذا الحديث الذى ضعّفه ٱبن العربى وهو صحيح ،أخرجه النسائى وأبو داود ،وتمّم مَتْنه :"ومَن جدعه جدعناه ومن أخصاه أخصيناه". وقال البخارى عن علىّ بن المدينى: سماع الحسن من سَمُرة صحيح؛ وأخذ بهذا الحديث . وقال البخارى : وأنا أذهب إليه؛ فلو لم يصح الحديث لمـا ذهب إليه هذان الإمامان ، وحَسْبُك بهما ! . ويُقتل الحُرّ بعبد نفســه . قال النَّخَعِىّ والثّورىّ فى أحد قوليه وقد قيل : إن الحسن لم يسمع من سَمُرة إلا حديث العَقِيقة؛ والله أعلم . [وٱختلفوا(٢) فى القصاص بين العبيد فيما دون النفس؛ هذا قول عمر بن عبد العزيز وسـالم بن عبـد الله والزُّهرى وقُرّان(٣) ومالك والشـافعى وأبو ثور . وقال الشعبىّ والنَّخَعِىّ والثَّورِىّ وأبو حنيفة : لا قصاص بينهم إلا فى النفس . قال ٱبن المنذر : الأوّل أصح] .

الحادية عشرة — روى الدّارَقُطْنِىّ وأبو عيسى الترمذى عن سُرَاقة بن مالك قال : حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقِيد الأب من ٱبنه، ولا يُقِيد الٱبن من أبيه . قال أبو عيسى : « هذا حديث لا نعرفه من حديث سُراقة إلا من هذا الوجه، وليس إسناده بصحيح ، رواه إسماعيل بن عيّاش عن المُثَنّى بن الصباح، والمُثَنّى يُضعَّف فى الحديث، وقد روى هـذا

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٥٤ (٢) ما بين المربعين ساقط من ب، جـ، ز .
(٣) قران (بضم القاف وتشديد الراء) بن تمـام الأسدى ، توفى سنة إحدى وثمـانين ومائة .

Marfat.com

الحديث أبو خالد الأحمر عن الحجاج عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه عن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقد رُوِىَ هذا الحديث عن عمرو بن شعيب مرسلًا، وهذا الحديث فيه آضطراب ؛ والعمل على هذا عند أهل العلم أن الأب إذا قَتل آبنه لا يُقتل به ، و إذا قذفه لا يُحدّ » . وقال آبن المنذر : آختلف أهل العلم فى الرجل يقتل آبنه عمدا؛ فقالت طائفة : لا قَوَدَ عليه وعليه دِيَتُه؛ وهذا قول الشافعى وأحمد و إسحاق وأصحاب الرأى، ورُوِى ذلك عن عطاء ومجاهد . وقال مالك وآبن نافع وآبن عبد الحكم : يُقتل به . وقال آبن المنذر : وبهذا نقول لظاهر الكتاب والسُّنة ؛ فأمّا ظاهر الكتاب فقوله تعـالى : « كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِصَاصُ فِى القَتْلَى الحُرُّ بِالحُرِّ وَالعَبْدُ بِالعَبْدِ» ، والثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : "المؤمنون تتكافأ دماؤهم" ولا نعلم خبرًا ثابتًا يجب به آستثناء الأب من جمـلة الآية . وقد رَوَيْنَا فيـه أخبارًا غير ثابتـة . وحكى الكِيَا الطبرى عن عثمان البَتِّى أنه يُقتـل الوالد بولده ؛ للعمومات فى القصاص . ورُوِى مثل ذلك عن مالك، ولعلهما لا يقبلان أخبـار الآحاد فى مقابلة عمومات القرآن .

قلت : لا خلاف فى مذهب مالك أنه إذا قتـل الرجل آبنه متعمِّدًا مثـل أن يُضْجِعه و يذبحه أو يَصْبِره[1] مما لا عذر له فيه ولا شبهة فى آدّعاء الخطأ، أنه يُقتل به قولًا واحدًا . فأما إن رماه بالسلاح أدبًا أو حَنَقًا فقتله ، ففيه فى المذهب قولان : يُقتل به، ولا يُقتل به وتُغلّظ الدِّية؛ و به قال جماعة العلماء . ويُقتل الأجنبىّ بمثـل هذا . آبن العربى[2] : « سمعت شيخنا فخر الإسلام الشاشى يقول فى النّظر : لا يُقتل الأب بآبنه؛ لأن الأب كان سبب وجوده، فكيف يكون هو سبب عدمه؟ وهذا يبطل بما إذا زنى بآبنته فإنه يُرجم، وكان سبب وجودها وتكون هى سبب عدمه ؛ [ثم أىّ فقـه تحت هذا ، ولم لا يكون سبب عدمه إذا عصى الله تعـالى فى ذلك][3] . وقد أثَرُوا عن رسول الله صلى الله عليه وسـلم أنه قال : "لا يقاد الوالد

(١) صبر الإنسان وغيره على القتل : أن يحبس و يرمى حتى يموت . وفى ا ، ب : « أو يضربه » .

(٢) أثبتنا كلام آبن العربى هنا كما ورد فى كتابه « أحكام القرآن » ، وقـد ورد فى الأصول بنقص وتحريف من النساخ .

(٣) زيادة عن ابن العربى .

بولده " وهـو حديث باطل ، ومتعلّقهم أن عمر رضى الله عنـه قضى بالدّية مغلّظة فى قاتل آبنه ولم ينكر أحد من الصحابة عليـه ؛ فأخذ سائر الفقهاء رضى الله عنهـم المسألة مُسْجَلة (١) ، [وقالوا : لا يُقتل الوالد بولده] (٢) ؛ وأخذها مالك محكمة مفصّلة فقال : إنه لو حذفه بالسيف وهذه حالة محتملة لقصد القتل وعدمه ، وشفقة الأبوة شُبهة منتصبة شاهدة بعدم القصد إلى القتل تُسقط القَوَد ، فإذا أضجعه كشف الغطاء عن قصده فآلتحق بأصله » . قال آبن المنذر : وكان مالك والشافعى وأحمد و إسحاق يقولون : إذا قتل الآبنُ الأب قُتل به .

الثانية عشرة — وقد آستدلّ الإمام أحمد بن حنبل بهذه الآية على قوله : لا تُقتل الجماعة بالواحد ، قال : لأن الله سبحانه شرط المساواة ولا مساواة بين الجماعة والواحد . وقـد قال تعالى : «وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ» . والجواب أن المراد بالقصاص فى الآية قَتْل مَنْ قَتَل كائنًا من كان ؛ ردًّا على العرب التى كانت تريد أن تقتل بمن قُتِل من لم يَقتل ، وتقتل فى مقابلة الواحد مائة ؛ آفتخارًا وآستظهارًا بالجاه والمقدرة ، فأمر الله سبحانه بالعدل والمساواة ، وذلك بأن يُقتل مَن قَتل ، وقد قَتل عمر رضى الله عنه سبعةً برجل بصنعاء وقال : لو تمـالأ عليه أهـلُ صنعاء لقتلتهم به جميعا . وقتـل علىّ رضى الله عنه الحرورية (٣) بعبد الله بن خَبّاب ؛ فإنه توقّف عن قتالهم حتى يُحدِثُوا ، فلما ذبحوا عبـد الله بن خَبّاب كما تُذبح الشاة ، وأُخبر علىّ بذلك قال : الله أكبر ! نادوهم أن أخرجـوا إلينا قاتلَ عبد الله بن خَبّاب ؛ فقالوا : كلنا قتله ، ثلاث مرات ، فقال علىّ لأصحابه : دونكم القوم ، فما لبث أن قتلهم علىّ وأصحابه . خرّج الحديثين الدّارَقُطْنِىّ فى سُننه . وفى الترمذىّ عن أبى سعيد وأبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لو أن أهل السماء وأهل الأرض آشتركوا فى دم مؤمن لأكبّهم الله فى النار " . وقال فيـه : حديث غريب . وأيضا فلو علم الجماعة أنهـم إذا قتلوا الواحد لم يُقتلوا لتعاون الأعداء على قتل أعدائهم بالآشتراك فى قتلهم و بلغوا الأمل من التشفّى ،

(١) أى مرسلة مطلقة . (٢) زيادة عن آبن العربى . (٣) الحرورية : طائفة من الخوارج نسبوا إلى حروراء (موضع قريب من الكوفة) لأن أوّل مجتمعهم وتحكيمهم فيها .

Marfat.com

ومراعاة هذه القاعدة أولى من مراعاة الألفاظ، والله أعلم . [وقال ٱبن المنذر[(١)]: وقال الزهرى وحبيب بن أبى ثابت وٱبن سيرين : لا يُقتل ٱثنان بواحد . روينا ذلك عن معاذ بن جبل وٱبن الزبير وعبـد الملك ، قال ٱبن المنذر : وهـذا أصح، ولا حجة مع من أباح قتـل جماعة بواحد . وقد ثبت عن ٱبن الزبير ما ذكرناه[(١)]] .

الثالثة عشرة — روى الأئمة عن أبى شريح الكعبى قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : " ألّا إنكم معشرَ خزاعة قتلتم هذا القتيل من هُذيل وإنى عاقله فمن قُتل له بعد مقالتى هذه قتيل فأهله بين خِيرَتَيْن أن يأخذوا العقل أو يقتلوا "، لفظ أبى داود . وقال الترمذى : حديث حسن صحيح . وروى عن أبى شريح الخـزاعى[(٢)] عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم قال : " من قُتل له قَتيل فله أن يقتـل أو يعفو أو يأخذ الدّية " . وذهب إلى هـذا بعض أهل العلم ، وهو قول أحمد وإسحاق .

الرابعة عشرة — ٱختلف أهل العلم فى أخذ الدّية من قاتل العمد، فقالت طائفة : وَلِىُّ المقتول بالخيار إن شاء ٱقتص وإن شاء أخذ الدّية وإن لم يرض القاتل . يُروى هذا عن سعيد ابن المسيّب وعطاء والحسن ، ورواه أشهب عن مالك، وبه قال الليث والأوزاعى والشافعى وأحمد وإسحاق وأبو ثور . وحجتهم حديث أبى شريح وما كان فى معناه، وهو نص فى موضع الخلاف؛ وأيضا من طريق النظر فإنما لزمته الدّية بغير رضاه ؛ لأن فرضًا عليه إحياء نفسه ، وقد قال الله تعالى : «وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ»[(٣)] . وقوله : « فَمَنْ عُفِىَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ » أى ترك له دمه، فى أحد التأويلات، ورضى منه بالدّية « فَٱتِّبَاعٌ بِٱلْمَعْرُوفِ» أى فعلى صاحب الدم ٱتباع بالمعروف فى المطالبة بالدّية، وعلى القاتل أداء إليه بإحسان، أى من غير مماطلة وتأخير عن الوقت ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ أى أن من كان قبلنا لم يفرض الله عليهم غير النفس بالنفس، فتفضّل الله على هذه الأمة بالدّية إذا رضى بها ولىّ الدم، على ما يأتى بيانه . وقال

(١) ما بين المربعين ساقط من ب، جـ، ز . (٢) أبو شريح الخزاعى : هو أبو شريح الكعبى؛ واختلف فى ٱسمه ، والمشهور أنه خويلد بن عمرو بن صخر ، أسلم يوم الفتح . (٣) راجع جـ ٥ ص ١٥٦

Marfat.com

آخرون : ليس لولى المقتول إلا القصاص، ولا يأخذ الدّية إلا إذا رضى القاتل؛ رواه ابن القاسم عن مالك وهو المشهور عنه، وبه قال الثورى والكوفيون . وآحتجوا بحديث أنس فى قصة الرُّبَيِّع[1] حين كسرت ثَنِيّة المرأة؛ رواه الأئمة قالوا : فلما حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقصاص وقال : "القصاص كتاب الله، القصاص كتاب الله" ولم يخيِّر المجنى عليه بين القصاص والدّية ثبت بذلك أن الذى يجب بكتاب الله وسُنّة رسوله فى العمد هو القصاص، والأوّل أصح؛ لحديث أبى شريح المذكور . وروى الربيع عن الشافعى قال : أخبرنى أبو حنيفة آبن سِمَاك بن الفضل الشهابى قال : وحدّثنى آبن أبى ذئب عن المَقْبُرِى عن أبى شريح الكعبى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عامَ الفتح : "مَن قُتل له قتيل فهو بخير النّظرَيْن إن أحبّ أخذ العقل وإن أحبّ فله القَوَد" . فقال أبو حنيفة : فقلت لآبن أبى ذئب : أتأخذ بهذا يا أبا الحارث! فضرب صدرى وصاح علىّ صياحًا كثيرًا ونال منّى وقال : أحدّثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقول : تأخذ به ! نعم آخذ به، وذلك الفرض علىّ وعلى من سمعه، إن الله عز وجل ثناؤه آختار محمدا صلى الله عليه وسلم من الناس فهداهم به وعلى يديه، وآختار لهم ما آختاره له وعلى لسانه؛ فعلى الخلق أن يتّبعوه طائعين أو داخرين، لا مخرج لمسلم من ذلك؛ قال : وما سكت عنّى حتى تمنّيت أن يسكت .

الخامسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ﴾ آختلف العلماء فى تأويل «مَنْ» و «عُفِيَ» على تأويلات خمس :

أحدها — أن «مَن» يراد بها القاتل، و «عُفِيَ» تتضمّن عافيًا هو ولىّ الدم، والأخ هو المقتول، و «شَيْءٌ» هو الدّم الذى يُعْفَى عنه ويرجع إلى أخذ الدّية؛ هذا قول آبن عباس وقتادة ومجاهد وجماعة من العلماء . والعَفْوُ فى هذا القول على بابه الذى هو الترك . والمعنى : أن القاتل إذا عفا عنه ولىّ المقتول عن دم مقتوله وأسقط القصاص فإنه يأخذ الدّية ويتبع بالمعروف، ويؤدّى إليه القاتل بإحسان .

(١) الربيع (بضم الراء وفتح الموحدة وتشديد المثناة المكسورة بعدها عين مهملة) وهى عمة أنس بن مالك .

Marfat.com

الثـانى — وهو قول مالك أن « مَن » يراد به الولىّ « وعُفِىَ » يُسِّر ، لا على بابها فى العفـو ، والأخ يراد به القاتل ، و « شىء » هو الدية ، أى أن الولىّ إذا جنح إلى العفو عن القصاص على أخذ الدية فإن القاتل مخيّر بين أن يعطيها أو يسلم نفسه ؛ فمرة تُيَسّر ومرة لا تيسر. وغير مالك يقول: إذا رضى الأولياء بالدّية فلا خيار للقاتل بل تلزمه. وقد رُوى عن مالك هذا القول، ورجحه كثير من أصحابه. وقال أبو حنيفة: إن معنى «عُفِىَ» بُذِل؛ والعفو فى اللغة: البذل؛ ولهذا قال الله تعالى: « خُذِ الْعَفْوَ »(١) أى ما سهل. وقال أبو الأسود الدؤلى:

• خُذى العفو منّى تستديمى مودّتى •

[وقال(٢) صلى الله عليه وسلم : "أول الوقت رضوان الله وآخره عفو الله" يعنى شهد الله على عباده . فكأنه قال : مَن بُذِل له شىء من الدّية فليقبل وليتبع بالمعروف . وقال قوم : ولْيُؤَدِّ إليـه القاتل بإحسان ؛ فندبه تعـالى إلى أخذ المـال إذا سهل ذلك من جهـة القاتل، وأخبر أنه تخفيف منه ورحمة؛ كما قال ذلك عقب ذكر القصاص فى سورة «المـائدة» « فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُـوَ كَفَّارَةٌ لَهُ »(٣) فندب إلى رحمة العفو والصدقة، وكذلك ندب فيما ذكر فى هذه الآية إلى قبول الدّية إذا بذلها الجانى بإعطاء الدّية، ثم أمر الولىّ باتباع وأمر الجانى بالأداء بالإحسان] .

وقـد قال قوم : إن هـذه الألفاظ فى المعيّنين الذين نزلت فيهم الآية كلهـا وتساقطوا الدّيات فيما بينهم مقاصّـة . ومعنى الآية : فمن فضل له من الطائفتين على الأخرى شىء من تلك الدّيات ؛ و يكون « عُفِىَ » بمعنى فُضِل .

[روى(٢) سفيان بن حسين بن شوعة عن الشعبى قال : كان بين حيّين من العرب قتال؛ فقُتل من هؤلاء، وهؤلاء. وقال أحد الحيّين: لا نرضى حتى يُقتل بالمرأة الرجلُ و بالرجل المرأةُ؛ فآرتفعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال عليه السلام : "القتل سواء" فآصطلحوا على الدّيات ، ففُضّل أحد الحيّين على الآخر؛ فهو قوله : « كُتِبَ » إلى قوله : « فَمَنْ عُفِىَ لَهُ مِنْ أَخِيـهِ شَىْءٌ » يعنى فمن فُضل له على أخيه فضل فليؤدّه بالمعـروف؛ فأخبر الشعبى عن السبب فى نزول الآية، وذكر سفيان العفو هنا الفضل؛ وهو معنًى يحتمله اللفظ] .

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٤٤ (٢) ما بين المربعين فى ح، وساقط من سائر النسخ. (٣) جـ ٦ ص ٢٠٨

Marfat.com

وتأويل خامس — وهو قول عليّ رضى الله عنه والحسن فى الفضل بين دِيَة الرجل[1] والمرأة والحرّ والعبد ، أى من كان له ذلك الفضل فآتباع بالمعروف؛ و « عُفِى » فى هذا الموضع أيضا بمعنى فُضل .

السادسة عشرة — هذه الآية حضٌّ من الله تعالى على حسن الاقتضاء من الطالب ، وحسن القضاء من المؤدّى ؛ وهل ذلك على الوجوب أو الندب . فقراءة الرفع تدل على الوجوب؛ لأن المعنى فعليه آتباع بالمعروف . قال النحاس : « فَمَنْ عُفِيَ لَهُ » شرطٌ والجواب « فآتباع » وهو رفع بالابتداء، والتقدير فعليه آتباع بالمعروف . ويجوز فى غير القرآن « فآتباعاً وأداءً » بجعلهما مصدرين . قال آبن عطية : وقرأ إبراهيم بن أبى عَبْلَة « فآتباعا » بالنصب . والرفع سبيل للواجبات ؛ كقوله تعالى : « فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ »[2] . وأما المندوب إليه فيأتى منصوبا؛ كقوله : « فَضَرْبَ الرِّقَابِ »[3] .

السابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ لأن أهل التوراة كان لهم القتل ولم يكن لهم غير ذلك، وأهل الإنجيل كان لهم العفو ولم يكن لهم قَوَدٌ ولا دِيَة؛ فجعل الله تعالى ذلك تخفيفًا لهذه الأمة؛ فمن شاء قَتل ، ومن شاء أخذ الدية، ومن شاء عفَا .

قوله تعالى : ﴿ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ ﴾ شرط وجوابه ؛ أى قتل بعد أخذ الدية وسقوط [الدم][4] قاتلَ وليِّه . ﴿ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ قال الحسن : كان الرجل فى الجاهلية إذا قتل قتيلا فرّ إلى قومه فيجىء قومه فيصالحون بالدّية فيقول وَلِىّ المقتول : إنى أقبل الدية؛ حتى يأمن القاتل ويخرج ، فيقتله ثم يرمى إليهم بالدّية .

وآختلف العلماء فيمن قَتل بعد أخذ الدية ؛ فقال جماعة من العلماء منهم مالك والشافعى : هو كمن قتل آبتداء، إن شاء الولىّ قتله وإن شاء عفا عنه وعذابه فى الآخرة. وقال قتادة وعكرمة والسُّدىّ وغيرهم : عذابه أن يُقتل البتّة، ولا يمكّن الحاكمُ الولىَّ من العفو . وروى أبو داود عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لَا أُعْفَى[5] من قتل بعد أخذ

(١) يلاحظ أن المؤلف رحمه الله لم يذكر التأويل الثالث والرابع .　(٢) راجع جـ ٣ ص ١٢٧

(٣) راجع جـ ١٦ ص ٢٢٥　(٤) زيادة يقتضيها السياق .　(٥) أعفى : من عفا الشيء إذا كثر وزاد ؛ وهذا دعاء عليه ؛ أى لا كثر ماله ولا آستغنى .

Marfat.com

الدية ". وقال الحسن : عذابه أن يردّ الدية فقط ويبقى إثمه إلى عذاب الآخرة . وقال عمر بن عبد العزيز : أمره إلى الإمام يصنع فيه ما يرى . وفى سُنن الدارَقُطْنِيّ عن أبى شريح الخزاعيّ قال : سمعت رسـول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من أصيب بدم أو خَبْل — والخَبْل عَرج — فهو بالخيار بين إحدى ثلاث فإن أراد الرابعة فخذوا على يديه بين أن يقتصّ أو يعفو أو يأخذ العقل فإن قَبِل شيئا من ذلك ثم عدا بعد ذلك فله النار خالدا فيها مخلّداً " .

قوله تعالى : وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾

فيـــه أربع مسـائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ هـذا من الكلام البليغ الوجيز كما تقدّم . ومعناه : لا يقتل بعضكم بعضًا ؛ رواه سفيان عن السُّدّيّ عن أبى مالك . والمعنى : أن القصاص إذا أقيم وتحقّق الحكم فيه آزدجر من يريد قتل آخر ، مخافةَ أن يقتص منه فحييا بذلك معًا . وكانت العرب إذا قتـل الرجل الآخر حَمِيَ قبيلاهما وتقاتلوا ، وكان ذلك داعيًا إلى قتـل العدد الكثير ؛ فلمـا شرع الله القصاص قَنِع الكل به وتركوا الآقتتال ؛ فلهم فى ذلك حياة .

الثـانيـــة — آتفق أئمة الفتوى على أنه لا يجوز لأحد أن يقتص من أحد حقه دون السلطان ، وليس للنـاس أن يقتص بعضهم من بعض ؛ وإنمـا ذلك للسلطان أو من نصبه السلطان لذلك ؛ ولهذا جعل الله السلطان ليقبض أيدى الناس بعضهم عن بعض .

الثـالثـــة — وأجمع العلماء على أن على السلطان أن يقتص من نفسه إن تعدّى على أحد من رعيّته ، إذ هو واحد منهم ؛ وإنما له مزيّة النظر لهم كالوصيّ والوكيل ، وذلك لا يمنع القصاص ، وليس بينهم وبين العامّة فرق فى أحكام الله عز وجل ؛ لقوله جل ذكره : « كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى » ، وثبت عن أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه أنه قال لرجل شكا إليه أن عاملًا قطع يده : لئن كنت صادقًا لأقيدنّك منـه . وروى النّسائى عن أبى سعيد الخُدْرِيّ

Marfat.com

قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم شيئا إذ أكبّ عليه رجل ، فطعنه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعُرجون كان معه ، فصاح الرجل ؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "[تعال] فاستقد" . قال : بل عفوت يا رسول الله . وروى أبو داود الطيالسي عن أبي فراس قال : خطب عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : ألَا مَن ظلمه أميره فليرفع ذلك إليّ أقيده منه . فقام عمرو بن العاص فقال : يا أمير المؤمنين ، لئن أدّب رجل منا رجلاً من أهل رعيّته لتقصنّه منه ؟ قال : كيف لا أقصّه منه وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقصّ من نفسه ! . ولفظ أبي داود السّجستانيّ عنه قال : خطبنا عمر بن الخطاب فقال : إني لم أبعث عُمّالي ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم ؛ فمن فعل ذلك به فليرفعه إليّ أقصّه منه . وذكر الحديث بمعناه .

الرابعــة — قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (1) تقدم معناه . والمراد هنا « تتقون » القتل فتسلمون من القصاص ، ثم يكون ذلك داعيـةً لأنواع التقوى في غير ذلك ؛ فإن الله يثيب بالطاعة على الطاعة . وقرأ أبو الجوزاء أوس بن عبد الله الرَّبَعيّ «ولكم في القَصَص حياة» . قال النحاس : قراءة أبي الجوزاء شاذة . قال غيره : يحتمل أن يكون مصدراً كالقصاص . وقيل : أراد بالقَصَص القرآن ؛ أي لكم في كتاب الله الذي شرع فيه القصص حياة ؛ أي نجاة .

قوله تعـالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (١٨٠)

فيه إحدى وعشرون مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ ﴾ هـذه آية الوصيـة ، وليس في القرآن ذكر للوصيـة إلا في هـذه الآية ، [(2) وفي « النساء » : «مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ» (3) وفي «المائدة» : «حِينَ الْوَصِيَّةِ» (4) . والتي في البقرة أتمها وأكملها] ونزلت قبل نزول الفرائض والمواريث ؛ على ما يأتي

(1) يراجع ج ١ ص ٢٢٦ وما بعدها ، طبعة ثانية .　(2) ما بين المربعين ساقط في ب ، ح ، ز .
(3) راجع ج ٥ ص ٧٣ .　(4) راجع ج ٦ ص ٣٤٨

Marfat.com

بيانه . وفى الكلام تقدير واو العطف؛ أى وكتب عليكم، فلما طال الكلام أسقطت الواو. ومثله فى بعض الأقوال : «لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى . الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى»[1] أى والذى، فحذف. وقيل : لمّا ذكر أن لولىّ الدم أن يقتصّ، فهذا الذى أشرف على أن يقتصّ منه وهو سبب الموت فكأنما حضره الموت، فهذا أوان الوصية؛ فالآية مرتبطة بما قبلها ومتصلة بها فلذلك سقطت واو العطف. و «كُتِب» معناه فُرض وأُثبت؛ كما تقدّم[2]. وحضور الموت : أسبابه، ومتى حضر السبب كَنّت به العرب عن المسبَّب؛ قال شاعرهم :

يأيها الراكبُ المُزْجِى مَطِيّتَه * سائلْ بنى أسَد ما هذه الصّوتُ[3]

وقل لهم بادروا بالعُـذْر والتمسوا * قولاً يبرّئكم إنى أنا المـوت

وقال عنـترة :

و إن المـوت طوعُ يدى إذا ما * وصـلت بنانهـا بالهندوان

وقال جرير فى مهاجاة الفرزدق :

أنا المـوت الذى حدّثت عنه * فليس لهـاربٍ مِـنّى نجـاء

الثانيـة — إن قيل: لم قال «كُتب» ولم يقل كُتِبَتْ، والوصيةُ مؤنّثة؟ قيل له : إنما ذلك لأنه أراد بالوصية الإيصاء . وقيل: لأنه تخلّل فاصل؛ فكان الفاصل كالعوَض من تاء التأنيث؛ تقول العرب : حضر القاضى اليوم آمرأة . وقد حكى سيبويه : قام آمرأة . ولكن حُسْن ذلك إنما هو مع طول الحائل .

الثالثـة — قوله تعـالى : ﴿ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا ﴾ « إن » شَرْط، وفى جوابه لأبى الحسن الأخفش قولان ؛ قال الأخفش : التقدير فالوصـية ، ثم حذفت الفاء ؛ كما قال الشاعر :

مَن يفعل الحسناتِ اللهُ يشكرها * والشّرُّ بالشّر عنـد الله مِثْـلانِ

والجواب الآخر : أن المـاضى يجوز أن يكون جوابه قبـله و بعده ؛ فيكون التقدير الوصية للوالدين والأقربين إن ترك خيرا . فإن قدّرت الفاء فالوصية رفع بالابتداء، و إن لم تقـدّر

(١) راجع ٢٠ ص ٨٦ . (٢) راجع ص ٢٤٤ من هذا الجزء .
(٣) الصوت مذكر ، و إنما أنثه ها هنا لأنه أراد به الضوضاء والجلبة ، على معنى الصيحة . (عن اللسان) .

Marfat.com

الفاء جاز أن ترفعها بالابتداء ، وأن ترفعها على ما لم يُسَمَّ فاعله ؛ أى كتب عليكم الوصـية . ولا يصح عند جمهور النحاة أن تعمل « الوصية » فى « إذا » لأنهـا فى حكم الصلة للمصدر الذى هو الوصـية وقد تقدمت؛ فلا يجوز أن تعمل فيها متقدمة . ويجـوز أن يكون العامل فى « إذا » : « كُتِب » والمعنى : توجّه إيجاب الله إليكم ومقتضى كتابه إذا حضر ؛ فعـبّر عن توجّه الإيجاب بكُتب لينتظم إلى هـذا المعنى أنه مكتوب فى الأزل . ويجوز أن يكون العامل فى « إذا » الإيصاء يكون مقدرا دلّ على الوصية، المعنى : كُتب عليكم الإيصاء إذا .

الرابعــة — قوله تعـالى : ﴿ خَيْرًا ﴾ الخير هنا المـال من غير خلاف ، واختلفوا فى مقـداره ؛ فقيل : المـال الكثير ؛ روى ذلك عن علىّ وعائشة وابن عباس وقالوا فى سبعمائة دينار إنه قليل . قتادة عن الحسن : الخير ألف دينار فما فوقها . الشعبىّ : ما بين خمسمائة دينار إلى ألف . والوصية عبارة عن كل شىء يؤمر بفعله ويعهد به فى الحياة وبعد الموت . وخصّصها العرف بمـا يعهد بفعله وتنفيذه بعد الموت . والجمع وصايا كالقضايا جمع قضية . والوصىّ يكون الموصِى والموصَى إليه ؛ وأصـله من وَصَى مخفّفًا . وتواصى النبت تواصيًا إذا اتصل . وأرض واصية : متّصلة النبات . وأوصيت له بشىء وأوصيت إليه إذا جعلته وصيّك . والاسم الوِصاية والوَصاية (بالكسر والفتح) . وأوصيته ووصّيته أيضا توصية بمعنًى ؛ والاسم الوصاة . وتواصى القوم أوصى بعضهم بعضا . وفى الحديث : "استوصوا بالنساء خيرا فإنهن عوانٍ عندكم(1)" . ووصّيت الشىء بكذا إذا وصلته به .

الخامســة — اختلف العلماء فى وجوب الوصية على من خلّف مالا ، بعـد إجماعهم على أنها واجبة على من قِبَله ودائع وعليه ديون . وأكثر العلماء على أن الوصية غير واجبة على من ليس قِبَله شىء من ذلك ؛ وهو قول مالك والشافعى والثورىّ . موسرا كان الموصى أو فقيرا . وقالت طائفة : الوصية واجبة على ظاهر القرآن ؛ قاله الزهرى وأبو مِجْلَز ؛ قليلا كان المـال أو كثيرا . وقال أبو ثور : ليست الوصية واجبة إلا على رجل عليه دين أو عنده مال

---

(1) عوان (جمع عانية) : وهى الأسيرة ، يقول : إنما هن عندكم بمنزلة الأسرى .

Marfat.com

لقوم ؛ فواجب عليه أن يكتب وصيته و يخبر بما عليه . فأما مَن لا دَين عليه ولا وديعة عنده فليست بواجبة عليه إلا أن يشاء . قال ابن المنذر : وهذا حسن ؛ لأن الله فرض أداء الأمانات إلى أهلها، ومن لا حق عليه ولا أمانة قِبله فليس واجب عليه أن يوصى .
احتج الأوّلون بما رواه الأئمة عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما حق امرئ مسلم له شيء يريد أن يوصى فيه يبيت ليلتين إلا ووصيّته مكتوبة عنده " وفى رواية " يبيت ثلاث ليال " وفيها قال عبد الله بن عمر : ما مرّت علىّ ليلة منذ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذلك إلا وعندى وصيتى . احتج من لم يوجبها بأن قال : لو كانت واجبة لم يجعلها إلى إرادة الموصى ، ولكان ذلك لازمًا على كل حال ، ثم لو سُلِّمَ أن ظاهره الوجوب فالقول بالموجب يردّه ، وذلك فيمن كانت عليه حقوق للناس يخاف ضياعها عليهم ؛ كما قال أبو ثور . وكذلك إن كانت له حقوق عند الناس يخاف تلفها على الورثة ؛ فهذا يجب عليه الوصية ولا يختلف فيه .

فإن قيل : فقد قال الله تعالى : « كُتِبَ عَلَيْكُمْ » وكُتِب بمعنى فُرِض ؛ فدلّ على وجوب الوصية . قيل لهم : قد تقدّم الجواب عنه فى الآية قبلُ ، والمعنى : إذا أردتم الوصيّة ؛ والله أعلم . وقال النَّخَعىّ : مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يُوص ، وقد أوصى أبو بكر ، فإن أوصى فحَسَن ، وإن لم يوص فلا شيء عليه .

السادسة — لم يبيّن الله تعالى فى كتابه مقدار ما يوصى به من المال ، وإنما قال : « إنْ تَرَكَ خَيْرًا » والخير المال ؛ كقوله : « وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ »[1] ، « وإنه لِحُبِّ الخير »[2] . فاختلف العلماء فى مقدار ذلك ؛ فرُوِىَ عن أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه أنه أوصى بالخمس . وقال علىّ رضى الله عنه من غنائم المسلمين بالخمس . وقال مَعْمَر عن قتادة : أوصى عمر بالربع . وذكره البخارى عن ابن عباس . وروى عن علىّ رضى الله عنه أنه قال : لأن أوصى بالخمس أحبّ إلىّ من أن أوصى بالربع ، ولأن أوصى بالربع أحبّ إلىّ من أوصى بالثلث .

واختار جماعة لمن ماله قليل وله ورثة تَرْك الوصية ؛ روى ذلك عن علىّ وابن عباس وعائشة رضوان الله عليهم أجمعين . روى ابن أبى شيبة من حديث ابن أبى مليكة عن

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٣٩ (٢) راجع جـ ٢٠ ص ١٦٢

Marfat.com

عائشة قال لها : إني أريد أن أوصي؛ قالت : وكم مالك ؟ قال : ثلاثة آلاف . قالت : فكم عيالك ؟ قال أربعة . قالت : إن الله تعالى يقول : «إِنْ تَرَكَ خَيْراً» وهذا شيء يسير فدعه لعيالك فإنه أفضل لك .

السابعــة — ذهب الجمهور من العلماء إلى أنه لا يجـوز لأحد أن يوصي بأكثر من الثلث إلا أبا حنيفة وأصحابه فإنهم قالوا : إن لم يترك الموصي ورثة جاز له أن يوصي بماله كله . وقالوا : إن الاقتصار على الثلث في الوصية إنما كان من أجل أن يدع ورثته أغنياء؛ لقوله عليه السلام : " إنك أنْ تَذَرَ ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس " الحديث ، رواه الأئمة . ومن لا وارث له فليس ممن عُني بالحديث ؛ روى هـذا القول عن ابن عباس، وبه قال أبو عبيدة ومسروق، وإليه ذهب إسحاق ومالك في أحد قوليه، وروي عن علي . وسبب الخلاف مـع ما ذكرنا، الخلافُ في بيت المـال هل هو وارث أو حافظ لما يُجعل فيه ؟ قولان .

الثامنــة — أجمع العلماء على أن من مات وله ورثة فليس له أن يوصي بجميـع ماله . وروي عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه قال حين حضرته الوفاة لابنـه عبد الله : إني قد أردت أن أوصي؛ فقال له : أوص ومالك في مالي ؛ فدعا كاتباً فأملى؛ فقال عبد الله : فقلت له ما أراك إلا وقد أتيت على مالي ومالك، ولو دعوت إخوتي فاستحللتهم .

التاســعة — وأجمعوا أن للإنسان أن يغيّر وصيته ويرجع فيما شاء منها؛ إلا أنهـم اختلفوا من ذلك في المُدَبَّر ؛ فقال مالك رحمه الله : الأمر المجمع عليه عندنا أن الموصي إذا أوصى في صحته أو مرضه بوصية فيها عتاقة رقيق من رقيقـه أو غير ذلك فإنه يغيّر من ذلك ما بدا له ويصنع من ذلك ما شاء حتى يموت ، وإن أحبَّ أن يطرح تلك الوصية ويسقطها فعل ، إلا أن يُدبِّر فإن دبّر مملوكا فلا سبيل له إلى تغيير ما دبّر ؛ وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما حقّ امرئ مسلم له شيء يوصي فيـه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنـده " . قال أبو الفرج المـالكي : المُدَبَّر في القيـاس كالمعتق إلى شهر ؛ لأنه أجل آت

Marfat.com

لا محالة . وأجمعوا ألّا يرجع فى اليمين بالعتق والعتق إلى أجل فكذلك المدبّر ؛ وبه قال أبو حنيفة . وقال الشافعىّ وأحمد وإسحاق : هو وصية ؛ لإجماعهم أنه فى الثلث كسائر الوصايا . وفى إجازتهم وطء المُدَبَّرة ما ينقض قياسهم المدبّر على العتق إلى أجل . وقد ثبت أن النبىّ صلى الله عليه وسلم باع مدبّرا، وأن عائشة دبّرت جارية لها ثم باعتها؛ وهو قول جماعة من التابعين . وقالت طائفة : يغيّر الرجل من وصيته ما شاء إلا العتاقة . وكذلك قال الشعبىّ وآبن سيرين وآبن شُبْرُمة والنَّخَعىّ؛ وهو قول سفيان الثورىّ .

العاشرة — وآختلفوا فى الرجل يقول لعبده : أنت حُرٌّ بعد موتى ؛ وأراد الوصية ؛ فله الرجوع عند مالك فى ذلك . وإن قال : فلان مُدَبَّرٌ بعد موتى؛ لم يكن له الرجوع فيه . وإن أراد التدبير بقوله الأوّل لم يرجع أيضا عند أكثر أصحاب مالك . وأما الشافعىّ وأحمد وإسحاق وأبو ثور فكل هذا عندهم وصية ؛ لأنه فى الثلث ، وكل ما كان فى الثلث فهو وصية ؛ إلا أن الشافعىّ قال : لا يكون الرجوع فى المدبّر إلا بأن يخرجه عن ملكه ببيع أو هبة . وليس قوله : « قد رجعت » رجوعا ؛ وإن لم يخرج المدبّر عن ملكه حتى يموت فإنه يعتق بموته . وقال فى القديم : يرجع فى المدبّر كما يرجع فى الوصية . وآختاره المُزَنىّ قياسًا على إجماعهم على الرجوع فيمن أوصى بعتقه . وقال أبو ثور : إذا قال قد رجعت فى مدبّرى فقد بطل التدبير ، فإن مات لم يعتق . وآختلف آبن القاسم وأشهب فيمن قال : عبدى حُرٌّ بعد موتى ؛ ولم يرد الوصية ولا التدبير ؛ فقال آبن القاسم : هو وصية . وقال أشهب : هو مُدَبَّرٌ وإن لم يُرِد الوصية .

الحادية عشرة — آختلف العلماء فى هذه الآية هل هى منسوخة أو مُحْكَمَة ؛ فقيل : هى محكمة، ظاهرها العموم ومعناها الخصوص فى الوالدين اللذين لا يرثان كالكافرين والعبدين وفى القرابة غير الورثة؛ قاله الضحاك وطاوس والحسن، وآختاره الطبرى . وعن الزهرى أن الوصية واجبة فيما قلّ أو كثر . وقال آبن المنذر : أجمع كلّ من يُحفظ عنه من أهل العلم على أن الوصية للوالدين اللذين لا يرثان والأقرباء الذين لا يرثون جائزة . وقال آبن عباس والحسن أيضا وقتادة : الآية عامة ، وتقرّر الحكم بها بُرهة من الدهر، ونسخ منها كل من كان يرث بآية

الفرائض . وقد قيل : إن آية الفرائض لم تستقلّ بنسخها بل بضميمة أخرى ، وهى قوله عليه السلام : "إن الله قد أعطى لكلّ ذى حقّ حقّه فلا وصيّة لوارث" . رواه أبو أمامة ، أخرجه الترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح . فنسْخ الآية إنما كان بالسُّنة الثابتة لا بالإرث ، على الصحيح من أقوال العلماء . ولولا هذا الحديث لأمكن الجمع بين الآيتين بأن يأخذوا المال عن المورّث بالوصية ، وبالميراث إن لم يوص ، أو ما بقى بعد الوصية ؛ لكن منع من ذلك هذا الحديث والإجماع . والشافعي وأبو الفرج وإن كانا منعا من نسخ الكتاب بالسنة فالصحيح جوازه بدليل أن الكل حُكم الله تبارك وتعالى ومن عنده وإن اختلفت فى الأسماء ، وقد تقدم هذا المعنى[(1)] . ونحن وإن كان هذا الخبر بلغنا آحادًا لكن قد انضم إليه إجماع المسلمين أنه لا تجوز وصية لوارث . فقد ظهر أن وجوب الوصية للأقربين الوارثين منسوخ بالسُّنة وأنها مستند المجمعين . والله أعلم .

وقال ابن عباس والحسن : نُسخت الوصية للوالدين بالفرض فى سورة «النساء» وثبتت للأقربين الذين لا يرثون ؛ وهو مذهب الشافعي وأكثر المالكيين وجماعة من أهل العلم . وفى البخاري عن ابن عباس قال : كان المال للولد وكانت الوصية للوالدين ؛ فنسخ من ذلك ما أحب ، فجعل للذكر مثل حظّ الأنثيين ، وجعل للأبوين لكل واحد منهما السدس ، وجعل للمرأة الثمن والربع ، وللزوج الشّطر والربع .

وقال ابن عمر وابن عباس وابن زيد : الآية كلها منسوخة ، وبقيت الوصية ندبًا ؛ ونحو هـذا قول مالك رحمه الله ، وذكره النحاس عن الشَّعْبيّ والنَّخَعيّ . وقال الربيع بن خُثَيْم[(2)] : لا وصيّة . قال عروة بن ثابت : قلت للربيع بن خُثَيم أوص لى بمصحفك ؛ فنظر إلى ولده وقرأ « وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ »[(3)] . ونحو هـذا صنع ابن عمر رضى الله عنـــه .

(١) يراجع ص ٦٥ من هذا الجزء .
(٢) خثيم : بضم أوله وفتح المثلثة ، كذا فى التقريب . وفى الخلاصة بفتح المعجمة والمثلثة بينهما تحتانية ساكنة .
(٣) راجع جـ ٨ ص ٥٨ .

Marfat.com

الثانيـة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ الأقربون جمع أقرب . قال قـوم : الوصية للأقربين أولى من الأجانب ؛ لنصّ الله تعالى عليهم ؛ حتى قال الضّحاك : إن أوصى لغير قرابته فقـد ختم عمله بمعصـية . وروى عن آبن عمر[1] أنه أوصى لأمهات أولاده لكل واحدة بأربعة آلاف . وروى أن عائشة وصّت لمولاة لهـا بأثاث البيت . وروى عن سالم ابن عبد الله بمثل ذلك . وقال الحسن : إن أوصى لغير الأقربين ردّت الوصية للأقربين ؛ فإن كانت لأجنبي فمعهم، ولا تجوز لغيرهم مع تركهم . وقال النـاس حين مات أبو العالية : عجبا له ! أعتقته آمرأة من رِياح[2] وأوصى بماله لبنى هاشم . وقال الشعبيّ : لم يكن له ذلك ولا كرامة . وقال طاوس : إذا أوصى لغير قرابته ردّت الوصية إلى قرابته ونقض فعله ؛ وقاله جابر بن زيد، وقد روى مثل هـذا عن الحسن أيضا ، وبه قال إسحاق بن رَاهْوَيْه . وقال مالك والشافعى وأبو حنيفة وأصحابهم والأوزاعى وأحمد بن حنبل : من أوصى لغير قرابتـه وترك قرابتـه محتاجين فبئسما صنع ! وفعله مع ذلك جائز ماضٍ لكل من أوصى له من غنيّ وفقير، قريب وبعيـد ، مسلم وكافر . وهو معنى ما روى عن آبن عمـر وعائشة ، وهو قول آبن عمر وآبن عباس .

قلت : القول الأوّل أحسن . وأما أبو العالية رضى الله عنه فلعله نظر إلى أن بنى هاشم أولى من معتقته لصحبته آبن عباس وتعليمه إيّاه وإلحاقه بدرجة العلماء فى الدنيا والأخرى . وهذه الأبوّة وإن كانت معنوية فهى الحقيقية، ومعتقته غايتها أن ألحقته بالأحرار فى الدنيا؛ فحسبها ثواب عتقها ؛ والله أعلم .

الثالثة عشرة — ذهب الجمهور من العلمـاء إلى أن المريض يُحجر عليه فى ماله ؛ وشذّ أهل الظاهر فقالوا : لا يُحجر عليـه وهو كالصحيح ؛ والحديث والمعنى يردّ عليهـم . قال سعد : عادنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع من وجع أشفيت[3] منه على الموت فقلت يا رسـول الله ، بلغ بى ما ترى من الوجع ، وأنا ذو مال ولا يرثنى إلا بنت واحدة،

(١) فى ب ، جـ : « عن عمر » . والمعروف أن سيدنا عمر مات مدينا .

(٢) رياح (ككتاب) : قبيلة . (٣) أشفى على الشىء : أشرف .

Marfat.com

أفأتصدق بثلثى مالى ؟ قال : "لا"، قلت : أفأتصدق بشطره؟ قال : "لا، الثلث والثلث كثير إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس" الحديث .

ومنع أهـل الظاهر أيضا الوصية بأكثر من الثلث وإن أجازها الورثة . وأجاز ذلك الكافة إذا أجازها الورثة، وهو الصحيح؛ لأن المريض إنما مُنع من الوصية بزيادة على الثلث لحق الوارث؛ فإذا أسقط الورثة حقهم كان ذلك جائزا صحيحا، وكان كالهبة من عندهم . وروى الدَّارَقُطْنِيّ عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تجوز الوصية لوارث إلا أن يشاء الورثة" . وروى عن عمرو بن خارجة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لاوصية لوارث إلا أن تُجيز الورثة" .

الرابعة عشرة — واختلفوا فى رجوع المجيزين للوصية للوارث فى حياة الموصى بعد وفاته؛ فقالت طائفة : ذلك جائز عليهم وليس لهم الرجوع فيه . هذا قول عطاء بن أبى رباح وطاوس والحسن وابن سيرين وابن أبى ليلى والزهرى وربيعة والأوزاعى . وقالت طائفة: لهم الرجوع فى ذلك إن أحبّوا . هذا قول ابن مسعود وشُريح والحكم وطاوس والثّورى والحسن بن صالح وأبى حنيفة والشافعى وأحمد وأبى ثور، واختاره ابن المنذر . وفرّق مالك فقال : إذا أذنوا فى صحته فلهم أن يرجعوا، وإن أذنوا له فى مرضه حين يُحجب عن ماله فذلك جائز عليهم؛ وهو قول إسحاق . احتجّ أهل المقالة الأولى بأن المنع إنما وقع من أجل الورثة؛ فإذا أجازوه جاز . وقد اتفقوا أنه إذا أوصى بأكثر من ثلثــه لأجنبى جاز بإجازتهم؛ فكذلك ها هنا . واحتجّ أهل القول الثانى بأنهم أجازوا شيئا لم يملكوه فى ذلك الوقت، وإنما يُملك المـال بعد وفاته، وقد يموت الوارث المستأذن قبله ولا يكون وارثا وقد يرثه غيره؛ فقد أجاز من لا حق له فيه فلا يلزمه شىء . واحتج مالك بأن قال : إن الرجل إذا كان صحيحا فهو أحق بماله كله يصنع فيه ما شاء؛ فإذا أذنوا له فى صحته فقد تركوا شيئا لم يجب لهم، وإذا أذنوا له فى مرضه فقد تركوا ما وجب لهم من الحق؛ فليس لهم أن يرجعوا فيه إذا كان قد أنفذه لأنه قد فات .

الخامسة عشرة — فإن لم يُنفِـذ المريض ذلك كان للوارث الرجوع فيــه لأنه لم يفت بالتنفيذ؛ قاله الأبهرى . وذكر ابن المنذر عن إسحاق بن راهَوَيْه أن قول مالك فى هذه المسألة

Marfat.com

أشبه بالسُّنة من غيره . قال آبن المنـذر : وآتفق قول مالك والثورىّ والكوفيين والشافعىّ وأبى ثور أنهم إذا أجازوا ذلك بعد وفاته لزمهم .

السادسة عشرة — وآختلفوا فى الرجل يوصى لبعض ورثته بمال ، ويقول فى وصيّته : إن أجازها الورثة فهى له ، و إن لم يجيزوه فهو فى سبيل الله؛ فلم يجيزوه . فقال مالك : إن لم تُجز الورثة ذلك رجع إليهم . وفى قول الشافعى وأبى حنيفة ومَعْمَر صاحب عبد الرزاق يمضى فى سبيل الله .

السابعة عشرة — لا خلاف فى وصيّة البالغ العاقل غير المحجور عليه، وآختلف فى غيره؛ فقال مالك : الأمر المجمع عليه عنـدنا أن الضعيف فى عقله والسّفيه والمصاب الذى يُفيق أحياناً تجوز وصاياهم إذا كان معهم من عقولهم ما يعرفون ما يوصون به . وكذلك الصبىّ الصغير إذا كان يعقل ما أوصى به ولم يأت بمنكر من القول فوصيّته جائزة ماضـية . وقال أبو حنيفة وأصحابه : لا تجوز وصـيّة الصبىّ . وقال المُزَنىّ : وهو قيـاس قول الشافعىّ ، ولم أجد للشافعىّ فى ذلك شيئا ذكره ونصّ عليـه . وآختلف أصحابه على قولين : أحدهمـا كقول مالك ، والثـانى كقول أبى حنيفة . وحجتهـم أنه لا يجوز طلاقه ولا عتاقه ولا يقتصّ منه فى جناية ولا يحدّ فى قذف ؛ فليس كالبالغ المحجور عليه ، فكذلك وصيته . قال أبو عمر : قد آتفق هؤلاء على أن وصية البالغ المحجور عليه جائزة . ومعلوم آن من يعقل من الصبيان ما يوصى به فحاله حال المحجور عليه فى ماله ؛ وعلّة الحجر تبذير المـال و إتلافه ، وتلك علّة مرتفعة عنـه بالموت، وهو بالمحجور عليه فى ماله أشبه منه بالمجنون الذى لا يعقل ؛ فوجب أن تجوز وصيته مع الأمر الذى جاء فيـه عن عمر رضى الله عنه . وقال مالك : إنه الأمر المجمع عليـه عندهم بالمدينة؛ و بالله التوفيق . وقال محمـد بن شريح : من أوصى من صغير أو كبير فأصاب الحق فالله قضاه على لسانه ليس للحق مدفع .

الثامنة عشرة — قوله تعالى : ﴿ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ يعنى بالعدل، لا وَكْس فيه ولا شَطَط ؛ وكان هذا موكولا إلى آجتهاد الميت ونظر الموصى، ثم تولّى الله سبحانه تقدير ذلك على لسان

Marfat.com

نبيّه عليه السلام، فقال عليه السلام : " الثلث والثلث كثير "؛ وقد تقدّم ما للعلماء في هذا . وقال صلى الله عليه وسلم : " إن الله تصدّق عليكم بثلث أموالكم عند وفاتكم زيادة لكم في حسناتكم ليجعلها لكم زكاة " . أخرجه الدّارَقُطْني عن أبي أمامة عن معاذ بن جبل عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقال الحسن : لا تجوز وصيّة إلا في الثلث؛ وإليه ذهب البخاري واحتج بقوله تعالى : « وَأَنِ ٱحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ »[1] وحُكم النبيّ صلى الله عليه وسلم أن الثلث كثير هو الحكم بما أنزل الله . فمن تجاوز ما حدّه رسول الله صلى الله عليه وسلم وزاد على الثلث فقد أتى ما نهى النبيّ صلى الله عليه وسلم عنه؛ وكان بفعله ذلك عاصيًا إذا كان بحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم عالمًا . وقال الشافعي : وقوله " الثلث كثير " يريد أنه غير قليل .

التاسعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ حَقًّا ﴾ يعني ثابتًا ثبوت نظر وتحصين، لا ثبوت فرض ووجوب؛ بدليل قوله : « عَلَى الْمُتَّقِينَ » وهذا يدلّ على كونه ندبًا؛ لأنه لو كان فرضًا لكان على جميع المسلمين، فلما خصّ الله من يتّقي، أي يخاف تقصيرا، دلّ على أنه غير لازم إلا فيما يتوقّع تلفه إن مات، فيلزمه فرضًا المبادرة بكَتْبه والوصية به؛ لأنه إن سكت عنه كان تضييعًا له وتقصيرًا منه؛ وقد تقدّم هذا المعنى . وٱنتصب « حقًّا » على المصدر المؤكّد، ويجوز في غير القرآن « حقّ » بمعنى ذلك حق .

الموفّية عشرين — قال العلماء : المبادرة بكَتْب الوصية ليست مأخوذة من هذه الآية وإنما هي من حديث ٱبن عمر . وفائدتها : المبالغة في زيادة الاستيثاق وكونها مكتوبة مشهودا بها وهي الوصية المتفق على العمل بها؛ فلو أشهد العدول وقاموا بتلك الشهادة لفظًا لعُمل بها وإن لم تكتب خطًّا؛ فلو كتبها بيده ولم يُشهد فلم يختلف قول مالك أنه لا يُعمل بها إلا فيما يكون فيها من إقرار بحق لمن لا يتّهم عليه فيلزمه تنفيذه .

الحادية والعشرون — روى الدّارَقُطْني عن أنس بن مالك قال : كانوا يكتبون في صدور وصاياهم « هذا ما أوصى به فلان بن فلان أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،

(١) راجع جـ ٦ ص ٢١٢ .

Marfat.com

وأن محمدا عبده ورسوله، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من فى القبور. وأوصى من ترك بعده من أهله بتقوى الله حق تقاته وأن يصلحوا ذات بينهم، و يطيعوا الله ورسوله إن كانوا مؤمنين، وأوصاهم بما وصّى به إبراهيم بنيه و يعقوب: يا بنىّ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون».

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى — قوله تعالى: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ﴾ شرط، وجوابه ﴿فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ و «ما» كافة لـ «إنّ» عن العمل. و «إِثْمُهُ» رفع بالابتداء، «عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ» موضع الخبر. والضمير فى «بدّله» يرجع إلى الإيصاء؛ لأن الوصية فى معنى الإيصاء، وكذلك الضمير فى «سمعه»، وهو كقوله: «فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ»[1] أى وعظ، وقوله: «إِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ»[2] أى المال، بدليل قوله «منه». ومثله قول الشاعر:

* ما هذه الصَّوْتُ *

أى الصيحة. وقال امرؤ القيس:

برهرهة رُؤْدةٌ رَخْصة * كخرعوبة البانة المنفطر[3]

والمنفطر المنتفخ بالورق، وهو أنعم ما يكون؛ ذهب إلى القضيب وترك لفظ الخرعوبة. و «سمعه» يحتمل أن يكون سمعه من الوصىّ نفسه، ويحتمل أن يكون سمعه ممن يثبت به ذلك عنده، وذلك عدلان. والضمير فى «إثمه» عائد على التبديل، أى إثم التبديل عائد على المبدل لا على الميت؛ فإن الموصى خرج بالوصية عن اللوم وتوجّهت على الوارث أو الولىّ. وقيل: إن هذا الموصى إذا غيّر فترك الوصية أو لم يجزها على ما رُسم له فى الشّرع فعليه الإثم.

---

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٥٩. (٢) راجع جـ ٥ ص ٤٨.

(٣) البرهرهة: الرقيقة الجلد، أو هى الملساء المترجرجة. الرؤدة والرءودة: الشابة الحسنة، السريعة الشباب مع حسن غذاء. والرخصة: اللينة الخلق. والخرعوبة: القضيب الغض اللدن. والبانة: يريد شجر البان.

Marfat.com

الثانيــة ــ فى هذه الآية دليـل على أن الدَّين إذا أوصى به الميت خرج به عن ذمته وحصل الولىّ مطلوبا به، له الأجر فى قضائه، وعليه الوِزْر فى تأخيره . وقال القاضى أبو بكر آبن العربى : « وهذا إنمـا يصح إذا كان الميت لم يفرّط فى أدائه، وأمّا إذا قدر عليه وتركه ثم وصّى به فإنه لا يزيله عن ذمّته تفريط الولىّ فيه » .

الثالثـــة ــ ولا خلاف أنه إذا أوصى بمـا لا يجوز؛ مثل أن يوصى بخمـر أو خنزير أو شىء من المعاصى أنه يجوز تبديله ولا يجوز إمضاؤه، كما لا يجوز إمضاء ما زاد على الثلث؛ قاله أبو عمـر .

الرابعــة ــ قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ صفتان لله تعالى لا يخفى معهما شىء من جَنَف المُوصِين وتبديل المعتدين .

قوله تعـالى : ﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ ﴾

فيــه ست مسـائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ فَمَنْ خَافَ ﴾ « مَنْ » شَرْط، و « خاف » بمعنى خَشِىَ . وقيل : علم . والأصل خَوِف، قُلبت الواو ألفًـا لتحرّكها وتحرّك ما قبلها . وأهل الكوفة يميلون «خاف» ليدلوا على الكسرة من فَعِلت . «مِنْ مُوَصٍّ» بالتشديد قراءة أبى بكر عن عاصم وحمزة والكسائى، وخفّف الباقون، والتخفيف أبين؛ لأن أكثر النحويين يقولون « مُوَصٍّ » للتكثير . وقد يجـوز أن يكون مثل كَرِّم وأكرم . « جَنَفًا » من جَنِف يَجْنَف إذا جار، والآسم منه جَنِف وجانف؛ عن النحاس . وقيل : الجَنَف الميل . قال الأعشى :

تَجانَفُ عن حجـر(١) اليمـامة ناقتى ✽ وما قَصدَتْ من أهلها لسَوائكا

وفى الصّحاح : «الجَنَف» الميل . وقد جَنِف بالكسر يَجْنَف جَنَفًا إذا مال؛ ومنه قوله تعالى : « فَمَنْ خافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا » . قال الشاعر(٢) :

هم المَـوْلَى وإنْ جَنفُوا علينـا ✽ وإنّا مِن لِقائهِــمُ لَزُورُ

(١) فى الصحاح والمنير واللسان : « جو » . 　　(٢) هو عامر الخصفى .

Marfat.com

قال أبو عبيدة : المَوْلَى هاهنا فى موضع الموالِى ، أى بنى العـمّ ؛ كقوله تعالى « ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا » (١) . وقال لَبِيد :

إنى آمرؤٌ منعتْ أرومةُ عامرٍ * ضَيْمى وقد جَنِفتْ علىّ خصومى

قال أبو عبيدة : وكذلك الجانئ (بالهمز) وهو المـائل أيضا . ويقال : أجنف الرجل؛ أى جاء بالجَنَف . كما يقال : أَلَامَ؛ أى أتى بمـا يلام عليه . وأخَسّ؛ أى أتى بخسيس . وتجانَفَ لإثم؛ أى مال . ورجلٌ أجنَف؛ أى منحنى الظهر . وجُنَفَى (على فُعَلَى بضم الفاء وفتح العين) : آسم موضع؛ عن آبن السِّكِّيت . ورُوى عن علىّ أنه قـرأ « حَيْفًا » بالحاء والياء؛ أى ظلمًا . وقال مجاهد : « فمن خاف » أى من خشى أن يجنف الموصِى ويقطع ميراث طائفة ويتعمد الأذية (٢) ، أو يأتيها دون تعمّد، وذلك هو الجَنَف دون إثم، فإن تعمّد فهو الجنف فى إثم . فالمعنى من وعظ فى ذلك وردّ عنه فأصلح بذلك ما بينه و بين ورثته و بين الورثة فى ذاتهـم فلا إثم عليه . ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ عن الموصى إذا عملت فيه الموعظة ورجع عما أراد من الأذية . وقال آبن عباس وقتادة والرّبيع وغيرهم : معنى الآية من خاف أى علم ورأى وأتى علمه عليه بعد موت الموصى أن الموصى جنف وتعمّد أذية بعض ورثته فأصلح ما وقع بين الورثة من الآضطراب والشقاق « فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ » ؛ أى لا يلحقه إثم المبدل المذكور قبل . و إن كان فى فعله تبديلٌ مّا ولا بدّ، ولكنه تبديل لمصلحة . والتبديل الذى فيه الإثم إنمـا هو تبديل الهوى .

الثانيـــة ـــ الخطاب بقوله : ﴿فَمَنْ خَافَ﴾ لجميع المسلمين . قيل لهم : إن خفتم من مُوصٍ مَيْلًا فى الوصيّة وعدولًا عن الحـق ووقوعًا فى إثم ولم يخرجها بالمعروف ، وذلك بأن يوصى بالمـال إلى زوج آبنته أو لولد آبنته لينصرف المـال إلى آبنته، أو إلى آبن آبنه والغرض أن ينصرف المـال إلى آبنه، أو أوصى لبعيد وترك القريب؛ فبادروا إلى السعى فى الإصلاح بينهم؛ فإذا وقع الصلح سـقط الإثم عن المصلح . والإصلاح فرض على الكفاية ، فإذا قام أحدهم به سقط عن الباقين ، وإن لم يفعلوا أثم الكل .

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣٣٠ (٢) فى الأصول هنا وفيما سيأتى « الأذاية » .

الثالثـــة — فى هذه الآية دليل على الحكم بالظن ؛ لأنه إذا ظن قصد الفساد وجب السعى فى الصلاح . وإذا تحقق الفساد لم يكن صلحا إنما يكون حكما بالدفع وإبطالا للفساد وَحَسْماً له .

قوله تعـالى : ﴿ فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ ﴾ عطف على « خاف » ، والكناية عن الورثة ، ولم يجر لهم ذكر لأنه قد عرف المعنى ، وجواب الشرط « فلا إثم عليه » .

الرابعـــة — لا خلاف أن الصدقة فى حال الحياة والصحة أفضل منها عنـد الموت ؛ لقوله عليه السلام وقـد سئل : أىّ الصدقة أفضل ؟ فقال : " أن تَصَـدَّقَ وأنت صحيح شحيح " الحديث ، أخرجه أهـل الصحيح . وروى الدَّارَقُطْنِيّ عن أبى سعيد الخـدرىّ أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لأن يتصدق المرء فى حياته بدرهم خير له من أن يتصدق عند موته بمـائة " . وروى النسائى عن أبى الدرداء عن النبىّ صلى الله عليـه وسلم قال : " مَثَل الذى ينفق أو يتصدق عند موته مَثَل الذى يهدى بعد ما يَشْبع " .

الخامســـة — من لم يضرّ فى وصيته كانت كفارة لمـا ترك من زكاته . روى الدَّارَقُطْنِيّ عن معاوية بن قُرّة عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من حضرته الوفاة فأوصى فكانت وصيته على كتاب الله كانت كفارة لمـا ترك من زكاته " . فإن ضَرّ فى الوصية وهى :

السادســـة — فقد روى الدَّارَقُطْنِيّ أيضا عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الإضرار فى الوصية من الكبائر " . وروى أبو داود عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الرجل أو المرأة ليعمل بطاعة الله ستين سنة ثم يحضرهما الموت فيُضارّان فى الوصية فتجب لهما النار " . وترجم النسائى « الصلاة على من جَنَف (١) فى وصيته » أخبرنا علىّ بن حجر أنبأنا هشيم عن منصور وهو ابن زاذان عن الحسن (٢) عن عمران بن حُصين رضى الله عنه أن رجلا أعتق ستةً مملوكين له عند موته ولم يكن له مال

(١) فى سنن النسائى : « حيف » بالحاء والياء .

(٢) كذا فى النسائى . وفى الأصول : « عن الحسن عن سمرة عن عمران » .

Marfat.com

غيرهم؛ فبلغ ذلك النبيّ صلى الله عليه وسلم فغضب من ذلك وقال : "لقد هممت ألّا أصلّي عليه" [ثم دعا مملوكيه] (١) فجزأهم ثلاثة أجزاء ثم أقرع بينهم فأعتق آثنين وأرقّ أربعة . وأخرجه مسلم بمعناه إلا أنه قال في آخره : وقال له قولا شديدا؛ بدل قوله : "لقد هممت الا أصلّي عليه" .

قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ لما ذكر ما كتب على المكلّفين من القصاص والوصية ذكر أيضا أنه كتب عليهم الصيام وألزمهم إياه وأوجبه عليهم، ولا خلاف فيه؛ قال صلى الله عليه وسلم : "بُنِي الإسلام على خمسٍ شهادةِ أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقامِ الصلاة وإيتاءِ الزكاة وصومِ رمضان والحج" رواه آبن عمر. ومعناه في اللغة : الإمساك ، وترك التنقل من حال إلى حال . ويقال للصَّمْت صوم ؛ لأنه إمساك عن الكلام ؛ قال الله تعالى مخبرًا عن مريم : «إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا» (٢) أي سكوتًا عن الكلام . والصوم : ركود الريح ؛ وهو إمساكها عن الهبوب . وصامت الدابة على آرِيِّها (٣) : قامت وثبتت فلم تعتلف . وصام النهار : اعتدل . ومَصَام الشمس حيث تستوى في منتصف النهار؛ ومنه قول النابغة :

خيلٌ صيامٌ وخيلٌ غيرُ صائمة * تحت العَجاج وخيلٌ تَعلُكُ اللُّجُما

(١) الزيادة عن سنن النسائى . (٢) راجع جـ ١١ ص ٩٧

(٣) الآرى : حبل تشد به الدابة فى محبسها ، ويسمى الأخية .

Marfat.com

أى خيل ثابتة ممسكة عن الجرى والحركة ؛ كما قال[1] :

* كأنّ الثُّرَيَّا عُلّقت فى مَصَامِها *

أى هى ثابتة فى مواضعها فلا تنتقل ؛ وقوله :

* والبَكَرات شرّهنّ الصائمة[2] *

يعنى التى لا تدور .

وقال آمرؤ القيس :

فَدَعْها[3] وسَلِّ الهمَّ عنك بجَسْرة * ذَمولٍ إذا صام النهارُ وهَجّرَا

أى ابطأت الشمس عن الانتقال والسير فصارت بالإبطاء كالممسكة .

وقال آخر :

حتى إذا صام النهار وآعتدل * وسال للشمس لعابٌ فنزل

وقال آخر :

نَعَامًا بوَجْرَة صفر الخدُو[4] * دِ ما تَطْعَم النوم إلا صِيَامًا

أى قائمة . والشعر فى هذا المعنى كثير .

والصوم فى الشرع : الإمساك عن المفطرات مع آقتران النية به من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، وتمامه وكماله بآجتناب المحظورات وعدم الوقوع فى المحرّمات ؛ لقوله عليه السلام : " من لم يَدَعْ قول الزور والعملَ به فليس لله حاجةٌ فى أن يَدَع طعامَه وشرابَه " .

الثانيــة — فضل الصــوم عظيم، وثوابه جسيم، جاءت بذلك أخبار كثيرة صحاح وحسان ذكرها الأئمة فى مسانيدهم، وسيأتى بعضها، ويكفيك الآن منها فى فضل الصوم أنْ خصّه الله بالإضافة إليه ؛ كما ثبت فى الحديث عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال مخبرا عن ربّه :

---

(١) هو آمرؤ القيس ؛ كما فى اللسان والمعلقات، وتمام البيت : * بأمراس كَتّان على صُمّ جندل *
(٢) قبله : * شر الدلاء الولغة الملازمة *
(٣) فى الأصول : « فدع ذا » والتصويب عن الديوان واللسان .
(٤) تقدم الكلام على هذا البيت جـ١ ص ٢٢٣ طبعة ثانية ، فليراجع .

Marfat.com

" يقول الله تبارك وتعالى كل عمل آبن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به " الحديث .
وإنما خصّ الصوم بأنه له وإن كانت العبادات كلها له لأمرين باين الصوم بهما سائر العبادات .

أحدهما — أن الصوم يمنع من ملاذّ النفس وشهواتها ما لا يمنع منه سائر العبادات .

الثـانى — أن الصوم سرّ بين العبد وبين ربه لا يظهر إلا له ؛ فلذلك صار مختصًا به . وما سواه من العبادات ظاهر، رُبّما فعله تصنّعًا ورياء؛ فلهذا صار أخص بالصوم من غيره. وقيل غير هذا .

الثالثـــة — قوله تعـالى : ﴿كَمَا كُتِبَ﴾ الكاف فى موضع نصب على النعت، التقدير كتابًا كما ، أو صومًا كما . أو على الحال من الصيام؛ أى كتب عليكم الصيام مشبهًا كما كتب على الذين من قبلكم . وقال بعض النحاة: الكاف فى موضع رفع نعتًا للصيام؛ إذ ليس تعريفه بمحض، لمكان الإجمال الذى فيه بمـا فسّرته الشريعة، فلذلك جاز نعته بـ«كما» إذ لا يُنعت بها إلا النكرات ، فهو بمنزلة كُتب عليكم صيام؛ وقد ضُعّف هـذا القول . و « ما » فى موضع خفض، وصلتها : « كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ » . والضمير فى « كُتب » يعود على «ما» . وآختلف أهل التأويل فى موضع التشبيه وهى :

الرابعـــة — فقال الشعبىّ وقتادة وغيرهما : التشبيه يرجع إلى وقت الصوم وقدر الصوم؛ فإن الله تعالى كتب على قوم موسى وعيسى صوم رمضان فغيّروا، وزاد أحبارهم عليهم عشرة أيام ثم مَرِض بعض أحبارهم فنذر إن شفاه الله أن يزيد فى صومهم عشرة أيام ففعل ؛ فصار صوم النصارى خمسين يومًا؛ فصعُب عليهم فى الحرّ فنقلوه إلى الربيع . وآختار هـذا القول النحاس وقال : وهو الأشبه بما فى الآية . وفيه حديث يدل على صحته أسنده عن دَغْفَل آبن حنظلة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "كان على النصارى صوم شهر فمرض رجل منهم فقالوا لئن شـفاه الله لنزيدن عشرة ثم كان آخر فأكل لحمًا فأوجع فاه فقالوا لئن شـفاه الله لنزيدن سبعة ثم كان ملك آخر فقالوا لنتمن هذه السبعة الأيام ونجعل صومنا فى الربيع قال فصار خمسين ". وقال مجاهد : كتب الله عزّ وجلّ صوم شهر رمضان على كل أمة. وقيل:

Marfat.com

أخذوا بالوثيقة (١) فصاموا قبل الثلاثين يومًا وبعدها يومًا، قرنًا بعد قرن، حتى بلغ صومهم خمسين يومًا؛ فصعُب عليهم فى الحر فنقلوه إلى الفصل الشمسى . قال النقاش : وفى ذلك حديث عن دَغْفَل بن حنظلة والحسن البصرى والسُّدّى .

قلت : ولهذا — والله أعلم — كُره الآن صوم يوم الشك والستة من شوال بإثر يوم الفطر متصلًا به . قال الشعبى : لو صمتُ السنة كلها لأفطرتُ يوم الشك؛ وذلك أن النصارى فرض عليهم صوم شهر رمضان كما فرض علينا، فحوّلوه إلى الفصل الشمسى؛ لأنه قد كان يوافق القيظ فعدّوا ثلاثين يومًا، ثم جاء بعدهم قرن فأخذوا بالوثيقة لأنفسهم فصاموا قبل الثلاثين يومًا وبعدها يومًا، ثم لم يزل الآخر يستنّ بسُنة من كان قبله حتى صاروا إلى خمسين يومًا فذلك قوله تعالى : « كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ » . وقيل : التشبيه راجع إلى أصل وجوبه على من تقدّم، لا فى الوقت والكيفية . وقيل : التشبيه واقع على صفة الصوم الذى كان عليهم من منعهم من الأكل والشرب والنكاح، فإذا حان الإفطار فلا يفعل هذه الأشياء من نام . وكذلك كان فى النصارى أولا وكان فى أول الإسلام، ثم نسخه الله تعالى بقوله : « أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ » على ما يأتى بيانه (٢)؛ قاله السُّدّى وأبو العالية والربيع . وقال معاذ بن جبل وعطاء : التشبيه واقع على الصوم لا على الصفة ولا على العدّة وإن اختلف الصيامان بالزيادة والنقصان . المعنى : « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ » أى فى أول الإسلام ثلاثة أيام من كل شهر ويوم عاشوراء؛ « كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ » وهم اليهود — فى قول ابن عباس — ثلاثة أيام ويوم عاشوراء . ثم نُسخ هذا فى هذه الأمة بشهر رمضان . وقال معاذ بن جبل : نسخ ذلك « بِأَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ » ثم نُسخت الأيام برمضان .

الخامســة — قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ « لعلّ » ترجٍّ فى حقهم، كما تقدم (٣) . و « تتقون » قيل : معناه هنا تضعفون؛ فإنه كلما قلّ الأكل ضعفت الشهوة، وكلما ضعفت

---

(١) الوثيقة فى الأمر : إحكامه والأخذ بالثقة . (٢) راجع ص ٣١٤ من هذا الجزء .

(٣) يراجع جـ ١ ص ٢٢٦ طبعة ثانية .

Marfat.com

الشهوة قلّت المعاصى. وهذا وجه مجازىّ حسن. وقيل: لتتقوا المعاصى. وقيل: هو على العموم؛ لأن الصيام كما قال عليه السلام: "الصيامُ جُنّةٌ ووِجاء"(١) وسبب تقوى؛ لأنه يُميت الشهوات.

السادســة — قوله تعالى: ﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ «أياما» مفعول ثان بـ«كُتب»؛ قاله الفراء. وقيل: نصب على الظـرف لـ«كُتب»؛ أى كتب عليكم الصـيام فى أيام. والأيام المعدودات: شهر رمضان؛ وهذا يدل على خلاف ماروى عن معاذ، والله أعلم.

قوله تعـالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ فيه ست عشرة مســألة:

الأولى — قوله تعـالى: ﴿مَرِيضًا﴾ للمريض حالتان: إحداهما — ألّا يطيق الصوم بحال؛ فعليه الفطر واجبًا. الثانية — أن يقدر على الصوم بضرر ومشقة؛ فهذا يُستحبّ له الفطر ولا يصوم إلا جاهل. قال ابن سيرين: متى حصل الإنسان فى حالٍ يستحق بها اسم المرض صحّ الفطر، قياسًا على المسافر لعلّة السفر، وإن لم تدْع إلى الفطر ضرورة. قال طريف ابن تمام العُطاردى: دخلت على محمد بن سيرين فى رمضان وهو يأكل؛ فلما فرغ قال: إنه وجعتْ أصبعى هـذه. وقال جمهور من العلماء: إذا كان به مرض يؤلمه ويؤذيه أو يخاف تماديه أو يخاف تزيّده صحّ له الفطر. قال ابن عطية: وهذا مذهب حذّاق أصحاب مالك وبه يناظرون. وأما لفظ مالك فهو المرض الذى يشقّ على المرء ويبلغ به. وقال ابن خُوَيْزِ مَنْدَاد: واختلفت الرواية عن مالك فى المرض المبيح للفطر؛ فقال مرّة: هو خوف التلف من الصيام. وقال مرّة: شدّة المرض والزيادة فيه والمشقة الفادحة. وهذا صحيح مذهبه وهو مقتضى الظاهر؛ لأنه لم يخصّ مرضًا من مرض فهو مباح فى كل مرض، إلا ماخصّه الدليل من الصّـداع والحمّى والمرض اليسير الذى لا كُلفة معه فى الصيام. وقال الحسن: إذا لم يقـدر من المرض على الصلاة قائمـا أفطر؛ وقاله النَّخَعى. وقالت فرقة: لا يُفطر بالمرض إلا من

(١) الوجاء: أن تُرَضّ أنثيا الفحل رَضًّا شـديدا يذهب شهوة الجماع، و يتنزّل فى قطعه منزلة الخصى. أراد أن الصوم يقطع النكاح كما يقطعه الوجاء.

دعته ضرورة المرض نفسه إلى الفطر ، ومتى آحتمل الضرورة معـه لم يفطر . وهـذا قول الشافعيّ رحمه الله تعالى .

قلت : قول آبن سِيرين أعدل شيء في هـذا الباب إن شاء الله تعالى . قال البخارى : آعتللتُ بنَيْسابور عِلّةً خفيفة وذلك فى شهر رمضـان ؛ فعادنى إسحاق بن رَاهْوَيْه فى نفر من أصحـابه فقال لى : أفطرت يا أبا عبـد الله ؟ فقلت نعم . فقال : خشيتَ أن تضعف عن قبول الرّخصة . قلت : حدّثنا عبدان عن آبن المبارك عن آبن جُريج قال قلت لعطاء : من أيّ المرض افطر ؟ قال : من أيّ مرض كان ؛ كما قال الله تعالى : « فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً » قال البخارى : وهذا الحديث لم يكن عند إسحاق. وقال أبو حنيفة : إذا خاف الرجل على نفسه وهو صائم إن لم يُفطر أن تزداد عينه وجعًا أو حُمّاه شدّةً أفطر .

الثانيــــة — قوله تعالى : ﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ آختلف العلماء فى السفر الذى يجوز فيه الفطر والقصر، بعد إجماعهم على سفر الطاعة كالحج والجهاد، ويتّصل بهذين سَفَرُ صلة الرّحم وطلب المعاش الضرورى . أما سفر التجارات والمباحات فمختلَف فيه بالمنع والإجازة، والقول بالجواز أرجح . وأمّا سفر العاصى فيختلف فيه بالجواز والمنع، والقول بالمنع أرجح ، قاله آبن عطية . ومسافة الفطر عند مالك حيث تقصر الصلاة. وآختلف العلماء فى قدر ذلك ؛ فقال مالك : يوم وليـلة ؛ ثم رجع فقال : ثمـانية وأربعون مِيـلا . قال آبن خُوَيْزِ مَنْداد : وهو ظاهر مذهبه ؛ وقال مرّة : آثنان وأربعون مِيلًا ؛ وقال مرّة ستة وثلاثون مِيلًا ؛ وقال مرّة : مسيرة يوم وليلة ؛ وروى عنـه يومان ؛ وهو قول الشافعى . وفصّل مرّة بين البرّ والبحر ؛ فقال فى البحر مسيرة يوم وليلة ، وفى البر ثمانية وأربعون ميلًا، وفى المذهب ثلاثون ميلًا ؛ وفى غير المذهب ثلاثة أميال .. وقال آبن عمر وآبن عباس والثورىّ : الفطر فى سـفرٍ ثلاثة أيام ؛ حكاه آبن عطية .

قلت : والذى فى البخارى : وكان آبن عمر وآبن عباس يفطران و يقصران فى أربعـة بُرُد، وهي ستة عشر فرسخًا .

Marfat.com

الثالثــة — آتفق العلمــاء على أنّ المسافر فى رمضان لا يجوز له أن يبيّت الفطر؛ لأن المسافر لا يكون مسافرا بالنّية بخلاف المقيم، وإنمــا يكون مسافراً بالعمل والنهوض، والمقيم لا يفتقر إلى عمل؛ لأنه إذا نوى الإقامة كان مقيًا فى الحين، لأن الإقامة لا تفتقر إلى عمل فافترقا. ولا خلاف بينهم أيضا فى الذى يؤمّل السفر أنه لا يجوز له أن يفطر قبل أن يخرج؛ فإن أفطر فقال آبن حبيب: إن كان قد تأهّب لسفره وأخذ فى أسباب الحركة فلا شىء عليه؛ وحكى ذلك عن أَصْبَغ وآبن المــاجشُون؛ فإن عاقه عن السفر عائق كان عليــه الكفارة، وحَسْبه أن ينجو إن سافر. وروى عيسى عن آبن القاسم أنه ليس عليه إلا قضاء يوم؛ لأنه متأوّل فى فطره. وقال أشهب: ليس عليه شىء من الكفارة سافر أو لم يسافر. وقال سُحْنون: عليه الكفارة سافر أو لم يسافر؛ وهو بمنزلة المرأة تقول: غدًا تأتينى حَيْضتى، فتُفْطر لذلك. ثم رجع إلى قول عبد الملك وأَصْبَغ وقال: ليس مثل المرأة؛ لأن الرجل يُحدث السفر إذا شاء، والمرأة لا تُحدث الحيضة.

قلت: قول آبن القاسم وأشهب فى نفى الكفّارة حَسَن؛ لأنه فعل ما يجوز له فعله، والذّمة بريئة، فلا يثبت فيها شىء إلا بيقين ولا يقين مع الآختلاف، ثم إنه مقتضى قوله تعالى: «أَوْ عَلَى سَفَرٍ». وقال أبو عمر: هذا أصح أقاويلهم فى هذه المسألة؛ لأنه غير منتهك لحرمة الصوم بقصد إلى ذلك، وإنمــا هو متأوّل، ولو كان الأكل مع نيّة السفر يوجب عليه الكفارة لأنه كان قبل خروجه ما أسقطها عنه خروجه؛ فتأمّل ذلك تجده كذلك، إن شاء الله تعالى. وقد روى الدّارَقُطْنىّ: حدّثنا أبو بكر النيسابورى حدّثنا إسماعيل بن إسحاق بن سهل بمصر قال حدّثنا آبن أبى مريم حدّثنا محمد بن جعفر أخبرنى زيد بن أسلم قال: أخبرنى محمد بن المُنْكَدر عن محمد ابن كعب أنه قال: أتيت أنس بن مالك فى رمضان وهو يريد السفر وقد رُحّلت دابته ولبس ثياب السفر وقد تقارب غروب الشمس، فدعا بطعام فأكل منــه ثم ركب. فقلت له: سُــنّة؟ قال نعم. وروى عن أنس أيضــا قال قال لى أبو موسى: ألم أنبئك إذا خرجت خرجت صائمًا، وإذا دخلت دخلت صائمًا؛ فإذا خرجت فآخرج مفطرًا وإذا دخلت فآدخل

مفطرًا . وقال الحسن البصرى : يُفطر إن شاء فى بيتــه يوم يريد أن يخرج . وقال أحمد : يفطر إذا برز عن البيوت . وقال إسحاق : لا، بل حين يضع رجله فى الرَّحْل . قال ٱبن المنذر : قول أحمــد صحيح ؛ لأنهم يقولون لمن أصبح صحيحًا ثم ٱعتَلّ : إنه يُفطر بقيــة يومه ، وكذلك إذا أصبح فى الحضر ثم خرج إلى السفر فله كذلك أن يفطر . وقالت طائفة : لا يفطر يومه ذلك و إن نهض فى ســفره ؛ كذلك قال الزهرى ومكحول و يحيى الأنصــارى ومالك والأوزاعى والشافعى وأبو ثور وأصحاب الرأى . وٱختلفوا إن فعل ؛ فكلهم قال يقضى ولا يكفّر . قال مالك : لأن السفر عذر طارئ ، فكان كالمرض يطرأ عليه . وروى عن بعض أصحاب مالك أنه يقضى و يكفّر ؛ وهو قول ٱبن كنانة والمخزومى ، وحكاه البــاجى عن الشافعى ، وٱختــاره ٱبن العربى وقال به ؛ قال : لأن السفر عذر طرأ بعد لزوم العبادة ويخالف المرض والحيض ؛ لأن المرض يبيح له الفطر ، والحيضُ يُحَرِّم عليها الصوم ، والسفرُ لا يبيح له ذلك فوجبت عليه الكفارة لهتك حُرمته . قال أبو عمر : وليس هذا بشىء ؛ لأن الله سبحانه قد أباح له الفطر فى الكتاب والسُّنة . وأما قولهم «لا يفطر» فإنما ذلك ٱستحباب لـمـا عقده فإن أخذ برخصة الله كان عليه القضاء ، وأما الكفارة فلا وجه لهـا ، ومن أوجبها فقد أوجب مالم يوجبه الله ولا رسوله صلى الله عليه وسـلم . وقد روى عن ٱبن عمــر فى هذه المسألة : يفطر إن شــاء فى يومه ذلك إذا خرج مسافرًا ؛ وهو قول الشعبى وأحمد و إسحاق .

قلت : وقد ترجم البخارى رحمــه الله على هــذه المسألة « باب من أفطر فى السفر ليراه الناس » وساق الحديث عن ٱبن عباس قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى مكة فصام حتى بلغ عُسْفان[1] ، ثم دعا بماء فرفعه إلى يديه ليُريه الناسَ فأفطر حتى قدم مكة وذلك فى رمضان . وأخرجه مسلم أيضًا عن ٱبن عباس وقال فيــه : ثم دعا بإناء فيه شراب شربه نهارًا ليراه الناس ثم أفطر حتى دخل مكة . وهذا نصّ فى الباب فسقط ما خالفه ، و بالله التوفيق . وفيه أيضا حجة على من يقول : إن الصوم لا ينعقد فى السفر . روى عن عمر وٱبن عباس

---

(١) عسفان (بضم العين وسكون السين المهملتين) : قرية بينها و بين مكة ثمانية وأربعون ميلا .

Marfat.com

وأبى هريرة وآبن عمر . قال آبن عمر : من صام فى السفر قضى فى الحضر . وعن عبد الرحمن ابن عوف : الصائم فى السفر كالمفطر فى الحضر . وقال به قوم من أهل الظاهر؛ وآحتجوا بقوله تعالى : «فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ» على ما يأتى بيانه ، و بما روى كعب بن عاصم قال : سمعت النبىّ صلى الله عليه وسلم يقول : "ليس مِن البِرّ الصيامُ فى السّفر" . وفيه أيضا حجةٌ على من يقول : إن مَن بيّت الصوم فى السفر فله أن يُفطر وإن لم يكن له عذر؛ وإليه ذهب مُطَرِّف، وهو أحد قولى الشافعى وعليه جماعة من أهل الحديث . وكان مالك يوجب عليه القضاء والكفارة لأنه كان مخيّرًا فى الصوم والفطر، فلما آختار الصوم و بيّته لزمه ولم يكن له الفطر؛ فإن أفطر عامدًا من غير عذر كان عليه القضاء والكفارة . وقد روى عنه أنه لا كفّارة عليه؛ وهو قول أكثر أصحابه إلا عبد الملك فإنه قال : إن أفطر بجماع كفّر؛ لأنه لا يقوى بذلك على سفره ولا عذر له؛ لأن المسافر إنما أبيح له الفطر ليقوّى بذلك على سفره . وقال سائر الفقهاء بالعراق والحجاز : إنه لا كفارة عليه؛ منهم الثورى والأوزاعى والشافعى وأبو حنيفة وسائر فقهاء الكوفة؛ قاله أبو عمر .

الرابعــة — وآختلف العلمــاء فى الأفضل من الفطر أو الصوم فى السفر؛ فقال مالك والشافعى فى بعض ما روى عنهما : الصوم أفضل لمن قَوِىَ عليه . وجُلّ مذهب مالك التخيير وكذلك مذهب الشافعى . قال الشافعى ومن آتبعه : هو مخيّر؛ ولم يفصّل، وكذلك آبن عُلَيّة؛ لحديث أنس قال : سافرنا مع النبىّ صلى الله عليه وسلم فى رمضان فلم يَعب الصائم على المفطر ولا المفطــر على الصائم؛ خرّجه مالك والبخارىّ ومسلم . وروى عن عثمان بن أبى العــاص الثّقفىّ وأنس بن مالك صاحبى رســول الله صلى الله عليه وسلم أنهما قالا : الصوم فى السفر أفضل لمن قدر عليــه؛ وهو قول أبى حنيفة وأصحــابه . وروى عن آبن عمر وآبن عباس : الرخصة أفضل ، وقال به ســعيد بن المسيّب والشعبى وعمــر بن عبد العزيز ومجاهــد وقتادة والأوزاعى وأحمد وإسحاق . كلُّ هؤلاء يقولون الفطر أفضل؛ لقول الله تعالى : « يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ » .

Marfat.com

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ ﴾ فى الكلام حذف ؛ أى من يكن منكم مريضًا أو مسافرًا فأفطر فَلْيَقض. والجمهور من العلماء على أن أهل البلد إذا صاموا تسعة وعشرين يومًا وفى البلد رجل مريض لم يَصِحّ فإنه يقضى تسعة وعشرين يومًا. وقال قوم منهم الحسن بن صالح بن حَىّ : إنه يقضى شهرا بشهر من غير مراعاة عدد الأيام . قال الكِيَا الطَّبَرِى : وهذا بعيد ؛ لقوله تعالى : « فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَر » ولم يقل فشهر من أيام أخر. وقوله : « فَعِــدَّةٌ » يقتضى استيفاء عدد ما أفطر فيــه ، ولا شك أنه لو أفطر بعض رمضان وجب قضاء ما أفطر بعده بعدده ، كذلك يجب أن يكون حكم إفطاره جميعه فى اعتبار عدده.

السادســـة — قوله تعالى : ﴿ فَعِدَّةٌ ﴾ ارتفع « عِدّة » على خبر الابتداء ، تقديره فالحكم أو فالواجب عدّة ، ويصحّ فعليه عدّة . وقال الكسائى : ويجوز نصبًا ، أى فليصم عدّة من أيام. وقيل : المعنى فعليه صيام عدّة ، فحذف المضاف وأقيمت العدّة مقامه . والعدّة فِعلة من العدّ ، وهى بمعنى المعدود ، كالطِّحْن بمعنى المطحون ، تقول : أسمعُ جَعْجَعَةً ولا أرى طِحْنًا[1] . ومنه عدّة المرأة . ﴿ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ لم ينصرف « أُخَر » عند سيبويه ، لأنها معدولة عن الألف واللام ، لأن سبيل فُعَل من هذا الباب أن يأتى بالألف واللام ، نحو الكُبَر والفُضل . وقال الكسائى : هى معدولة عن آخر ، كما تقول : حمراء وحمر ، فلذلك لم تنصرف . وقيل : منعت من الصرف لأنها على وزن جُمَع وهى صفة لأيام ، ولم تجئ أخرى لئلا يشكل بأنها صفة للعدّة . وقيل : إن « أخر » جمع أخرى كأنه أيام أخرى ثم كثرت فقيل : أيام أخر . وقيــل : إن نعت الأيام يكون مؤنثًا فلذلك نعتت بأُخَر .

السابعــــة — اختلف الناس فى وجوب تتابعها على قولين ذكرهما الدَّارَقُطْنِى فى « سننه » ؛ فروى عن عائشة رضى الله عنهـا قالت : نزلت « فعِدّة من أيام أُخر متتابعات » فسقطت « متتابعات »[2] قال هـذا إسناد صحيح . وروى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله

(١) مثل يضرب للرجل الذى يكثر الكلام ولا يعمل ، وللذى يَعِد ولا يفعل .

(٢) قال الزرقانى فى شرح الموطأ : معنى « سقطت » نسخت ، قال : وليس بين اللوحين « متتابعات » أى ليس فى المصحف كلمة « متتابعات » . وقال الدارقطنى : إن كلمة « سقطت » انفرد بها عروة .

Marfat.com

عليه وسلم : " من كان عليه صومٌ من رمضان فليسرده(١) ولا يقطعه " فى إسناده عبد الرحمن ابن إبراهيم ضعيف الحديث . وأسنده عن آبن عباس فى قضاء رمضان «صمه كيف شئت» . وقال آبن عمر : « صُمْه كما أفطرته » . وأسند عن أبى عبيدة بن الجراح وآبن عباس وأبى هريرة ومعاذ بن جبل وعمرو بن العاص . وعن محمد بن المنكدر قال : بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن تقطيع صيام رمضان فقال : " ذلك إليك أرأيت لو كان على أحدكم دَين فقضى الدرهم والدرهمين ألم يكن قضاه فالله أحق أن يَعْفُو و يغفر" . إسناده حسن إلا أنه مرسل ولا يثبت متّصلا . وفى مُوَطّأ مالك عن نافع أن عبد الله بن عمر كان يقول : يصوم رمضان متتابعًا من أفطره متتابعًا من مرض أو فى سفر(٢) . قال الباجى فى « المنتقى » : « يحتمل أن يريد الإخبار عن الوجوب، و يحتمل أن يريد الإخبار عن الآستحباب ؛ وعلى الآستحباب جمهور الفقهاء . وإن فرّقه أجزأه ؛ وبذلك قال مالك والشافعى . والدليل على صحة هـذا قوله تعالى : « فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ » ولم يخصّ متفرقة من متابعة، وإذا أتى بها متفرقة فقد صام عدّة من أيام أخر، فوجب أن يجزيه » . آبن العربى : إنما وجب التتابع فى الشهر لكونه معيّنا ، وقد عدم التعيين فى القضاء فجاز التفريق .

الثامنــة — لما قال تعالى: ﴿ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ دلّ ذلك على وجوب القضاء من غير تعيين لزمان؛ لأن اللفظ مسترسل على الأزمان لايختصّ ببعضها دون بعض . وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها قالت : يكون علىّ الصوم من رمضان فما أستطيع أن أقضيه إلا فى شعبان، الشُّغْلُ(٣) من رسول الله، أو برسول الله صلى الله عليه وسلم . فى رواية : وذلك لمكان رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهذا نصّ وزيادة بيان للآية . وذلك يردّ على داود قوله : إنه يجب عليه قضاؤه ثانى شوّال . ومن لم يصمه ثم مات فهو آثم عنده ؛ وبنى عليـه أنه لو وجب عليه عتق رقبة فوجد رقبة تباع بثمن فليس له أن يتعداها و يشترى غيرها ؛ لأن الفرض عليه أن يعتق أوّل رقبة يجدها فلا يجزيه غيرها . ولو كانت عنده رقبة فلا يجوز له أن يشترى

(١) أى يتابعه . (٢) عبارة الموطأ : « يصوم قضاء رمضان متتابعا من أفطره من مرض أو سفر » .
(٣) قال النووى : هو مرفوع على أنه فاعل لفعل مقدر؛ أى يمنعنى الشغل .

Marfat.com

غيرها، ولو مات الذى عنده فلا يبطل العتق؛ كما يبطل فيمن نذر أن يعتق رقبة بعينها فماتت يبطل نذره، وذلك يفسد قوله . وقال بعض الأصوليين: إذا مات بعد مضى اليوم الثانى من شوّال لا يعصى على شرط العزم . والصحيح أنه غير آثم ولا مفرّط ، وهو قول الجمهور، غير أنه يستحب له تعجيل القضاء لئلا تدركه المنيّة فيبقى عليه الفرض .

التاســعة — من كان عليه قضاء أيام من رمضان فمضت عليــه عدّتها من الأيام بعد الفطر أمكنه فيها صيامه فأخّر ذلك ثم جاءه مانع منعه من القضاء إلى رمضان آخر فلا إطعام عليه؛ لأنه ليس بمفرّط حين فعل ما يجوز له من التأخير. هذا قول البغداديين من المـالكيين، ويَرَوْنه قول ٱبن القاسم فى المدوّنة .

العاشــرة — فإن أخّر قضاءه عن شعبان الذى هو غاية الزمان الذى يقضى فيه رمضان فهل يلزمه لذلك كفارة أوْ لا؛ فقال مالك والشافعى وأحمد وإسحاق : نعم . وقال أبو حنيفة والحسن والنَّخَعِىّ وداود : لا .

قلت : وإلى هــذا ذهب البخارىّ لقوله ، ويذكر عن أبى هريرة مرسلًا وٱبن عباس أنه يُطعِم ، ولم يذكر الله الإطعام ، إنما قال : « فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ » .

قلت : قد جاء عن أبى هريرة مُسْنَدًا فيمن فرّط فى قضاء رمضان حتى أدركه رمضان آخر قال : يصوم هذا مع الناس، ويصوم الذى فرّط فيه ويطعم لكل يوم مسكينًا . خرّجه الدّارَقُطْنِىّ وقال : إسناد صحيح . وروى عنه مرفوعًا إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فى رجل أفطر فى شهر رمضان من مرض ثم صحّ ولم يصم حتى أدركه رمضان آخر قال: "يصوم الذى أدركه ثم يصوم الشهر الذى أفطر فيه ويطعم لكل يوم مسكينًا " . فى إسناده ٱبن نافع وٱبن وجيه ضعيفان .

الحادية عشرة — فإن تمادَى به المرض فلم يَصِحّ حتى جاء رمضان آخر؛ فروى الدّارَقُطْنِىّ عن ٱبن عمر أنه يطعم مكان كل يوم مسكينًا مُدًّا من حنطة، ثم ليس عليــه قضاء . وروى أيضا عن أبى هريرة أنه قال : إذا لم يَصِحّ بين الرمضانين صام عن هــذا وأطعم عن الثانى

Marfat.com

ولا قضاء عليه، و إذا صح فلم يَصُم حتى إذا أدركه رمضان آخر صام عن هذا وأطعم عن الماضى؛ فإذا أفطر قضاه؛ إسناد صحيح . قال علماؤنا : وأقوال الصحابة على خلاف القياس قد يحتج بها . ورُوى عن آبن عباس أن رجلا جاء إليـه فقال : مرضت رمضانين ؟ فقـال له آبن عباس : استمر بك مرضك، أو صححت بينهما ؟ فقال : بل صححت، قال : صُم رمضانين وأطعم ستين مسكينا . وهذا يدل من قوله : إنه لو تمـادى به مرضه لا قضاء عليه . وهذا يشبه مذهبهم فى الحامل والمرضع أنهما يطعمان ولا قضاء عليهما ؛ على ما يأتى[1] .

الثانية عشرة — وآختلف من أوجب عليـه الإطعام فى قدر ما يجب أن يطعم ؛ فكان أبو هريرة والقاسم بن محمد ومالك والشافعى يقولون: يُطعِم عن كل يوم مُدًّا. وقال الثورى: يُطعِم نصف صاع عن كل يوم .

الثالثة عشرة — وآختلفوا فيمن أفطر أو جامع فى قضاء رمضان ماذا يجب عليه؛ فقال مالك : من أفطر يومًا من قضـاء رمضان ناسيًا لم يكن عليه شىء غير قضائه ، و يستحبّ له أن يتمادى فيه للاختلاف ثم يقضيه ، ولو أفطره عامدًا أثِم ولم يكن عليه غير قضاء ذلك اليوم ولا يتمادى ؛ لأنه لا معنى لكفّه عما يكفّ الصائم هاهنا إذ هو غير صائم عند جماعة العلماء لإفطاره عامدًا . وأما الكفارة فلا خلاف عنـد مالك وأصحابه أنها لا تجب فى ذلك ، وهو قول جمهـور العلماء . قال مالك : ليس على من أفطـر يومًا من قضاء رمضان بإصابة أهله أو غير ذلك كفارة، و إنما عليه قضاء ذلك اليوم. وقال قتادة: على مَن جامع فى قضاء رمضان القضاء والكفارة . وروى آبن القاسم عن مالك أن من أفطر فى قضاء رمضان فعليه يومان؛ وكان آبن القاسم يُفتى به ثم رجع عنه ثم قال: إن أفطر عمداً فى قضاء القضاء كان عليه مكانه صيام يومين ؛ كمن أفسد حجّه بإصابة أهله ، وحجّ قابلًا فأفسد حجّه أيضا بإصابة أهله كان عليه حجتان . قال أبو عمر : قد خالفه فى الحج آبن وهب وعبد الملك، وليس يجب القياس على أصل مختلَف فيه . والصواب عندى — والله أعلم — أنه ليس عليه فى الوجهين إلا قضاء يوم واحد ؛ لأنه يوم واحد أفسده مرتين .

(١) راجع ص ٢٨٨ من هذا الجزء .

Marfat.com

قلت : وهو مقتضى قوله تعـالى : « فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ » فمتى أتى بيـوم تام بدلاً عما أفطره فى قضاء رمضان فقد أتى بالواجب عليه، ولا يجب عليه غير ذلك، والله أعلم .

الرابعة عشرة — والجمهور على أن من أفطر فى رمضان لعلّة فمات من علته تلك، أو سافر فمـات فى سفره ذلك أنه لا شيء عليـه . وقال طاوس وقتادة فى المريض يموت قبـل أن يَصحّ : يُطعَم عنه .

الخامسة عشرة — وٱختلفوا فيمن مات وعليه صومٌ من رمضان لم يقضه؛ فقال مالك والشافعيّ والثورى : لا يصوم أحد عن أحد . وقال أحمـد و إسحاق وأبو ثور والليث وأبو عبيد وأهل الظاهر: يُصام عنه؛ إلا أنهم خصّصوه بالنذر؛ وروى مثله عن الشافعى . وقال أحمـد و إسحاق فى قضاء رمضان : يُطعَم عنه . ٱحتج من قال بالصوم بمـا رواه مسلم عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من مات وعليه صيام صام عنه وَلِيّه". إلا أن هذا عامّ فى الصوم، يخصّصه ما رواه مسلم أيضا عن ٱبن عباس قال : جاءت ٱمرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله، إن أمى قد ماتت وعليها صوم نذر — وفى رواية صـوم شهر — أفأصوم عنها ؟ قال : "أرأيتِ لو كان على أمك دَيْنٌ فقضيتيه أكان يؤدّى ذلك عنها" قالت : نعم؛ قال : "فصومى عن أمّك" . ٱحتج مالك ومن وافقـه بقوله سبحانه : « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى »(١) وقـوله : « وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى »(٢) وقوله : « وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا »(١) وبمـا خرّجه النسائى عن ٱبن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم أنه قال : "لا يصلّى أحد عن أحد ولا يصوم أحد عن أحد ولكن يُطعم عنه مكان كل يوم مُدًّا من حنطة" .

قلت : وهـذا الحديث عام ، فيحتمل أن يكون المراد بقـوله : "لا يصوم أحد عن أحد" صوم رمضان . فأما صوم النذر فيجوز؛ بدليل حديث ٱبن عباس وغيره ، فقد جاء فى صحيح مسلم أيضا من حديث بُريدة نحو حديث ٱبن عبـاس ، وفى بعض طرقه : صـوم شهرين أفأصوم عنها ؟ قال : "صومى عنها" قالت : إنهـا لم تَحُجّ قط أفأحُجّ عنها ؟ قال :

(١) راجع جـ ٧ ص ١٥٦، ١٥٧ (٢) راجع جـ ١٧ ص ١١٤

Marfat.com

" مُجّى عنها " . فقولها : شهرين، يبعد أن يكون رمضان ، والله أعلم . وأقوى ما يحتجّ به لمـالك أنه عمل أهل المدينة ، و يعْضُده القياس الجلىّ ، وهو أنه عبادة بدنية لا مدخل للـال فيها فلا تفعل عمن وجبت عليه كالصلاة . ولا ينقض هذا بالج لأن للـال فيه مدخلا .

السادسة عشرة ــ آستدلّ بهذه الآية من قال : إن الصوم لا ينعقد فى السفر وعليـه القضاء أبدا ؛ فإن الله تعـالى يقول : « فَمَنْ كَانَ مِنكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَـفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ » أى فعليه عدة، ولا حذف فى الكلام ولا إضمار . [وبقوله عليـه الصلاة والسلام : " ليس من البرّ الصيام فى السفر " قال : ما لم يكن من البرّ فهو من الإثم ، فيـدل ذلك على أن صوم رمضان لا يجوز فى السفر] (١) . والجمهور يقولون : فيه محذوف فأفطر ، كما تقدّم . وهو الصحيح ، لحديث أنس قال : سافرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رمضان فلم يَعب الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم ؛ رواه مالك عن حُميد الطويل عن أنس . وأخرجه مسلم عن أبى سعيد الخدرى قال : غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لست عشرة مضت من رمضان فمنّا من صام ومنا من أفطر، فلم يَعب الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم .

قوله تعـالى : ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فيه خمس مسائل :

الأولى قوله تعـالى : ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ قرأ الجمهو ر بكسر الطاء وسكون الياء ، وأصله يُطْوِقونه نُقلت الكسرة إلى الطاء وآنقلبت الواو ياء لآنكسار ما قبلها . وقرأ حُميد على الأصل من غير آعتلال ، والقياس الآعتلال . ومشهور قراءة آبن عباس «يُطَوَّقونه» بفتح الطاء مخففة وتشديد الواو بمعنى يكلَّفونه . وقد روى مجاهد « يَطيقونه » بالياء بعد الطاء على لفظ «يكيلونه» وهى باطلة ومحال ؛ لأن الفعل مأخوذ من الطوق ، فالواو لازمة واجبة فيه ولا مدخل للياء فى هذا المثال . قال أبو بكر الأنبارى : وأنشدنا أحمد بن يحيى النحوى لأبى ذؤيب :

فقيل تحمّلْ فوق طَوْقك إنهـا * مُطَبَّعَةٌ (٢) مَن يأتها لا يَضيـرها

(١) ما بين المربعين فى جـ ، وساقط من سائر نسخ الأصل . (٢) مطبعة : مملوءة .

Marfat.com

فأظهر الواو فى الطّوق، وصح بذلك أن واضع الياء مكانها يفارق الصواب. وروى ابن الأنبارى عن ابن عباس «يَطَّيَّقُونه» بفتح الياء وتشديد الطاء والياء مفتوحتين بمعنى يطيقونه؛ يقال: طاق وأطاق وأطيق بمعنًى. وعن ابن عباس أيضا وعائشة وطاوس وعمرو بن دينار «يَطَّوقونه» بفتح الياء وشد الطاء مفتوحة، وهى صواب فى اللغة؛ لأن الأصل يتطوقونه فأسكنت التاء وأدغمت فى الطاء فصارت طاء مشدّدة، وليست من القرآن، خلافًا لمن أثبتها قرآنًا، وإنما هى قراءة على التفسير. وقرأ أهل المدينة والشام «فديةُ طعامِ» مضافا، «مساكينَ» جمعًا. وقرأ ابن عباس «طعام مسكين» بالإفراد فيما ذكر البخارى وأبو داود والنسائى عن عطاء عنه. وهى قراءة حسنة؛ لأنها بيّنت الحكم فى اليوم؛ واختارها أبو عبيد، وهى قراءة أبى عمرو وحمزة والكسائى. قال أبو عبيد: فبيّنت أن لكل يوم إطعام واحد؛ فالواحد مترجم عن الجميع، وليس الجميع بمترجم عن واحد. وجمع المساكين لا يدرى كم منهم فى اليوم إلا من غير الآية. وتخرج قراءة الجمع فى «مساكين» لما كان الذين يطيقونه جمع وكل واحد منهم يلزمه مسكين بجمع لفظه؛ كما قال تعالى: «وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً[1]» أى اجلدوا كل واحد منهم ثمانين جلدة؛ فليست الثمانون متفرقة فى جميعهم، بل لكل واحد ثمانون؛ قال معناه أبو على. واختار قراءة الجمع النحاس قال: وما اختاره أبو عبيد مردود؛ لأن هذا إنما يعرف بالدلالة؛ فقد علم أن معنى «وعلى الذين يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَساكِينَ» أن لكل يوم مسكينا، فاختيار هذه القراءة لتردّ جمعًا على جمع. قال النحاس: واختار أبو عبيد أن يقرأ «فديةٌ طعامُ» قال: لأن الطعام هو الفدية، ولا يجوز أن يكون الطعام نعتًا لأنه جوهر ولكنه يجوز على البدل، وأبين منه أن يقرأ «فديةُ طعامٍ» بالإضافة؛ لأن «فدية» مبهمة تقع للطعام وغيره، فصار مثل قولك: هذا ثَوْبُ خَزٍّ.

الثانيــة — واختلف العلماء فى المراد بالآية؛ فقيل: هى منسوخة. روى البخارى: «وقال ابن نُمير حدّثنا [الأعمش حدّثنا] عمرو بن مُرّة حدّثنا ابن أبى ليلى حدّثنا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم: نزل رمضان فشقّ عليهم فكان من أطعم كل يوم مسكينا ترك الصوم ممن

(١) راجع ج ١٢ ص ١٧١

Marfat.com

يطيقه ورخص لهم فى ذلك فنسختها « وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ » . وعلى هـذا قراءة الجمهور « يطيقونه » أى يقدرون عليه ؛ لأن فرض الصيام هكذا : من أراد صام ومن أراد أطعم مسكينًا . وقال آبن عباس : نزلت هذه الآية رُخصة للشيوخ والعجزة خاصّةً إذا أفطروا وهم يطيقون الصوم ، ثم نُسخت بقوله « فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ » فزالت الرُّخصة إلا لمن عجز منهم. قال الفرّاء : الضمير فى « يطيقونه » يجوز أن يعود على الصيام ؛ أى وعلى الذين يطيقون الصيام أن يطعموا إذا أفطروا ، ثم نسخ بقوله : « وَأَنْ تَصُومُوا » . ويجوز أن يعود على الفداء ؛ أى وعلى الذين يطيقون الفداء فِدْية . وأما قراءة « يُطَوَّقونه » على معنى يكلّفونه مع المشقة اللاحقة لهم ؛ كالمريض والحامل فإنهما يقدران عليه لكن بمشقة تلحقهم فى أنفسهم ، فإن صاموا أجزأهم وإن آفتدوا فلهم ذلك . ففسّر آبن عباس — إن كان الإسناد عنه صحيحًا — « يطيقونه » بيُطَوَّقونه ويتكلفونه فأدخله بعض النقـلة فى القـرآن . روى أبو داود عن آبن عباس « وعلى الذين يطيقونه » قال : أُثبتت للحبلى والمرضع . وروى عنه أيضا « وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ » قال . كانت رُخصة للشيخ الكبير والمرأة الكبيرة وهما يطيقان الصوم أن يُفطرا ويُطعما مكان كل يوم مسكينًا ، والحُبْلَى والمرضع إذا خافتا على أولادهما أفطرتا وأطعمتا . وخرّج الدارَقُطْنِيّ عنه أيضا قال : رُخّص للشيخ الكبير أن يُفطر ويُطعم عن كل يوم مسكينًا ولا قضاء عليه ؛ هذا إسناد صحيح . وروى عنه أيضا أنه قال : « وعلى الذين يُطيقونه فِدية طعام » ليست بمنسوخة ، هو الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما ، فيطعما مكان كل يوم مسكينًا ؛ وهـذا صحيح . وروى عنه أيضا أنه قال لأمّ ولد له حُبْلَى أو مُرْضِـع : أنت من الذين لا يطيقون الصـيام ، عليك الجزاء ولا عليك القضاء ؛ وهـذا إسناد صحيح . وفى رواية : كانت له أمّ ولد ترضع — من غير شك — فأُجهدت فأمرها أن تُفطر ولا تقضى ؛ هذا صحيح .

قلت : فقـد ثبت بالأسانيد الصحاح عن آبن عباس أن الآية ليست بمنسوخة وأنها مُحْكَمَة فى حق من ذُكر . والقول الاول صحيح أيضا ، إلا أنه يحتمـل أن يكون النسخ هناك

Marfat.com

بمعنى التخصيص، فكثيرا ما يُطلق المتقدمون النسخ بمعناه، والله أعلم . وقال الحسن البصري وعطاء بن أبي رَباح والضحاك والنَّخَعِي والزُّهْري وربيعة والأوزاعي وأصحاب الرأي: الحامل والمرضع يُفطران ولا إطعام عليهما ؛ بمنزلة المريض يُفطر ويَقضي ؛ وبه قال ابو عبيد وأبو ثور . وحكى ذلك أبو عبيد عن أبي ثور، وآختاره آبن المنذر؛ وهو قول مالك في الحبلى إن أفطرت، فأمّا المرضع إن أفطرت فعليها القضاء والإطعام. وقال الشافعي وأحمد: يُفطران ويُطعمان ويَقضيان، وأجمعوا على أن المشايخ والعجائز الذين لا يطيقون الصيام أو يطيقونه على مشقة شديدة أن يفطروا . وآختلفوا فيما عليهم ؛ فقال ربيعة ومالك : لا شيء عليهم، غير أن مالكا قال: لو أطعموا عن كل يوم مسكينًا كان أحبّ إليّ. وقال أنس وآبن عباس وقيس بن السائب وأبو هريرة : عليهم الفِدْية . وهو قول الشافعي وأصحاب الرأي وأحمد وإسحاق؛ آتباعًا لقول الصحابة رضي الله عن جميعهم، وقوله تعالى: « فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ» ثم قال : « وعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونه فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ» وهؤلاء ليسوا بمرضى ولا مسافرين، فوجبت عليهم الفدية . والدليل لقول مالك: أن هذا مفطر لعذر موجود فيه وهو الشيخوخة والكبر فلم يلزمه إطعام كالمسافر والمريض. ورُوي هذا عن الثوري ومكحول ، وآختاره آبن المنذر .

الثالثــة — وآختلف مَن أوجب الفدية على مَن ذُكر في مقدارها؛ فقال مالك: مُدّ بمُد النبيّ صلى الله عليه وسلم عن كل يوم أفطره؛ وبه قال الشافعي. وقال أبو حنيفة : كفّارة كل يوم صاع تمر أو نصف صاع بُرّ . وروي عن آبن عباس نصف صاع من حنطة ؛ ذكره الدَّارَقُطْنِيّ . ورُوي عن أبي هريرة قال : من أدركه الكبر فلم يستطع أن يصوم فعليه لكل يوم مُدٌّ من قمح . وروي عن أنس بن مالك أنه ضَعُف عن الصوم عاماً فصنع جَفْنة من طعام ثم دعا بثلاثين مسكيناً فأشبعهم .

الرابعــة — قوله تعــالى : ﴿ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ﴾ قال آبن شهاب: من أراد الإطعام مع الصوم . وقال مجاهد : من زاد في الإطعام على المُدّ . آبن عباس : « فمن تطوع

Marfat.com

خيرا » قال : مسكينًا آخر فهو خير له . ذكره الدَّارَقُطْنِيّ وقال : إسناد صحيح ثابت . و «خَيْرٌ» الثانى صفة تفضيل، وكذلك الثالث و « خير » الأوّل . وقرأ عيسى بن عمر ويحيى بن وثّاب وحمزة والكسائى « يَطَّوَّعْ خيرا » مشدّدًا وجزم العين على معنى يتطوّع . الباقون « تَطَوَّعَ » بالتاء وتخفيف الطاء وفتح العين على الماضى .

الخامســة ــ قوله تعـالى : ﴿ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أى والصيام خير لكم . وكذا قرأ أُبَيّ؛ أى من الإفطار مع الفدية وكان هـذا قبل النسخ . وقيـل : « وأن تصوموا » فى السـفر والمرض غير الشاق ، والله أعلم . وعلى الجملة فإنه يقتضى الحضّ على الصوم ؛ أى فآعلموا ذلك وصوموا .

قوله تعـالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾

فيه إحدى وعشرون مسألة :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ﴾ قال أهل التاريخ : أوّل من صام رمضان نوح عليه السلام لمـا خرج من السفينة . وقد تقدّم قول مجاهد : كتب الله رمضان على كلّ أمة[(١)] ، ومعلوم أنه كان قبل نوح أمم ؛ والله أعلم . والشهر مشـتق من الإشهار لأنه مشتهر لا يتعذّر علمه على أحد يريده ؛ ومنه يقال : شهرت السيف إذا سللته . ورمضانُ مأخوذ من رَمِضَ الصائمُ يَرْمَضُ إذا حرّ جوفُه من شدّة العطش . والرَّمْضاء (ممدودة) : شدّة الحر؛ ومنه الحديث : " صلاة الأوّابين إذا رَمِضت الفِصَال "[(٢)]. خرّجه مسلم . ورَمَضُ الفِصالِ أن تحرق الرَّمْضاءُ أخفافَها فتبرُك من شدّة حرّها . فرمضانُ ــ فيما ذكروا ــ وافق شدّة الحرّ؛ فهو مأخوذ من الرَّمْضَاء . قال

(١) راجع ص ٢٧٤ من هذا الجزء. (٢) هى الصلاة التى سنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وقت الضحى.

الجوهري : وشهر رمضان يُجمع على رَمَضانات وأرمِضاء؛ يقال إنهم لما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة سَمَّوْها بالأزمنة التي وقعت فيها، فوافق هذا الشهر أيام رَمَض الحر فسُمّيَ بذلك . وقيل : إنما سُمِّيَ رمضان لأنه يرمض الذنوب أي يحرقها بالأعمال الصالحة ، من الإرماض وهو الإحراق؛ ومنه رَمِضَت قَدَمُه من الرَّمْضاء أي آحترقت . وأرْمَضَتْني الرمضاء أي أحرقتني؛ ومنه قيل : أرْمَضَني الأمر . وقيل: لأن القلوب تأخذ فيه من حرارة الموعظة والفكرة في أمر الآخرة كما يأخذ الرمل والحجارة من حرّ الشمس . والرمضاء : الحجارة المُحْمَاة . وقيل : هو من رَمَضْتُ النصل أَرْمِضُه وأَرْمُضُه رَمْضًا إذا دَقَقْته بين حجرين ليَرِق . ومنه نَصْل رميض ومرموض — عن آبن السِّكِّيت — ؛ وسُمّي الشهر به لأنهم كانوا يرمضون أسلحتهم في رمضان ليحاربوا بها في شوّال قبل دخول الأشهر الحُرُم. وحكى الماوردي أن آسمه في الجاهلية « ناتق » وأنشد للفضّل :

وفي ناتِقٍ أجْلَتْ لَدى حَوْمَةِ الوَغَى * ووَلّتْ على الأدبار فُرسانُ خَثْعَمَا

و « شَهْرُ » بالرفع قراءة الجماعة على الآبتداء، والخبرُ « الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ » . أو يرتفع على إضمار مبتدأ، المعنى : المفروض عليكم صومه شهر رمضان، أو فيما كتب عليكم شهر رمضان . ويجوز أن يكون « شهر » مبتدأ، و « الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ » صفة، والخبر « فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ » . وأعيد ذكر الشهر تعظيما ، كقوله تعالى : « الْحَاقَّةُ . مَا الْحَاقَّةُ » . وجاز أن يدخله معنى الجزاء، لأن شهر رمضان وإن كان معرفة فليس معرفة بعينها لأنه شائع في جميع القابل؛ قاله أبو علي . وروى عن مجاهد وشَهْر بن حَوْشَب نصب « شهر » ، ورواها هارون الأعور عن أبي عمرو ، ومعناه : الزموا شهر رمضان أو صوموا . و « الذي أنزل فيه القرآن » نعت له ، ولا يجوز أن ينتصب بتصوموا؛ لئلا يفرق بين الصلة والموصول بخبر أن وهو « خير لكم » . الزماني : يجوز نصبه على البدل من قوله « أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ » .

الثانيـــة — وآختلف هل يقال « رمضان » دون أن يضاف إلى شهر؛ فكره ذلك مجاهد وقال : يقال كما قال الله تعالى . وفي الخبر : "لا تقولوا رمضان بل آنسبوه كما نسبه الله في القرآن

Marfat.com

فقال شَهْرُ رَمَضَانَ " . وكان يقول : بلغنى أنه آسم من أسماء الله . وكان يكره أن يجمع لفظه لهذا المعنى . ويحتجّ بما روى : رمضان آسم من أسماء الله تعالى، وهذا ليس بصحيح فإنه من حديث أبى معشر نجيح وهو ضعيف . والصحيح جواز إطلاق رمضـان من غير إضافة كما ثبت فى الصحاح وغيرها . روى مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا جاء رمضان فُتّحت أبواب الرحمة وغُلّقت أبواب النار وصُفّدت الشياطين ". وفى صحيح البُسْتِىّ عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا كان رمضان فُتحت له أبواب الرحمة وغُلّقت أبواب جهنم وسُلْسِلت الشياطين " . وروى عن آبن شهاب عن أنس بن أبى أنس أن أباه حدّثه أنه سمع أبا هريرة يقول ...، فذكره . قال البُسْتِىّ : أنس بن أبى أنس هذا هو والد مالك بن أنس، وآسم أبى أنس مالك بن أبى عامر من ثقات أهل المدينة، وهو مالك آبن أبى عامر بن عمرو بن الحـارث بن عثمان[(١)] بن جثيل بن عمرو من ذى أصبح من أقيال اليمن . وروى النسائى عن أبى هريرة قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم : " أتاكم رمضان شهرٌ مبارك فرض الله عز وجل عليكم صيامه تُفتح فيه أبواب السماء وتُغلق فيه أبواب الجحيم وتُغَلّ فيه مَرَدَة الشياطين لله فيه ليلةٌ خيرٌ من ألف شهر مَن حُرِم خيرها فقد حُرِم " . وأخرجه أبو حاتم البُسْتِىّ أيضا وقال : فقوله " مَرَدة الشياطين " تقييد لقوله : " صُفّدت الشياطين وسُلْسِلت " . وروى النسائى أيضًا عن آبن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لآمرأة من الأنصار : " إذا كان رمضان فآعتمرى فإن عُمْرة فيه تَعدل حجة " . وروى النسائى أيضا عن عبد الرحمن بن عَوف قال قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " إن الله تعالى فرض صيام رمضان [عليكم] وسَنَنْتُ لكم قيامه فمن صامه وقامه إيماناً وآحتساباً خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه " . والآثار فى هذا كثيرة، كلها بإسقاط شهر . وربـما أسقطت العرب ذكر الشهر من رمضان .

---

(١) الذى فى آبن خلكان : « غيمان — بغين معجمة وياء تحتها نقطتان — ويقال عثمان — بعين مهملة وثاء مثلثة —، ابن جثيل — بجيم وثاء مثلثة وياء ساكنة تحتها نقطتان . وقال آبن سـعد : هو خثيل بخاء معجمة » . وقد ورد هذا النسب فى الأصول محرفا .

قال الشاعر :

جاريةٌ فى دِرعها الفَضْفاضِ * أبيضُ مِن أخت بنى إبَاضِ

جاريةٌ فى رمضانَ المـاضِى * تُقَطِّـع الحـديثَ بالإيماضِ

وفضلُ رمضان عظيم، وثوابُه جسيم؛ يدلّ على ذلك معنى الآشتقاق من كونه محرقاً للذنوب، وما كتبناه من الأحاديث .

الثالثــة — فرض الله صيام شهر رمضان أى مدّة هلاله ، وبه سُمِّىَ الشهر؛ كما جاء فى الحديث : "فإن غُمِّىَ عليكم الشهر" أى الهلال ، وسيأتى ؛ وقال الشاعر :

أَخَوانِ مِن نَجْـدٍ على ثِقَة * والشّهرُ مثلُ قُلامة الظُّفر

حتى تكامل فى آستدارته * فى أربع زادت على عَشر

وفُرض علينا عند غُمّة الهلال إكمال عدّة شعبان ثلاثين يوماً، وإكمال عدة رمضان ثلاثين يوماً، حتى ندخل فى العبادة بيقين ونخرج عنها بيقين؛ فقال فى كتابه « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ (١) » . وروى الأئمة الأثبات عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فإن غُمّ عليكم فأكملوا العـدد" فى رواية "فإن غُمِّىَ عليكم الشهر فعُدُّوا ثلاثين" . وقد ذهب مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير وهو من كبار التابعين وآبن قتيبة من اللغويين فقالا : يُعَوَّل على الحساب عند الغيم بتقدير المنازل وآعتبار حسابها فى صوم رمضان، حتى إنه لو كان صحوا لرؤى؛ لقوله عليه السلام : "فإن أُغمى عليكم فآقدروا له" أى آستدِلّوا عليه بمنازله ، وقدّروا إتمـام الشهر بحسابه . وقال الجمهور : معنى "فآقـدروا له" فأكملوا المِقْدار؛ يفسّره حديث أبى هريرة "فأكملوا العدة". وذكر الدّاوُدِى أنه قيل فى معنى قوله "فآقدروا له": أى قدّروا المنازل . وهذا لا نعلم أحدا قال به إلا بعض أصحاب الشافعى أنه يُعتبر فى ذلك بقول المنجّمين، والإجماعُ حجة عليهم . وقد روى آبن نافع عن مالك فى الإمام لا يصوم لرؤية الهلال ولا يُفطر لرؤيته، وإنما يصوم ويُفطر على الحساب : إنه لا يُقتدى به

(١) راجع ج ١٠ ص ١٠٨ .

ولا يُتَّبَع . قال آبن العربى : وقــد زَلّ بعض أصحابنا فحكى عن الشافعى أنه قال : يعوّل على الحساب ، وهى عَثْرة « لا لَعًا لها »[1] .

الرابعــــة — وآختلف مالك والشافعى هل يثبت هلال رمضان بشهادة واحد أو شاهدين؛ فقال مالك : لا يُقبل فيه شهادة الواحد لأنها شهادة على هلالٍ فلا يُقبل فيها أقل من آثنين؛ أصله الشهادة على هلال شوّال وذى الحجة. وقال الشافعى وأبو حنيفة : يُقبل الواحد ؛ لما رواه أبو داود عن آبن عمر قال : تراءى الناس الهلال فأخبرت به رسول الله صلى الله عليه وسلم أنى رأيته ؛ فصام وأمر الناس بصيامه . وأخرجه الدّارَقُطْنى وقال : تفرّد به مروان بن محمد عن آبن وهب وهو ثقة . روى الدّارقطنى « أن رجلًا شهد عند علىّ بن أبى طالب على رؤية هلال رمضان فصام ؛ أحسبه قال : وأمر الناس أن يصوموا ، وقال : أصوم يومًا من شعبان أحبّ إلى من أن أفطر يومًا من رمضان. قال الشافعى : فإن لم تر العامّة هلال شهر رمضان ورآه رجل عَدْل رأيت أن أقبله للأثر والاحتياط . وقال الشافعى بعدُ : لايجوز على رمضان إلا شاهدان . قال الشافعى وقال بعض أصحابنا : لا أقبل عليــه إلا شاهدين ، وهو القياس على كل مغيّب » .

الخامســــة — وآختلفوا فيمن رأى هلال رمضان وحده أو هلال شوال؛ فروى الربيع عن الشافعى : من رأى هلال رمضان وحده فليصمه ، ومن رأى هلال شوال وحده فليفطر ، ولْيُخْف ذلك . وروى آبن وهب عن مالك فى الذى يرى هلال رمضان وحده أنه يصوم ؛ لأنه لا ينبغى له أن يفطر وهو يعلم أنّ ذلك اليوم من شهر رمضان . ومن رأى هلال شوّال وحده فلا يفطر؛ لأن الناس يتّهمون على أن يفطر منهم من ليس مأمونًا ، ثم يقول أولئك إذا ظهر عليهم : قد رأينا الهلال. قال آبن المنذر : وبهذا قال الليث بن سعد وأحمد بن حنبل. وقال عطاء وإسحاق : لا يصوم ولا يفطر . قال آبن المنذر : يصوم ويفطر .

---

(١) كذا فى أ ، ب ، جـ ، ز ، و « لعا » بالتنوين : كلمة يدعى بها للعاثر ، معناها الارتفاع والإقالة من العثرة ، فاذا أريد الدعاء عليه قيل : لا لعا . وفى ح : « لا يقال بها » . وفى أحكام القرآن لابن العربى : « لا يقالها » .

السادســة — وٱختلفوا إذا أخبر مخبر عن رؤية بلد، فلا يخلو أن يَقْرُب أو يبعد، فإن قرب فالحكم واحد، وإن بَعُدَ فلأهل كل بلد رؤيتهم؛ روى هذا عن عِكرمة والقاسم وسالم، وروى عن ٱبن عباس، وبه قال إسحاق، وإليه أشار البخاريّ حيث بوب : «لأهل كل بلد رؤيتهم» . وقال آخرون . إذا ثبت عند الناس أن أهل بلد قد رأَوْه فعليهم قضاء ما أفطروا؛ هكذا قال الليث بن سعد والشافعيّ . قال ٱبن المنذر : ولا أعلمه إلا قول المُزَنيّ والكوفى .

قلت : ذكر الكِيَا الطبرى فى كتاب «أحكام القرآن» له : وأجمع أصحاب أبى حنيفة على أنه إذا صام أهل بلد ثلاثين يومًا للرؤية، وأهل بلد تسعةً وعشرين يومًا أن على الذين صاموا تسعة وعشرين يوما قضاء يوم . وأصحاب الشافعى لا يرون ذلك؛ إذ كانت المطالع فى البلدان يجوز أن تختلف . وحجة أصحاب أبى حنيفة قوله تعـالى : «وَلِتُكْمِلُوا الْعِـدَّةَ» وثبت برؤية أهل بلد أن العدّة ثلاثون فوجب على هؤلاء إكمالها . ومخالفهم يحتج بقوله صلى الله عليه وسلم : "صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته" الحديث، وذلك يوجب ٱعتبار عادة كل قوم فى بلدهم . وحكى أبو عمر الإجماع على أنه لا تراعى الرؤية فيما بَعُد من البلدان كالأندلس من خراسان، قال : ولكل بلد رؤيتهم، إلا ما كان كالمصر الكبير وما تقاربت أقطاره من بلدان المسلمين . روى مسلم عن كُرَيب أن أمّ الفضل بنت الحارث بعثته إلى معاوية بالشام قال : فقدمت الشام فقضيت حاجتها وٱستُهِل علىّ رمضان وأنا بالشام فرأيت الهلال ليلة الجمعة ثم قدمت المدينة فى آخر الشهر فسألنى عبد الله بن عباس رضى الله عنهما، ثم ذكر الهلال فقال : متى رأيتم الهلال؟ فقلت : رأيناه ليلة الجمعة . فقال : أنت رأيتَـه ؟ فقلت نعم، ورآه الناس وصاموا وصام معاوية . فقال : لكنّا رأيناه ليلة السبت فلا نزال نصوم حتى نُكمل ثلاثين أو نراه . فقلت : أولا تكتفى برؤية معاوية وصيامه؟ فقال لا ، هكذا أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال علماؤنا : قول ٱبن عباس «هكذا أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم» كلمة تصريح برفع ذلك إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم وبأمره . فهو حجة على أن البلاد إذا تباعدت كتباعد الشام من الحجاز فالواجب على أهل كل بلد أن تعمل على رؤيته دون رؤية غيره ، وإن ثبت ذلك

Marfat.com

عند الإمام الأعظم، ما لم يحمل الناس على ذلك؛ فإن حمل فلا تجوز مخالفته . وقال الكيا الطبرى : قوله « هكذا أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم » يحتمل أن يكون تأول فيه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته" . وقال آبن العربى : «وآختلف فى تأويل [قول] [1] آبن عباس [هذا] [1]؛ فقيل : ردّه لأنه خبر واحد، وقيل : ردّه لأن الأقطار مختلفة فى المطالع، وهو الصحيح، لأن كُرَيْبًا لم يشهد وإنما أخبر عن حكم ثبت بالشهادة، ولا خلاف فى الحكم الثابت أنه يجزى فيه خبر الواحد. ونظيره ما لو ثبت أنه أهلّ ليلة الجمعة بأغمات [2] وأهلّ بإشبيلية [3] ليلة السبت فيكون لأهل كل بلد رؤيتهم؛ لأن سُهيلا [4] يُكشف من أغمات ولا يُكشف من أشبيلية؛ وهذا يدل على آختلاف المطالع » .

قلت : وأما مذهب مالك رحمه الله فى هذه المسألة فروى آبن وهب وآبن القاسم عنه فى المجموعة أن أهل البصرة إذا رأوا هلال رمضان ثم بلغ ذلك إلى أهل الكوفة والمدينة واليمن أنه يلزمهم الصيام أو القضاء إن فات الأداء . وروى القاضى أبو إسحاق عن آبن الماجشون أنه إن كان ثبت بالبصرة بأمر شائع ذائع يستغنى عن الشهادة والتعديل له فإنه يلزم غيرهم من أهل البلاد القضاء، وإن كان إنما ثبت عند حاكمهم بشهادة شاهدين لم يلزم ذلك من البلاد إلا من كان يلزمه حكم ذلك الحاكم ممن هو فى ولايته، أو يكون ثبت ذلك عند أمير المؤمنين فيلزم القضاء جماعة المسلمين . قال : وهذا قول مالك .

السابعـة — قرأ جمهور الناس « شَهْرُ » بالرفع على أنه خبر آبتداء مضمر؛ أى ذلكم شهر. أو المفترض عليكم صيامه شهر رمضان، أو الصوم أو الأيام . وقيل : آرتفع على أنه مفعول لم يُسَمّ فاعله بـ «كُتِبَ» أى كُتب عليكم شهر رمضان. و «رمضان» لا ينصرف لأن النون فيه زائدة . و يجوز أن يكون مرفوعًا على الآبتداء، وخبره «الذى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ» . وقيل : خبره «فَمَنْ شَهِدَ»، و «الذى أُنزل» نعت له . وقيل : ارتفع على البدل من الصيام . فمن قال : إن الصيام فى قوله « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ » هى ثلاثة أيام وعاشوراء قال هنا

(١) الزيادة عن « أحكام القرآن » لابن العربى . (٢) أغمات : ناحية فى بلاد البربر من أرض المغرب قرب مراكش . (٣) أشبيلية : مدينة كبيرة عظيمة بالأندلس . (٤) سهيل : كوكب .

بالابتداء . ومن قال : إن الصيام هنالك رمضان قال هنا بالابتـداء أو بالبدل من الصيام ، أى كُتِب عليكم شهر رمضان . وقرأ مجاهـد وشَهْرُبن حَوْشَب « شَهْـرَ » بالنصب . قال الكسائى : المعنى كُتب عليكم الصيام، وأن تصوموا شهر رمضان . وقال الفرّاء : أى كُتب عليكم الصيام أى أن تصوموا شهر رمضان . قال النحاس : « لا يجوز أن ينتصب « شهر رمضان» بتصوموا؛ لأنه يدخل فى الصلة ثم يفرّق بين الصلة والموصول ، وكذلك إن نصبته بالصيام؛ ولكن يجوز أن تنصبه على الإغراء؛ أى ٱلزموا شهر رمضان، وصوموا شهر رمضان، وهذا بعيد أيضا لأنه لم يتقدّم ذكر الشهر فيغرَى به » .

قلت : قوله « كُتِب عليكم الصّيامُ » يدل على الشهر بجـار الإغـراء ؛ وهـو ٱختيار أبى عبيـد . وقال الأخفش : ٱنتصب على الظرف . وحكى عن الحسن وأبى عمرو إدغام الراء فى الراء؛ وهذا لا يجوز لئلا يجتمع ساكنان؛ ويجوز أن تُقلب حركة الراء على الهـاء فتُضم الهـاء ثم تُدغم ، وهو قول الكوفيين .

الثامنـــة ـــ قوله تعـالى : ﴿ ٱلَّذِىٓ أُنْزِلَ فِيـهِ ٱلْقُرْآنُ ﴾ نصّ فى أن القرآن نزل فى شهر رمضان ، وهو يبيّن قوله عز جل : « حٰمٓ . وَٱلْكِتَابِ الْمُبِينِ . إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ (١) » يعنى ليلة القدر ، ولقوله : « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ (٢) » . وفى هـذا دليل على أن ليلة القدر إنمـا تكون فى رمضان لا فى غيره . ولا خلاف أن القرآن أنزل من اللوح المحفوظ ليلة القدر ـــ على ما بيناه (٣) ـــ جملةً واحدة، فوُضع فى بيت العِزّة فى سماء الدنيا، ثم كان جبريل صلى الله عليه وسلم ينزل به نَجمًا نجمًا فى الأوامر والنواهى والأسباب، وذلك فى عشرين سنة . وقال ٱبن عباس : أُنزل القرآن من اللّوح المحفوظ جملةً واحدة إلى الكَتَبة فى سماء الدنيا ، ثم نزل به جبريل عليـه السلام نجومًا ـــ يعنى الآية والآيتين ـــ فى أوقات مختلفة فى إحدى وعشرين سنة . وقال مقاتل فى قوله تعـالى : « شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنْزِلَ فِيـهِ الْقُرْآنُ » قال أنزل من اللّوح المحفوظ كلّ عام فى ليـلة القدر إلى سمـاء الدنيا ، ثم نزل إلى السَّفَرة (٤) من اللوح المحفوظ فى عشرين شهرًا، ونزل به جبريل فى عشرين سنة .

(١) راجع جـ ١٦ ص ١٢٥ (٢) راجع جـ ٢٠ ص ١٢٩
(٣) يراجع جـ ١ ص ٦٠ (٤) السفرة : الملائكة .

Marfat.com

قلت : وقول مُقاتل هـذا خلاف ما نُقل من الإجماع « أن القرآن أنزل جملةً واحدةً » والله أعلم . وروى وَاثِلة بن الأَسْقع عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "أنزلت صحف إبراهيم أوّل ليلة من شهر رمضان والتوراةُ لِستّ مضيْن منه والإنجيلُ لثلاث عشرة والقرآنُ لأربع وعشرين" .

قلت : وفي هـذا الحديث دلالة على ما يقـوله الحسن أن ليلة القدر تكون ليـلة أربع وعشرين . وسيأتي إن شاء الله تعالى بيان هذا (١) .

التاسـعة — قوله تعالى : ﴿ الْقُرْآنُ ﴾ « القرآن » : اسم لكلام الله تعالى، وهو بمعنى المقروء، كالمشروب يُسمَّى شرابا ، والمكتوب يُسمَّى كتابا ؛ وعلى هذا قيل : هو مصدر قرأ يقرأ قراءة وقرآنا بمعنًى . قال الشاعر :

ضحّـوا بأشمطَ عُنوانُ السّجود بِهِ * يُقطّـع الليـلَ تسبيحًا وقـرآنا

أي قراءة . وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر أن في البحر شياطين مسجونة أوْثقها سليمان عليه السـلام يوشك أن تخرج فتقرأ على النـاس قرآنا، أي قراءة . وفي التنزيل : « وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٢) » أي قراءة الفجـر . ويُسمَّى المقروء قرآنًا على عادة العرب في تسميتها المفعول بآسم المصدر ؛ كتسميتهم للعلوم علمًا وللضروب ضربًا وللمشروب شربًا ، كما ذكرنا ؛ ثم آشتهر الآستعمال في هـذا وآقترن به العُرف الشرعي ، فصار القرآن آسمًا لكلام الله ، حتى إذا قيل : القرآن غير مخلوق ، يراد به المقروء لا القراءة لذلك . وقد يُسمَّى المصحف الذي يُكتب فيه كلام الله قرآنًا تَوَسُّعًا ؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم : "لا تسافروا بالقرآن إلى أرض العدوّ" أراد به المصحف . وهو مشتق من قرأت الشيء جمعته . وقيل : هو آسمُ عَلَم لكتاب الله ، غير مشتق كالتوراة والإنجيل ؛ وهذا يُحكى عن الشافعيّ . والصحيح الآشتقاق في الجميع ، وسيأتي .

العاشرة — قوله تعالى : ﴿ هُدًى لِلنَّاسِ ﴾ « هُدًى » في موضع نصب على الحال من القرآن (٣) ، أي هاديًا لهم . ﴿ وَبَيِّنَاتٍ ﴾ عطف عليه . و﴿ الْهُدَى ﴾ الإرشاد والبيان، كما تقدّم ؛

(١) راجع جـ ٢٠ ص ١٣٤ (٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٠٥ (٣) يراجع جـ ١ ص ١٦٠ طبعة ثانية .

Marfat.com

أى بيانًا لهم وإرشادًا. والمراد القرآن بجملته من مُحْكَم ومُتشابه وناسخ ومنسوخ؛ثم شرف بالذكر والتخصيص البينات منه، يعنى الحلال والحرام والمواعظ والأحكام . «وبَيِّنَاتٍ» جمع بيّنة، من بان الشئ يبين إذا وضح. ﴿وَالْفُرْقَانِ﴾ مافرق بين الحق والباطل، أى فصل؛ وقد تقدّم.(١)

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ قراءة العامة بجزم اللام . وقرأ الحسن والأعرج بكسر اللام، وهى لام الأمر وحقّها الكسر إذا أفردت ؛ فإذا وُصلت بشىء ففيها وجهان : الجزم والكسر . وإنما تُوصل بثلاثة أحرف : بالفاء كقوله «فَلْيَصُمْهُ» «فَلْيَعْبُدُوا» . والواو كقوله : «وَلْيُوفُوا» . وثُمّ كقوله : «ثُمَّ لْيَقْضُوا» . و«شَهِد» بمعنى حَضَر، وفيه إضمار؛ أى من شهد منكم المصر فى الشهر عاقلاً بالغًا صحيحًا مقيمًا فليصمه، وهو يقال عامّ فيخصّص بقوله : «فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ» الآية . وليس الشهر بمفعول وإنما هو ظرف زمان . وقد اختلف العلماء فى تأويل هذا ؛ فقال علىّ ابن أبى طالب وابن عباس وسُوَيد بن غَفَلَة وعائشة — أربعة من الصحابة — وأبو مِجْلَز لاحق بن حُميد وعَبيدة السَّلْمانىّ : من شهد أى من حضر دخول الشهر وكان مقيما فى أوله فى بلده وأهله فليكمل صيامه، سافر بعد ذلك أو أقام ، وإنما يُفطر فى السفر من دخل عليه رمضان وهو فى سفر . والمعنى عندهم : من أدركه رمضان مسافرًا أفطر وعليه عدّة من أيام أخر، ومن أدركه حاضرًا فليصمه . وقال جمهور الأمة : من شهد أوّل الشهر وآخره فليصم مادام مقيمًا ، فإن سافر أفطر ؛ وهذا هو الصحيح وعليه تدل الأخبار الثابتة . وقد ترجم البخارى رحمه الله ردًّا على القول الأول « باب إذا صام أياما من رمضان ثم سافر » حدّثنا عبدالله بن يوسف قال أنبأنا مالك عن ابن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى مكة فى رمضان فصام حتى بلغ الكَديد(٢) أفطر فأفطر الناس . قال أبوعبد الله : والكَديد ما بين عُسفان وقُديد(٣) .

---

(١) يراجع جـ ١ ص ٣٨٧ طبعة ثانية . (٢) الكديد (بفتح الكاف وكسر الدال) : موضع بينه وبين المدينة سبع مراحل أونحوها ، وبينه وبين مكة نحو مرحلتين . (٣) عسفان : قرية بها مزارع ونخيل على مرحلتين من مكة . وقديد (بضم القاف) : اسم موضع قرب مكة .

Marfat.com

قلت : قد يحتمل أن يحمل قول علىّ رضى الله عنه ومن وافقه على السفر المندوب كزيارة الإخوان من الفضلاء والصالحين ، أو المباح فى طلب الرزق الزائد على الكفاية . وأما السفر الواجب فى طلب القوت الضرورى ، أو فتح بلد إذا تحقّق ذلك ، أو دفع عدو ، فالمرء فيه مخيّر ولا يجب عليه الإمساك ؛ بل الفطر فيه أفضل للتقوى ، وإن كان شهد الشهر فى بلده وصام بعضه فيه ؛ لحديث ابن عباس وغيره ، ولا يكون فى هذا خلاف إن شاء الله ، والله أعلم. وقال أبو حنيفة وأصحابه : من شهد الشهر بشروط التكليف غير مجنون ولامغمى عليه فليصمه ، ومن دخل عليه رمضان وهو مجنون وتمادى به طول الشهر فلا قضاء عليه ؛ لأنه لم يشهد الشهر بصفة يجب بها الصيام . ومن جُنّ أوّل الشهر وآخره فإنه يقضى أيام جنونه . ونَصْب الشهر على هذا التأويل هو على المفعول الصريح بـ « شهد » .

الثانية عشرة — قد تقرر أن فرض الصوم مستحق بالإسلام والبلوغ والعلم بالشهر؛ فإذا أسلم الكافر أو بلغ الصبي قبل الفجر لزمهما الصوم صبيحة اليوم، وإن كان بعد الفجر آستحب لهما الإمساك ، وليس عليهما قضاء الماضى من الشهر ولا اليوم الذى بلغ فيه أو أسلم. وقد آختلف العلماء فى الكافر يُسلم فى آخر يوم من رمضان، هل يجب عليه قضاء رمضان كله أولا ؟ وهل يجب عليه قضاء اليوم الذى أسلم فيه ؟ فقال الإمام مالك والجمهور : ليس عليه قضاء مامضى ؛ لأنه إنما شهد الشهر من حين إسلامه . قال مالك : وأحبّ إلىّ أن يقضى اليوم الذى أسلم فيه . وقال عطاء والحسن : يصوم مابقى ويقضى مامضى . وقال عبد الملك بن الماجشون : يكفّ عن الأكل فى ذلك اليوم ويقضيه . وقال أحمد وإسحاق مثله . وقال ابن المنذر : ليس عليه أن يقضى ما مضى من الشهر ولا ذلك اليوم . وقال الباجى : من قال من أصحابنا أن الكفار مخاطبون بشرائع الإسلام — وهو مقتضى قول مالك وأكثر أصحابه — أوجب عليه الإمساك فى بقية يومه . ورواه فى المدوّنة ابن نافع عن مالك، وقاله الشيخ أبو القاسم . ومن قال من أصحابنا ليسوا مخاطبين قال : لا يلزمه الإمساك فى بقية يومه ؛ وهو مقتضى قول أشهب وعبد الملك بن الماجشون ، وقاله ابن القاسم .

Marfat.com

قلت : وهو الصحيح لقوله تعالى : «يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» فخاطب المؤمنين دون غيرهم؛ وهذا واضح، فلا يجب عليه الإمساك في بقية اليوم ولا قضاء ما مضى . وتقدّم الكلام في معنى قوله : « وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ » (١) والحمد لله .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ ﴾ قراءة جماعة « الْيُسُرَ » بضم السين لغتان، وكذلك « الْعُسُرَ » . قال مجاهد والضحاك : « اليسر » الفطر في السفر، و « العسر » الصوم في السفر . والوجه عموم اللفظ في جميع أمور الدين؛ كما قال تعالى : « وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ » (٢)، وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم "دين الله يُسر"، وقال صلى الله عليه وسلم : "يَسِّرُوا ولا تُعَسِّرُوا" . واليسر من السهولة، ومنه اليسار للغنى . وسُمّيت اليد اليسرى تفاؤلًا، أو لأنه يسهل له الأمر بمعاونتها لليمنى؛ قولان . وقوله : ﴿ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ هو بمعنى قوله ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ ﴾ فكرر تأكيدا .

الرابعة عشرة — دلّت الآية على أن الله سبحانه مريد بإرادة قديمة أزلية زائدة على الذات . هذا مذهب أهل السنة؛ كما أنه عالم بعلم، قادرٌ بقدرة، حيٌّ بحياة، سميعٌ بسمع، بصيرٌ ببصر، متكلمٌ بكلام . وهذه كلها معانٍ وجودية أزلية زائدة على الذات . وذهب الفلاسفة والشّيعة إلى نفيها؛ تعالى الله عن قول الزائغين و إبطال المبطلين . والذي يقطع دابر أهل التعطيل أن يقال : لو لم يَصْدُق كونه ذا إرادة لصدق أنه ليس بذي إرادة، ولو صح ذلك لكان كل ما ليس بذي إرادة ناقصًا بالنسبة إلى من له إرادة؛ فإنّ من كانت له الصفات الإرادية فله أن يخصص الشيء وله ألا يخصّصه؛ فالعقل السليم يقضي بأن ذلك كمال له وليس بنقصان، حتى أنه لو قُدّر بالوهم سلب ذلك الأمر عنه لقد كان حاله أوّلا أكمل بالنسبة إلى حاله ثانيا، فلم يبق إلا أن يكون مالم يتصف أنقص مما هو متصف به، ولا يخفى ما فيه من المحال؛ فإنه كيف يتصوّر أن يكون المخلوق أكمل من الخالق، والخالق أنقص منه، والبديهة تقضي بردّه و إبطاله . وقد وصف نفسه جلّ جلاله وتقدست أسماؤه بأنه مريد فقال تعالى :

(١) تراجع المسألة الأولى ومابعدها ص ٢٧٦ من هذا الجزء .	(٢) راجع ج ١٢ ص ١٠٠ .

Marfat.com

« فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ »[1] وقال سبحانه : « يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ »وقال: «يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ »[2] ، إذا أراد أمرًا فإنما يقول له كن فيكون. ثم إن هذا العالمَ على غاية من الحكمة والإتقان والأنتظام والإحكام، وهو مع ذلك جائز وجوده وجائز عدمه، فالذى خصّصه بالوجود يجب أن يكون مريدًا له قادرًا عليــه عالمًا به ؛ فإن لم يكن عالمًا قادرًا لا يصح منه صــدور شىء ؛ ومن لم يكن عالمـا و إن كان قادرًا لم يكن ما صدر منه على نظام الحكمة والإتقان ، ومن لم يكن مريدًا لم يكن تخصيص بعض الجائزات بأحوال وأوقات دون البعض بأولى من العكس؛ إذ نسبتها إليه نسبة واحدة . قالوا : وإذ ثبت كونه قادرًا مريدًا وجب أن يكون حيًّا؛ إذ الحياة شرط هذه الصفات؛ ويلزم من كونه حيًّا أن يكون سميعًا بصــيرًا متكلمًا ؛ فإن لم تثبت له هــذه الصفات فإنه لا محالة متّصف بأضــدادها كالعمى والطرش والخرس على ما عرف فى الشاهــد ؛ والبارئ سبحانه وتعـالى يتقدّس عن أن يتّصف بمـا يوجب فى ذاته نقصًا .

الخامسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ ﴾ فيــه تأويلان : أحدهما — إكمال عدّة الأداء لمن أفطر فى سفره أو مرضه . الثانى — عدّة الهلال سواء كانت تسعًا وعشرين أو ثلاثين . قال جابر بن عبــد الله قال النبيّ صلى الله عليه وسـلم : "إن الشهر يكون تسعًا وعشرين" . وفى هذا ردّ لتأويل من تأوّل قوله صلى الله عليه وسلم : "شهرا عِيد لا ينقصان رمضان وذوالحجة" أنهما لا ينقصان عن ثلاثين يومًا، أخرجه أبوداود . وتأوّله جمهور العلماء على معنى أنهما لا ينقصان فى الأجر وتكفير الخطايا، سواء كانا من تسع وعشرين أو ثلاثين.

السادسة عشرة — ولا آعتبار برؤية هلال شوّال يوم الثلاثين من رمضان نهاراً بل هو لليلة التى تأتى ، هــذا هو الصحيح . وقــد آختلف الرواة عن عمر فى هــذه المسألة فروى الدّارَقُطْنِى عن شقيق قال : جاءنا كتاب عمــر ونحن بخانقين قال فى كتابه : إن الأهلّة بعضها أكبر من بعض، فإذا رأيتم الهلال نهارا فلا تُفطروا حتى يشهد شاهدان أنهما رأياه بالأمس .

(١) راجع جـ ١٩ ص ٢٩٥ (٢) راجع جـ ٥ ص ١٤٨

وذكره أبو عمر من حديث عبد الرزاق عن معمر عن الأعمش عن أبي وائل[(١)] قال : كتب إلينا عمر ...؛ فذكره . قال أبو عمر : ورُوى عن عليّ بن أبي طالب مثل ماذكره عبد الرزاق أيضا، وهو قول آبن مسعود وآبن عمر وأنس بن مالك، وبه قال مالك والشافعي وأبو حنيفة ومحمد آبن الحسن واللّيث والأوزاعي، وبه قال أحمد وإسحاق . وقال سفيان الثّوريّ وأبو يوسف. إن رُؤى بعد الزوال فهو لليلة التي تأتي ، وإن رُؤى قبل الزوال فهو للّيلة المـاضية . ورُوى مثـل ذلك عن عمر ، ذكره عبد الرزاق عن الثوري عن مغيرة عن شِـباك عن إبراهيم قال : كتب عمر إلى عتبة بن فَرْقَد « إذا رأيتم الهلال نهـارًا قبل أن تزول الشمس لتمـام ثلاثين فافطروا، وإذا رأيتموه بعد ماتزول الشمس فلا تُفطروا حتى تمسوا »؛ ورُوى عن عليّ مثله . ولا يصحّ فى هذه المسألة شيء من جهة الإسناد عن عليّ . ورُوى عن سليمان بن ربيعة مثل قول الثوريّ، وإليه ذهب عبد الملك بن حبيب ، وبه كان يُفتي بقُرْطبة . وآختلف عن عمر بن عبد العزيز فى هذه المسألة ؛ قال أبو عمر : والحديث عن عمر بمعنى ماذهب إليه مالك والشافعيّ وأبو حنيفة متّصل، والحديث الذى روى عنه بمذهب الثّورى منقطع، والمصير إلى المتّصل أوْلَى . وقـد آحتج من ذهب مذهب الثوريّ بأن قال : حديث الأعمش مُجمَل لم يخصّ فيه قبل الزوال ولا بعده، وحديث إبراهيم مفسّر، فهو أوْلى أن يقال به .

قلت : قد روى مرفوعًا معنى ماروى عن عمر متصلًا موقوفًا روته عائشـة زوج النبي صلى الله عليه وسـلم قالت : أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم صائمـًا صُبح ثلاثين يومًا، فرأى هلال شوّال نهارًا فلم يُفطر حتى أمسى . أخرجه الدّارَقُطْني من حديث الواقدى وقال : قال الواقدى حدّثنا معاذ بن محمد الأنصاري قال : سألت الزهريّ عن هلال شوّال إذا رؤى باكرًا ؛ قال سمعت سعيد بن المسيّب يقول : إن رؤى هلال شوّال بعد أن طلع الفجر إلى العصر أو إلى أن تغرب الشمس فهو من الليلة التى تجيء ؛ قال أبو عبـد الله : وهـذا مجمع عليه .

(١) أبو وائل : كنية شقيق السابق ذكره .

Marfat.com

السابعة عشرة — روى الدّارَقُطْنِيّ عن رِبْعِيّ بن حِراش عن رجل من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : آختلف الناس في آخر يوم من رمضان فقدم أعرابيّان فشهدا عند النبيّ صلى الله عليه وسلم بالله لأَهَلّا[(1)] الهلالَ أمس عَشِيّة؛ فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم [الناس][(2)] أن يُفطروا وأن يغدوا إلى مُصلّاهم . قال الدّارَقُطْنِيّ : هذا إسناد حسن ثابت . قال أبو عمر : لا خلاف عن مالك وأصحابه أنه لا تُصلّى صلاة العيد في غير يوم العيد ولا في يوم العيد بعد الزوال ؛ وحكي عن أبي حنيفة . وآختلف قول الشافعي في هذه المسألة؛ فمرّة قال بقول مالك، وآختاره المزنيّ وقال : إذا لم يجز أن تُصلّى في يوم العيد بعد الزوال فاليوم الثاني أبعد من وقتها وأحْرَى ألا تُصلّى فيه . وعن الشافعي رواية أخرى أنها تصلّى في اليوم الثاني ضُحًى . وقال البُوَيطي : لا تصلّى إلا أن يثبت في ذلك حديث . قال أبو عمر : لو قُضيت صلاة العيد بعد خروج وقتها لأشبهت الفرائض، وقد أجمعوا في سائر السنن أنها لا تُقضى؛ فهذه مثلها . وقال الثوري والأوزاعي وأحمد بن حنبل : يخرجون من الغد، وقاله أبو يوسف في الإملاء . وقال الحسن بن صالح بن حَيّ : لا يخرجون في الفطر ويخرجون في الأضحى . قال أبو يوسف : وأما في الأضحى فيصليها بهم في اليوم الثالث . قال أبو عمر : لأن الأضحى أيام عيد وهي صلاة عيد ، وليس الفطر يوم عيد إلا يوم واحد، فإذا لم تصلّ فيه لم تُقْضَ في غيره ؛ لأنها ليست بفريضة فتُقْضَى . وقال الليث بن سعد : يخرجون في الفطر والأضحى من الغد .

قلت : والقول بالخروج إن شاء الله أصح ؛ للسنة الثابتة في ذلك، ولا يمتنع أن يستثني الشارع من السنن ماشاء فيأمر بقضائه بعد خروج وقته . وقد روى الترمذيّ عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَن لم يُصَلّ ركعتي الفجر فليصلهما بعد ماتطلع الشمس" . صححه أبو محمد . قال الترمذي : والعمل على هذا عند بعض أهل العلم، وبه يقول سفيان الثوري والشافعي وأحمد وإسحاق وآبن المبارك . وروى عن عمر أنه فعله .

---

(١) أهل الرجل الهلال : رآه . (٢) زيادة عن سنن الدارقطني .

قلت : وقد قال علماؤنا : من ضاق عليه الوقت وصلى الصبح وترك ركعتى الفجر فإنه يصلّيهما بعد طلوع الشمس إن شاء . وقيل : لا يصلّيهما حينئذ . ثم إذا قلنا : يصلّيهما فهل ما يفعله قضاء ، أو ركعتان ينوب له ثوابهما عن ثواب ركعتى الفجر . قال الشيخ أبو بكر : وهذا الجارى على أصل المذهب، وذِكْر القضاء تجوّز .

قلت : ولا يبعد أن يكون حكم صلاة الفطر فى اليوم الثانى على هذا الأصل، لا سيّما مع كونها مرّة واحدة فى السّنَة مع ما ثبت من السُّنَّة . روى النسائى قال : أخبرنى عمرو بن علىّ قال حدّثنا يحيى قال حدّثنا شعبة قال حدّثنى أبو بشر عن أبى عمير بن أنس عن عمومة له : أن قومًا رأَوا الهلال فأتوا النبىّ صلى الله عليه وسلم فأمرهم أن يُفطروا بعد ما ٱرتفع النهار وأن يخرجوا إلى العيد من الغد . فى رواية : ويخرجوا لمصلّاهم من الغد .

الثامنة عشرة — قرأ أبو بكر عن عاصم وأبو عمرو — فى بعض ما روى عنه — والحسن وقتادة والأعرج « ولِتُكَمِّلُوا العِدّة » بالتشديد . والباقون بالتخفيف . وٱختار الكسائى التخفيف ؛ كقوله عز وجل : « ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ »[(1)] . قال النحاس : وهما لغتان بمعنًى واحد؛ كما قال عز وجل : « فَمَهِّلِ ٱلْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا »[(2)] . ولا يجوز « ولْتكملوا » بإسكان اللام ، والفرق بين هذا و بين ما تقدّم أن التقدير : و يريد لأن تكملوا ، ولا يجوز حذف أن والكسرة؛ هذا قول البصريين، ونحوه قول كُثَيِّر أبو صخر :

* أريد لأنسى ذكرها *

أى لأن أنسى ، وهذه اللام هى الداخلة على المفعول ؛ كالتى فى قولك : ضربت لزيد؛ المعنى و يريد إكمال العدّة . وقيل : هى متعلقة بفعل مضمر بعدُ، تقديره : ولأن تكملوا العدّة رخّص لكم هذه الرخصة . وهذا قول الكوفيين وحكاه النحاس عن الفرّاء . قال النحاس : وهذا قول حسن؛ ومثله : « وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ »[(3)] أى وليكون من الموقنين فعلنا ذلك . وقيل : الواو مُقْحَمة . وقيل : يحتمل أن تكون هذه اللام لام الأمر والواو عاطفة جملة كلام على جملة كلام . وقال أبو إسحاق إبراهيم

(١) راجع ج ٦ ص ٦١		(٢) راجع ج ٢٠ ص ١٢		(٣) راجع ج ٧ ص ٢٣

Marfat.com

ٱبن الشجرى : هو محمول على المعنى ، والتقدير : فعـل الله ذلك ليسهّل عليكم ولتكملوا العدّة ، قال : ومثله ما أنشده سيبويه .

بادتْ وغيّر آيهنّ مع البِـلَى * إلا رواكِدَ جَمْـرُهنّ هباءُ
ومُشَجَّجٌ أمّا سـواءُ قَذالِه * فبَـدَا وغيّبَ سارَه(1) المَعْزاءُ(2)

شاده يَشيده شَيْدًا جَصَّصه؛ لأن معناه بادت إلا رواكد بها رواكد، فكأنه قال : وبها مشجج أوثَمّ مشجّج .

التاسعة عشرة — قوله تعالى : ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ﴾ عطف عليه، ومعناه الحضّ على التكبير فى آخر رمضان فى قول جمهور أهل التأويل . وٱختلف النـاس فى حدّه ؛ فقال الشافعى : رُوى عن سعيد بن المسيّب وعُرْوة وأبى سلمة أنهم كانوا يكبّرون ليلة الفطر ويحمّدون، قال: وتشبه ليلة النحر بها . وقال ٱبن عباس : حَقٌّ على المسلمين إذا رأوا هلال شوّال أن يكبّروا. ورُوى عنه : يكبّر المرء من رؤية الهلال إلى ٱنقضاء الخطبة ، ويمسك وقت خروج الإمام ويكبّر بتكبيره. وقال قوم : يكبّر من رؤية الهلال إلى خروج الإمام للصلاة . وقال سفيان: هو التكبير يوم الفطر . زيد بن أسلم : يكبّرون إذا خرجوا إلى المُصَلّى فإذا ٱنقضت الصلاة ٱنقضى العيد . وهذا مذهب مالك ، قال مالك : هو من حين يخرج من داره إلى أن يخرج الإمام . وروى ٱبن القاسم وعلىّ بن زياد : أنه إن خرج قبل طلوع الشمس فلا يكبّر فى طريقه

---

(1) فى نسخ الأصـل وكتاب سيبويه و إعراب القرآن للنحاس : « غيّر » بالراء . والتصويب عن اللسان مادة « شجج » .   (2) كذا فى كتاب سيبويه و إعراب القرآن للنحاس واللسان . وساره يريد « سائره » فخفف بحذف الهمزة ، ومثله هار وأصله هائر، وشاك وأصله شائك . وفى الأصول « شاده » بالشين المعجمة والدال وهو تصحيف . وبهذا يعلم أن تفسير المؤلف وقع لكلمة مصحفة .

والآى (جمع آية) وهى علامات الديار . والرواكد : الأثافى . والهباء هنا : الغبار . وأراد بالمشجج وتدا من أوتاد الخيام، وتشجيجه ضرب رأسه ليثبت . وسواء قذاله : وسطه . ويروى : سواد قذاله ، وسواد كل شىء شخصه . وأراد بالقذال أعلاه ، وهو أيضا جماع مؤخر الرأس من الإنسان . والمعزاء : أرض صلبة ذات حصى . (راجع شرح الشواهد للشنتمرى) .

Marfat.com

ولا جلوسه حتى تطلع الشمس ، و إن غدا بعـد الطلوع فليكبّر فى طريقه إلى المُصلّى وإذا جلس حتى يخرج الإمام. والفطر والأضحى فى ذلك سواء عند مالك، و به قال الشافعى. وقال أبو حنيفة : يُكبّر فى الأضحى ولا يُكبّر فى الفطر؛ والدليل عليه قوله تعالى : « وَلِتُكَبِّرُوا اللّهَ » ولأن هذا يوم عيـد لا يتكرّر فى العـام فسُنّ التكبير فى الخروج إليه كالأضحى . وروى الدّارَقُطْنِيّ عن أبى عبد الرحمن السُّلَمِيّ قال : كانوا فى التكبير فى الفطر أشدّ منهم فى الأضحى ورُوِيَ عن ٱبن عمر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكبّر يوم الفطر من حين يخرج من بيته حتى يأتى المُصلَّى . وروى عن ٱبن عمر: أنه كان إذا غدا يوم الأضحى و يوم الفطر يجهر بالتكبير حتى يأتى المصلّى ثم يكبّر حتى يأتى الإمام . وأكثر أهل العلم على التكبير فى عيد الفطر من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم وغيرهم فيما ذكر ٱبن المنذر قال : وحكى ذلك الأوزاعى عن إلياس . وكان الشافعيّ يقول إذا رأى هلال شـوّال : أحببت أن يكبّر النـاس جماعةً وفرادى، ولا يزالون يكبّرون و يُظهرون التكبير حتى يغدوا إلى المصلّى وحين يخرج الإمام إلى الصلاة، وكذلك أحبّ ليلة الأضحى لمن لم يحج . وسيأتى حكم صـلاة العيدَيْن والتكبير فيهما فى « سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى » و « الكوثر » (١) إن شاء الله تعالى .

الموَفِّيـــة عشرين — ولفظ التكبير عند مالك و جماعة من العلماء : الله أكبر الله أكبر الله أكبر، ثلاثًا؛ وروى عن جابر بن عبد الله . ومن العلماء من يكبّر ويُهلّل ويُسَبّح أثناء التكبير. ومنهم من يقول : الله أكبر كبيرا، والحمد لله كثيرا، وسبحان الله بُكرةً وأصيلا . وكان ٱبن المبارك يقول إذا خرج من يوم الفطر : الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر ولله الحمد، الله أكبر على ما هدانا . قال ٱبن المنذر : وكان مالك لا يَحُدّ فيه حدّا . وقال أحمد : هو واسع . قال ٱبن العربى : «وٱختار علماؤنا التكبير المطلق، وهو ظاهر القرآن و إليه أميل» .

الحادية والعشرون — قوله تعـالى : ﴿ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ﴾ قيل : لمـا ضلّ فيه النصارى من تبـديل صيامهم (٢) . وقيل : بدلًا عمّـا كانت الجاهلية تفعله من التفاخر بالآباء والتظاهر

(١) راجع جـ ٢٠ ص ٢٢ وص ٢١٨ (٢) فى بعض الأصول : « كتابهم » .

Marfat.com

بالأحساب وتعديد المناقب . وقيل : لتعظموه على ما أرشدكم إليه من الشرائع؛ فهو عام . وتقدّم معنى « ولعلكم تشكرون[١] » .

قوله تعالى : وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ ﴾ المعنى وإذا سألوك عن المعبود فأخبرهم أنه قريب يثيب على الطاعة ويجيب الداعى، ويعلم ما يفعله العبد من صوم وصلاة وغير ذلك . وآختلف فى سبب نزولها ؛ فقال مقاتل : إن عمر رضى الله عنه واقع آمرأته بعدما صلّى العشاء فندم على ذلك وبكى ، وجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك ورجع مغتمًّا ؛ وكان ذلك قبل نزول الرخصة ، فنزلت هذه الآية : « وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ » . وقيل : لما وجب عليهم فى الابتداء ترك الأكل بعد النوم فأكل بعضهم ثم ندم ، فنزلت هذه الآية فى قبول التوبة ونسخ ذلك الحكم ، على ما يأتى بيانه[٢] . وروى الكلبى عن أبى صالح عن آبن عباس قال : قالت اليهود كيف يسمع ربّنا دعاءنا ، وأنت تزعم أن بيننا وبين السماء خمسمائة عام ، وغلظ كل سماء مثل ذلك ؟ فنزلت هذه الآية . وقال الحسن : سببها أن قومًا قالوا للنبىّ صلى الله عليه وسلم : أقريب ربّنا فنناجيه ، أم بعيد فنناديه ؟ فنزلت . وقال عطاء وقتادة : لما نزلت : « وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ[٣] » قال قوم : فى أىّ ساعة ندعوه ؟ فنزلت .

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿ فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ أى بالإجابة . وقيل بالعلم . وقيل : قريب من أوليائى بالإفضال والإنعام .

الثالثـــة ــ قوله تعالى : ﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ أى أقبل عبادة من عبدنى ؛ فالدعاء بمعنى العبادة ، والإجابة بمعنى القبول . دليله ما رواه أبو داود عن النعمان بن بَشِير عن

(١) راجع جـ ١ ص ٢٢٧ ، ٣٩٧ طبعة ثانية . (٢) راجع ص ٣١٤ من هذا الجزء .
(٣) راجع جـ ١٥ ص ٣٢٦

Marfat.com

النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " الدعاء هو العبادة قال ربكم ٱدعونى أستجب لكم " فسمّى الدعاء عبادة، ومنه قوله تعالى : «إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ»(١) أى دعائى . فأمر تعالى بالدعاء وحض عليه وسمّاه عبادة، ووعد بأن يستجيب لهم . روى لَيث عن شَهر بن حَوْشَب عن عُبادة بن الصّامت قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " أُعْطِيَت أمتى ثلاثًا لم تُعط إلا الأنبياءَ كان الله إذا بعث نبيًّا قال ٱدعنى أستجب لك وقال لهذه الأمة ٱدعونى أستجب لكم وكان الله إذا بعث النبيّ قال له ما جعل عليك فى الدّين من حَرج وقال لهذه الأمة ما جعل عليكم فى الدّين من حرج وكان الله إذا بعث النبيّ جعله شهيدًا على قومه وجعل هذه الأمة شُهداءَ على الناس" . وكان خالد الرَّبَعِيّ يقول : عجبت لهذه الأمة فى «ٱدْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ» أمرهم بالدعاء ووعدهم بالإجابة، وليس بينهما شَرْط . قال له قائل مثل ماذا ؟ قال مثل قوله : «وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ»(٢) فها هنا شَرْط ، وقوله : «وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ»(٣) فليس فيه شَرْط العمل، ومثل قوله : «فَٱدْعُوا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ»(٤) فها هنا شَرط، وقوله : «ٱدْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ» ليس فيه شرط . وكانت الأمم تفزع إلى أنبيائها فى حوائجهم حتى تسأل الأنبياءُ لهم ذلك .

فإن قيل : فما للدّاعى قد يدعو فلا يُجاب ؟ فالجواب أن يُعلم أن قوله الحق فى الآيتين «أجيب» «أستجب» لا يقتضى الاستجابة مطلقًا لكل داعٍ على التفصيل، ولا بكلّ مطلوب على التفصيل، فقد قال ربُّنا تبارك وتعالى فى آية أخرى : «ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ»(٥) وكلّ مُصِرّ على كبيرة عالمًا بها أو جاهلًا فهو مُعْتدٍ، وقد أخبر أنه لا يحب المعتدين فكيف يستجيب له . وأنواع الاعتداء كثيرة، يأتى بيانها هنا وفى «الأعراف» إن شاء الله تعالى . وقال بعض العلماء : أجيب إن شئتُ، كما قال : «فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ»(٦) فيكون هذا من باب المطلق والمقيّد . وقد دعا النبيّ صلى الله عليه وسلم فى ثلاث فأُعطى ٱثنتين ومُنع واحدة، على ما يأتى بيانه فى «الأنعام» إن شاء الله تعالى . وقيل : إنما مقصود هذا الإخبار

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣٢٦ (٢) راجع جـ ١ ص ٢٣٨ (٣) راجع جـ ٨ ص ٣٠٦
(٤) راجع جـ ١٥ ص ٢٩٩ (٥) راجع جـ ٧ ص ٢٢٣ (٦) راجع جـ ٦ ص ٤٢٣

Marfat.com

تعريف جميع المؤمنين أن هذا وصف ربهم سبحانه أنه يجيب دعاء الداعين فى الجملة ، وأنه قريب من العبد يسمع دعاءه ويعلم آضطراره فيجيبه بما شاء وكيف شاء « وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ »(١) الآية . وقد يجيب السيّد عبده والوالدُ ولده ثم لا يعطيه سُؤْله . فالإجابة كانت حاصلة لا محالة عند وجود الدعوة ؛ لأن أجيب وأستجيب خبر لا يُنسخ فيصير المخبر كذابا . يدلّ على هذا التأويل ما روى آبن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " من فُتح له فى الدعاء فُتحت له أبواب الإجابة " . وأوحى الله تعالى إلى داود : أنْ قل للظلمة من عبادى لا يدعونى فإنى أوجبت على نفسى أن أجيب من دعانى و إنى إذا أجبت الظلمة لعنتهم . وقال قوم : إن الله يجيب كلّ الدعاء، فإمّا أن تظهر الإجابة فى الدنيا، و إمّا أن يكفّر عنه ، و إمّا أن يدّخر له فى الآخرة؛ لما رواه أبو سعيد الخُدْرِيّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رَحِم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث إمّا أن يُعجّل له دعوته و إمّا أن يدّخر له و إمّا أن يكفّ عنه من السوء مثلها " . قالوا : إذن نُكثر؟ قال : " الله أكثر " . خرّجه أبو عمر بن عبد البر، وصححه أبو محمد عبد الحق ، وهو فى الموطّأ منقطع السّند . قال أبو عمر : وهذا الحديث يخرج فى التفسير المسند لقول الله تعالى «آدْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ » فهذا كله من الإجابة . وقال آبن عباس : كل عبد دعا أستجيب له ، فإن كان الذى يدعو به رزقا له فى الدنيا أعطيَه ، و إن لم يكن رزقا له فى الدنيا ذُخِر له .

قلت : وحديث أبى سعيد الخُدْرِيّ و إن كان إذنًا بالإجابة فى إحدى ثلاث فقد دلّك على صحة ما تقدّم من آجتناب الاعتداء المانع من الإجابة حيث قال فيه : " ما لم يَدْعُ بإثم أو قطيعة رَحِم " وزاد مسلم : " ما لم يَستعجل " . رواه عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا يزال يُستجاب للعبد ما لم يَدْعُ بإثم أو قطيعة رَحِم ما لم يَستعجل — قيل : يا رسول الله ، ما الاستعجال ؟ قال — يقول قد دَعوتُ وقد دَعوتُ فلم أر يستجيب لى فيستحسر(٢) عند ذلك و يَدَعُ الدعاء " . وروى البخاريّ ومسلم وأبو داود عن أبى هريرة أن رسول

(١) راجع جـ ١٦ ص ١٨٣ (٢) يستحسر : ينقطع عن الدعاء، و يمله .

الله صلى الله عليه وسلم قال: "يُستجاب لأحدكم ما لم يَعْجَل يقول دَعوتُ فلم يُستجب لى".
قال علماؤنا رحمة الله عليهم : يحتمل قوله "يُستجاب لأحدكم" الإخبار عن [وجوب](١) وقوع الإجابة، والإخبار عن جواز وقوعها ؛ فإذا كان بمعنى الإخبار عن الوجوب والوقوع فإن الإجابة تكون بمعنى الثلاثة الأشياء المتقدّمة . فإذا قال : قد دعوت فلم يُستجب لى، بطل وقوع أحد هذه الثلاثة الأشـياء وعَرِىَ الدعاء من جميعها . وإن كان بمعنى جواز الإجابة فإن الإجابة حينئذ تكون بفعل ما دعا به خاصّةً، ويمنع من ذلك قول الداعى : قد دعوتُ فلم يُستجب لى ؛ لأن ذلك من باب القنوط وضعف اليقين والسّخط .

قلت : ويمنع من إجابة الدعاء أيضا أكل الحرام وما كان فى معناه ؛ قال صلى الله عليه وسلم : "الرجل يُطيل السّفرَ أشْعَثَ أغْبَرَ يمـدّ يديه إلى السماء يا رَبّ يا رَبّ ومَطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغُذِىَ بالحرام فأنَّى يُستجاب لذلك" وهـذا آستفهام على جهة الآستبعاد من قبول دعاء مَن هذه صفته ، فإن إجابة الدعاء لا بدّ لهـا من شروط فى الداعى وفى الدعاء وفى الشىء المدعو به . فمن شَرْط الداعى أن يكون عالمـا بأن لا قادر على حاجته إلا الله، وأن الوسائط فى قبضته ومسخّرة بتسخيره ، وأن يدعو بنيّة صادقة وحضور قلب ، فإن الله لا يستجيب دعاء من قلبِ غافلٍ لاهٍ، وأن يكون مجتنباً لأكل الحرام، وألا يملّ من الدعاء . ومن شَرط المدعو فيه أن يكون من الأمور الجائزة الطلب والفعل شرعًا ؛ كما قال: "ما لم يَدْعُ بإثم أو قطيعـة رَحِم" فيدخل فى الإثم كل ما يأثم به من الذنوب ، ويدخل فى الرّحم جميع حقوق المسلمين ومظالمهم . وقال سهل بن عبد الله التُّسْتَرِىّ : شروط الدعاء سبعة : أولهـا التضرّع والخوف والرجاء والمداومة والخشوع والعموم وأكل الحلال . وقال آبن عطاء : إن للدعاء أركانا وأجنحة وأسباباً وأوقاتا ؛ فإن وافق أركانه قَوِىَ ، وإن وافق أجنحته طار فى السماء، وإن وافق مواقيته فاز ، وإن وافق أسبابه أنجح . فأركانه حضور القلب والرأفة والآستكانة والخشوع ، وأجنحته الصـدق ، ومواقيته الأسحار ، وأسـبابه الصلاة على محمد صلى الله عليه

(١) زيادة من الموطأ يقتضيها السياق .

Marfat.com

وسلم . وقيل : شرائطه أربع — أولها حفظ القلب عند الوحدة، وحفظ اللسان مع الخلق، وحفظ العين عن النظر إلى ما لا يحلّ ، وحفظ البطن من الحرام . وقد قيل : إنّ مِن شَرْط الدعاء أن يكون سليمًا من اللحن ؛ كما أنشد بعضهم :

ينـادى ربّه باللحن لَيْثٌ * كذاك إذا دعاه لا يجيب

وقيل لإبراهيم بن أدهم : ما بالنا ندعو فلا يُستجاب لنـا ؟ قال : لأنكم عرفتم الله فلم تطيعوه، وعرفتم الرســول فلم تتّبعوا سُـنّته ، وعرفتم القرآن فلم تعملوا به ، وأكلتم نِعم الله فلم تؤدّوا شكرها ، وعرفتم الجنة فلم تطلبوها ، وعرفتم النار فلم تهربوا منها ، وعرفتم الشيطان فلم تحاربوه ووافقتموه ، وعرفتم الموت فلم تستعدّوا له ،ودفنتم الأموات فلم تعتبروا ، وتركتم عيوبكم وآشتغلتم بعيوب الناس . قال علىّ رضى الله عنه لنَوْف البِكَالىّ : يا نَوْف ، إن الله أوحى إلى داود أن مُرْ بنى إسرائيل ألّا يدخلوا بيتًا من بيوتى إلا بقلوب طاهرة ، وأبصار خاشعة ، وأيد نقيّة؛ فإنى لا أستجيب لأحد منهـم ، ما دام لأحد من خلق مظلمة . يا نوف ، لا تكونن شاعرًا ولا عَرِيفًا ولا شرطيًا ولا جابيًا ولا عَشّارًا(1) ، فإن داود قام فى ساعة من الليل فقال : إنها ساعة لا يدعو عبـد إلّا آستجيب له فيها ، إلا أن يكون عَرِيفًا أو شرطيًا أو جابيًا أو عَشّارًا ، أو صاحب عَرْطَبَة ، وهى الطُّنبور ، أو صاحب كُوبة ، وهى الطبل . قال علماؤنا : ولا يَقُل الداعى : اللّهُمّ أعطنى إن شئتَ ، اللّهُمّ آغفر لى إن شئتَ ، اللّهُمّ آرحمنى إن شئتَ ؛ بل يُعرى سؤاله ودعاءه من لفظ المشيئة ، ويسأل سؤال من يعلم أنه لا يفعل إلا أن يشاء . وأيضا فإن فى قوله : « إن شئت » نوع من الآستغناء عن مغفرته وعطائه ورحمته ؛ كقول القائل : إن شئت أن تعطينى كذا فآفعل ؛ لا يستعمل هذا إلا مع الغنىّ عنه ، وأما المضطر إليه فإنه يعزم فى مسألته ويسأل سؤال فقير مضطر إلى ما سأله . روى الأئمة واللفظ للبخارىّ عن أنس بن مالك قال قال رســول الله صلى الله عليه وســلم : " إذا دعا أحدكم فليعزِم المسألة ولا يقولنّ

(1) العريف : الذى يلى أمور طائفة من الناس ويتعرّف أمورهم ويبلّغها للأمير . والشرطى (كتركى وجهنى) : م أعوان الحاكم . والعشار : من يتولى أخذ أعشار الأموال .

Marfat.com

اللّهمّ إن شئتَ فأعطني فإنه لا مُسْتَكْرِه له ". وفي الموطّأ : " اللّهمّ آغفر لي إن شئتَ، اللّهمّ آرحمني إن شئت". قال علماؤنا : قوله "فليعزِم المسألة" دليل على أنه ينبغي للمؤمن أن يجتهد في الدعاء ويكون على رجاء من الإجابة، ولا يقنط من رحمة الله؛ لأنه يدعو كريمًا. قال سفيان ابن عُيَيْنَة : لا يمنعنّ أحدا من الدعاء ما يعلمه من نفسه فإن الله قـد أجاب دعاء شرّ الخلق إبليس؛ قال : رَبِّ فأنظِرني إلى يوم يُبعثون؛ قال فإنك من المنظرين . وللدّعاء أوقات وأحوال يكون الغالب فيها الإجابة، وذلك كالسَّحَر ووقت الفطر، وما بين الأذان والإقامة، وما بين الظهر والعصر في يوم الأربعاء، وأوقات الاضطرار وحالة السفر والمرض، وعند نزول المطر والصَّف في سبيل الله . كل هذا جاءت به الآثار، ويأتي بيانها في مواضعها . وروى شَهْر بن حَوْشَب أن أمّ الدّرداء قالت له : يا شَهْر، ألا تجد القشعريرة ؟ قلت نعم . قالت : فآدع الله فإن الدعاء مستجاب عند ذلك . وقال جابر بن عبد الله : دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسجد الفتح ثلاثًا يوم الاثنين ويوم الثلاثاء فآستجيب له يوم الأربعاء بين الصلاتين . فعرفتُ السرور في وجهه . قال جابر : ما نزل بي أمرٌ مُهِـمّ غليظ إلا تَوَخّيتُ تلك الساعة فأدعو فيها فأعرف الإجابة .

الرابعـــة ــ قوله تعالى : ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي ﴾ قال أبو رجاء الخراسانيّ : فليَدْعُوا لي . وقال آبن عطية : المعنى فليطلبوا أن أجيبهم . وهذا هو باب « آستفعل » أي طلب الشيء إلا ما شذّ؛ مثـل آستغنى الله . وقال مجاهد وغيره : المعنى فليجيبوا إليّ فيما دعوتهم إليه من الإيمان؛ أي الطاعة والعمل . ويقال : أجاب وآستجاب بمعنًى؛ ومنه قول الشاعر :

* فلم يستجبه عند ذاك مجيب *

أي لم يجبـه . والسين زائدة واللام لام الأمر . وكذا « وَلْيُؤْمِنُوا » وجزمت لام الأمر لأنها تجعل الفعل مستقبلًا لا غير، فأشبهت إنْ التي للشرط . وقيل : لأنها لا تقع إلا على الفعل. والرشاد خلاف الغيّ . وقد رَشَـد يَرْشُد رُشْدًا . ورَشِد (بالكسر) يَرْشَد رَشَدًا، لغة فيـه . وأرشده الله . والمَراشِـد : مقاصد الطرق . والطريق الأرشَد : نحو الأقصد . وتقول :

Marfat.com

هو لِرِشْدة[1]. خلاف قولك : لِزِنْيَة . وأُمّ راشد : كُنية للفارة . وبنو رَشْدان : بطن من العرب؛ عن الجوهرى . وقال الهَرَوى : الرُّشْد والرَّشَد والرشاد : الهدى والاستقامة؛ ومنه قوله : « لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ » .

قوله تعالى : أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٔـٰنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾

فيه ست وثلاثون مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ ﴾ لفظ « أُحِلَّ » يقتضى أنه كان محرّماً قبل ذلك ثم نُسخ . روى أبو داود عن ابن أبى لَيْلَى قال وحدّثنا أصحابنا قال : وكان الرجل إذا أفطر فنام قبل أن يأكل لم يأكل حتى يصبح[2]، قال : فجاء عمر فأراد امرأته فقالت : إنى قد نمت؛ فظن أنها تعتلّ فأتاها . فجاء رجل من الأنصار فأراد طعامًا فقالوا : حتى نسخن لك شيئًا فنام؛ فلما أصبحوا أُنزلت هذه الآية، وفيها « أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ » . وروى البخارى عن البراء قال : كان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم إذا كان الرجل صائمًا فحضر الإفطار فنام قبل أن يُفطر لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يُمسى ، وأن قيس ابن صِرْمة الأنصارى كان صائمًا — وفى رواية : كان يعمل فى النخيل بالنهار وكان صائمًا — فلما حضر الإفطار أتى امرأته فقال لها : أعندك طعام ؟ قالت لا، ولكن أنطلقُ فأطلب لك؛ وكان يومه يعمل، فغلبته عيناه، فجاءته امرأته فلما رأته قالت : خَيْبةً لك ! فلما

(١) بكسر الراء، وقد تفتح؛ ومعناه : إذا كان لنكاح صحيح .
(٢) الذى فى مسند أبى داود : « إذا صام فنام ... » .

Marfat.com

انتصف النهار غُشِيَ عليه؛ فذُكر ذلك للنبيّ صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية « أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ » ففرحوا فرحا شديدا، ونزلت: « وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ » . وفى البخارى أيضا عن البَرَاء قال : لمـا نزل صـوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كلّه، وكان رجال يخونون أنفسهم؛ فأنزل الله تعالى : « عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ » . يقال : خان واختان بمعنًى من الخيانة، أى تخونون أنفسكم بالمباشرة فى ليالى الصوم . ومن عصى الله فقد خان نفسه إذ جلب إليها العقاب . وقال القُتَبِيّ: أصل الخيانة أن يؤتمن الرجل على شيء فلا يؤدّى الأمانة فيه . وذكر الطبرى : أن عمر رضى الله تعالى عنه رجع من عند النبيّ صلى الله عليه وسلم وقد سَمَر عنده ليلةً فوجد امرأته قد نامت فأرادها فقالت له : قد نمت؛ فقال لها : ما نمتِ، فوقع بها . وصنع كعب بن مالك مثله؛ فغدا عمر على النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : أعتذر إلى الله وإليك؛ فإن نفسى زيّنت لى فواقعت أهلى، فهل تجد لى من رخصة؟ فقال لى : "لم تكن حقيقًا بذلك يا عمر" فلما بلغ بيتـه أرسل إليه فأنبأه بعذره فى آية من القرآن . وذكره النحاس ومكيّ، وأن عمـر نام ثم وقع بامرأته، وأنه أتى النبيّ صـلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك فنزلت : « عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ » الآية .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ ﴾ « ليلةَ » نصب على الظرف، وهى اسم جنس فلذلك أُفردت . والرَّفَث : كناية عن الجماع لأن الله عز وجل كريم يَكْنِى؛ قاله ابن عباس والسُّدّى . وقال الزجاج : الرَّفث كلمة جامعة لكل ما يريد الرجل من امرأته؛ وقاله الأزهرى أيضا . وقال ابن عرفة : الرَّفث ها هنا الجماع . والرفث : التصريح بذكر الجماع والإعراب به . قال الشاعر :

وَيُرَيْنَ من أُنْس الحديث زوانيا * وبهنّ عن رَفَث الرجال نِفارُ

وقيل: الرفث أصله قول الفُحش؛ يقال: رَفَث وأرفث إذا تكلّم بالقبيح؛ ومنه قول الشاعر:

ورُبَّ أسرابِ حَجيجٍ كُظَّمِ * عن اللَّغا ورَفَثِ التَّكلُّمِ

وتعدّى « الرّفث » بإلى فى قوله تعالى جدّه : « الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ » . وأنت لا تقول : رفثت إلى النساء ، ولكنه جيء به محمولًا على الإفضاء الذى يراد به الملابسة فى مثل قوله : « وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ » (١) . ومن هذا المعنى : « وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ » (٢) كما تقدّم . وقوله : « يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا » (٣) أى يوقد ، لأنك تقول : أحميت الحديدةَ فى النار ، وسيأتى ، ومنه قوله : « فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ » (٤) حُمل على معنى يَنحرفون عن أمره أو يروغون عن أمره ، لأنك تقول : خالفت زيدًا . ومثله قوله تعالى : « وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا » (٥) حُمل على معنى رءوف فى نحو « بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » (٦) ؛ ألا ترى أنك تقول : رؤفت به ، ولا تقول رحمت به ، ولكنه لما وافقه فى المعنى نزل منزلته فى التعدية . ومن هذا الضرب قول أبى كَبِير الهُذَلِىّ :

حَمَلَتْ به فى ليلة مَزْءُودة (٧) * كَرْهًا وعَقد نِطاقها لم يُحلَل

عدّى « حَمَلتْ » بالباء ، وحقّه أن يصل إلى المفعول بنفسه ؛ كما جاء فى التنزيل : « حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا » (٨) ولكنه قال : حملت به ؛ لأنه فى معنى حَبِلت به .

الثالثـة — قوله تعالى : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ ﴾ ابتداء وخبر ، وشُدّدت النون من « هنّ » لأنها بمنزلة الميم والواو فى المذكر . ﴿ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾ أصـل اللباس فى الثياب ، ثم سُمّى امتزاج كل واحد من الزوجين بصاحبه لباسًا ؛ لانضمام الجسد وامتزاجهما وتلازمهما تشبيهًا بالثوب . وقال النابغة الجَعْدِىّ :

إذا ما الضَّجيعُ ثَنَى جِيدَها * تداعتْ فكانت عليـه لِباسَا

وقال أيضا :

لَبِستُ أناسًا فأفنيتُهـم * وأفنيتُ بعد أُناس أناسَا

وقال بعضهم : يقال لما ستر الشيء وداراه : لباس . فجائز أن يكون كل واحد منهما سترًا لصاحبه عما لا يحلّ ، كما ورد فى الخبر . وقيل : لأن كل واحد منهما سترٌ لصاحبه فيما يكون بينهما من الجماع من أبصار الناس . وقال أبو عبيد وغيره : يقال للمرأة هى لباسك وفراشك وإزارك . قال رجل لعمر بن الخطاب :

---

(١) راجع جـ ٥ ص ١٠٢ (٢) جـ ١ ص ٢٠٦ (٣) جـ ٨ ص ١٢٩ (٤) جـ ١٢ ص ٣٢٢
(٥) جـ ١٤ ص ١٩٨ (٦) جـ ٨ ص ٣٠٢ (٧) مزءودة : فزعة . (٨) جـ ١٦ ص ١٩٣

Marfat.com

ألَا أبْلِــغْ أبا حَفصٍ رسـولًا * فدًى لك من أخى ثِقَةٍ إزارى

قال أبو عبيــد : أى نسائى . وقيل نفسى . وقال الربيع : هن فراش لـكم ، وأنتم لحاف لهن . مجاهد : أى سكن لكم ؛ أى يسكن بعضكم إلى بعض .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ ﴾ يستأمر بعضكم بعضًا فى مواقعة المحظور من الجماع والأكل بعد النوم فى ليالى الصوم ؛ كقوله تعالى : « تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ » يعنى يقتل بعضكم بعضًا . ويحتمل أن يريد به كل واحد منهم فى نفسه بأنه يخونها ؛ وسمّاه خائنًا لنفسه من حيث كان ضرره عائدًا عليه ، كما تقدّم . وقوله : ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ يحتمل معنيين : أحدهما — قبول التوبة من خيانتهم لأنفسهم . والآخر — التخفيف عنهم بالرخصة والإباحة ؛ كقوله تعالى : « عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ »[(١)] يعنى خفّف عنكم . وقوله عقيب القتل الخطأ : « فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ »[(٢)] يعنى تخفيفًا ؛ لأن القاتل خطأ لم يفعل شيئًا تلزمه التوبة منه ، وقال تعالى : « لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ »[(٣)] وإن لم يكن من النبىّ صلى الله عليه وسلم ما يوجب التوبة منه . وقوله : ﴿ فَعَفَا عَنكُمْ ﴾ يحتمل العفو من الذنب ، ويحتمل التّوسعة والتسهيل ؛ كقول النبىّ صلى الله عليه وسلم : "أوّل الوقت رضوان الله وآخره عَفْوُ الله" يعنى تسهيله وتوسعته . فمعنى « عَلِمَ اللَّهُ » أى علم وقوع هذا منكم مشاهدة « فَتَابَ عَلَيْكُمْ » بعد ما وقع ، أى خفّف عنكم « وَعَفَا » أى سهل . و « تَخْتَانُونَ » من الخيانة ، كما تقدّم . قال ابن العربى : « وقال علماء الزهد : وكذا فاتكل العناية وشرف المنزلة ، خان نفسه عمر رضى الله عنه فجعلها الله تعالى شريعة ، وخفّف من أجله عن الأمة فرضى الله عنه وأرضاه » .

قوله تعالى : ﴿ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ ﴾ كناية عن الجماع ؛ أى قد أحلّ لكم ما حرم عليكم . وسمّى الوقاع مباشرة لتلاصق البشرتين فيـه . قال ابن العربى : « وهذا يدلّ على أن سبب الآية جماع عمر رضى الله عنه لا جوع قيس ؛ لأنه لو كان السبب جوع قيس لقال : فالآن كلوا ؛ ابتدأ به لأنه المهم الذى نزلت الآية لأجله .

(١) راجع ج ١٩ ص ٥١ (٢) راجع ج ٥ ص ٣٢٧ (٣) راجع ج ٨ ص ٢٧٧

Marfat.com

الخامســة — قوله تعالى ﴿وَٱبْتَغُوا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ قال ٱبن عباس ومجاهد والحكم ٱبن عُيَينة وعكرمة والحسن والسُّدّى والربيع والضحاك : معناه وٱبتغوا الولد ؛ يدلّ عليه أنه عقيب قوله : « فَٱلْآنَ بَاشِرُوهُنَّ » . وقال ٱبن عباس : ما كتب الله لنا هو القرآن . الزجاج : أى ٱبتغوا القرآن بما أبيح لكم فيه وأمرتم به . وروى عن ٱبن عباس ومعاذ بن جبل أن المعنى وٱبتغوا ليلة القدر . وقيل : المعنى ٱطلبوا الرخصة والتوسعة ؛ قاله قتادة . قال ٱبن عطية : وهو قول حسن . وقيل : « ٱبْتَغُوا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ » من الإماء والزّوجات . وقرأ الحسن البصرى والحسن بن قرة « وٱتبعوا » من الاتبـاع ، وجوّزها ٱبن عباس ، ورجّح « ٱبتغوا » من الابتغـاء .

السادســة — قوله تعـالى : ﴿وَكُلُوا وَٱشْرَبُوا﴾ هذا جواب نازلة قَيْس ، والأوّل جواب عمر ، وقد ٱبتدأ بنازلة عمر لأنه المهمّ فهو المقدّم .

السابعــة — قوله تعـالى : ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ « حتّى » غاية للتبيين ، ولا يصح أن يقع التبيين لأحد ويحرم عليه الأكل إلا وقد مضى لطلوع الفجر قدر . وٱختُلف فى الحدّ الذى بتبيّنه يجب الإمسـاك ؛ فقال الجمهور : ذلك الفجر المعترض فى الأفق يَمْنَة ويَسْرة ؛ وبهذا جاءت الأخبار ومضت عليه الأمصار . روى مسلم عن سَمُرة بن جُنْدُب رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : " لا يغرنّكم من سحوركم أذان بلال ولا بياض الأفق المستطيل هكذا حتى يستطير[(١)] هكذا " . وحكاه حمّاد[(٢)] بيديه قال[(٣)] : يعنى معترضًا . وفى حديث ٱبن مسعود : " إن الفجر ليس الذى يقول هكذا — وجمع أصابعه ثم نكسها إلى الأرض — ولكن الذى يقول هكذا — ووضع المُسَبِّحة على المُسَبِّحة ومدّ يديه " . وروى الدّارَقُطْنى عن عبد الرحمن بن عباس أنه بلغه أن رسول الله

(١) يستطير : أى ينتشر ضوءه و يعترض فى الأفق بخلاف المستطيل ، والاستطارة هـذه تكون بعد غيوبة ذلك المستطيل . (٢) حماد هذا هو حماد بن زيد أحد رجال سند هـذا الحديث . (٣) قال ابن الأثير فى النهاية : « العرب تجعل القول عبارة عن جميع الأفعال وتطلقه على غير الكلام واللسان ، فتقول : قال بيده ، أى أخذ . وقال برجله ، أى مشى . وقال بثوبه ، أى رفعه ؛ وكل ذلك على المجاز والاتساع » فمعنى يقول هنا : يظهر .

Marfat.com

صلى الله عليه وسلم قال : " هما فجران فأما الذى كأنه ذَنَب السِّرحان(١) فإنه لا يُحِلّ شيئا ولا يحرّمه وأما المستطيل الذى عارض الأُفُق ففيه تَحِل الصلاة ويَحرم الطعام " هذا مرسَل .

وقالت طائفة : ذلك بعد طلوع الفجر وتبيّنه فى الطُّرق والبيوت ؛ روى ذلك عن(٢) عمر وحذيفة وآبن عباس وطَلْق بن علىّ وعطاء بن أبى رَباح والأعمش سليمان وغيرهم أن الإمساك يجب بتبيين الفجر فى الطُّرق وعلى رءوس الجبال . وقال مسروق : لم يكن يعدّون الفجر فجركم إنما كانوا يعدّون الفجر الذى يملأ البيوت . وروى النسائى عن عاصم عن زِرّ قال قلنا لحذيفة : أى ساعة تسحّرت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : هو النهار إلا أنّ الشمس لم تطلع . وروى الدّارَقُطْنِىّ عن طَلْق بن علىّ أن نبىّ الله قال : " كلوا وآشربوا ولا يَغُرّنكم الساطع المصعد وكلوا وآشربوا حتى يعرض لكم الأحمر " . قال الدّارقطنىّ : [قيس بن طلق(٣)] ليس بالقوىّ . وقال أبو داود : هذا مما تفرّد به أهل اليمامة . قال الطبرى : والذى قادهم إلى هذا أن الصوم إنما هو فى النهار، والنهار عندهم من طلوع الشمس ، وآخره غروبها؛ وقد مضى(٤) الخلاف فى هذا بين اللغويين . وتفسير رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله : " إنما هو سواد الليل و بياض النهار " الفَيْصل فى ذلك ، وقوله « أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ » .

وروى الدّارَقُطْنِىّ عن عائشة رضى الله عنها عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " من لم يبيت الصيام قبل طلوع الفجر فلا صيام له " . تفرّد به عبد الله بن عباد عن المفضّل بن فضالة بهذا الإسناد، وكلهم ثقات . وروى عن حفصة أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " من لم يجمع الصيام قبل الفجر فلا صيام له " . رفعه عبد الله بن أبى بكر وهو من الثقات الرفعاء، وروى عن حفصة مرفوعا من قولها . ففى هذين الحديثين دليل على ماقاله الجمهور فى الفجر، ومنع من الصيام دون نيّة قبل الفجر، خلافًا لقول أبى حنيفة ، وهى :

الثامنـــة — وذلك أن الصيام من جملة العبادات فلا يصح إلا بنيّة ، وقد وقّتها الشارع قبل الفجر؛ فكيف يقال : إن الأكل والشرب بعد الفجر جائز . وروى البخارىّ ومسلم عن

(١) السرحان (بكسر فسكون) : الذئب ، وقيل : الأسد؛ وجمعه سراح وسراحين .
(٢) فى بعض النسخ : « عثمان » .　　(٣) التكملة عن سنن الدارقطنى يقتضيها السياق .
(٤) تراجع المسألة الثانية ص ١٩٢ من هذا الجزء .

Marfat.com

سهل بن سعد قال : نزلت «وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ» ولم ينزل « من الفجر » وكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم فى رجليه الخيط الأبيض والخيط الأسود، ولا يزال يأكل ويشرب حتى يتبيّن له رؤيتهما ؛ فأنزل الله بعدُ « مِنَ الْفَجْرِ » فعلموا أنه إنما يعنى بذلك بياض النهار . وعن عَدىّ بن حاتم قال قلت : يارسـول الله ، ما الخيط الأبيض من الخيط الأسود، أهما الخيطان؟ قال: "إنك لعريض القفا(١) إن أبصرت الخيطين — ثم قال — لا بل هو سواد الليل وبياض النهار" . أخرجه البخارىّ . وسُمّىَ الفجر خيطًا لأن مايبدو من البياض يُرى ممتدا كالخيط . قال الشاعر :

الخيطُ الأبيضُ ضَوءُ الصبحِ مُنْفَلِقٌ * والخيطُ الأسودُ جنحُ الليل مكتومُ

والخيط فى كلامهم عبارة عن اللون . والفجر مصدر فجرت الماء أفجره فجرًا إذا جرى وانبعث، وأصله الشّــق ؛ فلذلك قيل للطالع من تباشـير ضياء الشمس من مطلعها : فجـرا لانبعاث ضوئه ، وهو أوّل بيـاض النهار الظاهر المسـتطير فى الأفق المنتشر، تسمّيه العرب الخيط الأبيض، كما بيّنـا . قال أبو دُواد الإيادىّ :

فلمـا أضاءتْ لنـا سُــدْفةٌ(٢) * ولاح من الصّـبح خَيْطٌ أنارا

وقال آخــــر :

قــد كاد يبدو وبدت تباشره * وسَــدَف الليــل البَهيم ساتره

وقد تسمّيه أيضا الصّديع ؛ ومنـه قولهم : انصدع الفجر . قال بشر بن أبى خازم أو عمرو ابن معديكرب :

ترى السِّرحانَ مفترشًـا يديه * كأن بيـاضَ لَبَّتــهِ صَـديعُ

وشبهه الشّماخ بمفرق الرأس فقال :

إذا ما الليل كان الصبـح فيه * أشـق كمفرق الرأس الدّهين

---

(١) القفا العريض يستدل به على قلة فطنة الرجل . (٢) السدفة (بضم السين وفتحها وسكون الدال) : فى لغة نجد ظلمة الليل ، وفى لغة غيرهم الضوء ، وهو من الأضداد .

Marfat.com

و يقولون فى الأمر الواضح : هـذا كفَلَق الصـبح ، وكانبلاج الفجر ، وتباشير الصـبح . قال الشاعر :

فوردتْ قبل آنبلاج الفجرِ * وآبنُ ذكاءَ كامِنٌ فى كَفْرِ [(١)]

التاسـعة — قوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ جعل الله جلّ ذكره الليل ظَرْفًا للأكل والشرب والجماع، والنهارَ ظرفا للصيام؛ فبيّن أحكام الزمانين وغاير بينهما . فلا يجوز فى اليوم شىء مما أباحه بالليل إلا لمسافر أو مريض، كما تقدّم بيانه . فمن أفطر فى رمضان من غير مَن ذُكر فلا يخلو إمّا أن يكون عامدًا أو ناسيًا؛ فإن كان الأوّل فقال مالك : من أفطر فى رمضان عامدًا بأكل أو شرب أو جماع فعليه القضاء والكفارة؛ لما رواه مالك فى مُوَطَّئه، ومسلم فى صحيحه عن أبى هريرة أن رجلا أفطر فى رمضان فأمره رسـول الله صلى الله عليـه وسلم أن يكفّر بعتق رقبة أو صيام شهرين متتابعين أو إطعام ستين مسكينا، الحديث . وبهذا قال الشعبىّ . وقال الشافعى وغيره : إن هذه الكفارة إنما تختصّ بمن أفطر بالجماع؛ لحديث أبى هريرة أيضا قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : هلكتُ يا رسول الله ! قال : "وما أهلكك" قال : وقعتُ على آمرأتى فى رمضان، الحديث . وفيـه ذكر الكفارة على الترتيب؛ أخرجه مسلم . وحملوا هـذه القضية على القضية الأولى فقالوا : هى واحدة؛ وهذا غير مسلَّم به بل هما قضيّتان مختلفتان؛ لأن مساقهما مختلف، وقد علّق الكفارة على من أفطر مجرّدًا عن القيود فلزم مطلقًا . وبهـذا قال مالك وأصحابه والأوزاعىّ و إسحاق وأبو ثور والطبرى وآبن المنذر ، وروى ذلك عن عطاء فى رواية ، وعن الحسن والزهرىّ . ويلزم الشافعىّ القول به فإنه يقول : ترك الاستفصال مع تعارض الأحوال يدل على عموم الحكم . وأوجب الشافعىّ عليه مع القضاء العقوبةَ لآنتهاك حرمة الشهر .

العاشـرة — وآختلفوا أيضا فيما يجب على المرأة يطؤها زوجها فى شهر رمضان؛ فقال مالك وأبو يوسف وأصحاب الرأى : عليها مثـل ما على الزوج . وقال الشافعى : ليس عليها

(١) قائل هـذا البيت هو حميد الأرقط؛ كما فى الصحاح . وذكاء (بالضم) : اسم الشمس، ويقال للصبح : آبن ذكاء، لأنه من ضوئها . والكفر (بالفتح) : ظلمة الليل وسواده .

Marfat.com

إلا كفارة واحدة ، وسواء طاوعته أو أكرهها ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم أجاب السائل بكفارة واحدة ولم يفصّل. وروى عن أبى حنيفة : إن طاوعته فعلى كل واحد منهما كفارة، وإن أكرهها فعليه كفارة واحدة لا غير . وهو قول سُحنون بن سعيد المالكى. وقال مالك : عليه كفارتان، وهو تحصيل مذهبه عند جماعة أصحابه .

الحادية عشرة — وآختلفوا أيضا فيمن جامع ناسيًا لصومه أو أكل ؛ فقال الشافعيّ وأبو حنيفة وأصحابه وإسحاق : ليس عليه فى الوجهين شىء، لا قضاء ولا كفارة . وقال مالك والليث والأوزاعيّ : عليه القضاء ولا كفارة ؛ ورُوِىَ مثل ذلك عن عطاء . وقد روى عن عطاء أن عليه الكفارة إن جامع، وقال: مثل هذا لا يُنسى. وقال قوم من أهل الظاهر: سواء وَطِئ ناسيًا أو عامدًا فعليه القضاء والكفارة؛ وهو قول آبن الماجشون عبد الملك، وإليه ذهب أحمد بن حنبل؛ لأن الحديث الموجب للكفارة لم يفرّق فيه بين الناسى والعامد. قال آبن المنذر : لا شىء عليه .

الثانية عشرة — قال مالك والشافعى وأبو ثور وأصحاب الرأى : إذا أكل ناسيًا فظنّ أن ذلك قد فطّره بخامع عامدًا أن عليه القضاء ولا كفارة عليه . قال آبن المنذر: وبه نقول . وقيل فى المذهب : عليه القضاء والكفارة إن كان قاصدًا لهتك حُرمة صومه جُرْأةً وتهاوُنًا . قال أبو عمر : وقد كان يجب على أصل مالك ألّا يكفّر ، لأن من أكل ناسيًا فهو عنده مفطر يقضى يومه ذلك؛ فأىّ حرمة هتك وهو مفطر . وعند غير مالك : ليس بمفطر كلُّ من أكل ناسيًا لصومه .

قلت : وهو الصحيح، وبه قال الجمهور : إن مَن أكل أو شرب ناسيًا فلا قضاء عليه و إن صومه تام؛ لحديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا أكل الصائم ناسيًا أو شرب ناسيًا فإنما هو رزق ساقه الله تعالى [إليه] ولا قضاء عليه — فى رواية — وليتمّ صومه فإن الله أطعمه وسقاه". أخرجه الدّارَقُطْنِيّ . وقال : إسناد صحيح وكلهم ثقات . قال أبو بكر الأثرم : سمعت أبا عبد الله يُسئل عمن أكل ناسيًا فى رمضان ؛

Marfat.com

قال : ليس عليه شيء على حديث أبي هريرة . ثم قال أبو عبد الله مالك : وزعموا أن مالكًا يقول عليـه القضاء ! وضحك . وقال ٱبن المنـذر : لا شيء عليه ؛ لقول النبيّ صلى الله عليه وسلم لمن أكل أو شرب ناسياً : "يتمّ صومه" وإذا قال "يتمّ صومه" فأتمه فهو صومٌ تام كامل.

قلت : وإذا كان من أفطر ناسياً لا قضاء عليه وصومه صومٌ تامٌّ فعليه إذا جامع عامدًا القضاء والكفارة — والله أعلم — كمن لم يفطر ناسيًا . وقد ٱحتجّ علماؤنا على إيجاب القضاء بأن قالوا : المطلوب منه صيام يوم تام لا يقع فيه خَرم؛ لقوله تعالى : «ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ» وهـذا لم يأت به على التمام فهو باقٍ عليـه؛ ولعل الحديث في صوم التطوّع لخفّته . وقد جاء في صحيحي البخاريّ ومسلم : "مَن نَسِيَ وهو صائم فأكل أو شرب فليتمّ صومه" فلم يذكر قضاء ولا تعرّض له ، بل الذي تعرّض له سقوط المؤاخذة والأمر بمضيّه على صومه وإتمامه؛ هذا إن كان واجبًا فدلّ على ما ذكرناه من القضاء . وأمّا صوم التطوّع فلا قضاء فيـه لمن أكل ناسيًا؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : " لا قضاء عليه " .

قلت : هذا ما ٱحتج به علماؤنا وهو صحيح ، لولا ما صحّ عن الشارع ما ذكرناه ، وقد جاء بالنص الصريح الصحيح وهو ما رواه أبو هريرة عن النبيّ صلى الله عليـه وسلم قال : " من أفطر في شهر رمضان ناسـيًا فلا قضاء عليه ولا كفارة " أخرجه الدَّارَقُطْنِيّ وقال : تفرّد به ٱبن مرزوق وهو ثقة عن الأنصاري؛ فزال الاحتمال وٱرتفع الإشكال ، والحمد لله ذي الجلال والكمال .

الثـالثة عشرة — لمـا بيّن سبحانه محظورات الصيام وهي الأكل والشرب والجماع ، ولم يذكر المباشرة التي هي ٱتصال البَشَرة بالبَشرة كالقُبلة والجَسّة وغيرها ، دلّ ذلك على صحة صوم مَن قَبّل و باشر؛ لأن فحوى الكلام إنمـا يدلّ على تحريم ما أباحه الليل وهو الأشياء الثلاثة ، ولا دلالة فيه على غيرها بل هو موقوف على الدليل؛ ولذلك شاع الاختلاف فيـه ، وٱختلف علماء السلف فيه؛ فمن ذلك المباشرة . قال علماؤنا : يُكره لمن لا يأمن على نفسه ولا يملكها؛ لئلا يكون سببًا إلى ما يفسد الصوم . روى مالك عن نافع أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كان

Marfat.com

ينهى عن القُبلة والمباشرة للصائم ؛ وهذا — والله أعلم — خوف ما يحدث عنهما ، فإن قبّل وسلم فلا جناح عليـه ، وكذلك إن باشر . وروى البخارى عن عائشة قالت : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يُقبّل ويُباشر وهو صائم . وممن كرِه القُبلة للصائم عبـد الله بن مسعود وعُروة ابن الزبير . وقد رُوى عن ابن مسعود أنه يقضى يومًا مكانه ، والحـديث حجة عليهم . قال أبو عمر : ولا أعلم أحدًا رخّص فيها لمن يعلم أنه يتولّد عليـه منها ما يُفسد صومه ؛ فإن قبّل فأمْنَى فعليه القضاء ولا كفارة ؛ قاله أبو حنيفة وأصحابه والثورى والحسن والشافعى ، واختاره ابن المنذر وقال : ليس لمن أوجب عليه الكفارة حجة . قال أبو عمر : ولو قبّل فأمْذَى لم يكن عليه شىء عندهم . وقال أحمد : مَن قبّل فأمْذَى أو أمْنَى فعليه القضـاء ولا كفارة عليه ؛ إلا على من جامع فأوْلج عامدًا أو ناسيًا . وروى ابن القاسم عن مالك فيمن قبّل أو باشر فانعَظ ولم يخرج منه ماء جملةً عليه القضاء . وروى ابن وهب عنه لا قضاء عليه حتى يُمْذِى . قال القاضى أبو محمد : واتفق أصحابنا على أنه لا كفارة عليه . و إن كان مَنِيًّا فهل تلزمه الكفارة مع القضاء ؛ فلا يخلو أن يكون قبّل قُبلةً واحدةً فأنزل ، أو قبّل فالتذّ فعاود فأنزل ؛ فإن كان قبّل قُبلة واحدةً أو باشر أو لمس مرّةً فقال أشهب وسحنون : لا كفارة عليه حتى يكرر . وقال ابن القاسم : يكفّر فى ذلك كله ، إلا فى النظر فلا كفارة عليه حتى يكرر . وممن قال بوجوب الكفارة عليه إذا قبّل أو باشر أو لاعب امرأته أو جامع دون الفرج فأمْنَى : الحسن البصرى وعطاء وابن المبارك وأبو ثور و إسحاق ، وهو قول مالك فى المدوّنة . وحجة قول أشهب : أن اللّمس والقُبلة والمباشرة ليست تُفطر فى نفسها ، و إنما يبقى أن تؤول إلى الأمر الذى يقع به الفطر ، فإذا فعل مرةً واحدةً لم يقصد الإنزال و إفساد الصوم فلا كفارة عليه كالنظر إليها ، و إذا كرر ذلك فقد قصد إفساد صومه فعليه الكفارة كما لو تكرر النظر . قال اللّخمى : واتفق جميعهم فى الإنزال عن النّظر أن لا كفارة عليه إلا أن يتابع . والأصل أنه لا تجب الكفارة إلا على من قصد الفطر وانتهاك حُرمة الصوم ، فإذا كان ذلك وجب أن يُنظر إلى عادة من نزل به ذلك ، فإذا كان ذلك شأنه أن يُنزل عن قُبـلة أو مباشرة مرةً ، أو كانت عادته مختلفة : مرّةً يُنزل ،

ومرّة لا يُنزل، رأيت عليه الكفارة ؛ لأن فاعل ذلك قاصد لانتهاك صومه أو متعرض له . وإن كانت عادته السلامة فقُــدّر أن كان منه خلاف العادة لم يكن عليه كفارة، وقد يحتمل قول مالك فى وجوب الكفارة؛ لأن ذلك لا يجرى إلا ممن يكون ذلك طبعه واكتفى بمـا ظهر منه . وحمل أشهب الأمر على الغالب من الناس أنهم يسلمون من ذلك، وقولهم فى النظر دليل على ذلك .

قلت : ما حكاه من الاتفاق فى النّظر وجعله أصلاً ليس كذلك؛ فقد حكى البـاجى فى المنتقى « فإن نظر نظرةً واحدةً يقصد بها اللذة [فأنزل] (١) فقد قال الشيخ أبو الحسن : عليه القضاء والكفارة . قال الباجى : وهو الصحيح عندى؛ لأنه إذا قصد بهـا الاستمتاع كانت كالقُبلة وغير ذلك من أنواع الاستمتاع؛ والله أعلم » . وقال جابر بن زيد والثورىّ والشافعىّ وأبو ثور وأصحـاب الرأى فيمن ردّد النظر إلى المرأة حتى أمْنَى : فلا قضاء عليه ولا كفارة؛ قاله ابن المنـذر . قال الباجى : وروى فى المدنيّة ابن نافع عن مالك أنه إن نظر إلى امرأة متجرّدة فالتذّ فأنزل عليه القضاء دون الكفارة .

الرابعة عشرة — والجمهور من العلمـاء على صحة صوم من طلع عليه الفجر وهو جُنب . وقال القاضى أبو بكر بن العربى : «وذلك جائز إجماعاً، وقد كان وقع فيه بين الصحابة كلام ثم استقرّ الأمر على أن من أصبح جُنُباً فإن صومه صحيح » .

قلت : أمّا ما ذُكر من وقوع الـكلام فصحيح مشهور، وذلك قول أبى هريرة : من أصبح جُنبًا فلا صوم له؛ أخرجه الموطأ وغيره . وفى كتاب النسائى أنه قال لمـا روجع : والله ما أنا قلته ، محمد صلى الله عليه وسلم والله قاله . وقد اختلف فى رجوعه عنها ؛ وأشهر قوليه عند أهل العلم أنه لا صوم له ؛ حكاه ابن المنذر، ورُوِىَ عن الحسن بن صالح . وعن أبى هريرة أيضا قول ثالث قال : إذا علم بجنابته ثم نام حتى يصبح فهو مفطر، وإن لم يعلم حتى أصبح

(١) زيادة عن كتاب « المنتقى » يقتضيها السياق .

Marfat.com

فهو صائم؛ رُوِىَ ذلك عن عطاء وطاوس وعُروة بن الزبير . وروى عن الحسن والنخعى أن ذلك يجزى فى التطوع ويقضى فى الفرض .

قلت : فهذه أربعة أقوال للعلماء فيمن أصبح جُنُبًا، والصحيح منها مذهب الجمهور؛ لحديث عائشة رضى الله عنها وأم سَلَمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يُصبح جُنُبًا من جماع غير آحتلام ثم يصوم . وعن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدركه الفجر فى رمضان وهو جُنب من غير آحتلام فيغتسل ويصوم؛ أخرجهما البخارىّ ومسلم . وهو الذى يفهم من ضرورة قوله تعالى : « فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ » الآية؛ فإنه لما مدّ إباحة الجماع إلى طلوع الفجر فبالضرورة يعلم أن الفجر يطلع عليه وهو جُنب، وإنما يتأتى الغسل بعد الفجر . وقد قال الشافعى : ولو كان الذكر داخل المرأة فنزعه مع طلوع الفجر أنه لا قضاء عليه . وقال المُزَنِىّ : عليه القضاء لأنه من تمام الجماع؛ والأول أصح لما ذكرنا، وهو قول علمائنا .

الخامسة عشرة — وآختلفوا فى الحائض تطهر قبل الفجر وتترك التطهّر حتى تُصبح ؛ فجمهورهم على وجوب الصوم عليها وإجزائه، سواء تركته عمدًا أو سهوًا كالجنب؛ وهو قول مالك وآبن القاسم . وقال عبد الملك : إذا طَهُرت الحائض قبل الفجر فأخرت غسلها حتى طلع الفجر فيومها يوم فطر ؛ لأنها فى بعضه غير طاهرة، وليست كالجنب لأن الآحتلام لا ينقض الصوم، والحَيْضة تنقضه . هكذا ذكره أبو الفرج فى كتابه عن عبد الملك . وقال الأوزاعىّ : تقضى لأنها فرّطت فى الآغتسال . وذكر آبن الجلاب عن عبد الملك أنها إن طهرت قبل الفجر فى وقت يمكنها فيه الغسل ففرّطت ولم تغتسل حتى أصبحت لم يضرها كالجنب، وإن كان الوقت ضيّقًا لا تدرك فيه الغسل لم يجز صومها ويومها يوم فطر؛ وقاله مالك ، وهى كمن طلع عليها الفجر وهى حائض . وقال محمد بن مسلمة فى هذه : تصوم وتقضى؛ مثل قول الأوزاعى . وروى عنه أنه شذّ فأوجب على من طهرت قبل الفجر ففرّطت وتوانت وتأخرت حتى تُصبح — الكفارةَ مع القضاء .

Marfat.com

السادسة عشرة — وإذا طهرت المرأة ليــلًا فى رمضان فلم تَدْرِ أكان ذلك قبل الفجر أو بعده ، صامت وقضت ذلك اليوم آحتياطًا ، ولا كفارة عليها .

السابعة عشرة — رُوِىَ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أفطر الحاجم والمحجوم ". من حديث ثَوْبان وحديث شدّاد بن أوس وحديث رافع بن خَدِيج ؛ وبه قال أحمد وإسحاق ، وصحّح أحمد حديث شدّاد بن أوس ، وصحّح على بن المدينى حديث رافع بن خَدِيج . وقال مالك والشافعى والثورى : لا قضاء عليه ، إلا أنه يكره له ذلك من أجل التغرير . وفى صحيح مسلم من حديث أنس أنه قيل له : أكنتم تكرهون الحجامة للصائم ؟ قال لا ، إلا من أجل الضعف . وقال أبو عمر : حديث شدّاد ورافع وثوبان عندنا منسوخ بحديث آبن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم آحتجم صائمًــا مُحرِمًا ؛ لأن فى حديث شدّاد بن أوس وغيره أنه صلى الله عليه وسلم مرّ عام الفتح على رجل يحتجم لثمــان عشرة ليلة خلت من رمضان فقال : " أفطر الحاجم والمحجوم ". وآحتجم هو صلى الله عليه وسلم عامَ حجة الوداع وهو مُحرِم صائم ؛ فإذا كانت حجته صلى الله عليه وسلم عام حجة الوداع فهى ناسخة لا محالة ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم لم يُدرك بعد ذلك رمضان ؛ لأنه تُوُفِّىَ فى ربيع الأوّل ، صلى الله عليه وسلم .

الثامنــة عشرة — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ أمْرٌ يقتضى الوجوب من غير خلاف . و « إلى » غاية ، فإذا كان ما بعدها من جنس ما قبلهــا فهو داخل فى حكمه ؛ كقولك : آشتريت الفدان إلى حاشيته ، أو آشتريت منك من هذه الشجرة إلى هذه الشجرة — والمبيع شجر ؛ فإن الشجرة داخلة فى المبيع . بخلاف قولك : آشتريت الفدان إلى الدار ؛ فإن الدار لا تدخل فى المحدود إذ ليست من جنسه . فشَرَط تعالى تمــام الصوم حتى يتبيّن الليل ، كما جوّز الأكل حتى يتبيّن النهار .

التاسعة عشرة — ومن تمام الصوم آستصحاب النّية دون رفعها ، فإنْ رفعها فى بعض النهار ونوى الفطر إلا أنه لم يأكل ولم يشرب فجعــله فى المدوّنة مفطرًا وعليــه القضاء . وفى كتاب آبن حبيب أنه على صومه ؛ قال : ولا يخرجه من الصوم إلا الإفطار بالفعــل وليس بالنية .

Marfat.com

وقيل : عليه القضاء والكفارة . وقال سُحنون : إنمـا يكفّر من بيّت الفطر ، فأمّا من نواه في نهاره فلا يضره، وإنما يقضى آستحساناً .

قلت : هذا حسن .

الموَفِّيـة عشرين ــ قوله تعالى : ﴿ إِلَى ٱللَّيْلِ ﴾ إذا تبيّن الليل سنّ الفطر شرعاً، أكل أو لم يأكل . قال آبن العـربى : وقد سـئل الإمام أبو إسحاق الشـيرازى عن رجل حلف بالطلاق ثلاثًا أنه لا يُفطر على حار ولا بارد، فأجاب أنه بغروب الشمس مفطرٌ لا شيء عليه؛ وآحتجّ بقوله صلى الله عليه وسلم: " إذا جاء الليل من ها هنا وأدبر النهار من ها هنا فقد أفطر الصائم" . وسئل عنها الإمام أبو نصر بن الصباغ صاحب الشامل فقال : لابدّ أن يفطر على حار أو بارد . وما أجاب به الإمام أبو إسحاق أَوْلى ، لأنه مقتضى الكتاب والسُّنة .

الحادية والعشرون ــ فإن ظن أن الشمس قد غَرَبت لغَيْم أو غيره فأفطر ثم ظهرت الشمس فعليـه القضاء فى قول أكثر العلماء . وفى البخارى عن أسمـاء بنت أبى بكر رضى الله عنهما قالت : أفطرنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يومَ غَيْم ثم طلعت الشمس، قيل لهشام(١) : فأُمِرُوا بالقضاء ؛ قال : لا بدّ من قضاء ؟ . قال عمر فى الموطأ فى هذا : الخطب يسير. وقد آجتهدنا [فى الوقت](٢) يريد القضاء . وروى عن عمر أنه قال: لا قضاء عليه؛ وبه قال الحسن البصرى : لا قضاء عليـه كالناسى ؛ وهو قول إسحـاق وأهل الظاهر . وقول الله تعـالى : « إلى الليل » يردّ هذا القول، والله أعلم .

الثـانية والعشرون ـــ فإن أفطر وهو شاكٌّ فى غروبهـا كفّر مع القضاء؛ قاله مالك ، إلا أن يكون الأغلب عليه غروبها . ومن شكّ عنده فى طلوع الفجر لزمه الكف عن الأكل؛ فإن أكل مع شكّه فعليه القضاء كالناسى ، لم يختلف فى ذلك قوله . ومن أهل العلم بالمدينـة وغيرها من لا يرى عليـه شيئًا حتى يتبيّن له طلوع الفجر؛ وبه قال آبن المنـذر . وقال الكِيَا الطبرى : « وقد ظن قوم أنه إذا أبيح له الفطر إلى أول الفجر فإذا أكل على ظن أن الفجر لم يطلع فقد أكل بإذن الشرع فى وقت جواز الأكل فلا قضاء عليه؛ كذلك قال مجاهد وجابر

(١) هو آبن عروة ، أحد رجال سند هذا الحديث . (٢) زيادة عن الموطأ .

Marfat.com

ابن زيد . ولا خلاف فى وجوب القضاء إذا غُمّ عليـه الهلال فى أول ليلة من رمضان فأكل ثم بان أنه من رمضان، والذى نحن فيه مثله . وكذلك الأسـير فى دار الحرب إذا أكل ظنًّا أنه من شعبان ثم بان خلافه » .

الثالثة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ فيـه ما يقتضى النهى عن الوصال ؛ إذ الليل غاية الصيام؛ وقالته عائشة . وهذا موضعٌ آختلف فيه ؛ فمن واصل عبد الله بن الزبير وإبراهيم التَّيْمى وأبو الجوزاء وأبو الحسن الدِّينَوَرِى وغيرهم . كان ابن الزبير يواصل سبعًا ، فإذا أفطر شرب السمن والصبر حتى يفتق أمعاءه ، قال : وكانت تيبس أمعاؤه . وكان أبو الجوزاء يواصل سبعة أيام وسبع ليال ولو قَبض على ذراع الرجل الشـديد لحطمها . وظاهر القرآن والسُّنة يقتضى المنع ؛ قال صلى الله عليه وسلم : "إذا غابت الشمس من هاهنا وجاء الليل من هاهنا فقد أفطر الصائم" . خرّجه مسلم من حديث عبد الله بن أبى أَوْفَى . ونهى عن الوصال ، فلمـا أَبَوْا أن ينتهوا عن الوصال واصـل بهم يومًا ثم يومًا ثم رأوا الهلال فقـال : "لو تأخر الهلال لزدتكم" كالمُنَكِّل لهم حين أَبَوْا أن ينتهوا . أخرجه مسلم عن أبى هريرة . وفى حديث أنس : "لو مُدّ لنا الشهر لواصلنا وصالًا يَدعُ المتعمِّقون تعمُّقَهم" . خرّجه مسلم أيضا . وقال صلى الله عليه وسلم : "إياكم والوصال إياكم والوصال" تأكيدًا فى المنع لهم منه ، وأخرجه البخارى . وعلى كراهية الوصال — لمـا ذكرنا ولمـا فيه من ضعف القُوَى وإنهاك الأبدان — جمهور العلماء . وقد حرّمه بعضهم لمـا فيه من مخالفة الظاهر والتشبه بأهل الكتاب ، قال صلى الله عليه وسلم : "إن فَصْلَ[(١)] ما بين صيامنا وصـيام أهل الكتاب أَكْلَةُ السَّحَر" . خرّجه مسـلم وأبو داود . وفى البخارى عن أبى سعيد الخُدْرِى أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "لا تواصلوا فأيُّكم أراد أن يواصل فليواصـل حتى السَّحَر" قالوا : فإنك تواصل يارسـول الله ؟ قال : "لست كهيئتكم إنى أَبِيتُ لِى مُطْعِمٌ يُطعمنى وساقٍ يَسقينى" . قالوا : وهـذا إباحة لتأخير الفطر إلى السحر، وهو الغاية فى الوصال لمن أراده، ومنعٌ من آتصال يوم بيوم؛ وبه قال أحمد

(١) كذا فى صحيح مسلم بالصاد المهملة ، بمعنى الفاصل . وفى سنن أبى داود بالضاد المعجمة .

و إسحاق وآبن وهب صاحب مالك . واحتجّ من أجاز الوصال بأن قال : إنما كان النهى عن الوصال لأنهم كانوا حديثى عهد بالإسلام ، فخَشِىَ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتكلّفوا الوصال وأعلى المقامات فيفتُرُوا أو يضعفوا عما كان أنفع منه من الجهاد والقوة على العدوّ، ومع حاجتهم فى ذلك الوقت . وكان هو يلتزم فى خاصّة نفسه الوصال وأعلى مقامات الطاعات ؛ فلما سألوه عن وصالهم أبدى لهم فارقًا بينه و بينهم ، وأعلمهم أن حالته فى ذلك غير حالاتهم فقال : " لستُ مثلكم إنى أَبِيتُ يُطعمنى ربّى و يَسقينى " . فلما كمل الإيمان فى قلوبهم واستحكم فى صدورهم ورسخ ، وكثر المسلمون وظهروا على عدوّهم ، واصل أولياء الله وألزموا أنفسهم أعلى المقامات ، والله أعلم .

قلت : ترك الوصال مع ظهور الإسلام وقهر الأعداء أولى ، وذلك أرفع الدرجات وأعلى المنازل والمقامات ؛ والدليل على ذلك ما ذكرناه . وأن الليل ليس بزمان صوم شرعى ، حتى لو شرع إنسان فيه الصوم بنيّة ما أُثيب عليه ، والنبىّ صلى الله عليه وسلم ما أخبر عن نفسه أنه واصل ، و إنما الصحابة ظنّوا ذلك فقالوا : إنك تواصل ؛ فأخبر أنه يُطْعَم ويُسْقَى . وظاهر هذه الحقيقة : أنه صلى الله عليه وسلم يُؤْتى بطعام الجنة وشرابها . وقيل : إن ذلك محمول على ما يرد على قلبه من المعانى واللطائف ، و إذا احتمل اللفظ الحقيقة والمجاز فالأصل الحقيقة حتى يَرِد دليل يزيلها . ثم لما أَبَوْا أن ينتهوا عن الوصال واصل بهم وهو على عادته كما أخبر عن نفسه ، وهم على عادتهم حتى يضعفوا و يقلّ صبرهم فلا يواصلوا . وهذه حقيقة التنكيل حتى يدعوا تعمّقهم وما أرادوه من التشديد على أنفسهم . وأيضا لو نزّلنا على أن المراد بقوله : "أُطعَم وأُسقَى" المعنىَ لكان مفطرًا حُكمًا ؛ كما أن من آغتاب فى صومه أو شهد بزور مفطرٌ حُكمًا ، ولا فرق بينهما ، قال صلى الله عليه وسلم : "مَن لم يَدَعْ قَولَ الزُّور والعملَ به فليس لله حاجة فى أنْ يَدَع طعامَه وشرابَه " . وعلى هذا الحدّ ما واصل النبى صلى الله عليه وسلم ولا أمر به ، فكان تركه أولى . و بالله التوفيق .

الرابعة والعشرون — و يستحبّ للصائم إذا أفطر أن يُفطر على رُطَبات أو تمرات أو حَسوات من الماء ؛ لما رواه أبو داود عن أنس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم

Marfat.com

يُفطر على رُطبات قبل أن يصلّى، فإن لم تكن رطبات فعلى تمرات، فإن لم تكن تمرات حَسَا حَسوات من ماء . وأخرجه الدّارَقُطْنِيّ وقال فيـه : إسناد صحيح . وروى الدّارقطنى عن آبن عباس قال : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا أفطر قال : "لك صُمْنا وعلى رِزْقك أفطرنا فتقبّل منّا إنك أنت السميع العليم" . وعن آبن عمر قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا أفطر : "ذهب الظمأ وآبتلّت العروق وثبت الأجر إن شاء الله" . خرّجه أبو داود أيضا . وقال الدّارقطنى : تفرّد به الحسين بن واقد إسناده حسن . وروى آبن ماجه عن عبد الله بن الزبير قال : أفطر رسول الله صلى الله عليه وسلم عند سعد بن معاذ فقال : "أفطر عندكم الصائمون وأكل طعامكم الأبرار وصلّت عليكم الملائكة" . وروى أيضا عن زيد بن خالد الجُهَنِيّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من فطّر صائمًا كان له مثل أجرهم من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا" . وروى أيضا عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن للصائم عند فطره لدعوةً ما تُرَدّ" . قال آبن أبى مليكة : سمعت عبد الله بن عمرو يقول إذا أفطر : اللّهُمّ إنى أسألك برحمتك التى وَسِعتْ كلّ شىء أن تغفر لى . وفى صحيح مسلم عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : "للصائم فرْحتان يفرحهما إذا أفطر فَرِح بفطره وإذا لَقِيَ ربّه فَرِح بصومه" .

الخامسة والعشرون — ويستحب له أن يصوم من شوّال ستة أيام؛ لما رواه مسلم والترمذيّ وأبو داود والنسائىّ وآبن ماجه عن أبى أيوب الأنصارى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَن صام رمضان ثم أتبعه ستًّا من شوّال كان له كصيام الدهر" هذا حديث حسن صحيح من حديث سعد بن سعيد الأنصارى المدنى، وهو ممن لم يُخرّج له البخارى شيئا، وقد جاء بإسناد جيّد مفسَّرًا من حديث أبى أسماء الرَّحَبِيّ عن ثَوْبان مولَى النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "جعل الله الحسنة بعشر أمثالها فشهر رمضان بعشرة أشهر وستة أيام بعد الفطر تمام السنة" . رواه النسائى . واختلف فى صيام هذه الايام؛ فكرهها مالك فى مُوَطّئه خوفًا أن يُلحق أهلُ الجهالة برمضان

Marfat.com

ما ليس منه ؛ وقـد وقع ما خافه حتى أنه كان فى بعض بلاد خراسان يقومون لسحورها على عادتهم فى رمضان . وروى مُطَرِّف عن مالك أنه كان يصومها فى خاصّة نفسه . وٱستحب صيامها الشافعى، وكرهه أبو يوسف .

السادسة والعشرون — قوله تعالى : ﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ بيّن جَلّ تعالى أن الجماع يُفسد الاعتكاف . وأجمع أهل العلم على أن مَن جامع ٱمرأته وهو معتكف عامدا لذلك فى فرجها أنه مفسد لاعتكافه، وٱختلفوا فيما عليه إذا فعل ذلك، فقال الحسن البصرىّ والزهرىّ : عليه ما على المواقع أهله فى رمضان . فأما المباشرة من غير جماع فإن قصد بهـا التلذّذ فهى مكروهة، و إن لم يقصد لم يُكره؛ لأن عائشـة كانت تُرَجِّل رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو معتكف، وكانت لامحالة تمسّ بدن رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدها؛ فدلّ بذلك على أن المباشرة بغير شهوة غير محظورة ؛ هـذا قول عطاء والشافعى وٱبن المنـذر . قال أبو عمر : وأجمعوا على أن المعتكف لا يباشر ولا يُقَبِّـل . وٱختلفوا فيما عليه إن فعل ؛ فقال مالك والشافعى : إن فعل شيئا من ذلك فسد ٱعتكافه؛ قاله المُزَنِىّ . وقال فى موضع آخر من مسائل الاعتكاف : لا يفسـد الاعتكاف من الوطء إلا ما يوجب الحدّ، وٱختاره المُزَنِىّ قياسا على أصله فى الحج والصوم .

السابعة والعشرون — قوله تعـالى : ﴿وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ﴾ جمـلة فى موضع الحـال . والاعتكاف فى اللغة : الملازمة؛ يقال عَكَف على الشىء إذا لازمه مقبلا عليه . قال الراجز :

* عَكْفَ النَّبِيطِ يلعبون الفَنْزَجَا (١) *

وقال الشاعر :

وظلّ بنات الليل حولى عكّفا * عكوف البـواكى بينهنّ صريع

ولمـا كان المعتكف ملازما للعمل بطاعة الله مدّة ٱعتكافه لزمه هـذا الاسم . وهو فى عرف الشرع : ملازمةُ طاعة مخصوصة فى وقت مخصوص على شرط مخصوص فى موضع

(١) تقدّم صدر هذا البيت وقائله ومعناه فى هامش ص ١١٤ من هذا الجزء .

Marfat.com

مخصوص . وأجمع العلمـاء على أنه ليس بواجب، وهو قُرْبَة من القُرَب ونافلة من النوافل عمل بهـا رسول الله صلى الله عليه وسـلم وأصحابه وأزواجه، ويلزمه إن ألزمه نفسه، ويكره الدخول فيه لمن يخاف عليه العجز عن الوفاء بحقوقه .

الثامنة والعشرون — أجمـع العلماء على أن الاعتكاف لا يكون إلا فى المسجد؛ لقول الله تعـالى « فِي الْمَسَاجِدِ» . واختلفوا فى المراد بالمساجد؛ فذهب قوم إلى أن الآية خرجت على نوع من المساجد، وهو ما بنـاه نبيّ كالمسجد الحرام ومسجد النبيّ صلى الله عليه وسـلم ومسجد إيليـاء (١)؛ رُوى هذا عن حُذيفة بن اليَمـان وسعيد بن المسيِّب، فلا يجوز الاعتكاف عندهم فى غيرها . وقال آخرون : لا اعتكاف إلا فى مسجد تُجمع فيـه الجمعة؛ لأن الإشارة فى الآية عندهم إلى ذلك الجنس من المساجد؛ رُوى هذا عن عليّ بن أبى طالب وابن مسعود، وهو قول عُرْوة والحَكَم وحمّاد والزُّهرى وأبى جعفر محمد بن عليّ، وهو أحد قولى مالك . وقال آخرون : الاعتكاف فى كل مسجد جائز؛ يُروى هذا القول عن سعيد بن جبير وأبى قِلَابة وغيرهم، وهو قول الشافعى وأبى حنيفة وأصحابهما . وحجتهم حمل الآية على عمومها فى كل مسجد له إمام ومؤذّن، وهو أحد قولى مالك، وبه يقول ابن عُلَيّة وداود بن عليّ والطبرى وابن المنذر. وروى الدَّارَقُطْنِيّ عن الضحاك عن حُذيفـة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليـه وسلم يقول : "كلّ مسجد له مؤذّن وإمام فالاعتكاف فيه يصلح" . قال الدَّارَقُطْنِيّ : والضحاك لم يسمع من حذيفة .

التاسعة والعشرون — وأقلّ الاعتكاف عنـد مالك وأبى حنيفة يوم وليلة، فإن قال : لله عليّ اعتكاف ليلة لزمه اعتكاف ليلة ويوم . وكذلك إن نذر اعتكاف يوم لزمه يوم وليلة . وقال سُحْنون : من نذر اعتكاف ليلة فلا شىء عليه . وقال أبو حنيفة وأصحابه : إن نذر يوما فعليه يوم بغير ليلة، وإن نذر ليلة فلا شىء عليه؛ كما قال سحنون . قال الشافعى : عليه ما نذر؛ إن نذر ليلةً فليلةً، وإن نذر يوما فيومًا . قال الشافعى : أقلّه لحظة ولا حدّ لأكثره . وقال بعض

---

(١) إيلياء (بكسر أوله واللام) : اسم مدينة بيت المقدس .

أصحاب أبى حنيفة : يصحّ الاعتكاف ساعة . وعلى هذا القول فليس من شرطه صوم؛ورُوِى عن أحمد بن حنبل فى أحد قوليه، وهو قول داود بن علىّ وابن عُلَيَّـة ، واختاره ابن المنذر وابن العربى . واحتجوا بأن اعتكاف رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فى رمضان، ومحال أن يكون صوم رمضان لرمضان ولغيره . ولو نوى المعتكف فى رمضان بصومه التطوّع والفرض فسد صومه عنـد مالك وأصحابه . ومعلوم أن ليل المعتكف يلزمه فيـه من اجتناب مباشرة النساء ما يلزمه فى نهاره، وأن ليله داخل فى اعتكافه، وأن الليل ليس بموضع صوم، فكذلك نهاره ليس بمفتقر إلى الصوم، وإن صام فحسن . وقال مالك وأبو حنيفة وأحمـد فى القول الآخر : لا يصح إلا بصوم . وروى عن ابن عمر وابن عباس وعائشة رضى الله عنهـم . وفى الموطأ عن القاسم بن محمد ونافع مولى عبد الله بن عمر : لا اعتكاف إلا بصيام؛ لقول الله تعالى فى كتابه : « وَكُلُوا وَاشْرَبُوا » إلى قوله : « فِى المساجِدِ » وقالا : فإنمـا ذكر الله الاعتكاف مع الصيام . قال يحيى قال مالك : وعلى ذلك الأمر عندنا . واحتجوا بمـا رواه عبد الله بن بُدَيْل عن عمرو بن دينار عن ابن عمر أن عمر جعل عليه [أن يعتكف](1) فى الجاهليـة ليلة أو يوما [عند الكعبة](1) فسأل النبىّ صلى الله عليه وسـلم فقال : "اعتكف وصُمْ" . أخرجه أبو داود . وقال الدّارَقُطْنِىّ : تفـرّد به ابن بُدَيل عن عمرو وهـو ضعيف . وعن عائشـة أن النبىّ صلى الله عليه وسـلم قال : "لا اعتكاف إلا بصيام" . قال الدّارَقُطْنِى : تفرّد به سُوَيد بن عبد العزيز عن سفيان بن حسين عن الزهرى عن عروة عن عائشة . وقالوا : ليس من شرط الصوم عنـدنا أن يكون للاعتكاف، بل يصح أن يكون الصوم له ولرمضان ولنذر ولغيره؛ فإذا نذره الناذر فإنمـا ينصرف نذره إلى مقتضاه فى أصل الشرع، وهذا كمن نذر صلاة فإنها تلزمه، ولم يكن عليه أن يتطهّر لها خاصّةً بل يجزئه أن يؤدّيها بطهارة لغيرها .

الموفية ثلاثين — وليس للمعتكف أن يخرج من معتكفه إلا لمـا لابدّ له منه، لمـا روى الأئمة عن عائشـة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اعتكف يُدْنِى إلىّ رأسه

Marfat.com

فأرجّله ، وكان لا يدخل البيت إلا لحاجة الإنسان ، تريد الغائط والبول . ولا خلاف فى هذا بين الأمة ولا بين الأئمة ؛ فإذا خرج المعتكف لضرورة وما لا بدّ له منه ورجع فى فَوْره بعد زوال الضرورة بنى على ما مضى من آعتكافه ولا شىء عليه . ومن الضرورة المرضُ البيّن والحيض. وآختلفوا فى خروجه لمـا سوى ذلك ؛ فمذهب مالك ما ذكرنا ، وكذلك مذهب الشـافعى وأبى حنيفة . وقال سعيد بن جُبـير والحسن والنخعىّ : يعـود المريضَ ويشهد الجنـائز ؛ وروى عن علىّ وليس بثابت عنه . وفرّق إسحاق بين الاعتكاف الواجب والتطوّع ، فقال فى الآعتكاف الواجب : لا يعود المريضَ ولا يشهد الجنائز ، وقال فى التطوّع : يَشترط حين يبتدئ حضورَ الجنائز وعيادة المرضى والجمعـة . وقال الشافعى : يصح آشتراط الخروج من معتكفه لعيادة مريض وشهود الجنائز وغير ذلك من حوائجه . وآختلف فيه عن أحمد ، فمنع منـه مَرّة ، وقال مَرّة : أرجو ألا يكون به بأس . وقال الأوزاعى كما قال مالك : لا يكون فى الآعتكاف شرط . قال آبن المنذر : لا يخرج المعتكف من آعتكافه إلا لمـا لا بدّ له منه ، وهو الذى كان النبىّ صلى الله عليه وسلم يخرج له .

الحادية والثلاثون ـــ وآختلفوا فى خروجه للجمعة ، فقالت طائفة : يخرج للجمعة ويرجع إذا سلّم ؛ لأنه خرج إلى فرض ولا ينتقض آعتكافه . ورواه آبن الجهم عن مالك ، وبه قال أبو حنيفة ، وآختاره آبن العربى وآبن المنذر . ومشهور مذهب مالك أن من أراد أن يعتكف عشرة أيام أو نذر ذلك لم يعتكف إلا فى المسجد الجامع ، وإذا آعتكف فى غيره لزمه الخروج إلى الجمعـة وبطل آعتكافه . وقال عبـد الملك : يخـرج إلى الجمعة فيشهدها ويرجع مكانه ويصح آعتكافه .

قلت : وهو صحيح لقوله تعـالى : « وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِى الْمَسَاجِدِ » فعمّ . وأجمع العلماء على أن الآعتكاف ليس بواجب وأنه سُنّة ، وأجمع الجمهور من الأئمة على أن الجمعة فرض على الأعيـان ، ومتى آجتمع واجبان أحدهما آكد من الآخر قُـدّم الآكد ؛ فكيف إذا آجتمع مندوب وواجب ، ولم يقل أحد بترك الخروج إليها ، فكان الخروج إليها فى معنى حاجة الإنسان.

Marfat.com

الثانية والثلاثون — المعتكف إذا أتى كبيرة فسد ٱعتكافه ؛ لأن الكبيرة ضد العبادة ؛ كما أن الحَدَث ضدّ الطهارة والصلاة ، وتَرْكُ ما حرّم الله تعالى عليه أعلى منازل الأعتكاف فى العبادة . قاله ٱبن خُوَيْزِ مَنْدَاد عن مالك .

الثالثة والثلاثون — روى مسلم عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يعتكف صلّى الفجر ثم دخل معتكفه... ؛ الحديث . وٱختلف العلماء فى وقت دخول المعتكف فى ٱعتكافه ؛ فقال الأوزاعى بظاهر هـذا الحديث ، ورُوى عن الثورى والليث ابن سعد فى أحد قوليه ، وبه قال ٱبن المنذر وطائفة من التابعين . وقال أبو ثور : إنما يفعل هـذا من نذر عشرة أيام ، فإن زاد عليها فقبل غروب الشمس . وقال مالك والشافعى وأبو حنيفـة وأصحابهم : إذا أوجب على نفسه ٱعتكاف شهر ، دخل المسجد قبـل غروب الشمس من ليلة ذلك اليوم . قال مالك : وكذلك كل من أراد أن يعتكف يومًا أو أكثر . وبه قال أبو حنيفة وٱبن الماجشون عبد الملك ؛ لأن أوّل ليلة أيام الأعتكاف داخلة فيها ، وأنه زمن للأعتكاف فلم يتبعّض كاليوم . وقال الشافعى : إذا قال لله علىّ يوم دخل قبـل طلوع الفجر وخرج بعد غروب الشمس ؛ خلاف قوله فى الشهر . وقال الليث فى أحد قوليه وزُفَر : يدخل قبل طلوع الفجر ؛ والشهر واليوم عندهم سواء . وروى مثل ذلك عن أبى يوسف ، وبه قال القاضى عبد الوهاب ، وأن الليلة إنما تدخل فى الأعتكاف على سبيل التَّبَع ؛ بدليل أن الأعتكاف لا يكون إلا بصوم وليس الليل بزمن للصوم . فثبت أن المقصود بالأعتكاف هو النهار دون الليل .

قلت : وحديث عائشة يردّ هـذه الأقوال وهو الحجة عنـد التنازع ، وهو حديث ثابت لا خلاف فى صحته .

الرابعة والثلاثون — ٱستحب مالك لمن ٱعتكف العشر الأواخر أن يبيت ليـلة الفطر فى المسجد حتى يغدو منه إلى المُصلّى ، وبه قال أحمد . وقال الشافعى والأوزاعى : يخرج إذا غابت الشمس ؛ ورواه سُحْنون عن ٱبن القاسم ؛ لأن العشر يزول بزوال الشهر ، والشهر ينقضى

Marfat.com

بغروب الشمس من آخر يوم من شهر رمضان . وقال سُحْنون : إن ذلك على الوجوب؛ فإن خرج ليلة الفطر بطل اعتكافه . وقال ابن الماجشون : وهذا يرده ما ذكرنا من انقضاء الشهر ، ولو كان المقام ليلة الفطر من شرط صحة الاعتكاف لما صح اعتكافٌ لا يتّصل بليلة الفطر؛ وفى الإجماع على جواز ذلك دليل على أن مقام ليلة الفطر للمعتكف ليس شرطًا فى صحة الاعتكاف . فهذه جمل كافية من أحكام الصيام والاعتكاف اللائقة بالآيات، فيها لمن اقتصر عليها كفاية ، والله الموفّق للهداية .

الخامسة والثلاثون — قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ أى هذه الأحكام حدود الله فلا تخالفوها؛ فـ « تلك » إشارة إلى هذه الأوامر والنواهى . والحدود : الحواجز . والحدّ : المنع ؛ ومنه سُمِّىَ الحديد حديدا؛ لأنه يمنع من وصول السلاح إلى البدن . وسُمِّىَ البوّاب والسجّان حدّادا؛ لأنه يمنع مَن فى الدار من الخروج منها، ويمنع الخارجَ من الدخول فيها . وسُمِّيت حدود الله لأنها تمنع أن يدخل فيها ما ليس منها ، وأن يخرج منها ما هو منها؛ ومنها سُمِّيت الحدود فى المعاصى ؛ لأنها تمنع أصحابها من العَوْد إلى أمثالها . ومنه سُمِّيت الحادّ فى العِدّة ؛ لأنها تمتنع من الزينة .

السادسة والثلاثون — قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ ﴾ أى كما بيّن هذه الحدود يُبيّن جميع الأحكام لتتّقوا مجاوزتها . والآيات : العلامات الهادية إلى الحق . و ﴿ لَعَلَّهُمْ ﴾ تَرَجٍّ فى حقهم ؛ فظاهر ذلك عموم ومعناه خصوص فيمن يسّره الله للهدى ؛ بدلالة الآيات التى تتضمّن أن الله يُضلّ من يشاء .

قوله تعالى : وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾

فيه ثمانى مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ ﴾ قيل : إنه نزل فى عبدان ابن أَشْوَع الحضرمى، ادّعى مالاً على امرئ القيس الكندى واختصما إلى النبىّ صلى الله عليه

Marfat.com

وسلم؛ فأنكر آمرؤ القيس وأراد أن يحلف فنزلت هذه الآية؛ فكفّ عن اليمين وحكّم عبدان فى أرضه ولم يخاصمه .

الثانيـــة ــ الخطاب بهذه الآية يتضمّن جميع أمة محمد صلى الله عليه وسلم؛ والمعنى : لا يأكل بعضكم مال بعض بغير حق . فيدخل فى هـذا : القمار والخداع والغصوب وجحد الحقوق، ومالا تطيب به نفس مالكه، أو حرّمته الشريعة وإن طابت به نفس مالكه؛ كمهر البَغِيّ وحُلْوان الكاهن وأثمان الخمور والخنازير وغير ذلك. ولا يدخل فيه الغَبْن فى البيع مع معرفة البائع بحقيقة ما باع لأن الغبن كأنه هبة، على ما يأتى بيـانه فى سورة « النساء »[1] . وأضيفت الأموال إلى ضمير المنهىّ لـما كان كل واحد منهما منهيًّا ومنهيًّا عنـه؛ كما قال : « تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ »[2] . وقال قوم : المراد بالآية « وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ »[3] أى فى الملاهى والقِيان والشرب والبطالة؛ فيجىء على هذا إضافة المـال إلى ضمير المـالكين .

الثالثـــة ــ من أخذ مال غيره لا على وجه إذن الشرع فقد أكله بالباطل، ومن الأكل بالباطل أن يقضى القاضى لك وأنت تعلم أنك مبطل؛ فالحرام لا يصير حلالا بقضاء القاضى؛ لأنه إنمـا يقضى بالظاهر . وهذا إجماع فى الأموال، وإن كان عند أبى حنيفة قضاؤه ينفذ فى الفروج باطنًا، وإذا كان قضاء القاضى لا يغيّر حكم الباطن فى الأموال فهو فى الفروج أولى . وروى الأئمة عن أم سلمة قالت قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : " إنكم تختصمون إلىّ ولعلّ بعضكم أن يكون أَلْحَنَ بحجّته من بعض فأقضى له على نحوٍ مما أسمع فمن قطعتُ له من حق أخيه شيئًا فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من نار ــ فى رواية ــ فَلْيَحْمِلْها أو يَذَرْهَا " . وعلى القول بهذا الحديث جمهور العلماء وأئمة الفقهاء. وهو نصٌّ فى أن حكم الحاكم على الظاهر لا يُغيّر حكم الباطن، وسـواء كان ذلك فى الأموال والدّماء والفروج؛ إلا ما حُكى عن أبى حنيفة فى الفروج، وزعم أنه لو شهد شاهدا زورٍ على رجل بطلاق زوجته وحكم الحاكم بشهادتهما لعدالتهما عنده فإن فرجها يحلّ لمتزوّجها ــ ممن يعلم أن القضية باطل ــ بعد العدّة . وكذلك لو تزوّجها أحد الشاهدين جاز عنده؛ لأنه لمـا حلّت للأزواج فى الظاهر كان الشاهد وغيره

(١) راجع جـ ٥ ص ١٥٢ (٢) راجع ص ١٩ من هذا الجزء . (٣) راجع جـ ٥ ص ١٥٠

Marfat.com

ســواء؛ لأن قضاء القاضى قطع عصمتها ، وأحدث فى ذلك التحليــل والتحريم فى الظاهر والباطن جميعا ، ولولا ذلك ما حلت للأزواج . وآحتج بحكم اللعان وقال : معلوم أن الزوجة إنما وصلت إلى فراق زوجها باللعان الكاذب ، الذى لو علم الحاكم كذبها فيه لحدها وما فرق بينهما ؛ فلم يدخل هذا فى عموم قوله عليه السلام : "فمن قضيتُ له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه" الحــديث .

الرابعــة ــ وهذه الآية متمسك كل مؤالف ومخالف فى كل حكم يدعونه لأنفسهم بأنه لا يجوز ؛ فيسـتدل عليه بقوله تعـالى : « وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ » . فجوابه أن يقال له : لا نسلم أنه باطل حتى تبينه بالدليل ، وحينئذ يدخل فى هـذا العموم ؛ فهى دليل على أن الباطل فى المعاملات لا يجوز ، وليس فيها تعيين الباطل .

الخامســـة ــ قوله تعالى : ﴿ بِالْبَاطِلِ ﴾ الباطل فى اللغة : الذاهب الزائل ؛ يقال : بَطَل يَبْطُل بُطولا وبُطْلانا ، وجمع الباطل بواطل . والأباطيــل جمع البطولة . وتبطّل أى آتبع اللهو . وأبطل فلان إذا جاء بالباطل . وقوله تعالى : « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ »(1) قال قتادة : هو إبليس ، لا يزيد فى القرآن ولا ينقص . وقوله : « وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَـاطِلَ »(2) يعنى الشرك . والبطلة : السَّحَرة .

السادسـة ــ قوله تعالى : ﴿وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾ الآية . قيل : يعنى الوديعة ومالا تقوم فيه بينة ، عن آبن عباس والحسن . وقيــل : هو مال اليتيم الذى فى أيدى الأوصياء ، يرفعه إلى الحكام إذا طولب به ليقتطع بعضه وتقوم له فى الظاهر حجة . وقال الزجاج : تعملون ما يوجبه ظاهر الأحكام وتتركون ما علمتم أنه الحق . يقال : أدلى الرجل بحجته أو بالأمر الذى يرجو النجاح به ، تشبيها بالذى يرسل الدلو فى البئر ؛ يقال : أدلى دلوه : أرسلها . ودلاها : أخرجها . وجمع الدلو والدلاء : أدلٍ ودلاءٌ ودُلِيٌّ . والمعنى فى الآية : لا تجمعــوا بين أكل المــال بالباطل وبين الإدلاء إلى الحكام بالحجج الباطلة ؛ وهو كقوله : « وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ »(3) . وهو من قبيل قولك : لا تأكل السمك وتشرب اللبن . وقيل :

(1) راجع جـ ١٥ ص ٣٦٧　　(2) راجع جـ ١٦ ص ٢٥　　(3) راجع جـ ١ ص ٣٤٠

Marfat.com

المعنى لا تصانعوا بأموالكم الحكامَ وتَرْشوهم ليقضوا لكم على أكثر منهـا ؛ فالباء إلزاق مجرد . قال ٱبن عطية : وهذا القول يترجّح؛لأن الحكامَ مظنّةُ الرّشاء إلا من عصم وهو الأقل . وأيضا فإن اللفظين متناسبان : تدلوا من إرسال الدّلو ، والرشوة من الرّشاء ؛ كأنه يمدّ بهـا ليقضى الحـاجة .

قلت : ويقوّى هـذا قوله : « وَتُدْلُوا بِهَا » تدلوا فى موضـع جزم عطفًا على تأكلوا كما ذكرنا . وفى مصحف أُبَىّ «ولاتدلوا» بتكرار حرف النهى، وهذه القراءة تؤيّد جزم «تُدْلُوا» فى قراءة الجماعة . وقيل : «تدلوا» فى موضع نصب على الظرف، والذى ينصب فى مثل هذا عند سيبويه « أنْ » مضمرة . والهاء فى قوله « بها » ترجع إلى الأموال، وعلى القول الأوّل إلى الحجـة ولم يجر لهـا ذكر؛ فقوى القول الثـانى لذكر الأموال، والله أعلم . فى الصحاح : « والرَّشـوة معروفة، والرُّشوة بالضم مثله ، والجمع رُشًى ورِشًى، وقد رشاه يرشوه . وٱرتشى: أخذ الرّشوة . وٱسترشى فى حكمه : طلب الرشوة عليه » .

قلت — فالحكام اليوم عين الرّشا لا مَظِنّته، وَلا حول ولا قوة إلا بالله ! .

السابعــة — قوله تعالى: ﴿ لِتَأْكُلُوا ﴾ نصب بلام كى . ﴿ فَرِيقًا ﴾ أى قطعة وجزءا ، فعبّر عن الفريق بالقطعة والبعض . والفريق : القطعة من الغنم تشِذّ عن معظمها . وقيل : فى الكلام تقـديم وتأخير ، التقدير لتأكلوا أموال فريق من الناس . ﴿ بِالْإِثْمِ ﴾ معناه بالظلم والتعدّى ؛ وسمى ذلك إثمـا لمـا كان الإثم يتعلق بفاعله . ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أى بطلان ذلك وإثمه ، وهذه مبالغة فى الجرأة والمعصية .

الثامنــة — اتفق أهل السُّنة على أن من أخذ ما وقع عليه ٱسم مالٍ قلّ أو كثُر أنه يُفَسَّق بذلك، وأنه محرّم عليـه أخذه . خلافًا لبشر بن المعتمر ومن تابعه من المعتزلة حيث قالوا : إن المكلّف لا يُفَسَّق إلا بأخذ مائتى درهم ولا يُفَسَّق بدون ذلك . وخلافًا لٱبن الجُبّائى حيث قال : إنه يفسّق بأخذ عشرة دراهم ولا يفسّق بدونهـا . وخلافًا لٱبن الهذيل حيث قال : يفسّق بأخذ خمسة دراهم . وخلافًا لبعض قدرية البصرة حيث قال : يفسّق بأخذ درهم فـا

Marfat.com

فوق، ولا يفسّق بما دون ذلك . وهذا كله مردود بالقرآن والسنّة وباتفاق علماء الأمة، قال صلى الله عليه وسلم : "إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام" الحديث، متّفق على صحته .

قوله تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ ﴾

فيه آثنتا عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ﴾ هذا مما سأل عنه اليهود وآعترضوا به على النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فقال معاذ : يا رسول الله، إن اليهود تغشانا ويكثرون مسألتنا عن الأهلّة، فما بال الهلال يبدو دقيقًا ثم يزيد حتى يستوى ويستدير، ثم ينتقص حتى يعود كما كان؟ فأنزل الله هذه الآية . وقيل : إن سبب نزولها سؤالُ قوم من المسلمين النبيّ صلى الله عليه وسلم عن الهلال وما سبب مِحاقه (١) وكماله ومخالفته لحال الشمس ؛ قاله آبن عباس وقتادة والربيع وغيرهم .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ عَنِ الْأَهِلَّةِ ﴾ الأهلة جمع الهلال، وجُمِع وهو واحد فى الحقيقة من حيث كونه هلالًا واحدًا فى شهرٍ، غير كونه هلالًا فى آخر؛ فإنما جمع أحواله من الأهلة . ويريد بالأهلة شهورها، وقد يعبّر بالهلال عن الشهر لحلوله فيه؛ كما قال :

أَخَوانِ من نَجْد على ثقة * والشهرُ مثل قُلامة الظُّفر

وقيل : سُمّى شهرًا لأن الأيدى تشهر بالإشارة إلى موضع الرؤية ويدلّون عليه . ويطلق لفظ الهلال لليلتين من آخر الشهر، وليلتين من أوله . وقيل : لثلاث من أوله . وقال الأصمعىّ : هو هلال حتى يحجّر ويستدير له كالخيط الرقيق . وقيل : بل هو هلال حتى يَبْهَر بضوئه

(١) المحاق (بتثليث الميم) : أن يستسرّ القمر ليلتين فلا يرى غدوة ولا عشية .

Marfat.com

السماء، وذلك ليلة سبع . قال أبو العباس : وإنما قيل له هلال لأن الناس يرفعون أصواتهم بالإخبار عنه . ومنه آستهل الصبيّ إذا ظهرت حياته بصراخه . وآستهلّ وجهه فرحًا وتهلّل إذا ظهر فيه السرور . قال أبو كَبير :

وإذا نظرت إلى أسِرّة وجهه * برقت كبرق العارض المتهلِّل

ويقال : أهللنا الهلال إذا دخلنا فيه . قال الجوهرى : « وأُهِلّ الهلال وآستُهِل على ما لم يُسَم فاعله . ويقال أيضا : استهلّ بمعنى تبيّن، ولا يقال : أهَلّ . ويقال : أهللنا عن ليلة كذا، ولا يقال : أهللناه فهَلّ؛ كما يقال : أدخلناه فدخل؛ وهو قياسه » : قال أبو نصر عبد الرحيم القُشيرى فى تفسيره : ويقال : أهل الهلال وآستهلّ وأهللنا الهلال وآستهللنا .

الثالثة — قال علماؤنا : من حلف ليقضِيَنّ غريمه أو ليفعلنّ كذا فى الهلال أو رأس الهلال أو عند الهلال؛ ففعل ذلك بعد رؤية الهلال بيوم أو يومين لم يحنَث . وجميع الشهور تصلح لجميع العبادات والمعاملات على ما يأتى .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾ تبيين لوجه الحكمة فى زيادة القمر ونقصانه ، وهو زوال الإشكال فى الآجال والمعاملات والأيمان والحج والعدد والصوم والفطر ومدة الحمل والإجارات والأكرية ، إلى غير ذلك من مصالح العباد . ونظيره قوله الحق : « وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ » (١) على ما يأتى . وقوله : « هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ » (٢) . وإحصاء الأهلة أيسر من إحصاء الأيام .

الرابعة — وبهذا الذى قررناه يردّ على أهل الظاهر ومن قال بقولهم : إن المساقاة تجوز إلى الأجل المجهول سنين غير معلومة؛ وآحتجوا بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم عامل اليهود على شطر الزرع والنخل ما بدا لرسول الله صلى الله عليه وسلم من غير توقيت . وهذا

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٢٧ (٢) راجع جـ ٨ ص ٣٠٩

Marfat.com

لا دليل فيه، لأنه عليه السلام قال لليهود : " أقركم [فيها] (١) ما أقركم الله". وهذا أدلّ دليل وأوضح سبيل على أن ذلك خصوص له؛ فكان ينتظر في ذلك القضاء من ربّه، وليس كذلك غيره . وقد أحكمت الشريعة معاني الإجارات وسائر المعاملات؛ فلا يجوز شيء منها إلا على ما أحكمه الكتاب والسُّنّة، وقال به علماء الأمة .

الخامســة — قوله تعالى : ﴿ مَوَاقِيتُ ﴾ المواقيت : جمع الميقات وهو الوقت . وقيل : الميقات منتهى الوقت . و« مواقيت » لا تنصرف، لأنه جمع لا نظير له في الآحاد، فهو جمع ونهايةُ جمع، إذ ليس يجمع فصار كأن الجمع تكرر فيها . وصُرفت « قوارير » في قوله : « قوارِيرًا » (٢) لأنها وقعت في رأس آية فنُوّنت كما تنوّن القوافي؛ فليس هو تنوين الصرف الذي يدل على تمكّن الاسم .

السادســة — قوله تعالى : ﴿ وَٱلْحَجِّ ﴾ بفتح الحاء قراءة الجمهور . وقرأ ابن أبي إسحاق بالكسر في جميع القرآن، وفي قوله : « حِجُّ الْبَيْتِ » في « آل عمران » (٣) . سيبويه : الحَجّ كالرّد والشدّ، والحِجّ كالذِّكر؛ فهما مصدران بمعنًى . وقيل : الفتح مصدر، والكسر الاسم .

السابعــة — أفرد سبحانه الحج بالذكر لأنه مما يحتاج فيه إلى معرفة الوقت، وأنه لا يجوز النَّسيء فيه عن وقته، بخلاف ما رأته العرب؛ فإنها كانت تحج بالعدد وتبدّل الشهور، فأبطل الله قولهم وفعلهم، على ما يأتي بيانه في « براءة » (٤) إن شاء الله تعالى .

الثامنــة — استدل مالك رحمه الله وأبو حنيفة وأصحابهما في أن الإحرام بالحج يصح في غير أشهر الحج بهذه الآية؛ لأن الله تعالى جعل الأهلّة كلها ظرفًا لذلك، فصح أن يُحرِم في جميعها بالحج؛ وخالف في ذلك الشافعي؛ لقوله تعالى : « الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ » على ما يأتي . وأن معنى هذه الآية أن بعضها مواقيت للناس، وبعضها مواقيت للحج؛ وهذا كما تقول : الجارية لزيد وعمرو؛ وذلك يقضي أن يكون بعضها لزيد وبعضها لعمرو؛ ولا يجوز أن يقال : جميعها لزيد وجميعها لعمرو . والجواب أن يقال : إن ظاهر قوله « هِي مواقيت لِلناس

(١) الزيادة عن الموطأ .　　(٢) راجع جـ ١٩ ص ١٣٨ .　　(٣) راجع جـ ٤ ص ١٤٢ .
(٤) راجع جـ ٨ ص ١٣٦ .

Marfat.com

والحج» يقتضى كون جميعها مواقيت للناس وجميعها مواقيت للحج، ولو أراد التبعيض لقال: بعضها مواقيت للنـاس وبعضها مواقيت للحج . وهـذا كما تقول : إن شهر رمضان ميقات لصوم زيد وعمرو . ولا خلاف أن المراد بذلك أن جميعه ميقات لصوم كل واحد منهما . وما ذكروه من الجارية فصحيح ؛ لأن كونها جمعـاء لزيد مع كونها جماء لعمرو مستحيل ، وليس كذلك فى مسئلتنا ؛ فإن الزمان يصح أن يكون ميقاتاً لزيد وميقاتاً لعمرو ؛ فبطل ما قالوه.

التاســعة — لا خلاف بين العلماء أن من باع معلوماً من السَّلَع بثمن معلوم إلى أجل معلوم من شهور العرب أو إلى أيام معروفة العـدد أن البيع جائز . وكذلك قالوا فى السَّلَم إلى الأجل المعلوم . وٱختلفوا فى من باع إلى الحصاد أو إلى الدِّياس أو إلى العطاء وشبه ذلك ؛ فقال مالك : ذلك جائز لأنه معروف ؛ وبه قال أبو ثور . وقال أحمد : أرجو ألا يكون به بأس . وكذلك إلى قدوم الغزاة . وعن ٱبن عمر أنه كان يبتاع إلى العطاء . وقالت طائفة . ذلك غير جائز ؛ لأن الله تعالى وقَّت المواقيت وجعلها عَلَماً لآجالهم فى بياعاتهم ومصالحهم . كذلك قال ٱبن عباس، وبه قال الشافعى والنعمان . قال ٱبن المنذر : قول ٱبن عباس صحيح .

العاشــرة — إذا رُؤى الهلال كبيرا فقـال علماؤنا : لا يُعوَّل على كبره ولا على صغره وإنمـا هو ٱبن ليلته . روى مسلم عن أبى البَخْتَرِىّ قال : خرجنا للعُمْرة فلما نزلنا ببطن نَخْلة قال : تراءينا الهلال؛ فقال بعض القوم : هو ٱبن ثلاث، وقال بعض القوم : هو ٱبن ليلتين . قالَ : فلقينا ٱبنَ عباس فقلنا : إنا رأينا الهلال فقال بعض القوم هو ٱبن ثلاث، وقال بعض القـوم هو ٱبن ليلتين . فقال : أىَّ ليلة رأيتموه؟ قال فقلنا : ليـلة كذا وكذا . فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله مدّه للرؤية " فهو لِلَيْلَةِ رأيتموه .

الحادية عشرة — قوله تعـالى : ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا ﴾ اتصـل هـذا بذكر مواقيت الحج لاتفاق وقوع القضيتين فى وقت السؤال عن الأهـلّة وعن دخول البيوت من ظهورها ؛ فنزلت الآية فيهما جميعًا . وكان الأنصار إذا حجّوا وعادوا لا يدخلون من أبواب بيوتهم، فإنهم كانوا إذا أهلّوا بالحج أو العمرة يلتزمون شرعًا ألا يحول بينهم و بين

Marfat.com

السماء حائل، فإذا خرج الرجل منهم بعد ذلك ، أى من بعد إحرامه من بيته ، فرجع لحاجة لا يدخل من باب الحجرة من أجل سقف البيت أن يحول بينــه و بين السماء ؛ فكان يتسنم ظهر بيته على الجدران ثم يقوم فى حجرته فيأمر بحاجته فتخرج إليه من بيته . فكانوا يرون هذا من النسك والبرّ، كما كانوا يعتقدون أشياء نسكًا ؛ فردّ عليهم فيها، وبيّن الربّ تعالى أن البرّ فى آمتثال أمره . وقال آبن عباس فى رواية أبى صالح : كان الناس فى الجاهلية وفى أوّل الإســلام إذا أحرم رجل منهم بالحج فإن كان من أهل المَــدَر — يعنى من أهل البيوت — نقب فى ظهر بيته فمنه يدخل ومنه يخرج، أو يضع سُلَّمًا فيصعد منه وينحدر عليه . وإن كان من أهل الوَبَر — يعنى أهل الخيــام — يدخل من خلف الخيام الخيمةَ ، إلا من كان من الحُمْس . وروى الزهرىّ أن النبيّ صلى الله عليه وســلم أهلّ زمن الحُدَيْبِيَــة بالعُمْرة فدخل حجرته ودخل خلفه رجل أنصارىّ من بنى ســلمة ، فدخل وخرق عادة قومه ؛ فقال له النبىّ صلى الله عليه وســلم : "لِمَ دخلت وأنت قــد أحرمت" . فقــال : دخلتَ أنت فدخلتُ بدخولك . فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم: "إنى أَحْمَس" أى من قوم لا يدينون بذلك . فقال له الرجل : وأنا دينى دينك؛ فنزلت الآية ، وقاله آبن عباس وعطاء وقتــادة . وقيل : إن هذا الرجل هو قطبة بن عامر الأنصارى .

والحُمْسُ : قريش وكِنَانة وخُزاعة وثَقيف وجشم (١) و بنــو عامر بن صعصعة و بنو نصر آبن معاوية . وسُمُّوا حُمْسًا لتشديدهم فى دينهم . والحماسة الشدّة . قال العجاج :

* وكم قَطَعنا من قِفافٍ (٢) حُمْسٍ *

أى شــداد . ثم آختلفوا فى تأويلها ؛ فقيل ما ذكرنا ، وهو الصحيح . وقيــل : إنه النَّسِىء وتأخير الحج به ، حتى كانوا يجعلون الشهر الحلال حرامًا بتأخير الحج إليــه ، والشهرَ الحرامَ حلالًا بتأخير الحج عنه ؛ فيكون ذكر البيوت على هــذا مثلًا لمخالفة الواجب فى الحج وشهوره .

(١) كذا فى ج . وفى سائر الأصول والفخر الرازى : « خيثم » . وفى البحر لأبى حيان : « خثعم » .
(٢) فى نسخ الأصل : «قفار» بالراء، والتصويب عن اللسان . والقفاف : الأماكن الغلاظ الصلبة .

Marfat.com

وسيأتى بيان النَّسِىء فى سورة « براءة »(١) إن شاء الله تعـالى . وقال أبو عبيدة : الآية ضَرْب مَثَل ، المعنى ليس البر أن تسألوا الجهال ولكن آتقوا الله وآسألوا العلماء؛ فهـذا كما تقول : أتيت هذا الأمر من بابه . وحكى المهدوىّ ومكىّ عن آبن الأنبارى، والمـاوردىّ عن آبن زيد أن الآية مَثَل فى جماع النساء ، أمر بإتيانهن فى القُبُل لا من الدُّبُر . وسُمِّى النساء بيوتاً للإيواء إليهن كالإيواء إلى البيوت . قال آبن عطية : وهـذا بعيد مغيِّر نَمَط الكلام . وقال الحسن : كانوا يتطيّرون ، فمن سافر ولم تحصل حاجته كان يأتى بيتـه من وراء ظهره تطيُّراً من الخيبة؛ فقيل لهم : ليس فى التّطير بِرٌّ، بل البِرّ أن تتقوا الله وتتوكّلوا عليه .

قلت : القول الأوّل أصح هذه الأقوال ، لمـا رواه البَرَاء قال : كان الأنصار إذا حَجُّوا فرجعوا لم يدخلوا البيوت من أبوابها ؛ قال : فجاء رجل من الأنصار فدخل من بابه، فقيل له فى ذلك، فنزلت هذه الآية : « وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا » وهذا نصٌّ فى البيوت حقيقة . خرّجه البخارىّ ومسلم . وأما تلك الأقوال فتؤخذ من موضع آخر لا من الآية ، فتأمّله . وقد قيل : إن الآية خرجت مخرج التنبيه من الله تعالى على أن يأتوا البِرّ من وجهه ، وهو الوجه الذى أمر الله تعالى به ؛ فذكر إتيـان البيوت من أبوابها مثلاً يشير به إلى أن نأتى الأمور من مأتاها الذى ندبنا الله تعالى إليه .

قلت : فعلى هـذا يصح ما ذُكر من الأقوال . والبيوت جمع بيت ، وقرئ بضم البـاء وكسرها . وتقدّم معنى التقوى والفلاح ولعل، فلا معنى للإعادة(٢) .

الثانيـة عشرة — فى هـذه الآية بيان أن ما لم يَشْرعه الله قُرْبة ولا نَدَب إليـه لا يصير قربة بأن يتقرب به متقرّب . قال آبن خُوَيْزِ مَنْدَاد : إذا أشكل ما هو بِرّ وقُرْبة بمـا ليس هو بِرّ وقُرْبة أن ينظر فى ذلك العمل؛ فإن كان له نظير فى الفرائض والسنن فيجوز أن يكون، وإن لم يكن فليس بِبرّ ولا قُرْبة . قال : وبذلك جاءت الآثار عن النبىّ صلى الله عليه وسلم . وذكر حديث آبن عباس قال : بينما رسـول الله صلى الله عليه وسلم يخطب إذا هو برجل قائم

---

(١) راجع جـ ٨ ص ١٣٦ (٢) راجع جـ ١ ص ١٦١، ١٨٢، ٢٢٧ طبعة ثانية .

Marfat.com

فى الشمس فسأل عنه، فقالوا: هو أبو إسرائيل[1]؛ نذر أن يقومَ ولا يقعدَ ولا يَسْتَظِلّ ولا يتكلمّ ويصوم. فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "مُرُوه فلْيتكلّمْ وليستظِلّ وليقعدْ وليُتِمّ صومَه". فأبطل النبيّ صلى الله عليه وسلم ما كان غير قُرْبة ممـا لا أصل له فى شريعته، وصحّح ما كان قُرْبة مما له نظير فى الفرائض والسُّنَن.

قوله تعالى: ﴿ وَقَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَـدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ (١٩٠) ﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـــ قوله تعـالى: ﴿ وَقَاتِلُوا ﴾ هذه الآية أوّل آية نزلت فى الأمر بالقتال؛ ولا خلاف فى أن القتـال كان محظورا قبل الهجرة بقـوله: « ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ »[2] وقوله: « فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ »[3] وقوله: « وَٱهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً »[4] وقوله: « لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ »[5] وما كان مثله مما نزل بمكة. فلما هاجر إلى المدينة أُمِر بالقتال فنزل: « وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ » قاله الربيع بن أنس وغيره. وروى عن أبى بكر الصدّيق أن أوّل آية نزلت فى القتال: « أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا »[6]. والأوّل أكثر، وأن آية الإذن إنمـا نزلت فى القتال عامّةً لمن قاتل ولمن لم يقاتل من المشركين؛ وذلك أن النبيّ صلى الله عليه وسلم خرج مع أصحابه إلى مكة للعُمْرة، فلما نزل الحُدَيْبِيَة بقُرب مكة ـــ والحُدَيْبِيَة اسم بئر، فسُمّىَ ذلك الموضع باسم تلك البئر ـــ فصدّه المشركون عن البيت، وأقام بالحُدَيْبِيَة شهراً، فصالحوه على أن يرجع من عامه ذلك كما جاء؛ على أن تُخْلَى له مكة فى العام المستقبل ثلاثة أيام، وصالحوه على ألا يكون بينهم قتال عشر سنين، ورجع إلى المدينة. فلما كان من قابل تجهّز لعُمْرة القضاء، وخاف المسلمون غدر الكفار وكرهوا القتال فى الحَرَم وفى الشهر الحرام، فنزلت هذه الآية؛ أى يحلّ لكم القتال إن قاتلكم الكفار. فالآية متصلة بما سبق من ذكر الحج وإتيان البيوت

(١) أبو إسرائيل هذا: رجل من الأنصار من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم، اختلف فى اسمه. راجع الاستيعاب والإصابة وأسد الغابة فى «باب الكنى». (٢) راجع جـ ١٢ ص ١٤٧ (٣) راجع جـ ٦ ص ١١٦ (٤) راجع جـ ١٩ ص ٤٤ (٥) راجع جـ ٢٠ ص ٣٧ (٦) راجع جـ ١٢ ص ٦٧

Marfat.com

من ظهورها، فكان عليه السلام يقاتل من قاتله ويَكُفّ عمن كَفّ عنه، حتى نزل «فَٱقْتُلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ» (١) فنسخت هذه الآية؛ قاله جماعة من العلماء. وقال آبن زيد والربيع: نسخها «وَقَاتِلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ كَافَّةً» (١) فأمر بالقتال لجميع الكفار. وقال آبن عباس وعمر بن عبد العزيز ومجاهد: هي مُحْكَمَة؛ أى قاتلوا الذين هم بحالة من يقاتلونكم، ولا تعتدوا فى قتل النساء والصبيان والرُّهبان وشبههم؛ على ما يأتى بيانه. قال أبو جعفر النحاس: وهذا أصح القولين فى السُّنة والنَّظر؛ فأما السُّنة فحديث آبن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى فى بعض مغازيه آمرأة مقتولة فكره ذلك، ونهى عن قتل النساء والصبيان؛ رواه الأئمة. وأمّا النَّظر فإن «فاعَل» لا يكون فى الغالب إلا من آثنين، كالمقاتلة والمشاتمة والمخاصمة؛ والقتال لا يكون فى النساء ولا فى الصبيان ومن أشبههم، كالرُّهبان والزَّمْنَى والشيوخ والأُجَراء فلا يُقتلون. وبهذا أوصى أبو بكر الصديق رضى الله عنه يزيد بن أبى سفيان حين أرسله إلى الشام؛ إلا أن يكون لهؤلاء إذاية؛ أخرجه مالك وغيره، وللعلماء فيهم صُوَر ستّ:

الأولى — النساء إن قاتلن قُتِلن؛ قال سُحْنون: فى حالة المقاتلة وبعدها، لعموم قوله: «وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ»، «وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ». وللمرأة آثار عظيمة فى القتال، منها الإمداد بالأموال، ومنها التحريض على القتال، وقد يخرجن ناشرات شعورهن نادبات مثيرات، معيِّرات بالفرار، وذلك يبيح قتلهن؛ غير أنهن إذا حصلن فى الأسر فالاسترقاق أنفع لسرعة إسلامهن ورجوعهن عن أديانهن، وتعذّر فرارهن إلى أوطانهن بخلاف الرجال.

الثانية — الصبيان فلا يُقتلون للنّهى الثابت عن قتل الذرّية، ولأنه لا تكليف عليهم؛ فإن قاتل [الصبىّ] قُتل.

الثالثة — الرُّهبان لا يُقتلون ولا يُسترقّون، بل يُترك لهم ما يعيشون به من أموالهم، وهذا إذا آنفردوا عن أهل الكفر، لقول أبى بكر ليزيد (٢): «وستَجِد أقوامًا زعموا أنهم حبَسوا

(١) راجع جـ ٨ ص ٧٢ وص ١٣٢ (٢) هو يزيد بن أبى سفيان بن حرب، أسلم يوم فتح مكة، وعقد له أبو بكر رضى الله عنه سنة ١٣ هـ مع أمراء الجيوش إلى الشام، وكان أوّل الأمراء الذين خرجوا إليها، وشيّعه أبو بكر راجلا، وقال له: «... وإنى موصيك بعشر: لا تقتلن امرأة ولا صبيا ولا كبيرا هرما ولا تقطعن شجرا مثمرا ولا تخربن عامرا ولا تعقرن شاة ولا بعيرا إلا لمأكلة ولا تحرقن نحلا ولا تفرقنه ولا تغلل ولا تجبن». راجع موطأ مالك باب الجهاد، وطبقات ابن سعد وتاريخ الطبري.

Marfat.com

أنفسهم لله ، فذرْهم وما زعموا أنهـم حَبَسُوا أنفسهم له » فإن كانوا مع الكفار فى الكنائس قُتلوا . ولو ترهّبت المرأة فروَى أشهب أنها لاتُهاج (١) . وقال سُحْنون : لايغيّر الترهُّب حكمها. قال القـاضى أبو بكر بن العـربى : « والصحيح عنـدى رواية أشهب ، لأنها داخلة تحت قوله : فذرهم وما حَبَسُوا أنفسهم له » .

الرابعـــة — الزَّمْنَى . قال سُحْنون : يُقتلون . وقال ٱبن حبيب : لايُقتلون . والصحيح أن تُعتبر أحوالهم ؛ فإن كانت فيهم إذاية قُتلوا ، و إلا تُركوا وما هم بسبيله من الزَّمانة وصاروا (٢) مالا على حالهم وحشوة .

الخامســـة — الشيوخ . قال مالك فى كتاب محمد : لا يُقتلون . والذى عليـه جمهور الفقهاء : إن كان شيخًا كبيرًا هرِمًا لا يُطيق القتال ، ولا يُنتفع به فى رأيٍ ولا مدافعـة فإنه لا يُقتل ؛ وبه قال مالك وأبو حنيفة . وللشافعى قولان : أحدهما — مثـل قول الجماعة . والثـانى — يُقتل هـو والراهب . والصحيح الأوّل لقـول أبى بكر ليزيد ؛ ولا مخالف له فثبت أنه إجماع . وأيضًا فإنه ممن لا يُقاتِل ولا يعين العدوّ فلا يجوز قتـله كالمرأة ، وأمّا إن كان ممن تخشى مضرّته بالحرب أو الرأى أو المـال فهذا إذا أُسِر يكون الإمام فيه مخيّرا بين خمسة أشياء : القتل أو المنّ أو الفداء أو الاسترقاق أو عَقْد الذمة على أداء الجزية .

السادســـة — العُسَفاء ، وهم الأُجراء والفلّاحون ؛ فقال مالك فى كتاب محمد : لايُقتلون . وقال الشافعى : يُقتل الفلاحون والأجراء والشيوخ الكبار إلا أن يُسلموا أو يؤدّوا الجزْية . والأوّل أصحّ ، لقوله عليه السلام فى حديث رِباح (٣) بن الربيع " الحقْ بخالد بن الوليد فلا يقتلنّ ذرّية ولا عَسيفًا " . وقال عمر بن الخطاب : ٱتقوا الله فى الذرّية والفلّاحين الذين لايَنْصُبون لكم الحرب . وكان عمر بن عبد العزيز لا يَقتل حرّاثا ؛ ذكره ٱبن المنذر .

---

(١) لا تهاج : أى لا تزعج ولا تنفر .　　(٢) هكذا فى الأصول .

(٣) رباح ، بباء موحدة ، وقيل : بالياء المثناة من تحت . راجع تهذيب التهذيب فى حرف الراء .

Marfat.com

الثانيــة — روى أشهب عن مالك أن المراد بقوله : « وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ » أهلُ الحُدَيْبِيَة[(١)] أمروا بقتال من قاتلهم . والصحيح أنه خطاب لجميع المسلمين؛ أُمِر كلّ أحد أن يقاتل من قاتله إذ لا يمكن سواه . ألا تراه كيف بيّنها فى سورة « براءة » بقوله : « قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ[(٢)] » وذلك أنّ المقصود أوّلاً كان أهل مكة فتعيّنت البداءة بهم ؛ فلما فتح الله مكة كان القتال لمن يلى ممن كان يؤذى حتى تعمّ الدعوة وتبلغ الكلمة جميع الآفاق ولا يبقى أحد من الكفرة ، وذلك باقٍ متمادٍ إلى يوم القيامة ، ممتدٌّ إلى غايةٍ هى قوله عليه السلام : "الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجْرُ والمغْنَمُ". وقيل: غايته نزول عيسى بن مريم عليه السلام ، وهو موافق للحديث الذى قبله ؛ لأن نزوله من أشراط الساعة.

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَعْتَدُوا ﴾ قيـل فى تأويله ما قدّمناه ، فهى مُحْكَمَة . فأما المرتدّون فليس إلا القتل أو التَّـوبة ، وكذلك أهل الزَّيغ والضـلال ليس إلا السيف أو التـوبة . ومن أسَرّ الاعتقـاد بالباطل[(٣)] ثم ظهر عليـه فهو كالزّنديق يُقتل ولا يُستتاب . وأما الخوارج على أئمة العدل فيجب قتالهم حتى يرجعوا إلى الحق . وقال قوم : المعنى لا تعتدوا فى القتال لغـير وجه الله ، كالحميّة وكسب الذّكر ، بل قاتلوا فى سـبيل الله الذين يقاتلونكم ؛ يعنى دِيناً و إظهاراً للكلمة . وقيل : «لا تعتدوا» أى لا تقاتلوا من لم يقاتل . فعلى هذا تكون الآية منسوخة بالأمر بالقتال لجميع الكفار ، والله أعلم .

قوله تعـالى : وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾

---

(١) فى ا ، ب ، ز : « أهل المدينة » .   (٢) راجع جـ ٨ ص ٢٩٧

(٣) فى بعض نسخ الأصل : « ... بالباطن ... » بالنون .

Marfat.com

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾ يقال : ثَقِف يثقُف ثقْفاً وثقفاً، ورجل ثَقْفٌ لَقْفٌ : إذا كان مُحكِماً لمـا يتناوله من الأمور. وفى هذا دليل على قتل الأسير، وسيأتى بيان هذا فى « الأنفال »(١) إن شاء الله تعـالى . ﴿ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ﴾ أى مكة . قال الطبرى : الخطاب للمهاجرين، والضمير لكفار قريش .

الثانيــة — قوله تعـالى : ﴿ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَـدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ أى الفتنة التى حملوكم عليها وراموا رجوعكم بها إلى الكفر أشـدّ من القتل . قال مجاهـد : أى من أن يقتل المؤمن ؛ فالقتل أخفّ عليـه من الفتنة . وقال غيره : أى شركهم بالله وكفرهم به أعظم جُرْماً وأشدّ من القتل الذى عيّروكم به . وهذا دليل على أن الآية نزلت فى شأن عمرو بن الحَضْرمِىّ حين قتله واقد بن عبـد الله التميمى فى آخر يوم من رجب الشهر الحـرام ، حسب ما هو مذكور فى سَرِيّة عبد الله بن جَحْش، على ما يأتى بيانه(٢)؛ قاله الطبرى وغيره .

الثالثــة — قوله تعـالى : ﴿ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيـهِ ﴾ الآية . للعلماء فى هذه الآية قولان : أحدهما — أنها منسوخة ، والثـانى — أنها مُحْكمة . قال مجاهد : الآية مُحْكَمة ، ولا يجوز قتال أحد فى المسجد الحرام إلا بعد أن يُقاتِل ؛ وبه قال طاوس ، وهو الذى يقتضيه نصّ الآية ، وهو الصحيح من القولين ، وإليه ذهب أبو حنيفة وأصحابه . وفى الصحيح عن ابن عباس قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة : إن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحُرْمة الله تعالى إلى يوم القيامة وإنه لم يَحِـلّ القتالُ فيه لأحد قبلى ولم يَحِـلّ لى إلا ساعةً من نهار فهو حرام بحُـرْمة الله إلى يوم القيامة". وقال قتادة : الآية منسوخة بقوله تعالى : « فَإِذَا ٱنْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ »(٣) . وقال مُقاتل : نسخها قوله تعالى : « وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ » ثم نسخ هـذا قولُه : « ٱقْتُلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ » . فيجوز الابتداء بالقتال فى الحَرَم .

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٠ (٢) راجع جـ ٣ ص ٤٩ (٣) راجع جـ ١ ص ٧٢

Marfat.com

ومما آحتجّوا به أن «براءة» نزلت بعد سورة «البقرة» بسنتين، وأن النبيّ صلى الله عليه وسلم دخل مكة وعليه المِغْفَر (١)؛ فقيل : إن آبن خَطَل متعلّق بأستار الكعبة؛ فقال : "اقتلوه".

وقال آبن خُوَيْزِمَنْداد : «وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ» منسوخة؛لأن الإجماع قد تقرّر بأن عَدُوًّا لو آستولى على مكة وقال: لأقاتلكم، وأمنعكم من الحج ولا أبرح من مكة لوجب قتاله وإن لم يبدأ بالقتال؛ فمكة وغيرها من البلاد سواء. وإنما قيل فيها: هي حرام تعظيمًا لها؛ ألا ترى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث خالد بن الوليد يوم الفتح وقال : "احصدهم بالسيف حتى تلقانى على الصَّفَا" حتى جاء العباس فقال : يا رسـول الله ، ذهبت قريش ، فلا قريش بعد اليوم. ألا ترى أنه قال فى تعظيمها: "وَلَا يَلْتَقِط لُقَطَتَهَا إلّا مُنْشِد" واللُّقَطة بها وبغيرها سواء. ويجوز أن تكون منسوخة بقوله : «وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَـةٌ» .

قال آبن العربى : «حضرتُ فى بيت المقدس — طهّره الله — بمدرسة أبى عُقْبة الحنفى، والقاضى الزَّنجانى يلقى علينا الدرس فى يوم جمعة، فبينا نحن كذلك إذ دخل علينا رجل بَهِيّ المَنْظَر على ظهره أطمار، فسلّم سلام العلماء وتصدّر فى صدر المجلس بمدارع الرِّعاء (٢)؛ فقال القاضى الزّنجانى : مَن السيد؟ فقال: رجل سلبه الشُّطّار (٣) أمس، وكان مقصدى هذا الحَرَم المقدّس؛ وأنا رجل من أهل صاغان من طلبة العـلم . فقال القاضى مبادرًا : سَلُوه — على العادة فى إكرام العلماء بمبادرة سؤالهم — ووقعت القرعة على مسألة الكافر إذا التجأ إلى الحَرَم هل يُقتل أم لا ؟ فأفتى بأنه لا يقتل . فسُئل عن الدليـل ؛ فقال قوله تعـالى : « وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ» قُرِئ «ولا تقتلوهم ،ولا تقاتلوهم» فإن قُرِئ «ولا تقتلوهم» فالمسألة نصّ، وإن قرئ « ولا تقاتلوهم » فهو تنبيه ؛ لأنه إذا نهى عن القتال الذى هو سبب القتـل كان دليلًا بيّنًا ظاهرًا على النهى عن القتل. فآعترض عليه القاضى منتصرًا للشافعيّ ومالك، وإن لم يرَ مذهبهما، على العادة، فقال : هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : « فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ

(١) المغفر ومثله المغفرة والغفارة (كلها بالكسر) : زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة .

(٢) المدرع والدرّاعة : ضرب من الثياب التى تلبس . وقيل : جبة مشقوقة المقدم .

(٣) الشطار : جمع شاطر، وهو الذى أعيا أهله ومؤدّبه خبثا .

Marfat.com

حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» . فقال له الصاغاني: هذا لا يليق بمَنْصب القاضي وعلمه؛ فإن هذه الآية التي ٱعترضتَ بها عامةٌ في الأماكن؛ والتي ٱحتججت بها خاصّة، ولا يجوز لأحد أن يقول: إن العامَّ يَنْسَخ الخاص . فبُهت القاضي الزَّنجاني، وهذا من بديع الكلام»(١). قال ٱبن العربي: « فإن لجأ إليه كافر فلا سبيل إليه ، لنصّ الآية والسُّنة الثابتة بالنّهى عن القتال فيــه . وأما الزاني والقاتل فلا بدّ من إقامة الحدّ عليه، إلا أن يبتدئ الكافرُ بالقتال فيُقتل بنصّ القرآن» .

قلت : وأما ما ٱحتجّوا به من قَتل ٱبن خَطَل وأصحابه فلا حجة فيه ، فإن ذلك كان في الوقت الذي أُحلّت له مكة وهي دار حَرْب وكُفْر ، وكان له أن يُريق دماء من شاء من أهلها في الساعة التي أُحلّ له فيها القتال . فثبت وصحّ أن القول الأوّل أصح، والله أعلم .

الرابعـــة – قال بعض العلماء : في هذه الآية دليل على أن الباغي على الإمام بخلاف الكافر؛ فالكافرُ يُقتل إذا قاتل بكل حال، والباغي إذا قاتل يقاتل بنية الدفع. ولا يُتْبَع مُدْبِر ولا يُجْهَز على جريح . على ما يأتي بيانه من أحكام الباغين في « الحجرات »(٢) إن شاء الله تعالى.

الخامســـة – قوله تعالى : ﴿فَإِنِ ٱنْتَهَوْا﴾ أي عن قتالكم بالإيمان فإن الله يغفر لهم جميع ما تقدّم، ويرحم كلًّا منهم بالعفو عما ٱجترم؛ نظيره قوله تعالى : «قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ»(٣) . وسيأتي .

قوله تعالى : ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ١٩٣﴾

فيه مسألتان :

الأولى – قوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ ﴾ أمْرٌ بالقتال لكل مشرك في كل موضع؛ على من رآها ناسخة . ومن رآها غير ناسخة قال: المعنى قاتلوا هؤلاء الذين قال الله فيهم : «فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ» والأوّل أظهر، وهو أمْرٌ بقتالٍ مطلق لا بشرط أن يبدأ الكفار . دليـل ذلك قوله تعالى : « ويكونَ الدِّينُ لِلهِ » ، وقال عليه السلام : " أُمِرْتُ أن أقاتل النـاس حتى يقولوا لا إله

(١) وردت عبارة ابن العربي في كتابه ببعض اختلاف عما في الأصول . (٢) راجع جـ ١٦ ص ٣١٥ فما بعدها . (٣) راجع جـ ٧ ص ٤٠١

Marfat.com

إلا الله". فدلّت الآية والحديث على أن سبب القتال هو الكفر، لأنه قال : «حتى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ » أي كفر ؛ فجعل الغاية عدم الكفر، وهذا ظاهر . قال ٱبن عباس وقتادة والربيع والسُّدّى وغيرهم : الفتنة هناك الشرك وما تابعه من أذى المؤمنين . وأصل الفتنة : الاختبار والامتحان ؛ مأخوذ من فَتَنْتُ الفضة إذا أدخلتها في النار لتميّز رديئها من جيّدها . وسيأتي بيان محاملها إن شاء الله تعالى .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ فَإِنِ ٱنْتَهَوْا ﴾ أي عن الكفر، إما بالإسلام كما تقدم في الآية قبلُ، أو بأداء الجِزْية في حق أهل الكتاب ؛ على ما يأتي بيانه في «براءة»(١) وإلا قوتلوا وهم الظالمون لا عدوان إلا عليهم. وسُمِّىَ ما يصنع بالظالمين عدوانًا من حيث هو جزاء عدوان، إذ الظلم يتضمن العدوان، فسُمِّىَ جزاء العدوان عدوانًا ؛ كقوله : «وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا»(٢). والظالمون هم على أحد التأويلين : من بدأ بقتال، وعلى التأويل الآخر: من بقى على كُفْر وفتنة.

قوله تعالى : ﴿ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (١٩٤)

فيه عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ ﴾ قد تقدم ٱشتقاق الشّهر(٣). وسبب نزولها ما رُوى عن ٱبن عباس وقتادة ومجاهد ومِقْسَم والسُّدّى والربيع والضحاك وغيرهم قالوا : نزلت في عُمْرة القضيّة وعام الحُدَيْبِيَة، (٤)[وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج مُعْتَمِرًا حتى بلغ الحديبية] في ذي القعدة سنة ستّ ، فصدّه المشركون كفارُ قريش عن البيت فٱنصرف ؛ ووعده الله سبحانه أنه سيدخله ، فدخله سنة سبع وقضى نُسكه ؛ فنزلت هذه الآية . ورُوى عن الحسن أن المشركين قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم : أَنُهِيتَ يا محمد عن القتال في الشهر الحرام ؟ قال: "نعم" . فأرادوا قتاله ؛ فنزلت الآية . المعنى : إن ٱستحلُّوا ذلك فيه فقاتلهم ؛ فأباح الله بالآية مدافعتهم، والقول الأوّل أشهر وعليه الأكثر .

(١) راجع جـ ٨ ص ١٠٩ (٢) راجع جـ ١٦ ص ٤٠ (٣) راجع ص ٢٩٠ من هذا الجزء.
(٤) ما بين المربعين ساقط من ب .

Marfat.com

الثانيـــة ـــ قوله تعـالى : ﴿ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ﴾ الحُرمات جمع حُرْمة، كالظُّلُمات جمع ظُلْمة، والحُجُرات جمع حُجرة . و إنما جُمعت الحُرُمات لأنه أراد [حُرْمة] الشهر الحرام [وحُرْمة] البـلد الحرام، وحُرْمة الإحرام . والحُـرْمة : ما مُنِعْتَ من آنتها كه . والقصاص المساواة؛ أى آقتصصت لكم منهم إذ صدّوكم سنة سِتٍّ فقضيتم العُمْرة سنة سبع . فـ « الحُرُمات قصاصٌ » على هذا متّصل بمـا قبله ومتعلّق به . وقيل : هو مقطوع منه . وهو آبتداءُ أمرٍ كان فى أوّل الإسلام : إن مَن آنتهك حُرْمتك نِلت منه مثلَ ما آعتدى عليك؛ ثم نسخ ذلك بالقتـال . وقالت طائفة : ما تناولت الآية من التعدّى بين أمة محمد صلى الله عليه وسـلم والجنايات ونحوها لم يُنسخ، وجاز لمن تُعُدِّىَ عليه فى مال أو جرح أن يَتعدّى بمثل ما تُعُدِّىَ به عليه إذا خَفِى[1] له ذلك، وليس بينه و بين الله تعالى فى ذلك شىء؛ قاله الشافعى وغيره، وهى رواية فى مذهب مالك . وقالت طائفة من أصحاب مالك : ليس ذلك له، وأمور القصاص وَقْفٌ على الحكام . والأموال يتناولها قوله صلى الله عليه وسلم : " أدّ الأمانة إلى من آئتمنك ولا تَخُن من خانك " . خرّجه الدّارقطنىّ وغيره . فمن آئتمنه من خانه فلا يجوز له أن يخونه و يصل إلى حقه مما آئتمنه عليه، وهو المشهور من المذهب، و به قال أبو حنيفة تمسّكًا بهذا الحديث، وقوله تعالى : « إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا[2] » . وهو قول عطاء الخُراسانىّ . قال قُدَامة بن الهَيْثَم : سألت عطاء بن مَيْسرة الخراسانى فقلت له : لى على رجل حقّ، وقد جحدنى به وقد أعيا علىّ البيّنة، أفأقتص من ماله ؟ قال : أرأيت لو وقع بجاريتك، فعلمت ما كنت صانعا .

قلت : والصحيح جواز ذلك كيف ما توصّل إلى أخذ حقّه مالم يعدّ سارقًا؛ وهو مذهب الشافعىّ وحكاه الدّاودى عن مالك، وقال به آبن المنـذر، وآختاره آبنِ العربى، وأن ذلك ليس خيانة و إنما هو وصول إلى حق . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا " وأخذ الحق من الظالم نَصْرٌ له . وقال صلى الله عليه وسلم لهِنْد بنت عُتْبة آمرأة أبى سُفيان لمـا قالت له : إن أبا سفيان رجل شَحيح لا يعطينى من النفقة ما يكفينى و يكفى بَنِىّ إلا ما أخذتُ من ماله بغير علمه، فهل علىّ جناح ؟ فقال رسـول الله صلى الله

(١) قوله : « إذا خفى » أى ظهر . وهذا اللفظ من الأضداد؛ يقال : خفيت الشى : كتمته . وخفيته : أظهرته . راجع جـ ١١ ص ١٨٢ 　　(٢) راجع جـ ٥ ص ٢٥٥

Marfat.com

عليه وسلم : " خُذِى ما يَكفيك ويَكْفِى وَلَدَك بالمعروف " . فأباح لها الأخذ وألّا تأخذ إلا القدر الذى يجب لها . وهذا كله ثابت فى الصحيح ، وقولُه تعـالى : « فَمَنِ ٱعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَى عَلَيْكُمْ » قاطع فى موضع الخلاف .

الثالثـــة — وٱختلفوا إذا ظَفِر له بمـال من غير جنس ماله ؛ فقيل : لا يأخذ إلا بحُكم الحاكم . وللشافعىّ قولان، أصحهما الأخذ، قياسًا على ما لو ظَفِر له من جنس ماله . والقول الثانى لا يأخذ لأنه خلاف الجنس . ومنهم من قال : يتحرّى قيمة ما له عليه ويأخذ مقدار ذلك . وهذا هو الصحيح لمـا بيّناه من الدليل، والله أعلم .

الرابعـــة — وإذا فرّعنا على الأخذ فهل يعتبر ما عليـه من الديون وغير ذلك ؛ فقـال الشافعىّ : لا ، بل يأخذ ماله عليه . وقال مالك : يعتبر ما يحصل له مع الغرماء فى الفلس ؛ وهو القياس، والله أعلم .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾ عموم متّفق عليه، إمّا بالمباشرة إن أمكن، وإمّا بالحُكّام . وٱختلف الناس فى المكافأة هل تُسمّى عُدوانًا أم لا ؛ فمن قال : ليس فى القرآن مجـاز ، قال : المقابلة عدوان، وهو عدوان مباح، كما أن المجاز فى كلام العرب كذب مباح؛ لأن قول القائل :

* فقالت له العينان سمعًا وطاعة *

وكـذلك :

* ٱمتــلأ الحوض وقال قَطْنِى *

وكـذلك :

* شـكا إلىّ جملى طول السُّرَى *

ومعلوم أن هذه الأشياء لا تَنطق . وحدّ الكذب : إخبار عن الشىء على خلاف ما هو به . ومن قال فى القرآن مجاز سمّى هـذا عدوانًا على طريق المجاز ومقابلة الكلام بمثـله ؛ كما قال عمرو بن كلثوم :

ألَا لا يجهلن أحـد علينـا * فنجهلَ فوق جهـل الجاهلينـا

Marfat.com

وقال الآخر :

وَلِى فَرَسٌ لِلحِلْمِ بالحِـــلم مُلْجَمٌ * ولى فرس للجهل بالجهل مُسْرَجُ
ومن رام تقويمى فإنى مُقَـــوَّمٌ * ومن رام تعــويجى فإنى مُعَوَّجُ

يريد : أكافئ الجاهل والمعوَّج ، لا أنه آمتدح بالجهل والأعوجاج .

السادســـة — وآختلف العلماء فيمن آستهلك أو أفسد شيئا من الحيوان أو العُرُوض التى لا تكال ولا توزن ؛ فقال الشافعى وأبو حنيفة وأصحابهما وجماعة من العلماء : عليه فى ذلك المِثْل ، ولا يُعدَل إلى القيمة إلا عند عدم المثل ؛ لقوله تعالى : « فَمَنِ ٱعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَى عَلَيْكُمْ » وقوله تعالى : « وَ إِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ »(1) .

قالوا : وهذا عموم فى جميع الأشياء كلها ، وعَضَدُوا هذا بأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم حبس القَصعة المكسورة فى بيت التى كسرتها ودفع الصحيحة وقال : "إناءٌ بإناء وطعامٌ بطعام" خرّجه أبو داود قال : حدّثنا مسدّد حدّثنا يحيى ح وحدّثنا محمد بن المثنى حدّثنا خالد عن حميد عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عند بعض نسائه ، فأرسلت إحدى أمّهات المؤمنين مع خادم قَصعة فيها طعام ، قال : فضربت بيدها فكسرت القصعة . قال آبن المثنّى : فأخذ النبيّ صلى الله عليه وسلم الكسرتين فضمّ إحداهما إلى الأخرى ، فجعل يجمع فيها الطعام ويقول : "غارت أمّكم" . زاد آبن المثنّى "كُلُوا" فأكلوا حتى جاءت قصعتها التى فى بيتها . ثم رجعنا إلى لفظ حديث مسدّد وقال : "كُلُوا" وحبس الرسولَ والقصعةَ حتى فرغوا ، فدفع القصعة الصحيحة إلى الرسول وحبس المكسورة فى بيته . حدّثنا أبو داود قال : حدّثنا مسدّد حدّثنا يحيى عن سفيان قال وحدّثنا فُلَيْتٌ العامرىّ — قال أبو داود : وهو أَفْلَت بن خليفة — عن جَسْرة بنت دَجاجة قالت قالت عائشة رضى الله عنها : ما رأيت صانعاً طعاما مثل صَفِيّة ؛ صنعتْ لرسول الله صلى الله عليه وسلم طعامًا فبعثتْ به ، فأخذنى أَفْكَلٌ(2) فكسرتُ الإناء ، فقلت : يا رسول الله ، ما كفارة ما صنعتُ ؟ قال : " إناءٌ مثل إناءٍ وطعامٌ مثلُ طعام " . قال مالك

(1) راجع جـ ١٠ ص ٢٠٠		(2) الأفكل (على وزن أفعل) : الرعدة . أى ارتعدت من شدّة الغيرة .

Marfat.com

وأصحابه : عليه فى الحيوان والعروض التى لا تُكال ولا توزن القيمةُ لا المِثل؛ بدليل تضمين النبيّ صلى الله عليه وسلم الذى أعتق نصف عبده قيمةَ نصف شريكه ، ولم يضمّنه مثل نصف عبده . ولا خلاف بين العلماء على تضمين المِثل فى المطعومات والمشروبات والموزونات؛ لقوله عليه السلام : " طعامٌ بطعام ".

السابعة — لاخلاف بين العلماء أن هذه الآية أصل فى المماثلة فى القصاص؛ فن قَتل بشىء قُتِل بمثل ما قَتل به ؛ وهو قول الجمهور ، مالم يقتله بفسق كاللّوطية وإسقاء الخمر فيُقتل بالسيف . وللشافعية قول : إنه يُقتل بذلك ؛ فيُتّخذ عود على تلك الصفة ويُطعن به فى دُبُره حتى يموت ، ويُسقى عن الخمر ماء حتى يموت . وقال آبن الماجشون : إن من قَتل بالنار أو بالسمّ لا يُقتل به ؛ لقول النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لايعذّب بالنار إلا الله". والسمّ نار باطنة . وذهب الجمهور إلى أنه يُقتل بذلك ؛ لعموم الآية .

الثامنة — وأما القَوَد بالعصا فقال مالك فى إحدى الروايتين : إنه إن كان فى القتل بالعصا تطويل وتعذيب قُتِل بالسيف؛ رواه عنه آبن وهب، وقاله آبن القاسم. وفى الأخرى: يُقتل بها وإن كان فيه ذلك؛ وهو قول الشافعى . وروى أشهب وآبن نافع عن مالك فى الحجر والعصا أنه يُقتل بهما إذا كانت الضَّربة مُجْهِزة؛ فأمّا أن يُضرب ضربات فلا . وعليه لا يُرْمَى بالنَّبل ولا بالحجارة لأنه من التعذيب؛ وقاله عبد الملك . قال آبن العربى: «والصحيح من أقوال علمائنا أن المماثلة واجبة، إلا أن تدخل فى حدّ التعذيب فلتترك إلى السيف». وآتفق علماؤنا على أنه إذا قطع يده ورجله وفقأ عينه قصْدَ التعذيب فُعل به ذلك، كما فعل النبيّ صلى الله عليه وسلم بقَتَلَة الرِّعاء[1] . وإن كان فى مدافعة أو مضاربة قتل بالسيف . وذهبت طائفة إلى خلاف هذا كله فقالوا: لا قَوَد إلا بالسيف، وهو مذهب أبى حنيفة والشّعبىّ والنَّخَعىّ.

---

(١) هم قوم من عُرَيْنة قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلموا وآستوخموا المدينة وسقمت أجسامهم وآصفرت ألوانهم وعظمت بطونهم ؛ فبعث بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى إبل الصدقة وأمرهم أن يشربوا من ألبانها وأبوالها حتى صحّوا فقتلوا رعاتها واستاقوا الإبل ؛ فبعث نبى الله فى طلبهم فأتى بهم فقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم . راجع كتب السنة فى هذا الحديث .

Marfat.com

واحتجّوا على ذلك بما رُوِىَ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "لا قَوَد إلا بحديدة"، وبالنهى عن المُثْلة، وقوله : "لا يُعذِّب بالنار إلّا رَبُّ النار". والصحيح ماذهب إليه الجمهور، لما رواه الأئمة عن أنس بن مالك أن جارية وُجِد رأسها قد رُضّ بين حجرين؛ فسالوها : مَن صَنع هذا بك ! أفلان، أفلان؟ حتى ذكروا يهوديًّا فأَوْمأت برأسها، فأُخذ اليهودى فأقرّ، فأمَر به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تُرَضّ رأسه بالحجارة . وفى رواية : فقتله رسول الله صلى الله عليه وسلم بين حجرين . وهذا نصٌّ صريح صحيح، وهو مقتضى قوله تعالى : « وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ » وقوله : « فَٱعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَى عَلَيْكُمْ » وأمّا ما استدلّوا به من حديث جابر فحديث ضعيف عند المحدّثين، لا يروَى من طريق صحيح، ولو صح قلنا بموجبه، وأنه إذا قَتل بحديدة قُتِل بها ؛ يدلّ على ذلك حديث أنس : أن يهوديًّا رَضّ رأس جارية بين حجرين فَرَضّ رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه بين حجرين . وأمّا النَّهى عن المُثْلة فنقول أيضًا بموجبها إذا لم يُمَثِّل، فإذا مَثّل مَثّلنا به ؛ يدلّ على ذلك حديث العُرَنِيِّين، وهو صحيح أخرجه الأئمة . وقوله : "لا يُعذِّب بالنار إلّا ربُّ النار" صحيح إذا لم يَحرِق، فإن حَرق حُرِق؛ يدلّ عليه عموم القرآن . قال الشافعيّ : إن طرحه فى النار عمدًا طُرِح فى النار حتى يموت؛ وذكره الوَقَار(1) فى مختصره عن مالك، وهو قول محمد بن عبد الحكم . قال ابن المنذر : وقول كثير من أهل العلم فى الرجل يَخْنُق الرجلَ : عليه القَوَد ؛ وخالف فى ذلك محمد بن الحسن فقال : لو خنقه حتى مات أو طرحه فى بئر فمات، أو ألقاه من جبل أو سطح فمات، لم يكن عليه قصاص وكان على عاقلته الدِّية ؛ فإن كان معروفًا بذلك — قد خَنق غير واحد — فعليه القتل . قال ابن المنذر : ولما أقاد النبيّ صلى الله عليه وسلم من اليهوديّ الذى رَضّ رأس الجارية بالحجر كان هذا فى معناه، فلا معنى لقوله .

قلت : وحكى هذا القول غيره عن أبى حنيفة فقال : وقد شذّ أبو حنيفة فقال فيمن قتل بخَنْق أو بسُمّ أو تردية من جبل أو بئر أو بخشبة : إنه لا يُقتل ولا يُقتصّ منه، إلا إذا

---

(1) الوقار (كسحاب) : لقب زكريا بن يحيى بن إبراهيم الفقيه المصرى، أخذ عن ابن القاسم وابن وهب .

Marfat.com

قتل بحـدّد حديد أو حجر أو خشب أو كان معروفاً بالخنق والتّردية وكان على عاقلته الدّية . وهذا منه ردٌّ للكتاب والسُّنة، وإحداثُ مالم يكن عليه أمر الأمة، وذَرِيعةٌ إلى رفع القصاص الذى شرعه الله للنفوس، فليس عنه مناص .

التاسـعة — وٱختلفوا فيمن حبس رجلا وقتـله آخر؛ فقـال عطاء : يُقتـل القاتل ويُحْبَس الحابس حتى يموت . وقال مالك : إن كان حبسه وهو يرى أنه يريد قتله قُتلا جميعاً؛ وفى قول الشافعيّ وأبى ثور والنُّعمان يُعاقَب الحابس . وٱختاره ٱبن المنذر .

قلت : قول عطاء صحيح، وهو مقتضى التنزيل . وروى الدّارَقُطْنِيّ عن ٱبن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم قال : " إذا أمسك الرجلُ الرجلَ وقتله الآخر يُقتل القاتل ويُحبس الذى أمسكه" . رواه سفيان الثورىّ عن إسماعيل بن أميـة عن نافع عن ٱبن عمر، ورواه معمر وٱبن جُريج عن إسماعيل مُرسَلًا .

العاشرة — قوله تعـالى : ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَى ﴾ الاعتداء هو التجاوز؛ قال الله تعالى : «وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ» [1] أى يتجاوزها؛ فمن ظلمك فخذ حقّك منه بقدر مظلمتك، ومن شتمك فردّ عليه مثلَ قوله، ومن أخذ عِرْضَك فخذ عِرضه؛ لا تتعدّى إلى أبويه ولا إلى ٱبنه أو قريبه، وليس لك أن تكذب عليه وإن كذب عليك، فإن المعصية لا تُقابل بالمعصية؛ فلو قال لك مثلاً : يا كافر، جاز لك أن تقول له : أنت الكافر . وإن قال لك : يازان، فقصاصك أن تقول له : يا كذّاب يا شاهد زُور . ولو قلت له يا زانٍ، كنت كاذباً وأثمتَ فى الكذب . وإن مَطَلك وهو غنيّ دون عُذر فقل : يا ظالم، يا آكل أموال الناس؛ قال النبيّ صلى الله عليه وسـلم : " لَيّ الواجِدِ يُحِلّ عِرْضَه وعقوبَته [2] " . أمّا عِرضه فبما فسّرناه، وأمّا عقوبته فالسجن يُحبس فيه . وقال ٱبن عباس : نزل هذا قبل أن يقوى الإسلام؛ فأمر مَن أوذِىَ من المسلمين أن يُجازى بمثل ما أوذِىَ به، أو يَصبر أو يعفو؛ ثم نسخ ذلك بقوله : «وَقَاتِلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ كَافَّةً» [3] . وقيل : نسـخ ذلك بتصييره إلى السلطان . ولا يحلّ لأحد أن يقتصّ من أحد إلا بإذن السلطان .

---

(١) راجع جـ ٣ ص ١٤٦ و جـ ١٨ ص ١٥٦ (٢) الليّ : المطل . والواجد : القادر على قضاء دينه .
(٣) راجع جـ ٨ ص ١٣٦

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — روى البخاري عن حذيفة : «وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ولا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إلى التَّهْلُكَة» قال : نزلت في النفقة . وروى يزيد بن أبي حبيب عن أسلم أبي عمران قال : غَزَوْنا القُسْطَنْطِينِيّة، وعلى الجماعة عبد الرحمن بن الوليد، والرومُ مُلْصِقُو ظهورهم بحائط المدينة، فحمل رجل على العدوّ، فقال الناس : مَهٍ مَهْ[(1)] ! لا إله إلا الله، يلقي بيديه إلى التهلكة ! فقال أبو أيوب : سبحان الله! أنزلت هذه الآية فينا معاشر الأنصار لما نصر الله نبيّه وأظهر دينه ؛ قلنا : هَلُمّ نقيم في أموالنا ونُصلحها ؛ فأنزل الله عز وجل : « وأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ » الآية . والإلقاء بالْيَد إلى التَّهْلُكَة أن نقيم في أموالنا ونصلحها وندع الجهاد . فلم يزل أبو أيوب مجاهدًا في سبيل الله حتى دُفن بالقسطنطينية ؛ فقبره هناك . فأخبرنا أبو أيوب أن الإلقاء باليد إلى التهلكة هو ترك الجهاد في سبيل الله ، وأن الآية نزلت في ذلك . ورُوي مثلُه عن حذيفة والحسن وقتادة ومجاهد والضحاك .

قلت : وروى الترمذي عن يزيد بن أبي حبيب عن أسلم أبي عمران هذا الخبر بمعناه فقال : « كنا بمدينة الروم، فأخرجوا إلينا صفًّا عظيمًا من الروم، فخرج إليهم من المسلمين مثلهم أو أكثر، وعلى أهل مصر عُقبة بن عامر، وعلى الجماعة فُضالة بن عُبيد ؛ فحمل رجل من المسلمين على صَفّ الروم حتى دخل فيهم، فصاح الناس وقالوا : سبحان الله ! يُلْقي بيديه إلى التهلكة . فقام أبو أيوب الأنصاري فقال : يأيها الناس، إنكم تتأوّلون هذه الآية هذا التأويل، وإنما أنزلت هذه الآية فينا معاشر الأنصار لما أعزّ الله الإسلام وكثر ناصروه ؛ فقال بعضنا لبعض سرا دون رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أموالنا قد ضاعت، وإن الله قد أعز الإسلام

(١) مه : زجر ونهي ؛ فإن وصلت نونت ، قلت : مه مه ؛ وكذلك صه .

Marfat.com

وكثر ناصروه، فلو أقمنا فى أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها؛ فأنزل الله على نبيّه صلى الله عليه وسلم يردّ علينا ما قلنا : « وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ » . فكانت التهلكة الإقامة على الأموال و إصلاحها وتركنا الغزو؛ فما زال أبو أيوب شاخصًا فى سبيل الله حتى دُفن بأرض الروم . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب صحيح » . وقال حُذيفة بن اليمان وآبن عباس وعكرمة وعطاء ومجاهد و جمهور الناس : المعنى لا تلقوا بأيديكم بأن تتركوا النفقة فى سبيل الله وتخافوا العَيْلة ، فيقول الرجل : ليس عندى ما أنفقه . و إلى هذا المعنى ذهب البخاريّ إذ لم يذكر غيره، والله أعلم . قال آبن عباس : أنفق فى سبيل الله، وإن لم يكن لك إلا سَهم أو مِشْقَص[(1)]، ولا يقولنّ أحدكم : لا أجد شيئًا . ونحوه عن السُّدّى : أنفق ولو عِقالًا ، ولا تُلق بيدك إلى التهلكة فتقول : ليس عنـدى شىء . وقول ثالث قاله آبن عباس ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم لمـا أمر الناس بالخروج إلى الجهاد قام إليه أناس من الأعراب حاضرين بالمدينة فقالوا : بماذا نتجهّز ! فوالله مالنا زاد ولا يطعمنا أحد؛ فنزل قوله تعالى : «وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ» يعنى تصدّقوا يا أهل المَيْسرة فى سبيل الله، يعنى فى طاعة الله « وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ » يعنى ولا تمسكوا بأيديكم عن الصدقة فتهلكوا؛ وهكذا قال مقاتل . ومعنى قول آبن عباس : ولا تمسكوا عن الصدقة فتهلكوا ؛ أى لا تمسكوا عن النفقة على الضعفاء ، فإنهم إذا تخلّفوا عنكم غلبكم العـدوّ فتهلكوا . وقول رابع — قيل للبراء ابن عازب فى هـذه الآية : أهو الرجل يحمل على الكتيبة ؟ فقال لا ، ولكنه الرجل يصيب الذنب فيُلقى بيديه و يقول : قد بالغت فى المعاصى ولا فائدة فى التوبة؛ فييأس من الله فينهمك بعد ذلك فى المعاصى . فالهلاك : اليأس من الله؛ وقاله عَبيدة السَّلْمانى . وقال زيد بن أسلم : المعنى لا تسافروا فى الجهاد بغير زاد ؛ وقد كان فَعَـل ذلك قوم فأدّاهم ذلك إلى الآنقطاع فى الطريق، أو يكون عالة على الناس . فهذه خمسة أقوال . و « سبيل الله » هنا : الجهاد ، واللفظ يتناول بعـدُ جميع سُبُله . والبـاء فى « بأيديكم » زائدة ، التقـدير تلقوا أيديكم .

(1) المشقص (كمنبر) : نصل عريض أو سهم فيه نصل ، يرمى به الوحش .

ونظيره : « أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى »[1] . وقال المبرّد : « بأيديكم » أى بأنفسكم ؛ فعبّر بالبعض عن الكل ؛ كقوله : « فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ »[2] ، « بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ »[3] . وقيل : هذا ضَرْب مَثَل ؛ تقول : فلان ألقى بيده فى أمر كذا إذا ٱستسلم ؛ لأن المستسلم فى القتال يُلْقِى سلاحه بيديه ، فكذلك فعلُ كلّ عاجز فى أى فعل كان ، ومنه قول عبد المطلب : « واللهِ إن إلقاءنا بأيدينا للموت لَعَجْزٌ »[4] . وقال قوم : التقدير لاتلقوا أنفسكم بأيديكم ؛ كما تقول : لاتفسد حالك برأيك . والتَّهْلُكة (بضم اللام) مصدر من هَلَك يَهْلِك هلاكًا وهُلْكًا وتَهْلُكة ، أى لا تأخذوا فيما يَهْلِككم ؛ قاله الزجاج وغيره . أى إن لم تنفقوا عصيتم الله وهلكتم . وقيل . إن معنى الآية لا تمسكوا أموالكم فيرثها منكم غيركم ، فتهلكوا بحرمان منفعة أموالكم . ومعنى آخر : ولا تمسكوا فيذهب عنكم الخلَف فى الدنيا والثواب فى الآخرة . ويقال : « لا تُلقوا بأيديكم إلى التهلكة » يعنى لاتنفقوا من حرام فيُرَدّ عليكم فتهلكوا . ونحوه عن عكرمة قال : «ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة» قال : «لَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ » . وقال الطبرى : قوله « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة» عامّ فى جميع ماذُكر لدخوله فيه ، إذ اللفظ يحتمله .

الثانيــــة ــ ٱختلف العلماء فى ٱقتحام الرجل فى الحرب وحَمْله على العدو وحدَه ؛ فقال القاسم بن مُخَيْمِرة والقاسم بن محمد وعبد الملك من علمائنا : لا بأس أن يحمل الرجل وحده على الجيش العظيم إذا كان فيــه قوّة ، وكان لله بنيّة خالصة ؛ فإن لم تكن فيه قوة فذلك من التهلكة . وقيل : إذا طلب الشهادة وخلصت النية فلْيحمل ، لأن مقصوده واحد منهــم ؛ وذلك بيّن فى قوله تعالى : « وَمِنَ النَّـاسِ مَنْ يَشْرِى نَفْسَــه ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ »[5] . وقال ابن خُوَيْزِ مَنْداد : فأمّا أن يحمل الرجل على مائة أو على جملة العسكر أو جماعة اللصوص والمحاربين والخوارج فلذلك حالتان : إن عَلِم وغَلب على ظنّه أن سيَقتل مَن حمل عليه ويَنجو فحَسَن ، وكذلك لو عَلِم وغَلب على ظنّه أن يُقتل ولكن سيُنْكِى نِكاية أو سيُبْلِى أو يؤثّر أثرًا يَنتفع به المسلمون فجائز أيضا . وقد بلغنى أن عسكر المسلمين لمـا لَقِىَ الفرس نَفَرت خيل المسلمين من

---

(١) راجع جـ ٢٠ ص ١٢٤ (٢) راجع جـ ١٦ ص ٣٠ (٣) فى نسخ الأصل : « بما كسبت » راجع جـ١٢ ص ١٦ (٤) عبارة عبـد المطلب كما أوردها ابن هشام فى سـيرته عند الكلام على حفر زمزم : «والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت لانضرب فى الأرض ونبتغى لأنفسنا لعجز...» الخ . (٥) راجع جـ٣ ص ٢٠

Marfat.com

الفِيَلة ، فعمَد رجل منهم فصنع فِيلًا من طين وأَنَّس به فرسه حتى أَلِفه ، فلمّا أصبح لم يَنْفِر فرسُه من الفيل فحمل على الفيل الذى كان يَقْدُمها فقيل له : إنه قاتلك . فقال : لا ضَيْر أن أُقتَل ويُفتح للسلمين . وكذلك يوم اليمامة لما تحصّنت بنو حنيفة بالحديقة ، قال رجل من المسلمين(١) : ضعونى فى الجَحَفة(٢) وألقونى إليهم ؛ ففعلوا وقاتلهم وحده وفتح الباب .

قلت : ومن هـذا ماروى أنّ رجلًا قال للنبىّ صلى الله عليه وسلم : أرأيت إن قُتِلتُ فى سبيل الله صابرًا مُحتَسِبًا؟ قال : "فلك الجنة" . فآنغمس فى العدو حتى قُتِل . وفى صحيح مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أُفرِدَ(٣) يومَ أُحُد فى سبعة من الأنصار ورجلين من قريش؛ فلما رَهِقُوه(٤) قال: "مَن يردّهم عنّا وله الجنة" أو "هو رفيقى فى الجنة" فتقدّم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل . [ثم رَهِقُوه أيضا فقال : " مَن يردّهم عنا وله الجنة " أو "هو رفيقى فى الجنة". فتقدّم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل](٥) . فلم يزل كذلك حتى قُتل السبعةُ ، فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم: "ما أنصفْنا أصحابَنا". هكذا الرواية «أنصفْنا» بسكون الفاء «أصحابَنا» بفتح الباء؛ أى لم نَدُلّهم(٦) للقتال حتى قتلوا . وروى بفتح الفاء ورفع الباء ، ووجهها أنها ترجع لمن فرّ عنه من أصحابه ، والله أعلم . وقال محمد بن الحسن : لو حمل رجل واحد على ألف رجل من المشركين وهو وحده ، لم يكن بذلك بأس إذا كان يطمع فى نجاة أو نكاية فى العدوّ ؛ فإن لم يكن كذلك فهو مكروه ؛ لأنه عرّض نفسه للتلف فى غير منفعة للسلمين . فإن كان قصده تجرئة المسلمين عليهم حتى يصنعوا مثل صنيعه فلا يبعد جوازه ، ولأن فيه منفعة للسلمين على بعض الوجوه . وإن كان قصده إرهاب العدو وليعلم صلابة المسلمين فى الدِّين فلا يبعد جوازه . وإذا كان فيه نفع للسلمين فتلفت نفسه لإعزاز دين الله وتوهين الكفر فهو المقام الشريف الذى مدح الله به المؤمنين فى قوله : « إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ »(٧) الآية ، إلى غيرها من آيات المدح التى مدح الله بها من بذل نفسه . وعلى ذلك ينبغى أن يكون حكم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أنه متى رَجَا نفعًا فى الدِّين فبذل نفسه فيه حتى قُتل كان

---

(١) هو البراء بن مالك ، أخو أنس بن مالك ، كما فى تاريخ الطبرى . (٢) الجحفة (بتقديم الحاء على الجيم والتحريك) : ترس يتخذ من الجلود . (٣) أفرد يوم أحد ، أى حين انهزم الناس وخلص إليه العدو . (٤) رهقه (بكسر ثانيه) : غشيه ولحقه . (٥) زيادة عن صحيح مسلم . (٦) أى لم نرشدهم . نسددهم . (٧) راجع جـ ٨ ص ٢٦٧ .

فى أعلى درجات الشهداء ؛ قال الله تعالى : « وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ »(١) . وقد روى عكرمة عن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أفضل الشهداء حمزةُ بن عبد المطلب ورجلٌ تكلّم بكلمةِ حقّ عند سلطان جائر فقتله " . وسيأتى القول فى هذا فى « آل عمران » إن شاء الله تعالى .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَأَحْسِنُوا ﴾ أى فى الإنفاق فى الطاعة، وأحسنوا الظن بالله فى إخلافه عليكم . وقيل : «أحسنوا» فى أعمالكم بامتثال الطاعات ؛ روى ذلك عن بعض الصحابة .

قوله تعالى : وَأَتِمُّوا ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَتِمُّوا ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ فيه سبع مسائل :

الأولى — اختلف العلماء فى المعنى المراد بإتمام الحج والعُمْرة لله ؛ فقيل : أداؤهما والإتيان بهما ؛ كقوله : « فَأَتَمَّهُنَّ » وقوله : « ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ » أى ائتوا بالصيام ؛ وهذا على مذهب من أوجب العُمرة ، على ما يأتى . ومن لم يوجبها قال : المراد تمامهما بعد الشروع فيهما ، فإن مَن أحرم بنُسك وجب عليه المضىّ فيه ولا يفسخه ؛ قال معناه الشعبىّ وابن زيد . وعن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : إتمامهما أن تُحرم بهما من دُوَيْرة أهلك . ورُوى ذلك عن عمر بن الخطاب وسعد بن أبى وقاص ، وفعله عمران بن حُصين . وقال سفيان

(١) راجع ج ١٤ ص ٦٨ .

Marfat.com

الثَّوْرِىّ : إتمامهما أن تخرج قاصدًا لهما لا لتجارة ولا لغير ذلك ؛ ويقوّى هذا قوله «لله» . وقال عمر : إتمامهما أن يُفرد كلّ واحد منهما من غير تمتّع وقران؛ وقاله آبن حبيب . وقال مُقاتل : إتمامهما ألّا تستحلّوا فيهما ما لا ينبغى لكم ؛ وذلك أنهم كانوا يشركون فى إحرامهم فيقولون : لَبّيْك اللّهُمّ لَبّيْك ، لا شريكَ لك إلا شريكًا هو لك، تَمْلكه وما مَلَك . فقال: فأتموهما ولا تخلطوهما بشىء آخر .

قلت : أمّا ما رُوِىَ عن علىّ وفعله عِمران بن حُصين فى الإحرام قبل المواقيت التى وقّتها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد قال به عبد الله بن مسعود وجماعة من السلف، وثبت أن عمر أهلّ من إيلياء، وكان الأسود وعلقمة وعبد الرحمن وأبو إسحاق يُحرمون من بيوتهم؛ ورَخّص فيه الشافعى . وروى أبو داود والدّارَقُطنِىّ عن أمّ سَلَمة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَن أحرم من بيت المقدس بحجّ أو عُمْرة كان من ذنوبه كيوم ولدته أمه"[(1)] فى رواية "غُفرله ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر" . وخرجه أبو داود وقال : «يرحم الله وَكيعًا ! أحرم من بيت المقدس ؛ يعنى إلى مكة » . ففى هذا إجازة الإحرام قبل الميقات. وكره مالك رحمه الله أن يُحرم أحدٌ قبل الميقات ، ويروى ذلك عن عمر بن الخطاب، وأنه أنكر على عِمران بن حُصين إحرامه من البصرة . وأنكر عثمان على آبن عمر[(2)] إحرامه قبل الميقات . وقال أحمد وإسحاق : وجه العمل المواقيت ؛ ومن الحجة لهذا القول أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقّت المواقيت وعيّنها ، فصارت بيانًا لمجمل الحج ، ولم يُحرم صلى الله عليه وسلم من بيته لحجته ، بل أحرم من ميقاته الذى وقّته لأمته ؛ وما فعله صلى الله عليه وسلم فهو الأفضل إن شاء الله . وكذلك صنع جمهور الصحابة والتابعين بعدهم . وآحتج أهل المقالة الأولى بأن ذلك أفضل بقول عائشة : ما خُيِّر رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا آختار أيسرهما ؛ وبحديث أمّ سلمة مع ما ذُكر عن الصحابة فى ذلك ، وقد شهدوا إحرام رسول الله

---

(١) كذا فى الدارقطنى . وفى الأصول : « كهيئة يوم » . (٢) فى شرح الموطأ للزرقانى : « ... على عبد الله بن عامر » وعبد الله بن عامر هذا ابن خال عثمان وكان واليا له على البصرة .

Marfat.com

صلى الله عليه وسلم فى حجته من ميقاته، وعرفوا مغزاه ومراده، وعلموا أن إحرامه من ميقاته كان تيسيرًا على أمته .

الثانيـــة — روى الأئمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وَقّت لأهل المدينة ذا الحُلَيْفة[١]، ولأهل الشام الجُحْفة[٢]، ولأهل نَجْد قَرْن[٣]، ولأهل اليمن يَلَمْلَم[٤]، هُنّ لهنّ ولمن أتى عليهن من غير أهلهن ممن أراد الحج والعُمْرة . ومن كان دون ذلك فمن حيث أنشأ؛ حتى أهل مكة من مكة يُهِلُّون منها. وأجمع أهل العلم على القول بظاهر هذا الحديث وآستعماله، لا يخالفون شيئا منه . وآختلفوا فى ميقات أهل العراق وفيمن وَقّته؛ فروى أبو داود والترمذى عن آبن عباس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم وَقّت لأهل المشرق العَقِيق . قال الترمذيّ : هذا حديث حَسَن . وروى أن عمر وَقّت لأهل العراق ذات عِرْق[٥] . وفى كتاب أبى داود عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وَقّت لأهل العراق ذات عِرْق؛ وهذا هو الصحيح . ومن روى أن عمر وقته لأن العراق فى وقته آفتُتحت، فغَفلة منه ، بل وَقّته رسول الله صلى الله عليه وسلم كما وَقّت لأهل الشام الجُحْفَة . والشام كلها يومئذ دارُ كفر كما كانت العراق وغيرها يومئذ من البلدان، ولم تُفتح العراق ولا الشام إلا على عهد عمر ، وهذا ما لا خلاف فيه بين أهل السِّيَر . قال أبو عمر : كلّ عِراقيّ أو مَشرِقيّ أحرم من ذات عِرْق فقد أحرم عند الجميع من ميقاته، والعقِيق أَحْوط عندهم وأولى من ذات عِرْق ، وذات عِرْق ميقاتهم أيضا بإجماع .

الثالثـــة — أجمع أهل العلم على أن من أحرم قبل أن يأتى الميقات أنه مُحْرِم ، وإنما منع من ذلك من رأى الإحرام عند الميقات أفضل؛ كراهية أن يضيّق المرء على نفسه ما قد وسّع الله عليه ، وأن يتعرّض بما لا يؤمن أن يحدث فى إحرامه ، وكلهم ألزمه الإحرام إذا فعل ذلك ؛ لأنه زاد ولم ينقص .

---

(١) ذو الحليفـة (مصغر حلقة) : قرية خربة بينها و بين مكة مائتا ميـل .　(٢) الجحفة (بضم الجيم وسكون المهملة) : قرية خربة بينها و بين مكة خمس مراحل ، و يقرب منها القرية المعروفة برابغ — براء وموحدة وغين معجمة — فيصح الإحرام منها .　(٣) قرن : (بفتح فسكون) : جبل مشرف على عرفات ، وهو على مرحلتين من مكة .　(٤) يلملم (بفتح التحتية واللام وسكون الميم وفتح اللام) : مكان على مرحلتين من مكة .
(٥) ذات عرق : قرية على مرحلتين من مكة .

Marfat.com

الرابعـة — فى هذه الآية دليل على وجوب العُمْرة ، لأنه تعالى أمر بإتمامها كما أمر بإتمام الحج . قال الصُّبَىّ[1] بن مَعْبد : أتيت عمر رضى الله عنه فقلت إنى كنت نصرانيًّا فأسلمت ، وإنى وجدت الحج والعمرة مكتوبتين علىّ ، وإنى أهللت بهما جميعًا . فقال له عمر هُدِيت لسُنّة نبيّك . قال ٱبن المنذر : ولم ينكر عليه قوله : «وجدت الحج والعمرة مكتوبتين علىّ» . وبوجوبهما قال علىّ بن أبى طالب وٱبن عمر وٱبن عباس . وروى الدَّارَقُطْنِىّ عن ٱبن جُرَيج قال : أخبرنى نافع أن عبـد الله بن عمر كان يقول : ليس من خلق الله أحد إلا عليه حجة وعُمرة واجبتان مَن ٱستطاع إلى ذلك سبيلا ؛ فمن زاد بعدها شيئا فهو خير وتطوّع . قال : ولم أسمعه يقول فى أهل مكة شيئا . قال ٱبن جُرَيج : وأُخبرت عن عكرمة أن ٱبن عباس قال : العمرة واجبة كوجوب الحج من ٱستطاع إليه سبيلا . وممن ذهب إلى وجوبها من التابعين عطاء وطاوس ومجاهد والحسن وٱبن سيرين والشَّعبىّ وسعيد بن جُبير وأبو بردة ومسروق وعبد الله بن شدّاد والشافعى وأحمد وإسحاق وأبو عُبيد وٱبن الجَهْم من المـالكيين . وقال الثورىّ : سمعنا أنها واجبة . وسـئل زيد بن ثابت عن العمرة قبـل الحج ؛ فقال : صلاتان لا يضرّك بأيّهما بدأت ؛ ذكره الدَّارَقُطْنِىّ . وروى مرفوعًا عن محمـد بن سيرين عن زيد بن ثابت قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الحج والعمرة فريضتان لا يضرّك بأيّهما بدأت " . وكان مالك يقول : « العمرة سُنّة ولا نعلم أحدًا أرخص فى تركها » . وهو قول النخعىّ وأصحاب الرأى فيما حكى ٱبن المنذر . وحكى بعض القزوينيين والبغداديين عن أبى حنيفة أنه كان يوجبها كالحج ، وبأنها سنة ثابتة ؛ قاله ٱبن مسعود وجابر بن عبد الله . روى الدارقطنى حدّثنا محمد بن القاسم بن زكريا حدّثنا محمد بن العلاء أبو كُريب حدّثنا عبد الرحيم بن سليمان عن حجاج عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبـد الله قال : سأل رجل رسـول الله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة والزكاة والحج : أواجب هو ؟ قال : " نعم " فسأله عن العمرة : أواجبة هى ؟ قال : " لا وأن تعتمر خير لك " . رواه يحيى[2] بن أيوب عن حجاج وٱبن جريج عن ٱبن المنكدر

(١) الصبى (بضم الصاد المهملة وفتح الباء الموحدة وتشديد الياء) .
(٢) فى نسخ الأصل : « محمد » والتصويب عن سنن الدارقطنى .

Marfat.com

عن جابر موقوفًا من قول جابر . فهذه حجـة من لم يوجبها من السُّـنة . قالوا : وأما الآية فلا حجة فيها للوجوب ؛ لأن الله سبحانه إنما قرنها فى وجوب الإتمام لا فى الابتداء ، فإنه ابتدأ الصلاة والزكاة فقال « وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتوا الزَّكَاةَ » . وابتدأ بإيجاب الحج فقال : «وِللهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ»(١) ولما ذكر العمرة أمر بإتمامها لا بابتدائها، فلو حج عشر حجج، أو اعتمر عشر عُمَر لزم الإتمام فى جميعها ؛ فإنما جاءت الآية لإلزام الإتمام لا لإلزام الابتداء ، والله أعلم . واحتج المخالف من جهة النظر على وجوبها بأن قال : عماد الحج الوقوف بعرفـة، وليس فى العمرة وقوف، فلو كانت كسُنّة الحج لوجب أن تساويه فى أفعاله ، كما أن سُنة الصلاة تساوى فريضتها فى أفعالها .

الخامســـة — قرأ الشّعبي وأبو حَيْوَةَ برفع التاء فى «العُمرة» ، وهى تدلّ على عدم الوجوب . وقرأ الجماعة « العمرةَ » بنصب التاء ، وهى تدل على الوجوب . وفى مصحف ابن مسعود « وأتِمُّوا الحجّ والعمرةَ إلى البيتِ لله »(٢) وروى عنه « وأقيموا الحج والعمرة إلى البيت» . وفائدة التخصيص بذكر الله هنا أن العرب كانت تقصد الحج للاجتماع والتّظاهر والتّناضـل والتّنافر وقضاء الحاجة وحضور الأسواق ، وكل ذلك ليس لله فيه طاعة ، ولاحظّ بقصد ، ولا قُرْبة بمعتقَـد ؛ فأمر الله سبحانه بالقصد إليـه لأداء فرضه وقضاء حقـه ، ثم سامح فى التجارة ، على ما يأتى .

السادســـة — لا خلاف بين العلمـاء فيمن شهد مناسـك الحج وهو لا ينوى حجًّا ولا عُمرة — والقلم جارٍ له وعليه — أن شهودها بغير نيّة ولا قصد غير مغْنٍ عنه ، وأن النية تجب فرضًا ؛ لقوله تعالى : « وَأَتِمُّوا » ومن تمام العبادة حضور النية ، وهى فرض كالإحرام عند الإحرام ؛ لقوله عليه السلام لمـا ركب راحلته :"لَبَّيْكَ بحجّة وعُمْرة معًا" على ما يأتى . وذكر الرّبيع فى كتاب البُوَيْطى عن الشافعى قال : ولو لَبّى رجلٌ ولم يَنْوِ حجًّا ولا عمرة لم يكن

(١) راجع جـ ٤ ص ١٤٢ (٢) قال أبو حيان فى البحر : ينبغى أن يحمل هذا كله على التفسير لأنه مخالف لسواد المصحف الذى أجمع عليه المسلمون .

Marfat.com

حاجًّا ولا مُعْتَمِرًا، ولو نوى ولم يُلَبِّ حتى قضى المناسك كان حجه تامًّا؛ واحتج بحديث النبيّ صلى الله عليه وسلم: "إنما الأعمال بالنّيات". قال: ومن فعل مثل ما فعل علىٌّ حين أهلّ على إهلال النبيّ صلى الله عليه وسلم أجزته تلك النية؛ لأنها وقعت على نيةٍ لغيره قد تقدمت، بخلاف الصلاة.

السابعــة — واختلف العلماء فى المراهق والعبد يُحرِمان بالحج ثم يحتلم هذا و يعتِق هذا قبل الوقوف بعرفة؛ فقال مالك: لا سبيل لهما إلى رفض الإحرام ولا لأحد متمسكًا بقوله تعالى: «وَأَتِمُّوا الحَجَّ والعُمْرَةَ لِلّهِ» ومَن رفض إحرامه فلا يتمّ حجـه ولا عمرته. وقال أبو حنيفة: جائز للصبيّ إذا بلغ قبل الوقوف بعَرَفة أن يجدّد إحراما؛ فإن تمـادى على حجه ذلك لم يجزه من حجّة الإسلام. واحتجّ بأنه لمـا لم يكن الحج يجزى عنه، ولم يكن الفرض لازمًا له حين أحرم بالحج ثم لزمه حين بلغ آستحال أن يُشغل عن فرض قد تعيّن عليه بنافلة و يعطّل فرضه؛ كمن دخل فى نافلة وأقيمت عليه المكتوبة وخَشِيَ فوتها قطع النافلة ودخل فى المكتوبة. وقال الشافعيّ: إذا أحرم الصبيّ ثم بلغ قبل الوقوف بعَرَفة فوقف بها مُحْرِمًا أجزأه من حجة الإسلام، وكذلك العبد. قال: ولو عَتَق بمزدلفة و بلغ الصبيّ بها فرجعا إلى عرفة بعـد العتق والبلوغ فأدركا الوقوف بها قبل طلوع الفجر أجزت عنهما من حجة الإسـلام، ولم يكن عليهما دم؛ ولو آحتاطا فأهراقا(١) دمًا كان أحبّ إلىّ، وليس ذلك بالبيّن عندى. وآحتجّ فى إسقاط تجديد الإحرام بحديث علىّ رضى الله عنه إذ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أقبل من اليمن مُهِلًّا بالحج: "بِمَ أَهْلَلْتَ" قال قلت: لَبَّيْكَ اللّهُمّ بإهلالٍ كإهلال نبيّك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فإنى أهللتُ بالحج وسُقْتُ الهَدْىَ". قال الشافعيّ: ولم ينكر عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته، ولا أمره بتجديد نيّةٍ لإفرادٍ أو تمتّعٍ أو قِرانٍ. وقال مالك فى النصرانىّ يُسلم عشيّةَ عرفة فيُحْرِم بالحج: أجزأه من حجة الإسلام، وكذلك العبد يَعْتِق، والصبىّ يبلغ إذا لم يكونوا محرمين ولا دَمَ على واحد منهم؛ و إنما يلزم الدم من أراد الحج ولم يُحرم من الميقات.

(١) هراق الماء، وأهرقه وأهراقه: صبه. وأصله: أراقه.

وقال أبو حنيفة : يلزم العبد الدّم . وهـو كالحُرّ عندهم فى تجاوز الميقات ؛ بخلاف الصبيّ والنّصرانيّ فإنهما لا يلزمهما الإحرام لدخول مكة لسقوط الفرض عنهما . فإذا أسلم الكافر وبلغ الصبيّ كان حكمهما حكم المكيّ، ولا شيء عليهما فى ترك الميقات .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ﴾ فيه ٱثنتا عشرة مسألة :

الأولى — قال ابن العربى : هذه آية مشكلة، عُضْلة من العُضَل .

قلت : لا إشكال فيها ، ونحن نبيّنها غاية البيان فنقول : الإحصار هو المنع من الوجه الذى تقصده بالعوائق جملةً؛ فـ«جملة» أى بأىّ عذر كان، كان حَصْرُ عدوٍّ أو جورُ سلطان أومرضٌ أو ما كان . وٱختلف العلماء فى تعيين المـانع هنا على قولين : الأوّل — قال علقمة وعُروة ابن الزبير وغيرهما : هو المرض لا العـدوّ . وقيل : العدوّ خاصّة؛ قاله ٱبن عباس وٱبن عمر وأنس والشافعيّ . قال ٱبن العربى : وهو ٱختيار علمائنا . ورأى أكثر أهل اللغة ومحصّليها على أنّ « أُحْصِر » عُرِّضَ للمرض، و « حُصِر » نزل به العدوّ .

قلت : ما حكاه ٱبن العربى من أنه ٱختيار علمائنا فلم يقل به إلّا أشهب وحده، وخالفه سائر أصحاب مالك فى هذا وقالوا : الإحصار إنما هو المرض، وأما العدوّ فإنما يقال فيه : حصِر حَصْرًا فهو محصور؛ قاله الباجى فى المنتقَى . وحكى أبو إسحاق الزجاج أنه كذلك عنـد جميع أهل اللغة، على ما يأتى . وقال أبو عبيدة والكسائى : « أُحْصِر » بالمرض ، و « حُصِر » بالعدوّ . وفى المجمَل لابن فارس على العكس؛ حُصِر بالمرض، وأُحْصِر بالعدوّ . وقالت طائفة : يقال أحصر فيهما جميعًا من الرباعى، حكاه أبو عمر .

قلت : وهو يشبه قول مالك حيث ترجم فى مُوَطّئه «أحصر» فيهما؛ فتأمله . وقال الفرّاء : هما بمعنًى واحد فى المرض والعدوّ . قال القُشيرى أبو نصر : وٱدّعت الشافعية أن الإحصار يستعمل فى العدوّ، فأما المرض فيُستعمل فيه الحصر؛ والصحيح أنهما يُستعملان فيهما .

قلت : ما ٱدّعته الشافعية قـد نَصّ الخليل بن أحمد وغيره على خلافه . قال الخليـل : حَصرت الرجل حصرًا منعته وحبسته، وأُحْصِر الحاج عن بلوغ المناسك من مرض أو نحوه؛

Marfat.com

هكذا قال ، جعل الأوّل ثُلاثيًا من حصرت، والثانى فى المرض رُباعياً . وعلى هـذا خرج قول ابن عباس : لا حَصْرَ إلا حَصْرُ العدوّ . وقال ابن السِّكيت : أحصره المرض إذا منعه من السفر أو من حاجة يريدها . وقـد حصره العدوّ يحصُرونه إذا ضيّقوا عليـه فأطافوا به، وحاصروه محاصرةً وحصاراً . قال الأخفش : حصرت الرجل فهـو محصور؛ أى حبسته . قال : وأحصرنى بَوْلى ،وأحصرنى مرضى؛ أى جعلنى أحصر نفسى . قال أبو عمرو الشيبانى: حصرنى الشيء وأحصرنى؛ أى حَبسنى .

قلت : فالأكثر من أهل اللغة على أن «حُصِر» فى العدوّ، و«أُحصر» فى المرض؛ وقد قيل ذلك فى قول الله تعالى: « لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ »(1) . وقال ابن مَيّادة :

وما هجر لَيْلَى أن تكون تباعدتْ * عليكَ ولا أنْ أحْصَرَتْك شُـغولُ

وقال الزجاج: الإحصار عند جميع أهل اللغة إنما هو من المرض، فأمّا من العدوّ فلا يقال فيه إلا حُصِر؛ يقال : حُصِر حصرًا، وفى الأوّل أُحصِر إحصاراً؛ فدل على ما ذكرناه . وأصل الكلمة من الحبس ؛ ومنـه الحصِير للذى يحبس نفسه عن البَوْح بسرّه . والحَصِير : المَلِك لأنه كالمحبوس من وراء الحجاب . والحَصِير الذى يجلس عليـه لانضمام بعض طاقات البَرْدِى(2) إلى بعض؛ كحبس الشيء مع غيره .

الثانيـــة ــ ولمّا كان أصل الحصر الحبس قالت الحنفيّة : المُحْصَر من يصير ممنوعاً من مكة بعد الإحرام بمرض أو عدوّ أو غير ذلك . واحتجُّوا بمقتضى الإحصار مطلقا ، قالوا : وذِكْرُ الأمن فى آخر الآية لا يدل على أنه لا يكون من المرض؛قال صلى الله عليه وسلم: "الزكام أمان من الجُذام" ، وقال : "مَن سَبَق العاطسَ بالحمد أَمِن من الشَّوْص واللَّوْص والعِلَّوْص" . الشَّوْص : وجع السن . واللَّوْص : وجع الأذن . والعِلَّوْص : وجع البطن. أخرجه ابن ماجه فى سُننه . قالوا : و إنما جعلنا حبس العدوّ حصارًا قياسًا على المرض إذا كان

(1) راجع جـ ٣ ص ٣٣٩ (2) البردى (بفتح الموحدة وسكون الراء) : نبات يعمل منـه الحصر . وبضمها وسكون الراء : ضرب من أجود التمر .

Marfat.com

فى حكمه، لا بدلالة الظاهر . وقال آبن عمر وآبن الزبير وآبن عباس والشافعي وأهل المدينة: المراد بالآية حَصْر العدوّ؛ لأن الآية نزلت فى سنة ستّ فى عُمْرة الحُدَيْبِيَة حين صدّ المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مكة. قال آبن عمر: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فحال كفار قريش دون البيت، فنحر النبيّ صلى الله عليه وسلم هَدْيَه وحَلَق رأسه . ودلّ على هذا قوله تعالى : « فَإِذَا أَمِنْتُمْ » . ولم يقل : برأتم؛ والله أعلم .

الثالثــة — جمهور الناس على أن المُحْصَر بعدوّ يحلّ حيث أُحْصِر وينحر هَدْيه إن كان ثَمّ هَدْيٌ ويَحْلِق رأسه. وقال قتادة وإبراهيم: يبعث بهَدْيه إن أمكنه، فإذا بلغ مَحِلّه(١) صار حلالاً. وقال أبو حنيفة : دم الإحصار لا يتوقّف على يوم النحر، بل يجوز ذبحه قبل يوم النحر إذا بلغ مَحِلّه؛ وخالفه صاحباه فقالا : يتوقّف على يوم النحر، وإن نَحَر قبله لم يُجْزه . وسيأتى لهذه المسألة زيادة بيان .

الرابعــة — الأكثر من العلماء على أن من أُحْصِر بعدوّ كافر أو مسلم أو سلطان حبسه فى سجن أنّ عليه الهَدْى؛ وهو قول الشافعي، وبه قال أشهب . وكان آبن القاسم يقول : ليس على مَن صُدّ عن البيت فى حج أو عُمْرة هَدْيٌ إلا أن يكون ساقه معه؛ وهو قول مالك . ومن حُجتهما أن النبيّ صلى الله عليه وسلم إنما نحر يوم الحُدَيْبِيَة هَدْياً قد كان أشعره وقلّده(٢) حين أَحْرم بعمرة، فلما لم يبلغ ذلك الهَدْيُ مَحِلّه للصدّ أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فنُحِر؛ لأنه كان هَدْيًا وجب بالتقليد والإشعار، وخرج لله فلم يجز الرجوع فيه، ولم ينحره رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجل الصدّ؛ فلذلك لا يجب على مَن صُدّ عن البيت هَدْيٌ . وآحتجّ الجمهور بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يَحِلّ يوم الحُدَيْبِيَة ولم يَحْلِق رأسه حتى نحر الهَدْىَ؛ فدلّ ذلك على أنّ من شَرْط إحلال المُحْصَر ذَبْح هَدْى إن كان عنده، وإن كان فقيراً فمتى وجده وقَدَر عليه لا يَحِلّ إلا به ؛ وهو مقتضى قوله : « فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ » .

(١) محله : أى الموضع والوقت الذى يحل فيهما نحره، وهو يوم النحر بمنى .
(٢) إشعار الهدى: هو أن يشق أحد جنبى السنام حتى يسيل الدم، ويجعل ذلك علامة له يعرف بها أنه هدى . وتقليده : أن يجعل فى عنقه شعار يعلم به أنه هدى .

Marfat.com

وقد قيـل : يَحِلّ ويُهْدِى إذا قَدَر عليـه ؛ والقولان للشافعى ، وكذلك من لا يجد هَدْيًا يشتريه ؛ قولان .

الخامسـة — قال عطاء وغيره : المُحْصَر بمرض كالمُحْصَر بعدوّ . وقال مالك والشافعىّ وأصحابهما : من أحصره المرض فلا يحلّه إلا الطواف بالبيت وإن أقام سنين حتى يُفيق . وكذلك من أخطأ العدد أو خَفِى عليه الهلال . قال مالك : وأهلُ مكة فى ذلك كأهل الآفاق . قال : وإن آحتاج المريض إلى دواء تداوى به وآفتدى وبقى على إحرامه لا يَحِلّ من شىء حتى يبرأ من مرضه ؛ فإذا برئ من مرضه مضى إلى البيت فطاف به سبعًا ، وسعى بين الصَّفَا والمَرْوة ، وحلّ من حَجّتـه أو عُمرته . وهـذا كله قول الشافعى ، وذهب فى ذلك إلى ما روى عن عمر وآبن عباس وعائشة وآبن عمر وآبن الزبير أنهم قالوا فى المُحْصَر بمرض أو خطأ العـدد : إنه لا يحلّه إلا الطواف بالبيت . وكذلك مَن أصابه كسر أو بطن منخرق . وحُكْم من كانت هذه حاله عند مالك وأصحابه أن يكون بالخيار إذا خاف فوت الوقوف بعرَفة لمرضه ، إن شاء مضى إذا أفاق إلى البيت فطاف وتحلّل بعمرة ، وإن شاء أقام على إحرامه إلى قابل ، وإن أقام على إحرامه ولم يواقع شيئا مما نُهى عنه الحاجّ فلا هَدْى عليه . ومن حَجّته فى ذلك الإجماع من الصحابة على أن من أخطأ العدد أن هذا حكمه لا يحلّه إلا الطواف بالبيت . وقال فى المكىّ إذا بقى محصورًا حتى فرغ الناس من حَجّهم : فإنه يخرج إلى الحِلّ فيُلَبِّى ويفعل ما يفعله المعتمر ويحلّ ، فإذا كان قابل حجّ وأهدى . وقال آبن شهاب الزهرىّ فى إحصار من أُحْصِر بمكة من أهلها : لا بدّ له من أن يقف بعرفة وإن نُعِش نَعْشًا . وآختار هـذا القول أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الله بن بكير المـالكى فقال : قول مالك فى المُحْصَر المكىّ أن عليه ما على الآفاق من إعادة الحج والهَدْى خلاف ظاهر الكتاب ؛ لقول الله عز وجل : «ذَٰلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ » . قال : والقول عندى فى هذا قول الزهرىّ فى أن الإباحة من الله عز وجل لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام أن يقيم لبعد المسافة يتعالج وإن فاته الحج ؛ فأما من كان بينه وبين المسجد الحرام ما لا تقصر فى مثله الصلاة فإنه يحضر المشاهد وإن

Marfat.com

نُعش نَعْشًا لقرب المسافة بالبيت . وقال أبو حنيفة وأصحابه : كل مَن مُنع من الوصول إلى البيت بعدو أو مرض أو ذهاب نفقة أو إضـلال راحلة أو لَدْغ هامّة فإنه يقف مكانه على إحرامه ويبعث بهَدْيه أو بثمن هَدْيه، فإذا نحر فقد حلّ من إحرامه . كذلك قال عروة وقتادة والحسن وعطاء والنَّخَعي ومجاهد وأهل العـراق؛ لقوله تعالى : « فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَـدْيِ » الآية .

السادسـة — قال مالك وأصحابه : لا ينفع المُحْرِم الاشتراط فى الحج إذا خاف الحصر بمرض أو عدو ؛ وهو قول الثورى وأبى حنيفة وأصحابهم . والاشتراط أن يقول إذا أَهَلّ : لَبَّيْكَ اللَّهُمّ لَبَّيْكَ ، ومَحِلّى حيث حبستنى من الأرض . وقال أحمد بن حنبل و إسحاق بن راهْوَيْه وأبو ثور : لا بأس أن يشترط وله شرطه ؛ وقاله غير واحد من الصحابة والتابعين، وحجتهم حديث ضُباعة بنت الزبير بن عبد المطلب أنها أتت رسـول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، إنى أردت الحج، أأشترط ؟ قال : "نعم". قالت : فكيف أقول ؟ قال : "قولى لَبَّيْكَ اللَّهُـمّ لَبَّيْكَ ومَحِلِّى من الأرض حيث حبستنى" ، أخرجه أبو داود والدارَقُطْنِيّ وغيرهما . قال الشافعى : لو ثبت حديث ضُباعة لم أَعْدُه ، وكان مَحِلّه حيث حبسه الله .

قلت : قد صححه غير واحد، منهم أبو حاتم البستى وابن المنذر . قال ابن المنذر : ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم قال لضُبَاعة بنت الزبير : "حُجِّى واشترطى" . وبه قال الشافعى إذ هو بالعراق ، ثم وقف عنه بمصر . قال ابن المنـذر : وبالقول الأوّل أقول . وذكره عبـد الرزاق أخبرنا ابن جريج قال : أخبرنى أبو الزبير أن طاوسًا وعكرمة أخبراه عن ابن عباس قال : جاءت ضُبَاعة بنت الزبير إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : إنى امرأة ثقيلة [1] و إنى أريد الحج، فكيف تأمرنى أن أهل؟ قال : "أَهِلّى واشترطى أن مَحِلّى حيث حبستنى" . قال : فأدركَتْ [2] . وهذا إسناد صحيح .

---

(١) أى أثقلنى المرض .   (٢) أى أدركت الحج ولم تحلل حتى فرغت منه .

Marfat.com

السابعـة — وٱختلفت العلماء أيضا فى وجوب القضاء على من أُحصر ؛ فقال مالك والشافعىّ : من أُحصر بعدوّ فلا قضاء عليـه لحجّه ولا عُمْرته ، إلّا أن يكون صَرُورة[1] لم يكن حَجّ ؛ فيكون عليه الحج على حسب وجوبه عليه ، وكذلك العمرة عند من أوجبها فرضا . وقال أبو حنيفة : المُحْصَر بمرض أو عدوّ عليه حجة وعمرة ؛ وهو قول الطبرى . قال أصحاب الرأى : إن كان مُهِلًّا بحج قضى حجة وعمرة ؛ لأن إحرامه بالحج صار عمرة . وإن كان قارنًا قضى حجة وعمرتين . وإن كان مُهِلًّا بعُمْرة قضى عُمرة . وسـواءعندهم المُحْصَر بمرض أو عدوّ ، على ما تقـدّم . وٱحتجّوا بحديث ميمون بن مِهران قال : خرجت معتمِرًا عامَ حاصر أهـل الشام ٱبن الزبير بمكة وبعث معى رجالٌ من قومى بهَـدْى ؛ فلما ٱنتهيت إلى أهل الشام منعونى أن أدخل الحَرَم ؛ فنحرت الهَدْى مكانى ثم حَللتُ ثم رجعتُ ؛ فلما كان من العام المقبل خرجْتُ لأقضى عمرتى ، فأتيت ٱبن عباس فسألته ، فقال : أبدِل الهَدْى ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أصحابه أن يُبدلوا الهَدى الذى نحروا عام الحُدَيْبِيَة فى عمرة القضاء . وٱستدلوا بقوله عليه السلام : " مَن كُسِر أو عَرِج فقد حَلّ وعليه حجة أخرى أو عمرة أخرى ". رواه عكرمة عن الحجاج بن عمرو الأنصارى قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من عَرِج أو كُسِر فقـد حَلّ وعليه حجة أخرى ". قالوا : فٱعتمار رسول الله صلى الله عليه وسـلم وأصحابه فى العام المقبل من عام الحديبية إنما كان قضاء لتلك العمرة ؛ قالوا : ولذلك قيل لها عمرة القضاء . وٱحتج مالك بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يأمر أحدًا من أصحابه ولا ممن كان معه أن يقضوا شيئا ولا أن يعودوا لشىء ، ولا حُفظ ذلك عنه بوجه من الوجوه ، ولا قال فى العام المقبل : إن عمرتى هذه قضاء عن العمرة التى حُصِرت فيها ، ولم يُنقل ذلك عنه . قالوا : وعُمرة القضاء وعُمرة القضيّة سواء ؛ وإنما قيل لها ذلك لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قاضى قريشا وصالحهم فى ذلك العـام على الرجوع عن البيت وقصده من قابل ؛ فسُمّيت بذلك عمرة القضيّة .

(١) الصرورة (بالصاد المهملة) : الذى لم يحج قط . ويطلق أيضا على من لم يتزوّج ؛ وأصـله من الصر :

الثامنـــة — لم يقل أحد من الفقهاء فيمن كُسِر أو عَرِج أنه يحلّ مكانه بنفس الكسر غير أبى ثور على ظاهر حديث الحجاج بن عمرو ؛ وتابعـه على ذلك داود بن علىّ وأصحابه . وأجمع العلماء على أنه يحلّ من كُسر ؛ ولكن آختلفوا فيما به يحلّ ؛ فقال مالك وغيره : يحلّ بالطواف بالبيت لا يحلّه غيره . ومن خالفه من الكوفيين يقول: يحلّ بالنية وفعل ما يتحلّل به ؛ على ما تقدّم من مذهبه .

التاســعة — لا خلاف بين علماء الأمصــار أن الإحصار عامٌّ فى الحج والعمرة . وقال آبن سيرين : لا إحصار فى العمرة، لأنها غير مؤقّتة. وأجيب بأنها و إن كانت غير مؤقتة لكن فى الصبر إلى زوال العذر ضرر، وفى ذلك نزلت الآية . وحُكى عن آبن الزبير أن من أحصره العدوّ أو المرض فلا يحلّه إلا الطواف بالبيت؛ وهذا أيضًا مخالف لنصّ الخبر عامَ الحُدَيْبِيَة .

العــاشرة — الحاصر لا يخلو أن يكون كافرًا أو مسلماً، فإن كان كافرًا لم يجز قتاله ولو وَثِق بالظهور عليه، ويتحلّل بموضعه؛ لقوله تعالى : «وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ» كما تقدّم. ولو ســأل الكافرُ جُعْلًا لم يَجُزْ، لأن ذلك وَهْن فى الإسلام . فإن كان مسلمًا لم يجز قتاله بحــال، ووجب التحلّل؛ فإن طلب شــيئا ويتخلّى عن الطريق جاز دفعــه، ولم يجــز القتال لمــا فيــه من إتلاف المُهَج ، وذلك لا يلزم فى أداء العبادات ، فإن الدين أسمح . وأمّا بذل الُجْعل فلمَا فيه من دفع أعظم الضررين بأهونهما ، ولأن الحج مما يُنفَق فيه المــال ، فيُعدّ هذا من النفقة .

الحادية عشرة — والعدوّ الحاصر لا يخلو أن يتيقّن بقاؤه وآستيطانه لقوّته وكثرته أوْلا ؛ فإن كان الأوّل حلّ المحصَر مكانه من ساعته . و إن كان الثــانى وهو مما يرجَى زواله فهــذا لا يكون محصورا حتى يبقى بينه و بين الحج مقدار مايعلم أنه إن زال العدوّ لا يدرك فيه الحج ، فيحلّ حينئذ عند آبن القاسم وآبن الماجشون . وقال أشهب : لا يحلّ مَن حُصر عن الحج بعدوّ حتى يوم النحر، ولا يقطع التلبية حتى يروح الناس إلى عَرَفة . وجه قول آبن القاسم : أن هذا وقت يأس من إكمال حجّه لعدوّ غالب، فجاز له أن يحلّ فيه ؛ أصل ذلك يوم عرفة . ووجه

Marfat.com

قول أشهب أن عليه أن يأتى من حكم الإحرام بما يمكنه [والتزامه[1] له إلى يوم النحر، الوقت الذى يجوز للحاج التحلّل بما يمكنه] الإتيان به [فكان ذلك عليه[1]] .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ﴾ «ما» فى موضع رفع؛ أى فالواجب أو فعليكم ما آستيسر . ويحتمل أن يكون فى موضع نصب؛ أى فآنحروا أو فآهدوا . و « مَا ٱسْتَيْسَرَ» عند جمهور أهل العلم شاة . وقال آبن عمر وعائشة وآبن الزبير: «ما آستيسر» جمل دون جمل، و بقرة دون بقرة لا يكون من غيرهما . وقال الحسن : أعلى الهَدْى بدنة، وأوسطه بقرة، وأخسه شاة . وفى هذا دليل على ما ذهب إليه مالك من أن المحصَر بعدوّ لا يجب عليه القضاء؛ لقوله : « فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ » ولم يذكر قضاء . والله أعلم .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ مِنَ ٱلْهَدْيِ ﴾ الهَدْىُ والهَدِىّ لغتان . وهو ما يُهْدَى إلى بيت الله من بَدَنة أو غيرها . والعرب تقول: كم هَدِىّ بنى فلان؛ أى كم إبلهم . وقال أبو بكر: سُمّيت هَدِيًّا لأن منها ما يُهْدَى إلى بيت الله؛ فسمّيت بما يلحق بعضها، كما قال تعالى: «فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَاتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ»[2] . أراد فإن زنى الإماء فعلى الأَمَة منهن إذا زَنَت نصف ما على الحُـرّة البكر إذا زَنَت؛ فذكر الله المحصنات وهو يريد الأبكار؛ لأن الإحصان يكون فى أكثرهن فسمّين بأمر يوجد فى بعضهن . والمُحْصَنة من الحرائر هى ذات الزوج، يجب عليها الرَّجْم إذا زنت، والرجم لا يتبعّض، فيكون على الأَمَة نصفـه؛ فآنكشف بهذا أن المُحْصَنات يراد بهن الأبكار لا أُولات الأزواج . وقال الفرّاء : أهل الحجاز و بنو أسد يخففون الهَدْى؛ قال : وتميم وسُفْلَى قيس يثقّلون فيقولون : هَدِىّ . قال الشاعر :

حَلفتُ بربِّ مكّة والمُصَـلَّى ۞ وأعناقِ الهَـدِىِّ مُقَلَّداتِ

قال : وواحد الهَدْى هدية . و يقال فى جمع الهدى : أهداء .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُ ﴾ فيه سبع مسائل :

---

(١) الزيادة عن كتاب « المنتقى » للباجى يقتضيها السياق . (٢) راجع جـ ٥ ص ١٤٣ .

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْىُ مَحِلَّهُ ﴾ الخطاب لجميع الأمة : مُحْصَر ومُخَلًّى . ومن العلماء من يراها للمحصَرين خاصّةً؛ أى لا تحلّلوا من الإحرام حتى يُنْحَر الهَـدْى . والمَحِلّ : الموضع الذى يحلّ فيـه ذبحه . فالمحِلّ فى حصر العـدو عند مالك والشافعى : موضع الحصر؛ ٱقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم زمن الحُدَيْبِيَة؛ قال الله تعالى : « وَالْهَـدْىَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِـلَّهُ »[(١)] قيـل : محبوسًا إذا كان محصَرًا ممنوعًا من الوصول إلى البيت العَتِيق . وعند أبى حنيفة مَحِلّ الهَدْى فى الإحصار : الحَرَم؛ لقوله تعالى : « ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ »[(٢)] . وأجيب عن هذا بأن المخاطَب به الآمِنُ الذى يجد الوصول إلى البيت . فأمّا المُحْصَر فخارج من قول الله تعالى : « ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ » بدليل نحر النبىّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه هَدْيَهم بالحديبية وليست من الحَرَم . وٱحتجُّوا من السُّـنة بحديث ناجية ٱبن جُندب صاحب النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال للنبىّ صلى الله عليه وسلم : ٱبعث معى الهَدْىَ فأنحره بالحرم . قال : " فكيف تصنع به " قال : أخرجه فى الأَوْدية لا يقدرون عليه، فأنطلق به حتى أنحره فى الحرم . وأجيب بأن هذا لا يصح، وإنما يُنحر حيث حلّ؛ ٱقتداءً بفعله عليه السـلام بالحديبية ؛ وهو الصحيح الذى رواه الأئمة، ولأن الهَدْىَ تابع للمُهْدِى ، والمهدِى حلّ بموضعه؛ فالمُهْدَى أيضا يحل معه .

الثـانيـــة — وٱختلف العلماء على ما قررناه فى المحصَر هل له أن يَحلِق أو يَحِلّ بشىء من الحِلّ قبل أن يَنحر ما ٱستيسر من الهَدْى؛ فقال مالك : السُّنة الثابتة التى لا ٱختلاف فيها عندنا أنه لا يجوز لأحد أن يأخذ من شعره حتى ينحر هديه، قال الله تعـالى : « وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْىُ مَحِلَّهُ » . وقال أبو حنيفة وأصحابه : إذا حلّ المحصَر قبل أن يَنحر هَدْيه فعليه دَمٌ، ويعود حرامًا كما كان حتى يَنحر هَدْيه . وإن أصاب صيدًا قبل أن يَنْحر الهَدْىَ فعليه الجزاء . وسـواء فى ذلك الموسر والمعسر لا يحلّ أبدا حتى يَنحر أو يُنحر عنـه . قالوا : وأقلّ ما يُهديه شاة، لا عمياء ولا مقطوعة الأذنين؛ وليس هـذا عندهم موضع صيام . قال أبو عمر : قول الكوفيين فيه ضعف وتناقض؛ لأنهم لا يجيزون لمُحْصَر بعدوّ ولا مرض أن يحلّ

(١) راجع جـ ١٦ ص ٢٨٣ . (٢) راجع جـ ١٢ ص ٥٧ .

Marfat.com

حتى يَنحر هديه فى الحَرَم. و إذا أجازوا للمحصر بمرض أن يبعث بهَدْى و يواعد حامله يومًا ينحره فيه فيحلّ و يحلق فقــد أجازوا له أن يحــلّ على غير يقين من نحر الهدى و بلوغه، وحملوه على الإحلال بالظنون . والعلماء متفقون على أنه لا يجوز لمن لزمه شيء من فرائضه أن يخرج منه بالظن ؛ والدليل على أن ذلك ظنّ قولهم : لو عَطِب ذلك الهَدْىُ أو ضَلّ أو سُرِق فحلّ مُرْسله وأصاب النساء وصاد أنه يعود حرامًا وعليه جزاء ما صاد؛ فأباحوا له فساد الحج وألزموه ما يلزم مَن لم يحلّ من إحرامه . وهذا ما لا خفاء فيه من التناقض وضعف المذاهب ، و إنمـا بَنَوْا مذهبهم هذا كله على قول ٱبن مسعود ولم ينظروا فى خلاف غيره له . وقال الشافعى فى المحصر إذا أعسر بالهدى : فيه قولان : لا يحلّ أبدا إلا بهَدْى . والقول الآخر : أنه مأمور أن يأتى بما قدر عليه؛ فإن لم يقدر على شيء كان عليه أن يأتى به إذا قَدَر عليه . قال الشافعى : ومن قال هذا قال : يحلّ مكانه و يذبح إذا قَدَر؛ فإن قدر على أن يكون الذبح بمكة لم يُجْـزه أن يذبح إلا بها، و إن لم يقدر ذبح حيث قدر . قال ويقال : لا يَجزيه إلا هَدْى . و يقال : إذا لم يَجد هديًا كان عليه الإطعام أو الصيام . و إن لم يجد واحدا من هذه الثلاثة أتى بواحد منها إذا قدر . وقال فى العبـد : لا يجزيه إلا الصوم، تُقوَّم له الشاة دراهم ثم الدراهم طعامًا ثم يصوم عن كل مُدٍّ يوما .

الثالثـــة — وٱختلفوا إذا نَحر المُحْصَر هَدْيَه هل له أن يَحلِق أوْ لا؛ فقالت طائفة: ليس عليه أن يحلق رأسه؛ لأنه قد ذهب عنه النُّسك . وٱحتجّوا بأنه لمـا سقط عنه بالإحصار جميعُ المناسك كالطواف والسّعى — وذلك مما يحلّ به المحرِم من إحرامه — سقط عنه سائر ما يحلّ به المحرم من أجل أنه مُحْصَر . وممن ٱحتجّ بهذا وقال به أبو حنيفة ومحمد بن الحسن قالا : ليس على المُحْصَر تقصير ولا حِلاق . وقال أبو يوسف : يَحلِق المقصِّر، فإن لم يَحلق فلا شىء عليه . وقد حكى ٱبن أبى عمران عن ٱبن سماعة عن أبى يوسف فى نوادره أن عليه الحلاق ؛ والتقصير لابدّ له منه . وٱختلف قول الشافعى فى هذه المسألة على قولين : أحدهما أن الحلاق للمُحْصَر من النُّسك ؛ وهو قول مالك . والآخر ليس من النسك كما قال أبو حنيفة . والحجة

Marfat.com

لمالك أن الطواف بالبيت والسّعي بين الصّفا والمرْوة قد منِـع من ذلك كله المحصَر وقد صُدّ عنه ؛ فسقط عنه ما قد حِيل بينه و بينه . وأما الحلاق فلم يُحَل بينه و بينه ، وهو قادر على أن يفعله ، وما كان قادرا على أن يفعله فهو غير ساقط عنه . ومما يدل على أن الحلاق باق على المحصَر كما هو باقٍ على مَن قد وصل إلى البيت سواء قوله تعالى : «وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ» ؛ وما رواه الأئمة من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم للمُحلِّقين ثلاثا وللمُقصِّرين واحدةً . وهو الحجة القاطعـة والنظر الصحيح فى هذه المسألة ، وإلى هـذا ذهب مالك وأصحابه . الحِلَاق عندهم نُسك على الحاجّ الذى قد أتَمّ حَجّه ، وعلى من فاته الحج ، والمُحْصَر بعدوّ والمُحْصَر بمـــرض .

الرابعـــة — روى الأئمة واللفظ لمـالك عن نافع عن عبد الله بن عمر أن رســول الله صلى الله عليه وسـلم قال : " اللّهُمّ ٱرْحم المُحَلِّقِين " قالوا : والمُقصِّرين يارسول الله ؛ قال : " اللّهُمّ ٱرحم المحلِّقين " قالوا : والمُقصِّرين يارسـول الله ؛ قال : " والمُقصِّرين " . قال علماؤنا : ففى دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم للمحلِّقين ثلاثًا وللمُقصِّرين مرّةً دليل على أن الحلق فى الحج والعُمْرة أفضل من التقصير ، وهو مقتضى قوله تعالى : «وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ» الآية ، ولم يقل تُقصِّروا . وأجمع أهل العلم على أن التقصير يجزئ عن الرجال ؛ إلا شيء ذُكر عن الحسن أنه كان يوجب الحلق فى أوّل حَجّة يحجّها الإنسان .

الخامســـة — لم تدخل النساء فى الحَلْق ، وأنّ سنّتهن التّقصير ؛ لمـا روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "ليس على النساء حَلْق إنمـا عليهن التقصير" . خرّجه أبو داود عن ٱبن عباس . وأجمع أهل العلم على القول به . ورأت جماعة أن حلقها رأسها من المُثْلَة ، وٱختلفوا فى قدر ما تُقصِّر من رأسها ؛ فكان ٱبن عمـر والشافعى وأحمـد وإسحاق يقولون : تُقصّر من كل قَرْن مثل الأنمـلة . وقال عطاء : قدر ثلاث أصابع مقبوضة . وقال قتادة : تقصر الثلث أو الربع . وفرّقت حفصة بنت سـيرين بين المرأة التى قعـدت فتأخذ الربع ، وفى الشابة أشارت بأنملتها تأخذ وتقلّل . وقال مالك : تأخذ من جميع قرون رأسها ، وما أخذت

Marfat.com

من ذلك فهو يكفيها ، ولا يجزئ عنـده أن تأخذ من بعض القـرون وتبقى بعضًا . قال ابن المنذر : يجزى ما وقع عليه اسم تقصير ، وأحوط أن تأخذ من جميع القرون قدر أنملة .

السادسـة — لا يجوز لأحد أن يحلق رأسـه حتى ينحر هديه ؛ وذلك أن سُنّة الذبح قبل الحلاق . والأصل فى ذلك قوله تعالى : « وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ » ، وكذلك فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بدأ فنحر هديه ثم حلق بعد ذلك ؛ فمن خالف هذا فقدّم الحلاق قبل النحر فلا يخلو أن يقدّمه خطأ وجهلًا أو عمدًا وقصدًا ؛ فإن كان الأوّل فلا شيء عليه ؛ رواه ابن حبيب عن ابن القاسم ، وهو المشهور من مذهب مالك . وقال ابن الماجشون : عليه الهَدْيُ ؛ و به قال أبو حنيفة . و إن كان الثانى فقد روى القاضى أبو الحسن أنه يجوز تقديم الحلق على النحر ؛ و به قال الشافعى . والظاهر من المذهب المنع ، والصحيح الجواز ؛ لحديث ابن عباس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قيل له فى الذبح والحلق والرمى والتقديم والتأخير فقال : " لَا حَرَجَ " رواه مسلم . وخرّج ابن ماجه عن عبد الله بن عمـرو أن النبيّ صلى الله عليه وسلم سُئل عمن ذَبح قبل أن يَحلِق ، أو حَلَق قبل أن يَذبح فقال : " لا حَرَجَ " .

السابعـة — لا خلاف أن حلق الرأس فى الحج نُسك مندوب إليه وفى غير الحج جائز ؛ خلافًا لمن قال : إنه مُثْلة ، ولو كان مثلة ما جاز فى الحج ولا غيره ، لأن رسـول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن المُثْلة ، وقد حلق رءوس بنى جعفر بعـد أن أتاه قتله بثلاثة أيام ، ولو لم يجز الحلق ما حلقهم . وكان علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه يحلق رأسه . قال ابن عبد البر : وقد أجمع العلماء على حبس الشعر وعلى إباحة الحلق . وكفى بهذا حجة ، و بالله التوفيق .

قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ فيه تسع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا ﴾ استدلّ بعض علماء الشافعية بهذه الآية على أن المُحْصَر فى أوّل الآية العدو لا المرض ، وهذا لا يلزم ؛ فإن معنى قوله : ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ ﴾ فحلق « فَفِدْيَةٌ » ، أى فعليه فِدْية ، و إذا كان هذا واردًا فى المرض

Marfat.com

بلا خلاف كان الظاهر أن أول الآية ورد فيمن ورد فيه وسطها وآخرها، لاتساق الكلام بعضه على بعض، وانتظام بعضه ببعض؛ ورجوع الإضمار فى آخر الآية إلى من خوطب فى أولها، فيجب حمل ذلك على ظاهره حتى يدلّ الدليل على العدول عنه. ومما يدلّ على ماقلناه سبب نزول هذه الآية، روى الأئمة واللفظ للدّارَقُطْنِيّ: «عن كعب بن عُجْرَة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رآه وقَمْله يتساقط على وجهه فقال: "أيؤذيك هوامُّك" قال نعم. فأمره أن يحلق وهو بالحُدَيْبِيَة، ولم يبيّن لهم أنهم يحلّون بها وهم على طمع أن يدخلوا مكة؛ فأنزل الله الفدية، فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُطعم فَرَقًا(١) بين ستة مساكين، أو يُهدى شاة، أو يصوم ثلاثة أيام». خرّجه البخارى بهذا اللفظ أيضا. فقوله: «ولم يبيّن لهم أنهم يحلّون بها» يدلّ على أنهم ما كانوا على يقين من حصر العدوّ لهم؛ فإذًا الموجب للفِدْية الحلق للأذى والمرض، والله أعلم.

الثانيـــة — قال الأوزاعى فى المُحْرِم يصيبه أذًى فى رأسه: إنه يجزيه أن يكفّر بالفدية قبل الحلق.

قلت: فعلى هـذا يكون المعنى «فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِن رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِن صِيامٍ أو صَدَقةٍ أَوْ نُسُكٍ» إن أراد أن يَحْلِق، ومن قدر لحَلَق ففدية؛ فلا يفتدى حتى يحلق. والله أعلم.

الثالثـــة — قال ابن عبد البر: كلّ مَن ذَكر النُّسك فى هذا الحديث مفسَّرًا فإنما ذكره بشاة، وهو أمرٌ لا خلاف فيه بين العلماء. وأمّا الصوم والإطعام فاختلفوا فيه؛ فجمهور فقهاء المسلمين على أن الصوم ثلاثة أيام، وهو محفوظ صحيح فى حديث كعب بن عُجْرَة. وجاء عن الحسن وعكرمة ونافع أنهم قالوا: الصوم فى فدية الأذى عشرة أيام، والإطعام عشرة مساكين، ولم يقل أحد بهذا من فقهاء الأمصار ولا أئمة الحديث. وقد جاء من رواية أبى الزبير عن

(١) الفرق (بالتحريك): مكيال يسع ستة عشر رطلا، وهى اثنا عشر مدا، أو ثلاثة عند أهل الحجاز. وقيل: خمسة أقساط، والقسط: نصف صاع. والفرق (بالسكون): مائة وعشرون رطلا. عن نهاية ابن الأثير.

Marfat.com

مجاهد عن عبد الرحمن عن كعب بن عُجْرة أنه حدّثه أنه كان أَهَلّ فى ذى القعـدة، وأنه قَمِل رأسه فأتى عليه النبىّ صلى الله عليه وسلم وهو يوقد تحت قِدْر له؛ فقال له : "كأنك يؤذيك هوامّ رأسك" . فقال أَجَل . قال : " أحلِق وأَهْدِ هَدْيًا " . فقال : ما أجد هَدْياً . قال : " فأطعم ستة مساكين " . فقال : ما أجد . قال : "صُم ثلاثة أيام" . قال أبو عمر : كان ظاهر هذا الحديث على الترتيب وليس كذلك، ولو صح هـذا كان معناه الآختيار أوّلا فأوّلا؛ وعامة الآثار عن كعب بن عجرة وردت بلفظ التخيير، وهو نصّ القرآن، وعليـه مضى عمل العلماء فى كل الأمصار وفتواهم ، و بالله التوفيق .

الرابعــة ــ اختلف العلماء فى الإطعام فى فِدية الأذى؛ فقال مالك والشافعى وأبو حنيفة وأصحابهم : الإطعام فى ذلك مُدّان بِمُـدّ(١) النبىّ صلى الله عليه وسـلم؛ وهو قول أبى ثور وداود . وروى عن الثورى أنه قال فى الفِـدْية : من البُرّ نصفُ صاع، ومن التمر والشـعير والزبيب صاع . وروى عن أبى حنيفـة أيضا مثله، جعل نصفَ صاع بُرٍّ عِدْلَ صاع تمر. قال آبن المنذر : وهذا غلط؛ لأن فى بعض أخبار كعب أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له : " أن تصدّق بثلاثة أَصْوُع من تمر على ستة مساكين " . وقال أحمد بن حنبل مرّةً كما قال مالك والشافعى، ومرّةً قال: إن أطعم بُرًّا فمُدّ لكل مسكين، و إن أطعم تمرًا فنصف صاع .

الخامســة ــ ولا يجزى أن يغدّى المساكين و يعشّيهم فى كفارة الأذى حتى يعطى كل مسكين مُدّين بمدّ النبىّ صـلى الله عليـه وسلم . و بذلك قال مالك والثورى والشـافعى ومحمد بن الحسن . وقال أبو يوسف : يجزيه أن يغدّيهم و يعشّيهم .

السادســة ــ أجمع أهل العلم على أن المحرِم ممنوع من حَلق شعره وجَزّه و إتلافه بحلق أو نُورة أو غير ذلك إلا فى حالة العلة كما نصّ على ذلك القرآن . وأجمعوا على وجوب الفِدية على مَن حلق وهو مُحْرِم بغير علّة ، وآختلفوا فيما على من فعل ذلك ، أو لبس أو تطيّب بغير عذر عامدًا ؛ فقال مالك : بئس ما فعل ! وعليه الفدية؛ وهو مخيّر فيها؛ وسواء عنده العمد فى ذلك والخطأ، لضرورة وغير ضرورة . وقال أبو حنيفـة والشافعى وأصحابهما وأبو ثور :

(١) فى ب ، ز : « مدان مدان بمد ... » .

ليس بمخيّر إلا فى الضرورة؛ لأن الله تعالى قال : «فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ» فإذا حلق رأسه عامدًا أو لبس عامدًا لغير عذر فليس بمخيّر وعليه دمٌ لا غير .

السابعــة — وآختلفوا فيمن فعل ذلك ناسيًا ؛ فقال مالك رحمه الله : العامد والناسى فى ذلك سواء فى وجوب الفِدْية، وهو قول أبى حنيفة والثورى والليث . وللشافعىّ فى هذه المسألة قولان : أحدهما — لا فِدْيَةَ عليه، وهو قول داود وإسحاق . والثانى — عليه الفدية. وأكثر العلماء يوجبون الفدية على المُحْرِم بلبس المَخيط وتغطية الرأس أو بعضه، ولبس الخُفَّين وتقليم الأظافر ومسّ الطِّيب وإماطة الأذى ، وكذلك إذا حلق شعر جسده أو آطّلى ، أو حلق مواضع المحاجم . والمرأة كالرجل فى ذلك، وعليها الفِدْية فى الكُحْل وإن لم يكن فيه طِيب . وللرجل أن يكتحل بما لا طِيب فيه . وعلى المرأة الفدية إذا غطّت وجهها أو لبست القُفّازين ، والعمد والسهو والجهل فى ذلك سـواء، وبعضهم يجعـل عليهما دمًا فى كل شىء من ذلك . وقال داود : لا شىء عليهما فى حلق شعر الجسد .

الثامنــة — وآختلف العلماء فى موضع الفدية المذكورة؛ فقال عطاء : ما كان من دم فبمكّة، وما كان من طعام أو صيام فحيث شاء؛ وبنحو ذلك قال أصحاب الرأى . وعن الحسن أن الدم بمكة . وقال طاوس والشافعىّ : الإطعام والدم لا يكونان إلا بمكة، والصوم حيث شاء ؛ لأن الصيام لا منفعة فيـه لأهل الحَرَم، وقد قال الله سبحانه « هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ »[(١)] رِفقًا لمساكين جيران بيته؛ فالإطعام فيـه منفعة بخلاف الصيام، والله أعلم . وقال مالكٌ : يفعل ذلك أين شاء، وهو الصحيح من القول، وهو قول مجاهد . والذبح هنا عند مالك نُسك وليس بهَدْى لنصّ القرآن والسنة، والنُّسك يكون حيث شـاء، والهَدْى لا يكون إلا بمكة . ومن حُجته أيضا ما رواه عن يحيى بن سـعيد فى مُوَطّئه ، وفيـه : فأمر علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه برأسه — يعنى رأس حسين[(٢)] — فحلق ثم نسك عنه بالسُّقْيا[(٣)] فنحر عنه بعيرا . قال مالك قال يحيى بن سعيد : وكان حسين خرج مع عثمان فى سفره [ذلك[(٤)]] الى مكة . ففى هذا

---

(١) راجع جـ ٦ ص ٣١٤ .　(٢) هو حسين بن على .　(٣) السقيا : منزل بين مكة والمدينة ، قيل هى على يومين من المدينة .　(٤) زيادة عن الموطأ .

Marfat.com

أوضح دليل على أن فِدْية الأذى جائز أن تكون بغير مكة ، وجائز عند مالك فى الهَدْى إذا نُحر فى الحَرَم أن يُعطاه غير أهل الحرم ؛ لأن البُغْية فيــه إطعام مساكين المسلمين . قال مالك : ولمــا جاز الصوم أن يؤتى به بغير الحَرَم جاز إطعام غير أهل الحرم ؛ ثم إن قوله تعالى : « فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا » الآية ، أوضح الدلالة على ما قلناه ؛ فإنه تعالى لمــا قال : « فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ » لم يقل فى موضع دون موضع ، فالظــاهر أنه حيثما فعــل أجزأه . وقال : « أو نسك » فسمّى ما يذبح نُسكا ، وقد سمّاه رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك ولم يسمّه هَدْيًا ؛ فلا يلزمنا أن نرده قياسا على الهَدْى ، ولا أن نعتبره بالهدى مع ما جاء فى ذلك عن علىّ . وأيضا فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم لمــا أمر كَعْبًا بالفدية ما كان فى الحَرَم ؛ فصحّ أن ذلك كله يكون خارج الحرم ؛ وقد رُوى عن الشافعىّ مثل هذا فى وجه بعيد .

التاســعة — قوله تعالى : ﴿ أَوْ نُسُكٍ ﴾ النُّسك : جمع نسيكة ، وهى الذبيحة يَنْسُكها العبد لله تعالى . ويُجمع أيضا على نسائك . والنُّسك : العبادة فى الأصل ؛ ومنه قوله تعالى : « أَرِنَا مَنَاسِكَنَا » (١) أى مُتعبَّداتنا . وقيل : إن أصل النّسك فى اللغة الغسل ؛ ومنه نَسَك ثوبه إذا غسله ؛ فكأن العابد غسل نفســه من أدران الذنوب بالعبادة . وقيــل : النّسك سبائك الفضة ، كل سبيكة منها نسيكة ؛ فكأن العابد خلّص نفسه من دنس الآثام وسبكها .

قوله تعــالى : ﴿ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ فيه ثلاث عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعــالى : ﴿ فَإِذَا أَمِنْتُمْ ﴾ قيل : معناه برأتم من المرض . وقيــل : من خوفكم من العدوّ المُحْصِر ؛ قاله ابن عباس وقتادة . وهو أشــبه باللفظ إلا أن يَخيّل الخوف من المرض فيكون الأمن منه ، كما تقدّم ، والله أعلم .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ ﴾ الآية . اختلف العلماء مَن المخاطب بهذا ؟ فقال عبد الله بن الزبير وعَلْقَمة و إبراهيم : الآية فى المحصَرين دون المُخَلَّى سبيلهم . وصورة المتمتّع عند ابن الزبير : أن يُحصَر الرجل حتى يفوته الحج ، ثم يصل إلى البيت

(١) راجع ص ١٢٧ من هذا الجزء .

Marfat.com

فيحلّ بعُمْرة، ثم يقضى الحج من قابل؛ فهذا قد تمتّع بمـا بين العُمْرة إلى حج القضاء . وصورة المتمتّع المُحْصَر عنـد غيره : أن يُحصر فيحلّ دون عُمرة ويؤخرها حـتى يأتى من قابل فيعتمر فى أشهر الحج ويحـج من عامه . وقال ابن عباس وجمـاعة : الآية فى المُحْصَرين وغيرهم ممن خُلِّىَ ســبيله .

الثالثــة ــ لا خلاف بين العلماء فى أن التمتع جائز على ما يأتى تفصيله ، وأن الإفراد جائز، وأن القِرَان جائز؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم رَضِىَ كُلًّا ولم ينكره فى حجّته على أحد من أصحابه، بل أجازه لهم ورَضِيَه منهم، صلى الله عليه وسلم . وإنمـا آختلف العلماء فيما كان به رسول الله صلى الله عليه وسلم مُحْرِمًا فى حَجّته وفى الأفضل من ذلك، لآختلاف الآثار الواردة فى ذلك؛ فقال قائلون منهم مالك : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مُفْرِدًا، والإفراد أفضل من القِرَان . قال: والقِرَان أفضل من التمتع . وفى صحيح مسلم عن عائشة قالت : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسـلم فقال : " من أراد منكم أن يُهِلّ بحج وعُمرة فليفعل ومن أراد أن يهلّ بحج فَلْيُهِلّ ومن أراد أن يُهلّ بعمرة فليُهِلّ " قالت عائشة : فأهَلّ رســول الله صلى الله عليه وسلم بحج،وأهلّ به ناس معه، وأهلّ ناس بالعُمْرة والحج ، وأهلّ ناس بعمرة، وكنت فيمن أهلّ بالعمرة ؛ رواه جمـاعة عن هشام بن عروة عن أبيــه عن عائشة . وقال بعضهم فيــه : قال رسول الله صلى الله عليه وســلم : " وأما أنا فأُهِلّ بالحج " وهــذا نصّ فى موضع الخلاف، وهو حجة من قال بالإفراد وفضله . وحكى محمد بن الحسن عن مالك أنه قال : إذا جاء عن النبيّ صلى الله عليه وسلم حديثان مختلفان وبلغنا أن أبا بكر وعمر عملا بأحد الحديثين وتركا الآخر كان فى ذلك دلالة على أن الحق فيما عملا به . وآستحب أبو ثور الإفراد أيضا وفضّله على التمتّع والقِرَان؛ وهو أحد قولى الشافعيّ فى المشهور عنه . وآستحب آخرون التمتع بالعُمرة إلى الحج، قالوا : وذلك أفضل . وهو مذهب عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير، وبه قال أحمد بن حنبل، وهو أحد قولى الشافعيّ . قال الدّارَقُطنيّ قال الشافعيّ : آخترت الإفراد، والتمتّعُ حَسَن لا نكرهه . آحتجّ مَن فضّل التمتع بمـا رواه مسلم عن عمران بن حُصين

Marfat.com

قال : نزلت آية المُتْعَة فى كتاب الله — يعنى متعة الحج — وأمرنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم لم تنزل آيةٌ تنسخ [آية](١) متعة الحج، ولم يَنْـه عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى مات ؛ قال رجل برأيه بعدُ ماشاء . وروى الترمذى حدّثنا قتيبة بن سعيد عن مالك بن أنس عن آبن شهاب عن محمد بن عبد الله بن الحارث بن نَوْفَل أنه سمع سعد بن أبى وقاص والضحاك آبن قيس عامَ حَجّ معاوية بن أبى سفيان وهما يذكران التمتع بالعُمْرة إلى الحج ؛ فقال الضحاك آبن قيس : لا يصنع ذلك إلا من جهل أمر الله تعالى . فقال سعد : بئس ماقلت يآبن أخى ! فقال الضحاك : فإن عمر بن الخطاب قد نهى عن ذلك . فقال سعد : قد صنعها رسول الله صلى الله عليه وسلم وصنعناها معه ؛ هـذا حديث صحيح . وروى آبن إسحاق عن الزهرى عن سالم قال : إنى لجالس مع آبن عمر فى المسجد إذ جاءه رجل من أهل الشام فسأله عن التمتع بالعمرة إلى الحج ؛ فقال آبن عمر : حَسَن جميل . قال : فإن أباك كان ينهى عنها . فقال : ويلك ! فإن كان أبى نهى عنها وقد فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر به، أفبقول أبى آخذ، أم بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ! ؟ قُمْ عنّى . أخرجه الدّارَقُطْنىّ، وأخرجه أبو عيسى الترمذى من حديث صالح بن كيسان عن آبن شهاب عن سالم . ورُوى عن ليث عن طاوس عن ابن عباس قال : تمتع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان، وأول من نهى عنها معاوية . حديث حسن . قال أبو عمر : حديث ليث هـذا حديث منكر ، وهو ليث ابن أبى سليم ضعيف . والمشهور عن عمر وعثمان أنهما كانا ينهيان عن التمتع، وإن كان جماعة من أهل العلم قد زعموا أن المتعة التى نهى عنها عمر وضرب عليها فسخ الحج فى العُمْرة . فأما التمتع بالعُمْرة إلى الحج فلا . وزعم من صحّح نهى عمر عن التمتع أنه إنما نهى عنه لينتجع البيت مرتين أو أكثر فى العام حتى تكثر عمارته بكثرة الزوّار له فى غير الموسم ، وأراد إدخال الرفق على أهل الحرم بدخول الناس تحقيقًا لدعوة إبراهيم : « فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ »(٢) . وقال آخرون : إنمـا نهى عنها لأنه رأى النـاس مالوا إلى التمتع ليسارته وخفته ؛ فخشى أن يضيع

---

(١) زيادة عن صحيح مسلم . (٢) راجع جـ ٩ ص ٣٧٣ .

Marfat.com

الإفراد والقِرَان وهما سُنّتان للنبيّ صلى الله عليه وسلم . وٱحتج أحمـد فى ٱختياره التمتع بقوله صلى الله عليه وسلم : "لو ٱستقبلتُ من أمرى ما ٱستدبرتُ ما سقتُ الهَدْىَ و لجعلتها عُمْرة". أخرجه الأئمة . وقال آخرون : القِرَان أفضل ؛ منهم أبو حنيفـة والثورى ، و به قال المُزَنى قال : لأنه يكون مؤدّيا للفرضين جميعا ؛ وهو قول إسحاق . قال إسحاق : كان رســول الله صلى الله عليه وسلم قارنًا ؛ وهو قول علىّ بن أبى طالب . وٱحتج من ٱستحب القِرَان وفضّله بمــا رواه البخارىّ عن عمر بن الخطاب قال : سمعت رسول الله صلى الله عليــه وسلم بوادى العَقيق(1) يقول : " أتانى الليلة آتٍ من ربّى فقال صلّ فى هذا الوادى المبارك وقل عمرة فى حَجّــة " . وروى الترمذىّ عن أنس قال سمعت رسول الله صــلى الله عليه وســلم يقول : " لبّيك بعمرة وحجة " . وقال : حديث حسن صحيح . قال أبو عمر: والإفراد إن شاء الله أفضل ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مُفْرِدًا ، فلذلك قلنا إنه أفضل ؛ لأن الآثار أصح عنــه فى إفراده صلى الله عليه وسلم ، ولأن الإفراد أكثر عملا ثم العمرة عمل آخر . وذلك كله طاعة والأكثر منها أفضل . وقال أبو جعفر النحاس : المفرِد أكثر تعباً من المتمتّع ، لإقامتــه على الإحرام وذلك أعظم لثوابه . والوجه فى ٱتفاق الأحاديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لمـا أمرنا بالتمتع والقِرَان جاز أن يقال : تمتّع رسول الله صــلى الله عليه وسلم وقَرَن ، كما قال جل وعز : « وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ(2) » . وقال عمر بن الخطاب : رجمنا ورجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنما أمر بالرجم .

قلت : الأظهر فى حجته عليه السلام القِرَانُ ، وأنه كان قارنا ، لحديث عمر وأنس المذكورين . وفى صحيح مسلم عن بكر عن أنس قال : "سمعت النبىّ صلى الله عليه وسلم يُلَبّى بالحج والعُمْرة معاً(3)". قال بكر : فحدّثت بذلك ٱبن عمر فقال : لبّى بالحج وحده ؛ فلقيت أنسا فحدّثته بقول ٱبن عمر ؛ فقال أنس : ما تَعُدّونا إلا صِبياناً ! سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "لبّيك عمرة وحجّا " . وفى صحيح مسلم أيضا عن ٱبن عباس قال : أهلّ النبىّ صلى الله عليه وســلم بعمرة

(1) العقيق : موضع بينه و بين المدينة أربعة أميال .　　(2) راجع جـ ١٦ ص ٩٨
(3) عبارة مسلم : « جميعا » .

وأهلّ أصحابه بحجّ؛ فلم يَحِلّ النبيّ صلى الله عليه وسلم ولا مَن ساق الهَدْىَ من أصحابه، وحلّ بقيّتهم . قال بعض أهل العلم : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قارِنًا، وإذا كان قارنًا فقد حَجّ وآعتمر، وآتفقت الأحاديث . وقال النحاس : ومن أحسن ما قيل فى هذا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أَهَلّ بعمرة؛ فقال من رآه : تمتّـع ثم أَهَلّ بحجّة . فقال من رآه : أَفْرَدَ ثم قال: "لَبَّيْكَ بحَجّة وعُمْرة" . فقال من سمعه: قَرَنَ. فآتفقت الأحاديث. والدليل على هذا أنه لم يَرْوِ أحد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: أفردت الحج ولا تمتّعت. وصح عنه أنه قال: " قرنت " كما رواه النسائى عن علىّ أنه قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لى: " كيف صـنعت " قلت : أهللت بإهلالك . قال " فإنى سُقتُ الهَـدْى وقَرَنْتُ". قال وقال صلى الله عليـه وسلم لأصحابه : " لو آستقبلتُ من أمرى ما آستدبرتُ لفعلتُ كما فعلتم ولكنّى سُقتُ الهَدْىَ وقَرَنْتُ". وثبت عن حفصة قالت قلت: يا رسول الله، ما بال الناس قد حَلّوا من عمرتهم ولم تَحِلّ أنت ؟ قال : " إنى لَبّدْتُ رأسى وسُقت هَدْيِى فلا أحِلّ حتى أنْحَر" . وهذا يبين أنه كان قارنًا، لأنه لو كان مُتَمَتّعًا أو مُفْرِدًا لم يمتنع من نحر الهَدْى .

قلت : ما ذكره النحاس أنه لم يَرْوِ أحد أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "أفردتُ الحج" فقد تقدّم من رواية عائشة أنه قال : " وأمّا أنا فأهلّ بالحج " . وهذا معناه : فأنا أفرد الحج، إلا أنه يحتمل أن يكون قد أحرم بالعمرة، ثم قال: فأنا أهلّ بالحج. ومما يبين هذا ما رواه مسلم عن آبن عمر، وفيه : وبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأهلّ بالعمرة ثم أهلّ بالحج؛ فلم يبق فى قوله : " فأنا أهلّ بالحج " دليل على الإفراد . وبقى قوله عليه السلام : " فإنى قرنت " . وقول أنس خادمه أنه سمعه يقول: "لَبَّيْكَ بحجة وعُمْرة معًا" نصٌّ صريح فى القِران لا يحتمل التأويل . وروى الدّارَقُطْنىّ عن عبد الله بن أبى قتادة عن أبيه قال : إنمـا جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الحج والعمرة لأنه علم أنه ليس بحاجّ بعدها .

الرابعـــة — وإذا مضى القول فى الإفراد والتمتّـع والقِران وأن كل ذلك جائز بإجماع فالتمتع بالعمرة إلى الحج عند العلماء على أربعة أوجه، منها وجه واحد مجتمع عليه، والثلاثة مختلف

Marfat.com

فيها . فأما الوجه المجتمع عليه فهو التمتع المراد بقول الله جل وعز : « فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ» وذلك أن يُحرم الرجل بعُمْرة فى أشهر الحج — على ما يأتى بيانها — وأن يكون من أهل الآفاق ، وقدِم مكة ففرغ منها ثم أقام حلالًا[1] بمكة إلى أن أنشأ الحج منها فى عامه ذلك قبل رجوعه إلى بلده ، أو قبل خروجه إلى مِيقات أهل ناحيته؛ فإذا فعل ذلك كان متمتعًا وعليه ما أوجب الله على المتمتع ، وذلك ما آستيسر من الهـدى ؛ يذبحه ويعطيه للساكين بمنًى أو بمكة ، فإن لم يجد صام ثلاثة أيام ، وسبعةً إذا رجع إلى بلده — على ما يأتى — وليس له صيام يوم النحر بإجماع من المسلمين . وآختلف فى صيام أيام التشريق على ما يأتى .

فهذا إجماع من أهل العلم قديمًا وحديثًا فى المُتْعة ، ورابطها ثمانية شروط : الأول — أن يجمع بين الحج والعُمْرة . الثانى — فى سفر واحد . الثالث — فى عام واحد . الرابع — فى أشهر الحج . الخامس — تقديم العمرة . السادس — ألا يَمْزُجَها ، بل يكون إحرام الحج بعد الفراغ من العمرة . السابع — أن تكون العمرة والحج عن شخص واحد . الثامن — أن يكون من غير أهل مكة . وتأمل هذه الشروط فيما وصفنا من حكم التمتع تجدها .

والوجه الثانى من وجوه التمتع بالعمرة إلى الحج : القِران ، وهو أن يجمع بينهما فى إحرام واحد فيُهِلّ بهما جميعًا فى أشهر الحج أو غيرها ؛ يقول : لَبَّيْكَ بحجة وعُمرة معًا ؛ فإذا قدم مكة طاف لحجته وعمرته طوافا واحدا وسعى سعيا واحدا ، عنـد من رأى ذلك ، وهم مالك والشافعى وأصحابهما وإسحاق وأبو ثور ، وهو مذهب عبـد الله بن عمـر وجابر بن عبد الله وعطاء بن أبى رباح والحسن ومجاهد وطاوس ؛ لحديث عائشة رضى الله عنها قالت : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حَجة الوداع فأهللنا بعمرة ، الحديث . وفيه : وأما الذين جمعوا بين الحج والعمرة فإنما طافوا طوافًا واحدًا . أخرجه البخارى . وقال صلى الله عليه وسلم لعائشة يوم النَّفر[2] ولم تكن طافت بالبيت وحاضت : " يَسَعُكِ طوافُكِ لحَجِّك وعُمـرتك " فى رواية :

---

(١) الحلال : الخارج من الإحرام .

(٢) يوم النفر (بفتح النون وتسكين الفاء وفتحها) : اليوم الذى ينفر (ينزل) الناس فيه من مِنًى .

Marfat.com

"يُجْزِئُ عنكِ طوافُكِ بالصّفا والمرْوَة عن حَجِّك وعُمْرتك". أخرجه مسلم — أو طاف طوافين وسعى سعيين، عنـد من رأى ذلك ، وهو أبو حنيفة وأصحابه والثورى والأوزاعى والحسن ابن صالح وآبن أبى لَيْـلَى ، ورُوِى عن علىّ وآبن مسعود ، وبه قال الشعبى وجابر بن زيد . وآحتجوا بأحاديث عن علىّ عليه السلام أنه جمع بين الحج والعمرة فطاف لهما طوافين وسَعَى لهما سعيين، ثم قال: هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل. أخرجهما الدّارَقُطْنىّ فى سُنَنه وضَعّفها كلها ، وإنمـا جعل القران من باب التمتع ؛ لأن القارن يتمتّع بترك النَّصَب فى السفر إلى العُمرة مَرّةً وإلى الحج أخرى ، ويتمتّع بجمعهما ، ولم يُحرم لكل واحدة من ميقاته ، وضَمّ الحج إلى العمرة ؛ فدخل تحت قول الله عزّ وجل : « فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ » . وهـذا وجه من التمتع لا خلاف بين العلماء فى جوازه . وأهل المدينة لا يجيزون الجمع بين العُمْرة والحج إلا بسياق الهَدْى ، وهو عندهم بَدَنة لا يجوز دونها . وممـا يدلّ على أن القران تمتّع قولُ آبن عمر : إنما جعل القران لأهل الآفاق ؛ وتلا قول الله جلّ وعزّ « ذَٰلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » فمن كان من حاضرى المسجد الحرام وتمتع أو قرن لم يكن عليه دمُ قِرانٍ ولا تمتّع . قال مالك : وما سمعت أن مَكّيًّا قَرَن ، فإن فعل لم يكن عليه هَدْىٌ ولا صيام ؛ وعلى قول مالك جمهور الفقهاء فى ذلك . وقال عبد الملك بن المـاجشون : إذا قَرَن المكىّ الحج مع العمرة كان عليه دَمُ القِران من أجل أن الله إنمـا أسقط عن أهل مكة الدم والصيام فى التمتع .

والوجه الثالث من التمتع : هو الذى توعّد عليه عمر بن الخطاب وقال : مُتعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا أنهى عنهما وأعاقب عليهما : مُتعةُ النّساء ومُتعةُ الحج . وقد تنازع العلماء فى جواز هذا بعدُ هَلُمّ جرّا[(1)]، وذلك أن يُحرِم الرجل بالحج حتى إذا دخل مكة فسخ حجّه فى عمرة، ثم حلّ وأقام حلالا حتى يُهِلّ بالحج يوم التَّروِيَة[(2)] . فهـذا هو الوجه الذى

(١) كذا فى الأصل . وفى المنتقى للباجى بحث طويل فى هذه المسألة ، فارجع إليه .

(٢) يوم التروية : يوم قبل يوم عرفة ، وهو الثامن من ذى الحجة ؛ سمى به لأن الحجاج يرتوون فيه من الماء، ويتهيئون إلى منى لا ماء بها .

Marfat.com

تواردت به الآثار عن النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ فيه أنه أمر أصحابه في حجّته مَن لم يكن معه هَدْيٌ ولم يَسُقْه وقـد كان أحرم بالحج أن يجعلها عمرة. وقد أجمـع العلماء على تصحيح الآثار بذلك عنه صلى الله عليه وسلم ولم يدفعوا شيئا منها؛ إلا أنهم ٱختلفوا في القول بها والعمل لعللٍ فجمهورهم على ترك العمل بها؛ لأنها عندهم خصوص خصّ بها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أصحابَه في حَجّته تلك. قال أبو ذرّ: كانت المتعة لنا في الحج خاصة. أخرجه مسلم. وفي رواية عنه أنه قال: «لا تصاح المتعتان إلا لنـا خاصّةً، يعني متعة النساء ومتعة الحج». والعـلة في الخصوصية ووجه الفائدة فيها ماقاله ٱبن عباس رضي الله عنه قال: «كانوا[(1)] يَرَون أن العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور في الأرض ويجعلون المُحَرَّمَ[(2)] صَفَرًا ويقولون: إذا بَرَأَ الدَّبَرْ، وعَفَا الأَثَرْ، وٱنسلخ صَفَرْ، حَلّت العمرةُ لمن ٱعتمرْ. فقَدِم النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابُه صبيحةَ رابعةٍ[(3)] مُهِلِّين بالحج، فأمرهم أن يجعلوها عُمرةً؛ فتعاظم ذلك عندهم فقالوا: يا رسول الله، أيّ الحِـلِّ[(4)]؟ قال: "الحِلُّ كله". أخرجه مسلم. وفي المُسْند الصحيح لأبي حاتم عن ٱبن عباس قال: والله ما أَعْمر رسـول الله صلى الله عليه وسـلم عائشة في ذي الحجة إلا ليقطع بذلك أمر أهل الشرك؛ فإن هذا الحيّ من قريش ومن دان دينهم كانوا يقولون: إذا عَفَا الوَبَرْ، وبَرَأَ الدَّبَرْ، وٱنسلخ صَفَرْ، حَلّت العُمْرةُ لمن ٱعتمرْ. فقد كانوا يحرّمون العُمـرة حتى ينسلخ ذو الحجة؛ فما أعمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة إلا لينقض ذلك من قولهم. ففي هذا دليل على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما فسخ الحج في العمرة ليريهم أن العمرة في أشهر الحج لا بأس بها. وكان ذلك له ولمن معه خاصّةً؛ لأن الله عز وجل قـد أمر بإتمام الحج والعمرة كل من

---

(١) الضمير في «كانوا» يعود الى الجاهلية. (٢) قوله: «ويجعلون المحرّم صفرا». المراد الإخبار عن النسيء الذي كانوا يفعلونه وكانوا يسمون المحرم صفرا ويحلونه، وينسئون المحرم، أي يؤخرون تحريمه الى ما بعد صفر لئلا يتوالى عليهـم ثلاثة أشهر محرمة تضيق عليهـم أمورهم من الغارة وغيرها. والدبر: الجرح الذي يحصـل في ظهر الإبل من اصطكاك الأقتاب؛ فإنها كانت تدبر بالسير عليها للحج. وعفا الأثر: أي درس وٱمّحى، والمراد أثر الإبل وغيرها في سيرها، عفا أثرها لطول مرور الأيام. وقال الخطابي: المراد أثر الدبر. وهذه الألفاظ تقرأ كلها ساكنة الآخر ويوقف عليها؛ لأن مرادهم السجع. عن شرح النووي لصحيح مسلم. (٣) أي صبح رابعة من ذي الحجة.

(٤) قوله: «أيّ الحل» أي هل هو الحل العام لكل ما حرم بالإحرام حتى بالجماع، أو حل خاص.

Marfat.com

دخل فيها أمرًا مطلقًا، ولا يجب أن يخالف ظاهر كتاب الله إلا بنص لا إشكال فيه من كتاب ناسخ أو سُنّة مبيّنة . وآحتجوا بما ذكرناه عن أبى ذرّ وبحديث الحارث بن بلال عن أبيه قال قلنا : يا رسول الله، فسخ الحج لنا خاصّةً أم للناس عامّةً ؟ قال : " بل لنا خاصة". وعلى هذا جماعة فقهاء الحجاز والعراق والشام، إلا شيء يروى عن آبن عباس والحسن والسُّدّى، وبه قال أحمد بن حنبل . قال أحمد : لا أردّ تلك الآثار الواردة المتواترة الصحاح فى فسخ الحج فى العمرة بحديث الحارث بن بلال عن أبيه وبقول أبى ذرّ . قال : ولم يجمعوا على ما قال أبو ذرّ ، ولو أجمعوا كان حجة ؛ قال : وقد خالف آبن عباس أبا ذرّ ولم يجعله خصوصًا . وآحتج أحمد بالحديث الصحيح، حديث جابر الطويل فى الحج، وفيه : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " لو أنى آستقبلت من أمرى ما آستدبرت لم أسُق الهَدْىَ وجعلتها عمرة " فقام سُرَاقة بن مالك بن جُعْشُم فقال : يا رسول الله ، ألعامنا هذا أم لأبَد ؟ فشبّك رسول الله صلى الله عليه وسلم أصابعه واحدةً فى الأخرى وقال : " دخلتِ العُمْرة فى الحج — مرتين[(1)] — لا بل لأبَدِ أبَدٍ " لفظ مسلم . وإلى هذا والله أعلم مال البخارىّ حيث ترجم « باب مَن لَبّى بالحج وسمّاه » وساق حديث جابر بن عبد الله : قدِمنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نقول : لَبّيْكَ بالحج؛ فأمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعلناها عُمرة . وقال قوم : إن أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بالإحلال كان على وجه آخر . وذكر مجاهد ذلك الوجه ، وهو أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كانوا فرضوا الحج أوّلا ، بل أمرهم أن يُهِلّوا مطلقًا و ينتظروا مايؤمرون به؛ وكذلك أهَلّ علىٌّ باليمن . وكذلك كان إحرام النبيّ صلى الله عليه وسلم، و يدلّ عليه قوله عليه السلام : " لو آستقبلتُ من أمرى ما آستدبرتُ ما سُقْتُ الهَدْىَ وجعلتها عمرة " فكأنه خرج ينتظر ما يُؤمر به و يأمر أصحابه بذلك ، و يدلّ على ذلك قوله عليه السلام : " أتانى آتٍ من ربّى فى هذا الوادى المبارك وقال قل حَجّة فى عمرة " .

(١) قوله : مرتين ، أى قاله مرتين .

Marfat.com

والوجه الرابع من المتعـة : مُتْعَةُ الْمُحْصَر وَمَن صُـدّ عن البيت ؛ ذكر يعقوب بن شيبة قال حدّثنا أبو سـلمة التَّبوذَكِيّ حدّثنا وُهَيب حدّثنا إسحاق بن سُوَيْد قال سمعت عبـد الله ابن الزبير وهو يخطب يقول : أيها الناس ، إنه والله ليس التمتع بالعُمْرة إلى الحج كما تصنعون ، ولكن التمتع أن يخرج الرجل حاجًّا فيحبسه عدوّ أو أَمْرٌ يعـذر به حتى تذهب أيام الحج ، فيأتى البيت فيطوف و يسـعَى بين الصّفا والمَرْوَة ، ثم يتمّتع بحلّه إلى العام المسـتقبل ثم يحج ويُهـدِى .

وقد مضى القول فى حكم الْمُحْصَر وما للعلماء فى ذلك مبيّناً ، والحمد لله .

فكان من مذهبه أن المُحْصَر لا يحلّ ولكنه يبقى على إحرامه حتى يذبح عنـه الهَدىَ يوم النحر ، ثم يَحْلِق و يبقى على إحرامه حتى يقدم مكة فيتحلّل من حَجّه بعمل عُمرة . والذى ذكره ابن الزبير خلاف عموم قوله تعـالى : « فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ » بعد قوله : « وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ » ولم يفصل فى حكم الإحصار بين الحج والعُمْرة ، والنبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابُه حين أحصروا بالحُدَيْبِيَة حَلُّوا وحَلّ ، وأمرهمْ بالإحلال .

وٱختلف العلمـاء أيضًا لِمَ سُمّيَ المتمتع متمتّعـًا ؛ فقال ٱبن القاسم : لأنه تمتّـع بكل ما لا يجـوز للمُحْرِم فعله من وقت حِلّه فى العمـرة إلى وقت إنشـائه الحج . وقال غيره : سُمّيَ متمتّعًا لأنه تمتّع بإسقاط أحد السفرين ، وذلك أن حقّ العمرة أن تقصد بسفر ، وحقّ الحج كذلك ، فلمـا تمتّع بإسقاط أحدهما ألزمه الله هديا ؛ كالقارن الذي يجمع بين الحج والعمرة فى سـفر واحد ، والوجه الأوّل أعم ، فإنه يتمتع بكل ما يجوز للحلال أن يفعله ، وسقط عنـه السفر لحجّه من بلده ، وسقط عنه الإحرام من ميقاته فى الحج . وهذا هو الوجه الذى كرهه عمر وٱبن مسعود ، وقالا أو قال أحدهما : يأتى أحدكم مِنًى وذَكَرُه يَقْطر مَنِيًّا ؛ وقد أجمع المسلمون على جواز هذا . وقد قال جماعة من العلماء : إنما كرهه عمر لأنه أحبّ أن يزار البيت فى العام مرّتين : مرّةً فى الحج ، ومرةً فى العُمْرة . ورأى الإفراد أفضـل ؛ فكان يأمر به ويَميل إليه

Marfat.com

و ينهى عن غيره آستحبابًا ؛ ولذلك قال : افصلوا بين حَجِّكم وعمرتكم ، فإنه أتم لحج أحدكم و[أتم][(١)] لعمرته أن يعتمر فى غير أشهر الحج .

الخامســة — آختلف العلماء فيمن آعتمر فى أشهر الحج ثم رجع إلى بلده ومنزله ثم حج من عامه ؛ فقال الجمهور من العلماء : ليس بمتمتع ، ولا هَدْى عليه ولا صيام . وقال الحسن البصرى : هو متمتع وإن رجع إلى أهــله ، حَجَّ أو لم يحجّ . قال لأنه كان يقال : عمـرة فى أشهر الحج مُتْعة ؛ رواه هُشيم عن يونس عن الحسن . وقـد روى عن يونس عن الحسن : ليس عليه هَدْىٌ . والصحيح القول الأوّل ، هكذا ذكر أبو عمر « حَجّ أو لم يحج » ولم يذكره آبن المنذر . قال آبن المنذر : وحجته ظاهر الكتاب قــوله عز وجل : « فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ » ولم يستثن : راجعًا إلى أهله وغير راجع ، ولو كان لله جل ثناؤه فى ذلك مراد لبيّنه فى كتابه أو على لسان رسوله صلى الله عليــه وسلم . وقد روِىَ عن سعيد بن المسيّب مثل قول الحسن . قال أبو عمر : وقد روى عن الحسن أيضا فى هذا الباب قول لم يتابع عليه أيضا ، ولا ذهب إليه أحد من أهل العلم . وذلك أنه قال : من آعتمر بعد يوم النحر فهى مُتعة . وقد روى عن طاوس قولان هما أشدّ شذوذًا ممـا ذكرنا عن الحسن ، أحدهما : أن من آعتمر فى غير أشهر الحج ثم أقام حتى دخل وقت الحج ، ثم حج من عامه أنه متمتع . هذا لم يقل به أحد من العلماء غيره ، ولا ذهب إليه أحد من فقهاء الأمصار . وذلك — والله أعلم — أن شهور الحج أحقّ بالحج من العمرة ؛ لأن العمرة جائزة فى السنة كلّها ، والحج إنما موضعه شهور معلومة ؛ فإذا جعل أحد العمرة فى أشهر الحج فقد جعلها فى موضع كان الحج أولى به ؛ إلا أن الله تعـالى قد رخّص فى كتابه وعلى لسان رســوله صلى الله عليه وسلم فى عمل العمرة فى أشهر الحج للتمتع وللقارن ولمن شاء أن يُفردها ، رحمةً منه ، وجعل فيه ما آستيسر من الهَدْى . والوجه الآخر قاله فى المكىّ إذا تمتــع من مصر من الأمصار فعليــه الهَدْى ، وهــذا لم يُعَرِّج عليه ؛ لظاهر قوله تعـالى : « ذَٰلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » والتمتع الجائز عند جماعة العلماء ما أوضحناه بالشرائط التى ذكرناها ، وبالله توفيقنا .

(١) الزيادة عن الموطأ .

Marfat.com

السادســة -- أجمع العلماء على أن رجلًا من غير أهل مكة لو قدم مكة معتمراً فى أشهر الحج عازمًا على الإقامة بهـا ثم أنشأ الحج من عامه فحجّ أنه متمتّع، عليه ما على المتمتّع . وأجمعوا فى المكيّ يجيء من وراء الميقات مُحْرِماً بعمرة ، ثم ينشئ الحج من مكة وأهـله بمكة ولم يسكن سواها أنه لا دَمَ عليه،وكذلك إذا سكن غيرها وسكنها وكان له فيها أهلٌ وفى غيرها . وأجمعوا على أنه إن آنتقـل من مكة بأهله ثم قدمها فى أشهر الحج معتمِرًا فأقام بهـا حتى حج من عامه أنه متمتّع .

السابعــة — وآتفق مالك والشـافعى وأبو حنيفـة وأصحابهم والثورى وأبو ثور على أن المتمتع يطوف لعمرته بالبيت ويسعى بين الصفـا والمروة ، وعليه بعـدُ أيضًا طوافٌ آخر لحجّـه وسَعْىٌ بين الصفا والمروة . وروى عن عطاء وطاوس أنه يكفيه سَـعْىٌ واحد بين الصفـا والمروة ، والأوّل المشهور ، وهـو الذى عليه الجمهـور ، وأما طواف القارن فقد تقـــدّم .

الثامنـــة — وآختلفوا فيمن أنشأ عُمرة فى غير أشهر الحج ثم عمل لها فى أشهر الحج ، فقال مالك : عمرته فى الشهر الذى حلّ فيه ؛ يريد إن كان حلّ منها فى غير أشهر الحج فليس بمتمتع ، وإن كان حلّ منها فى أشهر الحج فهو متمتّع إن حَجّ من عامه . وقال الشافعى : إذا طاف بالبيت فى الأشهر الحُرُم للعمرة فهو متمتّع إن حج من عامه ؛ وذلك أن العمرة إنما تكمل بالطواف بالبيت ، وإنما ينظر إلى كمالها ، وهو قول الحسن البصرى والحكم بن عُيَيْنة وآبن شُبْرُمة وسفيان الثورى . وقال قتادة وأحمـد وإسحاق : عمرته للشهر الذى أهلّ فيه ؛ وروى معنى ذلك عن جابر آبن عبد الله . وقال طاوس : عمرته للشهر الذى يدخل فيه الحَرَم . وقال أصحاب الرأى : إن طاف لها ثلاثة أشواط فى رمضان، وأربعة أشواط فى شوّال فحج من عامه أنه متمتع . وإن طاف فى رمضان أربعة أشواط ، وفى شوّال ثلاثة أشواط لم يكن متمتّعًا . وقال أبو ثور : إذا دخل فى العمرة فى غير أشهر الحج فسواء أطاف لها فى رمضان أو فى شوّال لا يكون بهذه العمرة متمتّعًا ، وهو معنى قول أحمد وإسحاق : عمرته للشهر الذى أهلّ فيه .

Marfat.com

التاســـعة — أجمع أهل العلم على أن لمن أهـلّ بعمرة فى أشهر الحج أن يُدخل عليها الحج ما لم يفتتح الطّواف بالبيت، و يكون قارنًا بذلك، يلزمه ما يلزم القارن الذى أنشأ الحج والعمرة معًا. وٱختلفوا فى إدخال الحج على العمرة بعد أن ٱفتتح الطواف؛ فقال مالك: يلزمه ذلك و يصير قارنًا ما لم يتم طوافه؛ وروى مثله عن أبى حنيفة، والمشهور عنه أنه لا يجوز إلا قبل الأخذ فى الطواف، وقد قيل: له أن يُدخل الحج على العمرة ما لم يركع ركعتى الطواف. وكل ذلك قول مالك وأصحابه . فإذا طاف المعتمر شوطًا واحدًا لعمرته ثم أحرم بالحج صار قارنًا، وسقط عنه باقى عمرته ولزمه دَمُ القِران . وكذلك من أحرم بالحج فى أضعاف طوافه أو بعد فراغه منه قبل ركوعه . وقال بعضهم : له أن يُدخل الحج على العمرة ما لم يُكمل السعى بين الصّـفَا والمروة. قال أبو عمر : وهذا كله شذوذ عند أهل العلم. وقال أشهب: إذا طاف لعمرته شوطًا واحدًا لم يلزمه الإحرام به ولم يكن قارنًا ،ومضى على عمرته حتى يتمها ثم يُحرم بالحج؛ وهذا قول الشافعىّ وعطاء، و به قال أبو ثور.

العـاشرة — وٱختلفوا فى إدخال العمرة على الحج؛ فقال مالك وأبو ثور و إسحاق: لاتدخل العمرة على الحج، ومن أضاف العمرة إلى الحج فليست العمرة بشىء؛ قاله مالك،وهو أحد قولى الشافعىّ، وهو المشهور عنـه بمصر . وقال أبو حنيفة وأصحابه والشافعىّ فى القديم : يصـير قارنًا، و يكون عليه ما على القارن ما لم يَطُف لحجّتـه شوطًا واحدًا، فإن طاف لم يلزمه؛ لأنه قد عمل فى الحج . قال ٱبن المنذر : وبقول مالك أقول فى هذه المسألة .

الحادية عشرة — قال مالك : مَن أهدى هديًا للعمرة وهو متمتّع لم يجزه ذلك ، وعليـه هَدْىٌ آخر لمُتعته؛ لأنه إنما يصير متمتعًا إذا أنشأ الحج بعد أن حلّ من عمرته، وحينئذ يجب عليه الهدى . وقال أبو حنيفـة وأبو ثور و إسحاق : لا يَنحر هديه إلا يوم النحر . وقال أحمـد : إن قـدم المتمتع قبل العشر طاف وسَعَى ونَحر هَـدْيَه، و إن قدم فى العشر لم ينحـر إلا يوم النحر؛ وقاله عطـاء . وقال الشافعىّ : يحلّ من عمرته إذا طاف وسـعَى ، ساق هديًا أو لم يسقه .

الثانية عشرة — وآختلف مالك والشافعىّ فى المتمتع يموت؛ فقال الشافعىّ : إذا أحرم بالحج وجب عليه دَمُ المتعة إذا كان واجدًا لذلك؛ حكاه الزعفرانىّ عنـه . وروى آبن وهب عن مالك أنه سئل عن المتمتّع يموت بعد ما يُحرم بالحج بعرفة أو غيرها ، أترى عليـه هديًا ؟ قال : من مات من أولئك قبل أن يرمى جمرة العَقَبة فلا أرى عليه هَدْيًا ، ومن رمى الجمرة ثم مات فعليه الهَدْى . قيل له : من رأس المـال أو من الثلث ؟ قال : بل من رأس المـال .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ﴾ قد تقدّم الكلام فيه .

قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ .

فيه عشر مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ ﴾ يعنى الهَدْى، إمّا لعدم المـال أو لعدم الحيوان ، صام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجع إلى بلده . والثلاثةُ الأيام فى الحج آخرها يوم عرفة؛ هذا قول طاوس، وروى عن الشـعبىّ وعطاء ومجاهد والحسن البصرى والنَّخَعِىّ وسعيد بن جُبير وعلقمة وعمرو بن دينار وأصحاب الرأى ؛ حكاه آبن المنـذر . وحكى أبو ثور عن أبى حنيفة يصومها فى إحرامه بالعُمْرة، لأنه أحد إحرامى التمتع؛ فجاز صوم الأيام فيه كإحرامه بالحج . وقال أبو حنيفة أيضا وأصحابه : يصـوم قبل يوم التَّروِيَة يومًا ، ويومَ التروية ويوم عرفة . وقال آبن عباس ومالك بن أنس : له أن يصومها منذ يُحرِم بالحج إلى يوم النحر؛ لأن الله تعالى قال : « فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ » فإذا صامها فى العمرة فقد أتاه قبل وقتـه فلم يجزه . وقال الشافعىّ وأحمد بن حنبل : يصومهن ما بين أن يُهِلّ بالحج إلى يوم عرفة ؛ وهو قول آبن عمر وعائشة؛ وروى هـذا عن مالك ، وهو مقتضى قوله فى مُوَطَّئه ؛ ليكون يوم عرفة مفطرًا؛ فذلك أتبع للسُّنة ، وأقوى على العبادة ، وسيأتى . وعن أحمد أيضا : جائز أن يصوم الثلاثة قبل أن يُحرم . وقال الثورىّ والأوزاعىّ : يصومهنّ من أوّل أيام العشر؛ وبه قال عطاء . وقال عُروة : يصومها ما دام بمكة فى أيام مِنًى؛ وقاله أيضا مالك وجماعة من أهل المدينة .

Marfat.com

وأيام مِنًى هى أيام التشريق الثلاثة التى تلى يوم النحر . روى مالك فى الموطأ عن عائشة أمّ المؤمنين أنها كانت تقول : « الصيام لمن تمتّع بالعمرة إلى الحج لمن لم يجد هَدْيًا مابين أن يُهِلّ بالحج إلى يوم عرفة، فإن لم يصم صام أيام مِنًى » . وهذا اللفظ يقتضى صحة الصوم من وقت يحرم بالحج المتمتع إلى يوم عرفة، وأن ذلك مبدأ، إمّا لأنه وقت الأداء وما بعد ذلك من أيام مِنًى وقت القضاء ، على مايقوله أصحاب الشافعى؛ وإمّا لأن فى تقديم الصيام قبل يوم النحر إبراء للذّمة، وذلك مأمور به . والأظهر من المذهب أنها على وجه الأداء، وإن كان الصوم قبلها أفضل؛ كوقت الصلاة الذى فيه سَعة للأداء وإن كان أوّله أفضل من آخره . وهذا هو الصحيح وأنها أداء لا قضاء؛ فإن قوله : « أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ » يحتمل أن يريد موضع الحج، ويحتمل أن يريد أيام الحج ؛ فإن كان المراد أيام الحج فهذا القول صحيح؛ لأن آخر أيام الحج يوم النحر، ويحتمل أن يكون آخر أيام الحج أيام الرمى؛ لأن الرمى عَمَلٌ من عمل الحج خالصًا وإن لم يكن من أركانه . وإن كان المراد موضع الحج صامه ما دام بمكة فى أيام مِنًى؛ كما قال عروة، ويقوى جدا . وقد قال قوم : له أن يؤخرها آبتداء إلى أيام التشريق ، لأنه لا يجب عليه الصيام إلا بألا يجد الهَدْى يوم النحر . فإن قيل وهى :

الثانيـــة — فقد ذهب جماعة من أهل المدينة والشافعى فى الجديد وعليه أكثر أصحابه إلى أنه لا يجوز صوم أيام التشريق لنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صيام أيام مِنًى؛ قيل له : إن ثبت النهى فهو عامٌّ يخصَّص منه المتمتع بما ثبت فى البخارى أن عائشة كانت تصومها . وعن آبن عمر وعائشة قالا : لم يُرخَّص فى أيام التشريق أن يُصمن إلا لمن لم يجد الهَدْى . وقال الدارَقُطْنِىّ : إسناده صحيح، ورواه مرفوعا عن آبن عمر وعائشة من طرق ثلاثة ضعّفها . وإنما رخّص فى صومها لأنه لم يبق من أيامه إلا بمقدارها، وبذلك يتحقق وجوب الصوم لعدم الهدى . قال آبن المنذر : وقد روينا عن علىّ بن أبى طالب أنه قال : إذا فاته الصوم صام بعد أيام التشريق؛ وقاله الحسن وعطاء . قال آبن المنذر : وكذلك نقول .

Marfat.com

وقالت طائفة : إذا فاته الصوم فى العشر لم يَجْزِه إلا الهَــدْى . روى ذلك عن ٱبن عباس وسعيد بن جبير وطاوس ومجاهد ، وحكاه أبو عمر عن أبى حنيفة وأصحابه عنه ؛ فتأمله .

الثالثــة — أجمع العلماء على أن الصوم لا سـبيل للتمتع إليه إذا كان يجد الهَــدْىَ ، وٱختلفوا فيه إذا كان غير واجدٍ للهَدْى فصام ثم وَجد الهَدْى قبل إكمال صـومه ؛ فذكر ٱبن وهب عن مالك قال : إذا دخل فى الصوم ثم وجد هَدْيًا فأحبّ إلىّ أن يُهدِى ، فإن لم يفعل أجزاه الصيام . وقال الشافعى : يمضى فى صومه وهو فرضه ؛ وكذلك قال أبو ثور ، وهو قول الحسن وقتادة ، وٱختاره ٱبن المنذر . وقال أبو حنيفة : إذا أيسر فى اليوم الثالث من صومه بطل الصوم ووجب عليه الهَــدْى ، وإن صام ثلاثة أيام فى الحج ثم أيسر كان له أن يصـوم السبعة الأيام لا يرجع إلى الهَدْى ؛ وبه قال الثورىّ وٱبن أبى نَجيح وحماد .

الرابعــة — قوله تعالى : ﴿ وَسَبْعَةٍ ﴾ قراءة الجمهور بالخفض على العطف . وقرأ زيد ٱبن علىّ « وسبعةً » بالنصب ، على معنى : وصوموا سبعةً .

الخامســة — قوله تعالى : ﴿ إِذَا رَجَعْتُمْ ﴾ يعنى إلى بلادكم ؛ قاله ٱبن عمر وقتادة والربيع ومجاهد وعطاء ، وقاله مالك فى كتاب محمد ، وبه قال الشافعىّ . قال قتادة والربيـع : هذه رُخصة من الله تعالى ، فلا يجب على أحد صوم السبعة إلا إذا وصل وطنه ، إلا أن يتشدّد أحد ، كما يفعل من يصـوم فى السفر فى رمضان . وقال أحمـد وإسحاق : يجزيه الصـوم فى الطريق ؛ وروى عن مجاهد وعطاء . قال مجاهد : إن شاء صامها فى الطريق ، إنما هى رخصة ؛ وكذلك قال عكرمة والحسن . والتقدير عند بعض أهل اللغة : إذا رجعتم من الحج ؛ أى إذا رجعتم إلى ما كنتم عليه قبل الإحرام من الحِلّ . وقال مالك فى الكتاب : إذا رجع من مِنًى فلا بأس أن يصوم . قال ٱبن العربى : « إن كان تخفيفًا ورُخصةً فيجوز تقديم الرخص وترك[1] الرفق فيها إلى العزيمة إجماعًا . وإن كان ذلك توقيتًا فليس فيــه نصّ ، ولا ظاهر أنه أراد البلاد ، وأنها المراد فى الأغلب[2] » .

(١) كذا فى أحكام القرآن لابن العربى . وفى نسخ الأصل : « بدل » .
(٢) عبارة ابن العربى : « ... ولا ظاهر أنه أراد البلاد ، وإنما المراد فى الأغلب والأظهر فيه أنه الحج » .

Marfat.com

قلت : بل فيه ظاهر يقرب إلى النّص ، يبيّنه ما رواه مسلم عن آبن عمـر قال : تمتّع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع بالعمرة إلى الحج وأَهْدَى، فساق معه الهَدْىَ من ذى الحُلَيْفَة ، وبدأ رسول الله صلى الله عليه وسـلم فأهَلّ بالعمرة ثم أَهَلّ بالحج، وتمتّع الناس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعمرة إلى الحج؛فكان من الناس مَن أَهْدَى[(1)] فساق الهَدْيَ، ومنهم مَن لم يُهْـد ، فلما قَدِم رسول الله صلى الله عليه وسـلم مكة قال للنـاس : " مَن كان منكم أهدى فإنه لا يحِلّ من شىء حرم منه حتى يقضى حجه ومن لم يكن منكم أهدى فلْيَطُف بالبيت و بالصّفا والمَرْوَة ولْيُقَصِّر ولْيَحْلِل ثم ليهِلّ بالحج ولْيُهْدِ فمن لم يجد هَدْيًا فلْيَصُم ثلاثةَ أيام فى الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله " الحديث . وهذا كالنص فى أنه لايجوز صوم السبعة الأيام إلا فى أهـله وبلده ، والله أعلم . وكذا قال البخارىّ فى حديث آبن عبـاس : « ثم أَمَرنا عَشِيّةَ التَّرْوِيَة أن نُهِلّ بالحج فإذا فرغنا من المناسك جئنا فطُفْنا بالبيت و بالصّفا والمَرْوَة وقد تمّ حجّنا وعلينا الهَدْى ؛ كما قال الله تعـالى : «فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَى أَمْصَارِكُمْ[(2)]» الحـديث ، وسيأتى . قال النحاس : وكان هذا إجماعًا .

السادســة — قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ يقال: كَمَلَ يَكْمُلُ ،مثلُ نصر ينصر. وكَمُلَ يَكْمُلُ، مثلُ عَظُم يعظم . وكَمِل يَكْمَل، مثلُ حَمِد يحمَد، ثلاث لغات . وآختلفوا فى معنى قوله :﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ﴾ وقد عُلم أنها عشرة؛ فقال الزجاج : لمـا جاز أن يتوهّم متوهّم التّخيير بين ثلاثة أيام فى الحج أو سبعة إذا رجع بدلا منها؛لأنه لم يقل وسبعة أخرى — أزيل ذلك بالجملة من قوله «تلك عشرة» ثم قال : « كاملة» . وقال الحسن: « كاملة» فى الثواب كمن أهدى . وقيل : «كاملة» فى البدل عن الهَدْى؛ يعنى العشرة كلها بدل عن الهدى . وقيل : « كاملة» فى الثواب كمن لم يتمتع . وقيـل : لفظها لفظ الإخبار ومعناها الأمر ؛ أى أكملوها فذلك فرضها . وقال المبرّد : « عشرة » دلالة على آنقضاء العدد؛ لئـلا يتوهّم متوهّم أنه قـد بقى

---

(1) فى الأصول : « من أهل » .   (2) قوله « إلى أمصاركم » : تفسير من آبن عباس للرجوع .

Marfat.com

منـه شيء بعـد ذكر السبعة . وقيـل : هو توكيد ؛ كما تقول : كتبت بيدى . ومنـه قول الشاعر :

ثلاثٌ وآثنتان فهنّ خمسٌ * وسادسةٌ تميل إلى شِمامِى

فقوله « خمس » تأكيد . ومثله قول الآخر :

ثلاثٌ بالغداة فذاك حَسْبي * وستٌّ حين يدركني العِشاء

فذلك تسعة فى اليوم ريّى * وشرب المرء فوق الريّ داء

وقوله : « كاملة » تأكيد آخر ، فيــه زيادة توصـية بصيامها وألا ينقص من عددها ؛ كما تقول لمن تأمره بأمر ذى بال : اللهَ اللهَ لا تقصّر .

السابعــة — قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أى إنما يجب دَمْ التمتّع عن الغريب الذى ليس من حاضرى المسـجد الحرام . خرّج البخارىّ « عن آبن عباس أنه سئل عن متعة الحج فقال : أَهَلّ المهاجرون والأنصار وأزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم فى حَجّة الوداع وأهللنا ، فلما قدمنا مكة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اجعلوا إهلالكم بالحج عُمرةً إلا مَن قلّد الهَدْى " طُفنا بالبيت و بالصفا والمروة وأتينا النساء ولبسنا الثياب ، وقال : " مَن قلّد الهَدْى فإنه لا يحِلّ حتى يبلغ الهَدْى مَحِلّه " ثم أَمَرَنا عشيّة التَّرْوِيَة أن نُهِلّ بالحج ، فإذا فرغنا من المناسك جئنا فطفنا بالبيت وبالصفا والمروة فقد تمّ حجنا وعلينا الهدى ، كما قال الله تعالى : « فَمَا آسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْىِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِى الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ » إلى أمصاركم ، الشاةُ تجزِى ، فجمعوا نُسُكَيْن فى عام بين الحج والعمرة فإن الله أنزله فى كتابه وسُنّة نبيّه صلى الله عليه وسلم وأباحه للناس غير أهل مكة ، قال الله عن وجل : « ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » وأشهر الحج التى ذكر الله عن وجل شوّال وذو القعدة وذو الحجة ، فمن تمتع فى هذه الأشهر فعليه دَمٌ أو صوم . والرَّفَثُ : الجماع والفسوق : المعاصى . والجدال : المراء .

Marfat.com

الثامنــة — اللام فى قوله «لِمَنْ» بمعنى على؛ أى وجوب الدم على من لم يكن من أهل مكة ؛ كقوله عليه السلام : " اشترطى لهم الولاء " ، وقوله تعالى : « وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا »(١) أى فعليها . وذلك إشارة إلى التمتع والقِران للغريب عند أبى حنيفة وأصحابه؛ لا مُتْعَة ولا قِران لحاضرى المسجد الحرام عندهم . ومَن فعل ذلك كان عليه دَمُ جناية لا يأكل منه ؛ لأنه ليس بدم تمتّع . وقال الشافعى: لهم دم(٢) تمتع وقِران . والإشارة ترجع إلى الهَدْى والصيام، فلا هدى ولا صيام عليهم . وفرّق عبد الملك بن الماجشون بين التمتّع والقِران ، فأوجب الدم فى القِران وأسقطه فى التمتّع ، على ما تقدم عنه .

التاســعة — وآختلف الناس فى حاضرى المسجد الحرام — بعد الإجماع على أن أهل مكة وما آتصل بها من حاضريه . وقال الطبرى : بعد الإجماع على أهل الحرم . قال آبن عطية : وليس كما قال — فقال بعض العلماء : من كان يجب عليه الجمعة فهو حَضَرِىّ، ومن كان أبعد من ذلك فهو بَدَوِىّ؛ فجعل اللفظة من الحضارة والبَداوة . وقال مالك وأصحابه هم أهل مكة وما آتصل بها خاصة . وعند أبى حنيفة وأصحابه : هم أهل المواقيت ومَن وراءها من كل ناحية ؛ فمن كان من أهل المواقيت أو من أهل ماوراءها فهم من حاضرى المسجد الحرام . وقال الشافعى وأصحابه : هم من لا يلزمه تقصير الصلاة من موضعه إلى مكة، وذلك أقرب المواقيت . وعلى هذه الأقوال مذاهب السلف فى تأويل الآية .

العاشرة — قوله تعالى : ﴿وَآتَّقُوا آللَّهَ﴾ أى فيما فرضه عليكم . وقيل : هو أمْر بالتقوى على العموم ، وتحذير من شدّة عقابه .

قوله تعالى : ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢١٧ (٢) لفظة « دم » ساقطة من ب ، جـ ؛ ز .

Marfat.com

فيه أربع عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ ﴾ لمـا ذكر الحج والعمرة سبحانه وتعالى في قوله : « وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ » بيّن آختلافهما في الوقت ؛ بجميع السّنة وقتٌ للإحرام بالعمرة ، ووقت العمرة . وأمّا الحج فيقع في السّنة مرّةً ، فلا يكون في غير هذه الأشهر . و « الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ » آبتداء وخبر ، وفي الكلام حذف تقـديره : أشهرُ الحج أشهرٌ ، أو وقت الحج أشهرٌ ، أو وقت عمل الحج أشهرٌ . وقيل التقدير : الحج في أشهر . و يلزمه مع سقوط حرف الجر نصب الأشهر ، ولم يقرأ أحد بنصبها ، إلا أنه يجوز في الكلام النصب على أنه ظرف . قال الفرّاء : الأشهر رَفْعٌ ؛ لأن معناه وقت الحج أشهر معلومات . قال الفرّاء : وسمعت الكسائي يقول : إنمـا الصيف شهران ، و إنمـا الطيلسان(١) ثلاثة أشهر . أراد وقت الصيف ، ووقت لباس الطيلسان ؛ فحذف .

الثانيـــة — وآختلف في الأشهر المعلومات ؛ فقال آبن مسعود وآبن عمر وعطاء والربيع ومجاهد والزهريّ : أشهر الحج شوّال وذو القعدة وذو الحجة كله . وقال آبن عباس والسـدّي والشعبيّ والنَّخعيّ : هي شوّال وذو القعدة وعشرة من ذي الحجة ؛ وروى عن آبن مسعود ، وقاله آبن الزبير ، والقولان مرويان عن مالك ؛ حكى الأخيرَ آبنُ حبيب ، والأولَ آبنُ المنذر . وفائدة الفرق تعلّق الدم ؛ فمن قال : إن ذا الحجة كله من أشهر الحج لم ير دَمًا فيما يقع من الأعمال بعـد يوم النحر ؛ لأنها في أشهر الحج . وعلى القول الأخير ينقضي الحج بيوم النحر ، و يلزم الدم فيما عمل بعد ذلك لتأخيره عن وقته .

الثالثـــة — لم يسمّ الله تعالى أشهر الحج في كتابه ؛ لأنها كانت معلومة عندهم . ولفظ الأشهر قد يقع على شهرين و بعض الثالث ، لأن بعض الشهر يتنزّل منزلة كله ، كما يقال : رأيتك سنة كذا ، أو على عهد فلان . ولعله إنما رآه في ساعة منها ؛ فالوقت يُذكر ببعضه بكله ، كما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " أيامُ مِنًى ثلاثة " . و إنما هي يومان و بعض الثالث . و يقولون : رأيتك اليوم ، وجئتك العام . وقيل : لمـا كان الآثنان وما فوقهما جَمْعٌ(٢) قال أشهر ؛ والله أعلم .

(١) الطيلسان : كساء مدوّر أخضر ؛ لحمته أو سداه من صوف يلبسه الخواص من العلماء والمشايخ ، وهو من لباس العجم . (٢) كذا في نسخ الأصل . ووجهه : أن اسم كان ضمير الشان ، وجملة « الاثنان وما ... » الخ في محل نصب خبر كان .

Marfat.com

الرابعـة — اختلف فى الإهلال بالحج فى غير أشهر الحج ؛ فروى عن ابن عباس : من سُنَّة الحج أن يُحرم به فى أشهر الحج . وقال عطاء ومجاهد وطاوس والأوزاعى : من أحرم بالحج قبل أشهر الحج لم يجزه ذلك عن حجّه ويكون عمرة ؛ كمن دخل فى صلاة قبل وقتها فإنه لا تجزيه وتكون نافلة ، و به قال الشافعى وأبو ثور . وقال الأوزاعى : يَحِلّ بعمرة . وقال أحمد بن حنبل : هذا مكروه ، وروى عن مالك ، والمشهور عنه جواز الإحرام بالحج فى جميع السنة كلها ، وهو قول أبى حنيفة . وقال النَّخعىّ : لا يحلّ حتى يقضى حجّه ؛ لقوله تعالى : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ » وقد تقدّم القول فيها . وما ذهب إليه الشافعىّ أصح ؛ لأن تلك عامة ، وهذه الآية خاصة . ويحتمل أن يكون من باب النص على بعض أشخاص العموم ، لفضل هذه الأشهر على غيرها ؛ وعليه فيكون قول مالك صحيحا ، والله أعلم .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ ﴾ أى ألزمه نفسه بالشروع فيه بالنية قصدًا باطنًا ، وبالإحرام فعلًا ظاهرًا ، وبالتلبية نُطقًا مسموعًا ؛ قاله ابن حبيب وأبو حنيفة فى التلبية . وليست التلبية عند الشافعى من أركان الحج ؛ وهو قول الحسن بن حىّ . قال الشافعىّ : تكفى النية فى الإحرام بالحج . وأوجب التلبية أهل الظاهر وغيرهم . وأصل الفرض فى اللغة : الحَزّ والقَطْع ؛ ومنه فُرْضة[1] القَوْس والنَّهر والجبل . ففرضية الحج لازمة للعبد الحرّ كلزوم الحَزّ للقِدْح . وقيل : « فَرَض » أى أبان ؛ وهذا يرجع إلى القطع ، لأن من قطع شيئا فقد أبانه عن غيره . و « مَن » رفع بالابتداء ومعناها الشرط ، والخبر قوله : « فَرَض » ؛ لأن « من » ليست بموصولة ؛ فكأنه قال : رَجُلٌ فَرَض . وقال : « فيهن » ولم يقل فيها ؛ فقال قوم : هما سواء فى الاستعمال . وقال المازنى أبو عثمان : الجمع الكثير لما لا يعقل يأتى كالواحدة المؤنثة ، والقليل ليس كذلك ؛ تقول : الأجذاع انكسرن ، والجذوع انكسرت ؛ ويؤيد ذلك قول الله تعالى : « إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ » ثم قال : « منها » .

(١) فرضة القوس (بضم أوله وسكون ثانيه) : الحز يقع عليه الوتر . وفرضة النهر : مشرب الماء منه . وفرضة الجبل : ما انحدر من وسطه وجانبه .

Marfat.com

السادســة — قوله تعالى : ﴿ فَلَا رَفَثَ ﴾ قال ابن عباس وابن جُبير والسُّدّى وقتادة والحسن وعكرمة والزهرى ومجاهد ومالك : الرَّفَثُ الجماعُ ؛ أى فلا جماع لأنه يفسده . وأجمع العلماء على أن الجماع قبل الوقوف بعرفة مفسد للحج ، وعليه حَجٌّ قابل والهَدْىُ . وقال عبد الله ابن عمر وطاوس وعطاء وغيرهم : الرفث الإفحاش للمرأة بالكلام ؛ لقوله : إذا أحللنا فعلنا بك كذا ، من غير كناية ؛ وقاله ابن عباس أيضا ، وأنشد وهو مُحْرِم :

وهنّ يمشين بنا هَميسا * إن تَصدقِ الطير نَنِك لَمِيسا[1]

فقال له صاحبه حُصين بن قيس : أترفُث وأنت مُحْرِم ! فقال : إن الرَّفث ما قيل عند النساء . وقال قوم : الرَّفث الإفحاش بذكر النساء ، كان ذلك بحضرتهنّ أم لا . وقيل : الرفث كلمةٌ جامعةٌ لما يريده الرجل من أهله . وقال أبو عبيدة : الرَّفث اللَّغا من الكلام ، وأنشد :

ورُبّ أسرابِ حجيج كُظّمِ * عن اللَّغا ورَفَث التكلُّمِ

يقال : رَفَث يَرْفُث ، بضم الفاء وكسرها . وقرأ ابن مسعود « فلا رفوث » على الجمع . قال ابن العربى : المراد بقوله « فلا رفث » نفيه مشروعًا لا موجودًا ، فإنا نجد الرَّفث فيه ونشاهده ، وخبر الله سبحانه لا يجوز أن يقع بخلاف مخبره ، وإنما يرجع النفى إلى وجوده مشروعًا لا إلى وجوده محسوسًا ؛ كقوله تعالى : « وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ »[2] معناه : شرعًا لا حِسًّا ؛ فإنا نجد المطلّقات لا يتربّصن ؛ فعاد النّفى إلى الحكم الشرعىّ لا إلى الوجود الحِسّى . وهذا كقوله تعالى : « لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ »[3] إذا قلنا : إنه وارد فى الآدميين — وهو الصحيح — أن معناه لا يمسّه أحد منهم شرعًا ، فإن وُجد المسّ فعلى خلاف حكم الشرع ؛ وهذه الدقيقة هى التى فاتت العلماء فقالوا : إن الخبر يكون بمعنى النّهى ، وما وُجد ذلك قَطُّ ، ولا يصحّ أن يوجد ، فإنهما مختلفان حقيقة ومتضادّان وَصْفًا » .

السابعــة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا فُسُوقَ ﴾ يعنى جميع المعاصى كلّها ؛ قاله ابن عباس وعطاء والحسن . وكذلك قال ابن عمر وجماعة : الفسوق إتيان معاصى الله عزّ وجل

---

(١) اللميس : المرأة اللينة الملمس . (٢) راجع جـ ٣ ص ١١٢ (٣) راجع جـ ١٧ ص ٢٢٥

Marfat.com

فى حال إحرامه بالحج، كقتل الصيد وقصّ الظفر وأخذ الشعر، وشبه ذلك . وقال ٱبن زيد ومالك : الفسوق الذبح للأصنام ؛ ومنه قوله تعالى : « أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِ »[1] . وقال الضحاك : الفسوق التنابز بالألقاب ؛ ومنه قوله : « بِئْسَ ٱلٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ »[2] . وقال ٱبن عمر أيضا : الفسوق السباب ؛ ومنه قوله عليه السلام : "سِبابُ المسلمِ فسوقٌ وقتالُه كفرٌ" . والقول الأوّل أصح ، لأنه يتناول جميع الأقوال . قال صلى الله عليه وسلم : "مَن حَجّ فلم يَرْفُث ولم يفسُق رَجع كيوم ولدته أمه" ، "والحج المبرور ليس له جزاءٌ إلا الجنة" خرّجه مسلم وغيره . وجاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "والذى نفسى بيده ما بين السماء والأرض مِن عملٍ أفضلُ من الجهاد فى سبيل الله أو حَجّة مبرورة لا رَفَث فيها ولا فسوق ولا جدال" . وقال الفقهاء : الحج المبرور هو الذى لم يُعص الله تعالى فيه أثناء أدائه . وقال الفرّاء : هو الذى لم يُعص الله سبحانه بعده؛ ذكر القولين ٱبن العربى رحمه الله .

قلت : الحج المبرور هو الذى لم يعص الله سبحانه فيه لا بعده . قال الحسن : الحج المبرور هو أن يرجع صاحبه زاهدًا فى الدنيا راغبًا فى الآخرة . وقيل غير هذا، وسيأتى .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ﴾ قُرِئ « فلا رفثٌ ولا فسوقٌ » بالرفع والتنوين فيهما . وقرئا بالنصب بغير تنوين . وأجمعوا على الفتح فى « ولا جدال » ، وهو يقوّى قراءة النصب فيما قبله ، ولأن المقصود النفى العام من الرفث والفسوق والجدال، وليكون الكلام على نظام واحد فى عموم المنفى كلّه؛ وعلى النصب أكثر القرّاء . والأسماء الثلاثة فى موضع رفع[3]، كل واحد مع « لا » . وقوله « فى الحج » خبر عن جميعها . ووجه قراءة الرفع أن « لا » بمعنى « ليس » فٱرتفع الاسم بعدها ، لأنه ٱسمها، والخبر محذوف تقديره : فليس رفث ولا فسوق فى الحج؛ دلّ عليه «فى الحج» الثانى الظاهر وهو خبر « لا جدال » . وقال أبو عمرو بن العلاء : الرفع بمعنى فلا يكون رفثٌ ولا فسوقٌ؛ أى شىء يُخرج من الحج، ثم ٱبتدأ النفى فقال : ولا جدال .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١١٥ (٢) راجع جـ ١٦ ص ٣٢٨
(٣) هذا على أحد قولين للنحويين ، والثانى أن « لا » عاملة فى الاسم النصب وما بعدها خبر .

Marfat.com

قلت : فيحتمل أن تكون كان تامة، مثل قوله : « وإنْ كَانَ ذُو عُسْرةٍ » فلا تحتاج إلى خبر. ويحتمل أن تكون ناقصة والخبر محذوف، كما تقدم آنفا . ويجوز أن يرفع « رفث وفسوق » بالابتداء، «ولا» للنفى، والخبر محذوف أيضا . وقرأ أبو جعفر بن القَعْقاع بالرفع فى الثلاثة . ورُويت عن عاصم فى بعض الطرق، وعليه يكون « فى الحج » خبر الثلاثة، كما قلنا فى قراءة النصب ؛ وإنما لم يحسن أن يكون « فى الحج » خبر عن الجميع مع آختلاف القراءة، لأن خبر ليس منصوب وخبر «ولا جدال» مرفوع؛ لأن «ولاجدال» مقطوع من الأوّل وهو فى موضع رفع بالابتداء ، ولا يعمل عاملان فى آسم واحد . ويجوز « فلا رَفَثَ ولا فسوقٌ » تعطفه على الموضع . وأنشد النحويون :

لا نَسَبَ اليومَ ولا خُلّةً * اتّسع الخَرْقُ على الرّاقِع(١)

ويجوز فى الكلام « فلا رفثَ ولا فسوقًا ولا جدالًا فى الحج » عطفًا على اللفظ على ما كان يجب فى « لا » . قال الفرّاء : ومثله :

فلا أبَ وآبنًا مثلَ مروانَ وآبنِه * إذا هو بالمجدِ آرْتَدَى وتأزّرا

وقال أبو رجاء العطاردى : « فلا رفثَ ولا فسوقَ » بالنصب فيهما، « ولا جدالٌ » بالرفع والتنوين . وأنشد الأخفش :

هــذا وَجدّكم الصَّغار بعينه * لا أُمَّ لِى إن كان ذاك ولا أبُ

وقيل : إن معنى « فلا رفث ولا فسوق » النهى ؛ أى لا ترفثوا ولا تفسقوا . ومعنى « ولا جدال » النفى، فلما آختلفا فى المعنى خولف بينهما فى اللفظ . قال القشيرى : وفيه نظر، إذ قيل : « ولا جدال » نهى أيضا؛ أى لا تجادلوا، فلم فرق بينهما .

التاســعة ــ قوله تعالى : ﴿وَلَا جِدَالَ﴾ الجِدال وزنه فعال من المجادلة ، وهى مشتقة من الجَدْل وهو القَتْل؛ ومنه زمامٌ مجدول. وقيل: هى مشتقة من الجَدَالة التى هى الأرض .

---

(١) البيت لأنس بن العباس السلمى . راجع الكلام عليه فى شرح الشواهد الكبرى للعينى .

Marfat.com

فكأن كل واحد من الخصمين يقاوم صاحبه حتى يغلبه، فيكون كمن ضرب به الجدالة .

قال الشاعر :

قد أركب الآلة بعد الآله (١) * وأترك العاجز بالجَدالهْ

* مُنْعَفِرًا لست له محاله *

العاشرة — واختلفت العلماء فى المعنى المراد به هنا على أقوال ستة؛ فقال ابن مسعود وابن عباس وعطاء: الجدال هنا أن تُمارى مسلمًا حتى تغضبه فينتهى إلى السِّباب؛ فأما مذاكرة العلم فلا نهى عنها . وقال قتادة: الجدال السِّباب . وقال ابن زيد ومالك بن أنس: الجدال هنا أن يختلف الناس: أيّهم صادف موقف إبراهيم عليه السلام، كما كانوا يفعلون فى الجاهلية حين كانت قريش تقف فى غير موقف سائر العرب، ثم يتجادلون بعد ذلك؛ فالمعنى على هذا التأويل : لا جدال فى مواضعه . وقالت طائفة : الجدال هنا أن تقول طائفة : الحج اليوم، وتقول طائفة : الحج غدًا . وقال مجاهد وطائفة معه : الجدال المماراة فى الشهور حسب ما كانت عليه العرب من النَّسىء، كانوا ربما جعلوا الحج فى غير ذى الحجة، ويقف بعضهم بجَمْع (٢) وبعضهم بعَرَفة، ويتمارون فى الصواب من ذلك .

قلت : فعلى هذين التأويلين لاجدال فى وقته ولا فى موضعه، وهذان القولان أصح ما قيل فى تأويل قوله « وَلَا جِدَالَ »؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : "إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض" الحديث، وسيأتى فى «براءة» (٣) . يعنى رجع أمر الحج كما كان، أى عاد إلى يومه ووقته . وقال صلى الله عليه وسلم لما حَجّ : "خذوا عنى مناسككم" فبيّن بهذا مواقف الحج ومواضعه . وقال محمد بن كعب القُرَظىّ : الجدال أن تقول طائفة : حجّنا أبرّ من حجّكم . ويقول الآخر مثل ذلك . وقيل : الجدال كان فى الفخر بالآباء، والله أعلم .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ﴾ شرط وجوابه، والمعنى : أن الله يجازيكم على أعمالكم، لأن المجازاة إنما تقع من العالم بالشىء . وقيل :

(١) الآلة : الحالة، والشدة . (٢) هى المزدلفة . (٣) راجع جـ ٨ ص ١٣٢

Marfat.com

هو تحريض وحَثّ على حُسنِ الكلام مكان الفحش، وعلى البرّ والتقوى فى الأخلاق مكان الفسـوق والجدال . وقيـل : جعل فعل الخير عبارة عن ضبط أنفسهم حتى لا يوجد ما نُهوا عنه .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَتَزَوَّدُوا ﴾ أَمْرٌ باتخاذ الزاد . قال ابن عمر وعكرمة ومجاهد وقتادة وابن زيد : نزلت الآية فى طائفة من العـرب كانت تجىء إلى الحج بلا زاد ، ويقول بعضهم : كيف نحجّ بيت الله ولا يطعمنا ؛ فكانوا يبقون عالةً على النـاس ، فنُهوا عن ذلك ، وأمروا بالزاد . وقال عبد الله بن الزبير : كان الناس يتّكل بعضهم على بعض بالزاد ؛ فأمروا بالزاد . وكان للنبيّ صلى الله عليه وسلم فى مسيره راحلةٌ عليها زاد ، وقدم عليه ثلثمائة رجل من مُزَينة ، فلما أرادوا أن ينصرفوا قال : "يا عمر زوّد القوم" . وقال بعض الناس : «تزودوا» الرفيق الصالح . وقال ابن عطية : وهذا تخصيص ضعيف ، والأولى فى معنى الآية : وتزودوا لمعادكم من الأعمال الصالحة .

قلت : القول الأول أصح ، فإن المراد الزاد المتّخذ فى سفرا لحج المأكول حقيقة كما ذكرنا ؛ كما روى البخاريّ عن ابن عباس قال : كان أهـل اليمن يحجّون ولا يتزوّدون ويقـولون : نحن المتوكلون ، فإذا قدموا مكة سألوا النـاس ، فأنزل الله تعالى : « وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى » وهذا نص فيما ذكرنا ، وعليه أكثر المفسرين . قال الشعبيّ : الزاد التمر والسَّويق . ابن جبير : الكعك والسويق . قال ابن العربيّ : « أمر الله تعالى بالتزود لمن كان له مال ، ومن لم يكن له مال فإن كان ذاحرفة تَنْفُق فى الطـريق أو سائلا فلا خطاب عليـه ؛ وإنما خاطب الله أهـلَ الأموال الذين كانوا يتركون أموالهم ويخرجون بغير زاد ويقولون : نحن المتوكلون . والتوكل له شروط ، من قام بها خرج بغير زاد ولا يدخل فى الخطاب ، فإنه خرج على الأغلب من الخلق وهم المقصّرون عن درجة التوكل الغافلون عن حقائقه ، والله عز وجل أعلم » . قال أبو الفرج الجَوْزِيّ : وقد لَبّس إبليس على قوم يدعون التوكل ، فخرجوا بلا زاد وظنوا أن هـذا هو التوكل وهم على غاية الخطأ . قال رجل لأحمد بن حنبل : أريد أن أخرج

Marfat.com

إلى مكة على التوكل بغير زاد. فقال له أحمد : اخرج فى غير القافلة . فقال لا ، إلا معهم .
قال : فعلى جُرُب[(١)] الناس توكلت ؟!

الثالثة عشرة ـــ قوله تعـالى : ﴿ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ أخبر تعالى أن خير الزاد اتقاء المنهيّات، فأمرهم أن يضموا إلى التزوّد التقوى . وجاء قوله « فإن خير الزاد التقوى » محمولا على المعنى، لأن معنى «وَتَزَوَّدُوا» : اتقوا الله فى اتباع ما أمركم به من الخروج بالزاد . وقيل: يحتمل أن يكون المعنى : فإن خير الزاد ما اتقى به المسافر من الهَلَكة[(٢)] أو الحاجة إلى السؤال والتكفف . وقيل : فيه تنبيه على أن هذه الدار ليست بدار قرار . قال أهل الإشارات : ذكّرهم الله تعـالى سـفر الآخرة وحثّهم على تزود التقوى ؛ فإن التقـوى زاد الآخرة .
قال الأعشى :

إذا أنت لم تَرْحل بزادٍ من التُّقَى * ولاقَيْتَ بعد الموت مَن قد تزوّدا
نَدِمتَ على ألّا تكون كمثـــله * وأنك لم ترصُد كما كان أرصدَا

وقال آخر :

الموتُ بحـــرٌ طامحٌ موجـه * تذهب فيـــه حيـلة السابحِ
يا نفسُ إنى قائـلٌ فاسمعى * مقالةً مِن مُشـــفق ناصحِ
لا يصحب الإنسانَ فى قبره * غيرُ التُّـــقَى والعملِ الصالحِ

الرابعة عشرة ـــ قوله تعـالى : ﴿ وَاتَّقُـونِ يَا أُولِي الْأَلْبَـابِ ﴾ خصّ أولى الألبـاب بالخطاب ـــ وإن كان الأمر يعم الكل ـــ لأنهم الذين قامت عليهم حجة الله، وهم قابلو أوامره والناهضون بها . والألباب جمع لُبّ، ولُبُّ كلّ شيء : خالصه؛ ولذلك قيل للعقل: لُبّ . قال النحاس : سمعت أبا إسحاق يقول قال لى أحمد بن يحيى ثعلب : أتعرف فى كلام العرب شيئًا من المضاعف جاء على فَعُلَ؟ قلت نعم، حكى سيبويه عن يونس : لَبُبْتَ تَلُبُّ؛ فاستحسنه وقال : ما أعرف له نظيرا .

(١) جرب (بضمتين) : جمع جراب وهو الوعاء . (٢) الهلكة (بالتحريك) : الهلاك .

Marfat.com

قوله تعالى : لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَـٰتٍ فَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ جُنَاحٌ ﴾ أى إثم، وهو ٱسم ليس . ﴿ أَنْ تَبْتَغُوا ﴾ فى موضع نصب خبر ليس؛ أى فى أن تبتغوا . وعلى قول الخليل والكسائى أنهـا فى موضع خفض . ولمـا أمر تعالى بتنزيه الحج عن الرَّفَث والفُسوق والجدال رخّص فى التجارة؛ المعنى: لا جناح عليكم فى أن تبتغوا فضل الله. وٱبتغاءُ الفضل وَرَد فى القرآن بمعنى التجارة ، قال الله تعالى : « فَٱنْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ »(١) . والدليل على صحة هذا ما رواه البخارىّ عن ٱبن عباس قال : كانت عُكَاظ ومَجَنّة وذو المجاز أسواقًا فى الجاهلية فتأثموا أن يتجروا فى المواسم(٢) فنزلت : « لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ » فى مواسم الحج(٣) .

الثانيـــة — إذا ثبت هذا ففى الآية دليل على جواز التجارة فى الحج للحاج مع أداء العبادة، وأن القصد إلى ذلك لا يكون شركا ولا يخرج به المكلف عن رسم الإخلاص المفترض عليه،

---

(١) راجع جـ ١٨ ص ١٠٨ (٢) الذى فى البخارى : « كان ذو المجاز وعكاظ متجر الناس فى الجاهلية ، فلما جاء الإسلام كأنهم كرهوا ذلك حتى نزلت ... الخ » . وعكاظ : نخل فى واد بينه وبين الطائف ليلة ، وبينه وبين مكة ثلاث ليال . وذو المجاز : خلف عرفة . ومجنة : بمرّ الظهران ، قرب جبل يقال له الأصفر، وهو بأسفل مكة على قدر بريد منها . وهذه أسواق للعرب ، وكان أهل الجاهلية يصبحون بعكاظ يوم هلال ذى القعدة ، ثم يذهبون منه إلى مجنة بعد مضى عشرين يوما من ذى القعدة ؛ فاذا رأوا هلال ذى الحجة ذهبوا من مجنة إلى ذى المجاز ، فلبثوا به ثمان ليال ، ثم يذهبون إلى عرفة . ولم تزل هذه الأسواق قائمة فى الإسلام إلى أن كان أوّل ماترك منها سوق عكاظ فى زمن الخوارج سنة تسع وعشرين ومائة ، لمـا خرج الحرورى بمكة مع أبى حمزة المختار بن عوف خاف الناس أن ينتهبوا فتركت إلى الآن ، ثم ترك ذو المجاز ومجنة بعد ذلك ، وٱستغنوا بالأسواق بمكة وبمنى وبعرفة . (عن شرح القسطلانى) .

(٣) قوله : « فى مواسم الحج » قراءة ٱبن عباس ، كما نبه عليه المؤلف فى مقدمة الكتاب ص ٨٣ ، وقال أبو حيان فى البحر : « وقرأ ٱبن مسعود وٱبن عباس وٱبن الزبير « فضلا من ربكم فى مواسم الحج » وجعل هذا تفسيرا ؛ لأنه مخالف لسواد المصحف الذى أجمعت عليه الأمة .

Marfat.com

خلافًا للفقراء[1]. أمّا إن الحج دون تجارة أفضل؛ لعروُّها[2] عن شوائب الدنيا وتعلّق القلب بغيرها.

روى الدّارَقُطْني في سُنَنه عن أبى أمامة التّيمى قال قلت لابن عمر : إنى رجل أكرى فى هذا الوجه ، و إن ناسًا يقولون : إنه لا حجّ لك . فقال ابن عمر : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله مثل هذا الذى سألتنى ، فسكت حتى نزلت هذه الآية : « لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن لك حجًّا " .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴾ فيه ست[3] عشرة مسألة .

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُمْ ﴾ أى اندفعتم . ويقال : فاض الإناء إذا امتلأ حتى ينصبّ عن نواحيه . ورجل فيّاض ، أى مندفق بالعطاء . قال زُهير :

وأبيضَ فيّاضٍ يداه غمامة * على مُعْتَفِيه ما تُغِبّ فواضله[4]

وحديث مستفيض ، أى شائع .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ مِنْ عَرَفَاتٍ ﴾ قراءة الجماعة « عرفاتٍ » بالتنوين؛ وكذلك لو سُمّيت امرأةٌ بمسلمات ؛لأن التنوين هنا ليس فرقا بين ما ينصرف وما لا ينصرف فتحذفه، و إنمـا هو بمنزلة النون فى مسلمين . قال النحاس : هذا الجيّد . وحكى سيبويه عن العرب حذف التنوين من عرفات ؛ يقول : هـذه عرفاتُ ياهـذا ، ورأيت عرفاتِ يا هـذا ، بكسر التاء وبغير تنوين؛ قال : لمـا جعلوها معرفة حذفوا التنوين . وحكى الأخفش والكوفيون فتح التاء، تشبيهًا بتاء فاطمة وطلحة . وأنشدوا :

تَنَوّرتُها من أذرعاتَ وأهلُها * بيَثْرِبَ أدْنَى دارِها نَظَرٌ عالِ

والقـول الأوّل أحسن ، وأن التنوين فيـه على حدّه فى مسلمـات ؛ الكسرة مقابلة اليـاء فى مسلمين والتنوين مقابل النون . وعرفات : اسم علَم، سُمّى بجمع كأذرعات . وقيل : سُمّى

---

(١) لعله يريد بالفقراء الصوفية . (٢) كذا فى نسخ الأصل . ومقتضى الظاهر تذكير الضمير لعوده إلى الحج ؛ ولعله يريد بالتأنيث هنا : الحج بمعنى العبادة . (٣) يلاحظ أن الأصول اضطربت فى العدد هنا .

(٤) الفياض : الكثير العطاء . المعتفون : الطالبون ما عنده . يقال : عفاه واعتفاه إذا أتاه يطلب معروفه . ما تغب فواضله : أى عطاياه دائمة لا تنقطع .

بما حوله ، كأرض سباسب.(١) وقيل: سُمِّيَتْ تلك البُقْعة عرفات لأن الناس يتعارفون بها. وقيل: لأن آدم لما هبط وقع بالهند، وحوّاء بجُدّة، فاجتمعا بعد طول الطلب بعرفات يوم عَرفة وتعارفا؛ فسُمِّيَ اليوم عرفة، والموضع عرفات؛ قاله الضحاك. وقيل غير هذا لما تقدّم ذكره عند قوله تعالى: « وأَرِنا مَنَاسِكَنا »(٣). قال ابن عطية: والظاهر أن اسمه مرتجل كسائر أسماء البقاع. وعرفة هي نَعمان الأراك؛ وفيها يقول الشاعر:

تزوّدتُ من نَعمان عُودَ أراكة * لِهنْـدٍ ولكن مَن يُبَلِّغُهُ هِنْـدا

وقيل: هي مأخوذة من العَرْف وهو الطِّيب؛ قال الله تعالى: « عَرَّفَهَا لَهُمْ »(٤) أي طَيَّبها، فهي طيبة بخلاف مِنًى التي فيها الفُرُوث(٥) والدّماء؛ فلذلك سُمِّيَتْ عرفات. ويوم الوقوف يوم عرفة. وقال بعضهم: أصل هذين الاسمين من الصبر؛ يقال: رجل عارف، إذا كان صابرًا خاشعًا. ويقال في المَثَل: النَّفْسُ عَرُوف وما حَمّلتها تتحمّل. قال:

* فصَبَرْتُ(٦) عارفةً لذلك حُرّةً *

أي نفس صابرة.

وقال ذو الرُّمّة:

* عَرُوفٌ لما خَطّت عليه المقادِرُ(٧) *

أي صبور على قضاء الله؛ فسُمِّيَ بهذا الاسم لخضوع الحاجّ وتذلّلهم، وصبرهم على الدعاء وأنواع البلاء واحتمال الشدائد؛ لإقامة هذه العبادة.

الثالثــة — أجمع أهل العلم على أن مَن وقف بعرفة يوم عَرفة قبل الزوال ثم أفاض منها قبل الزوال أنه لا يُعتدّ بوقوفه ذلك قبل الزوال. وأجمعوا على تمام حجّ مَن وقف بعرفة

---

(١) جاء في اللسان مادة سبسب: « وحكى اللحياني بلد سبسب، وبلد سباسب؛ كأنهم جعلوا كل جزء منه سبسبا؛ ثم جمعوه على هذا ». والسبسب: القفر والمفازة. وقيل: الأرض المستوية البعيدة. (٢) كل هذا يحتاج الى التثبت. (٣) راجع ص ١٢٧ من هذا الجزء. (٤) راجع جـ ١٦ ص ٢٣١.

(٥) الفروث: جمع فرث، وهو السرجين (الزبل) ما دام في الكرش.

(٦) البيت لعنترة، وتمامه: * ترسو اذا نفس الجبان تطلّع *

(٧) صــدر البيت: * اذا خاف شيئا وقرته طبيعة *

Marfat.com

بعـد الزوال وأفاض نهارًا قبل الليل؛ إلا مالك بن أنس فإنه قال : لا بدّ أن يأخذ من الليل شيئًا . وأمّا مَن وقف بعرفة بالليل فإنه لا خلاف بين الأمة فى تمـام حجّه . والحجة للجمهور مطلقُ قوله تعالى : « فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ » ولم يخصّ ليلا من نهار، وحديث عُرْوة بن مُضَرِّس قال: أتيت النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو فى الموقف من جَمْع، فقلت يارسول الله، جئتك من جَبَلَىْ طَىّء، أَكْلَلْتُ مَطِيّتِي، وأتعبتُ نفسى، والله إنْ تركتُ من جَبل[(1)] إلا وقفتُ عليه، فهل لى مِن حَجّ يارسول الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : "من صلّى معنا صلاةَ الغداة بجَمْع وقد أتى عرفات قبل ذلك ليلًا أو نهارًا فقد قَضَى تَفَثَه[(2)] وتَمّ حجه". أخرجه غير واحد من الأئمة، منهم أبو داود والنسائى والدّارَقُطْنى واللفظ له. وقال الترمذى: حديث حسن صحيح . وقال أبو عمر : حديث عُرْوة بن مُضَرِّس الطائى حديث ثابت صحيح ، رواه جماعة من أصحاب الشّعبى الثقات عن الشعبى عن عروة بن مضرس؛ منهم إسماعيل بن أبى خالد وداود بن أبى هنـد وزكريا بن أبى زائدة وعبـد الله بن أبى السَّـفَر ومُطَرِّف ، كلهم عن الشعبىّ عن عروة بن مضرس بن أوس بن حارثة بن لام . وحجة مالك من السُّنة الثابتة : حديث جابر الطويل ، خرّجه مسـلم ؛ وفيـه : فلم يزل واقفًا حتى غَرَبت الشـمس وذهبت الصُّفرة قليلا حتى غاب القُرص . وأفعاله على الوجوب، لا سِيّمَا فى الحج وقد قال : "خذوا عنّى مناسككم".

الرابعـة — وٱختلف الجمهور فيمن أفاض قبـل غروب الشمس ولم يرجع ماذا عليه مع صحة الحج؛ فقال عطاء وسفيان الثورىّ والشافعىّ وأحمد وأبو ثور وأصحاب الرأى وغيرهم :

---

(١) فى ز وبعض كتب الحـديث ونهاية ابن الأثير بالحاء المهملة المفتوحة وسكون الموحدة . قال الترمـذى فى سننه : «قوله : من حبل» اذا كان من رمل يقال له حبل ، واذا كان من حجارة يقال له جبل» . وقال ابن الأثير فى تفسير هذا الحديث : « الحبل : المستطيل من الرمل ، وقيل : الضخم منه ؛ وجمعه حبال . وقيل : الحبال فى الرمل كالجبال فى غير الرمل » . وقال الخطابى : الحبال ما دون الجبال فى الارتفاع .

(٢) قال صاحب التعليق المغنى على سنن الدارقطنى : « وقوله : وقضى تفثه . قيل : المراد به أنه أتى بما عليه من المناسك ، والمشهور أن التفث ما يصنعه المحرم عنـد حله من تقصير شعر أو حلقه وحلق العانة ونتف الإبط وغيره من خصال الفطرة ، ويدخل فى ضمن ذلك نحر البدن ، وقضاء جميع المناسك ؛ لأنه لا يقضى التفث إلا بعد ذلك ، وأصل التفث الوسخ والقذر . قاله الشوكانى » .

Marfat.com

عليه دَمٌ . وقال الحسن البصرى : عليه هَدْىٌ . وقال آبن جُريج : عليه بَدَنة . وقال مالك : عليه حَجٌّ قابلٌ ، والهَـدْىُ ينحره فى حجّ قابل ، وهو كمن فاته الحج . فإن عاد إلى عرفة حتى يَدْفع بعد مغيب الشمس فقال الشافعيّ : لا شيء عليه ، وهو قول أحمد و إسحاق وداود ، و به قال الطبرى . وقال أبو حنيفة وأصحابه والثوريّ : لا يسقط عنه الدّم و إن رجع بعـد غروب الشمس ؛ و بذلك قال أبو ثور .

الخامســة ــ ولا خلاف بين العلماء فى أن الوقوف بعرفة راكبًا لمن قدر عليه أفضل ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسـلم كذلك وقف إلى أن دَفع منها بعد غروب الشمس ، وأردف أسامةَ بن زيد ؛ وهذا محفوظ فى حديث جابر الطويل وحديث عليّ ، وفى حديث آبن عباس أيضا . قال جابر : ثم ركب رســول الله صلى الله عليه وسـلم حتى أتى الموقف ، فجعل بطن ناقته القَصْواء إلى الصَّخَرات (١) ، وجعل حَبْل المُشاة (٢) بين يديه وآســتقبل القبلة ؛ فلم يزل واقفًا حتى غَرَبت الشمس وذهبت الصفرة قليلًا حتى غاب القُرص ، وأردف أسامةَ بن زيد خلفه ، الحديث . فإن لم يقدر على الركوب وقف قائمًا على رجليه داعيًا ، ما دام يقدر ، ولا حرج عليه فى الجلوس إذا لم يقدر على الوقوف ؛ وفى الوقوف راكبًا مباهاةٌ وتعظيم للحج «وَمَنْ يُعَظِّمْ شَـعَائِرَ اللهِ فإنَّهَـا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣)» . قال آبن وهب فى مُوَطّئه قال لى مالك : الوقوف بعَرَفة على الدواب والإبل أحبّ إليّ من أن أقف قائمًا ، قال : ومن وقف قائمًا فلا بأس أن يستريح .

السادســة ــ ثبت فى صحيح مسلم وغيره عن أسامة بن زيد أنه عليه الســلام كان إذا أفاض من عَرَفة يسير العَنَق (٤) فإذا وَجد فَجْوَةً نَصَّ . قال هشام بن عروة : والنّص فوق العَنَق .

---

(١) الصخرات : هى صخرات مفترشات فى أسفل جبــل الرحمة ، وهو الجبــل الذى بوسط أرض عرفات .

(٢) قال آبن الأثير : « وجعل حبــل المشاة بين يديه ؛ أى طريقهــم الذى يسلكونه فى الرمل . وقيــل : أراد صفهم ومجتمعهم فى مشيهم تشبيها بحبل الرمل » .

(٣) راجع جـ ١٢ ص ٥٦

(٤) العنق (محركة) : سير مريع فسيح واسع للإبل والدابة . والفجوة : الموضع المتسع بين شيئين .

Marfat.com

وهكذا ينبغى على أئمة الحاج فمَن دونهم ؛ لأن فى آستعجال السير إلى المزدلفة آستعجال الصلاة بها ، ومعلوم أن المغرب لا تُصلَّى تلك الليلة إلا مع العشاء بالمزدلفة ، وتلك سُنّتها ؛ على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

السابعــة — ظاهر عموم القرآن والسنة الثابتة يدل على أن عرفة كلها مَوْقف ؛ قال صلى الله عليه وسلم : "ووَقفتُ هاهنا وعَرَفة كلها موقف" . رواه مسلم وغيره من حديث جابر الطويل . وفى مُوَطّأ مالك أنه بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "عرفةُ كلها موقف وآرتفعوا عن بطن عُرَنة والمزدلفةُ كلها موقف وآرتفعوا عن بطن مُحَسِّر" . قال آبن عبد البر : هذا الحديث يتصل من حديث جابر بن عبد الله ، ومن حديث آبن عباس ، ومن حديث علىّ بن أبى طالب ، وأكثر الآثار ليس فيها آستثناء بطن عُرَنة من عَرَفة ، وبطن مُحَسِّر من المزدلفة ؛ وكذلك نقلها الحفاظ الثقات الأثبات من أهل الحديث فى حديث جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر . قال أبو عمر : وآختلف الفقهاء فيمن وقف بعرفة بعُرَنة ؛ فقال مالك فيما ذكر آبن المنذر عنه : يُهْرِيق دماً وحجُّه تام . وهذه رواية رواها خالد بن نزار عن مالك . وذكر أبو المصعب أنه كمن لم يقف وحجّه فائت ، وعليه الحج من قابل إذا وقف ببطن عُرَنة . وروى عن آبن عباس قال : من أفاض من عُرَنة فلا حج له . وهو قول آبن القاسم وسالم ، وذكر آبن المنذر هذا القول عن الشافعىّ ، قال وبه أقول : لا يجزيه أن يقف بمكان أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا يوقف به . قال آبن عبد البر : الآستثناء ببطن عُرَنة من عرفة لم يجئ مجيئًا تلزم حُجته ، لا من جهة النقل ولا من جهة الإجماع . وحُجة من ذهب مذهب أبى المصعب أن الوقوف بعرفة فرض مجمع عليه فى موضع معيّن ، فلا يجوز أداؤه إلا بيقين ، ولا يقين مع الآختلاف . وبطن عُرَنة يقال بفتح الراء وضمها ، وهو بغربى مسجد عرفة ؛ حتى لقد قال بعض العلماء : إن الجدار الغربى من مسجد عرفة لو سقط سقط فى بطن عرنة . وحكى الباجى عن آبن حبيب أن عرفة فى الحِلّ ، وعرنة فى الحَرَم . قال أبو عمر :

Marfat.com

وأما بطن مُحَسِّر فذكر وَكِيع: حدّثنا سفيان عن أبي الزبير عن جابر أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أَوْضَعَ[(١)] في بطن مُحَسِّر.

الثامنـــة — ولا بأس بالتعريف في المساجد يوم عَرَفة بغير عرفة، تشبيهاً بأهل عرفة. روى شعبة عن قتادة عن الحسن قال: أول من صنع ذلك ٱبن عباس بالبصرة. يعني ٱجتماع النـاس يوم عرفة في المسجد بالبصرة. وقال موسى بن أبي عائشة: رأيت عمرو بن حُرَيث يخطب يوم عرفة وقد ٱجتمع الناس إليه. وقال الأثرم: سألت أحمد بن حنبل عن التعريف في الأمصار، يجتمعون يوم عرفة، فقال: أرجو ألا يكون به بأس، قد فعله غير واحد: الحسن وبكر وثابت ومحمد بن واسع، كانوا يشهدون المسجد يوم عرفة.

التاســعة — في فضل يوم عرفة. يوم عرفة فضله عظيم وثوابه جسيم، يكفّر الله فيه الذنوب العظام، ويضاعف فيه الصالح من الأعمال؛ قال صلى الله عليه وسلم: "صوم يوم عرفة يكفر السنة المـاضية والباقية". أخرجه الصحيح. وقال صلى الله عليه وسلم: "أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة وأفضل ماقلت أنا والنبيّون من قبلي لا إله إلا الله وحده لاشريك له". وروى الدَّارَقُطْنِيّ عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "مامن يوم أكثر أن يُعتق الله فيه عددًا من النار من يوم عرفة وإنه ليدنو عز وجل ثم يُباهي بهم الملائكة يقول ما أراد هؤلاء". وفي الموطأ عن عبيد الله بن كَرِيز أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "مارؤي الشيطان يومًا هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أَدْحَر ولا أغيظ منه في يوم عرفة وماذاك إلا لمـا رأى من تنزّل الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام إلا ما رأى يوم بدر". قيل: وما رأى [يوم بدر][(٢)] يارسول الله؟ قال: "أمَا إنه قد رأى جبريل يَزَعُ[(٣)] الملائكة". قال أبو عمر: روى هذا الحـديث أبو النضر إسمـاعيل بن إبراهيم العجلي عن مالك عن إبراهيم ٱبن أبي عَبْلَة عن طلحة بن عبيد الله بن كَرِيز عن أبيه، ولم يقل في هذا الحديث عن أبيه غيره

(١) الإيضاع: سير مثل الخبب (ضرب من العدو)؛ يقال: وضع البعير يضع وضعا، وأوضعه راكبه إيضاعا إذا حمله على سرعة السير.

(٢) زيادة عن الموطأ.

(٣) قوله «يزع الملائكة»: يرتبهم ويسويهم ويصفّهم للحرب؛ فكأنه يكفهم عن التفرق والانتشار.

Marfat.com

وليس بشيء ، والصــواب مافى الموطأ . وذكر الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول : حدّثنا حاتم بن نعيم التميمى أبو روح قال حدّثنا هشام بن عبد الملك أبو الوليد الطيالسى قال حدّثنا عبد القاهر بن السرى السّلمى قال حدّثنى آبنٌ لكنانة بن عباس بن مرداس عن أبيه عن جدّه عباس بن مرداس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا لأمته عشيّةَ عرفة بالمغفرة والرحمة، وأكثر الدعاء فأجابه : إنى قد فعلت إلا ظلم بعضهم بعضًا فأما ذنوبهم فيما بينى و بينهم فقد غفرتها . قال : " يارب إنك قادر أن تثيب هذا المظلوم خيراً من مظلمته وتغفر لهذا الظالم" فلم يجبه تلك العشيّة ؛ فلما كان الغداة غداة المزدلفة آجتهد فى الدعاء فأجابه : إنى قد غفرت لهم ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقيل له : تبسمْتَ يارسول الله فى ساعة لم تكن تتبسم فيها؟ فقال : "تبسمت من عدوّ الله إبليس إنه لما علم أن الله قد آستجاب لى فى أمتى أهوى يدعو بالويل والثّبور ويَحْثِي التراب على رأسه ويَفِرّ". وذكر أبو عبدالغنى الحسن (١) بن على حدّثنا عبد الرزاق حدّثنا مالك عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة قال قال رســول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا كان يوم عرفة غفر الله للحاج الخالص و إذا كان ليلة المزدلفة غفر الله للتجار و إذا كان يوم منًى غفر الله للجمالين و إذاكان يوم جمرة العقبة غفر الله للسؤّال ولا يشهد ذلك الموقف خلق ممن قال لا إلٰه إلا الله إلا غفر له " . قال أبو عمر : هذا حديث غريب من حديث مالك ، وليس محفوظًا عنه إلا من هذا الوجه ؛ وأبو عبدالغنى لا أعرفه ، وأهل العلم مازالوا يتساهلون أنفسهم فى روايات الرغائب والفضائل عن كل أحد ، و إنما كانوا يتشدّدون فى أحاديث الأحكام .

العاشــرة ـــ آستحب أهل العلم صوم يوم عرفة إلا بعرفة . روى الأئمة واللفظ للترمذى عن آبن عباس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أفطر بعرفة ، وأرسلت إليه أم الفضل بلبن فشرب . قال : حديث حسن صحيح . وقد روى عن آبن عمر قال : « حججت مع النبيّ صــلى الله

---

(١) فى نسخة ب : « الحسين » . والذى يروى عن عبد الرزاق بن هشام الحميرى ـــ أحد رجال هذا السند ـــ هو الحسن بن على الخلال أبو على ، وقيل أبو محمد .

Marfat.com

عليه وسـلم فلم يصمه — يعني يوم عرفة — ومع أبي بكر فلم يصمه ، ومع عمر فلم يصمه ؛ والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم ، يستحبون الإفطار بعرفة ليتقوّى به الرجل على الدعاء ، وقد صام بعض أهل العلم يوم عرفة بعرفة » . وأسـند عن آبن عمر مثل الحديث الأوّل ، وزاد فى آخره : ومع عثمان فلم يصمه ، وأنا لا أصومه ولا آمر به ولا أنهى عنـه ؛ حديث حسن . وذكره ابن المنـذر . وقال عطاء فى صوم يوم عرفة : أصوم فى الشتاء ولا أصوم فى الصيف . وقال يحيي الأنصارى : يجب الفطر يوم عرفة . وكان عثمان بن أبى العـاصى وابن الزبير وعائشة يصومون يوم عرفة . قال ابن المنذر : الفطر يوم عرفة بعرفات أحب إلىّ ، آتباعا لرسول الله صلى الله عليه وسلم . والصوم بغير عرفة أحبّ إلىّ ؛ لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد سئل عن صوم يوم عرفة فقال : "يكفر السنة المـاضية والباقية". وقـد روينا عن عطاء أنه قال : من أفطر يوم عرفة ليتقـوّى على الدعاء فإن له مثـل أجر الصائم .

الحادية عشرة — فى قوله تعالى : ﴿ فَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ عِنْـدَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ﴾ أى آذكروه بالدعاء والتّلبية عند المشعر الحرام . ويسمّى جَمْعًا لأنه يجمع ثَمّ المغرب والعشاء ؛ قاله قتادة . وقيل : لآجتماع آدم فيه مع حوّاء ، وآزدلف إليها ، أى دنا منها ، وبه سُمّيت المزدلفة . ويجوز أن يقال : سُمّيت بفعل أهلها ؛ لأنهم يزدلفون إلى الله ، أى يتقرّبون بالوقوف فيها . وسُمّى مَشْعَرًا من الشّعار وهو العلامة ؛ لأنه معلم للحج والصلاة والمبيت به ، والدعاء عنده من شعائر الحج . ووصف بالحرام لحُرْمته .

الثانيـة عشرة — ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى المغرب والعشاء بالمزدلفة جميعًا . وأجمع أهل العلم — لا آختلاف بينهم — أن السُّنة أن يَجْمع الحاج بجَمْع بين المغرب والعشاء . وآختلفوا فيمن صَلّاهما قبل أن يأتى جَمْعًا ؛ فقال مالك : مَن وقف مع الإمام ودَفع بدفعه فلا يصلّ حتى يأتى المزدلفة فيجمع بينهما ؛ وآستدل على ذلك بقوله صـلى الله عليه وسلم لأسامة بن زيد : "الصلاة أمامك" . قال آبن حبيب : من صلّى قبل أن يأتى المزدلفة دون

عذر يعيد متى ما علم، بمنزلة من قد صلى قبل الزوال؛ لقوله عليه السلام: "الصلاة أمامك". وبه قال أبو حنيفة . وقال أشهب : لا إعادة عليه، إلا أن يصليهما قبل مغيب الشفق فيعيد العشاء وحدها ؛ وبه قال الشافعى، وهو الذى نصره القاضى أبو الحسن ، وآحتج له بأن هاتين صلاتان سُنّ الجمع بينهما ، فلم يكن ذلك شرطًا فى صحتهما، وإنما كان على معنى الاستحباب ، كالجمع بين الظهر والعصر بعرفة . وآختار ابن المنذر هذا القول ، وحكاه عن عطاء بن أبى رباح وعروة بن الزبير والقاسم بن محمد وسعيد بن جبير وأحمد وإسحاق وأبى ثور ويعقوب . وحكى عن الشافعى أنه قال : لا يصلى حتى يأتى المزدلفة، فإن أدركه نصف الليل قبل أن يأتى المزدلفة صلاهما .

الثالثة عشرة — ومن أسرع فأتى المزدلفة قبل مغيب الشفق فقد قال آبن حبيب : لا صلاة لمن عجل إلى المزدلفة قبل مغيب الشفق؛ [لا الإمام ولا غيره حتى يغيب الشفق][(1)]؛ لقوله عليه السلام : "الصلاة أمامك" ثم صلاها بالمزدلفة بعد مغيب الشفق . [ومن جهة المعنى أن وقت هذه الصلاة بعد مغيب الشفق] ؛ فلا يجوز أن يؤتى بها قبله ، ولو كان لها وقت قبل مغيب الشفق لما أُخرت عنه .

الرابعة عشرة — وأما من أتى عرفة بعد دفع الإمام ، أو كان له عذر ممن وقف مع الإمام فقد قال آبن المواز : من وقف بعد الإمام فليصل كل صلاة لوقتها . وقال مالك فيمن كان له عذر يمنعه أن يكون مع الإمام : إنه يصلى إذا غاب الشفق الصلاتين يجمع بينهما . وقال ابن القاسم فيمن وقف بعد الإمام : إن رجا أن يأتى المزدلفة ثلث الليل فليؤخر الصلاة حتى يأتى المزدلفة ، وإلا صلى كل صلاة لوقتها . فجعل آبنُ المواز تأخير الصلاة إلى المزدلفة لمن وقف مع الإمام دون غيره، وراعى مالك الوقت دون المكان، وآعتبر آبن القاسم الوقت المختار للصلاة والمكان، فإذا خاف فوات الوقت المختار بطل آعتبار المكان ، وكان مراعاة وقتها المختار أولى .

---

(١) ما بين المربعين ساقط من ج .

Marfat.com

الخامسة عشرة — آختلف العلماء فى هيئة الصلاة بالمزدلفة على وجهين : أحدهما — الأذان والإقامة . والآخر — هل يكون جمعهما متصلًا لا يفصـل بينهما بعمل ، أو يجوز العمل بينهما وحطّ الرّحال ونحو ذلك ؛ فأما الأذان والإقامة فثبت أن رسـول الله صلى الله عليه وسـلم صلى المغرب والعشاء بالمزدلفة بأذان واحد و إقامتين . أخرجه الصحيح من حديث جابر الطويل ، وبه قال أحمـد بن حنبل وأبو ثور وآبن المنـذر . وقال مالك : يصليهما بأذانين و إقامتين ، وكذلك الظهر والعصر بعرفة ؛ إلا أن ذلك فى أوّل وقت الظهر بإجماع . قال أبو عمر : لا أعلم فيما قاله مالك حديثا مرفوعا إلى النبيّ صلى الله عليه وسـلم بوجه من الوجوه ، ولكنه روى عن عمر بن الخطاب ، وزاد آبنُ المنذر آبنَ مسعود . ومن الحجة لمـالك فى هذا الباب من جهة النظر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سنّ فى الصلاتين بمزدلفة وعرفة أن الوقت لهما جميعا وقت واحد ، و إذا كان وقتهما واحدا وكانت كل صلاة تصلّى فى وقتها لم تكن واحدة منهما أوْلى بالأذان والإقامة من الأخرى ؛ لأن ليس واحدة منهما تقضى ، و إنما هى صلاة تصلّى فى وقتها ، وكلّ صلاة صُلّيت فى وقتها سُنّتها أن يؤذّن لها وتقام فى الجماعة ، وهـذا بيّن ؛ والله أعلم . وقال آخرون : أما الأولى منهما فتُصـلَّى بأذان و إقامة ، وأما الثانية فتصلى بلا أذان ولا إقامة . قالوا : و إنما أمر عمر بالتأذين الثانى لأن الناس قد تفرّقوا لعشائهم فأذّن ليجمعهم . قالوا : وكذلك نقول إذا تفرّق الناس عن الإمام لعشاء أو غيره ، أمر المؤذّنين فأذّنوا ليجمعهم ، و إذا أذّن أقام . قالوا : فهذا معنى ما روى عن عمر ، وذكروا حديث عبـد الرحمن بن يزيد قال : كان آبن مسعود يجعل العشاء بالمزدلفـة بين الصلاتين ، وفى طريق أخرى وصلّى كل صلاة بأذان و إقامة ؛ ذكره عبد الرزاق . وقال آخرون : تُصلَّى الصلاتان جميعا بالمزدلفة بإقامة ولا أذان فى شىء منهما ؛ روى عن آبن عمر وبه قال الثورى . وذكر عبد الرزاق وعبد الملك بن الصباح عن الثورىّ عن سلمة بن كُهَيل عن سعيد بن جبير عن آبن عمر قال : جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المغرب والعشاء بجَمْع ، صلى المغرب ثلاثا والعشاء ركعتين بإقامة واحدة . وقال آخرون : تُصلّى الصلاتان جميعا بين

Marfat.com

المغرب والعشاء بجمع بأذان واحد و إقامة واحدة . وذهبوا فى ذلك إلى مارواه هُشيم عن يونس ابن عبيد عن سعيد بن جبير عن ابن عمر أنه جمع بين المغرب والعشاء بجمع بأذان واحد و إقامة واحدة ؛ لم يجعل بينهما شيئا . وروى مثل هذا مرفوعا من حديث خزيمة بن ثابت ، وليس بالقوى . وحكى الجُوزْجانى[1] عن محمد بن الحسن عن أبى يوسف عن أبى حنيفة أنهما تُصلّيان بأذان واحد و إقامتين، يؤذن للمغرب ويقام للعشاء فقط . و إلى هذا ذهب الطحاوى لحديث جابر ، وهو القول الأوّل وعليـه المعوّل . وقال آخرون : تصلّى بإقامتين دون أذان لواحدة منهما . وممن قال ذلك الشافعى وأصحابه و إسحاق وأحمد بن حنبل فى أحد قوليه ، وهو قول سالم بن عبد الله والقاسم بن محمد؛ واحتجوا بمـا ذكره عبد الرزاق عن معمر عن ابن شهاب عن سالم عن ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم لمـا جاء المزدلفة جمع بين المغرب والعشاء، صلّى المغرب ثلاثا والعشـاء ركعتين بإقامة لكل واحدة منهما ولم يصـل بينهما شيئا . قال أبو عمر : والآثار عن ابن عمر فى هـذا القول من أثبت ماروى عنه فى هذا الباب، ولكنها محتملة للتأويل، وحديث جابر لم يُختلف فيه، فهو أولى ؛ ولا مدخل فى هذه المسألة للنظر، و إنمـا فيها الاتباع .

السادسة عشرة — وأما الفصل بين الصلاتين بعمل غير الصلاة فثبت عن أسامة بن زيد أن النبى صلى الله عليه وسلم لمـا جاء المزدلفة نزل فتوضأ فأسبغ الوضوء، ثم أقيمت الصـلاة فصلى المغرب ، ثم أناخ كل إنسان بعيره فى منزله ، ثم أقيمت الصـلاة فصلاها ، ولم يصل بينهما شيئا . فى رواية : ولم يَحُلُّوا[2] حتى أقام العشاء الآخرة فصلى ثم حلّوا . وقد ذكرنا آنفًا عن ابن مسعود أنه كان يجعل العشاء بين الصلاتين؛ ففى هذا جواز الفصل بين الصلاتين بجمع . وقد سئل مالك فيمن أتى المزدلفة : أيبدأ بالصلاة أو يؤخر حتى يحطّ عن راحلته ؟ فقال :

(١) الجوزجانى (بجيم وواو وزاى معجمة ثم جيم أخرى) : هذه النسبة إلى مدينة بخراسان ممـا يلى بلخ ؛ وهو أبو سليمان موسى بن سليمان؛ صاحب الإمام محمد بن الحسن بن فرقد، أخذ الفقه عنه وروى كتبه .

(٢) قوله : ولم يحلوا . هو من الحـل بمعنى الفك ، أو من الحلول بمعنى النزول ؛ أى لم يفكوا ما على الجمال، أو ما نزلوا تمـام النزول الذى يريده المسافر البالغ منزله .

Marfat.com

أما الرحل الخفيف فلا بأس أن يبدأ به قبل الصلاة، وأما المحامل والزوامل فلا أرى ذلك(١)، وليبدأ بالصلاتين ثم يحطّ عن راحلته . وقال أشهب فى كتبه : له حطّ رَحْله قبل الصلاة، وحطّه له بعد أن يصلى المغرب أحبّ إلىّ ما لم يضطر إلى ذلك ؛ لمَـا بدابّته من الثقل، أو لغير ذلك من العذر . وأما التنفل بين الصلاتين فقال ٱبن المنذر : ولا أعلمهـم يختلفون أن من السُّنة ألا يتطوّع بينهما الجامع بين الصلاتين ، وفى حديث أسامة : ولم يُصَلّ بينهما شيئا .

السابعة عشرة — وأما المبيت بالمزدلفة فليس رُكْنًا فى الحج عنـد الجمهور . وٱختلفوا فيما يجب على من لم يبِتْ بالمزدلفة ليلة النحر ولم يقف بجَمْع ؛ فقال مالك : مَن لم يبت بها فعليه دم، ومن قام بها أكثر ليـله فلا شىء عليه؛ لأن المبيت بها ليلة النحر سُـنّة مؤكدة عند مالك وأصحابه، لا فرض؛ ونحوه قول عطاء والزهرىّ وقتادة وسفيان الثورى وأحمد و إسحاق وأبى ثور وأصحاب الرأى فيمن لم يبِت. وقال الشافعىّ : إن خرج منها بعد نصف الليل فلا شىء عليه، و إن خرج قبل نصف الليل فلم يعـد إلى المزدلفة ٱفتدى، والفِدية شاة . وقال عكرمة والشعبىّ والنخعىّ والحسن البصرى : الوقوف بالمزدلفة فرض، ومن فاته جَمْع ولم يقف فقد فاته الحجّ ، ويجعل إحرامـه عُمرة . وروى ذلك عن ٱبنَ الزبير وهو قول الأوزاعىّ . وروى عن الثورى مثـل ذلك ، والأصح عنـه أن الوقوف بها سُـنة مؤكدة . وقال حماد ٱبن أبى سليمان : من فاتته الإفاضة من جَمْع فقـد فاته الحج ؛ وليتحلّل بعمرة ثم ليحج قابلًا . وٱحتجوا بظاهر الكتاب والسُّنة؛ فأما الكتاب فقول الله تعالى : « فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَٱذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ »، وأما السنة فقوله صلى الله عليه وسلم : "مَن أدرك جَمْعًا فوقف مع الناس حتى يُفيض فقد أدرك ومَن لم يُدرك ذلك فلا حجّ له" . ذكره ٱبن المنذر. وروى الدّارَقُطْنِىّ عن عُرْوة بن مُضَرِّس : قال أتيت النبىّ صلى الله عليه وسلم وهـو بجَمْـع فقلت له : يا رسول الله، هل لى من حجّ ؟ فقال : "مَن صلّى معنا هذه الصلاة ثم وقف معنا حتى نُفيض وقد أفاض قبل ذلك [من عرفات](٢) ليلًا أو نهارًا فقد تمّ حجه وقضى تَفَثه" .

---

(١) عبارة الأصل . « فلا أدرى ، وليبدأ ... الخ » والتصويب عن كتاب « المنتقى » للباجى .

(٢) الزيادة عن الدارقطنى .

Marfat.com

قال الشعبى : من لم يقف بجَمْع جعلها عُمرة . وأجاب مَن احتج للجمهور بأن قال: أما الآية فلا حُجة فيها على الوجوب فى الوقوف ولا المبيت، إذ ليس ذلك مذكورا فيها،و إنما فيها مجرد الذكر.وكلٌّ قد أجمع أنه لو وقف بمزدلفة ولم يذكر الله أن حجّه تام، فإذا لم يكن الذكر المأمور به من صُلب الحج فشهود الموطن أولى بألا يكون كذلك. قال أبو عمر: وكذلك أجمعوا أن الشمس إذا طلعت يوم النحر فقد فات وقت الوقوف بجَمْع ، وأن من أدرك الوقوف بها قبل طلوع الشمس فقـد أدرك ، ممن يقول إن ذلك فرض ، ومن يقول إن ذلك سُـنّة . وأما حديث عروة بن مُضَرِّس فقد جاء فى بعض طرقه بيان الوقوف بعرفة دون المبيت بالمزدلفة ، ومثله حديث عبد الرحمن بن يَعْمَر الدِّيلى قال : شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم بعرفة ، وأتاه ناس من أهل نجـد فسألوه عن الحج؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : "الحج عرفة من أدركها قبل أن يطلع الفجر من ليلة جَمْع فقد تمّ حجه" . رواه النسائى قال : أخبرنا إسحاق ابن إبراهيم قال حدّثنا وكيع قال حدّثنا سفيان — يعنى الثورى — عن بكير بن عطاء عن عبد الرحمن ابن يعمر الدِّيلى قال: شهدت...؛ فذكره. ورواه ابن عُيينة عن بكير عن عبد الرحمن بن يعمر الدِّيلى قال : شهدت رسـول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "الحج عرفات فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك وأيامُ مِنًى ثلاثة فمن تعجّل فى يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه" . وقوله فى حديث عروة : "مَن صلّى صلاتنا هذه" . فذكر الصلاة بالمزدلفة؛ فقد أجمع العلماء أنه لو بات بها ووقف ونام عن الصـلاة فلم يصل مع الإمام حتى فاتته أن حجه تام . فلمـا كان حضور الصـلاة مع الإمام ليس من صلب الحج كان الوقوف بالموطن الذى تكون فيه الصلاة أحرى أن يكون كذلك. قالوا: فلم يتحقق بهذا الحديث ذلك الفرض إلا بعرفة خاصة .

الثامنة عشرة(١) — قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ ﴾ كرر الأمر تأكيدًا؛ كما تقول : ٱرْمِ ٱرْمِ . وقيـل : الأوّل أمرٌ بالذكر عند المَشْـعَر الحرام . والثـانى أمرٌ بالذكر على حكم الإخلاص. وقيل : المراد بالثانى تعديد النعمة وأمرٌ بشكرها؛ ثم ذكّرهم بحال ضلالهم ليظهر

(٢) يلاحظ أن الأصول اضطربت فى عدد هذه المسائل .

قدر الإنعام فقال : « وَ إِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ » . والكاف فى « كما » نعتٌ لمصدر محذوف، و«ما» مصدرية أو كافة . والمعنى : آذكروه ذكرًا حسنًا كما هداكم هدايةً حسنة، وآذكروه كما علّمكم كيف تذكرونه لا تعدلوا عنه . و «إنْ» مخفّفة من الثقيلة، يدلّ على ذلك دخول اللام فى الخبر؛ قاله سيبويه . الفراء : نافية بمعنى ما ، واللام بمعنى إلا؛ كما قال :

ثـكلتك أمُّك إنْ قَتلتَ لمسلمًا * حلّت عليك عقوبة الرحمن (١)

أو بمعنى قد؛ أى قد كنتم؛ ثلاثة أقوال . والضمير فى « قبله » عائد إلى الهدى . وقيل إلى القرآن ؛ أى ما كنتم من قبــل إنزاله إلا ضالين . و إن شئت على النبيّ صلى الله عليه وسلم، كناية عن غير مذكور؛ والأول أظهر والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ﴾ قيل : الخطاب للحُمْس؛ فإنهم كانوا لا يقفون مع الناس بعرفات، بل كانوا يقفون بالمزدلفة وهى من الحَـرَم، وكانوا يقولون: نحن قَطِين الله (٢)، فينبغى لنا أن نعظّم الحرم، ولا نعظّم شيئاً من الحِل، وكانوا مع معرفتهم و إقرارهم أن عرفة موقف إبراهيم عليه السلام لايخرجون من الحرم، و يقفون بجَمْع و يُفيضون منه و يقف الناس بعرفة؛ فقيل لهم : أفيضوا مع الجملة. و «ثم» ليست فى هذه الآية للترتيب و إنما هى لعطف جملة كلام هى منها منقطعة . وقال الضحاك : المخاطَب بالآية جملة الأمة، والمراد بـ « الناس» إبراهيم عليه السلام؛ كما قال: « الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ (٣)» وهو يريد واحدا. ويحتمل على هذا أن يؤمروا بالإفاضة من عرفة ، ويحتمل أن تكون إفاضة أخرى ، وهى التى من المزدلفة ؛ فتجىء « ثم » على هـذا الآحتمال على بابها ؛ وعلى هـذا الآحتمال عوّل

---

(١) البيت لعاتكة بنت زيد . والرواية فيه : ... عقوبة المتعمد . راجع الكلام عليه فى الشاهد ٨٦٨ .

(٢) قطين الله : أى سكان حرمه ؛ والقطين جمع قاطن كالقطان .   (٣) راجع جـ ٤ ص ٢٧٩

Marfat.com

الطبرى . والمعنى : أفيضوا من حيث أفاض إبراهيم من مزدلفة جَمْع ، أى ثم أفيضوا إلى مِنًى لأن الإفاضة من عرفات قبل الإفاضة من جَمْع .

قلت : ويكون فى هذا حجة لمن أوجب الوقوف بالمزدلفة؛ للأمر بالإفاضة منها ، والله أعلم . والصحيح فى تأويل هذه الآية من القولين القول الأول . روى الترمذى عن عائشة قالت : كانت قريش ومن كان على دينها وهم الحُمْس يقفون بالمزدلفة يقولون : نحن قَطِين الله، وكان من سواهم يقفون بعرفة ؛ فأنزل الله تعالى : «ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ». هذا حديث حسن صحيح . وفى صحيح مسلم عن عائشة قالت : الحُمْس هم الذين أنزل الله فيهم: « ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ » قالت : كان النـاس يُفيضون من عرفات، وكان الحُمْس يُفيضون من المزدلفة، يقولون : لانُفيض إلا من الحَرَم؛ فلما نزلت : «أفيضوا من من حيث أفاض الناس» رجعوا إلى عرفات . وهـذا نصٌّ صريح ، ومثـله كثير صحيح ، فلا معوّل على غيره من الأقوال . والله المستعان . وقرأ سعيد بن جبير «الناسى» وتأويله آدم عليه السلام ؛ لقوله تعالى : « فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا » (١) . ويجوز عند بعضهم تخفيف الياء فيقول الناسِ ؛ كالقاضِ والهـادِ . آبن عطية : أما جـوازه فى العربيـة فذكره سيبويه، وأما جوازه مقروءا به فلا أحفظه . وأمر تعالى بالآستغفار لأنها مواطنه ، ومظَانّ القبول ومساقط الرحمة . وقالت فرقة: المعنى وآستغفروا الله من فعلكم الذى كان مخالفًا لسُنّة إبراهيم فى وقوفكم بقُزَح من المزدلفة دون عرفة .

الثانيـــة — روى أبو داود عن علىّ قال : فلما أصبح — يعنى النبىّ صلى الله عليه وسلم — وقف على قُزَح فقال : "هذا قُزَح وهو الموقف وجَمْع كلّها موقف ونَحَرْتُ هاهنا ومِنًى كلها مَنْحَر فآنحروا فى رحالكم". فحكم الحَجِيج إذا دفعوا من عرفة إلى المزدلفة ان يبيتوا بها ثم يُغَلِّس (٢) بالصبح الإمامُ بالناس ويقفون بالمشعر الحرام . وقُزَح هو الجبـل الذى يقف عليه الإمام، ولا يزالون يذكرون الله ويدعون إلى قرب طلوع الشمس ، ثم يدفعون قبل الطلوع ؛ على مخالفة العرب؛ فإنهم كانوا يدفعون بعد الطلوع ويقولون : أشْرِقْ ثَبِير ، كيما نُغِير؛ أى كيما نقرب

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٥١ (٢) الغلس (محركة) : ظلمة آخر الليل .

Marfat.com

من التحلّل فنتوصّل إلى الإغارة . وروى البخارى(١) عن عمرو بن ميمون قال : شهدت عمــر صلّى بجَمْع الصبحَ ثم وقف فقال : إن المشركين كانوا لا يفيضون حتى تطلع الشمس و يقولون : أشرِق ثَبِير(٢) ، وأن النبيّ صــلى الله عليــه وسلم خالفهم فدفع قبل أن تطلع الشمس . وروى ابن عُيينة عن ابن جُريج عن محمد بن قيس بن مَخْرَمة عن ابن طاوس عن أبيه أن أهل الجاهلية كانوا يدفعون من عرفة قبل غروب الشمس ، وكانوا يدفعون من المزدلفة بعد طلوع الشمس ؛ فأخّر رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا وعجّل هذا ، أخّر الدفع من عرفة ، وعجّل الدفع من المزدلفة مخالفًا هَدْى المشركين .

الثالثـــة ــ فإذا دَفعوا قبل الطلوع فحكْمهم أن يدفعوا على هيئة الدّفع من عرفة ، وهو أنْ يسير الإمام بالناس سير العَنق ، فاذا وَجد أحدهم فُرجة زاد فى العَنق شيئًا . والعَنَق : مَشْىٌ للدواب معروف لا يُجهل . والنَّص : فوق العَنَق ؛ كالخَبَب أو فوق ذلك . وفى صحيح مسلم عن أسامة بن زيد رضى الله عنهما وسُئل : كيف كان يسير رسول الله صلى الله عليه وســلم حين أفاض من عرفة ؟ قال : كان يسير العَنَق ، فإذا وجد فَجْوَةً(٣) نَصَّ . قال هشام : والنَّص فوق العَنق ؛ وقد تقدم . ويُستحب له أن يحرّك فى بطن مُحَسِّر قدر رَمْيَةٍ بحجر ، فإن لم يفعل فلا حَرج ، وهو من مِنًى . وروى الثورى(٤) وغيره عن أبى الزبير عن جابر قال : دفع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه السَّكينة وقال لهم : "أَوْضِعوا فى وادى مُحَسِّر" ، وقال لهم : " خذوا عنّى مناسككم " . فإذا أتوْا مِنًى وذلك غُدوة يوم النحر ، رمَوْا جمرة العقبة بها ضُحًى رُكبانًا إن قدروا ، ولا يستحب الركوب فى غيرها من الجمار ، و يرمونها بسبع حَصَيات ، كلّ حصاة منها مثل حَصَى الخَذْف(٥) ــ على ما يأتى بيانه ــ فاذا رموها حل لهم كل ماحَرُم عليهم من اللباس

(١) فى ب ، ج : « النحاس » وهو خطأ .
(٢) ثبير (بفتح المثلثة وكسر الموحدة وسكون التحتية) : جبل عظيم بالمزدلفة على يسار الذاهب منا إلى منى . هذا هو المراد ، وللعرب جبال أخر اسم كل منها ثبير . (عن زهر الربى للسيوطى) .
(٣) هشام هو أحد رواة سند هذا الحديث .
(٤) فى ج : « الترمذى » .
(٥) الخذف (بالخاء المعجمة المفتوحة والذال المعجمة الساكنة) : رميك حصاة أو نواة تأخذها بين الإبهام والسبابة وترمى بها . والمراد الحصا الصغار .

Marfat.com

والتَّفَث كله، إلا النساء والطِّيب والصيد عند مالك و إسحاق فى رواية أبى داود الخفّاف عنه . وقال عمر بن الخطاب وآبن عمر : يَحلّ له كل شىء إلا النساء والطِّيب . ومن تطيّب عند مالك بعد الرّمى وقبل الإفاضة لم ير عليه فِدْية؛ لِما جاء فى ذلك . ومن صاد عنده بعد أن رمى جمرة العقبة وقبل أن يفيض كان عليه الجزاء . وقال الشافعى وأحمد و إسحاق وأبو ثور: يحل له كل شىء إلا النساء ؛ وروى عن آبن عباس .

الرابعــة — ويقطع الحاجّ التّلْبِيَة بأوّل حصاة يرميها من جمرة العقبة ؛ وعلى هذا أكثر أهل العلم بالمدينة وغيرها، وهو جائز مباح عند مالك . والمشهور عنه قطعها عند زوال الشمس من يوم عرفة ، على ما ذكر فى موطّئه عن علىّ ، وقال : هو الأمر عندنا .

قلت : والأصل فى هذه الجملة من السُّنة ما رواه مسلم عن الفضل بن عباس ، وكان رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال فى عشيّة عرفةَ وغداةِ جَمْع (١) للناس حين دَفعوا : " عليكم بالسكينة " وهو كافٌّ (٢) ناقته حتى دخل مُحَسِّرًا (وهو مِن مِنًى) قال : " عليكم بحصى الخَذْف الذى يُرْمَى به الجمرة " ، وقال : لم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يُلَبِّى حتى رمى جمرة العقبة . فى رواية : والنبىّ صلى الله عليه وسلم يشير بيده كما يَخْذِف الإنسان . وفى البخارى عن عبد الله أنه آنتهى إلى الجمرة الكبرى جعل البيت عن يساره ومِنًى عن يمينه، ورمى بسبع وقال : هكذا رمى الذى أنزلت عليه سورة البقرة صلى الله عليه وسلم . وروى الدارقطنى عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إذا رميتم وحلقتم وذبحتم فقد حلّ لكم كل شىء إلا النساء وحلّ لكم الثياب والطِّيب " . وفى البخارى عن عائشة قالت : طيّبت رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدىّ هاتين ، حين أحرم، ولحلّه حين أحلّ قبل أن يطوف؛ وبسطتْ يديها . وهذا هو التحلل الأصغر عند العلماء . والتحلّل الأكبر: طواف الإفاضة، وهو الذى يحلّ النساء وجميع محظورات الإحرام، وسيأتى ذكره فى سورة «الحج» (٣) إن الله تعالى .

(١) أى صباح المزدلفة . (٢) من الكف بمعنى الإسراع . (٣) راجع جـ ١٢ ص ٥١

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَـٰسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ﴾ (٢٠٠)

فيه مسألتان :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ ﴾ قال مجاهد : المناسك الذبائح وهراقة الدماء . وقيــل : هى شعائر الحج ؛ لقوله عليه السلام : " خذوا عنى مناسككم " . المعنى : فإذا فعلتم منسكًا من مناسك الحج فآذكروا الله وأثنوا عليــه بآلائه عندكم . وأبو عمرو يُدغم الكاف فى الكاف، وكذلك « ما سلككم » ، لأنهما مثـلان . و « قضيتم » هنا بمعنى أدّيتم وفرغتم ، قال الله تعالى : « فإذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ »(١) أى أدّيتم الجمعة . وقد يعبّر بالقضاء عمـا فعل من العبادات خارج وقتها المحدود لها .

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ ﴾ كانت عادة العرب إذا قضت حجّها تقف عند الجمرة ، فتفاخر بالآباء ، وتذكر أيام أسلافها من بسالة وكرم ، وغير ذلك ؛ حتى أن الواحد منهم ليقول : اللّهُمّ إن أبِى كان عَظيمَ القُبّة ، عظيمَ الجَفْنَة(٢) ، كثير المـال ، فأعطنى مثل ما أعطيته ؛ فلا يذكر غير أبيه ؛ فنزلت الآية ليلزموا أنفسهم ذكر الله أكثر من التزامهم ذكر آبائهم أيام الجاهلية . هــذا قول جمهور المفسرين . وقال ٱبن عباس وعطاء والضحاك والربيع : معنى الآية وٱذكروا الله كذكر الأطفال آباءهم وأمهاتهم : أَبَهْ أُمّه ؛ أى فٱستغيثوا به وٱلجئوا إليه كما كنتم تفعلون فى حال صغركم بآبائكم . وقالت طائفة : معنى الآية ٱذكروا الله وعظموه وذُبّوا عن حُرَمه ، وٱدفعوا من أراد الشرك فى دينه ومشاعره ؛ كما تذكرون آباءكم بالخير إذا غَضّ أحد منهم ، وتحمون جوانبهم وتَذُبّون عنهم . وقال أبو الجوزاء لٱبن عبـاس : إن الرجل اليوم لا يذكر أباه ، فما معنى الآية ؟ قال : ليس كذلك ، ولكن أن تغضب لله تعالى

(١) راجع جـ ١٨ ص ١٠٨ (٢) الجفنة : أعظم ما يكون من القصاع .

Marfat.com

إذا عُصِىَ أشــدّ من غضبك لوالديك إذا شُتِمَا . والكاف من قوله « كذكركم » فى موضع نصب، أى ذكرًا كذكركم . ﴿أَوْ أَشَدَّ﴾ قال الزجاج : « أو أشد » فى موضع خفض عطفًا على ذكركم ، المعنَى : أو كأشدّ ذكرًا، ولم ينصرف لأنه « أفعل » صفة، ويجوز أن يكون فى موضع نصب بمعنى أو اذكروه أشدّ . و « ذِكْرًا » نصب على البيان .

قوله تعالى : ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا﴾ « مِن » فى موضع رفع بالابتداء، وإن شئت بالصفة. « يقول ربنا آتنا فى الدنيا » صلة « من » ، والمراد المشركون . قال أبو وائل والسدّى وابن زيد : كانت العرب فى الجاهلية تدعوا فى مصالح الدنيا فقط ، فكانوا يسألون الإبل والغنم والظفر بالعدوّ ، ولا يطلبون الآخرة، إذ كانوا لا يعرفونها ولا يؤمنون بها ، فنُهوا عن ذلك الدعاء المخصوص بأمر الدنيا، وجاء النهى فى صيغة الخبر عنهم . ويجوز أن يتناول هذا الوعيدُ المؤمنَ أيضا إذا قصَر دعواته فى الدنيا؛ وعلى هذا فـ « ما له فى الآخرة من خلاق » أى كخلاق الذى يسأل الآخرة . والخلاق النصيب . و « من » زائدة وقد تقدّم .

قوله تعالى : وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أى من الناس ، وهم المسلمون يطلبون خير الدنيا والآخرة . واختلف فى تأويل الحَسَنَتَين على أقوال عديدة ؛ فرُوِىَ عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أن الحسنة فى الدنيا المرأة الحسناء، وفى الآخرة الحُور العين. « وقنا عذاب النار » : المرأة السوء.

قلت : وهذا فيه بُعْد ، ولا يصح عن علىّ ، لأن النـار حقيقة فى النار المحرقة ، وعبارة المرأة عن النـار تجوّز . وقال قتادة : حســنة الدنيا العافية فى الصحة وكفاف المـال . وقال الحسن : حسنة الدنيا العلم والعبادة . وقيل غير هذا . والذى عليه أكثر أهل العلم أن المراد بالحَسَنَتَين نِعَم الدنيا والآخرة . وهذا هو الصحيح؛ فإن اللفظ يقتضى هذا كله، فإن « حسنة »

Marfat.com

نكرة فى سياق الدعاء، فهو محتمل لكل حسنة من الحسنات على البدل. وحسنة الآخرة : الجنة بإجماع . وقيل : لم يرد حسنة واحدة، بل أراد: أعطنا فى الدنيا عطية حسنة؛ فحذف الاسم.

الثانيـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ أصل « قِنَا » أَوْقِنا ، حُذفت الواو كما حُذفت فى يَقِى ويَشِى ، لأنها بين ياء وكسرة ، مثل يَعِد ؛ هذا قول البصريين . وقال الكوفيون : حُذفت فَرقًا بين اللازم والمتعدّى . قال محمد بن يزيد : هذا خطأ؛ لأن العرب تقول : وَرِم يَرِم ؛ فيحذفون الواو . والمراد بالآية الدعاء فى ألا يكون المرء ممن يدخلها بمعاصيه وتخرجه الشـفاعة . ويحتمل أن يكون دعاء مؤكدا لطلب دخول الجنـة ؛ لتكون الرغبـة فى معنى النجاة والفوز من الطرفين ؛ كما قال أحد الصحابة للنبيّ صلى الله عليه وسلم : أنا إنما أقول فى دعائى : اللّهمّ أدخلنى الجنة وعافنى من النار، ولا أدرى ما دَنْدَنتك(١) ولا دَندنة معاذ . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "حَوْلهـا(٢) نُدَندن" خرّجه أبو داود فى سُننه وابن ماجه أيضا .

الثالثـــة ــ هذه الآية من جوامع الدعاء التى عمّت الدنيا والآخرة . قيل لأنس : أُدع الله لنـا؛ فقال : اللّهُـمّ آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النـار . قالوا : زدنا . قال : ما تريدون ! قد سألت الدنيا والآخرة ! . وفى الصحيحين عن أنس قال : كان أكثر دعوة يدعو بها النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : "اللّهُمّ آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار" . قال : فكان أنس إذا أراد أن يدعو بدعوة دعا بهـا، فإذا أراد أن يدعو بدعاء دعا بها فيه . وفى حديث عمر أنه كان يطـوف بالبيت وهو يقول : ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . ماله هِجِّيرى(٣) غيرَها؛ ذكره أبو عبيد. وقال ابن جريج : بلغنى أنه كان يأمر أن يكون أكثر دعاء المسلم فى الموقف هذه الآية : ربنا آتنا

(١) الدندنة : أن يتكلم الرجل الكلام تسمع نغمته ولا يفهم؛ وهو أرفع من الهينمة قليلا .

(٢) فى حاشية السندى على سنن ابن ماجه : «وفى بعض النسخ حولها بالتثنية؛ فعلى الأوّل معناه حول مقالتك، أى كلامنا قريب من كلامك . وعلى الثانى معناه حول الجنة والنار؛ أى كلامنا أيضا لطلب الجنة والتعوّذ من النار» .

(٣) الهجير والهجيرى : الدأب والعادة والديدن .

Marfat.com

فى الدنيا حسنةً وفى الآخرة حسنةً وقنا عذاب النـار » . وقال ٱبن عباس : إن عند الرُّكْن مَلَكًا قائمًا منذ خلق الله السموات والأرض يقول آمين، فقولوا : " رَبَّنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار". وسئل عطاء بن أبى رَبَاح عن الركن اليمانى وهو يطوف بالبيت، فقال عطاء : حدّثنى أبو هريرة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: " وُكّل به سبعون مَلَكًا فمن قال اللّهُمّ إنى أسألك العفو والعافية فى الدنيا والآخرة ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النـار قالوا آمين " الحـديث . خرّجه ٱبن ماجه فى السُّنن ، وسيأتى بكماله مسنَدًا فى « الحج » إن شاء الله .

قوله تعـالى : أُولَـٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿أُولَـٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ هذا يرجع إلى الفريق الثانى ، فريق الإسلام؛ أى لهم ثواب الحج أو ثواب الدعاء ، فإن دعاء المؤمن عبادة . وقيل : يرجع «أولئك» إلى الفريقين؛ فللمؤمن ثواب عمله ودعائه ، وللكافر عقاب شركه وقصر نظره على الدنيا ؛ وهو مثل قوله تعالى : « وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا »(١) .

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ مِن سَرُع يَسْرُع — مثـلُ عَظُم يَعْظُم — سِرَعًا وسُرْعة؛ فهو سريع . « الحساب » : مصدر كالمحاسبة؛ وقد يُسَمَّى المحسوب حسابا . والحساب العدّ ؛ يقال: حَسَب يحسُب حِسابًا وحِسابةً وحُسبانًا وحِسبانًا وحَسْبًا؛ أى عدّ . وأنشد ٱبن الأعرابى :

يا جُمْلُ أسقاكِ بلا حِسابَهْ(٢) * سُـقْيَا مَلِيـكٍ حَسَنِ الرِّبَابَهْ(٣)

* قَتَلْتِـنِى بالدَّلِّ والخِـلَابَهْ *

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٨٧ (٢) هكذا أورده الجوهرى فى الصحاح، وهى رواية الأصول . وفى اللسان : « وصواب إنشاده : يا جمل أسقيت » أى أسقيت بلا حساب ولا هنداز . (٣) فى الأصول : « الرياسة » والتصويب عن الصحاح واللسان . والربابة (بالكسر) : القيام على الشىء بإصلاحه وتربيته . والخلابة (بالكسر) : أن تخلب المرأة قلب الرجل بألطف القول وأعذبه .

Marfat.com

والحَسَب : ما عُدّ من مفاخر المرء . ويقال : حَسَبُه دِينُه . ويقال : مالُه ؛ ومنه الحديث : "الحَسبُ المالُ والكرمُ التقوى" رواه سَمُرة بن جُنْدب ، أخرجه ابن ماجه . وهو فى الشهاب أيضا . والرجل حسيب ، وقد حَسُبَ حَسابة (بالضم) ؛ مثل خَطُب خَطابة . والمعنى فى الآية : أن الله سبحانه سريع الحساب ، لا يحتاج إلى عدّ ولا إلى عقـد ولا إلى إعمال فكر كما يفعله الحسّاب ؛ ولهذا قال وقوله الحق : «وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ» ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اللّهمّ منزّل الكتاب سريع الحساب" الحـديث . فالله جل وعز عالم بمـا للعباد وعليهـم فلا يحتاج إلى تذكر وتأمل ، إذ قـد علم ما للمحاسب وعليه ، لأن الفائدة فى الحساب علم حقيقته . وقيـل : سريع المجازاة للعباد بأعمالهم . وقيل : المعنى لا يشـغله شأن عن شأن ، فيحاسبهم فى حالة واحدة ؛ كما قال وقوله الحق : «مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ»(١) . قال الحسن : حسابه أسرع من لمح البصر ؛ وفى الخبر "إن الله يحاسب فى قدر حلب شاة" . وقيـل : هو أنه إذا حاسب واحدا فقد حاسب جميـع الخلق . وقيـل لعليّ بن أبى طالب رضى الله عنه : كيف يحاسب الله العباد فى يوم ؟ قال : كما يرزقهم فى يوم ! . ومعنى الحساب : تعريف الله عباده مقادير الجزاء على أعمالهم ، وتذكيره إياهم بما قد نسوه ؛ بدليل قوله تعالى : «يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ»(٢) . وقيـل : معنى الآية سريع بمجىء يوم الحساب ؛ فالمقصد بالآية الإنذار بيوم القيامة .

قلت : والكل محتمل ، فيأخذ العبد لنفسه فى تخفيف الحساب عنه بالأعمال الصالحة ؛ وإنمـا يخف الحساب فى الآخرة على من حاسب نفسه فى الدنيا .

الثالثـــة — قال ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا ﴾ هو الرجل يأخذ مالًا يحـج به عن غيره ، فيكون له ثواب . وروى عنه فى هـذه الآية أن رجلا قال : يا رسول الله ، مات أبى ولم يحج ؛ أفأحج عنه ؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لو كان على أبيك دَين فقضيته أمَا كان ذلك يَجزى" . قال نعم . قال : "فدَين الله أحق أن يُقضَى" . قال : فهل لى من أجر ؟ فأنزل الله تعالى : « أُولَئِـكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّـا كَسَبُوا » يعنى مَن حجّ

(١) راجع جـ ١٤ ص ٧٨		(٢) راجع جـ ١٧ ص ٢٨٩

Marfat.com

مدينته العلم دار العلوم مجددية
نور آباد - فتح گڑھ - سيالكوٹ

عن مَيِّت كان الأجر بينه وبين الميّت . قال أبو عبد الله محمد بن خُوَيْزِ مَنْداد فى أحكامه: قول ابن عباس نحو قول مالك؛ لأن تحصيل مذهب مالك أن المحجوج عنه يحصل له ثواب النفقة، والحجة للحاج؛ فكأنه يكون له ثواب بدنه وأعماله، وللمحجوج عنه ثواب ماله و إنفاقه؛ ولهذا قلنا : لا يختلف فى هـذا حكم من حج عن نفسه حجة الإسلام أو لم يحج؛ لأن الأعمال التى تدخلها النيابة لا يختلف حكم المستناب فيها بين أن يكون قد أدّى عن نفسه أو لم يؤدّ، اعتبارًا بأعمال الدين والدنيا . ألا ترى أن الذى عليه زكاة أو كفارة أو غير ذلك يجوز أن يؤدّى عن غيره وإن لم يؤدّ عن نفسه، وكذلك من لم يراع مصالحه فى الدنيا يصح أن ينوب عن غيره فى مثلها فتتم لغيره وإن لم تتم لنفسه؛ ويزوّج غيره وإن لم يزوّج نفسه .

تمّ الجزء الثانى من تفسير القرطبى

يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الثالث،

وأوّله قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرُوا اللَّهَ فِى أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ ... ﴾ الآية .

بعون الله وجميل توفيقه قد تم طبع الجزء الثانى (الطبعة الثانية)
من كتاب "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبى بمطبعة دار الكتب المصرية
فى يوم الثلاثاء ٢٨ جمادى الأولى سنة ١٣٧٣ هـ (٢ فبراير سنة ١٩٥٤ م)

محمد خيرت الخضرى
مدير المطبعة بدار الكتب المصرية

(مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٢/٢٠ / ٢٠٠٠)

Marfat.com

Marfat.com